المجالس الوعظية

في

شرح أحاديث خير البرية صلى الله عليه وسلم

من صحيح الإمام البخاري

تأليف

الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد

السفيري الشافعي

المتوفى سنة ٩٥٦ هـ

حققه وخرج أحاديثه

أحمد فتحي عبد الرحمن

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

المجالس الوعظية

في

شرح أحاديث خير البرية صلى الله عليه وسلم

من صحيح الإمام البخاري

تأليف

الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد

السفيري الشافعي

المتوفى ٩٥٦ هـ

حققه وخرج أحاديثه

أحمد فتحي عبد الرحمن

الجزء الأول

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4318-2

9 782745 143181 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

المجالس الوعظية

في

شرح أحاديث خير البرية ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، مالك الملكوت، الحي الذي لا يموت، سبحانه هو القاهر فوق عباده، وله الخلق والأمر، وإليه مآل كل حي، يطمئن أهل «**المجالس**» بذكره، و«**شرح**» صدور عباده الموحدين بكلمة التوحيد، ووعدهم الحسنى وزيادة، وبشرهم بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين«**خير البرية**»، سيدنا محمد «**الواعظ**» لأمته والفاتح لما أغلق من العلوم والأفهام، المبعوث بمنهج «**صحيح**» معصوم عام شامل، فجمع القلوب على الإيمان ودل الناس على الخير وما فيه من صلاح العباد، فما من مسلم إلا حصلت له بركة هذا النبيّ العربي بوعظه وإرشاده، ويا سعد المسلم إذا التزم منهجه ونهل من الخير الذي أتى به.

وارض اللهم عن الآل والأصحاب والأتباع والأولياء والصالحين والذين تناقلوا الشرع الحنيف، والحديث الشريف، كابراً عن كابر إلى أن وصل إلينا مصوناً عن التبديل والتحريف، وخصوصاً علماء الحديث وفي مقدمتهم الإمام العامل أمير المؤمنين في الحديث الإمام «**محمد بن إسماعيل البخاري**».

وبعد.

فليس هناك سعادة تغمر القلوب، وتشرح الصدور كتلك السعادة عندما يقرأ المسلم القرآن الكريم، وتليها سعادة أخرى عندما يقرأ المسلم حديثاً نبوياً شريفاً، فيا سعد من قرأ ومن فهم، ووعى وعمل، وبلغ ما قرأ فإن رسول الله ﷺ وعده بنضارة في وجهه فقد قال في حديثه: «**نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمع، فرب مبلغ أوعى من سامع**».(١)

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٤/٥، رقم ٢٦٥٧) عن عبد الله بن مسعود، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه عنه أيضاً أحمد في المسند (٤٣٦/١، رقم ٤١٥٧)، وأبو يعلى في مسنده (٦٢/٩، رقم ٥١٢٦)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢٣٣/٥، رقم ٥١٧٩)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١١٧/٤)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (٣٢٨/٢)، =

ويا سعد الواعظ بذلك فإنه يحمل الحديث ليعظ به الناس، فهو إن شاء الله من أولئك الذين ينضر الله وجوههم.

وينبغي للواعظ أن يعلم أن رسولنا ﷺ قائد لدولته، ومن رجاحة عقله واتزانه حث المسلم في دولة الإسلام أن يحافظ على التراث، وأن يهتم بالميراث، وميراثه ﷺ ليس بدرهم ولا دينار، وما هو بذهب أو فضة، وإنما هو أعلى وأغلى، وأرفع وأسمى، وأتم وأكمل، فميراثه كتاب مقروء وهو القرآن، ومنهج حياة وتطبيق لهذا الكتاب وهي السنة.

فها هي السنة المشرفة منهج متكامل، وطريق لا عوج فيه ولا أمتا، تطل علينا بالعقائد وأركان الإيمان والإسلام، وتضع أيدينا على أخلاقيات النبوة، والآداب والفضائل، وتزودنا بدعائم الدين، وتبصرنا بمعاملات العباد، وتهدينا إلى ما نحار فيه من مسائل الغيب والحساب والعقاب والجنة والنار، ولا شك أن كل هذه الموضوعات كلها ينبني عليها الوعظ والإرشاد في كل أرجاء الدنيا، والواعظ العامل هو الذي يأخذ بالمنهج النبوي، ويدعو الناس على بصيرة كما كان عليه المصطفى ﷺ.

فارتباط السنة بالوعظ والإرشاد ارتباط وثيق، فعليها ينبني الوعظ والإرشاد، ومنها يأخذ المربيين مناهج التربية السليمة، ومنها أيضاً يأخذ أيضاً أصحاب المناهج الأخلاقية مناهجهم.

فسنة نبينا حياتنا ومعاملاتنا وأخلاقنا وفضائلنا بجميع جوانبها، لذا فطن علماء السلف في عصور مختلفة إلى كتابة الحديث وتدوينه والتصنيف فيه حتى يجمعوا هذا المنهج النبوي، ويضموا إليه آثاراً عن صحابته لأنهم عاصروه ﷺ فلا يخرج من فمهم علماً إلا على وفق ما تعلموه منه ﷺ، وهذه الأحاديث والآثار تكون منهجاً للمسلمين في أنحاء البسيطة.

= والرافعي في التدوين (٢٢١/١).

وأخرجه أبو داود في سننه (٣٢٢/٣، رقم ٣٦٦٠) وابن ماجه في سننه (٨٤/١، رقم ٢٣٠)، والدارمي في سننه (٨٦/١، رقم ٢٢٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٤٣/٥، رقم ٤٨٩٠) عن زيد بن ثابت.

وأخرجه الحاكم في المستدرك (١٦٤/١، رقم ٢٩٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٩٢/٣) عن النعمان بن بشير.

قال العجلوني في كشف الخفاء (٤٢٣/٢): رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره.

وينبغي أن نفرق بداية بين كتابة الحديث وتدوينه والتصنيف فيه، فكتابة الحديث المقصود بها أن السلف جمعوا السنة دون ترتيب ولا تبويب جمعوها من الصحائف المكتوبة وكان ذلك على عهد الصحابة والتابعين.

أما التدوين وهي مرحلة جمع فيها ما كتب من السنة وما تناثر هنا وهناك، ورتبت على الموضوعات أو على مسانيد الصحابة، ومنهم من رتب على غير ذلك وكانت هذه المرحلة في مطلع القرن الثاني الهجري إلى نهايته.

أما التصنيف ففيه كتبت السنة، ولكن بترتيب أدق مع فوائد علمية أخرى كالجمع بين الناسخ والمنسوخ لبيان النسخ، أو الجمع بين العام والخاص، أو انتقاء المقبول من المردود وكان ذلك في القرن الثالث الهجري[1].

ومن هذه الإلماحة اليسيرة علمت أن العلماء قد اهتموا بالسنة منذ عصر الصحابة إلى أن صنف العلماء في السنة في القرن الثالث الهجري، وبان لك أيضاً أن من كتب الحديث أو دونه أو صنف فيه على طول هذه الفترة كان ينتهج منهجاً متميزاً عن غيره، ارتضاه لنفسه خدمة للسنة المشرفة فظهرت مسميات عديدة فظهرت: الصحاح، والسنن، والمسانيد، والمستخرجات، والمستدركات، والتواريخ، والمشيخات، والمصنفات، والمعاجم، والجوامع، والأطراف، وكل هذه المسميات المتنوعة والمتباينة تنبع من معين واحد وهو السنة، وهذا هو وجه ارتباطها ببعضها فهي محاسن بعضها من بعض نبعت من نهر واحد.

وإذا وجهنا كلامنا على الصحاح فخير ما نبدأ به صحيح البخاري، فإن صحيح البخاري كان درة القرن الثالث الهجري، وبركة العلماء في هذا القرن المبارك، ولم يجد كتاباً شهرة مثل هذا الكتاب، وكثرت حوله الشروح والتعليقات نظراً لأهمية موضوعه.

ثم يليه في المرتبة صحيح الإمام مسلم الذي اجتمع بمحمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه واستفاد منه، ونافح عنه وقدمه على نفسه وعاب من هاجمه.

ولصحيح مسلم هو الآخر مكانة عالية، ومقام رفيع بين أوساط العلماء في كل زمان، فقد أجمع العلماء على أنه أمر وهو أنهم قالوا: «صحيح البخاري ومسلم أصح الكتب بعد القرآن الكريم» وأقول: مع الفارق بينهما وبين القرآن الكريم، فالقرآن أعلى

---

(١) انظر السنة النبوية مكانتها، عوامل بقائها، تدوينها (ص ١٢٥)

من أن يوصف بالصحة فقط فهو موصوف بإعجازه وبلاغته التي ألجمت أساطين البيان في كل زمان، وأبهرت العقول في كل مكان قديماً وحديثاً، إلا أن هذه المقولة إن قيلت فإنما قيلت لأن ما يحمله الصحيحان كلام من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وإذ كنا نقدم هذا الكتاب «**المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية من صحيح أبي عبد الله البخاري**» لشمس الدين السفيري، فينبغي أن نعلم أولاً أن صحيح البخاري أولاه العلماء بالشرح والتحليل، وأوسع الشروح لصحيح البخاري هذا الشرح العظيم المسمى: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» فكان فتحاً من الباري على مؤلفه ابن حجر العسقلاني حتى قيل: «لا فتح بعد الفتح».

وبعد: فإننا نقدم هذا الكتاب للوعاظ، والمربين، والمرشدين في أمة الإسلام، لأنه مجالس وعظية وإرشادية معتمدة على بعض أحاديث في أصح الكتب بعد القرآن الكريم وهو صحيح أبي عبد الله البخاري.

وأهم ما يميز هذا المصنف الرائع أن فيه ثروة وعظية كبيرة لا يستغني عنها واعظ أو مرشد، فمن رام إلى النصح والإرشاد عن طريق الأحاديث ففي الكتاب بغيته، ومن أراد أن ينصح بقصص السابقين من علماء الدين وأرباب المذاهب بإيراد مناقبهم فإنه سيجد في هذا الكتاب ما يريد، وإذا أراد أن ينصح عن طريق مثالب الغاوين من العصاة والهالكين ترغيباً وترهيباً فإنه سيجد ذلك أيضاً في هذا المصنف الرائع.

وناهيك عن شعر الواعظين الذي ووشح السفيري كتابه به، فجاء مرجعاً مهماً للدعاة والواعظين، ونحن نوقن أن القارئ لا يمل من القراءة فيه وذلك لحسن عرضه، وبلاغة موعظته.

مخطوطة الكتاب:

وقد وقفنا على مخطوط هذا الكتاب في دار الكتب المصرية وقد عنونوا له بهذا العنوان: «شرح الجامع الصحيح» -حديث تيمور- برقم (٢٠٣) ويقع في مجلدين ضخام، الأول يقع في (٣٥٠) ورقة ذات صفحتين، والثاني يقع في (٢٥٠) ورقة ذات صفحتين وعنوانه كتب هكذا في الفهارس.

وكتب على غلافه: «كتاب شرح البخاري الشريف تأليف العالم العلامة والبحر الفهامة المحدث الصوفي شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن أحمد بن الدين بن ولي الله شهاب الدين السفيري رحمه الله تعالى ونفعنا به وبعلومه والمسلمين أجمعين أمين.

ترجمة لمؤلفه: الإمام السفيري الأصل، حلبي المنشأ، الشافعي المذهب، مولده سنة ٨٧٧ سبع وسبعين وثمانمائة، توفي بحلب أيضاً ودفن في مقبرة خارج باب المقام وعليه قبة وكانت وفاته سنة ٩٥٦ ستة وخمسين وتسعمائة، قاله الشيخ الغزي في الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة.

دخل في ملكية المجازي أفقر العباد وأحوجهم إلى رحمته وعفوه وكرمه عبد محمد ابن المرحوم عبد الحاج عبد الرحمن جحا غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات وأودعت فيه شهادة أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ورضي الله عنه وعلى أزواجه الطاهرات شهادة أدخرها لي وديعة عند الله إلى يوم الدين، وأنا على ذلك من الشاهدين «حرر في نصف شوال ١٢١١».

وقبل أن نغادر الكلام على المخطوطة ينبغي أن نشير إلى أنه عرف بشرح البخاري، وقالوا في ترجمته: له شرح على البخاري، كما سنرى عن قريب عند الكلام على ترجمته، والسفيري نفسه لم يسمه بهذا الاسم، لأنه لم يستوعب كل ما في البخاري، ولكن نستطيع أن نقول إنه شرح موضوعي للبخاري اعتمد على الوعظ والإرشاد، في مجالس وعظية شرح فيها جملة من أحاديث صحيح البخاري، ولكننا وجدنا على الغلاف في جانب من هذا الاسم الذي أثبتناه.

وكان عملنا في هذا السفر الجليل:

- قمنا بنسخ الكتاب من الأصل المخطوط.
- قابلنا بين النسخ و«الأصل المخطوط» فقمنا بمعالجة السقط الذي سقط عند النسخ.
- حافظنا على النص بدون إقحام كلام آخر، اللهم إلا لو كانت هناك مواطن فيها طمس وهي مواضع غير قليلة في المخطوط فاستكملناه من المراجع، على وفق المنهج العلمي الذي نسير عليه.
- كما ان هناك سقط من النسخة وخاصة في النقول من المراجع الحديثية فاستكملناه منها وأشرنا إلى ذلك في الهامش.
- تصحيح العبارات والكلمات من الناحية اللغوية.
- عزو الآيات إلى سورها وتحديد رقم الآية.

- تخريج الأحاديث النبوية والآثار الواردة في الأصل المخطوط.
- ترجمنا للسفيري، ولم نترجم للبخاري نظراً لأن السفيري ترجم له ترجمة وافية رائعة في أول المجالس من هذا الكتاب فاكتفينا بذلك منعاً للتكرار.
- أدرجنا كلام الحافظ ابن حجر في الفتح في بعض المواطن التي تحتاج إلى ذلك، وذلك لما رأينا أن المؤلف السفيري راعى المنهج الوعظي أكثر من المنهج التحليلي فكانت تفوت عنده بعض أجزاء من الحديث لم يتعرض لها بالشرح فأدرجنا كلام الحافظ في هذه المواطن إتماماً للفائدة وعموماً للنفع.
- عقدنا فصلاً بعد هذا التقديم وترجمة للسفيري نعرض فيه لمنهج الإمام البخاري في كتابه الصحيح حتى يكون القارئ على بينة، ونرى أن هذا ضروري، فربما أن يتعرض المصنف إلى الكلام على سمة معينة في منهج البخاري وهذا وقع كثيراً من المصنف السفيري فلا بد للقارئ من توطئة مختصة تعرفه منهج البخاري ليكون نافعاً في محله إن شاء الله عزّ وجل.

مادة هذا الفصل مستمد من مقدمة فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

- راعينا في التحقيق توثيق المراجع التي ينقل عنها المصنف.
- فإلى كافة المسلمين المهتمين بكتب التراث والوعظ والإرشاد نقدم هذا السفر العظيم، داعين الله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه، ويجعلنا متبعين مهتدين برسولنا ﷺ وأن يشرح صدورنا بهذا السفر، وأن يجمعنا على الإيمان في يوم الجمع الذي لا ريب فيه ﴿**رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَـٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحقق

نماذج من الأصل المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وعليه توكل

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين المجلس

الاول في ترجمة البخاري رضي الله عنه ونفعنا به وفي ذكر شيء من فضائله

فانه كان من اكابر العلماء والاولياء والصالحين وبذكر الاولياء والعلماء والصلحا

تنزل الرحمة كما تنزل على مجالس العلماء فان مجالس العلماء روضة من رياض الجنة

تنزل عليهم الرحمة كما ينزل المطر من السماء تدخل العصاة في مجالس العلماء

مذنبين ويخرجون مغفورا لهم بلا شك تستغفر لهم ما داموا جلوسا عندهم

ان الله تعالى ينظر اليهم فيغفر للعالم والمستمع والمحب لهم فكيف لا يتحب

محبتهم واكرامهم والله تعالى بسببهم ينزل الرحمة على كل من حضر المجلس

التي فيها ذكرهم وكذا ذكر اهل الخير والصلاح فعليك بمجالسة العلماء

تنتفع بالحضور عندهم فانه من جالس الاخيار سلم ومن جالس الاشرار

ندم ومن جالس العلماء غنم نفعنا الله بهم في الدارين وفي الكلام على

البسملة والشروع بنسبه فنقول اما نسبه فهو ابو عبد الله محمد بن اسمعيل

بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي وجده بردزبة كان فارسيا

مجوسيا على دين قومه مات ولم يسلم وبردزبة لفظة بخارية ومعناه

بالعربية الزارع وجده المغيرة ولد بردزبة كان مجوسيا ولكنه اسلم

على يد اليمان الجعفي والي بخارى فلهذا يقال للبخاري الجعفي لكون

جده المغيرة اسلم على يد اليمان الجعفي عملا بمذهب من يرى ان من

اسلم على يد شخص كان ولاؤه له وجده ابراهيم قال الحافظ شيخ

الاسلام بن حجر لم نقف على شيء من اخباره واما والده اسمعيل فانه

كان من خيار الناس رضي الله عنه حضر الاكابر وسمع منهم كالامام

مالك وحماد بن زيد وصحب عبد الله بن المبارك ومات والبخاري صغير

فنشأ في حجر امه وكانت رضي الله عنها مجابة الدعوة ومن كرامتها

ان البخاري ذهب بصره في صغره فرأت امه في المنام ابراهيم الخليل عليه

الصلاة والسلام فقال لها يا هذه قد رد الله على ابنك بصره بكثرة

الصفحة الأولى من المجلد الأول

فتنة ولقد احسن من قال

وانت اذا ارسلت طرفك رائدا لقلبك يوما اتعبتك المناظر

رايت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر

فان لم تغض بصرك وان غيبت عنك انه ينظر الى ما لا يعنيك فلا تجلوا

ايمان تقع عينك على حرام فان تعمدت فذنب كبيرة وربما تعلق

قلبك بذلك فتهلك فان لم يرحمك الله عز وجل وان كان مباحا فلعله

يشتغل قلبك به بسبب الوسواس والخواطر بسببه ولعلك لا تصل

اليه فتبقى مشغول القلب منقطعا عن الخير وقد كنت مستريحا من

ذلك كله واذا طهرت يديك بالماء فطهرهما من ان تضرب بهما مسلما

تناول بهما ما لا يحل تناوله وتكتب بهما ما لا يجوز النطق به فان

لم احد اللسانين كاد من مناذلك فاحفظه عما يجب حفظ اللسان

عنه واذا رفعت راسك بالماء فاعلم انك انما تفعل ذلك امتثالا لامر

الله تعالى فان العبادات كلها تعاسمان فان الشرع لا يامر بعبث وقد

يفهم المكلف وقد لا يفهمه فاذا مسحت اذنيك بالماء فطهرهما

من الاصغاء الى سماع غيبة الخوض في باطل فانما لم يخلقا الا

لتسمع بهما كلام الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وحكمة

اوليائه فعليك بتنزيههما عن غيرها والفضول فان المستمع

شريك المتكلم كما ورد بعضهم

تحرز من الطرق اوقاتك وعد عن الجانب المشتبه

وسمعك صن عن سماع الغيبة كصونك عن الغيبة

فانك عند سماع الغيبة شريك لقائلها فاغتنم واذا طهرت رجليك

بالماء فطهرهما عن المشي الى الحرام والسعي بهما الى ابواب الظلمة قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم ما من عبد يخطو خطوة الا يسال عنها ماذا اراد

بها وقال العينان زناهما النظر والاذنان زناهما الاستماع واللسان

زناه الكلام واليد زناه البطش والرجل زناها الخطا

الصفحة الأخيرة من المجلد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المجلس السابع والأربعون

في فوائد متعلقة بنبع الماء من أصابع النبي صلى الله عليه وسلم وفوائد في ذكر
أحكام الكلب باب [illegible] أذان فتوضأ
[illegible] عائشة [illegible] وفي النوم حدثنا
[illegible] حدثنا
[illegible] صلى الله عليه وسلم حدثنا صلاة
[illegible]

قال العلماء نبع الماء من بين أصابعه الشريفة
معجزة من معجزاته الباهرة التي رواها الثقات من العدد الكثير عن
الجم الغفير عن الكافة عن الصحابة الفهم شاهدوا ذلك في مواضع اجتماع
المسلمين ومجمع العساكر فقوله وحانت صلاة العصر أي دخل وقتها والمعنى
أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدوا الماء فشرعوا التمسوه فلم
يوجدوه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت بالزوراء
وهو سوق بالمدينة وقد دخل وقت صلاة العصر فأتي رسول
الله صلى الله عليه وسلم بوضوء أي جاء رجل من الصحابة بماء قليل
الموضوء وفي رواية فأطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماء
يسير فتوضأ صلى الله عليه وسلم ثم مد أصابعه الشريفة على القدح
فصغر أن يبسط كفه فيه صلى الله عليه وسلم فضم أصابعه وفي
رواية أن الماء الذي جاء به الرجل كان بمقدار وضوء رجل واحد
فوضع يده المباركة فيه وأمر الناس أن يتوضؤا منه قال
أنس راوي الحديث فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه والناس يتوضؤا
منه فقوله حتى توضؤا من عند آخرهم قال البرماوي حتى فيه
للتدريج وسن للبيان فيما أفاد حتى من التدريج والمعنى حتى توضأ

الذين هم عند اخرهم وهو كناية عن الجميع والسياق يقتضي ان الاخر ايضا
توضا لان العموم والمبالغة يجعل عند لمطلق الظرفية بمعنى في لا الظرفية خاصة
فكانه قال الذين هم في اخرهم وقال النووي من في من عند اخرهم بمعنى
الى قال وهي لغة اي والمعنى على قوله حتى توضوا الى عند اخرهم واعترضه
الكرماني من وجوه الاول ان ورود من بمعنى الى شاذ قلما وقع في فصيح
الكلام الثاني ان الى لا يجوز ان تدخل على عند الثالث ان ما بعد الى مخالف
لما قبلها فيلزم خروج من عند اخرهم عنه ورد البرماوي اعتراضه
اما اعتراضه الاول وهو ان مجيء من بمعنى الى شاذ قلما وقع في فصيح
الكلام فرده بقوله لان الشذوذ لا ينافي فصاحته استعمالا وامتنا
اعتراضه الثاني وهو ان الى لا يجوز ان تدخل على عند فرده بقوله
والى نفسها لم تدخل على عند بل من والتضمين لا يضر واما اعتراضه
الثالث وهو ان ما بعد الى مخالف لما قبلها فيلزم خروج من عند اخرهم
عنه فرده بقوله وقرينة ارادة العموم لا ينافي دخول ما بعد الغاية
وقوله فرايت الماء ينبع قال العلماء في ينبع ثلاث لغات فتح الباء المضارعة
وضمها وكسرها ومعناه يخرج وجاء في رواية يفور من بين اصابعه
وفي رواية اخرى يتنبع وفي رواية اخرى يتفجر من اصابعه كامثال
العيون والاصابع جمع اصبع وفيها عشر لغات كسر الهمزة وفتحها
وفتحها مع فتح الباء وضمها وكسرها فهي تسعة والعاشرة اصبوع
وقد نظم هذه اللغات ابن مالك فقال

كثلث باصبع مع شكل همزته من غير قيد مع الاصبوع قد كملا

وافصح لغاتها العشرة اصبع بكسر الهمزة وفتح الباء قاله ابن سيده
فان قلت هل هذا الماء كان ينبع من نفس اصابعه ام لا قال النووي رحمه
الله فيه قولان احدهما انه كان يخرج من نفس اصابعه ان الله تعالى
كان يكثر الماء في ذاته فصار يفور من بين اصابعه لا من نفسها
وكلاهما معجزة ظاهرة وايه باهرة واكثر العلماء على القول الاول

المراد

لغات ينبع
لغات اصبع

هل الماء ينبع من
نفس الاصابع او انه
خرج من بين

والعشرة التي لا تنام اجزل علينا من الفضل والانعام
واجعلنا من عتقاء شهر الصيام ووفقنا للعمل بطاعتك
وتقبلها منا على ممر الليالي والايام يارب العالمين وصلى
الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وصحبه وسلم كلما ذكره
الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون الى يوم الدين امين امين امين
وقد وافق فراغ القلم من كتابة هذه النسخة الشريفة
الميمونة نهار الثلاثاء لستة ايام بقين من شهر رمضان المبارك
من شهور سنة ١٢٥١ احدى وخمسين ومائتين والف
من الهجرة النبوية بقلم احقر الورى العبد الفقير العاجز
محمد بن حسن الشنشاوي الشهير بابن جعفر غفر الله
له ولوالديه ولمشايخه ولكل
المسلمين اجمعين
وحسبنا الله ونعم
الوكيل

م

وقرأت على يد شيخي واستاذي وابو قلبي العالم الجليل
السيد الشيخ عبد القادر افندي بن السيد الشيخ محمد ابي النور
المنوفي بن السيد الشيخ محمد ابي السعود افندي بن قطب
العارفين العالم النحرير السيد الشيخ عبد القادر افندي
الكتابي الرفاعي غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولكل
المسلمين اجمعين
وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى اله وصحبه
وسلم

فرغنا من مقابلة هذه النسخة وتصحيحها
والحمد لله رب العالمين كتبه الفقير في نصف شوال
وكتب النسخة الاصلية فيما محال مغلوطة و

الصفحة الأخيرة من المجلد الثاني

ترجمة المصنف

نسبه وموطنه ومذهبه

هو: شمس الدين محمد ابن الشيخ زين الدين عمر ابن ولي الله الشيخ شهاب الدين السفيري الحلبي الشافعي، الإمام العلامة ولد بحلب سنة سبع وسبعين وثمانمائة.

وعرف به ناسخ كتابه هذا فقال: العالم العلامة والبحر الفهامة المحدث الصوفي شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن أحمد ابن زين الدين ابن ولي الله شهاب الدين السفيري.

ثم قال: السفيري الأصل، حلبي المنشأ، الشافعي المذهب.

شيوخه وعلمه وسفره في تحصيل العلم

ومن أشهر شيوخه الحافظ الإمام جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩٣٩ هـ، ونقل عنه كثيراً في مصنفه الذي بين أيدينا.

والعلاء الموصلي.

والكمال ابن أبي الشريف.

وكمال الدين محمد بن علي القاهري الشافعي قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية الشهير بالطويل، قال صاحب الشذرات: وأخذ بحلب عنه الشمس السفيري.

وخليل بن نور الله المعروف بمنلا خليل الشافعي نزيل حلب، قال صاحب الشذرات وأكب على القراءة عليه بها جماعة منهم الشمس السفيري.

والبدر السيوفي، وغيرهم.

وأما عن طلبه للعلم وإقباله على شيوخه فقد قال نجم الدين الغزي في كتابه الكواكب السائرة، فقد أدرجه في الطبقة الثانية وقال: لازم العلاء الموصلي والبدر السيوفي في فنون شتى، وقرأ على الكمال بن أبي شريف في حاشيته على شرح العقائد النسفية، ورسالة العذبة له، وقدم مع أخيه الشيخ إبراهيم بن أبي شريف إلى دمشق فأجاز له ولبعض الدمشقيين، ثم إلى حلب فقرأ عليه بها رسالة مختصر الرسالة القشيرية له، وقرأ على البازلي تصديقات القطب، وعلى أبي الفضل الدمشقي في شرحه النزهة في الحساب، وعلى الشيخ محمد الداديخي في شرح الشاطبية لابن القاصح، وعلى غيره. ودرس بالجامع الكبير بحلب، والعصرونية والسفاحية، وجامع تغري بردى، وسافر إلى القاهرة سنة سبع وعشرين وتسعمائة، واجتمع بها بشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وحضر الصلاة عليه لما مات في تلك السنة، واجتمع بآخرين منهم: الشيخ نور الدين البحيري، وصحب في صغره الشيخ عبد القادر الدشطوطي، حين قدم

حلب، وفي كبره الشيخ شهاب الدين الأنطاكي.

تلامذته الذين أجازهم

للسفيري تلامذة أجازهم لما اجتمعوا به وحملت لنا المراجع اسمين فقط.

فقد أجاز علاء الدين أبا الحسن علي بن سليمان بن أحمد بن محمد المرداوي السعدي ثم الصالحي الحنبلي.

وأجازعبد العزيز بن عبد الواحد بن محمد بن موسى المغربي المكناسي المالكي لما زار بيت المقدس ودمشق في سنة ٩٥١ هـ، ثم ورد حلب واستجاز بها شمس الدين السفيري، وموفق الدين ابن أبي ذر.

مؤلفاته

له غير هذا الكتاب الذي نحن في بصدده كتاب بعنوان: «تحفة الأخيار في حكم أطفال المسلمين والكفار» ذكره في كشف الظنون.

وفاته

توفي رحمة الله تعالى ورضي عنه سنة ست وخمسين وتسعمائة[1].

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣١٧/١)، وشذرات الذهب في المواضع الآتية (٣٨/٤)، (٣١١/٤)، (١١٣/٤)، (٢٢٠/٤)، (٣٤٠/٤)، (٣٤٢/٤)، وكشف الظنون (٢٣٤/٦)، والكواكب السائرة (٥٦/٢)، والموسوعة الذهبية في العلوم الإسلامية (٦٣٥/٢٨).

التعريف بمنهج البخاري في كتابه الصحيح

قبل أن نشرع معاً في قراءة هذا الكتاب القيم ينبغي أن نتعرف على منهج البخاري في الصحيح حتى إذا تعرض المصنف إليه بالحديث فهمنا ما يقول وما يقصده، فنقول مستعينين بالله تعالى:

أولاً

سبب تصنيف البخاري لهذا الصحيح

قال الحافظ ابن حجر: اعلم علمني الله وإياك أن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر أصحابه وكبار تبعهم مدونة في الجوامع، ولا مرتبة لأمرين:

أحدهما: أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك، كما ثبت في صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم ،

وثانيهما: لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة.

ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار، لما انتشر العلماء في الأمصار، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكرى الأقدار، فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح، وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما، وكانوا يصنفون كل باب على حدة.

إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فدونوا الأحكام، فصنف الإمام مالك الموطأ وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة، وفتاوى التابعين ومن بعدهم، وصنف أبو محمد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة، وأبو عمر وعبد الرحمن بن عمر والأوزاعي بالشام، وأبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري بالكوفة، وأبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار بالبصرة.

ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم إلى أن رأى بعض الأئمة منهم أن يفرد حديث النبي ﷺ خاصة وذلك على رأس المائتين، فصنف عبيد الله بن موسى العبسي الكوفي مسنداً، وصنف مسدد بن مسرهد البصري مسنداً، وصنف أسد بن موسى الأموي مسنداً، وصنف نعيم بن حماد الخزاعي نزيل مصر مسنداً.

ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم فقل إمام من الحفاظ إلا وصنف حديثه على المسانيد كالامام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وعثمان بن أبي شيبة وغيرهم

من النبلاء، ومنهم من صنف على الأبواب وعلى المسانيد معاً كأبي بكر بن أبي شيبة.

فلما رأى البخاري ﷺ هذه التصانيف ورواها، وانتشق رياها واستجلى محياها، وجدها بحسب الوضع جامعة بين ما يدخل تحت التصحيح والتحسين والكثير منها يشمله التضعيف، فلا يقال: لغثه سمين، فحرك همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه أمين، وقوى عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث والفقه إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه، وذلك فيما أخبرنا أبو العباس أحمد بن عمر اللؤلؤي عن الحافظ أبي الحجاج المزي أخبرنا يوسف بن يعقوب أخبرنا أبو اليمن الكندي أخبرنا أبو منصور القزاز أخبرنا الحافظ أبو بكر الخطيب أخبرني محمد بن أحمد بن يعقوب أخبرنا محمد بن نعيم سمعت خلف بن محمد البخاري بها يقول: سمعت إبراهيم بن معقل النسفي يقول: قال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ قال: فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح.

وروينا بالإسناد الثابت عن محمد بن سليمان بن فارس قال: سمعت البخاري يقول: رأيت النبي ﷺ وكأنني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب بها عنه، فسألت بعض المعبرين فقال لي: أنت تذب عنه الكذب، فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح.

وقال الحافظ أبو ذر الهروي: سمعت أبا الهيثم محمد بن مكي الكشميهني يقول: سمعت محمد بن يوسف الفربري يقول: قال البخاري: ما كتبت في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك، وصليت ركعتين.

وقال أبو على الغساني: روي عنه أنه قال: خرجت الصحيح من ستمائة ألف حديث.

وروى الإسماعيلي عنه قال: لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً، وما تركت من الصحيح أكثر.

قال الإسماعيلي: لأنه لو أخرج كل صحيح عنده لجمع في الباب الواحد حديث جماعة من الصحابة، ولذكر طريق كل واحد منهم إذا صحت، فيصير كتاباً كبيراً جداً.

وقال أبو أحمد بن عدي: سمعت الحسن بن الحسين البزار يقول: سمعت إبراهيم بن معقل النسفي يقول: سمعت البخاري يقول: ما أدخلت في كتابي الجامع إلا ما صح وتركت من الصحيح حتى لا يطول.

وقال الفربري: أيضاً سمعت محمد بن أبي حاتم البخاري الوراق يقول: رأيت محمد بن إسماعيل البخاري في المنام يمشي خلف النبي ﷺ، والنبي ﷺ يمشي فكلما رفع النبي ﷺ قدمه وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع.

وقال الحافظ أبو أحمد بن عدي سمعت الفربري يقول: سمعت نجم بن فضيل، وكان من أهل الفهم يقول فذكر نحو هذا المنام أنه رآه أيضاً.

وقال أبو جعفر محمود بن عمرو العقيلي: لما ألف البخاري كتاب الصحيح عرضه على أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلى بن المديني وغيرهم، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة إلا في أربعة أحاديث قال العقيلي :والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة.

***

ثانياً

موضوع صحيح البخاري ومغزاه

قال الحافظ ابن حجر: تقرر أنه التزم فيه الصحة، وأنه لا يورد فيه إلا حديثاً صحيحاً، هذا أصل موضوعه وهو مستفاد من تسميته إياه: «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه».

ومما نقلناه عنه من رواية الأئمة عنه صريحاً، ثم رأى أن لا يخليه من الفوائد الفقهية والنكت الحكمية، فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة فرقها في أبواب الكتاب بحسب تناسبها، واعتنى فيه بآيات الأحكام فانتزع منها الدلالات البديعة، وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة.

قال الشيخ محيي الدين نفع الله به: ليس مقصود البخاري الاقتصار على الأحاديث فقط بل مراده الاستنباط منها والاستدلال لأبواب أرادها، ولهذا المعنى أخلى كثيراً من الأبواب عن إسناد الحديث، واقتصر فيه على قوله فيه فلان عن النبي ﷺ أو نحو ذلك، وقد يذكر المتن بغير إسناد وقد يورده معلقاً، وإنما يفعل هذا لأنه أراد الاحتجاج للمسألة التي ترجم لها، وأشار إلى الحديث لكونه معلوماً، وقد يكون مما تقدم وربما تقدم قريباً، ويقع في كثير من أبوابه الأحاديث الكثيرة وفي بعضها ما فيه حديث واحد، وفي بعضها ما فيه آية من كتاب الله، وبعضها لا شيء فيه البتة، وقد ادعى بعضهم أنه صنع ذلك عمداً وغرضه أن يبين أنه لم يثبت عنده حديث بشرطه في المعنى الذي ترجم عليه، ومن هنا وقع من بعض من نسخ الكتاب ضم باب لم يذكر فيه حديث إلى حديث لم يذكر فيه باب، فأشكل فهمه على الناظر فيه.

وقد أوضح السبب في ذلك الإمام أبو الوليد الباجي المالكي في مقدمة كتابه في أسماء رجال البخاري فقال: أخبرني الحافظ أبو ذر عبد الرحيم بن أحمد الهروي قال حدثنا الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المستملى قال: انتسخت كتاب البخاري من أصله الذي كان عند صاحبه محمد بن يوسف الفربري، فرأيت فيه أشياء لم تتم وأشياء مبيضة منها تراجم لم يثبت بعدها شيئاً، ومنها أحاديث لم يترجم لها فأضفنا بعض ذلك إلى بعض.

قال أبو الوليد الباجي: ومما يدل على صحة هذا القول أن رواية أبي إسحاق

المستملي، ورواية أبي محمد السرخسي، ورواية أبي الهيثم الكشميهني، ورواية أبي زيد المروزي مختلفة بالتقديم والتأخير مع أنهم انتسخوا من أصل واحد، وإنما ذلك بحسب ما قدر كل واحد منهم فيما كان في طرة أو رققة مضافة أنه من موضع ما، فأضافه إليه، ويبين ذلك أنك تجد ترجمتين وأكثر من ذلك متصلة ليس بينها أحاديث.

قال الباجي: وانما أوردت هذا هنا لما عنى به أهل بلدنا من طلب معنى يجمع بين الترجمة والحديث الذي يليها، وتكلفهم من ذلك من تعسف التأويل ما لا يسوغ (انتهى).

قلت: وهذه قاعدة حسنة يفزع إليها حيث يتعسر وجه الجمع بين الترجمة والحديث، وهي مواضع قليلة جداً ثم ظهر لي أن البخاري مع ذلك فيما يورده من تراجم الأبواب على أطوار إن وجد حديثاً يناسب ذلك الباب ولو على وجه خفي ووافق شرطه أورده فيه بالصيغة التي جعلها مصطلحة لموضوع كتابه، وهي حدثنا وما قام مقام ذلك والعنعنة بشرطها عنده، وإن لم يجد فيه إلا حديثاً لا يوافق شرطه مع صلاحيته للحجة كتبه في الباب مغايراً للصيغة التي يسوق بها ما هو من شرطه، ومن هنا أورد التعاليق كما سيأتي عن قريب، وإن لم يجد فيه حديثاً صحيحاً لا على شرطه ولا على شرط غيره وكان بما يستأنس به، وقدمه قوم على القياس استعمل لفظ ذلك الحديث أو معناه ترجمة باب، ثم أورد في ذلك إما آية من كتاب الله تشهد له أو حديثاً يؤيد عموم ما دل عليه ذلك الخبر.

ولنشرع الآن في تحقيق شرطه فيه، وتقرير كونه أصح الكتب المصنفة في الحديث النبوي.

قال الحافظ أبو الفضل بن طاهر فيما قرأت على الثقة أبي الفرج بن حماد: أن يونس بن إبراهيم بن عبد القوي أخبره عن أبي الحسن بن المقير عن أبي المعمر المبارك بن أحمد شرط البخاري: أن يخرج الحديث المتفق على ثقة نقلته إلى الصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات الأثبات، ويكون إسناده متصلا من غير مقطوع وإن كان للصحابي راويان فصاعدا فحسن وإن لم يكن إلا راو واحد وصح الطريق إليه كفى قال: وما ادعاه الحاكم أبو عبدالله أن شرط البخاري ومسلم أن يكون للصحابي راويان فصاعداً، ثم يكون للتابعي المشهور راويان ثقتان إلى آخر كلامه، فمنتقض عليه بأنهما أخرجا أحاديث جماعة من الصحابة ليس لهم إلا

راو واحد (انتهى).

والشرط الذي ذكره الحاكم وإن كان منتقضاً في حق بعض الصحابة الذين أخرج لهم، فإنه معتبر في حق من بعدهم فليس في الكتاب حديث أصل من رواية من ليس له إلا راو واحد قط.

وقال الحافظ أبو بكر الحازمي رحمه الله: هذا الذي قاله الحاكم قول من لم يمعن الغوص في خبايا الصحيح، ولو استقرأ الكتاب حق استقرائه لوجد جملة من الكتاب ناقضة دعواه، ثم قال ما حاصله: إن شرط الصحيح أن يكون إسناده متصلاً، وأن يكون راويه مسلماً صادقاً غير مدلس ولا مختلط، متصفاً بصفات العدالة ضابطاً متحفظاً سليم الذهن قليل الوهم سليم الاعتقاد، قال: ومذهب من يخرج الصحيح أن يعتبر حال الراوي العدل في مشايخه العدول فبعضهم حديثه صحيح ثابت، وبعضهم حديثه مدخول، قال: وهذا باب فيه غموض وطريق إيضاحه معرفة طبقات الرواة عن راوي الأصل ومراتب مداركهم، فلنوضح ذلك بمثال وهو أن تعلم أن أصحاب الزهري مثلا على خمس طبقات، ولكل طبقة منها مزية على التي تليها فمن كان في الطبقة الأولى فهو الغاية في الصحة وهو مقصد البخاري، والطبقة الثانية شاركت الأولى في التثبت إلا أن الأولى جمعت بين الحفظ والإتقان، وبين طول الملازمة للزهري حتى كان فيهم من يزامله في السفر ويلازمه في الحضر، والطبقة الثانية لم تلازم الزهري إلا مدة يسيرة فلم تمارس حديثه فكانوا في الإتقان دون الأولى وهم شرط مسلم، ثم مثل الطبقة الأولى بيونس بن يزيد وعقيل بن خالد الأيليين ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وشعيب بن أبي حمزة، والثانية بالأوزاعي والليث بن سعد وعبد الرحمن بن خالد بن مسافر وابن أبي ذئب، قال: والطبقة الثالثة نحو جعفر بن برقان وسفيان بن حسين وإسحاق بن يحيى الكلبي، والرابعة نحو زمعة بن صالح ومعاوية بن يحيى الصدفي والمثنى بن الصباح، والخامسة نحو عبد القدوس بن حبيب والحكم بن عبد الله الأيلي، ومحمد بن سعيد المصلوب، فأما الطبقة الأولى فهم شرط البخاري وقد يخرج من حديث أهل الطبقة الثانية ما يعتمده من غير استيعاب، وأما مسلم فيخرج أحاديث الطبقتين على سبيل الاستيعاب، ويخرج أحاديث أهل الطبقة الثالثة على النحو الذي يصنعه البخاري في الثانية، وأما الرابعة والخامسة فلا يعرجان عليهما.

قلت: وأكثر ما يخرج البخاري حديث الطبقة الثانية تعليقاً، وربما أخرج اليسير

من حديث الطبقة الثالثة تعليقاً أيضاً، وهذا المثال الذي ذكرناه هو في حق المكثرين فيقاس على هذا أصحاب نافع وأصحاب الأعمش وأصحاب قتادة وغيرهم، فأما غير المكثرين فإنما اعتمد الشيخان في تخريج أحاديثهم على الثقة والعدالة وقلة الخطأ لكن منهم من قوي الاعتماد عليه فأخرجا ما تفرد به كيحيى بن سعيد الأنصاري، ومنهم من لم يقو الاعتماد عليه فأخرجا له ما شاركه فيه غيره وهو الأكثر.

وقال الإمام أبو عمرو بن الصلاح في كتابه في علوم الحديث فيما أخبرنا به أبو الحسن بن الجوزي عن محمد بن يوسف الشافعي عنه سماعاً قال: أول من صنف في الصحيح البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، وتلاه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، ومسلم مع أنه أخذ عن البخاري واستفاد منه فإنه يشارك البخاري في كثير من شيوخه وكتاباهما أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز.

وأما ما رويناه عن الشافعي ﷺ أنه قال: ما أعلم في الأرض كتاباً في العلم أكثر صواباً من كتاب مالك، قال: ومنهم من رواه بغير هذا اللفظ يعني بلفظ أصح من الموطأ، فإنما قال ذلك قبل وجود كتابي البخاري ومسلم، ثم أن كتاب البخاري أصح الكتابين صحيحاً، وأكثرهما فوائد.

وأما ما رويناه عن أبي على الحافظ النيسابوري أستاذ الحاكم أبي عبد الله الحافظ من أنه قال: ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم بن الحجاج، فهذا وقول من فضل من شيوخ المغرب كتاب مسلم على كتاب البخاري إن كان المراد به أن كتاب مسلم يترجح بأنه لم يمازجه غير الصحيح فإنه ليس فيه بعد خطبته إلا الحديث الصحيح، مسروداً غير ممزوج بمثل ما في كتاب البخاري في تراجم أبوابه من الأشياء التي لم يسندها على الوصف المشروط في الصحيح، فهذا لا بأس به وليس يلزم منه أن كتاب مسلم أرجح فيما يرجع إلى نفس الصحيح على كتاب البخاري، وإن كان المراد به أن كتاب مسلم أصح صحيحاً، فهذا مردود على من يقوله والله أعلم (انتهى كلامه).

وفيه أشياء تحتاج إلى أدلة وبيان، فقد استشكل بعض الأئمة إطلاق أصحية كتاب البخاري على كتاب مالك مع اشتراكهما في اشتراط الصحة، والمبالغة في التحري والتثبت، وكون البخاري أكثر حديثاً لا يلزم منه أفضلية الصحة، والجواب عن ذلك أن ذلك محمول على أصل اشتراط الصحة، فمالك لا يرى الانقطاع في الإسناد قادحاً فلذلك يخرج المراسيل والمنقطعات والبلاغات في أصل موضوع

كتابه، والبخاري يرى أن الانقطاع علة فلا يخرج ما هذا سبيله إلا في غير أصل موضوع كتابه كالتعليقات والتراجم، ولا شك أن المنقطع وإن كان عند قوم من قبيل ما يحتج به فالمتصل أقوى منه إذا اشترك كل من رواتهما في العدالة والحفظ، فبان بذلك شفوف كتاب البخاري، وعلم أن الشافعي إنما أطلق على الموطأ أفضلية الصحة بالنسبة إلى الجوامع الموجودة في زمنه، كجامع سفيان الثوري ومصنف حماد بن سلمة وغير ذلك، وهو تفضيل مسلم لا نزاع فيه.

واقتضى كلام ابن الصلاح أن العلماء متفقون على القول بأفضلية البخاري في الصحة على كتاب مسلم إلا ما حكاه عن أبي على النيسابوري من قوله المتقدم وعن بعض شيوخ المغاربة أن كتاب مسلم أفضل من كتاب البخاري، من غير تعرض للصحة فنقول: روينا بالإسناد الصحيح عن أبي عبد الرحمن النسائي وهو شيخ أبي على النيسابوري أنه قال: ما في هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن إسماعيل، والنسائي لا يعني بالجودة إلا جودة الأسانيد كما هو المتبادر إلى الفهم من اصطلاح أهل الحديث، ومثل هذا من مثل النسائي غاية في الوصف مع شدة تحريه وتوقيه وتثبته في نقد الرجال وتقدمه في ذلك على أهل عصره، حتى قدمه قوم من الحذاق في معرفة ذلك على مسلم بن الحجاج، وقدمه الدارقطني وغيره في ذلك وغيره على إمام الأئمة أبي بكر بن خزيمة صاحب الصحيح.

وقال الإسماعيلي في المدخل له: أما بعد فإني نظرت في كتاب الجامع الذي ألفه أبو عبد الله البخاري فرأيته جامعاً كما سمي لكثير من السنن الصحيحة، ودالا على جمل من المعاني الحسنة المستنبطة التي لا يكمل لمثلها إلا من جمع إلى معرفة الحديث نقلته، والعلم بالروايات وعللها علماً بالفقه واللغة، وتمكناً منها كلها وتبحراً فيها، وكان يرحمه الله الرجل الذي قصر زمانه على ذلك، فبرع وبلغ الغاية فحاز السبق وجمع إلى ذلك حسن النية والقصد للخير، فنفعه الله ونفع به قال: وقد نحا نحوه في التصنيف جماعة منهم الحسن بن علي الحلواني لكنه اقتصر على السنن، ومنهم أبو داود السجستاني، وكان في عصر أبي عبد الله البخاري فسلك فيما سماه سنن أذكر ما روى في الشيء، وإن كان في السند ضعف إذا لم يجد في الباب غيره، ومنهم مسلم بن الحجاج وكان يقاربه في العصر فرام مرامه، وكان يأخذ عنه أو عن كتبه إلا أنه لم يضايق نفسه مضايقة أبي عبد الله، وروى عن جماعة كثيرة يتعرض أبو عبد الله الرواية عنهم، وكل قصد الخير غير أن أحداً منهم لم يبلغ من التشدد مبلغ أبي

عبد الله، ولا تسبب إلى استنباط المعاني واستخراج لطائف فقه الحديث وتراجم الأبواب الدالة على ما له وصلة بالحديث المروي فيه تسببه، ولله الفضل يختص به من يشاء.

وقال الحاكم أبو أحمد النيسابوري وهو عاصر أبا على النيسابوري وقدم عليه في معرفة الرجال فيما حكاه أبو يعلى الخليلي الحافظ في الإرشاد ما ملخصه: رحم الله محمد بن إسماعيل فإنه ألف الأصول يعني أصول الأحكام من الأحاديث وبين للناس وكل من عمل بعده فإنما أخذه من كتابه كمسلم بن الحجاج.

وقال الدارقطني لما ذكر عنده الصحيحان: لولا البخاري لما ذهب مسلم ولا جاء.

وقا مرة أخرى: وأي شيء صنع مسلم إنما أخذ كتاب البخاري فعمل عليه مستخرجاً وزاد فيه زيادات.

وهذا الذي حكيناه عن الدارقطني جزم به أبو العباس القرطبي في أول كتابه المفهم في شرح صحيح مسلم، والكلام في نقل كلام الأئمة في تفضيله كثير ويكفى منه اتفاقهم على أنه كان أعلم بهذا الفن من مسلم، وأن مسلماً كان يشهد له بالتقدم في ذلك والإمامة فيه والتفرد بمعرفة ذلك في عصره، حتى هجر من أجله شيخه محمد بن يحيى الذهلي في قصة مشهورة.

فهذا من حيث الجملة وأما من حيث التفصيل فقد قررنا أن مدار الحديث الصحيح على الاتصال وإتقان الرجال وعدم العلل، وعند التأمل يظهر أن كتاب البخاري أتقن رجالاً وأشد اتصالاً، وبيان ذلك من أوجه:

أحدها: أن الذين انفرد البخاري بالإخراج لهم دون مسلم أربعمائة وبضعة وثلاثون رجلاً، المتكلم فيه بالضعف منهم ثمانون رجلاً، والذين انفرد مسلم بالإخراج لهم دون البخاري ستمائة وعشرون رجلاً المتكلم فيه بالضعف منهم مائة وستون رجلاً، ولا شك أن التخريج عمن لم يتكلم فيه أصلاً أولى من التخريج عمن تكلم فيه، وإن لم يكن ذلك الكلام قادحاً.

ثانيها: أن الذين انفرد بهم البخاري ممن تكلم فيه لم يكثر من تخريج أحاديثهم، وليس لواحد منهم نسخة كبيرة أخرجها كلها أو أكثرها إلا ترجمة عكرمة عن ابن عباس بخلاف مسلم فإنه أخرج أكثر تلك النسخ كأبي الزبير عن جابر وسهيل

عن أبيه والعلاء بن عبد الرحمن عن أبيه وحماد بن سلمة عن ثابت وغير ذلك.

ثالثها: أن الذين انفرد بهم البخاري ممن تكلم فيه أكثرهم من شيوخه الذين لقيهم وجالسهم وعرف أحوالهم، واطلع على أحاديثهم، وميز جيدها من موهومها، بخلاف مسلم فإن أكثر من تفرد بتخريج حديثه ممن تكلم فيه، ممن تقدم عن عصره من التابعين ومن بعدهم، ولا شك أن المحدث أعرف بحديث شيوخه ممن تقدم منهم.

رابعها: أن البخاري يخرج من أحاديث أهل الطبقة الثانية انتقاء، ومسلم يخرجها أصولاً كما تقدم ذلك من تقرير الحافظ أبي بكر الحازمي.

فهذه الأوجه الأربعة تتعلق بإتقان الرواة وبقي ما يتعلق بالاتصال وهو «**الوجه الخامس**».

وذلك أن مسلماً كان مذهبه على ما صرح به في مقدمة صحيحه وبالغ في الرد على من خالفه أن الإسناد المعنعن له حكم الاتصال، إذا تعاصر المعنعن ومن عنعن عنه، وأن لم يثبت اجتماعهما إلا أن كان المعنعن مدلساً، والبخاري لا يحمل ذلك على الاتصال حتى يثبت اجتماعهما ولو مرة، وقد أظهر البخاري هذا المذهب في تاريخه وجرى عليه في صحيحه، وأكثر منه حتى أنه ربما خرج الحديث الذي لا تعلق له بالباب جملة إلا ليبين سماع راو من شيخه لكونه قد أخرج له قبل ذلك شيئاً معنعنا، وسترى ذلك واضحا في أماكنه من صحيح البخاري.

وهذا مما ترجح به كتابه لأنا وإن سلمنا ما ذكره مسلم من الحكم بالاتصال فلا يخفى أن شرط البخاري أوضح في الاتصال والله أعلم.

وأما ما يتعلق بعدم العلة وهو «**الوجه السادس**» فإن الأحاديث التي انتقدت عليهما بلغت مائتي حديث وعشرة أحاديث، اختص البخاري منها بأقل من ثمانين وباقي ذلك يختص بمسلم، ولا شك أن ما قل الانتقاد فيه أرجح مما كثر والله أعلم.

وأما قول أبي على النيسابوري فلم نقف فقط على تصريحه بأن كتاب مسلم أصح من كتاب البخاري، بخلاف ما يقتضيه إطلاق الشيخ محيي الدين في مختصره في علوم الحديث وفي مقدمة شرح البخاري أيضاً حيث يقول: اتفق الجمهور على أن صحيح البخاري أصحهما صحيحاً وأكثرهما فوائد.

وقال أبو على النيسابوري وبعض علماء المغرب: صحيح مسلم أصح (انتهى).

ومقتضى كلام أبي على نفي الأصحيه عن غير كتاب مسلم عليه، أما إثباتها له فلا لأن إطلاقه يحتمل أن يريد ذلك ويحتمل أن يريد المساواة والله أعلم.

والذي يظهر لي من كلام أبي على أنه إنما قدم صحيح مسلم لمعنى غير ما يرجع إلى ما نحن بصدده من الشرائط المطلوبة في الصحة، بل ذلك لأن مسلماً صنف كتابه في بلده بحضور أصوله في حياة كثير من مشايخه، فكان يتحرز في الألفاظ ويتحرى في السياق، ولا يتصدى لما تصدى له البخاري من استنباط الأحكام ليبوب عليها، ولزم من ذلك تقطيعه للحديث في أبوابه، بل جمع مسلم الطرق كلها في مكان واحد واقتصر على الأحاديث دون الموقوفات فلم يعرج عليها إلا في بعض المواضع على سبيل الندور تبعاً لا مقصوداً، فلهذا قال أبو على ما قال: مع أني رأيت بعض أئمتنا يجوز أن يكون أبو على ما رأى صحيح البخاري وعندي في ذلك بعد، والأقرب ما ذكرته وأبو على لو صرح بما نسب إليه لكان محجوباً بما قدمناه مجملاً ومفصلاً والله الموفق.

وأما بعض شيوخ المغاربة فلا يحفظ عن أحد منهم تقييد الأفضلية بالأصحية بل أطلق بعضهم الأفضلية، وذلك فيما حكاه القاضي أبو الفضل عياض في الإلماع عن أبي مروان الطبني (بضم الطاء المهملة ثم اسكان الباء الموحدة بعدها نون) قال: كان بعض شيوخى يفضل صحيح مسلم على صحيح البخاري (انتهى).

وقد وجدت تفسير هذا التفضيل عن بعض المغاربة فقرأت في فهرسة أبي محمد القاسم بن القاسم النجيبي قال: كان أبو محمد بن حزم يفضل كتاب مسلم على كتاب البخاري لأنه ليس فيه بعد خطبته إلا الحديث السرد.

وعندي أن ابن حزم هذا هو شيخ أبي مروان الطبني الذي أبهمه القاضي عياض ويجوز أن يكون غيره ومحل تفضيلهما واحد، ومن ذلك قول مسلم بن قاسم القرطبي وهو من أقران الدارقطني لما ذكر في تاريخه صحيح مسلم قال: لم يضع أحد مثله، فهذا محمول على حسن الوضع وجودة الترتيب، وقد رأيت كثيراً من المغاربة ممن صنف في الأحكام بحذف الأسانيد كعبد الحق في أحكامه وجمعه يعتمدون على كتاب مسلم في نقل المتون وسياقها دون البخاري، لوجودها عند مسلم تامة وتقطيع البخاري لها فهذه جهة أخرى من التفضيل لا ترجع إلى ما يتعلق بنفس الصحيح والله أعلم.

وإذا تقرر ذلك فليقابل هذا التفضيل بجهة أخرى من وجوه التفضيل غير ما

يرجع إلى نفس الصحيح وهي: ما ذكره الإمام القدوة أبو محمد بن حمزة في اختصاره للبخاري قال: قال لي من لقيته من العارفين عمن لقي من السادة المقر لهم بالفضل: إن صحيح البخاري ما قرئ في شدة إلا فرجت ولا ركب به في مركب فغرق.

قال: وكان مجاب الدعوة وقد دعا لقارئه رحمه الله تعالى، وكذلك الجهة العظمى الموجبة لتقديمه وهي ما ضمنه أبوابه من التراجم التي حيرت الأفكار، وأدهشت العقول والأبصار وإنما بلغت هذه الرتبة وفازت بهذه الخطوة لسبب عظيم أوجب عظمها، وهو ما رواه أبو أحمد بن عدي عن عبد القدوس بن همام قال: شهدت عدة مشايخ يقولون: حول البخاري تراجم جامعه يعني بيضها بين قبر النبي ﷺ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين.

ولنشرع الآن في الكلام عليها ونبين ما خفي على بعض من لم يمعن النظر فاعترض عليه اعتراض شاب غر على شيخ مجرب أو مكتهل، وأوردها إيراد سعد وسعد مشتمل، «ما هكذا تورد يا سعد الإبل».

وأول شيء وقع الكلام معه فيه من هذه المادة أول حديث بدأ به كتابه واستفتح به خطابه، فرد كثير من هؤلاء نحوه سهام اللوم، وانتصر بعض وبعض لزم من التسليم طريق القوم.

ولنذكر ظابطاً يشتمل على بيان أنواع التراجم فيه وهي ظاهرة وخفية، أما الظاهرة فليس ذكرها من غرضنا هنا، وهي: أن تكون الترجمة دالة بالمطابقة لما يورد في مضمنها، وإنما فائدتها الإعلام بما ورد في ذلك الباب من غير اعتبار لمقدار تلك الفائدة، كأنه يقول هذا الباب الذي فيه كيت وكيت، أو باب ذكر الدليل على الحكم الفلاني مثلاً، وقد تكون الترجمة بلفظ المترجم له أو بعضه أو بمعناه، وهذا في الغالب قد يأتي من ذلك ما يكون في لفظ الترجمة احتمال لأكثر من معنى واحد، فيعين أحد الاحتمالين بما يذكر تحتهما من الحديث، وقد يوجد فيه ما هو بالعكس من ذلك بأن يكون الاحتمال في الحديث والتعيين في الترجمة، والترجمة هنا بيان لتأويل ذلك الحديث نائبة مناب قول الفقيه مثلاً المراد بهذا الحديث العام الخصوص، أو بهذا الحديث الخاص العموم، إشعاراً بالقياس لوجود العلّة الجامعة، أو أن ذلك الخاص المراد به ما هو أعم مما يدل عليه ظاهره بطريق الأعلى أو الأدنى، ويأتي في المطلق والمقيد نظير ما ذكرنا في الخاص والعام، وكذا في شرح المشكل وتفسير

الغامض وتاويل الظاهر وتفصيل المجمل، وهذا الموضع هو معظم ما يشكل من تراجم هذا الكتاب، ولهذا اشتهر من قول جمع من الفضلاء فقه البخاري في تراجمه وأكثر ما يفعل البخاري ذلك إذا لم يجد حديثاً على شرطه في الباب ظاهر المعنى في المقصد الذي ترجم به، ويستنبط الفقه منه وقد يفعل ذلك لغرض شحذ الأذهان في إظهار مضمره واستخراج خبيئه، وكثيراً ما يفعل ذلك أي هذا الأخير حيث يذكر الحديث المفسر لذلك في موضع آخر متقدماً أو متاخراً فكأنه يحيل عليه ويومئ بالرمز والإشارة إليه وكثيراً ما يترجم بلفظ الاستفهام كقوله: «باب هل يكون كذا» أو «من قال كذا» ونحو ذلك، وذلك حيث لا يتجه له الجزم بأحد الاحتمالين وغرضه بيان هل يثبت ذلك الحكم، أو لم يثبت فيترجم على الحكم ومراده ما يتفسر بعد من إثباته أو نفيه، أو أنه محتمل لهما وربما كان أحد المحتملين أظهر، وغرضه أن يبقى النظر مجالاً وينبه على أن هناك احتمالاً أو تعارضاً يوجب التوقف، حيث يعتقد أن فيه إجمالاً أو يكون المدرك مختلفاً في الاستدلال به، وكثيراً ما يترجم بأمره ظاهره قليل الجدوى لكنه إذا حققه المتأمل أجدى، كقوله: «باب قول الرجل ما صلينا» فإنه أشار به إلى الرد على من كره ذلك، ومنه قوله: «باب قول الرجل فاتتنا الصلاة» وأشار بذلك إلى الرد على من كره إطلاق هذا اللفظ.

وكثيرا ما يترجم بأمر مختص ببعض الوقائع لا يظهر في بادىء الرأي كقوله: «باب استياك الإمام بحضرة رعيته» فإنه لما كان الاستياك قد يظن أنه من أفعال المهنة فلعل بعض الناس يتوهم أن إخفاءه أولى مراعاة للمروءة، فلما وقع في الحديث أن النبي ﷺ استاك بحضرة الناس دل على أنه من باب التطيب لا من الباب الآخر، نبه على ذلك ابن دقيق العيد.

وكثيراً ما يترجم بلفظ يومئ إلى معنى حديث لم يصح على شرطه، أو يأتي بلفظ الحديث الذي لم يصح على شرطه صريحاً في الترجمة، ويورد في الباب ما يؤدي معناه تارة بأمر ظاهر وتارة بأمر خفي من ذلك قوله: «باب الأمراء من قريش» وهذا لفظ حديث يروى عن علي رضي الله عنه وليس على شرط البخاري، وأورد فيه حديث: «لا يزال وال من قريش»، ومنها قوله: «باب اثنان فما فوقهما جماعة» وهذا حديث يروى عن أبي موسى الأشعري وليس على شرط البخاري، وأورد فيه «فأذن وأقيما وليؤمكما أحدكما».

وربما اكتفى أحيانا بلفظ الترجمة التي هي لفظ حديث لم يصح على شرطه،

وأورد معها أثراً أو آية، فكأنه يقول لم يصح في الباب شيء على شرطي وللغفلة عن هذه المقاصد الدقيقة اعتقد من لم يمعن النظر أنه ترك الكتاب بلا تبييض، ومن تأمل ظفر، ومن جد وجد.

وقد جمع العلامة ناصر الدين أحمد بن المنير خطيب الإسكندرية من ذلك أربعمائة ترجمة وتكلم عليها، ولخصها القاضي بدر الدين بن جماعة، وزاد عليها أشياء وتكلم على ذلك أيضاً بعض المغاربة وهو محمد بن منصور بن حمامة السجلماسي، ولم يكثر من ذلك بل جملة ما في كتابه نحو مائة ترجمة، وسماه: «فك أغراض البخاري المبهمة في الجمع بين الحديث والترجمة» وتكلم أيضاً على ذلك زين الدين على بن المنير أخو العلامة ناصر الدين في شرحه على البخاري، وأمعن في ذلك ووقفت على مجلد من كتاب اسمه: «ترجمان التراجم» لأبي عبد الله بن رشيد السبتي، يشتمل على هذا المقصد، وصل فيه إلى كتاب الصيام، ولو تم لكان في غاية الإفادة، وإنه لكثير الفائدة مع نقصه.

***

ثالثاً

الحكمة في تقطيع البخاري للحديث واختصاره وفائدة إعادته له في الأبواب وتكراره

قال الحافظ ابن حجر: قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي فيما رويناه عنه في جزء سماه جواب المتعنت: اعلم أن البخاري رحمه الله كان يذكر الحديث في كتابه في مواضع، ويستدل به في كل باب بإسناد آخر، ويستخرج طريق واحدة فيتصرف حينئذ فيه، فيورده في موضع موصولاً وفي موضع معلقاً، ويورده تارة تاما وتارة مقتصراً على طرفه الذي يحتاج إليه في ذلك الباب، فإن كان المتن مشتملاً على جمل متعددة لا تعلق لإحداها بالأخرى فإنه منه بحسن استنباطه وغزارة فقهه معنى يقتضيه الباب الذي أخرجه فيه وقلما يورد حديثا في موضعين بإسناد واحد ولفظ واحد، وإنما يورده من طريق أخرى لمعان والله أعلم بمراده منها.

فمنها: أنه يخرج الحديث عن صحابي ثم يورده عن صحابي آخر، والمقصود منه أن يخرج الحديث عن حد الغرابة، وكذلك يفعل في أهل الطبقة الثانية والثالثة، وهلم جرا إلى مشايخه، فيعتقد من يرى ذلك من غير أهل الصنعة أنه تكرار، وليس كذلك لاشتماله على فائدة زائدة.

ومنها: أنه صحح أحاديث على هذه القاعدة يشتمل كل حديث منها على معان متغايرة، فيورده في كل باب من طريق غير الطريق الأولى.

ومنها: أن هناك أحاديث يرويها بعض الرواة تامة ويرويها بعضهم مختصرة، فيوردها كما جاءت ليزيل الشبهة عن ناقليها.

ومنها: أن الرواة ربما اختلفت عباراتهم فحدث راو بحديث فيه كلمة تحتمل معنى، وحدث به آخر فعبر عن تلك الكلمة بعينها بعبارة أخرى تحتمل معنى آخر، فيورده بطرقه إذا صحت على شرطه ويفرد لكل لفظه باباً مفرداً.

ومنها: أحاديث تعارض فيها الوصل والإرسال، ورجح عنده الوصل فاعتمده وأورد الإرسال منبهاً على أنه لا تأثير له عنده في الوصل.

ومنها: أحاديث تعارض فيها الوقف والرفع والحكم فيها كذلك.

ومنها: أحاديث زاد فيها بعض الرواة رجلاً في الإسناد، ونقصه بعضهم فيوردها على الوجهين حيث يصح عنده أن الراوي سمعه من شيخ حدثه به عن

آخر، ثم لقي الآخر فحدثه به فكان يرويه على الوجهين.

ومنها: أنه ربما أورد حديثاً عنعنه راويه فيورده من طريق أخرى مصرحاً فيها بالسماع على ما عرف من طريقته في اشتراط ثبوت اللقاء المعنعن.

فهذا جميعه فيما يتعلق بإعادة المتن الواحد في موضع آخر أو أكثر.

وأما تقطيعه للحديث في الأبواب تارة واقتصاره منه على بعضه أخرى، فذلك لأنه إن كان المتن قصيراً أو مرتبطاً بعضه ببعض وقد اشتمل على حكمين فصاعداً فإنه يعيده بحسب ذلك مراعياً مع ذلك عدم إخلائه من فائدة حديثية وهي: إيراده له عن شيخ سوى الشيخ الذي أخرجه عنه قبل ذلك، كما تقدم تفصيله فتستفيد بذلك تكثير الطرق لذلك الحديث، وربما ضاق عليه مخرج الحديث حيث لا يكون له إلا طريق واحدة، فيتصرف حينئذ فيه، فيورده في موضع موصولاً وفي موضع معلقاً، ويورده تارة تاماً وتارة مقتصراً على طرفه الذي يحتاج إليه في ذلك الباب، فإن كان المتن مشتملاً على جمل متعددة لا تعلق لإحداها بالأخرى فإنه يخرج كل جملة منها في باب مستقل فراراً من التطويل، وربما نشط فساقه بتمامه فهذا كله في التقطيع.

وقد حكى بعض شراح البخاري أنه وقع في أثناء الحج في بعض النسخ بعد باب قصر الخطبة بعرفة، باب تعجيل الوقوف قال أبو عبد الله: يزاد في هذا الباب حديث مالك عن ابن شهاب، ولكني لا أريد أن أدخل فيه بجميع إسناده ومتنه، وإن كان قد وقع له من ذلك شيء فعن غير قصد، وهو قليل جداً.

وأما اقتصاره على بعض المتن ثم لا يذكر الباقي في موضع آخر، فإنه لا يقع له ذلك في الغالب إلا حيث يكون المحذوف موقوفاً على الصحابي، وفيه شيء قد يحكم برفعه فيقتصر على الجملة التي يحكم لها بالرفع، ويحذف الباقي، لأنه لا تعلق له بموضوع كتابه كما وقع له في حديث هزيل بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «إن أهل الإسلام لا يسيبون وإن أهل الجاهلية كانوا يسيبون» هكذا أورده وهو مختصر من حديث موقوف، أوله: «جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال إني أعتقت عبداً لي سائبة فمات، وترك مالاً ولم يدع وارثا، فقال عبد الله: إن أهل الإسلام لا يسيبون وإن أهل الجاهلية كانوا يسيبون، فأنت ولي نعمته فلك ميراثه فإن تأثمت وتحرجت في شيء فنحن نقبله منك، ونجعله في بيت المال» فاقتصر البخاري على ما يعطي حكم الرفع من هذا الحديث الموقوف،

وهو قوله:«إن أهل الإسلام لا يسيبون» لأنه يستدعي بعمومه النقل عن صاحب الشرع لذلك الحكم واختصر الباقي لأنه ليس من موضوع كتابه.

وهذا من أخفى المواضيع التي وقعت له من هذا الجنس، وإذا تقرر ذلك اتضح أنه لا يعيد إلا لفائدة،حتى لو لم تظهر لإعادته فائدة من جهة الإسناد ولا من جهة المتن، لكان ذلك لإعادته لأجل مغايرة الحكم التي تشتمل عليه الترجمة الثانية موجباً، لئلا يعد مكرراً بلا فائدة، كيف وهو لا يخليه مع ذلك من فائدة إسنادية وهي إخراجه للإسناد عن شيخ غير الشيخ الماضي أو غير ذلك على ما سبق تفصيله وهذا بين لمن استقرأ كتابه وأنصف من نفسه والله الموفق لا إله غيره.

***

رابعاً

بيان السبب في إيراده للأحاديث المعلقة مرفوعة وموقوفة وشرح أحكام ذلك

قال الحافظ ابن حجر: والمراد بالتعليق ما حذف من مبتدأ إسناده واحد فأكثر ولو إلى آخر الإسناد، وتارة يجزم به كقال، وتارة لا يجزم به كيذكر.

فأما المعلق من المرفوعات فعلى قسمين:

أحدهما: ما يوجد في موضع آخر من كتابه هذا موصولاً.

وثانيهما: ما لا يوجد فيه إلا معلقاً فالأول قد بينا السبب فيه في الموضع الذي قبل هذا، وأنه يورده معلقاً حيث يضيق مخرج الحديث إذ من قاعدته أنه لا يكرر إلا لفائدة، فمتى ضاق المخرج واشتمل المتن على أحكام فاحتاج إلى تكريره فإنه يتصرف في الإسناد بالاختصار خشية التطويل.

والثاني وهو ما لا يوجد فيه إلا معلقاً فإنه على صورتين: إما أن يورده بصيغة الجزم، وإما أن يورده بصيغة التمريض، فالصيغة الأولى يستفاد منها الصحة إلى من علق عنه لكن يبقى النظر فيمن أبرز من رجال ذلك الحديث، فمنه ما يلتحق بشرطه ومنه ما لا يلتحق، أما ما يلتحق فالسبب في كونه لم يوصل إسناده: إما لكونه أخرج ما يقوم مقامه فاستغنى عن إيراد هذا مستوفى السياق، ولم يهمله بل أورده بصيغة التعليق طلبا للاختصار، وإما لكونه لم يحصل عنده مسموعاً أو سمعه وشك في سماعه له من شيخه أو سمعه من شيخه مذاكرة، فما رأى أنه يسوقه مساق الأصل.

وغالب هذا فيما أورده عن مشايخه فمن ذلك أنه قال في كتاب الوكالة: قال عثمان بن الهيثم حدثنا عوف حدثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة ﷺ قال: وكلني رسول الله ﷺ بزكاة رمضان... الحديث بطوله.

وأورده في مواضع أخرى منها: في فضائل القرآن، وفي ذكر إبليس، ولم يقل في موضع منها حدثنا عثمان فالظاهر أنه لم يسمعه منه، وقد استعمل المصنف هذه الصيغة فيما لم يسمعه من مشايخه في عدة أحاديث فيوردها عنهم بصيغة قال فلان ثم يوردها في موضع آخر بواسطة بينه وبينهم.

فقال في التاريخ قال إبراهيم بن موسى: حدثنا هشام بن يوسف فذكر حديثاً ثم

قال حدثوني بهذا عن إبراهيم، ولكن ليس ذلك مطرداً في كل ما أورده بهذه الصيغة لكن مع هذا الاحتمال لا يحمل حمل جميع ما أورده بهذه الصيغة على أنه سمع ذلك من شيوخه ولا يلزم من ذلك أن يكون مدلساً عنهم فقد صرح الخطيب وغيره بأن لفظ قال لا يحمل على السماع إلا ممن عرف من عادته أنه لا يطلق ذلك إلا فيما سمع فاقتضى ذلك أن من لم يعرف ذلك من عادته كان الأمر فيه على الاحتمال والله تعالى أعلم.

وأما ما لا يلتحق بشرطه فقد يكون صحيحاً على شرط غيره، وقد يكون حسناً صالحا للحجة، وقد يكون ضعيفاً لا من جهة قدح في رجاله بل من جهة انقطاع يسير في إسناده.

قال الإسماعيلي: قد يصنع البخاري ذلك إما لأنه سمعه من ذلك الشيخ بواسطة من يثق به عنه وهو معروف مشهور عن ذلك الشيخ، أو لأنه سمعه ممن ليس من شرط الكتاب فنبه على ذلك الحديث بتسمية من حدث به لأعلى جهة التحديث به عنه.

قلت والسبب فيه أنه أراد أن لا يسوقه مساق الأصل فمثال ما هو صحيح على شرط غيره قوله في الطهارة: وقالت عائشة: كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، وهو حديث صحيح على شرط مسلم وقد أخرجه في صحيحه.

ومثال ما هو حسن صالح للحجة قوله فيه: وقال بهز بن حكيم: عن أبيه عن جده «الله أحق أن يستحيا منه من الناس» وهو حديث حسن مشهور عن بهز أخرجه أصحاب السنن.

ومثال ما هو ضعيف بسبب الانقطاع لكنه منجبر بأمر آخر قوله في كتاب الزكاة وقال طاوس: قال معاذ بن جبل لأهل اليمن: «ائتوني بعرض ثياب خميص أو لبيس في الصدقة مكان الشعير والذرة أهون عليكم وخير لأصحاب محمد ﷺ» فإسناده إلى طاوس صحيح إلا أن طاوسا لم يسمع من معاذ.

فأما ما اعترض به بعض المتأخرين بنقضه هذا الحكم في صيغة الجزم وأنها لا تفيد الصحة إلا من علق عنه بأن المصنف أخرج حديثاً قال فيه: قال عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تفاضلوا بين الأنبياء... الحديث» فإن أبا مسعود الدمشقي جزم بأن هذا ليس بصحيح، لأن عبد الله بن الفضل إنما رواه عن الأعرج عن أبي هريرة لا عن أبي سلمة، ثم قوى ذلك بأن

المصنف أخرجه في موضع آخر موصولاً فقال: عن عبد الله بن الفضل عن الأعرج عن أبي هريرة (انتهى)

فهذا اعتراض مردود والقاعدة صحيحة لا تنتقض بهذا الإيراد الواهي، وقد روى الحديث المذكور أبو داود الطيالسي في مسنده عن عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة عن أبي هريرة، كما علقه البخاري سواء فبطل ما ادعاه أبو مسعود من أن عبد الله بن الفضل لم يروه إلا عن الأعرج، وثبت أن لعبد الله بن الفضل فيه شيخين.

والصيغة الثانية وهي صيغة التمريض لا تستفاد منها الصحة إلا من علق عنه لكن فيه ما هو صحيح، وفيه ما ليس بصحيح.

فأما ما هو صحيح فلم نجد فيه ما هو على شرطه إلا مواضع يسيره جداً، ووجدناه لا يستعمل ذلك إلا حيث يورد ذلك الحديث المعلق بالمعنى كقوله في الطب: ويذكر عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الرقي بفاتحة الكتاب، فإنه أسنده في موضع آخر من طريق عبيد الله بن الأخنس عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي فيهم لديغ... فذكر الحديث في رقيتهم للرجل بفاتحة الكتاب، وفيه قول النبي ﷺ لما أخبروه بذلك أن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله، فهذا كما ترى لما أورده بالمعنى لم يجزم به، إذ ليس في الموصول أنه ﷺ ذكر الرقية بفاتحة الكتاب، إنما فيه أنه لم ينههم عن فعلهم فاستفيد ذلك من تقريره.

وأما ما لم يورده في موضع آخر مما أورده بهذه الصيغة فمنه ما هو صحيح إلا أنه ليس على شرطه، ومنه ما هو حسن، ومنه ما هو ضعيف فرد إلا أن العمل على موافقته، ومنه ما هو ضعيف فرد لا جابر له.

فمثال الأول: أنه قال في الصلاة: ويذكر عن عبد الله بن السائب قال: قرأ النبي ﷺ المؤمنون في صلاة الصبح، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى أخذته سعلة فركع، وهو حديث صحيح على شرط مسلم أخرجه في صحيحه إلا أن البخاري لم يخرج لبعض رواته.

وقال في الصيام: ويذكر عن أبي خالد عن الأعمش عن الحكم ومسلم البطين وسلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد عن ابن عباس قال: قالت امرأة للنبي ﷺ: إن أختي ماتت وعليها صوم شهرين متتابعين... الحديث، ورجال هذا

الإسناد رجال الصحيح إلا أن فيه اختلافاً كثيراً في إسناده، وقد تفرد أبو خالد سليمان بن حيان الأحمر بهذا السياق، وخالف فيه الحفاظ من أصحاب الأعمش.

ومثال الثاني: وهو الحسن قوله في البيوع: ويذكر عن عثمان بن عفان ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «إذا بعت فكل وإذا ابتعت فاكتل» وهذا الحديث قد رواه الدارقطني من طريق عبد الله بن المغيرة وهو صدوق، عن منقذ مولى عثمان وقد وثق، عن عثمان به، وتابعه عليه سعيد بن المسيب، ومن طريقه أخرجه أحمد في المسند إلا أن في إسناده ابن لهيعة، ورواه بن شيبة في مصنفه من حديث عطاء عن عثمان وفيه انقطاع فالحديث حسن لما عضده من ذلك.

ومثال الثالث: وهو الضعيف الذي لا عاضد له إلا أنه على وفق العمل قوله في الوصايا: ويذكر عن النبي ﷺ أنه قضى بالدين قبل الوصية، وقد رواه الترمذي موصولاً من حديث أبي إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور عن علي والحارث ضعيف، وقد استغربه الترمذي، ثم حكى إجماع أهل العلم على القول به.

ومثال الرابع: وهو الضعيف الذي لا عاضد له وهو في الكتاب قليل جداً وحيث يقع ذلك فيه يتعقبه المصنف بالتضعيف بخلاف ما قبله فمن أمثلته قوله في كتاب الصلاة: ويذكر عن أبي هريرة رفعه: «لا يتطوع الإمام في مكانه» ولم يصح، وهو حديث أخرجه أبو داود من طريق ليث بن أبي سليم عن الحجاج بن عبيد عن إبراهيم بن إسماعيل عن أبي هريرة و ليث بن أبي سليم ضعيف، وشيخ شيخه لا يعرف، وقد اختلف عليه فيه.

فهذا حكم جميع ما في الكتاب من التعاليق المرفوعة بصيغتي الجزم والتمريض، وهاتان الصيغتان قد نقل النووي اتفاق محققي المحدثين وغيرهم على اعتبارهما، وأنه لا ينبغي الجزم بشيء ضعيف لأنها صيغة تقتضي صحته عن المضاف إليه، فلا ينبغي أن تطلق إلا فيما صح.

قال: وقد أهمل ذلك كثير من المصنفين من الفقهاء وغيرهم، واشتد إنكار البيهقي على ما خالف ذلك وهو تساهل قبيح جداً من فاعله، إذ يقول في الصحيح يذكر ويروي، وفي الضعيف قال وروي، وهذا قلب للمعاني وحيد عن الصواب.

قال: وقد اعتنى البخاري رحمه الله باعتبار هاتين الصيغتين وإعطائهما حكمهما في صحيحه فيقول في الترجمة الواحدة بعض كلامه بتمريض وبعضه بجزم، مراعياً

ما ذكرنا، وهذا مشعر بتحريه وورعه، وعلى هذا فيحمل قوله: «ما أدخلت في الجامع إلا ما صح» أي: مما سقت إسناده والله تعالى أعلم».

وقد تبين مما فصلنا به أقسام تعاليقه أنه لا يفتقر إلى هذا الحمل، وأن جميع ما فيه صحيح، باعتبار أنه كله مقبول ليس فيه ما يرد مطلقاً إلا النادر فهذا حكم المرفوعات.

وأما الموقوفات: فإنه يجزم منها بما صح عنده ولو لم يكن على شرطه ولا يجزم بما كان في إسناده ضعف أو انقطاع، إلا حيث يكون منجبراً إما بمجيئه من وجه آخر وإما بشهرته عمن قاله، وإنما يورد ما يورد من الموقوفات من فتاوى الصحابة والتابعين، ومن تفاسيرهم لكثير من الآيات على طريق الاستئناس والتقوية لما يختاره من المذاهب في المسائل التي فيها الخلاف بين الأئمة، فحينئذ ينبغي أن يقال جميع ما يورد فيه إما أن يكون مما ترجم به، أو مما ترجم له، فالمقصود من هذا التصنيف بالذات هو الأحاديث الصحيحة المسندة، وهي التي ترجم لها، والمذكور بالعرض والتبع الآثار الموقوفة والأحاديث المعلقة نعم والآيات المكرمة، فجميع ذلك مترجم به إلا أنها إذا اعتبرت بعضها مع بعض، واعتبرت أيضاً بالنسبة إلى الحديث يكون بعضها مع بعض منها مفسر ومنها مفسر، فيكون بعضها كالمترجم له باعتبار، ولكن المقصود بالذات هو الأصل فافهم هذا فإنه مخلص حسن يندفع به اعتراض كثير عما أورده المؤلف من هذا القبيل والله الموفق.

وهذا حين الشروع في سياق تعاليقه المرفوعة والإشارة إلى من وصلها وأضفت إلى ذلك المتابعات لالتحاقها بها في الحكم وقد بسطت ذلك جميعه في مصنف كبير سميته «تغليق التعليق» ذكرت فيه جميع أحاديثه المرفوعة وآثاره الموقوفة وذكرت من وصلها بأسانيدي إلى المكان المعلق فجاء كتاباً حالفاً وجامعاً كاملاً لم يفرده أحد بالتصنيف، وقد صرح بذلك الحافظ أبو عبد الله بن رشيد في كتاب ترجمان التراجم له فقال: «وهو أي التعليق مفتقر إلى أن يصنف فيه كتاب يخصه، تسند فيه تلك المعلقات وتبين درجتها من الصحة والحسن أو غير ذلك من الدرجات» وما علمت أحداً تعرض لتصنيف في ذلك وإنه لمهم لا سيما لمن له عناية بكتاب البخاري (انتهى كلام الحافظ).

***

خامساً

ثناء العلماء على صحيح البخاري

بعد أن علمنا منهج الإمام البخاري في الصحيح، واستمتعنا سوياً بكلام الحافظ الهمام ابن حجر العسقلاني نأتي إلى ثناء العلماء على صحيح البخاري، وقد مر بك طرفاً من ذلك في أثناء الحديث على منهج البخاري في الصحيح في كلام الحافظ ابن حجر فنقول مستعينين بالله:

قال الحافظ ابن حجر: قال أبو الهيثم الكشميهني: سمعت الفربري يقول: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: «ما وضعت في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين».

وعن البخاري قال: «صنفت الجامع من ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله».

وقال أبو سعيد الإدريسي: أخبرنا سليمان بن داود الهروي سمعت عبد الله بن محمد بن هاشم يقول: قال عمر بن محمد بن بجير البجيري: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: «صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثاً حتى استخرت الله تعالى وصليت ركعتين، وتيقنت صحته».

قلت: الجمع بين هذا وبين ما تقدم أنه كان يصنفه في البلاد أنه ابتدأ تصنيفه وترتيبه وأبوابه في المسجد الحرام، ثم كان يخرج الأحاديث بعد ذلك في بلده وغيرها ويدل عليه قوله: إنه أقام فيه ست عشرة سنة فإنه لم يجاور بمكة هذه المدة كلها.

وقد روى ابن عدي عن جماعة من المشايخ أن البخاري حول تراجم جامعه بين قبر النبي ﷺ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين.

قلت: ولا ينافي هذا أيضاً ما تقدم لأنه يحمل على أنه في الأول كتبه في المسودة، وهنا حوله من المسودة إلى المبيضة.

وقال الفربري سمعت محمد بن حاتم وراق البخاري يقول: «رأيت البخاري في المنام خلف النبي ﷺ والنبي ﷺ يمشي، فكلما رفع النبي ﷺ قدمه وضع أبو عبد الله قدمه في ذلك الموضع».

وقال الخطيب: أنبأنا أبو سعد الماليني أخبرنا أبو أحمد بن عدي سمعت الفربري يقول: سمعت نجم بن فضيل وكان من أهل الفهم يقول: «رأيت النبي ﷺ في المنام

خرج من قبره، والبخاري يمشي خلفه فكان النبي ﷺ إذا خطا خطوة يخطو محمد ويضع قدمه على خطوة النبي ﷺ».

قال الخطيب: وكتب إليَّ علي بن محمد الجرجاني من أصبهان أنه سمع محمد بن مكي يقول: سمعت الفربري يقول: «رأيت النبي ﷺ في النوم فقال لي: أين تريد ؟ فقلت أريد محمد بن إسماعيل فقال: أقرئه مني السلام».

وقال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي: فيما قرأنا على فاطمة وعائشة بنتي محمد بن الهادي أن أحمد بن أبي طالب أخبرهم عن عبد الله بن عمر بن علي أن أبا الوقت أخبرهم عنه سماعاً أخبرنا أحمد بن محمد بن إسماعيل الهروي سمعت خالد بن عبد الله المروزي يقول: سمعت أبا سهل محمد بن أحمد المروزي يقول: سمعت أبا زيد المروزي يقول: «كنت نائماً بين الركن والمقام فرأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: يا أبا زيد إلى متى تدرس كتاب الشافعي ولا تدرس كتابي، فقلت: يا رسول الله وما كتابك قال: جامع محمد بن إسماعيل».

وقال الخطيب: حدثني محمد بن علي الصوري حدثنا عبد الغني بن سعيد حدثنا أبو الفضل جعفر بن الفضل أخبرنا محمد بن موسى بن يعقوب بن المأمون قال: سئل أبو عبد الرحمن النسائي عن العلاء وسهيل فقال: هما خير من فليح، ومع هذا فما في هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن إسماعيل ز

وقال أبو جعفر العقيلي: «لما صنف البخاري كتاب الصحيح عرضه على ابن المديني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهم فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة إلا أربعة أحاديث، قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة».

وقال الحاكم أبو أحمد: «رحم الله محمد بن إسماعيل الإمام فإنه الذي ألف الأصول وبين للناس وكل من عمل بعده فإنما أخذه من كتابه، كمسلم فرق أكثر كتابه وتجلد فيه حق الجلادة، حيث لم ينسبه إليه».

وقال أبو الحسن الدارقطني الحافظ: «لولا البخاري لما راح مسلم ولا جاء».

وقال أيضاً: «إنما أخذ مسلم كتاب البخاري فعمل فيه مستخرجاً وزاد فيه أحاديث».

***

سادساً

شراح صحيح البخاري

وإتماماً للفائدة، وطلباً للنفع نسرد لك ما استطعنا ذكره من شروح هذا السفر العظيم صحيح أمير المؤمنين في الحديث أبي عبد الله البخاري فنقول مستعينين بالله:

لم يحظ كتاب من كتب الحديث بعناية العلماء مثل ما حظي به كتاب «صحيح البخاري» فقد اعتنى به شرحاً له واستنباطاً للأحكام منه، وتكلماً على رجاله وتعاليقه، وشرحاً لغريبه وبياناً لمشكلات إعرابه، إلى غير ذلك.

وقد كثرت شروحه حتى قال صاحب كشف الظنون: إنها تزيد على اثنين وثمانين شرحاً، وذلك ما عدا ما ألف بعد عصر صاحب الكشف، ومن أهم هذه الشروح:

١-فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لشيخ الإسلام، لإمام الحافظ في زمانه أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، المولود سنة ٧٧٣هـ، والمتوفى سنة ٨٥٢هـ.

وفتح الباري من أوسع الشروح ويقع في ثلاثة عشر مجلداً، ومقدمته في مجلد ضخم سماه الحافظ ابن حجر: هدى الساري مقدمة فتح الباري، تكلم فيها عن منزلة صحيح البخاري، ثم عرض فيها لتراجم صحيح البخاري وتعليقاته، كما تعرض للأحاديث التي انتقدها البعض على الإمام البخاري وأجاب عنها حديثاً إجابة شافية وافية، وأيضاً تعرض فيها للرجال الذين انتقدوا من رجال صحيح البخاري، وأجاب عن الاعتراضات أيضاً جملة وتفصيلاً، وختم هذه المقدمة الرائعة بترجمة وافية للإمام البخاري صاحب صحيح البخاري، فأتت هذه المقدمة وافية بالمقام لا تنفصل عن الشرح ولا يقرأ الشرح إلا بعدها نظراً لأهميتها بالنسبة لمجمل هذا الشرح المبارك.

أما طريقة كتابة الفتح: فقد شرح الحافظ ابن حجر شرحاً مستفيضاً من ناحية اللغة والإعراب والنكات الأدبية والبلاغة والاستنباطات الفقهية، كما أنه عرض لدقائق خفية، وحقائق جلية، وأسهب في الأمور المختلف فيها بين العلماء وحررها تحريراً دقيقاً من غير تحيز ولا تحيف، وقد امتاز بجمع طرق الأحاديث التي يستشهد بها، ويخرجها مع بيان درجتها من القوة والضعف.

ولا يزال فتح الباري محل الحظوة من جميع أهل العلم قديماً وحديثاً، وعليه مدار الشروح بعده في كل زمان.

٢- عمدة القاري في شرح البخاري، للعلامة: بدر الدين محمود بن أحمد العيني المولد سنة: ٧٦٢هـ والمتوفى سنة: ٨٥٥هـ.

وهو شرح وسيط، أفرد فيه الكلام على تراجم الرواة، تباين الأنساب، واللغات، والإعراب، والمعاني والبيان، وهذا إلى ما فيه من الاستنباطات الفقهية، والفوائد المأخوذة من الأحاديث.

وأفاد صاحب كشف الظنون العيني استمد شرحه من فتح الباري للحافظ ابن حجر، بحيث كان ينقل الصفحة بأكملها، وتعقب الحافظ ابن حجر في مواضع من شرحه هذا.

٣- إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، للشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، المتوفى سنة: ٩٢٢هـ، وهو تلخيص للشرحين السابقين، والكتاب المعروف بشرح القسطلاني، وقد عقد في أوله مقدمة بين فيها منـزلة الحديث النبوي من الدين، وعناية الأمة به حفظاً وجمعاً وتدويناً.

٤- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: للعلامة شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني المتوفى سنة: ٧٨٦هـ.

وهو شرح وسيط شرح فيه الألفاظ اللغوية، وضبط الروايات وأسماء الرجال وألقاب الرواة، ووفق بين الروايات التي يوهم ظاهرها التعارض.

قال فيه صاحب كشف الظنون: وهو شرح وسط مشهور بالقبول، جامع لفرائد الفوائد، وزوائد الفرائد.

٥- شرح الإمام أبي زكريا محيي الدين ابن شرف النووي المتوفى سنة: ٦٧٦هـ، وسلك فيه مسلك التوسط، وبلغ في هذا الشرح إلى آخر كتاب الإيمان حتى اخترمته المنية.

٦- شرح الإمام أبي سليمان الخطابي المتوفي سنة: ٣٠٨هـ، وهو شرح لطيف

فيه نكت لطيفة ولطائف شريفة سماه أعلام السنن، وهو في مجلد نقل عنه الكرماني كثيراً في شرحه.

٧- شرح الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة: ٩١١هـ، وهو تعليق لطيف سماه: بالتوشيح على الجامع الصحيح.

٨- التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح للشيخ الإمام زين الدين أبي العباس أحمد بن أحمد الزبيدي المتوفى سنة: ٨٩٣هـ، حذف فيه ما تكرر، وجمع ما تفرق في الأبواب، وشرح هذا المختصر شيخ الإسلام الشيخ عبد الله الشرقاوي في كتاب أسماه: فتح المبدي في شرح مختصر الزبيدي.

وتوجد شروح أخرى غير هذه، ولكن ذكرها في هذا المقام جاء على سبيل المثال والإشارة إلى غيرها مما لم نذكره.

وبهذه القائمة من شروح صحيح البخاري نكون قد وصلنا إلى آخر هذا الفصل الذي طوفنا بك من خلاله حوى منهج البخاري في كتابه الصحيح حتى تكون على بينة نفعك الله عز وجل بالعلم، ونفحك بنعمة الفهم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

وعليه أتوكل[١]

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المجلس الأول

في ترجمة البخاري ﷺ ونفعنا به وفي ذكر شيء من فضائله

فإنه كان من أكابر العلماء، والأولياء والصالحين، وبذكر الأولياء والعلماء والصحابة تنزل الرحمة، كما تنزل على مجالس العلماء، فإن مجالس العلماء روضة من رياض الجنة، تنزل عليهم الرحمة كما ينزل المطر من السماء، تدخل العصاةُ مذنبين وينصرفون مغفوراً لهم، الملائكة تستغفر لهم، ما داموا جلوساً عندهم، إن الله تعالى ينظر إليهم، فيغفر للعالم والمستمع والمحب لهم، فكيف لا تجب محبتهم وإكرامهم، والله تعالى بسببهم ينزل الرحمة على كل من حضر المجالس التي فيها ذكرهم، وكذا ذكر أهل الخير والصلاح فعليك بمجالسة العلماء تنتفع بالحضور عندهم، فإنه من جالس الأخيار سلم، ومن جالس الأشرار ندم، ومن جالس العلماء غنم، نفعنا الله بهم في الدارين.

نسب الإمام البخاري

ولنبدأ بنسبه فنقول:

أما نسبه فهو: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَة الجعفي.

وجده «بَرْدِزْبَة» كان فارسياً مجوسياً على دين قومه، مات ولم يسلم.

«بَرْدِزْبَة» لفظة بخارية ومعناه بالعربية: الزارع[٢]، وجده المغيرة والد «بَرْدِزْبَة» كان مجوسياً، ولكنه أسلم على يد اليمان الجعفي والى بخارى، فلهذا يقال للبخاري الجعفي لكون جده المغيرة أسلم على يد اليماني الجعفي بمذهب من يرى أن من أسلم

---

(١) في الأصل: « توكل » وما أثبت ليستقيم المعنى ولعلها: « أتوكل »، وهذا ما أثبته.

(٢) وتعني أيضًا بالفارسية: الفلاح أو البستاني.

على يد شخص كان ولاؤه له[١].

وجـــده إبراهيم ولد المغيرة قال شيخ الإسلام ابن حجر: لم نقف على شيء من أخباره.

وأمـــا والـــده إسماعيل فإنه كان من خيار الناس ﷺ حضر الأكابر، وسمع منهم كالإمـــام مالك، وحماد بن زيد، وصحب عبد الله بن المبارك ومات والبخاري صغير فنشأ في حجر أمه.

وكانت رضي الله عنها مجابة الدعوة، ومن كراماتها: أن البخاري ذهب بصره في صغره، فرأت أمه في المنام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال لها: يا هذه قد رَدَّ الله على ابنك بصره بكثرة دعائك أو بكائك، فأصبح وقد رَدَّ الله بصره عليه.

ولـــد ﷺ بـــبخارى بالإجماع يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشر ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائه، وحج ﷺ مع أمه وأخيه أحمد.

مناقب البخاري

وكـــان أخوه أسنَّ منه، فأقام هو بمكة يطلب العلم مجاوراً، ورجع أخوه أحمد إلى بخارى فمات بها.

وأمـــا حفظه وسيلان ذهنه ففي الغاية والنهاية، نقل عنه ورَّاقُه[٢] أنه قال: ألهمت حفـــظ الحديث وأنا في الكُتَّاب، قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل.

ونقـــل عـــنه أنه قال: أحفظ مائه ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح.

واتفـــق له حكايـــة عجيبة تدل على قوة حفظه وهي: أنه لما دخل بغداد سمع به أصـــحاب الحديث، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد إلى إسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس، لكل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يـــلقوا ذلك على البخاري، فلما اجتمعوا وحضر في المجلس خلق كثير واطمأن المجلس

---

(١) المراد أنه من باب الوفاء والاعتراف بفضل أهل الفضل فينسب الفضل لهم، وإسلام المغيرة جد البخاري على يد اليماني سبب في أن يقال له الجعفي تذكيراً بهذا الفضل العظيم.

(٢) وهو: محمد بن أبي حاتم والمراد بقوله « وراقه » أي الذي يأتي له بالورق الذي يكتب عليه. انظر: ترجمة البخاري بأول فتح الباري (١/١٤) ط. دار الغد العربي.

بأهله، انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فمازال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول له: لا أعرفه، فكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: فهم الرجل، من كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ، ثم انتدب رجل أيضاً من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول له: لا أعرفه، ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا.

فلما عرف أنهم قد فرغوا، التفت إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا، وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاة حتى أتى على تمام العشرة فرد كل سند إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقر الناس له بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: هنا [يخضع للبخاري] [1] فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب، فإنه كان حافظاً، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة.

ذكر مشايخ البخاري

وأما مشايخه الذين كتب عنهم فقد نقل عنه أنه قال: كتبت عن ألف وثمانين نفساً، ليس منهم إلا صاحب حديث.

ونقل عنه أنه قال: ما قدمت على شيخ إلا كان انتفاعه بي أكثر من انتفاعي به.

وأما الجماعة الذين قرؤوا عليه وأخذوا عنه الحديث فخلق كثيرون نحو مائة ألف أو يزيدون، أو ينقصون، وكان يحضر مجلسه أكثر من عشرين ألفاً يأخذون عنه.

ذكر تعظيم الناس للبخاري

وأما ثناء الناس عليه وتعظيمهم له فقد قال ابن خزيمة: «ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث منه وأحفظ»[2].

---

(١) ما بين [ ] هكذا بالأصل وفي مقدمة فتح الباري (ص ٤٨٦) يقول ابن حجر: قلت هنا يخضع العالمين... إلى آخره. وقاله الحافظ أيضا في تغليق التعليق (٥/٤١٥).

(٢) انظر: التقييد (ص ٣٢)، وتذكرة الحفاظ (٢/٥٥٦)، وابن حجر في تغليق التعليق (٥/٤١١)، وفي مقدمة فتح الباري (ص ٤٨٥).

وقال بعضهم: «هو آية من آيات الله يمشي على وجه الأرض»[١].

وقال له الإمام مسلم مؤلف الصحيح: «أشهد أنه ليس في الدنيا مثلك»[٢].

وكان مسلم كلما دخل يسلم ويقول: «دعني أقبل رجليك يا طبيب الحديث في علله، ويا أستاذ الأستاذين، ويا سيد المحدثين»[٣].

وقال أبو عيسي الترمذي: «لم أر مثله جعله الله زين هذه الأمة»[٤].

وقال عبد الله بن حماد: «وددت أن لو كنت شعرة في جسد محمد بن إسماعيل»[٥].

وحكي أن أهل بغداد كتبوا إلى البخاري كتاباً يثنون عليه فيه ومن جملته:

---

(١) الذي قال ذلك رجاء الحافظ، قال الذهبي في السير (٤٢٧/١٢) يقول أبو عمرو المستنير بن عتيق سمعت رجاء بن المرجى الحافظ يقول: فضل محمد بن إسماعيل على العلماء كفضل الرجال على النساء، فقال له رجل يا أبا محمد كل ذلك بمرة، فقال: هو آية من آيات الله يمشي على ظهر الأرض.

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٥/٢) قال: أخبرني أبو الوليد قال: أنبأنا محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان، قال: أنبأنا محمد بن سعيد، قال: نبأنا محمد بن يوسف، قال: نبأنا محمد بن أبي حاتم، قال: سمعت أبا عمرو المستنير بن عتيق البكري، قال: سمعت رجاء بن المرجى يقول:... فذكره.

(٢) حدث بذلك أبو عيسى الترمذي صاحب السنن، ونقله عنه ابن حجر في تغليق التعليق (٤١١/٥)، وفي مقدمة فتح الباري (ص ٤٨٥).

(٣) رواه الحاكم في معرفة علوم الحديث (١١٣/١) قال: حدثني أبو نصر أحمد بن محمد الوراق قال سمعت أبا حامد أحمد بن حمدون القصار يقول سمعت مسلم بن الحجاج... فذكره.

ورواه أيضاً: الخطيب في تاريخ بغداد (١٠٢/١٣)، وذكره ابن حجر في مقدمة فتح الباري (ص ٤٨٨)، وفي تغليق التعليق (٤٢٩/٥)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٤٣٢/١٢)، وابن مفلح في المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد (٩٥/٢)، وتهذيب الأسماء (٨٨/١).

(٤) ذكره الذهبي في السير (٤٣٣/١٢) وعبارته: وقال أبو عيسى الترمذي: كان محمد بن إسماعيل عند عبد الله بن منير، فلما قام من عنده قال له: «يا أبا عبد الله جعلك الله زين هذه الأمة» قال الترمذي: استجيب له فيه.

وذكره الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (٤٥/٩) وعبارته: قال له أبو عيسى الترمذي: «قد جعلك الله زين هذه الأمة يا أبا عبد الله».

(٥) رواه عنه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٨/٢)، ونقله عنه الذهبي في السير (٤٣٧/١٢)، والنووي في تهذيب الأسماء (ص ٨٨).

وانظر: تهذيب الكمال (٤٥٨/٢٤)، والتقييد (٣٣/١)، ومقدمة فتح الباري (ص٤٨٥).

المسلمون بخير ما بقيت لهم وليس بعدك خير حين تفتقد[١]

قال الحاكم: «ولوفتحنا باب الثناء عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس، ونفذت الأنفاس، فذاك بحر لا ساحل له» [٢].

رحلته في طلب الحديث

وأما رحلته لأجل أخذ العلم والحديث من العلماء فقد رحل رحلات واسعات، وكتب عن شيوخ متوافرات، وافية متكاثرات، ونقل عنه أنه قال: «دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، لا أُحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدثين»[٣].

كتابه الصحيح وسبب تأليفه

وأما كتابة الصحيح فليس بعد القرآن كتاب أصح منه، وهو أصح من صحيح مسلم على الصحيح، واسمه «**الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**» كذا سماه هو ﷺ.

وروي عنه أنه قال: «صنفت كتاب الصحيح في ستة عشر سنة، وخرجت من ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة بيني وبين الله عز وجل»[٤].

وسبب تصنيفه لهذا الكتاب ما نقل عنه أنه قال: «رأيت النبي ﷺ في المنام كأني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب بها عنه، فسألت بعض المعبرين فقال: أنت تذب الكذب عن حديثه ﷺ فهو الذي حملني على إخراج الصحيح»[٥].

ونقل عنه أنه قال: «ما وضعت في كتابي هذا حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين»[٦].

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/٢٢) من طريق يحيى بن عمرو بن صالح الفقيه يقول: سمعت أبا العباس محمد بن عبد الرحمن الفقيه يقول: كتب أهل بغداد إلى محمد بن إسماعيل... فذكره.
وانظر: تهذيب الكمال (٢٤/٤٥٨)، والتقييد (١/٣٣)، ومقدمة فتح الباري لابن حجر (ص٤٨٥).

(٢) نقله عن الحاكم الحافظ ابن حجر في المقدمة (ص ٤٨٥) وقال: ذكر ذلك في كتابه الكنى.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٧).

(٤) ذكره النووي في تهذيب الأسماء (ص ٩١).

(٥) ذكره النووي في تهذيب الأسماء (ص ٩٢).

(٦) رواه عنه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/٩)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٤/٤٤٣)، والذهبي في السير (١٢/٤٠٢)، وانظر: تهذيب التهذيب (٩/٤٢)، (ص ٩٢)، وطبقات الحفاظ =

قيـــل: كان تصنيفه لهذا الكتاب بمكة المشرفة، والغسل بماء زمزم، والصلاة خلف المقام.

وقيل: كان بالمدينة الشريفة، وترجم أبوابه في الروضة المباركة، وصلى لكل ترجمة ركعتين [١].

وـــله تصـــانيف كثيرة غير الصحيح نقل عنه ﷺ أنه قال: «أقمت بالبصرة خمس ســـنين مع كتبي، أصنف وأحج في كل سنة، وأرجع من مكة إلى البصرة، قال: وأنا أرجو أن الله يبارك للمسلمين في هذه المصنفات» ولقد بارك الله فيها.

زهده وورعه وفضله

وأمـــا ســـيرته ومناقبه وشمائله وفضائله وزهده وورعه فكثيرة كلَّت الكتَّاب عن حصرها.

قيل: إنه كان عنده شيء من شعرات النبي ﷺ فجعله في ملبوسه.

ومـــن فضائله: أنه قال على سبيل التحدث بالنعمة: «إني لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحد من هذه الأمة»[٢].

اسمع واتعظ يا من يغتاب الناس ويمزق أعراضهم: «أوحى الله إلى موسى عليه السلام من مـــات تائباً من الغيبة، فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار».

وجـــاء في الحديـــث: «**من كف لسانه عن أعراض الناس أقال الله عثرته يوم القيامة**»[٣].

وحكـــي عـــن داود الطـــائي ﷺ أنه مر يوماً بموضع فوقع مغشياً عليه فحل إلى

=(ص ٢٥٣).

(١) رواه الخطيـــب في تاريخ بغداد (٩/٢) من طريق عبد القدوس بن همام يقول: سمعت عدة من المشـــايخ يقولـــون: حول محمد بن إسماعيل البخاري تراجم جامعه بين قبر النبي ﷺ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين.

(٢) رواه عنه المزي في تهذيب الكمال (٤٤٦/٢٤)، والحافظ بن حجر من طريقه في تغليق التعليق (٣٩٧/٥)، ونقلـــه الذهـــبي في السير (٤٣٩/١٢). وانظر: مقدمة فتح الباري (ص٤٨٠)، وصفة الصفوة (١٧١/٤).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢٧٩/١، رقم ٤٥٤) عن أبي هريرة مرفوعاً: بطرف: « من أقال نادماً أقاله الله تعالى عثرته يوم القيامة ومن كف... فذكره ».

منـــزله فلما أفاق سئل عن ذلك فقال: «ذكرت أني اغتبت رجلاً في هذا الموضع، فذكرت مطالبته إياي بين يدي الله تعالى».

قال بعضهم: «الغيبة فاكهة الفقراء، وضيافة الفساق، وبساتين الملوك، ومراتع النساء، ومزابل الأتقياء».

وقال حاتم الأصم: «المغتاب والنمام قردا أهل النار، والكذب كلب أهل النار، والحاسد خنـــزير أهل النار».

وحكي: أن عيسي عليه السلام رأى إبليس وفي يده عسلاً، وفي الأخرى رماداً، فسأله عن ذلك فقال: العسل أجعله في شفاه المغتابين، والرماد أجعله في وجوه الأيتام، حتى يرمدوا فيستقذرهم الناس فلا يفعلون معهم خيراً.

ومنها: أن والده إسماعيل كان كثير المال، نقل عن والده أنه قال: لا أعلم في مالي درهماً من حرام، ولا درهما من شبهة، فلما مات والده إسماعيل انتقل المال إليه، فكان يعطيه مضاربة، فقطع له غريم خمسة وعشرين ألفاً، فقالوا له: استعن عليه بالوالي، فقال: لن أبيع ديني بدنياي، ثم صالح غريمه على أن يعطيه كل شهر عشرة دراهم، وذهب ذلك المال كله[1].

وحمل إليه بعض عماله بضاعة وكانت مطلوبة، فجاءت إليه التجار آخر النهار وطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم فردهم، فقال لهم: انصرفوا الليلة، فجاءه من الغد تجاراً آخرون فطلبوا منه البضاعة تربح عشرة آلاف درهم، فردهم وقال: إني نويت البارحة أن أدفع إلى الأولين، فلا أغير نيتي ودفعها إليهم[2].

ونقل عنه أنه قال: كنت استغل كل شهر خمسمائة درهم فأنفقها في الطلب، وما عند الله خير وأبقى[3].

ومع كثرة هذا المال كان يأتي عليه نهار لا يأكل فيه، وكان أحياناً يأكل لوزتين أو ثلاثاً، وكان يتصدق بماله على الفقراء.

---

(١) أورده الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٥/٣٩٤) حكاية عن وراق الإمام البخاري، وذكره أيضاً في مقدمة فتح الباري (ص ٤٧٩).

(٢) ذكره ابن حجر في تغليق التعليق (٥/٣٩٥) وعزاه إلى غنجار في تاريخه، وانظر: صفة الصفوة (٤/١٧٠).

(٣) انظر: تغليق التعليق (٥/٣٩٥)، ومقدمة فتح الباري (ص ٤٨٠).

طلبه العلم مع سعة ماله ﷺ

وطلبه العلم مع سعة هذا المال نقل عنه أنه قال: ما اشتريت من حين ولدت من أحد بدرهم ولا بعت أحداً شيئاً، فسئل عن الورق الذي يكتب فيه والحبر فقال: كنت أوكل إنساناً يشتري لي، فكيف لا يكون ولياً.

زهد البخاري

وقد زهد في الدنيا وآثر غيره على نفسه، وصبر على شدة الجوع مع كثرة ما معه من مال، وكل هذا من علامات الأولياء.

قال إبراهيم بن أدهم لرجل: أتحب أن تكون لله ولياً؟ قال: نعم، قال: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرِّغ نفسك لله، وأقبل عليه بوجهك ليقبل عليك ويواليك.

بل كثير من أولياء الله يأتيهم رزقهم من غير تعب ولا تكلف، كما حكي عن عتبة الغلام أنه دعا ربه أن يهب له ثلاث خصال في دار الدنيا، دعا أن يمن عليه بصوت حزين، ودمع غزير، وطعام من غير تكلف، فكان إذا قرأ بكى وأبكى، وكانت دموعه جارية دهره، وكان يأوي إلى منزله فيصيب قوته، ولا يدري من أين يأتيه.

وحكي أن رابعة العدوية كانت تطبخ قدراً فاشتهت بصلاً فجاء طائر في منقاره بصلة فألقاها إليها.

ومنها: أنه[1] وقف يصلي فلسعه زنبور سبع عشرة مرة، و لم يقطع صلاته[2].

وفاة البخاري وما ظهر من الكرامات عند وفاته

وكانت وفاته[3] ﷺ ليلة السبت ليلة عيد الفطر، سنة ست وخمسين ومائتين، عن

---

(١) الكلام على البخاري ﷺ.

(٢) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٢/٢) عن أبي سعيد بكر بن منير يقول: كان محمد بن إسماعيل يصلي ذات يوم فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة، فلما قضى صلاته قال: انظروا أي شيء هذا الذي آذاني في صلاتي؟ فنظروا فإذا الزنبور قد ورمه في سبعة عشر موضعاً، و لم يقطع صلاته.

ورواه المزي في تهذيب الكمال (٤٤٦/٢٤)، وانظر: تهذيب التهذيب (٤٣/٩)، وتغليق التعليق (٣٩٨/٥)، ومقدمة فتح الباري (ص ٤٨٠)، وسير أعلام النبلاء (٤٤١/١٢).

(٣) قال ابن حجر في تغليق التعليق (٤٤١/٥): قال محمد بن أبي حاتم وراق البخاري سمعت =

اثنين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوماً وصفته: أنه كان نحيف الجسم، ليس بالطويل ولا بالقصير وحق أن ينشد فيه.

تراه من الذكاء نحيف الجسم ... عليه من توقده دليل
إذا كان الفتى ضخم المعالي ... فليس يضيره الجسد الضئيل[1]

ولما دفن فاح من تراب قبره رائحة طيبة كالمسك، وكان الناس تأتي إلى قبره يأخذون التراب منه للتبرك به ولشمه، حتى ظهرت الحفرة للناس، ولم يكن يقدر على حفظ القبر بالحراس فنصبوا على القبر أخشاباً مشبكة منعوا الناس بها من الوصول إلى قبره، فكانت الناس تأخذ التراب والحصيات من حوالي القبر، دامت تلك الرائحة أياماً كثيرة، حتى توارت وشاعت في جميع تلك البلاد، ولا يبعد أن تكون هذه الرائحة رائحة صيامه الذي صامه في الحياة وأخفاه عن الناس، فأظهره الله لهم بعد موته، إظهاراً لفضله وعظيم منزلته عنده.

قال العلامة ابن رجب في «اللطائف»: ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فكلما اجتهد صاحبه على إخفائه فاح ريحه، ثم قال: لما دفن عبد الله بن غالب كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك، فرؤي في النوم فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره؟ فقال: تلك رائحة التلاوة والظمأ، ولله در من قال:

وكاتم الحب يوم البين منهتك ... وصاحب الوجد لا تخفى سرائره[2]

لم ينم الصادقون أحوالهم، وريح الصدق ينم عليهم، ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه

=أبا منصور غالب بن جبريل وهو الذي نزل عليه البخاري بخرتنك يقول: أنه أقام أياماً فمرض، واشتد به المرض، حتى وجه إليه رسول من سمرقند ليخرج، فلما وافى تهيأ للركوب، ولبس خفيه وتعمم، فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها، وأنا آخذ بعضده، ورجل آخر معي يقوده إلى الدآبة ليركبها فقال رحمه الله: أرسلوني فقد ضعفت، فدعا بدعوات ثم اضطجع، فقبض فسال منه عرق كثير، وكان أوصى أن يكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة، قال: ففعلنا فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة طيبة كالمسك ودامت أياما وجعل الناس يختلفون إلى القبر أياماً يأخذون من ترابه إلى أن جعلنا عليه خشباً مشبكاً.

وانظر: سير أعلام النبلاء (١٢/٤٦٧،٤٦٦).

(١) البيتان من بحر « الوافر »، أنشدهما الشيخ أبو إسحاق الشيرازي. انظر: معجم السفر لأبي طاهر أحمد بن محمد السلفي (ص ١٢٤).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: المدهش لأبي الفرج بن الجوزي (ص ٤٤١).

الله رداءها علانية، وما أحسن قول القائل:

كـــم أكتم حبكم عن الأغياري والدمـــع يذيع في الهوى أسراري
كـــم أستركم هتكتموا أستاري مـــن يخفـــي في الهوى لهيب النار

وقيـــل: إن بعـــض العـــلماء رى ليلة موته[1] النبي ﷺ في النوم، ومعه جماعة من أصحابه، وهو واقف في موضع قال: فسلمت عليه، وقلت: يا رسول الله ما وقوفك هاهنا قال: انتظر محمد بن إسماعيل.

ونقل عن الفربري أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: أين تريد، فقلت: أريد محمد بن إسماعيل البخاري، فقال: اقرأه مني السلام[2].

وقـــال أبو زيد المروزي الفقيه: كنت نائماً بين الركن والمقام، فرأيت النبي ﷺ في المنام: فقال: يا أبا زيد إلى متى تدرس الفقه ولا تدرس كتابي؟ فقلت: يا رسول الله وما كتابك؟ فقال: جامع ابن إسماعيل[3].

وقـــال الإمام القدوة أبو محمد بن أبي جمرة المالكي نفعنا الله ببركاته: قال لي من لقيـــته من العارفين عن من لقي من السادة المقر لهم بالفضل: أن صحيح البخاري ما قريء في شدة إلا فرجت، ولا رُكب به في مركب فغرق[4].

وحكي: أنه قريء مرة في حمص لرفع البلاء فرفعه الله.

وجملة ما في صحيح البخاري من الأحاديث مع المكرر سبعة ألاف ومائتان وخمس وســـبعون حديثاً كما جزم به ابن الصلاح، وبإسقاط المكرر أربعة آلاف حديث على

---

(١) الكلام على الإمام البخاري.

(٢) رواه الخطيـــب في تـــاريخ بغداد (١٠/٢) بسنده عن أحمد محمد بن محمد بن مكي الجرجاني يقـــول: سمعت محمد بن يوسف الفربري يقول:... فذكره، وكذا المزي في تهذيب الكمال (٢٤/ ٤٤٥)، وانظـــر: تغليق التعليق (٤٢٢/٥)، ومقدمة فتح الباري (ص ٤٨٩)، وسير أعلام النبلاء (٤٤٣/١٢)، تهذيب الأسماء (ص ٨٦).

(٣) رواه الرافعي في التدوين في أخبار قزوين (٤٦/٢) وفيه: « إلى متى تدرس كتاب الشافعي ولا تـــدرس كتابي... »، وأورده ابن حجر في تغليق التعليق (٤٢٢/٥) وقال الحافظ ابن حجر عقبه: قـــلت: « إسناد هذه الحكاية صحيح ورواتها ثقات أئمة، وأبو زيد من كبار الشافعية، له وجه في المذهـــب، وقـــد سمع صحيح البخاري من الفربري، وحدث به عنه، وهو أجل من حدث به عن الفربري ». وانظر: مقدمة فتح الباري (ص ٤٨٩)، وتهذيب الأسماء (ص ٩٢).

(٤) ذكره الحافظ السيوطي في تدريب الراوي (٩٦/١).

ما قيل.

ومن شعره ﷺ وأرضاه:

اغتـــنم في الفراغ فضل الركوع فعســـى أن يكـــون موتك بغتة
كـــم صحيح رأيت من غير سقم ذهـــبت نفسه صحيحة فلتنه[1]

وكـــم له من الكرامات ﷺ، رفع الله ذكره الشريف وقد فعل، وجعل له لسان صدق في الآخرين وقد جعل.

***

(١) ذكرهما ابن حجر في تغليق التعليق (٥/٤٠٠)، ومقدمة فتح الباري (ص ٤٨١).

كتاب بدء الوحي

«قال الشيخ الحافظ الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم».

قال العلماء: «**بسم الله**» جار ومجرور متعلق بمحذوف اتفاقاً، قدره بعضهم فعلاً نظراً إلى أن الأصل في العمل الأفعال، وقدره بعضهم مصدراً مرفوعاً على الابتدا نظراً إلى أن المقام مقام الابتدا، والتقدير على الأول: «بسم الله ابتدئ» وعلى الثاني: «ابتدائي ببسم الله ثابت» فحذف المبتدأ وخبره، وبقي معمول المبتدأ والتقدير الأول أولى، لأن المصدر لا يعمل محذوفاً.

ولو قيل: إن «بسم الله» متعلق بالاستقرار على أنه في موضع الخبر لمبتدأ محذوف: والتقدير: «ابتدائي مستقر ببسم الله» لم يبعد وسلم من دعوى عمل المصدر في حالة حذفه، قاله في بعض المحققين، وقال: إنه لم يره مسطوراً.

ويقدر متعلق «بسم الله» في كل موضع بحسبه، فإن جعلت «بسم الله» للأكل، قدرت: بسم الله آكل أو أكلي، أو للشرب قدرت: بسم الله أشرب أو شربي، وما أشبه.

فالحاصل أن متعلق «بسم الله» إما «أبتدي» أو «ابتدائي»، ويسمي «المجرور» حينئذ «بالظرف اللغو»، وإما أن يكون المتعلق الاستقرار ويسمي «بالظرف المستقر»، والفرق بين الظرف اللغو والمستقر: أن الظرف اللغو ما كان عامله خاصاً كالابتداء ونحوه، والمستقر: ما كان عامله عاماً كالاستقراء ونحوه.

وإضافة «اسم» إلى «الله» **قيل**: من إضافه العام إلى الخاص «كخاتم حديد».

وقيل: المضاف هنا مقتحم جيء به لإرشاد حسن الأداء.

وقيل: الاسم هنا بمعنى التسمية.

وقيل: في الكلام حذف مضاف تقديره: باسم مسمى الله، «**والله**» علم على الذات المعبود بحق، وتفخم لامه وجوباً إذا ضم ما قبله، قال ابن الجزري:

وفخم اللام من اسم الله ... عن فتح أو ضم كعبد الله

و«**الرحمن**» على وزن فعلان مشتق من «رحم» بالكسر، «كغضبان» من غضب، وهو صفة مشبهة.

فإن قيل: كيف يأتي من «رحم» بالكسر وهو متعدد، وهي لا تأتي إلا من فعل لازم؟

أجيب عنه: بأنها بنيت من «رحم» بالكسر بعد النقل إلى فعل بالضم، أو بعد تنـــزيل المتعدي منـــزلة الفعل اللازم، كما في قولك: «فلان يعطي».

وههنا سؤال وهو: **إن قيل:** «الرحمن والرحيم» صفتان مشتقتان من الرحمة، والرحمة: رقة القلب، وهي في حق الله محال تعالى سبحانه عن أن يكون له قلب أو نحوه من صفات الأجسام؟

والجواب عنه: أن أسماء الله تؤخذ باعتبار الغايات، فإذا وصف الله بأمر و لم يصح وصفه به، يحمل على غاية ذلك، وهذه قاعدة في كل مقام، وغاية رقة القلب التفضل والإحسان فهو المراد هنا.

وابتدأ البخاري -رحمه الله تعالى- كتابه «ببسم الله الرحمن الرحيم» اقتداء بالقرآن الكريم العظيم، وعملاً بقول النبي ﷺ «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر**»[1] أي: ذاهب البركة، رواه الخطيب بهذا اللفظ في كتابه الجامع،

---

(١) ذكره النووي بهذا اللفظ في شرحه على صحيح مسلم (٤٣/١) وعزاه إلى عبد القادر الرهاوي في كتابه «الأربعين»، وكذا الحافظ السيوطي في الجامع الصغير انظر: فيض القدير (١٤/٥)، قال المناوي: ورواه كذلك الخطيب في تاريخه عن أبي هريرة.

قلت: و لم أقف عليه في تاريخ بغداد، وإنما أورده الخطيب بدون إسناد في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩/٢، رقم ١٢٠٩) وقد أشار المصنف إلى ذلك (محقق).

وقد عدد النووي في شرحه على مسلم (٤٣/١) الروايات في هذا الحديث فقال: «كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله فهو أقطع»، وفي رواية: «بحمد الله»، وفي رواية: «بالحمد فهو أقطع»، وفي رواية: «أجذم»، وفي رواية: «لا يبدأ فيه بذكر الله»، وفي رواية: «ببسم الله الرحمن الرحيم» وقال: روينا كل هذه في كتاب الأربعين للحافظ عبدالقادر الرهاوي سماعاً من صاحبه الشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن سالم الإنباري عنه، وروينا فيه أيضاً من رواية كعب بن مالك الصحابي رضى الله عنه والمشهور رواية أبي هريرة، وهذا الحديث حسن، روي موصولاً ومرسلاً، ورواية الموصول إسنادها جيد، ومعنى: «أقطع»: قليل البركة، وكذلك «أجذم» بالجيم والذال المعجمة ويقال منه: «جذم» بكسر الذال «يجذم» بفتحها والله أعلم.

والحديث حسنه برواياته هذه العجلوني في كشف الخفاء (١٥٦/٢).

إلا أن الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢٢٠/٨) قال: الرواية المشهورة فيه بلفظ: «حمد الله» وما عدا ذلك من الألفاظ التي ذكرها النووي وردت في بعض طرق الحديث بأسانيد واهية.

وإنما حكم بأنه حديث حسن مع اختلاف لفظه بين حمد وتسمية وذكر لله كما عدد ذلك النووي، لأن اللفظ الذي فيه «الحمد» هو المشهور كما أشار إلى ذلك الحافظ في الفتح، =

فلهذا ابتدأ بها المصنفون في أول كتبهم.

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى ابتدأ القرآن العظيم بالبسملة؟

فالجواب: كما قاله البشفي: إنه فعل ذلك سبحانه ليعلمنا بابتدائه بالرحمة رضاه عنا، فإن السيد إذا كتب لعبده الغائب كتاباً، عرف رضا سيده وسخطه من عنوان كتابه، والله تعالى جعل عنوان كتابه «بسم الله الرحمن الرحيم» ولم يقل: بسم الجبار والقهار، بل بدأ بالرحمة، وجعلها سابقة على الكل، إشارة لها إلى أن رحمته قبل غضبه، وأن رضاه قبل سخطه، فله الحمد والمنة على ذلك.

جاء في حديث: «**أن الله تعالى كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي**»[1].

وجاء أيضا: «**إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتاباً من تحت العرش فيه مكتوب: إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين**»[2].

فيا أيها الرب الكريم وخير من ... ينادي به رباه رباه رباه
تفضل علينا يا كريم برحمة ... تعم جميع الخلق وتغشاه
وبارك لنا في الزرع والضرع دائماً ... وغزر لنا شعب النبات وفرعاه
وأرخص لنا الأسعار في كل بلدة ... واغني جميع الخلق كلاً بمعناه
وسهل ونفس واقض كل إنابة ... وتب واعف واغفر كل ذنب عملناه

=وهذا اللفظ المشهور أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٢٧/٦، رقم ١٠٣٢٨)، وابن ماجه في سننه (٦١٠/١، رقم ١٨٩٤)، وابن حبان في صحيحه (١٧٤/١، رقم ٢)، والدارقطني في سننه (٢٢٩/١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٨/٣، رقم ٥٥٥٩) جميعاً عن أبي هريرة.

ولكن يمكن الجمع بين الروايات في ذلك بأن البدء يكون بالجميع بالتسمية والتحميد وذكر الله، فبذلك قد عمل بالروايات وحيز فضل ذلك. انظر في هذا: الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩/٢).

(١) متفق عليه أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٢٦٩٤/٦، رقم ٦٩٦٩)، و الإمام مسلم في صحيحه (٢١٠٧/٤، رقم ٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه عبد الرزاق عن معمر في الجامع (٤١١/١١، رقم ٢٠٨٥٨) من رواية الحكم بن أبان أنه سمع عكرمة يقول: « إن الله تبارك وتعالى إذا فرغ من القضاء بين خلقه أخرج كتاباً من تحت العرش فيه: رحمتي سبقت غضبي، وأنا أرحم الراحمين »، ومن طريقه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥٥/٧) ووقع عند الطبري أن الحكم بن أبان قال: عن عكرمة وحسبته أسنده.

لطيفة: قال الإمام الرازي: كتب عارف من العارفين لما دنا أجله «بسم الله الرحمن الرحيم» وأوصى أن تجعل في كفنه فقيل له: أي فائدة لك في هذا؟ قال: أقول يوم القيامة إلهي بعثت إلينا كتاباً وجعلت عنوانه «بسم الله الرحمن الرحيم» فعاملني بعنوان كتابك.

واختلف العلماء في البسملة هل هي آية من الفاتحة، ومن كل سورة أم لا؟ فذهب إمامنا الشافعي إلى أنها آية من الفاتحة، ومن كل سورة إلا براءة، للأخبار ولإجماع الصحابة على إثباتها في المصحف أوائل السور سوى براءة، فلو لم تكن قرآنا لما أجازوا ذلك، لأنه يحمل على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآناً.

بل ذكر الروياني من أصحابنا الشافعية في كتابة «البحر»: أن البسملة أفضل آي القرآن.

والحكمة في عدم ابتداء سورة براءة بالبسملة: أنها نزلت في الخوف والقتال بالسيف، والبسملة آية أمان، والأمان والخوف لا يجتمعان.

وذهب الأئمة الثلاثة إلى أنها ليست آية من كل سورة.

واختلاف العلماء فيها لا يكفر جاحدها ومنكرها بخلاف غيرها من أي القرآن إذا أنكره فإنه يكفر.

والبسملة التي في أثناء النمل آية من القرآن بالإجماع.

ومذهب الشافعي يستحب الجهر بها في الصلاة الجهرية، ومذهب أبي حنيفة وأحمد يسر بها مطلقاً، والإمام مالك لا يقرأها سراً ولا جهراً، وإذا قرأها خارج الصلاة ويأتي بها في أول الفاتحة وأول كل سورة إلا براءة، وإذا قرأ من أول الأجزاء لا من أول السورة فهو مخير بين البسملة وتركها.

وقد ذكر العلماء فوائد متعلقة بالبسملة:

الأولى: أن كعب الأحبار قال: إن الباء من بسم الله بهاء الله، والسين سناؤه، والميم ملكه.

الثانية: اشتملت البسملة على ثلاثة أسماء «**الله، الرحمن، الرحيم**» أما «**الله**» فهو المستحق للعبادة، وهذا معناه، وهو علم على الله غير مشتق كما قاله طائفة من العلماء منهم الإمام الشافعي، ومحمد بن الحسن، والغزالي.

ونقل عن الأشعري أنه رؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بقولي: إن الله علم على ذات الله تعالى، وهو اسم الله الأعظم.

كما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة، وأكثر مشايخ التصوف والعارفين، فإنه لا ذكر لصاحب مقام فوق الذكر باسمه مجرداً.

واستدلوا على ذلك بأشياء منها: أن الله تعالى لما خاطب موسى قال: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ**﴾[طه: ١٤] فلو كان له اسم أعظم منه لقاله.

ومنها: أنه لم يسم به غيره بدليل قوله تعالي ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيا**﴾ [مريم: ٦٥] أي: هل تعلم أحد تسم غير الله.

وفي الاسم الأعظم خلاف كثير سيأتي في محله.

واسم الله أعرف المعارف، وقد ذكر هذا الاسم الشريف في القرآن في ألفين وثلاثمائة وستين موضعاً.

وأما اسم «**الرحمن**» فهو اسم خاص به سبحانه، لأنه صفة لمن وسعت رحمته كل شيء، ومن لم يكن كذلك لا يسمي رحماناً.

وتسمية مسيملة الكذاب برحمان فهو صادر من الكفار فلا عبرة بذلك، فلا يجوز للإنسان أن يسمي ولده بالرحمن بل بعبد الرحمن.

قال السبكي: المختص بالله هو المعرف باللام دون غيره، فعلى قوله يجوز التسمية برحمان لا بالرحمن.

وأما اسم «**الرحيم**» فإنه يطلق على غير الله أيضاً.

فإن قيل: إذا كانت البسملة من الفاتحة فما الحكمة في ذكر الرحمن الرحيم في الفاتحة، بعد ذكرهما في البسملة؟

فالجواب عنه من وجهين:

أحدها: أن الله تعالى لما ابتدأ كتابه بالحمد لله رب العالمين بعد البسملة عَلِم سبحانه أن النفوس ترهب من ذلك، فعقبه بقوله «**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه فيكون أعون على طاعته وأمنع من معصيته، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ**﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ**﴾ [غافر: ٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»[1] قاله الغزالي في جواهر القرآن.

ثانيهما: كررهما تأكيداً للرحمة وعناية بها، ومع ذلك عقبهما بقوله ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٤] لئلا يغتروا قاله النيابوري.

و«**الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ**» اسمان من أسماء الله يجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الرحمن الرحيم، وأرحم الراحمين.

واختلف العلماء فيهما هل هما بمعنى واحد أم لا؟

فقيل: هما بمعنى واحد وصححه ابن العربي.

والصحيح أن «**الرحمن**» أبلغ من «**الرحيم**» كما قاله الأكثرون، ومعنى كون «**الرحمن**» أبلغ: أن رحمته في الدنيا شاملة له وللكافر والصالح، وتلك الرحمة هي إيصال الرزق، وخلق الصحة والسلامة ورفع الأسقام والمصائب والدواهي.

و«**الرحمن**» أبلغ من الرحيم، لأن الرحمة الناشئة من الرحمن عامة في حق الولي والعدو والصديق والزنديق، والرحمة الناشئة من الرحيم مختصة بالمؤمنين.

وقد فرق العلماء بين: «**الرحمن، والرحيم**» بفروق:

الأول: أن «**الرحمن**» خاص بأهل السماء، و«**الرحيم**» بأهل الأرض.

الثاني: أن «**الرحمن**» هو الذي يرحم برحمته واحدة، و«**الرحيم**» بمائة رحمة فعلى هذا يكون «**الرحمن**» خاص بأهل الدنيا، و«**الرحيم**» بأهل الآخرة، ويدل عليه ما رويناه في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة**»[2].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٤/٢١٠٩، رقم ٢٧٥٥).

وأخرجه أيضاً: الترمذي في سننه (٥/٥٤٩، رقم ٣٥٤٢)، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٣٤، رقم ٨٣٩٦)، وابن حبان في صحيحه (٢/٥٦، رقم ٣٤٥)، وأبو يعلى في مسنده (١١/٣٩٢، رقم ٦٥٠٧)، والديلمي في مسند الفردوس (٣/٣٤٩، رقم ٥٠٥٦) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٤/٢١٠٩، رقم ٢٧٥٣). =

الثالث: أن «**الرحمن**» ذو الرحمة الشاملة، التي وسعت الخلق في أرزاقهم وأسباب معايشهم ومصالحهم، عمت الجميع المؤمن والكافر، وأما «**الرحيم**» فخاص بالمؤمنين، كما قال ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقيل غير ذلك.

قال العلماء: «**الرحمن**» خاص بالله تعالى، لا يجوز أن يسمى به غيره بخلاف «**الرحيم**» وأما مسيلمة الكذاب فقد سماه قومه بذلك حيث قالوا.

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أباً ... وانت غوث الورى لازلت رحماناً

عناداً وكفراً لزعمهم أنه كان نبياً، فهو استعمال باطل، صدر من الكفار فلا عبرة به.

وقد ذكر العلماء أن التسمية تستحب في مواضع منها:

في ابتداء المصنفات للتأسي والاقتداء بالقرآن والتبرك بها، قال في نزهة المجالس: روي عن النبي ﷺ: «**أول ما كتب القلم: بسم الله الرحمن الرحيم، إذا كتبتم فاكتبوها أوله، وهي مفتاح كل كتاب أنزل، ولما نزل بها جبريل** عليه السلام **قالها ثلاثاً وقال: هي لك ولأمتك وأمرهم لا يدعوها في شيء من أمورهم، فإني لم أدعها طرفة عين مذ نزلت على أبيك آدم** عليه السلام **وكذلك الملائكة**»(١).

وروي أن النبي ﷺ كان يكتب أولاً «**باسمك اللهم**» فلما نزلت سورة هود فيها ﴿**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**﴾ [هود: ٤١] كتب: «**بسم الله**» فلما نزلت سورة سبحان وفيها: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أو ادْعُوا الرَّحْمَنَ**﴾ [الاسراء: ١١٠] كتب: «**بسم الله الرحمن**» فلما نزلت سورة النمل فيها ﴿**إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [النمل: ٣٠] كتب: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»(٢).

=وأخرجه أيضاً: الطبراني في المعجم الكبير (٦/٢٥٥، رقم ٦١٤٤)، وابن المبارك في الزهد (ص ٣١٢، رقم ٨٩٤)، وهناد في كتاب الزهد (٢/٦١٤، رقم ١٣١٩) جميعاً عن سلمان رضي الله عنه.

(١) لم نقف عليه.

(٢) رواه أبو داود في المراسيل (ص ٩٠، رقم ٣٥) عن أبي مالك عن النبي ﷺ.

وذكره بهذا اللفظ الجصاص في أحكام القرآن (١/٧) فقال: وروى أبو قطن عن المسعودي عن الحارث العكلي... فذكره. =

واتفق العلماء على جواز كتابتها أول العلم والرسائل، ومنع جماعة من كتابتها في أول ديوان الشعر، إلا إذا كان فيه مواعظاً وحكماً.

وذكر الرازي -رحمه الله تعالى- وغيره فوائد متعلقة بالبسملة:

الفائدة الأولى: قيل: لما أنزلت «**بسم الله الرحمن الرحيم**» على آدم قال: الآن آمنت على ذريتي من العذاب فلما مات ارتفعت، ثم نزلت على نوح فنجاها من الطوفان، ثم ارتفعت بعد موته ثم نزلت على إبراهيم، فصارت النار عليه برداً وسلاماً، ثم نزلت على سليمان فاستقام ملكه، ثم نزلت على موسى فسلم في البحر، ثم ارتفعت ثم نزلت على عيسى، فأوحى الله إليه: قد نزلت عليك آية الأمان، فلما رفع ارتفعت، ثم نزلت على محمد ﷺ إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة يأخذ المؤمن كتابه بيمينه ويقول: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فإذا هو أبيض لا شيء فيه، فيقال له: كان مملوءاً من السيئات ولكن محته «**بسم الله الرحمن الرحيم**».

الفائدة الثانية: لما أرسل الله موسى إلى فرعون وتمادى في الطغيان، فدعا عليه مدة، فقال تعالى: يا موسي أنت تنظر إلى كفره وأنا إلى ما هو مكتوب على باب قصره، وذلك أن جبريل عليه السلام كتب عليه «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فلذلك وصفه الله بالمقام الكريم.

قال الرازي: ففي هذا إشارة إلى أن من كتب هذه الكلمة على باب داره أمن من الهلاك، وإن كان كافرًا، فكيف بالذي كتبها على سويداء قلبه من أول عمره إلى آخره لا يكون آمناً يوم القيامة من عذاب الله.

=وذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٥٤) وعزاه إلى عبد الرزاق وابن سعد وابن أبي شيبه وابن أبي حاتم عن الشعبي، وأعقبه برواية ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ولفظها: « إن النبي ﷺ كان يكتب باسمك اللهم حتى نزلت ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ ».

وذكره أيضا من رواية قتادة وعزاه إلى عبد الرزاق وابن المنذر بلفظ: « لم يكن الناس يكتبون... ».

وذكره القرطبي في التفسير (١/٩٢) من رواية الشعبي والأعمش.

وانظر: تفسير البغوي (١/٣٩)، وفتح القدير (١/١٨٥)، وروح المعاني (١/٣٩).

وقد روى ابن أبي شيبة في المصنف (٦/٣٣٧، رقم ٣١٨٥٦) معناه عن عبد الله معبد الزماني قال: « لم تنزل بسم الله الرحمن الرحيم في شيء من القرآن إلا في سورة النمل: ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾.

وروي عن علي أنه نظر إلى رجل يكتب «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال: جودها فإن رجلاً جودها فغفر له.

واختلف الأئمة فيما إذا أرسل الإنسان كلباً له للصيد، و لم يقل «**بسم الله الرحمن الرحيم**» عند إرساله، وصاد الكلب هل يحل أكله أم لا؟

ذهب إمامنا الشافعي إلى أنه يحل أكله سواء ترك التسمية عمداً أو سهواً، فإن التسمية عند إرسال الكلب ونحوه للصيد سنة عند الشافعي لا واجبة.

وذهب أبو حنيفة إلى أن ترك التسمية ناسياً حل أكله، وإن تركها عامداً لا يحل.

مثل هذا ما إذا رمى الصيد بسهم فقتله فعلى مذهب الشافعي يحل، وعند أبي حنيفة إن كان ناسياً حل، وإن كان عامداً لا يحل.

ومثل هذا الذبيحة ما إذا ذبح الإنسان شاة مثلاً وترك التسمية عند ذبحها هل تؤكل أم لا؟

مذهب إمامنا الشافعي يجوز أكلها سواء ترك التسمية عامداً أو سهواً، وعند أبي حنيفة إن تركها عمداً لا تؤكل لقوله تعالى ﴿**وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**﴾ [الأنعام: ١٢١] وإن تركها ناسياً تؤكل.

وأجاب الشافعي عن الآية بأنها محمولة على الذي ذبح لغير الله، فإنه لا يحل أكله.

وأقل التسمية «**بسم الله**» وأكملها «**بسم الله الرحمن الرحيم**» ويسن أن يقول عند الذبح والقتال «**بسم الله والله أكبر**» لأن الوقت لا يليق به «**الرحمن الرحيم**».

قال ابن العماد: وكيفية التسمية عليه أن يقول: «**بسم الله**» ولا يقل: «**الرحمن الرحيم**» لأن المقام يناسب الرحمة، ولا يقل: بسم الله واسم محمد.

الفائدة الثالثة: قال الحناطي من الشافعية في فتاويه: لا يجوز جعل الفضة والذهب في ورقة كتب فيها «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، فإن فعل ذلك مع العلم بالمنع أثم.

الفائدة الرابعة: إذا رأى الإنسان ورقة ملقاة على الأرض وفيها البسملة، أو شيء من القرآن يستحب رفعها بل يجب، إذا خيف أن تداس بالأرجل.

قال ابن الجوزي: «قال رسول الله ﷺ من رفع قرطاساً من الأرض فيه «**بسم الله الرحمن الرحيم**» احتراماً لله تعالى حرم الله وجهه على النار»[1].

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٨٧/١) ضمن أحاديث باب ثواب من رفع =

وإذا رفعها جاز له غسلها بالماء وجاز له حرقها بالنار، لكن قال ابن عبد السلام الأولى أن يغسلها بالماء أو يحرقها بالنار، ويجعلها في شق الحائط أو غيره، ولأنها قد تسقط فتوطأ.

وهل الحرق أولى أو الغسل بالماء؟ قال بعضهم: الحرق أولى من الغسل، لأنها بعد الغسل قد تقع على الأرض، ولا يكره الحرق إذا تعلق به غرض صحيح، كما إذا خاف أن توطأ تلك الورقة أو تستعمل في غير القراءة، فقد أحرق عثمان مصاحف، وكان فيها آيات وقرآن منسوخ و لم ينكر عليه.

قال الزركشي: نعم يكره الحرق لغير حاجة.

الفائدة الخامسة: يحرم على الإنسان أن يضع على فراش أو نقش «**بسم الله الرحمن الرحيم**» أو بشيء من القرآن.

لطيفة خاتمة: كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب ﷺ أن بي صداعاً لا يسكن، فإذا

= قرطاساً من الأرض فيه: « بسم الله الرحمن الرحيم » وقال: فيه عن علي وأنس وأبي هريرة... فذكر الروايات عنهم، و لم يورد الحديث الذي معنا بهذا اللفظ، وأقرب الألفاظ للحديث الذي معنا حديث أنس فقد أورده بلفظ: « من رفع قرطاساً من الأرض فيه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالاً لله أن يداس كتب عند الله من الصديقين، وخفف عن والديه وإن كانا مشركين ».

قال ابن الجوزي: وأما طريق أنس ففيه: العلاء بن مسلمة، قال ابن حبان: يروي الموضوعات والمقلوبات عن الثقات، لا يحل الاحتجاج به، وقال أبو الفتح الأزدي: كان العلاء رجل سوء لا يبالي ما روى لا يحل لمن عرفه أن يروي عنه، وفيه: أبو حفص العبدي، قال أحمد: حرقنا حديثه، وقال يحيى: ليس بشيء.

وحديث أنس أخرجه أيضاً: الخطيب في تالي تلخيص المتشابه (٤٥٨/٢، رقم ٢٧٤)، وأورده العجلوني في كشف الخفاء (٣٢٨/٢) وعزاه لأبي الشيخ عن أنس.

والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل (٤٩/٥، ترجمة ١٢٢٠ عمر بن حفص أبو حفص العبدي) وقال: ليس بالقوي، وأورد أحاديثه ومنها هذا الحديث وقال في آخر ترجمته: الضعف بين على رواياته.

وترجم له الذهبي في الميزان الاعتدال في (٢٢٦/٥، ترجمة ٦٠٨١)، قال الذهبي: قال علي: ليس بثقة، وقال النسائي: متروك، وقال الدارقطني: ضعيف.

وزاد الحافظ ابن حجر على الذهبي في لسان الميزان (٢٩٩/٤، ترجمة ٨٣٢) فقال: وقال أبو نعيم الأصبهاني: روى عن ثابت المناكير، وقال الساجي: متروك الحديث، وقال عباس الدوري عن يحيى بن معين: أبو حفص العبدي يرفض حديثه.

كان عندك دواءًا ابعثه إليَّ، فبعث إليه عمر قلنسوه فكان إذا وضعها على رأسه سكن صداعه، وإذا رفعها عن رأسه عاوده الصداع، فتعجب من ذلك ففتش القلنسوة فإذا مكتوب فيها «**بسم الله الرحمن الرحيم**».

الفائدة السادسة: ذكر ابن الملقن في شرحه على البخاري عن النقاش أنه قال: حين نزلت «**بسم الله الرحمن الرحيم**» سبحت الجبال فقالت قريش: سحر محمد الجبال.

قال: فإن صح ما ذكره فلذلك معنى، وذلك: أنها آية نزلت على آل داود، وقد كانت الجبال تسبح معه بنص القرآن العظيم.

وقد ورد في فضلها عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فيجعل الله له بكل حرف جنة من واحدة[1].

وسنتكلم على التسمية وننقل فيها فوائد في باب الوضوء إن شاء الله تعالى.

***

---

(١) ذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور (٢٦/١) وعزاه إلى وكيع والثعلبي عن ابن مسعود، وذكره القرطبي وابن كثير.

قال الحافظ ابن كثير: ذكره ابن عطية والقرطبي ووجهه ابن عطية ونصره بحديث: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها، لقول الرجل: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه» من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفاً وغير ذلك. انظر: تفسير القرطبي (٩٢/١)، وتفسير ابن كثير (١٨/١).

المجلس الثاني

في الكلام على قوله: كيف كان بدء الوحي[١] إلى رسول الله ﷺ وفي قوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وفيه طرف من خصائص سيدنا نوح وطرف من فضل الصلاة على النبي ﷺ.

فإن قيل: لأي شيء لم يبتديء البخاري في أول صحيحه «**بالحمد**»[٢] وهو أمر مهم، وقد صح من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع ناقص البركة» رواه النسائي وابن ماجه [٣].

وأجاب عنه شيخ الإسلام سراج الدين ابن الملقن بسبعة أوجه:

الأول: أن هذا الحديث ليس على شرطه فإن قرة بن عبد الرحمن وهو ممن انفرد به مسلم عن البخاري.

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٤٣): قوله «بسم الله الرحمن الرحيم كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ» هكذا في رواية أبي ذر والأصيلي بغير «باب» وثبت في رواية غيرهما، فحكي عياض ومن تبعه فيه التنوين وتركه، وقال الكرماني: يجوز فيه الإسكان على سبيل التعداد للأبواب. فلا يكون له إعراب.

(٢) لفظ الحديث «**كل أمر ذي بال لا يبدأ بحمد الله فهو أقطع**»، وفي رواية: «بحمد الله»، وفي رواية: «بالحمد فهو أقطع»، وفي رواية: «أجذم»، وفي رواية: «لا يبدأ فيه بذكر الله»، وفي رواية: «ببسم الله الرحمن الرحيم»، ولفظه المشهور هو ما بدأنا به، أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/١٢٧، رقم ١٠٣٢٨)، وابن ماجه في سننه (١/٦١٠، رقم ١٨٩٤)، وابن حبان في صحيحه (١/١٧٤، رقم ٢)، والدارقطني في سننه (١/٢٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٢٠٨، رقم ٥٥٥٩) جميعاً عن أبي هريرة.

وقد مر في المجلس الأول الكلام بإسهاب عن رواياته وحكمها، وهو بهذا اللفظ حديث حسن.

(٣) لفظ الحديث «**كل أمر ذي بال لا يبدأ بحمد الله فهو أقطع**»، وفي رواية: «بحمد الله»، وفي رواية: «بالحمد فهو أقطع»، وفي رواية: «أجذم»، وفي رواية: «لا يبدأ فيه بذكر الله»، وفي رواية: «ببسم الله الرحمن الرحيم»، ولفظه المشهور هو ما بدأنا به، أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/١٢٧، رقم ١٠٣٢٨)، وابن ماجه في سننه (١/٦١٠، رقم ١٨٩٤)، وابن حبان في صحيحه (١/١٧٤، رقم ٢)، والدارقطني في سننه (١/٢٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٢٠٨، رقم ٥٥٥٩) جميعاً عن أبي هريرة.

وقد مر في المجلس الأول الكلام بإسهاب عن رواياته وحكمها، وهو بهذا اللفظ حديث حسن.

الثاني: أن المراد بالحمد الذكر والثناء، بدليل أنه جاء في رواية: «بـذكر الله»[١] والتسمية مشتملة على ذلك، فاكتفي بها لأنها أبلغ الثناء.

الثالث: يحتمل أن البخاري حمد الله بلسانه، لأن الذي اقتضاه لفظ الحمد أن يحمد لا أن يكتبه، وقيل في الجواب غير ذلك[٢].

---

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/٤٣): وقد أجاب من شرح هذا الكتاب بأجوبة أخر فيها نظر:

منها: أنه تعارض عنده الابتداء بالتسمية والحمدلة، فلو ابتدأ بالحمدلة لخالف العادة، أو بالتسمية لم يعد مبتدئاً بالحمدلة فاكتفي بالتسمية.

وتعقب بأنه لو جمع بينهما، لكان مبتدئاً بالحمدلة بالنسبة إلى ما بعد التسمية، وهذه هي النكتة في حذف العاطف، فيكون أولى لموافقته الكتاب العزيز، فإن الصحابة افتتحوا كتابة الإمام الكبير بالتسمية والحمد وتلوها، وتبعهم جميع من كتب المصحف بعدهم في جميع الأمصار، من يقول بأن البسملة آية من أول الفاتحة، ومن لا يقول ذلك.

ومنها: أنه راعى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[الحجرات: ١] فلم يقدم على كلام الله ورسوله شيئا، واكتفى بها عن كلام نفسه.

وتعقب بأنه كان يمكنه أن يأتي بلفظ الحمد من كلام الله تعالى، وأيضاً فقد قدم الترجمة وهي من كلامه على الآية، وكذا ساق السند قبل لفظ الحديث، والجواب عن ذلك: بأن الترجمة والسند وإن كانا متقدمين لفظاً، لكنهما متأخران تقديراً فيه نظر.

وأبعد من ذلك كله، قول من ادعى: أنه ابتدأ بخطبة فيها حمد وشهادة، فحذفها بعض من حمل عنه الكتاب، وكأن قائل هذا ما رأى تصانيف الأئمة من شيوخ البخاري، وشيوخ شيوخه وأهل عصره كمالك في الموطأ، وعبد الرزاق في المصنف، وأحمد في المسند، وأبي داود في السنن، إلى ما لا يحصى ممن لم يقدم في ابتداء تصنيفه خطبة، ولم يزد على التسمية، وهم الأكثر، والقليل منهم من افتتح كتابه بخطبة، أفيقال في كل من هؤلاء: إن الرواة عنهم حذفوا ذلك؟ كلا، بل يحمل ذلك من صنيعهم، على أنهم حمدوا لفظاً.

ويؤيده ما رواه الخطيب في الجامع عن أحمد: أنه كان يتلفظ بالصلاة على النبي ﷺ إذا كتب الحديث ولا يكتبها، والحامل له على ذلك إسراع أو غيره، أو يحمل على أنهم رأوا ذلك مختصاً بالخطب دون الكتب، ولهذا من افتتح كتابه منهم بخطبة، حمد وتشهد كما صنع مسلم، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقد استقر عمل الأئمة المصنفين، افتتاح كتب العلم بالبسملة وكذا معظم كتب الرسائل، واختلف القدماء فيما إذا كان الكتاب كله شعراً، فجاء عن الشعبي منع ذلك، وعن الزهري قال: مضت السنة أن لا يكتب في الشعر بسم الله الرحمن الرحيم، وعن سعيد بن جبير جواز ذلك، وتابعه على ذلك الجمهور. وقال الخطيب: هو المختار.

وقوله «**باب**» قال الكرماني: يجوز فيه وفي نظائره ثلاثة أوجه:

الأول: «**باب**» بالرفع والتنوين.

والثاني: «**بابُ**» بالرفع بلا تنوين على الإضافة، وعلى التقديرين هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا باب.

والثالث: «**بابْ**» بالسكون على سبيل التعداد للأبواب فلا إعراب له، قال البرماوي: ولا يخفى بُعده.

و«**بدء الوحي**» بالهمز مصدر «بدء» بمعنى البداية، يقال: بدو الوحي بلا همز مصدر بدا يبدي بمعنى ظهر.

و«**الوحي**» مصدر «وحى يحي» كوعد يعد، ويقال: «أوحى» رباعياً بمعناه، ولكن الأكثر في الاستعمال مصدر الثلاثي.

ومعنى الوحي في اللغة: الإعلام بخفاء، وقيل: بسرعة ومنه الوحا.

وأما في الشرع: فهو إعلام الله تعالى أنبياءه الشيء بكتاب أو برسالة أو ملك أو منام أو إلهام أو نحو ذلك [1].

واستعمل الوحي في كتاب الله بمعنى الأمر نحو: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ**

---

(١) فصل الحافظ ابن حجر في الفتح (١/٤٥) معنى الوحي في اللغة والشرع والمراد به هنا فقال: قوله: «بدء الوحي» قال عياض: روي بالهمز مع سكون الدال من الابتداء، وبغير همز مع ضم الدال وتشديد الواو من الظهور.

قلت: ولم أره مضبوطاً في شيء من الروايات التي اتصلت لنا، إلا أنه وقع في بعضها «كيف كان ابتداء الوحي»، فهذا يرجح الأول، وهو الذي سمعناه من أفواه المشايخ.

وقد استعمل البخاري هذه العبارة كثيراً، كبدء الحيض، وبدء الأذان، وبدء الخلق.

«والوحي» لغة: الإعلام في خفاء، والوحي أيضا: الكتابة والمكتوب والبعث والإلهام والأمر والإيماء والإشارة والتصويت شيئا بعد شيء.

وقيل: أصله التفهيم، وكل ما دللت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة فهو وحي.

وشرعاً: الإعلام بالشرع، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه أي: الموحى، وهو: كلام الله المنزل على النبي ﷺ.

وقد اعترض محمد بن إسماعيل التيمي على هذه الترجمة، فقال: لو قال: كيف كان الوحي لكان أحسن، لأنه تعرض فيه لبيان كيفية الوحي، لا لبيان كيفية بدء الوحي فقط.

وتعقب بأن المراد من بدء الوحي، حاله مع كل ما يتعلق بشأنه، أي: تعلق كان، والله أعلم.

آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

وبمعني التسخير نحو: ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ** ﴾ [النحل: ٦٨] وهو اتخاذها من الجبل بيوتاً، ومن عبر عن ذلك بالإلهام أراد هدايتها لذلك، وإلا فالإلهام حقيقة إنما يكون للعاقل.

وبمعني الإشارة نحو: ﴿ **فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِياً** ﴾ [مريم: ١١] وقد يطلق الوحي بمعنى الموحى به كالقرآن والسنة، من إطلاق المصدر على المفعول قال تعالى ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم: ٤]، وسنذكر أقسام الوحي في المجالس الآتية.

وإنما صدر البخاري ﷺ كتابه بالوحي لأنه مادة الشريعة وقصده أن جميع أحاديث النبي ﷺ وحي لقوله الله سبحانه إخباراً عن نبيه ﷺ ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وقوله «**إلى رسول الله**» المراد: نبينا محمد ﷺ وإنما قال: إلى رسول الله و لم يقل إلى الرسول لكراهة ذلك، فقد قال السخاوي في القول البديع: أسند البيهقي من طريق الشافعي قال: يكره للرجل ان يقول قال الرسول، ولكن قال رسول الله ﷺ تعظيماً له والله الموفق.

وصرح شيخنا السيوطي في خصائصه بذلك أيضاً قال: وكره الشافعي أن يقول في حقه: الرسول بل رسول الله، لأنه ليس فيه من التعظيم ما في الإضافة.

فائدة: اختلف العلماء في الرسول والنبي هل هما بمعنى واحد؟

فقيل: هما بمعنى واحد فكل رسول نبي وكل نبي رسول.

والجمهور على أن الرسول أخص من النبي فكل نبي رسول ولا عكس، إذ النبي إنسان أوحى الله إليه بشرع و لم يؤمر تبليغه، فإن أمر تبليغه فرسول أيضاً.

وإنما قال: «**إلى رسول الله**» و لم يقل: إلى نبي الله، لأن الرسول المتصف بالرسالة، والنبي بالنبوة، والرسالة أفضل من النبوة، لأن الرسالة تثمر هداية الأمة، والنبوة قاصرة على النبي كالعلم والعبادة.

وذهب ابن عبد السلام إلى أن النبوة أفضل من الرسالة، واحتج بأن النبوة: الوحي بمعرفة الله وصفاته، فهي متعلقة بالله من طرفها، والرسالة الأمر بالتبليغ فهي

متعلقة بالله من أحد طرفيها، والرسالة الأمر بالتبليغ، فهي متعلقة بالله من أحد طرفيها وبالعباد من الطرف الآخر، والمتعلق بالله من الطرفين أفضل من المتعلق به من أحدهما.

ورد عليه بأن الرسالة أخص من النبوة، كما أن الرسول أخص من النبي فهي مشتملة على النبوة وزيادة.

فائدة أخرى: مبنية على الفرق بين الرسول والنبي أفادها علماء الحديث وهي: ما إذا وقع في الرواية قال رسول الله، أو عن رسول الله هل يجوز تغييره إلى قال النبي، أو عن النبي، وكذا لو ورد قال النبي، أو عن النبي هل يجوز تغييره إلى قال رسول الله، أو عن رسول؟

اختلف علماء الحديث في ذلك فقال ابن الصلاح: والظاهر أنه لا يجوز وإن جازت الرواية بالمعنى، لاختلاف معنى النبي والرسول.

وقال النووي: الصواب الجواز لأنه لا يختلف به هنا معنى، وبه قال أحمد بن حنبل، وقد نبه العراقي في ألفيته على ما ذكرنا فقال[1]:

---

(١) لقد شرح الحافظ السخاوي في فتح المغيث (٢/٢٩٩) هذين البيتين فقال: «إن رسول» وقع في الرواية بأن قيل: رسول الله ﷺ «نبي» أي: بلفظ النبي «أبدلا» وقت التحمل والأداء والكتابة، «فالظاهر» كما قال ابن الصلاح «المنع» منه والتقيد بما في الرواية «كعكس فغلا» بأن يبدل الرواية فيه بلفظ النبي ﷺ برسول الله ﷺ، وإن جازت الرواية بالمعنى لأن المعنى هنا مختلف يعني بناء على القول بعدم تساوي مفهومهما، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل فيما رواه عنه ابنه عبد الله إذا سمع من لفظ المحدث رسول الله ضرب من كتابه نبي الله، وكتب ذلك بدله، لكن قال الخطيب: إن ذلك ليس على وجه اللزوم بل على الاستحباب في اتباع المحدث في لفظه.

«وقد رجى جوازه ابن حنبل» نفسه حيث قال: إذ سأله ابن صالح إنه يكون في الحديث رسول الله، فيجعل الإنسان بدله النبي؟ فقال: أرجو أن لا يكون به بأس، وكذا جوزه حماد بن سلمة، بل قال لعفان وبهز لما جعلا يغيران «النبي» يعني الواقع في الكتاب «برسول الله» يعني الواقع من المحدث: أما أنتما فلا تفقهان أبداً.

«والإمام النووي» أيضاً «صوبه» أي: الجواز، «وهو جلي» واضح، بل قال بعض المتأخرين: إنه لا ينبغي أن يختلف فيه، وقول ابن الصلاح: إن المعنى فيهما مختلف لا يمنعه، فإن المقصود إسناد الحديث إلى سيدنا رسول الله ﷺ، وهو حاصل بكل واحد من الصفتين، وليس الباب باب تعبد في اللفظ، لا سيما إذا قلنا إن الرسالة والنبوة بمعنى واحد، وعن البدر بن جماعة أنه لو قيل بالجواز في إبدال النبي بالرسول خاصة لما بعد، لأن في الرسول معنى زائد على النبي وهو الرسالة، إذ كل رسول نبي ولا عكس، وبيانه أن النبوة من النبأ وهو الخبر، فالنبي في العرف هو المنبأ من جهة =

إن رسـول نـبي أبـدلا فالظاهر المنـع كعكـس فعـلا
قد رجي جـوازه ابـن حنبـل والنووي صـوبه وهـو جلـي

ونظير هذه مسألة ذكرها الحليمي وهي: ما إذا قال الكافر: آمنت بمحمد النبي فإنه يصح إيمانه، بخلاف ما إذا قال: بمحمد الرسول، قال: لأن النبي لا يكون إلا لله، والرسول قد يكون لغيره، وهذا موافق لما قاله ابن الصلاح.

قال ابن الملقن: وهو غريب.

وقوله «**صلى الله عليه وسلم**» فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن يكتب اسم النبي ﷺ أن يصلي ويسلم عليه عقب كتابته، كما يستحب أن يصلي ويسلم عقب ذكره.

فائدة: علامة كون الإنسان من أهل السنة كثرة صلاته على النبي ﷺ، وذكر العلماء: أن الملائكة تصلي عليه على الدوام، وأن مهر آدم على حوآء كان الصلاة عليه، فإن الله لما خلق حوآء أراد آدم القرب منها، فطلبت منه المهر فقال: يا رب ماذا أعطيها؟ قال: يا آدم صلي على صفيّ محمد بن عبد الله عشرين مرة، ففعل ذلك.

وإن بكاء الصبي مدة صلاة عليه، فقد ورد في خبر: «**لا تضربوا أطفالكم على بكائهم سنة، فإن أربعة أشهر منها يشهد أن لا إله إلا الله، وأربعة أشهر يصلي عليّ، وأربعة أشهر يدعو للوالدين**»[1].

= الله بأمر يقتضي تكليفاً فإن أمر تبليغه إلى غيره فهو رسول، وإلا فهو نبي غير رسول، وحينئذ فالنبي والرسول اشتركا في أمر عام وهو النبأ وافترقا في الرسالة، فإذا قلت: فلان رسول تضمن أنه نبي رسول، وإذا قلت: فلان نبي لم يستلزم أنه رسول.

ولكن قد نازع ابن الجزري في قولهم: كل رسول نبي حيث قال: هو كلام يطلقه من لا تحقيق عنده، فإن جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة المكرمين بالرسالة رسل لا أنبياء، قلت: ولذا قيد الفرق بين الرسول والنبي بالرسول البشري، وحديث البراء في تعليم ما يقال عند النوم، إذ رد النبي ﷺ إبداله لفظ النبي بالرسول فقال: «لا ونبيك الذي أرسلت» تمنع القول بجواز تغيير النبي خاصة بل الاستدلال به لمجرد المنع ممنوع بأن ألفاظ الأذكار توقيفية فلا يدخلها القياس، بل يجب المحافظة على اللفظ الذي جاءت به الرواية، إذ ربما كان فيه خاصية وسر لا يحصل بغيره، أو لعله أراد أن يجمع بين الوصفين في موضع واحد، ولا شك أنه ﷺ نبي مرسل فهو إذن أكمل فائدة، وذلك يفوت بقوله: «وبرسولك الذي أرسلت» وأيضاً فالبلاغة مقتضية لذلك لعدم تكرير اللفظ لوصف واحد فيه، زاد بعضهم: أو لاختلاف المعنى لأن برسولك يدخل جبريل وغيره من الملائكة الذين ليسوا بأنبياء.

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٣٣٧/١١، ترجمة: ٦١٧١) علي بن إبراهيم=

وفي حديث آخر: «**بكاء الصبي في المهد أربعة أشهر توحيد، وأربعة أشهر صلاة على نبيكم، وأربعة أشهر استغفار لأبويه**»[١].

وفي حديث آخر: «**فإذا استسقى نبع الله له ضرع أمه عيناً من الجنة فيشرب فيجزيه عن الطعام والشراب**»[٢].

وذكروا: أن الصلاة على النبي ﷺ تزكية للأعمال ورفع للدرجات، ومغفرة للذنوب، وكفاية الدنيا والآخرة، ومحق للخطايا، ونجاة من الأهوال، ويحصل بها رضا الله ورحمته، وأمان من سخطه، ووجوب الشفاعة، والدخول تحت ظل العرش، ورجحان الميزان، وورد الحوض، والأمان من العطش، والعتق من النار، والجواز على الصراط، ورؤية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت، وكثرة الأزواج في الجنة، وتقوم مقام الصدقة للمعسر، وينمو المال ببركتها، تقضى بها مائة حاجة من الحوائج بل وأكثر، وهي عبادة وأحب الأعمال إلى الله، وتزين المجالس، وتنفي الفقر وضيق العيش، وتنفع الإنسان وولده وولد ولده، وتقرب إلى الله وإلى رسوله، وتنصر على الأعداء، وتطهر القلوب من النفاق، وتوجب محبة الناس ورؤية النبي ﷺ في المنام، وتمنع صاحبها من الغيبة، وتنفع عند الهم والكرب والشدائد والفقر والغرق والطاعون، وهي من أبرك الأعمال وأفضلها، وأكثرها نفعاً في الدنيا.

وتستحب في مواضع سنذكرها في محلها منها:

كلما ذكر، بل ذهب بعض العلماء إلى أن الصلاة عليه تجب كلما ذكر، واختار هذا القول الحليمي من الشافعية والطحاوي من الحنفية، واللخمي من المالكية وابن بطه من الحنابلة، والصحيح عند إمامنا الشافعي: أن الصلاة على النبي ﷺ لا تجب إلا في الصلاة في التشهد الأخير، وهي فيه ركن من أركان الصلاة، وأما خارج الصلاة فإنها

=بن الهيثم بن المهلب أبو الحسن البلدي) وأخرج الحديث من طريقه عن نافع رفعه إلى النبي ﷺ، وقال: هذا الحديث منكر جداً، ورجال إسناده كلهم مشهورون بالثقة سوى أبي الحسن البلدي.

وترجم لأبي الحسن الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (١٩١/٤، ترجمة: ٥٠٦) وقال نقلاً عن الذهبي: اتهمه الخطيب، ونقل الحافظ رواية الخطيب بإسنادها ثم نقل إنكار الخطيب للحديث ثم قال: قلت هو موضوع بلا ريب.

وذكره في الموضوعات الحافظ السيوطي في اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (٩٩/١).

(١) ذكره في الموضوعات بمعناه الحافظ السيوطي في اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (٩٩/١).

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وعلامات الوضع تلوح عليه كسابقيه.

تستحب.

واختلف القائلون بالوجوب كلما ذكر، هل هو على العين فيجب على كل فرد، أو على الكفاية فإذا صلى واحد من الحاضرين سقط عن الباقين، والأكثر قالوا: على العين.

قال ابن حجر: وتمسك القائلون بالوجوب كلما ذكر بأحاديث تدل على إبعاد تاركها وشقاوته وبخله وجفاه وغير ذلك، وهي قال رسول الله ﷺ: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلي عليَّ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، وغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة**»(١).

وروي البخاري في الأدب المفرد، والطبري في تهذيبه، والدارقطني في الأفراد عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ رقي المنبر، فلما رقي الدرجة الأولي قال: «**آمين**»، ثم رقي الثانية فقال: «**آمين**»، ثم رقي الثالثة فقال: «**آمين**» فقالوا: يا رسول الله سمعناك تقول: «**آمين**» ثلاث مرات قال: «**لما رقيت الدرجة الأولي جاءني جبريل فقال: شقى عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يغفر له، فقلت: آمين، ثم قال: شقى عبد أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، فقلت: آمين، ثم قال: شقى عبد ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقلت: آمين**» قال السخاوي: هو حديث حسن(٢).

وذكر في كتاب شرف المصطفى لأبي سعد الواعظ: أنه ﷺ قال: «**ألا أدلكم على خير الناس، وشر الناس، وأبخل الناس، وأكسل الناس، وألأم الناس، وأسرق الناس**» قيل: بلى يا رسول الله، قال: «**خير الناس من انتفع به الناس، وشر الناس من يسعى بأخيه المسلم، وأكسل الناس من أرق في ليلة فلم يذكر الله بلسانه وجوارحه، وألأم الناس من إذا ذكرت عنده فلم يصلِّ علي، وأبخل الناس من بخل**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٥٥٠، رقم ٣٥٤٥) عن أبي هريرة، وقال الترمذي عقبه: وفي الباب عن جابر وأنس، وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وربعي بن إبراهيم هو أخو إسماعيل بن إبراهيم وهو ثقة، وهو ابن علية، ويروي عن بعض أهل العلم قال: «إذا صلى الرجل على النبي ﷺ مرة في المجلس أجزأ عنه ما كان في ذلك المجلس».

والحديث عند أحمد في مسنده (٢/٢٥٤، رقم ٧٤٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٨٩، رقم ٩٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٢٤) عن جابر.

بالتسليم على الناس، وأسرق الناس من سرق صلاته» قيل: يا رسول الله وكيف يسرق صلاته؟ فقال: «**لا يتم ركوعها ولا سجودها**»[(١)].

وفي شرف المصطفى أيضاً: أن عائشة رضي الله عنها كانت تخيط شيئاً في وقت السحر، فسقطت الإبرة من يدها، وطفئ السراج، فدخل عليها النبي ﷺ فأضاء البيت بضوءه ﷺ ووجدت الإبرة فقالت: ما أضوء وجهك يا رسول الله، قال: «**ويل لمن لا يراني يوم القيامة**» قالت: ومن لا يراك يوم القيامة؟ قال: «**البخيل**» قالت: ومن البخيل؟ قال: «**الذي لا يصلي علي إذا سمع باسمي**»[(٢)].

وفي حلية الأولياء لأبي نعيم: أن رجلاً مر بالنبي ﷺ ومعه ظبية قد اصطادها، فأنطق الله الظبية -سبحانه الذي أنطق كل شيء- فقالت: يا رسول الله: إن لي أولاداً، وأنا أرضعهم وإنهم جياع، فأمر هذا أن يخليني حتى أذهب فأرضع أولادي وأعود، قال: «**فإن لم تعودي**» قالت: إن لم أعد فيلعنني الله كمن تذكر بين يديهم ولم يصلوا عليك، أو كنت كمن صلى ولم يدع، فقال ﷺ: «**أطلقها وأنا ضامنها**» فذهبت الظبية، ثم عادت فنزل جبريل فقال: يا محمد الله يقرئك السلام ويقول لك: وعزتي وجلالي أنا أرحم بأمتك من هذه الظبية بأولادها، وأنا أردهم إليك كما رجعت الظبية إليك»[(٣)].

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

(٣) لم نجده في الحلية، ووقع في دلائل النبوة لأبي نعيم (ص ٣٢٠) قصة كلام الظبية وليس فيه أن جبريل نزل بعد عود الظبية وكلام رب العزة على نحو ما في هذه الرواية، رواه أبو نعيم فيه عن أبي كثير بن أرقم.

ورواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٢٩٥/٨) من حديث أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في الصحراء فإذا مناد يناديه يا رسول الله فالتفت فلم ير أحداً، ثم التفت فإذا ظبية موثوقة فقالت: أدن مني يا رسول الله فدنا منها فقال: «حاجتك؟» فقالت: إن لي خشفين في هذا الجبل فخلني حتى أذهب فأرضعهما ثم أرجع إليك، قال: «وتفعلين؟» قالت: عذبني الله عذاب العشار إن لم أفعل، فأطلقها فذهبت فأرضعت خشفيها، ثم رجعت فأوثقها، وانتبه الأعرابي، فقال: ألك حاجة يا رسول الله؟ قال: «نعم تطلق هذه» فأطلقها فخرجت تعدو وهي تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه أغلب بن تميم وهو ضعيف.

وذكر الحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى (١٠١/٢) القصة بهذا اللفظ عن أم سلمة وعزاها=

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**حسب العبد من البخل إذا ذكرت عنده أن لا يصلي علي**» رواه الديلمي من طريق الحاكم في غير المستدرك [(١)].

وعن قتادة عن النبي ﷺ: «**من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلي عليّ**»[(٢)].

وفي حديث أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ذكرت بين يديه ولم يصل عليّ صلاة تامة فليس مني ولا أنا منه**» ثم قال: «**اللهم صل من وصلني، واقطع من لم يصلني**»[(٣)].

قال السخاوي: وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يصل على فلا دين له**» أخرجه محمد بن أحمد المروزي وفي سنده من لم يسم[(٤)].

= إلى الطبراني في الكبير وأبي نعيم.

أما الرواية التي رواها أبو نعيم في الدلائل عن أبي كثير بن زيد بن أرقم فهي أشد وأنكر ضعفاً من رواية أم سلمة لذا لم نأت بلفظها، ففي سنده: يعلى بن إبراهيم الغزالي، ترجم له الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٦/٣١١) وقال: لا أعرفه له خبر باطل عن شيخ واه، فساق الحديث بإسناد أبي نعيم إلى أبي كثير بن زيد بن أرقم ثم قال عقبه: هذا موضوع.

(١) لم نجده في مسند الفردوس من حديث جابر وفيه عن غيره بلفظ متقارب.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/٢١٧، رقم ٣١٢١) عن قتادة مرسلاً.

قال المناوي في فيض القدير (٦/٧): ورواه عنه أيضا النميري وعبد الرزاق في جامعه، قال القسطلاني: ورواته ثقات.

(٣) رواه بهذا اللفظ دون الزيادة التي في آخره الديلمي في مسند الفردوس (٣/٦٣٤، رقم ٥٩٨٦).

والمشهور عن أنس في فضل الصلاة على النبي ﷺ مارواه النسائي في السنن الكبرى (٦/٢١، رقم ٩٨٨٩) بلفظ: «من ذكرت عنده فليصل علي، ومن صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً».

وأخرجه أيضا النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ١٦٥، رقم ٦١)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣/١٥٣، رقم ٢٧٦٧)، وأبو يعلى في المسند (٧/٧٥، رقم ٤٠٠٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/٣٤٧).

فائدة: ذكر الحافظ ابن حجر طرفاً من أحاديث فضل الصلاة على النبي ﷺ في فتح الباري (١١/١٦٨) ثم قال: وفي الباب أحاديث كثيرة ضعيفة وواهية، وأما ما وضعه القصاص في ذلك فلا يحصى كثرة، وفي الأحاديث القوية غنية عن ذلك.

(٤) هذا الحديث فيه غلط في متنه فكلمة «عليَّ» مدرجة فيه، والصواب أنها ليست فيه، فالمروزي رواه في تعظيم قدر الصلاة (٢/٨٩٩، رقم ٩٣٦) فقال: حدثنا عبد الله بن المسندي قال: حدثنا وكيع عن سفيان عن عاصم عن زر عن عبد الله قال: «من لم يصل فلا دين له»

وعن عائشة مرفوعاً و لم أقف على سنده قال: «**لا يرى وجهي ثلاثة أنفس: العاق لوالديه، وتارك سنتي، ومن لم يصل عليّ إذا ذكرت بين يديه**»[١].

ففي الأحاديث المذكورة تحذير من ترك الصلاة عليه ما يذكر، وإخبار بحصول الشقاء، وأن من ترك الصلاة عليه أبخل الناس، ولا دين له، ولا يرى وجهه الكريم ﷺ وأنشد بعضهم فقال:

من لم يصل عليه إن ذكر اسمه ... فهو البخيل وزده وصف جبان
وإذا الفتى صلى عليه مرة ... من سائر الأقطار والبلدان
صلى عليه الله عشراً فليزد ... عبد ولا يجنح إلى نقصاني

والشافعي والجمهور أجابوا عن هذه الأحاديث بأنها خرجت مخرج المبالغة في تأكيد ذلك وطلبه، وأن الأمر فيها للندب لا للوجوب، وقالوا: إن الصلاة عليه لكلٍ تستحب في مواضع منها: كلما ذكر، ومنها: عند كتابة اسمه كما تقدم، فقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**من صلى عليّ في كتابه لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب**»[٢].

قال ابن العربي بعده في رواية أخرى: «**لم تزل الملائكة تكتب له الحسنات ما دام اسمي في ذلك الكتاب**»[٣].

وقال: حدثنا الحسين بن منصور قال: حدثنا عبد الله بن نمير عن الأعمش عن عاصم عن زر قال كنا عند عبدالله ﷺ جلوساً إذ جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله أي درجات الإسلام أفضل فقال: «الصلاة من لم يصل فلا دين له».

(١) لم نقف عليه.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢/٢٣٢، رقم ١٨٣٥)، والرافعي في التدوين (٤/١٠٧) عن أبي هريرة.

قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٣٨): رواه الطبراني في الأوسط وابن أبي شيبة والمستغفري في الدعوات بسند ضعيف.

قال السيوطي في تدريب الراوي (٢/٧٥): وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً فهو مما يحسن إيراده في هذا المعنى، ولا يلتفت إلى ذكر ابن الجوزي له في الموضوعات، فإن له طرقاً تخرجه عن الوضع وتقتضي أن له أصلاً في الجملة، فأخرجه الطبراني من حديث أبي هريرة، وأبو الشيخ الأصبهاني والديلمي من طريق أخرى عنه، وابن عدي من حديث أبي بكر الصديق، والأصبهاني في ترغيبه من حديث ابن عباس، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان من حديث عائشة.

(٣) لم نقف على هذه الرواية.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**من صلى عليَّ في كتاب كتب الله تعالى له على مر الأيام فضل الصلاة**»[١].

وحكى ابن الملقن أن بعض أصحاب الحديث رؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقيل له: بماذا؟ قال: بصلاتي على رسول الله ﷺ.

وعن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كتب عني علماً فكتب معه صلاة عليّ، لم يزل في أجر ما قريء ذلك الكتاب**» أخرجه الدارقطني وغيره[٢].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة يجيئ أصحاب الحديث ومعهم المحابر فيقول الله لهم: أنتم أصحاب الحديث طال ما كنتم تكتبون الصلاة على النبي ﷺ انطلقوا إلى الجنة**» أخرجه الطبراني عن الديري عن عبد الزراق عن معمر بن راشد عن الزهري عن أنس[٣].

وعن سفيان بن عيينة قال حدثنا خلف صاحب الخلقان قال: كان صديق يطلب معي الحديث، فمات فرأيته في المنام، وعليه ثياب خضر جديده يجول فيها فقلت له: ألست كنت تطلب معي الحديث؟ فما هذا الذي أرى؟ فقال: كنت أكتب معكم الحديث فلا يمر حديث فيه ذكر النبي ﷺ إلا كتبت في أسفله ﷺ فإني بهذا الذي ترى.

وإذا كتب الإنسان اسم النبي ينبغي أن يكتب معه ﷺ، ويجمع بين الصلاة والسلام، ولا يقتصر على الصلاة فقط، بأن يكتب صلي الله عليه فقط، ولا يكتب وسلم فقط.

حكي ابن عساكر عن من حدثه عن أبي العباس بن عبد الدايم قال -وكان كثير النقل لكتب العلم على اختلاف فنونه- أنه حدثه في لفظه قال: كنت إذا كتبت في كتب الحديث وغيرها النبي أكتب لفظ الصلاة دون التسليم، فرأيت النبي ﷺ في المنام

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/٢٧٠، رقم ٥٦٤) من طريق أبي داود النخعي عن أيوب بن موسى عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق عن أبيه عن جده به.

وأخرجه ابن عدي في الكامل في ترجمة أبو داود النخعي فأخرج الحديث من طريقه (٣/٢٤٩) وقال في آخر ترجمته: اجتمعوا على أنه يضع الحديث.

(٣) أخرجه من هذا الطريق أيضاً: السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص ١٥٢) إلا أن فيه قتادة بدل الزهري.

فقال لي: تحرم نفسك أربعين حسنة قلت: وكيف يا رسول الله؟ قال: إذا جاء ذكري تكتب صلى الله عليه، ولا تكتب وسلم، وهي أربعة أحرف كل حرف بعشر حسنات، قال: وعدهن ﷺ بيده.

وكما قال ابن الصلاح ينبغي أن يحافظ على كتابة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ عند ذكره، ولا يسأم من تكرير ذلك عند تكرره، فإن ذلك من أكبر الفوائد التي يتعجلها طلبة الحديث وكتبته، ومن أغفل ذلك مرة حرم حظاً عظيماً.

ويتجنب أن يكتب «صلعم» مكان ﷺ كما يفعله الكسالى والجهلة وعوام الطلبة، يأخذون من كل كلمة حرفاً الصاد من صلي، واللام من الله، والعين من عليه، والميم من وسلم، ويجمعونها «صلعم».

ولنا عوده إلى الكلام على بقية المواضع والأوقات التي تستحب فيها الصلاة على النبي ﷺ وإلى ذكر مسائل نفيسة متعلقة بذلك في مجلس آخر.

فائدة: من أكثر من الصلاة على النبي ﷺ في الكتابة وغيرها ولو كان مسرفاً ثم استغاث به في الشدة فإنه يغيثه ﷺ.

فقد حكى ابن الملقن عن أبي الليث عن سفيان الثوري أنه قال: كنت أطوف فإذا أنا برجل لا يرفع قدماً ولا يضع قدماً إلا ويصلي على النبي ﷺ فقلت: يا هذا إنك قد تركت التسبيح والتهليل، وأقبلت بالصلاة على النبي ﷺ فهل عندك من هذا شيء؟ فقال: من أنت عافاك الله؟ فقلت: أنا سفيان الثوري، فقال: لولا إنك غريب في أهل زمانك لما أخبرتك عن حالي، ولا أطلعتك على سري، ثم قال: خرجت أنا ووالدي حاجين إلى بيت الله الحرام، حتى إذا كنت في بعض المنازل مرض والدي، فقمت لأعالجه، فبينما أنا ذات ليلة عند رأسه إذ مات، فأسود وجهه، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والدي فاسود وجهه، فجذبت الإزار على وجهه، فغلبتني عيناي فنمت، فإذا أنا برجل لم أر أجمل منه وجهاً، ولا أنظف منه ثوباً، ولا أطيب منه ريحاً، يرفع قدماً ويضع أخرى، حتى دنا من والدي، فكشف الإزار عن وجهه، فمد يده الشريفة على وجهه، فعاد وجهه أبيض ثم ولى راجعاً، فتعلقت بثوبه، فقلت: يا عبد الله من أنت الذي مَنَّ الله على والدي بك في دار الغربة؟ فقال: أو ما تعرفني أنا محمد بن عبد الله، وصاحب القرآن، أما إن والدك كان مسرفاً على نفسه، ولكن كان يكثر الصلاة عليّ فلما نزل به ما نزل فاستغاث بي، وأنا غياث من يكثر الصلاة عليّ، فانتبهت فإذا وجهه أبيض.

قال السخاوي في القول البديع: وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله سيارة من الملائكة، إذا سمعوا حلق الذكر قال بعضهم: اقعدوا فإذا دعا القوم أمنوا على دعائهم، فإذا صلوا على النبي ﷺ صلوا معهم حتى يفرغوا، ثم يقول بعضهم لبعض: طوبى لهؤلاء يرجعون مغفور لهم**» رواه أبو القاسم التميمي في ترغيبه[١].

وحكي أن أبا العباس أحمد بن منصور يوم مات رآه رجل من أهل شيراز، وهو واقف بجامعها في المحراب، وعليه حلة وعلى رأسه تاج كامل بالجواهر، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي وأكرمني وتوجني وأدخلني الجنة، فقال له: بماذا؟ قال: بكثرة صلاتي على رسول الله ﷺ رواه النميري.

وقول البخاري: «**وقول الله تعالى**» يجوز فيه الجر عطفاً على محل الجملة التي هي كيف كان بدء الوحي، والرفع عطفاً على لفظ البدء قاله الكرماني.

قال البرماوي: وضعف بأن كلام الله لا يكيف، ثم قال: قلت: يصح على تقدير مضاف، أي: كيف نزول قول الله أو كيف فهم قول الله أو نحو ذلك.

أو أن المراد بكلام الله تعالى المنزل المتلو لا مدلوله، وهو الصفة القديمة القائمة بذاته.

وذكر البخاري هذه الآية الكريمة وهي قوله ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [النساء: ١٦٣] لأن عادته أن يبتذل للترجمة بما وقع له من قرآن وسنة مسندة وغيرها، وأراد: أن الوحي سنة الله وأنبيائه.

ومعنى الآية: إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى سائر الأنبياء وحي رسالة لا وحي إلهام فقط[٢].

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (حديث رقم ١٨٧٦) معزواً إلى ابن النجار عن أبي هريرة.

(٢) فسر ابن حجر هذه الآية وتحدث عن وجه مناسبتها للحديث فقال: قوله: «وقول الله» هو بالرفع على حذف الباب عطفاً على الجملة، لأنها في محل رفع، وكذا على تنوين باب، وبالجر عطفاً على كيف، وإثبات باب بغير تنوين، والتقدير باب معنى قول الله كذا، أو الاحتجاج بقول الله كذا، ولا يصح تقدير كيفية قول الله، لأن كلام الله لا يكيف قاله عياض، ويجوز رفع «وقول الله» على القطع وغيره.

قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ... الآية﴾ قيل: قدم ذكر نوح فيها لأنه أول نبي أرسل، أو أول نبي عوقب قومه، فلا يرد كون آدم أول الأنبياء مطلقاً. =

وسبب نزول هذه الآية: أن الكفار أنكروا الوحي فنـــزلت رداً عليهم.

وخـــص نوحاً بالذكر و لم يذكر آدم مع أنه أبو البشر، وأول الأنبياء، بل هو أول المسلمين، فإنه نبي مرسل وإن رسالته بمنـــزلة التربية والإرشاد للأولاد، لأن نوحاً أول نـــبي من أنبياء الشريعة، وأول نذير على الشرك، وأول من عُذب أمته لردهم دعوته، وأُهلك أهل الأرض بدعائه، وأول مشرع عند بعض العلماء، وأول نبي عوقب قومه، فخصصـــه بالذكر تهديداً لقوم رسول الله ﷺ وإعلاماً لهم أنكم ستعاقبون إذا خالفتم رسول الله ﷺ.

قوله «**نوح**» ونوح لفظ أعجمي معرب، ومعناه بالسريانية: الساكن، وهو لقب لهذا النبي ﷺ.

واسم «**نوح**» عبد الغفار، **وقيل:** يشكر.

واختـــلف العلماء في سبب تلقيبه «**بنوح**» **فقيل:** لقب بذلك لكثرة نوحه على نفسه في طاعة ربه كما أخرجه ابن أبي حاتم عن يزيد الرقاشي.

وقيل: لأنه مر بكلب فناح لذلك فقال: اخسأ يا قبيح، فأوحى الله إليه: أعبتني أم عبت الكلب، فناح لذلك ولقب بنوح.

وقيل: لأنه رأى كلباً ميتاً فكرهه، فأوحي الله إليه: هذا خلقنا فاخلق أنت مثله، فصار يبكي وينوح، قاله البوني.

وقيـــل: إنـــه رأى كلباً له أربعة أعين فاستقبحه فقال له الكلب: يا نوح أتعيب لصنعتي، فلو كان الأمر إليّ لم أكن كلباً، وأما الصانع فهو الذي لم يلحقه عيب فصار يبكي وينوح قاله في العقائق.

ففي هذا إشارة إلى أنه لا ينبغي لأحد أن يستقبح شيئاً من مخلوقات الله تعالى فإن الله لم يخلق شيئاً من العالم سدىً.

حكـــى الكمال الدميري عن القزويني أن رجلاً رأى خنفساء فقال: ماذا يريد الله تعـــالى مـــن خلق هذه؟ أحسن شكلها أم أطيب ريحها؟ فابتلاه الله بقرحه عجز عنها

= ومناســـبة الآية للترجمة واضح من جهة: أن صفة الوحي إلى نبينا ﷺ توافق صفة الوحي إلى من تقدمه من النبيين.

ومـــن جهة: أن أول أحوال النبيين في الوحي بالرؤيا، كما رواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد حسن عن علقمة بن قيس صاحب ابن مسعود قال: إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينـــزل الوحي بعد في اليقظة. انظر الفتح (١/٤٦).

الأطـــباء حتى ترك علاجها، فسمع يوماً صوت طبيب من الطرقيين ينادي في الدرب فقال: هاتوه ينظر في أمري، فقالوا: ما تصنع بطرقي، وقد عجز عنك حذاق الأطباء؟ فقال: لابد لي منه، فلما أحضروه ورأى القرحة استدعى بخنفساء فضحك الحاضرون، فـــتذكر الرجل العليل القول الذي سبق منه فقال: احضروا ما طلب فإن الرجل على بصـــيرة، فاحضروا له الخنفساء ورش رمادها على قرحته فبريء بإذن الله تعالى، فقال للحاضرين ما وقع منه قال: إن الله أراد أن يعرفني أن أحسن المخلوقات أعز الأدوية.

وخـــص نوح -صلوات الله وسلامه- عليه بخصائص منها: أنه لم يسم أحد من الأنبياء باسمه.

ومنها: أنه كان أول أنبياء الشريعة، وأول داع إلى الله وأول من عُذبت أمته لعدم الإيمان به، وأهلك الله الأرض بدعوته، كما قال تعالى حكاية عنه ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَـــذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً** ﴾[نوح: ٢٦، ٢٧].

ومـــنها: السفينة التي ركبها في الطوفان، وسنذكر قصة السفينة وكم كان طولها وعرضها، ومن أي شيء كانت، وكم أقام فيها في الكلام على عاشوراء.

ومـــنها: أنـــه كان أطول الأنبياء عمراً كما صرح به النووي في تهذيب الأسماء والـــلغات، ولهذا يقال له كبير الأنبياء، وشيخ المرسلين عاش ألفاً وخمسمائه سنة قاله الكسائي والثعالبي، أو مائه وخمسين سنة قاله كعب الأحبار، وقيل: غير ذلك، وباقي الأنبياء لم يبلغوا هذا العمر.

أما آدم فقيل: إنه عاش تسعمائه وستين سنة، لكن قال النووي في تهذيبه: اشتهر في كـــتب الـــتاريخ أنه عاش ألف سنة، ولازالت أعمار الأنبياء في القصر والتناقص، فمـــنهم من عاش ثلاثمائه، ومنهم من عاش دون ذلك، وأما نبينا محمد ﷺ فإنه عاش ثلاثـــاً وستين سنة، وهكذا أعمار غالب أمته ما بين الستين إلى السبعين كما ورد في الـــترمذي: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك**»[1]، وفي

---

(١) أخـــرجه الترمذي في سننه (٥٦٦/٤، رقم ٢٣٣١)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجـــه في سننه (١٤١٥/٢، رقم ٤٢٣٦)، والحاكم في المستدرك (٤٦٣/٢، رقم ٣٥٩٨)، وقال: هـــذا حديـــث صـــحيح عـــلى شرط مسلم و لم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه (٢٤٦/٧، رقم ٢٩٨٠)، والطـــبراني في المعجـــم الأوســـط (٨٥/٦، رقـــم ٥٨٧٢)، وأبـــو يعلى في مسنده =

رواية: «**وجعل أمته آخر الأمم وأقصر الأمم أعماراً حتى لا يطول مكثهم تحت التراب، ولا يجتمع عليهم الذنوب الكثيرة**»(١).

قال: ويدل على ذلك ما روي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل قال: «إني مننت عليك بسبعة أشياء: أولها: أني لم أخلق في السماوات والأرض أكرم علي منك، والثاني: أن مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي كلهم مشتاقون إليك، والثالث: لم أعط أمتك مالاً كثيراً حتى لا يطول عليهم الحساب، والرابع: لم أطول أعمارهم حتى لا تجتمع عليهم الذنوب الكثيرة، والخامس: لم أعطهم من القوة كما أعطيت من قبلهم حتى لا يدَّعوا الربوبية كما ادعت الأمم السابقة، والسادس: أخرجهم في آخر الزمان حتى لا يطول مكثهم تحت التراب، والسابع: لا أعاقب أمتك كما عاقبت بني إسرائيل إذا أصابهم دم الحيض في ثيابهم أمرت بقطعه، ولا يجوز الغسل منه، وإذا أذنبوا ذنباً وجدوه مكتوباً على أبوابهم»(٢).

ومن خصائص نوح: أنه عاش هذا العمر الطويل فلم تنقص له قوة.

ومنها: أنه لم يبالغ أحد من الرسل في الدعوة مثل ما بالغ، فكان يدعو قومه ليلاً ونهاراً سراً وإعلاناً كما قال تعالى حكاية عنه ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً** ﴾ [نوح: ٥، ٦] ولم يلق نبي من الضرب والشتم وأنواع الأذى والجفاء ما لقي.

ومنها: أنه جعل ثاني النبي ﷺ في الميثاق وفي الوحي قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ** ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ [النساء: ١٦٣].

ومنها: أنه أول من تنشق عنه الأرض بعد نبينا ﷺ.

ومنها: أن الله حفظه ومن معه في الفلك من الغرق، وأجراه فوق الماء وسماه عبداً

= (١٠/٣٩٠، رقم ٥٩٩٠)، والديلمي في مسند الفردوس (١/٤١٢، رقم ١٦٦٨)، والأصبهاني في طبقات المحدثين بأصبهان (٤/٣٠٤، رقم ٦٨٧) عن أبي هريرة.

(١) لم نقف على هذه الرواية.

(٢) لم نقف عليه.

شكوراً فقال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ [الإسراء: ٣].

وأكرمه بالسلام والبركة فقال: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨].

قال بعض العلماء: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة.

ومنها: أنه من قال حين يمسي: سلام على نوح في العالمين، لا تضره تلك الليلة حية ولا عقرب، والسر في ذلك: أنه لما صنع السفينة وأمر أن يصنع فيها من كل زوجين اثنين، حضرت الحية والعقرب وقالا: احملنا معك فقال: لا لأنكما سبب الضر للناس، فقالا: احملنا ونحن نحلف لك أن لا نضر أحداً ذكرك في ليل أو نهار، فحلفها على ذلك. نبه على ذلك الدميري واستدل عليه بأحاديث.

وكان له من الأولاد ثلاثة سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وفارس و الروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج.

ويقال: لما حضرته الوفاة دعا ابنه ساماً فقال: يا بني أوصيك عن اثنين أو أنهاك عن اثنين فأما اللذان أنهاك عنهما فالإشراك بالله والكبر، فإنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الشرك والكبر.

وقيل: قال له: فأما اللذان أنهاك عنهما فالشرك بالله والاتكال على غير الله، وكفى بالعبد خزياً أن يتكل في حاجة على غير الله، وأما اللذان أوصيك بهما فإني رأيتهما يكثران الولوج على الله تعالى قول لا إله إلا الله، وقول سبحان الله، فإن لا إله إلا الله لو جمعت السموات السبع والأرض السبع لخرقتها حتى تبلغ إلى ربها، ولو جعلت لا إله إلا الله في كفة ميزان وجيىء بالسماوات السبع وما فيها لرجحت لا إله إلا الله، وأوصيك بسبحان الله فإنها صلاة الخلق، وبها يرزقون، فلما فرغ من وصيته أتاه ملك الموت فقال: له السلام عليك يا نبي الله فارتعد نوح منه، وقال: وعليك السلام أيها الشخص من أنت؟ فقد ارتاع قلبي منك، فقال: أنا ملك الموت قد أتيت لقبض روحك، فتغير وجهه وتلجلج لسانه، فقال له ملك الموت: ما هذا الجزع يا نوح؟ أو لم تشبع من الدنيا طول عمرك؟ فقال نوح: يا ملك الموت ما شبهت ما مضى في عمري إلا بدار لها بابان، دخلت من هذا الباب، وخرجت من الآخر، قال: فالتفت نوح عن يمينه وشماله فلم يرى أحداً من أولاده، فناوله ملك الموت كأساً فيه شراب، وقال له: اشرب هذا حتى يسكن روعك فتناوله نوح عليه السلام فلما استوفى الشراب خر

ميتاً.

لطيفه: سبب مجيء أولاد حام سود أن نوحاً أمر أن لا يقرب ذكراً أنثى ما دام في السفينة، فأصاب حام امرأته في السفينة، فدعا الله نوح أن يغير نطفته، فجاء بالسودان.

وقوله «**والنبيين**» قريء بالهمز وتركه، وهو جمع نبي، و«النبيء» بالهمز مأخوذ من النبأ بمعنى الخبر، لأنه مخبر عن الله، وبلا همز وهو الأكثر، **فقيل:** إنه مخفف المهموز أي: قلبت الهمز ياء، وأدغمت الياء في الياء.

وقيل: إنه أصل مأخوذ من النبوة بمعنى الرفعة، لأنه مرفوع الرتبة عند الله على سائر الخلق.

قال العلماء: وأول الأنبياء آدم عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ فقد نطق القرآن والحديث بأنه خاتم النبيين قال تعالى ﴿ **وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وعن العرياض بن سارية عن النبي ﷺ قال: «**إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طنيته**» رواه أحمد والبيهقي والحاكم وقال صحيح الإسناد[١].

وقوله «**لمنجدل**» يعني طريحاً ملقى على الأرض قبل نفخ الروح فيه.

لطيفه: ذكر ابن الجوزي في مولده: أن الله تعالى قال لنور محمد ﷺ من أنا؟ فمن حلاوة الكلمة اهتز العرش فخرج منه قطرات كالمطر المترادف، فكان مائة ألف قطرة، وأربعة وعشرين ألف قطرة، فكل قطرة قطرت منه خلق الله منها نبياً هذا في البداية مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي يسعون في خدمته، وفي الآخرة يكونون تحت رآيته، يطلبون شفاعته[٢] قال بعضهم:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٧/٤، رقم ١٧١٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٤/٢، رقم ١٣٨٥)، والحاكم في المستدرك (٦٥٦/٢، رقم ٤١٧٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد عن العرباض بن سارية.

والحديث أخرجه أيضاً: ابن حبان في صحيحه (٣١٢/١٤، رقم ٦٤٠٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٤٠/٢، رقم ١٤٥٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩٠/٦)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١٤٩/١)، والبخاري في التاريخ الكبير (٦٨/٦)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٣٩٨/٢، رقم ٨٦٥)، والديلمي في مسند الفردوس (٧٦/١، رقم ٢٣٠).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٣/٨): رواه أحمد بأسانيد والبزار والطبراني بنحوه، وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان.

(٢) هذا الكلام يحتاج إلى نقل صحيح فالمقام مقام الحديث عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، =

لبست رداء الفخر في صلب آدم فما تنتهي إلا إليك المفاخر
ولله بدر في السماء منور وأنت لنا بدر على الأرض زاهر

وأما عدد الأنبياء والمرسلين فقد جاء في رواية مسند أحمد في حديث أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ عن أشياء منها قال: قلت: يا رسول الله كم عدد الأنبياء قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، الرسل من ذلك ثلاثمائه وخمسة عشر جماً غفيراً**»[1] وكلهم خلقوا من رسول الله ﷺ.

لكن قال العلماء: الأولى أن لا يقتصر على عدد في التسمية، فقد قال الله تعالى: ﴿ **مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾[غافر: ٧٨]، ولأنه لا يأمن في ذكر العدد أن يدخل فيهم من ليس منهم، إن ذكر عدد أكثر من عددهم، ويخرج منهم من هو منهم إن ذكر عدداً أقل من عددهم، وكلهم -صلوات الله عليهم وسلامه- كانوا مخبرين مبلغين عن الله تعالى صادقين ناصحين، وهم معصومون من الكبائر والصغائر، قبل النبوة وبعدها، عمداً سهواً.

وفي إرسال الرسل حكمة أي: مصلحة وعاقبة حميدة فإن الله تعالى أرسلهم مبشرين لأهل الإيمان والطاعة بالجنة والثواب، ومنذرين لأهل الشرك والطغيان بالنار والعقاب، ومبينين للناس ما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا، فإن العقل لا يستقل بمعرفة كل ما يحتاج إليه الإنسان من أمور الدين والدنيا، فقد خلق الله الأجسام النافعة والضارة ولم يجعل للمعقول والمحسوس الاستقلال بمعرفتها، فكان من فضل الله ورحمته إرسال الرسل لبيان ذلك، كما قال ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فائدة: لولا النبي ﷺ لم يخلق الله نبياً من الأنبياء ولا شيئاً من الأشياء، فإن الله لما

= ولم نقف على رواية في ذلك والله تعالى أعلى وأعلم وهو أجل وأحكم.

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٨/٥، رقم ٢١٥٨٦) عن أبي ذر.

وأخرجه أيضاً: الطيالسي في مسنده (ص ٦٥، رقم ٤٧٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٢١٧/٨، رقم ٧٨٧١)، وابن حبان في صحيحه (٧٦/٢، رقم ٣٦١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣٢/١)، وهناد بن السري في الزهد (٥١٦/٢، رقم ١٠٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩١/٣، رقم ٣٥٧٦).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٩/١): رواه أحمد والطبراني في الكبير، ومداره على علي بن يزيد وهو ضعيف.

خلق آدم عليه السلام قال له: ارفع رأسك فرفع آدم رأسه فرأى نور نبينا محمد ﷺ شبحاً تحت العرش، فقال آدم: يارب ما هذا الشبح النور؟ فقال: هذا الشبح سرادق نور خلق من ذريتك اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد، لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماءً ولا أرضاً ولا طولاً ولا عرضاً، قال: يارب لم سميته في السماء أحمد وفي الأرض محمد؟ قال: سميته في السماء أحمد لأن أحمد من حمدي، وسميته في الأرض محمد لأني جعلت كل من يحمدني يحمده[1].

***

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، ولكن وجدنا معناه في حديث آخر عند الطبراني في المعجم الأوسط (٣١٣/٦، رقم ٦٥٠٢) عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أذنب آدم بالذي أذنبه رفع رأسه إلى العرش فقال: أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، فأوحى الله إليه وما محمد ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت، أنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك، وإن أمته آخر الأمم من ذريتك، ولولا هو يا آدم ما خلقتك».

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٣/٨): رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم.

المجلس الثالث

في الكلام على رجال إسناد حديث «إنما الأعمال بالنيات» ونذكر فيه طرفاً من ترجمة عمر بن الخطاب ﷺ

قَالَ البُخَارِي:

حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ عَبْدُ اللَّه بْنُ الزُّبَيْر، قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيد الأَنْصَارِيُّ، قَالَ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيَّ، يَقُولُ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ...

قوله: «**حدثنا الحميدي**» هذا هو أحد مشايخ البخاري أبو بكر عبد الله بن عبد الله بن الزبير منسوب إلى جده الأعلى حميد، وهو إمام كبير مصنف رافق الشافعي في الطلب عن ابن عيينة وطبقته، وأخذ عنه الفقه ورحل معه إلى مصر، ورجع بعد وفاته إلى مكة، وكانت وفاته بها سنة تسع عشرة ومائتين[(١)].

وافتتح البخاري كتابة بالرواية عن الحميدي دون غيره من مشايخة لأنه قرشي، بل هو أفقه أهل قريش من أئمتنا لقوله ﷺ: «**قدموا قريشاً ولا تقدموها**»[(٢)].

ولتقديمه مناسبة أخرى وهي أنه مكي فناسب أن يذكر في أول ترجمة الوحي لأن ابتداءه كان من مكة[(٣)].

---

(١) ترجم الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٦/١) للحميدي فقال: هو: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسي، منسوب إلى حميد بن أسامة، بطن من بني أسد بن عبد العزى بن قصي، رهط خديجة زوج النبي ﷺ يجتمع معها في أسد، ويجتمع مع النبي ﷺ في قصي، وهو إمام كبير مصنف، رافق الشافعي في الطلب.

(٢) أخرجه البزار في مسنده (١١٢/٢، رقم ٤٦٥) عن علي ﷺ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦٤/٩) عن أنس بن مالك ﷺ، والإمام الشافعي في المسند (٢٧٨/١) عن ابن شهاب أنه بلغه أن رسول الله ﷺ... فذكره، وأخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (٦٣٧/٢، رقم ١٥١٩) عن عبد الله بن السائب ﷺ.

(٣) قال ابن حجر في الفتح (٤٦/١): فكأن البخاري امتثل قوله ﷺ: «قدموا قريشاً» فافتتح كتابه بالرواية عن الحميدي، لكونه أفقه قرشي أخذ عنه، وله مناسبة أخرى: لأنه مكي كشيخه، فناسب أن يذكر في أول ترجمة بدء الوحي، لأن ابتداءه كان بمكة، ومن ثم ثنى بالرواية عن مالك، لأنه شيخ أهل المدينة، وهي تالية لمكة في نزول الوحي وفي جميع الفضل، ومالك وابن عيينة قرينان، قال الشافعي: لولاهما لذهب العلم من الحجاز.

وقوله: «**قال حدثنا سفيان**» هذ هو سفيان بن عيينة، ويجوز في سين سفيان الفتح والضم والكسر، والضم أشهر وهو هلالي كوفي، ثم مكي، وهو من تابع التابعين سكن بمكـــة ومات بها، وكان من الحفاظ المتقنين، وأهل الورع والدين، ومن العلماء بكلام رب العالمين، وسنة سيد المرسلين.

ومـــن فضائله ﷺ أنه قرأ القرآن وهو ابن أربع سنين، وكتب الحديث وهو ابن ســبع ســنين، ولما بلغ خمس عشرة سنة قال أبوه يا بني اختلط بالخير تكن من أهله، واعلم أنه لن يسعد بالعلماء إلا من أطاعهم، فأطعهم وخذ منهم تقتبس من علمهم، قال: فجعلت لا أعدل عن وصية أبي.

وكان كثير التلاوة والحج، حج نيفاً وسبعين حجة، وفي كل مرة يقول: اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان، حتى قال في المرة الأخيرة: قد استحييت من الله تعالى مـــن كـــثرة ما أساله، فرجع فتوفي في السنة الداخلة يوم السبت غرة رجب سنه ثمان وتسعين ومائة ودفن بالحجون.

ومـــن مناقبة ما حكي عن بعض أصحابه أنه قال: دخلت عليه وبين يديه قرصان من شعير فقال: يا أبا يوسف إنهما طعامي منذ أربعين سنة.

وكان كثيراً ما ينشد:

خلت الديار فسرت غير مسود ومـــن الشقاء تفردي بالسودد

قـــال الشافعي في حقه: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز وهو من مشايخ الشـــافعي ومن ينتهي إليه سلسلة أصحابه في الفقه ومنه إلى النبي ﷺ، وكان إذا جاءه شيء من التفسير أو الفتيا يلتفت إلى الشافعي ويقول: سلوا هذا.

وكـــان يوماً جالساً وعنده أصحابه، وإذا بصبي قد دخل المسجد فتهاون به أهل المجـــلس لصـــغره، فقال سفيان: لأصحابه كذلك كنتم من قبل، فمنَّ الله عليكم، ثم التفت إلى واحد من أصحابه وقال له: يا فلان لو رأيتني ولي عشر سنين طولي خمسة أشـــبار، وأنـــا كشعلة من نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، وبغلي كآذان الفار، أختلف إلى علماء الأمصار، مثل الزهري وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمســـمار، ومحبرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا جلست فيهم قـــالوا: وسعوا للشيخ الصغير، ثم ابتسم ابن عيينة وضحك، وإنما قال ذلك: حثاً لهم عـــلى إكرام الصغير، وإعلاماً لهم بأن العلم فضل الله يؤتيه من يشاء ولقد أحسن من قال: وكم من صغير وفقه الله في حال صغره، فغاب عليه الخوف من الله.

قال الحسن البصري: رأيت صغير يبكي فقلت: يا صبي من ضربك أبوك أم أمك؟ قال: يا عم ما ضربني أبي ولا أمي، ولكن أبكي من خوف جهنم، فقلت له: يا بني مع صغر سنك تخاف من جهنم؟ قال: يا عم رأيت أمي إذا طبخت تترك الحطب الصغار تحت الكبار، فأبكاني ذلك، ثم قلت: له يا بني هل لك ان تصحبني حتى أعلمك مما علمني الله من العلم، فقال: على شرط إذا جعت تطعمني، وإذا عطشت تسقيني، وإذا مرضت تشفيني، وإذا زللت تغفر لي، وإذا مت تحييني، قلت: لا أقدر على ذلك، قال: أنا على باب ملك يقدر على ذلك كله.

قوله «**قال حدثنا يحيى بن سعيد الانصاري**» هذ هو سعيد بن سعيد ين قيس بن عمرو بن سهل بن ثعلبة الأنصاري تابعي، اتفق العلماء على جلالته وعدالته وحفظه، وكانت وفاته سنه أربع أو ثلاث أو ست وأربعين ومائة بالعراق، وقيل: بالهاشمية.

والأنصاري نسبة إلى الأنصار الذي هو كالعلم للقبيلتين الأوس والخزرج، ولهذا جاز النسبة إلى لفظ الجمع.

وسموا أنصار لانهم نصروا رسول الله ﷺ، قال الله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا**﴾ [الأنفال: ٧٢] وواحد الأنصار نصير كشريف وأشراف.

قوله: «**قال أخبرنا محمد بن إبراهيم الشيمي**» هذا هو عبد الله محمد بن إبراهيم الحارث بن خالد بن صخر بن عامر بن كعب بن تميم بن مرة المدني القرشي التيمي، تابعي، وكانت وفاته بالمدينة سنة عشرين إحدى عشرين ومائة.

قوله: «**سمع علقمة بن أبي وقاص الليثي**» قال الكرماني: «علقمة» بفتح العين المهملة، توفي بالمدينة في خلافة عبد الملك بن مروان، وهو منسوب إلى ليث بن عبد مناف، وهو تابعي على قول الأكثر، وقال ابن منده: إنه صحابي.

وقوله: «**يقول سمعت عمر بن الخطاب**» هذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وقبل الكلام على نسبه ومناقبه نذكر نسب النبي ﷺ تبركاً به وتشرفاً، فإن نسب عمر رضي الله عنه يجتمع مع نسبه ﷺ فنقول:

هو ﷺ محمد بن عبد الله، سمي محمد لكثرة خصاله المحمودة، وسنذكر في المجالس الآتية أن والديه هل ماتا مؤمنين أو كافرين؟ فإن العلماء اختلفوا في ذلك.

ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لوئ، ولوئ يقرأ بالهمز وتركه.

ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانه بن مدركة بن إلياس، هو أول من أهدى البدن إلى بيت الله الحرام، وهو أول من وضع مقام إبراهيم للناس بعد غرق البيت وانهدامه زمن نوح، فكان إلياس أول من ظفر به فوضعه في زاوية البيت، و لم تزل العرب تعظم إلياس.

قال السهيلي: ويذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً**»[1]، وذُكر أنه كان يسمع من صلبه تلبيه النبي ﷺ بالحج.

ابن مضر بن نزار: بكسر النون مشتق من النذر، وهو القليل، سمي «بنزار» لأن أباه حين ولد له نظر إلى نور النبوة بين عينيه الذي كان ينتقل في الأصلاب، ففرح فرحاً شديداً، ونحروا طعم، وقال: هذا نذر في حق هذا المولود.

ابن معد بن عدنان، إلى هنا أجمع العلماء على نسبه الشريف وحق أن ينشد فيه بنشيد ﷺ:

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ... ومن فلق الصباح عمودا
ما فيه إلا سيداً وابن سيد ... حاز المكارم والتقى والجودا

وأما رفع نسب النبي ﷺ إلى آدم فقد كرهه الإمام مالك، وقال: من أخبرك بذلك؟ ولكن الجمهور جوزوه لأنه يترتب عليه معرفة العرب من غيرهم، وقريش من غيرهم.

وقد تنقل ﷺ في الأصلاب الطاهره الزكية، وكلما انتقل إلى صلب واحد يلوح عليه أنواره البهية، ولقد أحسن من قال:

تنقلت في أصلاب قوم أعزة ... بك افتخروا في كل واحة ومحفل
وأشرقت الأنوار في كل بقعة ... وفاح الثناء في كل واد ومنزل
وأضحى لسان الدهر ينشد فرحة ... تنقل فلذات الهوى في التنقل

وأما عمر بن الخطاب فهو: أمير المؤمنين، أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لوي بن غالب الفهري العدوي القرشي، يلتقي نسبه بنسب النبي ﷺ في حفص، كناه بذلك رسول الله ﷺ كما رواه بن الجوزي.

والحفص في اللغة: الأسد، واتفق العلماء على تسميته بالفاروق، قيل: لظهور

---

(١) لم نقف عليه.

الفرق بين الحق والباطل بإسلامه.

وقيل: سبب تسميته بالفاروق ما روي عن الشعبي أن رجلاً من المنافقين ويهودياً اختصما فقال اليهودي: ننطلق إلى محمد بن عبد الله، وقال المنافق: إلى كعب بن الأشرف، فأبى اليهودي، وأتى للنبي ﷺ فقضى لليهودي، فلما خرجا قال المنافق: ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إليه فقصا عليه القصة، فقال: رويداً حتى أخرج إليكما فدخل البيت واشتمل على السيف، ثم خرج وضرب عنق المنافق، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء النبي ﷺ فنزل جبريل فقال: إن عمر بن الخطاب فاروق الحق والباطل، فسمي الفاروق. خرجه الواحدي وأبو الفرج.

واختلف العلماء فيمن سماه بالفاروق فقيل: ربه وهو ضعيف، وقيل: أهل الكتاب عن رسول الله ﷺ، وذكر المحب الطبري في كتابه الرياض النضرة أنه قال: روي عن ابن العباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ينادي مناد يوم القيامة أين الفاروق عمر فيؤتى به، فيقول الله تعالى مرحباً بك يا أبا حفص، هذا كتابك فإن شئت فاقرأه، وإن شئت فلا، فقد غفرت لك**»[1].

قال: وقد روي أن اسمه في السماء فاروق، وفي الإنجيل كافي، وفي التوراة منطق الحق.

وهو أول من سمي أمير المؤمنين، وكان يقال: لأبي بكر ﷺ خليفة رسول الله، فلما ولي عمر ﷺ قيل له: خليفة خليفة رسول الله ﷺ فاستطالوا ذلك، فقيل: إنه سمى نفسه فقال: أنتم المؤمنون وأنا أميركم، وقيل: سماه غيره به.

واختلف العلماء في وقت إسلامه فقيل: أسلم بعد خمس من النبوة، وقيل: أربع، والراجح بعد ست، وكان مكملاً لعدة أربعين رجلاً فقد ورد عن ابن عباس قال: أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين رجلاً فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ٦٤] خرجه القلعي والواحدي.

كما روي: أنه أسلم بعد أربعين رجلاً وإحدي عشر امرأة.

وسبب إسلامه كما روي عن أنس بن مالك ﷺ قال: خرج علينا متقلداً السيف، فلقيه رجل من بني زهرة فقال: أين تعمد أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمداً،

---

(١) لم نقف عليه.

قـــال: وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمد؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك الذي أنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر إن أختك وختنك قد صباءا وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر حتى أتاهما وعندهما رجـــل مـــن المهاجرين يقال له: خباب، فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت فدخـــل عـــليهما فقـــال: مـــا هذه الهيمنة التي سمعتها عندكم قال: وكانوا يقرؤون ﴿**طه**﴾ [طه: ١] فقالا: حديثاً تحدثناه بيننا، قال: قد صبوتما؟ فقال له ختنه: أرايت يا عمر إن كان الحق في دينك، فوثب عمر على ختنه فوطئه واشتد عليه، فجاءت أخته فدفعـــته عن زوجها، فدفعها دفعة بيده أدمى وجهها، فقالت وهي غضبى: يا عمر إن كان الحق في غيـــر دينك أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فلما تبين عمر قـــال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتب، فقالت أخته: إنك نجس، ولا يمسه إلا المطهرون فقام واغتسل وتوضأ، ثم أخذ الكتاب فقرأ ﴿**طه**﴾ [طـــه: ١] حـــتى إلى قوله تعالى ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤] فقال عمر: دلوني على محمد، فلما سمع خباب قول عمر خرج مـــن الـــبيت فقـــال: أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام**» وقال: رسول الله ﷺ في الـــدار التي في أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، قال: وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من أصحاب رسول الله ﷺ فلما أقبل وجل القوم، قال حمزة: نعم هـــذا عمـــر، وإن يرد الله بعمر خيراً هداه إلى الإسلام، وإن يرد غير ذلك فقتله علينا هين.

فلما سمع به رسول الله ﷺ، ولم يعلم أنه جاء إلى الإسلام خرج إليه وأخذ بمجامع ثوبـــه نـــترة نترة، فما تمالك أن وقع على ركبتيه وقال: «**ما أنت بمنته يا عمر حتى يـــنـــزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل الله بالوليد بن المغيرة**» ثم قال: «**اللهم اهد عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب**» فقال عمر: أشهد أن لا إلـــه إلا الله وأشـــهد أنك رسول الله، فكبر المسلمون تكبيرة سمعها أهل مكة، ونزل جبريل وقال: يا محمد استسر أهل السماء بإسلام عمر[1].

---

(١) انظر ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/٢٦٨) يروي قصة إسلام عمر بنحو ما هاهنا عن أنس=

وقال ابن عبد البر عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ ضرب صدر عمر بن الخطاب حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول: «**اللهم أخرج ما في صدره من غل، وأبدله إيماناً**» يقولها ثلاثاً [(١)].

ولما أسلم قال: إني ذاهب إلى أبي جهل لأعلمه بإسلامي، فإنه أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فذهب إليه وطرق عليه الباب فخرج إليه وقال: مرحباً بعمر، وظن أنه باق على دينه، ما حاجتك؟ قال: جئتك أخبرك أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله فضرب الباب في وجهه، وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به.

وورد في الصحيح: «**مازلنا أعزة منذ أسلم عمر**»[(٢)].

وذكر المحب الطبري من خصائصه أن الله جعله مفتاح الإسلام فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نظر رسول الله ﷺ ذات يوم إلى عمر فتبسم فقال: «**يا ابن الخطاب أتدري لم تبسمت إليك؟**» قال: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى**

= بن مالك أيضاً، وانظر نوادر الأصول (٢٢٧/١) ففيه قصة إسلام عمر ولكن من حديث عائشة.

وروى الطبراني في الأوسط (٢٤٠/٢، رقم ١٨٦٠) من هذه القصة: «عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ دعا عشية الخميس فقال: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام فأصبح عمر يوم الجمعة فأسلم»، ورواه أيضاً الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٤٣/٧، رقم ٢٥٧٦).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢/٩): رواه الطبراني في الأوسط وفيه القاسم بن عثمان البصري وهو ضعيف.

(١) انظر ابن عبد البر في الاستيعاب (١١٤٧/٣) ترجمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

والحديث أخرجه: الحاكم في المستدرك (٩١/٣، رقم ٤٤٩٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٠٥/١٢، رقم ١٣١٩١)، وفي المعجم الأوسط (٢٠/٢، رقم ١٠٩٦)، والأصبهاني في دلائل النبوة (ص ٧٣، رقم ٥٨) عن ابن عمر.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٥/٩): رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٤٨/٣، رقم ٣٤٨١) عن عبد الله بن مسعود من قوله.

وأخرجه أيضاً ابن حبان في صحيحه (٣٠٤/١٥، رقم ٦٨٨٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٤/٦، رقم ٣١٩٧٢)، والبزار في مسنده (٢٧٤/٥، رقم ١٨٨٨)، والطبراني في المعجم الكبير (١٦٥/٩، رقم ٨٨٢١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢١١/٨)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٧٠/٣). وانظر: الإستيعاب (١١٤٩/٣).

نظر إليك بالشفقة والرحمة ليلة عرفة، وجعلك مفتاح الإسلام»[١].

وعن عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة وحشر الناس، جاء عمر بن الخطاب حتى يقف في الموقف فيأتيه شيء أشبه شيء به، فيقول: جزاك الله يا عمر خيراً، فيقول له من أنت؟ فيقول: أنا الإسلام، جزاك الله يا عمر خيراً ثم ينادي مناد: لا يدفعن لأحد كتاب حتى يدفع لعمر بن الخطاب** رضي الله عنه، **ثم يعطى كتابه بيمينه، ويؤذن به إلى الجنة**»[٢] فبكى عمر وأعتق جميع ما يملكه وهم تسعة.

وقال ابن مسعود: وكان إسلام عمر فتحاً وهجرته نصراً وإمامته رحمة، ولقد رأيتنا ما نستطيع أن نصلي في البيت حتى أسلم عمر، فكان رسول الله ﷺ ومن معه يصلون في البيت خفية، فقال عمر: يا رسول الله على من تخفي ديننا، ونحن على الحق وهم على الباطل، فقال: إنا قليلون، فقال والذي بعثك بالحق نبياً لا يبقى مجلس من المجالس التي جلست فيها إلا أقر الإيمان، ثم خرج عمر، وطاف بالبيت، وهو يظهر الشهادتين، فوثب إليه المشركون، فوثب عمر على واحد منهم وجلس على صدره، وأدخل أصبعيه في عينيه فصاح الرجل ففروا من عمر، ثم جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله لم يبق مجلس إلا وأظهرت فيه الإيمان فخرج رسول الله ﷺ من الدار وعمر أمامه وحمزة خلفه، حتى طاف بالبيت، وصلى الظهر جهرة.

وهو من المهاجرين الأولين صلى إلى القبلتين، وشهد بدراً وبيعة الرضوان، وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ، بويع له بالخلافة يوم موت الصديق، وهو يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخر سنة ثلاث عشرة بوصية الصديق إليه فإن أبا بكر رضي الله عنه لما أيس من حياته دعا عثمان وأملى عليه كتاب أبي بكر ﷺ فلما كتب ضم الصحيفة وأخرجها للناس يوم موت الصديق، وأمرهم أن يبايعوا لمن في الصحيفة، فبايعوا حتى مرت بعلي رضي الله عنه فقال: بايعنا لمن فيها وإن كان عمر، فوقع الاتفاق على خلافته، فسار بأحسن سيرة، وزين الإسلام بعدالته، وفتح في خلافته الفتوحات، وهو أول من ضرب

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، ولكن وجدنا معناه عند محب الدين الطبري في الرياض النضرة (٣٣٢/١) طرفاً منه عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ: «أول من يعطى من هذه الأمة كتابه بيمينه عمر بن الخطاب، وله شعاع كشعاع الشمس، فقيل له: فأين أبو بكر يا رسول الله قال: هيهات زفته الملائكة إلى الجنان» قال محب الدين الطبري: خرجه صاحب الديباج.

بالدرة وحملها، وكانت درته أهيب من السيف.

وله من الكرامات ما لا تحصى فمن كرامته أن العناصر الأربع وافقته، عنصر الماء والهواء والتراب والنار، وأما موافقة عنصر الماء له ففي قصة النيل، وذلك أن مصر لما انفتحت وتولى عمرو بن العاص بها في خلافه سيدنا عمر ﷺ نائباً عنه، وجاء وقت زيادة النيل، اجتمع أهل مصر وجاءوا إلى عمرو بن العاص وقالوا: هذا النيل يحتاج في كل سنه إلى جارية بكر من أحسن الجوار من بنات مصر، وتحلى بأنواع الحلي والحلل، وتزين بأنواع الزينة كالعروس التي ترف إلى زوجها، ثم نلقيها فيه وإلا فلا يجري ويخرب البلاد، فقال لهم: لا أفعل شيئاً حتى أشاور أمير المؤمنين، فكتب كتاباً إلى عمر بن الخطاب يخبره فكتب إليه عمر كتاباً جواباً إليه عن كتابه وفيه رقعة مكتوب فيها: «من عبد الله عمر بن الخطاب أما بعد: فإن كنت تجري من قبلك، فلا تجر ولا حاجة بنا إليك، وإن كان الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك» وأمره أن يلقيها في النيل، فلما ألقى البطاقة في النيل، أصبحوا وقد أجرى الله النيل، وطلع ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، ببركة عمر بن الخطاب، وأراح الله المسلمين من هذه البدعة القبيحة، التي كانت تصنع كل سنة من زمن فرعون إلى خلافة عمر ﷺ وأنشد بعضهم في المعنى فقال:

يا أيها النيل المبارك إن تكن ... من عند ربك تأت فاجر بأمره
وإن تكن من عند نفسك تأتنا ... فالله يبسط في بره
كم من بلاد ليس تعرف أرضها ... ملأ الإله بيوتها من بره

ووافقه عنصر الماء مرة أخرى وذلك: أنه بعث جيشاً إلى مدائن كسرى، وأمرَّ عليهم سعد بن أبي وقاص، وجعل قائد الجيش خالد بن الوليد، فلما بلغوا شط دجله ولم يجدوا سفينة تقدم سعد وخالد فقالا: يا بحر إنك تجري بأمر الله فبحرمة محمد ﷺ وبعدل عمر خليفة رسول الله ألا ما خليتنا والعبور، فعبر الجيش بخيله وحماله ورجاله إلى المدائن ولم تبتل حوافرها.

وأما موافقة عنصر الهواء فذلك: أنه أرسل جيشاً وأمرَّ عليهم شخصاً يقال له: سارية، فلما قربوا من العدو كمنوا لهم وراء جبل وكانت نجاتهم في الصعود على الجبل، وكان نهار جمعة، فلما صعد المنبر للخطبة أطلعه الله على جيشه الذي أرسله، وعلى الكمين، وكشفت الحجب له من مسافة بعيدة، فبينما هو في الخطبة نادى: يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثاً فاحتمل الهواء صوته حتى بلغ سارية فصعد الجبل وسلموا من

العـــدو، ثم أقـــبل على خطبته، فلما قضى صلاته سأله عبد الرحمن بن عوف، وكان ينبسط معه وقال له: يا أمير المؤمنين ما هذا الذي وقع منك في حال الخطبة؟ ناديت يا سارية الجبل، وجعلت للناس عليك كلاماً بإتيانك بشيء في الخطبة ليس منها، فقال: رأيـــت ســـارية وأصحابه يقاتلون عند جبل يؤخذون من جهته من بين أيديهم ومن خـــلفهم، فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل، فلم تمض أيام قليلة حتى عاد الجيش فقالوا: صلينا الصبح إلى أن حضرت الجمعة، فسمعنا صوت مناد ينادي إلى الجبل، فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا، حتى هزمهم الله تعالى.

وأما موافقة عنصر التراب له فذلك أن الأرض زلزلت في أيامه واضطربت، فضربها برجله، وقيل: بدرَّته وقال: أتزلزلين وأنا أعدل عليك، فما زلزلت في حياته بعد تلك المرة قط.

ونقل السبكي عن إمام الحرمين أنه قال: إن الأرض زلزلت على زمن عمر، فحمد الله، وأثـــنى عـــليه، والأرض تـــرتج ثم ضربها بدرته، وقال: أقري ألم أعدل عليك؟ فاستقرت من وقتها.

قال السبكي: كان عمر على الحقيقة في الظاهر والباطن، وخليفة الله في الأرض، فهو يعزر الأرض ويؤدبها بما يصدر منها، كما يعزر ساكنيها على خطيأتهم.

فإن قيل: أيجب على الأرض تعزير وهي غير مكلفة؟

فالجواب: أن سيدنا عمر استوى عنده الظاهر والباطن، فجاز له تعزيرها لذلك، فإن ظاهر الشرع ما يبحث عنه الفقيه وباطن يطلع الله عليه بعض أصفيائه كعمر ﷺ ونظير فعل عمر ما فعله موسى بن عمران بالحجر، لما مر بثوبه فلحقه وهو يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، وضربه ستاً أو سبعاً.

وقـــول سيدنا عمر للأرض: «ألم أعدل عليك» فيه إشارة إلى أن الظلم موجب الانـــتقام، وأن العدل موجب للرضا وأن الأرض مطيعة لله، وليس لها الارتجاج إلا في الوقـــت المعـــلوم وهـــو يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾ [الزلزلة: ١]، وكذلك وقت وقوع الجور من الحكام كما يدل ذلك قوله تعالى ﴿**تَكَادُ السَّـــمَوَاتُ يَـــتَفَطَّرْنَ مِـــنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً**﴾ [مريم: ٩٠، ٩١] فدلت الآية على أن الأرض لولا أن الله يمسكها لانشقت من الجور والظلم والفجور الكائن عليها.

وأما موافقته عنصر النار فقد قال السبكي: إن ناراً كانت تخرج من كهف في جبل فتحرق ما أصابت، فخرجت في زمن عمر فأمر أبو موسى الأشعري أو تميماً الدري أن يدخلها الكهف، فجعل يحبسها بردائه، حتى أدخلها الكهف فلم تخرج بعد.

قال: ولعله أراد بذلك منع أذاها.

وورد في الموطأ عن مالك بن أنس أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ سأل رجلاً عن اسمه فقال: جمرة، فقال عمر: ابن من؟ قال: ابن شهاب فقال: ممن؟ قال: من الحرقة، فقال: واين مسكنك؟ فقال: بحرة النار، فقال: بأيها؟ قال: بذات لظى، فقال: أدرك أهلك فقد احترقوا فكان الأمر كما قال عمر ﷺ [(١)].

فقد وافقه عنصر النار في هذه ايضاً.

وصفته ﷺ أنه كان طوالاً جداً، جسيماً، كث اللحية، خفيف العارضين، أصلع شديد الصلع، أعسر يسر أي: قوة يديه على السواء، وكان يأخذ بيده اليمنى أذنه اليسرى، ثم يجمع أطرافه ويبث فكأنما خلق على ظهر فرسه، وكان يخضب بالحناء والكتم، وأنزل الله القرآن بموافقته في مواضع ستأتي في محلها، وشهد له رسول الله ﷺ بالشهادة والجنة، وسماع سراج أهل الجنة، وأخبر أن الله جعل الحق على لسانه وقلبه، وأن رضاه عز، وغضبه عدل، وسماه عبقرياً أي: سيداً، ومحدثاً، فقد قال ﷺ: «**لقد كان فيمن كان قبلكم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر**»[(٢)].

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/٩٧٣، رقم ١٧٥٣) عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب... فذكره.

وأورد الحافظ ابن حجر في الإصابة (١/٥٣٩، ترجمة١٣٠٠ جمرة بن شهاب) فقال: له قصة مع عمر رويناها في فوائد أبي القاسم بن بشران من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر... فذكره.

وأخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٣٤٩، رقم ٣٤٨٦) عن أبي هريرة.

(٢) يروى هذا الحديث عن أبي هريرة وعائشة:

أما حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٣٤٩، رقم ٣٤٨٦)، والترمذي في سننه (٥/٦٢٢، رقم ٣٦٩٣) وقال: هذا حديث صحيح، وابن حنبل في فضائل الصحابة (١/٣٦١، رقم ٥٢٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/٥٨٣، رقم ١٢٦١)، واللالكائي في كرامات الأولياء (١/٩٣، رقم ٤١).

أما حديث عائشة: فأخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٨٦٤، رقم ٢٣٩٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/٣٩، رقم ٨١١٩)، وأحمد في مسنده (٦/٥٥، رقم ٢٤٣٣٠)، وابن حبان =

قال النووي[1]: اختلف في المراد «**بمحدثون**» فقيل معناه: ملهمون، وقيل: معناه مصيبون إذا ظنوا، وقيل: تكلمهم الملائكة ويؤيده أنه جاء في روايته عن رسول الله ﷺ خمسمائه حديث وتسعة وثلاثون حديثاً اتفق البخاري ومسلم على ستة وعشرين منها، وانفرد البخاري بأربعة وثلاثين، ومسلم بإحدى وعشرين، أخرج حديثه أصحاب الكتب الستة وغيرهم، وروى عنه نحو خمسين صحابياً منهم عثمان، وعلي، وطلحة، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف وخلائق من التابعين.

ولي الخلافة عشر سنين وخمسة أشهر أو ستة أشهر قولان، واستشهد يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

واختلف في عمره على ثمانية أقوال ذكرها ابن الملقن في شرح هذا الصحيح وقال: الصحيح أنه مات ابن ثلاث وستين كسن رسول الله ﷺ، وأبي بكر الصديق ﷺ، طلب من الله تعالى في آخر عمره فاستجاب له، فقد قال سعيد بن المسبب قال عمر: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط، وكان دعاؤه في أيام التشريق، فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن.

طعنه أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة نصراني، وقيل: مجوسي، وسبب طعنه لعمر ﷺ أن المغيرة سيده كان يستغله أي: يأخذ منه كل يوم أربعة دراهم، وكان يثقل على العبد أن يزن كل يوم أربعة دراهم، فجاء إلى عمر يشكو سيده، وقال يا أمير المؤمنين: إن المغيرة قد أثقل عليَّ غلتي فكلمه يخفف عني، فقال له عمر: اتق الله وأحسن إلى مولاك، فغضب العبد وقال: وسع الناس كلهم عدله غيري، وأضمر على قتله واصطنع خنجراً له رأسان، وقيل: سكينا ذا طرفين وسمهما، ثم جاء إلى عمر ﷺ وهو في صلاة الصبح وطعنه ثلاث طعنات فقال: قتلني أو أكلني الكلب، وطعن معه ثلاثة عشر رجلاً مات منهم تسعة، وقيل: سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن أنه مأخوذ نحر نفسه فصار إلى لعنة الله وغضبه قال عمر ﷺ: قاتله الله لقد أمرته بمعروف، ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يد رجل يدعي الإسلام، ثم حمل عمر ﷺ إلى منزله، وبقي ثلاثة أيام، وقيل: سبعة ومات ﷺ.

= في صحيحه (١٥/٣١٧، رقم ٦٨٩٤)، والحميدي في مسنده (١/١٢٣، رقم ٢٥٣)، والخلال في السنة (٢/٣١١، رقم ٣٨٧).

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/١٦٦).

وقال الشعبي رحمه الله تعالى: لما طعن عمر بن الخطاب أتى بلبن فشرب منه، فخرج اللبن من طعنته، فقال: الله أكبر وعلم أنه يموت، وجعل جلساؤه يثنون عليه خيراً، فقال: وددت أن أخرج منها كفافاً كما دخلت، لا عليَّ ولا ليَّ، والله لو كان لي اليوم ما طلعت الشمس لافتديت به من هول المطلع، ولما احتضر غشي عليه، وكان رأسه على الأرض، فوضع ولده عبد الله رأسه في حجره، فلما أفاق قال له: ضع رأسي على الأرض فقال ابنه: يا أبت هل الأرض وحجري إلا سواء، قال: ضع رأسي بالأرض كما أمرتك، فوضعه فمسح خديه بالتراب، ثم قال: ويل لعمر، ويل لأم عمر إن لم يغفر الله لعمر، فإذا قبضت فأسرعوا بي إلى حفرتي، فإنما هو خير تقدموني إليه، أو شر تضعونه عن رقابكم.

ولما توفي ﷺ أظلمت الأرض فجعل الصبي يقول: يا أماه أقامت القيامة؟ فتقول: لا يا بني ولكن قتل عمر.

وقال على ﷺ لما مات: وآعمراه قوَّم الأود، وأبر العمد، ومات تقي الثوب، قليل العيب.

وروي أنه لما احتضر قال لابنه: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك السلام عمر، ولا تقل أمير المؤمنين فإني اليوم لست للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي، فلما أقبل ابنه عليه قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين أُذنت، فقال: الحمد الله ما كان شيء أهم لي من ذلك، فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل: يستأذن عمر بن الخطاب ﷺ فإن أذن لي فأدخلوني فإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين.

غسله ولده الزاهد عبد الله الأكبر، وهو أفضل أولاده، وكان له عشرة أولاد ذكور، وكفنه في ثوبين سحوليين، ودفنه بالحجرة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام.

وكان له من البنات حفصه، وزينب، تزوج رسول ﷺ بنته حفصه سنة ثلاث من الهجرة، وكان الإسلام في حياته كالرجل المقبل لا يزد إلا قرباً، فلما قتل كان الإسلام كالرجل المدبر، لا يزداد إلا بعداً، ونظم بعضهم في هذا المعني فقال:

لقد أصبح الإسلام فيه كآبة ... لفقدك يا فاروق يا سيدي عمر

وقد كان في عز بوجهك مقبلاً ... فها هو قد ولى وها هو قد دبر

ويكفيك أن الله أعطاك فضـــله لقربك بعد الموت من سيد البشر

ومن فضائله: أنه أول من يسلم عليه الحق جل جلاله يصافحه. أخرجه ابن ماجة عن أبي بن كعب.

***

المجلس الرابع

في الكلام على حديث «إنما الأعمال بالنيات»

وفيما يتعلق بالنية وفيما يتعلق بالهجرة

ورأيت أن أفتح هذا المجلس بخطبة الألفية للعراقي للمناسبة وهي:

الحمد لله الذي قبل بصحيح النية حسن العمل، وحمل الضعيف المتقطع على مراسيل لطفه فاتصل، ورفع من أسند في بابه، ووقف من شذ عن جنابه وانفصل، ووصل مقاطيع حبه، وأدرجهم في سلسلة حزبه، فسكنت نفوسهم عن الاضطراب والعلل، فموضوعهم لا يكون محمولاً ومقلوبهم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الفرد الأول، وأن سيدنا محمد عبده ورسوله، أرسله والدين غريب فأصبح عزيزاً مشهوراً واكتمل، وأوضح به معضلات الأمور، وأزال به منكرات الدهور الأُول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم، ما علا إسناده ونزل، وطلع نجم وأفل.

قال الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي رحمه الله تعالى ورضي عنه:

«حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيد الأَنْصَارِيُّ، قَالَ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيَّ، يَقُولُ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ...».

بكسر الميم مشتق من النبر، وهو الارتفاع، وهو بلفظ الآلة، لأنه آلة الارتفاع، والألف واللام فيه للعهد أي: منبر مسجد رسول الله ﷺ، وكان عمل المنبر في السنة السابعة من الهجرة، وقيل: في السنة الثامنة، وهو أول منبر في الإسلام، والصانع له اسمه باقول، وقيل: باقوم، وقيل: إصباح، وقيل: إبراهيم، وقيل: تميم الداري، وكان درجتين والمقعد، فلما كان في خلافة معاوية بعث إلى مروان: أن ارفع المنبر فزاده ست درجات من أسفل، فلما كان في دولة بني العباس اتخذوا المنبر أمشاطاً للِّحى لأجل البركة من النبي ﷺ.

قال النووي واتخاذ المنبر سنة، ويستحب أن يكون على يمين المحراب، قريباً منه.

وذكر البخاري في هذا الإسناد لفظ: «حدثنا» في ثلاثة مواضع، وذكر في الرابع: «أخبرني»، وفي الباقي: «سمعت» إشارة إلى الفرق بينهما، وهو قول

الجمهور من علماء الحديث، سوى ابن عيينة بينهم.

ومـــن لطائف هذا الإسناد أن فيه ثلاثة من التابعين، يروي بعضهم عن بعض وهم: يحيى، ومحمد، وعلقمة، وقد يقع أطرف من هذا وهو أربعة من التابعين روى بعضهم عن بعض.

وفي هذا الإسناد لطيفة أخرى وهي: أن أوله مكيان والباقي مدنيون.

قال[1] سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ «**إِنَّمَا الأعمال بالنِّيَّات، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه**».

قـــال النووي: وقع هذا الحديث هاهنا وهو مختصراً وهو طويل مشهور ذكره الـــبخاري في ســـبعة مواضـــع من كتابه، فذكره ههنا ثم في الإيمان، وفي النكاح، والعتق، والهجرة، وترك الحيل، والنذور.

وقال غيره: إنه سقط من رواية البخاري هنا ما هو ثابت في بقية الروايات وهو قوله ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله**».

وقـــال آخر: هذا الحديث ذكره البخاري في مواضع غير هذا الموضع، من غير طريق الحميدي، فجاء به كاملاً لم يسقط منه شيء، إلا في هذا الموضع، فإنه جاء به مجزؤاً قد ذهب جزؤه[2].

---

(١) القائل سيدنا عمر راوي هذا الحديث.

(٢) قضـــية إسقاط البخاري جزءاً في هذا الحديث تكلم عليها ابن حجر في الفتح (١/٥٦) فقال: قولـــه: «فمـــن كـــانت هجرته إلى دنيا» كذا وقع في جميع الأصول التي اتصلت لنا عن البخاري بحذف أحد وجهي التقسيم وهو قوله: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله... إلى آخره».

قـــال الخطابي: وقع هذا الحديث في روايتنا وجميع نسخ أصحابنا مخروماً قد ذهب شطره، ولست أدري كيف وقع هذا الإغفال، ومن جهة من عرض من رواته؟

فقد ذكره البخاري من غير طريق الحميدي مستوفى، وقد رواه لنا الأثبات من طريق الحميدي تاماً، ونقل ابن التين كلام الخطابي مختصراً.

وفهـــم من قوله «مخروماً»: أنه قد يريد أن في السند انقطاعاً، فقال من قبل نفسه، لأن البخاري لم يلق الحميدي، وهو مما يتعجب من إطلاقه مع قول البخاري: «حدثنا الحميدي» وتكرار ذلك منه في هذا الكتاب، وجزم كل من ترجمه بأن الحميدي من شيوخه في الفقه والحديث.

وقـــال ابـــن العربي في مشيخته: لا عذر للبخاري في إسقاطه لأن الحميدي شيخه فيه قد رواه في مسنده على التمام.

قـــال: وذكـــر قوم أنه لعله استملاه من حفظ الحميدي فحدثه هكذا فحدث عنه كما سمع أو =

= حدثه به تاماً فسقط من حفظ البخاري. قال: وهو أمر مستبعد جداً عند من اطلع على أحوال القوم.

وقال الداودي الشارح: الإسقاط فيه من البخاري، فوجوده في رواية شيخه وشيخ شيخه يدل على ذلك انتهى.

وقد رويناه من طريق بشر بن موسى وأبي إسماعيل الترمذي وغير واحد عن الحميدي تاماً، وهو في مصنف قاسم بن أصبغ ومستخرجي أبي نعيم، وصحيح أبي عوانة من طريق الحميدي، فإن كان الإسقاط من غير البخاري فقد يقال: لم اختار الابتداء بهذا السياق الناقص؟

والجواب: قد تقدمت الإشارة إليه، وأنه اختار الحميدي لكونه أجل مشايخه المكيين إلى آخر ما تقدم في ذلك من المناسبة.

وإن كان الإسقاط منه، فالجواب ما قاله أبو محمد على بن أحمد بن سعيد الحافظ في أجوبة له على البخاري: إن أحسن ما يجاب به هنا أن يقال: لعل البخاري قصد أن يجعل لكتابه صدراً يستفتح به على ما ذهب إليه كثير من الناس من استفتاح كتبهم بالخطب المتضمنة لمعاني ما ذهبوا إليه من التأليف، فكأنه ابتدأ كتابه بنية رد علمها إلى الله، فإن علم منه أنه أراد الدنيا أو عرض إلى شيء من معانيها فسيجزيه بنيته، ونكب عن أحد وجهي التقسيم، مجانبة للتزكية التي لا يناسب ذكرها في ذلك المقام. (انتهى ملخصاً).

وحاصله أن الجملة المحذوفة تشعر بالقربة المحضة، والجملة المبقاة تحتمل التردد بين أن يكون ما قصده يحصل القربة أو لا، فلما كان المصنف كالمخبر عن حال نفسه في تصنيفه هذا بعبارة هذا الحديث، حذف الجملة المشعرة بالقربة المحضة، فراراً من التزكية، وأبقى الجملة المترددة المحتملة تفويضاً للأمر إلى ربه المطلع على سريرته المجازي له بمقتضى نيته.

ولما كانت عادة المصنفين أن يضمنوا الخطب اصطلاحهم في مذاهبهم واختياراتهم، وكان من رأي المصنف جواز اختصار الحديث والرواية بالمعنى والتدقيق في الاستنباط، وإيثار الأغمض على الأجلى، وترجيح الإسناد الوارد بالصيغ المصرحة بالسماع على غيره، استعمل جميع ذلك في هذا الموضع بعبارة هذا الحديث متناً وإسناداً.

وقد وقع في رواية حماد بن زيد، في باب الهجرة تأخر قوله: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله» عن قوله: «فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها»، فيحتمل أن تكون رواية الحميدي وقعت عند البخاري كذلك فتكون الجملة المحذوفة هي الأخيرة، كما جرت به عادة من يقتصر على بعض الحديث.

وعلي تقدير أن لا يكون ذلك فهو مصير من البخاري إلى جواز الاختصار في الحديث ولو من أثنائه. وهذا هو الراجح، والله أعلم.

وقال الكرماني في غير هذا الموضع: إن كان الحديث عند البخاري تاماً لم خرمه في صدر الكتاب، مع أن الخرم مختلف في جوازه؟ =

قال العلماء: وحديث «**إنما الأعمال بالنيات**» حديث صحيح مشهور، ومتفق على صحته، مجمع على عظم موقعه وجلالته، أخرجه الأئمة الستة وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب.

وقد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث، قال أبو عبد الله: ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع ولا أكثر فائدة منه.

فلهذا جعله بعضهم ثلث العلم، وبعضهم ربع العلم، وبعضهم خمس العلم، فمن جعله ثلث العلم إمامنا الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل وجماعة، ووجه البيهقي كونه ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها، لأنها قد تكون عبادة مستقلة، وغيرها يحتاج إليها[1].

= قلت: لا جزم بالخرم، لأن المقامات مختلفة، فلعله -في مقام بيان أن الإيمان بالنية واعتقاد القلب- سمع الحديث تاماً، وفي مقام أن الشروع في الأعمال إنما يصح بالنية سمع ذلك القدر الذي روي.

ثم الخرم يحتمل أن يكون من بعض شيوخ البخاري لا منه، ثم إن كان منه فخرمه، ثم لأن المقصود يتم بذلك المقدار.

فإن قلت: فكان المناسب أن يذكر عند الخرم الشق الذي يتعلق بمقصوده، وهو أن النية ينبغي أن تكون لله ورسوله.

قلت: لعله نظر إلى ما هو الغالب الكثير بين الناس. (انتهى)

وهو كلام من لم يطلع على شيء من أقوال من قدمت ذكره من الأئمة على هذا الحديث، ولا سيما كلام ابن العربي.

وقال في موضع آخر: إن إيراد الحديث تاماً تارة وغير تام تارة إنما هو اختلاف الرواة، فكل منهم قد روى ما سمعه فلا خرم من أحد، ولكن البخاري يذكرها في المواضع التي يناسب كلا منها بحسب الباب الذي يضعه ترجمة له، (انتهى)

وكأنه لم يطلع حديث أخرجه البخاري بسند واحد من ابتدائه إلى انتهائه، فساقه في موضع تاماً وفي موضع مقتصراً على بعضه، وهو كثير جداً في الجامع الصحيح، فلا يرتاب من يكون الحديث صناعته أن ذلك من تصرفه، لأنه عرف بالاستقراء من صنيعه أنه لا يذكر الحديث الواحد في موضعين على وجهين، بل إن كان له أكثر من سند على شرطه ذكره في الموضع الثاني بالسند الثاني وهكذا ما بعده، وما لم يكن على شرطه يعلقه في الموضع الآخر تارة بالجزم إن كان صحيحاً، وتارة بغيره إن كان فيه شيء، وما ليس له إلا سند واحد يتصرف في متنه بالاقتصار على بعضه بحسب ما يتفق، ولا يوجد فيه حديث واحد مذكور بتمامه سنداً ومتناً في موضعين أو أكثر إلا نادراً، فقد عني بعض من لقيته بتتبع ذلك فحصل منه نحو عشرين موضعاً.

(١) بين الحافظ قدر هذا الحديث وتكلم على تواتره في الفتح (١/٤٩) فقال: وقال ابن مهدي =

فائدة: روى أبو يعلى الموصلي في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله عز وجل للحفظة يوم القيامة اكتبوا لعبدي كذا وكذا من الأجر، فيقولون: ربنا لم نحفظ ذلك عنه ولا هو في صحفنا، فيقول: إنه نواه**»[1].

= أيضاً: يدخل في ثلاثين باباً من العلم، وقال الشافعي: يدخل في سبعين باباً.

ويحتمل أن يريد بهذا العدد المبالغة، وقال عبد الرحمن بن مهدي أيضاً: ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب، ووجه البيهقي كونه ثلث العلم، بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها، لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها، ومن ثم ورد: «نية المؤمن خير من عمله» فإذا نظرت إليها كانت خير الأمرين.

ثم إن هذا الحديث متفق على صحته، أخرجه الأئمة المشهورون إلا الموطأ، ووهم من زعم أنه في الموطأ، مغتراً بتخريج الشيخين له والنسائي من طريق مالك.

وقال أبو جعفر الطبري: قد يكون هذا الحديث على طريقة بعض الناس مردوداً لكونه فرداً، لأنه لا يروى عن عمر إلا من رواية علقمة، ولا عن علقمة إلا من رواية محمد بن إبراهيم، ولا عن محمد بن إبراهيم إلا من رواية يحيي بن سعيد، وهو كما قال، فإنه إنما اشتهر عن يحيى بن سعيد وتفرد به من فوقه، وبذلك جزم الترمذي والنسائي والبزار وابن السكن وحمزة بن محمد الكناني.

وأطلق الخطابي نفي الخلاف بين أهل الحديث في أنه لا يعرف إلا بهذا الإسناد، وهو كما قال لكن بقيدين: أحدهما: الصحة لأنه ورد من طرق معلولة ذكرها الدارقطني وأبو القاسم بن منده وغيرهما.

ثانيهما: السياق لأنه ورد في معناه عدة أحاديث صحت في مطلق النية، كحديث عائشة وأم سلمة عند مسلم: «يبعثون على نياتهم»، وحديث ابن عباس: «ولكن جهاد ونية»، وحديث أبي موسى: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» متفق عليهما، وحديث ابن مسعود: «رب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته» أخرجه أحمد، وحديث عبادة: «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى» أخرجه النسائي، إلى غير ذلك مما يتعسر حصره.

وعرف بهذا التقرير غلط من زعم أن حديث عمر متواتر، إلا إن حمل على التواتر المعنوي فيحتمل، نعم قد تواتر عن يحيي بن سعيد: فحكي محمد بن على بن سعيد النقاش الحافظ أنه رواه عن يحيي مائتان وخمسون نفساً، وسرد أسماءهم أبو القاسم بن منده فجاوز الثلاثمائة، وروى أبو موسي المديني عن بعض مشايخه مذاكرة عن الحافظ أبي إسماعيل الأنصاري الهروي قال: كتبته من حديث سبعمائة من أصحاب يحيى.

قلت: وأنا أستبعد صحة هذا، فقد تتبعت طرقه من الروايات المشهورة والأجزاء المنثورة منذ طلبت الحديث إلى وقتي هذا، فما قدرت على تكميل المائة، وقد تتبعت طرق غيره فزادت على ما نقل عمن تقدم.

(١) لم نقف عليه مرفوعاً و لم نقف عليه في النسخة التي بين أيدينا من مسند أبي يعلى، ووقفنا =

فقد دل هذا على وحدة عبادة مستقلة، وقد أنشد الشيخ الفاضل شهاب الدين ابن حجر العسقلاني لنفسه:

إنمـــا الأعمـــال بالـــنيات في ... كـــل أمـــر أمكـــنت فرصته
فـــانو خـــيراً وافعل الخير فإن ... لم تطفـــه أجـــزأت نيـــته

قـــال الدارقطني: أصول أحاديث الإسلام أربعة: حديث «**إنما الأعمال بالنيات**»، وحديث «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»، وحديث «**الحلال بين والحرام بين**» وحديث «**ازهد في الدنيا يحبك الله**»، وقد نظم العلامة أبو الحسن الأشبيلي هذه الأربعة فقال:

عمـــدة الديـــن عندنا كلمات ... أربـــع قـــالهن خـــير الـــبرية
اتـــق الشبهات وأزهد ودع ما ... ليـــس يعـــنيك وأعمـــلن بنية

قال البرماوي: إنما صدر البخاري كتابه بحديث «**إنما الأعمال**» لأمور:

أحدهـــا: أنه مناسب للآية المذكورة في الترجمة لأنه أوحى لكل الأنبياء الأمر بالـــنية قـــال تعالى ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾[البينة: ٥] والإخلاص: النية.

ثانيهمـــا: أن أول واجـــبات المكلف القصد إلى النظر الموصل إلى معرفة الله، فالقصد سابق دائماً.

ثالـــثهما: بيان أن كل أمر ينبغي أن يكون بإخلاص ونية، حتى يكون مقبولاً منتفعاً به، فلذلك لما أخلص البخاري النية، وصفى الطوية، نفع الله بكتابه البرية.

رابعهـــا: أنه ﷺ لما قدم المدينة خطب بهذا الحديث، لأنه مبدأ لكمال ظهوره ونصـــره، فناسب الابتداء بذكره في ابتداء الوحي إليه، وافتتاح إخلاص العمل لله تعالى، المستحق الجامع للمحامد[1].

= عليه من قول أبي عمران الجوني، رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣١٣/٢).

(١) حديـــث إنما الأعمال صدر البخاري به كتابه، وأدخله في نفس الوقت في كتاب بدء الوحي وهو ما اعترض به البعض على البخاري.

يقـــول ابن حجر: وقد اعترض على المصنف في إدخاله حديث الأعمال هذا في ترجمة بدء الوحي، وأنـــه لا تعـــلق له به أصلاً، بحيث أن الخطابي في شرحه، والإسماعيلي في مستخرجه، أخرجاه قبل الـــترجمة، لاعـــتقادهما أنـــه: إنما أورده للتبرك به فقط، واستصوب أبو القاسم بن منده صنيع =

ولصدور هذا الحديث سبب من النبي ﷺ وقد صنف علماء كبار في أسباب الحديث، كما صنفوا في أسباب النزول للقرآن، والسبب في صدوره منه: أن رجلاً من أهل مكة خطب أمرأة بمكة تسمي أم قيس قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فلما عزم ﷺ على الهجرة عزمت المرأة أن تهاجر معه ﷺ وآثرته على أهلها ووطنها، فلما خطبها الرجل أبت أن تتزوج به حتى يهاجر معها، فهاجر لا لوجه الله، بل لقصد أن يتزوج بها، وكان يسمي «مهاجر أم قيس»[1].

= الإسماعيلي في ذلك.

وقال ابن رشيد: لم يقصد البخاري بإيراده سوى بيان حسن نيته فيه في هذا التأليف، وقد تكلفت مناسبته للترجمة، فقال: كل بحسب ما ظهر له. (انتهى)

وقد قيل: إنه أراد أن يقيمه مقام الخطبة للكتاب، لأن في سياقه أن عمر قاله على المنبر بمحضر الصحابة، فإذا صلح أن يكون في خطبة المنبر، صلح أن يكون في خطبة الكتب.

وحكى المهلب: أن النبي ﷺ خطب به حين قدم المدينة مهاجراً، فناسب إيراده في بدء الوحي، لأن الأحوال التي كانت قبل الهجرة كانت كالمقدمة لها، لأن بالهجرة افتتح الإذن في قتال المشركين، ويعقبه النصر والظفر والفتح. (انتهى)

وهذا وجه حسن، إلا أنني لم أر ما ذكره -من كونه ﷺ خطب به أول ما هاجر- منقولا.

وقد وقع في باب ترك الحيل بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إنما الأعمال بالنية... الحديث»، ففي هذا إيماء إلى أنه كان في حال الخطبة، أما كونه كان في ابتداء قدومه إلى المدينة فلم أر ما يدل عليه، ولعل قائله استند إلى ما روي في قصة مهاجر أم قيس.

قال ابن دقيق العيد: نقلوا أن رجلاً هاجر من مكة إلى المدينة لا يريد بذلك فضيلة الهجرة، وإنما هاجر ليتزوج امرأة تسمى أم قيس، فلهذا خص في الحديث ذكر المرأة دون سائر ما ينوي به، وهذا لو صح لم يستلزم البداءة بذكره أول الهجرة النبوية. انظر: فتح الباري (١/٤٨).

(١) أوضح ابن حجر في الفتح (١/٤٨) رواة قصة مهاجر أم قيس فقال: وقصة مهاجر أم قيس رواها سعيد من منصور قال: أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: من هاجر يبتغي شيئاً فإنما له ذلك، هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها: أم قيس فكان يقال له: مهاجر أم قيس. ورواه الطبراني من طريق أخرى عن الأعمش بلفظ: كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر فهاجر فتزوجها، فكنا نسميه مهاجر أم قيس. وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، لكن ليس فيه أن حديث الأعمال سيق بسبب ذلك، ولم أر في شيء من الطرق ما يقتضي التصريح بذلك.

وأيضا فلو أراد البخاري إقامته مقام الخطبة فقط إذ الابتداء به تيمناً وترغيباً في الإخلاص، لكان سياقه قبل الترجمة كما قال الإسماعيلي وغيره.

وأم قيس التي هاجر الرجل لأجلها قالوا: يحتمل أن تكون أخت عكاشة، فإنها أسلمت بمكة، وهاجرت إلى المدينة، واسمها: آمنة، وقيل: جذامة، وكنيتها: أم قيس، وقيل: الذي هاجر الرجل لها كان اسمها: قيلة، وهي غير أخت عكاشة، وكانت تكنى أيضا: أم قيس.

وأما الرجل المهاجر فقال ابن حجر وغيره: لم نقف على اسمه بل كان يسمى مهاجر أم قيس لعله للتستر عليه لم يعينوه.

فلما بلغ النبي ﷺ ذلك وصل إلى المدينة، وجلس على المنبر فقال مخاطباً بالخطاب العام، فإنه كان ﷺ لا يواجه أحداً بما يكره: «**يا أيها الناس إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**».

واستشكل العلماء كون النبي ﷺ خطب على المنبر أول قدومه بأن المنبر إنما اتخذه النبي ﷺ بعد الهجرة في سنة سبع، وقيل: ثمان، وأجيب: بأن الاستشكال بأن المراد بالمنبر ما كان يخطب عليه إذ ذاك، وهو غير المعروف الذي اتخذه آخراً.

والكلام في هذا المجلس على شطر الحديث وهو: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**» والكلام على شطره الثاني يأتي في المجلس الآتي.

فقوله «**إنما الأعمال بالنيات**[1]، **وإنما لكل امرئ ما نوى**» جملتان أفادت الجملة

---

(١) بين ابن حجر في الفتح (١/٥١) الاختلاف الواقع في هذه الجملة فقال: قوله: «إنما الأعمال بالنيات» كذا أورد هنا، وهو من مقابلة الجمع بالجمع، أي: كل عمل بنيته.

وقال الخوبي: كأنه أشار بذلك إلى أن النية تتنوع كما تتنوع الأعمال، كمن قصد بعمله وجه الله أو تحصيل موعوده أو الاتقاء لوعيده. ووقع في معظم الروايات بإفراد النية، ووجهه أن محل النية القلب وهو متحد فناسب إفرادها، بخلاف الأعمال فإنها متعلقة بالظواهر، وهي متعددة فناسب جمعها، ولأن النية ترجع إلى الإخلاص، وهو واحد للواحد الذي لا شريك له، ووقعت في صحيح ابن حبان بلفظ: «الأعمال بالنيات» بحذف «إنما» وجمع الأعمال والنيات، وهي ما وقع في كتاب الشهاب للقضاعي، ووصله في مسنده كذلك، وأنكره أبو موسى المديني، كما نقله النووي وأقره، وهو متعقب برواية ابن حبان، بل وقع في رواية مالك عن يحيى عند البخاري في كتاب الإيمان بلفظ: «الأعمال بالنية»، وكذا في العتق من رواية الثوري، وفي الهجرة من رواية حماد بن زيد، ووقع عنده في النكاح بلفظ: «العمل بالنية» بإفراد كل منهما.

كما أوضح ابن حجر معنى الباء في قوله: «بالنيات» فقال: قوله: «بالنيات» الباء للمصاحبة، ويحتمل أن تكون للسببية بمعنى: أنها مقومة للعمل فكأنها سبب في إيجاده، وعلى الأول فهي من =

الأولى: أن الأعمال لا يترتب عليها الثواب والعقاب إلا بالنية، وأفادت الثانية: اشتراط تعيين المنوي كمن عليه صلاة فائتة لا يكفيه أن ينوي الفائت فقط، بل لابد من تعينها ظهراً مثلاً أو عصراً[1].

= نفس العمل فيشترط أن لا تتخلف عن أوله، قال النووي: النية: القصد، وهي: عزيمة القلب. وتعقبه الكرماني: بأن عزيمة القلب قدر زائد على أصل القصد.

وأوضح أيضاً معني الألف واللام في نفس الكلمة فقال: الظاهر أن الألف واللام في النيات معاقبة للضمير، والتقدير الأعمال بنياتها، وعلى هذا فيدل على اعتبار نية العمل من كونه مثلاً صلاة أو غيرها، ومن كونها فرضاً أو نفلاً، ظهراً مثلاً أو عصراً، مقصورة أو غير مقصورة. وهل يحتاج في مثل هذا إلى تعيين العدد؟ فيه بحث. والراجح الاكتفاء بتعيين العبادة التي لا تنفك عن العدد المعين، كالمسافر مثلاً ليس له أن يقصر إلا بنية القصر، لكن لا يحتاج إلى نية ركعتين لأن ذلك هو مقتضى القصر والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٥٣، ٥٤).

(١) هذه الجملة الثانية لم يتعرض لها السفيري بالشرح والحافظ ابن حجر الذي له اليد الطولى في شرح البخاري شرحها شرحاً بديعياً فإنه فرق بين «إنما» في الجملة الأولى «وإنما» في الجملة الثانية فقال: قوله: «وإنما لكل امرئ ما نوى» قال القرطبي: فيه تحقيق لاشتراط النية والإخلاص في الأعمال، فجنح إلى أنها مؤكدة.

وقال غيره: بل تفيد غير ما أفادته الأولى، لأن الأولى نبهت على أن العمل يتبع النية ويصاحبها، فيترتب الحكم على ذلك. والثانية أفادت أن العامل لا يحصل له إلا ما نواه.

وقال ابن دقيق العيد: الجملة الثانية تقتضي أن من نوى شيئاً يحصل له -يعني إذا عمله بشرائطه- أو حال دون عمله له ما يعذر شرعاً بعدم عمله، وكل ما لم ينوه لم يحصل له، ومراده بقوله: «ما لم ينوه» أي: لا خصوصاً ولا عموماً، أما إذا لم ينو شيئا مخصوصاً لكن كانت هناك نية عامة تشمله، فهذا مما اختلفت فيه أنظار العلماء، ويتخرج عليه من المسائل ما لا يحصى.

وقد يحصل غير المنوي لمدرك آخر كمن دخل المسجد فصلي الفرض أو الراتبة قبل أن يقعد، فإنه يحصل له تحية المسجد نواها أو لم ينوها، لأن القصد بالتحية شغل البقعة وقد حصل، وهذا بخلاف من اغتسل يوم الجمعة عن الجنابة، فإنه لا يحصل له غسل الجمعة على الراجح، لأن غسل الجمعة ينظر فيه إلى التعبد لا إلى محض التنظيف فلا بد فيه من القصد إليه، بخلاف تحية المسجد والله أعلم.

وقال النووي: أفادت الجملة الثانية اشتراط تعيين المنوي كمن عليه صلاة فائتة، لا يكفيه أن ينوي الفائتة فقط حتى يعينها ظهراً مثلاً أو عصراً، ولا يخفى أن محله ما إذا لم تنحصر الفائتة.

وقال ابن السمعاني في أماليه: أفادت أن الأعمال الخارجة عن العبادة لا تفيد الثواب إلا إذا نوى بها فاعلها القربة، كالأكل إذا نوى به القوة على الطاعة.

وقال غيره: أفادت أن النيابة لا تدخل في النية، فإن ذلك هو الأصل، فلا يرد مثل نية الولي عن الصبي ونظائره، فإنها على خلاف الأصل. =

واتفق العلماء المحققون على «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**» تركيب مفيد للحصر، وأن معناه لا عمل بالنية، ولكن اختلفوا على استفادته من

= وقال ابن عبد السلام: الجملة الأولي لبيان ما يعتبر من الأعمال، والثانية لبيان ما يترتب عليها، وأفاد أن النية إنما تشترط في العبادة التي لا تتميز بنفسها، وأما ما يتميز بنفسه فإنه ينصرف بصورته إلى ما وضع له، كالأذكار والأدعية والتلاوة لأنها لا تتردد بين العبادة والعادة.

ولا يخفى أن ذلك إنما هو بالنظر إلى أصل الوضع، أما ما حدث فيه عرف كالتسبيح للتعجب فلا، ومع ذلك فلو قصد بالذكر القربة إلى الله تعالى لكان أكثر ثواباً.

ومن ثم قال الغزالي: حركة اللسان بالذكر مع الغفلة عنه تحصل الثواب، لأنه خير من حركة اللسان بالغيبة، بل هو خير من السكوت مطلقاً، أي المجرد عن التفكر. قال: وإنما هو ناقص بالنسبة إلى عمل القلب (انتهى).

ويؤيده قوله ﷺ: «في بضع أحدكم صدقة» ثم قال في الجواب عن قولهم «أيأتي أحدنا شهوته ويؤجر؟» قال: «أرأيت لو وضعها في حرام».

وأورد على إطلاق الغزالي أنه يلزم منه أن المرء يثاب على فعل مباح لأنه خير من فعل الحرام، وليس ذلك مراده. وخص من عموم الحديث ما يقصد حصوله في الجملة، فإنه لا يحتاج إلى نية تخصه كتحية المسجد، وكمن مات زوجها فلم يبلغها الخبر إلا بعد مدة العدة فإن عدتها تنقضي، لأن المقصود حصول براءة الرحم وقد وجدت، ومن ثم لم يحتج المتروك إلى نية.

ونازع الكرماني في إطلاق الشيخ محيي الدين كون المتروك لا يحتاج إلى نية: بأن الترك فعل وهو كف النفس، وبأن التروك إذا أريد بها تحصيل الثواب بامتثال أمر الشارع فلا بد فيها من قصد الترك، وتعقب بأن قوله: «الترك فعل» مختلف فيه، ومن حق المستدل على المانع أن يأتي بأمر متفق عليه.

وأما استدلاله الثاني فلا يطابق المورد، لأن المبحوث فيه هل تلزم النية في التروك بحيث يقع العقاب بتركها؟

والذي أورده استدلاله الثاني فلا يطابق المورد، لأن المبحوث فيه هل تلزم النية في التروك بحيث يقع العقاب بتركها والذي أورده هل يحصل الثواب بدونها؟

والتفاوت بين المقامين ظاهر، والتحقيق أن الترك المجرد لا ثواب فيه، وإنما يحصل الثواب بالكف الذي هو فعل النفس، فمن لم تخطر المعصية بباله أصلاً ليس كمن خطرت فكف نفسه عنها خوفاً من الله تعالى، فرجع الحال إلى أن الذي يحتاج إلى النية هو العمل بجميع وجوهه، لا الترك المجرد، والله أعلم.

فائدة: قال الكرماني: إذا قلنا: إن تقديم الخبر على المبتدأ يفيد القصر ففي قوله: «وإنما لكل امرئ ما نوى» نوعان من الحصر: قصر المسند على المسند إليه إذ المراد إنما لكل امرئ ما نواه، والتقديم المذكور. انظر: فتح الباري (١/٥٥، ٥٦).

الأعمال، لأنه جمع، واللام فيه للاستغراق، وهو مستلزم للحصر، إذ معناه: كل عمل بالنية فلا عمل إلا بالنية، ولا يصدق كل عمل بالنية، وإنما على هذا القول لا تفيد إلا التأكيد، وهذا مثل: صديقي زيد، فإن الحصر فيه مستفاد من عموم المبتدأ المضاف إلى المعرفة وخصوص خبره، و«**إنما الأعمال بالنيات**» الحصر فيه من عموم المبتدأ باللام وخصوص خبره.

وقيل: الحصر فيه من «إنما»، وهو حصر المبتدأ في الخبر، ويعبر عنه البيانيون بقصر الموصوف على الصفة، وربما عبروا عنه بقصر المسند إليه على المسند.

والقول بأن «إنما» تفيد الحصر هو ما ذهب إليه الأكثرين، ونقله البلقيني عن جميع أهل الأصول من المذاهب الأربعة إلا اليسير منهم أن «إنما» تفيد الحصر استعمالها موضع استعمال النفي والاستثناء كقوله تعالى ﴿ **إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التحريم: ٦] وقوله ﴿ **أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾[المائدة: ٩٢] وقال: ﴿ **مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ** ﴾[المائدة: ٩٩].

وهل «إنما» تفيد الحصر بالمنطوق وبالمفهوم قولان، الأكثر على أنها تفيده بالمنطوق قاله ابن السبكي.

وقال شرذمة قليلون: «إنما» تفيد بالمفهوم.

ومعنى الحصر في «إنما» إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه أي: أن العبادة إذا صحبتها النية صحت، وإذا لم تصحبها لم تصح[1].

---

(١) زاد ابن حجر على هذا المبحث المتعلق بإنما مسائل مهمة فقال في الفتح (١/٥٢): واختلفوا: هل هي بسيطة أو مركبة، فرجحوا الأول، وقد يرجح الثاني، ويجاب عما أورد عليه من قولهم: إن «إن» للإثبات و «ما» للنفي، فيستلزم اجتماع المتضادين على صدد واحد، بأن يقال مثلاً: أصلهما كان للإثبات والنفي، لكنهما بعد التركيب لم يبقيا على أصلهما، بل أفادا شيئا آخر.

أشار إلى ذلك الكرماني قال: وأما قول من قال: إفادة هذا السياق للحصر، من جهة أن فيه تأكيداً بعد تأكيد، وهو المستفاد من «إنما» ومن الجمع. فمتعقب بأنه من باب إيهام العكس، لأن قائله لما رأى أن الحصر فيه تأكيد على تأكيد، ظن أن كل ما وقع كذلك يفيد الحصر.

وقال ابن دقيق العيد: استدل على إفادة «إنما» للحصر بأن ابن عباس استدل على أن الربا لا يكون إلا في النسيئة بحديث: «إنما الربا في النسيئة»، وعارضه جماعة من الصحابة في الحكم، و لم يخالفوه في فهمه، فكان كالاتفاق منهم على أنها تفيد الحصر.

وتُعقب باحتمال أن يكونوا تركوا المعارضة بذلك تنزلا. =

فإن قيل: إن ظاهر الحديث يقتضي أن ذات العمل تنتفي عند انتفاء النية، وقد يوجد العمل ولا نية، إذ قد يفعل الإنسان العبادة بلا نية؟

فالجواب: أن ظاهر الحديث متروك، لأن الذوات غير منتفية، بل المراد أحكامها كالصحة، فلابد من تقدير مضاف.

واختلف العلماء في تقديره فالذين اشترطوا النية مطلقاً كالإمام الشافعي وكثير من العلماء قدروا لفظ صحته فقالوا: إنما صحة الأعمال بالنيات ليفيد أن الأعمال لا تصح عند انتفاء النية، ورجح هذا التقدير على غيره من المفردات، لأن الأقرب لنفي حقيقة الشيء نفي صحته، وإن كان الكل مجازاً، والذين لم يشترطوا النية في الوسائل كأبي حنيفة قدروا لفظ «كمال» فقالوا: إنما كمال الأعمال بالنيات، قالوا: نفي الصحة يستدعي نفي الكمال وغيره فيكثر المجاز، بخلاف تقدير كمال فإنه تقليل المجاز، قال البرماوي: وضعف بأن نفي الكمال إنما هو بعد وجود الصحة، فليس في تقدير نفي الصحة إلا مجاز واحد.

فإن قيل: إن قوله «**إنما الأعمال بالنيات**» يقتضي أن كل عمل يحتاج إلى نيات لا يكفيه نية واحدة، وليس كذلك.

فالجواب: أن هذا من قبل مقابلة الجمع بالجمع ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد على الآحاد أي: إنما كل عمل بنية، وهي قاعدة مفردة في كتب الأصول، يتخرج عليها كثير من المسائل.

= وأما من قال: يحتمل أن يكون اعتمادهم على قوله: «لا ربا إلا في النسيئة» لورود ذلك في بعض طرق الحديث المذكور، فلا يفيد ذلك في رد إفادة الحصر، بل يقويه ويشعر بأن مفاد الصيغتين عندهم واحد، وإلا لما استعملوا هذه موضع هذه.

وأوضح من هذا حديث: «إنما الماء من الماء» فإن الصحابة الذين ذهبوا إليه لم يعارضهم الجمهور في فهم الحصر منه، وإنما عارضهم في الحكم من أدلة أخرى كحديث: «إذا التقى الختانان».

وقال ابن عطية: «إنما» لفظ لا يفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع، ويصلح مع ذلك للحصر إن دخل في قصة ساعدت عليه، فجعل وروده للحصر مجازاً يحتاج إلى قرينة، وكلام غيره على العكس من ذلك، وأن أصل ورودها للحصر، لكن قد يكون في شيء مخصوص، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[المائدة: ١٧١] فإنه سيق باعتبار منكري الوحدانية، وإلا فلله سبحانه صفات أخرى كالعلم والقدرة، إلى غير ذلك من الأمثلة، وهي -فيما يقال- السبب في قول من منع إفادتها للحصر مطلقاً.

قال الكرماني: فإن قلت: النيات جمع قلة كالأعمال، وهي للعشرة فما دونها، لكن المعنى: إن كل عمل إنما هو بنية سواء كان قليلاً أو كثيراً.

قلت: الفرق بالقلة والكثرة إنما هو في النكرات لا في المعارف.

سؤال: فإن قيل: أهل النية أفضل من العمل أو العمل أفضل من النية؟

الجواب: قيل: العمل أفضل لأن نية الحسنة يثاب عليها حسنة واحدة، والفعل الحسن يثاب عليه عشرة، وما يثاب عليه عشرة أفضل مما يثاب عليه واحدة، ويدل على هذا قوله ﷺ: «**من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له سيئة**»[1].

واستشكل هذا بقوله ﷺ: «**نية المؤمن خير من عمله**»[2] فإنه يدل على أن النية أفضل من العمل.

وأجيب عنه بأجوبة منها: أن المراد بهذا الحديث أن النية وحدها خير من عمل بلا نية إذ لو كان المراد خير من عمله مع النية، يلزم أن يكون الشيء خيراً من نفسه مع غيره، والقائل تفضيل العمل على النية مراده: العمل مع نيته أفضل من مجرد النية.

وقيل: إن هذا الحديث ورد على سبب وهو أن شخصاً من المسلمين نوى بناء

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢٧٩، رقم ٢٥١٩) عن ابن عباس.
ورواه ابن حبان في صحيحه (١٤/٤٥، رقم ٦١٧١) خلال قصة عن خريم بن فاتك الأسدي، وكذا الطبراني في المعجم الكبير (٤/٢٠٦، رقم ٤١٥٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/١٨٥، رقم ٥٩٤٢)، والديلمي في مسند الفردوس (٤/٢٨٥، رقم ٦٨٤٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/٢٥٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (٩/٢٣٧) عن سهل بن سعد الساعدي.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٦١): رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون إلا حاتم بن عباد بن دينار الجرشي لم أر من ذكر له ترجمة.
ونقل المناوي في فيض القدير (٦/٢٩٢) كلام الهيثمي وزاد عليه فقال: وأطلق الحافظ العراقي أنه ضعيف من طريقه.
وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/١١٩، رقم ١٤٨) عن النواس بن سمعان الكلابي، وضعفه ابن حجر في فتح الباري (٤/٢١٩).

قنطرة على ساقية، يتضرر منها المارون فسبقه كافر فبناها، فعلم رسول الله ﷺ بذلك فقال: «**نية المؤمن خير من عمله**» أي: من عمل الكافر، ولا يلزم منه تفضيل نية المؤمن على عمله، وإنما تفضيل عمله على عمل الكافر.

قال شيخنا العلامة جلال الدين السيوطي: وكون هذا الحديث ورد على هذا السبب باطل لا أصل له.

وذهب بعضهم إلى أن النية أفضل من العمل وقال: لأن العمل يدخله رياء بخلاف النية، ولأن النية فعل القلب، وفعل الأشرف أشرف، ولأن تخليد الله تعالى المؤمن في الجنة ليس بعمله، وإنما هو بنيته، إذ لو كان بعمله لكان خلوده فيها بقدر عمله، إلا أنه جازاه بنيته لأنه كان ناوياً أن يطيع الله أبداً، فلما اخترمته منيته دون نيته جازاه عليها فخلده أبداً، وكذا الكافر لو كان مجازى بعمله لم يستحق التخليد في النار إلا بقدر كفره، فلما إن نوى أن يقيم على كفره أبداً لو بقي فجازاه على نيته، وخلده أبداً.

فإن قلت: هل السيئة كالحسنة في أنه يعاقب عليها بمجرد النية كما يثاب على الحسنة بنيتها.

فالجواب: أن الكرماني قال: المشهور أنه لا يعاقب عليها بمجرد النية، واستدلوا بقوله تعالى ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾[البقرة: ٢٨٦] فإن اللام للخبر، فجاء بالكسب الذي يحتاج إلى تصرف، بخلاف على فإنها لما كانت للشر جاء فيها بالاكتساب الذي لابد فيه من التصرف والمعالجة.

ثم قال الكرماني: ولكن الحق أن السيئة أيضاً يعاقب عليها، بمجرد النية لكن على النية لا على الفعل، حتى لو عزم أحد على ترك صلاة بعد عشرين سنة يأثم في الحال وإن لم يتحقق ذلك أي: ترك الصلاة، لأن العزم من أحكام الإيمان، ويعاقب على العزم لا على ترك الصلاة.

والفرق بين الحسنة والسيئة: أنه بنية الحسنة يثاب الناوي على الحسنة، وبنية السيئة لا يعاقب عليها بل على نيتها[1].

---

(١) وقبل أن نمضي مع المصنف في السبعة أسئلة التي يتكلم عليها بعد هذا الموطن نسأل هل ينوي العبد للأقوال كما ينوي للأعمال كما هو ظاهر من لفظ الحديث؟

يقول ابن حجر: قال ابن دقيق العيد: وأخرج بعضهم الأقوال وهو بعيد، ولا تردد عندي في أن =

وههنا سبع سؤالات متعلقة بالنية نظمها الشيخ ولي الدين العراقي فقال:

سبع سؤالات لذي فهم أنت ... تحكي لكل عالم في النية
حقيقة حكم محل زمن ... وشرطها والقصد والكفية

الأول: يقال ما حقيقة النية؟

ويجاب: إن حقيقة النية لغة: انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالاً أو مالاً، والشرع: خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضا الله تعالى وامتثال حكمه.

والنية في الحديث محمولة على المعنى اللغوي، ليحسن تطبيقه على ما بعده. وتقسيمه أحوال المهاجر فإنه تفصيل لما أجمل[1].

= الحديث يتناولها، وأما التروك فهي وإن كانت فعل كف لكن لا يطلق عليها لفظ العمل، وقد تعقب على من يسمي القول عملاً لكونه عمل اللسان، بأن من حلف لا يعمل عملاً فقال قولاً لا يحنث.

وأجيب: بأن مرجع اليمين إلى العرف، والقول لا يسمى عملاً في العرف ولهذا يعطف عليه.

والتحقيق أن القول لا يدخل في العمل حقيقة ويدخل مجازاً، وكذا الفعل، وأما عمل القلب كالنية فلا يتناولها الحديث لئلا يلزم التسلسل.

والمعرفة: وفي تناولها نظر، قال بعضهم: هو محال لأن النية قصد المنوي، وإنما يقصد المرء ما يعرف فيلزم أن يكون عارفاً قبل المعرفة.

وتعقبه شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني بما حاصله: إن كان المراد بالمعرفة مطلق الشعور فمسلم، وإن كان المراد النظر في الدليل فلا، لأن كل ذي عقل يشعر مثلاً بأن له من يدبره، فإذا أخذ في النظر في الدليل عليه ليتحققه لم تكن النية حينئذ محالاً. انظر: فتح الباري (١/٥٤).

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٥٣): والنية في الحديث محمولة على المعنى اللغوي، ليحسن تطبيقه على ما بعده وتقسيمه أحوال المهاجر، فإنه تفصيل لما أجمل، والحديث متروك الظاهر لأن الذوات غير منتفية، إذ التقدير: لا عمل إلا بالنية، فليس المراد نفي ذات العمل لأنه قد يوجد بغير نية، بل المراد نفي أحكامها كالصحة والكمال، لكن الحمل على نفي الصحة أولى لأنه أشبه بنفي الشيء نفسه، ولأن اللفظ دل على نفي الذات بالتصريح، وعلى نفي الصفات بالتبع، فلما منع الدليل نفي الذات بقيت دلالته على نفي الصفات مستمرة.

وقال شيخنا شيخ الإسلام: الأحسن تقدير ما يقتضي أن الأعمال تتبع النية، لقوله في الحديث: «فمن كانت هجرته...» إلى آخره. وعلى هذا يقدر المحذوف كوناً مطلقاً من اسم فاعل أو فعل. ثم لفظ العمل يتناول فعل الجوارح حتى اللسان فتدخل الأقوال.

الثاني: يقال: ما حكم النية، هل هي ركن أو شرط؟

والجواب: جمهور الفقهاء على أنها ركن لأنها داخل العبادة.

وذهب جماعة على أنها شرط وإلا لافتقرت إلى نية أخرى، كما في أجزاء العبادة، والأولون أجابوا عن ذلك بلزوم التسلسل.

وفصل شيخ الإسلام ابن حجر بأن إيجادها أول العمل ركن، واستصحابها حكماً لأنه لا يأت بمناف لما شرط[1].

والثالث: يقال ما محل النية؟

ويجاب: بأنها محل القلب في كل موضع، فلا يكفي التلفظ بها باللسان مع غفلة القلب، ولا يشترط التلفيظ مع القلب، بل القلب كافٍ لكن يستحب أن يتلفظ بما ينوي بقلبه ليساعد اللسان القلب، فلو نوى بقلبه وتلفظ بلسانه واختلف اللسان القلب فالعبرة بما في القلب، فلو أراد الإنسان أن يصلي الظهر فنوى بقلبه الظهر وبلسانه العصر، صحت صلاته إذ العبرة بما في القلب، فلو نوى في هذه الصورة بقلبه العصر وبلسانه الظهر لم تصح عملاً بما القلب، ولو سبق لسان الإنسان إلى اليمين بلا قصد كأن قال: والله اشتريت ولم يكن اشترى لا ينعقد يمينه، ولا يلزمه كفاره يمين، وكذا لو قصد الحلف على شيء فسبق اللسان إلى غيره، هذا في الحلف بالله، أما إذا سبق اللسان إلى الحلف بالطلاق، فإنه يقع ولا يقبل قوله: «سبق لساني إليه» بلا قصد ظاهر لتعلق حق الغير، ومثله العتق فلو سبق لسان السيد إلى العتق كأن قال لعبده: «أنت حر» بلا قصد فإنه يعتق، ولو حلف الإنسان أن لا يسلم على زيد فسلم على قوم هو فيهم واستثناه بقلبه، فإنه لا يحنث قال للكل سلام عليكم ونوى بقلبه إلا فلاناً، بخلاف ما لو حلف أن لا يدخل على زيد فدخل على

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٥٣): واختلف الفقهاء هل هي ركن أو شرط؟

والمرجح أن إيجادها ذكراً في أول العمل ركن، واستصحابها حكماً بمعنى: أن لا يأتي بمناف شرعاً شرط، ولا بد من محذوف يتعلق به الجار والمجرور، فقيل: تعتبر، وقيل: تكمل، وقيل: تصح، وقيل: تحصل، وقيل: تستقر.

قال الطيبي: كلام الشارع محمول على بيان الشرع، لأن المخاطبين بذلك هم أهل اللسان، فكأنهم خوطبوا بما ليس لهم به علم إلا من قبل الشارع، فيتعين الحمل على ما يفيد الحكم الشرعي.

وقال البيضاوي: النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالاً أو مآلاً، والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضاء الله وامتثال حكمه.

قـــوم هـــو فيهـــم واستثناه بقلبه، وقصد الدخول على غيره فإنه يحنث في الأصح، والفـــرق أن الدخول لا يدخله الاستثناء، إذ لا ينتظم أن يقال: «دخلت عليكم إلا على فلان»، ويصح: «سلمت عليكم إلا على فلان».

وذكر العلماء الشافعية صور لا تكفي فيها النية بالقلب، بل لابد فيه من التلفيظ بها ما لو نوى النذر بقلبه لا ينعقد.

ومنها: ما لو نوى الطلاق بقلبه و لم يتلفظ به لم يقع عليه.

ومنها: ما لو اشترى شاة بنية الأضحية لم تصر أضحية حتى يتلفظ.

ومـــنها: مـــا لو قال: أنت طالق ونوى بقلبه إن شاء الله وما تلفظ، وقع عليه الطلاق لا يقبل قوله: «أردت إن شاء الله».

الرابع: يقال: ما زمن النية؟

ويجاب: بأن العبادات بالتسمية إلى النية على ثلاثة أقسام قسم تجب النية في أوله كالوضـــوء والغسل، وقسم تجب فيه تقديم النية عليه كالصوم الواجب لابد فيه من إيقاع النية ليلاً قبل الفجر، فلو نوى مع الفجر لم يصح في الأصح، وقسم يجوز فيه تـــأخير النية عن أوله كالصوم المندوب، فإنه يجوز فيه تأخير النية إلى قبيل الزوال، ويجوز في الزكاة تقديم النية فيها على الدفع للمستحقين، فإذا عزل الإنسان شيئاً من ماله بنية الزكاة ثم دفعه بعد ذلك لأربابه لا يشترط إعادة النية، ولا إعلام المستحق أنه زكاة حال الدفع.

الخامس: يقال: ما شروط النية؟

ويجاب بأن شروطها أربعة:

الأول: الإســـلام، فلا يصح العبادات من كافر لعدم صحة نيته، نعم لنا صور تصـــح فيها النية من الكافر منها: الذمية تحت المسلم إذا حاضت وانقطع دمها فلا يحـــل الـــزوج وطـــئها حتى تغتسل، فإذا اغتسلت ونوت صحت نيتها، وغسلها للضرورة، ومنها: الكفارة تصح من الكافر ولابد فيها من النية، ويصح منه.

الشـــرط الثاني: التمييز، فلا تصح عبادة صبي لا يميز ولا مجنون إذ لا نية لهما، نعم لنا صور تصح فيها عبادة غير المميز منها: الطفل في الإحرام بالحج إذا أحرم عنه وليـــه، ففي الطواف يوضأه وليه وينوي عنه، والمجنونة في الحيض إذ طهرت يغسلها سيدها وينوي عنها.

الشـــرط الثالث: العلم بالمنوي، فلو جهل فرضية العبادة كفرضية الوضوء أو الصلاة لا يصح منه فعلها.

الشـــرط الرابع: أن لا يأتي بمناف للنية فلو ارتد في أثناء الصلاة أو الصوم أو غيرهما بطل ببطلان نيته أو في أثناء الوضوء أو الغسل لم يبطل ما فعل منها، فلو فعل شيئًا في زمن الرده لم يحسب، فإن عاد إلى الإسلام بنى على ما تقدم، ولو ارتد بعد الفراغ من الوضوء والغسل لم يبطل أو بعد التيمم بطل لضعفه.

السؤال السادس: يقال: ما العبادة التي يجب تعينها؟

ويجاب: بأن التعين واجب فيما يلتبس من العبادات دون غيره، ودليل وجوب الـــتعين من الحديث قوله: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**» أي: ما عين لأن أصل النية فهم من أول الحديث فيجب تعيين النية في الفرائض لتساوي الظهر والعصر صورة وفعلاً فيميز بينهما إلا التعيين.

ويجب في الرواتب التي مع الفرائض بأن يضيفها إلى الفرائض، ويجب التعيين في العيديـــن، في عيـــد الفطر بأن يضيفه إلى الفطر، وفي عيد الأضحى بأن يضيفه إلى الأضحى أوالنحر، وكذلك يجب التعيين في التراويح، والضحى، والوتر، والكسوف، والاستسقاء، وكذلك ركعتا الإحرام، والطواف، بخلاف تحية المسجد وسنة الوضوء، فـــإذا قال داخل المسجد والمتوضئ: أصلي ركعتين لله تعالى كفى، وإن لم يقل تحية المسجد أو سنة الوضوء.

السؤال السابع: يقال: ما كيفية النية؟

ويجاب: بأن الكيفية تختلف باختلاف العبادات، فالوضوء لنيته كيفية، والغسل لنيته كيفية، والصلاة لنيتها كيفية، وسيأتي بيان ذلك في محله إن شاء الله تعالى.

وقـــد دل هـــذا الحديث الجليل على فوائد كثيرة فإنه يدخل في سبعين باباً من الفقـــه كما قاله الإمام الشافعي، ففيه دليل على أن الطهارة وهي الوضوء والغسل والتـــيمم لا يصح إلا بالنية، وهو مذهب إمامنا الشافعي، وعند أبي حنيفة لا تجب الـــنية في الوضـــوء والغسل، واحتج على ذلك بأن كل واحد منهما ليس مقصود النفس، لأن المقصود به النظافة فأشبه إزالة النجاسة، وعموم الحديث يرد عليه.

وفيه دليل على اشتراط النية لسجود التلاوة لأنه عبادة.

وفيه دليل أن المتوضئ إذا نوى عند غسل الوجه يحصل له ثواب السنن السابقة وهو الأصح عندنا.

وفيه رد على زفر حيث ذهب إلى أن صيام رمضان لا تشترط فيه النية للصحيح المقيم، لتعين الزمان.

وفيه دليل على أن المطلق إذا أطلق بصريح لفظ الطلاق ونوى عدداً وقع ما نواه، وهو مذهب الشافعي ومالك وعند أبي حنيفة وأحمد لا يقع إلا واحدة.

وفيه دليل وحجة لمالك في إسقاط الحيل كمن باع ماله قبل الحول فراراً من الزكاة، فإنها لا تسقط عنه عند مالك لهذا الحديث.

وتحرير القول في هذه المسألة أن الإنسان إذا ملك نصاباً ثم احتال في إسقاط الزكاة عنه بحيلة، بأن باع المال الزكوي أو ملكه لأحد من أولاده مثلاً قبل أن يحول عليه الحول ثم استرده فهل هذا الإسقاط مكروه أو حرام أو مباح؟

في المسألة خلاف عندنا قال الرافعي والنووي: إنه مكروه كراهة تنزية وليس بحرام، وتسقط الزكاة عنه.

قال ابن الصلاح: إن المحتال في إسقاط الزكاة يأثم بقصده لذلك لا بفعله وتسقط عنه.

وقال حجة الإسلام الغزالي: لا يبرأ ذمته في الباطن ولكن تبرأ في الظاهر قال بعض المتأخرين: وهو المختار.

وجزم بالتحريم جماعة، وقد نقل النسفي في الكافي عن محمد بن الحسن قال: ليس من أخلاق المؤمنين الفرار من أحكام الله تعالى بالحيل الموصلة إلى إبطال الحق.

وتدخل النية في الوطء، فإذا وطئ زوجته أو أمته، على ظن منه أنها أجنبية يزني بها عصي ولا يعاقب عليه في الآخرة عقاب المجترئ على معاصي الله تعالى المخالف لأمره، وكذا لو أقدم على شراب على ظن منه أنه خمر، أو أقدم على استعمال ملكه على ظن أنه لأجنبي فإنه يأثم اعتباراً بنيته، ويحرم عليه حكم الفاسق كما قاله ابن عبد السلام لجرأته على الله، بخلاف ما لو وطئ امرأة أجنبية على ظن أنها زوجته أو أمتة فلا أثم عليه، ولو شرب خمراً على ظن أنه شراب حلال مثلاً فإنه لا يأثم عملاً بنيته.

فائدة: سئل بعض العلماء عمن يجامع زوجته ويفكر في حالة الجماع في غيرها

حتى يتخيل أنه يطئ الأجنبية، هل يأثم بذلك فاعله أويستحب له أن يفعل ذلك لحديث: «**إذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه**»[١].

فأجاب: بأنه لا يحرم عليه ذلك، ولا يؤاخذ به لقوله ﷺ «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها**»[٢] ولكن يكره ذلك، والله أعلم قاله الدميري.

وفيه دليل على أن ما ليس بعمل تشترط فيه النية كالتروك مثل ترك الزنا والخمر وباقي المعاصي، نعم إذا أراد تحصيل الثواب ولابد له من القصد، فمن ترك الزنا مثلاً بعد أن خطر على باله خوفاً من الله يثاب على هذا الترك، أما من لم يقصد ترك المعصية لا يثاب على تركها فمن لم تخطر المعصية بباله أصلاً ليس كمن خطر في نفسه عنها خوفاً من الله.

وفيه دليل على أن النجاسة لا تجب إزالتها وهو الأصح لأنه من باب التروك (انتهى).

وفيه دليل على ما كان عليه النبي ﷺ من مكارم الأخلاق حيث لم يصرح بالإنكار على من هاجر لأجل المرأة، بل أورده مورد الإيهام كقوله في حديث آخر: «**ما بال أقوام يفعلون كذا**»[٣] وهذا من مكارم أخلاقه ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٢١/٢، رقم ١٤٠٣)، وأحمد في مسنده (٣٤٨/٣، رقم ١٤٧٨٦)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٨/٩، رقم ٩٠٧٣) من حديث جابر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٢٠/٥، رقم ٤٩٦٨)، ومسلم في صحيحه (١١٦/١، رقم ١٢٧)، والترمذي في سننه (٤٨٩/٣، رقم ١١٨٣)، وأبو داود في سننه (٢٦٤/٢، رقم ٢٢٠٩)، والنسائي في سننه (١٥٦/٦، رقم ٣٤٣٣)، وابن ماجه في سننه (٦٥٨/١، رقم ٢٠٤٠)، وأحمد في مسنده (٤٢٥/٢، رقم ٩٤٩٤)، وأبو يعلى مسنده (٢٧٨/١١، رقم ٦٣٩٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨٥/٤، رقم ١٨٠٦٢)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٨٢/١، رقم ٦)، والطيالسي في مسنده (ص: ٣٢٢، رقم ٢٤٥٩)، والحارث في مسنده (١٦٣/١، رقم ١٩)، وابن منده في الإيمان (ص: ٤٧٥، رقم ٣٤٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٨٢/٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٦٧/٢، رقم ١١١٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥٠/٧، رقم ١٤٨٣٠) جميعاً عن أبي هريرة.

(٣) هذا ما كان يفعله النبي ﷺ في بذل النصيحة في الملأ بدون تصريح بالذين يقومون بالفعل المخالف الذي على أثره أتت النصيحة منه ﷺ، وهو تعليم سديد ومنهج رشيد وأسوة حسنة، وكتب السنة فيها الأمثلة الكثيرة لذلك نحو ما رواه البخاري في صحيحه (٩٨١/٢، رقم ٢٥٨٤) في قصة عن عائشة رضي الله عنها وفيه أنها قالت: ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «ما =

وفيه دليل على استحباب التخلق بمكارم الأخلاق، وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطي حيث قال:

بمكارم الأخلاق كن متخلقا ... ليفوح مسك ثنائك العطر الشذي
وانفع صديقك إن صدقت صدقه ... وادفع عدوك بالتي فإذا الذي

وفيه دليل على أنه يستحب الستر على من وقع منه منكر.

وفيه دليل على أنه لا بأس للخطيب أن يورد أحاديث في أثناء الخطبة.

وفيه دليل على أن الإمام الأعظم يستحب له أن يخطب عند الأمور المهمة وتعليم الحكم المهمة، لأنه أبلغ في الإشاعة والإشتهار.

واستدل الحديث بعضهم على وجوب النية على غاسل الميت، وهو وجه عندنا، والأصح في النية لا تجب على الغاسل، بدليل أنه لو غسله كافر عندنا صح، وهو ليس من أهل النية.

وفيه دليل وحث على الإخلاص في النية، والإخلاص من أعمال القلب والفرق بينه وبين النية أن النية تتعلق بفعل العبادة، والإخلاص يتعلق بإضافه العبادة إلى الله تعالى فالنية لابد منها في صحة العمل، وأما الإخلاص فليس يتعين، فمن صلى ونوى ولم يضف الصلاة إلى الله تعالى صحت صلاته، لأن العبادة لا تكون إلا لله سواء أضافها إليه أم لا، نعم الإخلاص مع النية أكمل من النية وحدها.

وأما الرياء فقد قال العراقي في «الفروق»: إنه حرام محصل للإثم ومبطل لثواب العبادة.

الرياء على قسمين: أحدهما: أن يعمل الذي أمره الله ويقصد به وجه الله تعالى وأن تعظمه الناس أو بعضهم.

ثانيهما: أن يعمل الذي أمره الله ولا يريد وجه الله تعالى بالنية بل الناس فقط،

= بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فليس له وإن اشترط مائة شرط».

ونحو ما رواه مسلم في صحيحه (٢/١٠٢٠، رقم ١٤٠١) في قصة النفر الذين سألوا أزواج عن عمل رسول الله ﷺ والقصة رواها سيدنا أنس بن مالك وفيها أن رسول الله ﷺ لما سمع كلام النفر، حمد الله وأثنى عليه فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

ويسمى القسم الأول: رياء الشرك لأنه للخلق وللحق، والثاني: رياء الإخلاص لأنه لا شريك فيه بل هو خالص للخلق، ومقصود المرائي يعمله ثلاثة أشياء: تعظيم الخلق له، وجلب المنافع الدنيوية له، ودفع المضار الدنيوية عنه.

وإنما كان حراماً لأنه شرك وتشريك مع الله في طاعته، وقد صح في صحيح مسلم وغيره: «**إن الله تعالى يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته له، أو تركته لشريكي**»(١) فهذا الحديث ظاهر في عدم الاعتداد بذلك العمل عند الله تعالى.

وقد نقل أنه يقال يوم القيامة للمرائي بعمله: خذ ثواب عملك ممن كنت تعمل لأجلهم وهو حديث رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقال لمن أشرك في عمله: خذ أجرك ممن عملت له**»(٢).

وحمل حجة الإسلام الغزالي هذه الأخبار ونحوها على من يرد بعمله إلا الدنيا وهو القسم الثاني من الرياء، أما الأول فله فيه تفصيل حيث قال: والذي ينقدح لنا فيه -والعلم عند الله- أن ننظر إلى قدر قوة الباعث، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تقاوما وتساقطا، فصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان الباعث للرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع بل هو مضر ومقتض للعقاب، نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء، و لم يمتزج به شائبة التقرب، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني، وهذا كقوله تعالى ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ** ﴾[الزلزلة: ٨]، وكقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾[النساء: ٤٠] فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالباً على قصد الرياء

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٩/٤، رقم ٢٩٨٥) عن أبي هريرة.
وأخرجه أيضاً: ابن ماجه في سننه (١٤٠٥/٢، رقم ٤٢٠٢)، وابن خزيمة في صحيحه (٦٧/٢، رقم ٩٣٨)، وأبو يعلى في مسنده (٤٣٠/١١، رقم ٦٥٥٢)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٢٤/٦، رقم ٦٥٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٩/٥، رقم ٦٨١٥)، والأصبهاني في طبقات المحدثين بأصبهان (٢٧٥/٤).

(٢) لم نقف عليه من رواية أبي هريرة وإنما وجدناه من رواية أنس بن مالك مرفوعاً عند هناد في الزهد (٤٣٥/٢، رقم ٨٥٤) بلفظ: «يؤتى بابن آدم يوم القيامة إلى الميزان، فيقول الله: يا ابن آدم أنا خير شريك ما عملت لي فأنا أجزيك به، وما عملت لغيري فاطلب ثوابه ممن عملت له».

حبط من القدر الذي يساويه وبقيت زيادته، وإن كان مغلوباً أسقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد، نعم لنا تشريك في العبادة وتحصيل المال من الغنيمة فهذا لا يضره ولا يحرم عليه بالإجماع، لأن الله تعالى جعل له في هذه العبادة، نعم لا يساوي ثوابه من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً، بخلاف ما لو جاهد ليقول الناس: إنه شجاع، وليعظمه الإمام، فيكثر عطاؤه من بيت المال، فإنه يحرم حنيئذ ويكون رياء، أو نظير المجاهد من حج وشرك في حجة بأن قصد التجارة فإنه لا يقدح في صحة الحج، ولا يوجد إثماً ولا معصية، ولكن أكمل منه كذلك لو صام ليصح جسده، أو ليحصل له زوال مرض من الأمراض، فلا يكون قادحاً في صومه، وكذلك وجود الوضوء ليحصل له التبرد فلا يكون قادحاً وضوءه، لأن جميع هذه الأغراض لا يدخل فيها تعظيم الخلق بل هي تشريك أمور من المصالح، وما ليس للعظيم لا يقدح في العبادات وإن كان تشريك، نعم إن هذه المقاصد والأغراض الخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وإن العبادة إذا تجردت عنها عظم الأجر والثواب.

ونختم المجلس بأخبار تطبيقية متعلقة بالإخلاص، وترك الرياء في العمل.

قال الفضيل ﷺ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: طوبي لمن صحت له خطوة واحدة، يريد بها وجه الله.

وقال ذو النون المصري ﷺ: من علامات الإخلاص استواء المدح والذم.

ونقل عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت أصليها في الصف الأول لأني تأخرت يوماً فصليت في الصف الثاني، فخجلت من الناس حيث رأوني في الصف الثاني على خلاف عادتي، فعرفت أن نظر الناس لي في الصف الأول كان يعجبني.

وذكر أن أعرابياً دخل المسجد وصلى صلاة خفيفة، فقام إليه علي بن أبي طالب بالدرة وقال: أعد الصلاة فأعادها، فقال: هذه خير أم الأولى؟ قال: الأولى لأني صليتها لله تعالى والثانية صليتها خوفاً من الدرة.

وذكر شرف الدين بن يونس في مختصر الإحياء في باب الإخلاص: إن من أخلص لله تعالى في العمل ظهرت بركته عليه وعلى عقبه إلى يوم القيامة.

كما قيل لما هبط آدم عليه السلام إلى الإرض جاءته وحوش الفلاة تسلم عليه وتزوره، فكان يدعو الكل حبس بما يليق به، فجاءته طائفة من الظباء فدعا لهن ومسح على ظهورهن فظهر فيهن نوافح المسك، فلما رأى بواقيها ذلك قالوا: من أين هذا لكن؟ فقلن: زرنا صفي الله آدم فدعا لنا، ومسح على ظهورنا، فمضى البواقي إليه فدعا لهن ومسح على ظهورهن فلم يظهر بهن من ذلك شيء، فقال الذين ظهر فيهم ذلك: نحن كان عملنا لله من غير شوب.

فظهر ذلك في نسلهم وعقبهم إلى يوم القيامة ببركة الإخلاص.

فائدة: غزال المسك يحل أكله من الغزلان هو أسود وهو كالغزال إلا أن له نابين أبيضين خفيفين خارجين من فيه كنابي الخنزير، كل واحد منها دون الفتر.

وأصل المسك: دم يجتمع في سرتها في وقت معلوم، والمسك ثمر في كل سنة للشجرة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، والمسك أطيب الطيب وأفضله، وهو طاهر وإن كان أصله دماً إذا أخذ من الظبية، وهي حية يجوز استعمالها في البدن والثوب ويجوز بيعه، وهو مستثنى من قول الفقهاء: «ما أبين من حي فهو ميت».

ومن خواص المسك أنه يقوي البصر، وينشف الرطوبات، ويقوي القلب والدماغ، ويجلو بياض العين، وينفع من الخفقان، وهو ترياق السموم، ويقوي الأعضاء الباطنة والظاهرة شماً وشرباً، ومنافعه كثيرة فلهذا كان النبي ﷺ يستعمله كثيراً.

وحكى الإمام حجة الإسلام الغزالي: أن بعض العباد بلغه أن قوماً يعبدون شجرة من دون الله، فخرج العابد بنية قصد بها وجه الله، فاعترض له إبليس في صورة رجل وقال: إن قطعتها عبدوا غيرها فارجع إلى عبادتك، فقال: لابد من قطعها، فقاتله إبليس فصرع العابد إبليس وانتصر عليه، فقال له إبليس: أنت فقير ارجع إلى عبادتك، واجعل لك دينارين تحت رأسك كل ليلة، وقال للعابد: لو شاء الله لأرسل رسولاً يقطعها، وما عليك إذ لم تعبدها أنت، فمال العابد إلى قوله ورجع، فلما بات تلك الليلة وأصبح وجد دينارين، ثم في اليوم التالي وجدهما ثم في اليوم الثالث لم يجد شيئًا فخرج لقطعها لا لوجه الله، فعارضه إبليس في صفة رجل فقاتله فانتصر إبليس على العابد فقال العابد: كيف قدرت عليك في المرة الأولى بخلاف الثانية قال له إبليس: لأنك في المرة الأولى كان غضبك لله لا لأجل الدنيا بخلاف الثانية، فعرف من هذا أن الإنسان إذا أخلص في عمله قهر عدوه الشيطان، وإن لم يخلص كان مقهوراً مغلوباً مع الشيطان.

قال العلماء: بحسن نية الملك أو نائبه للناس يدخل الله الخيرات والبركات على الناس، وبشؤم نيته لهم تقل بركاتهم وتغلو أسعارهم.

ويدل على ذلك ما نقله الغزالي في نصيحة الملوك عن وهب بن منيه أنه قال: إذا همَّ الوالي بالجور وعمل به أدخل الله تعالى النقص في أهل مملكته والزرع والضرع والثمر، وإذا همَّ بالعدل أدخل الله البركة في أهل مملكته، فقد كانت الحنطة في العصر الأول أكبر جرماً من هذا اليوم، وأكثر بركة، وأرخص سعراً.

وروي الإمام أحمد بإسناده أنه وجد في خزائن بعض الملوك من بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: «هذا كان ينبت العدل».

وحكي عن ابن عباس أنه قال: كان ملك من الملوك يخرج مستخفياً ليعلم أخبار مملكته، فنزل على رجل عنده بقرة تحلب حلاب ثلاثين بقرة، فلما أصبح حدث نفسه بأخذها فلم تحلب إلا الشيء اليسير الذي تدره له فقال له الملك: ما بال حلابها نقص عن عادتها، أرعت في غير موضعها الذي كانت فيه؟ فقال: لا ولكن ملكنا أظن أنه همَّ بالجور فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همَّ بالظلم ذهبت البركة، فعاهد الملك الله تعالى في نفسه أن لا يأخذها ولا يظلم، فراحت بين الظعن فحلبت مثل عادتها الأولى، فتاب الملك إلى الله سبحانه وتعالى.

***

المجلس الخامس

في بيان الهجرة والكلام على الشطر الثاني من حديث «إنما الأعمال بالنيات» قوله: «فمن كانت هجرته».

قال العلماء: الهجرة فعلة من الهجر ضد الوصل[1]، ثم غلب ذلك على الخروج من أرض إلى أرض وترك الأولى للثانية، وتقسيم الهجرة إلى ثمانية أقسام كما أفاده العراقي:

الأولى: الهجرة الأولى إلى الحبشة عندما آذى الكفار الصحابة خرج من الصحابة سراً أحد عشر نسوة منهم: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ.

الثانية: الهجرة من مكة إلى المدينة.

الثالثة: هجرة القبائل إلى رسول الله ﷺ لتعلم الشرائع، ثم يرجعون إلى الأوطان، ويعلمون قومهم.

الرابعة: هجرة من أسلم من مكة ليأتي إلى النبي ﷺ ثم يرجع إلى مكة.

الخامسة: هجرة ما نهي الله عنه.

السادسة: الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة مرتين، فإنهم هاجروا إلى أرض الحبشة مرتين كما هو معروف في السير، وجميع من هاجر إلى أرض الحبشة إثنان وثمانون رجلاً سوى النساء والصبيان.

السابعة: هجرة من كان مقيماً ببلاد الكفر ولا يقدر على إظهار الدين فإنه يجب عليه أن يهاجر إلى بلاد الإسلام كما صرح به العلماء.

الثامنة: الهجرة إلى الشام في آخر الزمان عند ظهور الفتن.

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٥٨): الهجرة: الترك، والهجرة إلى الشيء: الانتقال إليه عن غيره. وفي الشرع: ترك ما نهى الله عنه.

وقد وقعت في الإسلام على وجهين: الأول: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما في هجرتي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.

الثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة، إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص، وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقياً.

ومعنى الحديث وحكمه يتناول جميع الأقسام لأن السبب الذي قدمنا ذكره يدل على أن المراد هنا بالهجرة الهجرة من مكة إلى المدينة.

فإن قيل: هل الهجرة باقية إلى يومنا هذا أو انقطعت بفتح مكة؟

فالجواب: أن الأحاديث تعارضت في ذلك ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**»[١] فهذا يدل على انقطاعها.

وقد روى أبو داود والنسائي مرفوعاً «**لا تنقطع الهجرة حتى تقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٢] فهذا يدل على عدم انقطاعها، وجمع بينهما بأن الهجرة كانت إلى الإسلام فرضاً، ثم صارت بعد فتح مكة مندوباً إليها غير مفروضة، فالمنقطعة هي الفرض والباقية هي الندب، وقوله ﷺ كما هو ثابت في بقية الروايات.

قوله: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**»[٣] يحتمل أن تكون «من» فيه شرطية فالفاء في «هجرته» داخلة في جواب الشرط، ويحتمل أن تكون «من» موصولة، وهي مبتدأ فالفاء في «هجرته» داخلة على الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط، وعلى الاحتمالين لابد من التغاير بين المبتدأ والخبر والشرط والجزاء، والظاهر هما هنا الاتحاد فلابد من تأويل التغاير بينهما، فقيل في تقدير

---

(١) متفق عليه رواه البخاري في صحيحه (١٠٢٥/٣، رقم ٢٦٣١)، ومسلم في صحيحه (٩٨٦/٢، رقم ١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣/٣، رقم ٢٤٧٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٢١٧/٥، رقم ٨٧١١)، وأبو يعلى في مسنده (٣٥٩/١٣، رقم ٧٣٧١)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٨١/١٩، رقم ٨٩٥)، والديلمي في مسند الفردوس (١٥٦/٥، رقم ٧٨٠٢) جميعاً عن معاوية.

ورواه الإمام أحمد في مسنده (١٩٢/١، رقم ١٦٧١) عن ابن السعدي أن النبي ﷺ قال: لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل، فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال:... فذكروا نحوه، وكذا رواه أيضاً: الطبراني في المعجم الأوسط (٢٣/١، رقم ٥٩)، ورواه أيضاً في الصغير كما في مجمع الزوائد للهيثمي (٢٥١/٥) قال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات.

(٣) سبق القول أن هذا الجزء لم يذكره البخاري في حديثه هنا، وقد أسهب ابن حجر في توجيه إسقاط البخاري لهذا الجزء ورد على المعارضين، وذلك قد مر بك في المجلس السابق، ولكن المصنف الإمام السفيري جاء به هنا من باب الإفادة، ولأنه يعلم أن الإمام البخاري أخرجه تاماً في مواضع أخرى، فتنبه هداك الله.

التغاير: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصداً، فهجرته إلى الله ورسوله حكماً وشرعاً، ويكون المقدر منصوباً على التمييز كقوله تعالى ﴿**إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ**﴾[الأنفال: ٦٥] أي: رجالاً أو نحوه لا منصوباً على الحال لأن الحال المبينة لا تحذف، ولهذا منع بعض العلماء تعلق الجار في ﴿**بِسْمِ اللَّهِ**﴾ بحال محذوفة أي: ابتدئ متبركاً، وقيل: تأويل التغاير أن خبر الثاني محذوف والتقدير: فهجرته إلى الله رسوله[1].

وقيل: المراد ثواب من هاجر إلى الله ورسوله، فأقيم السبب مقام المسبب.

وقيل: المراد في الثاني ما عهد في الذهن، وفي الأول المشخص في الخارج مثل أنا أبو النجم، وشعري شعري أي: شعري الذي سمعتموه هو شعري المستقل المعهود في الأذهان فلا حاجة لتقدير محذوف.

فإن قيل: لأي شيء عدل عن الضمير إلى الظاهر حيث قال: «**فهجرته إلى الله ورسوله**» ولم يقل: «إليهما» مع إنه هو أخص.

فالجواب: أنه فعل ذلك إما لأن في الظاهر استلذاذاً بذكره صريحاً، ولذلك لم

---

(١) قد ألمح الحافظ ابن حجر في ذلك ملمحاً طيباً، وهو أن هذا الحديث فيه إتحاد الشرط مع جوابه اتحاداً بليغاً وكيف لا وقد صادر عن خير من نطق بالضاد ومن أجرى الله على لسانه الفصاحة والبلاغة ﷺ.

يقول ابن حجر: فإن قيل: الأصل تغاير الشرط والجزاء، فلا يقال مثلاً: من أطاع أطاع وإنما يقال مثلاً من أطاع نجا، وقد وقعا في هذا الحديث متحدين، فالجواب: أن التغاير يقع تارة باللفظ وهو الأكثر، وتارة بالمعنى ويفهم ذلك من السياق، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾[الفرقان: ٧١]، وهو مؤول على إرادة المعهود المستقر في النفس، كقولهم: أنت أنت أي: الصديق الخالص، وقولهم: هم هم أي: الذين لا يقدر قدرهم، أو هو مؤول على إقامة السبب مقام المسبب لاشتهار السبب.

وقال ابن مالك: قد يقصد بالخبر الفرد بيان الشهرة وعدم التغير فيتحد بالمبتدأ لفظا كقول الشاعر:

خليلي خليلي دون ريب وربما ... ألان امرؤ قولا فظن خليلا

وقد يفعل مثل هدا بجواب الشرط كقولك: من قصدني فقد قصدني، أي فقد قصد من عرف بإنجاح قاصده.

وقال غيره: إذا اتحد لفظ المبتدأ والخبر والشرط والجزاء علم منهما المبالغة إما في التعظيم وإما في التحقير.انظر فتح الباري (١/٥٩).

يأت مثله في الجملة بعده إعراضاً عن تكرار لفظ الدنيا، وإما لئلا يجمع بين اسم الله ورسوله في ضمير واحد، بل يفردان، ولهذا جمع الخطيب بينهم في ضمير واحد حيث قال: «ومن يعصهما» قال له رسول الله ﷺ: «**بئس الخطيب قل ومن يعص الله ورسوله**»[١] كما سيأتي في محله.

وقوله: «**فمن كانت هجرته إلى دنيا**» قال العلماء: «دنيا» بضم الدال على المشهور، وحكى ابن قتيبة كسرها على وزن «فُعلا» من الدنو، وهو القرب سميت بذلك لدنوها إلى الزوال وجمعها دنى ككبرى، وهي مقصورة ليس فيها تنوين بلا خلاف.

واختلف علماء الكلام في حقيقة الدنيا على قولين: أحدهما: أنها على الأرض الجواهر والأعراض الموجودة، قبل الدار الآخرة.

قال ابن العطار: وهو الأظهر، وتطلق الدنيا على كل جزء منها، فيقال للمال دنيا، وللقماش دنيا، وللأملاك دنيا، وأراد ﷺ بدنيا متاعاً من متاعها[٢].

وقوله: «**أو امرأة**» من عطف الخاص على العام، لدخول المرأة في مسمي الدنيا بدليل حديث: «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**»[٣].

واعترض النووي على من قال: إنه من عطف الخاص على العام، بأن لفظ «دينا» نكرة وهي لا تعم في الإثبات، فلا يلزم دخول المرأة فيها.

وأجيب عن الإعتراض: بأنها في سياق الشرط فتعم.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٥٩٤/٢، رقم ٨٧٠)، وأحمد في مسنده (٢٥٦/٤، رقم ١٨٢٧٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧٤/٦، رقم ٢٩٥٧٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨٦/١، رقم ٤٠٦) عن عدي بن حاتم.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٦٠/١): وقال التيمي في شرحه: قوله: «دنيا» هو تأنيث الأدنى ليس بمصروف، لاجتماع الوصفية ولزوم حرف التأنيث.

وتعقب بأن لزوم التأنيث للألف المقصورة كاف في عدم الصرف، وأما الوصفية فقال ابن مالك: استعمال دنيا منكراً فيه إشكال لأنها أفعل التفضيل، فكان من حقها أن تستعمل باللام كالكبرى والحسنى، قال: إلا أنها خلعت عنها الوصفية أو أجريت مجرى ما لم يكن وصفاً قط.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١٠٩٠/٢، رقم ١٤٦٧)، والنسائي في سننه (٦٩/٦، رقم ٣٢٣٢)، وابن ماجه في سننه (٥٩٦/١، رقم ١٨٥٥)، وأحمد في مسنده (١٦٨/٢، رقم ٦٥٦٧)، وابن حبان في صحيحه (٣٤٠/٩، رقم ٤٠٣١) عن عبد الله بن عمرو.

لكن اعترض على من يقول: بأنه من عطف الخاص على العام أيضاً من جهة أن عطف الخاص على العام من الأحكام المختصة بالواو بين سائر حروف العطف، كما نص عليه ابن مالك في شرح العمدة، وابن هشام في المغني، فالصواب أن «أو» على بابها للتقسيم، وجعلت «المرأة» قسماً مقابلاً للدنيا تعظيماً لأمرها لأنها أشد فتنة، وعلى تقدير: أنها عطف الخاص على العام فالنكتة في التصريح بها مع دخولنا في الدنيا أمران: أحدهما التنبيه على زيادة التحذير، لأن الافتتان بها أشد. الثاني: أنها سبب الحديث، فحسن التصريح بها.

وقال بعضهم: ذكر الدنيا تحذير للناس منها، وإفرد المرأة زيادة في التحذير، فقد ورد «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[(١)].

وفي وصية لقمان لابنه: «اتق المرأة فإنها تشيبك قبل الشيب، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير، وكن من خيارهن على حذر».

وذكر الدنيا في الحديث لأنها حقيرة لا يتبعها إلا الحقير فقد روى الترمذي وقال حسن صحيح عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً شربة ماء**»[(٢)].

وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

إذ كان شيء لا يساوي جميعه ... جناح بعوض عند من أنت عبده

واشغل جزء منه كلك ما الذي ... يكون على ذا الحال قدرك عنده

معنى «هوان الدنيا على الله تعالى»: أن سبحانه لم يجعلها مقصودة لنفسها، بل جعلها طريقاً موصلاً إلى ما هو المقصود لنفسه، ولم يجعلها دار إقامة ولا جزاء، وإنما جعلها دار بلاء، وإنه ملكها في الغالب للجهلة والكفرة، وحماها الأنبياء والأولياء والأبدال، وحسبك بها هو أنه سبحانه صغرها وحقرها وأبغضها أو أبغض أهلها

---

(١) متفق عليه رواه البخاري في صحيحه (١٩٥٩/٥، رقم ٤٨٠٨)، ومسلم في صحيحه (٢٠٩٧/٤، رقم ٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد.

(٢) رواه الترمذي في سننه (٥٦٠/٤، رقم٢٣٢٠) عن سهل بن سعد، وقال: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

وأخرجه أيضاً: أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٥٣/٣)، والروياني في مسنده (٢١٤/٢، رقم ١٠٥)، وابن حنبل في كتاب الزهد (ص: ٦٣، رقم ١٢٨).

ومحبيها، و لم يرض لعاقل فيها إلا بالتزود منها والتأهب للارتحال عنها.

فـــائدة: قال ابن الجوزي خلق الله تعالى ستة أشياء وملأها سماً وجعل ترياقها ستة أشياء:

الأول: خلق الدنيا وجعل المساجد ترياقها. الثاني: خلق الشهور، وجعل ترياقها شـــهر رمضان. الثالث: خلق الأيام وملأها سماً، وجعل ترياقها يوم الجمعة. الرابع: خـــلق المعاصي وملأها سماً، وجعل ترياقها التوبة. الخامس: خلق الساعات وملأها سمـــاً، وجعل ترياقها الصلوات الخمس. السادس: خلق الأمراض وملأها سماً، وجعل تـــرياقها بســـم الله الرحمن الرحيم، فإذا أردت أن تطيب فمك، وتطهر جسمك، وترفع اسمك، وتشفي سقمك فقل بسم الله الرحمن الرحيم.

ولله دراً بقائك:

كلامـــك والله يـــا ســـيدي ... ألـــذ وأحـــلى مـــن العافيـــة

وأشـــهى إلى العين من غمضها ... وأطيـــب مـــن عيشـــة راضية

يا هذا: الدنيا دار غرور، ولا يدوم لها سرور، ولا يؤمن فيها محذور، جديدها يبلى، وحبيبها يقلى، الدنيا قدر يغلي، وكنيف يملأ، لا يغرنكم علو الدور والقصور، فـــإن مآلها إلى الخراب ومآل إلى القبور، لا يغرنكم الثياب الفاخرة، والوجوه النضرة، فإن منقلبها إلى الحافرة، والعظام النخرة، وقد أحسن من قال:

أيـــا مـــن قـــد تهـــاون بالمنايا ... ومـــن قـــد غره الأمل الطويل

ألم تـــر إنمـــا الدنيـــا غـــرور ... وأن جميـــع مـــا فيهـــا يـــزول

فـــلا يغـــررك من دنياك وعد ... فـــليس لوعدهـــا أبـــداً حصول

وقـــال القـــرطبي في التذكرة وذكره ابن أبي الدنيا قال: حدثنا أبو إسحاق بن الأشـــعث سمعـــت فضيل بن عياض يقول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يؤتى بالدنيا يوم القيامـــة في صورة شمطاء زرقاء أنيابها مكشرة مشوهٌ خلقها، فتشرف على الخلائق، فيقـــال: هذه فيقولون: نعوذ بالله معرفة هذه، فيقال: الدنيا التي تفاخرتم عليها بها، تقاطعتم الأرحام، ولها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف في جهنم فتنادي أي رب أتباعي وأشياعي فيقول الله: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها»[1].

---

(١) رواه من طريق ابن أبي الدنيا البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣/٧، رقم ١٠٦٧١) عن ابن =

وقال تعالى ﴿فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[التوبة: ٣٨].

وقال النبي ﷺ: «**إن الله يحمي عبده الدنيا، وهو يحميه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب**»(١).

وعن البراء بن عازب عن النبي ﷺ: «**إن لله خواص يسكنهم الرفيع من الجنان في أعلى عليين كانوا أعقل الناس**» قلنا: يا رسول الله كيف كانوا أعقل الناس؟ قال «**كان همهم المسابقة إلى الله تعالى والمسارعة إلى ما يرضيه، زهدوا في الدنيا وفي فضولها في رياستها ونعيمها، فهانت عليهم فصبروا قليلاً فاستراحوا طويلاً**»(٢).

وذكر القرطبي: أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بجلساء الله يوم القيامة؟ قال: «**هم الخائفون الخاضعون المتواضعون الذاكرون الله كثيراً**» قال: فهم أول الناس دخولاً الجنة؟ قال: «**لا**» قال: فمن أول الناس يدخلون؟ قال: «**الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة، فتخرج إليهم الملائكة فيقولون: ارجعوا إلى الحساب فيقولون: على ما نحاسب ما أُفيضت علينا من الأموال في الدنيا فنقبض ونبسط، وما كنا أمراء نعدل ونجور، ولكن جاءنا أمر الله فعرفناه حتى أتانا اليقين**»(٣).

وقال النبي ﷺ «**اتقوا الله فإنه يقول يوم القيامة: أين صفويّ من خلقي فتقول الملائكة: من هم يا ربنا فيقول: الفقراء الصابرون الصادقون الراضون بقدري، أدخلوهم الجنة، فيدخلون الجنة، ويأكلون ويشربون، والأغنياء في الحساب يترددون**»(٤).

قال العلامي في تفسيره: «إن إبليس يعرض الدنيا على من يريدها كل يوم،

= عباس رضي الله عنهما، وكذا أبو سعيد ابن درهم في الزهد وصفة الزاهدين (ص: ٤٦، رقم ٧٠).

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٢١/٧، رقم ١٠٤٥٠) عن محمود بن لبيد، ولم نقف عليه عند غيره.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٧/١)، والحارث في مسنده (٨١٤/٢، رقم ٨٤٤) عن البراء.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٣/٨)، وابن المبارك في كتاب الزهد (٨٠/١، رقم ٢٨٣) عن سعيد بن المسيب مرسلا.

(٤) لم نقف عليه.

فيقـــول: مـــن يشـــتري شيئًا يضره ولا ينفعه، وبهيمة لا تسره؟ فيقول أصحابها وعشاقها: نحن، فيقول: إنها معيبة فيقولون: لا بأس فيقول ثمنها ليس بالدراهم ولا بالدنـــانير، ولكن بنصيبكم من الجنة، فإني أشتريتها بأربعة أشياء بلعنة الله وغضبه وسخطه وعذابه، وبعت الجنة بها، فيقولون رضينا ذلك، فيقول: أريد أن أريح بأن توطـــنوا قـــلوبكم على أن لا تدعوها أبداً، فيقولون: نعم، فيبيعهم إياها على ذلك، ثم يقول: بئست التجارة».

وينبغي لكل أحد أن يرضى بما أعطاه الله من الرزق في الدنيا وقسمه له، ويشكر على ذلك ويراه كثيراً عليه، فإن فعل ذلك استراح وعظمت نعم الله في عينه، وإذا زاد مـــن شكره وأجره، جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**قال الله سبحانه تعالى: يا بـــني آدم وعزتي وجلالي لئن رضيت بما قسمت لك أرحتك، وأنت محمود، وإن لم تـــرض بما قسمت لك سلطت عليك الدنيا تركض فيها كركض الوحوش ثم لا يكون لك إلا ما قسمت لك وأنت مذموم**» نقله الدميري في الوحش[1].

ويكفـــي في ذمها أن رسول الله ﷺ لعنها حيث قال: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيهـــا إلا ذكـــر الله ومـــا أولاه عالم أو متعلم**» قال الترمذي هذا حديث حسن غريب[2].

ولا يعـــارض هذا قوله ﷺ: «**لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخـــير، وبها ينجو من الشر**»[3] لأن هذا محمول على ما كان من الدنيا يقرب من

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) رواه الترمذي في سننه (٤/٥٦١، رقم ٢٣٢٢)، وابن ماجه في سننه (٢/١٣٧٧، رقم ٤١١٢) عن أبي هريرة.

(٣) رواه الشاشي في مسنده (١/٣٨٧، رقم ٣٨٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٥/١٠، رقم ٧٢٨٨) عن ابن مسعود.

والحديث ضعيف جداً فيه: إسماعيل بن أبان الغنوي الكوفي الخياط، ترجم له الذهبي في الميزان (١/٣٦٨، ترجمة: ٨٢٥) وقال: كذبه يحيى بن معين، وقال أحمد بن حنبل: كتبنا عنه عن هشام بن عروة، ثم روى أحاديث موضوعة عن فطر وغيره فتركناه، وقال البخاري: ترك أحمد والناس حديثه، قلت: ومن مناكيره... فساق هذا الحديث، ثم قال: وقال ابن حبان: كان يضع الحديث على الثقات وهو صاحب حديث السابع من ولد العباس يلبس الخضرة، وروى أحمد بن زهير عن ابن معين قال: وضع أحاديث على سفيان لم تكن.

الله، ويعين على عبادته، فإنه محمود بكل لسان، محبوب لكل إنسان، فمثل هذا لا يسب، بل يراعى فيه ويحب، كما أشار إلى ذلك في الحديث بقوله: «**فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر**».

وأما المباح لعنه الله من الدنيا فهو ما كان مبعداً عن الله، وشاغلاً عنه كما قال بعض السلف: كل ما شغلك عن الله من مال وولد فهو شؤم عليك، وهو الذي نبه الله سبحانه عليه بقوله ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ**﴾[الحديد: ٢٠].

وفي فتاوى ابن عبد السلام الموصلية: أن الدنيا التي لعنت: هي الحرمة التي أخذت بغير حقها أو صرفت لغير مستحقها، فلا يلهينك يا هذا عن اكتساب دار القرار، والاغترار بشيء من زخرف هذه الدار، فوالله ما هي بدار مقام، بل دار إن أضحكت اليوم أبكت، وإن سرت أعقب سرورها ردى، وإن أخصبت أجدبت، وإن جمعت فرقت، وإن ضمت شتت، وإن غمرت دمرت، وإن وهبت سلبت، وإن ولت عزلت، وإن وصلت قطعت، دار الهموم والأحزان، والغموم والأشجان، والبين والفراق، والشقاء والشقاق، والرحلة والانتقال والزوال، قليلة الصفاء، وبيلة الجفاء، عديمة الوفاء، لا ثقة لعهدها، ولا وفاء لوعدها، ولا وصل لبعدها، محبها ثعبان، وعاشقها سكران، قد سترت معائبها، وكتمت مصائبها، وأخفت نوائبها، وخدعت بباطلها، وغيرت ببراطيلها، ونصبت شباكها، ووضعت إشراكها، وأبدت ملامح، وسترت قبائح الفعال، ونادت: الوصال أيها الرجال، فمن رام وصالها وقع في حبالها، وبدله سوء حالها، وشدة وبالها، فعض يديه ندماً، وبكى بعد الدموع دماً، وأسلمه ما طلب إلى سوء المنقلب، وجهد في الفرار فما أمكنه الهرب، فتيقظ لنفسك يا هذا قبل الهلاك، وأطلق نفسك من أسرها قبل ن يعسر الفكاك، وأقبل على ما فيه عظيم نجاحك، وما هو في الدارين سبب صلاحك، من عبادة الله، ومداومة ذكره، وملازمة حمده على ذلك وشكره، وافعل الخير ما وجدت سبيلاً، فقد انتظر المقام المهول، ولقد أحسن من يقول:

سألت عن الدنيا الدنيئة قيل له ... هي الدار فيها الدائرات تدور
فإن أضحكت أبكت وإن أحسنت أساءت ... وإن عدلت يوماً ما فسوف تجور

وقال آخر:

يـــا خـــاطب الدنيا الدنيئة إنها شـــرك الردى وقرارة الأكدار
دار إذا مـــا أضحكت في يومها أبكـــت غـــداً بعداً لها من دار

وقد جاء أخبار في الزهد من هذه الدنيا الفائتة، وفضل الفقراء، وما يعطي الله الفقير الصابر.

فائدة: سبب هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ما نقله المفسرون وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] وغيره: إذ قريش خافوا لما أسلمت الأنصار أن يعظم أمر رسول الله ﷺ لأنـــه صـــار له شيعة وأنصاراً وأصحاباً من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصـــحابه مـــن المهاجرين إليهم، وخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم وأن يحاربهم بالصـــحابة، فاجـــتمع نفر من كبارهم في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب، وكـــانت قـــريش لا تقضي أمراً إلا فيها، ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ فجاءهم إبليس في صورة شيخ جليل عليه «بت» أي: طيلسان فقالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، فلما سمعت باجتماعكم أردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً فقالوا: ادخل فدخل فقال أبو البحتري: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه، وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه، حتى يملك فيـــه فصرخ الشيخ النجدي وقال: بئس الرأي هذا، والله لأن حبستموه يخرج أمره إلى أصحابه فيوشك أن ينقلبوا عليكم ويقاتلوكم، قالوا: صدق الشيخ النجدي فقال هشام بـــن عمرو: وأما أنا فأرى أن تحملوه على بعير فتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم مـــا صنع إذا غاب عنكم واسترحتم، فقال إبليس: ما هذا برأي تعمدون إلى رجل قد أفسد سفهاؤكم فتخرجوه إلى غيركم فيفسدهم، ألم ترو حلاوة منطقه، وطلاوة لسانه، وأخذه القلوب ما تسمع من حديثه، والله لأن فعلتم ذلك فيذهب ويستميل إلى قلوب قوم، ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ، فقال

---

(١) رواية ابن عباس في ذلك أخرجها أحمد في مسنده (٣٤٨/١، رقم ٣٢٥١)، والطبري في تفسيره (٢٢٧/٩)، وعبد الرزاق في المصنف (٣٨٩/٥)، ومن طريق عبد الرزاق رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤٠٧/١١، رقم ١٢١٥٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٩١/١٣).
ورواه محمد بن إسحاق في مغازيه كما في تفسير ابن كثير (٣٠٣/٢).
وأورده الحافظ السيوطي في الدر المنثور (٥٠/٤) وعزاه إلى عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والخطيب عن ابن عباس.

أبـــو جهل: فوالله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره إني أرى أن تأخذوا من كل قبيـــلة مـــن قريش شاباً نسبياً، ثم يعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يطيقون حرب قريش كلها، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا ديته، فتودي قريش ديته، فقال إبـــليس: صدق هذا الفتى القول ما قال لا أرى غيره، فتفرقوا على قول أبي جهل فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بذلك، وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأذن الله له عند ذلك بالهجرة إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ علي ﷺ فنام في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وقال: تسجى ببردي هذا الأخضر فإنه لم يخلص إليك مـــنهم أمـــر لكرههم، وكان ﷺ ينام في برده هذا إذا نام، فكان علي ﷺ أول من جعل نفسه فداءً لرسول الله ﷺ كما أشار إلى ذلك بقوله:

وقيـــت بنفسي خير من وطئ الثرى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

رســـول إلـــه خـــاف أن يمكروا به ... فـــنجاه الإله ذو الطول من المكر

وخـــلف علياً بمكة حتى يدفع الودائع إلى أهلها فإنه ﷺ كانت توضع الودائع عنده لصدقه وأمانته، فلما أمره الله بالخروج للهجرة قال لجبريل: من يهاجر معي؟ قـــال: أبو بكر الصديق، ثم احتاط الكفار وقت العتمة بدار النبي ﷺ يرصدونه حتى يـــنام فيثبون عليه، فلما علم بهم رسول الله ﷺ أخذ حفنة من تراب وخرج عليهم، وقـــد أخذ الله أبصارهم فلم يره منهم أحد وجعل ينثر التراب على رؤوسهم، وهو يقرأ قوله تعالى ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾[يس: ٨، ٩] ولم يبق منهم رجل وقد وضع على رأسه تراباً.

وكـــان خـــروجه مهاجراً في شهر ربيع الأول، ويقال: في صفر يوم الاثنين، وصـــحب معه أبو بكر ﷺ واستأجر عبد الله بن أريقط دليلاً وهو على شركه، ثم أسلم بعد ذلك وصحب، واستأجروا عامر بن فهيره خادماً وأما الكفار الذين أحاطوا بـــالدار فلما أصبحوا دخلوا على علي قالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري فعلموا أنه ذهب فاقتصوا أثره وأرسلوا في طلبه، وأما رسول الله ﷺ فإنه استمر سائراً هو ومن معـــه، فجعل أبو بكر يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره فقال له رسول الله ﷺ: ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من فعلك؟ قال: يا رسول

الله أذكـــر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لآمن عليك، فمشى ﷺ على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه، فـــلما رأى أبو بكر أنها حفيت حمله على كاهله وجعل يسير به سيراً شديداً حتى وصل جبل ثور، وهو جبل بأسفل مكة فصعد عليه حتى أتى به الغار فأنزله عند بابه ثم قال: والذي بعثك بالحق نبياً لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء نزل بي قبـــلك، فدخـــل فلم ير شيئاً فكنسه، فوجد فيه ثقوباً فيها حيات وأفاعي فشق إزاره وسد تلك الثقوب خوفاً أن يخرج منها شيء يؤذي رسول الله ﷺ وبقي ثقب كبير فسده أبو بكر بقدمه، وفي رواية فدخل رسول الله ﷺ فوضع رأسه في حجر أبي بكـــر ونام فجعلت الحيات والأفاعي تلسع رجل أبي بكر رضي الله عنه وهو لا يتحرك مخافة أن يتنبه رسول الله ﷺ وجعلت دموعه تتساقط على وجه رسول الله ﷺ فانتبه وقال: «مالك يا أبا بكر؟» فقال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما يجده من الألم، وقال: يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكنيته أي: طمأنينته على أبي بكر.

وقيل: إنه لما صعد الجبل لم ير فيه مكاناً يختفون فيه قال: لا حول ولا قوة إلا بـــالله العـــلي العظيم، فانفتح في الجبل غار بقدرة الله فدخل ذلك الغار، ثم أمر الله العنكبوت فنسج على بابه في الحال، وأمر حمامتين وحيتين فعششتا على بابه.

قـــال السهيلي: وحمام الحرم من نسلهما، وأنبت الله في الحال على باب الغار شجرة يقال لها «الرآءة» مثل قامة الإنسان ولها زهر أبيض فلما بلغوا الغار رأوا على بابـــه نســـج العنكبوت، قالوا: لو دخل لم يبق نسج العنكبوت على بابه، وبيض الحمام، والنبي ﷺ يسمع ما قالوا، فعلم أن الله عز وجل صدهم عن نبيه.

وجاء في الحديث: إن الكفار لما وقفوا على باب الغار، وقال أبو بكر يا رسول الله لـــو أن أحدهم ينظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

قـــال الطبري: في هذا دليل على أن باب الغار كان من أعلى، وإلى ذلك أشار صاحب البرده بقوله:

ومـــا حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمي
فالصـــدق في الغار والصديق لم يريا ... وهـــم يقولون ما بالغار من آدم

ظـــنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خـــير الـــبرية لم تنسج ولم تحم
وقايـــة الله أغـــنت عـــن مضـــاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

ففي هذه إشارة إلى حماية النبي ﷺ من أعدائه من الكفار وقعت بأضعف الأشياء مغـــنية عن أقوى الأشياء، وقعت بنسج العنكبوت وهو أضعف الأشياء قال تعالى ﴿وَإِنَّ أَوْهَـــنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾[العنكبوت: ٤١] مغنية عن الدروع التي قال الله عنها: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾[الأنبياء: ٨٠].

قـــال العـــلماء: نسج العنكبوت على جماعة غير النبي ﷺ، الأول: شخص من الصـــحابة يقال له: «عبد الله بن أنيس» بعثه رسول الله ﷺ لأجل قتل شخص من الكفـــار يقال له: خالد بن نبيح الهذلي، فذهب إليه وهو بالغرفة فقتله ثم احتمل رأسه ودخـــل في غار فنسجت عليه العنكبوت، وجاءوا لطلبه فلم يجدوا شيئاً، فلما وصلوا إلى باب الغار نسج العنكبوت فانصرفوا راجعين، ثم خرج وسار إلى النبي ﷺ فلما رأه الـــنبي ﷺ قال: «**أفلح الوجه**» قال: وجهك يا رسول الله، ووضع الرأس بين يديـــه، وأخـــبره الخبر فدفع إليه عصى كانت بيده وقال: «**تُخص بهذه في الجنة**» فكانت عنده إلى أن حضرته الوفاة ووصى أهله أن يدفنوها في كفنه ففعلوا، وكانت مدة غيبته ثمان عشرة ليلة.

الثاني: داود عليه السلام نسجت عليه مرتين حين كان جالوت يطلبه.

الـــثالث: زيد بن علي بن الحسين بن على بن أبي طالب لما انتهت إليه الخلافة وبايعـــه عليها خلق كثير، حاربه والى العراق وهو يوسف بن عمر فظفر به وصلبه عـــلى خشبة عرياناً، ووجهه لغير القبلة، فدارت خشبته إلى القبلة وأرسل الله تعالى العنكـــبوت فنسج على عورته لبركة آبائه وإسلامه، وأقام مصلوباً أربع سنوات، ثم أحرقوا خشبته وجسده رضي الله عنه وكان ظهوره وخلافته في أيام هشام بن عبد الملك فقال لـــه طائفـــة كثيرة من أهل الكوفة تبرأ من أبي بكر وعمر حتى نبايعك فقال: لا، فقالوا:إذاً نرفضك، فمن ذلك اليوم سموا الرافضة.

فائدة: أسند الثعلبي وغيره عن على بن أبي طالب قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيوت يورث الفقر.

وقال أبو الليث السمرقندي: تركه في الإصطبل يهزل الدوآب.

وقـــال الزركشي من علماء الشافعية: إنه يجوز قتله، لأنه من ذوات السموم،

وورد في حديث ضعيف «**العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه**»[(١)].

فائدة لطيفة: روى أبو نعيم في الحلية في ترجمة مجاهد أنه قال في قوله تعالى ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾[النساء: ٧٨] أنه قال: كان فيمن كان قبلكم امرأة وكان لها أجير فولدت جارية، وقالت لأجيرها: اقتبس لنا ناراً، فخرج فوجد بالنار رجلاً فقال: ما ولدت هذه المرأة؟ فقال: جارية، فقال: أما إن هذه الجارية لا تموت حتى تبغي بمائة رجل ويتزوجها أجيرها ويكون موتها بالعنكبوت، فقال الأجير في نفسه: فأنا والله ما أريد هذه بعد أن تبغي بمائة رجل، لأقتلها وأخذ شفرة ودخل وشق بطن الصبية وخرج على وجهه، فركب البحر فخيط بطن الصبية وعولجت، فشفيت وشبت، فكانت تبغي ساحلاً من سواحل البحر فأقامت هناك تبغي، ولبث الرجل ما شاء الله ثم قدم ذلك الرجل ساحل البحر ومعه مال كثير فقال لامرأة من أهل ساحل البحر: اختاري لي امرأة في القرية أتزوج بها، فقالت: هاهنا امرأة من أجمل الناس ولكنها تبغي، قال: آتيني بها، فأتتها فقالت: قد قدم رجل له مال كثير وقال لي: كذا، فقلت: كذا، فقالت: إني تركت البغاء ولكن إذا أراد تزوجته قال: فتزوجها فوقعت منه موقعاً، فبينما هو يوم عندها إذا أخبرها بأمره فقالت: أنا تلك الجارية وأرته الشق في بطنها، وقد كنت أبغي فما أدري بمائة أو أكثر أوأقل، قال: فإنه قال لي: يكون موتها بالعنكبوت، قال: نبني لها برجاً في الصحراء وشيده، فبينما هو يوماً في ذلك البرج إذا عنكبوت في السقف، فقال: هذا عنكبوت، فقالت: هذا يقتلني، لا يقتله أحد

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣١٣/٦، ترجمة ١٧٩٩ مسلمة بن علي أبو سعيد الخشني الشامي) وهذا الرجل هو آفة الحديث التي من أجلها عد ضعيفاً كما بين المصنف.

قال ابن عدي: قال يحيى بن معين: مسلمة بن علي ليس بشيء، وعن حماد قال: قال البخاري: مسلمة بن علي أبو سعيد الخشني الشامي منكر الحديث عن الأوزاعي، وقال النسائي مسلمة بن علي الخشني متروك الحديث، وذكر جملة من أحاديثه ومنها هذا الحديث وقال في آخر ترجمته: ولمسلمة غير ما ذكرت من الحديث وكل أحاديثه ما ذكرته وما لم أذكره كلها أو عامتها غير محفوظة.

وترجم له الذهبي في الميزان (٤٢٣/٦، ترجمة ٨٥٣٣) وقال: واه حدث عن يحيى بن الحارث الذماري وجماعة، تركوه، قال دحيم: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: لا يشتغل به، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك.

غـــيري فحركـــته فسقط فأتته، فوضعت إبهام رجلها عليه فساخ سم بين ظفرها ولحمهـــا واســـودت رجلها وماتت، فنـــزلت هذه الآية ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾[1].

قال العلماء: أقام النبي ﷺ في الغار ثلاثة أيام وأبو بكر ﷺ كل وقت من هذه الأيام الثلاثة عنده حزن خوف على رسول الله ﷺ ويقول له: يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا أو كما قال، وقد أشار إلى ذلك أبو بكر بقوله:

قـــال الـــنبي و لم يجـــزع يوقـــرني ... ونحـــن في سدف من ظلمة الغار

لا تخـــش شـــيئًا فـــإن الله ثالثـــنا ... وقـــد توكـــل لـــنا منه بإظهار

بعد الثالث خرج رسول الله ﷺ ومن معه من الغار.

فـــائدة: خرج النبي ﷺ من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول حكاه ابن الجوزي عن الكلبي.

وقيل: خرج منه ليلة الاثنين أربع ليال خلون من ربيع الأول قاله ابن الملقن عن ابن سعد في الطبقات[2].

وســـاروا والدليـــل أمامهم حتى مروا بمكان يقال له قديد يوم الثلاثاء، وهناك خـــيمة منصوبة لامرأة يقال لها: أم معبد واسمها عاتكة[3]، وهي جالسة في خيمتها وعـــندها شاة ضعيفة مهزولة تخلفت عن المراعي لشدة هزالها، وذهب زوجها ببقية الأغنام إلى المرعى فاستضافها رسول الله ﷺ وهي لا تعرفه، فقال لها: يا أم معبد هل عندك من لبن؟ فقالت: لو كان ما أحوجتكم إلى الطلب، فقال لها رسول الله ﷺ ما في هذه الشاة لبن؟ فقالت: إنها هزيلة تختلف عن المرعى لذلك، فقال: أتأذنين لي في حلابها؟ قالت: والله ما ضربها من فحل قط فشأنك وإياها، فدعا بها فمسح رسول

---

(١) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/٢٨٩).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/٢٣٢) ذكره من قول عبد الملك بن وهب بلاغاً.

(٣) ترجم لها ابن حبان في الثقات (٣/٣٢٥، ترجمة: ١٠٦٧) ونسبها فقال: أم معبد الخزاعية التي نزل عليها رسول الله ﷺ، اسمها: عاتكة بنت خالد بن خليف ويقال بنت خالد بن خلف بن منقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس الكعبية من خزاعة.

وانظر ترجمتها في الاستيعاب (٤/١٨٧٦، ترجمة: ٤٠٢٣)، وفي الإصابة لابن حجر (٨/٣٠٥، ترجمة: ١٢٢٥٩) وحديث الهجرة المروي عنها.

الله ﷺ ضرع الشاة وظهرها فحلب في الإناء، وكان إناء يفي رهطاً فشرب من لبنها وسقى أصحابه، ثم حلب في الإناء أيضاً وتركه عندها، واستمرت البركة في تلك الشاة ببركته ﷺ ومن نسلها ما هو باق إلى زماننا هذا.

وأما زوجها قال السهيلي: لا يعرف اسمه وقد ورد بأن اسمه: أكتم بن أبي الجون، فإنه جاء من المرعى وقت المساء، بعد أن سافر رسول الله ﷺ فرأى عندها لبناً في الإناء فقال لها: من أين هذا ولا حلوب عندك؟ قالت: يا أبا معبد مر بنا رجل ظاهر الوضاءة، متبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور، أكحل، أزج، أقرن، شديد، يخلو الشعر في عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما، وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، حلو المنطق، فصل لا نزر، ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفود، محشود لا عابث ولا مفند، قال هذه والله صفة صاحب قريش، ولو رأيته لاتبعته ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، ثم هاجرت بعد ذلك هي وزوجها فأسلما وكان أهلها يفرحون بنزول الرجل المبارك [(١)].

ثم لما فارق رسول الله ﷺ أم معبد وكان كفار مكة قد جعلوا لمن يقتل أو يأسر رسول الله ﷺ وأبا بكر دية كل واحد منهما، فبلغ ذلك سراقة بن مالك بن جعشم، وكذا قد بلغه أن رسول الله ﷺ وأصحابه ساروا على طريق السواحل،

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٣١/١) وما هاهنا مستفاد من رواية أبو معبد الخزاعي التي عند ابن سعد.

ولأم معبد رواية فيها حديث الهجرة تاماً، فيه قدوم رسول الله ﷺ عندها وأوصافه نحو ما هاهنا بألفاظ متقاربة، رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٨٨/٨)، ورواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٥٢/٦، رقم ٣٤٨٥).

والحديث أيضاً مروي عن حبيش صاحب رسول الله ﷺ وهو أخو عاتكة أم معبد، قال ابن عبد البر في الاستيعاب (١٨٧٦/٤) ذكر أبو جعفر العقيلي... فساق حديث أم معبد في هجرة رسول الله ﷺ ثم قال عقبه: وقد روى حديث أم معبد هذا بكماله عنها في رواية العقيلي هذه، وروى عن أبي معبد زوجها، وعن حبيش ابن خالد أخيها بمعنى واحد والألفاظ متقاربة.

فطمع في المال فأخذ رمحه وركب فرسه وتتبعهم، فلما دنى منهم وأحس به رسول الله ﷺ دعا عليه، فعثرت فرسه وسقط عنها، ثم ركبها وسار حتى قرب منهم وسمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، فساخت قوائم فرسه في الأرض حتى بلغت الركبتين فنزل عنها وزحف فلم تستطع النهوض فطلب الأمان فدعا له رسول ﷺ ثم زجرها فنهضت، فلما استوت قائمة فركبها وسار نحو رسول الله ﷺ، ووقع في نفسه ما لقي من الحبس عنهم وما اتفق لفرسه أنه سيظهر أمر رسول الله ﷺ وينتصر على أعدائه، فلما وصل إلى رسول الله ﷺ قال له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يقبلوا منه شيئًا بل قالوا: أُخف عنا، ثم رجع سراقة إلى قومه بني مدلج، وأخبرهم بما اتفق له مع رسول الله ﷺ وقال لهم: لابد وان يظهر أمره فسمع بذلك أبو جهل فأنشد يقول:

بني مدلج إني أخاف سفيهكم ... سراقة يستغوي بنصر محمد
عليكم أن لا يفرق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عز وسودد

فأجاب سراقة:

أبا حكم والات لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي أن تسيخ قوائمه
عجبت ولن تشك بأن محمد ... نبي وبرهان فمن ذا يكاتمه
عليك بكف الناس عنه فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدوا معالمه
بأمر تود النصر فيه بأنها ... لو أن جميع الناس طراً تسالمه

وأما رسول الله ﷺ فإنه مضى إلى المدينة وكان المسلمون من أهل المدينة قد سمعوا خروجه ﷺ من مكة، وكان المسلمون كل يوم يخرجون إلى مكان يقال له: الحرة، ينتظرونه حتى يشتد الحر، ثم يرجعون فلما كان يوم قدومه وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة يوماً خلت من ربيع الأول، خرجوا ثم رجعوا إلى بيوتهم بعد ما طال انتظارهم وإذا يهودي صعد على جبل لحاجة فنظر من فوق فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه فنادى بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرونه قد أقبل فخرجوا إليه سراعاً وتلقوه، فنزل بقباء على بني عمرو بن عوف، ولبث عندهم

بضع عشر ليلة كما [رواه البخاري من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير][1]، وقيل: غير ذلك.

وأسس لهم المسجد الذي ذكر في القرآن أنه أسس على التقوى وصلى فيه، ثم ركب راحلته فسار يمشي ومعه الناس، وكلما مر على طائفه من أهل المدينة يقولون له: أقم عندنا فإننا أصحاب عدد وعدد ومتعة، وهو راكب ناقته وهم يحجزونها، فيقول لهم رسول الله ﷺ: خلوا سبيلها فإنها مأموره، حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ، وقيل: نزلت على باب المسجد ثلاثاً مراراً بركت أول مرة ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل، ثم قامت وسارت غير بعيد، ثم رجعت إلى مبركها أول مرة ثم تحلحلت ثم عادت إليه فنزل عنها ﷺ فقال حين بركت به: هذا إن شاء الله هو المنزل ثم اشتراه من اليتيمين بعشرة دنانير، ثم بناه مسجداً، وكان ينقل معهم اللبن في بنائه ويقول:

هذا الحمال لا حمال خيبر ... هذا أبر بنا وأطهر

اللهم إن الأجر أجر الآخرة ... فارحم الأنصار والمهاجرة

فائدة: وقال ابن سيد الناس قال عبد الله بن سلام: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة فانجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه

---

(١) ما بين [ ] في الأصل: «كما رواه أنس من طريق البخاري» وهو غلط، وما أثبت من صحيح البخاري فقد رواه معلقاً من قول ابن شهاب الزهري كما أثبت. انظر: صحيح البخاري (٣/ ١٤٢١، رقم ٣٦٩٤).

قال ابن حجر في الفتح (٧/٢٤٣): قوله: «قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب» هو متصل إلى ابن شهاب بالإسناد المذكور أولاً، وقد أفرده الحاكم من وجه آخر عن يحيى بن بكير بالإسناد المذكور ولم يستخرجه الإسماعيلي أصلاً، وصورته مرسل لكنه وصله الحاكم أيضاً من طريق معمر عن الزهري قال أخبرني عروة أنه سمع الزبير به، وأخرجه موسى بن عقبة عن بن شهاب به وأتم منه.

قلت: والحديث من طريق معمر أيضاً عند عبد الرزاق في المصنف (٥/٣٩٥).

والحديث رواه موصولاً أيضاً من طريق آخر: الطبري في التاريخ (١/٥٧١) قال: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، قال: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة، قال: حدثني رجال قومي من أصحاب رسول الله ﷺ... فذكره بنحوه.

ليس بوجه كذاب، فأول ما سمعته يقول: «**أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[١] قال: أشرقت المدينة بقدومه ﷺ وسرى السرور إلى القلوب بحلوله بها.

وعن أنس بن مالك قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء.

قال البراء بن عازب: ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ.

وسنذكر كم كان له باب في زمانه، وكم كان طوله وعرضه وارتفاعه، وغيره إن شاء الله تعالى.

وأنزل الله تعالى في مشاورة قريش في أمر النبي ﷺ ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[الأنفال: ٣٠] والمكر: التدبير، والمعنى: ويدبرون ويدبر الله خير المدبرين[٢].

---

(١) الحديث رواه الترمذي في سننه (٦٥٢/٤، رقم ٢٤٨٥) عن عبد الله بن سلام، قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

والحديث عند: ابن ماجه في سننه (٤٢٣/١، رقم ١٣٣٤)، وأحمد في مسنده (٤٥١/٥، رقم ٢٣٨٣٥)، والحاكم في المستدرك (١٤/٣، رقم ٤٢٨٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٥٧/٧، رقم ٣٥٨٤٧)، والدارمي في سننه (٤٠٥/١، رقم ١٤٦٠)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣١٣/٥، رقم ٥٤١٠)، وعبد بن حميد في مسنده (ص: ١٧٩، رقم ٤٩٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤١٨/١، رقم ٧١٩)، وابن قانع في معجم الصحابة (١٣٢/٢)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٣٥/١)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٤٣٣/٩، رقم ٤٠٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٠٢/٢، رقم ٤٤٢٢) وفي شعب الإيمان (٤٢٤/٦، رقم ٨٧٤٩).

(٢) إلى هنا انتهى السفيري من شرح هذا الحديث، ولم يتعرض بالشرح لقوله: «فهجرته إلى ما هاجر إليه» وحتى يتم المعنى وتعم الفائدة نستكمل الشرح من فتح الباري ففيه من الفوائد التي لا غنى عنها في هذا المقام.

يقول ابن حجر: قوله: «فهجرته إلى ما هاجر إليه» يحتمل أن يكون ذكره بالضمير ليتناول ما ذكر من المرأة وغيرها، وإنما أبرز الضمير في الجملة التي قبلها وهي المحذوفة لقصد الالتذاذ بذكر الله ورسوله وعظم شأنهما، بخلاف الدنيا والمرأة، فإن السياق يشعر بالحث على الإعراض عنهما.

وقال الكرماني: يحتمل أن يكون قوله: «إلى ما هاجر إليه» متعلقاً بالهجرة، فيكون الخبر محذوفاً =

= والتقدير قبيحة أو غير صحيحة مثلاً، ويحتمل أن يكون خبر فهجرته والجملة خبر المبتدأ الذي هو من كانت، انتهي.

وهذا الثاني هو الراجح لأن الأول يقتضي أن تلك الهجرة مذمومة مطلقاً، وليس كذلك، إلا أن حمله على تقدير شيء يقتضي التردد أو القصور عن الهجرة الخالصة كمن نوى بهجرته مفارقة دار الكفر، وتزوج المرأة معا فلا تكون قبيحة ولا غير صحيحة، بل هي ناقصة بالنسبة إلى من كانت هجرته خالصة، وإنما أشعر السياق بذم من فعل ذلك بالنسبة إلى من طلب المرأة بصورة الهجرة الخالصة، فأما من طلبها مضمومة إلى الهجرة فإنه يثاب على قصد الهجرة لكن دون ثواب من أخلص، وكذا من طلب التزويج فقط لا على صورة الهجرة إلى الله، لأنه من الأمر المباح الذي قد يثاب فاعله إذا قصد به القربة كالإعفاف.

ومن أمثلة ذلك ما وقع في قصة إسلام أبي طلحة فيما رواه النسائي عن أنس قال: تزوج أبو طلحة أم سليم فكان صداق ما بينهما الإسلام، أسلمت أم سليم قبل أبي طلحة فخطبها فقالت: إني قد أسلمت، فإن أسلمت تزوجتك. فأسلم فتزوجته.

وهو محمول على أنه رغب في الإسلام ودخله من وجهه وضم إلى ذلك إرادة التزويج المباح فصار كمن نوى بصومه العبادة والحمية، أو بطوافه العبادة وملازمة الغريم.

واختار الغزالي فيما يتعلق بالثواب أنه إن كان القصد الدنيوي هو الأغلب لم يكن فيه أجر، أو الديني أجر بقدره، وإن تساويا فتردد القصد بين الشيئين فلا أجر، وأما إذا نوى العبادة وخالطها بشيء مما يغاير الإخلاص، فقد نقل أبو جعفر بن جرير الطبري عن جمهور السلف أن الاعتبار بالابتداء، فإن كان ابتداؤه لله خالصاً لم يضره ما عرض له بعد ذلك من إعجاب أو غيره. والله أعلم.

واستدل بهذا الحديث على أنه لا يجوز الإقدام على العمل قبل معرفة الحكم، لأن فيه العمل يكون منتفياً إذا خلا عن النية، ولا يصح نية فعل الشيء إلا بعد معرفة الحكم، وعلى أن الغافل لا تكليف عليه، لأن القصد يستلزم العلم بالمقصود والغافل غير قاصد.

وعلى أن من صام تطوعاً بنية قبل الزوال أن لا يحسب له إلا من وقت النية وهو مقتضى الحديث، لكن تمسك من قال بانعطافها بدليل آخر.

ونظيره حديث: «من أدرك من الصلاة ركعة فقد أدركها» أي: أدرك فضيلة الجماعة أو الوقت، وذلك بالانعطاف الذي اقتضاه فضل الله تعالى، وعلى أن الواحد الثقة إذا كان في مجلس جماعة ثم ذكر عن ذلك المجلس شيئا لا يمكن غفلتهم عنه، ولم يذكره غيره أن ذلك لا يقدح في صدقه، خلافاً لمن أعل بذلك، لأن علقمة ذكر أن عمر خطب به على المنبر، ثم لم يصح من جهة أحد عنه غير علقمة.

واستدل بمفهومه على أن ما ليس بعمل لا تشترط النية فيه، ومن أمثلة ذلك: جمع التقديم، فإن الراجح من حيث النظر أنه لا يشترط له نية، بخلاف ما رجحه كثير من الشافعية وخالفهم =

المجلس السادس

مشتمل على شيء من ترجمة الإمام مالك وبقية الأئمة الأربع وترجمة عائشة رضي الله عنها وغيرها

والكلام على الحديث الذي سأله الحارث من رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي، يأتي في المجلس السابع.

قَالَ الْبُخَارِي:

«حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ أم الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها...».

قوله: «**قال حدثنا عبد الله بن يوسف**» هذا هو أبو محمد التنيسي، أصله من دمشق، وكانت وفاته سنه سبع أو ثمان عشرة ومائتين.

ويجوز في يوسف ست لغات ضم السين وفتحها، وكسرها مع الهمزة تركها، وهذه اللغة جارية في يونس أيضاً.

«**أنبأنا مالك**» هذا هو الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة الأصبحي المدني، الإمام المجتهد أحد الأعلام الذي سارت به الركبان، ولد في خلافة الوليد بن عبد الملك، سنة أربع، وقيل: سنة ثلاث وتسعين، ومناقبه جمة أفردت بالتأليف، وثناء الناس عليه مشهور معروف، ولو سكتوا لأثنت عليه الحقائب ، أخذ الرواية من تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين وستمائة ممن تابعهم ممن اختاره وارتقى دينه وفقهه وقيامه بحق الرواية وشروطها، وسكنت النفس إليه ، ومن مناقبه بل أجلها: أنه العالم

= شيخنا شيخ الإسلام وقال: الجمع ليس بعمل، وإنما العمل الصلاة.

ويقوي ذلك أنه عليه الصلاة والسلام جمع في غزوة تبوك ولم يذكر ذلك للمأمومين الذين معه، ولو كان شرطاً لأعلمهم به، واستدل به على أن العمل إذا كان مضافاً إلى سبب ويجمع متعدده جنس أن نية الجنس تكفي، كمن أعتق عن كفارة ولم يعين كونها عن ظهار أو غيره، لأن معنى الحديث: أن الأعمال بنياتها، والعمل هنا القيام بالذي يخرج عن الكفارة اللازمة وهو غير محوج إلى تعيين سبب، وعلى هذا لو كانت عليه كفارة -وشك في سببها- أجزأه إخراجها بغير تعيين. وفيه زيادة النص على السبب، لأن الحديث سيق في قصة المهاجر لتزويج المرأة، فذكر الدنيا القصة زيادة في التحذير والتنفير.

وقال شيخنا شيخ الإسلام: فيه إطلاق العام وإن كان سببه خاصاً، فيستنبط منه الإشارة إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الذي بشر به النبي ﷺ بقوله: «**ينقطع العلم فلا يبقى عالم أعلم من عالم المدينة**» رواه الترمذي وغيره[١].

وحديث آخر: «**ليس على ظهر الدنيا أعلم منه، فتضرب الناس إليه أكباد الإبل**».

وفي لفظ آخر «**يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة**»[٢].

فالمراد بعالم المدينة في الأحاديث المذكورة هو الإمام مالك كما قاله التابعون وتابعوهم، ولم يعرف أن أحداً ضربت إليه أكباد الإبل مثل ما ضربت إليه.

قال أبو مصعب: كان الناس يزدحمون على باب مالك ويقتتلون عليه من الزحام لطلب العلم.

وقال يحيى بن شعبة: دخلت المدينة سنة أربع وأربعين ومائة ومالك أسود الرأس واللحية، والناس حوله سكوت لا يتكلمون هيبة له، ولا يفتي أحد في مسجد رسول الله ﷺ غيره، فجلست بين يديه، وسألته فحدثني فاستزدته فزادني، ثم غمزني أصحابه فسكت.

وقال مالك: ما جلست للفتيا حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني مرضاة لذلك.

ومن مناقبه ما حكاه محمد بن رمح قال: حججت مع أبي وأنا صبي لم أبلغ الحلم

---

(١) هذا اللفظ ليس عند الترمذي وإنما اللفظ الذي عند الترمذي الآتي بعده بطرف: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل...»، وأما هذا الطرف «ينقطع العلم... الحديث» لم نقف عليه بهذا اللفظ.

(٢) رواه الترمذي في سننه (٤٧/٥، رقم ٢٦٨٠) عن أبي هريرة.

قال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو حديث ابن عيينة، وقد روي عن ابن عيينة أنه قال في هذا: سئل من عالم المدينة؟ فقال: إنه مالك بن أنس، وقال إسحاق بن موسى سمعت ابن عيينة يقول: هو العمري عبد العزيز بن عبد الله الزاهد، وسمعت يحيى بن موسى يقول: قال عبد الرزاق هو مالك بن أنس، والعمري هو عبد العزيز بن عبد الله من ولد عمر بن الخطاب.

وأخرجه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (٤٨٩/٢، رقم ٤٢٩١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٦٨، رقم ٣٠٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والحميدي في مسنده (٤٨٥/٢، رقم ١١٤٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (٣٠٦/٥).

فنمت في مسجد رسول الله ﷺ في الروضة بين القبر والمنبر، فرأيت النبي ﷺ وقد خرج مـــن قبره فقمت فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت: يا رسول الله أين أنت ذاهب؟ فقـــال: أقيم لمالك الصراط المستقيم، فتنبهت وأتيت أنا وأبي فوجدت الناس مجتمعين على مالك وقد أخرج الموطأ وكان أول خروجه.

ومـــن مناقبه الجليلة: أن امرأة غسلت امرأة بالمدينة في زمنه ﷺ فوضعت الغاسلة يدها علي فرج الميتة، وقالت: طال ما عصى هذا الفرج ربه، فألتصقت يد الغاسلة في فرجها، فسألوا علماء المدينة عن أمرها، فبعضهم قال: تقطع يد الغاسلة، وبعض آخر قـــال: يشق فرج الميتة، وبعض آخر تحير في أمرها، فاستفتى الإمام مالك فقال: اسألوا الغاســـلة ما قالت في حق الميتة لما وضعت يدها على فرجها؟ فسألوها فقالت: طالما عصـــى هـــذا الفـــرج، فقال مالك: هذا قذف اجلدوها ثمانين جلدة تتخلص يدها، فجلدوها فتخلصت يدها فمن ثم قيل: لا يفتى ومالك في المدينة.

ولما اشتهر ﷺ بالعلم انتشر وصفه وذكره في البلاد، وحملت إليه الأموال لانتشار علمه فكان يفرقها على أصحابه، وأصحابه يفرقونها في وجوه الخير موافقة لفعله، وما كان يدخرها.

وكان يقول: ليس الزهد فقد المال، وإنما الزهد فراغ القلب عنه.

وكان يقول أيضاً: ما كان رجل صادقاً في حديثه لا يكذب إلا متعه الله بعقله و لم تصبه عند الكبر عند الهرم آفة ولا خرف.

وكان يقول أيضاً: إذا لم يكن للإنسان في نفسه خير لم يكن للناس فيه خير.

ومن مناقبه ما نقله في الحلية لأبي نعيم عن مالك أنه قال: ما بت ليلة إلا ورأيت فيها رسول الله ﷺ(١).

ومن مناقبه ما قاله عبد الله بن المبارك قال: كنت عند مالك، وهو يحدثنا بحديث رسول الله ﷺ، ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما تفرق الناس عنه قلت يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجب قال: نعم صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ.

وكـــان يحـــب أن يعظم أحاديث رسول الله ﷺ فلا يحدث بشيء من أحاديثه في الطـــريق، أي: وهـــو قائم مستعجل، وكان إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصـــعب ذلك على جلسائه، فقيل له: لم ذلك؟ فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم ما

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/٣١٧).

ترون.

وعـــن الإمام الشافعي ﷺ قال: رأيت على باب مالك دوآباً من فراس خراسان جاءته هدية، وقيل: من مصر ما رأيت أحسن منها، فقلت له: ما أحسن هذه الدوآب فقال: هي هدية مني إليك فقلت: دع لنفسك منها دآبة تركبها، فقال: إني لأستحي من الله تعـــالى أن أطأ تربة فيها نبي الله ﷺ بحافر دآبة حملت به أمه ثلاث سنوات، وكان يمـــنع مـــن الصلاة بعد العصر فدخل يوماً الجامع فقيل له: قم فاركع ركعتين، فقام وصلى، فقيل له: كيف خالفت مذهبك؟ فقال: خشيت أن أكون من الذين قيل لهم: اركعوا ولا يركعون، وكان نقش خاتمه: حسبي الله ونعم الوكيل.

ولمـــا حضرته الوفاة تشهد ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد، وكانت وفاته سنة ســـبع وســـبعين ومائة بالمدينة، عن خمس وثمانين سنة، ودفن بالبقيع وهو أحد الائمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبوعة المشهورة.

وثـــانيهم إمام الأئمة الإمام الشافعي اسمه: محمد بن إدريس، أخبر عنه النبي ﷺ: «**عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً**»[1]، كما قاله العلماء من المتقدمين وغيرهم لأنه

---

(١) رواه ابـــن أبي عاصم في السنة (٦٣٧/٢، رقم ١٥٢٢) عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً بلفظ: «لا تسبوا قريشاً، فإن علم عالمها يملأ الأرض علماً».

وأخـــرجه الطيالسي (ص: ٣٩، رقم ٣٠٩) وفيه زيادة في آخره، وكذا أخرجه الشاشي في مسنده (١٦٩/٢، رقم ٧٢٨).

والحديـــث ضـــعيف فيه: النضر بن حميد الكندي يرويه عن أبي الجارود عن أبي الأحوص عن ابن مسعود، ترجم له العقيلي في الضعفاء (٢٨٩/٤، ترجمة ١٨٨٣) وروى حديثه هذا.

ولكـــن لـــلحديث شواهد كلها تؤكد أنه حديث حسن فقد رواه أحمد بصيغة التمريض تحرزاً من ضعفه كما نقل عنه ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣٩/٥١) قال: روي عن أحمد بن حنبل أنـــه قـــال: إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبراً قلت: فيها يقول الشافعي لأنه إمام عالم من قريش وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «عالم قريش يملأ الأرض علماً» وروى أحمد بن حنبل ذلك عن النبي ﷺ.

قلت: ولا يتصور أن الأمام أحمد بجلالته في الحديث أن يستشهد بحديث موضوع، وقد ناقش هذه القضـــية العجـــلوني في كشف الخفا (٦٩/٢) وقال: قال الحافظ العراقي: ليس بموضوع كما زعم الصـــغاني إذ كيـــف يذكر الإمام أحمد حديثاً موضوعاً يحتج به، أو يستأنس به للأخذ في الأحكام بقـــول شيخه الإمام الشافعي، وإنما أورده بصيغة التمريض احتياطاً للشك في ضعفه، فإن إسناده لا يخـــلو عـــن ضـــعف.

لم يكن في الأئمة قريشي قبل الشافعي، و لم يتصف بهذه الصفة أحد قبله ولا بعده فهو العالم المبعوث في رأس المائة الثانية.

المشـــار إليه في حديث أبي داود «**ويبعث الله على كل رأس مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**»[1] فإنه مات سنه أربع بعد مائتين.

وكـــان ﷺ يختـــم القرآن في كل يوم مرة، وكان يختم في رمضان ستين مرة كل ذلـــك في الصلاة وكان يقول: من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وخالفها في قلبه فقد

= وقـــد جمع الحافظ ابن حجر طرقه في كتاب سماه: «لذة العيش في طرق الأئمة من قريش» وبه يعلم أنه حسن وصرح بذلك الترمذي ونقله النجم عن المدخل للبيهقي عند أحمد بلفظ: «عالم من قـــريش يطبق الأرض علماً» ثم قال: ورواه الحاكم والأبدي كلاهما في المناقب عن علي بلفظ: «لا تؤموا قريشاً وأئتموا بها ولا تقدموا على قريش وقدموها، ولا تعلموا قريشاً وتعلموا منها، فإن أمانة الأمين من قريش تعدل أمانة اثنين من غيرهم، وإن علم عالم قريش يسع طباق الأرض» وفي رواية الأبدي: «فإن علم عالم قريش مبسوط على الأرض».

ورواه القضـــاعي عن ابن عباس بلفظ: «اللهم اهد قريشاً فإن علم العالم منهم يسع طباق الأرض، الـــلهم أذقـــت أولها نكالا فأذق آخرها نوالاً» ورجاله رجال الصحيح إلا إسماعيل بن مسلم ففيه مقال.

ولـــلحديث شواهد أخرى وكلها تنطبق كما قال العجلوني نقلاً عن الإمام أحمد تنطبق على إمامنا الشافعي.

قـــال الـــبيهقي وابـــن حجر: طرق هذا الحديث إذا ضمت بعضها إلى بعض أفادت قوة وعلم أن للحديث أصلاً. انظر: كشف الخفا (٢/٦٩).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/١٠٩، رقم ٤٢٩١) عن أبي هريرة.

وأخرجه أيضاً: الحاكم في المستدرك (٤/٥٦٧، رقم ٨٥٩٢)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦/٣٢٣، رقم ٦٥٢٧)، وأبو عمرو المقرئ في السنن الواردة في الفتن (٣/٧٤٢، رقم ٣٦٤)، والديلمي في الفردوس (١/١٤٨، رقم ٥٣٢).

قلت: وأما قول المصنف: إن إمامنا الشافعي هو المشار إليه بهذا الحديث، فقد ورد ذلك عن أفاضل العلماء وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، فقد روى الخطيب في تاريخ بغداد (٢/٦٢) من طريق أبي سعيد الفريابي قال: قال أحمد بن حنبل: إن الله تعالى يقيض للناس في كل راس مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب فنظرنا فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المائتين الشافعي ﷺ.

وقال الذهبي في السير (١٧/١٩٥): قال ابن الصلاح والشيخ أبي حامد تأول بعض العلماء هذا الحديث فكان الشافعي على رأس المئتين.

كذب، وكان يقول أيضاً: ما حلفت بالله في عمري لا كذاباً ولا صادقاً.

وسئل مرة عن مسألة فسكت، فقيل له: لم لا تجب؟ فقال: حتى أعلم الفضل في السكوت أم في الجواب.

وأما سخاؤه فقد روى الحميدي أن الشافعي ﷺ خرج إلى اليمن في بعض أشغاله ثم انصرف إلى مكة ومعه عشرة آلاف درهم، فضرب خيمته خارج مكة فكان الناس يأتونه، فما راح من مكانه حتى فرقها جميعها، وخرج يوماً من الحمام وقد أتى بمال كثير فدفعه إلى الحمامي.

وسقط سوط من يده وهو راكب فرفعه إليه إنسان فأعطاه خمسين دينار.

وكان عفيفاً عن اللغو والكلام الفاحش، مر يوماً برجل يسفه على رجل من أهل العلم فالتفت الشافعي فقال: نزهوا أسماعكم عن سماع الخنا كما تنزهوا ألسنتكم عن النطق به فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أحب شيء في وعائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو رددت كلمة السفيه لشقي رادها كما يشقى قائلها.

ومن كلامه: أظلم الظالمين لنفسه الذي ارتفع جفاء أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر على ذوي الفضل.

قال بعضهم للشافعي ثلاث كلمات لم يسبق إلى واحدة منهن قوله: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وقوله: وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلي حرف منه، وقوله: ما ناظرت أحداً إلا وددت أن يظهر الله الحق علي يديه.

وله شعر كثير يحتوي على حكم ومواعظ، وله أدعيه كثيرة روى عبد الله بن مروان قال: كنت أجلس في حلقة العلم عند الإمام الشافعي، وأكتب ما أفهمه منه فآتيته سَحراً، فوجدته في المسجد وهو قائم يصلي فلبثت حتى فرغ من صلاته، ثم دعا بدعوات حفظتها منه فكان من جملة ذلك: اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة، وهب لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على السنة، وارزقنا صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك، وامنن علينا بكل ما يقربنا إليك مقروناً بالعافية في الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين، قال: فلما فرغ من دعائه خرج من المسجد وخرجت خلفه فوقف ينظر إلى السماء ثم أنشد فقال:

بموقف ذلي عند عزتك العظمى ... بمخفي لا نحيط به علما

بإطراق رأسي باعترافي بزلتي ... بمد يدي أسقط الجود والرحما

بأسمائك الحسنى التي بعض وصفها لعـزها تسـتغرق النثر والنظما
بعهـد قـديم مـن ألست بربكم بمـن كـان مجهولاً فعلمته الأسما
أذقنا شراب الأنس يا من إذا سقى محـباً شـراباً لا يضام ولا يظما

قـرأ بعضـهم عـنده يوماً قوله تعالى ﴿**هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾[المرسلات: ٣٥، ٣٦] فتغير لونه واقشعر جلده واضطربت مفاصله وخر مغشـياً عليه، فلما أفاق قال: أعوذ بك من مقام الكاذبين، وإعراض الغافلين، اللهم خضعت لك قلوب العارفين، وذل لهيبتك المشتاقون، إلهي هب لي جودك بسترك، واعف عني في تقصيرى بكرمك، يا ذا الجلال والإكرام.

كـان هذا خوف الشافعي مع علمه؛ ويح للجاهلين الغافلين، أعمارهم تنهب، وآثامهم تكتب.

وكان الإمام أحمد بن حنبل يعظم الشافعي ويذكره كثيراً ويثني عليه، وكانت له ابـنة صالحة تقوم الليل وتصوم النهار، وتحب أخبار الصالحين الأخيار، وتود أن ترى الشافعي لتعظيم أبيها له، فاتفق مبيت الشافعي عند أحمد ففرحت البنت في ذلك طمعاً أن تـرى أفعالـه وتسمع حديثه، فلما كان الليل قام الإمام أحمد إلى وظيفة صلاته، وذكره، والإمام الشافعي مستلق على ظهره والبنت تراقبه إلى الفجر فقالت: لأبيها يا أبـت أنت تعظم الشافعي وما رأيت في هذه الليلة منه لا صلاة ولا ذكراً ولا ورداً، فبينما هما في الحديث إذ قام الإمام الشافعي، فقال له الإمام أحمد: كيف كانت ليلتك فقال ما بت ليلة أطيب منها ولا أبرك ولا أربح، فقال: وكيف ذلك؟ قال: لأني رتبت في هـذه الليلة مائة مسألة، وأنا مستلق على ظهري كلها في منافع المسلمين ثم ودعه ومضى، فقال أحمد لابنته: هذا عمله الليلة وهو نائم أفضل من الذي عملته وأنا قائم.

كـانت حركاتهم وسكناتهم لله دافعاً لهم، وأقوالهم لله وذكرهم وفكرهم في الله، فقيامهم طاعة، ونيامهم صدقة،وذكرهم تسبيح، وسكونهم فكر، وعلمهم شفاء ورحمة للأمة لا جرم أن الله ذكرهم ومنحهم ومدحهم وجعلهم أئمة الإسلام وقدوة الأنام.

وكـان مولـد الشافعي بغزة، وقيل: بعسقلان، وقيل: باليمن سنه خمسين ومائة وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وأذن له مالك ابن أنـس في الفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة وكانت وفاته رحمة الله تعالى يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين كما تقدم، بمدينة مصر ودفن في الفسطاس، وله قبة عظيمة هناك، وأسف على موته أحمد بن حنبل، وكان لأحمد ولد يقال له: عبد الله

قال لأبيه يوماً يا أبت أراك تكثر الثناء والمدح للإمام الشافعي وتكثر الدعاء، أي رجل كـــان الشافعي؟ فقال: يا بني إن الشافعي كالشمس للنهار، كالعافية للناس، فانظر هل لهذين خلف أو عنهما عوض.

عـــن تلميذه الربيع قال رأيت الشافعي في المنام بعد وفاته فقلت: يا أبا عبد الله ما صنع بك قال: أجلسني على كرسي من ذهب وتبر على لؤلؤ الرطب رحمه الله.

وثالث الأئمة أرباب المذاهب: الإمام أحمد بن حنبل ﷺ وأرضاه، وكان إمام أهل زمانه علماً وعملاً وورعاً.

قـــال الإمام الشافعي: خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه ولا أزهد ولا أورع ولا أعلم من أحمد بن حنبل، وكان يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة، ودعى إلى القـــول بخلق القرآن وإمكان الرؤية فامتنع، ضرب وسجن وهو مصر على الامتناع، وزلزلت الأرض يوم ضرب.

قال الهلال بن العلاء: مُنَّ على هذه الأمة بالشافعي تفقه في حديث رسول الله ﷺ، وبأحمد بن حنبل ثبت في المحنة، ولولا ذلك لكفر الناس.

ومن مناقبه العظيمة الجليلة ما حكاه ابن جماعة في كتاب أنس المحاضرة عن سلمة بـــن شـــيب قال كنا عند أحمد ابن حنبل فجاءه رجل فدق الباب أولاً وثانياً فقال أحمد: ادخـــل قـــال فدخل فسلم، وقال: أيكم فأشار بعضنا إليه قال: جئت من البحر من مسيرة أربعمائه فرسخ أتاني آت في منامي فقال: آت أحمد بن حنبل وسل عنه، فإنك تدل عليه، وقل له: إن الله عنك راض وملائكة سماواته عنك راضون، وملائكة الأرض عنك راضون، قال: ثم خرج فما سأله عن حديث ولا مسأله.

وســـيأتي في مـــناقب سفيان الثوري شيء من مناقبه، وكانت وفاته سنة إحدى وأربعين ومائتين عن سبع وسبعين سنة.

قرأ على الإمام الشافعي كان إذا ركب الشافعي يمشي معه في ركابه أدباً، وكان كل منهما يزور الآخر فأنشد الشافعي في هذا المعنى:

قـــالوا يـــزورك أحمـــد وتـــزوره ... قـــلت لفضائل ما تعدت منـــزله

إن زارني أو زرتـــــه فبفضـــــله ... فلفضـــله فالفضـــل في الحالين له

ورابعهم: أبو حنيفة النعمان بن ثابت ﷺ وكان من التابعين فإنه رأى أنس هكذا قيـــل، لكن قال ابن حجر في التهذيب: لم يثبت أنه رأى أحداً من الصحابة، وهو فقيه العـــراق، وإمام أهل الرأي قال فيه مالك: رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن

يجعلها ذهباً بحجته.

وقال ابن المبارك: ما رأيت رجلاً في الفقه مثله.

وقال الثوري: هو أفقه أهل الأرض.

وقال أبو نعيم: هو صاحب غوص في المسائل.

وقال الشافعي: الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه.

وقال أسد بن عمرو: صلى أبو حنيفة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، وكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن في ركعة، وكان يسمع بكاؤه في الليل حتى ترحمه الجيران.

وطلبه ابن هبيرة ليالي القضاء فأبى، فضربه مائة سوط وعشرة أسواط في كل يوم سبعين ألف مرة.

ومن مناقبه: أن امرأة جاءته وهو في الدرس فألقت له تفاحة نصفها أحمر ونصفها أصفر فأخذها وكسرها، وأعادها إليها ففهمت المرأة الجواب، فسئل عن ذلك فقال: قالت إنها ترى الحمرة والصفر فمتى اغتسل؟ فقلت لها: حتى ترى الطهر الأبيض كباطن التفاحة.

ونقل ابن جماعة في كتاب أنس المحاضرة عن علي بن ميمون قال: سمعنا الشافعي يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة، وأجيء إلى قبره في كل يوم يعني زائراً، فإذا عرضت له صليت ركعتين، وجئت إلى قبره وسألت الله الحاجة عنده فما تبعد عني حتى تقضى.

وكانت وفاته سنه إحدى وخمسين ومائة وهو ابن تسعين سنة وهو وأحمد بن حنبل مدفونان ببغداد فهؤلاء الأربعة الأعلام أئمة الإسلام، اتفاقهم حجة قاطعة واختلافهم رحمة.

قال بعض الصالحين رأيت في المنام أني دخلت الجنة فرأيت في وسطها عموداً من نور، ورأيت أربعة يجرونه بأربعة سلاسل وهو ثابت لا يتغير من مكانه، فقلت: يا لله العجب، لو هؤلاء من جهة واحدة لكان أسهل عليهم، فسألت بعض الملائكة عن ذلك فقال: هذا العمود هو دين الإسلام وهؤلاء الأربعة الذين يجرون هم أئمة الإسلام الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ومالك رضي الله عنهم، فاتفاقهم حجة قاطعة وقولهم حق، واختلافهم رحمة للمسلمين.

هذه والله صفات العلماء الذين تبكي على فقدهم الأرض والسماء، فهم العلماء الزهاد، وأهل الإخلاص والسداد، حنت إليهم القلوب، وانقادت إليهم النفوس، وذلت لهم الصعاب، وخضعت لهم الرؤوس، فهم في الأقطار كالأقمار والشموس، لا جرم

صار ذكرهم مكتوباً باقي القرون، وأما من تصنع بالرياء، وعمل لأجل الدنيا، وغرته أمانيه، ويشتهي أن يمدح بما ليس فيه، فذلك من أهل الأذهان المعكوسة، والأفكار المولوسة، نشد بعضهم في الأربعة فقال:

فالشافعي له علوم نشرت ... بين الورى وله ثناء يعبق
ولمالك نشرت علوم مالها ... حد كبحر زاخر يتدفق
ولأحمد تعزى العلوم لأنه ... يروي في الحديث وصدقه يتحقق
وأبو حنيفة سابق فلأجل ذا ... وآثاره وعلومه لا تستبق
فهم الأئمة خصهم رب العلى ... بالفضل منه فثناؤهم لا يلحق

قوله: «**عن هشام بن عروة عن أبيه**» أما هشام فهو تابعي، ولد سنة إحدى وستين وتوفي ببغداد في ولاية المنصور سنة ست وأربعين ومائة، وأما أبوه عروة فهو: أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام بن خويله بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأسدي المدني التابعي الجليل، المجمع على إمامته، وتوثيقه ووفور علمه، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة، وهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ، وسليمان بن يسار، وخارجه بن ثابت وأبو بكر بن عبد الحارث بن هشام، وقد جمعهم بعض الفضلاء فقال:

ألا إن من لا يقتدي بأئمة فقسمته ... ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم عبيد الله عروة وقاسم ... سعيد أبو بكر سليمان خارجة

فائدة: قال شيخ الإسلام كمال الدين الدميرى: من الفوائد المستغربه ما أخبرني به بعض أهل الخير أن أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة المشرفة إذا كتبت في رقعة وجعلت في القمح لا يسوس ما دامت الرقعة فيه.

قال: وأفاداني بعض أهل الخير والتحقيق أن أسماءهم إذا كتبت وعلقت على الرأس، وذكرت عليها أزالت الصداع العارض لها.

وأم عروة هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، وجمع عروة الشرف من وجوه فرسول الله ﷺ صهره، وأبو بكر جده، والزبير والده، وأسماء أمه، وعائشة خالته.

وقيل: كان عروة بحراً لا يدركه الدلاء.

وقال ولده هشام: صام أبي الدهر وما مات إلا وهو صائم.

ومـــن فضـــائله: أنه وقع له واقعة ومحنة عجيبة فلقاها بالصبر والرضا، وذلك أنه وقعـــت له أكلة في رجله فأمر الطبيب بقطعها فقال له: لا فعل لأن هذا شرفني الله به بل أصبر، فلما ارتفعت إلى الساق قيل له: إن ارتفعت إلى الركبة قتلتك، فأجاب إليه قطعها خوفاً من الله لئلا يكون قتل نفسه، فقال له الطبيب: اشرب دواء حتى لا تحس بالألم، فقال: لا امنع نفسي أجراً ساقه الله لي، فقيل لو أمسكك بعض أولادك، فقال: الرضا بقضاء الله يمنعني من ذلك فقطعها الطبيب، وهو يهلل ويكبر فلما رأى قدمه مع الطبيب أخذها وقبلها، وقال: اللهم إنك تعلم أني ما مشيت في معصيتك، ثم بعد ساعة قيل له: أعظم الله أجرك فقال: إن كان في رجلي فقد احتسبتها عند الله، فقيل له: في ولـــدك فقـــال: اللهم إن كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وكان لي بنون أربعة فأخذت واحد وأبقيت لي ثلاثة.

وكان مولده سنه عشرين، وكانت وفاته سنة أربع وتسعين.

قوله: «**عن عائشة**» رضي الله عنها هذه الصديقة بنت الصديق والحبيبة بنت الحبيب أبي بكر عثمان بن عامر عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشي التيمية.

كنيـــتها: «أم عبد الله» كناها رسول الله ﷺ بابن أختها أسماء عبد الله بن الزبير وقيل: بسقط لها[1].

---

(١) قـــال محب الدين الطبري في السمط الثمين (ص: ٢٥): يروى أنها أسقطت من النبي ﷺ، ولم يثبت والصحيح أنها كانت تكنى بابن أختها عبد الله (انتهى).

قـــلت: والرواية التي فيها أنه كان لها سقط من رسول الله ﷺ عند الخطيب في موضح أوهام الجمع والـــتفريق (٣١٣/١) بـــلفظ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أسقطت من رسول الله ﷺ سقطاً فسماه عبد الله وكناني به»، وأخرجه أيضاً: الرافعي في التدوين (٤٦٤/١).

قـــال ابن حجر في التلخيص (١٤٧/٤): في إسناده داود بن المحبر وهو كذاب، وجزم بعدم صحة الخبر المناوي في فيض القدير (١١٢/٤).

ويؤيـــد عدم صحة الخبر ما أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٤/١٦، رقم ٧١١٧) عن عائشه وفيه أنها قالت: «فما زلت أكنى به وما ولدت قط» أي: عبد الله ابن أختها.

وبمـــا أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٢/١١، رقم ١٩٨٥٨)، ومن طريقه أحمد في المسند (٦/ ١٥١، رقـــم ٢٥٢٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/٢٣، رقم ٣٥) عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه أن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله كل نساءك لهن كنية غيري، فقال لها: «اكتني أنت أم عبد الله»، فكان يقال لها: أم عبد الله حتى ماتت ولم تلد قط.

وبمـــا أخـــرجه أبـــو داود (٢٩٣/٤، رقم ٤٩٧)، وأحمد في المسند (١٥١/٦، رقم ٢٦٢٨٥) =

تـــزوجها رسول الله ﷺ بمكة قبيل الهجرة بسنتين وهي بنت ست سنين في شوال وبنى بها في المدينة بعد منصرفه من بدر في شوال أيضاً سنة ستّ من الهجرة، وقيل: بعد سبعة أشهر من الهجرة، وهي بنت تسع سنين.

والأحاديث في فضلها كثيرة مشهورة وعائشة تقرأ بالهمز، وقال الزركشي وعوام المحدثـــين: تقرأ بياء صريحة، مأخوذة من العيش، ويقال في لغة فصيحة: عيشة، وكنية أمهـــا أم رومان بفتح الراء وضمها، واسمها: زينب، وكان لعائشة أخ يقال له: عبد الرحمن.

ولهـــا فضائل وخصائص منها: أنها صورت لرسول الله ﷺ قبل عقده عليها، فقد ورد أن خديجة لما ماتت رضي الله عنها اغتم النبي ﷺ فجاءه جبريل كما في الترمذي بصورتها في خرفة حرير خضراء، قال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة [(١)].

وقيـــل: جاءه بورقة من الجنة منقوش عليها صورة عائشة، وقال يا أحمد، الجبار يقرئك السلام ويقول: إني زوجتك البكر التي تشبه هذه الصورة في السماء، فتزوجها أنـــت في الأرض، فدعـــا النبي ﷺ الدلالة وقال: هل تعرفين في مكة بكر تشبه هذه الصورة، قالت: نعم بنت أبي بكر تشبه هذه الصورة، فدعا النبي ﷺ أبا بكر وقال: إن

= عـــن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: كل صواحبي لهن كنى، قال: «فاكتني بابنك عبد الله» يعني ابن أختها. قال عبد الله بن الزبير: فكانت تكنى بأم عبد الله حتى ماتت.

قال ابن حجر في التلخيص (١٤٨/٤) سنده صحيح.

وبما أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/٢٣، رقم ٣٤) عن عائشة قالت: «كناني النبي ﷺ أم عبد الله ولم يكن لي ولد قط».

وبما أخرجه الطبراني أيضاً: (١٩/٢٣، رقم ٣٩) عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كنى رسول الله ﷺ عائشة ولم يولد لها».

وبمجمـــوع هذه الروايات والأحاديث التي يشد بعضها بعضاً بان لنا بطلان من يقول أن لها سقط وكـــنيت بـــه اســـتناداً إلى رواية داود بن المحبر، قال ابن حجر في التلخيص (١٤٨/٤) وهذا كله يضعف رواية داود بن المحبر، وقد سبق أن الحافظ قال: إنه كذاب.

(١) رواه الترمذي في سننه (٧٠٤/٥، رقم ٣٨٨٠) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمرو بن علقمة، وقد روى عبد الرحمن بن مهدي هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو بن علقمة بهذا الإسناد مرسلاً، ولم يذكر فيه عن عائشة، وقد روى أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبي ﷺ شيئاً من هذا.

وأخرجه أيضاً: ابن حبان في صحيحه (٦/١٦، رقم ٧٠٩٤).

لك بنتاً تسمى عائشة زوجني الله بها في السماء، وأمرك أن تزوجني بها في الأرض قال: إنها صغيرة فقال: لو لم تكن صالحة ما زوجنيها الله، فعقد النكاح ورجع أبو بكر إلى منـــزله وأرسل مع عائشة طبقاً من التمر وقال: قولي له: هذا الذي سأل عنه رسول الله ﷺ فـــلا أدري هـــل يصلح فأتت النبي ﷺ وأخبرته بذلك فقال يا عائشة: قبلنا ثم قبلنا.

ومـــنها: أنها قالت يا رسول الله أدع الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر فـــرفع يـــده حتى رأت بياض إبطيه وقال: «**اللهم اغفر لعائشة بنت أبي بكر مغفرة ظاهرة وباطنة، لا تغادر ذنباً ولا تكسب بعدها خطيئة ولا إثماً**» ثم قال: «يا عائشة» قـــلت: إي والذي بعثك بالحق فقال: «**والذي بعثني بالحق ما خصصتك بها من بين أمتي، وإنها لصلاتي في الليل والنهار، لمن مضى منهم ومن بقي إلى يوم القيامة، فأنا أدعو لهم والملائكة يؤمنون على دعائي**»[1].

ومن فضائلها كما قاله في نزهة المجالس: ما روي عن النعمان بن بشير قال: جاء أبـــو بكر يوماً إلى النبي ﷺ فاستأذن فأذن له في الدخول، فوجد عائشة رافعة صوتها فغضـــب وقـــال: يا بنت أم رومان ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ وأراد ضربها، فحـــال النبي ﷺ بينه وبينها، فلما خرج أبو بكر جعل النبي ﷺ يتراضاها ويقول: ألا ترين قد حلت بينك وبينه، ثم عاد أبو بكر فوجد النبي ﷺ يتراضاها ويضاحكها فقال

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٦/٤٧، رقم ٧١١١) عن عائشة بلفظ: «أنها قالت: لما رأيت من النبي ﷺ طيب نفس قلت: يا رسول الله ادع الله لي فقال: اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر ما أسرت وما أعلنت، فضحكت عائشة رضي الله عنها حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك، قال لها رسول الله ﷺ: أيسرك دعائي؟ فقالت: وما لي لا يسرني دعاؤك، فقال ﷺ: والله إنه لدعائي لأمتي في كل صلاة».

ورواه أيضاً: البزار كما في مجمع الزوائد (٩/٢٤٤) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن منصور الرمادي وهو ثقة.

ووقع عند ابن أبي شيبة في المصنف (٦/٣٩٠، رقم ٣٢٢٨٥) أن الذي طلب من رسول الله ﷺ الدعاء أبويها وهو من رواية أبو بكر بن حفص قال: جاءت أم رومان وهي أم عائشة وأبو بكر إلى النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله ادع الله لعائشة دعوة نسمعها فقال عند ذلك: «اللهم اغفر لعائشة ابنة أبي بكر مغفرة واجبة ظاهرة وباطنة».

ورواه الديلمي في الفردوس (١/٤٩٨، رقم ٢٠٣٢) عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: «اللهم اغفر لعائشة مغفرة ظاهرة وباطنة واسعة محللة لا تغادر دنساً ولا تكتسب بها إثماً».

رسول الله: أشركاني في سلمكما، كما أشركتماني في حربكما.

ونقل النسفي أن عائشة قالت: للنبي ﷺ يوماً ما في بيتك شيء يؤكل، فغضب وخرج من البيت فأرادت مصالحته فسبقها بالخروج، فوضعت خدها على التراب وتضرعت إلى الله بالبكاء، فلما وضع النبي ﷺ رجله على باب المسجد وأراد الدخول جاء جبريل بطبق من الحلوى فقال: إن الله تعالى يقول: كان الصلح منا وطعام الصلح علينا.

وهي أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ روي لها من الأحاديث ألفا حديث وعشرة أحاديث، اتفق البخاري ومسلم على مائة وأربعة عشر وسبعين حديثاً، وانفرد مسلم بثمانية وستين، والبخاري بأربعة وخمسين.

ومما اجتمع لها من الفضائل: أنها زوج رسول الله ﷺ وبنت خليفته ﷺ وتوفي رسول الله ﷺ في بيتها ورأسه في صدرها، وجمع الله بين ريقه وريقها، ودفن في بيتها، وكان ينزل عليه الوحي وهو في فراشها بخلاف غيرها، وخلقت طيبة ووعدت مغفرة، ولم يتزوج النبي ﷺ بكراً غيرها، وكان ﷺ يقيم لها ليلتين وليلة سوده بنت زمعه لأنها وهبتها ليلتها لما كبرت، ولنسائه ليلة ليلة، وكان يدور علي نسائه ويختم بعائشة.

ومن فضائلها: أن الله أنزل براءتها من السماء لما تكلم في حقها أهل الإفك وقذفوها حيث قال ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ....**﴾ إلى آخر الآيات العشرة [النور: ١١-٢٠]، ومن قذفها بعد نزول براءتها كفر، لأنه مكذب للقرآن.

ورد في بعض الأخبار عن ابن عباس أنه قال: لم يكن لنبي امرأة زانية.

وقال عروة: كانت عائشة ﷺ أعلم الناس بالقرآن وبالحديث وبالشعر.

وقال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا من حديث رسول الله ﷺ فسألنا عائشة ﷺ إلا وجدنا عندها منه علماً، واستقلت بالفتوى زمن أبي بكر وعثمان فمن بعدهم.

وماتت رضي الله عنها في خلافة معاوية سنة ثمان وخمسين، وهي بنت ست وستين سنة، ودفنت بالبقيع ليلاً وصلى عليها أبو هريرة ﷺ أقامت في صحبة النبي ﷺ ثمانية أعوام وخمسة أشهر وتوفي عنها وهي بنت ثمان عشرة.

ونقل شيخنا الجلال السيوطي في الخصائص: أن في معاني الآثار للطحاوي قال أبو حنيفة: كان الناس لعائشة رضي الله عنها محرماً فمع أيهم سافرت فقد سافرت مع محرم، وليس لغيرها من النساء ذلك[1].

وقول البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وصفها بأم المؤمنين مقتبس من قوله تعالى ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] المراد: أن أزواج النبي ﷺ المدخول بهن وغير المدخول بهن يقال لهن: أمهات المؤمنين.

والقصد من تسميتهن بأمهات المؤمنين تحريم نكاحهن بعد رسول الله ﷺ ووجوب احترامهن وطاعتهن، كما يحرم نكاح الأمهات، ويجب احترامهن وطاعتهن، وليس المقصود من تسميتهن بذلك أنه يجوز الخلوة بهن والنظر إليهن كما يجوز النظر والخلوة إلى الأمهات، بل كان نظر الأجنبي إليهن حراماً، وخلوته بهن كذلك، وكان نكاح بناته له جائز.

والحكمة في تحريم نكاحهن بعده ﷺ على أمته حتى لا يكن يوم القيامة تحت غيره، فإن المرأة تكون مع آخر زوج لها على خلاف في ذلك سيأتي.

ويقال لهن: أمهات المؤمنين أيضاً على الراجح قاله ابن حجة.

وهل يقال لرسول الله: أبو المؤمنين كما يقال لنسائه أمهات المؤمنين؟ الأصح الجواز قال البغوي: إنه ﷺ كان أباً للرجال والنساء وأما قوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أحد مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ﴾[الأحزاب: ٤٠] فالمراد منه: ما كان أبا أحدكم لصلبه، بل كان في الحرمة قال النووي: ولا يقال لبناتهن أخوات المؤمنين، ولا لآبائهن أجداد المؤمنين، ولا لأمهاتهن جدات المؤمنين، ولا لإخوانهن أخوال المؤمنين ولا لأخواتهن خالات المؤمنين.

ويختلف العلماء في عدد نسائه ﷺ اللاتي دخل بهن، فقال القرطبي: جملتهن ثنتا عشرة فارقهن قبل الدخول وخطب بنساء من غير عقد عليهن، وكان له أربع سراري.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: والحكمة في كثرة أزواجه أن الأحكام التي ليست ظاهرة يطلعن عليها فينقلنها للناس، وقد جاء عن عائشة في ذلك الكثير الطيب.

وزوجاته أفضل نساء العالمين، وأفضل زوجاته خديجة وعائشة رضي الله عنهما واختلف العلماء فيهما ورجح جماعة من المتأخرين أن خديجة أفضل من عائشة، والذي يدل على أن

---

(١) انظر: شرح معاني الآثار للطحاوي (١١٦/٢).

خديجـــة أفضل: أن عائشة أقرأها النبي ﷺ السلام من جبريل، وخديجة أقرأها جبريل السلام من ربها.

وهـــل فاطمـــة أفضل أم عائشة؟ قال شيخنا الجلال السيوطي تبعاً للسبكي قلنا: الصواب القطع بتفضيل فاطمة، وذهب بعضهم إلى أن عائشة أفضل لأنها يوم القيامة في الجنة مع النبي ﷺ في درجته التي هي أعلى الدرجات بخلاف فاطمة.

قال السبكي: وهذا القول ساقط مردود ضعيف لا سند له من نظر ولا نقل.

وهـــل هـــي أفضل أم أمها خديجة؟ قال السبكي: الذي نختاره وندين الله به: أن فاطمة أفضل ثم أمها خديجة ثم عائشة، واستدل على ذلك بأن النبي ﷺ قال: «**فاطمة بضعة مني**»[1] ولا أعدل ببضعة رسول الله ﷺ أحداً.

وفي آخر: «**فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها**»[2].

ويدل علي تفضيلها أيضاً: أنه ﷺ لما ساورها ثانية عند موته قال لها: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة**».

وثبت في الصحيح أنه ﷺ قال لها: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة**»[3].

وهل مريم أفضل أم فاطمة؟ قال شيخنا العلامة جلال الدين السيوطي: لم يتعرض أحد للتفضيل بين مريم وفاطمة، والذي نختاره بمقتضى الأدلة تفضيل فاطمة عليها.

فقـــد روى النسائي عن خديجة أن رسول الله ﷺ قال: «**هذا ملك من الملائكة استأذن ربه ليسلم علي، وبشرني أن حسناً وحسيناً سيدا شباب أهل الجنة، وأمهما سيدة نساء أهل الجنة**»[4].

وفي مســـند الحـــارث بن أبي أسامة بسند صحيح لكنه مرسل «**مريم خير نساء**

---

(١) انظر تخريج الحديث الآتي بعده.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٠٠٤، رقم ٤٩٣٢) ومسلم في صحيحه (٤/١٩٠٢، رقم ٢٤٤٩) عن المسور بن مخرمة.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٣٢٦، رقم ٣٤٢٦)، ومسلم في صحيحه (٤/١٩٠٥، رقم ٢٤٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥/٨٠، رقم ٨٢٩٨) بلفظه عن حذيفة بن اليمان.
أخرجه أيضاً: الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/٤٠٢، رقم ١٠٠٥).

عالمها، وفاطمة خير نساء عالمها»[1].

وهل مريم أفضل أم خديجة؟ قال السبكي: مريم، واختلف في نبوتها، فإن كانت نبية فهي أفضل، وإن لم تكن فالأقرب أنها أفضل أيضاً، لذكرها بالقرآن، وشهادته بصديقتها.

وأفاد شيخنا العلامة الجلال السيوطي: أن علم الدين العراقي قال: إن فاطمة وأخاها إبراهيم أفضل من الخلفاء الأربعة باتفاق، ونقل عن مالك أنه قال: لا أفضل على بضعة من النبي ﷺ أحد، وأفضل نسائه بعدها خديجة وعائشة وزينب كما قاله الشيخ برهان الدين الحلبي.

لكن ظاهر الكلام السبكي أن حفصة أفضل بعد عائشة فإنه قال بعد ذكره فاطمة وخديجة وعائشة، وأما بقية الأزواج فلا يبلغن هذه المرتبة، وان كن خير نساء هذه الأمة بعد هؤلاء الثلاثة، وهن متقاربات في الفضل، لا يعلم حقيقة ذلك إلا الله، لكن نعلم بحفصة بنت عمر من الفضائل تعتبر فما أشبه أن تكون هي بعد عائشة.

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة (زوائد الهيثمي) (٢/٩٠٩، رقم ٩٩٠) عن هشام بن عروة عن أبيه.

المجلس السابع

في الكلام علي الحديث الذي سأله الحارث بن هشام لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي[١]

قَالَ البُخَارِي:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ يُوسُفَ، قَالَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيه، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه كَيْفَ يَأْتِيكَ الوحي فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ **«أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ -وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ- فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»**.

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[٢].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/٦٤): اعترض الإسماعيلي فقال: هذا الحديث لا يصلح لهذه الترجمة، وإنما المناسب لكيف بدء الوحي الحديث الذي بعده، وأما هذا فهو لكيفية إتيان الوحي لا لبدء الوحي.

قال الكرماني: لعل المراد منه السؤال عن كيفية ابتداء الوحي، أو عن كيفية ظهور الوحي، فيوافق ترجمة الباب.

قلت: سياقه يشعر بخلاف ذلك لإتيانه بصيغة المستقبل دون الماضي، لكن يمكن أن يقال: إن المناسبة تظهر من الجواب، لأن فيه إشارة إلى انحصار صفة الوحي أو صفة حامله في الأمرين فيشمل حالة الابتداء، وأيضاً فلا أثر للتقديم والتأخير هنا ولو لم تظهر المناسبة، فضلاً عن أنا قدمنا أنه أراد البداءة بالتحديث عن إمامي الحجاز فبدأ بمكة ثم ثنى بالمدينة، وأيضاً فلا يلزم أن تتعلق جميع أحاديث الباب ببدء الوحي، بل يكفي أن يتعلق بذلك وبما يتعلق به وبما يتعلق بالآية أيضا، وذلك أن أحاديث الباب تتعلق بلفظ الترجمة وبما اشتملت عليه، ولما كان في الآية أن الوحي إليه نظير الوحي إلى الأنبياء قبله، ناسب تقديم ما يتعلق بها، وهو صفة الوحي وصفة حامله إشارة إلى أن الوحي إلى الأنبياء لا تباين فيه، فحسن إيراد هذا الحديث عقب حديث الأعمال، الذي تقدم التقدير بأن تعلقه بالآية الكريمة أقوى تعلق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) هذا الحديث روته عائشة فهل سمعت سؤال الحارث أم هو أخبرها بذلك.

يقول ابن حجر: هكذا رواه أكثر الرواة عن هشام بن عروة، فيحتمل أن تكون عائشة حضرت ذلك، وعلى هذا اعتمد أصحاب الأطراف فأخرجوه في مسند عائشة.

ويحتمل أن يكون الحارث أخبرها بذلك بعد فيكون من مرسل الصحابة، وهو محكوم بوصله =

قوله: «حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ أم الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها وعن أبيها وعن جدها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ» هذا هو أخو أبي جهل عدو الله لأبويه، وابن عم خالد بن الوليد، شهد بدراً كافراً، وأسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه وأعطاه النبي ﷺ يوم حنين مائة من الإبل.

وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم، وكان لأبي جهل أربعة أخوة الحارث المذكور هنا، وسلمة وخالد والعاص وكلهم أسلموا على الصحيح، وكذلك أمهم أسلمت واسمها: سلمى وهي صحابية، وكذلك بنت أبي جهل أسلمت صحابية، إلا الشقي الخاسر والعنيد الكافر أبا جهل لعنه الله فإنه لم يسلم، وقد آذى رسول الله ﷺ أذىً كثيراً بالغاً مع ما شهد منه من المعجزات الظاهرة، والآيات الباهرة.

ومما اتفق له مع رسول الله ﷺ كما قاله الماوردي في أعلام النبوة: «أن قريشاً كانوا مجتمعين مرة فكان بعضهم يحث بعضهم على قتله ويقول لهم: الموت لكم خير من الحياة إن بقي محمد، وكان بعضهم يقول: كيف نصنع؟ فقال أبو جهل لعنه الله: هل محمد إلا رجلاً واحدًا أليس فيكم من يزهد في الحياة ويقتله ويريح قومه فقالوا: من فعل هذا ساد بيننا؟ فقال: أبو جهل أفعل هذا وليس محمد بأقوى رجل منا، وإذا جاء أقوم إليه بحجر فأشدخ رأسه فإن قتلته فقد أرحت قومي منه، وإن أبقيت فذلك الذي أبقي، فخرجوا على هذه النية، ففي اليوم الثاني اجتمعوا في الحطيم فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقالوا: قد جاء فتقدم ﷺ إلى الركن وقام يصلي، فنظروا إليه وهو يطيل الركوع والسجود، فقام أبو جهل وقال: الآن أريحكم منه فأخذ مهراساً أي: حجراً عظيماً ودنا من رسول الله ﷺ وهو ساجد لا يلتفت إليه ولا يهابه وهو يراه، فلما دنا ارتعد وأرسل الحجر على رجله فرجع وقد هرست أصابعه وهو يرتعد ورسول الله ﷺ ساجد، فقال أبو جهل لأصحابه: خذوني إليكم فالتزموه وقد غشي عليه ساعة، فلما أفاق قال له أصحابه ما الذي أصابك؟ قال: لما دنوت منه أقبل عليَّ فحل واقف على رأسه، فاتح فاه، فحمل عليَّ وصك أسنانه فلم أتمالك وأنا أرى

= عند الجمهور.

وقد جاء ما يؤيد الثاني، ففي مسند أحمد ومعجم البغوي وغيرهما من طريق عامر بن صالح الزبيري عن هشام عن أبيه عن عائشة عن الحارث ابن هشام قال: سألت.

وعامر فيه ضعف، لكن وجدت له متابعاً عند ابن منده، والمشهور الأول. انظر: فتح الباري (١/٦٤).

محمد محجوباً».

وسنذكر أخباره ونذكر في أي غزوة قتل ومن قتله في مجلس آتى إن شاء الله تعالى.

قوله: «**سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الوحي؟**» قال العلماء: يحتمل أن يكون سؤاله عن صفة الوحي نفسه، ويحتمل أن يكون سؤاله عن صفة حامله، ويحتمل أن يريد ما هو أعم من ذلك.

وعلى كل تقدير فإسناد الإتيان إلى الوحي مجاز عقلي، ويسمى المجاز في الإسناد وأصله: كيف يأتيك حامل الوحي فأسند الإتيان إلى الوحي للملابسة التي بين الحامل والمحمول، وإما استعارة بالكناية أي: شبه الوحي برجل مثلاً وأضيف إلى المشبه الإتيان الذي هو من خواص المشبه به، فحاصل السؤال على أي كيفية ينزل عليك جبريل بالقرآن.

فقال رسول الله ﷺ في الجواب «**أَحْيَانًا**» جمع حين، وهو الوقت يطلق على الكثير والقليل حتى على اللحظة[1].

---

(١) تكلم الحافظ ابن حجر في هذا المقام عن إتيان الوحي وكيفياته فنذكره لتمام الفائدة:
قال ابن حجر: قوله: «أحيانا» جمع حين، يطلق على كثير الوقت وقليله، والمراد به هنا مجرد الوقت، فكأنه قال: أوقاتا يأتيني، وانتصب على الظرفية، وعامله «يأتيني» مؤخر عنه.
والبخاري رواه من وجه آخر عن هشام في بدء الخلق قال: كل ذلك يأتي الملك، أي كل ذلك حالتان فذكرهما.
وروى ابن سعد من طريق أبي سلمة الماجشون، أنه بلغه أن النبي ﷺ كان يقول: «كان الوحي يأتيني على نحوين: يأتيني به جبريل فيلقيه على كما يلقي الرجل على الرجل، فذاك ينفلت مني، ويأتيني في بيتي مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي، فذاك الذي لا ينفلت مني» وهذا مرسل مع ثقة رجاله، فإن صح فهو محمول على ما كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾[القيامة: ١٦] كما سيأتي، فإن الملك قد تمثل رجلاً في صور كثيرة، ولم ينفلت منه ما أتاه به، كما في قصة مجيئه في صورة دحية وفي صورة أعرابي، وغير ذلك وكلها في الصحيح.
وأورد على ما اقتضاه الحديث -وهو أن الوحي منحصر في الحالتين- حالات أخرى: إما من صفة الوحي كمجيئه كدوي النحل، والنفث في الروع، والإلهام، والرؤيا الصالحة، والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة.
وإما من صفة حامل الوحي، كمجيئه في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح، ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض وقد سد الأفق. =

والـــنبي ﷺ لما سأله الحارث عن كيفية نزول جبريل عليه بالقرآن فقال: «**يأتيني جبريل بالقرآن وله صوت مثل صلصلة الجرس**» أي: له صوت متدارك أي: متوال كتوالي صوت الجرس.

قيـــل: الحكمة في ذلك أن يتقرب سمعه ﷺ ولا يبقى فيه مكان لغير صوت الملك ولا في قلـــبه، وكان جبريل ينـــزل على النبي ﷺ على هذه الحالة أشد وأصعب من الحالات عليه ﷺ، فإن جميع حالات نزوله على النبي ﷺ كانت شديدة صعبة عليه[1].

= والجواب: منع الحصر في الحالتين المقدم ذكرهما وحملهما على الغالب، أو حمل ما يغايرهما على أنه وقع بعد السؤال، أو لم يتعرض لصفتي الملك المذكورتين لندورهما، فقد ثبت عن عائشة أنه لم يره كذلك إلا مرتين، أو لم يأته في تلك الحالة بوحي، أو أتاه به فكان على مثل صلصلة الجرس، فإنه بين بها صفة الوحي لا صفة حامله.

وأما فنون الوحي، فدوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس، لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين -كما في حديث عمر- يسمع عنده كدوي النحل، والصلصلة بالنسبة إلى النبي ﷺ فشبهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبهه هو ﷺ بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه.

وأما النفث في الروع، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين، فإذا أتاه الملك في مثل صلصلة الجرس نفث حينئذ في روعه.

وأما الإلهام فلم يقع السؤال عنه، لأن السؤال وقع عن صفة الوحي الذي يأتي بحامل، وكذا التكليم ليلة الإسراء.

وأما الرؤيا الصالحة فقال ابن بطال: لا ترد، لأن السؤال وقع عما ينفرد به عن الناس، لأن الرؤيا قد يشركه فيها غيره.

والرؤيا الصادقة وإن كانت جزءاً من النبوة فهي باعتبار صدقها لا غير، وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبياً وليس كذلك، ويحتمل أن يكون السؤال وقع عما في اليقظة، أو لكون حال المنام لا يخفى على السائل، فاقتصر على ما يخفى عليه، أو كان ظهور ذلك له ﷺ في المنام أيضاً على الوجهين المذكورين لا غير، قاله الكرماني. وفيه نظر.

وقد ذكر الحليمي أن الوحي كان يأتيه على ستة وأربعين نوعاً -فذكرها- وغالبها من صفات حامل الوحي، ومجموعها يدخل فيما ذكر، وحديث: «إن روح القدس نفث في روعي»، أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود. انظر فتح الباري (١/٦٦).

(١) صلصلة الجرس وتشبيه الوحي بها من المسائل التي أسهب ابن حجر فيها فقال في الفتح (١/٦٦): قوله: «مثل صلصلة الجرس» في رواية مسلم «في مثل صلصلة الجرس» والصلصلة بمهملتين مفتوحتين بينهما لام ساكنة: في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين، وقيل: هو صوت متدارك لا يدرك في أول وهلة، والجرس الجلجل =

«وهـــو أشده عليَّ» فإنه كان يغشاه عند نزوله عليه كرب[1]، وذلك لما يلقى عـــليه من القرآن قال تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[المزمل: ٥] فكان نزوله

= الذي يعلق في رؤوس الدوآب، واشتقاقه من الجرس بإسكان الراء وهو الحس.

وقال الكرماني: الجرس ناقوس صغير أو سطل في داخله قطعة نحاس يعلق منكوساً على البعير، فإذا تحرك تحركت النحاسة فأصابت السطل فحصلت الصلصلة.

وهو تطويل للتعريف بما لا طائل تحته. وقوله: قطعة نحاس، معترض لا يختص به، وكذا البعير، وكذا قوله منكوساً، لأن تعليقه على تلك الصورة هو وضعه المستقيم له.

فإن قيل: المحمود لا يشبه بالمذموم، إذ حقيقة التشبيه إلحاق ناقص بكامل، والمشبه الوحي وهو محمود، والمشبه به صوت الجرس وهو مذموم لصحة النهي عنه والتنفير من مرافقة ما هو معلق فيه، والإعلام بأنه لا تصحبهم الملائكة كما أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما، فكيف يشبه ما فعله الملك بأمر تنفر منه الملائكة؟

والجواب: أنه لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به في الصفات كلها، بل ولا في أخص وصف له، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، فالمقصود هنا بيان الجنس، فذكر ما ألف السامعون سماعه تقريباً لأفهامهم.

والحاصل أن الصوت له جهتان: جهة قوة وجهة طنين، فمن حيث القوة وقع التشبيه به، ومن حيث الطرب وقع التنفير عنه وعلل بكونه مزمار الشيطان، ويحتمل أن يكون النهي عنه وقع بعد السؤال المذكور وفيه نظر.

قيل: والصلصلة المذكورة صوت الملك بالوحي، قال الخطابي: يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد، وقيل: بل هو صوت حفيف أجنحة الملك.

والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره، ولما كان الجرس لا تحصل صلصلته إلا متداركة وقع التشبيه به دون غيره من الآلات.

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٦٧): يفهم منه أن الوحي كله شديد، ولكن هذه الصفة أشدها، وهو واضح، لأن الفهم من كلام مثل الصلصلة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود، والحكمة فيه أن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني، والأول أشد بلا شك.

وقال شيخنا شيخ الإسلام البلقيني: سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به كما في حديث ابن عباس: «كان يعالج من التنـــزيل شدة» قال، وقال بعضهم: وإنما كان شديداً عليه ليستجمع قلبه فيكون أوعى لما سمع.

وقيل: إنه إنما كان ينـــزل هكذا إذا نزلت آية وعيد أو تهديد، وهذا فيه نظر، والظاهر أنه لا يختص بالقرآن، وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات.

عـــلى هذه الحالة أشد الحالات عليه، ويدل عليه أنه كان عند نزول جبريل عليه في شدة البرد تصبب منه العرق، ويسيل منه كما قالت عائشة «**ولقد رأيته ينـــزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً**»(١).

وجـــاء أنـــه كان يعتريه حالة كحالة المحموم، وجاء في رواية عن عائشة «**كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يقطر رأسه ويتربد وجهه ويجد برداً في ثناياه، ويعرق حتى ينـــزل منه مثل الجمان**»(٢).

---

(١) قول عائشة رضي الله عنها هذا ورد في آخر متن هذا الحديث الذي نحن بصدد شرحه، ولم يقم أيضاً السفيري بشرحه وشرحه الحافظ ابن حجر فقال: قوله: «قالت عائشة» رضي الله عنها هو بالإسناد الذي قبله، وإن كان بغير حرف العطف كما يستعمل المصنف وغيره كثيراً، وحيث يريد التعليق يأتي بحرف العطف.

وقد أخرجه الدارقطني في حديث مالك من طريق عتيق بن يعقوب عن مالك مفصولاً عن الحديث الأول، وكذا فصلهما مسلم من طريق أبي أسامة عن هشام.

ونكتة هذا الاقتطاع هنا اختلاف التحمل، لأنها في الأول أخبرت عن مسألة الحارث، وفي الثاني أخبرت عما شاهدت تأييداً للخبر الأول.

قوله: «ليتفصد» بالفاء وتشديد المهملة، مأخوذ من الفصد وهو: قطع العرق لإسالة الدم، شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة في كثرة العرق.

وفي قولها: «في اليوم الشديد البرد» دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة، وهو كثرة العرق في شدة البرد، فإنه يشعر بوجود أمر طارئ زائد على الطباع البشرية. وقوله: «عرقاً» بالنصب على التمييز، زاد ابن أبي الزناد عن هشام بهذا الإسناد عند البيهقي في الدلائل: «وإن كان ليوحى إليه وهو على ناقته فيضرب حزامها من ثقل ما يوحى إليه».

تنبيه: حكى العسكري في التصحيف عن بعض شيوخه أنه قرأ «ليتقصد» بالقاف، ثم قال العسكري: إن ثبت فهو من قولهم: تقصد الشيء إذا تكسر وتقطع، ولا يخفى بعده (انتهى).

وقد وقع في هذا التصحيف أبو الفضل بن طاهر، فرده عليه المؤتمن الساجي بالفاء، قال: فأصر على القاف، وذكر الذهبي في ترجمة ابن طاهر عن ابن ناصر أنه رد على ابن طاهر لما قرأها بالقاف، قال: فكابرني قلت: ولعل ابن طاهر وجهها بما أشار إليه العسكري. والله أعلم.

وفي حديث الباب من الفوائد -غير ما تقدم- إن السؤال عن الكيفية لطلب الطمأنينة لا يقدح في اليقين، وجواز السؤال عن أحوال الأنبياء من الوحي وغيره، وأن المسؤول عنه إذا كان ذا أقسام يذكر المجيب في أول جوابه ما يقتضي التفصيل. والله أعلم.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣٧٩/٨) عن عبد الحميد بن عمران بن أبي أنس =

والحكمـــة في ذلك ليختبر صبره ويحسن تأديبه، لاحتمال ما يكلف به من أعباء النبوة.

وهذا الصوت هو كصوت الجرس يحتمل أن يكون صوت جبريل بالوحي أو أن يكون صوت أجنحته.

و «الجرس» بفتح الراء والسين والعامة «جرص» بالصاد.

فإن قيل: كيف شبه النبي ﷺ صوت جبريل بصوت الجرس مع أن صوت جبريل محمود وصوت الجرس مذموم منهي عنه، فقد روينا في صحيح مسلم «**إن الملائكة لا تصـــحب رفقـــة فيهـــا كلب أو جرس**»[1]، وفيه «**الجرس مزامير الشيطان**»[2]، والمحمود لا يشبه المذموم، ويلزم منه أن يفعل الملك من مثله مثل الملائكة؟

فالجواب: أن المقصود تشبيه صوت شديد بصورة شديدة على وجه خاص ولا يـــلزم في التشبيه تساوي المشبه والمشبه به في الصفات كلها، بل يكفي اشتراكها في صفة ما.

والحاصل: أن صوت الجرس له جهتان جهة قوة وجهة طرب، فمن حيث القوة وقـــع التشـــبيه، ومن حيث الطرب وقع النهي عنه والتنفير منه، وعلل بكونه مزمار الشيطان.

فإن قيل: لأي شيء كانت هذه الحالة أشد الحالات عليه وأصعبها؟

= عن أبيه، وفيه أن عائشة رضي الله عنها قالت هذا الكلام، ولكن الحديث من رواية عمران هذا.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٧٢/٣، رقم ٢١١٣) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس».

والحديث رواه أيضاً: الترمذي في سننه (٢٠٧/٤، رقم ١٧٠٣)، قال الترمذي: وفي الباب عن عمر وعائشة وأم حبيبة وأم سلمة وهذا حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٢٥١، رقم ٨٨١٠)، واحمد في مسنده (٢٦٢/٢، رقم ٧٥٥٦)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٤٦، رقم ٢٥٥٣)، وابن حبان في صحيحه (٥٥٤/١٠، رقم ٤٧٠٣)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣٠٢/١، رقم ٢٨٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤٢٤/٦، رقم ٣٢٥٩٢) والبغوي في الجعديات (٣٩١/١، رقم ٢٦٧٠)، والدارمي في سننه (٣٧٤/٢، رقم ٢٦٧٦)، والديلمي في الفردوس (٧٥/٥، رقم ٧٥٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٧٢/٣، رقم ٢١١٤) عن أبي هريرة.

وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٣٧٢/٢، رقم ٨٨٣٨)، وأبو يعلى في مسنده (٣٩٨/١١، رقم ٦٥١٩)، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٥٣/٥، رقم ١٠١٠٦).

فـــالجواب: أن الفهم من كلام جبريل وصوته مثل صلصله الجرس، أشكل من الفهم من كلامه وهو على صورة رجل يخاطبه ويعلمه كما يعلم الإنسان غيره، بيان ذلـــك أنه ﷺ كان ملكاً بشرياً فتارة يأتيه جبريل على صورة الملك، فينسلخ ﷺ عن وصـــف البشـــرية ويتصف بصفة الملك بأن يغلب عليه الروحانية، وإنما يقع له ذلك لأجل المناسبة، فإن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وتارة يأتيه الوحي على صـــفة رجل، ويتصف بصفة الرجل البشر ولا شك أن انسلاخه من طور البشر أشد عليه من بقائه عليه.

وفي صـــحيح مسلم «**كان إذا نزل عليه الوحي نكس رأسه، ونكس أصحابه رؤوسهم، فإذا أتلي عنه رفع رأسه**»(١).

وورد في حديـــث «**إنه كان يسمع عنده لما ينـــزل عليه جبريل دوي كدوي النحل**»(٢).

وروى أحمـــد والحـــاكم والترمذي من حديث عمر بن الخطاب أنه قال: كان رســـول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي سمع عنده دوي كدوي النحل، فمكثنا ساعة ثم ســـري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضنا وارض عنا**» ثم قال: «**لقد أنـــزل عـــلي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، أي: من عمل بهن ولم يخالف ما فيهن**» ثم قال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[المؤمنون: ١، ٢] قال الحاكم: صحيح الاسناد(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١٧/٤، رقم ٢٣٣٥) عن عبادة بن الصامت.

(٢) انظر الحديث الآتي بعده فهو هو.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣٢٦/٥، رقم ٣١٧٣) وعقبه ساق إسناداً آخر فقال: حدثنا محمد ابن أبان حدثنا عبد الرزاق عن يونس بن سليم عن يونس بن يزيد عن الزهري بهذا الإسناد نحوه بمعناه، قال أبو عيسى: هذا أصح من الحديث الأول، سمعت إسحاق بن منصور يقول: روى أحمد ابن حنبل وعلي بن المديني وإسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق عن يونس بن سليم عن يونس بن يزيد عن الزهري هذا الحديث، قال أبو عيسى: ومن سمع من عبد الرزاق قديماً فإنهم إنما يذكرون فيه عن يونس بن يزيد، وبعضهم لا يذكر فيه عن يونس بن يزيد، ومن ذكر فيه يونس بن يزيد فهو أصح، وكان عبد الرزاق ربما ذكر في هذا الحديث يونس بن يزيد وربما لم يذكره، وإذا لم يذكر فيه يونس فهو مرسل. =

وقوله «**فيفصم عني**» فيه ثلاث روايات الأولى: «فيفصم» بفتح الياء وكسر الصاد.

الثانية: «فيفصم» بضم الياء وفتح الصاد.

الثالثة: فيفصم بضم الياء وكسر الصاد، ومعنى الروايتين الأولتين، مأخوذة من الفصم وهو القطع قال تعالى ﴿**لاَ انفِصَامَ لَهَا**﴾[البقرة: ٢٥٦] أي: لا انقطاع لها، ويقال: الفصم الصدع أو الشق من غير إبانة، والمعنى: أن جبريل كان إذا نزل علي بالقرآن وله صوت كصوت الجرس فيفصم أي: فيفارقني على نية أن يعود إليَّ ولا يفارقني إلا وقد وعيت أي: حفظت وجمعت عنه جميع ما قاله لي.

وأما الرواية الثالثة: فهي من أفصم المطر إذا أقلع.

قوله: «**وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**» الألف واللام في الملك للعهد، والمراد به جبريل، أي: وأوقاتاً يتمثل لي جبريل في صورة رجل، وفي هذا دليل على أن الملائكة تتشكل بشكل البشر لها قوة على التشكل بأي شكل أراد، فقد قال أكثر العلماء: إنها أجسام لطيفة هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة[1].

وفي «**جبريل**» تسع لغات قرئ ببعضها، أفصحها «جبريل» ومعناه بالعربية: عبد

= ورواه أحمد في مسنده (١/٣٤، رقم ٢٢٣)، والحاكم في المستدرك (١/٧١٧، رقم ١٩٦١) وصححه.

وأخرجه أيضاً: عبد الرزاق في المصنف (٣/٣٨٣، رقم ٦٠٣٨)، وعبد بن حميد (١/٣٤، رقم ١٥)، و البزار في مسنده (١/٤٢٧، رقم ٣٠١).

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/٦٨): قال المتكلمون: الملائكة أجسام علوية لطيفة تتشكل أي شكل أرادوا، وزعم بعض الفلاسفة أنها جواهر روحانية، و «رجلا» منصوب بالمصدرية، أي: يتمثل مثل رجل، أو بالتمييز، أو بالحال والتقدير هيئة رجل.

قال إمام الحرمين: تمثل جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه، ثم يعيده إليه بعد.

وجزم ابن عبد السلام بالإزالة دون الفناء، وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها موجباً لموته، بل يجوز أن يبقى الجسد حياً، لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلاً، بل بعادة أجراها الله تعالى في بعض خلقه، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح في الجنة.

وقال شيخنا شيخ الإسلام: ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه، بل يجوز أن يكون الآتي هو جبريل بشكله الأصلي، إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل، وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته، ومثال ذلك القطن إذا جمع بعد أن كان منتفشاً فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة وذاته لم تتغير. وهذا على سبيل التقريب.

الله، فإن «الجبر» هو و«إيل» هو الله، ومعنى ميكائيل: عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وقيل: عبد العزيز.

وههنا سؤالان مشهوران:

الأول: لما كان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة رجل، فهيئته التي خلق الله عليها، ماذا يفعل بها؟

أجيب عن هذا السؤال بأجوبة:

الأول: يحتمل أن الله تعال أفنى الزائد من خلقه حتى صار في صورة رجل ثم خلقه بعد تبليغ الوحي للنبي ﷺ، ويحتمل أنه لا يفنيه ويعدمه بل يزيله عنه ويدخره له حتى يبلغ الوحي، ثم يعيده إليه بعد التبليغ قاله إمام الحرمين.

الجواب الثاني: يجوز أن يكون إتيان جبريل بشكله الأصلي إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل، وإن بلغ الوحي عاد إلى هيئته ومثال ذلك: القطن إذا جمع بعد أن كان منفشاً فإن بالنفش يحصل له صورة كبيرة وذاته لم يتغير قاله البلقيني الكبير.

الجواب الثالث: قال شيخ الإسلام ابن حجر: والحق إن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً، ولكن معناه أنه ظهر بصورة الرجل تأنيساً لمن يخاطبه والظاهر أن القدر الزائد يزول ولا يفنى، بل يخفى على الرائي فقط والله اعلم.

السؤال الثاني: أبداه الشيخ عز الدين بن عبد السلام قال: ما إن كان لقي جبريل النبي ﷺ في صورة رجل فأين تكون روحه، فإن كان في الجسد العظيم الذي خلقه الله عليه فالذي أتى لا روح جبريل ولا جسده، وإن كانت في هذه التي في صورة رجل فهل يموت الجسد العظيم الذي خلقه الله عليه أم يبقى خالياً من الروح المنتقلة عنه إلى الجسد الذي يشبه صورة رجل، ويبقى جسده العظيم حياً لا ينقص من معارفه شيء.

قال: وموت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلاً بل بعادة أجراها الله في بني آدم فلا يلزم في غيرهم، وإذا قلنا: بأن الذي أتى هو جبريل ظهر في صورة رجل تأنيساً للمخاطب، والله أخفى الزائد من خلقه على الرائي فقط سقط السؤال الثاني والله اعلم.

وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانت تسأل رسول الله ﷺ عن كثير من المعاني، وكان ﷺ يجمعهم ويعلمهم وكانت طائفة تسأل أخرى تحفظ وتؤدي وتبلغ حتى كمل الله دينه والحمد لله.

فائدة: ظاهر هذا الحديث يقضي أن الوحي ينقسم إلى قسمين أن يأتيه جبريل في مثل صلصلة الجرس، الثاني: أن يأتيه في صورة رجل.

وقال القاضي عياض: إنه يقسم إلى ثلاثة أقسام، وقال السهيلي: أنه ينقسم إلى سبعة أقسام:

الأول: وحي المنام.

الثاني: أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس.

الثالث: وحي تلق بالقلب وهو أن ينفث في روعه الكلام، ويدل عليه ما ورد «**إن روح القدس نفث في روعي**»[(١)] أي: في نفسي، قيل: كان هذا حال داود عليه الصلاة والسلام.

الرابع: أن يتمثل له الملك رجلاً، وقد كان كثيراً ما يأتيه في صورة دحيه الكلبي الصحابي[(٢)].

---

(١) رواه عبد الرزاق في الجامع عن معمر بن راشد (١٢٥/١١، رقم ٢٠١٠٠) عن معمر عن عمران صاحب له قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ما تركت شيئاً يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا قد بينته لكم، وإن روح القدس نفث في روعي وأخبرني أنها لا تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها... الحديث».

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٦٦/٨، رقم ٧٦٩٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٧/١٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢/٤): رواه الطبراني في الكبير وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف.

ورواه القضاعي في مسند الشهاب (١٨٥/٢، رقم ١١٥١) عن عبد الله بن مسعود.

ورواه الدارقطني في العلل عنه (٢٧٣/٥) وقال: فقال يرويه إسماعيل بن أبي خالد، واختلف عنه فقال هبيرة التمار: أبو عمر المقري عن هشيم عن إسماعيل عن زبيد عن مرة عن عبد الله، وغيره يرويه عن إسماعيل عن زبيد مرسلاً عن بن مسعود وهذا أصح، وقيل: عن عمر بن علي المقدمي عن إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرج حديث إتيان جبريل فى صورة دحية الكلبى النسائى (١٠١/٨، رقم ٤٩٩١)، والبزار (٤١٩/٩، رقم ٤٠٢٥) كلاهما من حديث أبى هريرة.

وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٦٠/١، رقم ٧٥٨)، وفى المعجم الأوسط (٧/١، رقم ٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (١٧٥/٥، رقم ٦٢٥٧) من حديث عائشة.

وأخرجه أبو الشيخ فى العظمة (٧٨٠/٢، رقم ١٨) من حديث شريح بن عبيد. =

لطيفـــة: قال في كتاب زهرة العلوم: ومن اللطائف ما روي أن جبريل كان عند الـــنبي ﷺ في صورة دحيه الكلبي، فتعلق به الحسن والحسين رضي الله عنهم فقال: يا محمـــد هـــل عرفاني فقال النبي ﷺ لا وإنما يفعلان ذلك لأن الرجل الذي تأتيني فيه صـــورته، يحمـــل إليهما الفواكه فجاء جبريل برمانة فأكلاها ولو سقطت حبة منها لشفت أهل الأرض، ولكن الله جعلها رزقاً لهما.

الخامس: أن يترائى جبريل في صورته التي خلقها الله تعالى له ستمائه جناح ينتشر منهما اللؤلؤ والياقوت.

فـــائدة: قال شيخنا العلامة جلال الدين السيوطي في الخصائص كان ﷺ يسمع خفيق أجنحة جبريل وهو بعيد في سدرة المنتهى، ويشم رائحته إذا توجه إليه بالوحي.

السادس: أن يكلمه من وراء حجاب، إما في اليقظة كسماع نبينا ﷺ الكلام من الله بلا واسطة ليلة الإسراء، وكسماع موسى بن عمران كما دل عليه نص القرآن أو في الـــنوم كمـــا جاء في الحديث «**أتاني ربي في أحسن صورة فقال: فيما يختصم الملأ الأعلى**... الحديث»[1].

السابع: وحي إسرافيل كما جاء عن الشعبي أن النبي ﷺ وكل به إسرافيل فكان يتراءى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء، ثم وكل به جبريل[2].

= وأخرجه ابن سعد فى الطبقات لكبرى (٤/٢٥٠) من حديث ابن عمر.

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٣٦٧، رقم ٣٢٣٤) عن ابن عباس، وقال: حسن غريب. وأحمد في مسنده (١/٣٦٨، رقم ٣٤٨٤).

قـــلت: وقد وردت هذه الكيفية من كيفيات الوحي في عدة أحاديث مختلفة الموضوعات ونكتفي بالعزو للترمذي وأحمد في وقوع هذه الكيفية.

(٢) رواه الطـــبري في التاريخ (١/٥٧٣)، وكذا ابن عبد البر في الاستيعاب (١/٣٥) كلاهما عن الشعبي.

وأورده ابـــن حجـــر في فتح الباري (١/٢٧) وعزاه إلى التاريخ للإمام أحمد بن حنبل وأسهب في مناقشـــة هـــذه المسألة فقال: وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثـــلاث سنين، وبه جزم بن إسحاق، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابـــتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان، وليس المراد بفترة الوحي المقدره بثلاث سنين وهي ما بين نزول «أقرأ» و «يـــا أيها المدثر» عدم مجيء جبريل إليه بل تأخر نزول القرآن فقط، ثم راجعت المنقول عن الشعبي مـــن تاريخ الإمام أحمد ولفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي: «أنزلت عليه النبوة وهو=

وهذه المسألة مختلف فيها وهي أنه وكل بنبيا إسرافيل قبل جبريل أم لا؟ ذهب بعضهم إلى أنه وكل به إسرافيل أولاً ثلاث سنين ثم وكل به جبريل، واستدل عليه بأثر الشعبي فهو مرسل أو معضل.

وقال شيخنا السيوطي في كتاب الإعلام: إن جبريل هو السفير بين الله وبين أنبيائه، لا يعرف ذلك لغيره من الملائكة، واستدل على ذلك بدلائل منها ما أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة عن عائشة قالت: قال ورقة لخديجة جبريل أمين الله بينه وبين رسله[1].

ومنها: ما في كتاب العظمة لأبي الشيخ بن حيان عن ابن سابط قال في أم الكتاب: كل شيء هو كائن إلى يوم القيامة، وكل به ثلاث من الملائكة، فوكل جبريل بالكتب والوحي إلى الأنبياء، ووكل أيضاً بالهلكات، إذا أراد الله أن يهلك قوماً، ووكله بالنصر عند القتال، ووكل ميكائيل بالمطر، وملك الموت بقبض الأنفس، فإذا كان يوم القيامة عارضوا بين حفظهم، وما كتب الله في أم الكتاب فيجدونه

= ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة».

وأخرجه ابن أبي خيثمة من وجه آخر مختصراً عن داود بلفظ: «بعث لأربعين ووكل به إسرافيل ثلاث سنين، ثم وكل به جبريل».

فعلى هذا فيحسن بهذا المرسل إن ثبت الجمع بين القولين في قدر إقامته بمكة بعد البعثة، فقد قيل: ثلاث عشرة، وقيل: عشر، وأنكر الواقدي هذه الرواية المرسلة وقال: لم يقرن به من الملائكة إلا جبريل (انتهى).

ولا يخفى ما فيه فإن المثبت مقدم على النافي إلا إن صحب النافي دليل نفيه فيقدم والله أعلم.

وأخذ السهيلي هذه الرواية فجمع بها المختلف في مكثه ﷺ بمكة فإنه قال: جاء في بعض الروايات المسندة أن مدة الفتره سنتان ونصف، وفي رواية أخرى: أن مدة الرؤيا ستة أشهر، فمن قال مكث عشر سنين حذف مدة الرؤيا والفترة، ومن قال ثلاث عشرة أضافهما، وهذا الذي اعتمده السهيلي من الاحتجاج بمرسل الشعبي لا يثبت، وقد عارضه ما جاء عن ابن عباس أن مدة الفترة المذكورة كانت أياماً.

انظر: أيضاً هذه المسألة عند ابن عبد البر في التمهيد (١٤/٣).

(١) انظر دلائل النبوة (ص: ٥٧).

سواء[١].

ومـــنها ما أخرجه أبو الشيخ أيضاً عن عبد العزيز بن عمير قال: اسم جبريل في الملائكة خادم ربه[٢].

ومـــنها: ما أخرجه ابن أبي زمين في كتاب السنة عن كعب قال: إذا أراد الله أن يوحـــي أمـــراً جاء اللوح المحفوظ يصفق جبهة إسرافيل فيرفع رأسه فينظر فإذا الأمر مكتوب، فينادي جبريل فيلبيه، فيقول: أمرت بكذا أمرت بكذا، فيهبط جبريل على النبي ﷺ فيوحي إليه[٣].

ومنها: ما أخرجه أبو الشيخ أيضاً عن أبي سنان قال: اللوح المحفوظ معلق بالعرش فإذا أراد الله أن يقضي بشيء كتب في اللوح المحفوظ فيجيء اللوح حتى يقرع جبهة إســـرافيل فيـــنظر فيه فإن كان إلى أهل السماء دفعه إلى ميكائيل، وإن كان إلى أهل الأرض دفعـــه إلى جبريل، فأول ما يحاسب يوم القيامة اللوح يدعى به ترعد فرائصه فيقـــال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقول: من يشهد لك فيقول: إسرافيل، فيدعى إسرافيل فترعد فرائصه، فيقال: هل بلغك اللوح؟ فإذا قال: نعم، قال اللوح: الحمد لله الذي نجاني من سوء الحساب[٤].

ومنها ما أخرجه ابن المبارك في الزهد عن حيان بن أبي جبلة بسنده قال: أول من يدعى يوم القيامة إسرافيل فيقول الله له: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم ربي قد بلغت جـــبريل، فيدعى جبريل فيقال: هل بلغك إسرافيل عهدي، فيقول: نعم فتجلى عن إسرافيل، فيقول لجبريل: ما صنعت في عهدي؟ فيقول: يارب بلغت الرسل، فتدعى الرســـل فيقـــال لهم: هل بلغكم جبريل عهده؟ فيقولون: نعم فينجلي عن جبريل... الحديث[٥].

---

(١) طرفه الأول رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٥٩/٧، رقم ٣٤٩٦٨) عن ابن سابط، وأما باقيه من قوله: «وكل به ثلاث من الملائكة... إلى آخره» فلم نقف عليه، ولم نقف عليه بتمامه في كتاب العظمة لأبي الشيخ.

(٢) رواه أبو الشيخ في العظمة (٧٧٦/٢) عن عبد العزيز بن عمير.

(٣) لم نقف عليه، ولكن معناه في الأثر الذي يليه.

(٤) رواه أبو الشيخ في العظمة (٧٠٤/٢) عن أبي سنان.

(٥) رواه ابن المبارك في الزهد (ص: ٥٥٧، رقم ١٥٩٨) عن حيان بن أبي جبلة.
ورواه أيضاً: الطبري (١٠/٢) في تفسيره عنه.

فعرف بمجموع هذه الآثار اختصاص جبريل من بين الملائكة بالوحي إلى الأنبياء وعرف بها أيضاً أن جبريل إنما يتلقي الوحي عن الله تعالى بواسطة إسرافيل، وإن إسرافيل إنما يتلقي عن الله بواسطة اللوح المحفوظ، فالعباد يتلقون الأحكام الشرعية وغيرها عن الرسل، والرسل عن جبريل، وجبريل عن إسرافيل، وإسرافيل عن اللوح، واللوح عن الحق سبحانه وتعالى.

فائدة: نقل الواحدي في تفسيره: «أن اللوح المحفوظ من درة بيضاء، ودفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابته نور الله فيه كل يوم ثلاثمائه نظرة»[(١)].

وزاد غيره: «يخلق فيها ويرزق ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾[الرحمن: ٢٩]».

وذكر غيره: «أن طوله ما بين السماء والأرض سبع مرات، معلق بالعرش مكتوب فيه إلى يوم القيامة»[(٢)].

فائدة أخرى: قال بعض العلماء: نزل جبريل عليه السلام على آدم اثنتي عشرة مرة ونزل على إدريس أربع مرات، ونزل على نوح خمسين مرة، ونزل على إبراهيم أربعين مرة منها مرتان في صغره، ونزل على موسى أربعمائه مرة، ونزل على عيسى عشر مرات ثلاثاً في صغره وسبعاً في كبره ونزل على نبينا محمد ﷺ أربعة وعشرين مرة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فائدة أخرى: أشرف الملائكة وأكرمهم أربعة جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ويدل ذلك ما أخرجه أبو الشيخ عن عكرمة بن خالد أن رجلاً قال: يا رسول الله أي: الملائكة أكرم على الله؟ فقال: «جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، فأما جبريل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين، وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط وكل ورقة تنبت، وأما ملك الموت فهو موكل بقبض روح كل عبد في بر وبحر هو عزرائيل[(٣)].

أما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم وجبريل أشرف الملائكة لوجوه:

الأول: أنه صاحب الوحي إلى الأنبياء كما وصفه الله بذلك بقوله ﴿**نَزَلَ بِهِ**

---

(١) رواه البغوي في تفسيره (٤/٤٧٢) عن ابن عباس.

(٢) رواه البغوي في تفسيره أيضاً (٤/٤٧٢) عن ابن عباس.

(٣) رواه أبو الشيخ في العظمة (٣/٨١١) عن عكرمة بن خالد.

الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء: ١٩٤].

الثاني: أنه سبحانه وتعالى ذكره قبل سائر الملائكة في القرآن في قوله تعالى **﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُواً لِّجِبْرِيلَ﴾**[البقرة: ٩٧].

والثالث: أن الله تعالى جعله ثاني نفسه قال تعالى **﴿فإن اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[التحريم: ٤].

الرابع: سماه روح القدس كما قال تعالى في حق عيسى **﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾**[المائدة: ١١٠].

الخامس: أنه تعالى مدحه بصفات ستة فقال له: **﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾**[التكوير: ١٩، ٢٠، ٢١] الوصف الأول: «رسول» فهو رسول الله إلى جميع الأنبياء، فجميع الأنبياء والرسل أمته.

الوصف الثاني: «كريم» وكرمه على ربه أن جعله واسطة بينه وبين أشرف عباده وهم الأنبياء.

الوصف الثالث: «ذي قوة عند ذي العرش» وبلغ من قوته أنه قلع مدائن قوم لوط بما اتصل بها من الجبال دفعة واحدة إلى السماء وقلبها، ويشاركه غيره من الملائكة في القوة كإسرافيل، وإن بلغ من القوة أنه بنفخة واحدة منه في الصور يصعق من في السماوات والأرض، وبالنفخة الثانية يعودون أحياء، فاعرف عظيم هذه القدرة وحملة العرش العظيم، الذي السموات والأرض وما فيها بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، ومع هذه يحمله ثمانية كما نطق بذلك القرآن فأي قوة أعظم من هذه القوة.

الوصف الرابع: «مكين» ومكانته عند الله أنه جعله ثاني نفسه في قوله **﴿فإن اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ﴾**.

الوصف الخامس: «مطاع» ووصف ذلك لأنه إمام الملائكة ومقتداهم.

الوصف السادس: «أمين» ووصف بذلك هنا، وفي آية أخرى وهي **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾**[الشعراء: ١٩٤] لأنه أمين الله بينه وبين رسله كما تقدم.

فائدة أخرى: في الحديث دلالة على إثبات الملائكة والرد على من أنكرهم من الملاحدة والفلاسفة، وقد نقل إلينا بالتواتر عن الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- بإجماعهم أثبتوا الملائكة قال ﷺ: «**أطت السماء أي: صوتت وحق لها أن**

تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفية ملك ساجد أو راكع»[١].

واختلف العلماء في أكثر الأجناس المخلوقة عدداً فقيل: الملائكة ويدل عليه ما روي: أن بني آدم عشر الجن، والجن وبنو آدم عشر حيوانات البر، وهؤلاء كلهم عشر الطيور، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة سماء الدنيا، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية، وعلى هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة، ثم الكل في ملائكة الكرسي نذر قليل، ثم هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد من سرادقات العرش، التي عددها ستمائة ألف، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السموات والأرض وما فيها وما بينهما فإنها كلها تكون شيئاً يسيراً وقدراً صغيراً، وما من مقدار موضع إلا وفيه ملك ساجد وراكع أو قائم، لهم زجل بالتسبيح والتقديس، ثم هؤلاء كلهم في مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة لا يعلم عددهم الله تعالى ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾[المدثر: ٣١] وكلهم سامعون لا يفترون، مشتغلون بعبادته وبذكره يتسابقون في عبادته، ولا يستكبرون عنها آناء الليل ولا يسأمون، لا يعلم أجناسهم، ولا مدة أعمارهم ولا كيفية عباداتهم.

وقيل: الملائكة أكثر خلق الله لما روي في المستدرك للحاكم من حديث عبد الله بن عمر «**إن الله عز وجل جزأ الخلق عشرة أجزاء فجعل تسعة أجزاء الملائكة وجزءاً سائر الخلق**... الحديث»[٢] كلهم يصلون على سيدنا محمد ﷺ بنص القرآن

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥٥٦/٤، رقم ٢٣١٢) وقال: وفي الباب عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأنس. ثم قال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في سننه (١٤٠٢/٢، رقم ٤١٩٠)، وأحمد في مسنده (١٧٣/٥، رقم ٢١٥٥٥)، والحاكم في المستدرك (٥٥٤/٢، رقم ٣٨٨٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٦/٢)، وأبو الشيخ في كتاب العظمة (٩٨٢/٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٧٧/١، رقم ٢٣٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٢/٧، رقم ١٣١١٥) جميعاً عن أبي ذر.

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠١/٣، رقم ٣١٢٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤٢٢/١، رقم ٥٩٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢١٧/٢)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٥٨/١، رقم ٢٥٠) عن حكيم بن حزام.

وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٦٩/٦) عن أنس بن مالك.

وأخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٦١/١، رقم ٢٥٥) عن العلاء بن سعد.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣٦/٤، رقم ٨٥٠٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. =

وهذا مما خصه الله بدون سائر الأنبياء والمرسلين.

وكل الله تعالى بقبره كل يوم وليلة ملائكة ينـــزلون إليه ويصلون عليه فقد نقل عن كعب الأحبار أنه قال: «ما من فجر إلا نزل سبعون الفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقـــبر يضـــربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا، وهبط سبعون ألف حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ، سبعون ألفاً بالليل وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً يزفونه» وفي لفظ «يوقرونه» رواه البيهقي في الشعب وغيره[1].

وقـــد وكـــل بكل آدمي عشرة ملائكة بالليل وعشرة بالنهار، واحد عن يمينه وواحـــد عن شماله، واثنان من بين يديه، ومن خلفه، واثنان على شفتيه، واثنان على جبيـــنه، وآخر قابض على ناصيته فإن تواضع رفعه وان تكبر وضعه، والعاشر يحرسه من الحيتان تدخل يعني إذا نام.

وقيل: إن كل إنسان معه ثلثمائة وستون ملكاً.

فائدة أخرى: سئل الحافظ العلامة ولي الدين العراقي بمكة المشرفة فقيل له: هل الملائكة خلقوا دفعة واحدة ويكون موتهم كذلك أم خلقوا شيئًا فشيئًا ويكون موتهم شيئًا فشيئًا؟

فأجاب: بأنه لم يثبت في ذلك شيء ولا يجوز الهجوم عليه بمجرد الاحتمال، ولا مجال للظن فيه.

فائدة أخرى: هل يقع نكاح بين الجن وبين الإنس والملائكة؟

قال الدميرى: أفاد بعض العلماء أن التناكح قد يقع بين الإنس والجن بدليل قوله تعـــالى ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾[الاسراء: ٦٤] قال: فإن نساء الجن إذا عشـــقت رجال الإنس تتعرض لصرعهم لأجل الجماع، وكذلك رجال الجن لنساء الإنـــس، قال: وأما الإنس والملائكة فلا يقع بينهم نكاح لعدم الشهوة فيهم وذهب بعضهم إلى أنه يقع بدليل أن ذا القرنين كانت أمه آدمية وأبوه من الملائكة.

قـــال أبـــو الفرج بن الجوزي: خلق الله الخلق على أربعة أصناف، صنف منهم

= وأخرجه أيضاً: الطبري في التفسير (١٣/١٧).

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٢/٣، رقم ٤١٧٠) عن كعب الأحبار.

وأخرجه أيضاً: الدارمي في سننه (٥٧/١، رقم ٩٤)، وأبو الشيخ في العظمة (١٠١٩/٣)، وابن المبارك في الزهد (٥٥٨/١، رقم ١٦٠٠).

ركب فيه الشهوة دون العقل وهي البهائم والأنعام، وصنف ركب فيهم العقل والشهوة وهم بنو آدم وذريته، وصنف ركب فيهم العقل دون الشهوة وهم الملائكة، وصنف لا عقل فيهم ولا شهوة وهم الجمادات.

خاتمة: قد اشتهر على ألسنة الناس أن جبريل لا ينزل إلى الأرض بعد موت النبي ﷺ قال العلامة شيخنا الشيخ جلال الدين السيوطي -رحمه الله تعالى-: وهذا شيء لا أصل له، ومن الدليل على بطلانه ما أخرجه الطبراني الكبير عن ميمونة بنت سعد قالت: يا رسول الله هل يرقد الجنب؟ قال لها: «**أحب أن يرقد حتى يتوضأ، فإني أخاف أن يتوفى فلا يحضره جبريل**»[1] فهذا الحديث يدل على أن جبريل ينزل إلى الأرض، ويحضر موت كل مؤمن حضره الموت وهو على الطهارة.

ثم قال وقفت على حديث نزول جبريل إلى الأرض وهو ما أخرجه نعيم بن حماد في كتاب الفتن والطبراني من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ في وصف الدجال قال: «فيمر بمكة فإذا هو بخلق عظيم فيقولوا: من أنت؟ فيقول: أنا ميكائيل بعثني الله لأمنعه من حرمه، ويمر بالمدينة فإذا هو بخلق عظيم فيقول: من أنت فيقول: أنا جبريل بعثني الله لأمنعه من حرم رسول الله ﷺ»[2].

قال: ثم رأيت في قوله تعالى ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا**...﴾[القدر: ٤] الآية عن الضحاك أن الروح هنا جبريل، وأنه ينزل هو الملائكة في ليلة القدر، ويسلمون على المسلمين، وذلك في كل سنة.

فعلم من هذه الأخبار أن جبريل نزل إلى الأرض بعد موت نبينا، وما اشتهر بين

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٦/٢٥، رقم ٦٥) عن ميمونة بنت سعد ولفظه: قلت: ثم يا رسول الله هل يأكل أحدنا وهو جنب؟ قال: «لا يأكل حتى يتوضأ» قالت: قلت: يا رسول الله هل يرقد الجنب؟ قال: «ما أحب أن يرقد وهو جنب حتى يتوضأ، ويحسن الدفع، وإني أخشى أن يتوفى فلا يحضره جبريل عليه السلام».

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٥/١): رواه الطبراني في الكبير، وفيه: عثمان بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن يزيد، وعثمان بن عبد الرحمن هو الحراني الطرائقي، وثقه يحيى بن معين، وقال أبو حاتم: صدوق، وقال أبو عروبة الحراني وابن عدي: لا بأس به يروي عن مجهولين، وقال البخاري وأبو أحمد الحاكم: يروي عن قوم ضعاف، وقال أبو حاتم: يشبه بقية في روايته عن الضعفاء.

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في كتاب الفتن (٥٤٣/٢، رقم ١٥٢٧) في حديث طويل راجعه بتمامه فيه عن عبد الله بن مسعود، وظاهر صنيع المصنف أنه أتى بموطن الشاهد فقط.

الناس من أنه حرم على نفسه نزول الأرض بعد موت نبينا ﷺ فهو باطل، وعلم من هذه الأخبار أيضاً أنه يحضر عند موت كل مؤمن دنا أجله إذا كان على طهارة، وينزل عند خروج الدجال ويمنعه من الدخول إلى المدينة الشريفة، وينزل كل سنة ليلة القدر والله أعلم بالصواب.

***

المجلس الثامن

في ترجمة الليث وخديجة الكبرى والزهري

والكلام على بعض حديث: أول ما بُدئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤية الصالحة في النوم

قَالَ البُخَارِي:

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ . قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ . قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ . قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** ﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي . فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ: وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي . فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ -وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ- فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ﷺ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ . قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ .

قوله: «**حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير**» هذا هو أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن

بكير القرشي المخزومي المصري، ولد سنة أربع وخمسين ومائة، وكانت وفاته سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وبكير مصغر البكر[1].

قال «**حدثنا الليث**» هذا هو أبو الحارث الليث بن سعد عبد الرحمن الفهمي المصري، عالم أهل مصر من تابعي التابعين، ولد بقرقشنده على نحو أربع فراسخ من مصر سنة ثلاث أو أربع وتسعين، واتفق العلماء على إمامته وبراعته وجلالته وحفظه وإتقانه وفضله وورعه وعبادته، وغير ذلك من المحاسن والمكارم، ووصفه الشافعي بكثره الفقه إلا أنه ضيعه أصحابه، ولم يعتنوا بكتبه ونقلها والتعليق عنه، ففات الناس معظم علمه، قال يحيى بن بكير: كان الليث أفقه من مالك، ولكن كان الخطوة لمالك ورأيت من رأيت فما رأيت مثل الليث، كان عربي اللسان، حسن القراءة، ويحفظ الحديث والقرآن والشعر، حسن المذاكرة، وما زال يعدد خصالاً حميدة جميلة حتى عقد عشرة.

وقال الإمام أحمد عنه: كان كثير العلم صحيح الحديث ما في هؤلاء المصريين أثبت منه ولا أصح حديثاً منه.

وقال ابن سعد: استقل بالفتوى في زمانه.

وكان ثرياً نبيلاً سخياً، ومناقبة جمة قال الشافعي: وما ندمت على أحد ما ندمت على الليث، وكان دخله في كل سنة ثمانين ألف دينار، وما وجبت عليه زكاة قط لعدم إمساكها حتى يحول عليها الحول، ولما قدم المدينة أهدى له مالك من ظرفها فبعث إليه ألف دينار.

وقال بعضهم: إن جماعة من أصحاب الليث وقفوا على باب الإمام مالك ﷺ فامتنع من الخروج إليهم فقال بعضهم: هذا ليس ببشر صاحبنا فسمعه الإمام فخرج إليهم وقال: من صاحبكم؟ قال: الليث بن سعد، قال: أتشبهونني برجل كتبنا إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب أولادنا فأرسل إلينا شيئاً صبغنا به ثياب أولادنا وثياب جيراننا وثيابنا، والفاضل بعناه بألف دينار.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/٧٠): نسبه إلى جده لشهرته بذلك، وهو من كبار حفاظ المصريين، وأثبت الناس في الليث بن سعد الفهمي فقيه المصريين، «وعقيل» بالضم على التصغير، وهو من أثبت الرواة عن ابن شهاب، وهو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الفقيه، نسب إلى جد جده لشهرته، الزهري نسب إلى جده الأعلى زهرة بن كلاب، وهو من رهط آمنة أم النبي ﷺ على إتقانه وإمامته.

ومن الغرائب الدالة على سعة كرمة ﷺ ما نقل عن منصور بن عمار وكان واعظاً عظيماً بالحجاز مشهوراً قال: دخلت إلى مصر في أيام الليث، ووعظت في الجامع، وكان إذا تكلم أحد في مصر واعظاً نفاه فلما وعظت سمع بي، فأرسل في طلبي، وقال لي الرسول: أجب الليث، فآتيته خائفاً منه، فقال: أنت الواعظ؟ قلت: نعم، قال: أعد علينا كلامك، فتكلمت فبكى ثم قال: ما اسمك؟ قلت: منصور، فأعطاني ألف دينار، وقال: صن هذا الكلام أن تقف به على أبواب السلاطين، ولك في كل سنة مثلها فتكلمت في الجامع في الجمعة الثانية أرسل في طلبي، وقال: أعد علينا ما قلت، فتكلمت فبكى بكاء كثيراً ثم قال: انظر ما تحت الوسادة فرأيت خمسمائة دينار، فلما كان في الجمعة الثالثة آتيته مودعاً قاصداً بيت الله الحرام، فقال: انظر ما تحت الوسادة فرأيت ثلثمائة دينار، ثم قال: يا جارية هاتي ثياب إحرام منصور فأتت بأربعين ثوباً فقلت: يرحمك الله أنا يكفيني ثوبان فقال: أنت رجل كريم فيصحبك قوم فأعطهم، ثم قال: خذ الجارية أيضاً ومعها ألف دينار ولا تخبر ولدي فيراه قليلاً ﷺ.

وكانت وفاته في شعبان سنة خمسين وسبعين ومائة، وقبره بمصر يزار وعليه من الجلالة والبهاء ما هو لائق به، وليس في الكتب الستة من اسمه الليث بن سعد سواه.

«**عن عقيل**» بضم العين المهملة وفتح القاف، هذا هو عقيل الحافظ بن خالد بن عقيل بفتح العين الأيلي بفتح الهمزة والياء المثناة التحتانية القرشي الأموي مولى عثمان ابن عفان الحافظ.

«**عن ابن شهاب**» هذا هو الإمام أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب ابن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي الزهري، المدني، سكن الشام، وهو تابعي صغير كذا في شرح ابن الملقن، وفي الكرماني هو تابعي كبير، سمع عشرة من الصحابة بل أكثر سمع أنساً وخلقاً من الصحابة، وسعيد بن المسيب وخلقاً من كبار التابعين ورأى ابن عمرو، وروى عنه، وصح عنه أنه قال: «ما استودعت حفظي شيئاً فخانني»، وصح عنه أيضاً أنه حفظ القرآن في ثمانين ليلة» كما قاله البخاري في التاريخ.

قال الليث ما رأيت عالماً أجمع من الزهري ولا أكثر علماً منه.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أتقن للحديث من الزهري، وما رأيت أحداً الدينار والدرهم أهون عنده، إن كانت الدراهم والدنانير عنده بمنزلة البعر.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: لولا الزهري لذهبت السنن من المدينة، والعلماء

متفقون على إمامته وجلالته وحفظه وإتقانه وضبطه وعرفانه، وقد وصفوه بأنه جمع علم جميع التابعين.

وكانت وفاته بالشام سابع عشر رمضان سنة أربع وعشرين ومائة، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وأوصى بأن يدفن على الطريق بقرية يقال لها: «شغب وبدا» لينال من المارين بقربة، ولله القائل:

بقارعة الطريق جعلت قبري ... لأحظى بالترحم من صديقي
فيا مولى أنت أولى ... برحمة من يموت على الطريق

«**عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين**» رضي الله عنهما، وعن أبويها وجديها «**أنها قالت أول ما بدئ رسول الله ﷺ من الوحي**[1] **الرؤيا الصالحة**[2] **في النوم**[3]**، فكان لا يرى إلا وجاءت في مثل فلق الصبح**[4]».

قال الإمام النووي: هذا الحديث من مراسيل الصحابة فإن عائشة لم تدرك زمان وقوع هذه القصة فروتها إما سماعاً من النبي ﷺ أو من صحابي آخر.

قال الطيبي: والظاهر أنها سمعت من النبي ﷺ لقولها قال: «فأخذني فغطني»، ومرسل الصحابة حجة عند جميع العلماء، إلا ما انفرد به أبو إسحاق الإسفراييني.

قول عائشة «**أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم**» تصريح منها بأن رؤيا النبي ﷺ من جملة أقسام الوحي، وهذا متفق عليه، وإنما بُدئ ﷺ بالوحي في المنام قبل جميع أقسام الوحي السبعة ليكون تمهيداً وتوطئة بمجيء الملك إليه في اليقظة بالوحي لئلا يأتيه بصريح النبوة بغتة، فهذا لا يتحمله القوى البشرية.

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٠): يحتمل أن تكون «من» تبعيضية، أي: من أقسام الوحي، ويحتمل أن تكون بيانية، ورجحه القزاز.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٠): قوله: «الرؤيا الصالحة» وقع في رواية معمر ويونس عند البخاري في التفسير «الصادقة» وهي التي ليس فيها ضغث، وبدئ بذلك ليكون تمهيداً وتوطئة لليقظة، ثم مهد له في اليقظة أيضاً رؤية الضوء، وسماع الصوت، وسلام الحجر.

(٣) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٠): قوله: «في النوم» لزيادة الإيضاح، أو ليخرج رؤيا العين في اليقظة لجواز إطلاقها مجازاً.

(٤) قال ابن حجر في الفتح (١/٧١) قوله: «مثل فلق الصبح» بنصب مثل على الحال، أي: مشبهة ضياء الصبح، أو على أنه صفة لمحذوف، أي: جاءت مجيئاً مثل فلق الصبح، والمراد بفلق الصبح: ضياؤه. وخص بالتشبيه لظهوره الواضح الذي لا شك فيه.

وكانت مدة وحي المنام كما قاله البيهقي ستة أشهر.

قال ابن حجر: على هذا فابتداء النبوة بالرؤيا من شهر مولده، وهو ربيع الأول، وابتداء الوحي يقظة وقع في رمضان.

فائدة لغوية: «الرؤيا» مصدر الوحي كالرجعى مصدر رجع، ويختص برؤيا المنام كما اختص الرأي بالقلب، والرؤية بالعين.

والصالحة يجوز أن يكون صفة موضحة للرؤيا، بناءً على أن غير الصالحة لا تسمى رؤيا تسمى بالحلم، كما ورد الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، ويجوز أن يكون صفة مخصصة بناءً على أن السنة تسمى بالرؤيا قال العلماء: الرؤيا على قسمين صالحة وتسمى صادقة، وهي بشارة من الله يبشرها عبده ليحسن بها ظنه، ويكثر عليها شكره، وكاذبة وتسمى: بالحلم وبأضغاث أحلام، وهي من الشيطان يراها الإنسان ليحزنه فيسوء ظنه بربه، ويقل حظه من شكره، ولذلك أمر بالنفوذ من شره وغيره كما سيأتي ليطرده.

والرؤيا الصالحة لا تختص بالنبي ﷺ بل يشاركه غيره فيها لكن خص ﷺ بأن جميع ما كان يراه في منامه حق وصدق، ولهذا قالت عائشة «**وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح**» وفلق: بفتح أولهما وثانيهما ضياؤه أي: جاءت مثل الوضوح والبيان.

قال الكرماني: والصحيح أنه بمعنى المفلوق، وهو اسم للصبح، فأضيف أحدهما إلى الآخر لاختلاف اللفظين، والذي يدل على أن الفلق هو الصبح استعماله وحده قال تعالى ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾[الفلق: ١]، وإنما عبرت عن صدق الرؤيا بفلق الصبح ولم تعبر بغيره: لأن شمس النبوة كان مبادئ أنوارها الرؤيا إلى أن تم نورها وبرهانها، وظهرت أشعتها وإلى هذا صاحب البردة أشار بقوله:

لا ينكر الوحي من رؤياه أن له ... قلباً إذا نامت العينان لم ينم

بخلاف رؤيا غيره ﷺ فإنها قد تكون صادقة، وقد تكون أضغاث أحلام.

وحقيقة الرؤيا الصالحة: أن الله يخلق في قلب النائم وفي حواسه الأشياء كما يخلقها في اليقظان، وهو سبحانه يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا غيره عنه فربما يقع ذلك في اليقظة كما رآه في المنام، وربما جعل ما رآه علماً على أمور أُخر يخلقها في ثاني الحال، أو كان قد خلقها فتقع تلك، كما جعل الله الغيم علامة للمطر وصلاح الرؤيا إما باعتبار تعبيرها.

وقـــال القاضي عياض: صلاحها حسن ظاهرها أو صحتها أو فسادها، إما بسوء ظاهرها وإما بسوء تأويلها.

فائدة: ورد في الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال:«**الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**»[(١)].

وفي رواية: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[(٢)].

وفيه كثير غموض عن كثير من الناس وإيضاحه أن النبي ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة على الصحيح، ومدة نبوته منها ثلاث وعشرون سنة لأنه نبئ على رأس الأربعين، وكان نصف سنة يرى الوحي في المنام إلى المدة التي رآه فيها في اليقظة كانت نصف جزء من ثلاث وعشرين سنة، وذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

لكن المشكل رواية مسلم «**الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءًا من النبوة**»[(٣)]

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥٦٢/٦، رقم ٦٥٨٢)، ومسلم في صحيحه (١٧٧٤/٤، رقم ٢٢٦٤) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) هذه الرواية عند البخاري في الصحيح (٢٥٦٨/٦، رقم ٦٥٩٣) من حديث أنس أيضاً بزيادة في أوله، وعند مسلم في الصحيح (١٧٧٤/٤، رقم ٢٢٦٣) عن أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت بلفظه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٥/٤، رقم ٢٢٦٥) عن ابن عمر.

وأخرجه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (٣٨٣/٤، رقم ٧٦٢٦)، وابن ماجه في سننه (١٢٨٣/٢، رقم ٣٨٩٧)، وابن أبي شيبة (١٧٣/٦، رقم ٣٠٤٥٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٤١٠/١، رقم ٧١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٦/٤، رقم ٤٧٥٧) عن ابن عمر.

والحديث جاء أيضاً من رواية أبي سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس:

فأما رواية أبي سعيد فعند ابن ماجه في سننه (١٢٨٢/٢، رقم ٣٨٩٥) من طريق عطية عن أبي سعيد الخدري... به.

قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٥٣/٤): هذا إسناد ضعيف لضعف عطية العوفي.

وأما حديث عبد الله بن مسعود فأخرجه البزار في مسنده (٢٥٠/٥، رقم ١٨٦٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٢١٧/٩، رقم ٩٠٥٧)، وأخرجه أيضاً: في المعجم الصغير (١٤١/٢، رقم ٩٢٨).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٣/٧): رواه الطبراني في الكبير والصغير وقال فيه جزء من سبعين جزءا والبزار ورجال الصغير رجال الصحيح.

وأما حديث ابن عباس فأخرجه أحمد في مسنده (٣١٥/١، رقم ٢٨٩٦)، وأبو يعلى =

فإنهـــا لا يظهر لها وجه، وللرؤيا الصادقة شروط متى اختل شرط منها كانت أضغاث أحلام لا يصح تأويلها.

مـــنها: أن لا يكون الرائي خائفاً من شيء أو راجياً، وفي معنى الخوف والرجاء الحزن على شيء والسرور بشيء، فإذا نام من اتصف بذلك كذلك رأى في نومه ذلك الشيء بعينه.

ومنها: أن لا يكون خالياً من شيء هو محتاج إليه كالجائع والعطشان يرى في نومه كأنه يأكل ويشرب.

ومنها: أن لا يكون ممتلئاً من شيء فيرى كأنه يجتنبه، كالممتلئ من الطعام يرى أنه يقذفه.

ومنها: أن لا يرى ما لا يكون كالمحالات وغيرها مما يعلم أنه لا يوجد، بأن يرى الله سبحانه وتعالى على صفة مستحيلة عليه، أو يرى نبياً يعمل عمل الفراعنة.

ومنها: أن لا يكون ما رآه في النوم قد يراه في اليقظة، وإدراك حسه بعهد قريب قبل نومه، وصورته باقية في خياله فيراها بعينها في نومه.

ومنها: أن لا يكون قد حدثته نفسه به في اليقظة وتفكر فيه قبل النوم بمدة قريبة.

ومـــنها: أن لا يكون موافقاً ومناسباً لما هو عليه من تغيير المزاج، بأن تغلب عليه الحـــرارة مـــن الصفراء فيراها في نومه نيراناً شمساً محرقة، أو تغلب عليه البرودة فيرى الثلوج، أو تغلب عليه الرطوبة فيرى الأمطار والمياه، أو تغلب عليه اليبوسة والسوداء فـــيرى الأشياء المظلمة والأهوال، فمتى اختل شرط مما ذكرنا كانت الرؤيا فاسدة لا تعـــبير لمـــا ورد، وإذا وجدت هذه الشروط في رؤيا الإنسان غلب على الظن سلامة رؤيـــاه مـــن الفساد، وصح تعبيرها خصوصاً إذا انضم إلى ذلك كون الرائي من أهل الصـــدق والصلاح، فإن الظن يقوي بأنها صادقة صالحة، ففي الحديث «**أصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً**»[1].

= (٤/٤٦٦، رقم ٢٥٩٨)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/٢٧٧، رقم ١١٧٢٧).
ورواه البزار كما في مجمع الزوائد (٧/١٧٢) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٥٣٢، رقم ٢٢٧٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود في سننه (٤/٣٠٤، رقم ٥٠١٩)، وابن ماجه في سننه (٢/١٢٨٩، رقم ٣٩١٧)، وأحمد في مسنده (٢/٥٠٧، رقم ١٠٥٩٨)، والحاكم في المستدرك (٤/٤٣٢، رقم ٨١٧٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه (١٣/٤٠٤، رقم ٦٠٤٠)، =

ومن علامات صدق الرؤيا من حيث الزمان كونها في الأسحار، وكونها عند اقتراب الزمان ففي الحديث «**إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب**»[(١)] واقتراب الزمان هو اعتداله وقت استواء الليل والنهار، وقيل: اقتراب الزمان قرب قيام الساعة.

وعن جعفر الصادق أنه قال: أصدق رؤيا النهار وقت القيلولة، لأن الحسين بن على رأى رسول الله ﷺ وهو يقول: «**أتسرعون السير بكم إلى الجنة**» فقال الحسين ﷺ: يا أبت لا حاجة إلى الرجعة إلى دار الدنيا بعد رؤيتك، فقال ﷺ: «**يا بني لابد لك من الرجعة وهي ساعة لم يكذب فيها، ثم صلى الظهر وقتل شهيداً**»[(٢)].

ومن علامات صلاحها: أن تكون تبشيراً بالثواب على الطاعة أو تحذيراً من المعصية، وليس المراد من قولنا بأن هذه الرؤيا الصالحة أنها صالحة على سبيل القطع بل على غلبة الظن.

قال ابن الصلاح: ومعلوم أن إدراك ما هو حق منها مما هو باطل، وعسر الطريق أن يظن إلا ظناً.

فإن قيل: بأي شيء يرى الإنسان المنام بالروح أو بغيرها؟

فالجواب: أن مقاتلاً ذكر في تفسير قوله تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ**﴾[الأنعام: ٦٠] أن الإنسان له حياة وروح ونفس، فإذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء، و لم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع كشعاع الشمس فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه وتبقى الحياة والروح في الجسد، فيها ينقلب ويتنفس فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين، فإذا رجعت أخبرت الروح القلب فيصبح فيعلم أنه رأى رؤيا صالحة فيعرف بما رأى في منامه فتحيا النفس وتحيا الروح وتخبر الروح القلب، فإذا أراد الله تعالى أن يميت هذا الرائي في المنام يمنع النفس التي خرجت منه العود إلى البدن، ويقبض الروح إليها، فيموت في منامه.

= والدارمي في سننه (١٦٨/٢، رقم ٢١٤٤)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢٩١/١، رقم ٩٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٨/٤، رقم ٤٧٦٢) جميعاً عن أبي هريرة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٣/٤، رقم ٢٢٦٣)، والترمذي في سننه (٥٣٢/٤، رقم ٢٢٧٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده (٥٠٧/٢، رقم ١٠٥٩٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٨/٤، رقم ٤٧٦٢) عن أبي هريرة.

(٢) لم نقف عليه.

ونقل بعض علماء التعبير عن دانيال عليه السلام أنه قال: الأرواح يعرج بها إلى السماء السابعة حتى تقف بين يدي رب العزة فيؤذن لها بالسجود، فما كان طاهراً سجد تحت العرش، وما كان غير طاهر سجد قاصياً فلذلك يستحب لمن أراد أن ينام، أن ينام على طهارة.

فائدة: قال العلماء: وإذا كان الإنسان يقرع في منامه فليقل ما رواه ابن السني أنه قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فشكا أنه يفزع في منامه فقال له رسول الله ﷺ «**إذا أويت إلى فراشك فقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فقالها فذهب عنه**»، وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عقل من بنيه، ومن لم يعقل كتبهن فعقلهن عليه، نقل ذلك أبو داود وغيره [(١)].

وإذا رأى في نومه ما يحب فليحمد الله تعالى وليحدث بها، وإذا رأى ما يكرهه فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فقد ورد في هذا الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله تعالى عليها وليحدث بها**»، وفي رواية[(٢)] «**ولا يحدث بها إلا من يحب، وإن رأى غير ذلك مما يكره إنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٢/٤، رقم ٣٨٩٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١٩١/٦، رقم ١٠٦٠٢)، وفي عمل اليوم والليلة (ص: ٤٥٣، رقم ٧٦٦) وفيه اسم الرجل الذي يفزع، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان خالد بن الوليد بن المغيرة رجلاً يفزع في منامه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ: «إذا اضطجعت فقل باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» فقالها فذهب ذلك عنه.
وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (١٨١/٢، رقم ٦٦٩٦)، والحاكم في المستدرك (٧٣٣/١، رقم ٢٠١٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥٠/٥، رقم ٢٣٥٩٨)، وأبو بكر الإسماعيلي في معجم شيوخه (٤٦٢/١، رقم ١١٦).

(٢) هذه الرواية وردت في حديث آخر غير حديث أبي سعيد الآتي فهي عند البخاري في الصحيح (٢٥٨٢/٦، رقم ٦٦٣٧) عن عبد ربه بن سعيد قال: سمعت أبا سلمة يقول: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت أبا قتادة يقول وأنا كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت النبي ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان وليتفل ثلاثاً ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره».
وأخرجه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (٢٢٣/٦، رقم ١٠٧٣٠).

يذكرها لأحد فإنها لا تضره»[١].

وينبغي إن رأى في منامه ما يكرهه أن ينفث أي: ينفخ عن يساره ثلاث مرات ويتعوذ من الشيطان، فقد روينا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي قتادة ﷺ قال: رسول الله ﷺ «**الرؤيا الصالحة**» وفي رواية «**الرؤيا الحسنة من الله والحلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً، وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره**»، وفي رواية «**فليبصق**» بدل «**فينفث**».

قال النووي: والظاهر المراد من النفث: وهو نفخ خفيف لا ريق معه.

وكذلك لمن رأى ما يكره أن يتحول عن جنبه الذي كان عليه فقد روينا في صحيح مسلم عن جابر ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله ثلاثاً، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه**»[٢].

كذلك ينبغي لمن رأى ما يكره أن يقوم ويصلي ويحصل التعوذ المذكور في هذه الأحاديث بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لكن الأحسن أن يقول عند رؤية ما يكره: اللهم أعوذ بك من عمل الشيطان، وسيئات الأحلام كما ورد ذلك، والسنة للإنسان إذا قص عليه أحد رؤيا أن يقول له: «**خيراً رأيت وخيراً يكون، وخيراً تلقى، وشرا توقى، خيراً لنا، وشراً لأعدائنا، الحمد لله رب العالمين**».

وقول عائشة رضي الله عنها «**ثم حبب إليه الخلاء**»[٣] أي: حبب الله له الخلوة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥٦٣/٦، رقم ٦٥٨٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٢٢٣/٦، رقم ١٠٧٢٩)، وأحمد في مسنده (٨/٣، رقم ١١٠٦٩)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٥١٣، رقم ١٣٦٣) عن أبي سعيد.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٢/٤، رقم ٢٢٦٢) عن جابر.

وأخرجه أيضاً النسائي في السنن الكبرى (٣٩٠/٤، رقم ٧٦٥٣)، وابن ماجه في سننه (١٢٨٦/٢، رقم ٣٩٠٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٧٩/٦، رقم ٣٠٤٩٤)، وعبد بن حميد في مسنده (ص: ٣١٩، رقم ١٠٤٧)، وأبو يعلى في مسنده (١٨٠/٤، رقم ٢٢٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٨/٤، رقم ٤٧٦١).

(٣) قال ابن حجر في الفتح (٧١/١): قوله: «حبب» لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك، وإن كان كل من عند الله، أو لينبه على أنه لم يكن من باعث البشر، أو يكون ذلك من وحي الإلهام. =

فإن الخلاء بالمد الخلوة وهو شأن الصالحين وعباد الله العارفين، وإنما حبب إليه الخلوة لأن فيهـــا فراغ القلب وهي معينة على الفكر، وينقطع بها عن مألوفات البشر ويخشع قلبه، فإن البشر لا ينتقل عن طبعه إلا بالرياضة البليغة فلطف الله تعالى به في بدء أمره، فحبب إليه الخلوة وقطعه عن مخالطة البشر، ليجد الوحي له متمكناً كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصـــادف قلـــباً خاليـــاً فتمكنا

وكان دخوله الخلوة بإلهام من الله تعالى لا من تلقاء نفسه، قال بعض أهل العلم: ففيـــه دليـــل على أن الإنسان إذا قصد الخلوة والانقطاع عن الناس فلابد له من إذن شـــيخه له في ذلك، وقد صرح بذلك العارف بالله الزاهد الكامل زين الدين أبو بكر الحـــراني الخراساني نفعنا الله به في وصيته لأصحابه حيث قال فيها ما معناه: من قصد ســـلوك طـــريق الأولياء وقصد الانقطاع والتبتل في الخلوة وترك الاختلاط فلا بد أن يكون ذلك بحضور الشيخ، وأمره الظاهر وأمره الباطن فإن المريد إذا صحت رابطته مع شيخه وكان مسلماً لأوامره وإشاراته يرى شيخه في واقعته فيأمره وينهاه ويحل واقعته، ثم قال في وصيته: ولا ينبغي لمن أراد دخول الخلوة أن يقصد بدخوله أن يصير مكاشفاً أو ذا كرامة عيانية فإن من رحل على هذا القصد رأى الأشياء الباطلة في صورة الحق.

ثم قال: دخل واحد من أصحابنا في خراسان الخلوة بغير إذن ولا وقت استحقاق دخولهـــا، فجاء الشيطان إليه على صورة الخضر فقال له: أتريد أن تحصل لك العلوم الدينية فقال: نعم وكان مائلاً أن يتكلم في العلوم وأن يجري على لسانه، فقال له: افتح فـــاك فرمى الشيطان بزاقه في فمه، ثم بعد ذلك صنف كتاباً مشتملاً على أبواب من المعـــارف فـــلما وصل إلى الملاقاة والاجتماع بي عرض ما صنفه علي وحكى واقعته فقلت له: يا مسكين ذلك أن الشيطان جاء إليك في صورة الخضر ولعب بك وشغلك عن طاعة الله وذكره، اذهب واغتسل وتب إلى الله.

والشيطان يجيء على صورة الصالحين كثيراً ولا يقدم على التمثيل بصورة رسول الله ﷺ ولا بصورة الشيخ إذا كان الشيخ تابعاً للنبي ﷺ مأذوناً له بالإرشاد من شيخة المأذون وهكذا إلى حضرة رسول الله ﷺ.

= والخلاء بالمد: الخلوة، والسر فيه: أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له.

وحراء بالمد وكسر أوله كذا في الرواية وهو صحيح، وفي رواية الأصيلي بالفتح والقصر وقد حكي أيضاً، وحكي فيه غير ذلك جوازاً لا رواية، هو جبل معروف بمكة.

والغار: نقب في الجبل وجمعه غيران.

ثم قـــالت عائشة «**فكان يخلو بغار حراء**» الغار: نقب في الجبل وهو قريب من معنى الكهف، ويجمع الغار على غيران وحراء بكسر الحاء وتخفيف الراء جبل بينه وبين مكة شرفها الله تعالى نحو ثلاثة أميال عن يسارك إذا سرت إلى من شرفها الله، وفي «حراء وقباء» ست لغات المد والقصر والصرف وعدمه والتذكير والتأنيث، وقد نظم بعضهم ذلك فقال:

قـــباء وحـــراء اذكر وأنثهما معاً ومد واقصر واصرفن وامنع الصرفا

فمـــن صرف أراد أن اللفظ علم للمكان ونحوه، فيكون فيه العلمية فقط، وهي وحدهـــا لا تمنع الصرف، ومن منع الصرف أراد اللفظ علم للبقعة، فيكون فيه علتان العلمية والتأنيث، وكذا كل اسم مكان إن جعلت اللفظ علماً للبقعة أو الجهة فهو غير منصـــرف، وإن جعلته علماً للمكان ونحوه فهو منصرف فهي قاعدة كلية نبه عليها الكرماني وغيره.

«**فيتحنث فيه وهو التعبد**[1] **الليالي ذات العدد**» مرادها أن رسول الله ﷺ حين كـــان يخلو بغار حراء يتحنث أي يتعبد، ويتحنث بمعنى يتعبد، وإن تعبده كان في ليال معـــدودة في كـــل سنة فضمير «وهو التعبد» راجع إلى التحنث الذي دل عليه لفظ «**فيتحـــنث**» فهـــو كقوله تعالى ﴿**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾[المائدة: ٨] فتفسير التحـــنث بالتعبد إما من كلام عائشة وهو الظاهر، وإما من كلام الزهري في الحديث على عادته.

وحقيقـــة التحنث في الأصل التجنب عن الحنث أي: الإثم فكان المتعبد يلقي الإثم عن نفسه بالعبادة.

والمـــراد بقوله «**الليالي ذوات العدد**» مع أيامهن على سبيل التغليب لأنها أنسب للخـــلوة، وكانت هذه الليالي التي يعبد فيها مع أيامها إلى شهر رمضان وأيامه في كل سنة.

فـــائدة: إنما خصص ﷺ جبل حراء بالخلوة والتعبد فيه دون غيره من جبال مكة

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/٧١): قوله: «فيتحنث» هي بمعنى يتحنف، أي يتبع الحنفية وهي دين إبراهيم، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم. وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة «يتحنف» بالفاء أو التحنث إلقاء الحنث وهو الإثم، كما قيل: يتأثم ويتحرج ونحوهما.

قوله: «وهو التعبد» هذا مدرج في الخبر، وهو من تفسير الزهري كما جزم به الطيبـــي ولم يذكر دليله. نعم في رواية المؤلف من طريق يونس عنه في التفسير ما يدل على الإدراج.

كجـــبل أبي قبيس مع أنه أول جبل وضعه الله على الأرض حين صارت قاله مجاهد، وكجـــبل شبير وغيره، لأن جبل حراء نادى رسول الله ﷺ حين صعد على جبل بمكة يقال له: شبير وكان قد طالبه الكفار فقال له شبير بلسان القال لا بلسان الحال: انزل عن ظهري فإني أخاف أن تقتل على ظهري فيعاقبني الله تعالى فقال له جبل حراء: إليَّ يا رسول الله.

وقيل: خصصه بذلك لأنه يرى بيت ربه منه وهو عبادة، كما اختلفوا في عبادته ﷺ قبل النبوة.

فائدة أخرى: قال البغوي في تفسيره: لما تجلى الله للجبل وصار دكاً طار منه ستة أجـــبل وقعـــت ثلاثة بمكة وهي ثبير وحراء وثور، وثلاثة بالمدينة، وهي أحد وورقان ورضوي[1].

فائدة أخرى: اختلف العلماء رضوان الله عليهم في الغار بأي شيء كانت، كما اختـــلفوا في عـــبادته ﷺ قبل النبوة فقيل: كان يعبد بشريعة إبراهيم، وقيل: بشريعة موسى، وقيل: بشريعة عيسى، وقيل: بشريعة نوح، وقيل: بشريعة آدم، وقيل: بشريعة غير ذلك، والذي عليه جمع وحذاق أهل السنة أنه لم يتعبد بشرع أحد بل كان يتعبد كما قاله ابن الملقن بالتفكر قال: ولا خلاف بين أهل التحقيق أنه عليه الصلاة والسلام قبل نبوته هو وسائر الأنبياء منشرح الصدر بالتوحيد والإيمان فإنهم لا يليق بهم الشك في شيء من ذلك، ولا خلاف في عصمتهم من ذلك.

وقولها «**قبل أن ينـــزع إلى أهله**» أي: كان تعبده في الغار قبل أن يحن إلى أهله

---

(١) انظر تفسير البغوي (٢/١٩٨).

قلت: وقد روي ذلك في حديث مرفوع أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/٣١٤)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠/٤٤٠)، والديلمي في مسند الفردوس (٣/١٥٠، رقم ٤٤٠٧) عن معاوية بن قرة عن أنس مرفوعاً.

وأورده ابن كثير في تفسيره (٢/٢٤٦) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وقال عقبه: وهذا حديث غريب بل منكر.

وآفته أن فيه: الجلد بن أيوب ذكره ابن حبان في المجروحين (١/٢١٠، ترجمة ١٧٦) وأخرج حديثه هذا وقال: موضوع لا أصل له.

وأورده ابن حجر في فتح الباري (٦/٤٣٠) فقال: وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي مالك رفعه... فذكر الحديث وقال عقبه: وهذا غريب مع إرساله.

ويشتاق إليهم، فيرجع إليهم.

وقولها «**ويتزود لذلك**» مرفوعاً عطفاً على فيتحنث، وذلك إما إشارة إلى الخلاء وإما إلى التعبد، أو كان ﷺ يتعبد في غار حراء، ويتزود لمدة خلوته وتعبده والتزود اتخاذ الزاد، والزاد هو الطعام الذي يستصحبه المسافر.

وقولها «**ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها**» أي: كان بعد الفراغ من التعبد في هذه الليالي يرجع إلى خديجة، فإذا جاء وقت الليالي يتزود لمثلها أي: يصحب معه زاد يكفيه لمثل تلك الليالي.

وخديجة هي: أم المؤمنين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشية، كانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة[1]، وكانت أكثر قريش مالاً وأعظمهم شرفاً وهي التي وازرته على النبوة، وهاجرت معه وواسته بنفسها ومالها، فإن العرب كانت تتمادح بكسب المال ولاسيما قريش، وكان النبي ﷺ قبل البعثة في التجارة، وخديجة كانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم عليه بشيء معلوم فلما بلغها حدث رسول الله ﷺ وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج مالها تاجراً إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره.

وفي سيرة ابن مغلطاى: أنها استاجرته على أربع بكرات فقبل النبي ﷺ وخرج في مالها مع غلام يقال له: ميسرة، قال البرهان: وميسرة هذا لا أعلم أحداً ذكر له إسلاماً، وكأنه توفى قبل النبوة، ولو أدرك النبوة لأسلم، فلما أرسلت ميسرة معه ﷺ قالت له: لا تعص لمحمد ﷺ أمراً حتى قدم به سوق بصرى وهي مدينة حوران من أرض الشام.

فإنه ﷺ دخل أرض الشام أربع مرات:

المرة الأولى: مع عمه أبي طالب وكان عمره اثنتى عشرة سنة على أصح الأقوال الثلاثة فرآه بحيرا الراهب قال الذهبي في تجريده: بحيرا رأى رسول الله ﷺ قبل المبعث وآمن به ذكره ابن منده في الصحابه.

واسم بحيرا «جرجيس» فلما رأى رسول الله ﷺ عرفه بصفته فأخذ بيده وقال هذا سيد العالمين هذا يبعثه الله للعالمين فقيل له: وما علمك بذلك فقال: إنكم حين أشرفتم

---

(١) قاله الزبير بن بكار رواه عنه الطبراني في الكبير (٢٢/٤٤٧، رقم١٠٩١) من قوله، وكذا ابن عساكر في التاريخ (٣/١٣١).

انظر ترجمتها في: (الثقات ١/٤٤، والاستيعاب ٤/١٨١٧ ترجمة: خديجة بنت خويلد برقم: ٣٣١١، والإصابة ٧/٦٠٠، ترجمة: خديجة بنت خويلد برقم ١١٠٨٦).

به من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي وإنا نجده في كتبنا وسأل أبا طالب أن يرده خوفاً عليه من اليهود.

المـــرة الثانية: مع ميسرة وكان عمره خمساً وعشرين سنة ويقال استأجرت معه رجلاً من قريش فلما دخلوا نزلوا تحت ظل شجرة بقرب نسطور الراهب، قال البرهان الحـــلبي: ولا أعلم أحداً ذكره في الصحابة بخلاف بحيرا فلما رآه نسطور قال: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، وفي رواية: ما نزل تحتها قط إلا نبي.

المرة الثالثة: ليلة الإسراء وصل إلى بيت المقدس.

المرة الرابعة: إلى تبوك، فأما دمشق فإنه لم ينقل أنه دخلها ﷺ.

فلما رجع النبي ﷺ من سفر تجارة خديجة إلى مكة ونظرت خديجة ما جاء به ﷺ بربح كثير فحدثها ميسرة بقولَ الراهب.

وذكر في كتاب شرف المصطفى أن النبي ﷺ لما رجع من بصرى وقرب من مكة قـــال له ميسرة: عجل إلى خديجة وبشرها بالربح الكثير، وكانت خديجة تصعد على ســـطح دارها أوقاتا لتنظر هل قدموا من السفر أم لا، فصعدت يوماً فرأت محمداً ﷺ عـــلى بعيره وعلى يمينه ملك شاهر سيفه وعلى شماله ملك شاهر سيفه والغمامة على رأسه، فلما تحققت أمره امتلأ قلبها فرحاً ورغبت في التزوج به.

قـــال العراقي: ورغبت فخطبت محمداً فيا لها من خطبة ما أسعدها، فأرسلت إليه وعرضت نفسها عليه، ثم أرسلت شيئاً ليرسله لأبيها ليرغب فيزوجه، فذكر رسول الله ﷺ ذلـــك لأعمامـــه فخرج حمزة وأبو طالب[1]، ورؤساء الحرم إلى خويلد بن أسد

---

(١) نقل محب الدين الطبري في السمط الثمين (ص: ١٥) عن ابن إسحاق أنه قال: «وحضر أبو طالب ورؤساء مضر فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضيء معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجلاً إلا رجح به، فإن كان في المال قل، فإن المال زائل، وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا وهو والله بعد هذا نبأ عظيم، وخطر جليل فتزوجها».

قلت: لم نقف عليه من رواية ابن إسحاق ووقفنا عليه من قول أبي الحسين بن فارس كما في السيرة الحلبية (١/٢٢٦)، وأورده ابن الجوزى في صفوة الصفوة (١/٧٤) بقوله: «وقد ذكر بعض العلماء أن أبا طالب حضر العقد ومعه بنو مضر فقال أبو طالب...فذكره» كما ذكره الإمام أحمد في مسائله (ص: ١٩) و لم يعزه إلى أحد.

وخطبوها فزوجها أبوها، وقيل: أخوها، وقيل: عمها، ويجمع الأقوال بأن الثلاثة حضر وزوجها أبوها على الراجح[١] فنسب الفعل إلى كل واحد منهم.

وأصدقها رسول الله ﷺ اثنتي عشرة أوقية ونبشاً[٢]، وقيل: عشرين بكرة[٣]، وكان عمـــره حين التزوج بها خمساً وعشرين سنة على الراجح من الأقوال الستة[٤]، وكان عمر خديجة أربعين سنة على الراجح من الأقوال[٥].

---

(١) صوب ابن سعد أن عمها عمرو بن أسد هو الذى زوجها له ﷺ، وقد أورد ابن سعد الروايات التي ورد فيها أن أباها هو الذى زوجها إياه ثم قال: هذا كله عندنا غلط، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ.

وقال مثله الطبري في التاريخ نقلاً عن الواقدي. انظر: الطبقات الكبرى (١٣٣/١)، والطبري في التاريخ (٥٢٢/١).

(٢) ورد ذلك في رواية أخرجها الدولابي في الذرية الطاهرة (ص٣٠، رقم ١٤) بلاغاً.

(٣) هذا هو قول ابن إسحاق نقله عنه الحافظ الذهبي في السير (١٤/٢). وانظر السيرة لابن هشام (٩/٢)، (٥٧/٦)، والكلاعي في الاكتفاء (١٥٦/١).

(٤) انظر: كلام أبو عمر ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب (١٨١٨/٤، ١٨١٩) وقوله بأنه ﷺ حين تزوجها كان ابن خمس وعشرين سنة، وقد صرح في موضع آخر (٣٥/١) أن من قال: إن النبي ﷺ تزوجها وله إحدى وعشرين سنة هو الزهري. وقال: قال أبو بكر بن عثمان وغيره: كان ابن ثلاثين.

وممن روى أن سنه كان وقت ذاك خمساً وعشرين سنة ابن سعد في الطبقات (١٧/٨) عن أبي حبيبة مولى الزبير قال: سمعت حكيم بن حزام يقول: تزوج رسول الله ﷺ خديجة وهي ابنة أربعين سنة ورسول الله ﷺ ابن خمس وعشرين سنة، وكانت خديجة أسن مني بسنتين ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة وولدت أنا قبل الفيل بثلاث عشرة سنة.

(٥) تجارته ﷺ في مال خديجه وسفره بالتجارة وقصة بحيرا ورغبة خديجة رضي الله عنها في الزواج به ﷺ ورد من رواية محمد بن إسحاق فقد قال: كانت خديجة رضى الله عنها امرأة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم عليه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش قوما تجاراً فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يتجر لها في مالها، ويخرج إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله ﷺ، وخرج في مالها ذلك ومعه غلامها ميسرة، حتى قدم الشام فنـــزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان فأطلع الراهب إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال له =

ومن فضائلها ما ذكره في عقائق الحقائق: أن النبي ﷺ لما تزوج خديجة كثر كلام الحساد فيها فقالوا: إن محمداً فقير قد تزوج بأغنى النساء فكيف رضيت خديجة بفقره فلما بلغها ذلك أخذتها الغيرة على محمد ﷺ أن يعير بالفقر، فأحضرت سادات الحرم، وأشهدتهم أن جميع ما تملكه لمحمد، فإن رضي بفقري فذلك من كرم أصله فتعجب الناس منها، وانقلب القول فقالوا: محمد أمسى من أغنى أهل مكة وخديجة أمست من أفقر أهلها فأعجبها ذلك، وإلى ذلك أشار الله بقوله جل ذكره ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[الضحى: ٨] على قول.

فقال النبي ﷺ: بم أكافئ خديجة؟ فجاءه جبريل وقال: إن الله يقرئك السلام ويقول مكافأة خديجة علينا فانتظر النبي ﷺ المكافأة فلما كان ليلة المعراج ودخل الجنة وجد قصراً مد البصر فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فقال: يا جبريل لمن هذا القصر؟ قال: لخديجة، فقال: هنيئاً لها لقد أحسن الله مكافأتها.

ومن فضائلها: أن النبي ﷺ قال لخديجة: هذا جبريل يقرئك السلام من ربك فقالت: الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام، إنما قالت: السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام[1].

= ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، وكان ميسرة فيما يزعمون يقول: إذا كانت الهاجرة واشتد الحر نزل ملكان يظلانه من الشمس، وهو يسير على بعيره فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعن ما كان يرى من إظلال الملكين إياه، بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك مني، وشرفك في قومك، وسلطتك فيهم، وأمانتك عندهم، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت امرأة حازمة لبيبة شريفة، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، كل قومها قد كان حريصاً على ذلك منها، لو يقدر على ذلك، فلما قالت لرسول الله ﷺ ما قالت، ذكر رسول الله ﷺ ذلك لأعمامه، فخرج معه منهم حمزة بن عبد المطلب، حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها رسول الله ﷺ.

قلت: أخرجه الدولابي (ص ٢٦، رقم ٨) عن محمد بن إسحاق، وأخرج نحوه ابن سعد في الطبقات (١٦/٨) عن نفيسة بنت أم أم أمية أخت يعلى بن أمية. وانظر السيرة لابن هشام.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨٩/٣، رقم ٣٦٠٩)، ومسلم في صحيحه (١٨٨٧/٤، رقم ٢٤٣٢) عن أبي هريرة، قال مسلم عقبه: قال أبو بكر في روايته عن أبي هريرة ولم =

قال السهيلي في الروض: لأنها علمت بفهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين.

وفي رواية: قال جبريل: «**يا محمد هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام أو شراب فـإذا هـي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب**»[1] والقصب: اللؤلؤ المجوف، والصخب: الصياح، والنصب: التعب.

والحكمة في كون البيت من قصب أنها أجازت قصب السبق إلى الإيمان فإنها أول من آمن من النساء بل أول من آمن مطلقاً على قول.

ومن فضائلها: ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثنائه عليها والاستغفار لها، فذكرها ذات يوم فأدركتني الغيرة فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن، فرأيته غضب غضباً شديداً فندمت وقلت: اللهم إن

= يقل: «سمعت»، و لم يقل في الحديث: ومني.

وأخرجه أيضاً: أحمد (٢/٢٣٠، رقم ٧١٥٦)، وأبو يعلى (١٠/٤٧٧، رقم ٦٠٨٩)، وابن أبي شيبة (٦/٣٩٠، رقم ٣٢٢٨٧)، وابن عساكر في التاريخ (٥٠/١١).

(١) الحديث عند النسائى في فضائل الصحابة (ص ٧٥، رقم ٢٥٤) عن أنس بلفظ: جاء جبريل إلى النبي ﷺ وعنده خديجة فقال: «إن الله يقرئ خديجة السلام فقالت: إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك السلام ورحمة الله وبركاته».

وأخرجه الطبرانى في المعجم الكبير (٢٣ /١٥، رقم ٢٥) من حديث سعيد بن كثير عن أبيه.

قال الهيثمى (٩/٢٢٥): فيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف.

وأخرج نحوه الفاكهي في أخبار مكة (٤/٩٣، رقم ٢٤٢٩) من حديث ابن عباس والقاسم بن أبي بزة من طريقين في موضع واحد خلال قصة وفيه أن النبى ﷺ قال: وهو أى جبريل يقرئك السلام من الرحمن الرحيم ثم يقرئك السلام فقالت رضي الله عنها: «إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام».

وأخرجه ابن عساكر في التاريخ (٧٠/١١٨) من حديث ابن عمر أن جبريل قال: معي إليها رسالة من الرب تبارك وتعالى يقرئها السلام، ويبشرها ببيت في الجنة من قصب بعيد من اللهب لا نصب فيه ولا صخب. قالت: الله السلام، ومنه السلام، والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله. وانظر السيرة النبوية (٢/٧٩).

وذكره الدولابي في الذرية الطاهرة (ص ٣٧، رقم ٢٧) بقوله: قال ابن هشام وحدثني من أثق به أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال... فذكره.

ذهب غيظ رسولك لم أعد أذكرها بسوء، ثم قال: «**صدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد إذ حرمني أولاد النساء**»[١].

وفي رواية: فذكرها يوماً فقلت: يا رسول الله هل كانت إلا عجوزاً قد أخلفك الله خيراً منها، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: «**لا والله ما أخلف الله لي خيراً منها**» فقلت في نفسي: لا أذكرها بسوء أبداً[٢].

هي أم أولاده كلهم خلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية و لم يتزوج غيرها قبلها ولا عليها حتى ماتت، فقامت معه أربعاً وعشرين سنة وأشهراً، توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصح، وقيل: بخمس، وقيل: بأربع، وكانت وفاتها بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام عن خمس وستين سنة، ودفنت بالحجون، ونزل النبي ﷺ في قبرها.

وكان يسمى العام الذي ماتت فيه هي وعمه عام الحزن، فطمعت قريش بموتها في النبي ﷺ وبالغوا في أذاه وتزوجت قبل النبي ﷺ برجلين أولهما: عتيق بن عابد، ثم تزوجها أبو هالة[٣]، فولدت منه هالة والظاهر وهند، فعاش هند[٤] وأدرك الإسلام

---

(١) أخرجه الدولابي في الذرية الطاهرة (ص ٣٢، رقم ١٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٣/٢٣، رقم ٢١).

قال الهيثمي (٢٢٤/٩): رواه الطبراني وأسانيده حسنة.

(٢) أخرجه أبو عمر ابن عبد البر في الاستيعاب (١٨٢٤/٤). وأورده الحافظ في الإصابة (٦٠٤/٧) وعزاه إلى أبي عمر.

(٣) للمحب الطبري كلاماً طيباً في هذه المسألة نذكره ونوثقه إتماماً للفائدة فنقول:

قال محب الدين الطبري في السمط الثمين (ص ١١): قال ابن شهاب: «تزوجت خديجة قبل النبي ﷺ رجلين، الأول منهما: عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فولدت له حارثة، ثم خلف عليها بعده أبو هالة التيمي، وهو من بني أسيد بن عمير فولدت له رجلاً».

قلت: رواه عن الزهري ابن عساكر في التاريخ (١٧٤/٣)، والطبراني في الكبير (٤٤٥/٢٢، رقم ١٠٨٧).

وأخرج ابن عساكر نحوه (٦٩/٣) عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه.

وقال المحب الطبري: قال ابن إسحاق: «تزوجت وهي بكر: عتيق بن عابد ثم هلك عنها فتزوجها: أبو هالة مالك بن النباش بن زرارة أحد بني عمر بن تيم، حليف بني عبد الدار فولدت له رجلاً وامرأة ثم هلك عنها فتزوجها رسول الله ﷺ».

قلت: أخرج ذلك الدولابي في الذرية الطاهرة (ص: ٢٥، رقم ٤)، وابن إسحاق في كتاب السيرة المسمى: المبتدأ والمبعث والمغازي (٢٢٩/٥، رقم ٣٤٠). =

= وقال المحب: قال الدارقطني: «أبو هالة مالك بن النباش بن زرارة».
قلت: بين الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (٦٣/١١): أن الدارقطني حكاه في كتاب الأخوة، ونقل عن الزبير بن بكار مثله في الإصابة (٥١٧/٦، ترجمة: هالة بن هالة بن أبي هالة التميمي برقم ٨٩١٩).
وقال المحب الطبري: وعن قتادة قال: «أبو هالة هند بن زرارة بن النباش فولدت له هند بن هند».
قلت: أورد قول قتادة هذا الحافظ في الإصابة (٥٥٧/٦، ترجمة: هند بن أبي هالة التميمي برقم ٩٠١٣).
وقال المحب الطبري: وروى عن ابن شهاب: «أنها تزوجت أولاً أبا هالة ثم عتيقاً، ذكره الدولابي، وأبو عمر وصحح أبو عمر قول ابن شهاب الثاني» ولم يذكر ابن قتيبة غير الأول.
قلت: وقول ابن شهاب أخرجه الدولابي (ص ٢٦، رقم ٧) قال: كانت خديجة قبل النبي تحت أبي هالة أخي بني تميم وكانت بعد أبي هالة عند عتيق بن عابد المخزومي ثم تزوجها رسول الله ﷺ.
وقوله «صحح أبو عمر قول ابن شهاب الثاني» وهو قوله: بأنها تزوجت أولاً بأبي هالة، وقد سبق قوله: بأنها تزوجت أولاً بعتيق بن عابد.
ورجح زواجها بأبي هالة أولاً ابن عبد البر في الاستيعاب (١٨١٧/٤، ترجمة: خديجة بنت خويلد برقم ٢٣١١).
(٤) قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب (١٥٤٥/٤) كان ﷺ وصافاً للنبي ﷺ، وقد شرح أبو عبيدة وابن قتيبة وصفه ذلك لما فيه من الفصاحة وفوائد اللغة. وقول أبو عمر حكاه عنه الدارقطني في كتاب الأخوة. انظر: الإصابة (٥٥٧/٦).
قال المزي في تهذيب الكمال (٣١٥/٣٠): وحديثه من أحسن ما روي في وصف حلية رسول الله ﷺ وفي إسناد حديثه بعض من لا يعرف، وقال أبو عبيد الآجري: سمعت أبا داود وذكر حديث ابن أبي هالة فقال: أخشى أن يكون موضوعاً. انتهى. قلت: قد أجاب أبو حاتم الرازى عن ذلك فيما نقله الحافظ في تهذيب التهذيب (٦٣/١١) فقال: قال أبو حاتم الرازي: روى عنه قوم مجهولون فما ذنب هند حتى أدخله البخاري في الضعفاء. انظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٧/ ١٣٤، ترجمة ٢٠٥٠ هند بن أبي هالة) ونقل عن البخارى قوله: هند بن أبي هالة روى عنه الحسن بن علي بن أبي طالب يتكلم في حديثه.
وأما عن حديثه في صفة النبى ﷺ فيقول الحافظ ابن حجر في الإصابة (٥٥٧/٦) روى عن النبي ﷺ، وروى عنه الحسن بن علي صفة النبي ﷺ أخرجه الترمذي والبغوي والطبراني وغيرهم من طرق عن الحسن بن علي، ووقع لنا بعلو في مشيخة أبي علي بن شاذان من طريق أهل البيت، وأخرجه البغوي أيضاً وأخرجه ابن منده من طريق يعقوب التيمي عن ابن عباس أنه قال لهند بن أبي هالة صف لي النبي ﷺ.
قلت: فحديثه في صفة النبي ﷺ يروى من طريق الحسن وابن عباس كما قال الحافظ، فالحديث =

وكان يقول: أنا أكرم الناس أباً وأماً وأختاً أبي رسول الله ﷺ وأمي خديجة وأخي القاسم وأختي فاطمة.

قال السهيلي: مات بالطاعون، طاعون البصرة[1]، وكان قد مات في ذلك اليوم نحو من سبعين ألفاً فشغل الناس بجنائزهم عن جنازته فلم يوجد من يحملها فصاحت نادبته: واهند بن هنداه، ربيب رسول الله ﷺ فلم يبق جنازة إلا تركت واحتملت جنازته على أطراف الأصابع إعظاماً لرسول الله ﷺ.

وقيل: قتل مع علي يوم الجمل والأول هو الصحيح[2].

***

= عند الترمذي في الشمائل المحمدية (ص، رقم ٨).

ورواه في موضع آخر (ص ١٨٤، رقم ٢٢٦) مختصراً.

ورواه في موضع ثالث (ص ٢٧٦، رقم ٣٣٧) ولفظه أطول وجميعها من طريق الحسن بن علي.

ورواه من طريقه أيضاً: الطبراني في المعجم الكبير (١٥٥/٢٢، رقم ٤١٤).

قال الهيثمي في المجمع (٢٧٨/٨): فيه من لم يسم.

ورواه البيهقي في شعب الإيمان (١٥٤/٢، رقم١٤٣٠)، وابن عدي في الكامل (١٣٤/٧)، وابن حبان في الثقات (١٤٥/٢) في باب ذكر وصف رسول الله ﷺ، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤٢٢/١).

وأما حديث هند من طريق يعقوب التيمي عن ابن عباس فأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤٣٧/٢، رقم ١٢٣١)، والبغوي وابن منده كما قال الحافظ. انظر: الإصابة (٥٥٧/٦).

(١) انظر: الاستيعاب (١٥٤٥/٤) قال ابن عبد البر: هكذا قال الزبير. وغيره يقول: إن هند بن أبي هالة هو الذي مات بالبصرة مجتازاً إذ مر بها فلم يقم سوق البصرة يومئذ وقالوا مات أخو فاطمة بنت رسول الله ﷺ، والصحيح ما قاله الزبير في ذلك والله أعلم بأن هند بن أبي هالة قتل يوم الجمل وأن ابنه هند بن هند بن أبي هالة هو الذي مات بالبصرة في الطاعون.

(٢) قاله الزبير بن بكار. انظر: الاستيعاب (١٥٤٥/٤)، وتهذيب الكمال (٣١٦/٣٠)، والإصابة (٥٥٧/٦).

المجلس التاسع

في الكلام على بقية حديث أول ما بدئ رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا في النوم

قول عائشة رضي الله عنها «**حتى جاءه الحق**[1] **وهو في غار حراء**» مرادها بالحق الوحي الكريم.

وقولها رضي الله عنها «**فجاءه الملك**» أي: جبريل.

فإن قيل: إن قوله له فجاءه الملك بالفاء التعقيبية بعد قوله حتى جاءه الحق يقتضي مجيء جبريل إليه بعد مجيء الوحي مع أن جبريل هو النازل بالوحي؟

فالجواب: أن هذه الفاء تسمى بالفاء التفسيرية نحو قوله تعالى ﴿**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾[البقرة: ٥٤] إذ قتل النفس التوبة وهنا مجيء الملك إليه هو

---

(١) تحدث الحافظ ابن حجر عن اختلاف الرويات في إتيان الملك فقال:

قوله: «حتى جاءه الحق» أي: الأمر الحق، وفي التفسير: حتى فجئه الحق - بكسر الجيم - أي بغته، وإن ثبت من مرسل عبيد بن عمير أنه أوحي إليه بذلك في المنام أولاً قبل اليقظة، أمكن أن يكون مجيء الملك في اليقظة عقب ما تقدم في المنام.

وسمي حقاً لأنه وحي من الله تعالى.

وقد وقع في رواية أبي الأسود عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي ﷺ كان أول شأنه يرى في المنام، وكان أول ما رأى جبريل بأجياد، صرخ جبريل: «يا محمد» فنظر يمينا وشمالاً فلم ير شيئا، فرفع بصره فإذا هو على أفق السماء فقال: «يا محمد، جبريل جبريل» فهرب فدخل في الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج عنهم فناداه فهرب، ثم استعلن له جبريل من قبل حراء، فذكر قصة إقرائه «اقرأ باسم ربك» ورأى حينئذ جبريل له جناحان من ياقوت يختطفان البصر، وهذا من رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود، وابن لهيعة ضعيف.

وقد ثبت في صحيح مسلم من وجه آخر عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا: «لم أره - يعني جبريل - على صورته التي خلق عليها إلا مرتين»، وبين أحمد في حديث ابن مسعود أن الأولى كانت عند سؤاله إياه أن يريه صورته التي خلق عليها، والثانية عند المعراج.

وللترمذي من طريق مسروق عن عائشة رضي الله عنها: «لم ير محمد جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهي، ومرة في أجياد» وهذا يقوي رواية ابن لهيعة، وتكون هذه المرة غير المرتين المذكورتين، وإنما لم يضمها إليهما لاحتمال أن لا يكون رآه فيها على تمام صورته، والعلم عند الله تعالى.

ووقع في السيرة التي جمعها سليمان التيمي فرواها محمد بن عبد الأعلى عن ولده معتمر بن سليمان عن أبيه أن جبريل أتى النبي ﷺ في حراء وأقرأه «اقرأ باسم ربك» ثم انصرف، فبقي متردداً، فأتاه من أمامه في صورته فرأى أمراً عظيماً. انظر: الفتح (١/٧٢).

عبارة عن مجيء الوحي بالتفصيلية أيضاً.

وقوله «**اقرأ**» إلى آخر ما سيأتي تفصيل للمجمل الذي هو مجيء الحق، والمفصل نفس المجمل، ومقصود عائشة رضي الله عنها أنه وحي المنام، وهو ستة أشهر كما تقدم، لما فرغت نزل عليه جبريل بالوحي في اليقظة وهو في غار حراء، وكان نزوله عليه يوم الاثنين بعد مضي سبع عشرة ليلة خلت من رمضان ورسول الله ﷺ كان عمره أربعين سنة وستة أشهر فقال: أول ما نزل عليه جبريل نزل عليه ﷺ «**اقرأ**» قال: قلت له: «**ما أنا بقارئ**».

قال العلماء: «ما» هنا نافية واسمها «أنا» و «بقارئ» خبرها، والباء زائدة لتأكيد النفي أي: ما أحسن القراءة.

قال ابن الملقن وغيره: وغلط من جعلها استفهاميه لدخول الباء في خبرها.

قال النبي ﷺ «**فأخذني لما قلت له: ما أنا بقارئ فغطني**» أي: ضمني وعصرني «**حتى بلغ مني الجهد**» أي: الطاقة «**ثم أرسلني**» أي: أطلقني من العصر «**فقال: اقرأ قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني وغطني الثالثة ثم أرسلني**».

والحكمة في عصر جبريل النبي ﷺ ليشغله عن الالتفات إلى شيء من أمور الدنيا وليبالغ في أمره بإحضار قلبه لما يقول له.

قيل: والحكمة في ذلك أن جبريل أراد بالعصر أن يوقفه على أن القراءة ليست من قدرته ولو أكره عليها، وكان كلما أمره بالقراءة فلم يفعل شدد عليه بالعصر لينبهه على أن القراءة ليست من قدرته ولا من طاقته ووسعه.

والحكمة في عصره ثلاثاً مبالغة في التنبيه على ذلك.

وقيل: الحكمة في فعل ذلك ثلاثاً الإشارة إلى أنه يبتلى بثلاث شدائد ثم يأتي الفرج، ولقي ذلك ﷺ هو وأصحابه حصل لهم شدة من الجوع في الشعب حين تعاقدت قريش أن لا يبيعوا منهم ولا يصلوا إليهم، وشدة أخرى من الخوف والإبعاد بالقتل، وشدة أخرى من الإجلاء عن أحب الأوطان إليهم، ثم كانت العاقبة للمتقين والحمد لله رب العالمين.

قال العلماء: في عصر جبريل النبي ﷺ دلالة على أنه ينبغي للمعلم أن يحتاط في تنبيه المتعلم، وأن يأمره بإحضار مجامع قلبه، وأن يكرر له ما يعلمه ثلاثاً، وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا تكلم بكلمته أعادها ثلاثاً لتفهم عنه.

وقد ورد في فضل تعليم القرآن وتعلمه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ

«يـــا أبا هريرة تعلم القرآن وعلمه للناس، ولا تزل كذلك حتى يأتيك الموت، فإذا أتـــاك الموت وأنت كذلك حجت الملائكة إلى قبرك كما يحج المؤمنون إلى بيت الله الحرام»(١).

وروي عنه ﷺ أنه قال **«إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً، فيقرأ صـــبياً من صبيانهم في الكتاب ﴿الْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ العَالَمِينَ﴾**[الفاتحة: ٢] **فيسمع الله عز وجل فيرفع عنهم العذاب أربعين سنة»**(٢).

وكذلك الواعظ ينبغي له أن يحتاط في أمر الحاضرين بإحضارهم قلوبهم ليفهموا ما يلقى إليهم، واستنبط القاضي شريح من هذا الحديث أن مؤدب الأطفال لا يزيد على ضـــرب الصبي على التعلم على ثلاث ضربات، كما عصر جبريل النبي ﷺ ثلاثاً وفي صـــبر النبي ﷺ حين عصره جبريل تنبيه على أن المتعلم ينبغي له أن يتواضع لمعلمه وإن كان أصغر منه.

قالوا: العلم حرب للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي.

وقال ابن عباس: ذللت طالباً ففزت مطلوباً.

وقال الإمام على كرم الله وجهه: من حق المعلم عليك أن تسلم على الناس عامة، وتخصـــه من دونهم بالتحية وأن تجلس أمامه ولا تشيرن عنده بيدك، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تغمزن بعينيك، ولا تقولن قال فلان خلافاً لقوله، ولا تساور في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذ كسل، ولا تعرض أي: تشبع من طول صحبته.

قـــال الـــنووي قـــدس الله سره: ولا نعلم إلا ممن كملت أهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته واشتهرت صيانته، فقد قال السلف الصالحون: هذا العلم دين فانظروا عمـــن تأخذون دينكم، فقال: جبريل غط النبي ﷺ ثلاث مرات ويقول له: اقرأ وهو يقول: ما أنا بقارئ في المرة الرابعة **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾**[العلق: ١، ٢، ٣] فقوله **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾** معـــناه: لا تقرأ القرآن بقوتك، ولا بمعرفتك، بل بحول ربك وإعانته فهو يعلمك كما خـــلقك، وكمـــا نزع عنك علق الدم ومغمز الشيطان في الصغر، وعلم أمتك حتى

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٥/٣٤٥، رقم ٨٣٨٥) عن أبي هريرة.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٢٥٦) وعزاه إلى الثعلبي وكثير من المفسرين عن حذيفة، ثم قال: حديث موضوع كما قاله الحافظ العراقي وغيره، وقيل: إنه ضعيف.

وذكره البيضاوي في التفسير (١/٨٤)، وأبو السعود في تفسيره (١/٢٠).

صارت تكتب بالقلم يعني أنها كانت أمية.

وقوله ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فيه إذن وإعلام بأن الإنسان أشرف المخلوقات قال القاضي أبو بكر ابن العربي ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان فإن الله تعالى خلقه حياً عالماً قادراً مريداً حكيماً وهذه صفات الرب سبحانه وتعالى.

وينبني على كون الإنسان أحسن المخلوقات سؤال وهو: ما لو قال شخص لزوجته: إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت طالق هل تطلق زوجته بذلك إن لم تكن أحسن من القمر أم لا؟

قال العلماء: إنها لا تطلق وإن كانت زنجية لقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤] إذ المراد به إحكام الخلقة وكمال العقل.

وقد وقعت هذه الواقعة في أيام الملك المنصور لموسى بن عيسى الهاشمي كان يحب زوجته حباً شديداً فقال لها: يوماً أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر، فنهضت واحتجبت عنه وقالت: طلقني فإن القمر أحسن مني وبات في ليلة عظيمة، فلما أصبح ذهب إلى دار المنصور فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور حزناً عظيماً إذ طلب المنصور العلماء واستفتاهم في ذلك، فقال جميع من حضر وقع عليه الطلاق، إلا واحد من أصحاب أبي حنيفة فإنه كان ساكتاً فقال المنصور: مالك لا تتكلم؟ فقال: لا تطلق يا أمير المؤمنين لأن الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يا أمير المؤمنين الإنسان أحسن الأشياء ولا شيء أحسن منه، فقال المنصور لعيسى بن موسى الأمر كما قال الرجل، أقبل على زوجتك، وأرسل المنصور إلى زوجته أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقكي.

وهذا الجواب ينقل عن إمامنا الشافعي ﷺ هذا إن أريد بالحسن إحكام العقل، وكما أن العقل فإن أريد به الجمال الظاهر أنها إذا كانت قبيحة الشكل تطلق، نبه عليه الأذرعي.

فإن قيل: الإنسان مخلوق من علقة واحدة كما في آية أخرى من نطفة ثم من علقة فكيف قال في هذه الآية ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾؟

فالجواب: أن المراد جنس الإنسان خلق من علق فهو في معنى الجمع.

فإن قيل: أي: مناسبة بين الخلق العلق، والتعليم بالعلم؟

فالجواب: إن الله سبحانه وتعالى نبه لقوله ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ٤، ٥] بعد قوله ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ على أن أدنى مراتب

الإنســـان كونه علقة، وأعلاها كونه عالماً، فالله سبحانه وتعالى امتـــن على الإنسان بنقله من أحسن المراتب وهي العلقة إلى أعلاها وهي العلم.

فإن قيل: لأي شيء خص الإنسان بالذكر بقوله ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ مع أن جميع الحيوانات مخلوقات من علق؟

فـــالجواب: أنه إنما خصه بالذكر ليبين قدر نعمته عليه فأعلمه أنه خلقه من نطفة مهينة حتى صار بشراً سوياً وعاقلاً مميزاً.

وقوله تعالى: ﴿**عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ قال العلماء: القلم نعمة من الله على عباده، وهو من أشـــرف المخـــلوقات لله، ولـــذا أقســـم به في كتابه العزيز فقال: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾[القلم: ١].

والقـــلم أول ما خلقه الله تعالى في الحديث عن أبي هريرة قال سمعت رسول ﷺ يقـــول: «**أول ما خلق الله القلم، ثم خلق النون وهي الدواة وذلك قوله تعالى ﴿ن وَالْقَـــلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ثم قال له: اكتب قال: وما اكتب؟ قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة**»(١).

وفي الحديـــث «**من عمل أو أجل أو رزق أو أثر، فجرى القلم بما هو كائن إلى**

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (١٢/١، رقم ٣)، والسمعاني في أدب الاملاء والاستملاء (١/ ١٥٨) عن أبي هريرة.

وهو حديث باطل فقد أخرجه ابن عدي في الكامل (٢٦٩/٦، ترجمة ١٧٥٣ محمد بن وهب بن عطية الدمشقي) قال ابن عدي بعد أن أخرج الحديث: وهذا بهذا الإسناد باطل منكر، وقال في نهاية الترجمة: ولمحمد بن وهب بن عطية غير حديث منكر و لم أر للمتقدمين فيه كلاما وقد رأيتهم قد تكلموا فيمن هو خير منه.

وترجم له الذهبي في الميزان (٣٦٢/٦، ترجمة ٨٣٠٤) وقال: قال ابن عدي: له غير حديث منكر، وقال أبو القاسم بن عساكر: ذاهب الحديث. وانظر: لسان الميزان (٤١٩/٥، ترجمة ١٣٧٩).

وقد فرق الحافظ بن حجر في تهذيب التهذيب (٤٤٦/٩)، بينه وبين رجل آخر في الثقات فقال: «محمد بن وهب بن مسلم القرشي... أورد له بن عدي حديثه عن الوليد عن مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة رفعه... فذكر الحافظ الحديث ثم قال: قال بن عدي: هذا باطل، لكن ظن ابن عدي أنه الأول فقال هو: محمد بن وهب بن عطية وليس كما ظن وقد فرق بينهما أبو القاسم بن عساكر فأصاب.

قلت فالضعيف منهما: محمد بن وهب بن مسلم القرشي.

والحديث ذكره العجلوني في كشف الخفا (٣٠٩/١) وعزاه إلى الحكيم الترمذي.

يوم القيامة»[1] ففي هذا الحديث دلالة على أن القلم هو المأمور بالكتابة.

قال ابن عباس: وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض.

قال القرطبي: ويقال خلق الله القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين فقال: اجر، فقال: يا رب بم أجرى؟ قال بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ، ووضع الله هذا القلم فوق عرشه.

وهل خلق قلماً واحداً لكتابة المقادير أو أقلاماً سيأتي بيان ذلك في حديث المعراج.

وفي قوله ﴿**عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ بعد قوله ﴿**عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ تنبيه على أنه كما يحصل التعلم بالقلم يحصل بتعليم الله تعالى بلا واسطة لأنه ﷺ لم يكن يكتب حتى تعلم بالقلم.

ومعنى قوله ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾[العلق: ٣] الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كريم، وينعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عليهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمته وارتكابهم المناهي، وتركهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم، فما لكرمه غاية ولا أمد.

وفي الحديث دليل على أن أول ما نزل من القرآن ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ إلى قوله ﴿**مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ١ - ٥].

وللعلماء في هذه المسألة أقوال أصحها أن أول ما نزل أوائل السورة ﴿**اقْرَأْ**﴾ إلى قوله ﴿**مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾.

وقيل: أول ما أنزل سورة الفاتحة، وقيل: بسم الله الرحمن الرحيم.

واختلف العلماء في آخر آية نزلت فقيل آية الربا وهي قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا**﴾[البقرة: ٢٧٨]، وقيل: آية الدين، وقيل: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...**﴾ إلى آخر السورة [التوبة: ١٢٨، ١٢٩]،

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٩/١٣)، والحكيم في نوادر الأصول (٣٥٤/٢) عن علي ابن أبي طالب.

قلت: وفي بعض ألفاظ حديث أبي هريرة السابق ورد هذا الخبر على أنه تمام له، كما في رواية السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (١٥٨/١).

والأرجح كما قاله ابن حجر وغيره: إن آخر ما أنزل قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٨١] لما فيها من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول.

وقسم العلماء القرآن باعتبار نزوله إلى مكي ومدني وسفري وحضري وليلي ونهاري، وبين الليل والنهار، وسماوي وأرضي، وإلى ما نزل بين السماء والأرض، وما نزل تحت الأرض، وإلى صيفي وشتائي، وإلى فراشي ونومي.

فأما المكي والمدني فالناس فيه اصطلاحات أشهرها المكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعدها سواء نزل بمكة وبالمدينة أم الفتح أو عام الوداع أم بسفر من الأسفار.

ومن فوائد معرفة القلب الفرق بينهما العلم فيكون ناسخاً أو مخصصاً، قال ابن الحصار: فالمدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتي عشرة سورة، والباقي مكي باتفاق.

وأما الحضري فأمثلته كثيرة.

وأما السفري فقليل بالنسبة إلى الحضري، ومن أمثلته قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ﴾[محمد: ١٣]، وقيل: إن النبي ﷺ لما توجه مهاجراً إلى المدينة وقف ونظر إلى مكة وبكى فنزلت.

ومن أمثلته أيضاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى...﴾ الآية [الحجرات: ١٣] نزلت بمكة يوم الفتح لما رقى بلال على ظهر الكعبة وأذن، فقال بعض الناس: هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة.

وأما النهاري فهو كثير نزل القرآن نهاراً.

وأما الليلي فهو قليل بالنسبة إلى النهار ومن أمثلته أيضاً ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧] وكان النبي ﷺ يحرس في أول الأمر ليلاً حتى نزلت، وأخرج رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله، ومن أمثلته أيضاً سورتي الأنعام ومريم فإنهما نزلتا ليلاً.

وأما الذي بين الليل والنهار أي: في وقت الصبح فمن أمثلته آية التيمم في المائدة، وقوله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران: ١٢٨].

وأما الأرضي فكثير.

وأما السماوي فمن أمثلته قوله تعالى ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ

وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾[البقرة: ٢٨٥] إلى آخرها نزلت هذه الآية ليلة الإسراء بقاب قوسين لما انتهى إلى سدرة المنتهى.

وأما ما نزل بين السماء والأرض فأربع آيات فقط في الصافات ﴿ **وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ...**﴾ الآيات الثلاث [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦]، وواحدة في الزخرف ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا...**﴾ الآية [الزخرف: ٤٥].

وأما ما نزل تحت الأرض وهو في الغار فسورة المرسلات كما في الصحيح عن ابن مسعود.

وأما الصيفي والشتائي فمن أمثلتها آية الكلالة قال الواحدي: أنزل الله في الكلالة آيتين أحدهما في الشتاء، وهي أول النساء، والأخرى في الصيف، وهي التي في آخرها.

وأما الفراشي فمن أمثلته ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[المائدة: ٦٧]، وآية الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض[1].

وأما النومي فمن أمثلته سورة الكوثر فقد روى مسلم عن أنس قال: بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ غفي إغفأة، ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: أنزل على آنفاً سورة فقرأ: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...**﴾ إلى آخرها.

ومن القرآن ما أنزل مرتين تعظيماً لشأنه وخوفاً من نسيانه فمن ذلك آية الروح، ومنه قوله تعالى ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ**﴾[هود: ١١٤]، وذكر قوم منهم الفاتحة وسورة سبحان.

وقيل: منه قوله تعالى ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[الإخلاص: ١] فإنها نزلت جواباً للمشركين بمكة ونزلت بأهل الكتاب بالمدينة.

ومن القرآن ما نزل آيات مفرقة وهو غالب القرآن ومنه ما نزل جمعاً أي: السورة بكمالها من غير تفريق آياتها كسورة الفاتحة والإخلاص والمعوذتين نزلتا معاً والمرسلات والأنعام من القرآن ما نزل مفرداً على يد جبريل فقط.

ومنه ما نزل مشيعاً أي: معه ملائكة كثيرون كسورة الأنعام نزلت ومعها سبعون

---

(١) وهي قوله تعالى في سورة التوبة الآية (١١٨): ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ألـــف مـــلك كما ورد عن أنس مرفوعاً بسند ضعيف أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب قال: «**نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتقديس والأرض ترتج**»(١).

وكذلك سورة الكهف سبعون ألف ملك.

ومن القرآن ما نزل على بعض الأنبياء كـــ ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ**﴾[الأعلى: ١].

فائدة: قوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾[النساء: ٥٨] نـــزلت على النبي ﷺ وهو في جوف الكعبة ولم ينـــزل في جوف الكعبة آية سواها، كما نبه على ذلك الدميري في أول كتاب الوديعة من شرح المنهاج.

ثم قـــالت عائشة رضي الله عنها: «**فرجع بها رسول الله ﷺ**» بالآيات التي علمه جبريل وهي ﴿**اقْـــرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...**﴾ إلى قوله ﴿**مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[العلق: ١ - ٥] قاصداً بيت خديجة يرجف فؤاده أي: يخفق ويضرب فالرجف من شدة الحركة، والفؤاد هو القلب، وقيل: إنه عين القلب، وقيل: باطن القلب، وقيل: غشاء القلب.

فإن قيل: أين علمت خديجة برجفان فؤاده؟

فالجواب: إما إنها رأته حقيقة، وإما إنها لم تره وعلمته بقرائن وصورة الحال، وإما أن رسول الله ﷺ أخبرها بذلك.

«**فدخـــل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني**» أي: دثروني، وجاء في رواية أخـــرى: «**دثروني وصبوا علي ماءاً بارداً**»(٢) وقال ذلك ﷺ لشدة ما لحقه من هول الأمر وشدة الضغط، ولولا ما جبل ﷺ عليه من الشجاعة والقوة ما استطاع على تلقي ذلك لأن الأمر جليل.

«**فزملوه حتى ذهب عنه الروع**» أي: الفزع.

«**فقال لخديجة وأخبرها الخبر**» أي: خبر ما وقع له من مجيء الملك وغطه وقوله له

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٧٠، رقم ٢٤٣٣).

ورواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٧/٢٠) قال الهثيمي: رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبدالله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي ولم أعرفها وبقية رجاله ثقات.

وأخرجه أيضاً: معجم شيوخ (٢/٥٥٢).

(٢) هذه الرواية عند البخاري أيضاً في الصحيح (٤/١٨٧٤، رقم ٤٦٣٨) من حديث جابر.

وأيضاً: عند أحمد في مسنده (٣/٣٩٢، رقم ١٥٢٥١)، وابن حبان في صحيحه (١/٢٢٠، رقم ٣٤).

اقرأ أو غير ذلك.

«**لقد خشيت على نفسي**» أي: خفت عليها، وهو جواب قسم محذوف أي: والله لقد خشيت، وهو مقول قال، أي: قال النبي ﷺ بعد أن أخبرها بخبر ما وقع مع جبريل، لقد خشيت على نفسي.

قال شيخ الإسلام شهاب الدين ابن حجر: اختلف العلماء في مراده ﷺ بالخشية المذكورة على اثنى عشر قولاً:

فقيل: خشي أن يحصل له عند رؤية جبريل الجنون وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة.

وقيل: خشي من العجز على أعباء النبوة.

وقيل: خشي أن يعجز عن النظر إلى الملك من الرعب.

وقيل: خشي من عدم الصبر على أذى قومه.

وقيل: خشي من أن يقتلوه.

وقيل: خشي من مفارقة الوطن وقيل خشي من تكذيبهم إياه.

وقيل: خشي من تعييرهم إياه.

والراجح: كما قاله ابن حجر من الأقوال أنه خشي من الموت من شدة الرعب أو من المرض أو دوام المرض [(١)].

فائدة: يستفاد من كون النبي ﷺ لم يخبر خديجة إلا بعد أن ذهب عنه الفزع أن العالم في حال خوفه ينبغي أن لا يسأل عن شيء حتى يزول عنه فزعه، وكذلك القاضي ينبغي أن لا يقض في حال فزعه، ولا يرفع إليه أمر في تلك الحال حتى أن الإمام مالك ﷺ قال: إن الخائف المذعور لا يصح بيعه ولا إقراره، ولا غيره.

قال: «**لقد خشيت على نفسي قالت له: خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً**» معنى «كلا» هنا النفي والإبعاد أي: لا والله ما يخزيك الله أبداً أي: ما يفضحك ويهينك، ورواه مسلم «يحزنك» من الحزن خلاف السرور، ويجوز على هذا فتح الياء وضمها فيقال «يَخزيك ويُخزيك»، فإنه جاء: «أحزنه وحزنه» لغتان فصيحتان قرئ بهما في السبع قال تعالى ﴿**لاَ يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ**﴾[الأنبياء: ١٠٣] من حزن ﴿**قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ**﴾[يوسف: ١٣] من أحزن على قراءة من قرأ بضم الياء.

فائدة: الفرق بين الهم والحزن أن الحزن يكون على أمر قد وقع، كأن مات له ميت

---

(١) انظر الفتح (١/٧٤).

فيحزن عليه، واما الهم فإنه يكون على أمر مستقل متوقع الوقوع و لم يقع.

ثم قالت له خديجة «**إنك لتصل الرحم**» أي: لتحسن إلى أقاربك، فيه دلالة على استحباب صلة الرحم، وهو الإحسان إلى الأقارب، فتارة تكون صلة الرحم بالمال، وتارة بالخدمة، وتارة بالزيادة، وتارة بالسلام، وتارة بغير ذلك.

«**وتحمل الكل**» أي: الثقل، والمعنى: أنك تعين الضعيف، وترفع ما عليه من الثقل.

«**وتكسب المعدوم**» الرواية الفصيحة[1] الكثيرة المشهورة «تكسب» بفتح التاء واختلف في معناه على خمسة أقوال:

فقيل: معناها وتعين المحتاج، فإن الرجل المحتاج العاجز عن الكسب كالمعدوم البت، أي: تعين هذا الذي كالمعدوم لعجزه فتعينه، وقيل في معناها غير ذلك.

وروي «تكسب» بضم أوله بمعنى تكسب غيرك المال المعدوم، أي: تعطيه إياه فحذف أول مفعوله، وقيل: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من مكارم الأخلاق والعلوم وغير ذلك.

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٥): في رواية الكشميهني وتكسب بضم أوله، وعليها قال الخطابي: الصواب المعدم بلا واو أي الفقير، لأن المعدوم لا يكسب.

قلت: ولا يمتنع أن يطلق على المعدم المعدوم لكونه كالمعدوم الميت الذي لا تصرف له، والكسب هو الاستفادة، فكأنها قالت: إذا رغب غيرك أن يستفيد مالا موجوداً رغبت أنت أن تستفيد رجلاً عاجزاً فتعاونه.

وقال قاسم بن ثابت في الدلائل: قوله يكسب معناه: ما يعدمه غيره ويعجز عنه يصيبه هو ويكسبه.

قال أعرابي يمدح إنساناً: كان أكسبهم لمعدوم، وأعطاهم لمحروم وأنشد في وصف ذئب «كسوب كذا للمعدوم من كسب واحد» أي: مما يكسبه وحده، (انتهى).

ولغير الكشميهني «وتكسب» بفتح أوله، قال عياض: وهذه الرواية أصح.

قلت: قد وجهنا الأولى، وهذه الراجحة، ومعناها: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك، فحذف أحد المفعولين، ويقال: كسبت الرجل مالاً وأكسبته بمعنى.

وقيل: معناه تكسب المال المعدوم وتصيب منه مالا يصيب غيرك. وكانت العرب تتمادح بكسب المال، لا سيما قريش.

وكان النبي ﷺ قبل البعثة محظوظاً في التجارة. وإنما يصح هذا المعنى إذا ضم إليه ما يليق به، من أنه كان مع إفادته للمال يجود به في الوجوه التي ذكرت في المكرمات.

«**وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق**»[١] أي: على حوادث الحق، ومعنى كلام خديجة: أنك لا يصيبك مكروه لما جعله الله فيك من مكارم الأخلاق وجميل الصفات، فخصال الخير سبب للسلامة من مصارع السوء، والمكارم سبب لدفع المكاره، وفي هذا دليل على جواز مدح الإنسان في وجهه لمصلحة نظراً لما ذُكر.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «**احثوا في وجوه المداحين التراب**»[٢] فهو محمول على المدح بباطل أو يؤديه باطل.

وفيه دليل على أنه ينبغي لمن حضر عند من حصل له مخافة من شيء أن يذكر له أسباب السلامة، وأن يذكر ما فيه من الفضائل كما فعلت خديجة مع النبي ﷺ.

وفيه أبلغ دليل على كمال خديجة وجزالة رأيها وقوة نفسها وعظمتها، جمعت رضي الله عنها جميع أنواع المكارم وأمهاتها.

ويدل على كمال عقلها وقوة معرفتها ما ذكره ابن إسحاق أنها قالت لرسول الله ﷺ «أي ابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم. قالت: فإذا جاءك فأخبرني به فجاءه جبريل عليه السلام فقال رسول الله ﷺ لخديجة رضى الله عنها: هذا جبريل عليه السلام قد جاءني، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى قال: فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٦): وقولها: «وتعين على نوائب الحق» هي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولما لم يتقدم.

وفي رواية البخاري في التفسير من طريق يونس عن الزهري من الزيادة: «وتصدق الحديث» وهي من أشرف الخصال.

وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه في هذه القصة «وتؤدي الأمانة».

وفي هذه القصة من الفوائد استحباب تأنيس من نزل به أمر، بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه، وأن من نزلت به أمر استحب له أن يطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/١٢٤، رقم ٣٣٩)، ومسلم في صحيحه (٤/٢٢٩٧، رقم ٣٠٠٢)، والترمذي في سننه (٤/٥٩٩، رقم ٢٣٩٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في سننه (٢/١٢٣٢، رقم ٣٧٤٢)، وأحمد في مسنده (٦/٥، رقم ٢٣٨٧٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/٢٢٧، رقم ٢٩٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٢٣٩، رقم ٥٦٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/٢٩٧، رقم ٢٦٢٥٩)، وفي مسند الشاميين (١/٢٧٤، رقم ٤٧٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٤١٣، رقم ٧١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٤٢، رقم ٢٠٩٢٦) جميعا عن المقداد بن عمرو.

واقعد على فخذي الأيمن فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يا ابن عم أثبت وأبشر فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان»[1].

وجاء في رواية أخرى: أنه لما كمل من العمر أربعون سنة قال لخديجة دعيني أتحنث، فكانت تصنع له الكعك والزبيب ثم يخرج إلى أجياد الأصغر، وقيل إلى غار حراء، فخرج يوماً فهتف به جبريل عليه السلام ولم يبد له، فغشي عليه، فجاء المشركون إليها وقالوا: دونك يا خديجة قد تزوجت مجنوناً فضمته إلى صدرها ووضعت رأسه في حجرها، وقبلته بين عينيه وقالت: تزوجت نبياً مرسلاً، فلما أفاق قالت: بأبي أنت وأمي ما الذي أصابك هل رأيت شيئاً أنكرته؟ فقال: ما أصابني إلا أني سمعت صوتاً أفزعني، ففرحت خديجة واستبشرت ثم قالت: من الغد فعد إلى الموضع الذي كنت فيه بالأمس فإن يك ملكاً فسيرجع لك، وإن يك شيطان فليس براجع، فلما كان اليوم الآخر خرج رسول الله ﷺ حتى أتى الموضع، فهتف جبريل ولم يبد له، فغشي عليه فحملوه إليها قال: وفرحت قريش بذلك وقالوا: يتخبطه الشيطان، فحملوه إليها وقالوا مثل القول الأول، فردت عليهم مثل القول الأول، فلما أفاق سألته وقالت: بأبي وأمي رأيت اليوم شيئاً فقص عليها القصة ففرحت وقالت: إذا كان من الغد فارجع فرجع من الغد إلى موضعه فبدا له جبريل في أحسن صورة وأطيب رائحة فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك أنت رسولي إلى الثقلين الإنس والجن، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله، ثم قال: ألا تعرفني؟ قال: لا، قال: أنا جبريل وأنت محمد، ولا نبي بعدك، وعرج جبريل إلى السماء، وخرج رسول الله ﷺ من أجياد الأصغر وما مر بحجر أو شجر إلا وهو ينادي: السلام عليك يا رسول الله، حتى ذهب إلى خديجة وأخبرها بالكرامة التي أكرمه الله بها من الرسالة، فغشي عليها من الفرح، فنضح عليها الماء حتى أفاقت فآمنت بالله ورسوله وانشدوا في المعنى:

رموا بالجنون نبي الورى ... وتاج الكرام ومزن الأوام
وقالوا خديجة هذا الذي ... ملأت به قلبك المستهام

---

(١) أخرجه الدولابي في الذرية الطاهرة (١/٣٥)، والطبري في التاريخ (١/٥٣٣) كلاهما من طريق ابن إسحاق.
وانظر: السيرة لابن هشام (٢/٧٥).

أصـــابته مـــن بينـــنا غشـــية فهـــا هـــو مـــا إن يـــبين الكلام
فقـــالت لهـــم أنـــتم بـــالذي تقولـــون أحـــرى بـــرب الأنام
فخـــلوا حبيـــبـــي وسيروا فما يؤثـــر فيـــه عـــندي المـــلام
فضـــمته شـــوقاً إلى صـــدرها وقـــالت محمـــد مـــاذا الهيـــام
فقـــال لهـــا جـــاءني آنفـــاً مـــن الله جـــبريل يقـــرئ السلام
عـــلي ويخـــبرني أنـــني رســـول الإلـــه لهـــذا الأنـــام
ألا فأســـلمي تســـلمي من لظى فـــإنك أولى بهـــذا المقـــام
فقـــالت له إنـــني قـــد شهدت بـــأن الإلـــه قـــديم الـــدوام

وكان ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه أو تكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها، فتثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس.

جـــاء في رواية: أن رسول الله ﷺ قال: خرجت أي: من الغار حتى إذا كنت في وســـط الجـــبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل فـــرفعت رأسي فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، فلا أنظر في ناحيـــة إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي، حتى بعثت خديجـــة رســـلها في طلبي ثم انصرف عني وانصرفت إلى أهلي، فقالت خديجة: يا أبا القاســـم أين كنت؟ فو الله لقد بعثت رسلي في طلبك، فحدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر واثبت فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[1].

وقولها «**فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة**[2]».

---

(١) هذه رواية ابن إسحاق فى السيرة (٢/١٠٠، رقم ١٤٠).

وأخرجه الطبري فى التاريخ (١/٥٣٢)، وابن عساكر فى التاريخ (٦٣/١٢)، والفاكهي فى أخبار مكة (٤/٨٦، رقم ٢٤٢٠) جميعاً من طريق ابن إسحاق.

وأورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١١) بقوله: «وقال ابن اسحاق: حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي وكان داعية عن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته... فذكره».

وانظر السيرة النبوية (٢/٦٩)، والسيرة الحلبية (١/٣٨٥)، والإكتفاء للكلاعى (١/٢٠٢).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٦): قوله: «فانطلقت به» أي مضت معه، فالباء للمصاحبة. =

إنما كان ورقة ابن عم خديجة لأنها: خديجة بنت خويلد بن أسد، وهو: ورقة بن نوفل بن أسد، وورقة كان من علماء قريش وشعرائهم، وكان يدعى القس، وكان يعرف اللسان العربي والعبراني أي: صار نصرانياً وترك عبادة الأوثان، وفارق طريق الجاهلية.

والجاهلية: المدة التي قبل نبوة رسول الله ﷺ لما كانوا عليه من فاحش الجهالات، وقيل: هو زمن من الفترة مطلقاً.

«**وكان أي: ورقة يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب**» هكذا وقع هنا ووقع في كتاب «التصبير» وفي مسلم[1]: «**وكان يكتب الكتاب العربي بالعربية**»[2].

قال النووي: وحاصلة أنه تمكن من معرفة دين النصارى وكتابتهم، وتصرف حتى

= وورقة بفتح الراء. وقوله: «ابن عم خديجة» هو بنصب ابن ويكتب بالألف، وهو بدل من ورقة أو صفة أو بيان، ولا يجوز جره فإنه يصير صفة لعبد العزى، وليس كذلك، ولا كتبه بغير ألف لأنه لم يقع بين علمين.

قوله: «تنصر» أي: صار نصرانياً، وكان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل، لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألون عن الدين، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر، وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى ولم يبدل، ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشارة به، إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل.

(١) انظر صحيح مسلم (١/١٣٩، رقم ١٦٠).

وحديث بدء الوحي وما كان من خديجة وورقة ابن عمها عند أبو عوانة في مسنده (١/١٠٢، رقم ٣٢٨)، وابن منده فى الإيمان (٢/٦٨٩، رقم ٦٨١)، والبيهقي فى السنن الكبرى (٩/٥، رقم ١٧٤٩٩)، والدولابي في الذرية الطاهرة (ص ٣٣، رقم ٢٢).

وانظر: السيرة لابن هشام (٢/٢١٧).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٦): قوله: «فكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية».

وفي رواية يونس ومعمر: ويكتب من الإنجيل بالعربية، ولمسلم: فكان يكتب الكتاب العربي، والجميع صحيح، لأن ورقة تعلم اللسان العبراني والكتابة العبرانية فكان يكتب الكتاب العبراني كما كان يكتب الكتاب العربي، لتمكنه من الكتابين واللسانين.

ووقع لبعض الشراح هذا خبط فلا يعرج عليه وإنما وصفته بكتابة الإنجيل دون حفظه لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن متيسراً، كتيسر حفظ القرآن الذي خصت به هذه الأمة، فلهذا جاء في صفتها: «أناجيلها صدورها».

صار يكتب الإنجيل إن شاء بالعربية، وإن شاء بالعبرانية.

قال ابن الملقن: فيه دليل على جواز ذكر العاهة بالشخص ولا يكون ذلك غيبة.

«**فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك**» وفي رواية «**يا عم**»[1].

قال الكرماني: وكلاهما صحيح فإن ورقه كان ابن عم خديجة حقيقة كما في رواية البخاري، وسمته عمها كما في رواية مسلم مجازاً للاحترام، وهذا عادة العرب يخاطب الصغير الكبير بقوله له يا عم احتراماً له ورفعاً لمرتبته.

وقول خديجة لورقة «**اسمع من ابن أخيك**» يقضي أن ورقة كان عماً لرسول الله ﷺ مع أنه ليس من أعمامه لكن أولو ذلك بأنها جعلته عماً له ﷺ احتراماً له واستعطافاً على سبيل المجاز، وقيل غير ذلك.

«**فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس**» اتفق على أن جبريل يسمى الناموس، وعلى أنه المراد في هذا الحديث، ومعنى الناموس في اللغة: صاحب سر الخير، والجاسوس: صاحب سر الشر، سمي جبريل بذلك لأنه تعالى خصه بالغيب والوحي الذي يطلع عليه غيره، وإنما قال ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، ولم يقل على عيسى مع أنه الأقرب وورقة قد تنصر وكتب الإنجيل، لأن موسى متفق عليه على رسالته بين اليهود والنصارى بخلاف عيسى فإن بعض اليهود ينكرون نبوته، أو لأن النصارى يتبعون أحكام التوارة

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٧): قولها: «يا ابن عم» هذا النداء على حقيقته، ووقع في مسلم «يا عم» وهو وهم، لأنه وإن كان صحيحاً لجواز إرادة التوقير لكن القصة لم تتعدد ومخرجها متحد، فلا يحمل على أنها قالت ذلك مرتين، فتعين الحمل على الحقيقة، وإنما جوزنا ذلك فيما مضى في العبراني والعربي لأنه من كلام الراوي في وصف ورقة، واختلفت المخارج فأمكن التعداد، وهذا الحكم يطرد في جميع ما أشبهه.

وقالت في حق النبي ﷺ: «اسمع من ابن أخيك» لأن والده عبد الله بن عبد المطلب وورقة في عدد النسب إلى قصي بن كلاب الذي يجتمعان فيه سواء، فكان من هذه الحيثية في درجة إخوته.

أو قالته على سبيل التوقير لسنه، وفيه إرشاد إلى أن صاحب الحاجة يقدم بين يديه من يعرف بقدره ممن يكون أقرب منه إلى المسؤول، وذلك مستفاد من قول خديجة لورقة: «اسمع من ابن أخيك» أرادت بذلك أن يتأهب لسماع كلام النبي ﷺ وذلك أبلغ في التعليم.

قوله: «ماذا ترى؟» فيه حذف يدل عليه سياق الكلام، وقد صرح به في دلائل النبوة لأبي نعيم بسند حسن إلى عبد الله بن شداد في هذه القصة قال: فأتت به ورقة ابن عمها، فأخبرته بالذي رأى.

ويرجعون إليها[1].

ثم قـــال ورقة للنبي ﷺ: «**ياليتني فيها**» أي: في أيام نبوتك أو دعوتك أو دولتك «**جذعاً**» يعني شاباً فتياً قوياً حتى أبالغ في نصرتك، ويكون لي كفاية تامة لذلك.

وها هنا سؤالان:

أحدهمـــا: فإن قيل: كيف أدخل حرف النداء في «يا ليتني» على حرف التمني، وحـــرف الـــنداء من خواص الاسم، ويأتي السؤال في قوله تعالى ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا**﴾[مريم: ٢٣].

وأجيب عنه بجوابين

أحدهمـــا: أنـــه محمول على حذف المنادى تقديره: يا محمد ليتني كنت فيها حياً وضعفه ابن مالك بأن القائل قد يكون وحده لا يكون معه منادى ثابت، ولا محذوف كما في الآية.

ثانيهمـــا: أن «يا» حرف تنبيه كـــ «ألا» في قول من قال: ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة.

---

(١) فصل القول لابن حجر في هذه المسألة فقال: وقوله: «على موسى» ولم يقل: على عيسى مع كونه نصرانياً، لأن كتاب موسى عليه السلام مشتمل على أكثر الأحكام، بخلاف عيسى.

وكذلك النبي ﷺ، أو لأن موسى بعث بالنقمة على فرعون ومن معه، بخلاف عيسى.

كذلك وقعت النقمة على يد النبي ﷺ بفرعون هذه الأمة وهو: أبو جهل بن هشام ومن معه ببدر، أو قاله تحقيقاً للرسالة، لأن نزول جبريل على موسى متفق عليه بين أهل الكتاب، بخلاف عيسى فإن كثيراً من اليهود ينكرون نبوته.

وأما ما تمحل له السهيلي من أن ورقة كان على اعتقاد النصارى في عدم نبوة عيسى ودعواهم أنه أحد الأقانيم فهو محال، لا يعرج عليه في حق ورقة وأشباهه ممن لم يدخل في التبديل ولم يأخذ عمن بدل. على أنه قد ورد عند الزبير بن بكار من طريق عبد الله بن معاذ عن الزهري في هذه القصة أن ورقة قال: ناموس عيسى.

والأصح ما تقدم، وعبد الله بن معاذ ضعيف، نعم في دلائل النبوة لأبي نعيم بإسناد حسن إلى هشام بن عروة عن أبيه في هذه القصة، أن خديجة أولاً أتت ابن عمها ورقة فأخبرته الخبر فقال: «لئن كنت صدقتني، إنه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو إسرائيل أبناءهم» فعلى هذا فكان ورقة يقول تارة: ناموس عيسى وتارة ناموس موسى، فعند إخبار خديجة له بالقصة، قال لها: ناموس عيسى، بحسب ما هو فيه من النصرانية، وعند إخبار النبي ﷺ له قال له: ناموس موسى للمناسبة التي قدمناها، وكل صحيح. والله سبحانه وتعالى أعلم. انظر: الفتح (١/٧٨).

السؤال الثاني: فإن قيل: كيف وقع «جذعاً» هنا منصوباً وليت عملها تنصب الاسم وترفع الخبر، وجذعاً خبرها؟

أجيب عنه بأجوبة:

الأول: أنه منصوب بليت بناء على نصبها الجزئين كما في قول الشاعر: «يا ليت أيام الصبا» وهو قول الكسائي.

والثاني: أنه منصوب على الحال وخبر «ليت» فيها، وهذا القول للقاضي عياض والسهيلي، وقال النووي: أنه الصحيح الذي اختاره المحققون، وقيل: محذوف تقديره: يا ليتني فيها أو موجوداً في حال فتوة.

الثالث: أنه منصوب على أنه خبر كان مقدر أي: ليتني كنت فيها جزعاً، يؤيده قوله بعده: «ليتني أكون حياً» قاله الخطابي، ورد بأن كان الناقصة إنما يطرد حذفها بعد إن ولو.

الرابع: ليت أتمنى فنصب الجزئين قاله الفراء، ورد بأنه راجع للأول.

ثم قال ورقة للنبي ﷺ «**ليتني كنت حياً إذ يخرجك قومك**» استعملت «إذ» هنا موضع «إذا» للاستقبال، من باب تنزيل المستقبل المقطوع بوقوعه منزلة الماضي الواقع[1].

---

(١) في هذا المقام لمحة لغوية لطيفة أوردها ابن حجر في الفتح (١/٧٩) فقال: قوله: «إذ يخرجك» قال ابن مالك: فيه استعمال «إذ» في المستقبل كإذا، وهو صحيح، وغفل عنه أكثر النحاة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾[مريم: ٣٩] هكذا ذكره ابن مالك وأقره عليه غير واحد.

وتعقبه شيخنا شيخ الإسلام: بأن النحاة لم يغفلوه بل منعوا وروده، وأولوا ما ظاهره ذلك وقالوا في مثل هذا: استعمل الصيغة الدالة على المضي لتحقق وقوعه فأنزلوه منزلته، ويقوي ذلك هنا أن في رواية البخاري في التعبير «حين يخرجك قومك» وعند التحقيق ما ادعاه ابن مالك فيه ارتكاب مجاز، وما ذكره غيره فيه ارتكاب مجاز، ومجازهم موسى، لما ينبني عليه من أن إيقاع المستقبل في صورة المضي، تحقيقاً لوقوعه أو استحضاراً للصورة الآتية في هذه دون تلك مع وجوده في أفصح الكلام، وكأنه أراد بمنع الورود ورودا محمولاً على حقيقة الحال لا على تأويل الاستقبال.

وفيه دليل على جواز تمني المستحيل إذا كان في فعل خير، لأن ورقة تمنى أن يعود شاباً، هو مستحيل عادة.

ويظهر لي أن التمني ليس مقصوداً على بابه، بل المراد من هذا التنبيه على صحة ما أخبره به، =

فلما قال ذلك قال للنبي ﷺ قال له رسول الله ﷺ «**أو مخرجي هم؟**» هذا استفهام إنكاري على وجه التفجع والتألم، كأنه استبعد ﷺ أن يخرجوه من حرم الله وجوار بيته، وبلدة أبيه إسماعيل من غير سبب، فإنه ﷺ لم يكن منه فيما مضى ولا فيما سيأتي سبب يقتضي إخراجاً، بل كانت منه المحاسن الظاهرات والكرامات المقتضية لإكرامه وإنزاله بأعلى الدرجات، أنفسنا له الفداء ﷺ.

فلما قال: «**أو مخرجي هم**[1]**؟ قال له ورقة: نعم لم يأت رجل قط مثل ما جئت به إلا عودي**[2]» يعني: أن أهل الحق لا يخلون من أهل الباطل يعادونهم ولله در القائل:

إن العرانين تلقاها محسدة ... ولا ترى للئام الناس حساداً

«**وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً**» أي: إن بقيت إلى يوم انتشار نبوتك أو يوم يخرجك قومك أنصرك نصراً قوياً بليغاً.

«**ثم لم ينشب ورقة**» أي: لم يلبث[3].

= والتنويه بقوة تصديقه فيما يجيء به.

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٩): قوله: «أو مخرجي هم» بفتح الواو وتشديد الياء وفتحها جمع مخرج، فهم مبتدأ مؤخر، ومخرجي خبر مقدم، قاله ابن مالك، واستبعد النبي ﷺ أن يخرجوه، لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج، لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق التي تقدم من خديجة وصفها. وقد استدل ابن الدغنة بمثل تلك الأوصاف على أن أبا بكر لا يخرج.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/٧٩): قوله: «إلا عودي» وفي رواية يونس «إلا أوذي» فذكر ورقة أن العلة في ذلك مجيئه لهم بالانتقال عن مألوفهم، ولأنه علم من الكتب أنهم لا يجيبونه إلى ذلك، وأنه يلزمه لذلك منابذتهم ومعاندتهم فتنشأ العداوة من ثم، وفيه دليل على أن المجيب يقيم الدليل على ما يجيب به إذا اقتضاه المقام.

(٣) قال ابن حجر في الفتح (١/٨٠): قوله: «ثم لم ينشب» بفتح الشين المعجمة أي: لم يلبث. وأصل النشوب التعلق، أي: لم يتعلق بشيء من الأمور حتى مات.

وهذا بخلاف ما في السيرة لابن إسحاق أن ورقة كان يمر ببلال وهو يعذب، وذلك يقتضي أنه تأخر إلى زمن الدعوة، وإلى أن دخل بعض الناس في الإسلام.

فإن تمسكنا بالترجيح فما في الصحيح أصح، وإن لحظنا الجمع أمكن أن يقال: الواو في قوله: وفتر الوحي، ليست للترتيب، فلعل الراوي لم يحفظ لورقة ذكراً بعد ذلك في أمر من الأمور، فجعل هذه القصة انتهاء أمره بالنسبة إلى علمه لا إلى ما هو الواقع.

وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الورع، وليحصل له التشوف إلى العود، فقد روى البخاري في كتاب التعبير من طريق معمر ما يدل على ذلك.

«**أن توفى وفتر الوحي**» أي: احتبس بعد تتابعه في النـــزول، وسنذكره في المجلس الآتي ببيان مدة الفترة.

فائدة: قال الكرماني: فإن قلت: ما قولك في ورقة أيحكم بإيمانه؟

قـــلت: لا شـــك أنه كان مؤمناً بعيسى، وأما الإيمان بنبينا ﷺ فلم يعلم أن دين عيسى قد نسخ عند وفاته أم لا، ولئن ثبت أنه كان منسوخاً في ذلك الوقت فالأصح أن الإيمان التصديق، وقد صدقه من غير أن يذكر ما ينافيه والله اعلم.

وقال البرماوي: علم من هذا أي: من قوله: «يا ليتني فيها جذعاً» إلى قوله: «وإن يدركـــني يومـــك أنصرك نصراً مؤزراً» أن ورقة آمن، لتصديقه الرسالة بنبينا ﷺ بل يكـــون بذلـــك أول من أسلم من الرجال كما قاله البلقيني، خلافاً لما قاله العراقي في سيرته من أنه ثاني من أسلم حيث قال:

فهـــو الـــذي آمـــن بعـــد ثانياً ... وكـــان بـــراً صـــادقاً مواتيـــاً

ومـــنع بعضهم من إيمانه وقال: إنه أدرك نبوة النبي ﷺ لا رسالته، وهذا مردود في كـــتب السير من أن رسول الله ﷺ لما حضر عنده قال له: أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل موسى، وأنك نبي مرسل وأنك ستؤمر بالجهاد وإن أدرك ذلك لأجاهدن معك.

فإن هذا يدل على إيمانه بعد رسالته، ويدل عليه أيضاً ما في المستدرك الحاكم «**لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين**»[1].

وفي حديث آخر «**رأيته وعليه حلة خضراء يدخل في الجنة**»[2].

وكان يذكر الله في شعره في الجاهلية ويسبحه، ومن قوله كما قاله الجوزي رحمه لله تعالى:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٦٦/٢، رقم ٤٢١١) عن عائشة، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

وأخرجه أيضاً: الديلمي في الفردوس (١٣/٥، رقم ٧٢٩٧).

وأخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (٤١٦/٩) قال الهيثمي: رواه البزار متصلا ومرسلا وزاد في المرسل: «كان بين أخي ورقة وبين رجل كلام فوقع الرجل في ورقة ليغضبه...» والباقي بنحوه ورجال المسند والمرسل رجال الصحيح.

وأورده الحافظ في فتح الباري (٧٢٠/٨) وسكت عنه.

(٢) لم نقف على هذه الرواية.

سبحان ذي العرش سبحاناً نعوذ به ... وقبل سبحه الجودي والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له ... لا ينبغي أن ينادي ملكه أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله يودي المال والولد
أين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد[1]

وأنشد أيضاً حين أتته خديجة بالنبي ﷺ:

فإن يك حقاً يا خديجة فاعلمي ... حديثك إيانا فأحمد مرسل
وجبريل يأتيه وميكال معهما ... من الله وحي يشرح الصدر منزل

قال ابن الملقن: وغيره اشتمل هذا الحديث على درر وفوائد:

منها: أن الدراية منه ﷺ لا بسبب، لأنه ﷺ جبل على الخير ابتداء من غير أن يكون معه من يحضره عليه، فحبب إليه الخلوة لأنها عبادة.

ومنها: أن التبتل الكلي والانقطاع الدائم ليس من السنة، فإنه عليه الصلاة والسلام لم ينقطع بالكلية بل في شهر رمضان، ثم يرجع إلى أهله.

ومنها: أن العبادة لا تكون على إعطاء الحقوق الواجبة وتوقيتها، لأنه ﷺ لم يكن يرجع إلى أهله لإعطاء حقهم، فكذا غيره من الحقوق.

ومنها: أن الرجل إذا كان صالحاً لنفسه تابعاً للسنة، يرجو أن الله يؤنسه الله بالمرائي الحميدة، إذا كان في زمان مخالفة وبدع.

ومنها: أن البداية ليست كالنهاية لأنه ﷺ أول ما بدئ في نبوته بالرؤيا ثم ترقى حتى جاءه الملك يقظة، ثم ما زال في الترقي حتى كان قاب قوسين أو أدنى كذلك الاتباع يترقون في مقام الولايات ما عدا مقام النبوة حتى ينتهوا إلى مقام المعرفة والرضا فمن نال مقاماً فدام عليه بأدبه ترقى إلى ماهو أعلى منه، ويشهد لذلك ما حكي عن بعضهم أنه ما زال في الترقي حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فنودي: هنا سُري بذات محمد السنية حيث سَرى سيرك، ولا يصل ولي أن يعرج بروحه وجسده في حال اليقظة إلى السماء، ومن ادعى ذلك فهو زنديق كافر يقتل.

ومنها: أن فيه دليلاً على أن المربي أفضل من غيره.

ومنها: أنه يدل على أن الأولى بأهل البداية الخلوة والاعتزال، ويدل على أن

---

(١) أورد هذه الأبيات لورقة الكلاعي في الإكتفاء (١/١٩٤)، والسهيلي في الروض الأنف (١/٣٣٠)، والحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٩٨).

الخلوة عون الإنسان على تعبده وصلاحه.

ومـــنها: أن فيه دلالة على مشروعية الزاد لدخول الخلوة إذ يحصل بسببه إظهار وصـــف العبودية، ويحصل بتركه العجب والادعاء، ولهذا كان بعض أهل الطريق إذا دخل لخلوته أخذ رغيفاً وألقاها تحت وسادته وواصل أياماً.

حكـــى الكمـــال الدميرى في «المهر» من حياة الحيوان عن أبي عبد الله محمد بن حســـان البسري أنه كان إذا جاء رمضان دخل بيتاً وقال لامرأته: غلقي علي الباب وألقـــي عـــلي كل ليلة من الكوة رغيفاً، فإذا كان يوم العيد فتحت الباب، ودخلت فوجدت الثلاثين رغيفاً في زاوية البيت، فلا يأكل ولا يشرب ولا ينام ﷺ.

وحكي من كراماته أنه كان في غزوة في فلاة من الأرض، فمات مهره الذي كان يركـــبه فقال: اللهم أعرنا إياه فقام المهر فلما وصل بيته أخذ السرج عنه فسقط ميتاً، وهو منسوب إلى بصرى قرية الشام فأبدلت الصاد سينا.

وفي اتخاذ الزاد في الخلوة فائدة أخرى وهي قطع تشوف النفس وقلقها اتخاذه لينافي التوكل فقد اتخذه سيد المتوكلين ﷺ.

ومـــنها: أن فيه دليلاً على أن الإنسان إذا خرج لتعبده أن يعلم أهله لأنه معرض للآفات.

ومنها: أن فيه دلالة وإشارة إلى التسلي والصبر عند الحوادث، والوعد بالنصر كما في خلقه من علقة ثم طوره وأخرجه إلى الوجود.

ومنها: أن فيه دلالة على جواز تأديب المعلم للمتعلم، وأن كتاب الله لا يؤخذ إلا بقـــوة لأن جـــبريل ضمه -عليه الصلاة والسلام- إليه لتلقي ما يلقى عليه من القرآن بقوة، قال الله تعالى ليحيى ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾[مريم: ١٢].

ومـــنها: أن فيـــه دلالة لما يقول الصوفية من أن التحلي لا يكون إلا بعد التخلي فيتخلى أولاً عن القبائح والرذائل، ثم يتحلى بالخصال الحميدة.

وفيه دلالة على أن التحلي قسمان: مكتسب، وفيض من الرب جل جلاله، وقد جمعـــا له -عليه الصلاة والسلام- بالتحنث والغط، وقد يجتمعان لأفراد من أمته وقد ينفرد بعض بالكسب وبعض بالفيض، كالفضيل بن عياض وابن أدهم وكثيراً ما هم.

ومـــنها: أنه يدل على أن الفكر أفضل الأعمال ولهذا ورد «**تفكر ساعة خير من**

عبادة سنة»[١]، وفي رواية «**من عبادة الدهر**» لأن المرء إذا تفكر قوي إيمانه.

ومنها: أن فيه دلالة على أن الإنسان إذا أصابه هم ينبغي له أن يحدث بذلك أهله، ومـــن يعتقد من أصحابه إذا كانوا أصحاب دين ونظر، وأن الإنسان إذا وقع له واقع يسأل أهل العلم والنُهى، كما عرضت خديجة ما وقع للنبي ﷺ على ورقة.

ومنها: أن فيه دلاله على أنه ينبغي للإنسان أن يتمنى الخير لنفسه كما تمنى ورقة أن يكون جذعاً في أيام رسالة نبينا ﷺ.

وفي الحديث فوائد كثيرة غير ذلك[٢].

---

(١) أورده بهذا اللفظ علي القاري في المصنوع (٨٢/١، رقم ٩٤) وقال ليس بحديث إنما هو من كلام السري السقطي رحمه الله تعالى، وكذا قال العجلوني في كشف الخفاء (٣٧٠/١) فقال: في لفظ «ستين سنة» عن ابن عباس، وذكره الفاكهاني بلفظ: «فكر ساعة» وقال: إنه من كلام سري السقطي.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٨٠/١): «فائدة»: وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي، أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وبه جزم ابن إسحاق، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلي هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان، وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين وهي ما بين نزول «اقرأ» و«يا أيها المدثر» عدم مجيء جبريل إليه، بل تأخر نزول القرآن فقط، ثم راجعت المنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد، ولفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم يترل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل، فنـــزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة. وأخرجه ابن أبي خيثمة من وجه آخر مختصراً عن داود بلفظ: بعث لأربعين، ووكل به إسرافيل ثلاث سنين، ثم وكل به جبريل. فعلى هذا فيحسن - بهذا المرسل إن ثبت - الجمع بين القولين في قدر إقامته بمكة بعد البعثة، فقد قيل ثلاث عشرة، وقيل عشر، ولا يتعلق ذلك بقدر مدة الفترة، والله أعلم. وقد حكى ابن التين هذه القصة، لكن وقع عنده ميكائيل بدل إسرافيل، وأنكر الواقدي هذه الرواية المرسلة وقال: لم يقرن به من الملائكة إلا جبريل، انتهى. ولا يخفى ما فيه، فإن المثبت مقدم على النافي إلا إن صحب النافي دليل نفيه فيقدم والله أعلم.

وأخذ السهيلي هذه الرواية فجمع بها المختلف في مكثه ﷺ بمكة، فإنه قال: جاء في بعض الروايات المسندة أن مدة الفترة سنتان ونصف. وفي رواية أخرى أن مدة الرؤيا ستة أشهر، فمن قال: مكث عشر سنين، حذف مدة الرؤيا والفترة، ومن قال: ثلاث عشرة، أضافهما. وهذا الذي اعتمده السهيلي من الاحتجاج بمرسل الشعبي لا يثبت، وقد عارضه ما جاء عن ابن عباس: أن مدة الفترة المذكورة كانت أياماً.

المجلس العاشر

في بيان فتر الوحي، وفي ترجمة ابن عباس وسعيد بن جبير وغير ذلك

قَالَ البُخَارِي:

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي أبو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ، قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ بَيْنَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأرض، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ**﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ.

تَابَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ وَأَبُو صَالِحٍ. وَتَابَعَهُ هِلاَلُ بْنُ رَدَّادٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ. وَقَالَ يُونُسُ وَمَعْمَرٌ «بَوَادِرُهُ»(١).

قوله: «**قال ابن شهاب**» هذا هو: الزهري وقد قدمنا ترجمته.

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٨٢/١): خرَّج المصنف بالإسناد في التاريخ حديث الباب عن عائشة ﵂، ثم عن جابر بالإسناد المذكور هنا فزاد فيه بعد قوله «تتابع»: قال عروة -يعني بالسند المذكور إليه- وماتت خديجة ﵂ قبل أن تفرض الصلاة، فقال النبي ﷺ: «رأيت لخديجة بيتا من قصب، لا صخب فيه ولا نصب» قال البخاري: يعني قصب اللؤلؤ.

وشرح ابن حجر هذا الجزء الأخير من الحديث وقد تركه المصنف فقال:

وقوله: «تابعه» الضمير يعود على يحيى بن بكير، ومتابعة عبد الله بن يوسف عن الليث هذه عند المؤلف في قصة موسى وفيه من اللطائف: قوله: عن الزهري: سمعت عروة.

قوله: «وأبو صالح» هو عبد الله بن صالح كاتب الليث، وقد أكثر البخاري عنه من المعلقات، وعلق عن الليث جملة كثيرة من أفراد أبي صالح عنه.

ورواية عبد الله بن صالح عن الليث لهذا الحديث أخرجها يعقوب بن سفيان في تاريخه عنه مقرونا بيحيى بن بكير، ووهم من زعم - كالدمياطي - أنه أبو صالح عبد الغفار بن داود الحراني، فإنه لم يذكر من أسنده عن عبد الغفار وقد وجد في مسنده عن كاتب الليث.

وقوله: «وتابعه هلال بن رداد» بدالين مهملتين الأولى مثقلة، وحديثه في الزهريات للذهلي.

قوله: «وقال يونس» يعني ابن يزيد الأيلي، ومعمر هو ابن راشد.

«بوادره» يعني: أن يونس ومعمراً رويا هذا الحديث عن الزهري فوافقا عقيلاً عليه، إلا أنهما قالا بدل قوله يرجف فؤاده ترجف بوادره، والبوادر: جمع بادرة وهي اللحمة التي بين المنكب والعنق، تضطرب عند فزع الإنسان، فالروايتان مستويتان في أصل المعنى لأن كلا منهما دال على الفزع، ما في رواية يونس ومعمر من المخالفة لرواية عقيل غير هذا في أثناء السياق، والله الموفق.

«**وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن**» هذا هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو فرضي زهري مدني إمام جليل أحد فقهاء المدينة السبعة على قول، وكانت وفاته بالمدينة سنة أربع وتسعين عن اثنين وتسعين سنة في خلافة الوليد.

وهذا الإسناد فيه سقط من أوله، وعند علماء الحديث إذا سقط من أول الإسناد واحد وأكثر يسمى تعليقاً[1]، والقاعدة عند البخاري ﷺ أن التعليق إذا كان صحيحاً عنده يأتي به بصيغة الجزم «قال» مثلما قال هنا «قال ابن شهاب»، وإن كان ضعيفاً يأتي به بصيغة التمريض كقيل وروي، وصرح بذلك علماء الحديث فقالوا: إذا كان الحديث ضعيفاً لا يقال فيه، لأنه من صيغ الجزم بل يقال حكي أو قيل أو يقال بصيغة التمريض، وقد اعتنى البخاري بهذا الفرق في صحيحه فقال تارة بلفظ الجزم وأخرى بلفظ التمريض، وهذا مما يزيدك اعتقاداً في جلالته وتحققه.

فقوله: «قال ابن شهاب وأخبرني» أتى «بقال» ليدل على أنه تعليق صحيح، وبالواو ليعلم أنه مبني على سند متقدم فكأنه قال: «حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أنه قال: أخبرني أبو سلمة»، فيكون الأول مما حدث به ابن شهاب عن عروة، والثاني مما حدث به عن أبو سلمة.

قالوا: الواو في «وأخبرني» عاطفة لما رواه شهاب عن أبي سلمة لما رواه أولاً عن عروة قال اخبرني عروة بكذا، وأخبرني أبو سلمة بكذا.

«أن جابر بن عبد الله الانصاري» هذا هو جابر بن عبد الله الخزرجي الأنصاري المدني، وهو من كبار الصحابة، وهو أحد الستة المكثرين الرواية عن رسول الله ﷺ، روى ألف حديث وخمسمائه حديث وأربعون حديثاً اتفقا منها على ثمانية وخمسين، وانفرد البخاري بستة وعشرين، ومسلم بمائة وستة وعشرين، شهد مع رسول الله ﷺ

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٨١): وأخطأ من زعم أن هذا معلق وإن كانت صورته صورة التعليق، ولو لم يكن في ذلك إلا ثبوت الواو العاطفة، فإنها دالة على تقدم شيء عطفته، وقد تقدم قوله: عن ابن شهاب عن عروة فساق الحديث إلى آخره ثم قال: قال ابن شهاب -أي: بالسند المذكور- وأخبرني أبو سلمة بخبر آخر وهو كذا، ودل قوله عن فترة الوحي وقوله الملك الذي جاءني بحراء على تأخر نزول سورة المدثر عن اقرأ، ولما خلت رواية يحيى بن أبي كثير الآتية في التفسير عن أبي سلمة عن جابر عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن «يا أيها المدثر» أول ما نزل، ورواية الزهري هذه الصحيحة ترفع هذا الإشكال.

تسع عشر غزوة، وكانت وفاته بعد أن عمي بالمدينة سنة ثلاث، وقيل: ثمان وسبعين وهو ابن أربع وتسعين سنة، وكان أبيض الرأس واللحية يصفرهما بالورس، وكان يحفي شاربه، ويؤم قومه وهو آخر الصحابة موتاً بالمدينة.

«**قال: أي: جابر بن عبد الله وهو يحدث عن فترة الوحي**» جملة حالية من ضمير جابر أي: قال جابر في حالة التحديث عن فترة الوحي.

قال العلماء رضي الله عنهم: فترة الوحي هي عبارة عن تأخر نزول القرآن عليه عليه الصلاة والسلام مدة من الزمان، واختلف في مدة الفترة، فقال السهيلي كانت سنتين ونصف كما جاء في حديث مسند.

وأفاد شيخ الإسلام ابن حجر أنه وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كان ثلاث سنين، وبه جزم بن إسحاق وقال: ليس المراد بفترة الوحي المقدر بثلاث سنين عدم مجيء جبريل، بل المراد بها عدم نزول القرآن عليه فيها فقط.

وأما جبريل فإنه كان يتراءى له في هذه المدة كما ذكره البخاري في التعبير[1] عن معمر أنه قال وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا غدا منه مراراً كي يتردى رؤس الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه يتراءى له جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه، حتى يرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل جعل يتراءى له جبريل فقال له مثل ذلك.

وفي آخر هذا الصحيح أيضاً أنه -عليه الصلاة والسلام- حين فتر الوحي كان يأتي شواهق الجبال أي: أعاليها يهم بأن يلقي نفسه فكان جبريل يتراءى له بين السماء والأرض فيقول له: يا محمد أنت رسول الله[2].

وإنما فتر الوحي وانقطع نزول القرآن عليه هذه المدة بعد تتابعه في النزول عليه ليذهب ما حصل له ﷺ من الخوف والفزع عند نزول جبريل عليه بالقرآن، كما أشار لذلك البخاري وهو في غار حراء ويتشوق إلى عود الوحي إليه ثم بعد مضى مدة الفترة نزل عليه جبريل بالقرآن كما أشار إلى ذلك البخاري بقوله: فقال أي: جابر بن عبد الله إن رسول الله ﷺ قال: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت

---

(١) انظر صحيح البخاري (٦/٢٥٦١، رقم ٦٥٨١) كتاب التعبير باب: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة.

(٢) انظر الموضع السابق من صحيح البخاري.

بصـــري فإذا الملك الذي جاء بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت فـــرجعت فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[المدثر: ١ - ٥].

«**فحمي الوحي وتتابع**» أي: كثر نزوله بعد ذلك وازداد.

قوله «وتتابع» تأكيد «لحمي» لأنه بمعناه.

وفي هـــذا الحديـــث دلالـــة على أنه سبحانه وتعالى أقدر الملائكة على التشكل والتصـــور بصـــور مختلفة من صور بني آدم وغيرهم، وأن لهم صوراً في أصل خلقهم مخصوصـــة بهم من بني آدم، وأن الله جعل الهواء لهم يتصرفون فيه كيف شاءوا، كما جعل الأرض لبني آدم يتصرفون فيها كيف شاءوا وهو ممسكهم في الهواء بقدرته كما أنه سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض بقدرته وقول الله تعالى له ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بحاله وعبر عنه بصفته، ولم يقـــل له يا محمد أو يا فلان، ليستشعر الملاطفة من ربه ﷻ ونظيره قوله ﷺ لعلي لما خرج من بيته مغاضباً لفاطمة رضي الله عنها وجاء إلى المسجد ونام فيه فسقط رداءه وأصـــابه ترابه فرآه رسول الله ﷺ وقد أصابه التراب فقال له ملاطفاً ومسكناً لغضبه: «قم يا أبا تراب»، وكان أحب الأسماء إلى علي ﷺ.

ومعـــنى الآية: قم يا ذا الذي قد تدثر أي: تغطى بثيابه ونام، وأصل المدثر المتدثر، فإذا أدغمت التاء في الدال لتجانسها.

﴿قُـــمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: خوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا وقيل معنى أنذر: أعلمهم بنبوتك وقيل معناه: أدعهم إلى التوحيد.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظم سيدك ومليكك ومصلح أمرك أي: صفه بأنه أكبر من أن تكون له صاحبة وولد.

قيل لما نزلت هذه الآية قام رسول الله ﷺ فكبر فكبرت خديجة وعلمت أنه الوحي من الله تعالى.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ على أقوال ثمانية: فقيل: المـــراد بالثياب: العمل، أي: عملك فطهر فأصلح، فإن العرب كانت تقول إذا كان الـــرجل خـــبيث العمل فلان خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل قالوا فلان طاهر الثياب.

وقيـــل: المـــراد بالثياب القلب، أي: قلبك فطهر من الإثم والمعاصي أي: فطهره من

الغدر أي: لا تغدر فتكون دنس الثياب.

وقيل: المراد بالثياب النفس، أي: طهر نفسك من الذنوب.

وقيل: المراد بها الأهل، أي: طهر أهلك من ارتكاب الخطايا بأن تعظهم وتؤدبهم، فإن الأهل يسمون بالثياب واللباس قال الله تعالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧].

وقيل: المراد بالثياب النساء، أي: طهر نساءك بأن تختار حال التزويج بهن النساء العفائف المؤمنات، وأن تستمتع بهن في الطهر لا في الحيض.

وقيل: المراد بالثياب الخُلق، أي: حسن خلقك.

وقيل: المراد بها الدين.

وأكثر المفسرين على أن المراد بالثياب: ما يلبس على البدن.

واختلفوا في تأويله على أربعة أقوال:

الأول: أن المراد بالتطهير الإنقاء أي: وثيابك فأنق.

الثاني: المراد بالتطهير من النجاسة.

الثالث: المراد بالتطهير اللبس من الحلال أي: طهر ثيابك من لبس الحرام ولا تلبس ثيابك إلا من كسب الحلال.

الرابع: المراد بقوله ﴿فَطَهِّرْ﴾ فقصر فإن تقصير الثياب أبعد من النجاسة لأنها إذا أبحرت على الأرض لم يؤمن أن يصيبها ما ينجسها.

قال على كرم الله وجهه: قصر ثيابك فإنه أتقى وأنقى نقي وأنقي.

والمراد بقوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الأوثان فاترك، وقيل: المأثم.

فائدة: انقطع جبريل عن النبي ﷺ مدة أيام، قيل: اثنى عشر يوماً، وقيل: خمسة عشر يوماً، وقيل: خمسة وعشرين يوماً، وقيل: أربعين يوماً وسببه كما ذكره المفسرون أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، وعن الروح فقال سأخبركم غداً ولم يقل: إن شاء الله، فانقطع جبريل عنه هذه المدة، فقال المشركون: إن جبريل محمداً ودعه وقلاه أي: تركه ربه وبغضه، وقالت أم جميل امرأة أبي لهب أبطأ عليه شيطانه فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[الضحى: ١ - ٣] فأراد الله بقوله: ﴿وَالضُّحَى﴾ جميع النهار لأنه قابله بالليل، وقيل: أراد وقت ارتفاع الشمس لأنه وقت شريف كلم الله فيه موسى بن عمران، وخرت فيه سحرة فرعون سجداً لله ﷻ فلهذا أقسم الله به، فإن

قوله ﴿**وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**﴾ قسم بتقدير مضاف أي: ورب الضحى ورب الليل إذا سجى، ومعنى سجى سكن أي: سكن الناس فيه، ومعنى الآية ورب الضحى ورب الليل إذا سجى ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ**﴾ يا محمد كما تقول الكفار ﴿**وَمَا قَلَى**﴾ أي: ما تركك ربك منذ اختارك ولا أبغضك منذ أحبك، وأنزل الله مع هذه الآية ﴿**وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ تحريضاً وتعليماً لمن عزم على فعل شيء مستقبل أن يقدم المشيئة ليقدره الله ببركة المشيئة على فعله، ويقضي حاجته وتنجح طُلبته.

***

باب

يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ

قَالَ البُخَارِي:

حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أبو عَوَانَةَ[1]، قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ أَبِي عَائِشَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عباس، فِي قَوْلِه تَعَالَى﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْه، فَقَالَ ابن عباس: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُحَرِّكُهُمَا .

وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابن عباس يُحَرِّكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْه فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾ قَالَ جَمْعُهُ لَك فِي صَدْرِكَ، وَتَقْرَأَهُ ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ قَالَ فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَرَأَهُ .

قوله: «**حدثنا موسى بن إسماعيل**» هذا هو أبو سلمة المنقري البصري التبوذكي قيل: له التبوذكي لأنه اشترى دار بتبوذك، وكانت وفاته بالبصرة سنة ثلاث وعشرين.

«**حدثنا موسى بن أبي عائشة**» هذا هو أبو الحسن الكوفي الهمداني.

«**حدثنا سعيد بن جبير**» هذا هو الإمام المجمع على جلالته وثقته وعلو مرتبته في العلوم تفسيراً أو حديثاً وفقهاً وكان ابن عباس إذا أتى أهل الكوفة إليه يقول لهم: أليس فيكم سعيد بن جبير، وكان يقال له: جهبذ العلماء، وهو كوفي أسدي والبي، منسوب إلى «بني والبة» بالولاء.

سمع سعيد بن جبير خلقاً من الصحابة منهم العبادلة، وأخذ عنه خلق من التابعين منهم الزهري، قتله الحجاج صبراً و لم يعش بعدها أياماً.

قيل: إن الحجاج لما أرسل رسله في طلب سعيد بن جبير وأحضروه بين يديه قال: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير، قال: أنت شقي بن كسير، قال: كانت أمي أعلم باسمي منك، قال: شقيت أنت وشقيت أمك، قال: الغيب يعلمه غيرك، قال: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى، قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها، ثم أحضر الحجاج آلات

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٨٣): «أبو عوانة» هو: الوضاح بن عبد الله اليشكري مولاهم البصري، كان كتابه في غاية الإتقان.

الملاهـــي فبكى سعيد، فقال الحجاج ويلك يا سعيد، قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخـــل النار فقال: اختر يا سعيد أي قتلة تريد أن أقتلك، قال: اختر لنفسك يا حجاج فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة، قال: فتريد أن اعفو عنك؟ فقال: إن كـــان العفو فمن الله لي، وأما أنت فلا، قال: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده فقال: ما أضحكك قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك، فأمر بالنطع فبسط بين يديه فقال: اقتلوه، فقال سعيد: إني وجهـــت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، قـــال: وجهوه لغير القبلة، قال سعيد: أينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله قال: كبوه لوجهـــه، فقال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى، فقال الحجـــاج: اذبحوه، فقال سعيد، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، ثم قال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي، فذبح على النطع -رحمه الله-.

وعاش الحجاج بعده خمسة عشر ليلة، وكان الحجاج لا يصبر على سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه: أن أكبر لذاته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره.

وقيـــل: أحصى ما قتل صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفاً كذا رواه الترمذي في جامعـــه[1]، وعرضت سجونه بعده فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب.

قال خلف بن خليفة: حدثنا بواب الحجاج قال رأيت رأس سعيد بن جبير بعد ما سقط على الأرض يقول: لا إله إلا الله[2].

وقيـــل: إنه كان له ديك يقوم من الليل بصياحه فلم يصيح ليلة أصبح فلم يصل سعيد تلك الليلة فشق ذلك عليه فقال: مال قطع الله صوته فلم يسمع له صوت بعد

---

(١) أخرج الترمذي في سننه (٤/٤٩٩، رقم ٢٢٢٠) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «في ثقيف كذاب ومبير» قال الترمذي: يقال «الكذاب» المختار بن أبي عبيد، و«المبير» الحجاج بن يوسف، ثم قال: حدثنا أبو داود سليمان بن سلم البلخي، أخبرنا النضر بن شميل، عن هشام بن حسان... فذكره.

(٢) رواه أسلم الواسطي في تاريخ واسط (ص:٩١) حدثنا أسلم قال: حدثنا محمد بن إبان قال: حدثنا خلف بن خليفة قال: حدثني بواب الحجاج... به.

وأورده المزي في تهذيب الكمال (١٠/٣٦١)، والنووي في تهذيب الأسماء (ص٢١٠).

ذلك.

وسنذكر بعض أخبار الحجاج في الكلام على قوله ﷺ «**إذا التقى المسلمان بسيفهما**»[1].

وكانت وفاة سعيد بن جبير سنة خمس وتسعين عن تسع وأربعين سنة.

«عن ابن عباس» هذا هو الحبر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ أمه أم الفضل أخت ميمونة زوج النبي ﷺ.

وإنما قيل: الحبر البحر لكثرة علومه، وكان يقال له: ترجمان القرآن وهو والد الخلفاء وأحد العبادلة الأربعة المشهورين الذين شاع ذكرهم وانتشر فضلهم وسارت بسيرهم الركبان نفعنا الله بهم وهم: عبد الله ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الإمام عمر بن الخطاب.

دعا له رسول الله ﷺ بالحكمة والتفقه في الدين وتعلم التأويل أي: تأويل القرآن فأخذ عنه الصحابة ذلك ودعا له مرة أخرى فقال: اللهم بارك فيه وانشر منه واجعله من عبادك الصالحين، اللهم زده علماً وفقهاً وفي هذا الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام ضمه إليه وقال: «اللهم علمه الكتاب» وهو أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ.

قال الإمام أحمد بن حنبل: ستة من الصحابة أكثروا الرواية عن رسول الله ﷺ فهم: أبو هريرة، وابن عباس، وابن عمرو، وعائشة، وجابر بن عبد الله، وأنس، وأبو هريرة أكثرهم حديثاً.

وقال أحمد بن حنبل أيضاً: ليس أحد من الصحابة أكثر فتيا من عبد الله ابن عباس ومناقبه في الصحيح وغيره جمة أفردت بالتأويل منها: أن رسول الله ﷺ حنكه بريقة.

ومنها: أنه رأى جبريل فقد روى مجاهد عنه أنه قال: رأيت جبريل مرتين ودعا لي رسول الله ﷺ بالحكمة مرتين.

ومنها: أنه كان كثير البكاء، وكان لموضع الدمع من خديه أثر لكثرة بكائه، وكان عمر بن الخطاب يعظمه ويقدره على الكبار والصغار، وكان إذ ذكره يقول: ذاك فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (١/٢٠، رقم ٣٠)، ومسلم في صحيحه (٤/٢٢١٤، رقم ٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة.

ومن مناقبه الدالة على غزارة علمه أن الناس كانوا يقصدون منـــزله من الآفاق، ويـــزدحمون عـــلى منـــزله، ويسألون عن جميع العلوم فقد نقل عن أبي صالح أنه قال رأيـــت عـــند ابن عباس جلساء لو أن جميع قريش افتخرت به لكان لها فخر، ورأيت الناس اجتمعوا على باب منـــزله، ويسألوه من أنواع العلوم، حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحد يقدر على المجيء من ذلك الطريق والذهاب من كثرة الناس، قال أبو صالح: فدخلت عليه فأخبرته بالناس الواقفين على بابه، فقال: ادع لي بوضوء فتوضأ وجلس، ثم قـــال: لا تدخل علي جميع الناس بل أخرج وقل من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحـــروفه وما أراد منه فليدخل، قال: فخرجت فأعلمتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجـــرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم عنه وزادهم مثل ما سألوا عنه وأكثر، ثم قـــال انصـــرفوا حتى يدخل إخوانكم، ثم قال: لي أخرج فقل من أراد أن يسأل عن الحـــلال أو الحرام والفقه فليدخل، فقلت لهم: فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجر فما ســـألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم بمثله، ثم قال انصرفوا حتى يدخل إخوانكم فخـــرجوا، ثم قال: أخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل، فدخـــلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قـــال: انصـــرفوا حتى يدخل إخوانكم، ثم قال: أخرج فقل: من أراد أن يسأل عن العـــربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم وزادهم مثله، قال أبو صالح: فلو أن قريشاً كلها فخرت بذلك لكان فخراً فما رأيت مثل هذا لأحد.

وكان ابن عباس جميلاً قال عطاء: ما رأيت القمر ليلة الرابع عشر إلا ذكرت وجه ابن عباس من حسنه.

وروى عن النبي ﷺ ألف حديث وستمائه وستين حديثاً، اتفقا منها على أربعة أو خمسة وسبعين، وانفرد البخاري بمائة وعشرين، ومسلم بتسعة وأربعين ومائة وقد عمي في آخر عمره وكذا أبوه العباس وجده عبد المطلب، ولما سقط في عينيه الماء، وذهب بصره قيل له: خلي بيننا وبين عينيك نسيل ماءها ولكنك تمسك خمسة أيام لا تصلي فقال: لا والله ولا ركعة إني حدثت: «**أنه من ترك صلاة واحدة متعمداً لقي الله وهو عليه غضبان**»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/٢٩٤، رقم ١١٧٨٢)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/٨٢٨، رقم ١٥٣٥) من حديث ابن عباس. =

ولد ﷺ بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفي النبي ﷺ وهو ابن ثلاث عشر سنة على المشهور، وكانت وفاته بالطائف -وقبره فيها مشهور يزار- سنة ثمان وستين عن إحدى وسبعين على الصحيح، في أيام ابن الزبير، وصلى عليه محمد بن الحنفية وقال: اليوم مات رباني هذه الأمة، ولما بلغ جابر بن عبد الله وفاته صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال: مات أعلم الناس وأحكم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة.

ومن مناقبة الجليلة التي اتفقت له بعد موته ما نقل عن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس بالطائف فلما وضعت ليصلى عليه جاء طائراً أبيضاً من السماء، لم ير على خلقته حتى وقع له على أكفانه ثم دخل فيها، فالتمس فلم يوجد فلما سوى عليه التراب سمعنا صوتاً: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر: ٢٧ - ٣٠].

وقيل: إن هذا الطائر الأبيض علمه كما أفاده السيوطي في كتابه شرح الصدور.

قوله «عن موسى بن أبي عائشة حدثنا سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج[1] من التنـــزيل شدة

=ورواه أيضاً: البزار كما في مجمع الزوائد (١/٢٩٥) قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الكبير وفيه: سهل بن محمود، ذكره ابن أبي حاتم، وقال: روى عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي، وسعدان ابن يزيد، قلت: وروى عنه محمد بن عبد الله المخرمي ولم يتكلم فيه أحد، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٨٤): المعالجة محاولة الشيء بمشقة، أي: كان العلاج ناشئاً من تحريك الشفتين، أي: مبدأ العلاج منه، أو «ما» موصولة وأطلقت على من يعقل مجازاً، هكذا قرره الكرماني، وفيه نظر لأن الشدة حاصلة له قبل التحرك، والصواب ما قاله ثابت السرقسطي أن المراد كان كثيراً ما يفعل ذلك، وورودهما في هذا كثير ومنه حديث الرؤيا: «كان مما يقول لأصحابه: من رأى منكم رؤيا».

الفم قلت: ويؤيده أن رواية البخاري في التفسير من طريق جرير عن موسى بن أبي عائشة ولفظها: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي فكان مما يحرك به لسانه وشفتيه». فأتى بهذا اللفظ مجرداً عن تقدم العلاج الذي قدره الكرماني، فظهر ما قال ثابت.

ووجه ما قال غيره: إن «من» إذا وقع بعدها «ما» كانت بمعنى ربما، وهي تطلق على القليل والكثير، وفي كلام سيبويه مواضع من هذا منها قوله: اعلم أنهم مما يحذفون كذا. والله أعلم.

ومنه حديث البراء: «كنا إذا صلينا خلف النبي ﷺ مما نحب أن نكون عن يمينه... الحديث»، ومنه حديث سمرة: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح مما يقول لأصحابه: من رأى منكم رؤيا».

فكـــان ممـــا يحرك شفتيه، وقال ابن عباس: فأنا أحركها لك كما كان رسول الله ﷺ يحـــركها، وقال سعيد بن جبير: أنا أحركها كما رأيت ابن عباس يحركها، فحرك شـــفتيه فأنـــزل الله عز وجل ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾(١) قال: جمعه لك في صدرك(٢) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قال فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه»

معـــنى الآية: أن النبي ﷺ كان يحرك شفتيه بما يسمعه من جبريل قبل إتمام جبريل الوحي استعجالاً لحفظه وخوفاً من تفلته ونسيانه، وقيل: إنما كان يذكره إذا نزل عليه من حبه وحلاوته في لسانه، فإن القرآن له حلاوة في اللسان.

قـــال عيـــاض: لمـــا سمـــع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

---

(١) قال ابن حجر (١/٨٤): قوله: «فحرك شفتيه» وقوله: فأنزل الله ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾[القيامة: ١٦] لا تنافي بينهما، لأن تحريك الشفتين، بالكلام المشتمل على الحروف التي لا ينطق بها إلا اللسان يلزم منه تحريك اللسان.

أو اكتفى بالشفتين وحذف اللسان لوضوحه لأنه الأصل في النطق إذ الأصل حركة الفم، وكل من الحركتين ناشئ عن ذلك، وقد مضى أن في رواية جرير «يحرك به لسانه وشفتيه» فجمع بينهما.

وكان النبي ﷺ في ابتداء الأمر إذا لقن القرآن نازع جبريل القراءة، ولم يصبر حتى يتمها مسارعة إلى الحفظ لئلا ينفلت منه شيء، قاله الحسن وغيره.

ووقع في رواية للترمذي: «يحرك به لسانه يريد أن يحفظه»، وللنسائي: «يعجل بقراءته ليحفظه»، ولابن أبي حاتم «يتلقى أوله، ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره»، وفي رواية الطبري عن الشعبي «عجل يتكلم به من حبه إياه» وكلا الأمرين مراد، ولا تنافي بين محبته إياه والشدة التي تلحقه في ذلك، فأمر بأن ينصت حتى يقضى إليه وحيه، ووعد بأنه آمن من تفلته منه بالنسيان أو غيره، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[طه: ١١٤] أي: بالقراءة.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/٨٥): قوله: «جمعه لك في صدرك» كذا في أكثر الروايات وفيه إسناد الجمع إلى الصدر بالمجاز، كقوله: أنبت الربيع البقل، أي: أنبت الله في الربيع البقل، واللام في «لك» للتبيين أو للتعليل. وفي رواية كريمة والحموي «جمعه لك في صدرك» وهو توضيح للأول، وهذا من تفسير ابن عباس.

وقال في تفسير «فاتبع» أي: فاستمع وأنصت، وفي تفسير «بيانه» أي: علينا أن تقرأه.

ويحتمل أن يراد بالبيان بيان مجملاته وتوضيح مشكلاته، فيستدل به على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب كما هو الصحيح في الأصول.

وَالإِحْسَانِ﴾[النحل: ٩٠] قال: والله إن له لحلاوة، وإن له لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر وما هو بقول بشر.

قال ابن حجر: وكلا الأمرين مرادفاً فأمره الله تعالى بالإنصات حتى يتم جبريل الوحي، ووعده بأنه آمن من تفلته بالنسيان وغيره بقوله ﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ**﴾ أي: بالقرآن قبل فراغ جبريل منه لتعجل به خوفاً من أن يتفلت منك إن علينا جمعه وأن نجمعه لك في صدرك، فتقرأه ولا يفوتك منه شيء، فإذا قرأه رسولنا جبريل عليك فاستمع قرآنه أي: فاستمع وأنصت ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ أي: ثم إن علينا أن تقرأه مرة أخرى.

وفي صحيح مسلم: «**علينا أن نبينه بلسانك**»[1]، وقيل المعنى: علينا أن نحفظك، وقيل المعنى: علينا أن نبين لك ما فيه من حلال وحرام، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق قرأه النبي ﷺ مثل ما قرأه جبريل عليه السلام.

قول ابن عباس: «**فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما**»[2] استشكل به العلماء من جهة أنه لما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه لم يره ابن عباس على تلك الحالة إذ لم يكن إذ ذاك ولد، لأن مولده قبل الهجرة بثلاث سنين أو أقل، وقضية تحريك الشفتين كانت قبل ذلك في أول البعثة.

وأجابوا عنه بأنه يحتمل أن يكون النبي ﷺ أخبره بذلك بعد، أو بعض الصحابة أخبره أن شاهد النبي ﷺ يفعل ذلك.

قال ابن حجر: والأول هو الصواب لثبوتها في خبر.

---

(١) انظر صحيح مسلم (١/٣٣٠، رقم ٤٤٨) في روايته لهذا الحديث عن سعيد بن جبير عن بن عباس... به.

(٢) قال ابن حجر (١/٨٤) في هذه المسأله: قوله: «فقال ابن عباس فأنا أحركهما» جملة معترضة بالفاء، وفائدة هذا زيادة البيان في الوصف على القول، وعبر في الأول بقوله: «كان يحركهما»، وفي الثاني برأيت، لأن ابن عباس لم ير النبي ﷺ في تلك الحالة، لأن سورة القيامة مكية باتفاق، بل الظاهر أن نزول هذه الآيات كان في أول الأمر، وإلى هذا جنح البخاري في إيراده هذا الحديث في بدء الوحي، ولم يكن ابن عباس إذ ذاك ولد، لأنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، لكن يجوز أن يكون النبي ﷺ أخبره بذلك بعد، أو بعض الصحابة أخبره أنه شاهد النبي ﷺ الأول هو الصواب.
فقد ثبت ذلك صريحاً في مسند أبي داود الطيالسي قال: حدثنا أبو عوانة بسنده، وأما سعيد بن جبير فرأى ذلك من ابن عباس بلا نزاع.

فوائد بعضها مستفاد من الحديث والبعض الآخر ذكر بطريق المناسبة:

الأولى: مثل هذا الحديث يسمى بالمسلسل بالتحريك، لكن في الطبقة الأولى طبقة الصحابة والتابعين لقول ابن عباس: أنا أحركهما كما رأيت رسول الله ﷺ يحركهما، وقول سعيد بن جبير: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما لا في جميع الطبقات.

الثانية: أن الحديث فيه دلالة على أنه يستحب للمعلم أن يتمثل للمتعلم بالفعل، فإنه أبلغ من القول، فكم من متعلم لا يفهم الشيء بالقول والوصف أي: لا يفهمه ولا يستقر، وإذا صور يحضره واستقر عنده.

الثالثة: وقع في الكرماني هنا في الكلام على قوله «**فاستمع**» ما نصه: قال الفقهاء: سجدة التلاوة للمستمع لا للسامع، واعترضه البرماوي بأن الذي قاله وجه ضعيف عند الشافعية، مشى عليه صاحب الحاوي الصغير تبعاً للمحرر والمنصوص عليه عند الشافعي أن سجدة التلاوة تسن للسامع أيضاً، والفرق بين السامع والمستمع: أن المستمع من ألقى سمعه لآية سجدة التلاوة، والسامع من وقع في سمعه آية السجدة من غير قصد، وكلاهما يستحب له السجود لعموم قوله ﴿**وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ**﴾[الإنشقاق: ٢٠].

الرابعة: هل الإسراع في القرآن أفضل أم الترتيل أفضل؟

فذهب بعضهم إلى أن الإسراع أفضل استكثاراً للأجر، إذ يحصل بكل حرف عشر حسنات، إذا لم يفرط في الإسراع فإن فرط كره بالاتفاق، وإن أسرع بحيث ينتهي إلى عدم إقامته الأحرف فإنه غير جائز بخلاف، وذهب الأكثرون إلى أن الترتيل أفضل وقد صرح العلماء باستحبابه قال تعالى ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾[المزمل: ٤].

وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة «أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٣/٢، رقم ١٤٦٦) عن أم سلمة.
وأخرجه أيضاً: البخاري في خلق أفعال العباد (ص: ٥٣)، والترمذي في سننه (١٨٢/٥، رقم ٢٩٢٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والنسائي في سننه (١٨١/٢، رقم ١٠٢٢)، وأحمد في مسنده (٢٩٤/٦، رقم ٢٦٥٦٩)، وابن خزيمة في صحيحه (١٨٨/٢، رقم ١١٥٨)، والحاكم في المستدرك (٤٥٣/١، رقم ١١٦٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والطبراني في المعجم الكبير (٢٩٢/٢٣، رقم ٦٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان =

وعن ابن مسعود: «لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكون هم أحدكم آخر السورة»[1].

قال النووي: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراة جزئين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن كله».

وعن مجاهد ﷺ: أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران، والآخر البقرة وحدها وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما سواء، قال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل قال: واستحباب الترتيل للتدبر ولأنه أقرب إلى الأجل والتوقير، وأشد تأثيراً في القلب، ولهذا استحب للأعجمي الذي لا يفهم معناه.

وقال بعضهم: وأحب أن ثواب قراءة الترتيل أجل قدراً، وثواب الكثرة أكثر عدداً.

الخامسة: في الحديث دلالة على أن أحداً لا يحفظ القرآن العظيم إلا بعون الله وفضله وكرمه، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[القمر: ١٧] بخلاف التوراة والإنجيل فإنه لم يكن متيسراً لحفظهما كتيسر حفظ القرآن العظيم الذي خصت به هذه الأمة المحمدية.

خاتمة غريبة: قال بعض الصالحين كان رجل يحفظ القرآن، وكان يحب الدنيا ويسعى لها، فلا تزداد منه إلا بعداً فجاء إلي وقال: قد أصابني أمر أريد أن تكتمه على فقلت: ما هو؟ فقال: قد كنت ترى مني حب الدنيا وطلبها فرأيت الليلة في منامي قائلاً يقول لي تبيعني أربع سور مما تحفظه من القرآن بهذه بعشرين ديناراً، فقلت: نعم فطرح الدنانير في كفي، ثم انتبهت فلم أر شيئاً فطلبت أن أقرأ شيئاً من السور التي عينها فلم استطع، وقد جئتك لتلقينها في خلوة، قال: فخلوت به وجعلت أقرأ الآية من السور فيقرأها معي فإذا أمسكت عجز عن القراءة فبقينا على ذلك مدة فلم يحفظ منها آية، فقال لي بعد مدة: لا تتعب معي فإنها نزعت مني.

السادسة: ذكر الغزالي في أسرار القرآن فيمن يطرأ عليه نسيان القرآن بعد حفظه

= (٢/٣٩١، رقم ٢١٥٦)، وابن المبارك في كتاب الزهد (ص ٤٢١، رقم ١١٩٥).

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/٢٥٦، رقم ٨٧٣٣) من قول عبد الله بن مسعود.
وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥/١٥٨) وعزاه إلى ابن أبي شيبة.

عن الكلبي أنه قال: كان لي ولد يقرأ القرآن وكلما قرأ منه شيئاً نسيه، فرأيت في المنام قائلاً يقول لي أكتب في إناء سورة ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: ١ - ٥] ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[القيامة: ١٦ - ١٩] ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[البروج: ٢١ - ٢٢] وألق عليه من ماء زمزم واسقه ولدك يحفظ القرآن، فحفظ القرآن.

السابعة: هل الجهر بالقراءة أفضل أم السر؟

قال النووي ﷺ: الإخفاء أفضل إن خاف الرياء أو كان يتأذى به مصلون، أو من ينام، والإجهار أفضل في غير ذلك، لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى على السامعين، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد عنه النوم ويزيده في النشاط.

وقال بعض العلماء: يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها لأن المرء قد يمل فيأنس بالجهر، والجهر قد يشكل فيستريح بالإسرار.

الثامنة: وهي مشتملة على مسائل:

يكره قطع القراءة لمكالمة أحد، لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر كلام أحد عليه.

ويكره أيضاً: الضحك والعبث، والنظر إلى ما يرى.

ويستحب تقبيل المصحف قياساً على تقبيل الحجر الأسود، ولأنه هدية من الله فشرع تقبيله، كما يستحب تقبيل الولد الصغير.

ويستحب تطيبه، وجعله على كرسي ويحرم توسده لأن فيه إذلالاً وامتهاناً، وكذا يحرم مد الرجلين إليه كما قاله الزركشي، ويجوز تحليته بالفضة إكراماً له على الصحيح.

وأما القيام للمصحف إذا حضر فقال النووي: إنه يستحب لما فيه من التعظيم وعدم التهاون به، كما يستحب القيام لأهل الفضل إكراماً لهم خلافاً لما قاله ابن عبد السلام أن القيام بدعة.

ولا ينبغي للإنسان أن يصغر المصحف ويقول: مصحيف فقد أخرج أبو داود عن ابن المسيب قال: «لا يقول أحدكم مصحيف ولا مسيجد فما كان لله فهو عظيم».

التاسعة: في فضل القرآن وفضل حملته:

دل الكتاب والسنة على ذلك قال الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ...﴾ الآية [فاطر: ٢٩].

قوله ﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يقرأونه ويداومون على تلاوته وقوله ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ لن تكسد ولن يتعذر الربح فيها، وهو إشارة إلى الإخلاص أي: يفعلون تلك الأفعال من التلاوة، والصلاة والإنفاق يقصدون بذلك وجه الله لا الرياء ولا السمعة.

وروينا في هذا الصحيح عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[(١)].

وروي في البلدانيات عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أبا هريرة تعلم القرآن وعلمه الناس، فإنك إن مت أنت كذلك زارت الملائكة قبرك**»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**» متفق عليه[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**» رواه

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/١٩١٩، رقم ٤٧٣٩) عن عثمان.
وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (٢/٧٠، رقم ١٤٥٢)، والترمذي في سننه (٥/١٧٣، رقم ٢٩٠٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/١٩، رقم ٨٠٣٦)، وابن ماجه في سننه (١/٧٦، رقم ٢١١)، وأحمد في مسنده (١/٥٧، رقم ٤٠٥)، وابن حبان في صحيحه (١/٣٢٤، رقم ١١٨).

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٤/٣٨٠)، والديلمي في مسند الفردوس (٥/٣٤٥، رقم ٨٣٨٥) عن أبي هريرة.

(٣) هاكذا وقع في الأصل «متفق عليه» إلا أن البخاري رواه معلقاً صحيح البخاري (٦/٢٧٤٣) فقال: باب قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، وزينوا القرآن بأصواتكم».
قال الحافظ في فتح الباري (١٣/٥١٨): وأصل الحديث تقدم مسنداً في التفسير لكن بلفظ: «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة» (انتهى)
وربما قال المصنف: «متفق عليه» باعتبار هذا الوجه الذي قاله الحافظ في الفتح.
قلت: وأخرجه البخاري بهذا اللفظ مسنداً في كتاب خلق أفعال العباد (ص ٧٣): قال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن زرارة، عن سعد بن هشام، عن عائشة...به.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه بهذا اللفظ (١/٥٤٩، رقم ٧٩٨).

مسلم[١].

وقال رسول الله ﷺ «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**» رواه مسلم[٢].

وقال رسول الله ﷺ «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «يقول الرب سبحانه وتعالى: «**من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، ففضل كلام الله سبحانه وتعالى على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه**» رواه الترمذي وقال حديث حسن[٤].

وقال رسول الله ﷺ «**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٥٩/١، رقم ٨١٧) عن عمر ﷺ.
وأخرجه أيضاً: ابن ماجه في سننه (٧٩/١، رقم ٢١٨)، والدارمي في سننه (/٥٣٦، رقم ٣٣٦٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨٩/٣، رقم ٤٩٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٥٣/١، رقم ٨٠٤) عن أبي أمامة الباهلي.
وأخرجه أيضاً: الطبراني في المعجم الأوسط (١٥٠/١، رقم ٤٦٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢ /٣٩٥، رقم ٣٨٦٢)، وفي الصغرى (٥٤٧/١، رقم ٩٩٨)، وفي الشعب (٤٥١/٢ رقم ٢٣٧٢).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (١٧٥/٥، رقم ٢٩١٠) عن أيوب بن موسى قال: سمعت محمد بن كعب القرظي قال سمعت عبد الله بن مسعود... به مرفوعاً.
قال الترمذي: ويروى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن مسعود، ورواه أبو الأحوص عن ابن مسعود رفعه بعضهم ووقفه بعضهم عن ابن مسعود، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، سمعت قتيبة يقول: بلغني أن محمد بن كعب القرظي ولد في حياة النبي ﷺ ومحمد بن كعب يكنى أبا حمزة.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١٨٤/٥، رقم ٢٩٢٦) عن أبي سعيد الخدري، وقال: هذا حديث حسن غريب.
وأخرجه أيضاً: الدارمي في سننه (٥٣٣/٢، رقم ٣٣٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٣/٢، رقم ٢٠١٥).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه (١٧٧/٥، رقم ٢٩١٣) عن ابن عباس قال الترمذي: هذا =

قال رسول الله ﷺ «**من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهذا**» رواه أبو داود[١].

وروى الدارمي عن أبي أمامة ﷺ قال «**اقرأ القرآن فإن الله لا يعذب قلباً وعى القرآن**»[٢].

وروى الدارمي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «**إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن دخل فيه فهو آمن**»[٣].

وروى الدارمي عنه أيضاً: «**من أحب القرآن فليبشر**»[٤].

وفي حديث «**القرآن غنى لا فقر بعده، ولا غنى دونه**»[٥].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال رسول الله ﷺ «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن**

= حديث حسن صحيح.

وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (١/٢٢٣، رقم ١٩٤٧)، والحاكم في المستدرك (١/٧٤١، رقم ٢٠٣٧)، والدارمي في سننه (٢/٥٢١، رقم ٣٣٠٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩/٢٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٣٢٨، رقم ١٩٤٣)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٩/٥٣٧، رقم ٥٢٥)، والجرجاني في تاريخ جرجان (١/٤١٢).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢/٧٠، رقم ١٤٥٣) عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه.

وأخرجه أيضاً: الحاكم في المستدرك (١/٧٥٦، رقم ٢٠٨٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) رواه الدارمي في سننه (٢/٥٢٤، رقم ٣٣١٩) عن أبي أمامة من قوله.

ورواه أيضاً: البخاري في خلق أفعال العباد (ص: ٨٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/١٣٣، رقم ٣٠٠٧٩).

(٣) رواه الدارمي في سننه (٢/٥٢٥، رقم ٣٣٢٢) عن عبد الله بن مسعود من قوله.

(٤) أخرجه الدارمي في سننه (٢/٥٢٥، رقم ٣٣٢٣) عن عبد الله بن مسعود من قوله.

وأخرجه أيضاً: ابن أبي شيبة في المصنف (٦/١٣٣، رقم ٣٠٠٨٠).

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥/١٥٩، رقم ٢٧٧٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/١٨٦، رقم ٢٧٦)، والديلمي في مسند الفردوس (٣/٢٢٩، رقم ٤٦٧٧) عن أنس بن مالك مرفوعاً.

قال المناوي في فيض القدير (٤/٥٣٥) رواه أبو يعلى وكذا الطبراني في الكبير، قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف، وبينه تلميذه الهيثمي فقال: فيه يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف. انظر مجمع الزوائد للهيثمي (٧/١٥٨).

مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانه، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر» رواه البخاري ومسلم وذكره النووي في كتابه[1].

فائدة: حكي عن بعض القراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى في المنام كأن قائلاً يقول: إن نسيناك سورة الأنعام لك ألف دينار قال: لا، قال: فسورة هود، قال: لا، قال: فسورة يوسف، قال: لا، قال: فمعك قيمة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سري عنه.

وسنذكر فوائد متعلقة بالقرآن وشيئاً من فضائله أيضاً في كتاب الصوم إن شاء الله تعالى.

***

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٤/١٩١٧، رقم ٤٧٣٢)، ومسلم في صحيحه (١/ ٥٤٩، رقم ٧٩٧) من حديث أبي موسى.

المجلس الحادي عشر

في قصة هرقل وما فيها

قَالَ البُخَارِي:

حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ الْحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ، قَالَ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، فَوَاللَّهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ، فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ

يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمان حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لدينه بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمان حينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا به شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ، ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ به دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فيه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي: حِينَ أُخْرِجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ ، وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بِطَارِقَتِهِ قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ . قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلاَّ الْيَهُودُ فَلاَ يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ به مَلِكُ غَسَّانَ، يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لاَ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ، ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلاَحِ

وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ، فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ . رَوَاهُ صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ وَيُونُسُ وَمَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ .

قوله: «**حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع عن الزهري أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره**».

قال العلماء: أبو سفيان بن حرب هو أبو معاوية وأخوه واسمه صخر بن حرب وهو قرشي أموي مكي، وكما يكنى بأبي سفيان يكنى بأبي حنظلة أيضاً، ولد قبل الفيل بعشر سنين، وأسلم ليلة فتح مكة، وكان شيخ مكة حينئذ ورئيس قريش، وشهد مع رسول الله ﷺ حنيناً وفتح الطائف وأعطاه النبي ﷺ من غنائم حنين مائة من الأبل وأربعين أوقية، وفقئت عينه الواحدة يوم الطائف والأخرى يوم اليرموك تحت راية يزيد قال له النبي ﷺ لما ذهبت عينه وهي في يده: «**أيهما أحب اليك عين في الجنة، وأدعو الله أن يردها عليك، قال: بل في الجنة**»[1] ولو طلب من رسول الله ﷺ أن يردها لردها.

فإنه كان من معجزاته ﷺ إبراء المريض فقد ورد عنه ﷺ رد عين قتادة بن النعمان يوم أحد بعدما ما وقعت جبينه وكانت أحسن عينيه[2].

وتفل في عين علي ﷺ يوم خيبر فشفيت.

هذا الذي رد عيناً بعد ما قلعت ... وريقة قد شفا عين الإمام علي

وقطع أبو جهل يد معوذ بن عفراء، وجاء بيده فبصق عليها رسول الله ﷺ

---

(١) ذكر ابن عبد البر في الإستيعاب (١٦٨٠/٤) في ترجمة أبي سفيان مسألة فقء عينه ولم يذكر الحديث الذي أورده المصنف هاهنا.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٨٧/١) عن زيد بن أسلم وغيره كذا قال.

وأورده ابن عبد البر الإستيعاب (١٢٧٥/٣) من رواية عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر بن عبد الله قال أصيبت عين قتادة بن النعمان يوم أحد وكان قريب عهد بعرس فأتى النبى ﷺ فأخذها بيده فردها فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً.

ورواه الطبري في التاريخ (٦٦/٢) عن محمد بن إسحاق قال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة... به.

وانظر: السيرة لابن هشام (٣١/٤).

وألصقها فلصقت[١].

ورد الله على أعمى بصره بتوسله به ﷺ فقد روى النسائي عن عثمان بن حنيف: «أن أعمى قال: ادع لنا الله أن يكشف لي عن بصري فقال له: انطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه اليك بحرمه محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري، اللهم شفعه فيَّ قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره»[٢].

إن كان عيسى أبرأ الأعمى بدعوته فكم بتفلة قد رد من بصر

نزل أبو سفيان المدينة ومات بها سنة إحدى وثلاثين، وقيل: سنة أربع وثلاثين وهو بن ثمان وثمانين سنة، وصلى عليه عثمان بن عفان، ودفن بالبقيع.

---

(١) بينت الروايات والأخبار أن اللقاء بين معوذ وأبو جهل كان في غزوة بدر الكبرى، وبينت الأخبار أيضاً أن معوذ استشهد في نفس الغزوة بعد أن ساهم في قتل أبي جهل هو وأخوه عوف أجهدا أبو جهل حتى وقع على الأرض صريعاً وبعدها قتله عبد الله بن مسعود، ولم نقف على ما أورده المصنف هاهنا.

يقول ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/٤٩٢): معوذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غنم، وأمه عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار في رواية محمد بن إسحاق وحده، وشهد بدراً وهو الذي ضرب أبا جهل هو وأخوه عوف بن الحارث حتى أثبتاه وعطف عليهما أبو جهل لعنه الله يومئذ فقتلهما، ووقع أبو جهل صريعاً فذفف عليه عبد الله بن مسعود رحمه الله، وليس لمعوذ بن الحارث عقب.

وقال ابن عبد البر في الإستيعاب (٤/١٤٤٢، ترجمة ٢٤٧٣) شهد بدراً مع إخوته معاذ وعوف بني عفراء هو الذي قتل أبا جهل بن هشام يوم بدر ثم قاتل حتى قتل يومئذ ببدر شهيداً قتله أبو مسافع.

وانظر أيضاً في ذلك الإصابة (٦/١٩٣).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٦/١٦٨، رقم ١٠٤٩٤) عن عثمان بن حنيف بلفظ: «أن رجلا أعمى أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني رجل أعمى فادع الله أن يشفيني قال: «بل أدعك» قال: أدع الله لي مرتين أو ثلاثا قال: «توضأ ثم صل ركعتين ثم قل اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة» فقال: يا محمد إني أتوجه بك إلى الله أن يقضي حاجتي أو حاجتي إلى فلان أو حاجتي في كذا وكذا: اللهم شفع في نبيي وشفعني في نفسي.

وأخرجه أيضاً: أحمد (٤/١٣٨، رقم ١٧٢٨٠)، والحاكم في المستدرك (١/٧٠٠، رقم ١٩٠٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/٣٠، رقم ٨٣١١)، وفي المعجم الصغير (١/٣٠٦، رقم ٥٠٨).

«**أن هـــرقل**»: هـــذا هـــو ملك الروم، و«هرقل» اسمه بكسر الهاء وفتح الراء كدمشـــق، ويقـــال: «هرقل» بإسكان الراء وكسر القاف، والهرقل بلغتهم وهو لا ينصرف للعلمية والعجمية وهو صاحب حروب الشام.

أقام في الملك إحدى وثلاثين سنة وفي ملكه مات النبي ﷺ ولقبه قيصر، وكذا كل مـــن ملك الروم يقال له قيصر، ومن ملك الفرس يقال له: كسرى، وكل من ملك الترك يقال له: خاقان، وكل من ملك الحبشة يقال له: النجاشي، وكل من ملك مصر يقال له: العزيز، وكل من ملك حمير يقال له: تبع.

واما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كســـرى فلا كسرى بعده**»[1] فالمراد منه: أنه لا قيصر بعده بالشام ولا كسرى بعده بالعراق، بل يكونان في غير هذين الأقليمين قاله إمامنا الشافعي في المختصر.

ومعـــنى قيصـــر: «البقير»، ولقب بذلك لأن أمه لما أتاها الطلق به ماتت وبقي يضطرب في جوفها فبقر بطنها أي: شق فخرج حياً وكان يفخر بذلك لأنه لم يخرج من فـــرج، وكان شجاعاً جباراً مقداماً في الحروب وهو أول من ضرب الدنانير وأحدث البيعة.

وسئل الشافعي عنه هل يقال هرقل أم قيصر؟ فقال: هرقل هو وقيصر، الأول علم له والثاني لقباً، كما يقال على أمير المؤمنين.

«**أن هـــرقل أرســـل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام**» قال ابن عسار: الشام مهموز، ويجوز تخفيفه، وفي لغة يجوز فيقال: شأم بفتح الشين والمد وهو مذكر وجوز تأنيثه، وحد الشام طولاً من العريش إلى الفرات، وقيل: إلى بالس ورجحه ابن حبان في صحيحه فقال: أول الشام بالس، وآخره العريش[2]، وعرضاً من جبل طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم، وما سامت ذلك من البلاد وهو ديار الأنبياء، وقدمنا ان نبيـــنا ﷺ دخل أرض الشام أربع مرات مرتين قبل النبوة ومرتين بعدها، ودخله عشرة آلاف صحابي.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٣٢٥/٣، رقم ٣٤٢٢)، ومسلم في صحيحه (٢٢٣٦/٤، رقم ٢٩١٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) قاله ابن حبان في الصحيح (٢٩٤/١٦) عقب حديث (رقم ٧٣٠٥) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ستخرج عليكم نار في آخر الزمان من حضرموت تحشر الناس» قال: قلنا بما تأمرنا يا رسول الله قال: «عليكم بالشام» قال أبو حاتم: أول الشام بالس وآخره عريش مصر.

«**في المـــدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان كفار قريش فآتوه وهم بإيـــلياء**» وإيلياء هو بيت المقدس، وفيه أربع لغات إيلياء بالمد موزون كبرياء، وإيلياء بالقصر والياء بوزن إعطاء، وإيلياء بتشديد الياء ومعناه بيت الله.

ولمســـجد بيت المقدس فضائل وخصوصيات منها: أنه أحد المساجد الثلاث التي تشد إليها الرحال قال رسول الله ﷺ «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى**»(١).

ومـــنها: أن الله تعالى سماه مباركاً حيث قال ﴿**إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَـــهُ**﴾[الإســـراء: ١] قـــال مجاهداً: سماه مباركاً لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة، وقيل: سماه مباركاً من بركة نشأت منه فعمت جميع الأرض، لأن مياه الأرض كلها انفجارها كان من تحت الصخرة.

ومـــنها: أن الدجـــال لا يدخلـــه قال ﷺ «**إن الدجال يدخل الأرض إلا أربعة مساجد: مسجد المدينة ومسجد مكة والأقصى والطور**»(٢) رواه أحمد بن حنبل في المسند.

ومـــنها: أن الصـــلاة فيه بألف صلاة فقد أخرج ابن ماجه وأبو داود عن ميمونة مولاة النبي ﷺ أنها قالت في بيت المقدس قال ﷺ: «**أرض المحشر والمنشر إتيوه وصلوا فيه فإن صلاة فيه بألف صلاة**»(٣).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/٣٩٨، رقم ١١٣٢)، ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١٤، رقم ١٣٩٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٦٤، رقم ٢٣١٣٩) عن جنادة بن أبي أمية قال: أتينا رجلاً من الأنصار من أصحاب النبي ﷺ فدخلنا عليه فقلنا حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ولا تحدثنا ما سمعت من الناس، فشددنا عليه فقال: قام رسول الله ﷺ فينا فقال: «أنذركم المسيح وهو ممسوح العين أحسبه قال: العين اليسرى، تسير معه جبال الخبز وأنهار الماء، علامته يمكث في الأرض أربعين صباحاً يبلغ سلطانه كل منهل لا يأتي أربعة مساجد الكعبة ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى والطور».

وأخرجه أيضاً: ابن أبي شيبة في المصنف (٧/٤٩٥، رقم ٣٧٥٠٦).

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٤٣): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وقال ابن حجر في فتح الباري (١٣/١٠٥): رجاله ثقات.

(٣) أخـــرجه أبو داود في سننه (١/١٢٥، رقم ٤٥٧)، وابن ماجه (١/٤٥١، رقم ١٤٠٧) عن ميمونة.

=

ومنها: أن من زاره حط الله عنه أوزاره، ومن صلى فيه كفر الله عنه ذنوبه، ولنا عوداً إلى كلام على فضائله في المجالس الآتية.

قال العلماء: حديث هرقل الذي ساقه البخاري هنا حديث جليل مشتمل على كثير من الفوائد، قال ابن رجب: من ظن أن هذا الحديث سمر من الأسمار وخبر من الأخبار لا يتضمن علماً كما يحكى عن بعض المتأخرين فهم في غاية الجهل والعمى والطغيان، وإنما أخرجه البخاري في بدء الوحي إن لم يكن فيه بدء الوحي لتضمنه من أعلام النبوة وبراهينها.

فائدة: هرقل قيل: كان ساكناً في مدينة حمص، وكانت دار ملكه وكانت في زمانهم أعظم من دمشق وكان فتحها على يد أبي عبيدة بن الجراح سنة ستة عشر بعد قصة هرقل بعشر سنين، سميت بحمص باسم رجل من العمالقة اسمه: حمص بن المهر بن حاف، كما سميت حلب بحلب بن المهر، قاله ابن الملقن.

فائدة: دخل مدينة حمص من الصحابة تسعمائة رجل قاله الثعلبي.

فائدة أخرى: حمص هي إحدى مدائن الجنة الخمسة ورد عن كعب الأحبار: «خمسة مدن في الدنيا في الجنة مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق وحمص، وخمسة مدن في الدنيا في النار رومية وقسطنطينية وهي اسطنبول وأنطاكيه وصنعاء وتدمر» قيل: المراد بأنطاكية المحترقة لا هذه، وبصنعاء بلد بأرض الروم لا صنعاء اليمن.

فائدة أخرى: ورد في مسند أحمد بن حنبل لكن ضعيف أن من أهل حمص سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب(١).

= وأخرجه أيضاً: إسحاق بن راهويه في مسنده (١/١٠٦، رقم ١)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٥٢٣، رقم ٧٠٨٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/٢١٦، رقم ٣٤٤٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٥/٣٢، رقم ٥٤)، ومحمد بن عبد الواحد المقدسي في فضائل بيت المقدس (ص ٤٩، رقم ١٦)، والديلمي في الفردوس (٢/٢٥، رقم ٢١٥٩) مختصراً.

قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/١٤): وإسناد طريق ابن ماجة صحيح رجاله ثقات، وهو أصح من طريق أبي داود فإن بين زياد بن أبي سودة وميمونة: عثمان بن أبي سودة كما صرح به ابن ماجة في طريقه، وكما ذكره العلاء بن صلاح الدين في المراسيل.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٩، رقم ١٢٠) عن حمزة بن عبد كلال قال سار عمر بن الخطاب ﷺ إلى الشام... فذكر قصة لعمر فيها: فسمعته يقول: ردوني عن الشام بعد أن شارفت عليه لأن الطاعون فيه، ألا وما منصرفي عنه مؤخر في أجلي، وما كان قدومه معجلي عن =

ومشـــى هرقل مرة من حمص إلى بيت المقدس، قال العلماء: وقصة هرقل وسبب مشـــيه إلى بيـــت المقدس كما ذكره الطبري وغيره أن كسرى أرسل جيشه إلى بلاد هـــرقل فخربوا كثيراً منها ثم استبطأ كسرى الأمير الذي أرسله إلى بلاد هرقل واسمه: «شـــهر براده» فعزله وأضم على قتله، وولى أمير غيره يقال له فارخان فسمع المعزول أن كسرى عزله فصالح هرقل واتفق معه على كسرى، وانهزم عنه بجنود فارس فمشى هـــرقل إلى بيـــت المقدس شكراً لله تعالى على كشف جنود فارس عنه، وكان يبسط البسط ويوضع عليها رياحين فيمشي.

فـــلما وصـــل إلى بيت المقدس سنة ست من الهجرة، وكان رسول الله ﷺ بتبوك فقـــال: «**من ينطلق بكتابي هذا إلى قيصر فله الجنة**» قالوا: وإن لم يقبل يا رسول الله قـــال: «**وإن لم يقـــبل**» فانطـــلق به دحية إلى أمير بصرى وهو: الحارث بن أبي شمر الغســـاني، فأرسله أمير بصرى إلى هرقل فوصل دحية بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل فقـــال هرقل قبل قراءة كتاب رسول الله ﷺ لبعض بطارقته: «**قلب لي الأرض ظهراً والـــبطن وأتـــني بمن يعرف هذا الرجل**» يعني رسول الله ﷺ أي: فتش لي على أحد يعـــرف هذا النبي الذي أرسل لنا هذا الكتاب حتى نسأله عن أحواله وعلامته الثابتة عندنا في التوراة والإنجيل، فذهب ذلك البطريق إلى غزة فرأى في غزة أبا سفيان ومعه جماعـــة مـــن أهل مكة يبلغون ثلاثين، وقيل: عشرين وكلهم كانوا إذ ذاك كفاراً أو خرجوا من مكة إلى غزة للتجارة، فإن أهل مكة إذ ذاك يسافرون إليها للتجارة وكان

= أجلي، ألا ولو قد قدمت المدينة ففرغت من حاجات لا بد لي منها فيها لقد سرت حتى أدخل الشام ثم أنزل حمص فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبعثن الله منها يوم القيامة سبعين ألفاً لا حساب ولا عذاب عليهم، مبعثهم فيما بين الزيتون وحائطها في البرث الأحمر منها».

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦١/١٠) رواه أحمد وفيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو ضعيف.

وأخرجه أيضاً: البزار (٤٤٩/١، رقم ٣١٧) بنحو لفظ أحمد إلا أنه قال: «تسعين ألفاً».

وأعله الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٠٨/١٠) بعد عزوه للبزار بأبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم أيضاً.

وأخرجه من طريق آخر ليس فيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الحاكم في المستدرك (٩٥/٣، رقم ٤٥٠٤) من طريق راشد بن سعد أن أبا راشد حدثهم يرده إلى معدي كرب بن عبد كلال أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سافرنا مع عمر بن الخطاب ﷺ آخر سفره إلى الشام... فذكره وأعقبه بقوله: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

أبـــو سفيان كبيرهم، وكان رسول الله ﷺ قد صالح أهل مكة على ترك القتال عشر سنين، وذلك في الحديبية في أخر السنة السادسة، فخرج أبو سفيان ومن معه إلى غزة فرآهم البطريق هناك.

هـــذا معـــنى قول البخاري: إن هرقل أرسل إلى أبي سفيان في ركب من قريش أي: حال كونه في ركوب وكانوا تجاراً بالشام.

«**في المـــدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها كفار قريش**» أي: مصالحاً فيها أبا ســـفيان وكفار قريش، «وماد» فعل ماض من المفاعلة وهو الاتفاق على مدة مأخوذ من المداد ومن المدة.

فلما رأى البطريق أبا سفيان ومن معه ساقهم إلى بيت المقدس حتى أحضرهم عند هرقل كما قال البخاري وهم بإيلياء.

«**فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم**»، والمراد: فدعاهم حال كونه جالساً في محل حكمه لا في خلوة ولا في الحرم أي: أمر بإحضارهم.

وجاء في رواية: أنه كان على رأسه التاج وعظماء الروم مطبقون به من جوانبه.

فائدة: الروم اسم لهذا الجبل المعروف من ولد الروم بن عيصوا فكأنه اسم أبيهم عليهم.

«**ثم**» حضروا مجلسه ودعاهم أي: أستدعاهم.

«**ودعـــا ترجمانه**» والترجمان: بفتح الياء والجيم وقد تضم التاء اتباعاً لها هو الذي يعبر لغة بلغة.

فقـــال هـــرقل للترجمان قل لهم «**أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان فقلت: أنا أقربهم نسبا به**» وإنما كان أقربهم لأنه من بني عبد مناف، وعبد مناف الأب الرابع للنبي ﷺ، وكذا لأبي سفيان.

قال أبو سفيان: وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيرى، وإنما خص هرقل الأقرب بالسؤال عن حال النبي ﷺ لأنه مطلع على أمره ظاهراً أو باطناً أكثر من غيره، وإلا يعد لا يؤمن أن تحمله العداوة على الكذب والقدح فيه بخلاف القريب فإن نسبه يمنعه من ذلك.

«**قـــال: أي هـــرقل لأصـــحابه أدنوه مني**» أي: قربوا أبا سفيان مني «**وقربوا أصـــحابه فأجعلوهم عند ظهره**»، والحكمة في جعل أصحابه وراء ظهره أنه إذا سأله عـــن شيء من أحوال النبي ﷺ فكذب ردوا عليه أصحابه وبينوا كذبه، بخلاف ما إذا

جلسوا مواجهين له فقد يمنعهم الحياء من أن يواجهوه بالتكذيب، إذ المقابلة بالتكذيب في الوجه صعبة.

«**ثم قال**» أي: هرقل «**لترجمانه قل لهم**» أي: لأصحاب أبي سفيان «**إني سائل هذا**» أي: صاحبكم أبا سفيان «**عن هذا الرجل**» أي: الذي يزعم أنه نبي «**فإن كذبني**» أي: نقل إلى عن محمد بأن قال فيه خلاف الواقع «**فكذبوه**» أي: لا تستحيوا منه فتسكتوا عن تكذيبه بل كذبوه.

«**قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً بالكذب عليه**»، وفي نسخة «**لكذبت عنه**» وهي إما بمعنى لأخبرت عنه بالكذب، وإما بمعنى: على أي: لكذبت عليه.

معنى كلام أبي سفيان: لولا الحياء من أن رفقتي يرون عني ويحكون في بلادي كذباً فأعاب به لأن الكذب قبيح وإن كان على العدو، لكذبت عليه لبغضي إياه ولمحبتي نقصه، ويعلم من هذا أن الكذب كان قبيحاً في الجاهلية.

فائدة: صرح فقهاؤنا بأن شهادة العدو على عدوه لا تقبل للتهمة، ولقوله ﷺ «**لا تقبل شهادة ذي غمر**»[1] بكسر الغين أي: عدو حقود على أخيه ويفرح بمصيبته

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٥٤٥، رقم ٢٢٩٨) عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حداً ولا مجلودة ولا ذي غمر لأخيه... الحديث».

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن زياد الدمشقي، ويزيد يضعف في الحديث ولا يعرف هذا الحديث من حديث الزهري إلا من حديثه، وفي الباب عن عبد الله بن عمرو، قال: ولا نعرف معنى هذا الحديث ولا يصح عندي من قبل إسناده، والعمل عند أهل العلم في هذا أن شهادة القريب جائزة لقرابته، واختلف أهل العلم في شهادة الوالد للولد، والولد لوالده، ولم يجز أكثر أهل العلم شهادة الوالد للولد ولا الولد للوالد.

وقال بعض أهل العلم إذا كان عدلاً فشهادة الوالد للولد جائزة، وكذلك شهادة الولد للوالد ولم يختلفوا في شهادة الأخ لأخيه أنها جائزة، وكذلك شهادة كل قريب لقريبه.

وقال الشافعي: لا تجوز شهادة الرجل على الآخر وإن كان عدلاً إذا كانت بينهما عداوة، وذهب إلى حديث عبد الرحمن الأعرج عن النبي ﷺ مرسلا: «لا تجوز شهادة صاحب إحنة» يعني صاحب عداوة، وكذلك معنى هذا الحديث حيث قال: «لا تجوز شهادة صاحب غمر لأخيه» يعني صاحب عداوة.

والحديث رواه أبو داود (٣/٣٠٦، رقم ٣٦٠٠) من طريق سليمان بن موسى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن رسول الله ﷺ رد شهادة الخائن والخائنة وذي الغمر على أخيه». =

ويحزن لمسرته، والعداوة وقد تكون من الجانبين وقد تكون من أحدهما، نعم لنا صورة تصح فيها شهادة العدو على عدوه، وهي ما كان بينهما عداوة دينية كشهادة المسلم على الكافر، والسني على المبتدع، فإن البغض لله ليس قادحاً في الشهادة فيمن أبغضته لفسقه قبلت شهادتك عليه، وأما الشهادة للعدو فأنها تقبل إذا لم يبغضه لعدم التهمة، والفضل ما شهدت به الأعداء.

قال أبو سفيان: «**ثم كان أول ما سألني عنه هرقل على لسان الترجمان أن قال: كيف نسبه فيكم**» يعني هل من أشرافكم «**قلت: هو فينا ذو نسب**» أي: صاحب نسب عظيم.

«**قال**» أي: هرقل «**فهل قال هذا القول منكم أحد قط**» يعني هل أدعى النبوة من قومكم، قريش أو العرب أحد قط قبله؟ «**قلت: لا**».

«**قال: فهل كان من آبائه من ملك**» أي: من تولى الملك «**قلت: لا**».

«**قال: فأشراف الناس**» أي: كبارهم وأهل الأحساب منهم «**اتبعوه أم ضعفاءهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم**».

قول أبي سفيان أن الضعفاء اتبعوا النبي ﷺ دون الأكابر نظراً إلى غالب أتباعه، فلا يشكل بمن سبق إلى أتباعه من أكابر أشراف دينه كالصديق والفاروق وحمزه وغيرهم، وإنما كان أتباع الرسل الضعفاء دون الأشراف، لأن الأشراف يأنفون من تقديم مثلهم عليهم والضعفاء لا يأنفون بل يسرعون إلى الانقياد لأتباع الحق.

«**قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد منهم أحد سخطة لدينه**» أي: كرهه له بعد أن يدخل فيه، «**قلت: لا**» أي: لا يرتد أحد منهم لأجل كراهته لدين الإسلام بل إما مكرهاً وإما رغبة في غيره لحظ نفساني كما وقع لعبيد الله بن حجش.

وارتد بعد الصحابة أيضاً جماعة لحظ نفساني كما يحكى أن مؤذناً أذن في منارة أربعين سنة فصعد يوماً وأذن حتى بلغ حي على الصلاة فوقع بصره على امرأة نصرانية

= وأخرجه أيضاً: سنن ابن ماجه (٢/٧٩٢، رقم ٢٣٦٦) إلا أنه من طريق حجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده... به.

قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/٥٤): هذا إسناد ضعيف لتدليس حجاج بن أرطأة، رواه من طريقه أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده... به، وله شاهد من حديث عائشة رواه الترمذي في الجامع.

فذهب عقله ولبه، وترك الأذان وذهب إليها وخطبها فقالت: مهري ثقيل عليك، فقال وما هو؟ فقالت: تدخل في ديني فكفر بالله ودخل في دينها، فقالت: إن أبي في أسفل الدار فأنزل إليه واخطبني منه فنزل وزلت رجله فسقط ومات كافراً و لم يقض شهوته نسأل الله تعالى أن يمتنا على الإسلام بمنه وكرمه.

«**قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا**» أي: لا نتهمه بالكذب، لكن ذكر ابن سيد الناس في السيرة أنه يروى في خبر أبي سفيان أنه قال لقيصر قد كذب قال: وما هو؟ قال: أنه زعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيليا ورجع في تلك الليلة قبل الصباح قال: وبطريق إيليا عند قيصر، فقال: صدق ما قال، وما أعلمك بهذا قال إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت بعمالي ومن يحضرني فلم نستطيع أن نحركه، كأنما نزاول جبلاً فدعوت النجاري فنظر إليه فقال: هذا باب سقط عليه النجاف والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح، فنظر من أين أتى فرجعت وتركت البابين مفتوحين فلما أصبحت غدوت عليها، فإذا الجبل الذي في زاوية المسجد منقوب، وإذا فيه أثر ربط الدآبة، فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا هذا، فقال قيصر: يا معشر الروم أنتم تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبياً بشركم به عيسى ترجون أن يجعله الله فيكم قالوا: بلى قال: فإن الله قد جعله في غيركم في أقل منكم عدداً وأصغر منكم بلاداً وهي رحمة يضعها حيث شاء.

«**قال فهل يغدر**» أي: ينقض العهد «**قلت: لا، قال أبو سفيان: ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها**».

يعني: صالحناه على ترك القتال مدة لا ندري ما يفعل في هذه المدة، وهذا منه أشارة إلى عدم الجزم بغدره.

«**قال أي: أبو سفيان ولم تملكني كلمة أدخل فيها شيئاً**» أي: انتقصه به غير هذه الكلمة يعني قوله «**ونحن في مدة منه لا ندري ما هو فاعل**» فيها من قبيل إطلاق الكلمة على الكلمة.

قال ابن مالك:

* وكلمة بها كلام قد يؤم *

و لم يمكنه أن ينتقص رسول الله ﷺ لأنه كان يعلم من أخلاقه ﷺ الوفاء والصدق.

«**قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال**» أي: نوبة لنا ونوبة له، ولله درمن قال:

يوم علينا ويوم لنا ويوم نساء يوم لنرى

السجال: جمع سجل وهو الدلو الكبير، والمتحاربين كالمستقين يستقي هذا دلو ذاك.

وقوله: «**ينال منا وننال منه**» قال البلقيني: هذا فيه دسيسة لأنهم لم ينالوا من النبي ﷺ قط والذي وقع في أحد أن بعض المقاتلين قتل وكان العزة والنصر للمؤمنين.

«**قال ماذا يأمركم قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول أباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف**» أي: الكف عن المحارم وخوارم المرؤة.

«**والصلة**» أي: صلة الرحم، وكم أمر الله به أن يوصل بالبر والإكرام والمراعاة ولو بالسلام والترحم، وأشار بقوله: «**لا تشركوا، واتركوا**» إلى التخلي عن الرذائل، وبقوله: «**يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف**» إلى التحلي بالفضائل، ومحصله أنه ينهانا عن النقائص ويأمرنا بالكمالات.

«**فقال**» أي: هرقل فرغ من أسألته لأبي سفيان «**للترجمان قل له**» لأبي سفيان «**سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب وكذا الرسل تبعث في قومها**».

يعني يكونون أفضل القوم أشرفهم لأن من شرف نسبه كان أبعد من انتحال الباطل وأقرب لانقياد الناس إليه.

«**وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل تأسى**» وفي رواية «**يتأسى**» ومعنى كل منهما يقتدي ويتبع بقول قيل قبله.

«**وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فقد عرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل**».

معناه: أن اتباع الرسل في الغالب أهل الاستكان لا أهل الاستكبار، الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً كأبي جهل وأشياعه إلى أن أهلكهم الله تعالى، وأنقذ بعد

حين من أراد سعادته منهم، وكذلك أتباع العلماء العاملين هم أهل الاستكانة، لا أهل الذين جعلوا الدنيا نصب أعينهم.

«وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم».

قال العلماء: وزيادتهم دليل على صحة النبوة لأنهم يرون كل يوم يتجدد فيدخل فيه كل يوم طائفة.

«وسألتك أيرتد منهم أحداً سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب»

فإن الإيمان لا يدخل قلباً فيخرج منه فإنه يظهر نوراً، ثم لا يزال حتى يتم بالأمور المعتبرة فيه من صلاة وزكاة وغيرها.

لطيفة: حكى الإخباريون أنه كان في زمن فرعون امرأة ماشطة مؤمنة بموسى في الباطن، فبينما هي تمشط جارية من جواري فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت تعساً لفرعون ومن يعبده، فقالت لها الجارية: يا هذه ما هذا الكلام الذي سمعت؟ فقالت: هو كما سمعت، فقالت الجارية لها: فكلامك هذا يدل على أن ربك غير فرعون، فقالت: ورب الكعبة الله ربي وربك ورب فرعون ورب الخلائق أجمعين لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون، قالت الجارية: وأين يكون ربك هذا؟ قالت: في السماء قدرته وفي الأرض سلطانه، قالت لها الجارية: فأنا أخبر فرعون بهذا، قالت الماشطة: دونك وفرعون فأخبريه بما شئت، فدخلت الجارية على فرعون وخرت له ساجدة وقالت له: إن فلانة الماشطة تزعم أن لها رباً غيرك فغضب فرعون وبعث إلى زوجها وقال: ما هذا الذي تقول زوجتك؟ قال: وما الذي تقول؟ قال فرعون: تزعم أن لها رباً سواي، قال زوج الماشطة: صدقت، الله ربنا وربك ورب الخلائق أجمعين لا إله إلا الله هو رب العرش العظيم، فاشتد غضبه من كلامه، وقال: لئن لم تنتهيا عن هذا الكلام لأغلين لكما الزيت ولأطرحنكما فيه، قال: دونك فأصنع ما أنت صانع، فأمر فرعون بإحضار قدره ثم ملئت زيتا ثم غلي الزيت، فلما نظرت المرآة إلى غليانه أيقنت بالهلاك والموت، فأقبلت على فرعون وقالت له: إن لي عندك حاجة فقال لها: تقضى، فقالت: إن كان ولابد من عذابنا فقدم أولادي أمامي وفعلت ذلك ليعظم أجرها بصبرها، فأمر فرعون بأولادهم في الزيت وهي تنظر إليهم، فناداها الولد الصغير: يا أماه العجل العجل فإنك على الحق وفرعون على الباطل، وهو ومن يعبده في النار،

فألقت نفسها على أثر أولادها، ثم تبعها أبو أولادها.

فانظر إلى هذا الثبات على الإيمان والصبر على العذاب لحصول النعيم االأبدي.

«**قال هرقل لأبي سفيان وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر**».

أي: لأنها لا تطلب حظ الدنيا الذي لا يبالي طالبه بالغدر، وبخلاف من طلب الآخرة فإنه لا يرتكب غدراً ولا غيره من القبائح.

«وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف».

ثم قال هرقل بعد فراغه من الأسئلة وأجوبتها «**فإن كان ما تقول يا أبا سفيان حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين**».

أي: بيت المقدس وأراد الشام وفي مسلم: «**فإن يك ما يقوله حقاً فإنه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج فلم أكن أظن أنه منكم معاشر العرب**»[1] كأنه استبعد أن يتنبأ من العرب.

فإن قيل: من أين كان يعلم بخروج المصطفى ﷺ حتى قال: كنت أعلم أنه خارج؟

فالجواب: أن الكرماني قال في هذا: اعلم أن كل الذي قاله هرقل مأخذه إما من القرائن العقلية، وإما من الأحوال العادية، وإما من الكتب القديمة.

وقال ابن الملقن: إنما علم ذلك من التوراة والإنجيل.

وقال المازري: هذه الأشياء الذي يسأل عنها هرقل ليست قاطعة على النبوة إلا أنه يحتمل أنه كانت عنده علامات على هذا النبي بعينه، لأنه قال: وقد كنت أعلم أنه خارج و لم أكن أظن أنه منكم.

ثم قال هرقل «**فلو أني أعلم أني أخلص إليه**» أي: أصل إليه «**لتجشمت لقاؤه**» أي: لتكلفت لقاؤه على خطر ومشقة، وحملت نفسي على الارتحال إليه لو كنت أتيقن الوصول إليه، لكني أخاف أن يعوقني عائق فأكون قد تركت ملكي، و لم أصل إلى خدمته.

«**ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه**» أي: مبالغة في العبودية والخدمة، واقتصاره على غسل القدمين إشارة منه إلى أنه لا يطلب منه إذ وصل إليه ولاية، ولا منصباً وإنما

---

(١) انظر: رواية الإمام مسلم للحديث في صحيحه (١٣٩٣/٣، رقم ١٧٧٣).

يطلب ما يحصل البركة.

قال العلماء: ولا يحكم بإيمانه بقوله هنا: فلو أني أعلم أخاف أخلص إليه لتجشمت لقاؤه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ولا بقوله فيما سيأتي، حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروجه ﷺ وأنه نبي، ولا بقوله: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي، وإنما لم يحكم بإيمان بذلك لأنه ظهر منه ما ينافيه حيث قال: قلت: مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فعلمنا أن ما صدر منه لم يصدر عن التصديق القلبي والاعتقاد الصحيح، بل لامتحان الرعية، بخلاف إيمان ورقة بن نوفل فإنه صحيح لأنه لم يظهر منه ما ينافيه.

وقال النووي: لا عذر له في قوله: لو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاؤه» لأنه قد عرف صدق النبي ﷺ وإنما شح بالملك ورغب بالسياسة، وآثرها على الإسلام كما ورد في هذا الصحيح، ولو أراد الله لوفقه كما وفق النجاشي ومازالت عنه الرئاسة.

وقال الخطابي: إذا تأملت معاني استقراؤه من أوصافه تبينت قوة إدراكه، فلله دره من رجل ما كان أعقله لو ساعد معقوله مقدوره.

وقال شيخ الإسلام ابن حجر: يقوي أن هرقل آثر ملكه على الإيمان واستمر على الضلال أنه حارب المسلمين في غزوة مؤتة سنة ثمان بعد هذه القصة بدون السنتين.

ويدل على عدم إيمانه أيضاً ما رواه ابن حبان في صحيحه أنه قارب الإجابة و لم يجب[1].

وورد أيضاً في مسند أحمد أنه كتب من تبوك إلى النبي ﷺ: إني مسلم فقال النبي ﷺ: «**كذب بل هو باق على نصرانيته**»[2].

---

(١) لم نقف عليه عند ابن حبان بهذا اللفظ وسيأتي في تخريج الحديث الآتي لفظ آخر عند ابن حبان، وربما رواه في غير الصحيح، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٧/١) وعزاه إليه من حديث أنس بن مالك قال: إن النبي ﷺ كتب إليه أيضاً من تبوك يدعوه وأنه قارب الإجابة و لم يجب.

(٢) لم نقف عليه في مسند أحمد وأورده أيضا الحافظ في الفتح (٣٧/١)، إلا أننا وقفنا على رواية لابن حبان بمعناه (٣٥٧/١٠، رقم ٤٥٠٤) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من ينطلق بصحيفتي هذه الى قيصر وله الجنة» فقال رجل من القوم: وإن لم أقتل؟ قال: «وإن لم تقتل» فانطلق الرجل به فوافق قيصر، وهو يأتي بيت المقدس قد جعل له بساط لا يمشي عليه غيره، =

وورد أيضاً بطريق ضعيف كما قاله الطبراني أنه قال: أعرف أنه كذلك، أنه نبي ولكن لا أستطيع أن أفعل أن أبايعه، وإن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم[١].

قال شيخ الإسلام ابن حجر[٢]: لو تفطن لقول النبي ﷺ في كتابه: «**أسلم تسلم**» وحمل الجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة لسلم من كل ما يخافه، ولكن التوفيق بيد الله سبحانه وتعالى.

وأما قول صاحب الاستيعاب: «آمن» فمحمول على أنه أظهر الإيمان لكنه لم يستمر عليه، وشح بملكه وخاف أن يقتله قومه وآثر الفانية على الباقية والله الموفق.

وقال أبو سفيان «**ثم دعا هرقل بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث**» أي: أرسله «**مع دحية إلى عظيم بصرى**» أي: أميرها «**فدفعه إلى هرقل**».

قال العلماء: يجوز في دال دحية الفتح والكسر، ويقال له دحية الكلبي وهو دحية بن خليفة، وكان ﷺ من أجمل الصحابة وجهاً ومن كبارهم وكان جبريل يأتي النبي ﷺ كثيرًا على صورته[٣].

= فرمى بالكتاب على البساط وتنحى فلما انتهى قيصر إلى الكتاب أخذه ثم دعا رأس الجاثليق فأقرأه فقال: ما علمي في هذا الكتاب إلا كعلمك فنادى قيصر: من صاحب الكتاب فهو آمن، فجاء الرجل فقال: إذا أنا قدمت فأتني فلما قدم أتاه فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت، ثم أمر مناديا ينادي ألا إن قيصر قد اتبع محمدا ﷺ وترك النصرانية فأقبل جنده وقد تسلحوا حتى أطافوا بقصره، فقال لرسول رسول الله ﷺ قد ترى إني خائف على مملكتي، ثم أمر مناديا فنادى ألا إن قيصر قد رضي عنكم وإنما خبركم لينظر كيف صبركم على دينكم، فارجعوا فانصرفوا وكتب قيصر الى رسول الله ﷺ: إني مسلم وبعث إليه بدنانير فقال رسول الله ﷺ حين قرأ الكتاب: «كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية» وقسم الدنانير.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤/٢٢٥، رقم ٤١٩٨) عن دحية الكلبي.

ورواه أيضاً: الأصبهاني في دلائل النبوة (ص ١٥٣، رقم ١٦٨).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٣٠٦): رواه الطبراني وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف.

(٢) انظر: فتح الباري (١/٣٧).

(٣) حديث إتيان جبريل في صورة دحية الكلبي أخرجه النسائي (٨/١٠١، رقم ٤٩٩١) والبزار (٩/٤١٩، رقم ٤٠٢٥) كلاهما من حديث أبي هريرة.

وأخرجه الطبراني فى المعجم الكبير (١/٢٦٠، رقم ٧٥٨)، وفي المعجم الأوسط (١/٧، رقم ٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ. =

وذكر السهيلي عن ابن عبد السلام في قوله تعالى ﴿**أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا**﴾[الجمعة: ١١] قال: كان اللهو هو نظرهم إلى وجه دحية لجماله.

وروي أنه كان إذا قدم الشام لم تبق امرأة مخدرة إلا خرجت تنظر إليه، أسلم قديماً ولم يشهد بدراً وشهد المشاهد بعدها، وبقي إلى خلافة معاوية وسكن «المزة» قرية بقرب دمشق.

«**فأخذ هرقل الكتاب فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله**» إنما قال: عبد الله تعريضاً ببطلان ما تقوله النصارى من أن المسيح هو ابن الله، لأن حكم الرسل كلهم واحد في كونهم عباد الله، وقال: عبد الله ورسوله ولم يعكس من باب الترقي.

«**إلى هرقل عظيم الروم**» إنما قال ﷺ عظيم الروم، ولم يقل ملك الروم لأنه معزول عن الملك بحكم دين الإسلام، ولا سلطنة لأحد إلا من قبل رسول الله ﷺ لكن لم يُخْلِه ﷺ من نوع الإكرام في المخاطبة، ليكون أخذ بأدب الدين في تليين القول لمن يدعوه إلى دين الحق، فلهذا قال: عظيم الروم، أي: الذي تعظمه الروم ولم يقل إلى هرقل فقط وقد أمر الله بتليين القول لمن يدعى إلى الإسلام فقال ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ**﴾[الإسراء: ١٢٥].

«**سلام على من اتبع الهدى**» لم يقل ﷺ: سلام عليك، إذ الكافر لا سلام عليه دون الإسلام لأنه مخزي في الدنيا بالحرب والقتل والسبي، وفي الآخرة معذب بالعذاب الأبدي، وفيه إشعار بأنه إذا اتبع الهدى كان من أهل السلامة.

فائدة: قال العلماء: لا يجوز للمسلم أن يسلم على الكافر لأنه ﷺ نهى عن ذلك بقوله «**لا تبدأو اليهود والنصارى بالسلام**»(١).

وليس المراد من قوله ﷺ: «**على من اتبع الهدى**» التحية بل معناه: سلم من

= وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/١٧٥، رقم ٦٢٥٧) من حديث عائشة.

وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/٧٨٠، رقم ١٨) من حديث شريح بن عبيد.

وأخرجه ابن سعد في الطبقات لكبرى (٤/٢٥٠) من حديث ابن عمر جميعاً بلفظ: «كان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي».

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٧٠٧، رقم ٢١٦٧)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣٨٠، رقم ١١١١)، والترمذي في سنن الترمذي (٤/١٥٤، رقم ١٦٠٢)، وأحمد في مسنده (٢/٢٦٦، رقم ٧٦٠٦) جميعاً عن أبي هريرة.

عـــذاب الله لمن أسلم، فلو سلم على من لم يعرفه فبان ذمياً أُستحب أن يسترد سلامه بأن يقول: استرجعت بسلامي تحقيراً له، نعم يجوز للمسلم أن يحيي الذمي بغير السلام بأن يقول: هداك الله أو أنعم الله صباحك، ولو سلم الذمي على المسلم وجب أن يرد عليه و لم يزد في الرد على قوله وعليك لخبر الصحيحين «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**»[1]، وفي هذا الصحيح «**إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليكم فقولوا وعليك**»[2].

«**أمـــا بعـــد**» يجوز في دال أما بعد أربعة أوجه الضم والفتح والرفع مع التنوين والنصـــب معه أيضاً، واختلف العلماء في أول من نطق بها على أقوال: فقيل: داود، وقيـــل: قـــس بـــن ساعده، وقيل: كعب بن لؤي، وقيل: يعرب بن قحطان، وقيل: سحبان، وكان النبي ﷺ يقولها في خطبة وشبهها روى ذلك عنه عدة من الصحابة.

«**فأنـــا أدعـــوك بدعائه الإسلام**» أو بدعوة الإسلام، أي: آمرك بكلمة التوحيد وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التي يدعى إليها الأمم.

وفي هذا الصحيح في الجهاد: «**أدعوك بدعاية الإسلام**» أي: بالكلمة الداعية إلى الإســـلام «**أســـلم تسلم**» أي: إن أسلمت تبق سالماً وهذا من محاسن الكلام وبليغه وإيجازه واختصاره، وفيه نوع من البديع وهو الجناس فهو كقوله تعالى ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ**﴾[النمل: ٤٤].

«**يؤتـــك الله أجرك مرتين**» جواب ثاني للأمر إن أسلمت تسلم يؤتك الله أجرك مرتين عند الإسلام، كونه كان مؤمناً بعيسى ثم آمن بالنبي ﷺ.

قـــال الـــبرماوي آخر كتاب النكاح: «**فائدة**: قال العلماء: في قوله ﷺ في كتابه الذي كتبه إلى قيصر: «**أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين**» هذا يدل على أن قيصر كان على دين عيسى عليه السلام حين كان حقاً قبل التبديل والنسخ، وإلا فلم يكن له أجره مرتين لو أسلم».

ويـــدل على أنه وأصحابه أهل كتاب لأنه خاطبه بيأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ســـواء بيننا وبينكم، ويحتمل أنه يكون تضعيف الأجر له مرتين من جهة إسلامه ومن

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٠٩، رقم ٥٩٠٣)، ومسلم (٤/١٧٠٥، رقم ٢١٦٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) انظر: صحيح البخاري (٥/٢٣٠٩، رقم ٥٩٠٢) رواه البخاري عن ابن عمر.

جهة أن إسلامه يكون سبباً لدخول اتباعه في دين الإسلام.

ثم قال رسول الله ﷺ: «**فإن توليت**» أي: أعرضت عن الإسلام «**فإن عليك إثم الأَرِيسِيِّينَ**» أي: الأكارين وهم الفلاحون، وأرد ﷺ أن عليك إثم جميع رعاياك الذين يتبعونك وينقادون لأمرك، وإنما اقتصر على الزارعين منهم لأنهم كانوا هم الأغلب فيهم، لأنهم أسرع في الانقياد، فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا، حذره ﷺ إذا كان رئيساً متبوعاً مسموعاً أن يكون عليه إثم الكفر وإثم من عمله، قال عليه الصلاة والسلام: «**من عمل سيئة كان له إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة**»[1] وتقديم لفظ عليك على اسم أن مفيد للحصر أي: ليس اثمه إلا عليك.

قال شمس الأئمة الكرماني: فإن قلت: فكيف يكون إثم غيره عليه وقال تعالى ﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[الزمر: ٧] قلت: المراد إثم الإضلال عليه والإضلال أيضاً كالضلال على أنه معارض لقوله تعالى ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ**﴾[العنكبوت: ١٣].

قال ابن حجر: وفي الكلام حذف دل المعنى عليه وهو فإن عليك مع إثمك إثم الأَرِيسِيِّينَ لأنه إذا كان إثم الأتباع عليه بسبب أنهم تبعوه على استمرار الكفر، فلأن يكون عليه إثم نفسه أولى.

ثم قال ﷺ ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾ وهو عطف على بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[آل عمران: ٦٤].

والحكمة في تخصيص هذه الآية بالإرسال إلى هرقل دون غيرها من الآي أنه نصراني، والنصارى جمعت هذه الأمور الثلاثة عبدوا غير الله وهو عيسى، وأشركوا بالله فقالوا إنه ثالث ثلاثة، واتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، قال الله تعالى ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ**﴾[التوبة: ٣١].

قال أبو سفيان «**فلما قال**» يعني هرقل «**ما قال**» أي: من الأسئلة والأجوبة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٥٩/٤، رقم ١٠١٧) عن جري بطرف: «من سن سنة...». وأخرجه أيضاً: الترمذي (٤٣/٥، رقم ٢٦٧٥)، والنسائي في سننه (٧٥/٥، رقم ٢٥٥٤)، وابن ماجه (٧٤/١، رقم ٢٠٣)، وأحمد في مسنده (٣٦١/٤، رقم ١٩٢٢٣)، والدارمي في سننه (١٤١/١، رقم ٥١٤).

«**وفرغ من قراءة الكتاب**» أي: كتاب رسول الله ﷺ، «**كثر عنده**» أي: عند هرقل، «**الصخب**» أي: اللغط وهو أصوات مختلفة مبهمة لا تفهم، فلا أدري ما قالوا، «**وارتفعت الأصوات وأخرجنا فقلت لأصحابي: أخرجنا**» أي: من مجلسه «**لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة**» هذا جواب لقسم محذوف تقديره: والله قد أمر أي: أعظم أمر أبن أبي كبشه أي: أمر محمد.

وأختلف العلماء في أبي كبشه الذي نسبه إليه أبو سفيان هنا فقيل كان رجلاً من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وكان يعبد الشعرى، و لم يوافقه أحد من العرب على ذلك، فشبهوا النبي ﷺ وجعلوه ابناً له لمخالفته إياهم في دينهم كما خالفهم أبو كبشه.

وقيل: أبو كبشة جد النبي ﷺ من قبل أمه من الرضاع، وقيل: من قبل أمه وإنما نسبوه إلى هذا الجد تحقيراً له بنسبته إلى غير نسبه المشهور، فإنه كان من عادة العرب إذا انتقضت أحداً نسبه إلى جد غامض.

فائدة: لم يقتل النبي ﷺ بيده قط أحداً سوى أبي بن خلف قاله في البرهان في شرح السيرة، ولما طعنه رسول الله ﷺ قال: طعنني ابن أبي كبشة قاله ابن الملقن.

ثم قال أبو سفيان «**إنه يخافه ملك بني الأصفر**» أي: ملك الروم وسمى الروم الأصفر فقيل: لأن جدهم روم بن غيص بن إسحاق بن إبراهيم تزوج بنت ملك الحبشة فجاء لون ولده بين البياض والسواد، فقيل له: الأصفر، وقيل لأولاده بنو الأصفر، وقيل: لهم بني الأصفر لأن جيشًا من الحبشة غلب على ناحيتهم في وقت، فوطئ نساءهم فولدن أولادًا صفرًا من سواد الحبشة وبياض الروم.

قال أبو سفيان «**فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام**» وتقدم أنه أسلم ليلة الفتح، قال بعضهم: لم يسلم ليلة الفتح إلا في الظاهر فلهذا أظهر النفاق بعدها في غزوة حنين، ثم حسن إسلامه في الطائف، وإيمانه ﷺ صحيح خلافاً لما يقع في بعض التواريخ، وتقدم أن أبا سفيان كان يسمى بصخر، وكان يسمى أبوه حرب، وكان جده يسمى بأمية بن أبي الصلت، وكان أمية شاعراً وكان شعره مشتملاً على الوحدانية والبعث، وسمع النبي ﷺ شعره فقال: «**لقد كاد أن يسلم**» قال ذلك لما سمع قوله:

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا ... فلا شيء أعلا منك حمداً وأمجدا

وكان أبوه قد قرأ التوراة والإنجيل في الجاهلية، وكان يعلم بأمر محمد ﷺ قبل مبعثه

فطمع أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ وصرفت النبوة عن أمية حسده وكفر وأنزل في حقه كما قاله عبد الله بن عمرو بن العاص ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[الأعراف: ١٧٥]، وأما ولده حرب جدة معاوية فإن الجن قتلوه بمفازة وأنشدوا فيه.

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ولقتله سبب ذكره الكمال الدميرى في الغراب.

قال الإمام النووي ﷺ: اعلم أن هذه القطعة أي: من قصة هرقل مشتملة على جميل من القواعد ومهمات من الفوائد:

منها: جواز مكاتبة الكفار وقد كاتب النبي ﷺ ستة من ملوك الكفار غير هرقل كما سنذكرهم في محلهم إن شاء الله تعالى.

ومنها: دعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم.

ومنها: استحباب تصدير الكتب بسم الله الرحمن الرحيم وإن كان المبعوث إليه كافراً، وكان النبي ﷺ في أول الأمر قبل نزول البسملة يصدر كتابه باسمك اللهم على طريقة قريش حتى نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾[هود: ٤١] فكتب بسم الله حتى نزلت ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾[الإسراء: ١١٠] فكتب بسم الله الرحمن حتى نزلت ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[النمل: ٣٠] فكتبها.

ومنها: أن السنة في المكاتبة والرسائل بين الناس أن يبدأ الكتاب بنفسه فيقول من فلان إلى فلان، وإن كان المرسل إليه أعظم من المرسل كما عليه الأكثر، قال الربيع بن أنس ما كان أحد أعظم حرمة من النبي ﷺ وكان أصحابه يكتبون إليه مبتدين بأنفسهم وهم مقتدون في ذلك برسول الله ﷺ فإنه بدأ بنفسه لما كاتب هرقل وغيره فقال: من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم.

وروى: أن هرقل لما أخرج كتاب رسول الله ﷺ ليقرأه فرأى أخو هرقل أنه ﷺ بدأ بنفسه فأخذ الكتاب ليمزقه فأخذه هرقل وقال: أنت أحمق صغير وأحمق كبير ، وقرأه.

ومنها: أن فيه دلالة على جواز معاملة الكفار بالدراهم المنقوشة فيها بسم الله للضرورة، ونقل عن مالك الكراهة.

ومنها: أن فيه دلالة على جواز مسافرة المسلم إلى أرض الكفار.

ومنها: أن فيه دلالة على جواز بعث آية من القرآن ونحوها إليهم، نعم لا يجوز المسافرة بالمصحف إلى دار الكفر، وكذلك لا يجوز المسافرة بحمله منه خوفاً من وقوعه

في أيدي الكفار، وعليه يحمل النهي عن المسافرة بالقرآن إلى بلاد العدو.

ومنها: أن فيه دلالة على أن العدو لا يؤمن أن يكذب على عدوه.

ومنها: وجوب العمل بخبر الواحد، وإلا لما بعثه مع دحية وحده، وذلك بإجماع من يعتد به.

ومنها: أن فيه دلالة على جواز مس الجنب أو الكافر ما في الكتاب وغيره إذا كان غير القرآن أكثر.

ومنها: أنه لابد من استعمال الورع في الكتابة، فلا يفرط ولا يتفرط، ولهذا قال له: هرقل عظيم الروم.

ومنها: استحباب البلاغة والإيجاز، وتحري الألفاظ الجزلة في المكاتبة، فإن قوله: أسلم تسلم في نهاية الاختصار والبلاغة وجمع المعاني.

ومنها: أن من أدرك نبيين متبعاً لهما فله أجره مرتين.

ومنها: أن صدق رسول الله ﷺ وعلاماته كان معلوماً لأهل الكتاب علماً قطعيًا، وإنما ترك الإيمان منهم من تركه عنادًا وخوفًا على فوات مناصبهم.

ومنها: أن من كان سببًا للضلالة أو منع هداية كان إثما.

ومنها: استحباب أما بعد في الخطب والمكاتبات ونحوها.

فائدة: ذكر بعض شراح البخاري أن دحية لما قدم على هرقل قال له: يا قيصر أرسلني من هو خير منك، والذي أرسله خير منه ومنك، فاسمع بذل وأجب تنصح، فإنك إن لم تذل لم تفهم، وإن لم تنصح لم تنصف، قال: هات، قال: هل تعلم أكان المسيح يصلي؟ قال: نعم، قال فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له، وأدعوك إلى من خلق السماوات والأرض، والمسيح في بطن أمه، وأدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى وبشر به عيسى بن مريم بعده، وعندك من ذلك آثار من علم يكفي من العيان، ويشفي من الخبر، فإن أحببت كان لك الدنيا والآخرة وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت في الدنيا، اعلم أن لك رباً يقصم الجبابرة ويقرر النعم، فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينه ورأسه وقلبه، ثم قال: والله ما تركت كتاباً إلا قرأته ولا عالماً إلا سألته، فما رأيت إلا خيراً فأمهلني حتى انظر من كان المسيح يصلي له، وأنا أكره أن أجيبك اليوم بأمر أرى غداً ما هو أحسن منه، فأرجع عنه فيضرني ولا ينفعني، أقم حتى انظر فلم يلبث أن أتته وفاة رسول الله ﷺ.

خاتمة: روي أن هرقل وضع كتاب النبي ﷺ الذي كتبه في قصعة من ذهب تعظيماً

له، وأنهم لم يزالوا يتوارثون كابرًا عن كابر في أرفع صوان وأعز مكان.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: أنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشقي قال: حدثني سيف الدين المنصوري قال: أرسلني ملك الإفرنج في شفاعة فقبلها وعرض علي الإقامة عنده فقال: لأتحفنكم بتحفة سنية، فأخرج لي صندوقًا مصحفًا بذهب، فأخرج منه مقلمة ذهب فأخرج منه كتابًا قد زالت أكثر حروفه، وقد ألصقت عليه خرقة حرير فقال: هذا كتاب نبيكم لجدي قيصر، مازلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا أباؤنا عن أبائهم إلى قيصر أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا، فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا.

ويؤيد هذا ما روي أن النبي ﷺ لما جاء جواب هرقل قال: «ثبت ملكه»[1].

قال ابن حجر: ثم قال البخاري «**وكان ابن الناظور**» روي بالطاء المهملة وبالظاء المعجمة ومعناه: حافظ الزرع والناظر إليه، وهو معطوف على وأخبرني عبيد الله، والتقدير: عن الزهري، وأخبرني عبيد الله... فذكر الحديث، ثم قال الزهري: «**وكان الناظور صاحب إيلياء وهرقل أسقفاً على نصارى الشام**»، وهرقل مجرور بالعطف على إيلياء أي: كان ابن الناظور صاحب إيلياء وصاحب هرقل أسقفًا.

قال الكرماني: ولفظ الصاحب هذا بالنسبة إلى هرقل حقيقة فإنه بمعنى الصديق وبالنسبة إلى إيلياء مجازًا إذ المراد الأحكام فيه، وإرادة المعنى الحقيقي والمعنى المجازي من لفظ واحد باستعمال واحد جائز عند الشافعي، وأما عند غيره فهو مجاز بالنسبة إلى المعنيين باعتبار معنى شامل لهما، ومثله يسمى بعموم المجاز، ويجوز في صاحب النصب على الاختصاص أي: على الحال، والرفع على أنه مبتدأ محذوف، وقوله «يحدث» خبر «كان».

فائدة: النصارى جمع نصراني سمو بذلك لنصرة بعضهم بعضاً، أو لأنهم نزلوا موضعاً يقال له نصرانه أو ناصره، أو لقوله تعالى ﴿**مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ**﴾[الصف: ١٤] والمعنى: أن هرقل لما وصل إلى بيت المقدس، وكان إذ ذاك ببيت المقدس حاكم يقال له ابن الناظور وكان صاحب هرقل وكان أسقفاً على نصارى الشام أي: عالمهم وقاضيهم ومقتداهم «**وكان يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء**» أي: في الأيام التي انتصرت جنوده على جنود فارس وأخرجهم من بلاده ، «**وأصبح يوماً خبيث**

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٧٧/٩، رقم ١٨٣٨٦) من قول الشافعي.

النفس» أي: رديء النفس غير طيبها أي: أصبح ما غير نشط ولا منبسط «**فقال له بعض بطارقته**» أي: خواص دولته وأهل الرأي والشورى منهم «**قد استنكرنا هيئتك**» أي: أنكرنا حالتك أي: رأيناها مخالفة لسائر الأيام «**قال ابن الناظور: وكان هرقل حَزَّاءً ينظر في النجوم**» يحتمل أن يكون خبراً ثانياً لكان لأنه ينظر في الأمرين، ويحتمل أن يكون تفسيراً لحزاء، فإن الكهان تارة تستدل إلى اللقاء الشيطان الشياطين، وتارة يستفاد من إحكام النجوم، وكان كلاً من الأمرين في الجاهلية شائعاً ذائعاً، إلى أن أظهر الله الإسلام فانكسرت شوكتهم وأبطأ الشرع الاعتماد عليهم.

وقال لهم هرقل حين سألوه أي: عما استنكره منه «**إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان**» أي: رأيت الطائفة الذين يقطعون الجلدة التي فوق الحشفة «**قد ظهر**» أي: غلبوا وملكوا يعني له نظره في النجوم، أن الملك ينتقل عنهم إلى الطائفة الذين يختتنون، فإن النصارى لا تختتن، وكان أدرك ذلك وحصله من حساب المنجمين، فإنهم زعموا أن المولد النبوي كان بقران العلويين ببرج العقرب، وهم يقترنان في كل عشرين سنة مرة إلى أن تستوفي المثلثة بروجها في ستين سنة، فكان في ابتداء العشرين الأولى المولد النبوي في القران المذكور، وعند تمام العشرين الثانية مجيء جبريل بالوحي، وعند تمام الثالثة فتح خيبر ومكة ظهور الإسلام، وعندهم أن برج العقرب مائي وهو دليل ملك القوم الذين يختتنون وكان دليلاً على انتقال الملك للعرب.

فإن ساغ للبخاري إيراد هذا الخبر المشعر بتقوية قول المنجمين والاعتماد على ما يدل أحكامهم.

فالجواب: أنه قصد أن يبين أن البشارات بالنبي جاءت من طريق، وعلى كل لسان رفيق من كاهن أو منجم محق أو مبطل.

ثم سأل هرقل «**فمن يختتن من هذه الأمة**» أي: مَن مِن أهل هذا العصر وإطلاق الأمة على أهل العصر كلهم فيه تجوز «**قالوا: ليس يختتن إلا اليهود**» والحصر في قوله «**إلا اليهود**» بمقتضى علمهم لأن اليهود كانوا بإيليا تحت الذل مع النصارى بخلاف العرب، ثم قالوا: «**فلا يهمنك شأنهم**» أي: هم أحقر من أن تهتم لهم أو تبالي بهم «**واكتب مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود فبينما هم على أمرهم**» أي: في هذه المشورة أبى هرقل برجل أرسل إليه به أي: صاحب بصرى واسمه الحارث بن أبي شمر هلك على كفره، وكان من ملوك اليمن سكنوا الشام «**يخبر عن خبر رسول الله ﷺ فلما استخبره هرقل**» أي: سأله عن أخبار رسول الله ﷺ فأخبره عنها قال:

«**اذهبوا به**» أي: بالرجل المخبر «**فانظروا أمختتن أو لا**» أي: أمختونا هو أم لا «**فنظروا إليه فحدثوه انه مختتن**».

قال الكرماني: وهذا صحيح وصريح في أن العرب قبل البعثة كانوا يختتون.

«**وسأله عن العرب فقال: هم يختتون فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة**» أي: ملك أهل العرب قد ظهر، «**ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية**» ويجوز فيها تخفيف الياء وتشديدها كما ضبطه الكرماني بذلك؟

وقال ابن الملقن: رومية بضم الراء تخفيف الياء مدينة معروفة بالروم وكانت مدينة رياستهم، ويقال: إن روماس بناها.

قال البلقيني: اسم صاحبه برومية ضغاطر الأسقف الرومي، وقيل: بقاطر آمن برسالة النبي ﷺ فقتل بين يدي هرقل أي: كتب إليه من بيت المقدس يسأله عن هذا الأمر «**وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص**» يفارقها حتى «**أتاه كتاب من صاحبه**» أي: الذي برومية «**يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي**».

قال شيخ الاسلام ابن حجر: هذا يدل على أن هرقل وصاحبه أقرا بنبوة نبينا ﷺ لكن هرقل لم يستمر على ذلك بخلاف صاحبه، «**فأذن حينئذ هرقل لعظيم الروم في دَسْكَرَةٍ له بحمص**» والدسكرة بفتح الدال والكاف والراء وسكون السين بينهما بناء كالقصر حواليه بيوت ومنازل للخدم والحشم، والمعنى: أذن هرقل لعظماء الروم في دخول الدسكره، وكانه دخل القصر ثم أغلقه وفتح أبواب البيوت التي حوله، وأذن للروم في دخولها ثم أغلقها بعد دخولهم ثم أطلع عليهم كما صرح بذلك بقوله «**ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم أطلع**» أي: خرج من حرمه وظهر للناس «**فقال يا معشر الروم هل لكم في الفلاح**» أي: في الفوز «**والنجاة والرشد**» أي: الخير «**أن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي**» هكذا أكثر الأصول في البيعة، وفي بعضها «فتتابعوا» من المتابعة، وهو الاقتداء «**فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ**» أي: نفروا حين سمعوا منه هذا الكلام وكروا راجعين نفرة الوحوش، وشبههم بالحمر دون غيرها من الوحوش لمناسبة الجهل، وعدم الفطنة بل هم أضلوا حتى وصلوا إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت «**فلما رأى**» أي: هرقل «**وأيس من الإيمان**» أي: إيمانهم لما أظهروه، وايمانه أنه كان شح بنفسه بملكه، وكان يحسب أن يطيعوه فيستمر ملكه «**قال: ردوهم علي فقال: إني قلت مقالتي الساعة**» ويجوز فيه المد وهو الأكثر الأشهر ويجوز القصر «**اختبر بها شدتكم**

على دينكم» أي: امتحن فيها رسوخكم في دينكم **«وقد رأيت منكم الذي أحببت، فسجدوا له ورضوا عنه وكان ذلك آخر شأن هرقل»** أي: في حال النبي ﷺ وقصته.

وقد ذكر البخاري حديث هرقل في كتابه في عشر مواضع والله أعلم[1].

قال ابن رجب: قوله **«وكان آخر شأن هرقل»** الظاهر أنه من كلام الزهري ومراده: أن هذا آخر ما بلغه من خبره والله اعلم بالحال وإليه المرجع وإنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

***

---

(١) بالإستقراء وجدناه في أحد عشر موضعاً:

الأول: هاهنا، والثاني: (٢٨/١، رقم ٥١)، والثالث: (٩٥٢/٢، رقم ٢٥٣٥)، والرابع: (١٠٣٢/٣، رقم ٢٦٥٠)، والخامس: (١٠٧٤/٣، رقم ٢٧٨٢)، والسادس: (١٠٨٧/٣، رقم ٢٨١٦) والسابع: (١١٥٨/٣، رقم ٣٠٠٣)، والثامن: (١٦٥٧/٤، رقم ٤٢٧٨)، والتاسع: (٢٢٣٠/٥، رقم ٥٦٣٥)، والعاشر: (٢٣١٠/٥، رقم ٥٩٠٥)، والحادي عشر: (٢٦٣٢/٦، رقم ٦٧٧١) وهو في هذه المواضع مسنداً في بعضها بتمامه وفي أكثرها بأجزاء منه. ورواه معلقاً في ثلاثة مواضع:

الأول: (١١٦/١) باب: تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت... وقال ابن عباس أخبرني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب النبي ﷺ فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم و ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة... ﴾ الآية.

الثاني: (١٣٥/١) باب: كيف فرضت الصلوات في الإسراء وقال بن عباس حدثني أبو سفيان في حديث هرقل فقال: يأمرنا يعني النبي ﷺ بالصلاة والصدق والعفاف.

والثالث: (٢٧٤٢/٦) باب: ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها... وقال ابن عباس أخبرني أبو سفيان بن حرب أن هرقل دعا ترجمانه ثم دعا بكتاب النبي ﷺ فقرأه.

المجلس الثاني عشر

كتاب الإيمان

في الكلام على الإيمان وشروط الإسلام وفيه فوائد ولطائف كثيرة

وأفتح هذا المجلس بخطبة فتح الباري لشيخ الإسلام ابن حجر لمناسبتها وانسجامها فأقول:

الحمد لله الذي شرح صدور أهل الإيمان بالهدى، ونكت في قلوب أهل الطغيان فلا تعي الحكمة أبدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً فرداً صمداً وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، ما أكرمه عبداً وسيداً وأعظمه أصلاً ومحتداً، وأطهره مضجعاً ومولداً، وأبهره صدراً ومورداً صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه غيوث الندا، وليوث العدا، صلاةً وسلاماً دائمين من اليوم وإلى أن يبعث الناس غدا.

«**كتاب الإيمان**» لما فرغ البخاري رحمه الله من كتاب بدء الوحي عقبه بذكر الإيمان، وتقديم الإيمان على الصلاة وغيرها لأنه أصل لجميع العبادات، أو شرط لصحتها فالعبادات كلها مبنية عليه، وبه النجاة في الدارين.

والكتاب: في اللغة الضم والجمع، وأما الكتاب في اصطلاح المصنفين فهو اسم لضم مخصوص، أو لجملة مختصة من العلم مشتملة على أبواب وفصول، أو مسائل غالباً، وهو مصدر كتب لكنه اسم مفعول مجاز أي: المكتوب فهو على حد قوله تعالى ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي**﴾[لقمان: ١١] أي: مخلوقه.

والإيمان في اللغة: التصديق مطلقاً، مصدر أمن، وأصله: «أمان» قلبت الهمزة الثابتة ياء لسكونها، وانكسار ما قلبها في علم الصرف من أن الهمزتين إذا التقتا في كلمة واحدة ثانيتهما ساكنة وجب قلبها بحركة ما قبلها، «وأمن» أصله «أمن» قلبت الثانية ألفاً لانفتاح ما قبلها وهمزة «أمن» يجوز أن تكون للتعدية بمعنى: أن المصدق جعل الغير آمنا من تكذيبه، ويجوز أن تكون للضرورة بمعنى: أن المصدق صار ذا أمن من أن يكون مكذوباً، وهو تارة يتعدى باللام وتارة يتعدى بالباء باعتبار تضمنه معنى الإذعان، والقول يعدى باللام كما في قوله تعالى ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ**﴾[العنكبوت: ٢٦] وباعتبار تضمنه معنى الإقرار والاعتراف يعدى بالباء كما في قوله: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾[البقرة: ٢٨٥] وقوله ﴿**يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾[البقرة: ٣] كأنه قال يؤمنون معترفين وهو حكم واحد لكنه يقع تعليقه بمتعلقات متعددة

باعتبارات مختلفة، مثل: آمنت بالله بأنه واحد متصف بكل كمال منزه عن كل وصف لا كمال فيه، وآمنت بالرسول بأنه مبعوث من الله، وآمنت بالملائكة أي: بأنهم عباد الله المكرمون المعصومون، وآمنت بكتب الله أي: بأنها منزلة من عند الله وبكل ما تضمنته حق وصدق.

وأما الإيمان في الشرع ففيه أقوال والمشهور منها أربعة:

الأول: أنه التصديق بالقلب فقط أي: قبول القلب وإذعانه لما علم بالضرورة أنه من دين محمد ﷺ، بحيث تعلمه العامة من غير افتقار إلى نظر واستدلال، كالوحدانية والنبوة والبعث والجزاء وجوب الصلاة والزكاة وحرمة الخمر ونحوها، ويكفي الإجمال فيما يلاحظ إجمالاً كالإيمان بالملائكة والكتب والرسل، ويشترط التفصيل فيما يلاحظ تفصيلاً كجبريل وميكائيل وموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، حتى أن من لم يصدق الواحد منها فهو كافر، وهذا القول هو المختار عند جمهور الأشاعرة، والتلفيظ بالشهادتين على هذا القول من القادر عليه شرط لإجراء أحكام الدين من الصلاة خلفه والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين وعصمة الدم ونكاح المسلمة ونحوها شرطاً لصحة الإيمان، وإنما كان الإقرار شرطاً لاجراء الأحكام: لأن التصديق أمر باطن لا اطلاع لنا عليه فلابد من علامة فمن صدق بقلبه و لم يقر بلسانه فهو مؤمن عند الله، وإن لم يكن مؤمناً في أحكام الدنيا، ومن أقر بلسانه و لم يصدق بقلبه كالمنافق فهو مؤمن في أحكام الدنيا، وإن لم يكن مؤمناً عند الله، والنصوص معاضدة مقوية لهذا القول قال الله تعالى ﴿**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ**﴾[المجادلة: ٢٢] وقال تعالى ﴿**وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾[النحل: ١٠٦] وقال تعالى ﴿**وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[الحجرات: ١٤].

وقال ﷺ «**اللهم ثبت قلبي على دينك**»[1]، وقال لأسامة حين قتل من قال لا إله إلا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٤٤٨، رقم ٢١٤٠) عن أنس.
قال الترمذي: وفي الباب عن النواس بن سمعان وأم سلمة وعبد الله بن عمرو وعائشة، وهذا حديث حسن، وهكذا روى غير واحد عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس وروى بعضهم عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ وحديث أبي سفيان عن أنس أصح.
وأخرجه أيضاً: ابن ماجه (٢/١٢٦٠، رقم ٣٨٣٤)، وأحمد في مسنده (٣/١١٢، رقم ١٢١٢٨)، وأبو يعلى (٦/٣٥٩، رقم ٣٦٨٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/١٦٨، رقم ٣٠٤٠٥)، والطبري في تفسيره (٣/١٨٩)، والديلمي في مسند الفردوس (١/٤٧٨، =

الله: «**هل شققت قلبه**»[(١)].

الثاني: أنه تصديق بالقلب واللسان معاً ويعبر عنه: بأنه تصديق بالجنان وإقرار باللسان، وهذا القول منقول عن أبي حنيفة مشهور عن أصحابه، وقال به كثير من المحققين كما قاله في شرح المقاصد.

فماهية الإيمان على هذا من أمرين إقرار باللسان وتصديق بالجنان، فمن أخل بواحد منهما فهو كافر فالإقرار باللسان على هذا شطر، وعلى الأول كما تقدم شرط فلا يثبت الإيمان على هذا القول إلا بهما عند العجز عن النطق والإكراه، فإنه يثبت بتصديق القلب فقط فالتصديق ركن لا يحتمل السقوط أصلاً، والإقرار قد يحتمله كما في العاجز عن النطق والمكره.

الثالث: أنه التصديق بالقلب والاقرار باللسان وعمل سائر الجوارح فماهيته على هذا مركبة من أمور ثلاثة الإقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، فمن أخل بشيء منها فهو كافر، وهذا القول للخوارج، ولذا كفروا بالذنب فقالوا: إن مرتكبه مطلقاً كافر لانتفاء جزء الماهية، والذنوب كلها عندهم كبائر، وهذا القول مردود باطل لأنه ورد في الكتاب والسنة عطف الأعمال عليه كقوله تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾[البقرة: ٢٧٧] مع القطع بأن العطف يقتضي المغايرة، وعدم دخول المعطوف في المعطوف عليه، ورد أيضاً بجعل الإيمان شرطاً لصحة الأعمال كما في قوله تعالى ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾[طه: ١١٢] مع القطع بأن المشروط لا يدخل في الشرط لامتناع اشتراط الشيء بنفسه، ورد أيضاً بإثبات الإيمان لمن ترك بعض الأعمال كما في قوله تعالى ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا**﴾[الحجرات: ٩] مع القطع بأنه لا تحقق للشيء بدون ركنه.

نعم جمهور السلف من المتكلمين والمحدثين والفقهاء ذهبوا إلى أن الأعمال شرط في كمال الإيمان وفي صحته.

= رقم ١٩٥٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٦/١، رقم ٩٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١٧٦/٥، رقم ٨٥٩٤)، وأحمد في مسنده (٢٠٧/٥، رقم ٢١٨٥٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥٥٦/٥، رقم ٢٨٩٣٢)، وأبو عوانة في مسنده (٦٨/١، رقم ١٩٢)، وابن منده في الإيمان (٢٠٦/١، رقم ٦١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١١٩/٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٩/٨، رقم ١٥٦٢٥) جميعاً عن أسامة بن زيد.

ونقل هذا المذهب عن الإمام الشافعي وهو مذهب البخاري ﷺ فإنه عقد أبواباً بإطلاق الإيمان على الأعمال، فالسلف أرادوا إطلاق الإيمان على الأعمال كما قاله ابن حجر على أنها شرط في كماله لا في صحته.

والخوارج أرادوا بذلك أن الأعمال ركن من أركانه كما تقدم، فعند السلف متى فسد العمل بطل كمال الإيمان لا أصله وهو مقصود البخاري بإطلاق الإيمان على الأعمال.

الرابع: الإيمان تصديق باللسان فقط أي: الإتيان بكلمتي الشهادة، وهذا قول الكرامية، وهذا القول أيضاً مردود باطل، ويدل على بطلان صحة نفي الإيمان عن بعض المقرين باللسان قال الله تعالى ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾[البقرة: ٨]، وقال الله تعالى ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾[الحجرات: ١٤].

قال المولى سعد الدين: وأما المقر باللسان وحده فلا نزاع في أنه يسمى مؤمناً لغة وتجري عليه أحكام الإيمان ظاهراً، وأما النزاع في كونه مؤمناً بينه وبين الله، والنبي ﷺ ومن بعده كانوا يحكمون بإيمان من تكلم بكلمة الشهادة، وكانوا يحكمون بكفر المنافق، فدل على أن المعتبر في الإيمان إقرار اللسان فقط، وأيضاً الإجماع منعقد على إيمان من صدق بقلبه وقصد الإقرار باللسان فمنعه مانع من خرس ونحوه.

فائدة: تصديق النبي ﷺ فيما جاء سمي إيماناً لأن العبد إذا صدقه ﷺ في ذلك أمن من القتل الدنيوي، والعذاب الأخروي.

فائدة: ذكر العلماء من الشافعية لصحة الإسلام أي: للإقرار بالشهادتين من الكافر سواء جعلناه شطراً أو شرطاً ست شرائط نظمها بعضهم فقال:

شرائط إسلام حقيقاً بصحة ... نعم ستة تعزى لأهل البصيرة

بلوغ وعقل واختيار ولفظة ... وقول مجهرالترتب تمت

الشرط الأول: البلوغ فلا يصح إسلام صبي استقلالاً كما قاله في الروضة.

وأما الصبي المميز ففيه أوجه الصحيح المنصوص عليه أنه لايصح إسلامه، لكن يشكل ذلك بإسلام سيدنا علي كرم الله وجهه فإنه كان قبل البلوغ، ولهذا كان بدر الدين بن جماعة قاضي مصر يقضي بصحة إسلامه، وبصحة إسلامه قال الأئمة الثلاثة قالوا: إلا أن النبي ﷺ دعا علياً إلى الإسلام فأجابه، قالوا أولاً يلزم من كون غير مكلف لا يصح منه الإسلام فإن عباداته من صلاة وصيام ونحوها صحيحة فكذلك

إسلامه.

وقال إمام الحرمين: قد صححوا إسلامه، والمعتمد عند الشافعية عدم الصحة، وأجابوا عن إسلام سيدنا علي بأجوبة من أحسنها ما نقله البيهقي في كتابه معرفة السنن والآثار، وهو أن الأحكام إنما علقت بالبلوغ بعد الهجرة عام الخندق.

وقال ابن العماد في شرح سيرته: إنما علقت به عام خيبر، وعبارته: «وفي عام خيبر رفع القلم عن الصبي والمجنون والنائم، وكان قبل ذلك موضوعاً على ما نقل عن البيهقي أنه قال: واستمر عليهم التكليف إلى عام خيبر ثم رفع قال: ولهذا صح إسلام علي ﷺ في حال الصبا لأنه كان في قبل رفع القلم والصبيان إذ ذاك مكلفون وظاهر قوله ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة**»[1] يشهد لما قاله فإن الرفع يدل على سبق وضع (انتهى).

فانظروا إلى هذا التنافي في النقل عن البيهقي، وأما قبل ذلك فكانت متعلقة بالتمييز فصح، وحنيئذ فيسقط الإشكال، وأجابوا عن القياس على الصلاة ونحوها بأن صلاة الصبي وصومه ونحوهما يقع نفلاً، والإسلام لا ينتقل له، قاله أمامنا الشافعي ﷺ.

وإذا نطق الصبي من أولاد الكفار بالشهادتين لا يصح إسلامه، لكن يحال بينه

---

(١) رواه البخاري معلقاً في صحيحه (٥/٢٠١٩) بقوله: «وقال علي ألم تعلم أن القلم رفع عن ثلاثة».

والحديث مسنداً إلى سيدنا علي عند أبو داود في سننه (٤/١٤١، رقم ٤٤٠٣)، والترمذي في سننه (٤/٣٢، رقم ١٤٢٣) وقال: حديث علي حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي من غير وجه عن علي عن النبي ﷺ وذكر بعضهم: «وعن الغلام حتى يحتلم» ولا نعرف للحسن سماعاً من علي بن أبي طالب، وقد روي هذا الحديث عن عطاء بن السائب عن أبي ظبيان عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ نحو هذا الحديث، ورواه الأعمش عن أبي ظبيان عن بن عباس عن علي موقوفاً و لم يرفعه، والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم، قال الترمذي: قد كان الحسن في زمان علي وقد أدركه ولكنا لا نعرف له سماعاً منه، وأبو ظبيان اسمه حصين بن جندب.

والنسائي في السنن الكبرى (٤/٣٢٤، رقم ٧٣٤٦)، وابن ماجه في سننه (١/٦٥٩، رقم ٢٠٤٢)، وأحمد في مسنده (١/١١٦، رقم ٩٤٠)، وابن حبان في صحيحه (١/٣٥٦، رقم ١٤٣)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/٣٤٨، رقم ٣٠٤٨)، والطيالسي في مسنده (ص: ١٥، رقم ٩٠)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٢/٤١، رقم ٤١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٩٩، رقم ٨٧).

وبين أبويه وأهله الكفار استحباباً، لئلا يفتنوه، ولأنه ربما يثبت على ما وصفه من الإسلام إلى ما بعد بلوغه، فإن بلغ ووصف الكفر هدد فإن أصر رد إليهم، وينبغي أن يتلطف بوالديه ليؤخذ منهما، فإن أبيا فلا حيلولة هذا في أحكام الدنيا، وأما في الآخرة، فإذا أضمر الصبي كما أظهر ثم مات بعدها كان من الفائزين بالجنة، ويعبر عن هذا بصحة إسلامه باطناً لا ظاهراً نعم قال العلماء: يحكم بصحة إسلام الصبي بطريق التبع في ثلاث صور:

الأولى: تبعية الدار، فإذا وجد الصبي لقيط في دار الإسلام لا يعرف له أهل يحكم بإسلامه، وان كان فيها أهل ذمة تغليباً للإسلام، أما إذا وجد اللقيط في دار الكفر لم يكن فيها مسلم فاللقيط الموجود فيها محكوم بكفره.

الثانية: تبعية السابي، فإذا سبى المسلم طفلاً منفرداً عن أبويه حكم بإسلامه تبعاً للسابي، لأنه صار تحت ولايته كالأبوين، سواء كان السابي بالغاً أو غير بالغ، أو مجنوناً أما إذا سباه ومعه أبواه أو أحدهما فإنه لا يحكم بإسلامه، وكذا لو سباه ذمي لا يحكم بإسلامه ولو باعه لمسلم.

الثالثة: تبعية أصوله، فمن كان أحد أبويه مسلماً يوم علوقه، حكم بإسلامه لأنه جزء من مسلم، وكذا إذا كانا كافرين يوم العلوق، ثم أسلما أو أحدهما قبل بلوغ الولد حكم بإسلامه في الحال، وفي معنى الأبوين الجد والجدة سواء الجد للأب وللأم تبعه الطفل سواء كان الأب حياً أو ميتاً لأن التبعية للفرعية، وهي لا تختلف بحياة الأب أو بموته.

الشرط الثاني من شروط الإسلام: العقل فلا يصح إسلام المجنون استقلالاً بل بطريق التبع كما في الصبي، سواء بلغ مجنوناً أو عاقلاً ثم جن.

الشرط الثالث من شروط الإسلام: الاختيار: فلا يصح إسلام المكره على الإسلام، وظاهر النظم يقتضي أنه لا فرق بين الذمي وغيره، وليس كذلك بل يقال إذا أكره الذمي على التلفيظ بالشهادتين لا يصح إسلامه في الأصح، بخلاف ما إذا أكره الحربي أو المرتد على الإسلام فإنه يصح إسلام كل منهما، صرح بذلك النووي في الأذكار فقال: لو أكره مسلم كافراً على الإسلام فنطق بالشهادتين، فإن كان الكافر حربياً صح إسلامه، لأنه إكراه بحق، وإن كان ذمياً لم يصر مسلما لأنا إلتزمنا الكف عنهم فأكرهه بغير حق.

الشرط الرابع: التلفيظ بالشهادتين، فلا يصح إسلام من صدق بقلبه و لم يتلفظ

بلسانه، وهل يتعين في صحة الإسلام التلفيظ بالقول المعروف أعني: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، أو يحصل الإسلام بما يؤدي معناها؟

قال الروياني والماوردي: يتعين اللفظ المعروف ولا يحصل الإسلام بغيره، والمذهب المعتمد أنه لا يتعين اللفظ المعروف بل يحصل الإسلام به وبغيره مما يؤدي معناه، كما قاله الحليمي في منهاجه وأقروه عليه.

فلو قال: لا إله سوى الله، أو لا إله ما عدا الله، أو ما من إله إلا الله، ولا إله إلا الله الرحمن، أو لا رحمن إلا الله، أو لا إله الله البارئ، أو لا بارئ إلا الله كان كقوله: لا إله إلا الله، ولو قال: أحمد رسول الله أو أبو القاسم رسول الله كان كقوله محمد رسول الله، ولو قال كافر: آمنت بالله أو أسلمت بالله أو أسلمت وجهي لله فإن كان يشرك بالله غيره لم يصر مؤمناً بدون ذلك، ولو قال آمنت بالله وبمحمد كان مؤمناً بالله لإثبات الإله، ولا يكون مؤمناً بنبوة محمد حتى يقول بمحمد النبي أو محمد رسول الله، ولو قال: آمنت بمحمد النبي صح إيمانه برسول الله بخلاف ما لو قال: آمنت بمحمد الرسول، لأن النبي لا يكون إلا لله تعالى، والرسول قد يكون لغيره، ولو قال: الكافر لا إله إلا الملك أو لا إله إلا الرازق لم يكن مؤمن لأنه قد يريد بذلك السلطان الذي له جند يرتب أرزاقهم، بخلاف ما لو قال لا ملك إلا الله ولا رازق إلا الله فإنه يحكم بإسلامه، ولو قال يهودي إني بريء من اليهودية أو نصراني أنا بريء من النصرانية لم يحكم بإسلامه لأن ضد اليهودية والنصرانية غير منحصر في الإسلام.

ولو قال الكافر الإسلام حق لم يكن مؤمناً، لأنه قد يقر بالحق ولا ينقاد له، ولو نطق الكافر بالشهادتين بغير إكراه فإن كان على سبيل الحكاية بأن قال: سمعت زيداً يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، لم يحكم بإسلامه، وإن نطق بهما بعد استدعاء مسلم بأن قال له مسلم قل لا إله إلا الله محمد رسول الله فقالهما صار مسلماً، وكذا لو نطق بهما ابتداء من غير استدعاء ولا حكاية فإنه يحكم بإسلامه كما قاله الجمهور.

ولو نطق الكافر بالشهادتين صح إسلامه وإن لم يقل وأنا برئ من كل دين يخالف دين الإسلام، إلا أن يكون من كفار يعتقدون اختصاص الرسالة بالعرب، فلا يحكم بإسلام العيسوية من اليهود وهم أتباع أبي عيسى الأصبهاني اليهودي يقولون: إنه أرسل إلى العرب خاصة، دون بني إسرائيل فلا يكفي في إسلام واحد منهم الإتيان بالشهادتين فقط، بل لابد من البراءة المذكورة، أو يقول محمد رسول الله إلى جميع الخلق.

ولو قال الكافر: الصلاة واجبة علي الصوم أو غيره من أركان الإسلام وهو على خلاف عقيدته التي كان عليها لا يصير بذلك مسلماً على الأصح، ولو اقتصر الكافر على قول لا إله إلا الله لا يكون مسلماً على الأصح الذي عليه الجمهور.

وقيل: ويطالب بالشهادة فإن أبي جعل مرتداً ولو أشار الأخرس الكافر بالشهادتين إشارة مفهمة إسلامه، وقيل: لا يحكم بإسلامه إلا إذا صلى.

فائدة: يصح إسلام الكافر بجميع اللغات كما ذكره النووي في الروضة في الظهار، فلو نطق أعجمي بلسان صح إسلامه، وإن كان قادراً على النطق بالعربية لوجود الإقرار، ولكن إذا لقن الكافر الأعجمي كلمتي الإسلام بالعربية فنطق فصح بشرط أن يعلم معنى الشهادتين، فإن لم يعرف معناها لم يحكم بإسلامه، وكذا إذا نطق بهما بغير لغته أيّ لغة كانت يصح إسلامه بشرط أن يعرف المعنى.

قال في الأنوار: وأن يعرفه غيره ويكفي واحد.

فائدة أخرى: لو قال الكافر لا إله إلا الله عيسى رسول الله وموسى رسول الله وكذا غيره من الأنبياء قبل النبي ﷺ لم يحكم بإسلامه، لأن الإقرار برسالة محمد ﷺ إقرار برسالة من قبله لأنه شهد لهم وصدقهم.

قال الرافعي: ويتوجه أن يقال كما أن محمد ﷺ شهد لهم وصدقهم فقد شهدوا له وبشروا به أي: فينبغي الصحة بذلك.

وأجاب القاضي زكريا عن ذلك: بأن شريعته ناسخة لما قبلها باقية بخلاف شريعة غيره.

الشرط الخامس: الجهر بما تلفظ به، قال المولى سعد الدين في شرح المقاصد: ولا يخفى أن الإقرار لأجل الأحكام لابد، وأن تكون على وجه الإعلان والإظهار للإمام وغيره.

الشرط السادس: الترتيب بين كلمتي الشهادة، بأن يقول أولاً لا إله إلا الله ثم يقول محمد رسول الله، فلو قال الكافر أولاً محمد رسول الله ثم قال ثانياً لا إله إلا الله لا يصح إسلامه.

قال ابن الملقن: وهذا الشرط اشترطه القاضي أبو الطيب من أصحابنا و لم أر من وافقه ولا من خالفه.

وقال شيخ الإسلام ابن حجر[1]: اشترط الباقلاني في صحة الإسلام تقدم الإقرار بالتوحيد على الرساله، و لم يتابع مع أنه إذا دقق فيه بأن وجهه ويزداد اتجاهاً إذا فرقهما فليتأمل.

وسمعت من بعض مشايخي شرطاً سابعاً للإسلام وهو: أن يأتي بكلمة الشهادة بصيغة التنجيز دون التعليق فإن أتى بصيغة كأن قال: إذا فرغ الشهر فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ومحمد رسول الله لا يحكم بإسلامه، وقد صرح بالمسألة في الأنوار فقال: والعزم عليه في المستقبل ليس بإسلام حتى لو قال الكافر: أنا أسلم لا يحكم بإسلامه في الحال.

وأما الموالاة بين الشهادتين فلا تشترط كما ذكره الحليمي وغيره، فلو قال كافر: أول النهار لا إله إلا الله ثم قال في آخره محمد رسول الله حكم بإسلامه.

وقد ردد بعض العلماء للمؤمن علامات يتميز بها عن غيره وهي في الحقيقة موعظة فقالوا: المؤمن إذا أدب تأدب، وإذا أهذب تهذب، المؤمن خفيف له من الله معونة كالنحلة إذا وقعت على عود لا تكسره، وهي تأكل طيبها، ويصدر عنها طيب، والمؤمن يأكل الحلال، فيصدر عنه صالح الأعمال، النحلة لعابها صاف، وشرابها شاف، والمؤمن رؤيته شفاء وموعظته دواء، ينتفع برؤيته قبل روايته، خيره بادر وشره نادر.

قال الفضيل: المؤمن قليل الكلام كثير العمل، والمنافق كثير الكلام قليل العمل.

وقال: المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدراً، وأحقر كل شيء قدراً، زاجر عن كل شر، حاضر على كل خير، لا حقود ولا حسود، ولا مرتاب ولا سباب ولا مغتاب، يكره الرفعة ويبغض السمعة، طويل الهم كثير الغم، حليف الصمت عزيز الوقت، لا متافك ولا متهتك، ضحكه تبسم، واستفهامه تعلم، ومراجعته تفهم، لا يبخل ولا يعجل، ولا يضجر، ولا يجهر، لا جزع، ولا هلع، ولا صلف، ولا عنف، قليل المنازعة، جميل المراجعة، عدل إن غضب، دقيق إن طلب، خليص الود، وثيق العهد، وفي الوعد شفوق، وصول حليم، حمود قليل الفضول، راض عن مولاه، مخالف لهواه، لا يغلظ على من يؤذيه، ولا يخوض فيما لا يعنيه، إن سب أو أوذي لم يسب، وإن طلب ومنع لم يغضب، لا يشمت بمصيبة، ولا يذكر أحد بعيبه، هشاش بشاش، لا فاحش ولا غشاش، كظام بسام صوام قوام، دقيق النظر، عظيم الحذر، وهذا هو المؤمن حقاً.

---

(١) انظر: فتح الباري (١/٥٠).

وجاء في الحديث: «**المؤمن كالجمل الأنوف إن قيد انقاد، وإن أنيخ على جمرة استناخ**» [(١)] ومعناه: أن المؤمن إذا دعي لخير أجاب بسهولة كالجمل المخروم في أنفه ولله در القائل في المعنى.

ومـــازال بي شوقي إليك يقودني ... يذلـــل مـــني كـــل ممتنع صعب
إذا كـــان قـــلبي ســـائراً بزمامه ... فكيـــف بجسمي بالمقام بلا قلب

وكما الجمل الأنوف إذا أُنيخ على جمرة استناخ، كذلك المؤمن مقيم على باب مولاه صابر على بلواه، تارك لشكواه، مقبل عليه بقلبه، ملازم لذكره وحبه، كلما ازداد المؤمن من بلواه ضراً، أكثر لمولاه طاعة وشكراً.

حكاية في المعنى: قال عبد الواحد بن زيد مررت في بعض الجبال بشيخ أعم أصم مقطوع اليدين والرجلين وهو يقول: إلهي وسيدي ومولاي متعتني بجوارحي حيث شئت، وأخذتها حيث شئت، وتركتني حسن الظن والأمل فيك، يا بريا يا وصول، فقلت في نفسي: أي بر من الله على هذا وأي وصل فقال: إليك عني أليس ترك لي قلباً يعرفه، ولساناً يذكره، فهو نعيم الدارين، فمن أكثر الشكوى، و لم يصبر على البلوى فليس عنده من الغرام سوى الدعوى، ولقد أحسن من قال في المعنى:

خيانه أهل الحب أن يظهروا شكوى ... وأن يســـأموا من صحبة الضر والبلوى
ومن لم يذق هجر الحبيب كوصله ... فما ذاق من طعم الغرام سوى الدعوى

ويقال: الإيمان كخاتم سليمان، العزم في وجوده والذل عند فقده، الإيمان كعصى موسى تلقف عصى السحره وتطرد العصاة والبغاة والفجرة وكذلك الإيمان لمن عنده الشبهات والتخيلات، وتغفر مع صحبته الخطايا والسيئات، الإيمان كالماء الطهور يطهر الوسخ والدرن، وكذلك الإيمان يغسل الذنوب ما ظهر وما بطن.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/١٦، رقم ٤٣)، وأحمد في مسنده (٤/١٢٦، رقم ١٧١٨٢)، والحاكم في المستدرك (١/١٧٥، رقم ٣٣١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/٢٤٧، رقم ٦١٩)، واللالكائي في إعتقاد أهل السنة (١/٧٤، رقم ٧٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١/١٩، رقم ٣٣) جميعاً عن العرباض بن سارية.
وقال محققه الألباني: حديث صحيح رجاله كلهم ثقات لولا أن عبد الله بن صالح ويكنى بأبي صالح فيه ضعف لكنه لم يتفرد به فالحديث صحيح، وأبو مسعود هو: أحمد بن الفرات الضبي الرازي وهو ثقة حافظ، والحديث أخرجه الحاكم من طريقين آخرين عن أبي صالح... به وأخرجه أحمد وعنه الحاكم وسنده صحيح وابن ماجه أيضاً.

خرج أبو حفص النيسابوري يوماً فرأى يهودياً مغشياً عليه فلما أفاق سئل عن ذلك فقال: رأيت رجلاً عليه لباس العدل، ورأيت عليّ لباس الفضل، فخشيت أن يبدل الله لباسي بلباسه.

لطيفة: دخل يهودي على بعض الصالحين، وفي يديه قلم يبريه فقال الرجل الصالح لليهودي: أسلم وإلا أقطع رأس القلم فامتنع اليهودي من الإسلام، وقال للرجل الصالح: اقطع رأس القلم فقطعه فوقع رأس اليهودي عن جسده، قالها في روض الأفكار.

لطيفة أخرى: قال النسفي: مر بعض العباد على رجل يعبد بقرة من دون الله تعالى فقال: قل لا إله إلا الله، فقال: لا، فقال العابد: بحق لا إله إلا الله يا بقرة كوني جمرة نار فكانت بإذن الله تعالى، فقال له: قل لا إله إلا الله وإلا فتصير مثلها.

لطيفة غريبة: ذكر ابن جماعة في كتابه أنس المحاضرة: أن يهودياً كان له دين على شخص من الصالحين يقال له: إبراهيم الآجري كان يصنع «الكلس»[1]، فجاء اليهودي إليه وطلب من دينه فقال له إبراهيم: أسلم، فقال له: أرني شيئاً أعرف به شرف الإسلام وفضله على ديني قال له: وتفعل، قال: نعم، قال: هات رداءك، فأخذ رداء اليهودي فجعله في رداء نفسه ولف رداءه عليه ورمى الردائين في النار، نار الأتون، ثم دخل بعد أن ألقاه في الأتون وداس على جمر النار، واليهودي ينظر إليه فأخذ الردائين وخرج من النار ففتح رداء نفسه فإذا هو صحيح، وأخرج رداء اليهودي من وسط ردائه فإذا هو حراق أسود فلما رأى اليهودي ذلك أسلم.

حكاية في المعنى: نقل الإخباريون أنه كان ببلد الهند شيخ كبير يعبد صنماً دهراً طويلاً، ثم حصل له أمر مهم وشده يوماً من الأيام فاستغاث به فلم يغثه فقال: أيها الصنم ارحم ضعفي، فقد عبدتك دهراً طويلاً، فلم يجب فانقطع عند ذلك رجاؤه منه، ونظر الله بعين الرحمة فخطر بباله بأن يدعو الصمد، فرمق بطرفه نحو السماء، وقد وقع في الخجل وقال: يا صمد فسمع صوتاً من الهواء يقول: لبيك يا عبدي أطلب ما تريد فأقر لله بالوحدانية فقالت الملائكة: ربنا دعى صنمه دهراً طويلاً و لم يجبه، ودعاك مرة واحدة فأجبته، فقال يا ملائكتي: إذ دعى الصنم فلم يجبه، ودعى الصمد فلم يجبه فأي

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب (١٩٧/٦): «الكِلْسُ»: مثل الصَّارُوج يُبْنَى به، وقيل: الكِلْسُ الصَّارُوجُ، وقيل: الكِلْسُ ما طُلِيَ به حائط أو باطن قصْر شِبْهُ الجِصِّ من غير آجُرَ.

فرق بين الصنم والصمد.

وحكاية غريبة: مر بعض حواري عيسى عليه الصلاة والسلام على أولاد يلعبون وفيهم ابن وزير كافر، فلعب معهم ثم أخذه ابن الوزير إلى أبيه وأحضر له طعاماً قال له: يا أبت هذا غريب، فحضرت الشياطين ليأكلوا من الطعام، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم فهربت الشياطين، فسأله الوزير عن أمره وقال له: من أين أتيت ومن أنت؟ فقال: أنا من أصحاب عيسى أرسلني إليكم لتؤمنوا بالله وتتركوا عبادة الأصنام، فأسلم الوزير و لم يعلم الملك بذلك، ثم بعد مدة مات فرس للملك فقال له الوزير: قد مات فرس للملك وكان عزيزاً عنده فقال له صاحب عيسى: قل له: إن أطاعني أحيا الله فرسه، فأخبره الوزير بذلك، فقال له الملك: نعم، فأحضره الوزير عند الملك، فقال: خذ أيها الملك بعضو الفرس، وأبوك بعضو، وولدك بعضو، وأمك بعضو: وقولوا: لا إله إلا الله فلما قالوا تحرك كل عضو بيد قائليها، ووثب الفرس حياً بإذن الله تعالى.

***

المجلس الثالث عشر

في بيان زيا[ة الإيمان ونقصانه وفيه فوائد كثيرة متعلقة بالإيمان

قَالَ البُخَارِي :

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الإيمان

بـــاب الإِيمَانِ وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ» وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْل، وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ .

قَـــالَ الـــلَّهُ تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾، ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، ﴿وَيَزِيدُ الـــلَّهُ الَّذِيـــنَ اهْـــتَدَوْا هُدًى﴾، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، ﴿وَيَـــزْدَادَ الَّذِيـــنَ آمَـــنُوا إِيمَاناً﴾، وَقَوْلُهُ ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ ، وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ . وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ مِنَ الإِيمَانِ[1] .

وَكَـــتَبَ عُمَـــرُ بْـــنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ: إِنَّ لِلإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُـــدُوداً وَسُـــنَناً، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا[2] لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٢) قوله: «والحب في الله والبغض في الله من الإيمان» هو لفظ حديث أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة ومن حديث أبي ذر ولفظه: «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله»، ولفظ أبي أمامة: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان».

وللترمذي من حديث معاذ بن أنس نحو حديث أبي أمامة، وزاد أحمد فيه: «ونصح لله»، وزاد في أخرى: «ويعمل لسانه في ذكر الله»، وله عن عمرو بن الجموح بلفظ: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله».

ولفظ البزار رفعه: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»، وسيأتي عند البخاري: «آية الإيمان حب الأنصار».

واستدل بذلك على أن الإيمان يزيد وينقص، لأن الحب والبغض يتفاوتان.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٣): قوله: «فإن أعش فسأبينها» أي: أبين تفاريعها لا أصولها، لأن أصولها كانت معلومة لهم جملة، على تجويز تأخير البيان عن وقت الخطاب إذ الحاجة هنا لم تتحقق. =

بِحَرِيص .

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[١] .

وَقَالَ مُعَاذٌ: اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً[٢].

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الْيَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ[٣] .

= والغرض من هذا الأثر أن عمر بن عبد العزيز كان ممن يقول بأن الإيمان يزيد وينقص حيث قال: استدل و لم يستدل.

قال الكرماني: وهذا على إحدى الروايتين، وأما على الرواية الأخرى فقد يمنع ذلك لأنه جعل الإيمان غير الفرائض. قلت: لكن آخر كلامه يشعر بذلك وهو قوله: «فمن استكملها» أي: الفرائض وما معها «فقد استكمل الإيمان» وبهذا تتفق الروايتان، فالمراد أنها من المكملات، لأن الشارع أطلق على مكملات الإيمان إيماناً.

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٤): قوله: «وقال إبراهيم عليه السلام: ولكن ليطمئن قلبي» أشار إلى تفسير سعيد بن جبير ومجاهد وغيرهما لهذه الآية، فروى ابن جرير بسنده الصحيح إلى سعيد قال: قوله: «ليطمئن قلبي» أي: يزداد يقيني.

وعن مجاهد قال: لأزداد إيماناً إلى إيماني، وإذا ثبت ذلك عن إبراهيم عليه السلام مع أن نبينا ﷺ قد أمر باتباع ملته كان كأنه ثبت عن نبينا ﷺ ذلك.

وإنما فصل البخاري بين هذه الآية وبين الآيات التي قبلها، لأن الدليل يؤخذ من تلك بالنص ومن هذه بالإشارة. والله أعلم.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٤): قوله: «وقال معاذ» هو ابن جبل، وصرح بذلك الأصيلي، والتعليق المذكور وصله أحمد وأبو بكر أيضاً بسند صحيح إلى الأسود بن هلال قال: قال لي معاذ بن جبل: «اجلس بنا نؤمن ساعة»، وفي رواية لهما: كان معاذ بن جبل يقول للرجل من إخوانه: «اجلس بنا نؤمن ساعة»، فيجلسان فيذكران الله تعالى ويحمدانه.

وعرف من الرواية الأولى أن الأسود أبهم نفسه، ويحتمل أن يكون معاذ قال ذلك له ولغيره.

ووجه الدلالة منه ظاهرة، لأنه لا يحمل على أصل الإيمان لكونه كان مؤمناً وأي مؤمن، وإنما يحمل على إرادة أنه يزداد إيمانا بذكر الله تعالى.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: لا تعلق فيه للزيادة، لأن معاذاً إنما أراد تجديد الإيمان، لأن العبد يؤمن في أول مرة فرضاً، ثم يكون أبداً مجدداً كلما نظر أو فكر، وما نفاه أولاً أثبته آخراً، لأن تجديد الإيمان إيمان.

(٣) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٥): قوله: «وقال ابن مسعود: اليقين الإيمان كله» هذا التعليق طرف من أثر وصله الطبراني بسند صحيح، وبقيته: والصبر نصف الإيمان.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعاً، ولا يثبت رفعه. =

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ[١].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ أَوْصَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَإِيَّاهُ دِيناً وَاحِداً[٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ سَبِيلاً وَسُنَّةً[٣].

= وجرى البخاري على عادته في الاقتصار على ما يدل بالإشارة، وحذف ما يدل بالصراحة، إذ لفظ النصف صريح في التجزئة.

وفي الإيمان لأحمد من طريق عبد الله بن عكيم عن ابن مسعود أنه كان يقول: «اللهم زدنا إيماناً ويقينا وفقها» وإسناده صحيح، وهذا أصرح في المقصود، ولم يذكره المصنف لما أشرت إليه.

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٥): قوله: «وقال ابن عمر... إلى آخره» المراد بالتقوى: وقاية النفس الشرك والأعمال السيئة والمواظبة على الأعمال الصالحة.

وبهذا التقرير يصح استدلال المصنف. وقوله: «حاك» بالمهملة والكاف الخفيفة أي: تردد، ففيه إشارة إلى أن بعض المؤمنين بلغ كنه الإيمان وحقيقته، وبعضهم لم يبلغ.

وقد ورد معنى قول ابن عمر عند مسلم من حديث النواس مرفوعاً، وعند أحمد من حديث وابصة، وحسن الترمذي من حديث عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس» وليس فيها بشيء على شرط البخاري، فلهذا اقتصر على أثر ابن عمر، ولم أره إلى الآن موصولاً.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن أبي الدرداء قال: «تمام التقوى أن تتقي الله حتى تترك ما ترى أنه حلال خشية أن يكون حراماً».

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٦): قوله: «وقال مجاهد» وصل هذا التعليق عبد بن حميد في تفسيره، والمراد أن الذي تظاهرت عليه الأدلة من الكتاب والسنة هو شرع الأنبياء كلهم.

«تنبيه»: قال شيخ الإسلام البلقيني: وقع في أصل الصحيح في جميع الروايات في أثر مجاهد هذا تصحيف قل من تعرض لبيانه، وذلك أن لفظه: وقال مجاهد: «شرع لكم» أوصيناك يا محمد وإياه ديناً واحداً. والصواب: أوصاك يا محمد وأنبياءه.

كذا أخرجه عبد بن حميد والفريابي والطبري وابن المنذر في تفاسيرهم، وبه يستقيم الكلام، وكيف يفرد مجاهد الضمير لنوح وحده مع أن في السياق ذكر جماعة (انتهى).

ولا مانع من الإفراد في التفسير، وإن كان لفظ الآية بالجمع على إرادة المخاطب والباقون تبع، وإفراد الضمير لا يمتنع، لأن نوحاً أفرد في الآية فلم يتعين التصحيف، وغاية ما ذكر من مجيء التفاسير بخلاف لفظه أن يكون مذكوراً عند المصنف بالمعنى. والله أعلم.

(٣) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٦): قوله: «وقال ابن عباس» وصل هذا التعليق عبد الرزاق في تفسيره بسند صحيح.

والمنهاج: السبيل: أي: الطريق الواضح.

والشرعة والشريعة بمعنى، وقد شرع أي: سن، فعلى هذا فيه لف ونشر غير مرتب. =

«**بسم الله الرحمن الرحيم**» ابتداء البخاري ﷺ كتاب الإيمان وكذا غيره من الكتب الآتية عملاً بالحديث الذي أسلفناه وهو قوله ﷺ: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر**»[1].

فإن قيل: البسملة في أول الكتاب مغنية عن إعادتها في كتاب الإيمان وغيره.

= فإن قيل: هذا يدل على الاختلاف والذي قبله على الاتحاد، أجيب: بأن ذلك في أصول الدين وليس بين الأنبياء فيه اختلاف، وهذا في الفروع وهو الذي يدخله النسخ.

(١) ذكره النووي بهذا اللفظ في شرحه على صحيح مسلم (٤٣/١) وعزاه إلى عبد القادر الرهاوي في كتابه «الأربعين»، وكذا الحافظ السيوطي في الجامع الصغير انظر: فيض القدير (١٤/٥)، قال المناوي: ورواه كذلك الخطيب في تاريخه عن أبي هريرة.

قلت: ولم أقف عليه في تاريخ بغداد، وإنما أورده الخطيب بدون إسناد في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩/٢، رقم ١٢٠٩) وكما أن المصنف قال ذلك أيضاً (محقق).

وقد عدد النووي في شرحه على مسلم (٤٣/١) الروايات في هذا الحديث فقال: «كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله فهو أقطع»، وفي رواية: «بحمد الله»، وفي رواية: «بالحمد فهو أقطع»، وفي رواية: «أجذم»، وفي رواية: «لا يبدأ فيه بذكر الله»، وفي رواية: «ببسم الله الرحمن الرحيم» وقال: روينا كل هذه في كتاب الأربعين للحافظ عبد القادر الرهاوي سماعاً من صاحبه الشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن سالم الإنباري عنه، وروينا فيه أيضاً من رواية كعب بن مالك الصحابي ﷺ والمشهور رواية أبي هريرة وهذا الحديث حسن، روي موصولاً ومرسلاً، ورواية الموصول إسنادها جيد، ومعنى: «أقطع»: قليل البركة، وكذلك «أجذم» بالجيم والذال المعجمة ويقال منه: «جذم» بكسر الذال «يجذم» بفتحها والله أعلم.

والحديث حسنه برواياته هذه العجلوني في كشف الخفاء (١٥٦/٢).

إلا أن الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢٢٠/٨) قال: الرواية المشهورة فيه بلفظ: «حمد الله» وما عدا ذلك من الألفاظ التي ذكرها النووي وردت في بعض طرق الحديث بأسانيد واهية.

وإنما حكم بأنه حديث حسن مع اختلاف لفظه بين حمد وتسمية وذكر لله كما عدد ذلك النووي، لأن اللفظ الذي فيه «الحمد» هو المشهور كما أشار إلى ذلك الحافظ في الفتح، وهذا اللفظ المشهور أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٢٧/٦، رقم ١٠٣٢٨)، وابن ماجه في سننه (٦١٠/١، رقم ١٨٩٤)، وابن حبان في صحيحه (١٧٤/١، رقم ٢)، والدارقطني في سننه (١/ ٢٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٨/٣، رقم ٥٥٥٩) جميعاً عن أبي هريرة.

ولكن يمكن الجمع بين الروايات في ذلك بأن البدء يكون بالجميع بالتسمية والتحميد وذكر الله، فبذلك قد عمل بالروايات وحيز فضل ذلك. انظر في هذا: الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩/٢).

فالجواب: أن البخاري ﷺ كررها في كل كتاب لزيادة الاعتناء بها، ولأجل المحافظة بالتمسك بالسنة وظهر وجه آخر في إعادتها في كل كتاب، وهو أن صحيح البخاري ليس بعد كتاب الله كتاب أصح منه وما ابتدأ الله تعالى سورة منه بالبسملة إلا براءة فابتدأ البخاري كل كتاب من صحيحه بها إقتداء بالكتاب العزيز، ليكون مزيد اعتناء، ومتمسكاً مزيد تمسك بالكتاب والسنة.

ولشدة الاعتناء بها افتتح شيخ الإسلام أبو الفرج ابن الجوزي في بعض مصنفاته كل مجلس بذكرها والوعظ بها، فقال في بعض المجالس: «بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله في الغدو والآصال، نسأل الله القرب والاتصال، قل بسم الله مع الإخلاص تظفر بالنجاة والإخلاص، هي كلمة القرب والوصال، كلمة تنفصل لها الأوصال، كلمة تخشع له القلوب وتهرب منها الذنوب، كلمة هي للصدور شفاء، كلمة فيها نيل الأماني، وتوجب القرب والتدابير، من سمع الله على الحقيقة طاش، ومن سمع الرحمن الرحيم على الحقيقة عاش، بسم من تحيا القلوب بآلائه، وتحيا الأجسام بنعمائه، وتحيا الأرواح بعطائه، وتحيا الأسرار بلقائه، أين المشتاقون إلى الله، أين الخائفون من الله، علامة المشتاق إلى الله إذا ذكر الله طار قلبه شوقاً إلى الله، وعلامة المحب لله إذا سمع ذكر الله هام قلبه سروراً بالله، بسم الله تزول الهموم وتستر السرائر، بسم الله من بأمره أقدار تجري، وبمشيئته النجوم تسري، بسم من يعلم الخطرات، ويحصي عدد القطرات، بسم من حارت في صفته عقول العلماء، وارتعدت من خيفته الجبال والماء.

«**باب الإيمان قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس**»[1] هذا بعض حديث سيأتي تمامة قريباً، ويجوز الاقتصار على بعض الحديث إذا تعلق به غرض صحيح.

قال ابن رجب في شرحه على هذا الكتاب: إنما صدر البخاري كتاب الإيمان بباب بني الإسلام على خمس لأنه يرى أن الإسلام والإيمان واحد، فصدره به لينبه على ذلك، والبخاري ﷺ رتب كتابه ترتيباً حسناً لم يسبقه أحد في مثل ذلك، ترتيبه ومحاسنه كثيرة منها أنه بعد ذكر الوحي ذكر كتاب الإيمان ثم بكتاب الصلاة بسوابقها من الطهارة وغيرها، ثم باب الزكاة وما يتعلق بها، ثم بكتاب الحج وأبوابه، ثم بكتاب الصوم، وإنما رتبه هذا الترتيب ليوافق الترتيب الذي رتبه رسول الله ﷺ في حديث

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١١١): قوله: «باب قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس»، سقط لفظ «باب» من رواية الأصيلي، وقد وصل الحديث بعد تاماً، واقتصاره على طرفه فيه تسمية الشيء باسم بعضه، والمراد باب هذا الحديث.

«**بني الإسلام على خمس**» الذي فيه قواعد الدين وأركان الإسلام، وسنذكر في الكلام على الحديث المذكور وحكمه الترتيب المذكور وسره.

ومن محاسنه أيضاً أنه يميز بين الأجناس بالكتب وبين أنواع كل جنس بالأبواب.

ثم قال البخاري «**وهو قول وفعل ويزيد وينقص**»[1] الضمير عائد إلى الإيمان أو

---

(١) فصل معنى ذلك ابن حجر في الفتح (١١٢) فتحدث عن الأقوال في زيادة الإيمان ونقصانه والكلام عن الفرق والمخالفة والرد عليها فقال: قوله: «وهو» أي: الإيمان «قول وفعل ويزيد وينقص»، وفي رواية الكشميهني: «قول وعمل» وهو اللفظ الوارد عن السلف الذين أطلقوا ذلك، ووهم ابن التين فظن أن قوله: «وهو... إلى آخره» مرفوع لما رآه معطوفاً، وليس ذلك مراد المصنف، وإن كان ذلك ورد بإسناد ضعيف.

والكلام هنا في مقامين: أحدهما: كونه قولاً وعملاً، والثاني: كونه يزيد وينقص.

فأما القول: فالمراد به النطق بالشهادتين، وأما العمل: فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح، ليدخل الاعتقاد والعبادات. ومراد من أدخل ذلك في تعريف الإيمان ومن نفاه إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى، فالسلف قالوا: هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان. وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله. ومن هنا نشأ ثم القول بالزيادة والنقص.

والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط. والكرامية قالوا: هو نطق فقط. والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد.

والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطاً في صحته. والسلف جعلوها شرطاً في كماله، وهذا كله كما قلنا بالنظر إلى ما عند الله تعالى.

أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا، ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم، فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره، ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه فَعَل فعل الكافر، ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته.

وأثبتت المعتزلة الواسطة فقالوا: الفاسق لا مؤمن ولا كافر.

وأما المقام الثاني فذهب السلف إلى أن الإيمان يزيد وينقص، وأنكر ذلك أكثر المتكلمين وقالوا متى قبل ذلك كان شكاً.

قال الشيخ محيي الدين: والأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة، ولهذا كان إيمان الصديق أقوى من إيمان غيره بحيث لا يعتريه الشبهة. ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل، حتى إنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقيناً وإخلاصاً وتوكلاً منه في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها.

وقد نقل محمد بن نصر المروزي في كتابه: «تعظيم قدر الصلاة» عن جماعة من الأئمة نحو =

إلى الإسلام إن قلنا: أنهما بمعنى واحد، كما مال إليه البخاري أي: الإيمان قول وفعل ويزيد وينقص، وإنما قال البخاري الإيمان قول وفعل، و لم يقل: واعتقاد بالقلب مع أن الاعـــتقاد بالقلب هو الأصل في الإيمان إما لأن الاعتقاد بالقلب متفق عليه بين العلماء في أنه إيمان، وإنما وقع النـــزاع بينهم في القول واللسان والعمل بالجوارح هل يصدق عـــليهما الإيمـــان أم لا؟ فذكر المتنازع فيه وسكت عن المتفق عليه، وإما لأن الفعل صادق على فعل الجوارح وعلى فعل القلب.

واعترض على هذا بأن القول أيضاً على فعل اللسان، فلا حاجة إلى ذكره لدخوله في الفعل.

واختلف العلماء في الإيمان هل يزيد وينقص أم لا؟

فذهب الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك بن أنس وسفيان الثوري، وجماعة كـــثيرون من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار، وأكثر الأشاعرة إلى أنه يزيد بزيادة الطاعات، وينقص بنقصانها للقطع بأن إيمان آحاد الأمة ليس كأيمان أبي بكر فضلاً عن إيمان الأنبياء والملائكة.

قال النووي: المختار أن التصديق يزيد وينقص لكثرة النظر ووضوح الدلالة، ولهذا

= ذلك، وما نقل عن السلف صرح به عبد الرزاق في مصنفه عن سفيان الثوري ومالك بن أنس والأوزاعي وابن جريج ومعمر وغيرهم، وهؤلاء فقهاء الأمصار في عصرهم.

وكذا نقله أبو القاسم اللالكائي في «كتاب السنة» عن الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وغيرهم من الأئمة، وروى بسنده الصحيح عن البخاري قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

وأطنب ابن أبي حاتم واللالكائي في نقل ذلك، بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة والتابعين، وكل من يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين.

وحكاه فضيل بن عياض ووكيع عن أهل السنة والجماعة.

وقال الحاكم في مناقب الشافعي: حدثنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع قال: سمعت الشافعي يقول: الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

وأخرجه أبو نعيم في ترجمة الشافعي من الحلية من وجه آخر عن الربيع وزاد: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ثم شرع البخاري يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة، وبثبوتها يثبت المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة.

كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريه الشبهة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قلنا: يا رسول إن الإيمان يزيد وينقص قال: «**نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار**»[1].

وقال سفيان بن عينيه: الإيمان قول وفعل ويزيد ينقص، فقال له أخوه إبراهيم: لا تقل ينقص فغضب، وقال: أسكت يا صبي ينقص حتى لا يبقى منه شيء.

وممن قال بزيادة الإيمان ونقصانه حافظ العصر البخاري، روي عنه أنه قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، واستدل البخاري على ذلك بآيات وآثار مصرحة بذلك.

«قال الله تعالى ﴿**لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ**﴾، ﴿**وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾، ﴿**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾، ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾، ﴿**وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً**﴾ وقوله ﴿**أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً**﴾ ، وقوله جل ذكره ﴿**فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً**﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿**وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً**﴾»

وإسناد الزيادة إلى غير الله في بعض هذه الآيات من قبيل المجاز إذ لا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى.

فإن قيل: هذه الآيات دلت على زيادة الإيمان فقط، والمقصود زيادته ونقصانه.

فالجواب: أن كل ما قبل الزيادة لابد وأن يكون قابلاً للنقصان ضرورة.

وذهب أبو حنيفة والصحابة وإمام الحرمين وجمع كثير من الأشاعرة إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وقالوا: متى كان قبل الزيادة كان شكاً وكفراً.

مسائل مفيدة متعلقة بالإيمان

المسألة الأولى: اختلف العلماء في الإيمان والإسلام هل هما بمعنى واحد أومختلفان؟ فذهب البخاري وجماعة إلى أن معناهما فيهما ويؤيده قوله تعالى ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[الذاريات: ٣٥، ٣٦].

وذهبت طائفة إلى أن الإسلام غير الإيمان واحتجوا بقوله: تعالى ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾[الحجرات: ١٤].

قال الخطابي: والصحيح في هذا أن يقيد الكلام، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمناً

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

في بعض الأحوال ولا يكون في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال وكل مؤمن مسلم ولا عكس.

المسألة الثانية: هل يوصف الإيمان بأنه مخلوق أو ليس بمخلوق؟

اختلف مشايخ الحنفية وغيرهم في هذه المسألة فنقل عن أهل سمرقند وجماعة أنه مخلوق، ونقل عن البخاريين من مشايخ الحنفية وعن أحمد بن حنبل وجماعة من أهل الحديث أنه غير مخلوق، ومال إلى هذا القول إمام أهل السنة أبو الحسن الأشعري وقال: إن إطلاق القول بأنه مخلوق يصدق على الإيمان الذي هو من صفات الله تعالى لأن من صفات الله تعالى الحسنى «المؤمن» كما نطق به القرآن العظيم، ولا يقال إيمان الله تعالى محدث ولا مخلوق تعالى أن يقوم به حادث.

قال بعض المحققين المتأخرين: الصواب التفضيل في هذه المسألة، وهو أن يقال: إن إيمان العبد مخلوق لأنه فعل قلبي يكتسب بمباشرة أسباب يحصله المخلوق فلا يتجه خلاف في كونه مخلوقاً، وأن إيمان الله سبحانه وتعالى الذي دل عليه اسم المؤمن قديم غير مخلوق، ومعنى إيمان الله أنه المصدق بوحدانيته في قوله ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾[آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿**أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا**﴾[طه: ١٤]، ولا يتجه تصديقه رسله بإظهار المعجزات على أيديهم فهو من صفات الأفعال، والخلاف فيها معلوم بين الأشاعرة والماتريدية.

المسألة الثالثة: هل الإيمان باق مع النوم والإغماء والغفلة والموت أو ليس بباق؟ ذهبت المعتـــزلة إلى أنه ليس بباق مع هذه الأمور لأنها تضاد التصديق.

وذهب أهل السنة إلى بقائه حكماً معها، وقالوا: المؤمن من آمن في الحال وفي الماضي لأنه حقيقة فيه، بل لأن الشارع يعطي الحكم حكم المحقق، واستدلوا لبقائه حكماً ببقاء وصف النبوة معها، فإنا إذا قلنا: إن النبوة من الأنبياء، والنبي معناه: المنبئ عن الله تعالى ولا شك أنه ليس منبئاً في حال النوم، ولا مبلغاً في حال السكوت والموت، مع أن الحكم بالنبوة باق إلى الأبد وإن لم يبلغ عن الله إلا مرة واحده، واستدلوا على بقائه حكماً ببقاء أحكام العقود حيث قالوا: الاتفاق واقع على أن حكم النكاح وحكم سائر العقود باق بعد فناء الإيجاب والقبول، الذي هو مسمى العقد لحاجة الناس إلى ذلك قالوا: والحاجة فيما نحن فيه من الإيمان إلى بقاء حكمه أمس وآكد، لأن عصمة الدم والمال منوطة به.

المسألة الرابعة: اختلف العلماء في إيمان المقلد، والمقلد هو أن يسمع إنسان الناس يقولـــون: إن للخـــلق رباً خلقهم وخلق كل شيء، ويستحق العبادة عليهم وحده لا شريك له، فيجزم بما سمعه منهم، والمختار الذي عليه الفقهاء وكثير من العلماء صحته من غير نظر واستدلال، لحصول الجزم بالإيمان الذي يحصله الاستدلال، ولأن الصحابة رضـــي الله عنهم كانوا يقبلون إيمان عوام الأمصار التي فتحوها من العجم حال كون إيمانهم صادراً تحت السيف، ولا استدلال.

ومنع كثير من المعتـــزلة صحته وورد عليهم بأنه يلزم من قولهم تكفير العوام وهو غالب المؤمنين.

المسألة الخامسة: اختلف في أنه هل يجوز للإنسان أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى؟

فذهب أبو حنيفة وأصحابه وكثير من العلماء إلى أنه ليس له أن يقول: ذلك، وإنما يقول: أنا مؤمن حقاً.

والذي ذهب إليه الإمام الشافعي وأصحابه والإمام مالك وأصحابه والإمام أحمد وأصـــحابه وأكثر العلماء وأكثر السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى جواز قـــول الإنســـان: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى وبه قالت الأشعرية هذا إذا كان جازماً بالإيمـــان حال التكلم، أما إذا شك في إيمانه حال التكلم وقال: إن شاء الله للشك في إيمان فإن إيمانه يكون منفياً لأن الشك في ثبوت الحال كفر وليس محل قول إن شاء الله بالاتفـــاق بـــل محل النـــزاع بين الفريقين إنما هو إيمان الموافاة وهو الذي يموت العبد عـــليه، ويأتي متصفاً به آخر حياته أول منازل آخرته، وهو المعتبر في النجاة في الدار الآخرة، وهو الملحوظ عند المتكلم بالمشيئة، فإذا جزم الإنسان بالإيمان في الحال ولكن لا يعلم هذا الحال يبقى هذا الإيمان إلى الوفاة أم لا، فله عند الفريق الثاني أن يقول: أنا مؤمـــن إن شـــاء الله تعالى أي: أنا أموت على الإيمان إن شاء الله وهو أمر مستقبل فالقـــائل: أنا مؤمن إن شاء الله مقتد بالنبي ﷺ وعامل بقوله تعالى ﴿**وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّـــي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾[الكهف: ٢٣، ٢٤] أيضاً يقول: إن شاء الله للتبرك بالمشيئة خوفاً من سوء الخاتمة، مع جزمه بالإيمان في الحال فكان القائل: أنا مؤمن إن شاء الله يقول: أطلب حسن الخاتمة، فكم من إنسان سلب الإيمان عند موته، نسأل الله العظيم أن يختم لنا وللمسلمين بخير في عافية بلا محنة.

وحكى الإمام الغزالي حجة الإسلام قدس الله روحه في منهاج العابدين: أن تلميذ

الفضـــيل بن عياض حضرته الوفاة فدخل عليه الفضيل وجلس عند رأسة وقرأ سورة ياسين فقال يا أستاذ ألا تقرأ هذه؟ فسكت ثم لقنه، وقال له: قل لا إله إلا الله، فقال: لا أقولها آناء نهاري ومات على ذلك، فدخل الفضيل منـــزله وجعل يبكي أربعين يوماً ولم يخرج من البيت، ثم رآه في النوم وهو يسحب إلى جهنم أجارنا الله منها بمنه فقال: بـــأي شيء نـــزع الله المعرفة عنك وكنت أعلم تلاميذي؟ فقال: بثلاثة أشياء أولها: النمـــيمة فإني قلت لأصحابي بخلاف ما قلت لك، والثاني: الحسد حسدت أصحابي، والثالث: كان بي علة وجئت إلى طبيب وسألته عنها فقال: تشرب في كل سنة قدحاً من خمر فإذا لم تفعل تبقى في تلك العلة، فكنت أشربه نعوذ بالله من سخطه الذي لا طاقة لنا به.

وقال في الروض الفائق: يروى أن أخوين كان أحدهما عابداً والآخر مسرفاً على نفســـه، وكان العابد يتمنى أن يرى إبليس في محرابه فتمثل به إبليس فقال: له وأسفا عليك ضيعت عمرك أربعين سنة في حصر نفسك وإتعاب بدنك، وقد بقي من عمرك ما مضى، فأطلق نفسك في شهواتها وتلذذ، ثم تب بعد ذلك وعد إلى العبادة فإن الله غفـــور رحـــيم فقال العابد: لعلي أنـــزل إلى أخي في أسفل الدار أوافقه على اللهو والـــلذات عشرين سنة، ثم أتوب وأعبد الله في العشرين التي تبقى من عمري فنـــزل، وقـــال أخـــوه المسرف على نفسه: قد أفنيت عمري في المعاصي وأخي العابد يدخل الجـــنة، وأنا أدخل النار والله لأتوبن وأصعد إلى أخي العابد وأوافقه في العبادة ما بقي من عمري، فلعل الله أن يغفر لي، فطلع على نية التوبة ونـــزل أخوه على نية المعصية فـــزلت المعصـــية رجله فوقع على أخيه، فماتا جميعاً في السلم، فحشر العابد على نية المعصية وحشر المسرف المسلم على نية التوبة.

ففرغوا قلوبكم للاعتبار فيما يجري في الليل والنهار، كم من بعيد قرب وكم من قريب أبعد، وجفاه الأهل والجيران، كان حظ الأول الجنة، وحظ الثاني النار فاعتبروا يا أولي الإبصار، ندم العابد على تغيير نيته بلا شك ولا خفاء، وبكى على تفريطه بعد عبادته إذ زل، وهنا يود لو أن يرد ويرجع إلى الوفاء، وسيعلم أنه كان يبني على شفا جرف هار فاعتبروا يا أولي الإبصار، ولقد أحسن من قال:

أنـــــاس عرضـــــوا عـــــنا ... بـــــلا جـــــرم ولا معـــــنى
أســـــاؤا ظـــــنهم فيـــــنا ... فهـــــلا أحســـــنوا الظـــــنا
فـــــإن عـــــادوا لمـــــا عدنـــــا ... وإن خـــــانوا فمـــــا خـــــنا

وإن كـــانوا قـــد اســـتغنوا فأنـــــا عـــــنهم أغـــــنى

وقال الإمام أبو محمد رحمه الله تعالى: خرج ثلاثة من الزهاد يريدون الحج إلى بيت الله الحرام في وسط السنة متوكلين بغير زاد، فنـــزلوا قرية بها نصارى فوقع نظر رجل مـــنهم على محاسن امرأة فتعلق بها، فلما عزموا على السفر احتال بحيلة، فقعد وسار صـــاحباه وتركاه في القرية، فأفشى سره لأبي المرأة وخطبها منه فقال: مهرها كثير لا تقـــدر عليه فقال: وما هو فقال: تترك دين الإسلام وتدخل في دينها دين النصرانية، فتنصر وتـــزوجها وولد له منها ولدان ومات على دين النصرانية، فرجع صاحباه من ســـياحتهما وســـألا عنه فقيل لهما: إنه توفى على دين النصرانية ودفنوه في مقابرهم، فذهـــبا إلى المقبرة فوجد امرأته وولديه يبكيان عليه، فجعل صاحباه يبكيان من بعيد فقـــالت لهما المرأة: مما تبكيان من بعيد، فقصا عليها القصة وذكرا لها عبادته وزهده وصـــلاحه، فلما سمعت رق قلبها إلى الإسلام فأسلمت هي وولداها فقال الشيخ أبو محمـــد: سبحان الله مات من كان مسلماً على الكفر وأسلم من كان كافراً، فلذلك ينبغي أن يخاف المسلم عاقبة أمره ويسأل الله حسن الخاتمة ولله در القائل:

سبحان من خلف الأشياء وقدرها ومـــن يجود على العاصي يستره
يخفـــي القبيح ويبدي كل صالحة ويغمـــر العـــبد إحسانا ويشكره
ويغفـــر الذنـــب للعاصي ويقبله إذا تـــاب وبالغفـــران يجـــبره
ومـــن يـــلوذ بـــه في دفـــع نائبة يعطيـــه مـــن فضله عزاً وينصره
ولا يضـــيع مقـــالاً لمجـــتهد في مالـــه بـــل يـــربيه ويدخـــره
ومـــن يكـــن قلبه من ذنبه فاسداً فـــبالمدامع والـــتقوى طهـــره
فـــليس للعـــبد تصـــريف وأن له مـــولاه إن شـــاء يغـــنيه ويفقره
فـــلا الحـــذار ينجي العبد من قدر يـــريده الله وأمـــر يدبـــره
فنســـأل الله حقـــاً حســـن خاتمة عـــند الممـــات وصفواً لا يكدره

وعـــن أبي يزيد البسطامي -رحمه الله- أنه كان إذا توضأ وقعت الزلزلة على أعضائه إلى أن يقـــوم إلى الصلاة ويكبر فيسكن عنه ذلك، فقيل في ذلك فقال: أخاف أن تدركني الشقاوة فأخطى إلى كنائس اليهود والنصارى وبيعهم، فنعوذ بالله من مكر الله.

وعـــن سفيان الثوري -رحمه الله- أنه خرج إلى مكة حاجاً فكان يبكي من أول الليل إلى آخره في المحمل فقال له شيبان الراعي: يا سفيان، فما بكاؤك فإن كان لأجل

المعصـــية فلا تعصه فقال: أما الذنوب فما خطرت ببالي قط كبيرها وصغيرها، وليس بكـــائي يا شيبان من أجل المعصية ولكن خوف العاقبة، لأني رأيت شيخاً كبيراً كتبنا عـــنه العلم، وكان تلتمس بركته ويستقى به الغيث، فلما مات تحول وجهه عن القبلة ومـــات على الشرك كافراً، فما أخاف إلا من سوء الخاتمة فقال له: إن ذلك من شؤم المعصية والإصرار على الذنوب، فلا تعص ربك طرفة عين.

وقال منصور بن عمار -رحمه الله-: إذا دنا موت العبد قسم حاله على خمسة أقسام المال للوارث، والروح لملك الموت، واللحم للدود، والعظم للتراب، والحسنات للخصوم، ثم إن ذهـــب الوارث للمال يجوز، وإن ذهب ملك الموت بالروح يجوز، فيا ليت الشيطان لا ينهب بالإيمان عند الموت، فيكون فراقاً من الرب سبحانه وتعالى، نعوذ بالله من ذلك، فإن كل فراق إلى اجتماع، وفراق الرب سبحانه صعب لا يدركه أحد.

وعـــن محمد بن نعيم قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما جاءني جبريل** عليه السلام **إلا وهو رعد فرقاً وخوفاً من الجبار** ﷻ»[1].

وقيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر من المخالفة والطرد بعد القرب والعبادة، طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله إليهما ما لكما تبكيان هذا البكاء وإني لا أظلم أحداً قالا: يا رب لا نأمن مكرك أي: ما نأمن أن تقضي علينا بالبعد بعد القرب، وبالشقاوة بعد السعادة فقال: الله تعالى هكذا كونا لا تأمنا مكري.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خرج إلى صلاة الجمعة فلقيه إبليس في صورة شيخ عـــابد فقـــال: له إلى أين يا عمر؟ فقال له: إلى الصلاة، فقال: قضينا الصلاة وفاتتك الجماعة، والجمعة فعرفه فمسكه بتلابيبه وخنقه وقال له: ويلك ألم تك رأس العابدين وقـــدوة الـــزاهدين، فأمرت بسجدة واحدة فأبيت واستكبرت وكنت من الكافرين، وطـــردت وأبعـــدت إلى يوم القيامة فقال: تأدب يا عمر هل كانت الطاعة بيدي أم الشـــقاوة بمشـــيئتي، إني كـــنت أبسط سجادة عبادتي تحت قوائم العرش، ولم أترك في الســـماوات بقعة إلا فيها سجدة وركعة ومع هذا القرب قيل لي: أخرج منها فإنك رجـــيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين، فإن كنت يا عمر أمنت مكر الله فإنه لا يأمن مكـــر الله إلا القوم الخاسرون، فقال له عمر: اذهب فلا طاقة لي بكلامك، أين الذين كانوا في اللذات يتقلبون ويتجبرون على الخلق ويتكبرون، مزجت لهم كؤوس المنون، فهم لها يتجرعون، وتركوا الأموال التي كانوا لها يجمعون، وفارقوا الذي كانوا به، وفاتهم النعـــيم الذي كانوا به ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون، فلو رأيتهم يا هذا في حلل الندامة

---

(١) لم نقف عليه.

يرفلون، ويساقون يوم القيامة إلى العذاب وهم ينظرون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وأنشدوا في المعنى:

إليك من مكرك يا سيدي ... محل البرايا بذا يحذرون
فكم ذنوب في عيوب مضت ... ونحن عنها سيدي غافلون
نضيع العمر نكسب الخطأ ... فنحن في أوقاتها لاعبون
نشاهد الموتى ولا نعتبر ... ولا تنبهنا الريب المنون
فنحن يا رب الورى كلنا ... إليك من زلاتنا هاربون
لكننا نسأل رب السماء ... عفواً وصفحاً كي تقر العيون

فائدة: إبليس عبد الله ثمانين ألف سنة ثم قيل له: أخرج منها فإنك رجيم صرح بذلك الغزالي في منهاج العابدين.

فائدة أخرى: رأى إسرافيل عليه السلام في اللوح المحفوظ أن عبداً يعبد ربه ثمانين ألف عام، ثم ترد عليه عبادته ويلعنه فبكى إسرافيل خوفاً أن يكون هو ذلك العبد، فسألته الملائكة عن ذلك فأخبرهم بما رآه في اللوح فبكوا جميعاً فكل منهم يخاف أن يكون هو ذلك العبد، ثم قالوا: نذهب إلى عزرائيل فإنه مجاب الدعوة فيدعو لنا، فأخبروه فدعا لهم وقال: اللهم لا تغضب عليهم ونسي أن يدعو لنفسه معهم و لم يقل: اللهم لا تغضب علينا.

وقيل: إنه رأى على باب الجنة مكتوباً: إن لله عبداً يعبده من المقربين يأمره فلا يمتثل أمره فقال: ائذن لي أن ألعنه فلعن نفسه بنفسه ألف عام، وكان اسمه في سماء الدنيا العابد، وفي الثانية الراكع، وفي الثالثة الساجد، وفي الرابعة الخاشع، وفي الخامسة القانت، وفي السادسة المجتهد، وفي السابعة الزاهد، ثم بعد ذلك سمي إبليس لأنه أبلس من رحمة الله.

وذكر الغزالي في الإحياء عن عيسى أنه قال: نبياً من الأنبياء شكى الجوع والعري والقمل سنتين، فأوحى الله إليه ما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفر بي حتى تسألني الدنيا، فأخذ التراب وجعله على رأسه وقال: قد رضيت يا رب فاعصمني من الكفر.

خاتمة مشتملة على فوائد: قال النووي في الأذكار يحرم أن يقول الشخص: إني إن فعلت كذا فأنا يهودي أو نصراني، أو بريء من الإسلام ونحو ذلك، فإن قال ذلك وأراد حقيقة تعليق خروجه عن الإسلام ذلك صار كافراً في الحال، لأن تعليق الكفر كفر في الحال لابد له أن يرجع عن معصيته ويندم على ما فعل وأن يعزم أن لا يعود إليه أبداً ويستغفر الله تعالى ويقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال: ويحرم عليه تحريماً مغلظاً أن يقول للمسلم: يا كافر، بل قال العلماء إذا قال للمسلم: يا كافر بلا تأويل كفر لأنه سمى الإسلام كفراً.

روينا في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بهما أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه**»[1].

وروينا في الصحيحين عن أبي ذر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من دعا رجلاً بالكفر أو قال: يا عدو الله وليس كذلك إلا جاء عليه**» هذا اللفظ رواه مسلم، ولفظ البخاري بمعناه، ومعنى «**جاء عليه**» رجع عليه[2].

قال: ولو دعا مسلم على مسلم فقال: اللهم أسلبه الإيمان، عصى بذلك وأصح الوجهين أنه لا يكفر بذلك، ومثل هذا قال: لا ختم الله له بخير.

قال: ولو أكره الكفار مسلماً على كلمة الكفر فقالها وقلبه مطمئن بالإيمان لم يكفر بنص القرآن قال تعالى ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾[النحل: ١٠٦] وأجمع المسلمون على ذلك، ولكن هل الأفضل في هذه الحالة أن يتكلم بها ليصون نفسه عن القتل أو لا؟

في المسألة خمسة أوجه فقيل: الأفضل أن يتكلم بها ليصون نفسه عن القتل، وقيل: إن كان في بقائه مصلحة للمسلمين بأن كان يرجو النكاية في العدو والقيام بأحكام الشرع، فالأفضل أن يتكلم، وإن لم يكن كذلك فالصبر على القتل أفضل، وقيل: إن كان من العلماء ونحوهم ممن يقتدى بهم، فالأفضل الصبر ولئلا يغتر به العوام، وقيل: يجب عليه التكلم لقوله تعالى ﴿**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾[البقرة: ١٩٥] والصحيح: أن الأفضل أن يصبر على القتل ولا يتكلم بالكفر، والأحاديث الصحيحة وفعل الصحابة رضي الله عنهم مشهورة.

حكاية غريبة في المعنى وهي خاتمة المجلس: حكي أن عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته أرسل أصحابه إلى الروم لأجل الغزاة فانهزمت أصحابه وأسر عشرون منهم،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٦٤، رقم ٥٧٥٣)، ومسلم في صحيحه (١/٧٩، رقم ٦٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٤٧، رقم ٥٦٩٨)، ومسلم في صحيحه (١/٧٩، رقم ٦١) عن أبي ذر.

قلت: لفظ البخاري بمعناه كما قال المصنف فقد رواه البخاري بلفظ: «لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك».

وأحضروا بين يدي ملك الروم فأمر ترجمانه أن يسألهم عن من هو أكبرهم، فأشاروا إلى ثلاثة منهم، فأمر الملك واحداً من الثلاثة أن يدخل في دينه وأن يعتقد أن المسيح ابن الله، وأن النظر إلى الصليب عبادة، وقال: إن فعلت ذلك أعطيتك كذا وأخلع عليك الخلع، وأجعلك أقرب من في حضرتي، وإن أنت أبيت و لم وتدخل في ديني وإلا ضربت عنقك فقال المسلم: معاذ الله أن أبيع ديني بالدنيا، فأمر بضرب عنقه، فلما ضرب عنقه وطار رأسه في الميدان دار ثلاث مرات وهو يقول: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[الفجر: ٢٧ - ٣٠] فغضب الملك الخاسر، وأمر الثاني بمثل ما أمر الأول وقال: أعمل معك كذا وكذا ووعد ومناه، فأبى وقال: معاذ الله أن أبيع ديني بدنياك فأمر بضرب عنق الآخر بحضرته فلما ضرب عنقه وطار رأسه دار في الميدان ثلاثة دورات وهو يقرأ قوله تعالى ﴿**فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾[الحاقة: ٢١ - ٢٤] فسكن عند الرأس الأول فغضب الملك الكافر غضباً شديداً، وأمر الثالث فأحضر بين يديه فقال له: ما تقول أنت أتدخل في ديني حتى أجعلك أميراً وبين يدي مشيراً وإلا قتلتك كصاحبيك، فقال الثالث: أدخل في دينك، وأبيع ديني بدنياك، وأبلغك في ذلك مناك، وغلبت عليه الشقاوة، وقال الملك لوزيره: اخلع عليه الخلع، واكتب له مثالاً بالحكم والتولية والإمرة فقال الوزير: ليس هذا من العقل أن تبادر بإكرام هذا وتوليته من غير تجربة فقال: الملك جربه، فقال الوزير له: يا هذا لا نأمنك ولا نصدقك حتى تقتل رجلاً من أصحابك، فقام وأخذ واحداً من المسلمين فقتله لغلبة الشقاوة عليه، فقال الملك: الآن استحق المثال والإماره والخلع فقال الوزير: أيها الملك هذا ليس صواباً إذا كان الرجل فعل مع الذي ولد معه ونشأ معه وتربى معه هكذا وقتله بيده و لم يرع حقه، فكيف يرعانا حقاً، أو كيف يبدي لنا صدقاً والرأي عندي أن تقتله وتلحقه بإخوانه فقال الملك: نعم الوزير أنت ونعم المشير افعل ما بدا لك، فأمر بضرب عنقه وطار رأسه في الميدان ودار ثلاث مرات وهو يقرأ قوله تعالى ﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ**﴾[الزمر: ١٩] ثم سكن وسط الميدان، و لم يخالط أخويه وصار إلى عذاب الله وغضبه، ونعوذ بالله من مكر الله، ولقد أحسن من قال في المعنى:

وكم من بائع دنيا بدين ... فلم تحصل الدنيا و لم يحصل الدين
ولو حصلت ما فات منها بطائل ... وأصبح مغبوطاً بها وهو مجنون

***

المجلس الرابع عشر

في ترجمة عمر بن عبد العزيز ﷺ ونفعنا به بمنه وكرمه

الحمد لله الذي تعزز في وحدانيته فهو الواحد العزيز، وتفرد في أزليته وأغرق العالم في بحر الحيرة والتعجيز، أتقن خلق الموجودات فليس في إتقان صنعته نقص ولا تعويذ، زين شقة حلة السماء بنعوت إليها وطرزها بالكواكب المشرقة أي تطريز، ورقم كميها برقم الشمس والقمر كالفضة النقية والذهب الإبريز، وحرسها من استرقاق السمع بالشهب الثواقب أتم وأمنع تحجيز، وجلاها على عيون المعتبرين أولي العقل والتميز، وسطح الأرض على تيار الماء وأبرزها بقدرته أحسن تبريز، وثبتها برواسي الجبال وجعلها مسكناً للرجال والأقطاب والصالحين والأنجاب وخلع عليهم التكريم والتعزيز، صرف عنهم الدنيا فلم يعرفوا الإدخار والتكنيز، وجعلهم قائمين بحقه خلفاء على خلقه لمن فهم الأشاير والتلفيز، وخص منهم من شاء بالرفق في بلاده، والنصيحة لعباده كالصحابة ومن تابعهم مثل عمر بن عبد العزيز.

قال البخاري «**وكتب عمر بن عبد العزيز**» هذا هو الإمام العادل خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي القرشي التابعي، الخليفة الراشد المجمع على جلالته وزهده وعلمه وشفقته على المسلمين.

ترجمته أفردت بالتأليف، ويكنى أبا حفص، وكان مولده بالمدينة سنة ثلاث وستين وهي السنة التي ماتت فيها زوج النبي ﷺ، وكان كثير الخوف ﷺ.

وقال يزيد بن حوشب: ما رأيت أكثر خوفاً من الحسن ومن عمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما.

وقال الحارث بن زيد جار عمر بن عبد العزيز رحمه الله: لقد سمعت عمر بن عبد العزيز لما أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وهو يتململ كالسقيم، ويبكي بكاء الحزين وهو يقول: يا دنيا إليَّ تعرضت أم إليَّ تشوقت، هيهات هيهات غري غيري قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك فعمرك قصير، وغنيك فقير وعيشك حقير وخطرك كبير.

وكان ﷺ إذا صلى الصبح أخذ المصحف في حجره، ودموعه تنحدر تبل لحيته، فكلما مر بآية تخيفه رددها فلا يتجاوزها من كثرة البكاء حتى تطلع الشمس، أنشد بعضهم:

وآســـفا فـــراق قـــوم هـــم المصـــابيح والحصـــون
والمـــزن والأمـــن والـــتمني والخـــير والعقـــل والســـكون
بعدهـــم العيـــش ليـــس يصفوا كيـــف تغلـــبهم المـــنون
فكـــل نـــار لـــنا قـــلوب وكـــل مـــاء لـــنا عيـــون

وكان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله.

وروي أنه قرأ يوماً ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس: ٦١] فبكى بكاء شديداً حتى بكى معه أهل الدار، فجاءته زوجته فجلست تبكي لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما، فجاء ولده عبد الملك فدخل عليهم وهم يبكون فقال: يا أبت ما يبكيك؟ قال يا بني ود أبـــوك أنـــه لم يعرف الدنيا و لم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار.

يا هذا إذا كان عمر بن عبد العزيز يخاف مع عدله وأنت تأمن مع جورك وظلمك.

ورؤي في المنام بعد اثنى عشر سنة فقال: الآن تخلصت من حسابي.

اسمع يا من أمن الأقدار، وليس له عند مولاه اعتذار ولله من قال:

تشـــاغل بالدنيا أناس فأصبحوا عن الباب محجوبين قد منعوا القربا
وأهـــل الـــتقى لله تسري قلوبهم إلى غايـــة نـــالوا بها الشرب العذبا
فجاءوا بنور العلم في روضة التقى بهـــا نفـــس الأبرار قد ملئت حبا
هـــم قطعوا الدنيا بخوف وعبادة فذكـــرهم لـــلموت ورثهم كربا

وعـــن عطـــاء رحمـــه الله قال: كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء كل ليلة ويتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، فلا يزالون يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وعـــن ابن حيان -رحمه الله- قال: صليت الصبح خلف عمر بن عبد العزيز فقرأ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصافات: ٢٤] فجعل يكررها ولا يستطيع أن يتجاوزها من البكاء.

وعـــن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز ساكتاً وأصحابه يتحدثون فقالوا له: مالك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أتفكر في أهل الجنة كيف يتـــزاورون، وفي أهل النار كيف يطرحون فيها، ثم بكى، وكان إذا بكى فوق غرفة تتحدر دموعه من الميزاب.

وعن الحسن بن الحسين قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز يبكي حتى رأيته بكى الـــدم، وكان خوفه بعد أن ولي الخلافة أشد وأعظم مما قبلها، فإنه كان رجلاً جسيماً فلما ولي الخلافة صار نحيفاً خوفاً من عدم القيام بحقوق العباد والمطالبة بذلك في الدار الآخرة.

قـــال ابـــن أبي شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف البيت وإن ربطة إزاره لغائبة في بدنه من سمنه، ثم رأيته بعد ما استخلف ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها.

لطيفة مناسبة: نقل في كتاب لطائف المعارف عن عون بن عقبة أنه قال: بنى ملك من الملوك ممن كان قبلكم مدينة فتأنق في بنائها، ثم صنع طعاماً ودعا الناس إليه وأقعد على أبوابها أناساً يسألون كل من خرج هل رأيتم فيها عيباً؟ فيقولون: لا، حتى جاء في آخر الناس قوم أكسية فسألوهم: هل رأيتم فيها عيباً؟ فقالوا عيبين اثنين فأدخلوهم على الملك فقال لهم: هل رأيتم فيها عيباً؟ قالوا: رأينا فيها عيبين، قالوا: وما هما؟ قالوا: تخرب ويموت صاحبها، ثم دعوه وشوقوه إليها فأجابهم وانخلع من ملكه وتعبد معهم إلى أن مـــات، فحدث عون بهذا الحديث لعمر بن عبد العزيز فوقع منه موقعاً عظيماً، واشتد خوفه بسبب ذلك وهمَّ أن يخلع نفسه من الملك، فأتاه ابن عمه مسلمة فقال: اتق الله يا أمير المؤمنين في أمة محمد ﷺ فوالله لئن فعلت لتقتلن الناس بأسيافهم فقال: ويحك يا مسلمة حملتني ما لا أطيق وجعل يرددها، ومسلمة يناشده حتى سكن.

وعـــن أبي حازم الخناصري الأسدي قال: قدمت دمشق في خلافة عمر بن عبد العزيـــز يوم الجمعة والناس رائحون إلى الجمعة فقلت: إذا أنا صرت إلى الموضع الذي أريد نـــزوله فاتتني الصلاة ولكن أبدأ بالصلاة فصرت إلى باب المسجد، فأنخت بعيري ثم علقته ورحت المسجد، فإذا أمير المؤمنين على الأعواد يخطب الناس فلما أن أبصرني عرفني فناداني: يا أبا حازم إليَّ مقبلاً، فلما أن سمع الناس نداء أمير المؤمنين إليَّ أوسعوا لي فدنوت من المحراب، فلما أن نـــزل أمير المؤمنين فصلى بالناس التفت إليَّ فقال: يا أبـــا حازم متى قدمت بلدنا؟ قلت: الساعة وبعيري معقول على باب المسجد، فلما أن تكـــلم عرفته فقلت: أنت عمر بن عبد العزيز قال: نعم، قلت له: بالله لقد كنت عندنا بـــالأمس بخناصـــرة أمـــيراً لعبد الملك بن مروان فكان وجهك وضاء، وثوبك نقياً، ومركبك وطياً، طعامك شهياً، وحرسك شديداً فما الذي غير بك وأنت أمير المؤمنين فقـــال: يا أبا حازم أناشدك الله إلا حدثتني الحديث الذي حدثتني بخناصرة قلت: نعم

سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن بين أيديكم عقبة كؤوداً لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول**»[1] قال أبو حازم: فبكى أمير المؤمنين بكاء عالياً حتى علا نحيبه ثم قال: يا أبا حازم فتلومني أن أضمر نفسي لتلك العقبة، لعلي أن أنجوا منها، وما أظنني منها بناج قال أبو حازم: فأغمي على أمير المؤمنين فبكى بكاءً عالياً حتى علا نحيبه ثم ضحك ضحكاً عالياً حتى بدت نواجذه، وأكثر الناس فيه القول فقلنا: اسكتوا وكفوا فإن أمير المؤمنين لقي أمراً عظيماً قال أبو حازم: ثم أفاق من نحيبه فبدرت الناس إلى لومه فقلت: يا أمير المؤمنين لقد رأيت منك عجباً قال: أرأيتم ما كنت فيه؟ قلت: نعم، قال: إني بينما أنا أحدثكم إذ غمي عليَّ فرأيت أن القيامة قد قامت وحشر الله الخلائق، وكانوا عشرين ومائه ألف أمة محمد ﷺ من ذلك ثمانون صفاً وسائر الأمم من الموحدين أربعون صفاً، إذا وضع الكرسي ونصب الميزان ونشرت الدواوين، ثم نادى المنادي أين عبد الله بن أبي قحافة؟ فإذا بشيخ طوال يخضب بالحناء والكتم، فأخذت الملائكة بضبعيه فأوقفوه أمام الله تعالى فحوسب حساباً يسيراً، ثم أمر ذات اليمين إلى الجنة ثم نادى المنادي: أين عمر بن الخطاب؟ فإذا بشيخ طوال يخضب بالحناء فأخذت الملائكة بضبعيه فأوقفوه أمام الله تعالى فحوسب حساباً يسيراً، ثم أمر به ذات اليمين إلى الجنة، ثم نادى مناد: أين عثمان بن عفان؟ فإذا بشيخ طوال يصفر لحيته فأخذت الملائكة بضبعيه فأوقفوه أمام الله فحوسب حساباً يسيراً ثم أمر به ذات اليمين إلى الجنة، ثم نادى مناد: أين علي بن أبي طالب؟ فإذا بشيخ طوال أبيض الرأس واللحية عظيم البطن رقيق الساقين، فأخذت الملائكة بضبعيه فأوقفوه أمام الله فحوسب حساباً يسيراً ثم أمر به ذات اليمين إلى الجنة فلما رأيت الأمر قد قرب مني، اشتغلت بنفسي فما أدري ما فعل الله بمن كان بعدي، إذ ناداني المنادي أين عمر بن عبد العزيز؟ فقمت على وجهي ثم قمت فوقعت على وجهي ثم قمت فوقعت على وجهي وأتاني ملكان فأخذا بضبعي فأوقفاني أمام الله تعالى فسألني عن النقير والقطمير والفتيل، وعن كل قضية قضيت بها حتى ظننت أني لست بناج ثم إن ربي تفضل عليَّ وتداركني منه برحمته وأمر بي ذات اليمين إلى الجنة، فبينما أنا مار مع الملكين الموكلين بي فمررت بجيفة ملقاة على رماد فقلت: ما هذه الجيفة؟ قالوا: أدن منه وسله يخبرك، فدنوت منه فوكزته برجلي فقلت له: من أنت؟ فقال لي: من أنت؟ قلت: أنا عمر بن عبد العزيز، قال لي: ما فعل الله بك وبأصحابك؟ قلت: أما أربعة

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/٢٩٩)، والقصة بتمامها عنده عن أبي حازم الخناصري.

فأمر بهم ذات اليمين إلى الجنة ثم لا أدري بمن كان بعد علي فقال لي: أنت ما فعل الله بك؟ قلت: تفضل علي ربي وتداركني برحمته، وقد أمر بي ذات اليمين إلى الجنة، فقال: أنا كما صرت ثلاثاً، قلت له: من أنت؟ قال: أنا الحجاج بن يوسف، قلت له: الحجاج أرددها ثلاثاً، قلت: ما فعل الله بك قال لي قدمت على رب شديد العقاب ذي بطشة فقتلني بكل قتلة قتلت بها مثلها، ثم ها أنا موقوف بين يدي ربي أنتظر ما ينتظره الموحدون من ربهم، إما إلى الجنة وإما إلى نار.

قال أبو حازم فأعطيت الله عهداً بعد رؤيا عمر بن عبد العزيز أن لا أوجب لأحد من هذه الأمة ناراً.

وروي أنه ﷺ منذ ولي الخلافة لم يضع لبنة على لبنة ولا أحدث له دآبة ولا امرأة ولا جارية، حتى لحق بالله.

قال له بعض أصحابه: لأي شيء لا تحدث لك بناء؟ قال هذه سنة رسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة.

وعن أبي داود الرومي قال: كان لعمر بن عبد العزيز درجة يصعد عليها، وكانت تتحرك كلما نزل وطلع، وكان يرتاع منها ويرتعب، فأصلحها بعض أصحابه وشدها بطين في غيبته بغير إذنه، فلما صعد عمر ورآها قد ثبتت فسأل عمن أصلحها؟ فقيل له: إن فلاناً أصلحها، فقال: أعيدوها إلى ما كانت عليه فإني عاهدت الله منذ وليت أن لا أضع لبنة على لبنة ولا أجرة على أجرة.

اسمع واتعظ يا من أفنى في عمارة الدنيا عمره، وأقل من فعل الخيرات فيها وأكثر فيها ضرره، وكان السلف لصالح يخربون الدنيا ويعمرون بها الآخرة، ولا أنت يا مسكين عكست ذلك وغفلت أنك عن قريب ستصل إلى الحافرة ولله در من قال.

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وفعله غير فعل الخير خسران

يا عامر لخراب الدار مجتهداً ... تالله هل لخراب الدار عمران

يا مستأنساً بالمنازل والدور، وكاسات الموت عليه تدور، يا مظلم القلب وما للقلب نور، الباطن خراب والظاهر معمور، لو ذكرت الأجداث والقبور، لأبطلت عمارة الدنيا أيا المغرور، ستحاسب على الأيام والشهور، يا من يصلي بلا حضور، ويصوم والصوم بالغيبة مغمور، كم نتلطف بك يا نفور، كم ننعم عليك يا كفور، تبارز بالمعاصي وأنت مستور، ويحلم عليك إنه حليم غفور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إلى متى تلهى بدار الغرور، وفي تمادي الغي تفنى الدهور، يا ناسياً الموت يا

غافلاً عليه كاسات المنايا تدور، وما تـزودت ليوم النشور، فانهض وتب من كل ذي ذنب متى تحظى برضوان العزيز الغفور.

ومن فضائله: أنه كان يعجبه ويحب من يذكر له شيئاً قصر فيه أو نسيه ويرى له الفضل في ذلك.

قـال عمرو بن مهاجر: قال لي عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي ثم هزني وقل: يا عمر ما تصنع.

فانظر يا هذا إلى خوف عمر بن عبد العزيز مع اجتهاده، فكيف بك مع تقصيرك، الدنيا مزرعة الآخرة، فما عملته في هذه وجدته في تلك.

فأنت اليوم تعمل وغداً ترى، فإن كنت غافلاً فأبك على ما قد جرى، وإذ كنت نائمـاً فستذهب عنك لذة الكرى، لو بكت عيناك يا هذا دماً ما تقدمت إلينا قدماً، كيف يصفوا لك ود بعد ما نشر العذر علينا علماً، إنما يصفوا وداد مرء حفظ العهد وراعـى الذمما، لو أردناك لنا ما فتنا، ووصلنا حبلنا ما انصرما، ما رأينا منصفاً عامله منصـف في صفقة إلا فاختصما، كانت الدنيا إذا قدمت على الصالحين قدموها إلى الآخرة.

كان عمر بن عبد العزيز يأتيه خراج اليمن فيدخله بيت المال، ويبيت في الظلام.

وكان يقول: إذا سهرت في أمر العامة أشعلت سراجاً من بيت المال، وإذا سهرت في أمر نفسي أسرجت عليَّ من مالي.

وأمـا عدلـه ﷺ فإنـه قد ملأ الأرض قسطاً وعدلاً وخضعت الوحوش لعدله وصارت الذئاب في أيامه ترعى الغنم مع المغنم.

فقد حكى مالك بن دينار أنه لما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز قال رعاء الشاة مـن رؤوس الجـبال: من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس، فقيل لهم: من أعلمكم بصلاحه؟ قالوا: إنه قد قام خليفة صالح كفت الذئاب والأسد عن شائنا[1].

قال جسر القصاب: مررت في خلافة عمر بن عبد العزيز بشياه، وفيها نحو ثلاثين وحشاً أحسبهم كلاباً فقلت للرعاة لقد أكثرتم من الكلاب بين أغنامكم، فقالو: إنهم ذئاب فقلت لهم: العجب، فقالوا: إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس[2].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/٢٥٥)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/٣٨٦).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/٢٥٥).

صلى أنس بن مالك خلفه قبل خلافته ثم قال: ما رأيت أحد أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى.

وكان ﷺ عفيفاً زاهداً ناسكاً مؤمناً تقياً صالحاً رضياً وهو الذي أزال ما كان يذكر به علياً على المنابر، فإن بني أمية كانوا يلعنون علياً على المنابر، فأزاله عمر بن عبد العزيز ووضع مكانه: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر، وإلى هذا أشار كثير عزة بقوله:

وليت لم تسب علياً ولم تخف ... بريئا ولم تقبل مقالة مجرم
وصدقت بالقول الفعال مع الذي ... أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... منا ينادى من فصيح وأعجم
يقول أمير المؤمنين ظلمني ... بأخذك ديناري ولا أحد يهم
فاربح بها من صفقة لمبايع ... وأكرم بها أكرم بها ثم أكرم

وهو الذي بعثه الله على رأس المائة الأولى لهذه الأمة ليصلح لها دينها، فقد قال أحمد بن حنبل يروي هذا الحديث: «**إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها**»[1] فنظرنا في المائة الأولى فإذا عمر بن عبد العزيز.

وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات[2]: حمله العلماء في المائة الأولى على عمر بن عبد العزيز، وفي الثانية على الشافعي وفي الثالثة على ابن شريح، وقيل: على الشيخ أبي الحسن الأشعري، وفي الرابعة على أبي سهل الصعلوكي وقيل: على القاضي الباقلاني، وقيل: على أبي حامد الإسفرائيني، وفي الخامسة على الغزالي.

قال الكرماني ولا يبعد أن يكون مع السادسة الإمام الرازي، وقال: كيف لا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/١٠٩، رقم ٤٢٩١) عن أبي هريرة.
وأخرجه أيضاً: الحاكم في المستدرك (٤/٥٦٧، رقم ٨٥٩٢)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦/٣٢٣، رقم ٦٥٢٧)، وأبو عمرو المقرئ في السنن الواردة في الفتن (٣/٧٤٢، رقم ٣٦٤)، والديلمي في الفردوس (١/١٤٨، رقم ٥٣٢).
وكلام الإمام أحمد رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/٦٢) من طريق أبي سعيد الفريابي قال: قال أحمد بن حنبل: إن الله تعالى يقيض للناس في كل راس مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب فنظرنا فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز، وفي راس المائتين الشافعي ﷺ.

(٢) انظر: تهذيب الأسماء (ص ٢٧) للنووي.

ولولاه لامتلأت الدنيا من شبه الفلاسفة فهو الداعي إلى الله في إثبات القواعد الحقانية، وحجة الحق على الخلق في تصحيح العقائد الإيمانية.

وأفاد الكرماني: أن المراد بالمصحح لهذه الأمة دينها في رأس كل مائة سنة، من انقضت المائة وهو حي عالم مشار إليه قال: وقد كان قبيل كل مائة أيضًا من يصحح ويقوم بأمر الدين قال: ويحتمل التعدد في المصحح.

وأما شيخنا الجلال السيوطي قال: إن هذا البعث من خصائص هذه الأمة، وإن عيسى ابن مريم يبعث في آخر مائة ليجدد لهذه الأمة أمر دينهم.

وكان يترنم بهذه الأبيات:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
يغرك ما يغني وتشغل بالمنى ... كما غر باللذات في النوم حالم
ويشغل فيما سوف يكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ومن فضائله وزهده ما قاله مسلمة بن عبد الملك قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز في مرضه فإذا عليه قميص وسخ فقلت لزوجته فاطمة بنت عبد الملك: اغسلي قميص أمير المؤمنين فقالت: نفعل إن شاء الله، ثم عدته فإذا القميص على حاله فقلت: يا فاطمة ألم أمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين، فإن الناس يعودونه فقالت: والله ما له قميص غيره.

وكان مرضه الذي مات فيه أول شهر رجب سنة إحدى ومائة.

وروي أن مسلمة بن عبد الملك دخل عليه في مرضه الذي مات فيه فقال: يا أمير المؤمنين من توصي بأهلك، وكان له من الأولاد الذكور بضعة عشر وإذا ذكر فقال: إن وليي فيهم الله وهو يتولى الصالحين.

ويروي أنه قال: يا أمير المؤمنين إنك افتقرت ولدك من هذا المال، وتركتهم عيلة لا شيء لهم، فلو أوصيت بهم إليّ فقال: اسندوني ثم قال: أما قولك: إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فوالله ما منعتهم حقاً هو لهم ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك: لو أوصيت فاعلم أن وصيتي ووليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، ثم قال: بني أحد رجلين إما رجل يتقي الله تعالى فسيجعل له مخرجاً، وإما رجل منكب على المعاصي فلم أكن مقويه على معاصي الله تعالى، ثم بعث إليهم فلما حضروا ونظر إليهم فزرفت عيناه وقال: بنفسي أفدي الفتية الذين تركتهم لا شيء لهم، فإني بحمد الله تركتهم بخير، أي بني: إن أباكم بين أمرين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، أو

أتفـــتقروا ويدخـــل أبوكم الجنة، فلأن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة أحب إليه من أن تســـتغنوا ويدخل أبوكم النار، قوموا عصمكم الله تعالى، ولما وكلهم إلى مولاهم فتح الله عليهم بالمال الكثير.

حكى الكمال الدميري في الحمام: أن بعض العلماء الأكابر اجتمع بالمنصور وأمير المؤمـــنين فقال المنصور لذلك الرجل العالم يوماً من الأيام: عظني وأخبرني بأعجب ما رأيـــت، قـــال له: يـــا أمير المؤمنين من غريب ما رأيت أن عمر بن عبد العزيز مات وخلف إحدى عشر ولداً فبلغت تركته سبعة عشر دينار تصدق بخمسة دنانير واشترى له موضع القبر بدينارين، وأصاب كل واحد من أولاده تسعة عشر درهماً.

ومـــات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنا فورث كل واحد منهم ألف ألـــف دينار ثم إني رأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل أن يتصدق عليه قال: وهذا غير عجيب فإن عمر بن عبد العزيز وكلهم إلى ربه فكفاهم وأغناهم، وهشام وكلهم إلى دينارهم فأفقرهم مولاهم.

وعـــن الأوزاعـــي أنـــه قال: إن عمر بن عبد العزيز قال ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يرفع للمؤمن من الأجر.

وفي رواية قال: ما أحب أن يخفف سكرات الموت لأنه آخر ما يكفر به عن المؤمن.

وروي أنـــه لما ثقل عليه المرض قال لمسلمة بن عبد الملك: خذ من مالي دينارين فاشـــتري لي كفنا فقال: يا أمير المؤمنين أن الدينارين لا يحصل بهما كفن لمثلك فقال: يا مســـلمة إن كان الله ﷻ عني راضياً فسيبدلني بما هو خير منه، وإن كان ساخطاً فإنما أكون حطباً للنار.

ويـــروى أنه دخل عليه شخص يقال له: سابق في مرضه فقال: له يا سابق عظني وأوجز فأنشد:

إذا أنـــت لم تـــرحل بزاد التقى ... وافيـــت بعد الموت من قد تـــزودا
ندمت على أن لا تكون شريكه ... وأرصدت قبل الموت ما كان أرصدا

فـــبكى عمر حتى وقع مغشياً عليه ودخل سابق مرة أخرى عليه فأنشده قصيدة طويلة:

فكم من صحيح بات للموت آمناً ... أتـــتة المـــنايا بغـــتة بعدمـــا هجع
فلم يستطيع إذ جاءه الموت بغتة ... فـــراراً ولا مـــنه بقوتـــه امتـــنع

فأصبح تبكيه النساء مقنعا ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
وقرب من لحد فصار مقيله وفارق بعدما كان بالأمس قد جمع
فلا يترك الموت الغني لماله ولا معدماً في المال ذا حاجة يدع

فلم يزل عمر يضطرب ويبكي حتى غشي عليه.

وكان بوجهه شجة فلهذا كان يقال له: شجيج بني أمية لأن ضربته دآبة في وجهه.

وهو منسوب إلى عمر بن الخطاب لكن من جهة النساء.

ومن كرامات عمر بن الخطاب أنه كان يقول: من ولدي رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلاً هو عمر بن عبد العزيز فإنه ﷺ من أولاد عمر بن الخطاب من جهة الأم فإن أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

لطيفة: مر عمر بن الخطاب ليلة ببيت فسمع امرأة تقول لابنتها: أخلطي الحليب بالماء فقالت البنت: يا أماه أو ليس نادى عمر بن الخطاب أن لا يخلط أحد الحليب بالماء؟ قالت: إنه لا يرانا، فقالت: نطيعه في الملأ ونعصيه في الخلاء، فلما أصبح عمر دعا أولاده عبد الله وعبيد الله وعاصماً وعرض عليهم الجارية وقال: لو كان لأبيكم من حركة ما سبقه إليها من أحد، فتزوجها عاصم فولدت بنتا ثم ولدت الثانية عمر بن عبد العزيز.

وقال ابن رجب في اللطائف: خطب عمر بن عبد العزيز آخر خطبة خطبها، فيها: إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاد ينزل الله فيه للفصل بين عباده، فقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيرثها بعدكم الباقون، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين، وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله من قضى نحبه وانقضى أجله فتودعونه، وتدعونه في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب غنياً عما خلف، فقيراً إلى ما أسلف، فاتقوا الله عباد الله قبل نزول الموت، وانقضاء مواقيته وإني لا أقول لكم هذه المقالة وما أعلم على أحد من الذنوب أكثر ما أعلم عندي، ولكني استغفر الله وأتوب إليه، ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق، ثم نزل فما عاد إلى المنبر بعدها حتى مات رحمة الله تعالى.

وعن عبيدة بن حسان قال: لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال: اخرجوا عني فلا

يبقى عندى أي أحد وكان عنده مسلمة بن عبد الملك، فخرجوا وقعد مسلمة وأخته فاطمة زوجة عمر على باب فسمعوه يقول: مرحباً بهذه الوجوه ليست بوجوه إنس ولا جان، قال سمعنا صوتا من ناحية الباب يقول: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[القصص: ٨٣] ثم دخلوا عليه وقد مات رحمة الله واستقبل القبلة وغمض عينيه وطبق فاه[١].

قيل: إن بعض الجان بعد موته رثاه فقال:

عنا جزاك مليك الناس صالحة ... في جنة الخلود والفردوس يا عمر
أنت الذي لا نرى عدلاً نسر به ... من بعده ما جرت شمس ولا قمر

ورثاه جرير فقال :

تنعي النعاة أمير المؤمنين لنا ... مفضل حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به ... وسرت فيهم بحكم الله مؤتمرا

ورثاه الفرزدق بقصيدة طويلة منها:

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه ... لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة حق قد نعت لهم ... كادت تموت وأخرى منك تنتظر

قال الأوزاعي: شهدت جنازة عمر وخرجت إلى مدينة «قنسرين» فمررت على راهب يسير على ثورين أو حمارين فقال: يا هذا ما أحسبك شهدت جنازة هذا الرجل فقلت له: نعم فبكى فقلت وما يبكيك ولست من أهل دينه قال إنما أبكي على نور كان في الأرض فطفيء.

---

(١) روى ابن المبارك في الزهد خبر موته (ص ٣٠٩، رقم ٨٨٧) عن مغيرة بن حكيم قال: قالت لي فاطمة: كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار قالت: فقلت له يوماً: يا أمير المؤمنين ألا أخرج عنك عسى أن تغفي شيئاً فإنك لم تنم، قالت: فخرجت عنه إلى بيت غير البيت الذي هو فيه، قالت: فجعلت اسمعه يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣] يرددها مراراً ثم اطرق فلبث طويلاً لا أسمع له صوتا فقلت لوصيف له كان يخدمه: ويحك انظر، فلما دخل صاح، قالت: فدخلت عليه فوجدته ميتاً قد أقبل بوجهه على القبلة، ووضع إحدى يديه على فيه والأخرى على عينه.

ورواه أيضاً: ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/٤٠٦)، والطبري في التاريخ (٤/٧٢).

وانظر: سير أعلام النبلاء (٥/١٤١).

ويوم موته وثب ذئب على شاه فقال: الرعاة كأن الرجل الصالح قد مات فنظروا فوجدوا عمر قد مات تلك الليلة ﷺ، ولي الخلافة بعده ابن عمه سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين.

وكانت خلافته مثل خلافة أبي بكر الصديق سنتين وخمسة أشهر، وكانت وفاته يوم الجمعة لعشر بقين من شهر رجب سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وستة أشهر، ومات بدير سمعان قرية من قرى حمص، وكان قد أرسل لصاحب الأرض الذي يساومه على موضع قبره فقال: يا أمير المؤمنين والله إني لأتبرك بقبرك وقد حاللتك منه فأبى أن يقبله إلا بثمن، وبايعهم على موضع قبره بدينارين، وقال لهم: إنما أريد بطن الأرض، فإذا دفنت فاحرثوا أرضكم وأزرعوا فيها وابنوا وانتفعوا فلا يضرني ذلك، ودفن هناك وكان عنده شيء من شعر رسول الله ﷺ وأظفاره فأوصى أن تدفن معه.

لطيفة: قال يوسف بن ماهك: بينما نحن نسوي التراب على قبر عمر إذا سقط علينا من السماء رق مكتوب عليه: بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار.

وقال خالد الربعي: مكتوب في التوراة أن السماء تبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين صباحاً.

لطيفة أخرى: قال الغزالي في منهاج الفائزين روي أن بعض الصالحين قال: كان لي ولداً استشهد فلم أره في المنام إلا ليلة توفي عمر بن عبد العزيز ﷺ، إذ تراءى إليَّ تلك الليلة فقلت: يا بني ألم تك ميتاً فقال: لا ولكني استشهدت وأنا حي عند الله أرزق، فقلت ما جاء بك فقال: نودي في السماء أن لا يبقى نبي ولا صديق ولا شهيد إلا وحضر الصلاة على عمر بن عبد العزيز فجئت لأشهد الصلاة ثم جئتكم لأسلم عليكم.

قال البخاري «**وكتب بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي**» [1] هذا هو السيد

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٣): قوله: «وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي» أي: ابن عميرة الكندي، وهو تابعي من أولاد الصحابة، وكان عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة فلذلك كتب إليه، والتعليق المذكور وصله أحمد بن حنبل وأبو بكر بن أبي شيبة في كتاب الإيمان لهما من طريق عيس بن عاصم قال: حدثني عدي بن عدي قال: كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد فإن للإيمان فرائض وشرائع... إلى آخره». =

الجليل أبو فروة الكندي الجزري التابعي، وقد اختلفوا في أنه صحابي أم لا، والصحيح أنه تابعي.

وسبب الاختلاف في أنه روى أحاديث عن النبي ﷺ فظنه بعضهم صحابياً.

وكان عدي عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة والموصل، واستعمال عمر له يدل على أنه ليس بصحابي لأنه عاش بعد عمر، ولم يبق أحد من الصحابة في خلافته واتفقوا على جلالة عدي.

فقال البخاري: عدي سيد أهل الجزيرة.

وقال أحمد بن حنبل: عدي لا يسئل عن مثله وتوفي في ستة عشرين ومائة.

«**إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسننا**» هذا الذي قاله البخاري من قوله «**وكتب عمر بن عبد العزيز أن للإيمان**... إلى آخره» تعليق ذكره بصيغة الجزم وهو حكم منه بصحته، ومقصود البخاري بهذا الأثر المنقول عن عمر بن عبد العزيز الاستدلال على مذهبه من زيادة الإيمان ونقصانه، وأن عمر بن عبد العزيز كان قائلاً بأن الإيمان قول وفعل، وكان قائلاً: بأنه يزيد وينقص حيث قال: «**فمن استكملها فقد استكمل الإيمان**» واستدل بكلامه لأنه جمعها بجلالته وفضله وعلمه كما قدمنا ذلك، والفرق بين الفرائض والشرائع والسنن ظاهر، وذلك أن المراد بالفرائض: الأعمال المفروضة، وبالشرائع: العقائد الدينية، وبالحدود: المنهيات، وبالسنن: المندوبات، هكذا فسرها الكرماني والبرماوي.

قال البرماوي: وفسرناها بذلك حذراً من التكرار فيكون ذلك وفاء بالاعتقاد وبالعمل والترك واجبين ومندوبين.

***

= وقوله: «إن للإيمان فرائض» كذا ثبت في معظم الروايات باللام، وفرائض بالنصب على أنها اسم إن. وفي رواية ابن عساكر: «فإن الإيمان فرائض» على أن الإيمان اسم إن وفرائض خبرها، وبالأول جاء الموصول الذي أشرنا إليه.

وقوله: «فرائض» أي: أعمالاً مفروضة، «وشرائع» أي: عقائد دينية، «وحدوداً» أي: منهيات ممنوعة، «وسنناً» أي: مندوبات.

المجلس الخامس عشر

في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[البقرة: ٢٦٠]

وفيه فوائد كثيرة متعلقة بالسيد إبراهيم صلاة الله وسلامه عليه

«**وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾**» مقصود البخاري بهذه الآية الاستدلال أيضاً على مذهبه من زيادة الإيمان ونقصانه، وهي دليل ظاهر على قبول الزيادة، وفصل هذه الآية عن الآيات التي استدل بها على زيادة الإيمان ونقصانه لأن تلك دلت على الزيادة بالصريح، وهذه بطريق اللزوم، ففصل ليشعر بالتفاوت، ووجه الاستدلال أن السيد إبراهيم سئل أن يريه إحياء الموتي فقال: **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾**، وإنما سأل ليزداد يقيناً وبصيرة، فإنه إذا انضم عين اليقين إلى علم اليقين لا شك أن الإيمان يكون أقوى فلما سأل ذلك قال الله تبارك وتعالى **﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾** ألم تصدق بأني أحي الموتى، وهو سبحانه عالم بأن إبراهيم يصدق بذلك ولكن قال له ذلك ليظهر إيمانه لكل سامع فقال إبراهيم في جواب ربه: بلى أومن بأنك تحي الموتى ولكن سألتك **﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾** أي: ليزداد يقيني إذ ليس منه سمع كمن رأى وليس الخبر كالعيان ولله در القائل:

ولكن للعيان لطيف معنى ... له سأل المشاهدة الخليل

فطلب -صلوات الله وسلامه عليه- رؤية إحياء الموتى ليصير علم اليقين عنده بالاستدلال عين اليقين بالمشاهدة، فإنه ليس ما يصل إلى القلب بالخبر كالذي يصل إليه بالنظر لأن الكذب في الخبر ممكن وفي العيان غير ممكن.

وذهب بعض أهل التصوف إلى أن السيد إبراهيم عليه السلام إنما قصد بالسؤال رؤية الباري جل وعلا، وجعل السؤال عن كيفية إحياء الموتى وسيلة إلى ذلك فكأنه قال: رب أرني ذاتك وأنت تحي الموتى، فلما سأل من ربه أن يريه كيف يحي الموتى ليزداد يقينه

قال الله تعالى **﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾** قيل: أخذ الطاووس والديك والغراب والنسر، قيل: الحمامة بدل النسر والبطة بدل الطاووس.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمهن إليك ولتبرهن واعرف هيئتهن ثم قطعهن ثم اخلط لحمهن ودمهن ورشهن بعضه ببعض، ثم أمسك رؤوسهن عندك، ثم جزئهن ثم اجعل على كل جبل من جبال أرضك وكانت سبعة، وقيل: أربعة أجزاء.

﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ أي: قل لهم تعالين بإذن الله يأتينك ساعيات

مسرعات في طيرهن أو مشيهن على رجلهن، ففعل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كما أمره الله تعالى، أخذ هذه الطيور الأربعة وذبحها وقطع رؤوسها ووضع الرأس عنده ثم قطع لحمها قطعاً قطعاً، وخلط الجميع وقسمه سبعة أقسام على عدد الجبال، ووضع على كل جبل منها جزءاً كما أمره الله تعالى، ثم قال لهذه الأجزاء تعالين بإذن الله فعاد كل جزء إلى جسده، وأتى كل جسد إلى رأسه الذي معه وقيل: قال: أيتها الطيور المنقطعة والأعضاء المتفرقة عودي كما كنت بإذن الله تعالى، فعادت أجنحة هذا إلى مكانها ورأس هذا إلى بقيته وأعضائه والتأم هذا إلى هذا، وإبراهيم ينظر إليها وأقبلت أربعتها تسعى بإذن الله تعالى فعندها قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير، فقال: له عند ذلك ربه ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ١٣١].

وقال بعضهم: لما قال السيد إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قيل: له أنت شاك في قدرتنا حتى تقف في حقيقتنا وتقول: أرني فقال: يا رب أنت أريتني بعين بصيرتي فأرني بعين بصري لأجمع بين النظرين، فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحها ويفرق أجزائها ويجعل على كل جبل منهن جزء وأمره أن يأخذ رؤوس الأربعة فيجعلها بين أصابعه، ويدعوها ففعل ذلك، فهب نسيم من جانب القدرة، وجمع تلك الأجزاء المتفرقة وأتوا نحوه واختطف كل منها رأسه من بين أصابعه، وطار حياً بقدرة الله سبحانه وتعالى فعكفوا على رأس إبراهيم، ونادوه بلسان فصيح وقلب جريح: يا إبراهيم أي شيء أردت بنا حتى سفكت دمنا، يا إبراهيم تأدب فربما باسطك ربك بمثل ما باسطته، ففي تلك الليلة رأى إبراهيم ربه في المنام يقول له: اذبح ولدك كأنه يقال له يا إبراهيم نحن أريناك أحياء الموتى فأرنا أنت إماتة الأحياء.

فائدة: قال ابن العماد في الذريعة لم يتعرض المفسرون لوجه الحكمة في كونها أربعة، وظهر لي والله اعلم أن العناصر لما كانت أربعة ناسب الحصر في الأربعة، ويؤيد ذلك ما قاله أن الله أوحى إليه أن يأخذ بطة خضراء وغراباً أسود وحمامة بيضاء وديكا أحمراً، فإن الأخضر بمثابة الصفراء والأسود بمنزلة السود والأبيض كالبلغم والأحمر الدم والله أعلم.

والحكمة في أمره بالأخذ من الطير دون غيره من الحيوانات: أن الطير أقرب إلى الإنسان، وأجمع لخواص الحيوان.

قال بعض العلماء: وإنما أخذ هذه الطيور الأربعة دون غيرها من الطيور لنكتة لطيفة وهي: أن أعداء الآدمي أربعة: الدنيا و الهوى والنفس والشيطان كما أشار إليه

بعضهم بقوله:

إني بليت بأربع ما سلطوا ... إلا لعظم بليتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف السبيل وكلهم أعدائي

فكأنه أشار بأخذه لهذه الطيور ووضعها على الجبال أن ينفي عنه ما أتصف كل واحد منها من هذه الأعداء الأربعة، فأشار بالطاووس إلى نفي نية الدنيا لأنه أكثر الطيور زينة، وأشار بالغرب إلى نفي الحرص لأنه أكثر الطيور روضاً، وأشار بالديك إلى نفي الشهوة لأنه أكثر الطيور شهوة، وأشار بالنسر إلى نفي العجب لأنه أكثر الطيور عجباً، فكأنه تعالى بقوله: خذ هذه الأربعة واجعل كل منها على جبل، فالحرص على جبل الترك، والزينة على جبل الزهد، والعجب على جبل التواضع، والشهوة على جبل الإخلاص.

فائدة في أحكام هذه الطيور: أما الطاووس فهو طائر معروف في طبعه العفة وحب الزهو والخيلاء والإعجاب بريشه، يلقي ريشه في الخريف كما يلقي الشجر ورقه، فإذا بدأ طلوع الأوراق من الشجر طلع ريشه، ومع حسنه يتشأم به ويكره الناس إقامته في البيت.

وسببه: أنه لما كان سبباً لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها، وسبباً لخلو تلك الدار من آدم مدة دوام الدنيا كرهت أقامته في الدور، وكان غير مبارك فيها، ويحرم أكله لخبث لحمه، ويصح بيعه للتفرج على لونه.

وأما الديك فكنيته أبو اليقظان ويسمى الأنيس والموأنس، وقد ذكر العلماء أنه يجوز الاعتماد على الديك المجرب في أوقات الصلوات، وكانت الصحابة يسافرون معهم بالديك تعرفهم أوقات الصلاة.

ويحل أكله ويكره سبه كما روى أحمد وأبو داود وابن ماجة عن زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ «**لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة**»[1] حديث إسناده جيد.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٧/٤، رقم ٥١٠١) عن زيد بن خالد الجهني.
وأخرجه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (٢٣٤/٦، رقم ١٠٧٨١)، وأحمد في مسنده (١٩٢/٥، رقم ٢١٧٢٣)، والحميدي في مسنده (٣٥٦/٢، رقم ٨١٤)، والطيالسي في مسنده (ص ١٢٩، رقم ٩٥٧)، وعبد بن حميد (١١٧/١، رقم ٢٧٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤٠/٥، رقم ٥٢١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (١٧٥٨/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٩/٤، رقم ٥١٧٢).

قال الحليمي في قوله ﷺ: «**فإنه يوقظ للصلاة**» على أن كل ما استفيد منه خير لا ينبغي أن يسب، بل حقه أن يكرم ويشكر ويتلقى بالإحسان.

ويروى في حديث أن النبي ﷺ قال: «**الديك الأبيض حبيبي وحبيب حبيبي جبريل** عليه السلام **يحرس بيته وستة عشر بيتاً أبيض**»(١).

وأما الغراب فهو من الفواسق الخمس يستحب قتله في الحل والحرم، ويحرم أكل الغراب الأبقع والغراب الأسود الكبير الجبلي، وأما غراب الزرع فإن أكله حلال ويسمى غراب الزيتون لأنه يأكله.

وأما النسر فهو عريف الطيور يقول: في صياحه ابن آدم عش ما شئت فإن الموت ملأ قلبك كذا قاله الحسن بن على.

وفي هذا مناسبة لما خص به النسر من العمر الطويل فقد قيل: يعيش ثمانين سنة وهو سيد الطيور لحديث ورد في ذلك ذكره الدميري في النسر وسنذكره في كتاب الصوم إن شاء الله تعالى ويحرم أكله لاستنجاسه بأكله الجيف.

وأما الحمام فإنه يصدق على الذكر والأنثى من الفواخت والقمارى والقطا والوراشين واليمام والقلاب والمنسوب وأشباه ذلك، ويحل أكله بجميع أنواعه لأنه من الطيبات، وتربية الحمام لأجل البيض والإفراخ والأنس وحمل الكتب جائز بلا كراهة، وأما اللعب بها والتطير والمسابقة فقيل: يجوز لأنه يحتاج في الحرب لنقل الأخبار، والأصح كراهته فقد روي عن سفيان الثوري أنه قال: كان اللعب بالحمام من عمل قوم لوط.

وقال النخعي: من لعب بالحمام الطيارة لم يمت حتى يذوق ألم الفقر.

---

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (١٧٥٧/٥) عن أنس مرفوعاً.

وهو حديث منكر فيه: أحمد بن محمد بن أبي بزة المقرئ، أورده العقيلي في الضعفاء (١٢٧/١، ترجمة: ١٥٥) وأخرج الحديث من طريقه وقال: وقال منكر الحديث ويوصل الأحاديث ومن حديثه... فساق حديثه هذا.

وترجم له الذهبي في الميزان (٢٨٨/١، ترجمة ٥٦٣) وقال: أحمد لين الحديث ونقل قول العقيلي فيه، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث لا أحدث عنه، وقال ابن أبي حاتم: روى حديثاً منكراً.

وانظر ترجمته أيضاً في لسان الميزان (٢٨٣/١، ترجمة ٨٤٣)، ومع أنه منكر في الحديث، إلا أنه ثبت في القراءة قاله الذهبي في المغني في الضعفاء (٥٥/١، ترجمة ٤٢٨).

وعموماً فحديثه هذا أنكره العلماء انظر في ذلك كشف الخفاء (٤٩٧/١، رقم ١٣٢٣).

وروى ابن وهب أن حمام مكة أظلت النبي ﷺ يوم فتح مكة فدعا لها بالبركة.

ومما يدل على كراهة اللعب بالحمام الطيارة ما في سنن أبي داود وابن ماجة والطبراني وابن حبان بإسناد جيد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامة فقال: «**شيطان يتبع شيطانة**»[1].

وهو محمول على إدمان صاحب الحمام على طيرانه والاشتغال به، والارتقاء بسببه إلى السطوح التي يشرف منها على بيوت الجيران وحرمتهم لأجله، وسمى رسول الله ﷺ الحمام شيطاناً لأنه لا يكاد يخلو من عصيان العاصي يقال له: شيطان قال تعالى ﴿**شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ**﴾[الأنعام: ١١٢] وأطلق على الحمامة شيطان مجاورة، ولا ترد الشهادة بمجرد اللعب عندنا بها، خلافاً لأبي حنيفة ومالك فإن انضم إليه قماراً ونحوه ردت الشهادة.

واستشكل العلماء سؤال السيد إبراهيم إحياء الموتى ليزداد يقينه وإيمانه يقول سيدنا علي: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً أي: لو كشف لي الغطاء عن الأمور المغيبة، من الحشر والنشر والحساب وكيفية إحياء الموتى ونحوها بأن شدتها واقعة ما ازددت بسبب وقوعها يقيناً بها.

ووجه الإشكال أن قول سيدنا علي يقتضي أنه لا يزداد يقينه عند رؤية إحياء الموتى ولا عند جميع الأمور المغيبة، والسيد إبراهيم طلب ذلك لأجل يقينه وإيمانه فيلزم أن يكون مقام سيدنا علي أعلى من مقام السيد إبراهيم مع أن مقام إبراهيم أعلى بالإجماع للقطع بأنه لا يصل ولي إلى درجة الأنبياء، وقد جمع العلماء بين القولين بما لا نطول بذكره.

«وإبراهيم» سرياني معناه بالعربية «أب راحم»، وقيل: «رحيم» ذكره الله تعالى في القرآن في إحدى وسبعين موضعاً، وفيه سبع لغات أشهرها إبراهيم، ويقال: «إبراهام» وبها قرئ في السبعة، وكان مولده -صلوات الله وسلامه عليه- ببابل من أرض السواد بناحية يقال لها: «كوش» كما صححه ابن الملقن في زمان النمرود بن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٨٥/٤، رقم ٤٩٤٠)، وابن ماجه في سننه (١٢٣٨/٢، رقم ٣٧٦٥)، وابن حبان في صحيحه (١٨٣/١٣، رقم ٥٨٧٤) عن أبي هريرة.
والحديث عند البخاري في الأدب المفرد (٤٤١/١، رقم ١٣٠٠)، وأحمد في المسند (٣٤٥/٢، رقم ٨٥٢٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٣/١٠، رقم ٢٠٧٣٠)، وفي شعب الإيمان (٢٤٤/٥، رقم ٦٥٣٤).

كنعان.

وكـــان بين الطوفان ومولد إبراهيم ألف مائة سنة ومائتان وثلاث وستون سنة، وبيـــنه وبين آدم ثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثون سنة، والنمروذ عليه اللعنة كـــان جباراً عنيداً دعا الناس إلى عبادته وهو أحد الملوك الأربعة الذين ملكوا الأرض كلها ورد في الحديث: «**ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران أما المؤمنان فسليمان بن داود والإسكندر ذو القرنين عليهما السلام، وأما الكافران فنمرود عليه اللعنة وبخت نصر**»[1].

وكان عند النمرود كهان ومنجمين فلما أراد الله إيجاد السيد إبراهيم قالوا: إنا نجد في علمنا أنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير أهل الأرض، ويكون هلاكك وزوال ملكك على يده، فأمر يذبح كل مولود يولد في تلك الناحية في تلك السنة، فلم يولد فيها غلام إلا ذبحه.

وأما أم إبراهيم فإنه لما حملت به لم يعلموا بحبلها، فإنها كانت جارية حديثة السن لا تعلم الحبل، و لم يستبن في بطنها شيء، فلما حملت به أمه قالت الكهان للنمرود: إن المولـــود الـــذي أخبرناك قد حملت به أمه هذه الليلة، فلما عظم بطنها خشي آزر أن يعـــلموا بها فيذبحوها وولدها، فانطلق بها إلى أرض بين البصرة والكوفة فأنـــزلها في سرب من الأرض، وجعل عندها ما يصلحها وجعل يكتم ذلك من أصحابه، فولدت إبراهـــيم فيه وشب فكان ابن سنة كابن ثلاثين سنة، وكانت أمه كلما دخلت عليه وجدتـــه يمـــص أصابعه فقالت ذات يوم نظرت إليه فوجدته يمص من إصبع ماء ومن إصبع لبناً ومن إصبع عسلاً ومن إصبع زبداً ومن إصبع سمناً.

لطيفة وقعت لشخص في الصغر نظير ما وقع للسيد إبراهيم: نقل الشيخ كمال الديـــن الدميري عن عبيد بن واقد الليثي البصري قال: كنت أريد الحج فوقفت على رجـــل بـــين يديه غلام أحسن الغلمان وأكثرهم حركة فقلت: من هذا؟ قال لي ابني وسأحدثك عنه، خرجت مرة حاجاً ومعي أم هذا الغلام وهي حامل به، فلما كنا في بعض المنازل ضربها الطلق فولدت هذا وماتت، وحضر الرحيل فأخذت الصبي فلففته في خرقة وجعلته في غار وبنيت عليه أحجاراً، وارتحلت وأنا أرى أنه يموت من ساعته، فقضيت الحج فلما نـــزلنا ذلك بادر بعض رفقتي إلى الغار فنقض الأحجار فإذا بالصبي

---

(١) رواه الطبري في تاريخه (١/١٤٢) فقال: عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ.

ملتقم إهامه فنظرنا فإذا اللبن يخرج منها، فاحتملته معي فهو هذا الذي ترى.

واختلف في إقامة إبراهيم في الغار وقيل: سنة، وقيل: خمسة عشر شهراً، وقيل: سبعة أشهر فلما شب إبراهيم في السرب، وتكلم قال لأمه من ربي؟ قالت: أنا، فقال: فمن ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبي؟ فقالت: النمرود، قال: فمن رب النمرود؟ قالت: اسكت فسكت، ثم رجعت إلى أبيه فقالت: المولود الذي يغير دين أهل الأرض هو ولدك وأخبرته بما قال، فأتاه أبوه فقال له إبراهيم: يا أبتاه من ربي؟ قال: أمك، قال: فمن رب أمي؟ قال: أنا، قال: فمن ربك؟ قال: النمرود، قال: فمن رب النمرود؟ فلطمه لطمةً وقال: اسكت فسكت.

وهذا هو الرشد الذي أشار إليه الله عز وجل بقوله: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾[الأنبياء: ٥١] أي: هديناه وأصلحناه من قبل موسى وعيسى وقيل: معنى قبل أي: من قبل بلوغه.

ولما كان في السرب لم ير شيئاً مما على الأرض من الحيوانات أو غيرها ولا السماء وما فيها من الشمس والقمر والنجوم فقال لأبويه:أخرجاني فأخرجاه آخر النهار حين غابت الشمس، فنظر إلى الإبل والبقر والغنم والخيل فسأل عن أسمائها فسماها له، قال هذا الجنس يقال له: غنم، وهذا يقال له: بقر، وهذا يقال له: إبل، فقال: ما لهذه لابد أن يكون لها من خالق إله خالق ورازق.

وقيل: إنه قال لأمه: هذه الخلائق هذا طويل وهذا قصير، وهذا قوي وهذا ضعيف، وهذا غني وهذا فقير، وهذا صحيح وهذا مريض، من صنع هذا كله؟ فقالت له: النمرود، قال لها: ومن خلق النمرود؟ فلطمته وقالت: اسكت.

ثم رق قلبها له وقالت: ألك حجة على أنه ليس برب؟ قال: نعم، قالت: وما هي؟ قال: له زيادة ونقصان، وتحريك وإسكان، وهل يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، ويستيقظ وينام؟ فقالت: نعم، قال: هذا صفات الأجسام المفتقرة إلى الشهوة والطعام، وعزل سلطنته قريب، ووراءه من الموت يوم عصيب، يا أمي من تؤلمه بقة وتقتله شرقة وتوجعه إبره وتجعله الحوادث عبرة، ويجوع ويظمأ، ويسمن ويضنأ، ويعمل فيه البرد والحر، وليس بيده نفع ولا ضر، لا يكون إلهاً كأنك بملكه قد تناهى، قالت: فمن إله السماوات والأرض، قال: الذي لا يغلب ولا يقهر، ولا ينام ولا يسهر، ولا عرض ولا جوهر، يعلم ما يسر من القول وما يجهر، خالق الليل الدامس، ومخرج الثمرة من اليابس، قالت له: فأين هذا الرب؟ قال: لا يوصف بأين ثم نظر وتفكر في خلق

السماوات والأرض، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وأسقاني ربي، مالي إله غيره، ثم نظر إلى السماء فإذا المشترى قد طلع، وقيل: الزهرة، وكانت الليلة في النصف الثاني من الشهر فرأى الكوكب قبل القمر فقال: هذا ربي فلما أفل أي: غاب قال: لا أحب الآفلين، ثم طلع القمر قال هذا ربي كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[الأنعام: ٧٧] ثم طلعت الشمس فلما رآها قال هذا ربي كما قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٨، ٧٩].

قال القاضي عياض: استدلال إبراهيم بالكواكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمسة عشر شهراً واسم أبيه تارح، ولقبه آزر كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾[الأنعام: ٧٤] ومعناه الشيخ الكبير، وقيل: معناه قبيح الفعل، وقيل: سمي آزر لشدة كفره، وقيل: آزر اسم لصنم الذي كان يعبده فلقب به لملازمته لعبادته، وقيل: أطلق عليه بحذف مضاف أي: لأبيه عابد آزر، وكان نجاراً يصنع الأصنام، فلما بلغ إبراهيم من العمر سبع سنين كان أبوه يعطيه الأصنام ليبيعها، فيذهب بها إبراهيم فينادي عليها من يشتري شيئاً يضره ولا ينفعه فلا يشتري أحداً منه شيئاً، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى آزر فيضرب رأسها فيه ويقل: اشربي ثلاث مرات استهزاء منه بها وبقومه وما هم عليه من الضلال والجهالة، حتى فشى أمره بين الناس فاستهزأ به قومه وأهل بلدته.

وقال بعضهم: كان آزر ينحت الأصنام لفرط حبه لها فإذا كثرت عليه يبيعها وكان يعطيها لأولاده ويبيعوها، وكان يعطي إبراهيم الصنم ليبيعه فيربط إبراهيم في رقبته حبلاً ويبله في الماء ويسحبه على التراب ويرميه تحت أرجل الكلاب، ويلطخها بالعذرة ويقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه فقال له: أبوه ويحك لم لا يشترون منك؟ فقال: سوق آلهتكم كاسد، فقال له أبوه: فامدحه حتى يشترون منك لنأكل من ثمنه الخبز قال إبراهيم: كيف أمدحه إن قلت: سميع كذبت وإن قلت: بصير كذبت ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾[مريم: ٤٢]، قال آزر: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[مريم: ٤٦] قال: نعم، قال آزر: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي: حينا من الدهر حتى لا يجر عليك مني ما لا تريد فقال

إبراهيم: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾[مريم: ٤٧] معناه إنك مني سالم لا أوذيك لو آذيتني سألت الله تعالى ألا يعاقبك بأذيتي، وإنما قال ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ لأنه أعاب الصنم عنده بثلاثة أشياء قال: لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عبده فلا تصلح له الربوبية، إنما الربونية لرب يأتي إليه في ليلة ظلماء فيقضي حاجته، ويراه في ظلمة الليل ويسمع قوله ويعلم، ثم قال: وأما ما طلبت من الهجر بقولك اهجرني فقد هجرتك ولن تراني قط عندك، هذا فراق ليس بعده تلاق، ووداع ليس بعده اجتماع.

وقيل: إن إبراهيم أقام عند أبيه سبع عشرة سنة كاشف قومه وقال لهم: ﴿مَا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء: ٥٢] يعني ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[الأنبياء: ٥٣] يعني إننا نقتدي في عبادتها بأباءنا ونقلدهم قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[الأنبياء: ٥٤].

ثم اظهر دينه -صلوات الله عليه وسلامه- قال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٥، ٧٦، ٧٧] فقالوا: من تعبد أنت يا إبراهيم؟ قال: رب العالمين، فقالوا: يعني النمرود قال لا ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

فلما ظهر أمره للناس حتى بلغ النمرود الجبار دعاه: يا إبراهيم إلهك الذي بعثك وتدعوا الناس إلى عبادته وتذكر من قدرته، وتعظمها له على غيره صفة لنا فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، قال النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ قال له إبراهيم: كيف تحي وتميت؟ قال: أخذ رجلين قد استوجبا القتل في حكمي فأقتل أحدهما فأكون قد أمته ثم أعفو عن الآخر فأكون قد أحييته فقال له إبراهيم عند ذلك إلزاماً على وجه يعجز الإتيان بنظيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ فبهت عند ذلك النمرود ولم يرد جواباً ولزمته الحجة كما قال تعالى ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨].

ثم إن إبراهيم أراد أن يري قومه ضعف الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، وعجزها إلزاماً للحجة، فجعل ينظر وقتاً يخل فيه مكان الأصنام إلى أن حضرهم عيد، فإنهم كان لهم في كل سنة عيد يخرجون إليه يجتمعون فيه، وكانوا إذا رجعوا من

عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان العيد قال آزر لإبراهيم: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج إبراهيم معهم، فلما كان في أثناء الطريق ألقى إبراهيم نفسه إلى الأرض، وقال إني سقيم أي: ضعيف اشتكي برجلي، فتوهموا صدقه وهو صريع على الأرض، فلما مضوا نادى واحداً منهم في آخرهم ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[الأنبياء: ٥٧] فسمعه ذلك ثم رجع إبراهيم من الطريق إلى بيوت الأصنام والآلهة، فرآهم في مكان عظيم، واختلف في عدد تلك الأصنام فقيل: كانت اثنين أو ثلاثة وسبعين صنماً وقيل: كانت ثلاثمائة وستين صنماً، وكان بعض هذه الأصنام بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من نحاس وبعضها من حديد وبعضها من حجارة، وكان فيهم صنم عظيم من الذهب على رأسه تاج مرصع بالجوهر وعيناه ياقوتتان، والأصنام عن يمينه وشماله نصفان، فأصنام الفضة أقرب إليه من الحديد، والحديد أقرب إليه من الحجارة، وهم قد وضعوا بين يدي الأصنام طعاماً وقالوا إذا رجعنا وقد باركت الآلهة في طعامنا أكلنا، وهذه كانت عادتهم وكانت الشياطين تأكله فيزداد القوم بذلك طغياناً ويقولون: ربنا أكل طعامنا، وقيل: أنفا منا، فلما نظر إبراهيم إليهم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء: ﴿ألا تأكلون﴾ [الصافات: ٩١]، فلما لم يجيبوه قال لهم ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾[الصافات: ٩٢، ٩٣] أراد باليمين القسم التي كان أقسم بها في قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ أي: مال عليهم ضرباً لأجل اليمين التي أقسم بها، وجعل يكسرهن بفأس في يده حتى لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس في عنقه، ثم خرج كما قاله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[الأنبياء: ٥٨] ضمير إليه راجع إلى كبيرهم، إلا الصنم الكبير فإنه تركه لعلهم يرجعون إليه فيظنون أنه فعل ذلك، وقيل: ضمير إليه راجع إلى إبراهيم أي: كسرهم السيد إبراهيم لعلهم يرجعون إليه أي: إلى دينه، فلما جاء القوم من عيدهم جاءوا إلى بيت آلهتهم فرأوها على تلك الحالة قالوا: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[الأنبياء: ٥٩، ٦٠] وهو الذي صنع هذا، فبلغ النمرود ذلك وأشراف قومه ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]عليه أنه هو فعل ذلك وكرهوا أن يأخذوه بغير ذنبه.

وقيل: معناه لعلهم يشهدون ما صنع به ونعاقبه، فلما أحضروه قالوا: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ

فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[الأنبياء: ٦٢، ٦٣] فإنه غضب من أن تعبدوا معه هذه الأصنام الصغار، وهو أكبر منها فكسرهم **﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾**[الأنبياء: ٦٣].

قال النبي ﷺ **«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات في قوله إنه سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم، وقوله: عن سارة زوجته هي أختي»**(١).

قال العلماء: ما قاله السيد إبراهيم في هذه الثلاث يشبه الكذب وليس كذباً في الحقيقة، لما قدمنا من أن الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر عمداً وسهواً قبل النبوة وبعدها، وقوله صدق عند البحث عنه والتفتيش، وإطلاق الكذب باعتبار فهم السامعين لا باعتبار الحقيقة، أما قوله: إني سقيم فمعناه أنه ساقم، لأن الإنسان عرضة للأسقام وسقيم لما قدر على من الموت، أو كانت تأخذه الحمى في ذلك الوقت، أو سقيم القلب أي: مغتم بسبب ضلالتهم، وأما قوله: بل فعله كبيرهم فمعناه أنه سبب في الفعل لا أنه فعل حقيقة فالإسناد إليه باعتبار السببية، أو الإسناد إلى الكبير مشروط بقوله: **﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾** أو الوقف عند قوله: **﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾** أي: فعله فاعله وكبيرهم هذا ابتداء كلام، وأما قوله في حق زوجته سارة هي أختي فمعناه: أنها أخته في الإسلام.

قال ابن العماد: ويجوز أن يكون الله أذن له لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن يوسف عليه السلام حين أمر منادياً فقال لإخوته: أيتها العير إنكم لسارقون، على أن العلماء اجمعوا على أن الكذب جائز وواجب في صور عند الحاجة كما سنذكر ذلك في باب علامات المنافق.

فلما قال لهم إبراهيم ذلك، **﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[الأنبياء: ٦٤] اختلفوا في معنى هذه الآية فقيل: معناها إنكم الظالمون لهذا الرجل في سؤالكم إياه وهذه ألهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرة فأسالوهم، وقيل: معناها إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم الأوثان الصغار مع هذا الكبير، **﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾**[الأنبياء: ٦٥] متحيرين مكسورين منكوسين وعلموا إنها لا تنطق ولا تبطش فقالوا: **﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾**[الأنبياء: ٦٥] فلما اتجهت له الحجة

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٢٢٥، رقم ٣١٧٩)، ومسلم في صحيحه (٤/١٨٤٠، رقم ٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عليهم فقال لهم إبراهيم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ٦٦، ٦٧] فلما ألزمهم الحجة وعجزوا عن الجواب قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ وسنذكر تحريقه بالنار في الكلام على السواك إن شاء الله تعالى.

فائدة: أفاد ابن الملقن أن إبراهيم كان يتكلم أولاً بلغة السريانية فبلغه يوماً أن النمرود يريد قتله، فهرب منه فأرسل رسله في طلبه فقالوا: لا نعرفه، فقال: إذا رأيتم فتى يتكلم بالسريانية فردوه، وكان هناك نهر فعبر إبراهيم النهر فأدركه رسل النمرود، واستنطقوه فحول الله لسانه عبرانياً وهو لا يعرف فكلمهم باللغة العبرانية، وكان ذلك التحويل حين عبر النهر فسميت تلك اللغة بذلك.

فائدة أخرى: إبراهيم -صلوات الله والسلام عليه- من أولي العزم من الرسل الذين أشار الله لهم بقوله العزيز: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥] واختلف في عددهم على أقوال أصحها: أنهم خمسة قاله شيخنا الجلال السيوطي في الإتقان: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وقد نظمتهم في بيت فقلت:

أولي العزم إبراهيم موسى محمد وعيسى ونوح ذا الصواب المحمود

وسموا بأولي العزم لثباتهم وصبرهم على الشدائد أكثر من غيرهم.

قال العلماء: أفضل الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ بعد اتفاقهم على أن نبينا أفضل المخلوقات فقيل: آدم، وقيل: نوح، وقيل: إبراهيم، وقيل: موسى، وقيل: عيسى.

لكن قال شيخنا العلامة الشيخ جلال الدين السيوطي في شرح نظمه لجمع الجوامع أفضل الخلق بعده ﷺ إبراهيم الخليل نقل بعضهم الإجماع على ذلك، وبعد الخليل موسى وعيسى و لم أقف على نقل أيهم أفضل، والذي يقدح تفضيل موسى، ثم عيسى ثم نوح وهؤلاء مع النبي ﷺ أولوا العزم المذكورون في سورة الأحقاف أي: أصحاب الجد والاجتهاد ثم بعدهم سائر الرسل فهم أفضل من الأنبياء.

وذكر الشيخ عز الدين بن جماعة أن ابن عبد السلام في كتابة شجرة المعارف فيما نقله عنه البرهان الفزاري أن المرسلين أفضل من النبيين، ثم الأنبياء فهم أفضل من الملائكة عند الجمهور.

وذهب المعتزلة وبعض أصحابنا كالقاضي والأستاذ أبي إسحاق وأبي عبد الله الحكم والإمام في المعالم وليس المراد فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو عليه.

وقال السبكي: لو أقام الإنسان عمره لم يخطر بباله مسألة المتفضل بين الملائكة والأنبياء لم يسأله الله عن ذلك، وسنذكر الأدلة من الطرفين في محله أن شاء الله تعالى.

وقد قدمنا أن إبراهيم عليه السلام عاش مائة سنة على خلاف في ذلك.

فائدة أخرى: أفاد البغوي في تفسير قوله تعالى ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ**...﴾[آل عمران: ٦٥] الآية، أنه كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألف سنة صلى الله عليهم وسلم.

ويشكل على اتفاق العلماء على أن نبينا محمد ﷺ أفضل المخلوقات ما ورد في الصحيح: أن رجلاً قال للنبي ﷺ يا خير البرية فقال النبي ﷺ: «**ذاك إبراهيم** عليه السلام»[1].

فإن هذا الحديث يدل على أن نبينا إبراهيم أفضل من نبينا ومن سائر الأنبياء.

وأجاب النووي عنه بوجهين الأول: أنه قال تواضعاً وأدباً، الثاني: أنه قال ذلك قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فلما علم أخبر به.

خاتمة: لما أراد الله تعالى قبض روح إبراهيم أرسل إليه ملك الموت في صورة رجل هرم، وكان إبراهيم لا يأكل إلا مع الضيف، فبينما هو جالس يأكل مع الضيف، فإذا هو بشيخ يمشي في الخلوة فبعث إليه حماراً فركبه حتى وصل، فأجلسه على الطعام وقال له: كل، والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، فجعل الشيخ يريد يأخذ اللقمة حتى يجعلها في فيه فيدخلها في عينه ومرة في أذنه ثم يدخلها، وكان إبراهيم سأل أن لا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت فقال إبراهيم حين رأى حاله: ما بالك يا شيخ تصنع هكذا؟ قال الشيخ: من الكبر، فقال له: إبراهيم ابن كم أنت؟ فأخبره،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٢١٨، رقم ٤٦٧٢)، والترمذي في سننه (٥/٤٤٦، رقم ٣٣٥٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى (٦/٥٢٠، رقم ١١٦٩٢)، وأحمد في مسنده (٣/١٨٤، رقم ١٢٩٣٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/٣١٥)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢/١٠٠، رقم ١٣٨٢)، والخلال في السنة (١/١٩٢، رقم ٢٠٧).

قال الخلال عقب هذا الحديث: قد روي غير هذا أنه قال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض» وقال الله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] وذهب فيه إلى أن النبي ﷺ إنما أراد التواضع به.

قلت: ومراد الخلال أن يشير بذكر الآية أنه إذا كانت الأمة خير أمة أخرجت فنبي الأمة خير الأمم التي خلقها الله.

فوجد إبراهيم عمر الشيخ قد يزيد على عمره بسنتين فقال: يا بني إنما بيني وبينك سنتان فإذا بلغت عمرك صرت مثلك، فحينئذ قال إبراهيم: اللهم اقبضني إليك قبل ذلك فقام الشيخ فقبض روحه قدسها الله تعالى في الحال.

***

المجلس السادس عشر

في الكلام على حديث «بني الإسلام على خمس»
وذكر بعض ترجمة عبد الله بن عمر وذكر فوائد ولطائف

وأفتتح هذا المجلس بخطبة مناسبة: الحمد لله الذي رفع قدر من أقر بالشهادتين، ونصب الدليل على وجود ذاته، وخفض قدر من لم يجزم بوحدانيته، ولم يعترف بقدم صفاته، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي ﷺ، الذي جاء بالدين، وجاءه الفتح المبين، وكسر جيش الكافرين وأسكن الرعب في قلوب المارقين، ببركاته وعلى آله وصحبه وزوجاته وذريته صلاة وسلاماً دائمين.

باب دُعَاؤُكُمْ إِيمَانُكُمْ

قَالَ البُخَارِي: .

حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، قَالَ أَخْبَرَنَا حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ خَالِدٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**».

قوله «**حدثنا عبيد موسى قال: أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان**[1] **عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر**» هذا الإمام الصالح عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي المكي، زاهد الصحابة وعالمهم، أسلم بمكة قديماً مع أبيه وهو صغير، وهاجر معه، ذكره البخاري في الهجرة.

قال ابن الملقن: ولا يصح قول من قال: إنه أسلم قبل أبيه وهاجر واستصغر في غزوة أحد فلم يحضرها، وحضر الخندق وما بعدها من الغزوات.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١١٧) قوله: «حنظلة بن أبي سفيان» هو قرشي مكي من ذرية صفوان بن أمية الجمحي.

وعكرمة بن خالد هو: ابن سعيد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، وهو ثقة متفق عليه، وفي طبقته عكرمة بن خالد بن سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومي، وهو ضعيف، ولم يخرج له البخاري، نبهت عليه لشدة التباسه، ويفترقان بشيوخهما، ولم يرو الضعيف عن ابن عمر.

زاد مسلم في روايته عن حنظلة قال: سمعت عكرمة بن خالد يحدث طاوساً أن رجلاً قال لعبد الله بن عمر: ألا تغزو؟ فقال: إني سمعت.. فذكر الحديث.

ومن فضائله: أنه أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية، من العبادلة الأربعة، وهو أكثر الصحابة رواية بعد أبي هريرة، وهو أحد الساردين للصوم فإنه كان في الصحابة جماعة يسردون الصوم أي: يصومون الدهر عبد الله بن عمرو والده عمر بن الخطاب وعائشة وأبو طلحة وحمزة.

ومن فضائله: أنه كان لا ينام إلا قليلاً وروي عنه أنه قال: رأيت في المنام كان ملكين أخذاني وذهبا بي إلى النار، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، فلقينا ملك آخر فقال لي: لم ترع، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**»[1]، وكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً.

ومن فضائله: أنه كان إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه لربه، وكان أرقاءه قد عرفوا ذلك منه فربما شمر أحدهم ولزم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه، فيقول أصحابه: والله ما بهم إلا أن يخدعوك، فيقول: من خدعنا بالله انخدعنا.

وكان له عبد يقال له: نافع قال ابن الملقن: أعطى فيه عشرة آلاف دينار فامتنع من بيعه فقيل له: لم تمتنع أتنتظر أكثر من ذلك فقال: بل ما هو خير من ذلك هو حر لوجه الله.

وقيل: إن إعتاقه لنافع كان وهو واقف يصلي، فقد ذكر ابن الجوزي: أن عبد الله بن عمر كان قائماً يصلي ومولاه نافع قام ناحية فأشار ابن عمر إلى مولاه نافع بيده وهو في الصلاة، فلم يفهم نافع إشارته، فلما سلم من صلاته قال له نافع: يا مولاي رأيتك تشير إلي في صلاتك و لم أفهم إشارتك قال: إني قرأت ﴿**لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفقُوا ممَّا تُحبُّونَ**﴾[آل عمران: ٩٢] و لم يكن في هذه الساعة شيء أحب إليَّ منك فأشرت إليك أنت حر لوجه الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٨/١، رقم ١١٠٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت على عهد النبي ﷺ كأن بيدي قطعة إستبرق، فكأني لا أريد مكاناً من الجنة إلا طارت إليه، ورأيت كأن اثنين أتياني أرادا أن يذهبا بي إلى النار، فتلقاهما ملك فقال: لم ترع خليا عنه، فقصت حفصة على النبي ﷺ إحدى رؤياي... فذكره.

وأخرجه أيضاً: ابن حبان في صحيحه (٥٤٧/١٥، رقم ٧٠٧٠)، وإسحاق بن راهوية (١٩١/١، رقم ٧)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١٤٧/٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٠١/٢، رقم ٤٤١٧).

وأما زهده وكرمه وكثرة صدقاته فقد شاع ذلك عنه وذاع، فإن الله قد فتح عليه بالمال الكثير.

وروي عن ميمون بن مهران قال: أتت ابن عمر اثنان وعشرين ألف دينار في مجلس، فلم يقم حتى فرقها، وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً.

وما مات حتى أعتق ألف إنسان أو يزيدون على ذلك، وكان لا يأكل طعاماً إلا على خوانه.

وكان يحيي الليل ثم يقول: أسحرنا فيقال: لا فيعاود الصلاة ثم يقول: أسحرنا فيقال: نعم فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يصبح.

وكان إذا سبح قال: اللهم اجعلني من أعظم عبادك نصيباً في كل خير تقسمه الغداة، ونور تهدي به، ورحمة تنشرها، ورزق تبسطه، وضر تكشفه، وبلاء ترفعه، وفتنة تصرفها.

وشرب ﷺ يوماً ماء مبرداً فبكى فقيل له: ما يبكيك قال: ذكرت آية في كتاب الله وهي ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[سبأ: ٥٤] فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئاً شهوتهم الماء البارد.

وقال جابر ﷺ: ما أدركت أحداً إلا مالت به الدنيا ومال بها إلا عبد الله بن عمر.

وفضائله في المتابعة للآثار وإعراضه للدنيا ومقاصده واحتياطه في الفتوى وعلمه بالمناسك غزيرة، ومناقبه لا تحصى شهد له الشارع بالصلاح، وعاش بعد ذلك بزيادة على ستين سنة يترقى في الخيرات.

ومن فضائله: ما رواه ابن سبع السبتي في شفاء الصدر عنه ﷺ: أنه خرج في بعض أسفاره فبينما هو يسير إذ بقوم وقوف فقال: مال هؤلاء قالوا: أسد على الطريق قد أخافهم فنزل عن دآبته ثم مشى إليه حتى أخذ بإذنه ونحاه عن الطريق حتى جاءت القافلة، وقال: إني استحي من ربي ﷻ أن يرى من قلبي أني أخاف غيره قال: ما كذب عليك رسول الله ﷺ إنما سلطت على ابن آدم من مخافته غير الله، ولو أن ابن آدم لم يخف إلا الله لم تسلط عليه ولو أنه لم يرى إلا الله لما وكله إلى غيره نقله الدميري في الأسد.

ووقع له مرة واقعة لطيفة قال نافع: خرجت مع ابن عمر رضي الله عنهما إلى بعض نواحي المدينة المشرفة ومعه أصحابه، فنزلنا بواد فوضعوا سفرة لهم يأكلون

طعاماً إذ مر عليهم قطيع غنم يتبعهم عبد أسود صغير السن فقال له: عبد الله بن عمر هلم للعيش فأصب معنا، قال: يا سيدي أنا صائم، فتعجب منه وقال له: في مثل هذا اليوم في هذا الحر العظيم خلف هذا الغنم في هذه الأودية والشعاب؟ قال: نعم يا سيدي اغتنم الأيام الفانية لأيام الباقية، فتعجب عبد الله من كلام هذا العبد وحسن نيته وأدبه فقال له: يا أسود بعنا من غنمك شاة نذبحها ونطعمك من لحمها ونعطيك ثمنها فقال: يا سيدي الغنم ليست لي وإنما هي لسيدي فقال ابن عمر: إذا سألك سيدك عنها فقل له: أكلها الذئب فقال: العبد إذا قلت له أكلها الذئب فأين الله، فبكى ابن عمر وجعفر يقول: قال الراعي فأين الله يعني إذا كذبت على مخلوق فكيف بي إذا كذبت على الخالق، عرضت على الخالق فلما دخل ابن عمر المدينة سأل عنه فاشتراه وأعتقه.

ومن فضائله: نقل عن نافع أن ابن عمر كان مريضاً فاشتهى سمكه فالتمست له المدينة فلم توجد حتى وجدت بعد كذا وكذا فاشتريت بدرهم ونصف وشويت وحملت له على رغيف، فقام سائل على الباب فقال للغلام: لفها برغيفها وادفعها إليه فقال له الغلام: أصلحك الله اشتهيتها منذ كذا فلم نجدها وجدناها واشتريناها بدرهم ونصف، أمرت بدفعها نحن نعطيه ثمنها فقال: لفها وادفعها إليه فقال: الغلام للسائل بعد أن دفعها إليه هل لك أن تأخذ درهماً وتضع هذه السمكة، فأخذ منه درهماً وردها فعاد الغلام إلى عبد الله وقال له: دفعت درهماً وأخذتها منه ثم وضعها بين يديه وقال: إني دفعتها إليه فرأيته محتاجاً إلى ثمنها فاشتريتها منه بدرهم ورأيته أشتد سروراً بالدرهم منه بالسمكة فقال: فادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيما أمرىء اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر الله له**» [1].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٥ /١٢٦، ترجمة ١٢٨٩ عمرو بن خالد أبو خالد الكوفي) وقال: عن وكيع قال: كان عمرو بن خالد في جوارنا يضع الحديث، فلما فطن به تحول إلى واسط.

وعن يحيى قال: عمرو بن خالد كوفي كذاب غير ثقة ولا مأمون حدث عنه أبو حفص الأبار وغيره، يروي عن زيد بن علي عن آبائه وقال في موضع آخر: عمرو بن خالد الواسطي ليس بثقة.

وروي عن يحيى بن معين قال: عمرو بن خالد الذي يروي عنه أبو حفص الأبار شيخ كوفي كذاب يروي عن زيد بن علي عن آبائه عن علي ﷺ.

وروي عن أحمد بن حنبل قال: عمرو بن خالد الواسطي كذاب، سمعت بن حماد يقول: عمرو =

روى لعبد الله بن عمر من الأحاديث ألفاً حديث وستمائة حديث وثلاثون حديثاً، اتفق البخاري ومسلم منها على مائه وسبعين، وانفرد البخاري بأحد وثمانين، ومسلم بإحدى وثلاثين.

مات ﷺ بفخ قرب مكة يسمى واد الزاهر سنة ثلاث وقيل: أربع وسبعين بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر عن أربع وثمانين سنة وقيل: وثمانين سنة.

فائدة: مذهب البخاري أن أصح الأسانيد ما رواه مالك عن نافع عن ابن عمر وهذه المسألة وقع فيها خلاف في علوم الحديث فقيل: أصح الأسانيد ما رواه الزهري عن سالم عن أبيه وقيل: أصحها ما رواه ابن سيرين عن عبيدة عن علي وقيل: أصحها ما رواه الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه علي وقيل: أصحها كما قاله إمام الصنعة الحافظ البخاري: ما رواه مالك عن نافع عن ابن عمر.

فعلى هذا إذا زيد في الإسناد راو بعد مالك، فأصح الأسانيد ما رواه الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر، ولاجتماع الأئمة الثلاثة في هذا الإسناد يسمى سلسلة الذهب.

لكن المعتمد المختار كما قاله النووي: أنه لا يحكم في إسناد أنه أصح الأسانيد مطلقاً، وفي هذا الإسناد الذي ساقه البخاري أعني قوله: حدثنا عبيد الله بن موسى قال أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر من الطريف أن رواته مكيون قرشيون، إلا عبيد الله فإنه كوفي.

«قال رسول الله ﷺ بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وأقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»

قال النووي: أدخل البخاري هذا الحديث في هذا الباب لينبئ أن الإسلام يطلق على الأفعال وأن الإسلام والإيمان قد يكونان بمعنى واحد، فقوله: «**بني الإسلام على**

= بن خالد كوفي روى عنه إسرائيل منكر الحديث، وقال النسائي: عمرو بن خالد يروي عن حبيب بن أبي، روى عنه الحسن بن ذكوان كوفي ليس بثقة.

ثم أخرج الحديث من طريقه، وترجم له أيضاً ابن حبان في المجروحين (٧٦/٢، ترجمة ٦٢٤) وقال: كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات، حتى يسبق إلى القلب أنه كان المتعمد لها من غير أن يدلس، كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأورد له هذا الحديث.

وانظر ترجمته أيضاً وأقوال العلماء فيه في: الميزان للذهبي (٣١١/٥، ترجمة ٦٣٦٥).

خمس» بدون دعائم أو قواعد أو خصال[١].

وفي صحيح مسلم «**بني الإسلام على خمسة**»[٢] مقدرة بخمسة أشياء، أو أركان، أو أصول، وها هنا دقيقة جليلة نحوية وهي: أن أسماء العدد إنما يكون تذكيرها بالتاء، وتأنيثها بسقوط التاء، إذا كان المميز مذكوراً أما لو لم يكن مذكوراً فيجوز فيها الأمران صرح به النحاة.

قال الكرماني: فإن قيل: الإسلام هو الإتيان بالشهادتين فقط، ولهذا حكم بإسلام من تلفظ بها، فلما ذكر الأخوات أعني أقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان معهما؟

فالجواب: أنه ذكر الأخوات معهما تعظيماً لأخواتها، قال النووي: حكم الإسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين وإنما أضيف الصلاة ونحوها لكونها إظهار شعائر الإسلام تعظيمها، وقيامه بها ينم عن استسلامه، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله.

فإن قيل: الإسلام هو هذه الأمور الخمسة والمبني لابد أن يكون غير المبني عليه، وإلا يلزم عليه بناء الشيء على نفسه.

فالجواب: أن الإسلام عبارة عن المجموع والمجموع غير كل واحد من أركانه وأحسن من هذا الجواب ما أجاب به الشمني في حواشي مغني اللبيب: ولا يرد معه السؤال أصلاً وهو أن يقال: إن على هنا بمعنى من أي: بني الإسلام من خمس، وبه

---

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (١/١١٧) قوله: «على خمس» أي: دعائم. وصرح به عبد الرزاق في روايته، وفي رواية لمسلم «على خمسة» أي: أركان.

فإن قيل: الأربعة المذكورة مبنية على الشهادة، إذ لا يصح شيء منها إلا بعد وجودها، فكيف يضم مبني إلى مبنى عليه في مسمى واحد؟

أجيب: بجواز ابتناء أمر على أمر ينبني على الأمرين أمر آخر.

فإن قيل: المبني لا بد أن يكون غير المبني عليه.

أجيب: بأن المجموع غير من حيث الانفراد، عين من حيث الجمع، ومثاله البيت من الشعر يجعل على خمسة أعمدة أحدها أوسط والبقية أركان، فما دام الأوسط قائما فمسمي البيت موجود، ولو سقط مهما سقط من الأركان، فإذا سقط الأوسط سقط مسمى البيت، فالبيت بالنظر إلى مجموعه شيء واحد، وبالنظر إلى أفراده أشياء، وأيضاً فبالنظر إلى أسه وأركانه، والأس أصل، والأركان تبع وتكملة.

(٢) انظر الحديث عند مسلم بهذا اللفظ في صحيحه (١/٤٥، رقم ١٦) من حديث عبد الله بن عمر أيضاً.

يندفع ما أورد على أمثاله.

فإن قيل: الأربعة الأخيرة مبنية على الشهادتين، لا يصح شيء منها إلا بعد الشهادة فالأربعة مبنية والشهادة مبنى عليها فلا يجوز إدخالها في سلك واحد.

فالجواب: أنه لا محذور في أن يبنى أمر على أمر ثم الأمران يكون مبنياً عليهما شيء آخر.

قال قيل: مفهوم هذا الحديث يقتضي إن لم يباشر الإسلام لا يصح منه، فيشكل عليه الصور التي يصح فيها إسلام الصبي بطريق التتبع و لم يباشر الإسلام بنفسه.

فالجواب: أن عموم هذا الحديث مخصوص بمنطوق قوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم**﴾[الطور: ٢١] ويكون في الحديث دليل على تخصيص عموم مفهوم السنة بخصوص منطوق القرآن.

فإن قيل: لأي شيء لم يذكر الجهاد معها.

فالجواب عنه: بأنه فرض كفاية ولا يعين إلا في بعض الصور.

فإن قيل: ظاهر الحديث يقتضي أن من ترك شيئاً من الأربعة الأخيرة لا يكون مسلماً.

فالجواب: أن الإجماع صرف الحديث عن ظاهره فإن الإجماع قائم على أن الإنسان يدخل في الإسلام بالشهادتين، وإنما ذكر الباقي معها تعظيماً للشأن كما تقدم، فلا يخرج عن الإسلام بترك واحد منها.

قال البرماوي وغيره: أجمعوا على أنه لا يكفر بترك الصوم والصلاة، وأما قول أحمد بن حنبل بكفر تارك الصلاة فدليل آخر نحو «**من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر**» وسنذكر الجواب عنه في محله.

وقوله «**شهادة أن لا إله إلا الله**» وما عطف عليه مجرور بأنه بدل من خمس، بدل الكل من الكل، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: في أحدها شهادة أن لا إله إلا الله، أو على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره: منها شهادة أن لا إله إلا الله.

و«**أن**» في «**أن لا إله إلا الله**» مخففة من الثقيلة ولهذا عطف عليه «**أن محمد رسول الله**».

والمراد بإقام الصلاة: المداومة أو مطلق الإتيان بها، والمراد بإيتاء الزكاة: إخراج جزء من المال على وجه مخصوص، وتسمى هذه الخمسة أركان الإسلام ودعائمه.

قال العلماء: شبه ﷺ الإسلام بشيء له دعائم فذكر المشبه وأسند إليه ما هو

خاص بالمشبه به، وهو البناء ويسمى ذلك استعارة بالكناية.

ووجه انحصار الإسلام في الخمسة المذكورة: أن العبادة إما قولية وهي الشهادتين، وغير قولية، وغير القولية إما روحي وهو الصوم، وإما فعلي وهو الصلاة، وإما مالي وهو الزكاة أو مركب منهما، وهو الحج.

وقدم ﷺ الشهادتين على باقي الأركان لأنهما الأصل لبقية الأركان، لتوقف كل من الصلاة والزكاة وغيرهما عليهما، فقطب الأركان ومدارها على الشهادة فهما مكفرات للذنوب، وشفاء للقلوب من الأمراض والعيوب[1].

لطيفة: مرض الشبلي فأرسل له الخليفة طبيباً نصرانياً وأوصاه به فعالجه فازداد مرضه، فتحير النصراني وقال للشبلي: يا شيخ المسلمين لو علمت أن شفاك في قطع عضو من أعضائي لفعلت فقال: شفائي في قطع زنارك فقطعه وأسلم، فوثب الشبلي كأن لم يكن به مرض، فلما سمع الخليفة قال: ظنت أني أرسلت الطبيب إلى المريض، وإنما أرسلت المريض إلى الطبيب.

لطيفة أخرى: قال الجنيد قدس الله روحه: خرجت يوماً من الأيام إلى الحج إلى بيت الله الحرام ووجهت الناقة إلى جهة الكعبة، فتحولت إلى طريق القسطنطينية فرددتها نحو الكعبة، فتحولت نحو المدينة المذكورة، فتركتها وقلت في نفسي: لله في هذا سر عظيم خفي، وقلت: إلهي وسيدي ومولاي ليس لي حيلة إن كنت تريد أن تذودني عن بيتك فالأمر إليك كله لك، وجعلت الناقة تسير سيراً سريعاً حتى دخلت

---

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (١/١١٨): وقع هنا تقديم الحج على الصوم، وعليه بنى البخاري ترتيبه، لكن وقع في مسلم من رواية سعد بن عبيدة عن ابن عمر بتقديم الصوم على الحج، قال: فقال رجل: والحج وصيام رمضان. فقال ابن عمر: لا، صيام رمضان والحج، هكذا سمعت من رسول الله ﷺ.

ففي هذا إشعار بأن رواية حنظلة التي في البخاري مروية بالمعنى، إما لأنه لم يسمع رد ابن عمر على الرجل لتعدد المجلس، أو حضر ذلك ثم نسيه، ويبعد ما جوزه بعضهم أن يكون ابن عمر سمعه من النبي ﷺ على الوجهين، ونسي أحدهما عند رده على الرجل، ووجه بعده أن تطرق النسيان إلى الراوي عن الصحابي أولى من تطرقه إلى الصحابي، كيف وفي رواية مسلم من طريق حنظلة بتقديم الصوم على الحج، ولأبي عوانة -من وجه آخر عن حنظلة- أنه جعل صوم رمضان قبل، فتنويعه دال على أنه روي بالمعنى.

ويؤيده ما وقع عند البخاري في التفسير بتقديم الصيام على الزكاة، أفيقال: إن الصحابي سمعه على ثلاثة أوجه؟ هذا مستبعد، والله أعلم.

البـــلد فـــرأيت أهلها في قيل وقال، فسئلت عن ذلك فقيل: إن ابنة الملك قد أصابها الجنون، وهم يطلبون لها طبيباً يداويها فقلت في نفسي وعزة ربي لهذا صرفت عن بيته في هذا العام فقلت: أنا أداويها فأدخلوني فنادت من داخل الباب: يا جنيد كم تجذبك الناقة إلينا وأنت تردها، فلما رأيتها فإذا هي من أجمل النساء، والفل في عنقها ورجليها فقالت: ما أحسنك من طبيب يا طبيب القلوب صف لي صفة ننجو بها من الكروب قال: فقلت لها: قولي: لا إله إلا الله محمد رسول الله فرق صوتها ذلك فسقط الفل من عنقها ورجليها فقال أبوها: ما أحسنك من طبيب فداوني بدوائك، فقلت له: قل كما قـــالت، فأسلم وأسلم معه خلق كثير، ثم أتت أمها وفرحت وأسلمت وأسلم كل من كان في البلد معهم، قال الجنيد: فحمدت الله على ذلك وعزمت على الخروج، فقالت الجارية: يا جنيد لا تعجل بالخروج فإني سألت الله أن يتوفاني وأنت حاضر حتى تصلي على وتحضر جنازتي، ثم تشهدت وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها، ولله در من قال:

يـــا مـــنقذ الجهالـــة من ظلماتها ... يـــا خـــير مـــن حطت النـــزال
مـــن ذاق حـــبك لم يزل متلهجاً ... أنـــت الإلـــه القـــادر الفعـــال
انشـــأتني وهديـــتني ورحمـــتني ... فاغفـــر فـــأنت المـــنعم المفضـــال
ومنـــنت مـــنك تفضلاً وتكرماً ... أنـــت الإلـــه ومـــا عـــداك محال

وروي أن الفـــرزدق الشاعر كان مقصراً في طاعة الله، فماتت زوجته فخرج في جنازتها وجهاء البصرة وفيهم الحسن، فلما دفنت قام الفرزدق على قبرها يقول:

إذا جـــاء يـــوم القيامـــة قـــائداً ... عـــنيفاً وســـواقاً ليسوق الفرزدق
أخـــاف وراء القبر إن لم تعاقبني ... أشـــد مـــن القـــبر التهاباً وأضيفا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى الـــنار مغـــلول القـــلادة أزرقا

فلما فرغ ونهض الناس لينصرفوا قال الفرزدق للحسن: يا أبا سعيد أما تسمع ما يقول الناس؟ قال: ما يقولون؟ قال يقولون: اجتمع بهذه الجنازة خير الناس وشر الناس يعـــنوك ويعنوني، فقال الحسن: ما أنا بخيرهم وما أنت بشرهم، ولكن ما أعددت لهذا اليـــوم فقال: شهادة إن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فبكى الحسن ثم التـــزمه وقال له الفرزدق: لقد كنت من أبغض الناس إلي، وإنك اليوم من أحب الناس إلي.

بشـــارة: ورد في الحديـــث «**إن العبد إذا قال لا إله إلا الله يصعد بها الملك إلى السماء فيتقبله في السماء ملك آخر فيقول: من أين؟ فيقول: وأنت إلى أين؟ فيقول**

أنا صاعد بشهادة فلان إلى الله تعالى فيقول الآخر: وأنا نازل إليه من عند الله ومعي براءة من النار»[١].

يقول الله تعالى: عبادي سارعوا إلى بابي أكتبكم من أحبابي، سارعوا إلى خدمتي أسبغ عليكم نعمتي، سارعوا إلى دعائي وسؤالي أغفر لكم ولا أبالي، سارعوا إلى الطاعة أغفر لكم في الحال والساعة، يا عبدي كل من قصد باب ملك وجد عليه بواباً ثم المرتب ثم الحاجب، ثم صاحب الستر قبل أن يصل إلى الملك، وأنا يا عبدي ليس على بابي بواب ولا دوني حجاب، متى أتيت بابي وقصدتني وصلت إلي ووجدتني، وإلى ذلك أشار من قال:

إذا ما الليل غلق كل باب ... وأسدلت الملوك لها ستورا
أتاك القاصدون بكل معنى ... أصابوا الباب مفتوحاً منيرا

من أركان الإسلام الصلاة، وهي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين، بل أفضل العبادات البدنية فرضها ونفلها، فلهذا ذكرها ﷺ بعد الشهادتين وقدمها على بقية الأركان، وإنما قلنا أفضل العبادات البدنية الصلاة احتراز عن شيئين، عن العبادات القلبية كالإيمان والمعرفة والتوكل ونحوها، فإنها أفضل من العبادات البدنية، وعن العبادات المالية فإن العلماء اختلفوا فيها في العبادات البدنية.

فذهب الفارقي إلى أن المالية كالزكاة أفضل من البدنية «الصلاة» لتعدي النفع بها، ونازعه في ذلك ابن عبد السلام، ورجح أن الصلاة أفضل من الزكاة قال: ويؤيده أن البيهقي نقل عن الشافعي أنه ﷺ قال: «**إن الصلاة أعظم من الزكاة**»[٢] والله أعلم.

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) هذا الخبر لم نقف عليه عند البيهقي، وربما رواه الشافعي في مذهبه القديم وأسنده، فإننا وجدنا أن الشافعي رحمه الله أتى به في الأم (١/٢٥٥) ولكن لم يشر إلى أنه حديث وذلك في: فصل الحكم في تارك الصلاة، أخبرنا الربيع قال: قال الشافعي رحمه الله تعالى: من ترك الصلاة المكتوبة ممن دخل في الإسلام قيل له: لم لا تصلي؟ فإن ذكر نسياناً قلنا: فصل إذا ذكرت وإن، ذكر مرضاً قلنا: فصل كيف أطقت قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً أومومئاً، فإن قال: أنا أطيق الصلاة وأحسنها، ولكن لا أصلي وإن كانت علي فرضاً، قيل له: الصلاة عليك شيء لا يعمله عنك غيرك، ولا تكون إلا بعملك، فإن صليت وإلا استتبناك فإن تبت وإلا قتلناك، «فإن الصلاة أعظم من الزكاة» والحجة فيها ما وصفت من أن أبا بكر ﷺ قال: «لو منعوني عقالاً مما أعطوا رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه لا تفرقوا بين ما جمع الله».

ولها فضائل كثيرة منها: أنها تنهى من داوم عليها عن الفحشاء والمنكر ويرزقة الله التوبة ببركتها قال الثعلبي في قوله تعالى ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾[العنكبوت: ٤٥].

قال أنس ﷺ: كان رجل يصلي الخمس مع النبي ﷺ، ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ارتكبه فأخبروا النبي ﷺ بذلك فقال: «**إن صلاته تنهاه يوماً**»، فلم يلبث أن تاب وحسنت توبته وحسن حاله فقال: «**ألم أقل لكم إن صلاته تنهاه**»[1].

واتفق من الوقائع كما حكاه النيسابوري: أن رجلاً رواد امرأة عن نفسها فأخبرت بذلك زوجها فقال: قولي له: صل خلف زوجي أربعين صباحاً حتى أطيعك، فقالت له: ففعل ثم دعته إلى نفسها فقال: إني تبت إلى الله تعالى فأخبرت زوجها فقال: صدق الله تعالى في قوله الحق ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾.

قال في روض الأفكار: واعلم أن مثل الصلاة مثل ملك اتخذ عرساً، واتخذ وليمة هيأ فيها ألوان الأطعمة والأشربة، لكل لون لذة، وفي كل لون منفعة، فكذلك الصلاة دعاهم الرب سبحانه وتعالى إليها وهيأ لهم فيها أفعالاً مختلفة تعبدهم بها، ليلذذهم بكل نوع من العبادة فالأفعال كالأطعمة، والأذكار كالأشربة.

قال العلامي في تفسيره: الصلاة عرس الموحدين، فإنه يجتمع فيها ألوان العبادة كما أن العرس يجتمع فيه ألوان الطعام، فإذا صلى العبد ركعتين يقول له الله تعالى: عبدي مع ضعفك أتيت بألوان العبادة قياماً وركوعاً وسجوداً وقراءةً وتهليلاً وتحميداً وتكبيراً وسلاماً، فأنا مع جلالي وعظمتي لا يجمل مني أن أمنعك جنة فيها ألوان النعيم، أوجبت لك الجنة بنعيمها كما عبدتني بأنواع العبادة، وأكرمك برؤيتي كما عرفتني بالوحدانية، فإني لطيف، أقبل عذرك وأقبل منك الخير برحمتي، فإني أجد من أعذبه من الكفار، وأنت لا تجد إلهاً غيري، يغفر سيئاتك ويكفر عنك الذنوب والأوزار، عبدي لك بكل ركعة قصر في الجنة، وبكل ركوع حوراء، وبكل سجود نظرة إلى وجهي الكريم، ولله در القائل:

إلا في الصلاة الفضل والخير جمع ... لأن بها الأبواب لله تخضع
ومن قام بالتكبير لاقته رحمة ... وكان كعبد مولاه يقرع
وأول شرع من شرائع ديننا ... وآخر ما يبقى إذا الدين يرفع

---

(١) لم نقف عليه.

نـــرفع دنيانـــا بـــتمزيق دينـــنا فـــلا ديـــناً يـــبقى ولا مـــا نرفع

أيها العبد العاصي كلما أمرتك النفس بالمعاصي والشهوات فاستعن عليها بالصلوات، فـــإن الصـــلاة تـــنهى عن الفحشاء والمنكر، من داوم عليها شرب من الحوض والكوثر، والصلاة تنهى عن المنكرات، الصلاة تكفر الخطيئات، الصلاة ترفع الدرجات، الصلاة تقضي الحاجات، الصلاة فيها القرب والمناجات.

الركن الثالث من أركان الإسلام: الزكاة وإنما ذكرها ﷺ بعد الصلاة لكونها قرينة الصـــلاة في كتاب الله ﷻ فإن الله تعالى لم يذكر الصلاة في القرآن إلا وقرنها بالزكاة غالـــباً قـــال الله تعـــالى ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾[المزمل: ٢٠] وقال تعالى ﴿**الَّذِيـــنَ إِن مَّكَّـــنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾[الحج: ٤١] إلى غير ذلك من الآيات.

وإنما قرنها بها لأن الصلاة حق الله تعالى والزكاة حق عباده، ومرجع جميع العبادات إليهما يحصل التعظيم لأمر الله والشفقة على خلقه، لأنها قنطرة الإسلام وكم ورد في فضائلها من آيات وأحاديث.

وكـــم ذكـــر العـــلماء لها فضائل وفوائد منها: أنها تطهر صاحبها من الذنوب والخطايا ويدل على ذلك القرآن العظيم قال تعالى ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُـــزَكِّيهِم بِهَـــا**﴾[الـــتوبة: ١٠٣]، والصدقة تشمل الزكاة والصدقة المستحبة، قال العلماء: الكافر يحرم دمه وماله بأخذ الجزية، ومن كرم الله تعالى أن المؤمن يحرم لحمه ودمه على النار في الآخرة إذا أخرج الزكاة بطيب نفس.

ومـــن فوائـــد الصدقة أيضاً: أنها تطهر المال قال ﷺ «**يا معشر التجار إن البيع يحضره اللغو والحلف فشوبوه بالصدقة**»(١).

ومـــن فوائدها أنها ترفع البلاء والأمراض قال ﷺ: «**الصدقة تسد سبعين باباً من الشر**»(٢).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤٧٧/٨، رقم ١٥٩٦٢)عن أبي وائل يحدث عن قيس بن أبي غرزة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نبيع في السوق ونحن نسمي السماسرة فقال... فذكره.
وأخرجه أيضاً: الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٥/١٨، رقم ٩٠٥).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٤/٤، رقم ٤٤٠٢) عن رافع بن خديج.
ورواه الديلمي في الفردوس (٤١٣/٢، رقم ٣٨٣٥).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٩/٣): رواه الطبراني في الكبير وفيه: حماد بن شعيب، =

وقال ﷺ: «**داووا مرضاكم بالصدقة**»[(١)].

= وهو ضعيف.

وحماد بن شعيب ترجم له ابن عدي في الكامل (٢/٢٤٢، ترجمة ٤١٩ حماد بن شعيب الحماني التميمي) قال أحمد بن سعد سألت يحيى بن معين عن حماد بن شعيب فقال: ليس بشيء ولا يكتب حديثه، وعن يحيى قال: حماد بن شعيب ليس بشيء، يقال له: أبو شعيب الحماني وهو كوفي، وفي موضع آخر قال: حماد بن شعيب ضعيف.

روي عن البخاري قال: حماد بن شعيب التميمي أبو شعيب الحماني كوفي عن أبي الزبير فيه نظر، وقال النسائي: حماد بن شعيب كوفي ضعيف.

ثم أخرج له ابن عدي هذا الحديث، وفي آخر ترجمته قال: ولحماد بن شعيب غير ما ذكرت من الحديث، وأحاديثه أكثرها مما لا يتابع عليه، وهو ممن يكتب حديثه مع ضعفه.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/١٢٨، رقم ١٠١٩٦)، وفي المعجم الأوسط (٢/٢٧٤، رقم ١٩٦٣) عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٦٤): رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه: موسى بن عمير الكوفي وهو متروك.

والحديث من طريقه عند الخطيب في تاريخ بغداد (٦/٣٣٣) وقال: تفرد بروايته موسى بن عمير، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/٢٣٧) وقال: غريب، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٤٠١، رقم ٦٩١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٣٨٢، رقم ٦٣٨٥) وقال عقبه: تفرد به موسى بن عمير، وإنما يعرف هذا المتن عن الحسن البصري عن النبي ﷺ مرسلاً.

ورواه ابن عدي في الكامل (٦/٣٤٠، ترجمة ١٨١٩ موسى بن عمير القرشي) وروى ابن عدي هذا الحديث مع حديثين آخرين وقال: وهذه الأحاديث الثلاثة عن الحكم بهذا الإسناد ولا أعلم يرويها عن الحكم غير موسى بن عمير، وهي بهذا الإسناد أحاديث غير محفوظة، وقال في آخر ترجمته: وموسى بن عمير هذا له غير ما ذكرت أحاديث وعامة ما يرويه مما لا يتابعه الثقات عليه.

وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٤٩٣، رقم ٨١٥) قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، تفرد به موسى بن عمير، قال يحيى: ليس بشيء، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه، قلت: وإنما روي هذا مرسلاً.

وكما رأينا أن البيهقي وابن الجوزي كلاهما قال: إن هذا الحديث يروى مرسلاً فوجدناه كما قالا عن الحسن رواه أبو داود في المراسيل (ص: ١٢٧، رقم ١٠٥).

والحديث يروى من طرق أخرى فأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٨٢، رقم ٣٥٥٦) عن ابن عمر.

ورواه أيضاً: البيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٨٢، رقم ٣٥٥٨) عن مطرف بن سمرة بن جندب عن أبيه مرفوعاً.

وقال ﷺ: «**من كسى مسلماً ثوباً لم يزل في ستر الله ما دام عليه منه خيط أو سلك**»[1] رواه الحاكم.

ولكونها قنطرة الإسلام شدد الله على المقصرين بقوله العزيز: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾[التوبة: ٣٤، ٣٥].

قال ابن عمر كل مال تؤدي زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً، وكل مال لا تؤدي زكاته فهو كنز، وإن لم يكن مدفوناً.

ومعنى قوله: ﴿**وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ لا يخرجون الزكاة عنها، قال العلماء الأعلام: على الإنسان ولا اثم عليه إذا كان معه مال كثير وأخرج عنه الزكاة الواجبة فيه فقد قال عبد بن الله بن عمر: ما أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً أعلم عدده وزكاته وأعمل بطاعة الله فيه.

وقال رسول الله ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[2] فالمال الصالح هو

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٧/٤، رقم ٧٤٢٢) عن حصين قال: كنت عند ابن عباس فجاء سائل فسأل فقال له ابن عباس: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: نعم، قال: وتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، وتصلي الخمس؟ قال: نعم، قال: وتصوم رمضان؟ قال: نعم، قال: أما أن لك علينا حقاً، يا غلام اكسه ثوباً فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول... فذكره.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١١٢، رقم ٢٩٩) عن موسى بن علي قال: سمعت أبي يقول: سمعت عمرو بن العاص قال: بعث إليَّ النبي ﷺ فأمرني أن آخذ علي ثيابي وسلاحي، ثم آتيه ففعلت، فأتيته وهو يتوضأ فصعد إلى البصر ثم طأطأ ثم قال: «يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله، وأرغب لك رغبة من المال صالحة» قلت: إني لم أسلم رغبة في المال إنما أسلمت رغبة في الإسلام فأكون مع رسول الله ﷺ فذكره رسول الله ﷺ.

وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده (١٩٧/٤، رقم ١٧٧٩٨)، وابن حبان في صحيحه (٦/٨، رقم ٣٢١٠)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢٢/٩، رقم ٩٠١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١/٢، رقم ١٢٤٨)، والديلمي في الفردوس (٢٥٧/٤، رقم ٦٧٥٧) جميعاً عمرو بن العاص.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٤/٤) تعليقاً على هذا الحديث: رواه أحمد، وقال كذا في النسخة «نعما» بنصب النون وكسر العين، قال أبو عبيدة: بكسر النون والعين، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط وقال فيه: «ولكن أسلمت رغبة في الإسلام، وأكون مع رسول الله ﷺ فقال: =

الـــزكي والرجل الصالح هو المزكي، نعم الملام والإثم على مانع الزكاة وإن كان ماله قليلاً، فإن ذا المال إذا لم يؤد حق الله وتصرف في ماله، فقد تصرف في حق المستخفين فيخشـــى عـــليه من تلفه في الدنيا وعقابه في الآخرة، فلهذا قال تعالى ﴿**يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا**﴾ أي: على الكنوز نار جهنم فتكوى بها جباههم أي: فتحرق بها جباه كانزها وجنوبهم وظهورهم، وقال ﷺ «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنـــبه وجبينه وظهره كلما بردت عيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**» [(١)].

قال ابن مسعود ﷺ: لا يوضع دينار على دينار ودرهم على درهم، ولكن يوسع له حتى يوضع كل درهم ودينار في موضع على حده.

فإن قيل: لم خص الله سبحانه وتعالى الجباه والجنوب والظهور بالكي، دون باقي البدن؟

فـــالجواب: إنمـــا حض الله هذه بالكي لأن الغني صاحب الكنـــز إذ رأى الفقير قـــبض جبهته، ووارى ما بين عينيه وعبس بوجهه في وجهه فإذا ألح عليه الفقير جنبه إليه معرضاً عنه، فإذا وقف و لم يبرح أعطاه وتركه وانصرف، فعاقب الله هذه الأعضاء لذلك.

وبعـــض الصـــوفية ذكر لذلك توجيهاً آخر فقال: إنما خص الله الجباه والجنوب والظهور بالكي، لأن أصحاب الأموال لما طلبوا المال والجاه متوجهين إليه، و لم يخرجوا حـــق الله مـــنه شاه الله وجوههم، ولما طووا كشحاً عن الفقير إذا جالسهم كويت جنوبهم، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقة بها واعتماداً عليها كويت ظهورهم.

وقوله: ﴿**هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ**﴾ أي: يقال لمانعي الزكاة يوم القيامة على جهة الـــتوبيخ هذا ما كنـــزتم لأنفسكم ﴿**فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ أي: ما كنتم تمنعون حقوق الله في أموالكم.

= «نعم ونعما بالمال الصالح للمرء الصالح»، ورواه أبو يعلي بنحوه، ورجال أحمد وأبي يعلي رجال الصحيح.

(١)أخرجه مسلم في صحيحه (٦٨٠/٢، رقم ٩٨٧)، وأبو داود في سننه (١٢٤/٢، رقم ١٦٥٨)، والنسائي في سننه (١٢/٥، رقم ٢٤٤٢)، وأحمد في مسنده (٣٨٣/٢، رقم ٨٩٦٥). عن أبي هريرة ﷺ.

لطيفة: كان في زمن النبي ﷺ رجلاً فقيراً اسمه: ثعلبة بن حاطب فشكى فقره إلى النبي ﷺ وسأل من النبي ﷺ أن يرزقه الله مالاً ويؤدي منه كل ذي حق حقه، فدعا له فوسع عليه، فانقطع عن الجمعة والجماعة، ومنع الزكاة فجمع مالاً عظيماً ودعا له بالبركة، وعاهده على إخراج حق الله منه، فكثر ماله فطلب منه النبي ﷺ الزكاة فقال: إن الجزية تؤخذ من اليهود والنصارى لا من قريش، فطلب منه ثانياً وقال له: ﷺ «**إما الزكاة وإما السيف**» فأرسل إلى رسول الله ﷺ أغناماً صفافاً فنزل جبريل وقال: يا محمد إن الله قد نزع لباس الإيمان عنه ولبس لباس الكفر، والي هذا أشار الله بقوله العزيز ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾[التوبة: ٧٥ - ٧٧].

قال بعض المفسرين[(١)]: جاء بعد نزول هذه الآية إلى النبي ﷺ بزكاته فقال: «**إن الله منعني أن أقبل منك**»، فجعل يحثوا التراب على رأسه، ثم جاء بها إلى أبي بكر فلم يقبلها، ثم إلى عمر فلم يقبلها، ثم إلى عثمان فلم يقبلها ومات.

وروينا في هذا الصحيح أنه ﷺ قال: «**من أتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مثل له يوم القيامة شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه، ثم يأخذ بلهزمته يعني شدقيه ثم يقول: أنا ملكك أنا كنزك، ثم تلى ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[آل عمران: ١٨٠]»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ «**ما من رجل يموت يترك غنماً أو إبلاً أو بقراً لم يؤد زكاتها، إلا جاءته يوم القيامة أعظم ما يكون وأسمنه، حتى تطؤه بأظلافها، وتنطحه بقرونها حتى يقضى بين الناس كلما تقدمت أخراها عادت عليه أولاها**»[(٣)].

---

(١) روى قصة ثعلبة وما كان منه ورجوعه بعد نزول الآيات الطبري في تفسيره (١٠/١٩٠) من حديث ابن عباس.

وانظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٧٥).

(٢) انظر رواية البخاري في صحيحه (٢/٥٠٨، رقم ١٣٣٨) عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٥٣٠، رقم ١٣٩١)، ومسلم في صحيحه (٢/٦٨٦، رقم ٩٩٠) من حديث أبي ذر.

وروينا في سنن ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**لم تظهر الفاحشة في قوم إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولا نقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنن، وشدة المؤنة، وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا المطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوهم فأخذ بعضهم ما كان في أيديهم، وإذا لم يحكم بينهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم**»[1].

وذكر العلامة أبو الفرج ابن الجوزي في بعض مصنفاته أنه جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أدى زكاة ماله سمي في سماء الدنيا سخياً، وفي الثانية جواداً، وفي الثالثة مطيعاً، وفي الرابعة باراً، وفي الخامسة وفياً، وفي السادسة مباركاً محفوظاً منصوراً، وفي السابعة مغفوراً له، ومن منع زكاة ماله سمي في سماء الدنيا بخيلاً، وفي الثانية لئيماً، وفي الثالثة ممسكاً، وفي الرابعة مقتراً، وفي الخامسة عاصياً، وفي السادسة منزوعاً عنه بركة ماله، وفي السابعة مردوداً عليه عمله مضروباً به وجهه**»[2].

وروى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**السخي قريب من**

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٣٢/٢، رقم ٤٠١٩) عن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن... فذكره.

وأخرجه أيضاً: الحاكم في المستدرك (٥٨٣/٤، رقم ٨٦٢٣) / والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٣٩٠، رقم ١٥٥٨)، وفي المعجم الأوسط (٦١/٥، رقم ٤٦٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٩٦، رقم ٣٣١٤)، وأبو عمر القاري في السنن الواردة في الفتن (٦٩١/٣، رقم ٣٢٧).

قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٨٦/٤): رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ في كتابه المستدرك في آخر كتاب الفتن مطولاً من طريق عطاء بن أبي رباح... به، قال: هذا حديث صحيح الإسناد، هذا حديث صالح للعمل به، وقد اختلف في ابن أبي مالك وأبيه، فأما الولد فاسمه خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك الدمشقي، فوثقه أبو زرعة الدمشقي وأبو زرعة الرازي وأحمد بن صالح المصري، وضعفه أحمد وابن معين والنسائي والدارقطني، وأما أبوه فهو قاضي دمشق وكان من أئمة التابعين، وثقه ابن معين وأبو زرعة الرازي وابن حبان والدارقطني والبرقاني، وقال يعقوب بن سفيان في حديثهما ليث يعني خالد وأبوه، ووراه البزار والبيهقي من هذا الوجه، ورواه الحاكم بنحوه من حديث بريدة وقال: صحيح الإسناد، ورواه مالك بنحوه موقوفاً على ابن عباس، ورفعه الطبراني وغيره إلى النبي ﷺ.

(٢) لم نقف عليه.

الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد من الجنة قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل»[1]، وفي رواية «**من العالم البخيل**».

فائدة: اختلف العلماء في البخيل من هو؟

فنقل الرافعي عن صاحب «التتمة»: أن البخيل من لا يؤدي الزكاة، ولا يقري الضيف.

وقال الأسنوي: العرف يقتضي أن البخيل من لا يقري الضيف.

فعلى القول الأول كان من أدى لزكاة ماله وقرى الضيف فليس ببخيل، ومن لم يفعل شيئاً من ذلك فهو بخيل، وعلى القول الثاني من قرى الضيف وإن لم يؤدي زكاة ماله فليس ببخيل.

واختلف العلماء في البخل والشح فقيل: هما بمعنى واحد، وفرق بعض العلماء بينهما فقال: البخل أن يبخل بما في يده، والشح أن يؤد ما في أيدي الناس في يده بالحل والحرمة.

والسخاء والكرم سبب لستر العيوب، والبخل والشح سبب جالب لكشفها كما أشار إليه بعضهم بقوله:

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ... ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فإنني ... أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه

خاتمة لطيفة مناسبة: قال الشبلي قال لي خاطري يوماً: أنت بخيل فقلت: ما أنا بخيل فقال: نعم أنت بخيل، فنوديت أن أول شيء يفتح أن أرفعه لأول فقير ألقاه، فما

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٤٢/٤، رقم ١٩٦١) وقال: غريب.
وأخرجه أيضاً ابن عدي (٤٠٣/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٩/٧، رقم ١٠٨٥١) جميعاً عن أبي هريرة.
وروي من طريق أخرى عند البيهقي في شعب الإيمان (٤٢٨/٧، رقم ١٠٨٤٨) عن جابر بن عبد الله.
وأخرجه أيضاً: البيهقي في شعب الإيمان (٤٢٨/٧، رقم ١٠٨٤٧) والطبراني في المعجم الأوسط (٢٧/٣، رقم ٢٣٦٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧/٣): فيه سعيد بن محمد الوراق وهو ضعيف.

تم خاطري حتى دفع إلى رجل خمسين ديناراً فخرجت، فرأيت فقيراً أعمى بين يـــدي حلاق يحلق رأسه فناولته إياها فقال: ادفعها للمزين فقلت: إنها دنانير فقال: ما قلنا لك إنك بخيل فدفعتها للمزين فقال: أنا حلقت له لله تعالى فتعجب الشبلي ﷺ من زهدهما وأخذها.

وسيأتي الكلام على الركن الرابع والخامس وهما الحج وصوم رمضان في محلـــه إن شاء الله تعالى.

***

المجلس السابع عشر

في الكلام على قوله ﷺ «الإيمان بضع وستون شعبة» وفيه ترجمة لأبي هريرة ﷺ مع فوائد ولطائف

الحمـــد لله الذي نور قلوب العارفين بضياء الإلهام، وأيقظ أسرار القاصدين فلاح لهم الأعلام، وشغل أسماعهم بلذة خطابه عن سماع الملام، واستنهض عزائمهم فساروا في جـــنح الظلام، حاديهم الوجد ودليلهم القصد وسائقهم الغرام، شمروا حتى وصلوا وطلبوا حتى حصلوا ووقفوا حتى قبلوا، وأهل الغفلة نيام، ليس المقبول كالمطرود، ولا المحـــبوب كالمـــردود، ولا الوصال كالصدود، ولا الخلي المستهام، أفلا تستحي ممن وجدك وأحياك وعرفك وهداك وأيدك وولاك وخاطبك وناداك ووعدك بشرف المقام، أحمده على ما ألهم وأنعم وأكرم وأبرم من الأحكام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحد لا شريك له، إله انتظمت أفعاله بحسن الإتقان والإحكام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أقام به أركان الإسلام، وأبطل به الأنصاب والأزلام، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه هداة الأنام، صلاة دائمة باقية على مر الأيام.

قَالَ البُخَارِي :

باب أُمُور الإِيمَان

وَقَوْل اللَّه تَعَالَى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ . وَقَوْلِهِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيَةَ.

حَدَّثَـــنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِـــلاَلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**».

قولـــه «**بـــاب أمور الإيمان**»[1] الإضافة فيه بيانية أي: الأمور التي في الإيمان لأن

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١١٩): قوله: «باب أمور الإيمان»، وللكشميهني «أمر الإيمان» بالإفراد على إرادة الجنس، والمراد بيان الأمور التي هي الإيمان والأمور التي للإيمان.

الأعمـــال والأقوال هي الإيمان عنده، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى اللام أي: الأمور التي للإيمان في تحقق حقيقته واكتمال ذاته.

وساق البخاري هذه الترجمة للدلالة على إطلاق اسم الإيمان على الأعمال، وقصد به الرد على المرجئة القائلين: إن الإيمان قول بلا عمل فلا تضر المعصية مع الإيمان.

فائدة: للعلماء مذاهب في المعصية مع الإيمان:

الأول: مذهب المرجئة يقولون: إن المعصية لا تضر مع الإيمان ولا يستحق صاحبها العذاب.

الثاني: مذهب المعتزلة يقولون: إنها تضر وإن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر فيثبتونه المنـــزلة بين المنـــزلتين، ويقولون في مثله: فاسق مخلد في النار.

الثالث: مذهب الخوارج يقولون: إنها تضر وإن مرتكب الكبيرة مخلد، بل ومرتكب الصـــغيرة أيضاً كافر يخلد في النار، ومذهبهم كمذهب المعتـــزلة مبني على أن الأعمال ركن من حقيقة الإيمان.

والخوارج سبع فرق أولهم الذين خرجوا على علي بن طالب وكفروه.

الرابع: مذهب الحسن البصري يقول: إن مرتكب الكبيرة منافق.

الخامس: مذهب أهل السنة والجماعة يقولون: إن مرتكب الكبيرة لا يكفر بها بل هو باق على إيمانه ولا يخلد في النار إن عذب، ولابد من دخوله الجنة هذا هو المذهب الحـــق، فالمعصية عند أهل السنة لا تضر في أصل الإيمان في كماله فيقال: الشارب الخمر مثلاً عندهم مؤمن ناقص الإيمان، وعند المعتـــزلة يقال: إنه فاسق ولا مؤمن ولا كافر، وعند الخوارج كافر، وعند الحسن البصري منافق.

واستدل البخاري ﷺ على أن الإيمان يطلق على الأعمال يأتي من كتاب الله تعالى حيـــث قـــال «وقـــول الله عـــز وجل ﴿**لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْـــرِبِ...**﴾ الآية، وتمام الآية الشريفة ﴿**وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـــاهَدُوا وَالصَّـــابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ**﴾[البقرة: ١٧٧].

وفي قوـــله: ﴿**وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾ مضاف مقدر، إما في البر تقديره ولكن صاحب البر من آمن، وإما من تقديره لكن البر من آمن ليصح المعنى.

ووجه الاستدلال بالآية: أنها حصرت المتقين على أصحاب هذه الصفات والأعمال والمراد: المتقون من الشرك وهم المؤمنون الكاملون.

وقوله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ الآية، وتمام هذه الآية الشريفة:

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

أفلح: فعل لازم بمعنى دخل في الفلاح، قال الكرماني: فعلم منها أن الإيمان الذي به الفلاح والنجاة الإيمان الذي فيه الأعمال المذكورة.

قال ابن حجر: وكأن المؤلف أشار إلى مكان عدد الشعب من هاتين الآيتين[1].

«**حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا أبو عامر العقدي قال: حدثنا سليمان بن بلال، عن عبد الله بن دينار عن أبي صالح، عن أبي هريرة**» قال: اختلف العلماء في اسم أبي هريرة واسم أبيه على نحو ثلاثين قولاً أصحها عند أكثر العلماء: عبد الرحمن بن صخر.

وسبب الاختلاف في ذلك أنه قتل شخصاً في الجاهلية وهرب، وصار كلما دخل

---

(١) وللحافظ كلام طيب في الفتح (١/١١٩) عن هاتين الآيتين فقد قال: قوله: «وقول الله تعالى» بالخفض، ووجه الاستدلال بهذه الآية ومناسبتها لحديث الباب، تظهر من الحديث الذي رواه عبد الرزاق وغيره، من طريق مجاهد أن أبي ذر سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فتلا عليه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ...﴾ إلى آخرها، ورجاله ثقات.

وإنما لم يسقه المؤلف لأنه ليس على شرطه، ووجهه: أن الآية حصرت التقوى على أصحاب هذه الصفات، والمراد المتقون من الشرك والأعمال السيئة، فإذا فعلوا وتركوا فهم المؤمنون الكاملون.

والجامع بين الآية والحديث: أن الأعمال مع انضمامها إلى التصديق داخلة في مسمى البر، كما هي داخلة في مسمى الإيمان.

فإن قيل: ليس في المتن ذكر التصديق؟

أجيب: بأنه ثابت في أصل هذا الحديث كما أخرجه مسلم وغيره، والمصنف يكثر الاستدلال بما اشتمل عليه المتن الذي يذكر أصله و لم يسقه تاماً.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ذكره بلا أداة عطف، والحذف جائز، والتقدير: وقول الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وثبت المحذوف في رواية الأصيلي، ويحتمل أن يكون ذكر ذلك تفسيراً لقوله المتقون، أي: المتقون هم الموصوفون بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخرها.

إلى قرية وبلد يسمي نفسه وأباه باسم غير الاسم السابق.

قال ابن عبد البر: لم يختلف في اسم في الجاهلية ولا في الإسلام كالاختلاف في اسمه، روي عنه أنه قال: «كان اسمي في الجاهلية عبد شمس، وسميت في الإسلام عبد الرحمن».

واسم أمه ميمونة وقيل: أميمة وقد أسلمت بدعاء رسول الله ﷺ لها بعد أن كانت تتكلم في رسول الله ﷺ بما لا يليق.

قيل: إن أبا هريرة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي أسمعتني فيك ما أكره، فقال: «**اللهم اهد أم أبي هريرة**»[1] قال: فخرجت أعدو لأبشرها فرأيت الباب مردوداً فلما أحست بي خرجت وهي تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فرجعت وأنا أبكي من الفرح كما كنت أبكي من الحزن، وقلت: يا رسول الله قد استجاب الله دعاك، أدع لي أن يحببني أنا وأمي إلى المؤمنين، فما من مؤمن ولا مؤمنة إلا وهو يحبنا.

وهو أزدي دوسي يماني مدني، قال ﷺ نشأت يتيماً وهاجرت مسكيناً وكنت أجير البرة بنت غزوان خادماً لها في مالها، فزوجنيها الله فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً، وجعل أبي هريرة إماماً.

وكان يخطب على منبر رسول الله ﷺ بالمدينة ويشكر الله على ما أعطاه فيقول: «الحمد لله الذي هدى أبي هريرة في الإسلام، وعلمه القرآن ومنَّ عليه بمحمد ﷺ الحمد لله الذي أطعمني الخمير، وألبسني الحبير، الحمد لله الذي زوجني بنت غزوان بعد ما كنت أجيراً لها بطعام بطني.

قدم المدينة عام خيبر وأسلم بها سنة ستة، وشهد خيبر مع رسول الله صلى ﷺ ثم لزمه وواظب عليه أناء الليل والنهار، ولا يشغله عنه أهل ولا مال، وصبر على الفقر الشديد حتى أفضى به إلى الظل المديد، وكان عريف أهل الصفة، وكان يدور مع رسول الله ﷺ كما ورد في هذا الصحيح، وكان ﷺ حريصا على سماع الحديث من رسول الله ﷺ فقد ورد في هذا الصحيح عنه ﷺ أنه قال: يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٣٨/٤، رقم ٢٤٩١)، وأحمد في مسنده (٣١٩/٢، رقم ٨٢٤٢) عن أبي هريرة.

يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»[1].

وكان ﷺ آدم اللون ذا ضفيرتين محفياً لشاربه مزاحاً، وكان ينـــزل بذي الحليفة بقرب المدينة، وله دار تصدق بها على مواليه.

قال إمامنا الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث.

ومن فضائله: أنه كان يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة ويقول: أسبح بقدر ديتي يعني أن دية الآدمي اثنا عشر ألف درهم، فهو يسبح بعددها لتكون فكاكه من النار، وكان له خيط فيه ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح.

قال ﷺ: ما وجع أحب إلىّ من الحمى لأنها تعطي كل عضو قسطه، وإن الله يعطي كل مفصل قسطاً من الأجر، وتحمل عن رسول الله ﷺ من العلم شيئاً كثيراً، وهو أكثر الصحابة رواية بإجماع العلماء رضي الله عنهم.

روى عن رسول الله ﷺ خمسة آلاف حديث وأربع وسبعون حديثاً، اتفقا على ثلاثمائه وخمسة وعشرين، وانفرد البخاري ومسلم بمائة وتسعين.

قال أبو هريرة ﷺ: قلت: ثم يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً فأنساه قال: «**أبسط رداءك**»، فبسطته قال: فغرف بيديه ثم قال «**ضمه**» فضممته فما نسيت بعد ذلك من مقالة رسول الله ﷺ شيئاً[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩/١، رقم ٩٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٤٢٦/٣، رقم ٥٨٤٢)، وأحمد في مسنده (٣٧٣/٢، رقم ٨٨٤٥)، وابن منده في الإيمان (٨٦٢/٢، رقم ٩٠٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٩٤/٢، رقم ٨٢٥) قال محققه الألباني: إسناده جيد على كلام يسير في ابن حميد، والحديث أخرجه البخاري وابن خزيمة، والآجري وأحمد من طريق إسماعيل بن جعفر أخبرنا عمرو بن أبي عمرو... به، وتابعه معاوية بن معتب عن أبي هريرة... به، وأخرجه ابن خزيمة ورجاله ثقات كلهم غير معاوية بن معتب قال الحسيني: وثقة ابن حبان وهو مجهول وأقره الحافظ في التعجيل.(انتهى)؟

ويلاحظ أن كلام الألباني خاص بكل مصدر يعزوك إليه فرب حديث صحيح عند البخاري ضعيف عند ابن خزيمة لجهالة معاوية بن معتب فتنبه هداك الله.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦/١، رقم ١١٩)، والترمذي في سننه (٦٨٤/٥، رقم ٣٨٣٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غير وجه عن أبي هريرة.

ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣٦٢/٢). وانظر: الاستيعاب (١٧٧١/٤)، والإصابة (٤٣٦/٧)، وسير أعلام النبلاء (١٧٤/١٢).

روى عنه الحديث أكثر من ثمانمائة رجل من صاحبي وتابعي، منهم ابن عباس وجابر وأنس.

وروي أنه بكى في مرضه فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي على دنياكم هذه ولكني أبكي على بعد سفري، وقلة زادي، وإني أصبحت في صعود أو أهبط على جنة أو نار، لا أدري في أيهما يأخذني.

وكانت وفاته ﷺ بالمدينة الشريفة، وقيل: بالعقيق سنة سبع وخمسين، وتوفيت عائشة رضي الله عنها قبله في السنة التي مات فيها، وصلى عليها وكان سنه يوم موته ثمانية وسبعين سنة، ودفن بالبقيع، وما اشتهر من أن قبره بقرب عسقلان، قال ابن الملقن: لا أصل له فاجتنبه، ثم قال: نعم هناك قبر «جندرة بن خشينة» الصحابي فاعلمه.

ومن كراماته التي ظهرت بعد موته: ما روى عن عمر بن حبيب قال: حضرت مجلس هارون الرشيد فوقعت عنده مسألة، وتنازع فيها الخصوم، وعلت أصواتهم فاحتج بعض العلماء الحاضرين على دعواه بحديث رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ فرد بعض الخصوم الحاضرين المنازعين الحديث وقال: أبو هريرة غير مقبول فيما يرويه، ومال الرشيد نحو هذا البعض القائل هذا القول ونصر قوله، قال عمر بن حبيب: فرددت قول هذا القائل وقلت: الحديث صحيح وأبو هريرة صحيح النقل عن رسول الله ﷺ فيما يرويه قال: فلما قلت هكذا نظر إليَّ الرشيد نظر مغضب، فقمت من المجلس إلى منزلي، فلم ألبث حتى قيل: صاحب البريد بالباب فدخل إليَّ فقال: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول وتحنط وتكفن، فقلت: اللهم إنك تعلم أني دافعت عن صاحب نبيك ﷺ فأجللت نبيك ﷺ أن يطعن في أصحابه، فسلمني منه، فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب حاسر عن ذراعيه، بيده السيف وبين يديه النطع، فلما رآني قال: يا عمر بن حبيب ما تلقاني أحد بالرد ودفع قولي بمثل ما تلقيتني به، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الذي حاولت عليه فيه إزراء برسول الله ﷺ وبما جاء إذا كان أصحابه كذا فالشريعة باطلة والفرائض والأحكام من الصلاة والصيام والنكاح والحدود كلها مردودة غير مقبولة، فرجع الرشيد إلى نفسه ثم قال: احييتني يا ابن حبيب حياك الله ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم.

كرامة أخرى له ﷺ: حكي في تاريخ ابن النجار عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي أنه قال: سمعت القاضي أبا الطيب يقول: كنا في حلقة النظر بجامع المنصور فجاء شاب

خراساني حنفي المذهب يسأل الشافعية عن مسألة المصراة وطالب بالدليل فقال له شخص من الشافعية: الدليل عليها ما في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصروا الإبل والغنم، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين إن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر**»[1] فقال الشاب الحنفي: أبو هريرة غير مقبول الحديث، قال القاضي: فما أتم كلامه حتى سقطت عليه حيه عظيمة من سقف الجامع فهرب الناس، وتبعت الشاب دون غيره فقيل له: تب تب فقال: تبت فغابت الحية، كأن لم يكن لها أثر.

يحتمل أن تكون هذه الحية ملكاً تشكل في صورة الحية وجاء ناصراً لأبي هريرة ﷺ كرامة له، فقد أيد الله نبينا محمداً ﷺ كثيراً بذلك.

فقد ذكر العلماء من ذلك: أن أبا جهل لعنه الله اشترى من رجل جملاً وماطله، فأتى الرجل نادى قريش مستعيناً بهم في تخليص ثمن الجمل فأحالوه على النبي ﷺ استهزاء وقالوا له: إذهب إلى محمد يخلص حقك منه، فجاء الأعرابي إليه ﷺ وقص عليه قصته مع أبي جهل فمضى معه النبي ﷺ فطرق باب أبي جهل فخرج فلما رأى رسول الله ﷺ حصل له دهشته ورعب، فأوسعه إلا أن قال أهلاً بأبي القاسم فقال: «**إعط هذا حقه**» فأعطاه من فوره، فحدث قومه فقال: إني رأيت ما لم تروا رأيت والله على رأسي تنيناً فاتحاً فاه ولو أبيت لالتهمني.

ومن نصرة الله لنبيه أن معمر بن زيد كان أشجع قومه استعانت به قريش وشكوا إليه أمر رسول الله ﷺ وكان شجاعاً مطاعاً فقال لهم: إني قادم عليكم بعد ثلاثة أيام أريحكم منه، وعندي عشرون ألف مقاتل فلا أرى هذا الحي من بني هاشم يقدر على حربي، وإن سألوا الدية أعطيتهم عشر ديات ففي مالي سعة، وكان يتقلد بسيف طوله سبعة أشبار في عرض شبر، وقصته في العرب مشهورة بالشجاعة والبأس، فلبس سلاحه ولبس درعين، وجاء في اليوم الذي واعد قريشاً فرآهم في الحطيم، ورسول الله ﷺ في الحجر يصلي وقد عرفه رسول الله ﷺ فما التفت ولا تزعزع ولا قصر في صلاته فقالت قريش لعمر بن زيد: هذا محمد ساجد فسل سيفه واقبل نحوه فلما دنا منه وإذا به قد رمى سيفه ورجع مسرعاً مهرولاً، حتى وصل إلى باب الصفا عثر بدرعه فسقط، فقام وقد أدمى وجهه بالحجارة التي سقط عليها وهو يعدو كأشد

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٧٥٥، رقم ٢٠٤١)، ومسلم في صحيحه (٣/١١٥٩، رقم ١٥٢٤) عن أبي هريرة ﷺ.

العدو، حتى بلغ البطحاء وهو لا يلتفت إلى الخلف، فاجتمعوا وغسلوا عن وجهه الدم وقالوا: ما شأنك ماذا أصابك قال: ويحكم المغرور من غررتموه، ما رأيت كاليوم دعوني حتى ترجع إليَّ نفسي، فتركوه ساعة ثم قالوا له: ما الذي أصابك قال: إني لما دنوت من محمد فأردت أن أضربه بسيفي فرأيت عند رأسه شجاعين أقرعين ينفخان بالنيران تلمع أبصارهما، قصداني فعدوت منهما، ولست بعد هذا اليوم أعود إلى مقربة محمد بشيء.

فالشجاعان الأقرعان كانا ملكين من الملائكة فكذلك الحية التي سقطت من سطح المسجد وتبعت من سب أبا هريرة لا يبعد أن يكون ملكاً.

وأبو هريرة أول من كني بهذه الكنية واختلفوا فيمن كناه بها فروي عنه ﷺ أنه قال: كنت أرعى غنماً وكان لي مهرة صغيرة ألعب بها فكنوني بها، وقيل: كان المكني له بذلك أبوه، وقيل: رآه رسول الله ﷺ وفي كمه هرة فقال: يا أبا هريرة، وكان ﷺ يحب الهرة ويحملها ويألفها وكان يقول: بعدم جواز بيعها، والصحيح جواز بيعها وحل أكل ثمنها كما ذهب إليه إمامنا الشافعي ﷺ وكافة العلماء.

أما ما ورد في صحيح مسلم وغيره بسند صحيح من أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل الهرة وأكل ثمنها[1]، فهو محمول على الوحشي الذي لا نفع فيه كذا قاله الشافعي والجمهور.

وهاهنا فوائد ولطائف مناسبة:

الفائدة الأولى: قال العلماء اتخاذ الهرة وتربيتها مستحب قالوا: وإنها تشبه الإنسان في أمور وهي أنها تعطس وتتثاوب وتتمطى، وتتناول الشيء بيدها وتمسح وجهها، وإذا تلطخ شيء من بدنها نظفته.

الثانية: قيل: إنها مخلوقة من عطسة الأسد وسببه أن أهل سفينة نوح تأذوا من الفأر، فمسح نوح عليه السلام جبهة الأسد فعطس ورمى الهرة، من ذلك كانت أشبه شيء بالأسد بحيث لو قيل للمصور صور لي هرة فلا تخرج إلا صورة الأسد.

الثالثة: سئل بعض العلماء عن حكمة ستر الهرة بولها إذا هي بالت دون غيرها من

---

(١) أخرجه أيضاً: أبو داود (٣/٢٧٨، رقم ٣٤٨٠)، وابن ماجه في سننه (/١٠٨٢، رقم ٣٢٥٠)، والحاكم في المستدرك (٢/٤٠، رقم ٢٢٤٦) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والدارقطني في سننه (٤/٢٩٠)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٣١٩، رقم ١٠٤٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/١٦، رقم ٨٣٥) من حديث جابر ﷺ.

الحيوانات فأجاب: إن الله تعالى خلقها لأجل الفأر، وقد طبع على الفأر الخوف منها، بحيث أن الفأرة إذا رأت الجمل لا تهرب، وإذا رأت الهرة أو شمت رائحتها تهرب منها خوفاً، فألهم الله تعالى الهرة إذا بالت أن تستر بولها حتى لا يشم رائحته الفأر فيهرب، فإذا بالت الهرة تشم رائحة بولها أولاً فإن كان له رائحة شديدة غطته، وبالت في غطائه وإلا اكتفت بأيسر التغطية.

الرابعة: الهرة على ثلاثة أنواع أهلية ووحشية وهرة الزباد ويحرم أكل الجميع على الأصح، وأما الزباد فالصواب كما قاله النووي: طهارته وصحة بيعه إلا إذا اختلط بشيء من شعر الهرة.

الخامسة: قال العلماء إذا أخذت الهرة حمامة مثلاً، وهي حية في فمها جاز ضرب فمها أو قطع أذنها لترسلها، وإذا قصدت الحمام أو غيرها، وكانت ضارية مفسدة فقتلها الإنسان في حال إفسادها دفعاً جاز ولا ضمان عليه ولا إثم إذا لم تكن حاملاً، إما إذا كانت حاملاً فعندها قال الدميري: لا يجوز قتلها لأن في قتل الحامل قتل أولادها،و لم يتحقق منهم جناية، وأمَّا قتلها في غير حالة الإفساد فغير جائز على الأصح خلافاً للقاضي حسين حيث جوزه من غير ضمان وألحقها بالفواسق الخمس.

السادسة: قال العلماء: سؤرها طاهر لطهارة عينها فلا يكره وورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم والطوافات**»[1] فإن تنجس فمها بأن أكلت شيئاً نجساً ثم ولغت في الحال في ماء قليل أو غيره من المائعات، فإنها تنجسه إذا غابت بعد أن أكلت النجس، واحتمل ولوغها في ماء طاهر يطهر فمها في غيبتها فإنها لا تنجس ما ولغت فيه.

السابعة: روى صاحب الإستيعاب عن سلمان الفارسي خادم رسول الله ﷺ: أن النبي ﷺ أوصى بالهرة وقال: «إن امرأة عذبت في هرة ربطتها...»[2] الحديث، قال

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/١٩، رقم ٧٥) عن كبشة بنت كعب بن مالك وكانت تحت بن أبي قتادة أن أبا قتادة دخل فسكبت له وضوءاً، فجاءت هرة فشربت منه فأصغى لها الإناء، حتى شربت قالت كبشة: فرآني أنظر إليه فقال أتعجبين يا ابنة أخي؟ فقلت: نعم، فقال... فذكره مرفوعاً.

وأخرجه أيضاً: النسائي في سننه (١/٥٥، رقم ٦٨)، وأحمد في مسنده (٥/٢٩٦، رقم ٢٢٥٨)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/٤٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٧٦٠، رقم ٢٢٤٣)، وأحمد في مسنده (٢/٤٢٤، رقم=

العلماء: وهذه المرأة كانت كافرة فاستحقت العذاب بكفرها، لا بحبسها للقطة حتى ماتت، فإن المؤمن أكرم على الله من أن يعذبه من أجل هرة، على ذلك ما روي في مسند أبي داود الطيالسي من حديث الشعبي عن علقمة قال: كنا عند عائشة ومعنا أبو هريرة فقالت: يا أبي هريرة أنت الذي تحدث عن النبي ﷺ: «**أن امرأة عذبت بالنار من أجل هرة**» فقال: أبو هريرة نعم سمعته من رسول الله ﷺ فقالت عائشة رضي الله عنها: المؤمن أكرم على الله من أن يعذبه من أجل وهرة قالت: إنما كانت المرأة مع ذلك كافرة يا أبا هريرة، إذا حدثت عن رسول الله فانظر كيف تحدث[1].

لطيفة: حكى ابن خلكان وغيره عن الشيخ الإمام أبي الحسن بن باب شاذ النحوي وكان من أكابر العلماء وكان فقيراً جداً فلازم بعض السلاطين وخدمه لأجل فقره وقعت بعد ذلك واقعة ترك بسببها خدمة السلطان، كما حكي عنه أنه كان يوماً في سطح جامع مصر يأكل شيئاً وعنده بعض أصحابه فحضر قط فرموا له لقمة فأخذها في فيه وغاب عنهم، ثم عاد إليهم فرموا له شيئاً فأخذه وذهب ثم عاد ففعل ذلك مراراً كثيرة وهم يرمون له وهو يأخذ ويغيب يعود من فوره فتعجبوا منه فتبعوه فإذا هو يأخذ الطعام، ويدخل إلى خزنة فيها شبه البيت الخراب في سطح ذلك البيت قط أعمى فإذا هو يضع الطعام بين يديه فتعجبوا من ذلك، فقال الشيخ ابن باب شاذ: إذا كان حيواناً أخرس قد سخر له هذا القط، وهو يقوم بكفايته ولم يحرم الرزق فكيف يضيع مثلي ثم قطع الشيخ علائقه، وترك خدمة السلطان ولزم بيته مشتغلاً متوكلاً على الله إلى أن مات.

لطيفة أخرى: وروى ابن عساكر في تاريخه عن بعض أصحاب الشبلي قال رأيت الشبلي في النوم بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك فقال: أوقفني بين يديه وقال: يا أبا بكر أتدري بماذا غفرت لك؟ فقلت: بصالح عملي فقال: لا، فقلت بإخلاصي في عبوديتي، قال: لا، فقلت: بحجي وصومي وصلاتي، ثم قال: ما غفر لك بذلك، فقلت: بهجرتي إلى الصالحين، قال: لا، فقلت: بإدامة أسفاري في طلب العلم فقال: لا، فقلت

= ٩٤٧٨)، والطيالسي في مسنده (ص ١٩٩، رقم ١٤٠٠)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/١١، رقم ٦١٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٠٥/٢، رقم ٥٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) ورواه أيضاً أحمد في مسنده (٥١٩/٢، رقم ١٠٧٣٨) عن الشعبي عن علقمة... به.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٦/١): رجاله رجال الصحيح.

يارب هذه المنجيات التي كنت أعقد عليها خنصري ظناً أنك بها تعفو عني، قال: كل هـــذه لم أغفر لك، فقلت: إلهي بماذا؟ قال: أتذكر حين كنت تمشي في دروب بغداد، فوجـــدت هـــرة صغيرة قد أضعفها البرد تنـــزوي من جدار إلى جدار من شدة البرد والثلج، فاخذتها رحمة بها فإذا دخلتها في فرو كان عليك، وقاية لها من البرد، فقلت: نعم، قال: برحمتك لتلك الهرة رحمتك.

«عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: الإيمان بضعة وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان».

قوله: «**بضعة**» بالهاء هو الواقع في أكثر نسخ البخاري، وفي بعض النسخ «**بضع**» بـــلا هاء، والبضع والبضعة بكسر الباء على اللغة المشهورة، وبها جاء القرآن العظيم، ويجـــوز فـــتحها في لغة قليلة: هو عدد مبهم مستعمل فيما بين الثلاثة والتسعة على الـــراجح، فـــإذا قلت له: عندي بضعة عشر درهماً يحتمل أن يكون ثلاثة عشر فأربعة عشـــر وهكـــذا إلى تسعة عشر، وإذا قلت له: عندي بضعة وأربعين درهماً يحتمل أن يكون ثلاثة وأربعين أو أربعة وأربعين، وهكذا إلى تسع وأربعين وهكذا.

قوله ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة**»[1] يحتمل أن يكون ثلاثة وستين أو أربعة

---

(١) شرح الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١٢٠) هذه الجملة شرحاً بديعاً فقال: قوله: «بضع» بكسر أوله، وحكي الفتح لغة، وهو عدد مبهم مقيد بما بين الثلاث إلى التسع كما جزم به القزاز. وقال ابن سيده: إلى العشر، وقيل: من واحد إلى تسعة، وقيل: من اثنين إلى عشرة، وقيل: من أربعة إلى تسعة، وعن الخليل: البضع: السبع.

ويرجح ما قاله القزاز ما اتفق عليه المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف: ٤٢]، وما رواه الترمذي بسند صحيح: أن قريشاً قالوا ذلك لأبي بكر، وكذا رواه الطبري مرفوعاً.

ونقل الصغاني في العباب أنه خاص بما دون العشرة وبما دون العشرين، فإذا جاوز العشرين امتنع. قال: وأجازه أبو زيد فقال: يقال: بضعة وعشرون رجلاً وبضع وعشرون امرأة. وقال الفراء: وهو خاص بالعشرات إلى التسعين، ولا يقال: بضع ومائة ولا بضع وألف. ووقع في بعض الروايات بضعة بتاء التأنيث ويحتاج إلى تأويل.

قوله: «وستون» لم تختلف الطرق عن أبي عامر شيخ شيخ المؤلف في ذلك، وتابعه يحيى الحماني - بكسر المهملة وتشديد الميم- عن سليمان بن بلال، وأخرجه أبو عوانة من طريق بشر بن عمرو عن سليمان بن بلال فقال: بضع وستون أو بضع وسبعون، وكذا وقع التردد في رواية مسلم من طريق سهيل بن أبي صالح عن عبد الله بن دينار، ورواه أصحاب السنن الثلاثة من طريقه فقالوا:=

وستين.

فائدة: لا يستعمل بضع ولا بضعة إلا مع عشراً مع العشرين أو مع الثلاثين وهكذا إلى التسعين، ولا يستعمل مع المائة ولا مع الألف، فلا يقال بضع ومائه، ولا بضع ألف.

و «**شعبة**» بضم الشين هي في أصل الوضع غصن الشجرة وفرع كل أصل وهي هنا بمعنى خصلة.

قال العلماء: شبه النبي ﷺ الإيمان بشجرة ذات أغصان وشعب، كما شبه الإسلام في حديث «**بني الإسلام**» أنه ذا أعمدة، وحاصل معنى الحديث أن الإيمان يتشعب من شعب كثيرة كما تتشعب من الشجرة أغصان كثيرة ضبطها ﷺ هنا في رواية البخاري وحصرها في بضع وستين شعبة منها الإيمان فيقال: لا إله إلا الله شعبة من شعب الإيمان، ويقال للصلاة من شعب الإيمان، ويقال للأمر بالمعروف شعبة من شعب

=«بضع وسبعون» من غير شك، ولأبي عوانة في صحيحه من طريق: «ست وسبعون أو سبع وسبعون»، ورجح البيهقي رواية البخاري لأن سليمان لم يشك، وفيه نظر لما ذكرنا من رواية بشر ابن عمرو عنه فتردد أيضاً لكن يرجح بأنه المتيقن وما عداه مشكوك فيه، وأما رواية الترمذي بلفظ: «أربع وستون» فمعلولة، وعلى صحتها لا تخالف رواية البخاري، وترجيح رواية بضع وسبعون لكونها زيادة ثقة -كما ذكره الحليمي ثم عياض- لا يستقيم، إذ الذي زادها لم يستمر على الجزم بها، لاسيما مع اتحاد المخرج.

وبهذا يتبين شفوف نظر البخاري، وقد رجح ابن الصلاح الأقل لكونه المتيقن.

قوله: «شعبة» بالضم أي: قطعة، والمراد الخصلة أو الجزء.

قوله: «والحياء» هو بالمد، وهو في اللغة: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وقد يطلق على مجرد ترك الشيء بسبب، والترك إنما هو من لوازمه.

وفي الشرع: خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «الحياء خير كله».

فإن قيل: الحياء من الغرائز فكيف جعل شعبة من الإيمان؟

أجيب: بأنه قد يكون غريزة وقد يكون تخلقاً، ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فهو من الإيمان لهذا، ولكونه باعثاً على فعل الطاعة وحاجزاً عن فعل المعصية. ولا يقال: رب حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير، لأن ذاك ليس شرعيا.

فإن قيل: لم أفرده بالذكر هنا؟

أجيب: بأنه كالداعي إلى باقي الشعب، إذ الحي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر.

الإيمان، ويقال للحياء شعبة من شعب الإيمان، ويقال لإزالة الحجر من طريق المسلمين شعبة من شعب الإيمان.

ولم يبين هنا ﷺ أعلا شعب الإيمان أو أدناها لكن بين ﷺ أعلاها وأدناها في حديث آخر كما ثبت في الصحيح أنه قال ﷺ: «**أعلاها لا إله إلا الله**»[١]، وفي رواية: «**أفضلها لا إله إلا الله**»[٢]، وفي رواية: «**أعظمها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[٣]، وفي رواية: «**إماطة العظم عن الطريق**»[٤] فبين ﷺ أن أعلا الشعب التوحيد على كل مكلف، والذي لا يصح غيره من الشعب إلا بعد صحته وإن أدناها ما يتوقع منه ضرر للمسلمين، وبقي بينهما تمام العدد فيجب علينا الإيمان به، وإن لم نعرف أعيان جميع أفراده كما نؤمن بالأنبياء والملائكة وإن لم نعرف أعيانهم وأسمائهم.

وقد صنف العلماء في تعيين هذه الشعب كتباً كثيرة من أعظمها منهاج الحليمي[٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/٤٢٠، رقم ١٩١)، والطبراني في المعجم الأوسط (٩/٢٠، رقم ٩٠٠٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/١٦٩، رقم ٣٠٤١٦)، وابن منده في الإيمان (١/ ٣٣٤، رقم ١٧١) عن أبي هريرة.

(٢) هذه الرواية عند البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٠٩، رقم ٥٩٨)، وأبو داود في سننه (٤/ ٢١٩، رقم ٤٦٧٦)، والنسائي في سننه (٨/١١٠، رقم ٥٠٠٤)، وأحمد في مسنده (٢/٤١٤، رقم ٩٣٥٠)، وابن منده في الإيمان (١/٢٩٧، رقم ١٤٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٢٩، رقم ٤٢٨).

(٣) هذه اللفظ عند ابن أبي شيبة في المصنف (٥/٢١٢، رقم ٢٥٣٣٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الإيمان بضع وستون باباً أو بضع وسبعون باباً أعظمها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

(٤) هذه الرواية عند أبو داود في سننه (٤/٢١٩، رقم ٤٦٧٦)، وأحمد في مسنده (٢/٤١٤، رقم ٩٣٥٠).

(٥) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١٢١): قال القاضي عياض: تكلف جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان.

ولم يتفق من عد الشعب على نمط واحد، وأقربها إلى الصواب طريقة ابن حبان، لكن لم نقف على بيانها من كلامه. =

وقـــد ورد في فضل من أزال من طريق المسلمين ما يضرهم من حجر أو شوك أو عظم أو غير ذلك أحاديث.

وورد أن فعـــل ذلك مكتوباً لفاعله في ديوان الصدقة قال رسول الله ﷺ: «**خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائه مفصل، فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وســـبح الله واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظم وآمن**

= وقد لخصت مما أوردوه ما أذكره، وهو أن هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن.

فأعمال القلب: فيه المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه المسألة في القبر، والبعث، والنشور، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار، ومحبة الله، والحب والبغض فيه، ومحبة النبي ﷺ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه الصلاة عليه، واتباع سنته، والإخلاص، ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق، والتوبة، والخوف، والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.

وأعمال اللسان: وتشتمل على سبع خصال: التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلم العلم، وتعليمه، والدعاء، والذكر، ويدخل فيه الاستغفار، واجتناب اللغو.

وأعمال البدن: وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، منها ما يختص بالأعيان وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حساً وحكماً، ويدخل فيه اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضاً ونفلاً، والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، ويدخل فيه إطعام الطعام وإكرام الضيف، والصيام فرضا ونفلاً، والحج، والعمرة كذلك، والطواف، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والفرار بالدين، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك، والوفاء بالنذر، والتحري في الإيمان، وأداء الكفارات.

ومنها ما يتعلق بالاتباع، وهي ست خصال: التعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه اجتناب العقوق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة أو الرفق بالعبيد.

ومنها ما يتعلق بالعامة، وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة، والمعاونة على البر، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والجهاد، ومنه المرابطة، وأداء الأمانة، ومنه أداء الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف، ورد السلام، وتشميت العاطس، وكف الأذى عن الناس، واجتناب اللهو وإماطة الأذى عن الطريق، فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدها تسعاً وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضم بعضه إلى بعض مما ذكر. والله أعلم.

فنهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائه، فإنه يمسي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، ونصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»**[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[٣].

لطيفة: وروي عن أبي حفص النيسابوري أنه اشتغل قلبه بحب جارية، فاستشار بعض أصحابه كيف يتحيل إليها حتى يصل إليها، فأشار إليه أن يمضي إلى فلان اليهودي ليحتال له في أمرها فمضى إليه وأطلعه على حاله فأمره اليهودي أن لا يصلي أربعين يوماً ولا يعمل عملاً يرضاه الله تعالى، ففعل ذلك ثم ذهب إلى اليهودي بعد الأيام الأربعين وأعلمه بما فعل فشرع اليهودي في حيلة يحتال بها في أمره ليجمع بينه وبين الجارية، فلم يقدر على ذلك فقال اليهودي: أظن أنك قد عملت في هذه المدة شيئاً يرضاه الله تعالى من أفعال البر، فتفكر أبو حفص وقال: والله ما عملت شيئاً غير

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٩٨/٢، رقم ١٠٠٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٢٠٩/٦، رقم ١٠٦٧٣)، وابن حبان في صحيحه (١٧٣/٨، رقم ٣٣٨٠)، والبيهقي في السنن (١٨٨/٤، رقم ٧٦١١)، وفي شعب الإيمان (٥١١/٧، رقم ١١١٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (١٦٢٠/٥)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٨٢٠/٢، رقم ٨١٦) جميعاً من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٧/١، رقم ٨٩١)، وابن حبان في صحيحه (٢٨٧/٢، رقم ٥٢٩)، والترمذي في سننه (٣٣٩/٤، رقم ١٩٥٦) وقال: وفي الباب عن ابن مسعود وجابر وحذيفة وعائشة وأبي هريرة، وهذا حديث حسن غريب.

ورواه البزار في مسنده (٤٥٧/٩، رقم ٤٠٧٠) جميعاً من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) بهذا اللفظ رواه أبو بكر البغدادي في تكملة الإكمال (٤٩٥/١) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

ورواه الطبراني في المعجم الصغير (١٣١/٢، رقم ٩٠٧) حذيفة بن اليمان مرفوعاً بلفظ: «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لا يصبح ويمسي ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم».

ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤٨/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٦١/٧، رقم ١٠٥٨٦) عن أنس بن مالك مرفوعاً بلفظ: «من أصبح وهمه غير الله فليس من الله، ومن أصبح لا يهتم للمسلمين فليس منهم». قال البيهقي: إسناده ضعيف.

أني أزلـــت حجراً عن طريق المسلمين برجلي فقال اليهودي: هذا رب كريم لم يضيع لك هذا المقدار، وعصمك بسببه من هذه الأوزار، فكيف يليق بك أن تعصيه.

وقوله ﷺ: «**والحياء شعبة من الإيمان**» إنما أفرد ﷺ هذه الخصلة من خصال الإيمان في هذا الحديث وخصها بالذكر دون غيرها من باقي شعب الإيمان، لأن الحياء كالداعي إلى باقي الشعب، فإن صاحب الحياء يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينـــزجر، فلما كان الحياء كالسبب لفعل باقي الشعب خص بالذكر و لم يذكر غيره معه.

واستشكل العلماء جعل الحياء من شعب الإيمان فقالوا: إن الحياء من الأمور التي طبع الإنسان وغرز عليها، وليس من كسبه فكيف يعد من شعب الإيمان وشعب الإيمان كسبيه لا غريزة فيها؟

وأجيب عن هذا الإشكال بأن: الحياء قد يكون غريزة وقد يكون تخلقاً واكتساباً كسائر أعمال البر، وأيضا يقال: وإن كان غريزياً ولكن استعماله على وفق الشرع وقانونه يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فهو من الإيمان بهذا الاعتبار.

لطيفة في الحياء: قال في الروض الفائق: قال مالك بن دينار: كان لي جار مسرف على نفسه فاجتمع الجيران إليَّ يشكونه، فأحضرته وقلت له: إنته عن عصيانك، واتق الله فإما أن تتوب وإما أن تخرج من هذه المحلة، قال: أنا في ملكي ما أخرج منه، قلت له: نشكوك إلى سلطان فقال: أنا من أصحابه، قلت: فندعو الله عليك، قال: ربي أرحم بي منكم ثم نهض، فلما كان الليل رفعت يدي وقت السحر وقلت: سيدي قد آذانا هذا الرجل فافعل به ما شئت، فهتف بي هاتف لا تدع عليه فإنه من أوليائنا قال: فقمت من ساعتي وطرقت عليه الباب فخرج، وظن أني قد خرجت لأخرجه من المحلة، فخرج وهو يبكى ويقول: يا سيدي السمع والطاعة أنا أخرج من المحلة قال: فقلت: يا حبيبي ما جئتك لهذا، وإنما الساعة تضرعت إلى الله فهتف هاتف لا تدع عليه فإنه من أوليائنا، فبكى بكاء شديداً وتاب وحسنت توبته، فأصبح الناس يزورونه ويتبركون به كثيراً، فخرج إلى مكة شرفها الله تعالى ماشياً وأقام بها فحججت في العام فبينما أنا في وقت الظهيرة في المسجد الحرام بحائط وإذا بجماعة قد اجتمعوا في جانب المسجد فقمت إليهم فإذا هم قد أحدقوا برجل فتأملته فإذا هو صاحبي وهو ملقى على التراب وهو يجود نفسه، فجلست عند رأسه أبكي ففتح عينيه فرآني فقال: يا مالك أترى يعفوا عن تلك السيئات، ويرحم هذه العبرات، إنما خرجت من تلك المحلة،

وفارقت وطني حياء منك وأنت مخلوق، فكيف أقف غداً بين يدي الخالق، ثم تنفس وتحسر ومات، رحمة الله تعالى عليه.

ولله در القائل:

«من كان وكان، ما كل واصل مواصل، ولا العناء يدني المنى، هذي سوابق لواحق، لمن يشاء الوهاب، قل لي إذا لم تصبر وتحتمل، إيش لك عمل، تقدر بقوة عزمك تغالب الغلاب، سلم قيادك تسلم، واخضع لمالك مهجتك تغنم، إذا اعتنى بك أتاك من أقرب الأبواب،،كم من موفق تائب، قد بان له سبل الهدى، وكم شقي وعاص، إلى السعة ما تاب، ويحك عروس المنايا، لبيت لحدك خبئت، وذا مشيبك وافى في جملة الخطاب، كأس المنايا دائر على البرايا كلهم، فقل لمن هو حاضر يخبر لمن قد غاب، غداً تبين الفضائح، ويشتهر ما قد خفي، وفي القيامة ينادى هل من قصدنا خاب؟».

فائدة: الحياء محمود وحقيقته: خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، فيستفاد من هذا أن الحياء خير لأنه يبعث الإنسان على فعل الخير ويمنعه من فعل المعصية، فلهذا جاء في حديث: «**الحياء خير كله**»[1]، وفي حديث آخر: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[2].

واستشكل العلماء هذا أيضاً بأن الحياء قد يمنع من الخير ومن قول الحق، وما يمنع من فعل الخير وقول الحق كيف يكون خير.

وأجابوا عن هذا أيضاً: بأن هذا ليس بحياء حقيقي شرعي بل هو عجز، وجوزوا تسميته حياء بطريق المجاز، سماه بعض أهل العرف حياء الشبهة بالحياء الحقيقي.

وقد ورد في فضل الحياء وفضل من تخلق به أحاديث قال ﷺ ذات يوم لأصحابه: «**استحيوا من الله**» قالوا: إنا نستحي من الله يا رسول الله والحمد لله فقال: «**ليس**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٦٤، رقم ٣٧)، وأبو داود في سننه (٤/٢٥٢، رقم ٤٧٩٦)، وأحمد في مسنده (٤/٤٢٦، رقم ١٩٨٣٠)، والبزار في مسنده (٩/٢٩، رقم ٣٥٣٧)، والروياني في مسنده (١/١٢٨، رقم ١٢٧)، والطيالسي في مسنده (ص ١١٤، رقم ٨٥٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/١٧١، رقم ٣٨٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٧٦، رقم ٧٠) عن عمران بن حصين.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٦٧، رقم ٥٧٦٦)، ومسلم في صحيحه (١/٦٤، رقم ٣٦) من حديث عمران بن حصين أيضاً.

ذلـــك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حـــوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة وله نية الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[1].

ومعـــنى «**أن تحفـــظ الرأس وما وعى**» حفظه من السمع والبصر واللسان، فلا يستعملها إلا فيما يحل، وقوله: «**والبطن وما حوى**» يريد لا يجمع فيه إلا الحلال ولا يأكل إلا الطيب، ويحتمل أن يراد بما حوى الفرج والقلب والرجل.

وفي بعـــض كتب الله المنـــزلة يقول الله: ما انصفني ابن آدم يدعوني فأستحي أن أرده، ويعصيني ولا يستحي مني.

وفيهـــا أيضاً يقول الله تعالى: عبدي إنك ما استحيت مني أنسيت الناس عيوبك، وأنســـيت بقـــاع الأرض ذنوبك، ومحوت من أم الكتاب زلاتك، ولم أناقشك يوم الحساب يوم القيامة.

وفيها أيضاً يقول الله تعالى: إن كنتم لا تعلمون أني أنظر إليكم فالخلل في إيمانكم، وإن كنتم تعلمون أني أنظر إليكم فلم جعلتموني أهون الناظرين.

وكـــان الفضـــيل رحمـــه الله تعالى يقول: يا مسكين تغلق بابك وترخي سترك وتستحي من الناس ولا تستحي من الملكين الذين معك، ولا تستحي من القرآن الذي في صدرك، ولا تستحي من الجليل سبحانه وتعالى وهو لا يخفي عليه خافية، ولله در القائل في المعنى حيث يقول:

كـــن حييـــا إذا خـــلوت بذنب ... ليـــس يخفـــى عن الرقيب الشهيد

أتهـــــــاونت بالإلـــــــــه ... وتواريـــت عـــن عيـــون العـــبيد

يـــروى أن رجلاً حبشياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «**نعم**»، قال: فهل كان الله يراني؟ قال: «**نعم**»، فصاح الحبشي ووقع ميتاً.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٦٣٧/٤، رقم ٢٤٥٨) وقال: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد، وأحمد في مسنده (٣٨٧/١، رقم ٣٦٧١)، والحاكم في المستدرك (٣٥٩/٤، رقم ٧٩١٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو يعلى في مسنده (٤٦١/٨، رقم ٥٠٤٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٥٢/١٠، رقم ١٠٢٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٤/٧، رقم ١٠٥٦١) عن عبد الله بن مسعود.

لطيفـــة: مر منصور بن عمار فوجد شاباً يحدث امرأة فانصرف الشاب، لما رأى منصور بن عمار فتقدم منصور فكلمها أن تذهب فمشت خلفه حتى دخلت منـــزله، فقعدت في منـــزله ووقف منصور يصلي فطول عليها، فلما سلم قالت: يا هذا طولت عليَّ فقال لها: ما تقولين في رجل عليه حق بأربعة شهود، والحاكم يعلم به هل يقدر أن يمتنع منه بجحود؟ قالت: لا والله، قال: فإن معي ملكين ومعكي ملكين، والحاكم يعلم بنا ويرانا، فاضطربت المرأة ووقعت ميتة.

وقيـــل: إن المنافق إذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء، وإذا لم ير أحداً بطش، إنما يراقب الناس ولا يراقب الله عز وجل، وإن المؤمن يعلم أن الله يراه ويعلم سره ونجواه فإنما قلبه بين يدي الله.

وقـــال عمر بن الخطاب ﷺ: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثر غلطه، ومن كثر غلطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه.

فســـبحان من تفضل على قوم فعرفهم ورفعهم، واختصهم لخدمته واصطنعهم، وتكبر على قوم فأذلهم بحجابه، ووضعهم وطردهم عن بابه، ومنعهم وختم عنهم باب الوصـــل وقطعهـــم، ولقـــد جاءهم الإنذار فما نفعهم ولو علم فيهم خيراً لأسمعهم، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم.

لطيفـــة: كان طاووس بمكة فراودته امرأة عن نفسها فلم يزل بها حتى أتى بها إلى المســـجد الحـــرام، والناس مجتمعون فقال لها: قصي ما كنت تراودين قالت: أفي هذا الموضع والناس ينظرون، قال لها فالحياء من نظر الله حق، فتابت المرأة وحسنت توبتها ولقد أحسن من قال:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خـــلوت ولكـــن قـــل على رقيب
ولا تحســـبن الله يغفـــل ســـاعة ... ولا أن مـــا تخفيـــه عـــنه يغيـــب

***

المجلس الثامن عشر

في الكلام على قوله ﷺ «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»

الحمد لله المنفرد بالكمال والكبرياء والجلال، والبقاء والعز الذي لا نفاد له، الملك الكريم الذي يغفر لمن استغفره، ويقبل من استقاله، ويجيب من سأله الجميل، الذي غمر العباد بره فبحار عطائه سائلة، الغفور الذي ستر عباده عند المسألة، القريب الذي قرب أحبابه فوجدوا لذة المعاملة، فقلوبهم لذكره حاضرة، وعيونهم في خدمته ساهرة، وأبدانهم من مخافته ناحلة، العزيز الذي قطع المبعدين عن بابه، وأذابهم بأليم حجابه، السعيد من قربه المولى الكريم، والطريد من أبعده الملك الحكيم، والقلوب بسر تدبيره جاهله، استوى على العرش من غير تكييف علو عظمته وقهره، وكيف يحمل العرش حامله، القلوب تعرفه بصفته، والرقاب خاضعة لعزته، والعقول في تعظيمه حائرة ذاهلة، صفاته قديمة وتخيلات المشبهين والمعطلين باطلة، لا يرد أفعاله كم ولا كيف، ولا ينسب شيء من أحكامه إلى حين، فاقطع لسان الاعتراض وكف كف المجادلة، فكلما تصوره وهمك فهو حادث مخلوق، وكيف يشبه المفعول فاعله، أحمده على ما أسبغ علينا من نعمه الكاملة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله ضمن الربح الجزيل لمن عامله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، نبي أوضح كل مشكل، وبين حكم كل نازلة، فأضحت شمس الإيمان مشرقة، ونجوم البهتان آفلة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة متواصلة وسلم.

قَالَ البُخَارِي:

باب الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِه وَيَدِه[1]

حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ[2]، قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّفَرِ[3]، وَإِسْمَاعِيلَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رضي الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١٢٣): قوله «باب» سقط من رواية الأصيلي وكذا أكثر الأبواب، وهو منون ويجوز فيه الإضافة إلى جملة الحديث لكن لم تأت به الرواية.
وقوله: «المسلم...» استعمل لفظ الحديث ترجمة من غير تصرف.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٢٣): قوله: «أبي إياس» اسمه ناهية بالنون وبين الهاءين ياء أخيرة، وقيل اسمه: عبد الرحمن.

(٣) قال ابن حجر في الفتح (١/١٢٣): قوله: «أبي السفر» اسمه سعيد بن يحمد، وإسماعيل مجرور بالفتحة عطفاً عليه، والتقدير: كلاهما عن الشعبي.

«الْمُسْلِمُ[(١)] مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّـهُ عَنْهُ»[(٢)].

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ[(٣)]: حَدَّثَنَا دَاوُدُ عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١٢٣): قوله: «المسلم» قيل: الألف واللام فيه للكمال، نحو زيد الرجل أي: الكامل في الرجولية، وتعقب بأنه يستلزم أن من اتصف بهذا خاصة كان كاملاً، ويجاب: بأن المراد بذلك مراعاة باقي الأركان.

قال الخطابي: المراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق المسلمين.

وإثبات اسم الشيء على معنى إثبات الكمال له مستفيض في كلامهم، ويحتمل أن يكون المراد بذلك أن يبين علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه، وهي سلامة المسلمين من لسانه ويده، كما ذكر مثله في علامة المنافق، ويحتمل أن يكون المراد بذلك الإشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه، لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه فأولى أن يحسن معاملة ربه، من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٢٥): هذا الحديث من أفراد البخاري عن مسلم، بخلاف جميع ما تقدم من الأحاديث المرفوعة، على أن مسلماً أخرج معناه من وجه آخر، وزاد ابن حبان والحاكم في المستدرك من حديث أنس صحيحاً: «المؤمن من أمنه الناس» وكأنه اختصره هنا لتضمنه لمعناه، والله أعلم.

(٣) قال الحافظ بن حجر في الفتح (١/١٢٥): قوله: «وقال أبو معاوية حدثنا داود» هو ابن أبي هند، وكذا في رواية ابن عساكر عن عامر وهو الشعبي المذكور في الإسناد الموصول.

وأراد بهذا التعليق بيان سماعه له من الصحابي، والنكتة فيه رواية وهيب بن خالد له عن داود عن الشعبي عن رجل عن عبد الله بن عمرو، حكاه ابن منده، فعلى هذا لعل الشعبي بلغه ذلك عن عبد الله، ثم لقيه فسمعه منه.

ونبه بالتعليق الآخر على أن عبد الله الذي أهمل في روايته هو عبد الله بن عمرو الذي بين في رواية رفيقه، والتعليق عن أبي معاوية وصله إسحاق بن راهويه في مسنده عنه، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من طريقه ولفظه: «سمعت عبد الله بن عمرو يقول: ورب هذه البنية لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجر من هجر السيئات، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده» فعلم أنه ما أراد إلا أصل الحديث.

والمراد بالناس هنا: المسلمون كما في الحديث الموصول، فهم الناس حقيقة عند الإطلاق، لأن الإطلاق يحمل على الكامل، ولا كمال في غير المسلمين، ويمكن حمله على عمومه على إرادة شرط وهو إلا بحق، مع أن إرادة هذا الشرط متعينة على كل حال، لما قدمته من استثناء إقامة الحدود على المسلم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

وَقَالَ عَبْدُ الأَعْلَى عَنْ دَاوُدَ عَنْ عَامِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

قوله: «**عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما**» هذا هو الزاهد العابد الصحابي أبي عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي، كنيته أبو محمد على الأصح، أسلم قبل أبيه، وكان بينه وبين أبيه في السن اثنتا عشر سنة، وقيل: إحدى عشر سنة، قالوا: ولا نعرف أحداً بينه وبين هذا القدر غيره، وكان غزيراً في العلم مجتهداً في العبادة وكان أكثر حديثاً من أبي هريرة لأنه كان يكتب، وأبو هريرة لا يكتب، ومع ذلك فالذي روى له قليل بالنسبة إلى ما رواه أبو هريرة.

روى عن رسول الله ﷺ سبعمائه حديث، اتفقا منهما على سبعة عشر وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بعشرين، وكان ﷺ أحمر عظيم البطن، وعمي في آخر عمره، واختلفوا في أي مكان توفى، فقيل: بمكة، وقيل: بالطائف وقيل: بمصر في شهر ذي الحجة سنة خمس وستين، وقيل: سنة ثلاث وسبعين عن ستين وسبعين سنة

«**عن النبي ﷺ**» اشتمل هذا الحديث على جملتين الأولى قوله: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**» واختلف العلماء في معنى هذه الجملة فقيل: معناها المسلم الكامل من سلم المسلمون من لسانه ويده، فتكون الألف واللام في المسلم للكمال نحو زيد الرجل الكامل في الرجولة، فإن إثبات الشيء للشيء على معنى إثبات الكمال له مستفيض في كلامهم، فقد صرح سيبويه بأن الجنس إذا أطلق محمولاً على الكامل ويسقط ما استشكل منه إذا المفهوم من الحديث: أن من لم يسلم المسلمون من لسانه لا يكون مسلماً، نعم يخرج عن الإسلام الكامل إذا لم يسلم المسلمون من لسانه ويده، و لم يخرج عن أصل الإسلام.

وقيل: معنى الحديث والمراد به الإشارة إلى حسن معاملة العبد ربه لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه فالأولى أن يحسن معاملة ربه من باب التثنية بالأدنى على الأعلى.

فإن قيل: إن قوله: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**» يقتضي ويفهم أنه لا يجب الكف عن الكفار في تحصيل الإسلام الكامل بل يحصل له الإسلام الكامل إن لم يكف لسانه ويده عنهم وليس كذلك.

والجواب: أن هذا الحديث خرج مخرج الغالب أن يكف مفهوم له، وخص المسلمون بالذكر لأجل أنه يتأكد على المسلم أن يكف الأذى عن أخيه المسلم، لا لأجل أنه لا يجب الكف عن الكافر.

أو يقال في الجواب: الكفار بصدد أن يقاتلوا وإن كان فيهم من يجب الكف عنه فصح الاحتراز عنهم بالمسلمين.

فـــإن قيل: قوله «**المسلمون**» بصيغة جمع التذكير يقتضي أنه لا يجب الكف عن المسلمات في تحصيل الإسلام الكامل، وليس كذلك بل ولابد وأن يكف لسانه ويده عن المسلمين والمسلمات ليحصل له الإسلام الكامل.

جوابه: أن الإتيان بجمع التذكير هنا للتغليب فالمسلمات يدخلن في ذلك.

فـــائدة: إنما خص ﷺ اللسان واليد بالذكر مع أن الأذى قد يحصل بغيرهما إلا أن الإيذاء باليد واللسان أكثر من غيرهما، فاعتبر الغالب أيضاً.

وخص اللسان لأنه يعبر عما أضمره الإنسان في نفسه، وخصت اليد بالذكر لأن سلطة الأفعال إنما تظهر باليد إذ بها البطش والقطع والأخذ والمنع والإعطاء ونحوه.

وقـــال أبو ذر ابن الشيخ برهان الدين المحدث في شرحه: وإنما جمع بينهما ﷺ و لم يقتصـــر على أحدهما لأن كف اليد قد يكون بسبب الضعف والبعد، فإذا انضم إليه كف اللسان علم أن كف اليد كان للإسلام قاله السخاوي.

وأفـــاد شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر في الفتح هنا مناسبة لطيفة فقال[1]: في ذكـــر اليد دون غيرها من الجوارح نكته وهي لأجل أن يدخل فيها اليد المعنوية، فإن اليـــد على قسمين: يد الجارحة، وهي معلومة، واليد المعنوية وهي الاستيلاء على حق الغـــير بغير حق فإنه يقال: وضع فلان يده على مال فلان أي: استولى عليه باليد المعنوية، فعلى هذا يشترط في تحصيل الإسلام الكامل سلامة المسلمين من لسانه ويده أعم من أن تكون يد الجارحة أو يد المعنى، فمن استولى على أموال الناس بغير حق يصدق عليه أنـــه لم يســـلم المسلمون من يده فلا يكون مسلماً كاملاً، وإن لم يؤذهم بلسانه ويد الجارحه.

فـــائدة أخرى: إنما قدم رسول الله ﷺ اللسان على اليد لأن أذى اللسان أعم من أذى اليـــد، واللســـان يمكنه القول في الماضين والموجودين والحادثين بخلاف اليد فإنها تختص بالموجود.

قال شيخ الإسلام ابن حجر[2]: نعم يشارك اللسان في ذلك الكتابة، وإن أثرها في

---

(١) انظر الفتح (١/١٢٤).

(٢) انظر الفتح (١/١٢٤).

ذلـــك عظيم فإنه يمكن أن يؤدي الإنسان بكتابة الماضين والموجودين والحادثين كما يؤدي بلسان ذلك.

وهذا الذي قاله ﷺ أخذه من قولهم المشهور: القلم أحد اللسانين، بل ربما يترتب على الكتابة من الضرورة والنكاية عظيم ما يترتب على النطق باللسان، كما يقع ذلك من شهود الزور، ومن دواوين الملوك، ومن الموقعين عند القضاء، أما الشهود فهم قوم غالب المعاش وحقوق الناس متعلقة بكتابتهم، فإذا كتب الشاهد على شخص مسطور بمبـــلغ من الدراهم مثلاً لشخص آخر، والحال أنه ليس عليه من ذلك الحق شيء، بل زور عليه كثير من الفساق الذي يبيع دينه بدنيا غيره فقد ضره وآذاه بشهادته، وكتابته الـــزور ضرراً أعظم من ضرر النطق باللسان فكيف يقف مثل هذا الشاهد المزور يوم القيامـــة بين يدي الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية، وقد نص العلماء على أن قول الـــزور مـــن الكبائر والكتابة قائمة مقام ذلك قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الـــزُّورَ**﴾[الفرقان: ٧٢]، وجاء في حديث: «**لا تـــزول قدما شاهد الزور يوم القيامة حتى تجب له النار**»[1] قـــال العلماء: شاهد الزور ارتكب ذنوباً:

أحدها: الكذب والافتراء على من شهد عليه والله تعالى يقول في كتابه ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾[غافر: ٢٨].

وثانيها: أنه ظلم الذي يشهد عليه حتى أخذ بشهادته ماله وعرض روحه للهلاك.

وثالثها: أنه ظلم الذي شهد له، بأن ساق له المال الحرام فأخذه ووجبت له النار قـــال رســـول الله ﷺ: «**من قضي له من مال أخيه بغير حق فلا يأخذه، فإنما اقتطع قطعة من النار**».

ورابعهـــا: أنه أباح ما حرم الله ومعصيته من المال والدم والعرض وقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور أو قول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت**»[2] متفق عليه.

وقد ذم الشهود جماعة من الصالحين ونظموا فيها أبياتاً: قال سفيان الثوري: الناس

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٠/٣٩، رقم ٥٦٧٢)، والطبراني في المعجم الأوسط (٨/١٩١، رقم ٨٣٦٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/٢٦٤) عن ابن عمر.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٣٦): في إسناده محمد بن الفرات وهو كذاب.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٩٣٩، رقم ٢٥١١)، ومسلم في صحيحه (١/٩١، رقم ٨٧) عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه.

كلهم عدول إلا العدول.

وقال عبد الله بن المبارك: الشهود هم السفلة.

وقال بعض الفضلاء فيهم:

قوم إذا غضبوا كانت رماحهم ... بث الشهادة بين الناس بالزور
هم السلاطين إلا أن حكمهم ... على السجلات والأملاك والدور

وقال آخر:

إياك أحقاد الشهود فإنما ... أحكامهم تجري على الحكام
أقوام إذا خافوا عداوة فادر ... سفكوا الدماء بأسنة الأقلام

وقال آخر:

احذروا نية الشهود ... الأخسرين الأرذلينا
قوم لئام يسرقون ... ويحلفون ويكذبونا

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

شهود ولكن آبين عن الهدى ... عدول عن الحق المبين عدول

وقال ابن السبكي: ومن سلك من الشهود أمر به، واجتنب ما نهى عنه، فهو محمول مأجور غير أنه غلب على أكثرهم التسارع إلى تحمل الشهادة من غير تأمل وتحرير لما يشهد به، وذلك مذموم.

وأما أخذ الشاهد من الأجر على الشهادة عند القاضي فهو حرام، وإنما يستحق الأجرة على تحمل الشهادة، وكتابة السطور، وأما قسمته ما يتحصل للشهود في الحانوت، فهي غير جائزة لأنها شركة أبدان، وأما دواوين الملوك ودواوين نوابهم فمن حقهم الواجب عليهم إذا وقف أحد إلى الملك في واقعة ان يتلطفوا ويواصلوا تلك الواقعة إلى ذهن الملك، ويكرروها عليه ليفهمها، وإلا فمتى ظلم الملك واحداً في واقعة لعدم فهمه، ككثير من هؤلاء الأتراك وكان كاتب السر والموقع هو الذي قرأ عليه القصة في تلك الواقعة، كان شريكاً له في ذلك الظلم، ومن حقهم أيضاً أن يحترزوا عن الكتابة في قطع الأرزاق، فإن يقطع أحد رزق أحد بلسانه وقلمه ما أفلح قط، خصوصاً في أرزاق أهل العلم الشريف، وما أحسن ما نقشه بعض الدواوين على دواته حيث قال:

حلفت من يكتب بي ... بالواحد الفرد الصمد

أن لا يمـــــد مـــــده في قطـــــع رزق لأحـــــد

وللشيخ تاج الدين السبكي بيتان قريبان من هذين البيتين نقشهما بعض الأمـــراء على دواته فقال:

حلفـــت مـــن يكتـــب بي بـــالله رب العـــالم

أن لا يمـــد مـــد تـــؤلم قلـــب عـــالم

وأيضاً يقال: إنما قدم ﷺ اللسان على اليد لأن نكايته أعظم وأشد تأثيراً في القلب من نكاية اليد، ولهذا قال ﷺ: «**أهج المشركين فإنه أشق عليهم من رشق النبـــل**»[1] وقال الشاعر:

جراحـــات الســـنان لهـــا التـــأم ولا يلتـــأم مـــا جـــرى اللســـان

وقد ورد في شؤم اللسان، وفي فضل كفه، وفي الأمر بإمساكه، وفي النـــهي عـــن التكلم به بما لا يفيد أحاديث وآثار عن الصحابة والتابعين رضي الله عنـــهم أجمعـــين روينا في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن العبـــد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها** -أي: ما يتفكر في أنها خير أم لا-، **يزل بها إلى النـــار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[2].

وروينا في هذا الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليـــتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً، رفع الله بها درجات**» أي: يرفع الله بها درجاته أو يرفعه الله بها درجات «**وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقـــي لها بالاً يهوي بها في جهنم**»[3].

وروينا في كتاب الترمذي والنسائي وابن ماجة عن سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر اعتصم به قال: «**قل ربي الله ثم استقم**» قلت: يا

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٨/٤، رقم ٣٥٨٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٣٨/١٠، رقم ٢٠٨٩٥) عن عائشة بطرف: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل».

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٧٧/٥، رقم ٦١١٢)، ومسلم في صحيحه (٢٢٩٠/٤، رقم ٢٩٨٨) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٧٧/٥، رقم ٦١١٣) عن أبي هريرة.

وأخرجه أيضاً: البيهقي في السنن الكبرى (١٦٤/٨، رقم ١٦٤٤٢)، وفي شعب الإيمان (٢٤٦/٤، رقم ٤٩٥٥).

رســـول الله مـــا أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «**هذا**»[١]. قال الترمذي حديث حسن صحيح.

وروينا في كتاب الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**لا تكـــثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي**»[٢].

وروينا أيضاً عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قلت: يا رسول ما النجاة؟ قال: «**أمسك عـــليك لســـانك وليسعك بيتك، وأبك على خطيئتك**»[٣] قال الترمذي: حديث حسن.

روينا فيه أيضاً عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان أي: تخضع له فتقول اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإذا اعوججت اعوججنا**»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٦٠٧/٤، رقم ٢٤١٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثقفي، والنسائي في السنن الكبرى (٤٥٨/٦، رقم ١١٤٨٩)، وابن ماجه (١٣١٤/٢، رقم ٣٩٧٢).

وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٤١٣/٣، رقم ١٥٤٥٤)، والحاكم في المستدرك (٣٤٩/٤، رقم ٧٨٧٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه (٢٢١/٣، رقم ٩٤٢)، والطيالسي في مسنده (ص ١٧١، رقم ١٢٣١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٢٢/٣، رقم ١٥٨٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٦٩/٧، رقم ٦٣٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٦٠٥/٤، رقم ٢٤٠٦) وقال: هذا حديث حسن.

وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (١٤٨/٤، رقم ١٧٣٧٢)، والروياني في مسند (١٤٦/١، رقم ١٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٩/٤، رقم ٤٩٣٠) جميعاً عن عقبة بن نافع.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٦٠٧/٤، رقم ٢٤١١) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٦٠٥/٤، رقم ٢٤٠٧) عن شيخه محمد بن موسى، ثم ساق اسناداً عقبه فقال حدثنا هناد، حدثنا أبو أسامة عن حماد بن زيد نحوه، ولم يرفعه، وهذا أصح من حديث محمد بن موسى، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعوه حدثنا صالح بن عبد الله حدثنا حماد بن زيد عن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد الخدري قال أحسبه عن النبي ﷺ فذكر نحوه.

وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٩٥/٣، رقم ١١٩٢٧)، وأبو يعلى في مسنده (٤٠٣/٢، =

قال الغزالي: معناه والله أعلم أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان والله اعلم.

هذا المعنى ما حكي عن مالك بن دينار أنه قال: إذا رأيت قساوة في قلبك، ووهنا في بدنك، وحرمانا في رزقك، فاعلم أنك قد تكلمت بما لا يعنيك.

وروينا في كتاب الترمذي وابن ماجة عن أم حبيبة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: كل كلام ابن آدم عليه إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر الله تعالى.

وروينا في هذا الصحيح عن سهل بن سعد ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**»[1].

وروينا في كتاب الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة**»[2] قال الترمذي حديث حسن.

وروينا في كتاب الترمذي عن معاذ ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟ قال: «**لقد سئلت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**» ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟**» قلت: بلى قال: «**الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل**» ثم تلى ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...**﴾ حتى بلغ ﴿**يَعْمَلُونَ**﴾[السجدة: ١٦، ١٧] ثم قال: «**ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**» ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا نبي الله فأخذ بلسانه قال: «**كف عليك هذا**» فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما

= رقم ١١٨٥)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٣٠٢، رقم ٩٧٩)، الطيالسي في مسنده (ص ٢٩٣، رقم ٢٢٠٩).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٧٦، رقم ٦١٠٩)، والترمذي في سننه (٤/٦٠٦، رقم ٢٤٠٨)، وأحمد في مسنده (٥/٣٣٣، رقم ٢٢٨٧٤)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/٥٤٨، رقم ٧٥٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٣٥، رقم ٩١٣) عن سهلا بن سعد.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٦٠٦، رقم ٢٤٠٩) عن أبي هريرة، قال الترمذي: أبو حازم الذي روى عن أبي هريرة اسمه سلمان مولى عزة الأشجعية، وهو كوفي وأبو حازم الذي روى عن سهل بن سعيد هو أبو حازم الزاهد مدني، واسمه سلمة بن دينار وهذا حديث حسن غريب.

نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[1]. قال الترمذي: حديث حسن.

وحصائد الألسن ما حصله الإنسان واكتسبه من الإثم بالكلام فيما لا ينفع، وهذا الكلام استفهام إنكاري تقديره: ما يكب الناس إلا حصائد ألسنتهم.

فإن قيل: هذا الحديث يقتضي أن كل من يكب في النار فسبب كبه فيها اللسان مع أن بعض الناس يكب في النار بعمله لا بلسانه؟

فالجواب: أنه عام قيد خاص.

فائدة: قال ابن القيم في كتابه أقسام القرآن: فإن قيل: ما الحكمة في جعل الله سبحانه وتعالى اللسان عضواً لحمياً لا عظم فيه ولا عصب؟

ثم أجاب بإذن الله خلقه كذلك لتسهل حركته، ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه، فأي عضو من الأعضاء حركته كما يحرك اللسان لم يطاوعك كما يطاوعك اللسان، بل لابد أن يحصل التعب والملل إلا اللسان فلو كان عظماً لم ينتهي منه الكلام التام ولا الذوق التام.

ثم قال فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى جعل على اللسان غلقين أحدهما الأسنان والثاني الشفتان، وجعل على العين غطاء واحد و لم يجعل على الأذن غطاء، ثم أجاب بأنه سبحانه وتعالى جعل ذلك إشارة إلى أن آفة الكلام أكثر من آفة النظر وآفة النظر أكثر من آفة السمع، فجعل الأكثر آفات طبقتين لخطره وشرفه، وخطر حركاته، وكونه في الفم بمنزلة القلب في الصدر وجعل للمتوسط طبقة واحدة، وجعل الأقل آفة بلا طبقة فتنبه لهذه اللطيفة الإلهية والحكمة الربانية.

وقال ابن جماعة في شرح الأربعين فإن قيل: لم تعددت العين والأذن والأنف والخد دون اللسان.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/١١، رقم ٢٦١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.
وأخرجه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (٦/٤٢٨، رقم ١١٣٩٤)، وابن ماجه (٢/١٣١٤، رقم ٣٩٧٣)، وأحمد في مسنده (٥/٢٣١، رقم ٢٢٠٦٩)، والحاكم في المستدرك (٢/٤٤٧، رقم ٣٥٤٨)، والطيالسي في مسنده (ص ٧٦، رقم ٥٦٠)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٦٨، رقم ١٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٧٣، رقم ١٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٨، رقم ٢٨٠٦)، وهناد في الزهد (٢/٥٢٩، رقم ١٠٩٠)، والديلمي في الفردوس (٤/٣٤١، رقم ٦٩٨٦).

ثم أجاب: بأن الله صنع ذلك إشارة إلى مطلوبية قلة الكلام.

قال العلماء: في الحديث دلالة على التحذير من أذى اللسان ومن آفاته، وآفاته كثيرة لا تنحصر، وأكثر معاصي ابن آدم فيه من أقبحها وأضرها للناس وأفحشها الغيبة.

والغيبة: أن يذكر الإنسان غيره بما يكرهه وإن كان فيه، حتى أن قلت عن طويل: فلان طويل أو عن قصير: فلان قصير، وكان يكره ذلك فإنه حرام ويعد غيبة، وهي حرام سواء بقلبك أو لسانك أو خطك أو إشارتك بعين ورأس أو نحوها، وسواء كان في ماله أو ولده أو زوجته أو نحو ذلك.

والذي يدل على إنها محرمة، الكتاب والسنة وإجماع الأمة قال الله تعالى ﴿**وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾[الحجرات: ١٢].

﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾[الإسراء: ٣٦].

واختلف العلماء رضي الله عنهم فيها: هل هي من الكبائر أو من الصغائر فقال صاحب «العدة» وأقره الرافعي: أنها من صغائر الذنوب لعموم البلوى.

وقال القرطبي في تفسير القرآن: إنها من الكبائر بلا خلاف، قال الزركشي: وقد ظفرت بنص الإمام الشافعي على إنها من الكبائر فالقول: بأنها صغيرة ضعيف أو باطل.

لكن قال القاضي زكريا: يمكن حمل نص الشافعي على ما إذا أصر على الغيبة، فإنها تصير من الكبائر بلا خلاف، وكذا لو اغتاب عدلاً.

قال الشيخ ولي الله تقي الدين الحصيني: وقد يحتقر الشخص بالكلمة الواحدة من الغيبة، لكثرة إدمانه عليها، وتعود لسانه بها ومخالطته من الاعتناء له بحفظ أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ لا سيما المتفقهة والصوفية، فإن غيبتهم غالباً تكون في المساجد، والربط المبنية لذكر الله تعالى وعبادته، فيرتكبون مخالفة أمر الله وأمر رسوله ﷺ في أطهر البقاع مع علمهم بأن الكلمة الواحدة من الغيبة عظيم أمرها، فقد صح في الحديث أن عائشة رضي الله عنها اغتابت ضرتها صفية وقالت للنبي ﷺ: حسبك من صفية إنها كذا أي: يكفيك منها إنها امرأة قصيرة فقال ﷺ: «**قلت كلمة لو مزجت**

بمـــاء البحر لمزجته»[١] أي: خالطتة مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لشدة نتنها وقبحها. رواه الترمذي وحسنه وصححه.

فهذا حديث من أبلغ الزواجر عن الغيبة إذا كان هذا شأن كلمة هي في المقول فيها، فـــإن عائشة قالت عنها: إنها قصيرة وكانت قصيرة، فكيف حال من يتكلم في غيره بكلمة مفتراه فيه، إنا لله وإنا إليه راجعون من كلمة توقع الإنسان في الهلاك.

وجـــاء في حديث عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا أخي يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**»[٢] رواه أبو داود.

وقال رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله**»[٣] رواه مسلم.

قال العلماء: وسامع الغيبة شريك المغتاب فكما تحرم الغيبة يحرم استماعها، ويجب إنكارهـــا إن لم يخـــف ضرراً وإن خاف ضررا فارق ذلك المجلس، فإن لم يقدر على المفارقـــة بذكر أو غيره لا يضره بعد ذلك السماع من غير استماع، فيجب على كل مـــن سمع غيبة أخيه أن يرى باباً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من فعل ذلك فقد فار فوزاً عظيما، فقدر ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة**»[٤] رواه الترمذي وقال حديث حسن.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٩/٤، رقم ٤٨٧٥)، والترمذي في سننه (٦٦٠/٤، رقم ٢٥٠٢)، وأحمد في مسنده (١٨٩/٦، رقم ٢٥٦٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠١/٥، رقم ٦٧٢١) عن عائشة.

(٢) أخرجه أبو داود فس سننه (٢٦٩/٤، رقم ٤٨٧٨) عن أنس بن مالك ﷺ.
وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٢٢٤/٣، رقم ١٣٣٦٤)، والطبراني في المعجم الأوسط (٧/١، رقم ٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٩/٥، رقم ٦٧١٦)، والديلمي في مسند الفردوس (٤٣٠/٣، رقم ٥٣١٩)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٢٦٥/٦، رقم ٢٢٨٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٨٦/٤، رقم ٢٥٦٤)، والترمذي في سننه (٣٢٥/٤، رقم ١٩٢٧)، وابن ماجه في سننه (١٢٩٨/٢، رقم ٣٩٣٣)، وأحمد في مسنده (٢٧٧/٢، رقم ٧٧١٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩٢/٦، رقم ١١٢٧٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٣٢٧/٤، رقم ١٩٣١) عن أبي الدرداء وقال: هذا حديث حسن.
وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٤٤٩/٦، رقم ٢٧٥٧٦)، والحارث في مسند (٨٣٦/٢، رقم ٨٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٠/٦، رقم ٧٦٣٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٥٨/٧).

وإن لم يرد غيبة أخيه، أو كان من عادته عدم اعتنائه بالدين وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا وأمثاله قد وقعوا في شر عظيم، يوجب غضب الله تعالى وغضب رسوله ﷺ.

وذكر العلماء: أن الغيبة تباح بل تجب في صور منها الفاسق المجاهر بالفسق، والمبتدع المجاهر ببدعة كشارب الخمر المجاهر به، فيجوز غيبة تلك العصبة دون غيرها إلا إن كان لجواز ذكره بغيرها سبب آخر.

قال في الإحياء: إلا أن يكون المجاهر بها عالما يقتدى به فتمتنع غيبته لأن الناس إذا اطلعوا على زلته تساهلوا في ارتكاب الذنب، وغيبة الكافر محرمة أيضاً إن كان ذمياً لأن فيها تنفير لهم عن قبول الجزية وتركاً لوفاء الذمة، ومباحة إن كان حربياً لأنه ﷺ أمر حسان أن يهجوا المشركين.

ومنها: أن الإنسان إذا استشار في امرأة يريد أن يتزوجها أو امرأة في رجل تريد أن تتزوجه فيجب عليه ما ذكر فيها أو فيه من الغيبة، وليس ذكر هذا من باب الغيبة، بل من باب النصيحة، فيشترط للرجل إذا استشير في ذلك أن يذكر للخاطب أو للمخطوبة ما فيها أو فيه، على وجه النصيحة لا الوقيعة، فإن الدفع بمجرد قوله لا نفعل هذا أو لا تصلح لك فلانه، أو قال لها: لا يصلح لك فلان، أو خير لك فيه أو نحوه، و لم تجز الزيادة بذكر باقي عيوبه، وإذا استشير في أمر نفسه بالنكاح فإن كان فيه ما ثبت الخيار فيه وجب ذكره للزوجة، وإن كان فيه ما يعدل الرغبة عنه ولا يثبت الخيار كسوء الخلق والشح استحب، وإن كان فيه شيء من المعاصي وجب عليه التوبة في الحال وستر نفسه.

وتجوز الغيبة في صور أخرى غير ما ذكر، وقال حجة الإسلام الغزالي: من لم يصن لسانه وأكثر الكلام يقع لا محال في غيبة الناس كما قيل: من كثر لغطه كثر سقطه.

والغيبة هي الصاعقة المهلكة للطاعة على ما قيل: إن مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجنيقاً لحسناته فهو يرمي بها شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً.

وبلغنا عن الحسن رضي الله عنه أنه قيل: له يا أبا سعيد إن فلاناً اغتابك فبعث إليه بطبق فيه رطب، وقال: بلغني أنك اهديت إليَّ حسناتك فأحببنا أن نكافئك.

وذكروا: فات بعض الصالحين قيام الليل فعزته زوجته فقال: إن أقواماً صلوا الليل البارحة، فلما أصبحوا نالوا مني فتكون صلاتهم يوم القيامة في ميزاني.

قال سفيان الثوري: لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك.

وقال آخر: لا تبسط لسانك فيفسد عليك شأنك.

وقال ابن المبارك: احفظ لسانك إن اللسان سريع إلى المرء في قتله، وإن اللسان دليل الفؤاد يدل الرجال على عقله.

وقال آخر:

لسان المرء ليث في كمين ... إذا خلى عليه له إغارة
فصنه عن الخنا بلجام صمت ... يكن لك من بليته ستارة

وقال آخر:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه ... قد كانت تهاب لقاءه الشجعان

لطيفة: ذكر ابن الجوزي أبو نعيم عن الشعبي أنه قال: مرض الأسد فعادته السباع خلا الثعلب، فنم عليه الذئب وقال له: إن جميع السباع عادوك إلا الثعلب فقال: إذا حضر فأعلمني، فلما حضر عليه فعاتبه في ذلك فقال: كنت في طلب الدواء لك، قال: أي شيء أصبت؟ فقال: خرزة في ساق الذئب ينبغي أن تخرج فضرب الأسد مخالبه في ساق الذئب فمر به الذئب بعد ذلك ودمه يسيل فقال له الثعلب: يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر إلى ما يخرج من رأسك.

قال أبو نعيم: لا يقصد الشعبي من هذا سوى ضرب المثل تعليم للعقلاء وتنبيه الناس وتأكيد الوصية في حفظ اللسان في تهذيب الأخلاق والأدب بكل طريق، وفي ذلك قيل:

احفظ لسانك لا تقل فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي: أنت أيها المتكلم لا يخلوا إما أن تتكلم بكلام حرام كالغيبة، أو مباح من فضول الكلام الذي لا يعنيك، فإن تكلمت بكلام حرام كأن وقعت بين المسلمين ففيه عذاب الله تعالى الذي لا طاقة لك به، فقد قال رسول الله ﷺ: «**ليلة أسري بي نظرت في النار قوماً يأكلون الجيف، قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٥٧، رقم ٢٣٢٤)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٩/٥٥٠، رقم ٥٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٩٢): رواه أحمد وفيه قابوس وهو ثقة وفيه ضعف، وبقية =

وقال رسول الله ﷺ لمعاذ: «**اقطع لسانك عن حملة القرآن وطلاب العلم، لا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب النار**»(١).

روى أبو قلابة ﷺ: إن في الغيبة خراب القلب من الهدى، فنسأل الله العصمة بفضله وكرمه قال.

وإن تكلمت بكلام غير مباح ففيه أربعة صور:

أحدها: شغل الكرام الكاتبين بما لا خير فيه ولا فائدة، وحق للمرء أن يستحي منهما فلا يؤذيهما قال تعالى ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[ق: ٨].

والثاني: إرسالهم كتاب إلى الله ﷻ من اللغو والهذر، فليحذر العبد من ذلك، وليخش الله ﷻ.

وذكر أن بعضهم نظر إلى رجل تكلم بالخنا فقال: يا هذا إنما تملي كتاباً إلى ربك سبحانه فانظر ماذا تملي.

الثالث: قراءته بين يدي الملك الجبار جل جلاله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بين الشدائد والأهوال، وأنت جوعان عطشان عريان منقطعاً عن الجنة محبوساً عن النعمة.

والرابع: اللوم والتعيير بقول الله: يا عبدي لما قلت كذا وكذا فتقطع حجته، ويحصل له الحياء من رب العزة جل جلاله، ولهذا قيل: إياك والفضول فإن حسابه يطول.

وقال الإمام الشافعي لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا

= رجاله رجال الصحيح.

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/٣٨، رقم ٥٩) ضمن حديث طويل روي عن معاذ ﷺ فيه أن رجلاً قال حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت، ثم سكت ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ قال لي: «يا معاذ» قلت له: لبيك بأبي أنت وأمي قال: «إني محدثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك، وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة، يا معاذ إن الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات والأرض، ثم خلق السماوات فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بواباً عليها... الحديث».

قال المنذري: رواه ابن المبارك في كتاب الزهد عن رجل لم يسمه عن معاذ، ورواه ابن حبان في غير الصحيح والحاكم وغيرهما، وروي عن علي وغيره وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه في جميع طرقه وبجميع ألفاظه.

تكلمت بالكلمة ملكتك ولا تملكنا.

فقال: بعضهم اللسان كالسبع إن لم توثقه أكلك.

وقال الغزالي في الإحياء: كان أبو بكر ﷺ يضع في فمه حجراً ليمنع نفسه من الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وقال ابن مسعود: والذي لا إله إلا الله هو ما شيء أحوج إلىَ طول السجن من اللسان.

وقال لقمان: قال لي سيدي: اذبح هذه الشاة وائتنا بأطيب ما فيها، فجاء بالقلب واللسان، وقال له مرة أخرى إذبح شاة وائتنا بأخبث لحمها، فأتى بالقلب واللسان، فقيل له في ذلك فقال: ليس في الجسد مضغتان أطيب منها إذا طابا، ولا أخبث إذا خبثا.

ونقل عن إمامنا الشافعي أنه قال: المؤمن إذا أراد أن ينور الله قلبه فليترك الكلام فيما لا يعنيه.

وقال أيضاً: ثلاثة تزيد في العقل مجالسة العلماء أو مجالسة الصالحين، وترك الكلام فيما لا يعنيه.

وقال معروف الكرخي: الكلام فيما لا يعنيك خذلان من الله.

وقال وهب بن منبه: العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت، واحدة في الهرب من الناس.

ولقد أحسن من قال:

وكم ساكن طال المنى بسكوت ... وكم ناطق يجني عليه لسان

قال سليمان عليه السلام: إذا كان الكلام من فضة فالصمت من ذهب.

فائدة: روى قس بن ساعده وأكتم بن صيفي اجتمعنا فقال أحدهما لصاحبه: وجد في ابن آدم من عيب فقال: عيوب ابن آدم أكثر من أن تحصى، الذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، ووجد خصلة إن استعملها ستر العيوب، كأنه قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان.

وقال ابن مسعود ﷺ: يا لسان قل خيراً تغنم أو أسكت تسلم من قبل أن تندم.

قيل: يا أبا عبد الرحمن هذا شيء تقوله من عندك أو شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟

قال: بل سمعته يقول: «**إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**»[١].

لطيفة: قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله لا أزيد على الصلوات الخمس ورمضان، وليس لي مال أتصدق به ولا أحج، أين أنا إن مت؟ قال: «**في الجنة**»، قال: معك تبسم وقال «**نعم إن حفظت قلبك من الحسد، ولسانك من الكذب، وعينيك من النظر إلى محارم الله، وأن لا تزدري بها مسلماً، دخلت الجنة معي على راحتي هاتين**»[٢] وينبغي للإنسان الحلم والصفح عن عثرات الإخوان، فإذا بلغه عن أحد أنه تكلم في حقه بكلام فاحش أن يعفو عنه، ولا يقابله بإسأته، بل يسكت أو يقابله بحسن الخلق، ولين الكلام ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[آل عمران: ١٣٤].

وورد في الحديث: «**والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفو يعزكم الله**»[٣].

وجاء في حديث آخر عن ابن عباس أنه قال قال النبي ﷺ «**أؤنبئكم بأشراركم**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**إن أشراركم الذي ينزل وحده، ويجلد عبده، ويمنع رفده، أفلا أنبئكم بشر من ذلك**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**من يبغض الناس ويبغضونه أفلا أنبئكم بشر من ذلك**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**الذين لا يقيلون عثرة، ولا يقبلون معذرة، أفلا أنبئكم بشر من ذلك**» قالوا: بلى يا رسول الله قال:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/١٩٧، رقم ١٠٤٤٦)، والشاشي في مسنده (٢/٨٢، رقم ٦٠٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/١٠٧)، وابن المبارك في الزهد (ص ١٢٨، رقم ٣٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٤٠، رقم ٤٩٣٣)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/٤٥٨) جميعاً عن عبد الله ﷺ.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) رواه ابن عدي في الكامل (٢/٣٤، ترجمة ٤٧٠ الحسن بن عبد الرحمن بن عباد بن الهيثم) المعروف بالاحتياطي وضعفه ابن عدي وقال في آخر ترجمته: لا يشبه حديثه حديث أهل الصدق.

والحديث أورده أبو الفرج ابن الجوزي في صفوة الصفوة (١/٢١٤) ضمن أحاديث ساقها في جوامع كلمه ﷺ.

وأفاد العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٨٤، رقم ١٠٢٨) أنه جزء من حديث: «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله» وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في ذم الغضب فقال: عن محمد بن كثير العبدي بزيادة: «والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله».

«من لا يرجى خيره ولا يؤمن من شره»[١].

وجـــاء في حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: **«إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مـــناد مـــن العـــرش ثلاثة أصوات يا معشر الموحدين لله قد عفا الله عنكم فليعف بعضكم عن بعض»**[٢].

وحكي عن علي ﷺ كان له غلام فدعاه فلم يجبه فدعاه ثانياً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً قال: ما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت من عقوبتك فقال: أنت حر لوجه الله.

ونقـــل عـــن زين العابدين من ذرية الحسين بن علي أن رجلاً اغتابه فقال له: إن كنت صادقاً في قولك فغفر الله لي، وإن كنت كذاباً في قولك فغفر الله لك.

وخـــرج يوماً إلى الجامع فسبه رجل، فأقبل عليه فقال: ما خفي عليك من أمرنا أكثر ثم قال له: ألك حاجة فاستحى الرجل فدفع إليه زين العابدين ألف درهم وألقى عليه ثوبه فذهب الرجل وهو يقول: إنني أشهد أنك ابن رسول الله ﷺ.

ونقل بعضهم: أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام أتحب أن يدعو لك كل شيء طلعت عـــليه الشمس والقمر؟ قال: نعم، قال: اصبر على خلقي كما صبرت على من كفر ويعبد غيري.

وقـــال بعضـــهم: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله أخالط الناس أم أعتـــزلهم؟ فقال: خالط الناس واحتمل أذاهم.

ونقل عن عمر بن الخطاب أو غيره أنه قال: رأيت رب العزة في المنام فقال: يا ابن الخطـــاب تمـــنى عـــليّ، فسكت فقال في الثانية: يا ابن الخطاب أعرض عليك ملكي وملكوتي وأقول لك تمنى عليَّ وأنت إلى ذلك تسكت؟ فقلت: يا رب شرفت الأنبياء بكـــتب أنـــزلـــتها عليهم فشرفني بكلام منك بلا واسطة فقال: يا ابن الخطاب من أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص لله شكراً، ومن أساء إلى من أحسن إليه فقد بدل نعمة الله كفراً.

ويُـــرجى من كرم الله وفضله أن يكفر ما وقع من اللسان من الآفات، بما يقع منه

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٣١٨، رقم ١٠٧٧٥)، وأحمد في كتاب الزهد (ص ٢٩٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٨٣): رواه الطبراني وفيه عنبس بن ميمون وهو متروك.

(٢) لم نقف عليه.

من الفوائد.

فتكفر الغيبة ونحوها بذكر الله والصلاة على النبي ﷺ وقراءة القرآن وغيرها من فوائد اللسان، فإن كرم الله واسع وحلمه عظيم.

فائدة: ينبغي لمن هو فاحش اللسان أن يلازم الاستغفار فقد ورد في الحديث: شكى رجل إلى النبي ﷺ ذرب اللسان فقال: «**أين أنت من الاستغفار، إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة**»(١).

لطيفة: حكي عن الشبلي رحمه الله تعالى قال: مات رجل من جيراني، فرأيته في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: يا شبلي مرت بي أهوال عظيمة، وذلك أني ارتج عليَّ عند السؤال فقلت في نفسي من أين أوتي عليَّ، ألم أمت على الإسلام، فنوديت هذه عقوبة إهمالك للسانك في الدنيا، فلما أتاني الملكان حال بيني وبينهما رجل جميل الوجه طيب الرائحة، فذكرني حجتي فذكرها فقلت: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا شخص خلقت لكثرة صلاتك على النبي ﷺ وأمرت أن أنصرك في كل كرب. ذكره ابن بشكوال.

فتأمل رحمك الله تعالى بركة الصلاة على النبي ﷺ ونفعها في وقت الحاجة والشدة.

ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**من صلى عليَّ في اليوم مائة مرة قضى الله له مائة حاجة، سبعين من حوائج الآخرة، وثلاثين من حوائج الدنيا**»(٢) أخرجه ابن منده.

ولقد أحسن من قال:

يا من أتى ذنباً وقارف زلة ... ومن يرتجي الرحماء من الله والقربى
تعاهد صلاة الله في كل ساعة ... على خير مبعوث وأكرم من نبا
فتكفيك هماً أي هم تخافه ... وتكفيك ذنباً جئت أعظم به ذنباً
ومن لم يكن يفعل فإن دعائه ... يجد قبل أن يرقى إلى ربه حجبا

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/١١٧، رقم ١٠٢٨٢)، وأحمد في مسنده (٥/٣٩٦، رقم ٢٣٤١٠)، والحاكم في المستدرك (١/٦٩١، رقم ١٨٨٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٤٣٩، رقم ٦٤٣) عن حذيفة ﷺ.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/١١١، رقم ٣٠٣٥) عن أنس بن مالك ﷺ.

عليك صلاة الله ما لاح بارق وما طاف بالبيت الحجيج وما لبى

لطيفة أخرى: يروى أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: دخلت على مريض من الأنصار مع النبي ﷺ وهو في سكرات الموت فقال له النبي ﷺ: «**تب**» فلم يقدر، فحال بطرفه نحو السماء، فتبسم النبي ﷺ فسئل عن ذلك فقال: «**لما لم يعمل بلسانه أومئ بقلبه نحو السماء وندم قال الله تعالى: يا ملائكتي عبدي عجز عن التوبة بلسانه فندم بقلبه، أشهدكم أني قد غفرت له ذنوبه، ولو كانت أكثر من زبد البحر**»[1].

في قوله ﷺ «**من سلم المسلمون**» من أنواع البديع تجنيس الاشتقاق كما في «أسلم تسلم»[2]، وأما الجملة الثانية أعني قوله ﷺ «**والمهاجر من هجر ما نهي الله عنه**» فقد اختلف معناها فقيل: معناها أن مكة لما فتحت وانقطعت الهجرة وفواتها على من يدركها من الصحابة، فطيب قلوبهم رسول الله ﷺ وأعلمهم بأن حقيقة الهجرة تحصل بهجر ما نهى الله عنه.

وقيل في معناها: أن هذه الهجرة على ضربين ظاهرة وباطنة، فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن.

وكأن المهاجرين خوطبوا بذلك لئلا يتكلموا على مجرد التحول من دارهم حتى يمتثلوا أوامر الشرع، فأعلمهم ﷺ أن المهاجر الكامل من هجر وترك ما نهى الله عنه، مع مفارقته الوطن، وليس المهاجر الكامل من فارق وطن فقط.

قال ابن الملقن: اشتملت هاتان الجملتان على جوامع من معاني الحكم والأحكام وفي الحديث: الحث على ترك أذى المسلمين، بكل ما يؤذي، ليكون الإنسان بذلك حسن التخلق مع العالم، ومعدوداً من الأبرار، وقد فسر الأبرار بأنهم الذين لا يؤذون الذر ولا يرضون بالشر.

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٢٤): قوله: «والمهاجر» هو بمعنى الهاجر، وإن كان لفظ المفاعل يقتضي وقوع فعل من اثنين، لكنه هنا للواحد كالمسافر، ويحتمل أن يكون على بابه لأن من لازم كونه هاجراً وطنه مثلاً أنه مهجور من وطنه، وهذه الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة، فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان. والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن. وكأن المهاجرين خوطبوا بذلك لئلا يتكلوا على مجرد التحول من دارهم حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيه، ويحتمل أن يكون ذلك قيل بعد انقطاع الهجرة لما فتحت مكة تطييباً لقلوب من لم يدرك ذلك، بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه، فاشتملت هاتان الجملتان على جوامع من معاني الحكم والأحكام.

المجلس التاسع عشر

في الكلام على حديث «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وفيه شيء من ترجمة أنس بن مالك ﷺ

قَالَ البُخَارِي :

باب منَ الإيمَان[1] أَنْ يُحبَّ لأخيه مَا يُحبُّ لنَفْسه

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، قَالَ حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنْ حُسَيْنٍ الْمُعَلِّمِ، قَالَ حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا يُؤْمِنُ أحدكم حَتَّى يُحِبَّ لأخيه مَا يُحِبُّ لنَفْسه**».

قوله: «**باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» فاعل يحب مضمر في الفعلين تقديره المكلف أو المؤمن أو الرجل.

«**حدثنا مسدد**» هذا هو مسدد بن مسرهد بن مسربل بن مغربل بن مرعبل بن أرندل بن سرندل بن عرندل بن ماسك بن مستورد الأسدي البصري، الحافظ الثقة، وكان أبو نعيم يقول عند سماع نسبه هذا: رقية للعقرب، وقيل: لو كان في هذه النسبة بسم الله الرحمن الرحيم كانت رقية عقرب، ويقارب هذا النسب في الغرابة: حجدب بن جرعب أبو أصعب الكوفي.

«**حدثنا يحيى**» هذا هو الإمام الحافظ يحيى بن سعيد القطان التميمي البصري، والإجماع قائم على جلالته وإمامته وعظم علمه وإتقانه وبراعته، أقام عشرين يختم القرآن في كل يوم وليلة و لم يفته الزوال في المسجد أربعين سنة، ورأى في المنام وعلى قميصه مكتوب بين كتفيه: بسم الله الرحمن الرحيم براءة ليحيى بن سعيد من النار، وبشر قبل موته وله عشرين سنة بأمان من الله من النار يوم القيامة، ولد سنة عشرين ومائة، ومات سنة عشرين ومائتين.

قال إسحاق بن إبراهيم الشهيدي: كنت أرى يحيى القطان يصلي العصر ثم يستند

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١٢٩): قوله: « من الإيمان » قال الكرماني قدم لفظ الإيمان بخلاف أخوته من حيث قال: « إطعام الطعام من الإيمان » إما للاهتمام بذكره أو للحصر، كأنه قال: المحبة المذكورة ليست إلا من الإيمان.

قلت -أي ابن حجر-: وهو توجيه حسن إلا أنه يرد عليه أن الذي بعده أليق بالاهتمام والحصر معاً وهو قوله: « باب حب الرسول من الإيمان » فالظاهر أنه أراد التنويع في العبارة، ويمكن أنه اهتم بذكر حب الرسول ﷺ فقدمه، والله أعلم.

إلى أصـــل منارة مسجده فيقف بين يديه: على بن المديني وسليمان بن داود وأحمد بن حنـــبل ويحيى بن معين وغيرهم، يسألون عن الحديث وهم قيام على أرجلهم، إلى أن تحين صلاة المغرب لا يقول لواحد: اجلس ولا يجلسون هيبة وإعظاماً.

«**عن شعبه عن قتادة عن أنس**» هذا هو السيد الجليل أنس بن مالك الأنصاري الـــبخاري البصـــري، خادم رسول الله ﷺ وكان للنبي ﷺ خدام كثيرون كربيعه بن كعب صاحب وضوءه، وابن مسعود حامل نعليه، وعقبة بن عامر يقود بغلته، وأيمن بن أم أيمن صاحب مطهرته وغيرهم، ولكن أنس كان ألزمهم لرسول الله ﷺ كما قال العراقي، فأنس ألزمهم لخدمته ﷺ، وأمه هي: أم سليم بنت ملحان.

ولما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً لم يبق أحد بالمدينة إلا وأهدى لرسول الله ﷺ هدية قال: وكانت والدتي امرأة أرملة فقيرة، وكان عمري سبع سنين فأخذتني أمـــي وذهبت بي إلى باب مسجد رسول الله ﷺ ونادت السلام عليك يا رسول الله، الســـلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة أنارت الظلمات وانكشف بك الغمام، لم يبق أحد بالمدينة إلا وأهدى إليك هدية، وأنا امرأة ضعيفة ما لي شيء أحب ولا أعـــز علي من ولدي وقد أهديته لك يا رسول الله، بالذي بعثك بالحق نبياً اقبل هديـــتي فقال رسول الله ﷺ: «**قد قبلناها، وما وقع هدية أقرب إلى قلبي وأحب إليّ من هديتك يا أمة الله**» فقربني رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط لشيء صنعته لم صـــنعته ولا شيء تركته لم تركته، بل كان يقول: «**لو قضى الله بشيء لكان**» [1] رواه الترمذي وغيره.

ودعا له رسول الله ﷺ بطول العمر وكثرة الأموال والأولاد والمغفرة، فقد روى عنه أنه قال: جاءت بي أمي إلى رسول الله ﷺ وقالت يا رسول خادمك أنس أدع الله لـــه، فوضع يده المباركة على رأسي وقال: «**بارك الله لك في عمرك ونسلك ومالك وغفر لك**» فاستجاب الله دعاء نبيه ﷺ فيما دعا له.

أما في طول عمره فإنه عاش كما قيل: مائة سنة وزيادة، ونقل عن أنه قال: ولقد بقيت حتى سئمت الحياة.

وأمـــا في النســـل فقد رزقه الله تعالى مائة ولد قال ﷺ: إن ولدي وولد ولدي

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٦٨/٤، رقم ٢٠١٥) وقال: وفي الباب عن عائشة والبراء وهذا حديث حسن صحيح.

والحديث عند مسلم في الصحيح (١٨٠٥/٤، رقم ٢٣٠٩).

ليعادون اليوم عليَّ نحو المائة، ولقد دفنت بيدي هاتين من ولدي مائة غير اثنين، أو قال مائة واثنين.

وقال الكرماني عنه: ولقد دفنت من صلبي مائة إلا اثنين.

وأما في المال فقد نقل عنه أنه قال: فوالله إن مالي لكثير ما أعلم أحد أصاب من رخاء العيش ما أصبت، وكان له بستان يحمل الثمر كل سنة مرتين، وكان في البستان ريحان يشم منه رائحة المسك.

وأما في المغفرة فقد نقل عنه أنه قال: وأنا أرجوا الرابعة أي: المغفرة فإنها لله تعالى ليست بيد العبد.

فائدة: قال ابن قتيبة ثلاثة من أهل البصرة لم يمت أحد منهم حتى يرى مائة ولد من صلبه: أنس وأبو بكر وخليفة بن بدر.

وكنية أنس: أبو حمزة، وروي له ألفا حديث ومائتا حديث وستة وثمانون حديثاً، اتفقا على مائة وثمانية وستين، وانفرد البخاري بثلاثة وثمانين، ومسلم بإحدى وسبعين، وهو أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية، ومناقبه جمة، وكانت وفاته بالبصرة سنة ثلاث وتسعين زمن الحجاج، ودفن في قصره على نحو فرسخ ونصف من البصرة وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة.

«وعن حسين المعلم[1] قال حدثنا قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال: لا يؤمن[2]

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١٢٩): قوله: « وعن حسين المعلم » هو ابن ذكوان، وهو معطوف على شعبة، فالتقدير عن شعبة وحسين كلاهما عن قتادة، وإنما لم يجمعهما لأن شيخه أفردهما، فأورده المصنف معطوفاً اختصاراً، ولأن شعبة قال: عن قتادة، وقال حسين: حدثنا قتادة.
وأغرب بعض المتأخرين فزعم أنه طريق حسين معلقة، وهو غلط، فقد رواه أبو نعيم في المستخرج من طريق إبراهيم الحربي عن مسدد شيخ المصنف عن يحيى القطان عن حسين المعلم، وأبدى الكرماني كعادته بحسب التجويز العقلي أن يكون تعليقاً أو معطوفاً على قتادة، فيكون شعبة رواه عن حسين عن قتادة، إلى غير ذلك مما ينفر عنه من مارس شيئاً من علم الإسناد.
وأضاف ابن حجر لطيفة في الإسناد فقال: المتن المساق هنا لفظ شعبة، وأما لفظ حسين من رواية مسدد التي ذكرناها فهو: «لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ولجاره»، وللإسماعيلي من طريق روح عن حسين: « حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير » فبين المراد بالأخوة، وعين جهة الحب. وزاد مسلم في أوله عن أبي خيثمة عن يحيى القطان: « والذي نفسي بيده »، وأما طريق شعبة فصرح أحمد والنسائي في روايتهما بسماع قتادة له من أنس، فانتفت تهمة تدليسه.
(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٣٠): قوله: « لا يؤمن » أي: من يدعي الإيمان، أحد، =

من أحدكم حتى يحب[١] لأخيه ما يحب لنفسه[٢]»

الحديث محمول على نفي الكمال لا على نفي الصحية، فإن نفي اسم الشيء على معنى الكمال عنه مستفيض من كلامهم، والمعنى لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب

= ولابن عساكر: « عبد »، وكذا لمسلم عن أبي خيثمة، والمراد بالنفي كمال الإيمان، ونفي اسم الشيء على معنى نفي الكمال عنه مستفيض في كلامهم كقولهم: فلان ليس بإنسان.

فإن قيل: فيلزم أن يكون من حصلت له هذه الخصلة مؤمنا كاملا وإن لم يأت ببقية الأركان.

أجيب: بأن هذا ورد مورد المبالغة، أو يستفاد من قوله: « لأخيه المسلم » ملاحظة بقية صفات المسلم.

وقد صرح ابن حبان من رواية ابن أبي عدي عن حسين المعلم بالمراد ولفظه: « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان » ومعنى الحقيقة هنا الكمال، ضرورة أن من لم يتصف بهذه الصفة لا يكون كافراً، وبهذا يتم استدلال المصنف على أنه يتفاوت، وأن هذه الخصلة من شعب الإيمان، وهي داخلة في التواضع.

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١٣٠): قوله: « حتى يحب » بالنصب لأن « حتى » جارة، وأن بعدها مضمرة، ولا يجوز الرفع فتكون « حتى » عاطفة فلا يصح المعنى، إذ عدم الإيمان ليس سبباً للمحبة.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٣٠): قوله: « ما يحب لنفسه » أي: من الخير كما تقدم عن الإسماعيلي، وكذا هو عند النسائي، وكذا عند ابن منده من رواية همام عن قتادة أيضاً.

« والخير »: كلمة جامعة تعم الطاعات والمباحات الدنيوية والأخروية، وتخرج المنهيات لأن اسم الخير لا يتناولها.

« والمحبة »: إرادة ما يعتقده خيراً، قال النووي: المحبة الميل إلى ما يوافق المحب، وقد تكون بحواسه كحسن الصورة، أو بفعله إما لذاته كالفضل والكمال، وإما لإحسانه كجلب نفع أو دفع ضرر.

والمراد « بالميل » هنا: الاختياري دون الطبيعي والقسري، والمراد أيضاً أن يحب أن يحصل لأخيه نظير ما يحصل له، لا عينه، سواء كان في الأمور المحسوسة أو المعنوية، وليس المراد أن يحصل لأخيه ما حصل له لا مع سلبه عنه ولا مع بقائه بعينه له، إذ قيام الجوهر أو العرض بمحلين محال.

وقال أبو الزناد بن سراج: ظاهر هذا الحديث طلب المساواة، وحقيقته تستلزم التفضيل، لأن كل أحد يحب أن يكون أفضل من غيره، فإذا أحب لأخيه مثله فقد دخل في جملة المفضولين.

قلت: أقر القاضي عياض هذا، وفيه نظر، إذ المراد الزجر عن هذه الإرادة، لأن المقصود الحث على التواضع، فلا يحب أن يكون أفضل من غيره، فهو مستلزم للمساواة، ولا يتم ذلك إلا بترك الحسد والغل والحقد والغش، وكلها خصال مذمومة.

فائدة: قال الكرماني: ومن الإيمان أيضاً أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء، والله أعلم.

لأخيه ما يحب لنفسه أي: من الخير كما جاء ذلك في رواية النسائي.

و«اللام» في قوله: «لأخيه» تدل أيضاً على أن المراد: الخير والمنفعة، وكذلك قوله «**ما يحب لنفسه**» يدل عليه أيضاً، إذ الشخص لا يحب لنفسه إلا الخير، والخير كلمة جامعة لجميع أنواع البر والطاعات أو المباحات الدنيوية والأخروية وتخرج المنهيات.

وليس المراد بالحديث أنه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب أن يحصل لأخيه عين ما يحصل كما قاله ابن الصلاح، إذ قيام الجوهر أو العرض بمحلين محال، بل المراد حتى يحب أن يحصل لأخيه نظير ما يحصل له لا لعينه، سواء كان ذلك في الأمور المحسوسة أو المعنوية.

قال الكرماني: ومن الإيمان أيضاً أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه أي: من الشر ولم يذكره، لأن حب الشيء مستلزم بغض نقيضه، فيدخل تحت ذلك، وإما لأن الشخص لا يبغض خيراً لنفسه فلا يحتاج لذكره، وليس المراد بالأخ في هذا الحديث الأخ في النسب فقط بل المراد كل أخ في الإسلام، رجلاً كان أو امرأة تعميما للحكم، قال الله تعالى ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[الحجرات: ١٠] شملت الآية كل أخ سواء كان في النسب أو في الله تعالى، أو في الإسلام.

ففي الحديث دليل وحث على أنه للإنسان أن يحب لأخيه المؤمن من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكرهه لنفسه، فإن فعل ذلك فهو كامل الإيمان، وإن لم يفعله فهو ناقص الإيمان.

وقد ورد بذلك أحاديث أخر: روى الطبراني في معجمه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «**أوصيك بتقوى الله فإنها رأس أمرك، وعليك بتلاوة القرآن، وذكر الله فإن ذلك لك نور في السماوات ونور في الأرض**» قال قلت: زدني يا رسول الله قال: «**لا تكثر من الضحك فإنه يميت القلب، ويذهب نور الوجه**» قلت: زدني يا رسول الله قال: «**عليك بالصمت فإنه مرد للشيطان وعون لك على أمر دينك**» قلت: يا رسول الله زدني قال: «**انظر إلى من هو دونك ولا تنظر إلى من فوقك، فهو أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك**» قلت: يا رسول الله زدني قال: «**صل قرابتك ولو قطعوك**» قلت: يا رسول الله زدني قال: «**لا تخف في الله لومة لائم**» قلت: يا رسول الله زدني قال: «**تحب للناس ما تحب لنفسك**» ثم ضرب بيده على صدري فقال: «**يا أبا ذر لا عقل إلا بالتدبير، ولا ورع إلا بكف النفس، ولا حسب إلا**

حسن الخلق، وحصل زادك ليوم معادك»[١].

وقال في كتاب إيقاظ القارئ والمستمع: وقال لقمان لابنه يا بني إني موصيك بست خصال، ليس منها خصلة إلا تقربك إلى الله تعالى، وتباعدك من سخطه ؛ الأولى: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً. الثانية: الرضا بقدر الله تعالى فيما أحببت أو كرهت. الثالثة: أن تحب في الله وتبغض في الله. الرابعة: أن تحب للناس ما تحب لنفسك. الخامسة: كظم الغيظ والإحسان إلى من أساء إليك. السادسة: ترك الورى ومخالفة الهوى.

وكما ينبغي للإنسان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ينبغي له إذا رأى أخاه المؤمن صالحاً مواظباً على الطاعات تاركاً للمعاصي والمنكرات أن يحبه في الله، وإذا رآه تاركاً للطاعات، مصراً على المعاصي والمنكرات، أو مرتكباً لشيء من البدع القبيحات أن يبغضه في الله وينبغي له أن يتخذ له أحباباً وإخواناً صالحين صادقين ناصحين مخلصين في المحبة تحبهم ويحبون في الله لا لعلة ولا لغرض دنيوي، فإنهم ينفعون في الدنيا والآخرة، جاءت أخبار في فضل الحب في الله والبغض في الله، وفي فضل اتخاذ الأحباب والإخوان في الله:

قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الأعمال الحب في الله، والبغض في الله**»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله**

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٥٧/٢، رقم ١٦٥١) عن أبي ذر.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٦/٤): رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني وثقه ابن حبان وضعفه أبو حاتم وأبو زرعة.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (١٩٨/٤، رقم ٤٥٩٩)، والبزار في مسنده (٤٦١/٩، رقم ٤٠٧٦)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٤٠٥/١، رقم ٣٩٤)، والديلمي في مسند الفردوس (٣٥٥/١، رقم ١٤٢٩) جميعاً عن أبي ذر.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٢٢٠/٤، رقم ٤٦٨١)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٣٠/٧، رقم ٣٤٧٣٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٣٩/٢، رقم ١٢٦٠)، وفي المعجم الكبير (١٣٤/٨، رقم ٧٦١٣)، وفي المعجم الأوسط (٤١/٩، رقم ٩٠٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٢/٦، رقم ٩٠٢١) عن أبي أمامة الباهلي.
وأخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٣، رقم ١٥٦٧٦) عن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه بنحوه.

ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» [(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**» [(٢)] رواه مسلم.

وقال رسول الله ﷺ: «**قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء**» [(٣)] رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وقال رسول الله ﷺ: «**قال الله عز وجل: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ**» [(٤)] رواه مالك الموطأ بإسناد صحيح.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/١٤، رقم ١٦)، ومسلم في صحيحه (١/٦٦، رقم ٤٣) من حديث أنس.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٩٨٨، رقم ٢٥٦٦) عن أبي هريرة.

وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٢/٣٣٨، رقم ٨٤٣٦)، وابن حبان في صحيحه (٢/٣٣٤، رقم ٥٧٤)، والدارمي في سننه (٢/٤٠٣، رقم ٢٧٥٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٣٢، رقم ٢٠٨٥٦).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٥٩٧، رقم ٢٣٩٠) عن أبي مسلم الخولاني حدثني معاذ بن جبل... به.

قال الترمذي: وفي الباب عن أبي الدرداء وابن مسعود وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وأبي مالك الأشعري، وقال: هذا حديث حسن صحيح وأبو مسلم الخولاني اسمه عبد الله بن ثوب.

وأخرجه أيضاً: ابن حبان في صحيحه (٢/٣٣٨، رقم ٥٧٧)، والحاكم في المستدرك (٤/٤٦٦، رقم ٨٢٩٦)، والحارث في مسنده (٢/٩٩١، رقم ١١٠٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٨٧، رقم ١٦٧).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٩٥٣، رقم ١٧١١) عن معاذ بم جبل.

وأخرجه أيضاً: أحمد في المسند (٥/٢٣٣، رقم ٢٢٠٨٣)، وابن حبان في صحيحه (٢/٣٣٥، رقم ٥٧٥)، والحاكم في المستدرك (٤/١٨٦، رقم ٧٣١٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد جمع أبو إدريس بإسناد صحيح بين معاذ وعباد بن الصامت في هذا المتن.

ورواه أيضاً: عبد بن حميد (ص ٧٢، رقم ١٢٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٨٠، رقم ١٥٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/٣٢٢، رقم ١٤٤٩)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/٥٨٧).

ويستحب للإنسان إذا أحب شخصاً في الله أن يعلمه بذلك وأن يقول لـه: إني أحبك في الله.

روينا في سنن الترمذي عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه**»[1] قال الترمذي حديث حسن صحيح.

ويستحب لمن قال له إنسان: إني أحبك في الله، يقول في جوابه: أَحبَك الذي أحببتني فيه.

وروينا في سنن أبي داود عن أنس ﷺ أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمر رجل فقال يا رسول الله إني لأحب هذا فقال له النبي ﷺ: «**أعلمته؟**» قال: لا، قال: «**أَعلمه**» فلحق به فقال: إني أحبك في الله فقال: أَحبك الذي أحببتني له [2].

وفي سنن أبي داود والنسائي عن معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» [3].

وفي المعارف أن أبا مسلم الخولاني قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنهما: إني أحبك في الله، قال: أبشر فإن النبي ﷺ يقول: «**لطائفه من الناس كراسي حول العرش يوم**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كما في تحفة الأحوذي (٦٠/٧) عن المقدام بن معدي كرب.
والحديث عند البخاري في الأدب المفرد (ص ١٩١، رقم ٥٤٢)، وأبو داود في سننه (٣٣٢/٤، رقم ٥١٢٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٩/٦، رقم ١٠٠٣٤)، وأحمد في مسنده (١٣٠/٤، رقم ١٧٢١٠)، والحاكم في المستدرك (١٨٩/٤، رقم ٧٣٢٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٨٢/١، رقم ٤٩١)، وفي المعجم الكبير (٢٧٩/٢٠، رقم ٦٦١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٩٣/٤، رقم ٢٤٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٣٣/٤، رقم ٥١٢٥) عن أنس بن مالك ﷺ.
وأخرجه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (٥٤/٦، رقم ١٠٠١٠)، وأحمد في مسنده (١٤٠/٣، رقم ١٢٤٥٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٣٠/٢، رقم ٥٧١)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢٢٧/٣، رقم ٢٩٩٤).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٨٦/٢، رقم ١٥٢٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٣٢/٦، رقم ٩٩٣٧)، وأحمد في مسنده (٢٤٤/٥، رقم ٢٢١٧٢)، وابن خزيمة في صحيحه (٣٦٩/١، رقم ٧٥١)، وابن حبان في صحيحه (٣٦٤/٥، رقم ٢٠٢٠)، والحاكم في المستدرك (٤٠٧/١، رقم ١٠١٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والطبراني في المعجم الكبير (٦٠/٢٠، رقم ١١٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٤١/١) جميعاً عن معاذ.

القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف النـــاس ولا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» قيل: يا رســـول الله من هم؟ قال: «**هم المتحابون في الله**» (١).

وينبغي أن يكثر كل من المتحابين المتواخين في الله الدعاء للآخر بظهر الغيـــب، وأن يقول أحدهم للآخر لا تنسانا من دعائك، فإن دعاء الإنسان لأخيه بظهر الغيب مستجاب.

فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربعة دعوتهم مستجابة: الإمام العادل، والرجل يدعو لأخيه بظهر الغيب، ودعوة المظلوم ورجل يدعو لوالديه**» (٢).

وأخرج الطبراني في الكبير عن أنس عن ابن عباس قال: قـــال رســـول الله ﷺ: «**دعوتان ليس بينهما وبين الله حجاب دعوة المظلوم، ودعوة المرء لأخيـــه بظهـــر الغيب**» (٣).

وأخرج البخاري في الأدب عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قـــال: «**أســـرع الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب**» (٤).

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية كما في فيض القدير (١/٤٧٠) عن واثلة بن الأسقع، ولم نجده بعد طول بحث عن ثوبان.

قال المناوي: وفيه مخلد بن جعفر جزم الذهبي بضعفه، وفيه محمد بن حنيفة الواسطي قال في الميزان: قال الدارقطني: غير قوي،، وفيه أيضاً: أحمد بن الفرج أورده الذهبي في الضعفاء، وضعفه أبو عوف.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (١٠/١٥٢) عن ابن عباس.

قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي وهو ضعيف.

وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/١٣٠): رواه الطبراني وله شواهد كثيرة.

(٤) أخرجه الخاري في الأدب المفرد (ص ٢١٨، رقم ٦٢٣) عن عبد الله بن عمرو.

وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (٢/٨٩، رقم ١٥٣٥)، والترمذي في سننه (٤/٣٥٢، رقم ١٩٨٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والأفريقي يضعف في الحديث، وهو عبد الله بن زياد بن أنعم وعبد الله بن يزيد هو أبو عبد الرحمن الحبلي، وعبد بن حميد في مسنده (١/١٣٣، رقم ٣٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/٢٦٥، رقم ١٣٢٨)، والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (١/٣٦٩، رقم ١٤٩٠).

وأخـــرج أحمـــد عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**إن دعوة المرء المسلم مستجابة لأخيه بظهر الغيب، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه قال: آمين، ولك مثل ذلك**» (١).

بل هي أسرع الدعوات إجابة كما ورد ذلك في حديث.

وأمـــا أهل المعاصي والبدع فقد ورد في تجنبهم وبغضهم والإعراض عنهم وترك السلام عليهم أخبار وآثار.

قال رسول الله ﷺ: «**من أعرض عن صاحب بدعة بغضاً له لله ملأ الله قلبه أمناً وإيمانـــاً، ومـــن انـــتهره صاحب بدعة أمنه الله يوم الفزع الأكبر، ومن سلم على صاحب بدعة ولقيه بالبشرى، واستقبله بما يسره فقد استخف بما أنزل على محمد ﷺ**» (٢).

وقال الفضيل: من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه.

قال في نـــزهة المجالس: وقال عيسى -عليه الصلاة والسلام- تحببوا إلى الله ببغض أهـــل المعاصـــي، وتوبوا إلى الله بالتباعد منهم، والتمسوا رضا الله بسخطهم قالوا: يا روح الله فمـــن نجالس؟ قال: جالسوا من يذكركم الله رؤيته، ومن يزيد في عملكم كلامه، ومن يرغبكم في الآخرة عمله.

ففـــي هـــذا زجر عن صحبة أهل المعاصي والبدع، وعن مجالستهم وحث على صحبة أهل الخير والصلاح ومجالستهم لنفعهم في الدنيا والآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل صديقي فلان، وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول من بقي في النار ما لنا من شافعين ولا صديق حميم**» (٣).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٩٥، رقم ٢١٧٥٥) عن أبي الدرداء ﷺ.
وأخرجه أيضاً: مسلم في الصحيح (٤/٢٠٩٤، رقم ٢٧٣٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ١٩، رقم ٦٢٥)، وأبو داود (٢/٨٩، رقم ١٥٣٤)، وعبد بن حميد في مسنده (١/٩٨، رقم ٢٠١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/١٣٣، رقم ٣٣٥٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٢٠٠)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠/٢٦٣) عن ابن عمر.

(٣) لم نقف عليه.

وقال رسول الله ﷺ: «**استكثروا من الإخوان فإن ربكم حييٌ كريم، يستحي أن يعذب عبده بين إخوانه يوم القيامة**»[(١)].

وقال علي كرم الله وجهده: عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة، ألم تسمع إلى قول أهل النار: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم.

وقال إمامنا الشافعي رحمه الله:

وأكثر من الأخوان ما اسطعت إنهم ... بطون إذا استنجدتهم وظهور
وليس كثير ألف خل وصاحب ... وإن عدواً واحداً لكثير

وقال بعض السلف: استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة، ومن علامة صدق الأخوة والمودة: أن يكون نفس المتآخين كنفس واحدة امتزاجاً وائتلافاً حتى أن كل واحد يجد في فمه لذة ما يأكل أخوه.

فائدة: ذكر بعض الحنفية في كتاب شَرَعَهُ آداباً للمآخاة والصحبة فقال منها: أن لا يؤاخي ويصادق إلا من يثق به وأمانته ويعرف صلاحه وتقواه فإن المرء يكون مع من أحب، ويحشر على دين خليله قال رسول الله ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» [(٢)] ولله در القائل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فاصحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

قال ابن جماعة في أنس المحاضرة: قال قس بن محمد لولده يا بني إياك ومصاحبة الأنذال فإن مصافاتهم إلى زوال، وهم أهل خلاف واختلاف، وسرعة إقبال وانصراف، إن رأوك بخير كرهوك، وإن رأوك في غبطة حسدوك، ولا تقبل قول واش أي: نمام في حق أخيك، ولا تفش سر أخيك لأحد كما قال الشاعر:

إذ الواشي نعى إليك صديقاً ... فلا تجف الصديق بقول واشي
ولا تصحب قرين السوء وانظر ... لنفسك من تجالس وتماشي

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢٥٩/٤، رقم ٤٨٣٣)، وأحمد في مسنده (٣٣٤/٢، رقم ٨٣٩٨)، وصححه الحاكم في المستدرك (١٨٨/٤، رقم ٧٣١٩)، والطيالسي في مسنده (ص ٣٣٥، رقم ٢٥٧٣)، وعبد بن حميد (ص ٤١٨، رقم ١٤٣١)، وأبو هريرة في حلية الأولياء (١٦٥/٣) عن أبي هريرة ﷺ.

ولا تخبر بسرك كل سر إذا ما جاوز الاثنين فاشي

ومنها: أن لا يغلو في الحب والبغض فيكون حبه كلفاً، وبغضه تلفاً، بل يكون مقتصداً فيهما.

ومنها: أن ينظر في وجه أخيه حباً له وشوقاً إليه، ففي الحديث: «**نظر المؤمن إلى المؤمن عبادة، وتبسم الرجل في وجه أخيه المسلم يحط الخطايا عنهما**»[1].

ومنها: ينبغي أن يحذر كل منهما عما يوجب الفرقة بينهما، ففي الحديث: «**ما تحاب اثنان ففرق بينهما إلا بذنب يصيبه أحدهما**»[2].

ومنها: أن يخلص له الود، ففي الحديث: «**ثلاث يصفين لك ود أخيك، تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه**»[3].

ومنها: أن يوافق أخاه فيما أباح الشرع، فإن ذلك خير من الشفقة عليه، فإذا قال أخوه في شيء لا، يقول: لا، وإذا قال في شيء: نعم، قال: نعم وقد نظم عبد الله بن المبارك فقال:

وإذ صاحبت فاصحب صاحبا ذا حياء ووفاء كريم

قوله للشيء لا إن قلت وإذا قلت نعم قال نعم

وإذا قال له أخوه: قم بنا لا يقول: إلى أين؟ وإذا طلب منه شيئاً من ماله لا يقول له: كم تريد؟ أي شيء تصنع به؟.

ومنها: أن يفرح بما يرى عليه من النعم ويغتم بما يلقى عليه من الكرب والغم، ويسعى في تفريجه عنه.

ومنها: أنه ينبغي أن يستعمل مع أخيه بشاشة الوجه، ولطف اللسان، وسعة القلب، وكظم الغيظ، وإسقاط الكبر، وملازمة الحرمة، وقول المعذرة الكاذبة

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٤٨٥، رقم ٥٨١٥) عن شيبة بن عثمان الحجي عن عمه عثمان بن طلحة.

وورواه أيضاً: الطبراني في المعجم الأوسط (٨/١٩٢، رقم ٨٣٦٩).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٨٢): رواه الطبراني في الأوسط وفيه موسى بن عبد الملك ابن عمير وهو ضعيف.

والصادقة.

ومنها: أن يرى لأخيه من الحق والفضل على نفسه أكثر مما يرى له أخوه.

ومـــنها: أن يهدي إلى أخيه المسلم مما تيسر عن طيبة نفسه، ويقبل منه ما يهدي إليه وإن قل، ويزد له حباً ويكافئه بخير من ذلك أن وجد ويشكر له ويثني عليه خيراً، ويدعو له ويقول: جزاك الله خيراً، فإنه أبلغ الثناء والدعاء، ولا يكتم صنيعه.

ومنها: أن يزور أخاه المسلم غباً إن خاف سآمته، أو كل يوم إن من ذلك طالباً بذلك جزيل الثواب من الله.

ومنها: أنه إذا أتى باب أخيه استأذن الدخول عليه، ولا يقوم قبالة الباب ويستأذن ثلاثـــاً يقول: في كل مرة السلام عليكم يا أهل البيت، أيدخل فلان ويمكث بعد كل مرة مقدار يفرغ الأكل والمتوضئ والمصلي بأربع، فإذا أذن له وإلا رجع سالماً، وإذا نودي من داخل البيت: من على الباب لا يقول: أنا، فإنه ليس بجواب بل يقول: فلان.

قـــال النووي في الأذكار: ويستحب استحباباً مؤكداً زيارة الصالحين والإخوان، والجيران والأصدقاء والأقارب وغيرهم، وإكرامهم وبرهم وصلتهم، وينبغي أن يكون زيادته لهم على وجه لا يكرهون وفي وقت يرتضونه.

وقد ورد في فضل زيارة الإخوان في الله في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**أن رجـــلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد على مدرجته أي: على طريقه ملكاً قال أين تريد؟ قال: أريد أخاً في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها أي: تحفظهـــا وتـــرعاها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى قال: فإني رسول الله تعالى إليك فإن الله قد أحبك كما أحببته فيه**» (١).

وفي كتاب الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة أيضاً قال رسول الله ﷺ: «**من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله تعالى نادى مناد: أن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منـــزلاً**» (٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٨٨/٤، رقم ٢٥٦٧) عن أبي هريرة.
وأخرجه أيضاً: البخاري في الأدب المفرد (ص ١٢٨، رقم ٣٥٠)، وأحمد في مسنده (٤٦٢/٢، رقم ٩٩٥٩)، وابن حبان في صحيحه (٣٣١/٢، رقم ٥٧٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٦٥/٤، رقم ٢٠٠٨) عن أبي هريرة، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في سننه (٤٦٤/١، رقم ١٤٤٣).
وأخرجه أيضاً: البخاري في الأدب المفرد (ص ١٢٦، رقم ٣٤٥)، وأحمد في مسنده (٣٤٤/٢، =

ويستحب أن يطلب الإنسان من صاحبه الصالح أن يزوره، وأن يكثر من زيارته فقد ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً﴾**[مريم: ٦٤]»[(١)].

ومن آداب المزور أن يكرم الزائر، ومن مستحباته: أن يكرم الزائر، وأن يلقي السجادة أو نحوها تحته، وأن يقوم بخدمته، ولا ينبغي للزائر أن يرد كرامة المزور عليه، وأن يقول أحدهما للآخر: كيف أصبحت وكيف حالك؟ فيقول له: صاحبه أصبحت مؤمناً أو في خير وعافية والحمد لله رب العالمين، ثم إذا استقر به المكان قدم له ما حضر من طعام أو شراب لله در القائل:

قدم لزائرك الطعام وحيه ... حتى يراه كأنه في حيه

والبيت إن لم يلق مأكول به ... لا فرق بين الميت فيه وحيه

ومنها: أنه يتهيأ للقاء الإخوان ويتجمل لهم فيلبس من أنظف ثيابه، ويتطيب ويتوضأ وضوءه للصلاة، ويتزين لهم ما استطاع ثم يخرج إليهم.

قال صاحب الأنوار في آخر كتاب الغسل، ويستحب لمن يصحب الناس التنظيف بالسواك، وأخذ الشعر، واستعمال الطيب، وقطع الروائح الكريهة، وحسن الأدب معهم، لتزويد المودة والوقار، وأن يتمسك بصحبته الصديق الصدوق.

فقد كان السلف إذا ظفروا بما يصلح للصداقة يتمسكون به و لم يضيعوه، علماً بأن الصديق الصدوق أعز من الكبريت الأحمر.

ومنها: أن يكون أولاد أخيه في الله أولاده فقد كان كثير من السلف الصالح يقوم بكلفة أولاد إخوانهم في الله، ويصرفون إليهم كسيهم كما يصرفونها إلى أولادهم.

كما حكي عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: أتيت بعض البلاد فنزلت في مسجد،

= رقم ٨٥١٧)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٨/٧، رقم ٢٩٦١)، وعبد بن حميد في مسنده (٤٢٣/١، رقم ١٤٥١)، وابن المبارك في الزهد (ص ٢٤٦، رقم ٧٠٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣/٦، رقم ٩٠٢٦).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٧٦٠/٤، رقم ٤٤٥٤) عن ابن عباس.

وأخرجه أيضاً: الترمذي في سننه (٣١٦/٥، رقم ٣١٥٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٣٩٤/٦، رقم ١١٣١٩)، وأحمد في مسنده (٣٥٧/١، رقم ٣٣٦٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٣/١٢، رقم ١٢٣٨٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١١٦/٥).

فلما كان وقت العشاء وصلينا أتاني الإمام بعد انصراف الناس، وقال: قم وأغلق باب المسجد، فقلت له: أنا رجل غريب، وهذه الليلة باردة أبيت هاهنا ولك الخير والأجر والثواب، فقال: قم ولا تكثر الكلام، فإن الغرباء يسرقون الحصر والقناديل، فقلت له: أنا إبراهيم بن أدهم فقال: قد أكثرت عليَّ الحديث وعلا على رجلي وقبضها وجعل يجرني على وجهي، حتى مر بي على باب أتون الحمام فدخلت الأتون وإذا أنا بالوقاد يقد النار فقلت: السلام عليك ورحمة الله فلم يرد علي السلام، بل أشار لي أن اجلس فجلست وأنا خائف منه لما رأيته تارة ينظر عن يمينه وتارة ينظر شماله، فلما فرغ من وقوده التفت إلى وقال عليك السلام فقال لي: يا هذا إنني أجير قوم فخفت أن أسلم عليك فأنشغل بالسلام فآثم وأخون، فقلت: رأيتك تنظر عن يمينك وشمالك أتخاف من أحد؟ قال: نعم قلت: ممن؟ قال: من الموت لا أدري من أين يأتيني أمن يميني أو من شمالي، فهو أكبر همي قلت له: بكم تعمل كل يوم قال: بدرهم ونصف، قلت: وما تصنع به؟ قال: آكل منه النصف وانفق الدرهم على أولاد أخي، قلت: أخوك من أمك وأبيك؟ قال: لا بل أحببته في الله تعالى، ومات وأنا أقوم بأهله وأولاده، فقلت له: عملك هذا عمل المتقين، هل دعوت الله في حاجة فأجابك؟ قال: لي حاجة عنده منذ عشرين سنة أدعوه بها وما قضاها، قلت: وما هي؟ قال: بلغني أن في الغرب رجلاً قد تميز على الزاهدين وفاق العابدين يقال له: إبراهيم بن أدهم دعوت الله ﷻ أن يجمع بيني وبينه حتى أراه وأموت، فقلت له أبشر يا أخي قد قضى الله حاجتك وما رضي أن يأتي بي إليك إلا سحباً على وجهي، قال فوثب من مكانه وعانقني وسمعته يقول: اللهم كما قضيت حاجتي وأجبت دعوتي فارفعني إليك، قال: فنظرت إليه فإذا هو يرجف فتمدد على الأرض فأتيت إليه فحركته فإذا هو قد مات رحمة الله عليه، وهو مشهور بعبد الله الوقاد.

واعلم أن أنفع الأصدقاء هو الذي يوافق فعله قوله، وألا يكون كمن قال الله فيه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾[الصف: ٢، ٣] أنشد بعضهم:

لا ترض من رجل حلاوة قوله ... حتى يصدق ما يقول بفعال
فإذا وزنت فعاله بمقاله ... فتوازنا فإخاء ذاك جمال

***

المجلس العشرون

في قوله ﷺ «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»

قَالَ البُخَارِي :

باب حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الإِيمَانِ

حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، قَالَ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ[(١)]، قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أحدكم حَتَّى أكون أحب إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**».

قوله «**باب حب الرسول من الإيمان**»[(٢)] والمراد بالرسول، سيدنا رسول الله ﷺ لا جنس الرسول ولا الاستغراق بقرينة قوله ﷺ.

«**حتى أكون**» وإن كانت محبة الرسل واجبه فاللام في الرسول للعهد.

قوله «**والذي نفسي بيده**» أي: وحق الذي نفسي بيده وهو الله ﷻ وفي هذا دليل على جواز الحلف على الأمر المهم توكيداً له وإن لم يكن هناك مستحلفاً.

قال الرازي: وقد تواتر النقل عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**والذي نفسي بيده**» وإطلاق اليد على الله في أحاديث أخر منها قوله ﷺ: «**لما خلق الله الخلق كتب بيده على نفسه: إن رحمتي سبقت غضبي**»[(٣)].

---

(١) قوله: «شعيب» هو ابن أبي حمزة الحمصي، واسم أبي حمزة دينار. وقد أثمر المصنف من تخريج حديثه عن الزهري وأبي الزناد.

ووقع في غرائب مالك للدارقطني إدخال رجل -وهو أبو سلمة بن عبد الرحمن- بين الأعرج وأبي هريرة في هذا الحديث، وهي زيادة شاذة، فقد رواه الإسماعيلي بدونها من حديث مالك، ومن حديث إبراهيم بن طهمان.

وروى ابن منده من طريق أبي حاتم الرازي عن أبي اليمان شيخ البخاري هذا الحديث مصرحاً فيه بالتحديث في جميع الإسناد، وكذا النسائي من طريق على بن عياش عن شعيب. انظر الفتح (١/١٣١).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٣١): قوله: «باب حب الرسول» اللام فيه للعهد، والمراد سيدنا رسول الله ﷺ بقرينة قوله: «حتى أكون أحب»، وإن كانت محبة جميع الرسل من الإيمان، لكن الأحبية مختصة بسيدنا رسول الله ﷺ.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٧٠٠، رقم ٦٩٨٦)، ومسلم في صحيحه =

وقوله ﷺ: «**إن الله يفتح أبواب السماء في ثلثي الليل الباقي، فيبسط يده فيقول: ألا من عبد فيسألني فأعطيه، قال: فما يزال كذلك حتى يطلع الفجر**» [(١)] للعلماء فيه قولان:

أحدهما: إلحاقه بالمتشابه والسكوت عنه وتفويض علمه للعليم الخبير، وهو أسلم.

والثاني: تأويله بما يليق بجنابه الكريم بأن يقال: ليس المراد باليد هنا حقيقتها وهي الجارحة، فإنها في حقه سبحانه وتعالى محال، بل المراد القدرة فإن اليد تستعمل في القدرة مجازاً فإنه يقال: يد السلطان فوق يد الرعية أي: قدرته عالية فوق قدرتهم، ويقال: هذه البلدة في يد الأمير وإن كان مقطوع اليد، بمعنى في قدرته.

فقوله: «**والذي نفسي بيده**» مؤول بقدرته، وهذا القول أحكم ونـــزول الآيات الواقعة في كتاب الله بهذا التأويل مثل قوله تعالى ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾[المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[الفتح: ١٠].

وقوله: «**لا يؤمن أحدكم**» محمول على نفي الكلام أي: لا يكمل إيمان أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده، فمن لم يكن رسول الله ﷺ أحب إليه من والده وولده فهو ناقص الإيمان.

قال الخطابي معناه: لا تصدق في حبي حتى تفني في طاعتي نفسك، وتؤثر رضائي على هواك وإن كان فيه هلاكك.

وقال ابن بطال معنى الحديث: أن من استكمل الإيمان علم أن حق الرسول آكد عليه من حق ولده ووالده والناس أجمعين، لأنه به استنقذنا من النار وهدينا من الضلال.

قال العلماء: هذا الحديث من جوامع الكلم الذي أوتيه ﷺ، فإن المحبة ثلاث أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الولد للوالد، ومحبة شفعة ورحمة كمحبة الوالد لولده، ومحبة مشاكله واستحسان كمحبة سائر الناس فجمع أصناف المحبة في محبته.

وليس المراد بمحبة النبي ﷺ أو حبه اعتقاد وتعظيمه وإجلاله فإنه لا شك في كفر من لم يعتقد ذلك، وتنـــزيل هذا الحديث على هذا المعنى غير صحيح، لأن اعتقاد الأعظمية ليس بالمحبة ولا الأحبية ولا مستلزماً لها، إذ قد يجد الإنسان من نفسه إعظام

= (٤/٢١٠٧، رقم ٢٧٥١) من حديث أبي هريرة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٤٦، رقم ٤٢٦٨)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/٤٤٩، رقم ٧٦٥) عن عبد الله بن مسعود.

شـــخص ولا يجـــد محبته، بل المراد بالمحبة: الميل إلى المحبوب وتعلق القلب بعد اعتقاد تعظيمه.

وإنما اقتصر في هذا الحديث على ذكر الولد والوالد و لم يذكر غيرهما من الأهل، لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان عنده أعز من نفسه، ولهذا لم يذكر النفس في هذا الحديث أيضاً.

وإنما لم يذكر «الأم» ﷺ في هذا الحديث إما لأنها تدخل في لفظ «الوالد» إن أريد بـــه مـــن له الولد، وإما أنه لم يذكر الأم اكتفاء بذكر الأب في هذا الحديث عنها، كما يكتفي بذكر أحد الضدين عن الآخر.

وإنما قدم ﷺ لفظ «الوالد» على الولد في هذا الحديث مع أن محبة الإنسان لولده أعظـــم مـــن والده غالباً للأكثر، فإن كثير من الناس لا ولد له، وكل واحد له والد فلذلك قدما الأعم الأكثر وقوعاً على غيره.

وجـــاء في تقديمه رواية الولد على الوالد وسببه أن محبة الإنسان لولده أعظم من محبته لوالده غالباً، فلذلك قدم فيها.

وجـــاء في رواية زيادة: «**الناس أجمعين**» وهو من عطف العام على الخاص وهو كثير.

وهـــل تدخـــل النفس في عموم قوله: «**والناس أجمعين**» قال ابن حجر: الظاهر دخولها مع أنه وقع التنصيص على النفس في حديث.

فائدة: ورد في هذا الصحيح في الأيمان والنذور أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي فقال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم**» أي لا يكمل إيمانك «**حتى أكون أحب إليه من نفسه**» [1] فقال له عمر: فإنه الآن أنت أحب لي من نفسي فقال: الآن يا عمر أي: الآن كمل إيمانك.

فاستفيد من جميع الروايات أنه يجب على الإنسان أن يكون رسول الله ﷺ أحب إليـــه من نفسه وأهله وماله، وأن الإيمان لا يكمل إلا بذلك فإن الإنسان إذا تأمل من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٤٤٥، رقم ٦٢٥٧) عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال... فذكره.

وأخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٣٣، رقم ١٨٠٧٦)، والبزار في مسنده (٨/٣٨٣، رقم ٣٤٥٩)، والطبراني في المعجم الأوسط (١/١٠٢، رقم ٣١٧)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/١٨٩).

النفع له من جهة النبي ﷺ الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، على أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الإشفاعات فاستحق لذلك أن تكون محبته أفرض من غيره لأن النفع الذي تأت به المحبة حاصل أكثر من غيره.

فائدة: كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لم يخل عن محبته ﷺ غير أن الناس متفاوتون في تلك المحبة، فمنهم من أخذ منها بالحظ الأوفر كالصحابة رضي الله عنهم أجمعين لما فازوا من رؤية ذاته الشريفة، والاطلاع على معجزاته وأحواله فمحبتهم له أعظم من غيرهم.

ومن الناس من يكون مستغرقاً بالشهوات محجوباً بالغفلات عن ذكره، ومحبته ﷺ أوقاته لكنه إذا ذكر ﷺ أو شيء من فضائله اهتاج لذكره واشتاق لرؤيته، يؤثر رؤيته بل رؤية قبره ومواضع آثاره على أهله وماله وولده ووالده ونفسه والناس أجمعين، ثم يزول عن ذلك سرعة لغلبة شهوته وتوالي الغفلات، فهذا داخل فيمن أحبه ﷺ لكن يخاف عليه بسبب غلبة الشهوات وتوالي الغفلات، من ذهاب أصل تلك المحبة.

وقد دل الكتاب والسنة على وجوب محبته ﷺ وكثرة ثوابها وفضلها كما دل على وجوبها الحديث المذكور وقال الله تعالى ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾[التوبة: ٢٤].

قال القاضي عياض: فيكفي بهذه الآية حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوبها وعظم خطرها واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرع الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله: ﴿**فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل و لم يهده الله.

وروى أنس أن رجلاً أتى للنبي ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «**ما أعددت لها؟**» فقال: ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة، ولكن أحب الله ورسوله قال: «**أنت مع من أحببت**»[1].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الصحيح (١٣٤٩/٣، رقم ٣٤٨٥)، ومسلم في صحيحه (٢٠٣٢/٤، رقم ٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك.

وورد عن صفوان بن قدامة قال هاجرت إلى النبي ﷺ فآتيته فقلت: يا رسول الله ناولني يدك أبايعك، فناولني يده فقلت: يا رسول الله أحبك، قال: «**المرء مع من أحب**»، وما أحسن ما قاله شيخ الإسلام ابن حجر:

وقائل هل عمل صالح ... أعددته يدفع عنك الكرب
فقلت حسبي خدمة المصطفى ... وحبه فالمرء من أحب

وروي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه فقال له رسول الله ﷺ: «**ما غير لونك**» فقال: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك اشتوحش وحشة شديدة، حتى ألقاك، وإني لأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك فأنزل الله تعالى ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً**﴾[النساء: ٦٩] فدعا به وقرأها عليه.

وأما محبة السلف من الصحابة والتابعين واتباع التابعين والأئمة والأعلام فمن بعدهم له ﷺ فقد نقل إلينا من ذلك شيء كثير.

عن أبي هريرة ﷺ إن رسول الله ﷺ قال: «**من أشد أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رأني بأهله وماله**»[1].

ويروي أن امرأة قالت لعائشة بعد موت رسول الله ﷺ اكشفي قبر رسول الله ﷺ فكشفته لها فبكت حتى ماتت.

وسئل على بن أبي طالب ﷺ كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

وخرج عمر ليلة فرأى مصباحاً في بيت وإذا عجوزاً تنفش صوفاً، وتقول:

على محمد صلاة الأبرار ... صلى عليه الطيبون الأخيار
قد بكيت بكاء في الأسحار ... يا ليت شعري والمنايا أطوار
هل تجمعني وحبيبي الدار

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٧٨، رقم ٢٨٣٢)، وأحمد في مسنده (٢/٤١٧، رقم ٩٣٨٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (٥/٣٥٨)

تعني النبي ﷺ.

فائدة: لمحبته ﷺ علامات، فإن من أحب شيئاً ظهرت عليه آثاره وعلامات محبته عليه، وإلا فلا يكون صادقاً في حبه، وكان مدعياً.

فمن علامات محبته ﷺ: استكمال سنته ونصرها والذب عنها، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه.

قال أنس بن مالك قال لي رسول الله ﷺ: «**يا بني إن استطعت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل**» ثم قال لي: «**يا بني وذلك من سنتي، ومن أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة**»[1].

قال أبو القاسم نفعنا الله به: الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

وقال أيضاً: طريق السادات المقربين السابقين مقيد بالكتاب والسنة، والصوفية على الحقيقة، والعلماء العاملون بالشريعة والطريقة، وهم وراث النبي ﷺ المتبعون له في أقواله وأفعاله وأخلاقه وأحواله أعاد الله علينا من بركاتهم، ومن إيثار شرعه ما حض عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته قال الله تعالى ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[الحشر: ٩].

ومنها: إسخاط العباد في رضاه ورضى الحق سبحانه وتعالى، بأن يفعل شيئا يرضي

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٤٦، رقم ٢٦٧٨) عن سعيد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك قال لي رسول الله ﷺ... فذكره.

قال الترمذي: وفي الحديث قصة طويلة، وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، ومحمد بن عبد الله الأنصاري ثقة وأبوه ثقة وعلي بن زيد صدوق إلا أنه ربما يرفع الشيء الذي يوقفه غيره قال وسمعت محمد بن بشار يقول: قال أبو الوليد قال شعبة حدثنا علي بن زيد وكان رفاعاً ولا نعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هذا الحديث بطوله.

وقد روى عباد بن ميسرة المنقري هذا الحديث عن علي بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب.

قال الترمذي أيضاً: وذاكرت به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه ولم يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره، ومات أنس بن مالك سنة ثلاث وتسعين ومات سعيد بن المسيب بعده بسنتين ومات سنة خمس وتسعين.

والحديث بقصته التي أشار إليها الترمذي عند الطبراني في المعجم الأوسط (٦/١٢٣، رقم ٥٩٩١).

الله ورسوله، وإن كان فيه إسخاط العباد، فمن أرضى الله واسخط العباد كان محباً للمولى الجواد، ومحباً لسيد العباد ﷺ، أنشد مشايخي بيتين في هذا المعنى:

لا تغضب الحق وترضي الورى ... وقدم الخوف ليوم الوعيد
وأرضي الله فأشقى الورى ... من أسخط المولى وأرضى العبيد

ومنها: كثرة ذكره له فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

ومنها: كثرة شوقة إلى لقائه فكل حبيب يحب لقاء حبيبه، ولما قدم الأشعريون المدينة من فرحهم كانوا يقولون: غدا نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

ومنها: تعظيمه وتوقيره عند ذكره وإظهار الخشوع والانكسار عند سماع اسمه فقد كان رسول الله ﷺ لا يذكرونه إلا خشوعاً واقشعرت جلودهم وبكوا، وكذلك كثير من التابعين منهم من يقم ذلك له وشوقاً إليه، ومنهم من يفعله تعظيماً له وتوقيراً له، ومنهم من يفعله لحبه لمن كان يحبه ﷺ، وبغضه لمن كان يبغضه، كحب آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم، وبغض من أبغضهم وسبهم، كما كانت الصحابة تحب الذي يحبه ﷺ، ويبغضون الذي يبغضه ﷺ.

قال أنس بن مالك: رأيت رسول الله ﷺ يأكل الديك ويحبه قال: فما زلت أحبه لمحبة رسول الله ﷺ.

وقد تواتر النقل عن أصحابه أنهم أحبوه وقاتلوا آباءهم في مرضاته.

ومنها: أنه يحب القرآن الذي أتى به ﷺ وأن يهتدي به، وحبه للقرآن بتلاوته والعمل به.

قال عبد الله: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا لا يدخر منها إلا زاداً.

ومنها: شفقتة على أمته ومحبته لهم وسعيه في مصالحهم ودفع المضار عنهم كما كان ﷺ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً.

ومنها: تمني حضور حياته فيبذل ماله ونفسه بين يديه ﷺ، حكى الإمام القشيري رضي الله عنه عن عمرو بن الليث أحد ملوك خراسان أنه رؤي بعد موته في النوم فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ فقال: غفر لي فقيل: بماذا؟ قال صعدت ذروة جبل فأشرفت على جنودي فأعجبتني كثرتهم فتمنيت أني لو كنت حياً في حياة النبي ﷺ وحضرت القتال معه ونصرته فشكرت الله على ذلك وغفر لي.

ومحبته ﷺ والإيمان به والإيمان بنبوته ورسالته وقعت لكثير من الحيونات والجماد.

فائدة: وهي معجزة لنبينا ﷺ روى الدارقطني والبيهقي وشيخه ابن عدي عن عمر ﷺ أن النبي ﷺ: كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضباً وجعلـــه في كمه ليذهب إلى رحلة فرأى جماعة محتفين بالنبي ﷺ فقال: ما بال هؤلاء الجماعـــة؟ فقـــالوا: هذا محمد فأتى فقال: يا محمد ما اشتملت النساء على ذي لهجة أكـــذب منك، فلولا أن تسميني العرب عجولاً لقتلتك فسررت بقتلتك الناس أجمعين فقـــال عمر: يا رسول الله دعني أقتله فقال ﷺ: «**أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً**» ثم أقبل الأعرابي على رسول الله ﷺ فقال: واللات والعزى لما آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب، وأخرج الضب من كمه، فطرحه بين يدي رسول الله ﷺ فقال: إن آمـــن بك آمنت بك فقال ﷺ: «**يا ضب**» فكلمه الضب بلسان فصيح عربي يفهمه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا رسول العالمين فقال ﷺ: «**من تعبد؟**» قال: أعبد الذي في الســـماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عذابه، قال: «**فمن أنا يا ضب؟**» قال: أنت رسول رب العالمين خاتم النبيين، قد أفلح مـــن صدقك، وقد خاب من كذبك، فقال الأعرابي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله حقاً، والله لقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد هو أبغض لي منك، والله لأنـــت الســـاعة أحب إليَّ من نفسي ومن ولدي، فقد آمن بك شعري وبشري وداخـــلي وخارجي وسري وعلانيتي، فقال له رسول الله ﷺ: «**الحمد لله هداك لهذا الديـــن، الذي يعلوا و لا يعلى عليه ولا يقبله الله إلا بصلاة، ولا يقبل الصلاة إلا بقرآن**» قال: فعملني، فعلمه النبي ﷺ سورة الحمد، وقل هو الله أحد، فقال: يا رسول الله ما سمعت في البسيط ولا في الرجز أحسن من هذا فقال ﷺ: «**إن هذا كلام رب العـــالمين وليـــس بشعر، إذا قرأت قل هو الله أحد قرأت ثلث القرآن، وإن قرأتها مـــرتين فكأنما قرأت ثلثي القرآن، وإن قرأتها ثلاثاً فكأنما قرأت القرآن كله**» فقال الأعرابي: إن إلهنا يقبل اليسير ويعطي الكثير، ثم قال له النبي ﷺ: ألك مال فقال: ما في بني سليم قاطبة رجل أفقر مني، فقال ﷺ لأصحابه: أعطوه، فأعطوه فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله إني أعطيته ناقة عشراً أهديت لي يوم تبوك فقال: «**قد وصف ما تعطي، أو أصف لك ما يعطيك الله جزاء لك**» قال: نعم قال: «**لك ناقة من درة بيضـــاء جوفاء فوائمها من زمرد أخضر، عيناها من زبرجد أخضر، عليها هودج وعلى الهودج السندس والإستبرق تمر بك على الصراط كالبرق الخاطف**».

فخرج الأعرابي من عند رسول الله ﷺ فلقي ألف أعرابي على ألف دآبة بألف سيف وألف رمح فقال لهم: أين تريدون؟ فقالوا: نريد الذي يكذب ويزعم أنه نبي، فقال الأعرابي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا له: صبوت فحدثهم بحديثه، فقالوا كلهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله، قالوا: يا رسول الله مرنا بأمرك فقال: «**كونوا تحت راية خالد بن الوليد**» فلم يؤمن من العرب ألف غيرهم[1].

نقل ابن الجوزي في بعض مصنفاته عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الضب أنشأ يقول:

ألا يا رسول إنك صادق ... فبوركت مهدياً وبوركت هاديا
شرعت لنا دين الحنفية بعد ما ... عبدنا كأمثال الحمير الطواغيا
فيا خير مدعي ويا خير مرسل ... إلى الجن ثم الإنس لبيك داعيا
أتيت ببرهان من الله واضح ... فأصبحت فينا صادق القول داعيا
فبوركت في الأحوال حياً وميتاً ... وبوركت مولوداً وبوركت ناشئا

والضب حيوان بري معروف يعيش سبعمائه سنة فصاعداً، ويبول في كل أربعين يوم قطرة، ولا يسقط له سن، ويقال: إنه سنة قطعة واحدة وأكله حلال بالإجماع، لكن ما أكله رسول الله ﷺ فقد روى الشيخان عن ابن عباس أن النبي ﷺ قيل له: أحرام هو؟ قال: «**لا ولكنه لم يكن بأرض قومي**»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/١٢٦برقم ٥٩٩٦)، وفي المعجم الصغير (٢/١٥٣برقم ٩٤٨)، والأصبهاني في دلائل النبوة (ص:٣٢١) عن ابن عمر.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٩٤): رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخه محمد بن علي بن الوليد البصري قال البيهقي: والحمل في هذا الحديث عليه، قلت -أي الهيثمي -: وبقية رجاله رجال الصحيح.
ومحمد بن على بن الوليد ترجم له الذهبى فى المغنى (٢/٦١٦رقم ٥٨٣٧)، والميزان (٦/٢٦٣رقم٧٩٧٠) وقال: يروي عن العدني، وروى عنه الطبراني وابن عدي، وروى البيهقي حديث الضب من طريقه بإسناد نظيف، ثم قال البيهقي: الحمل فيه على السلمي هذا، وصدق البيهقي فالخبر باطل، وتبع الحافظ ابن حجر الذهبى فى اللسان (٥/٢٩٢) وزاد عليه بقوله: وروى عنه الإسماعيلي في معجمه، وقال: بصري منكر الحديث.
(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٠٦٠، رقم ٥٠٧٦)، ومسلم في صحيحه =

وفي رواية لمسلم «**لا آكله ولا أحرمه**»[(١)].

وفي أخرى «**كلوه فإنه من حلال لكنه ليس من طعامي**»[(٢)]، ولا يكره أكله عندنا خلافاً لبعض أصحاب أبي حنيفة.

لطيفة: ذكر حجة الإسلام الغزالي في الإحياء عن أبي جعفر الصيدلاني قال: رأيت النبي ﷺ في المنام ومعه جماعة وإذا بملكين نزلا من السماء مع أحدهما طست والآخر إبريق فغسل النبي ﷺ يده ثم واحد بعد واحد حتى أتوا إليّ فقال أحدهم: ليس هو منهم، فقلت: يا رسول الله أنت قلت: المرء مع من أحب، وأنا أحب هؤلاء فقال ﷺ: صبوا على يده فإنه منهم.

فائدة: محبة الله أعظم القربات، وأفضل الطاعات، وهي متوقفة على امتثال أوامره واجتناب نواهية، ويدل على ذلك قول الله تعالى ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[آل عمران: ٣١].

وعلامة محبة العبد لله طاعة له وعدم عصيانه كما أشار إلى ذلك بعضهم بقوله:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

فمحبة العبد للرب طاعة ومحبة الرب سبحانه وتعالى للعبد عفوه عنه، وإنعامه عليه برحمته.

قال في الروض الفائق: كان داود عليه السلام يقول: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي وأهلي ومن

= (١٥٤٣/٣، رقم ١٩٤٥) من حديث ابن عباس.

(١) الرواية عند مسلم في الصحيح (١٥٤٢/٣، رقم ١٩٤٣) عن نافع عن ابن عمر قال سأل رجل رسول الله ﷺ عن أكل الضب... فذكره.

ورواه البخاري معلقاً (٢٦٧٧/٦) في «باب الأحكام التي تعرف بالدلائل».

(٢) هذه الرواية عند البخاري في الصحيح (٢٦٥٢/٦، رقم ٦٨٣٩) عن توبة العنبري قال: قال لي الشعبي أرأيت حديث الحسن عن النبي ﷺ وقاعدت ابن عمر قريباً من سنتين أو سنة ونصف فلم أسمعه يحدث عن النبي ﷺ غير هذا قال: كان ناس من أصحاب النبي ﷺ فيهم سعد فذهبوا يأكلون من لحم فنادتهم امرأة من بعض أزواج النبي ﷺ إنه لحم ضب فأمسكوا، فقال رسول الله ﷺ: «كلوا أو اطعموا فإنه حلال أو قال لا بأس به شك فيه ولكنه ليس من طعامي».

وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه (١٥٤٢/٣، رقم ١٩٤٤).

الماء البارد.

وقال أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «**من أحب الله فليحبني ومن أحبني فليحب أصحابي، ومن أحب أصحابي فيلحب القرآن، ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإن المساجد أبنية الله، وأبنية أذن الله برفعها وتطهيرها، بارك فيها فهي ميمونة بأهلها فهم في صلاتهم والله تعالى في قضاء حوائجهم، وهم في مساجدهم والله تعالى في حج مقاصدهم**»[1].

وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى: إذا أحب عبداً نادى جبريل**»[2]، وفي رواية: إن جبريل ينادى في أهل السماء والأرض، إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فعند ذلك يلقي حبه في الأرض، ويقع في الماء فيشربه البر والفاجر فيحبه البر والفاجر، وإذا بغض الله عبداً أمر الله تعالى جبريل أن ينادي بالعكس من ذلك فيبغضه البر والفاجر.

وكان أبو يزيد البسطامي يقول في مناجاته: إلهي لست أعجب من حبي لك، وأنا عبد حقير، وإنما أعجب من حبك لي وأنت رب جليل، تحب عبداً ذليلاً.

وجرت مسألة المحب بين الشيوخ بمكة، فتكلموا فيها ثم قالوا للجنيد: هات ما عندك يا عراقي فقال: المحب عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه ناظراً إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كأس وده بالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى المشايخ.

قال ابن الجوزي: من ادعى أربعاً من غير أربع فهو كذاب: من ادعى حب الجنة ولم يعمل بالطاعة فهو كذاب، ومن ادعى خوف النار ولم يترك المعصية فهو كذاب، ومن ادعى حب الله تعالى والمصطفى ﷺ ولا يجالس الفقراء والمساكين فهو كذاب، ومن ادعى حب الله تعالى وهو يشكو لأحد من البلاء فهو كذاب.

من أطاع الله تعالى وأحبه عاش، ومن التفت إلى الخلق حجب عن الحق، ومن أقبل على غير الله سقط من عين الله، ومن بذل نفسه لله وصل إلى الله، ومن وصل إلى الله عرف الله، ومن ألف إلى الله نظر بقلبه إلى الله، ومن كان يعرف مولاه وقدرته

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

فـــليس تغمـــض طول الليل عيناه، ورد في الحديث يقول الله تبارك وتعالى لملائكته: «قربوا مني أهل لا إله إلا الله فإني أحبهم» [١].

أهـــل التوحيد في مقعد صدق عند مليك مقتدر، سبقت محبتهم لي قبل خلقهم، وطاعتهم لي قبل إيجادهم فصاروا أولياء بالموهبة القديمة لا جرم جاء مدحهم في الآيات المكنونة يحبهم ويحبونه ولقد أحسن من قال:

نـــالوا مـــرادهم بحب حبيبهم ... وتمـــــتعوا بدنـــــو وصـــــاله
وعـــليهم ظهـــر الجمال لأنهم ... بقـــلوبهم نظـــروا لحســـن جماله
وبحبه قد اشتغلوا ويا طوبى لمن ... قـــد أصـــبح المحبوب من أشغاله

***

(١) لم أقف عليه.

المجلس الحادي والعشرون

في ذكر شيء من فضائل الأنصار وذكر مبايعتهم رضي الله عنهم

قَالَ البُخَارِي :

باب عَلاَمَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ

أي: أنصار رسول الله ﷺ فالألف واللام للعهد، وحبهم هو إرادة الجنس.

و«الأنصار» إما جمع «ناصر» كأصحاب وإما جمع «نصير» كأشراف وشريف، وهم أصحاب المدينة الشريفة وهم فرقتان: «الأوس والخزرج» قبل تسميتهم بالأنصار، ويعرفون «ببني قيلة» فسماهم رسول الله ﷺ الأنصار، فصار ذلك علماً عليهم.

وأطلقوا أيضاً على خلفائهم وأولادهم ومواليهم، وخصوا بتسميتهم بالأنصار دون غيرهم من الصحابة لما فازوا به دون غيرهم من القبائل من إيواء النبي ﷺ ومن معه والقيام بأمره، فإنهم رضي الله عنهم أووا رسول الله ﷺ حين هاجر إليهم، وآثروه وأصحابه على أنفسهم في المنازل والأموال وعادوا جميع الفرق من عرب ومن عجم.

وسماهم بالأنصار وحذر من بغضهم وجعله علامة النفاق، ورغب في حبهم حتى جعل ذلك علامة الإيمان تنويهاً بعظم فضلهم.

وفي صحيح مسلم: «**لا يبغض الأنصار رجل مؤمن بالله واليوم الآخر**»[1]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٦/١، رقم ٧٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٦/٥، رقم ٨٣٢٢)، وأحمد في مسنده (٤١٩/٢، رقم ٩٤٢٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٧١/٣، رقم ١٧٧٣) جميعاً من حديث أبي هريرة .

وأخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٣، رقم ١١٣١٨)، وابن حبان في صحيحه (٢٦٣/١٦، رقم ٧٢٧٤)، والطيالسي في مسنده (ص ٢٩٠، رقم ٢١٨٢)، وأبو يعلى في مسنده (٢٨٧/٢، رقم ١٠٠٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٢٦/٣، رقم ١٧٠٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وأخرجه الترمذي في سننه (٧١٥/٥، رقم ٣٩٠٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/١٢، رقم ١٢٣٣٩)، وأبو يعلى في مسنده (٩١/٥، رقم ٢٦٩٨) عن ابن عباس .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢/١٠): قلت: رواه الترمذي غير ذكر ثقيف، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، غير شيخ الطبراني يحيى بن عثمان بن صالح السهمي وهو صدوق =

وهذا الحكم أيضاً جار في كل الصحابة إذ كل واحد منهم له سابقة وسالفة وعناء في الدين وألم، فحبهم لذلك محض الإيمان وبغضهم محض النفاق، ويدل عليه الحديث الوارد في فضل الصحابة كلهم: «**الله الله في أصحابي من أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم**»(١).

ولكن خص الأنصار بذلك لما ذكرنا لإيوائهم لرسول الله ﷺ ومن معه.

ولمحبته الأنصار قال: «**ولولا الهجرة لكنت رجلاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها**»(٢).

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: «إن الأنصار اجتمعوا فقالوا: إلى متى نشرب هذه الآبار، فلو أتينا النبي ﷺ فيدعو الله لنا أن يفجر لنا هذه الجبال عيوناً فجاءوا بجماعتهم إليه ﷺ فلما رآهم قال: «**مرحباً وأهلا لقد جاء بكم إلينا حاجة**» قالوا: إي والله يا رسول الله قال: «**إنكم لن تسألوني اليوم شيئا إلا رأيتموه، ولا أسأل الله شيئا إلا أعطانيه**» فأقبل بعضهم على بعضهم وقالوا: الدنيا تريدون؟ اطلبوا الآخرة، فقالوا بجماعتهم: يا رسول الله ادعوا لنا فقال: «**اللهم اغفر للأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أنصار الأنصار**»(٣).

في سنن الترمذي مرفوعاً «**اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار ولنساء الأنصار**»(٤).

= وفيه خلاف لا يضر.

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٦٩٦، رقم ٣٨٦٢) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن حبان في صحيحه (١٦/٢٤٤، رقم ٧٢٥٦)، والخلال في كتاب السنة (٣/ ٥١٣، رقم ٨٣٠)، والديلمي في مسند الفردوس (١/١٤٦، رقم ٥٢٥) عن عبدالله بن مغفل.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٤/١٥٧٤، رقم ٤٠٧٥) ومسلم في صحيحه (٢/٧٣٨، رقم ١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢١٣، رقم ١٣٢٤٩) عن أنس.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٤٠): رواه احمد والبزار بنحوه وقال: «مرحباً بالأنصار ثلاثاً، والطبراني في الاوسط والصغير والكبير بنحوه، وقال: «وللكائن»، وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٧١٥، رقم ٣٩٠٩) عن أنس قال: هذا حديث حسن =

وفي رواية:«**والجيران الأنصار**»، فيا فوز من انتسب إليهم.

فائدة: في أصحابه ﷺ ثلاثة مهاجرون أنصاريون: ذكوان بن قيس، وعقبة بن وهب والعباس بن عباد ولا رابع لهم.

قَالَ البُخَارِي: حدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيد[1]، قَالَ حدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبْرٍ[2]، قَالَ سَمِعْتُ أَنَساً، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "آيَةُ الإِيمانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ".

فمن لم يحبهم لا ينتفي عنه الإيمان، أو يقال المراد بقوله: «آية الإيمان»[3] أي: كمال الإيمان، فمن لم يحبهم ينتفي عنه كمال الإيمان لا أصله.

وظاهر الحديث يقتضي أن من أبغضهم يكون منافقاً وإن كان مصدقاً بقلبه، وهو محمول على ما إذا أبغضهم من جهة أنهم أنصار لرسول الله ﷺ .

=غريب من هذا الوجه.

(١) قال الحافظ في الفتح (١/١٣٨): هو الطيالسي.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٣٨): قوله «جبر» بفتح الجيم وسكون الموحدة، وهو ابن عتيك الأنصاري، وهذا الراوي ممن وافق اسمه اسم أبيه.

(٣) قال الحافظ في الفتح (١/١٣٨): قوله: «آية الإيمان حب» هو بهمزة ممدودة وياء تحتانية مفتوحة وهاء تأنيث، والإيمان مجرور بالإضافة، هذا هو المعتمد في ضبط هذه الكلمة في جميع الروايات، في الصحيحين والسنن والمستخرجات والمسانيد.

والآية: العلامة كنا ترجم به المصنف، ووقع في إعراب الحديث لأبي البقاء العكبري: «إنه الإيمان» بهمزة مكسورة ونون مشددة وهاء، والإيمان مرفوع، وأعربه فقال: إن للتأكيد، والهاء ضمير الشأن، والإيمان مبتدأ وما بعده خبر، ويكون التقدير: إن الشأن الإيمان حب الأنصار، وهذا تصحيف منه، ثم فيه نظر من جهة المعنى لأنه يقتضي حصر الإيمان في حب الأنصار، وليس كذلك.

فإن قيل واللفظ المشهور أيضاً يقتضي الحصر.

فالجواب: أن العلامة كالخاصة تطرد ولا تنعكس، فإن أخذ من طريق المفهوم فهو مفهوم لقب لا عبرة به. سلمنا الحصر لكنه ليس حقيقياً بل ادعائياً للمبالغة، أو هو حقيقي لكنه خاص بمن أبغضهم من حيث النصرة.

فإن قلت: الأنصار[1] جمع قلة وجمع القلة لا يصدق على ما فوق العشرة فيقتضي أن الأنصار لا يزيدون على العشرة مع أنهم كانوا ألوفاً مضاعفة؟

وأجيب عنه: بأن محل صدق القلة على العشرة فما دونها في نكرات الجموع، وإذا عرف فلا تفرق بين جمع القلة وغيرها.

ومعنى الحديث أن من عرف مرتبة الأنصار وما كان منهم من نصرة الإسلام والسعي في إظهاره وإيواء المسلمين وقيامهم بمهمات دين الإسلام حق القيام وحبهم النبي ﷺ ومعاداتهم لسائر الناس إيثاراً للإسلام، فمن أحبهم لهذه الخصال كان من صحة إيمانه وصدق في إسلامه لسروره بظهور الإسلام، ومن أبغضهم كان ضد ذلك، واستدل به على فساد سريرته.

ففي الحديث حث على حب الأنصار وبيان فضلهم وسائر الصحابة في هذه المحبة لإعزازهم للدين كما قدمنا ذلك رضي الله عنهم وعنا بهم.

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١٣٩): «الأنصار» هو جمع ناصر كأصحاب وصاحب، أو جمع نصير كأشراف وشريف، واللام فيه للعهد أي: أنصار رسول الله ﷺ والمراد الأوس والخزرج، وكانوا قبل ذلك يعرفون ببني قيلة بقاف مفتوحة وياء تحتانية ساكنة وهي الأم التي تجمع القبلتين، فسماهم رسول الله ﷺ الأنصار فصار ذلك علما عليهم، وأطلق أيضاً على أولادهم وحلفائهم ومواليهم.
وخصوا بهذه المنقبة العظمى لما فازوا به من دون غيرهم من القبائل من إيواء النبي ﷺ ومن معه والقيام بأمرهم ومواساتهم بأنفسهم وأموالهم وإيثارهم إياهم في كثير من الأمور على أنفسهم، فكان صنيعهم لذلك موجباً لمعاداتهم جميع الفرق الموجودين من عرب وعجم، والعداوة تجر البغض.
ثم كان من اختصوا به مما ذكر موجباً للحسد، والحسد يجر البغض، فلهذا جاء التحذير من بغضهم والترغيب في حبهم حتى جعل ذلك آية الإيمان والنفاق، تنويهاً بعظيم فضلهم، وتنبيهاً على كريم فعلهم، وإن كان من شاركهم في معنى ذلك مشاركاً لهم في الفضل المذكور كل بقسطه.
وقد ثبت في صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: له «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» وهذا جار باطراد أعيان الصحابة، لتحقق مشترك الإكرام، لما لهم من حسن العناء في الدين.
قال صاحب المفهم: وأما الحروب الواقعة بينهم فإن وقع من بعضهم بغض لبعض فذاك من غير هذه الجهة، بل للأمر الطارئ الذي اقتضى المخالفة، ولذلك لم يحكم بعضهم على بعض بالنفاق، وغنما كان حالهم في ذاك حال المجتهدين في الأحكام، للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد.

فائدة: أفاد القاضي عياض أن كل واحد من الصحابة له شفاعة، قال: ومن مات منهم بأرض كان نورهم وقائدهم يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ :

«من مات من أصحابي بأرض كان نورهم وقائدهم يوم القيامة»[1].

* * *

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٦٩٧/٥، رقم ٣٨٦٥) عن بريدة الأسلمي، وقال: هذا حديث غريب، وروي هذا الحديث عن عبد الله بن مسلم أبي طيبة عن بن بريدة عن النبي ﷺ مرسل وهو أصح.

ورواه الرافعي في التدوين (٣٦/٤)، والديلمي في الفردوس (٥٠٦/٣، رقم ٥٥٦٨) بريدة الأسلمي.

ورواه الضياء في المختارة كما في فيض القدير للمناوي (٤٧٠/٥).

باب[١]

بَايعُوني عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا باللَّه شَيْئاً

قَالَ البُخَاري : حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَان، قَالَ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ أَخْبَرَني أَبُو إِدْرِيسَ، عَائذُ اللَّه[٢] بْنُ عَبْد اللَّه أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامت ﷺ وَكَانَ شَهدَ بَدْراً، وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاء لَيْلَةَ الْعَقَبَة أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عصَابَةٌ منْ أَصْحَابه: «**بَايعُوني عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا باللَّه شَيْئاً، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا ببُهْتَان تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْديكُمْ وَأَرْجُلكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا في مَعْرُوف، فَمَنْ وَفَى منْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه، وَمَنْ أَصَابَ منْ ذَلكَ شَيْئاً فَعُوقبَ في الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ منْ ذَلكَ شَيْئاً ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّه إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ**» .

فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلكَ[٣].

«**عبادة بن الصامت**» هذا هو أبو الوليد عبادة بضم العين بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، شهد العقبتين الأولى والثانية وبدراً وأحداً وبيعة الرضوان والمشاهد كلها وهو أول من ولي فلسطين، ولاه عمر وكان طويلاً جسيماً فاضلاً

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٠): قوله «باب» كذا هو في روايتنا بلا ترجمة، وسقط من رواية الأصيلي أصلاً، فحديثه عنده من جملة الترجمة التي قبله، وعلى روايتنا فهو متعلق بها أيضاً، لأن الباب إذا لم تذكر له ترجمة خاصة يكون بمنـــزلة الفصل مما قبله مع تعلقه به، كصنيع مصنفي الفقهاء. ووجه التعلق أنه لما ذكر الأنصار في الحديث الأول أشار في هذا إلى ابتداء السبب في تلقيبهم بالأنصار، لأن أول ذلك كان ليلة العقبة لما توافقوا مع النبي ﷺ عند عقبة منى في الموسم.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٠): قوله: «عائذ الله» هو اسم علم أي: ذو عياذة بالله، وأبوه عبد الله ابن عمرو الخولاني صحابي، وهو من حيث الرواية تابعي كبير، وقد ذكر في الصحابة لأن له رؤية، وكان مولده عام حنين. والإسناد كله شاميون.

(٣) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٠): وقد أخرج البخاري حديث هذا الباب في مواضع أخر: في باب من شهد بدراً لقوله فيه: «كان شهد بدراً»، وفي باب وفود النصارى لقوله فيه: «وهو أحد النقباء»، وأورده هنا لتعلقه بما قبله.

ثم إن في متنه ما يتعلق بمباحث الإيمان من وجهين آخرين: أحدهما: أن اجتناب المناهي من الإيمان كامتثال الأوامر.

وثانيهما: أنه تضمن الرد على من يقول: إن مرتكب الكبيرة كافر أو مخلد في النار.

جميلاً خيراً.

قال الإستيعاب: وجهه عمر إلى الشام قاضياً ومعلماً فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين، وكان معاوية قد خالفه في شيء من مسائل الربا أنكره عليه عبادة فأغلظه معاوية في القول فقال له عبادة: لا أسكنك بأرض واحدةً أبداً ورحل إلى المدينة، فقال له عمر: ما أقدمك فأخبره فقال: ارجع إلى مكانك فقبح الله أرضاً لست فيها ولا أمثالك، وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك عليه.

روي له مائة حديث وواحد وثمانون حديثاً أتفق منهما على ستة، وانفرد كل واحد بحديثين.

روى عنه جمع من الصحابة منهم أنس وكانت وفاته بفلسطين، وقيل: بالرملة سنة أربع وثلاثين عن ثنتين وسبعين سنة، وقبره ببيت المقدس معروف.

وإنما قال البخاري: في حق عبادة «**وكان شهد بدراً**» أي: غزوة بدر مع أنه شهد غيرها من المشاهد لأن غزوة بدر كانت أفضل الغزوات كما قاله البرماوي وغيره، وتسمى «بدر الكبرى وبدر العظمى»، أما «بدر القتال» فهي قرية مشهورة نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة كان نـــزلها.

قيل: سميت غزوة بدر لبئر هناك يسمى بدراً باسم حافره بدر بن الحارث.

وقيل: بدر بن كلدة، وقيل: كالبدر وقيل: لرؤية البدر فيه.

فائدة: قال ابن كثير: انتصار المسلمين على الكفار في غزوة بدر في يوم يسمى يوم الفرقان، الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ودمغ فيه الشرك وحزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين وكثرة العدو، مع ما كانوا فيه من سوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيل المسومة والخيلاء الزائد، فأعز الله وحيه وتنـــزيله وبيض وجه النبي ﷺ وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله، ولهذا قال الله تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾[آل عمران: ١٢٣] أي: قليل عددكم لتعلموا أن النصر هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد.

فقد كانت هذه الغزوة أعظم غزوات الإسلام إذ منها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الأفاق نوره، ومن حين وقوعها أذل الله الكفار وأعز من حضرها من المسلمين فهو عنده من الأبرار، وكان خروجهم يوم السبت لثنتي عشر خلت من رمضان على رأس تسعة عشر شهراً، وكان عدد المسلمين في غزوة بدر

ثلاثمائة وخمس عشراً،وحضر مع رسول الله ﷺ فيها الأنصار و لم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكان عدد المشركين فيها ألفاً وقيل: غير ذلك، وكانت من غير قصد المسلمين إليها ولا ميعاد كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً**﴾[الأنفال: ٤٢].

واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون وأنهزم الباقون، وغنم رسول الله ﷺ متاعهم وكان العباس عم النبي ﷺ من جملة الأسارى السبعين.

لطيفة أخرى: قال علماء السير وغيرهم: لما التقى الناس في غزوة بدر ودنا بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ حفنة من الحصباء أي: من التراب فاستقبل بها قريشاً ثم قال: «**شاهت الوجوه**»[1] ثم نفخهم بها وأمر أصحابه فقال: شدوا،فكانت تلك الحصباء عظيم شأنها، لم تترك من المشركين رجلاً إلا ملأت عينيه فانهزموا، وجعل المسلمون يقتلون ويأسرون وبادر كل واحد من الكفار مكباً على وجهه لا يدري أين يتوجه، يعالج التراب حتى ينـــزعه من عينيه، وكانت الملائكة تقاتل مع المسلمين في هذه الغزوة.

قال ابن سيد الناس: و لم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر بل كانوا يحضرون من غير قتال عدداً ومدداً لا يضربون أحداً بخلاف غزوة بدر فإنهم كانوا يقاتلون فقد نقل عن أبي داود المازني: وكان شهد بدراً قال: إني لاتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه إذ تقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري أي: من الملائكة.

وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراء، وكان على جبريل ذلك اليوم عمامة صفراء وكان شعارهم: «أحد».

وسبب نـــزول الملائكة في غزوة بدر أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٣/١، رقم ٢٧٦٢)، وابن حبان في صحيحه (٤٣٠/١٤، رقم ٦٥٠٢)، والحاكم في المستدرك (٢٦٨/١، رقم ٥٨٣)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٢١٨/١٠، رقم ٢٣٠) عن ابن عباس.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٨/٨): رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح.

ألف وأصحابه ثلاثمائة وخمسة أو سبعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني**» فأنـــزل الله عند ذلك: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾[الأنفال: ٩] أي: فأمده الله بألف من الملائكة.

وروي أن جبريل نـــزل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة في صور الرجال، على خيل بلق عليهم ثياب بيض، وعلى رؤوسهم عمائم بيض قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم.

وقال ابن عباس: كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض، ويوم حنين عمائم خضر.

وروى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص أنه رأى عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم بدر رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام يقاتلان كأشد القتال[1].

فلما انهزم الكفار قال النبي ﷺ: «**من لقي العباس فلا يقتله وإنه خرج مستكرها**» فلما أسره المسلمون مع جملة الأسرى السبعين وأوثقوهم في تلك الليلة، فجعل العباس يئن من شدة الوثاق، فترك النبي ﷺ: النوم، فقيل: ما يسهرك يا رسول الله قال: «**أقلقني أنين العباس فقام الرجل وأرخى وثاقه**»[2].

ونقل بعض أهل السير: أن العباس لما كتف وانتصف الليل وجد النبي ﷺ ألماً وضراً فجعل يشتكي منه ويتضرع إلى الله، فهبط جبريل وقال: يا سيد البشر إن كنت تريد أن يزول عنك هذا البأس فسارع في حل كتاف العباس فقال: يا جبريل هو من جملة الأسارى التاركين دين الإسلام فقال: جبريل بل يقول لك ربك: إنه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٠٢/٤، رقم ٢٣٠٦) عن سعد.
وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (١٧١/١، رقم ١٤٦٨)، وابن حبان في صحيحه (٤٤٦/١٥، رقم ٦٩٨٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٦/٦، رقم ٣٢١٥٣)، والشاشي في مسنده (١٨٥/١، رقم ١٣٣)، والطيالسي في مسنده (ص ٢٨، رقم ٢٠٦)، واللالكائي في كرامات الأولياء (ص ١٢٨، رقم ٧٧)، والدورقي في مسند سعد (ص ١٣٧، رقم ٧٧).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات االكبرى (١٣/٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨٩/٩، رقم ١٧٩٢٤) عن ابن عباس.

شيخ كبير وللشيخ عندنا حرمة، فقام رسول الله ﷺ ومعه جماعة من أصحابه قاصدين نحو العباس فلما رآهم ظن أنهم إلى قتله قاصدين فواقعه الخوف فقال: يا ابن أخي ما جاء بك بالليل فقال: لا بأس عليك يا عمي قد عاتبني ربي من أجلك، فجعل العباس يبكي ويقول: يا مولاي أنا أحيد عن توحيدك وأنت تلطف بأقل عبيدك، ثم قال: يا سيد الأكوان أشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ففرح النبي ﷺ بإسلامه فخلع عمامته عليه وضجت الملائكة والصحابة بالصلاة والسلام عليه، ونـــزل جبريل فقال: يقول لك الله عز وجل: جعلت على العباس العمامة ونحن لأجلك نخلع عليه الخلافة إلى يوم القيامة.

فائدة أخرى: ذكر العلماء أن النبي ﷺ مكث ثلاث سنين في أول نبوته مستخفياً ثم أعلن في الرابعة، فأظهر نفسه ودعى الناس إلى الإسلام عشر سنين في كل عام في الموسم لعله يجد أحداً يعينه وينصره فلا يجد أحداً ينصره، حتى أنه كان يسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة، ويعرض نفسه عليها لعلهم يأووه عندهم وينصروه حتى يبلغ رسالة ربه، فيأتي إليهم الشيطان فيصدهم عن إيوائه ﷺ ونصرته فيرددون عليه أقبح رد، ويؤذونه ويسخرون به ويقولون قومك أعلم بك.

ولما أراد الله إظهار دينه ساقه إلى هذا الحي من الأنصار، فأقبل منهم اثنان إلى مكة فدعاهما رسول الله ﷺ فأسلما، ثم أقبل منهم في العام القابل ستة فدعاهم فأسلما، ثم لا زالوا يزدادون حتى فشا فيهم الإسلام و لم تبق دار من الأنصار بالمدينة الشريفة إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

ثم قال البخاري في حق عبادة ابن الصامت: «**وهو أحد النقباء ليلة العقبة**»[1] و «النقباء» جمع «نقيب» وهو الناظر على القوم، وضمينهم وعريفهم، والمراد بالنقباء هاهنا الأنصار الذين تقدموا البيعة ﷺ.

والمراد «بالعقبة» في ليلة العقبة التي تنسب إليها جمرة العقبة، وعندها وقعت «المبايعة»، و«المبايعة» هي المعاقدة والمعاهدة، شبهت بعقود المال لأن كلاً يعطي ما

---

(١) هنا لطيفة ذكرها ابن حجر في الفتح (١/١٤٠) فإنه قال: يحتمل أن يكون قائل ذلك أبو إدريس، فيكون متصلاً، إذا حمل على أنه سمع ذلك من عبادة، أو الزهري فيكون منقطعاً. وكذا قوله: «وهو أحد النقباء».

عنده بما عند الآخر، فما عند النبي ﷺ الثواب والخير الكثير، وما عندهم إلتزام الطاعة.

وحقيقة المبايعة: أن يعقد الإمام العهد مع رعيته بما يأمرهم كما عقد رسول الله ﷺ مع أصحابه.

قال العلماء: وبايع رسول الله ﷺ ثلاث مرات:

البيعة الأولى: للأنصار وكانوا اثنا عشر رجلاً وكانت هذه المبايعة بمنى، وتسمى البيعة الأولى من بيعتي العقبة، بايعهم رسول الله ﷺ على الإسلام دون القتال لأنه لم يفرض يومئذ وسماهم بالأنصار.

والثانية: للأنصار أيضاً وكانوا سبعين رجلاً جاءوا للحج بايعهم رسول الله ﷺ خفية بالليل أوسط أيام التشريق، قال لهم رسول ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثنا عشر نقيباً حتى أبايعهم، وإنما طلب ﷺ اثنا عشر نقيباً إقتداء بقول الله تعالى في قوم موسى: ﴿**وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً**﴾[المائدة: ١٢] فأخرجوا له منهم اثنا عشر نقيباً، وأسماءهم معروفة في كتب السير منهم: عبادة بن الصامت كما قال البخاري: «وهو أحد نقباء ليلة العقبة» فتقدموا لمبايعته ﷺ فبايعهم فيها على القتال وعلى حرب الأحمر والأسود، وكان أول آية أنزلت في الإذن بالقتال: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾[الحج: ٣٩] وجعل ثوابهم الجنة، وهذه البيعة الثانية من بيعتي العقبة.

والبيعة الثالثة: بعد هاتين البيعتين «بيعة الرضوان» بايعهم ﷺ تحت الشجرة وكانوا ألفاً وثلاثمائة بايعهم رسول الله ﷺ أن لا يفروا.

وإلى هذه البيعة أشار الله تعالى بقوله: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾[الفتح: ١٨] وهذه البيعة كانت بعد الهجرة بخلاف البيعتين الأولتين.

وذكر البخاري هنا كيفية الأولى بقوله: «**عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال وحوله**[1] **عصابة من أصحابه**»[2] أي: جماعة من أصحابه والعصابه بكسر

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤١): قوله: «وحوله» بفتح اللام على الظرفية.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٠): قوله: «أن رسول الله ﷺ» سقط قبلها من أصل الرواية لفظ «قال» وهو خبر أن، لأن قوله: «وكان» وما بعدها معترض، وقد جرت عادة كثير من =

العين ما بين العشرة إلى الأربعين، وكانوا في هذه البيعة اثنا عشر كما تقدم.

«**بايعوني**» أي: عاهدوني وعاقدوني[(١)].

«**على أن لا تشركوا بالله شيئا**»[(٢)] أي: على أن تعبدوه وتوحدوه ولا تشركوا به شيئاً والشرك بالله تعالى هو أن تجعل لله نداً وتعبد معه غيره من حجر وبشر أو شمس أو قمر أو نبي أو شيخ أو جني أو ملك أو نجم أو غير ذلك وهو ذنب عظيم لا يغفر قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ به وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[النساء: ٤٨]، وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[لقمان: ١٣]، وهو أكبر الكبائر فلهذا أبايعهم على تركه قبل غيره.

قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله**»[(٣)] فمن أشرك بالله ثم مات مشركاً فهو من أصحاب النار قطعاً.

وأيضاً إنما بايعهم عل ترك الشرك أولاً لأن المبايعة على التوحيد الذي هو أصل الإيمان وأساس الإسلام.

ثم قال ﷺ: «**ولا تسرقوا**» والسرقة من الكبائر قال تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ**

= أهل الحديث بحذف «قال» خطأ لكن حيث يتكرر في مثل «قال: قال رسول الله ﷺ» ولا بد عندهم مع ذلك من النطق بها، وقد ثبتت في رواية البخاري لهذا الحديث بإسناده هذا في باب من شهد بدراً فلعلها سقطت هنا ممن بعده.

ولأحمد عن أبي اليمان بها الإسناد أن عبادة حدثه.

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤١): والمبايعة عبارة عن المعاهدة، سميت بذلك تشبيها بالمعاوضة المالية.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٣): قال الطيبي: الحق أن المراد بالشرك الشرك الأصغر وهو الرياء، ويدل عليه تنكير شيئاً أي: شركاً أيا ما كان.

وتعقب بأن عرف الشارع إذا أطلق الشرك إنما يريد به ما يقابل التوحيد، وقد تكرر هذا اللفظ في الكتاب والأحاديث حيث لا يراد به إلا ذلك. ويجاب: بأن طلب الجمع يقتضي ارتكاب المجاز، فما قاله محتمل وإن كان ضعيفاً.

ولكن يعكر عليه أيضاً أنه عقب الإصابة بالعقوبة في الدنيا، والرياء لا عقوبة فيه، فوضح أن المراد الشرك وأنه مخصوص.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٢٩، رقم ٥٦٣١)، ومسلم في صحيحه (١/٩١، رقم ٨٧) عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه.

حَكِيمٌ﴾[المائدة: ٨٣].

وقال النبي ﷺ: «**لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(٢).

قيل: وينبغي إن يقال عند سماع هذا أعاذنا الله من ذلك، وإنما تكون السرقة من الكبائر إذا سرق ما قيمته ربع دينار أما سرقة ما دون ذلك فهو من الصغائر، إلا إذا كان المسروق منه مسكيناً لا غنى له عن ذلك، فيكون كبيرة لا من جهة السرقة بل من جهة الأذى، وحد السارق قطع اليد إذا كان المسروق ربع دينار.

ثم قال ﷺ: «ولا تزنوا» الزنا أيضاً من الكبائر قال الله تعالى: **﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾**[الإسراء: ٣٢].

وقال تعالى: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[النور: ٢].

وأجمع أهل الملل على تحريمه ولهذا كان حده أشد الحدود لأنه جناية على الأعراض والأنساب.

فائدة: قال النووي: يكره للإنسان إذا ابتلي بمعصية أو نحوها أن يخبر غيره بذلك، بل ينبغي له أن يستر على نفسه وأن يتوب إلى الله تعالى، فإن أخبر بمعصيته شيخه أو شبهه ممن يرجو بإخباره أن يعلمه مخرجاً من معصيته، أو يعلمه ما يسلم من الوقوع في مثلها، أو يعرفه السبب الذي أوقعه فيها، أو يدعو له ونحو ذلك فلا بأس به بل هو حسن، وإنما يكره إذا انتفت هذه المصلحة.

روينا في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرون**»(٣) من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٤٨٩، رقم ٦٤٠١)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣١٤، رقم ١٦٨٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٢٨٢، رقم ٣٢٨٨)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣١٥، رقم ١٦٨٨) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٥٤، رقم ٥٧٢١)، والبيهقي في السنن الكبرى =

يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ويصبح يكشف ستر الله عليه.

وفي حديث: «**من أتى بهذه القاذورات فليستتر بستر الله، فإن من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه الحد**»[1] رواه الحاكم.

ثم قال ﷺ: «**ولا تقتلوا أولادكم**»[2] إنما بايعهم على ترك قتل الأولاد مع أن قتل غير الأولاد بغير حق حرام لأن قتل البنات كان فاشياً أكثر من قتل غيرهم، وهو المسمى بوأد البنات الذي نهى عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[3] متفق عليه.

ثم قال النبي ﷺ: «**ولا تأتوا ببهتان**» أي: بكذب يبهت سامعه أي: يدهشه لفظاعته.

= (٣٢٩/٨، رقم ١٧٣٧٧)، والديلمي في الفردوس (٢٦٧/٣، رقم ٤٧٩٥) عن أبي هريرة.
وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٣٧٨/١، رقم ٦٣٢) عن أنس بن مالك عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنهما.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٢/١٠): فيه عون بن عمارة وهو ضعيف.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٢/٤، رقم ٧٦١٥) عن عبد الله بن عمر، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.
وأخرجه أيضاً: البيهقي في السنن الكبرى (٣٣٠/٨، رقم ١٧٣٧٩).
وأخرجه مالك في الموطأ (٨٢٥/٢، رقم ١٥٠٨) عن زيد بن أسلم أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنا على عهد رسول ﷺ فدعا له رسول الله ﷺ بسوط، فأتي بسوط مكسور فقال: «فوق هذا» فأتي بسوط جديد لم تقطع ثمرته، فقال: «دون هذا» فأتي بسوط قد ركب به ولان فأمر به رسول الله ﷺ فجلد، ثم قال: «أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله...» فذكره بنحوه.
وأخرج رواية مالك في الموطأ البيهقي في السنن الكبرى (٣٢٦/٨، رقم ١٧٣٥٢) من طريق مالك.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١٤١/١): قال محمد بن إسماعيل التيمي وغيره: خص القتل بالأولاد لأنه قتل وقطيعة رحم، فالعناية بالنهي عنه آكد، ولأنه كان شائعاً فيهم، وهو وأد البنات وقتل البنين خشية الإملاق، أو خصهم بالذكر لأنهم بصدد أن لا يدفعوا عن أنفسهم.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٨٤٨/٢، رقم ٢٢٧٧)، ومسلم في صحيحه (١٣٤١/٣، رقم ٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة.

«**تعترونه**» أي: تختلقونه.

«**بين أيديكم وأرجلكم**» فإن قيل: كيف أضاف ﷺ البهتان إلى الأيدي والأرجل مع أنها لا مدخل لها في البهتان، فإنه يكون باللسان فقط؟

أجيب عنه بأوجه:

منها: أن البهتان ناشئ عما يختلقه القلب الذي هو بين الأيدي والأرجل، ثم يبرزه بلسانه[1].

ثم قال ﷺ: «**ولا تعصوا في معروف**»[2] قال في النهاية: «المعروف اسم جمع

---

(١) شرح الحافظ ابن حجر هذه الجملة شرحاً بديعاً في الفتح (١/١٤١) حيث قال: قوله: «ولا تأتوا ببهتان» البهتان: الكذب يبهت سامعه، وخص الأيدي والأرجل بالافتراء لأن معظم الأفعال تقع بهما، إذ كانت هي العوامل والحوامل للمباشرة والسعي، وكذا يسمون الصنائع الأيادي، وقد يعاقب الرجل بجناية قولية فيقال: هذا بما كسبت يداك.

ويحتمل أن يكون المراد لا تبهتوا الناس كفاحاً وبعضكم يشاهد بعضاً، كما يقال: قلت كذا بين يدي فلان، قاله الخطابي، وفيه نظر لذكر الأرجل.

وأجاب الكرماني: بأن المراد الأيدي، وذكر الأرجل تأكيداً، ومحصله أن ذكر الأرجل إن لم يكن مقتضياً فليس بمانع.

ويحتمل أن يكون المراد بما بين الأيدي والأرجل القلب لأنه هو الذي يترجم اللسان عنه، فلذلك نسب إليه الافتراء، كأن المعنى: لا ترموا أحداً بكذب تزورونه في أنفسكم ثم تبهتون صاحبه بألسنتكم.

وقال أبو محمد بن أبي جمرة: يحتمل أن يكون قوله: «بين أيديكم» أي: في الحال، وقوله: «وأرجلكم» أي: في المستقبل، لأن السعي من أفعال الأرجل.

وقال غيره: أصل هذا كان في بيعة النساء، وكني بذلك -كما قال الهروي في الغريبين- عن نسبة المرأة الولد الذي تزني به أو تلتقطه إلى زوجها، ثم لما استعمل هذا اللفظ في بيعة الرجال احتيج إلى حمله على غير ما ورد فيه أولاً. والله أعلم.

(٢) إلى هنا انتهت المنهيات المبايع عليها وقد يسأل سائل لما نص على المنهيات دون المأمورات وقد تكلم على هذه المسألة الحافظ ابن حجر فقال: فإن قيل: لم اقتصر على المنهيات ولم يذكر المأمورات؟

فالجواب: أنه لم يهملها، بل ذكرها على طريق الإجمال في قوله: «ولا تعصوا» إذ العصيان مخالفة الأمر.

والحكمة في التنصيص على كثير من المنهيات دون المأمورات: أن الكف أيسر من إنشاء الفعل، لأن اجتناب المفاسد مقدم على احتلاب المصالح، والتخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل. =

لكل ما عرف من طاعة الله والإحسان إلى الناس، وما ندب الشرع إليه من حسن ونهى عنه من قبيح».

وقال النووي: يحتمل أن يكون المعنى ولا تعصوني ولا أحد أولي الأمر عليكم في المعروف، فيكون التقييد بالمعروف متعلقاً بشيء بعده.

ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «**فمن وفى منكم**» أي: ثبت على ما بايع عليه.

«**فأجره على الله**» أي: بطريق التفضل والإحسان كما يقوله أهل السنة، لا بطريق الاستحقاق والوجوب كما يقوله المعتـــزلة، فإن الله لا يجب عليه إثابة المطيع ولا تعذيب العاصي، إن أثاب المطيع فبفضله، أو عذب العاصي فبعدله[1].

ثم قال ﷺ: «**ومن أصاب من ذلك**» إشارة إلى غير الشرك بقرينة قوله: «**ثم ستره**» أي: فمن فعل من الذي بويع على تركه «**شيئاً**» غير الشرك كأن سرق أو زنى أو قتل أو أتى بهتان أو عصى الله في معروف.

«**فعوقب في الدنيا**» أي: بذلك الذي فعله قطعت يده في السرقة أو حد في الزنا أو استوفى منه القصاص في القتل، أو حد في القذف وغير ذلك.

«**فهو كفارة له**» أي: فالعقاب الذي استوفى منه في الدنيا فهو كفارة له فلا يطالب به في الدار الآخرة، وإن لم يتب وهذا هو مذهب الأكثرين[2].

= انظر الفتح (١/١٤٢).

(١) في هذا المعنى قال الحافظ في الفتح (١/١٤٢): قوله: «فأجره على الله» أطلق هذا على سبيل التفخيم، لأنه لما أن ذكر المبايعة المقتضية لوجود العوضين أثبت ذكر الأجر في موضـــع أحدهما. وأفصح في رواية الصنابحي عن عبادة في هذا الحديث في الصحيحين بتعيين العوض فقال: «الجنة»، وعبر هنا بلفظ «على» للمبالغة في تحقق وقوعه كالواجبات، ويتعين حمله على غير ظاهره للأدلة القائمة على أنه لا يجب على الله شيء.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٣): قال القاضي عياض: ذهب أكثر العلماء أن الحدود كفارات واستدلوا بهذا الحديث، ومنهم من وقف لحديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا أدري الحدود كفارة لأهلها أم لا»، لكن حديث عبادة أصح إسناداً.

ويمكن -يعني على طريق الجمع بينهما- أن يكون حديث أبي هريرة ورد أولاً قبل أن يعلمه الله، ثم أعلمه بعد ذلك.

قلت: حديث أبي هريرة أخرجه الحاكم في المستدرك والبزار من رواية معمر عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة، وهو صحيح على شرط الشيخين. =

سئل النووي ﷺ فقيل له: ما تقول في إنسان قتل فاستوفى منه القصاص أو الدية في الدنيا هل تبقى عليه العقوبة في الآخرة؟

قال: فأجاب بسقوط العقوبة عنه وعدم المطالبة في الآخرة، قال: وظواهر الشرع تدل على ذلك واستدل عليه بحديث البخاري وبقوله ﷺ: «**ومن أصاب شيئا من هذه القاذورات فعوقب به كان كفارة له**... الحديث».

واستشكل العلماء ذلك بقوله: تعالى: ﴿**ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[المائدة: ٣٣] فإن الآية تدل على أن الطلب لا يسقط في الآخرة وإن حد في الدنيا؟

أجاب العلماء عن الآية بوجهين:

أحدهما: أنها في حق الكفار، فإن عقابهم في الدنيا لا يسقط العقاب عنهم في الآخرة.

والثاني: أن حديث البخاري مخصص لها.

وذهب بعض العلماء إلى أن القاتل إذا اقتص منه في الدنيا لا يسقط عنه الطلب في الآخرة، لأن المقتول لم يصل إليه حقه فالطلب له باق في الآخرة، قال: وإنما

= وقد أخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر، وذكر الدار قطني أن عبد الرزاق تفرد بوصله، وأن هشام بن يوسف رواه عن معمر فأرسله. قلت: وقد وصله آدم ابن أبي إياس عن ابن أبي ذئب وأخرجه الحاكم أيضاً فقويت رواية معمر، وإذا كان صحيحاً فالجمع -الذي جمع به القاضي حسن-، لكن القاضي ومن تبعه جازمون بأن حديث عبادة هذا كان بمكة ليلة العقبة، لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ البيعة الأولى بمنى، وأبو هريرة إنما أسلم بعد ذلك بسبع سنين عام خيبر، فكيف يكون حديثه متقدماً؟

وقالوا في الجواب عنه: يمكن أن يكون أبو هريرة ما سمعه من النبي ﷺ وإنما سمعه من صحابي آخر كان سمعه من النبي ﷺ قديماً و لم يسمع من النبي ﷺ بعد ذلك أن الحدود كفارة كما سمعه عبادة، وفي هذا تعسف.

ويبطله أن أبا هريرة صرح بسماعه، وأن الحدود لم تكن نزلت إذ ذاك.

والحق عندي أن حديث أبي هريرة صحيح وهو ما تقدم على حديث عبادة، والمبايعة المذكورة في حديث عبادة على الصفة المذكورة لم تقع ليلة العقبة، وإنما كان ليلة العقبة ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أن النبي ﷺ قال لمن حضر من الأنصار: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فبايعوه على ذلك، وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه.

وجب قتل القاتل في الدنيا لأجل إرداع غيره وزجره.

قال ابن حجر: هذا القول مردود بأن المقتول وصل إليه حق وأي حق وهو تكفير الخطايا والذنوب عنه بالقتل ظلماً فقد ورد: «**إن السيف محاء للخطايا**»[1] أخرجه ابن حيان وغيره وصححوه، فلولا القتل ما كفرت ذنوبه، فأي حق يصل إليه أعظم من هذا، فالصواب عدم المطالبة في الآخرة، خصوصاً إن مات عن توبة.

ثم قال النبي ﷺ: «**ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه**» في هذا دلالة وإشارة إلى أنه لا يجب على الله عقاب عاص وإذا لم يجب عليه هذا لا يجب عليه ثواب المطيع أيضاً.

وفيه دلالة على أن الإنسان إذا ارتكب كبيرة ومات و لم يتب منها فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه.

وبطل به قول المعتـــزلة: أنه يجب على الله تعذيب العاصي إذا مات بلا توبة، وقول الخوارج الذين يكفرون العبد بارتكابه للكبائر، فإن النبي ﷺ، أخبر أنه تحت المشيئة و لم يقل: إنه يعذب كما تقوله المعتـــزلة أو يكفر كما تقوله الخوارج[2].

وحاصل الحديث من مات صغيراً أو كبيراً ولا ذنب له بأن مات عقب بلوغه أو عقب توبته أو عقب إسلامه قبل إحداث معصية فهو محكوم له بالجنة بفضل الله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٥/٤، رقم ١٧٦٩٣)، وابن حبان في صحيحه (٥١٩/١٠، رقم ٤٦٦٣)، والدارمي في سننه (٢٧٢/٢، رقم ٢٤١١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢٥/١٧، رقم ٣١٠)، وفي مسند الشاميين (١١٦/٢، رقم ١٠٢٣)، والطيالسي في مسنده (ص ١٧٨، رقم ١٢٦٧)، وابن المبارك في الجهاد (ص ٣٠، رقم ٧)، وابن أبي عاصم في كتاب الجهاد (ص ٣٧٠، رقم ١٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٦٤/٩، رقم ١٨٣٠٤) عن عتبة بن عبد السلمي، وفي بعض المصادر الأسلمي.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١٤٦/١): قوله: «إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه» يشمل مـــن تاب من ذلك ومن لم يتب، وقال بذلك طائفة، وذهب الجمهور إلى أن من تاب لا يبقى عليه مؤاخذة، ومع ذلك فلا يأمن مكر الله لأنه لا اطلاع له هل قبلت توبته أو لا.

وقيل: يفرق بين ما يجب فيه الحد وما لا يجب، واختلف فيمن أتى ما يوجب الحد، فقيل: يجوز أن يتوب سراً ويكفيه ذلك، وقيل: بل الأفضل أن يأتي الإمام ويعترف به، ويسأله أن يقيم عليه الحد كما وقع لماعز والغامدية.

وفصل بعض العلماء بين أن يكون معلنا بالفجور فيستحب أن يعلن بتوبته وإلا فلا.

ورحمته، ولا يدخل النار ولكن يردها كما قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً**﴾[مريم: ٧١]، وفي الورود خلاف يأتي الكلام عليه، وإن مات مصراً على كبيرة فهو إلى الله تعالى إن شاء سامحه وعفا عنه وأدخله مع أول الداخلين، وإن شاء عاقبه في النار ثم أخرجه وأدخله الجنة، ولا يخلد أحد في النار مات على التوحيد.

وفيه دليل وإشارة إلى أنه لا يشهد أحد لأحد بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من ورد النص فيه بعينه كالعشرة المبشرون بالجنة وغيرهم ممن ورد أنه من أهل الجنة فيشهد لهم بذلك، أو ورد أنه من أهل النار كأبليس وأبي جهل وفرعون فيشهد لهم بالنار، ومن عداهم أمرهم إلى الله تعالى.

اللهم اختم اعمالنا بالصالحات، وكفر عنا الخطايا والسيئات، لا تؤاخذنا بما ارتكبناه من الزلات، ووفقنا إلى التوبة قبل الممات، يا من يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات.

جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»(١).

وجاء في الحديث أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أذنب ذنباً فأوجعه قلبه غفر الله له ذلك الذنب، وإن لم يستغفر**»(٢).

وأفاد بعض العلماء: أن آدم عليه الصلاة والسلام لما هبط إلى الأرض بكى على ذنبه وقال: يا رب إني تبت وأصلحت فاقبلني، فأوحى الله إليه: يا آدم إني كتبت على عرشي من قبل أن أخلق السماوات والأرض: وإني لغفار لمن تاب، يا آدم احشر التائبين ضاحكين مستبشرين، ودعاؤهم مستجاب.

وذكر الإمام حجة الإسلام الغزالي في الإحياء: العبد إذا كان مسرفاً على نفسه وأراد أن يتوب فيرفع يديه ويقول: يا رب حجبت الملائكة صوته أولاً وثانياً وثالثاً،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٦٥٩، رقم ٢٤٩٩) عن أنس، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة، وابن ماجه في سننه (٢/١٤٢٠، رقم ٤٢٥١)، وأحمد في مسنده (٣/١٩٨، رقم ١٣٠٧٢)، وأبو يعلى في مسنده (٥/٣٠١، رقم ٢٩٢٢)، والحاكم في المستدرك (٤/٢٧٢، رقم ٧٦١٧) وصححه.

(٢) لم نقف عليه.

في الرابعة يقول الله تعالى: لما تحجبون صوت عبدي عني، قد علم أنه ليس رب يغفر الذنوب غيري أشهدكم أني قد غفرت له.

وجاء في الخبر أيضاً: «إذا كثرت ذنوب ابن آدم يثقل العرش على الحملة فيعلمون ذلك فيقولون: يا كريم العفو حتى يخف عنهم، وإذا قال العبد يا كريم، يقول: الله تعالى ماذا رأيت من كرمي وأنت في السجن، اصبر حتى ترى كرمي في الجنة.

وحكي في كتاب «نرجس القلوب»: أن بعض الصديقين أصاب ذنباً فجاء إلى البحار وقال: أيتها البحار البعيدة غوراً، الكثيرة أمواجاً، قد أصبت ذنباً فهل تغيبوني عن الله ساعة واحدة، فأمر الله تعالى البحار أن تجيبه ما فيها موجة إلا وعليها ملك، فأتى الجبال فنادى أيتها الجبال الشامخة قد أصبت ذنباً فهل تغيبوني عن الله ساعة واحدة، فأمر الله الجبال أن تجيبه ما فيها صخرة وإلا عليها ملك، فجاء إلى الأشجار كذلك فنادته ما عليها ورقة إلا وعليها ملك، فبرز وقال: يا إلهي يا إلهي عذبني بما شئت وافعل فيّ ما شئت، فخرج النداء يا حبيبي لأسكنك جنتي.

***

المجلس الثاني والعشرون

في الكلام على باب «مِنَ الدِّينِ الْفِرَارُ مِنَ الْفِتَنِ» وبيان ما في حديثه من الفوائد واللطائف، وفي ذكر العزلة والخلطة وذكر أيهما أفضل

قَالَ البُخَارِي:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالك، عَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْد اللَّه بْنِ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيه، عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ**».

قوله: «**باب من الدين الفرار من الفتن**» فإن قيل: لأي شيء قال: «من الدين» و لم يقل: «من الإيمان» كما قال في غيره من الأبواب؟

فالجواب: أنه قال ذلك مراعاة للفظ الحديث[1] حيث قال فيه: «**يفر بدينه**» وتعبيره ﷺ بقوله من الدين مع أن الكتاب معقود للإيمان، يشعر بأن معناها كما أن الإيمان والإسلام عنده أيضاً بمعنى واحد، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾[آل عمران: ١٩].

وقال الطيبي: اصطلحوا على ترادف الإيمان والإسلام ولا مشاحة في الاصطلاح.

«**حدثنا عبد الله بن مسلمة**» هذا هو القعنبي الحارثي المدني البصري، منسوب إلى جده قعنب، سكن البصرة وأقام بالمدينة، وكان رضي الله عنه مجاب الدعوة، وأجمع العلماء على إمامته وإتقانه وثقته وجلالته وحفظه وصلاحه وورعه وزهده.

قال أبو حاتم: لم أر أخشع منه.

وقال أبو زرعة: ما كتبت عن أحد أجل في عيني منه.

وقيل: إن عبد الله القعبني قدم فقال: قوموا بنا إلى خير أهل الأرض.

وقيل له: حدثت و لم تكن تحدث فقال: رأيت كأن القيامة قد قامت فصيح: يا أهل العلم فقاموا فقمت معهم، فصاح بي: أجلس، فقلت: يا إلهي ألم أكن معهم أطلب؟ قال: بلى ولكنهم نشروا فحدثت.

---

(١) قاله الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١٤٧) وزاد: ولما كان الإيمان والإسلام مترادفين في عرف الشرع صح إطلاق الدين في موضع الإيمان.

روى عنه البخاري ومسلم فأكثرا، وكان ﷺ حريصاً على سماع الحديث، رحل إلى البصرة ليسمع الحديث من شعبة، وكان شعبة إماماً فلما دخل البصرة صادف المجلس قد انقضى وقد انصرف شعبة إلى منزله، فحمله الحرص والشره إلى أن سأل عن منزل شعبة، فأرشد إليه فوجد الباب مفتوحاً فدخل من غير استئذان فصادف شعبة جالساً على البالوعة فقال: السلام عليكم رجل غريب قدم من بلد بعيد لتحدثني بحديث رسول الله ﷺ فاستعظم ذلك شعبة فقال: يا هذا دخلت منزلي بغير إذني وتكلمني وأنا على مثل هذا الحال، تأخر عني واصبر على حتى أصلح من شأني، فأكثر عليه في الإلحاح وشعبة يخاطبه وذكره في يده يستبرئ فلما أكثر قال له اكتب: حدثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي فافعل ما شئت**»[1] ثم قال: والله لأحدثنك بهذا الحديث ولا حدثت قوماً تكون فيهم.

ذكر هذه الحكاية عنه ابن جماعة في أنس المحاضرة وذكرها السخاوي في شرح ألفية الحديث في آداب طالب الحديث.

وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين ومائتين.

«**عن مالك**» هذا هو إمام دار الهجرة إمام المسلمين، وقد قدمنا بعض فضائله التي لا تعد ولا تحد.

«**عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري**» واسمه: سعد على الصحيح، وقيل: سنان، استصغر يوم أحد فرد، وغزى بعد ذلك اثنا عشر غزوة مع رسول الله ﷺ، وكان من الحفاظ المكثرين، والعلماء العقلاء، وأحد نجباء الأنصار وعلمائهم مع حداثة سنه، بايع النبي ﷺ على أن لا تأخذه في الله لومة لائم مع جماعة.

ويقال له: «عفيف المسألة» لأنه عف فلم يسأل أحداً قط، ولما مات والده لم يترك له مالاً فأتى رسول الله ﷺ ليسأله فقال حين رآه: «**من يستعن أعانه الله، ومن**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٦٨، رقم ٥٧٦٩)، وأبو داود في سننه (٤/٢٥٢، رقم ٤٧٩٧)، وابن ماجه في سننه (٢/١٤٠٠، رقم ٤١٨٣)، وأحمد في مسنده (٤/١٢١، رقم ١٧١٣١)، والطيالسي في مسنده (ص ٨٦، رقم ٦٢١)، وابن حبان في صحيحه (٢/٣٧١، رقم ٦٠٧)، والبغوي في في الجعديات (١/١٣٠، رقم ٨١٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/٢٣٥، رقم ٦٥١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/١٨٦، رقم ١١٥٣) عن أبي مسعود البدري.

يستعف أعفه الله» فقال: ما تريد غيري فرجع.

وأبو سعيد الخدري صحابي بن صحابي وقتل والده يوم أحد و لم يرو عنه شيء كما قاله العسكري.

«ودال» الخدري مهمله وهو منسوب إلى خدره أحد أجداده أو إحدى جداته.

روي له عن رسول الله ﷺ ألف حديث ومائة وسبعون حديثاً، روى البخاري منها اثنين وستين حديثاً، وبلغ من العمر أربعاً وسبعين سنة، وكانت وفاته بالمدينة سنة أربع وسبعين، وقيل: سنة أربع وستين، ودفن بالبقيع.

فائدة: اشتمل هذا الإسناد على لطيفة ظريفة وهي أن رجاله كلهم مدنيون.

«عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[1].

قوله: «**يوشك**» بمعنى يقرب أي: كون خير مال المسلم غنم أشار ﷺ بهذا الحديث إلى أن الفتن تكثر في آخر الزمان، ويحل فساد كثير بين الناس فينبغي لمن يخاف على دينه من مخالطة أهل الشر والفساد، أن ينعزل عنهم في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وأن يكون عنده أغنام يرعاها في هذه المواضع وينتفع بدرها ونسلها، وإنما

---

(١) لخص الحافظ ابن حجر معناه في الفتح (١/١٤٨) فقال: قوله: «يوشك» بكسر الشين المعجمة أي: يقرب.

قوله: «خير» بالنصب على الخبر، وغنم الاسم، وللأصيلي برفع خير ونصب غنماً على الخبرية، ويجوز رفعهما على الابتداء والخبر ويقدر في يكون ضمير الشأن قاله ابن مالك، لكن لم تجيء به الرواية.

قوله: «يتبع» تشديد التاء ويجوز إسكانها.

«وشعف» بفتح المعجمة والعين المهملة جمع شعفة كأكم وأكمة، وهي رؤوس الجبال.

قوله: «ومواقع القطر» بالنصب عطفاً على شعف، أي: بطون الأودية، وخصهما بالذكر لأنهما مظان المرعى.

قوله: «يفر بدينه» أي: بسبب دينه. و«من» ابتدائية.

قال الشيخ النووي: في الاستدلال بهذا الحديث للترجمة نظر، لأنه لا يلزم من لفظ الحديث عد الفرار ديناً، وإنما هو صيانة للدين، قال: فلعله لما رآه صيانة للدين أطلق عليه اسم الدين.

وقال غيره: إن أريد بمن كونها جنسية أو تبعيضية فالنظر متجه، وإن أريد كونها ابتدائية أي: الفرار من الفتنة منشؤه الدين فلا يتجه النظر.

ثم قال الحافظ: وهذا الحديث قد ساقه البخاري أيضاً في كتاب الفتن، وهو أليق المواضع به.

يفعل ذلك لأجل إحراز دينه وسلامته من الكدورات التي تحصل من خلطة الناس.

وإنما خص ﷺ الغنم بكونها خير مال المسلم لما فيها من السكينة والبركة.

فائدة: الغنم اسم جنس لا واحد له من لفظه يقع على الذكر والأنثى، وهو صادق على الضأن والمعز واتفق العلماء على أن الضأن أفضل من المعز كما صرحوا بذلك في الأضحية فإنهم قالوا: الضأن في الأضحية أفضل من المعز.

قال النووي في منهاجه: وأفضلها بعير ثم بقرة ثم ضأن ثم معز ولأن الله في كتابه العزيز بدأ بذكر الضأن فقال: ﴿**مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ**﴾[الأنعام: ١٤٣] وتقديم الشيء على غيره يدل على تفضيله عليه، فالبركة في الضأن أيضاً أكثر من البركة في المعز، فإن الضأن تلد في السنة مرة والمعز تلد مرتين وتثني وتثلث، والموجود من الضأن أكثر.

أيضاً قالوا: إن الضأن إذا رعت شيئاً من الكلأ فإنه ينبت عوضه وإذا رعته المعز لا ينبت عوضه، ولحم الضأن أطيب وانفع من لحم المعز.

قال في الطب النبوي: إن أكل لحم المعز يحرك السوداء ويورث النسيان والدم ويورث الهم ويخبل الأولاد، وهو قليل الحرارة يابس وخلطة المتولد منه ليس بفاضل وليس يجيد الهضم ولا محمود الغذاء، ولحم التيس شديد اليبس مطلقاً، ولا سيما المسن فيه، وإناث الماعز أنفع من ذكوره، بخلاف الضأن فإنه حار رطب يولد الدم المحمود القوي، يصلح لإخصاب الأفرجه الباردة والمعتدلة، ولأهل الرياضيات التامة في المواضع والفصول الباردة، يقوي الذهن والحفظ وأجوده لحم الذكر الأسود، فإنه أخف وألذ وأنفع، والخصي أنفع من غيره، والأيمن من الحيوانات أخف وأجود من الأيسر والمقدم أفضل من المؤخر.

ففي الحديث دلالة على أن اقتناء الغنم أفضل من اقتناء غيرها لبركتها أو كثرة نفعها، فإذا أراد الإنسان أن يقتني شيئاً من الحيوانات لينتفع به فاقتناء الغنم أفضل من اقتناء الإبل والخيل وغيرهما، ويدل ذلك ما ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: افتخر أهل الإبل والغنم عند رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**السكينة والوقار في أهل الغنم والفخر والخيلاء في أهل الإبل**»(١)، وفي رواية: «**في أهل الخيل والوبر**»(٢).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٤/١٥٩٤، رقم ٤١٢٧)، ومسلم في صحيحه (١/٧٣، رقم ٥٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) هذه الرواية عند مسلم في الصحيح (١/٧٢، رقم ٥٣)، وأحمد في مسنده (٢/٤٥٠، رقم =

أراد ﷺ «بالسكينة» السكون، «والوقار» التواضع، «وبالفخر» التفاخر بكثرة الأموال والجاه وغير ذلك من مراتب أهل الدنيا، «والخيلاء» التكبر والتعاظم.

والمعنى: أن الوقار والسكينة والتواضع غالباً يوجد في أهل الغنم، وأن التكبر والتفاخر غالباً يوجد في أهل الإبل والخيل، وقد ينعكس الحال.

فائدة أخرى: لا نقص ولا عيب في رعي الأغنام فقد رعاها الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم، لأنها سهلة الانقياد، خفيفة المؤن، كثيرة النفع، وروينا في هذا الصحيح وسنن ابن ماجه واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «**ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم**» فقال: له أصحابه وأنت يا رسول الله؟ قال: «**وأنا كنت أرعاها لأهل مكة بقراريط**»[1] يعني كل شاة بقيراط.

والمراد: أنه رعاها ﷺ بالأجرة كل شاة بقيراط، وهي جزء الدرهم، وقيل: المراد بالقراريط في الحديث اسم مكان وأنه ﷺ ما رعى بالأجرة قط.

قال الحربي: وهو الصحيح.

قال ابن الجوزي: عن أبي إسحاق والواقدي أن عمر النبي ﷺ حين رعى الغنم كان عشرين سنة.

وفي غريب الحديث للقتبي: «**بعث موسى عليه الصلاة والسلام وهو راعي غنم، وبعث داود عليه الصلاة والسلام وهو راعي غنم، وبعثت وأنا راعي غنم أهلي بأجياد**»[2].

فقد رعى الأغنام نبينا محمد عليه الصلاة وأتم التسليم في صغره أيضاً، فقد قال

= ٩٨١٢)، وابن حبان في صحيحه (١٦/٢٨٠، رقم ٧٢٩١)، وأبو يعلى في مسنده (١١/٢٢٦، رقم ٦٣٤٠)، وابن منده في الإيمان (١/٥٢٤، رقم ٤٢٨)، والديلمي في مسند الفردوس (٣/١٠١، رقم ٤٢٨٠) عن أبي هريرة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٧٨٩، رقم ٢١٤٣)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/١٢٥)، والرافعي في التدوين (٢/٢٨٨) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٠(١٧/٨٤) من طريق أبي إسحاق عن نصر بن حزن قال: افتخر أهل الإبل والغنم فقال النبي ﷺ:... فذكره.

وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/١٢٦) عن أبي إسحاق قال كان بين أصحاب الغنم وبين أصحاب الإبل تنازع فاستطال عليهم أصحاب الإبل قال: فبلغنا والله أعلم أن النبي ﷺ... فذكره.

ورواه أيضاً: الفاكهي في أخبار مكة (٤/١١، رقم ٢٣٠٥).

النووي: وإنما جعل الله الرعي في الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق وليكون أممهم رعايا لهم.

وأفاد بعض العلماء: قال بعضهم: إنما رعوا الأغنام لأنهم إذا خالطوا الغنم زاد حلمهم وشفقتهم، روي أن النبي ﷺ لما كان عند مرضعته رضي الله عنها في السنة الرابعة قال: «يا أماه ما لي لا أرى أخوتي في الحي نهاراً».

وأراد بهم إخوته من الرضاعة، وإخوته من الرضاعة اسم جماعة وهم: ابن ثويبة، وعمه حمزة وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمه وصاحبه أبو سلمه وأولاد حليمة، وأما سيدنا مدرك الصحابي المدفون بقرب قرية حجيرا من غوطة دمشق فليس بينه وبين رسول الله ﷺ أخوة من الرضاعة ولكن الناس يغلطون في ذلك كثيراً كما نبه عليه بعض العلماء.

فلما قال ﷺ: «ما لي لا أرى أخوتي في الحي نهاراً» قالت له: إنهم يرعون الأغنام فقال: دعيني أخرج معهم فأخذ عصاة ومزودة وخرج معهم لرعي الأغنام، قالت حليمة: وغاب ﷺ يومه ذلك، فأقبل وقت المساء وقد سبقته الأنوار، والأغنام تلوذ به وتقبل أقدامه.

وكان في الغنم شاة رماها أخوه «ضمرة» بحجر فكسر ساقه، فجعلت تلوذ به كالشاكية فقبض يده الكريمة عليها فكأن الوجع لم يكن.

ثم قالت حليمة لولدها: كيف وجدت أخاك القرشي؟ قال: يا أماه ما مر بحجر ولا مدر ولا شجر ولا سهل ولا جبل ولا وحش ولا طير إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله، وإذا نام في الشمس تأتي غمامة تظله، والوحوش تأتي إليه تقبل أقدامه، وإذا مشى في الرمل فالأثر لا يبين، وإذا مشى في الصخر يكون تحت قدميه كالعجين، وإذا استقينا من بئر فار الماء من أعلاه.

قال: ولقد دخلنا إلى وادي الوحوش فإذا نحن بسبع عظيم قد جمع نفسه ليشب علينا، فلما نظر إلى أخينا محمد ﷺ خضع له ورمى نفسه على الأرض وتكلم بكلام فصيح، وقال: السلام عليك يا محمد فتقدم إليه محمد وكلمه في أذنه فذهب الأسد يعدو.

وفي رواية: قال ضمرة: إن أسداً عظيماً انحدر عليه فأخذ شاة وصعد بها إلى الجبل فلحق أخي محمد فأخذ الشاة منه ثم فتل أذنه وسار، وإذ الأسد يقبل أقدامه ثم انصرف.

وعدنا إلى المرعى فلما كان بعد ساعة أتى إلينا أسد آخر فنفرت الأغنام منه فضرب ثلاث شياه فكسرها، فلما رآها أخي القرشي مسح بيده على ظهورها فانجبرت، وأما الأغنام فإن أمرها بالمسير سارت وإن أمرها بالوقوف وقفت.

قالت حليمة: وحصل عندنا في الحي ضجة عظيمة فقلت ما الخبر قالوا: غلام وقع في البئر ولم يقدروا على إخراجه، فجاء ولدي محمد إلى جانب البئر ومد يده فطف الماء فقبض على الغلام ونشله فإذا هو خارج البئر، فتعجب الناس من فعله وتعجبت فقال لي: يا أماه لا تعجبي كيف أنشلهم من الآبار بل تعجبي وأنا أنقذهم غداً من النار.

وقالت حليمة رضي الله عنها: أجلست ولدي محمد تحت شجرة وقت رضاعة فتعلق ببعض الشجرة فاخضرت الشجرة بلمسه إياها ﷺ، وكان إذا أصاب أحداً من وجع أمر يده المباركة عليها فيبرأ من ساعته، وإذا انقطع الغيث يتوسلون به فيمطرون في وقتهم وساعتهم.

وقد رعاها كثير من الأولياء والصالحين من الرجال والنساء اقتداء بالأنبياء ولبركتها وخفة مؤنتها.

قال عبد الواحد بن زيد: سألت الله ثلاث ليال أن يريني رفيقي في الجنة فقيل لي: يا عبد الواحد رفيقك ميمونة السوداء، فقلت: وأين هي؟ فقيل: في بني فلان في الكوفة فذهبت إلى الكوفة أسأل عنها فإذا هي ترعى غنماً، فأتيت إليها فإذا غنمها ترعى بين الذئاب وهي قائمة تصلي، فلما فرغت من صلاتها قالت لي: يا ابن زيد ليس هذا الموعد إنما الموعد في الجنة، فقلت لها: وما أدراك أني زيد؟ قالت: أما علمت أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، قلت لها: عظيني، فقالت: يا عجباً لواعظ يوعظ، قلت لها: ما لي أرى أغنامك بين الذئاب؟ قالت: إني أصلحت ما بيني وبين الله فأصلح الله ما بين غنمي والذئاب.

لطيفة: اتفق من الغرائب أن موسى بن عمران عليه الصلاة السلام اجتاز بعين ماء في سفح جبل فتوضأ منها، ثم ارتقى على الجبل ليصلي، إذ أقبل فارس فشرب من ماء العين وترك عندها كيساً فيه دراهم، فجاء بعده راعي الغنم فرأى الكيس فأخذه ومضى، ثم جاء بعده شيخ عليه أثر البؤس وعلى رأسه حزمة حطب فوضعها هناك واستلقى يستريح، فما كان إلا قليلاً حتى عاد الفارس يطلب كيسه فلم يجده، فأقبل على الشيخ يطالبه به ولم يزل يضربه حتى قتله، فقال موسى: يا رب كيف العدل في

هذه الأمور؟ فأوحى الله تعالى إليه أن الشيخ كان قد قتل أبا الفارس، وكان على أبي الفارس دين لأبي الراعي مقدار ما في الكيس، فجرى بينهما القصاص وقضي الدين وأنا حكم عادل.

وقوله: «**يتبع بها**» أي: بالغنم.

«**شعف الجبال**» أي: رؤوس الجبال.

«**ومواقع القطر**» أي: بطون الأودية والصحارى، وخص هذه المواضع بالذكر لأنها مظان المرعى.

وقال البرماوي: وذكر هذه المواضع لما فيها من الخلوة لأنها أسلم غالباً من الكدر، فإنها مواضع خالية من ازدحام الناس ومن المقاولات المؤدية إلى الكدورات.

وقوله: «**يفر بدينه من الفتن**» أي: فر مما يفتنه في دينه.

في هذا الحديث فوائد كثيرة:

منها: فيه دلالة على فضل العزلة في أيام الفتن لأجل إحراز الدين، ولئلا تقع عقوبة فتعم، فإن العقوبة قد تعم العاصي والطائع، ويهلك الله الطائع بذنب العاصي، فقد ورد في هذا حديث: أن زينب قالت: أنهلك وفينا الصالحون قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[1].

ويروى أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: يا رب كيف تعذب عبادك بذنب رجل واحد؟ فأمهله الله حتى جلس تحت شجرة، فلذغتة نملة فأحرق جميع النمل، فأوحى الله إليه هلا نملة واحدة أي: هلا أحرقت نملة واحدة وهي التي لذغتة فكيف أحرقت غيرها معها بلا موجب، فأراه ذلك في النملة ليعلم أن العقوبة تعم العاصي والطائع، فإذا انعزل الإنسان سلم، اللهم إلا أن يكون الإنسان ممن له قدرة على إزالة الفتنة فإنه يجب عليه السعي في إزالتها إما فرض عين أو فرض كفاية بحسب المال والمكان.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٧/٣، رقم ٣٤٠٣) من طريق الزهري قال: حدثني عروة بن الزبير أن زينب بنت أبي سلمة حدثته أن أم حبيبة بنت أبي سفيان حدثتها عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بإصبعه وبالتي تليها فقالت زينب... فذكره».

والحديث عند مسلم في صحيحه (٢٢٠٧/٤، رقم ٢٨٨٠).

وأما في غير أيام الفتنة فقد اختلف العلماء في العزلة والخلطة بالناس أيهما أفضل؟ فذهب الإمام الشافعي والأكثرون إلى تفضيل الخلطة، لما فيها من اكتساب الفوائد، وشهود الشعائر، وتكثير سواد المسلمين، وإيصال الخير إليهم بعيادة المرضى وتشييع الجنائز، وإفشاء السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، وإغاثة المحتاج، وحضور جماعاتهم في الجمعة وباقي الصلوات، والاجتماع في الوقوف في عرفات وغير ذلك مما يقدر عليه كل أحد.

واهتمام الشارع ﷺ بالاجتماع والخلطة معلوم، ولهذا قال الفقهاء: يجوز نقل اللقيط من البادية إلى القرية ومن القرية إلى البلد ولا يجوز العكس، فإن كان الإنسان صاحب علم أو زاهد ونحو ذلك تأكد في حقه فضل اختلاطه بالناس.

وذهب جماعة آخرون إلى تفضيل العزلة لما فيها من السلامة المحققة لكن بشرط أن يكون عارفاً بوظائف العبادة التي تلزمه وما يكلف به، قد ورد في فضل العزلة أحاديث وأخبار روينا في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[1] والمراد: «بالغني» عن النفس، «وبالخفي» المنعزل عن الناس.

وقيل: يا رسول الله أي: الناس خير قال: «**رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره**»[2].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال «**أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»[3].

وقال ﷺ: «**يأتي على الناس زمان القابض فيهم على دينه كالقابض على**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٧/٤، رقم ٢٩٦٥) عن عامر بن سعد قال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم، فضرب سعد في صدره فقال أسكت سمعت رسول الله ﷺ يقول... فذكره.

وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (١٧٧/١، رقم ١٥٢٩)، والبزار في مسنده (٢٧/٤، رقم ١١٨٨)، وأبو يعلى في مسنده (٨٥/٢، رقم ٧٣٦)، والدورقي في مسند سعد (ص ٤٩، رقم ١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٦/٧، رقم ١٠٣٧٠).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٢٦/٣، رقم ٢٦٣٤)، ومسلم في صحيحه (١٥٠٣/٣، رقم ١٨٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٦٠٥/٤، رقم ٢٤٠٦) وحسنه، وقد مر تخريجه.

الجمر»[١].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: كفى بالله محباً، وبالقرآن مؤنساً، وبالموت واعظاً، اتخذ الله صاحباً، ودع الناس جانباً.

وقال الحسن رحمه الله: كلمات احفظهن من التوراة: «قنع ابن آدم فاستغنى، واعتزل الناس فسلم، وترك الشهوات فصار حراً، وترك الحسد فظهرت مروءته، وصبرقليلاً فتمتع طويلاً».

ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال: ألك حاجة؟ قال: نعم لا تراني ولا أراك.

وقال الغزالي رحمه الله: كل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله ليونس بن عبد الأعلى: يا يونس الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول: هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين، فكيف المشهودين، هذا زمان سوء ينتقل فيه الرجل من قرية إلى قرية، يفر بدينه من الفتن.

وقال الفضيل بن عياض: هذا زمان سوء، احفظ لسانك، واخف مكانك، وعالج قلبك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر.

وقال سفيان الثوري: هذا زمان السكوت، ولزوم البيوت، والرضا بالقوت، إلى أن تموت.

وقال داود الطائي: صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة، وفر من الناس فرارك من الأسد وأنشدو في العزلة:

هذا الزمان الذي كنا نحاذره ... في قول كعب وفي قول ابن مسعود
دهر به الحق مردود بأجمعه ... والظلم والبغي فيه غير مردود
إن دام هذا ولم يحدث له خير ... لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٥٢٦، رقم ٢٢٦٠) عن أنس بن مالك، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقال بعضهم:

ومـــازلت مذ لاح المشيب بمفرقي ... أفـــتش عن هذا الورى وأكشف
فمـــا إن عرفت الناس إلا ذمتهم ... جزى الله خيراً كل من لست أعرف

وقال آخر:

وأدبـــني الـــزمان فـــلا أبـــالي ... هجـــرت فـــلا أزار ولا أزور
ولســـت بســـائل مـــا دمت حياً ... أســـار الجيـــش أم ركـــب الأمير

وهـــذا الحديث علم من أعلام نبوته إذا أخبر فيه ﷺ أنه يكون في آخر الزمان فتن وفســـاد بين الناس، فالأولى والأحسن أن يكون عند الإنسان غنم يرعاها في رؤوس الجبال وبطون الأودية والصحاري، للجمع بين الرفق والربح، ويصون عليه دينه، وقد وقع كما أخبر ﷺ فكم من فتن في هذه الأزمان وقبلها، وسنقع أيضاً في غيرها، وكم أخبر ﷺ عن أمور مستقبلة فوقعت كما أخبر.

نقـــل ابن الجوزي: أنه ﷺ قال: «**يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من الدين إلا رسمه، ينفلت الدين من أمتي كما ينفلت السهم من القوس**» قالوا: في أي زمن ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إذا قطعوا أرحامهم، وتدابروا، وأكلوا الربا علانية، وفشت فيهم الفواحش، وأكلوا الأمانات، وأظهروا الرياء والسمعة، وحرصـــوا عـــلى الدنيا حتى لا يهمهم غيرها، ويظهر المنكر حتى أن الرجل ليمر بـــالقوم فيرى من المنكر ما يغيظه فلا يقدر أن يغيره، وإن غير استطال فاعله عليه، عـــند ذلـــك يقـــع الموت في العلماء، فلا ترى عالماً، ثم تنـــزع الرحمة من قلوبهم، ويـــندرس العلم والحكمة بينهم، فلا يطلبها طالب، وتقل مكاسب الحلال، وتكثر مكاســـب الحـــرام، ويمنعون الزكاة، ويقل نبات الأرض وتغلوا الأسعار، وتهلك الثمرات، وتموج الناس كالبهائم، وتقل صدقاتهم، وتقسو قلوبهم... الحديث**».

ولله در القائل من قال:

يـــا نفـــس دعـــي الدنيـــا التي ... قـــرن الحـــرص بهـــا والشـــره
وألـــزمي النســـك فمـــا أربحه ... ودعـــي الغـــي فمـــا أخســـره
أي عـــذر في التصـــابي لامـــرئ ... فـــاقد مـــن عمـــره أكـــثره
أي عـــذر فـــلا تقـــبله ... قـــتل الإنســـان مـــا أكفـــره

فـــتعين في هذا الزمان الانعزال عن الناس إلا لضرورة بالغة، تحوجه إلى الاختلاط

هـم ويسلم من ضرهم، كتعلم ما ينفعه في دينه ودنياه، واكتساب ما يحتاج إليه من أمور المعاش والقوت، فيختلط بقدرها، وينعزل عنهم ليسلم من شرهم، وهذا لا يقع إلا لبعض الخواص الذي حصلت له عناية من مولاه.

وقد نقل عن كثير من السلف الصالح أنهم انعزلوا عن الناس وتركوا أهلهم وأوطانهم وماتوا غرباً.

كما حكي عن بعض السادة أنه قال: كنت أسكن بغداد، وكان لي بها دويرة، احتجت لبناء حائط سقط منها، فخرجت إلى موقف البنائين لأنظر رجلاً يعمل فيه، قال: فوقعت عيني على شاب نحيف، ذي وجه نظيف، فجئت إليه ووقفت عليه، وقلت: يا حبيبي أتريد الخدمة؟ قال لي: نعم، ثم قال: أعمل عندك ولكن بشروط أشرطها عليك، قلت: حبيبي وما هي؟ قال: الأجرة درهم ودانق، قال: وإذا أذن المؤذن تتركني حتى أصلي مع الجماعة، قلت: نعم، قال: فانصرف معي إلى المنزل، فخدم خدمة لم أر مثلها، وذكرت له الغداء فقال: لا فعلمت أنه صائم، قال: فلما سمع الأذان قال لي: الشرط، قلت: نعم، قال: فحل حزامه وتفرغ للوضوء فتوضأ ما رأيت أحسن منه ثم خرج إلى الصلاة فصلى مع الجماعة، ثم عاد ورجع إلى الخدمة إلى أن سمع المؤذن من العصر، فقال لي: الشرط فخرج وصلى مع الجماعة، ثم رجع إلى الخدمة، فقلت: حبيبي إنما خدمة البنائين إلى العصر، فقال: سبحان الله إنما خدمتي إلى الليل، قال: فخدم إلى المغرب فأعطيته درهمين فلما رآها قال: ما هذا؟ قلت: والله هي بعض أجرتك ولاجتهادك في خدمتك، فرما بها إليّ وقال: لا أزيد على ما اشترطه بيني وبينك شيئاً، فرغبته فلم أقدر عليه فأعطيته درهماً ودانقاً وسار.

فلما كان من الغد بكرة إلى الموقف فلم أجده فسألت عنه فقيل لي: إنه لا يأتي هاهنا إلا من سبت إلى سبت، قال: فتعلق به قلبي وقلت لا أعمل شيئاً إلى يوم السبت، فلما كان يوم السبت آتيته فوجدته فقلت: بسم الله فقال: على الشروط التي تعلمها، قلت: نعم، قال: فأخذته فخدم يومه ذلك وزاد فيه على ما تقدم، فلما كان الليل دفعت له أجرته فأخذها وسار.

فلما كان السبت الثالث جئت إلى الموقف فلم أجده فسألت عنه فقيل لي: هو مريض في خيمة فلانه، وكانت المذكورة عجوزاً لها خيمة قصب بالجبانة مشهورة بالصلاح، قال: فسرت إلى الخيمة ودخلت عليه فإذا هو مضطجع على الأرض ليس تحته شيء، وتحت رأسه صخرة فسلمت عليه فرد عليّ السلام، فقعدت عند رأسه

أبكي لغربته وصغر سنه ثم قلت: ألك حاجة؟ قال: نعم، قلت: وما هي؟ قال: إذا كان في غـد تصل إلى هاهنا عند الضحى تجدني ميتاً، فتغسلني وتحفر قبري ولا تعلم بذلك أحداً، وتكفنني في هذه الجبة التي عليّ بعد ما تفتق جيبها وتخرج ما فيه وتمسكه عندك، فـإذا صليت عليّ وواريتني في التراب إذهب إلى هارون الرشيد وادفع له ما تجده في الجيب وتقرئ عليه مني السلام.

شعر في المعنى:

بـلغ أمانـة مـن وفيـت منيته ... إلى الرشـيد فـإن الأجر في ذاكا
وقـل غـريب له شوق لرؤيتكم ... عـلى تمـادي الهوى والبعد لباكا
مـا صـد عنك كره ولا ملك ... لأن قربـته في لـثم يمـناكا
وإنمـا أبعـدتي عـنك يـا أبتي ... نفـس لهـا عفـة من نيل دنياكا
إن فـاتني الجمع في دار الدنا بكم ... فإنـنا نلـتقي في يـوم أخراكا

قـال: فلما كان من الغد وصلت إلى الخيمة عند الضحى فوجدته قد مات رحمه الله، فحفرت قبره بيدي وغسلته ثم فتقت جيبيه فإذا في جيبه ياقوته تساوي آلاف من الدنـانير، فقلت: لقد زهد هذا في الدنيا، قال: فدفنته وصرت أرتقب خروج هارون الرشـيد إلى أن خرج فتعرضت له في الطريق ورفعت له الياقوته فعرفها فلما رآها خر مغشـياً عليه، فأمسك بي خدمته فأفاق، وقال: خلوا عنه فخلى سبيلي فقال بعد ما أخـذني إلى قصره وأدخلني بيته: يا أخي ما فعل صاحب هذه الياقوتة؟ فقلت: إنه قد مـات فوصـفت له حاله فجعل يصيح: انتفع الولد وخاب الوالد، ثم نادى يا فلانة فخرجت امرأة فلما رأتني أرادت أن ترجع فقال لها: ما عليك منه؟ فسلمت ودخلت فرمى لها الياقوتة فصاحت صيحة عظيمة وغشي عليها وقالت: يا أمير المؤمنين ما فعل ولدي؟ فقال لي: صف لها حاله فوصفت لها قصته، فجعلت تبكي وتقول وتصيح: ما أشـوقني إلى لقـائك يا قرة عيني، يا ليتني كنت عندك حتى أسقيك إذ لم تجد ساقياً، وأونسك إذا لم تجد مؤنساً.

شعر:

أبكـي غريـباً أتاه الموت منفرداً ... لم يـلق ألفاً له يبكي الذي وجدا
مـن بعـد عز وشمل كان مجتمعاً ... أضحى فريداً وحيداً لا يرى أحدا
يـبني إلى الـناس من الأيام تخلقه ... والـرب يـبني مـا يبقى له أبدا

يا غائباً قد قضى مـــولاي فرقتـــه فصار مني بعـــد القـــرب مبتعـــدا
إن أنيس الموت من لقياك ياولدي فصار مني بعـــد المـــوت مبتعـــدا

فقال لي أمير المؤمنين: يا أخي هذا ولدي وكان معي قبل ولايتي الملـــك، يـــزور العلماء ويجالس الصالحين، فلما وليت الملك نفر عني وتباعد، وطلب العزلة، فقلـــت: لأمه هذا ولدي منقطع إلى الله تعالى، ولابد من أن تصيبه الشدائد، ادفعي لـــه هـــذه الياقوتة ليجدها وقت الاحتياج إليها فدفعتها إليه، وعزمت عليه أن يمسكها فغاب عنا حديثه إلى أن رمى إلينا دنيانا، ولقى الله عز وجل تقياً نقياً، ثم قال يا أخي: أرني قـــبره فخرجت معه إليه فبكى طويلاً عليه، فسألني الصحبة فقلت يا أمير المؤمنين لي في ولدك عظة وعبرة.

شعر في المعنى:

أنا الغريب فـــلا آوي إلى أحـــد أنا الغريب وإن أمسيت في بلـــدي
أنا الغريب فـــلا أهـــل ولا ولـــد وليس لي أحد يـــأوي إلى أحـــد

هكذا هذه الحكاية في زهر الكمام، ونقلها في صفوة الصفوة على وجه آخر، قال: إنه أصح الأوجه المروية، وبين وجهاً آخراً بعده خلاف ما ذكره صاحب زهر الكمام، وبين أن اسم هذا الشاب كان «أحمد» وإنه مشهور «بالسبتي».

***

المجلس الثالث والعشرين

في الكلام على باب: قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّه» وَأَنَّ الْمَعْرِفَةَ فِعْلُ الْقَلْبِ لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وذكر ما فيها من الفوائد واللطائف

قَالَ البُخَارِي :

«باب قول النبي ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله**»[(١)] وأن المعرفة[(٢)] فعل القلب لقول الله[(٣)] ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾».

قيل: قصد البخاري بهذه الترجمة الرد على الكرامية في قولهم: إن الإيمان قول باللسان ولا يشترط عقد القلب، واستدل على بطلان قولهم بالآية، وهي: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٥] أي: بما استقر فيها.

فإن الآية وإن وردت في «الأيمان» بفتح الهمزة، فالاستدلال بها في «الإيمان» بكسر الهمزة واضح للاشتراك في المعنى، إذ مدار الحقيقة بينهما على مدار القلب، وقيل: قصد بالترجمة بيان تفاوت درجات الناس في العلم بالله، وإن بعض الناس فيه أفضل من بعض، وإن رسول الله ﷺ فيه في أعلى الدرجات[(٤)].

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٩): قوله: «أنا أعلمكم» كذا في رواية أبي ذر، وهو لفظ الحديث الذي أورده في جميع طرقه. وفي رواية الأصيلي: «أعرفكم» وكأنه مذكور بالمعنى حملاً على ترادفهما هنا، وهو ظاهر هنا وعليه عمل البخاري.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٩): قوله: «وأن المعرفة» بفتح أن والتقدير: باب بيان أن المعرفة. وورد بكسرها وتوجيهه ظاهر، وقال الكرماني: هو خلاف الرواية والدراية.

(٣) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٩): قوله: «لقوله تعالى» مراده الاستدلال بهذه الآية على أن الإيمان بالقول وحده لا يتم إلا بانضمام الاعتقاد إليه والاعتقاد فعل القلب.

(٤) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٩): وقوله: «بما كسبت قلوبكم» أي: بما استقر فيها، والآية وإن وردت في الأيمان بالفتح فالاستدلال بها في الإيمان بالكسر واضح للاشتراك في المعنى، إذ مدار الحقيقة فيهما على عمل القلب.

وكأن البخاري لمح بتفسير زيد بن أسلم، فإنه في قوله تعالى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾[المائدة: ٨٩] قال: هو كقول الرجل إن فعلت كذا فأنا كافر، قال: لا يؤاخذه الله بذلك حتى يعقد به قلبه، فظهرت المناسبة بين الآية والحديث، وظهر وجه دخولهما في مباحث الإيمان، فإن فيه دليلاً على بطلان قول الكرامية: إن الإيمان قول فقط، ودليلا على زيادة =

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلاَمٍ، قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدَةُ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ كَانَ رَسُولُ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ أَمَرَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ قَالُوا إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ يَقُولُ: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا**».

إنما كان ﷺ يأمر الناس من الأعمال بما يطيقون الدوام عليه، شفقة عليهم ورفقاً بهم ورحمة لهم، لئلا يتجاوز طاقتهم فيعجزوا، وخير العمل مادام وإن قل، وإذا حملوا ما لا يطيقونه تركوه أو بعضه بعد ذلك، فصاروا في صورة ناقضي العهد والراجعين عن عادة جميلة، واللائق بطالب الآخرة الترقي وإلا فالبقاء على حاله، ولأن الإنسان إذا اعتاد من الطاعة ما يمكنه الدوام عليه دخل فيها بانشراح واستلذذ، ونشاط لا يلحق ملل، وقد ذم الله من اعتاد عبادة ثم فرط بقوله: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[الحديد: ٢٧].

وإنما قالوا: «**لسنا كهيئتك**» أي: كمثلك يا رسول الله ليأذن لهم رسول الله ﷺ في الزيادة من الأعمال رغبة في الخير، فإنهم كانوا يشاهدونه ﷺ يدأب في العبادة ويجتهد فيها مع أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكأنهم يقولون: أنت مغفور لك ما تحتاج إلى عمل، ومع ذلك مواظب على الأعمال فكيف بنا وذنوبنا كثيرة، فأمرنا بالزيادة من العمل عليك يا رسول الله، فكان إذا قالوا له هذا القول يغضب من قولهم حتى يعرفوا الغضب في وجهه، ويرد عليهم ويقول لهم: أنا أولى بالعمل لأني أعلمكم وأتقاكم وأخشاكم لله.

وقولهم: «**إن الله قد غفر ما تقدم من ذنبك وما تأخر**» من قول الله تعالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً**

= الإيمان ونقصانه لأن قوله ﷺ: «أنا أعلمكم بالله» ظاهر في أن العلم بالله درجات، وأن بعض الناس فيه أفضل من بعض، وأن النبي ﷺ منه في أعلى الدرجات، والعلم بالله يتناول ما بصفاته وما بأحكامه وما يتعلق بذلك، فهذا هو الإيمان حقاً.

ثم أتى الحافظ بفائدة عن النووي فقال: قال النووي: في الآية دليل على المذهب الصحيح أن أفعال القلوب يؤاخذ بها إن استقرت، وأما قوله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل» فمحمول على ما إذا لم تستقر.

قلت: ويمكن أن يستدل لذلك من عموم قوله: «أو تعمل» لأن الاعتقاد هو عمل القلب.

مُسْتَقِيماً﴾[الفتح: ٢].

وقد استشكل العلماء ذلك بأنه ﷺ معصوم من الذنوب والكبائر قبل النبوة وبعدها عمداً وسهواً، وكذا سائر الأنبياء، فما ذنبه الذي غفر له؟

وللعلماء في هذه الآية أقوال بعضها مقبول وبعضها مردود:

والقول الأول: المراد ليغفر لك الله الذنب الذي كان قبل النبوة، فهذا مردود لأن النبي ﷺ معصوم قبل النبوة وبعدها.

الثاني: ليغفر لأبويك آدم وحواء، وهذا مردود أيضاً لأن آدم معصوم لا ينسب إليه ذنب، وذنوب أمته كلها لم تغفر بل منهم من يغفر له، ومنهم من لا يغفر له.

وأحسن ما يقال في الجواب: أنه تعالى قصد بهذه الآية تشريف النبي ﷺ من غير أن يكون هناك ذنب، فأخبره الله ﷻ أنه قد غفر له من ذنبه وما تأخر، وإن لم يكن ذنب، تشريف له ﷺ وتعظيماً لمقامه الكريم، ولم يخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك إظهاراً لشرفه عليهم.

وقد قال المحققون جواباً آخر: وهو أن المغفرة هنا كناية عن العصمة، فمعنى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ ليعصمك الله فيما ما تقدم من عمرك وفيما تأخر منه، وهذا القول في غاية الحسن وإلى هذا الجواب أشار البرماوي بقوله: والصواب أن معنى الغفران للأنبياء الإحالة بين الأنبياء وبين الذنوب، فلا يصدر منهم ذنب لأن الغفر: هو الستر، فالستر إما بين العبد والذنب، وإما بين الذنب وعقوبته، فاللائق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام القسم الأول، واللائق بالأمم القسم الثاني.

فائدة: يأتي نظير هذا الإشكال في الحديث الوارد في هذا الصحيح عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(١)].

وفي الحديث الوارد في صحيح مسلم عن الأغر بن يسار المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٢٤، رقم ٥٩٤٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/١١٤، رقم ١٠٢٦٨)، وابن ماجه في سننه (٢/١٢٥٤، رقم ٣٨١٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/١٧٢، رقم ٣٥٠٧١)، والديلمي في الفردوس (١/٥٦، رقم ١٥٤) جميعاً عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢٠٧٥، رقم ٢٧٠٢) عن الأغر وفيه سمعت ابن عمر =

وفي الحديث الوارد في أبي داود الترمذي وصححه وابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «**رب اغفر لي، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم**»[1].

فإنه يقال: التوبة والاستغفار يقتضيان الذنب، وهو في الرتب العليا من العصمة ﷺ وأجابوا عن هذا: بأن توبته واستغفاره ﷺ ليسا عن ذنب وإنما توبته الرجوع إلى مولاه في ستر ما استقصره من الشكر بالنسبة إلى ما ارتقى إليه من المقامات الأكملية، فإنه عليه أفضل الصلاة والسلام كلما بدا له من جلال الله وكبريائه قدراً، كان مرتقياً من كمال إلى أكمل فيستقصر بنظره إليه مما هو فيه من القيام بشكر الله تعالى على تلك الإنعامات العظيمة وطاعته، فيرجع إلى الاعتصام به تعالى ويطلب الستر لما ظهر من قصور الشكر.

وفي الحديث فوائد:

الأولى: أن الأعمال الصالحة ترقي صاحبها إلى المراتب السنية والغرف العلية، فإنها ترفع الدرجات وتمحوا عنه الخطيئات.

الثانية: أن العبد إذا بلغ الغاية في العبادة وثمراتها كان ذلك ادعى إلى المواظبة عليها، استبقاء للنعمة واستزادة لها بالشكر عليها.

الثالثة: فيه من الفوائد أنه ينبغي للإنسان أن يقف عند ما حد الشارع من عزيمته ورخصته، وأن يأخذ من العمل بالأرفق الموافق للشرع، وهو أولى من أن يأخذ بالأشق المخالف.

= يحدث... فذكره.

وأخرجه أيضاً: البخاري في الأدب المفرد (ص: ٢١٨، رقم ٦٢١).

ورواه عن الأغر بدون ذكر ابن عمر، النسائي في السنن الكبرى (١١٦/٦، رقم ١٠٢٨٠)، وأحمد في مسنده (٢١١/٤، رقم ١٧٨٨٠)، وابن حبان في صحيحه (٢٠٩/٣، رقم ٩٢٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٠١/١، رقم ٨٨٢)، والروياني في مسنده (٤٦٨/٢، رقم ١٤٨٩) والطيالسي في مسنده (ص ١٦٦، رقم ١٢٠٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٤٩/١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤٩/٦).

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤٩٤/٥، رقم ٣٤٣٤)، وأبو داود في سننه (٨٥/٢، رقم ١٥١٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٩/٦، رقم ١٠٢٩٢)، وأحمد في المسند (٢١/٢، رقم ٤٧٢٦)، وابن حبان في صحيحه (٢٠٦/٣، رقم ٩٢٧)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٢٥١، رقم ٧٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٨/١، رقم ٦٤١) عن ابن عمر.

والرابعة: أن الأولى في العبادة القصد، والملازمة لا المبالغة المقتضية إلى الترك، فقد ورد في حديث آخر «**المنبت**» أي: المجد في السير «**لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى**»[1].

الخامسة: فيه دلالة وتنبيه على فضل الصحابة وشدة رغبتهم في العبادة وطلبهم الازدياد وفعل الخير.

السادسة: فيه مشروعية الغضب عند مخالفته الأمر الشرعي، والإنكار على مرتكب ذلك، وإن كان صادقاً متأهلاً لفهم المعنى تحريضاً على التيقظ.

السابعة: فيه دليل على جواز تحدث المرء بما فيه من فضل، بحسب الحاجة لذلك، عند الأمن من المباهاة والتعاظم، خصوصاً إذ دخل إلى بلد لا يعرف فيها.

لطيفة: كان دانيال عليه السلام عارفاً بالطب، فأراد أن يظهر نفسه لملك زمانه، فأمر طباخه أن يزيد دانقاً في ملح الطعام على القدر المحتاج إليه، ففعل ذلك فضعف نظر الخليفة، فسأل دانيال عن ذلك فقال: إن الطباخ زاد في ملح الطعام فسأله فقال: نعم، قال: و لم فعلت ذلك قال أمرني دانيال بذلك، فسأله فقال: نعم، لأنك لم تحتج إلى علمي فأردت أن أجعلك تحتاج إليه.

الثامنة: فيه من الفوائد أن الصالح ينبغي له أن لا يترك اجتهاده في العمل اعتماداً على صلاحه، فانظر إلى سيد الصالحين ورسول رب العالمين كيف كان اجتهاده في العمل ﷺ.

التاسعة: فيه دلالة وحث على العمل الصالح وعلى المداومة عليه، قال النبي ﷺ: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**»[2] رواه الترمذي في سننه.

وفي صحيح مسلم عن أبي عبد الله ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عليك بكثرة السجود فإنك لن تسجد سجدة إلا رفعك الله بها**

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٨٤/٢، رقم ١١٤٧)، والرافعي في التدوين (٢٣٨/١).

ورواه البزار كما في مجمع الزوائد (٦٢/١) جميعاً عن جابر.

قال الهيثمي: وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب، وهو في السند عند الجميع.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥٦٥/٤، رقم ٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر أن أعرابياً قال: يا رسول الله من خير الناس ؟... فذكره.

قال الترمذي: وفي الباب عن أبي هريرة وجابر، وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

درجة، وحط بها عنك خطيئة»[١].

وفي الصحيحين عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «**يتبع الميت ثلاث أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله**»[٢].

وفي مسند أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سألت ربي أن يجعل حساب أمتي إليّ لئلا تفتضح عند الأمم، فأوحى الله إلي: يا محمد بل أنا أحاسبهم فإن كان منهم زلة سترناها عنك حتى لا يفتضح عبدي عندك، ولا يحزن قلبك**».

وقالت عائشة: نظرت يوماً إلى وجه رسول الله ﷺ فرأيته فرحاناً مسروراً فسألته فقال: «يا عائشة سئلت ربي في أبناء الأربعين فقال: يا محمد قد غفرت لهم، فقلت: فأبناء الخمسين قال: إني غفرت لهم، قلت: فأبناء الستين قال: قد غفرت لهم، قلت: فأبناء السبعين، قال: يا محمد إني لأستحي من عبدي إذا عمرته سبعين سنة يعبدني لا يشرك بي شيئاً أن أعذبه بناري، فقلت فأبناء الأحقاب أبناء الثمانين والتسعين فقال: أقبل عليهم وأقول لهم: أدخلوا من أحببتم معكم الجنة، فإنكم أحبائي، أفنيتم أعماركم في توحيدي وطاعتي».

ولله در القائل: من كان وكان يا غافلاً يتمادى، في اللهو كم هذا الزلل، غداً عليك ينادى، يا ناكثا خوان، لا تغتر بالدنيا، فليس هي الباقية، الدار دار الأخرى، فجد بالبنيان، أبناء عشر تواصوا بالخير فيما بينكم، فالخير لا شك عادة من الصغر قد بان، أبناء عشرين جدوا واستغنموا لشبابكم، ما دام غصن الشبيبة، غض رطب ريان، يا ابن الثلاثين، بادر إلى المتاب فربما تأتي المنايا بغتة وتحرم الإمكان، وأنت ماذا عذرك، ذا الوقت يا ابن الأربعين، وقد بلغت أشدك فأسبق إلى الإحسان، أبناء خمسين هذا

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٣٥٣/١، رقم ٤٨٨) عن معدان بن أبي طلحة اليعمري قال لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو قال: قلت بأحب الأعمال إلى الله فسكت، ثم سألته فسكت، ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله... فذكره.

وأخرجه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (٢٤٢/١، رقم ٧٢٤)، وأحمد في المسند (٢٧٦/٥، رقم ٢٢٤٣١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٣/٤، رقم ٢٩٦٠)، والترمذي في سننه (٥٨٩/٤، رقم ٢٣٧٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في سننه (٥٣/٤، رقم ١٩٣٧)، وأحمد في المسند (١١٠/٣، رقم ١٢١٠١) عن عبد الله بن أبي بكر.

وقت الرجوع عن الزلل، فليس عند الزيادة شيء من النقصان، أبناء ستين كونوا من المنون على حذر، فما أحد قط يعطي من المنون أمان، أبناء سبعين وافى جيش المشيب فما بقى للزرع إلا حصاده وينشر الديوان، يا ابن الثمانين، قل لي في الدهر ماذا تنتظر، قد حان وقت رحيلك، وشالت الركبان، أبناء تسعين فوزوا فقد كتب توقيعكم من ربكم بالإنابة والعفو والغفران، يا ابن المائة إن وقتك ما بقي لك من عمل، إلا التوجه إلى الله في السر والإعلان، قد حان وقت رحيلك، فقم تجهز للسفر، وحصل الزاد وإلا تبقى عليه ندمان.

وقيل: لا يفوت الإنسان عمل اعتاده إلا بذنب.

قال سفيان الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب واحد، قيل: ما هو؟ قال رأيت رجلاً يبكي فقلت هذا مرائي.

وقال أبو زيد البسطامي: قمت ليلة فتذكرت أهل الغفلة من النائمين، فكوشفت بأن الرحمة تنزل عليهم كالقائمين، فتعجبت من ذلك فهتف بي هاتف يا أبا يزيد هؤلاء ذكروا عذابي فقاموا، وهؤلاء ذكروا رحمتي فناموا.

الفائدة العاشرة: في الحديث دليل على أن رسول الله ﷺ حاذ رتبة الكمال الإنساني، لأن الكمال الإنساني إما بالعلم، وإما بالعمل، وقد جمع ﷺ الكمالين، وأشار إلى الأول بقوله: «**أعلمكم بالله**»، والي الثاني: «**أتقاكم**» وهو ﷺ أعرف خلق الله بالله، وأتقى خلق.

ومعرفة الله هي: تحقيق العلم، بإثبات الواحدانية [1].

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/١٤٩): قال إمام الحرمين: أجمع العلماء على وجوب معرفة الله تعالى، واختلفوا في أول واجب فقيل: المعرفة، وقيل: النظر.

وقال المقترح: لا اختلاف في أن أول واجب خطاباً ومقصوداً المعرفة، وأول واجب اشتغالاً وأداء القصد إلى النظر.

وفي نقل الإجماع نظر كبير ومنازعة طويلة، حتى نقل جماعة الإجماع في نقيضه، واستدلوا بإطباق أهل العصر الأول على قبول الإسلام ممن دخل فيه من غير تنقيب، والآثار في ذلك كثيرة جداً.

وأجاب الأولون عن ذلك: بأن الكفار كانوا يذبون عن دينهم ويقاتلون عليه، فرجوعهم عنه دليل على ظهور الحق لهم.

ومقتضى هذا: أن المعرفة المذكورة يكتفى فيها بأدنى نظر، بخلاف ما قرروه. ومع ذلك فقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم: ٣٠]، وحديث: «كل مولود يولد على الفطرة» ظاهر أن في دفع هذه المسألة من أصلها. =

وقيل: هي حياة القلب مع الله.

وقيل: نسيان غير الله، وقد دل على فضلها ومدحها الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الأنعام: ٩١] أي: ما عرفوا حق معرفته، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[المائدة: ٨٣].

وجاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إن دعامة البيت أساسه، ودعامة الدين المعرفة بالله تعالى**».

وقد تكلم المشايخ الصوفية فيها، فكل منهم نطق بما وقع له منها، وأشار إلى ما وجده منها في وقته.

قال الأستاذ أبو علي الدقاق: من أمارة المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته منه، ومن ازدادت هيبته استقامت حالته، وعظمت بين الخليقة حرمته.

وقال الشبلي: ليس للعارف بالله علاقة أي: حظ في غير مولاه.

وقال بعضهم: من عرف الله انقطع بل خرس وانقمع.

وقال آخر: من كان بالله اعرف كان له أخوف.

وقال بعضهم: من عرف الله تبرم بالبقاء أي: كره البقاء، وضاقت عليه الدنيا بسعتها.

قال بعضهم: للعارف أمارة وهي: قلبه إذا نظر فيها تجلى فيها مولاه.

وقال ذا النون المصري: ركضت أرواح الأنبياء في ميدان المعرفة، فسبقت روح نبينا ﷺ أرواح الأنبياء إلى روضة الوصال.

وقال أيضاً: معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى في أن يحتملك ويحلم عنك تخلقاً بأخلاق الله تعالى، فمتى صحبته وعفا عن كل ذنب يكون منك زال عنك برؤيته الفتور والكسل، وتخلقت بأخلاقه الحميدة.

واختلف العلماء في أول واجب على المكلف فالجمهور على أن واجب على المكلف معرفة الله لأنها أصل لسائر الأعمال الواجبة، إذ لا يصح بدونها واجب، بل

= وقد نقل القدوة أبو محمد بن أبي جمرة عن أبي الوليد الباجي عن أبي جعفر السمناني -وهو من كبار الأشاعرة- أنه سمعه يقول: إن هذه المسألة من مسائل المعتزلة بقيت في المذهب.

ولا مندوب.

وقيل: النظر المؤدي إليها.

وقيل: أول النظر.

وقيل: القصد إلى النظر.

وحقيقته سبحانه وتعالى مخالفة لسائر الحقائق، فلا يشاركه شيء في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله.

واختلف العلماء هل حقيقته معلومة للناس في الدنيا؟

فقال المحققون: إنها ليست معلومة في الدنيا، قال الرازي: وكلام الصوفية يشعر به، ولهذا قال الجنيد: والله ما عرف الله إلا الله، وإذا كان الإنسان لم يدرك حقيقة نفسه فكيف يدرك حقيقة خالقه كما قيل:

حقيقة المرء ليس يدركها ... فكيف كيفية الجبار في القدم

وأما حديث: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»[1] فلم يصح ولم يثبت كما قاله النووي في فتاويه، وهو من كلام يحيى بن معاذ الرازي لا من كلام النبي ﷺ.

واختلف العلماء في معناه على أقوال، فقال النووي: معناه من عرف نفسه بالضعف والافتقار إلى الله والعبودية له، عرف ربه بالقوة والقهر والربوبية والكمال المطلق والصفات العليا.

---

(١) ذكره الهروي في المصنوع (ص:١٨٩) وقال: قال ابن تيمية: موضوع .

وقال العجلوني في كشف الخفاء (٣٤٣/٢): قال ابن تيمية: موضوع، وقال النووي قبله: ليس بثابت، وقال أبو المظفر بن السعاني في القواطع: أنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من قوله، وقال ابن الغرس بعد أن نقل عن النووي أنه ليس بثابت قال: لكن كتب الصوفية مشحونة به يسقونه مساق الحديث كالشيخ محي الدين بن عربي وغيره، قال: وذكر لنا شيخنا الشيخ حجازي الواعظ شارح الجامع الصغير للسيوطي بأن الشيخ محي الدين بن عربي معدود من الحفاظ، وذكر بعض الأصحاب أن الشيخ محي الدين قال: هذا الحديث وإن لم يصح من طريق الرواية فقد صح عندنا من طريق الكشف.

وللحافظ السيوطي فيه تأليف لطيف سماه: «القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه».

وقال النجم: قلت: وقع في أدب الدين والدنيا للمارودي عن عائشة رضي الله عنها سئل النبي ﷺ: «من أعرف الناس بربه قال أعرفهم بنفسه».

وقال بعض العارفين: معناه من عرف نفسه بذلها وعجزها وفقره، عرف الله بعزته وقدرته وغناه، فيكون معرفة النفس أولا ثم معرفة الله من بعد.

وقال بعض أهل الله: لما كانت الروح في الجسد لا تدرك بالبصر ولا تمثل بالصور، علمنا سبحانه أنه لا تدركه الأبصار ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فطوبى لمن عرف وبذنبه اعترف.

أشار بعض مشايخي في هذا المعنى فقال:

قل لمن يفهم عني ما أقول ... قصر القول فذا شرح يطول
هو شيء غامض من دونه ... ضربت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إياك ولا ... تدر من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات ركبت ... فيك حارت في خفاياها العقول
كيف تدر من على العرش استوى ... لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف تجلى أم ترى كيف يرى ... فلعمري ليس ذا إلا فضول
هو لا كيف ولا أين له ... وهو في كل النواحي لا يزول
جل ذاتاً وصفاتاً وسما ... وتعالى ملكه عما أقول

وذهب كثير من المتكلمين إلى أنها معلومة للناس في الدنيا، واحتجوا بوجهين:

أحدهما: أنا مكلفون بمعرفة وحدانيته، فلذلك يتوقف على معرفة حقيقته، فلم نوجبها لكلفة ما لا يطاق وهو ضعيف، لأنا لا نسلم أنها متوقفة على معرفته بالحقيقة، وإنما تتوقف على معرفته بوجه.

ثانيهما: أنا نحكم على ذات الله ﷻ بأحكام، والحكم مسبوق بتصور المحكوم عليه، وهو ضعيف أيضاً، لأن تصور المحكوم كان بوجه ما.

قال الزركشي: والأحسن القول الأول وهو أنها ليست معلومة للناس في الدنيا قال تعالى: ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾[طه: ١١٠].

واختلف العلماء هل يمكن علمها في الآخرة؟

فقيل: لا، لأن علمها يقتضي الإحاطة به تعالى وهي ممتنعة.

وقيل: نعم، لحصول الرؤية فيها، ورد بأن الرؤية لا تفيد الحقيقة، والواجب على المكلف في الدنيا معرفته بوجه، وهو: بصفاته كما به أجاب موسى لفرعون لما قال: ﴿**وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ**﴾ فقال: ﴿**قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم**

مُّوقِنِينَ﴾[الشعراء: ٢٤] إجابه بالصفة لتعذر الجواب بالماهية، فظن فرعون أن موسى مخطئ في الجواب لعدوله عن الجواب المطابق لسؤاله، و لم يعلم بغباوته أنه هو المخطئ في السؤال، وأن ما أتى به الكليم في الجواب أقصى ما يمكن.

قال الرزركشي: وغاية معرفة الإنسان لربه أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة، ويعرف أنها موضوعة ومحدثة، وأن محدثها يصح ارتفاع كلها مع قيامه، ولا يصح بقاؤها وارتفاعه.

وفي هذا المقام قال الصديق الأكبر: سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته، إلا بالعجز عن معرفة شيء.

قال الرازي: واعلم أن من عرف الله لا يخلو عن قبض وبسط، فإذا استغرق في عالم الجلال والعزة والاستغناء وقع في القبض والهيبة، فيصير كالمعدوم الفاني، وإذا استغرق في عالم الجمال و الرحمة والكرم وقع في البسط والفرح والسرور، فيصير فرحاً بربه.

قيل: كان يحيى عليه السلام الغالب عليه الحزن والقبض، وكان عيسى عليه السلام الغالب عليه الفرح والسرور والبسط فتحاكما في هذه الواقعة إلى حضرة رب العزة، فأوحى الله تعالى إليهما إن أقربكما إليّ أحسنكما ظناً بي.

واستدل كثير من السلف على معرفة الله تعالى بطرق.

لطيفه: سأل جماعة من الكفار وكانوا سبعة عشر نفساً الإمام الشافعي ما الدليل على معرفة الصانع؟

فقال: ورقة الفرصاد أليس طعمها ولونها وريحها واحد عندكم قالوا: نعم فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإبرسيم، والنحلة فيخرج منها العسل، والشاة فيخرج منها البعرة والظبية فينعقد في نوافحها المسك، فمن ذا الذي جعلها كذلك، مع أن الطبع واحد، فاستحسنوا منه ذلك وآمنوا على يديه.

وسئل أبو حنيفة عن معرفة الصانع فقال: إن الوالد يريد الذكر فيكون أنثى، ويريد الأنثى فتكون ذكراً، فدل ذلك على معرفة الصانع.

واستدل أحمد بن حنبل على معرفة الله تعالى بالبيض وخروج الفرخ منها، وقال: الدليل على الصانع قلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها أي: لا باب، كالفضة المذابة والذهب الإبريز ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير، فدل ذلك على اللطيف الخبير.

وسأل هارون الرشيد مالكاً عن الصانع، فاستدل عليه بخلاف الأصوات، وتردد النغمات، وتفاوت اللغات.

وسأل الأصمعي بعض الأعراب فقال له: كيف عرفت الله: فقال: البعرة تدل على البعير، والروث يدل على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وأبحر ذات أمواج ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير.

وسئل أبو نواس الشاعر عن الدليل على الصانع فقال: النرجس وأنشد فيه:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
أصول من لجين زاهرات ... على أطرافها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي بكر الأصبهاني قال: رؤي أبو نواس في المنام فقيل: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس[1].

سؤال: هل الطيور والبهائم البرية والبحرية عارفة بربها أم لا؟

قال الإمام فخر الدين الرازي: أكثر أرباب الآثار والأخبار جوزوا ذلك، وقالوا إن كونها عارفة بربها مشتغلة بتسبيحه أمر جائز في العقول، فوجب الاعتراف بذلك، وإن حصول الفهم والعلم في ذوات هذه الحيوانات من جملة الممكنات والله تعالى قادر على كل الممكنات، واستدلوا على ذلك بأنه يحصل منها أفعال لا تصدر إلا من العقلاء بل من أفاضل العقلاء، فدل ذلك كونها عارفة بربها.

ثم بين ذلك بوجوه:

منها: أن النحلة أعطاها الله من الذكاء أنها تبني البيوت المسدسة، من غير نظر ولا آلة ولا شكل، وإن البشر لا يقدرون على بناء البيت المسدس إلا عند استعانة بالآلات الكثيرة، وإنها تسعى في تحصيل قوتها وتؤخره لعلمها أنها قد تحتاج إليه في الأزمنة المستقبلية، ولا تكون قادرة على تحصيله في تلك الأوقات فسعت وادخرته، وذلك لا يصدر إلا من عاقل عارف بربه.

ومنها: أن الجمل والحمار وغيرهما إذا ذهب في طريق في ليلة ظلماء مرة واحدة، المرة الثانية يقدر على السلوك بتلك الطريق من غير إرشاد مرشد، وما ذاك إلا لعقله

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/٤٦٥) عن أبي بكر أحمد بن محمد بن موسى الأصبهاني بأصبهان قال... فذكره.

ومعرفته بربه.

ومـــنها: أن الفأرة تدخل ذنبها في قارورة الدهن إن كان رأسها ضيقاً ولا تدخل رأسها ويحصل مقصودها بهذا الطريق، وهذا يدل على عقلها.

ومنها: أن العنكبوت تبني بيتها على وجه عجيب وعلى نسجه الشبكة التي تصيد بها الذباب.

وهذه أفعال فكرية فوجب الإقرار بثبوت العقل لها، وإذا أثبت كونها مهتدية عارفة بهـــذه الدقائق، فأي بعد في كونها عارفة بربها مسبحة لمالكها، ويدل على ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾[النمل: ١٨] وهذا لا يصدر إلا من الفاهم العاقل.

ويدل على ذلك أيضاً ما رواه مكحول عن بعض الأحبار أنه قال: «قام داود النبي عليه الصلاة والسلام ليلة على ساحل البحر يصلي ويسبح لله ويحمد، ويقول في دعائه: إلهـــي هدأت الأصوات، وغارت النجوم، ونامت العيون، وعين داود لم تنم، وأنت الحـــي القيـــوم، فهو متعجب بقيام ليله، فأوحى الله تعالى إلى ضفدع أن أجيبه فقال الضفدع: يا داود أعجبك قيام ليلة واحدة وأنا في مكاني هذا منذ سبعين سنة لم يفتر لساني من التسبيح والتقديس لربي، قال داود: فبأي شيء تسبحين؟ قالت: فإني أقول: سبحان ربي المعبود بكل مكان، سبحان ربي المشكور بكل لسان، سبحان ربي المحمود في كل أوان».

وأمـــا مـــا يتعـــلق بالتقوى التي دل عليها في الحديث قوله: «**أتقاكم**» فهو: أن البرماوي وغيره قالوا: إن التقوى على ثلاث مراتب:

الأولى: وقاية النفس عن الكفر وهذه المرتبة للعموم.

الثانية: وقاية النفس عن المعاصي وهي للخواص.

الثالثة: وقاية النفس عما سوى الله وهي لخواص الخواص.

قال حجة الإسلام الغزالي: التقوى كنـــز عزيز، ولئن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهـــر شـــريف، وخير كثير، ورزق كريم، فوز كبير، فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعـــت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى، وتأمل ما في القرآن من ذكـــرها كـــم علق بها من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضاف إليها من سعادة.

قال: وأنا أعد لك من جملها اثنا عشر خصلة:

أولها: المدح والثناء قال تعالى: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾[آل عمران: ١٨٦].

الثاني: الحفظ والحراسة من الأعداء قال تعالى: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ**﴾[آل عمران: ١٢٠].

الثالث: التأييد والنصرة قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾[النحل: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[البقرة: ١٩٤].

والرابع: النجاة من الشدائد والرزق الحلال قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾[الطلاق: ٢، ٣].

والخامس: إصلاح العمل قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً**﴾[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

السادس: غفران الذنوب كما قال تعالى: ﴿**وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾[الأحزاب: ٧١].

والسابع: محبة الله قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾[التوبة: ٤].

والثامن: القبول قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[المائدة: ٢٧].

والتاسع: الإكرام والإعزاز قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[الحجرات: ١٣].

والعاشر: البشارة عند الموت قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[يونس: ٦٤].

والحادي عشر: النجاة من النار قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾[مريم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى**﴾[الليل: ١٧].

والثاني عشر: الخلود في الجنة قال الله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[آل عمران: ١٣٣].

فهذا كله خير وسعادة في الدارين تحت خصلة واحدة وهي التقوى، ولا تنس نصيبك منها أيها الرجل وفسروا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ**

تُقَاتِـهِ﴾[آل عمران: ١٠٢] بأن يطاع الله فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، هذا أعلى درجات التقوى، وهذا عزيز وربما يعجز الإنسان عنه، ولهذا لما نزلت الآية وسمعها الصحابة خافوا العجز عن القيام بذلك، فأنزل الله تخفيفاً عنهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦].

وكان سهل بن عبد الله يقول: لا معين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله ﷺ، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر عليه.

وقال بعض العارفين: من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[يوسف: ١٠٩].

وقيل: يستدل على تقوى الرجل بثلاث: بحسن التوكل منه على الله فيما لم ينل من الرزق، وحسن الرضا منه فيما قد نال منه، وحسن البصر منه على ما فات مما يحبه.

وجاء في الحديث أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أوصني فقال: «عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله فإنه نور لك أي: يهديك إلى الصراط المستقيم.

وأنشد ذو النون المصري قدس الله سره:

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم ... تحن إلى التقوى وترتاح للذكر

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ ولا أعجبه أحد إلا ذو التقى.

وعن قتادة رضي الله عنه أنه قال: «مكتوب في التوراة يا ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت».

وكتب على بعض القبور: ليس زاد إلا التقى فخذ منه أو دع.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «من اتقى الله عاش قوياً وسار في بلاده آمنا».

وقال ابن لقمان لأبيه أي الخصال خير؟ قال: الدين، قال: فإن كانت اثنتين؟ قال: الدين والمال، قال: فإن كانت ثلاثة؟ قال: الدين والمال والحياء، قال: فإن كانت أربعاً؟ قال: حسن الخلق، قال: فإن كانت خمساً؟ فقال: السخاء، قال: فإن كانت ستاً؟ قال: يا بني إذا اجتمعت فيه هذه الخمس خصال فهو تقي لله ولي، ومن الشيطان بري، ولقد صدق من قال:

من اتقى الله فذاك الذي ... سبق إليه المتجر الرابح

من عرف الله فلم تغنه ... معرفة الله فذك الشقي

ماذا على الطائع ما ضره ... في طاعة الله ماذا لقي

مـــا يصـــنع العـــبد بعـــز الغنى والعـــز كـــل العـــز للمـــتقي

لطيفـــة: نـــزل ضـــيف على سليمان الفارسي و لم يكن عنده شيء، فخرج إلى الصحراء فوجد ظباء وطيور فأشار إلى ظبي وطير فاقبلا فقال الضيف: سبحان الله قد سخر لك الظباء والطير فقال سلمان: هل رأيت عبدا أطاع الله فعصاه شيء.

لطيفـــة أخرى: خرج شاب بالمدينة لصلاة العشاء في أيام عمر بن الخطاب ﷺ فرأته امرأة فعرضت نفسها عليه فتبعها إلى منـــزلها، ثم تذكر قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾[الأعراف: ٢٠١] أي: خطـــرة ونـــــزعة من الشيطان، ﴿**تَذَكَّرُوا**﴾ أي: تذكروا أنهم وقع منهم شيء يغضب الله تعالى، فلما قرأ الشاب هذه الآية وقع مغشياً عليه فطرحته المرأة على باب دارها، فخرج أبوه فلما أفاق سأله عن حاله فقص حاله على أبيه، فلما قرأ الآية ثانياً خـــرجت روحه فلما دفنوه بلغ ذلك عمر، فوقف على قبره وناداه: يا فلان ﴿**وَلِمَنْ خَـــافَ مَقَـــامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾[الرحمن: ٤٦] فأجابه من القبر يا عمر قد أعطاينهما ربي بفضله.

***

باب

تَفَاضُلِ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي الأَعْمَالِ[١]

قَالَ الْبُخَارِي: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ[٢]، قَالَ حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَدْخُلُ**[٣] **أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ . فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَا أَوِ الْحَيَاةِ، شَكَّ مَالِكٌ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً**».

قَالَ وُهَيْبٌ[٤] حَدَّثَنَا عَمْرٌو[٥] «الْحَيَاةِ»[٦] . وَقَالَ: «خَرْدَلٍ مِنْ خَيْرٍ»[٧].

في هذا الإسناد لطيفة وهو أن رجاله كلهم مدنيون.

بهمز قطع قوله: «**أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة**[٨]» بهمزة قطع وهو خطاب

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١٥٢): قوله: «باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال»: «في» ظرفية، ويحتمل أن تكون سببية، أي: التفاضل الحاصل بسبب الأعمال.

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٢): قوله: «حدثنا إسماعيل» هو ابن أبي أويس عبد الله بن عبد الله الأصبحي المدني ابن أخت مالك، وقد وافقه على رواية هذا الحديث عبد الله بن وهب ومعن ابن عيسى عن مالك، وليس هو في الموطأ، قال الدارقطني: هو غريب صحيح.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١٥٢): قوله: «يدخل» للدار قطني من طريق إسماعيل وغيره «يدخل الله» وزاد من طريق معن «يدخل من يشاء برحمته» وكذا له وللإسماعيلي من طريق ابن وهب.

(٤) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٣): قوله: «قال وهيب» أي: ابن خالد.

(٥) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٣): قوله: «حدثنا عمرو» أي: ابن يحيى المازني المذكور في سند هذا الحديث.

(٦) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٣): قوله: «الحياة» بالخفض على الحكاية، ومراده: أن وهيباً وافق مالكاً في روايته لهذا الحديث عن عمرو بن يحيي بسنده، وجزم بقوله: «في نهر الحياة» ولم يشك كما شك مالك.

(٧) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٣): قوله: «وقال خردل من خير» هو على الحكاية أيضاً، أي: وقال وهيب في روايته: مثقال حبة من خردل من خير، فخالف مالكاً أيضاً في هذه الكلمة.

وقد ساق البخاري حديث وهيب هذا في كتاب الرقاق عن موسى بن إسماعيل عن وهيب، وسياقه أتم من سياق مالك، لكنه قال: «من خردل من إيمان» كرواية مالك، فاعترض على المصنف بهذا.

ولا اعتراض عليه، فإن أبا بكر بن أبي شيبة أخرج هذا الحديث في مسنده عن عفان بن مسلم عن وهيب فقال: «من خردل من خير» كما علقه المصنف، فتبين أنه مراده لا لفظ موسي.

وقد أخرجه مسلم عن أبي بكر هذا، لكن لم يسق لفظه.

ووجه مطابقة هذا الحديث للترجمة ظاهر، وأراد بإيراده الرد على المرجئة لما فيه من بيان ضرر المعاصي مع الإيمان، وعلى المعتزلة في أن المعاصي موجبة للخلود.

(٨) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١٥٢): قوله: «مثقال حبة» بفتح الحاء، هو إشارة إلى ما لا أقل منه. =

للملائكة، والمعنى ثم يقول الله بعد إدخال عصاة أمة محمد ﷺ إلى النار لملائكته: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبه من خردل من إيمان.

ويجوز أن تكون همزة وصل ويكون الخطاب للعصاة الذين أدخلهم الله النار، والمعنى: أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل إيمان، وإنما أتى «بحبة الخردل» دون غيرها من البذورات لأنها في غاية الصغر، فلهذا يشبه بها للبالغ في القلة أي: أخرجوا من النار من بلغ إيمانه إلى غاية القلة، بحيث لا يكون فيها أحد إيمانه أقل منه، هذا دليل على أنه لا يبقى في النار من أهل الإيمان من العصاة أحد من قل إيمانه أو كثر، تفضلاً منه سبحانه وكرماً.

وكم من عاص تفضل الله عليه وعفا عنه وسامحه، من غير سبق عذاب في البرزخ ولا في الآخرة، بل عامله بحسن ظن فأدخله الجنة.

لطيفة: روي عن إبراهيم بن أدهم قال: بينما أنا أمشي في بعض الأزقة، وإذا امرأة تحمل ميت والناس يرجمونه بالحجارة، فقلت لها: ما يكون هذا الميت قالت ولدي وكان يعصي الحق ولا يستحي من الخلق، فلما حضره الموت سمعته يقول: يا محسنا لمن رجاه، يا من لا يهتك عبداً عصاه، فلما مات هجره الخلق ورجموه، فلا أدري كيف أتجه به، فقلت: أنا أحمله وأصلي عليه، فحملته معها فجهزناه ودفناه، فمضت أمه، فتفكرت أنا عند قبره فأخذتني سنة النوم، فرأيت ملكين قد نـــزلا عليه فانشق القبر فأجلساه وشم أحدهما جميع مفاصله فقال: لرفيقه ما في جسده مثقال حبة من خير فقال رفيقه: ربه أعلم به فنوديا: شقا قلبه، فخرج منه شامة بيضاء تتلألأ كالقمر، فنوديا: يا أيها الملكان هذه شهادة أن لا إله إلا الله، توفى عليها، وهو يرجوني ويقصدني فيكف أخيب من قصدني.

فإن قيل: من أين تعرف الملائكة العصاة الذين أدخلوا النار وفي قلوبهم مثقال حبة من خردل حتى يخرجوهم والإيمان أمر قلبي؟

فالجواب: أن الله تعالى يجعل لهم علامات يعرفون بها، كما يعلمون بأنهم من أهل التوحيد بعلامات السجود.

وقوله: «**فيخرجون منها قد اسودوا**» أي: صاروا سود كالحمم من آثار النار.

«**فيلقون في نهر الحياء**» أي: في نهر المطر[1].

= قال الخطابي: هو مثل ليكون عياراً في المعرفة لا في الوزن، لأن ما يشكل في المعقول يرد إلى المحسوس ليفهم.

وقال إمام الحرمين: الوزن للصحف المشتملة على الأعمال، ويقع وزنها على قدر أجور الأعمال.

وقال غيره: يجوز أن تجسد الأعراض فتوزن، وما ثبت من أمور الآخرة بالشرع لا دخل للعقل فيه.

والمراد بحبة الخردل هنا: ما زاد من الأعمال على أصل التوحيد، لقوله في الرواية الأخري: «أخرجوا من قال لا إله إلا الله وعمل من الخير ما يزن ذرة».

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١٥٣): قوله: قوله: «في نهر الحياء» كذا في هذه الرواية بالمد، وفي غيرها بالقصر، وبه جزم الخطابي وعليه المعنى، لأن المراد كل ما به تحصل الحياة، والحيا بالقصر هو المطر،=

«**أو الحياة**» أي: النهر الذي ينغمس فيه الحي.

«**فينبتون كما تنبت الحبة من جانب السيل**» و«الحبة»[١] بكسر الحاء تجمع على حبب، وهو بذر العشب، وإنما شبه ﷺ نبات العصاة الذين أخرجوا من النار في نهر الحياة بنبات العشب لسرعة نباته وخروجه من الأرض، قيل: إنه ينبت في يوم وليلة بخلاف غيرها من الحبب لا ينبت كذلك.

وقوله: «**ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية**».

فائدة: هذا اللون مفرح يسر الناظرين، قال تعالى في حق بقرة إسرائيل: ﴿**بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾[البقرة: ٦٩] ونقل القرطبي عن علي بن أبي طالب أنه قال: من لَبس نعلاً أصفراً قلَّ همه.

ولهذا كان الحناء سيد رياحين الجنة لصفرته، قال رسول الله ﷺ: «**سيد الرياحين في الدنيا والآخرة الفاغية**»[٢] والفاغية: نَوْرُ الحناء.

وقال أنس: «كان أحب الرياحين إلى رسول الله ﷺ الفاغية»[٣] رواهما البيهقي.

والمعنى: أن العصاة إذا خرجوا من النار وألقوا في نهر الحياة، يخرجون من ذلك النهر منورين منبسطين متبخترين كخروج هذه الريحانة من جانب السيل، ويسمى هؤلاء الذين أخرجوا من النار «عتقاء الله» فإنهم يدخلون الجنة ومكتوب على جباههم وبين أعينهم «عتقاء الله».

وروي أنهم إذا أدخلوا الجنة بعد ذلك فتكون تسميتهم الجهنميين، فيكرهون هذا الاسم ويسألون الله تعالى أن يزيله عنهم، فيثور في الجنة شبه الضباب فينقلهم الله إلى منازل لا يعرفون فيها، ويزول عنهم هذا الاسم.

وفي رواية: إذا دخلو الجنة قال أهل الجنة هؤلاء الجهنميين، فعند ذلك يقولون إلهنا لو تركتنا في النار كان أحب إلينا من العار، فيرسل الله تعالى ريحاً من تحت العرش يقال لها:

= وبه تحصل حياة النبات، فهو أليق بمعنى الحياة من الحياء الممدود الذي هو بمعنى الخجل.

(١) في معناها قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٥٣/١): قوله: «الحبة» بكسر أوله، قال أبو حنيفة الدينوري: الحبة: جمع بزور النبات واحدها حبة بالفتح، وأما الحب فهو: الحنطة والشعير، واحدها حبة بالفتح أيضاً، وإنما افترقا في الجمع.

وقال أبو المعالي في المنتهى: الحبة بالكسر: بزور الصحراء مما ليس بقوت.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٢/٥، رقم ٥٩٠٤) عن عبد الله بن بريدة عن أبيه.

قال البيهقي: ورواه جماعة عن أبي هلال الراسبي، تفرد به أبو هلال محمد بن سليم.

وأخرجه أيضاً: الطبراني في المعجم الأوسط (٢٧١/٧، رقم ٧٤٧٧)، والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٣٢٥، رقم ٣٤٨٢).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥/٥): رواه الطبراني في الأوسط وفيه سعيد بن عبية القطان ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣١/٥، رقم ٦٠٧٤) عن أنس بن مالك.

المثيرة، فتهب على وجوههم فتمحوا الكتابة أي: ما هو مكتوب بين أعينهم.

فقد روي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا فرغ الله من القضاء بين خلقه أخرج كتاباً من تحت العرش، إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين، قال: فيخرج من النار مثل أهل الجنة أو قال مثلي أهل الجنة، مكتوب بين أعينهم عتقاء الله**».

وقوله: «**مثقال حبة من خردل من إيمان**» المثقال من الذهب عند الفقهاء عبارة عن اثنين وسبعين شعيره، فإن قيل: الإيمان عرض فكيف يوزن؟

فالجواب: أن هذا مثل، فيكون عياراً في المعرفة لا في الوزن، لأن الإيمان ليس بجسم فيوزن، ولكن ما يشكل من المعقول يرد إلى المحسوس ليفهم، ويشبه ليعلم.

وقيل: الذي يوزن إنما هي الصحف المشتملة على الأعمال.

ويستفاد من الحديث أنواع من العلوم:

منها: إثبات دخول طائفة من عصاة الموحدين النار، وهذا أمر دلت عليه النصوص الظاهرة، وأجمع عليه من يعتد به، ولهذا لا يجوز كما قاله ابن عبد السلام وغيره أن يقول الإنسان في الدعاء: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات جميع ذنوبهم، ولا اللهم لا تدخل أحداً منهم النار، قالوا: لأنا نقطع بخبر الله وخبر رسوله ﷺ من أن منهم من يدخل النار.

ولا يشكل على هذا القول مع قول نوح عليه السلام: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾[نوح: ٢٨] لأنه ورد بصيغة الفعل في سياق الإثبات، وذلك لا يقتضي العموم، لأن الأفعال نكرات، ولجواز أن يكون نوح عليه الصلاة والسلام قصد معهوداً خالصاً وهو أهل زمانه مثلاً بل جميع المؤمنين والمؤمنات من أهل زمانه وغيرهم.

وفي الحديث أيضاً: دلالة على أنه لابد من إخراج العصاة ولا يخلدون في النار، ولو كانوا من أصحاب الكبائر، وهنا غرائب مناسبة:

الأولى: فإن قيل: إذا أدخل الله العصاة النار هل يميتهم الله في النار ثم يخرجهم بالشفاعة أو لا يميتهم؟

في المسألة قولان:

أحدهما: ورجحه القرطبي: أن الله يميتهم في النار إماتة حقيقية تكريماً لهم حتى لا يحسوا بألم العذاب بعد الاحتراق، ثم يخرجهم منها، والدليل على ذلك ما ورد في بعض الأحاديث: «**فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحماً، أذن في الشفاعة فيهم**»[1] أكد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/١٧٢، رقم ١٨٥)، وابن ماجه في سننه (٢/١٤٤١، رقم ٤٣٠٩)، وأحمد في مسنده (٣/١١، رقم ١١٠٩٢)، وابن حبان في صحيحه (١٦/٥٣٠، رقم ٧٤٨٥)، وأبو عوانة (١/١٥٨، رقم ٤٥٦)، والدارمي في سننه (٢/٤٢٧، رقم ٢٨١٧)، وأبو يعلى في مسنده (٢/٣٤٨، رقم ١٠٩٧) عن أبي سعيد.

ذلك بالمصدر فدل على أن الإماتة حقيقية، بخلاف الكفار المخلدين فيها قال الله تعالى في حقهم: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**﴾[فاطر: ٣٦] بل كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها كما قال الله تعالى: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ**﴾[النساء: ٥٦].

ثانيهما: أنهم إذا دخلوا النار لا يموتون فيها، بل إماتتهم المذكورة في الحديث عبارة عن أن الله يلقي عليهم في النار النوم حتى يعينهم عن ألم العذاب، وليس بموت على الحقيقة فإن النائم قد يغيب عن كثير من الألم والملاذ، وقد سماه الله تعالى وفاة بقوله العزيز: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الزمر: ٤٢].

فإن قيل: إذا أماتهم في النار على القول الأول وألقى عليهم النوم على القول الثاني، فأي حكمة وفائدة في إدخالهم النار ولا شعور لهم بأليم العذاب، الذي هو المقصود من دخول النار؟

أجاب العلماء عن ذلك: بأنه يدخلهم إلى النار وإن لم يحسوا بأليم العذاب، تأديباً لهم ويكون صرف نعيم الجنة عنهم مدة كونهم فيها عقوبة لهم، كالمحبوس في السجن، فإن الحبس عقوبة له وإن لم يكن معه غل ولا قيد والله أعلم.

الثانية: العصاة الذين يدخلهم الله النار من المؤمنين متفاوتون في العذاب، بحسب أعمالهم فمنهم من تأخذه النار إلى صدره، فقد جاء في خبر عن كعب الأحبار: «يا مالك قل للنار لا تحرق ألسنتهم فقد كانوا يقرؤون القرآن، يا مالك قل للنار تأخذهم على قدر أعمالهم» فالنار أعرف بهم بمقدار استحقاقهم من الوالدة بولدها، بخلاف الكافر فإن العذاب يشمل جميع جسده، ولا تعاف منه شيئاً، كما اشتمل في الدنيا على الكفر تشمله النار في الآخرة قال تعالى: ﴿**لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**﴾ أي: ما فوقهم ظلل لهم وما تحتهم ظلل.

ويعظم جسد الكافر في النار وأعضاؤه كأسنانه ويديه ورجليه وباقي أعضائه ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٨٩، رقم ٢٨٥١)، والترمذي في سننه (٤ /٧٠٤، رقم ٢٥٧٩)، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٨، رقم ٨٣٢٧)، وابن حبان في صحيحه (١٦/٥٣٢، رقم ٧٤٨٧) عن أبي هريرة.

وفي حديث آخر للترمذي: «**إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة**»(١).

وكذلك تسود وجوه الكفار في النار، وتـــزرق عيونهم، ويغلون بالأغلال.

والعصاة من المؤمنين فإنهم يسلمون من ذلك كله، ويتفاوتون في قدر البقاء في النار فمنهم من يمكث فيها ساعة، ومنهم من يمكث فيها يوماً، ومنهم من يمكث شهراً، ومنهم من يمكث فيها سنة، فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتي وماتوا عليها فهم في الباب الأول من جهنم لا تسود وجوههم، ولا تـــزرق عيونهم، ولا يغلون بالأغلال، ولا يقرنون مع الشياطين، ولا يضربون بالمقامع، ولا يطرحون في الأدراك، منهم من يمكث فيها ساعة ثم يخرج، ومنهم من يمكث فيها يوماً ثم يخرج، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج، وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا منذ خلقت إلى يوم أفنيت، وذلك سبعة آلاف سنة... الحديث**»(٢).

الثالثة: فإن قيل: إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة هل يعرفون منازلهم وأمكنتهم التي أعدها الله بهداية من الله، أو أن الملائكة تدلهم على منازلهم؟

في المسألة قولان:

أحدهما: أن الملائكة إذا وصلت بأهل الجنة إلى بابها يقولون لهم: تفرقوا إلى منازلكم، فيذهب كل واحد منهم إلى منـــزله فيها، وهو أعرف بمنـــزله في الجنة وموضعه فيها من منـــزله الذي كان في دار الدنيا، كما أن أهل صلاة الجمعة مثلاً إذا أخرجوا من المسجد يعرف كل واحد منـــزله، كذاك أهل الجنة وهذا القول هوالراجح ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿**وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**﴾[محمد: ٦].

ثانيهما: إنهم لا يعرفون منازلهم إلا بالملائكة يمشي مع كل واحد ملك بين يديه إلى منـــزله، وهو الملك الموكل بعمله.

الرابعة: أفاد بعض العلماء أنه يمكن معرفة أهل الجنة من أهل النار في الدنيا بعلامة وهي: أن الشخص إذا ملأ الله أذنيه من ثناء الناس عليه فهو من أهل الجنة، وإذا ملأ الله أذنيه من ذم الناس له فهو من أهل النار، واستُدل على ذلك بحديث في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: مر بجنازة فأثنى عليها خيراً فقال النبي ﷺ: «**وجبت وجبت وجبت**» ومر بجنازة فأثنى عليها شراً فقال النبي ﷺ: «**وجبت وجبت وجبت**» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فداك أبي وأمي، مر بجنازة فأثنى عليها خيراً فقلت: «**وجبت وجبت وجبت**» ومر

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٧٠٣، رقم ٢٥٧٧) عن أبي هريرة.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش.
(٢) رواه الحكيم في نوادر الأصول (٢/٣٦) عن أبي هريرة.

بجنازة فأثني عليها شراً فقلت: «**وجبت وجبت وجبت**» فقال رسول الله ﷺ: «**من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض**»[1].

وفي بعض طرق البخاري عن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة**» فقلنا: وثلاثة فقال: «**وثلاثة**» فقلنا: واثنان فقال:«واثنان» ثم لم نسأله عن الواحد.

والحديث السابق يعطي العموم، وإن من كثرت شهوده وانطلقت ألسنة المسلمين فيه بالخير والثناء الصالح، كانت له الجنة والله اعلم.

ومرت جنازة على عبد الله بن مسعود ﷺ فقال لرجل قم فانظر من أهل الجنة هو أم من أهل النار؟ فقال الرجل: وما يدريني من أهل الجنة هو أم من أهل النار؟ قال: انظر إلى ثناء الناس عليه فإنهم شهداء الله في الأرض.

وغير مستنكر إذا أحب الله عبداً أن يلقي على ألسنة المسلمين الثناء عليه، وفي قلوبهم المحبة له قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾[مريم: ٩٦].

قدمنا أنه ورد في الحديث: أن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إن الله يحب فلاناً فأحبه قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء أن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وفي البغضاء مثل ذلك.

قال القرطبي: وقد شوهد رجال من المسلمين علماء صلحاء كثر الثناء عليهم، وصرفت القلوب إليهم في حياتهم وبعد مماتهم.

الخامسة: جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما سأل الله عبداً الجنة في يوم سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إن عبدك فلاناً سألني فأدخلنيه**»[2].

وفي حديث آخر: «**ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار: يا رب إن عبدك فلاناً استجار مني فأجره، ولا سئل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إن عبدك فلاناً سألني فأدخله الجنة**»[3].

فالرب تعالى جواد له الجود كله يحب أن يسأل ويطلب منه ويرغب إليه، فخلق من

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الصحيح (١/٤٦٠، رقم ١٣٠١)، ومسلم في صحيحه (٢/٦٥٥، رقم ٩٤٩) من حديث أنس بن مالك.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١١/٥٤، رقم ٦١٩٢)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/٢٤٩، رقم ٢١٣) عن أبي هريرة.

وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٢٤٣) وقال: رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخاري ومسلم.

يسأله وألهمه سؤاله، وخلق له ما يسأله، فهو خالق السائل وسؤاله ومسؤوله، وذلك لمحبته لسؤال عبده له، ورغبتهم إليه، وطلبهم منه، وهو يغضب إذا لم يُسأل، وأحب خلقه إليه أكثرهم وأفضلهم له سؤالاً، وهو يحب الملحين في الدعاء كلما ألح العبد عليه في السؤال أحبه وقربه وأعطاه فأكثروا من طلب الجنة ومن الاستعاذة من النار.

فقد ورد في حديث آخر عنه ﷺ: «**ما من مسلم سأل الله الجنة ثلاثاً إلا قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ومن استجار بالله من النار ثلاثاً قالت النار: اللهم أجره من النار**»[1] رواه الترمذي وغيره.

وفي حديث آخر: «**أكثروا مُساءلة الله الجنة واستعيذوا به من النار فإنهما شافعتان مشفعتان، وإن العبد إذا أكثر مساءلة الله الجنة، قالت الجنة: يا رب عبدك هذا الذي سألنيك فأسكنه إياي، وتقول النار: يا رب عبدك هذا الذي استعاذ بك مني فأعذه**»[2].

وقد كان جماعة من السلف لا يسألون الله الجنة، ويقولون: حسبنا أن يجيرنا من النار.

وجاء في حديث آخر يقول الله عز وجل: «**انظروا في ديوان عبدي فمن رأيتموه سألني الجنة أعطيته، ومن استعاذني من النار أعذته**»[3].

وفي حديث آخر: «**أطلبوا الجنة جهدكم، اهربوا من النار جهدكم، فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات فلا تلهينكم عن الآخرة**»[4].

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٦٩٩/، رقم ٢٥٧٢) عن أنس بن مالك.
قال الترمذي: هكذا روى يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق هذا الحديث عن بريد بن أبي مريم عن أنس عن النبي ﷺ نحوه، وقد روي عن أبي إسحاق عن بريد بن أبي مريم عن أنس ابن مالك موقوفاً أيضاً.
وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (١٥٥/٣، رقم ١٢٦٠٧)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ٧١٧، رقم ١٩٦٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وأبو يعلى في مسنده (٣٥٦/٦، رقم ٣٦٨٢)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٣٩٠/٤، رقم ١٥٦٠).
(٢) لم نقف عليه.
(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٧٥/٦) عن أنس بن مالك.
قال ابن رجب في التخويف من النار (ص:٤٤): إسناده ضعيف.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠٠/١٩، رقم ٤٤٩)، وفي المعجم الأوسط (٧٣/٤، رقم ٣٦٤٣) عن كليب بن حزن.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٠/١٠): رواه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار عنه وفيه معلى بن الأشدق وهو ضعيف جداً.

قَالَ البُخَارِي(١): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ(٢)، قَالَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ(٣)، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ(٤)، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ**(٥) **يُعْرَضُونَ عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ**(٦)**، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ**». قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «**الدِّينَ**».

في هذا الحديث فوائد:

الأولى: دل على استحباب تأويل دليل الرؤيا إذا كان عارفاً به، أو أنه يسأل العالم بها عنها، كما أول ﷺ المنام الذي رآه لسيدنا عمر لما سألوه عنه «بالدين».

وإنما أول رسول الله ﷺ القميص بالدين، لأن الدين للإنسان كالقميص له في أنه يستره من النار، ويحجبه عن كل مكروه، كما أن القميص يستر عورة الإنسان.

وظاهر الحديث يقتضي أن القميص على أي لون كان يؤول بالدين إذا كان يجره على الأرض.

وفصل علماء التعبير في ذلك وقالوا: القميص الأبيض والأخضر يؤول بالدين، وأما الأزرق فإنه لا يحمد في المنام لقوله تعالى: ﴿**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**﴾[طه: ١٠٢].

أما الأحمر فإنه يدل على الشهرة والخيلاء في المنام فإن كان معتاداً بلبسه فهو دليل

---

(١) بعدما تكلم المصنف عن شرح حديث في تفاضل أهل الإيمان أتى بعد ذلك بحديث آخر من أحاديث الباب فشرحه فتنبه هداك الله.

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٣): قوله: «حدثنا محمد بن عبيد الله» هو أبو ثابت المدني وأبوه بالتصغير.

(٣) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٣): قوله: «عن صالح» هو ابن كيسان تابعي جليل.

(٤) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٤): قوله: «عن أبي أمامة بن سهل» هو ابن حنيف كما ثبت في رواية الأصيلي، وأبو أمامة مختلف في صحبته، ولم يصح له سماع، وإنما ذكر في الصحابة لشرف الرؤية، ومن حيث الرواية يكون في الإسناد ثلاثة من التابعين أو تابعيان وصحابيان، ورجاله كلهم مدنيون كالذي قبله.
وأفاد ابن حجر أنه سيشرح هذا مفصلاً في كتاب التعبير إلا أنه علق على وروده هاهنا في هذا الباب فقال: والحديث ومطابقته للترجمة ظاهرة من جهة تأويل القميص بالدين، وقد ذكر أنهم متفاضلون في لبسها، فدل على أنهم متفاضلون في الإيمان.

(٥) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٤): قوله: «بينا أنا نائم رأيت الناس» أصل «بينا»: بين ثم أشبعت الفتحة، وفيه استعمال «بينا» بدون «إذا» وبدون «إذ»، وهو فصيح عند الأصمعي ومن تبعه وإن كان الأكثر على خلافه، فإن في هذا الحديث حجة.

(٦) قال الحافظ في الفتح (١/١٥٤): وقوله: «الثدي» بضم المثلثة وكسر الدال المهملة، وتشديد الياء التحتانية جمع ثدي بفتح أوله وإسكان ثانيه والتخفيف، وهو مذكر عند معظم أهل اللغة، وحكي أنه مؤنث، والمشهور أنه يطلق في الرجل والمرأة، وقيل: يختص بالمرأة وهذا الحديث يرده، ولعل قائل هذا يدعي أنه أطلق في الحديث مجازاً، والله أعلم.

على رفعة وسؤدد يحصل له، وإن لم يكن معتاداً بلبسه، فهو هم وحزن.

وأما القميص الأصفر فهو دليل على مرض يحصل للابسه في المنام، فإن رأى أنه لبسه وغسله أو خلعه نجا من ذلك المرض، ومن رأى أن عليه قمصاً كثيرة، أو على غيره فذلك دليل على أن له عند الله أجراً عظيماً.

ومن رأى قميص تخرق على جسمه استغنى من قبل امرأته، وإن رآه تفتق فارق امرأته أو شريكه.

ومن رأى قميصاً بلا كمين عليه أو على غيره فذلك دليل على حسن شأن لابسه في دينه ودنياه وأنه ليس له مال.

ومن رأى قميص شق طولاً فهو دليل على كلام يحصل له وهم يزول عنه، وإن رآه شق عرضاً فهو دليل على كلام يقال في عرضه.

ومن رأى أنه قَدْ قُدَّ من وراءه فإنه يتهم بتهمة هو برئ منها، فإن رأه قُدَّ من قبله فالذي يرمى به صحيح لقصة يوسف: ﴿**إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾[يوسف: ٢٦، ٢٧].

ومن رأى أنه لبس قميصاً مقلوباً فإنه يدل على تغير حاله إلى خلاف عادته.

ومن رأى أنه لبس قميصاً خلقاً وسخاً فهو دليل على فقر ودين.

ومن رأى أنه لبس جديداً صفيقاً فهو دليل على قوة في دين صاحبه، ويفسره للمرأة بالزوج، وللرجل بالمرأة إذ لبساه لقوله تعالى: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾[البقرة: ١٨٧].

ومن رأى أن جيب قميصه انشق انفتح عليه باباً من الفقر، ومن رأى أنه لبس قميصاً قصيراً لم يستر ركبتيه، فذلك دليل على نقص في دينه للحديث السابق الذي ساقه البخاري.

ومن رأى أنه أهدى إليه قميص فإنه يبشر ببشارة حسنة لقوله تعالى في قصة يوسف: ﴿**فَلَمَّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[يوسف: ٩٦].

فائدة مناسبة: ذكر بعض المفسرين أن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه كان له ثلاثة أقمصة، قميص العلامة، وقميص الشهادة، وقميص البشارة، أما قميص العلامة فقد أشار الله إليه بقوله: ﴿**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾[يوسف: ١٨] فإن أخوة يوسف كانوا إحدى عشر لما ألقوه في الجب وأخذوا قميصاً فذبحوا شاة ولطخوا قميصه بدمها فلما تأخروا عن الوقت الذي كانوا يروحون فيه إلى يعقوب أحس قلبه بالشر، فقام ليستقبلهم فلم يطق النهوض فتوكأ على جارية، وجعل يمشي حتى أشرف على الوادي، فرمى نفسه هناك، فلما أشرفوا على الوادي شقوا ثيابهم وحثوا التراب على

رؤوسهم، وهم يضجون في البكاء والصياح، فلما رآهم يعقوب على هذه الحالة وقع مغشياً عليه، فلما أفاق قال: مالي لا أرى قرة عيني فيكم؟ قالوا: كما أخبر الله عنهم: ﴿**ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾[يوسف: ١٧] قال: لَم يبق له عضو من أعضائه تأتوني به أستأنس به وأشم ريحه منه فقالوا: هذا قميصه ملطوخ بدمه، فقلبه فلم ير فيه شقاً ولا تمزيقاً وشمه فلم يجد ريحه فيه، فقال: سبحان الله ما كان أشفق وأرفق هذا الذئب حيث أكله فلم يمزق ثوباً ولم يبق له عضواً، وأحس في نفسه أن الذئب لم يأكله، فصار يبكي ويقول: قرة عيني ليت شعري، في أي بئر طرحوك، ليت شعري لأي سبع عرضوك.

قال بعضهم لبعض: ألا ترون أن أبانا يكذبنا ولا يصدق مقالتنا، تعالوا حتى نصطاد ذئباً ونلطخه بالدم ونأتي به إليه ونقول هذا هو الذئب الذي أكله، فلعله أن يسليه ذلك عما هو فيه، قالوا: نعم فاصطادوا ذئباً وأوثقوه وأتوا به إلى يعقوب، فلما مثلوه بين يديه نظر يعقوب إليه وقال لهم: ما هذا؟ فقالوا هذا الذئب الذي يغشى أغنامنا وأكل أخانا وأفجعنا فيه، فقال لهم: أطلقوه فأطلقوه فجعل الذئب يصبص بذنبه ويدنو إليه ويعقوب يقول: أدن أدن فجعل يدنو حتى ألصق خده بخده، فرفع يعقوب إلى السماء رأسه وقال: اللهم إن كنت أجبت لي دعوة، ورحمت لي عبرة، فأنطق لي هذا الذئب بقدرتك، فإنك على كل شيء قدير، فأنطق الله لسان الذئب وقال: السلام عليك يا نبي الله فقال: وعليك السلام أيها الذئب بأي جرم أفجعتني في ولدي، وأورثتني هماً طويلاً فقال الذئب: وحقك ما أكلت لحمه، ولا شربت دمه، ولا نتفت شعره، ومالي بولدك عهد، وإني لذئب غريب أقبلت من ناحية مصر في طلب أخ لي غاب عني منذ سنين، فلا أدري أحي أخي أم ميت فاحتسبته، وإن لحوم الأنبياء محرمة على جميع السباع، فقال يعقوب لبنيه: لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم، هذا خرج في طلب أخيه وأنتم ضيعتم أخاكم، ولقد علمت أن الذئب برئ مما نسبتم إليه ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾[يوسف: ١٨].

وقال في أنس المحاضرة: خرج بنو يعقوب عليه السلام إلى الصحراء فأمسكوا ذئباً فشدوا وثاقه، وأتوا به إلى أبيهم يعقوب، فقالوا: يا أبانا هذا الذي أكل أخانا، قال: حلوا وثاقه، وقال له يعقوب عليه السلام: أنت أكلت حبيبي يوسف؟ فقال: يا نبي الله ألست تعلم أنه محرم علينا لحوم الأنبياء، قال: صدقت، فمن أين جئت؟ قال من مصر، قال: والى أين تريد؟ قال: إلى خراسان، قال: في ماذا؟ قال في زيارة أخ لي، قال: وما بلغك فيه؟ قال: حدثني أبي عن جدي عن الأنبياء السالفين: أنه من زار أخاً له في الله كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة فقال يعقوب لبنيه: اكتبوا هذا الحديث عن الذئب، فقال: معاذ الله أن أملي عليهم لأنهم كذبوا علي وقالوا ما لم أفعل.

وكذلك للمؤمن ثلاثة أقمصة قميص الخدمة، قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا**

زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف: ٣١]، وقميص العفة، قوله تعالى: ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾[الأعراف: ٢٦]، وقميص الكرامة قوله تعالى: ﴿**وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ**﴾[الكهف: ٣١].

وفي كل قميص يعطى فائدة، ففي قميص الخدمة يناجي مولاه، وفي قميص العفة يغلب شهوته وهواه، وفي قميص الكرامة يرى من جل عن الأشباه.

وأما قميص الشهادة فقد أشار الله إليه بقوله: ﴿**وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ**﴾[يوسف: ٢٧].

وأما قميص البشارة فقد أشار الله إليه بقوله: ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً**﴾[يوسف: ٩٣].

وهذا القميص كان قميص إبراهيم الذي لبسه حين ألقي في النار، كان في عنقه في الجب وهو من الجنة أمره جبريل بإرساله، وقال: إن فيه ريحك ولا يلقى على مبتلى إلا عوفي.

ففي كل واحد منها فائدة، ففي قميص العلامة عوفي من البلوى، وفي قميص الشهادة برئ من الدعوى، وفي قميص البشارة جمع بينه وبين من يهوى.

وفي الحديث دليل على فضل سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ وغزارة دينه ونفعه للمسلمين حياً وميتاً، فإن القميص يؤول بالدين كما أوله رسول الله ﷺ.

وكان لرسول الله ﷺ ثلاثة أقمصة: قميص العطية حين سألته المرأة فأعطاها قميصاً لم يكن له سواه، فجاء وقت الصلاة فلم يجد ما يلبسه ويخرج به إلى الصلاة فأنـــزل الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً**﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقميص الهدية: وذلك أن عبد الله بن أبي سلوك كان رأس المنافقين فلما جاءه الموت قال: سيروا إلى محمد وأرغبوه أن يعطيني قميصه، فادفنوه معي في قبري، فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**خذوه إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً**» فلما رأى ذلك المنافقون قالوا: إذا كان سيدنا يتبرك بثوبه فنحن أولى أن نتبرك بنفسه، فأخلص في ذلك اليوم ألف منافق.

وقميص المعجزة وهو أن ما لبس ثوباً طال أو قصر إلا وكأنه خيط عليه، فإن كان طويلاً قصر حتى ساوى كعبيه وإن كان قصيراً طال حتى ساواها.

وفي كل قميص ذكر فائدة: ففي قميص العطية وقع التعليم، وفي قميص الهدية بأن قدره العظيم، وفي قميص المعجزة ظهر الحق لمن كان في قفر الشك يهيم.

وجره يؤول ببقايا آثاره الجميلة الحسنة بعد موته ليقتدى به وبسنته، ويتخلق بأخلاقه.

وقد نفع عمر ﷺ الناس في حياته ومماته:

أما في حياته فقد تواتر نفعه للناس حيث كان يقضي حوائج المحتاج من الأراملٍ واليتامى وغيرهم، ويحرس بيوت الناس ليلاً، فقد نقل أنه خرج في ليلة مظلمة فدخل بيتاً ثم خرج منه، ودخل بيتاً آخر وطلحة ينظره، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فرأى عجوزاً عمياء مقعده فقال لها طلحة: ما بال هذا الرجل يأتيك في كل ليلة؟ فقالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، ويأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى أي: البول والغائط.

وكان ﷺ مع هذا الدين الغزير أحياناً يعاتب نفسه ويبكي حتى يبل لحيته، وربما يغشى عليه.

قال أنس ﷺ سمعت عمر ﷺ وبيني وبينه حائط يقول: والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك.

وكان أحياناً يضرب ظهره بدرته وأخذ يوماً تبنة من الأرض وقال: يا ليتني هذه التبنة، يا ليت أمي لم تلدني يا ليتني كنت نسياً منسياً.

وكان لا تأخذه في الله لومة لائم، جاءه أعرابي له بنات فأنشده:

يا عمر الخير رقيت الجنَّه ... اكسوا بناتي وأمهنَّهْ

وكن لنا من الزمان جُنه ... أقسم بالله لتفعلنَّهْ

فلم يرتج لترققه ولا راعه قسمه عليه بل قال: إن لم أفعل يكون ماذا؟ قال: إذاً يا أبا حفص لأذهبن، فقال: وإذا ذهبت يكون ماذا؟ فقال: يكون حالي لتسألنه، وموقف المسئول تنتهينه إما إلى نار وإما إلى الجنة، فلما ذكر له الجنة والنار والموقف بين يدي الله تعالى بكى حتى اخضلت لحيته بدموعه، وقال: يا غلام أعطه قميصي هذا لذاك اليوم لا لشعره، أما والله لا أملك غيره.

فانظر ما حصل عنده من رقة القلب لم ينعم عليه إلا بما هو من خاصة ماله، ولم يجد غير قميصه، وقد كانت خزائن الأرض مملوءة بين يديه ذهباً، ولم يعطه من بيت مال المسلمين، وإن كان الأعرابي فقيراً مستحقاً، لأنه لما استنزله بشعره ولم يكن العطاء لمصلحة المسلمين فلم يعطه من مالهم.

وأما نفعه للناس بعد موته: فقد أفاد بعض العلماء أنه لما مات ﷺ جلس علي بن أبي طالب على قبره يسمع بماذا يجب الملكين، قال: وكان الله أعطى علياً علم البرزخ، فلما دخل الملكان عليه ارتعد منهما ثم أجابهما فقالا: نم يا ابن الخطاب، فقال: كيف أنام وقد أصابني منكم هذه الرعدة وقد صحبت النبي ﷺ ولكن أشهد عليكما الله وملائكته أن لا تدخلا على مؤمن ولا على مؤمنة إلا في أحسن صورة ففعلا، فقال له على بن أبي طالب: نم يا ابن الخطاب فجزاك الله عن المسلمين خيراً، لقد نفعت الناس في حياتك وبعد مماتك.

سؤال: فإن قيل: يلزم من الحديث أن يكون سيدنا عمر أفضل من أبي بكر لأن المراد بالأفضل الأكثر ثواباً، فمن كان دينه أكثر كان ثوابه أكثر، مع أن العلماء أجمعوا على

خلاف ذلك؟

جوابه: لا يلزم ذلك، إذ القسمة غير حاصرة لجواز قسم رابع، فإنه ﷺ قسم من عرض عليه في ثلاثة أقسام، قسم عليهم قميص تبلغ الثدي، وقسم عليهم قميص لا تبلغها، وقسم ثالث وهو عمر بن الخطاب عليه قميص يجره.

ويحتمل أن يكون قسم رابع لم يذكره ﷺ، ويكون أبا بكر رضي الله عنه سلمنا انحصار القسمة، لكن لم يخصص ﷺ القسم الثالث بعمر، ولم يقصره عليه سلمنا التخصيص به، لكنه معارض بالأحاديث الدالة على أفضلية الصديق التي تواتر القدر المشترك بها، فدليلكم ودليلنا متواتر سلمنا التساوي بين الدليلين، لكن الإجماع منعقد على أفضليته وهو دليل قطعي، وهذا دليل ظني، والظني لا يعارض القطعي.

ومما يدل على تفضيل أبي بكر على عمر وعلى غيره من الصحابة أن رسول الله ﷺ في مرض موته أقامه مقامه في إمامة الصلاة حيث قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»[1] واتفق العلماء على أن السنة أن يقدم على القوم أفضلهم علماً وقراءة وخلقاً وورعاً.

وصح في هذا الصحيح أن محمد بن الحنفية قال لأبيه علي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر... الحديث [2].

***

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/٢٤٠، رقم ٦٤٦)، ومسلم في صحيحه (١/٣١٦، رقم ٤٢٠) من حديث أبي موسى.

(٢) انظر حديث محمد بن الحنفية في صحيح البخاري (٣/١٣٤٢، رقم ٣٤٦٨).
والحديث عند أبو داود في سننه (٤/٢٠٦، رقم ٤٦٢٩).

فهرست المجلد الأول

مقدمة المصنف ٥
نماذج من الأصل المخطوط ١١
ترجمة المصنف ١٧
التعريف بمنهج البخاري في كتابه الصحيح ١٩
المجلس الأول: في ترجمة البخاري ٤٦
كتاب بدء الوحي ٥٧
المجلس الثاني: في الكلام على قوله: كيف كان بدء الوحي ٦٨
المجلس الثالث: في الكلام على رجال إسناد حديث «إنما الأعمال بالنيات» ٨٩
المجلس الرابع: في الكلام على حديث «إنما الأعمال بالنيات» ١٠٣
المجلس الخامس: في بيان الهجرة ١٢٨
المجلس السادس: مشتمل على ترجمة الأئمة الأربعة ١٤٨
المجلس السابع: في الكلام على حديث: كيف يأتيك الوحي ١٦٥
المجلس الثامن: في ترجمة الليث وخديجة والزهري ١٨٥
المجلس التاسع: في الكلام على بقية حديث أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤية الصالحة . ٢٠٦
المجلس العاشر: في بيان الوحي ٢٢٩
باب ما يعالج من التنزيل شدة ٢٣٥
المجلس الحادي عشر: في قصة هرقل وما فيها ٢٤٩
المجلس الثاني عشر: في الكلام على الإيمان وشروطه الإسلام وفيه فوائد ولطائف كثيرة ٢٧٦
المجلس الثالث عشر: في بيان زيادة الإيمان ونقصانه وفيه فوائد كثيرة متعلقة بالإيمان ٢٨٨
المجلس الرابع عشر: في ترجمة عمر بن عبد العزيز ﷺ ٣٠٤
المجلس الخامس عشر: في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ٣١٧
المجلس السادس عشر: في الكلام على حديث «بني الإسلام على خمس» ٣٣١
المجلس السابع عشر: في الكلام على قوله ﷺ «الإيمان بضع وستون شعبة» ٣٥٠
المجلس الثامن عشر: في الكلام على قوله ﷺ «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ٣٦٩
المجلس التاسع عشر: في الكلام على حديث «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ٣٨٩
المجلس العشرون: في قوله ﷺ «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده» ٤٠٤
المجلس الحادي والعشرون: في ذكر الأنصار ٤١٦
باب بَايعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّه شَيْئاً ٤٢١
المجلس الثاني والعشرون: في الكلام على باب «مِنَ الدِّينِ الْفِرَارُ مِنَ الْفِتَنِ» ٤٣٦
المجلس الثالث والعشرون: في الكلام على باب: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّه» ٤٥٠
باب: تَفَاضُلِ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي الأَعْمَالِ ٤٦٦

المجالس الوعظية

في

شرح أحاديث خير البرية صلى الله عليه وسلم

من صحيح الإمام البخاري

تأليف

الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد

السفيري الشافعي

المتوفى ٩٥٦ هـ

حققه وخرج أحاديثه

أحمد فتحي عبد الرحمن

الجزء الثاني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4318-2

9 782745 143181 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

المجالس الوعظية

في

شرح أحاديث خير البرية ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الرابع والعشرون

في الكلام على باب ﴿فإن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾[التوبة: ٥] وعلى باب من قال: الإيمان هو العمل

قوله: «باب ﴿ فإن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾[التوبة: ٥]».

الرواية «بابٌ» بالتنوين ويجوز تركه بالإضافة، والتقدير على الأول: باب في تفسير قوله تعالى: ﴿فإن تَابُوا﴾ وعلى الثاني: باب تفسير قوله تعالى: ﴿فإن تَابُوا﴾ وإنما جعل الحديث الآتي تفسيراً للآية لأن المراد بالتوبة: الرجوع عن الكفر إلى التوحيد، يفسره قوله في الحديث: «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله».

ومعنى: «تَابُوا»: خلعوا الأوثان وأقبلوا على عبادة الرحمن، وهذه الآية آخر آية نزلت من القرآن على قول، والصحيح: أن آخر آية نزلت من القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إِلَى اللَّه﴾[البقرة: ٢٨١] إلى آخر الآية كما قدمنا ذلك.

قَالَ الْبُخَارِي: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ مُحَمَّد الْمُسْنَديُّ، قَالَ حَدَّثَنَا أبو رَوْحٍ الْحَرَمِيُّ ابْنُ عُمَارَةَ، قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاقد بْنِ مُحَمَّد، قَالَ سَمِعْتُ أبي يُحَدِّث، عَنِ ابن عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إله إلاَّ اللَّهُ وأن مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّه، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فإذا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإسلام، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه» (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها: قوله: «أمرت» أي: أمرني الله، لأنه لا آمر لرسول الله ﷺ إلا الله، وقياسه في الصحابي إذا قال: أمرت، فالمعنى أمرني رسول الله ﷺ ولا يحتمل أن يريد أمرني صحابي آخر، لأنهم من حيث إنهم مجتهدون لا يحتجون بأمر مجتهد آخر، وإذا قاله التابعي احتمل. والحاصل: أن من اشتهر بطاعة رئيس إذا قال ذلك فهم منه أن الآمر له هو ذلك الرئيس.

قوله: «أن أقاتل» أي: بأن أقاتل، وحذف الجار من «أن» كثير.

قوله: «حتى يشهدوا» جعلت غاية المقاتلة وجود ما ذكر، فمقتضاه: أن من شهد وأقام وآتى، عُصم دمه ولو جحد باقي الأحكام. والجواب: أن الشهادة بالرسالة تتضمن التصديق بما جاء به، مع أن نص الحديث وهو قوله: «إلا بحق الإسلام» يدخل فيه جميع ذلك. فإن قيل: فلم لم يكتف به ونص على الصلاة والزكاة؟ فالجواب: أن ذلك لعظمهما والاهتمام بأمرهما، لأنهما أمَّا العبادات البدنية والمالية. =

= قوله: «ويقيموا الصلاة» أي: يداوموا على الإتيان بها بشروطها، أو المراد بالقيام: الأداء -تعبيراً عن الكل بالجزء- إذ القيام بعض أركانها. والمراد بالصلاة: المفروض منها، لا جنسها، فلا تدخل سجدة التلاوة مثلا، وإن صدق اسم الصلاة عليها. وقال الشيخ محيي الدين النووي: في هذا الحديث: أن من ترك الصلاة عمداً يقتل. وسئل الكرماني هنا عن حكم تارك الزكاة، وأجاب: بأن حكمهما واحد لاشتراكهما فى الغاية، وكأنه أراد في المقاتلة، أما في القتل فلا. والفرق أن الممتنع من إيتاء الزكاة يمكن أن تؤخذ منه قهراً، بخلاف الصلاة، فإن انتهى إلى نصب القتال ليمنع الزكاة قوتل، وبهذه الصورة قاتل الصديق مانعي الزكاة، ولم ينقل أنه قتل أحداً منهم صبراً. وعلى هذا ففي الاستدلال بهذا الحديث على قتل تارك الصلاة نظراً للفرق بين صيغة أقاتل وأقتل. والله أعلم.

وقد أطنب ابن دقيق العيد فى شرح العمدة فى الإنكار على من استدل بهذا الحديث على ذلك، وقال: لا يلزم من إباحة المقاتلة إباحة القتل، لأن المقاتلة مفاعلة تستلزم وقوع القتال من الجانبين، ولا كذلك القتل.

وحكى البيهقي عن الشافعي أنه قال: ليس القتال من القتل بسبيل، قد يحل قتال الرجل ولا يحل قتله.

قوله: «فإذا فعلوا ذلك» فيه التعبير بالفعل عما بعضه قول، إما على سبيل التغليب، وإما على إرادة المعنى الأعم، إذ القول فعل اللسان.

قوله: «عصموا» أي: منعوا.

قوله: «وحسابهم على الله» أي: فى أمر سرائرهم، ولفظة «على» مشعرة بالإيجاب، وظاهرها غير مراد، فإما أن تكون بمعنى اللام أو على سبيل التشبيه، أي: هو كالواجب على الله فى تحقق الوقوع. وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر، والاكتفاء فى قبول الإيمان بالاعتقاد الجازم خلافاً لمن أوجب تعلم الأدلة، ويؤخذ منه ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد الملتزمين للشرائع، وقبول توبة الكافر من كفره، من غير تفصيل بين كفر ظاهر أو باطن.

فإن قيل: مقتضى الحديث قتال كل من امتنع من التوحيد، فكيف ترك قتال مؤدي الجزية والمعاهد؟ فالجواب من أوجه:

أحدها: دعوى النسخ بأن يكون الإذن بأخذ الجزية والمعاهدة متأخراً عن هذه الأحاديث، بدليل أنه متأخر عن قوله تعالى ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة: ٥].

ثانيها: أن يكون من العام الذى خص منه البعض، لأن المقصود من الأمر حصول المطلوب، فإذا تخلف البعض لدليل لم يقدح في العموم.

ثالثها: أن يكون من العام الذى أريد به الخاص، فيكون المراد بالناس في قوله: «أقاتل الناس» أي: المشركين من غير أهل الكتاب، ويدل عليه رواية النسائي بلفظ «أمرت أن أقاتل المشركين». فإن قيل: إذا تم هذا في أهل الجزية، لم يتم في المعاهدين، ولا فيمن منع الجزية. أجيب: بأن الممتنع فى ترك المقاتلة رفعها لا تأخيرها مدة كما فى الهدنة، ومقاتلة من امتنع من أداء الجزية بدليل الآية.

وقوله ﷺ: «**أمرت**» قال ابن حجر: معناه أمرني الله حيث لا آمر لرسول الله ﷺ إلا الله، وقياسه في الصحابي إذا قال: «**أمرت**» فالمعنى: أمرني رسول الله ﷺ ولا يحتمل أن يريد أمرني صحابي آخر، لأنهم من حيث أنهم مجتهدون لا يحتجون بأمر مجتهد آخر وإذا قاله التابعي احتمل، والحاصل: أن من اشتهر بطاعة رئيس إذا قال ذلك فهم منه أن الأمر له هو ذلك الرئيس.

والمراد «**بالناس**» عبدة الأوثان دون أهل الكتاب، لأن أهل الكتاب سقط عنهم القتال بقبول الجزية لقول الله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[التوبة: ٢٩].

والمعنى: أمرني ربي أن أقاتل عبدة الأوثان إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وإنما خص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنه يجب قتال من منع واجباً من واجبات الإسلام، لأنهما أصل العبادات البدنية والمالية، فلذلك تسمى الصلاة عماد الدين، والزكاة قنطرة الإسلام.

وقوله: «**فإذا فعلوا ذلك**» أي: قالوا أشهد أن لا إله إلا الله، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وفي قوله: «**فعلوا ذلك**» التعبير بالفعل عما بعضه قول إما على سبيل التغليب، وإما على إرادة المعنى الأعم إذا القول فعل ذلك.

ومعنى: «**وحسابهم على الله**» أي: إنما أدعى على أفعالهم الظاهرة، فلا أدع أحداً أن يترك فرضاً من فرائض الله تعالى، وإن يظلم أحداً فإن ما يخفون في بواطنهم ويسرون في ضمائر من النيات والعقائد فليس له إليه سبيل، فيثيب المخلص ويعاقب المنافق، ويجزي المصر بفسقه أو يعفو عنه، وليس معنى: «**على**» هنا الوجوب فإن الله لا يجب عليه شيء، بل يكون بمعنى اللام أي: على سبيل التشبيه أي: هو كالواجب

= رابعها: أن يكون المراد بما ذكر من الشهادة وغيرها: التعبير عن إعلاء كلمة الله وإذعان المخالفين، فيحصل في بعض بالقتل، وفي بعض بالجزية، وفي بعض بالمعاهدة.

خامسها: أن يكون المراد بالقتال هو، أو ما يقوم مقامه، من جزية أو غيرها.

سادسها: أن يقال: الغرض من ضرب الجزية اضطرارهم إلى الإسلام، وسبب السبب سبب، فكأنه قال: حتى يسلموا أو يلتزموا ما يؤديهم إلى الإسلام، وهذا أحسن، ويأتي فيه ما في الثالث وهو آخر الأجوبة، والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٧٥ — ٧٧).

على الله في تحقق الوجوب [١].

وفي هذا الحديث فوائد:

الأولى: وجوب قتال الكفار إذا طاقه المسلمون حتى يسلموا أو يبذلوا الجزية إن كانوا ممن تقبل منهم.

الثانية: وجوب قتال تاركي الصلاة والزكاة.

الثالثة: قتل تاركي الصلاة عمداً مع اعتقاد وجوبها.

واعلم أن مذهب الإمام الشافعي ﷺ أن من ترك صلاة واحدة من الصلوات الخمس كسلاً وهو يعتقد وجوبها لا يكفر، وإنما يكفر إذا جحد وجوبها، ولكنه يقتل إذا أخرجها عن وقت الجمع لهذا الحديث ولما رواه أبو داود وابن حبان أن النبي ﷺ قال: «**خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن فلم يضيع منهن استخفافاً بحقهن، كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة، ومن لم يأت فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة**» [٢] فلا يقتل بترك الظهر إلا إذا غربت الشمس، ولا يقتل بترك المغرب إلا إذا طلع الفجر، ويقتل بترك كل من العصر والعشاء والصبح إذا خرج وقتها.

قيل: تقول الملائكة لتارك الفجر يا فاجر، ولتارك الظهر يا خاسر، ولتارك العصر يا عاص، ولتارك المغرب يا كافر، ولتارك العشاء يا مضيع ضيعك الله.

وجاء في الخبر: «**من نام عن صلاة العتمة نادته الملائكة لا نامت عيناك ولا قرتا، حبسك الله بين الجنة والنار كما حبستنا**».

وينبغي أن يستتاب تارك الصلاة قبل قتله، واختلفوا هل هي واجبة أو مستحبة؟ ذهب جماعة إلى وجوبها لكن المرجح في التحقيق للنووي استحبابها، وإذا تاب تارك الصلاة بأن فعلها فإنه لا يقتل، واستشكل ذلك الأسنوي بأنه يقتل حداً والحدود لا

---

(١) قال ابن حجر في ذلك: ولفظة «على» مشعرة بالإيجاب وظاهرها غير مراد، فإما أن تكون بمعنى اللام أو على سبيل التشبيه أي: هو كالواجب على الله في تحقق الوقوع، وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة، والحكم بما يقتضيه الظاهر، والاكتفاء في قبول الإيمان بالاعتقاد الجازم خلافاً لمن أوجب تعلم الأدلة. انظر: فتح الباري (١/٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١/١١٥، رقم ٤٢٥)، وابن حبان (٥/٢٣، رقم ١٧٣٢). وأخرجه أيضاً: الطبراني فى الأوسط (٥/٥٦، رقم ٤٦٥٨)، والبيهقي (٢/٢١٥، رقم ٢٩٨٥)، والضياء (٨/٣٢٠، رقم ٣٨٥) جميعاً عن عبادة بن الصامت.

تسقط بالتوبة، والقتل على التأخير عن الوقت وقد وجد، وكيف تنفع فيه التوبة قال: وهذا كمن سرق نِصَاباً ثم رده فإن القطع لا يسقط.

وأجاب عنه الزركشي وقال: لا خلاف عندنا أن تارك الصلاة إذا تاب يترك، وقول من قال الحدود لا تسقط بالتوبة قضية كليتها غير مسلمة، فالحد لا يسقط في ثلاث صور: قاطع الطريق إذا تاب قبل القدر عليه، والذمي إذا زنا ثم أسلم كما نص عليه الشافعي، وتارك الصلاة إذا تاب.

وذهب أبو حنيفة وجماعة إلى أن تارك الصلاة عمداً يعزر ويحبس ولا يقتل، واختلف العلماء من الشافعية في صلاة الجمعة إذا تركها وقال أصلي عوضها ظهراً فقال الغزالي: لا يقتل لكن الذي رجحه النووي أنه يقتل بتركها، وإن كان يصلي الظهر لأنه لا يتصور قضاؤها، وليست الظهر قضاء عنها، وإذا ترك المكلف الوضوء وصلى بلا طهارة عمداً قتل عند الإمام الشافعي ﷺ لأن الامتناع منه امتناع من الصلاة، لأنه شرط لها لا تصح بدونه، وكذا إذا صلى لغير القبلة فإنه يقتل كترك الوضوء.

وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أن الإنسان إذا صلى بلا طهارة لغير القبلة يكفر، وأما إذا وجب على الإنسان التيمم لفقد الماء مثلاً فصلى بلا تيمم عمداً، فإن كان ذلك التيمم تسقط الصلاة به فهو كالوضوء يقتل بتركه، وإن كان لا تسقط الصلاة به فلا يقتل بتركه، وإذا نذر صلاة في وقت فتركها عمداً حتى خرج وقتها المعين لا يقتل، وإذا ترك فاقد الطهورين الصلاة عمداً مع إنها واجبة عليه لحرمة الوقت لا يقتل لاختلاف العلماء في وجوبها عليه.

وإذا قدم تارك الصلاة عمداً للقتل فأبدى عذراً كأن قال: تركتها ناسياً أو للبرد أو لعدم الماء ولنجاسة كلب ونحو ذلك من الأعذار فالمذهب لا يقتل.

فائدة: قال الإمام أحمد بن حنبل وبعض أصحاب الشافعي وجماعات من الصحابة: إن الإنسان المكلف إذا ترك الصلاة من غير جحة يكفر، وتجري عليه أحكام المرتدين فلا يورث ولا يغسل ولا يصلى عليه، وتبين منه امرأته واستدل على ذلك بحديث مسلم وغيره: «**إن بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**» [1].

---

(١) أخرجه مسلم (١/٨٨، رقم ٨٢) عن جابر بن عبد الله.

وحديث الترمذي: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**» [١].

وقال أبو هريرة وعبد الله بن شقيق العقيلي كما رواه الترمذي: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة [٢].

لكن جمهور العلماء كالإمام الشافعي وغيره لا يكفر إلا الجاحد بوجوبها، وأجاب عن هذه الأدلة بأنها على مقاربة الكفر وعلى كفر النعمة كقوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» [٣] على أن معناها أنه يستحق بترك الصلاة عقوبة الكافر وهي القتل، وإنما أولناها بهذا التأويل وإن كان خلاف الظاهر كما مر في الحديث السابق: «**ومن لم يأت فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة**» فلو كفر بذلك لامتنع دخوله الجنة.

ومن الأدلة على أن تارك الصلاة لا يكفر بتركها ما ورد في السنن: «**أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة مكتوبة، فإن أتمها وإلا قيل: انظروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك**» [٤].

وإذا قتل عند الشافعية حداً على ترك الصلاة فهو كسائر أهل الكبائر من المسلمين يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين ولا يطمس قبره.

وإذا ترك صوم رمضان عمداً وهو معتقد لوجوبه لا يقتل بحبس، ومنع من الطعام والشراب نهاراً، لأن الظاهر أنه ينويه لاعتقاد وجوبه عليه.

وإذا ترك الزكاة عمداً وامتنع من إعطائها للمستحقين لا يقتل ولكن تؤخذ منه قهراً ويعزر على تركها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/١٣، رقم ٢٦٢١)، وقال: حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضاً: النسائي (١/٢٣١، رقم ٤٦٣)، وابن ماجه (١/٣٤٢، رقم ١٠٧٩) جميعاً عن بريدة.

(٢) انظر: سنن الترمذي (٥/١٤، رقم ٢٦٢٢).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/٢٧، رقم ٤٨)، ومسلم في صحيحه (١/٨١، رقم ٦٤)، والترمذي في سننه (٤/٣٥٣، رقم ١٩٨٣) وقال: حسن صحيح. والنسائي في سننه (٧/١٢٢، رقم ٤١٠٨)، وابن ماجه في سننه (١/٢٧، رقم ٦٩) جميعاً عن ابن مسعود.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (١/٢٢٩، رقم ٨٦٤)، والترمذي في سننه (٢/٢٦٩، رقم ٤١٣) وقال: حسن غريب، والنسائي في سننه (١/٢٣٣، رقم ٤٦٦)، وابن ماجه في سننه (١/٤٥٨، رقم ١٤٢٥) جميعاً عن أبي هريرة.

وفي الحديث دلالة على أن من أظهر الإسلام وفعل الأركان نكف عنه، ولا نتعرض له.

وفيه دلالة على قبول توبة الزنديق، وهو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام وإن تكرر منه الارتداد والإسلام، وعند الإمام مالك لا تقبل توبته، نعم إن كان صادقاً نفعه الله تعالى.

وفيه دلالة على تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد الملتزمين للشرائع.

وفيه دليل على تحريم الامتناع من دفع الزكاة وعلى تحريم إخراج الصلاة عن وقتها، وقد نص العلماء على أن إخراج الصلاة عن وقتها عمداً من كبائر الذنوب وتجب المبادرة إلى قضائها.

قال ابن حزم: لا ذنب بعد الشرك أعظم من ترك الصلاة حتى يخرج وقتها، وقتل مؤمن بغير حق.

وقد ذم الله تعالى ورسوله من تركها قال الله تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾[مريم: ٥٩] وضمير «**بَعْدِهِم**» راجع إلى النبيين المذكورين قبل هذه الآية.

«**والخلف**» بسكون اللام يستعمل في الصالح «**والخلف**» بالفتح يستعمل في الصالح، ومعنى الآية: فخلف من بعد النبيين قوم سوء أضاعوا الصلاة أي: تركوا الصلاة المفروضة.

وقيل: معنى أضاعوها أخروها عن وقتها بأن لا يصلي الظهر حتى يدخل وقت العصر، ولا العصر حتى تغيب الشمس.

ومعنى: {**وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ**} أنهم ارتكبوا المعاصي كشرب الخمر أي: آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله.

{**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**} والغي قيل: نهر في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه.

وقيل: وادي في جهنم، وأن أودية جهنم نستعيد بالله من حرها أعدت للزاني المصر عليه، ولشارب لخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذي لا ينـــزع عنه، ولأهل العقوق، ولشاهد الزور، ولتارك الصلاة.

وقال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ [الماعون ٤، ٥] أي: مضيعون لوقتها.

فإن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال: «**هي إضاعة الوقت**» [١] وقيل: معنى {سَاهُونَ} لا يبالون صلوها أو لم يصلوها.

وقيل معناه: غافلون يتهاونون به.

وقيل معناه: أنهم الذين إن صلوها صلوها رياء، وإن فاتتهم لا يندموا عليها.

وقيل: لا يصلونها لوقتها ولا يتمون ركوعها وسجودها.

وقال رسول الله ﷺ: «**من يحافظ على الصلاة كانت له نوراً وبرهاناً [ونجاةً يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان] ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف**» [٢] رواه أحمد.

وقال ﷺ: «**أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، فإن فسدت فقد خاب وخسر**» [٣] حسنه الترمذي.

وقال ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا صلاة لمن لا طهور له، ولا دين لمن لا صلاة له، وإنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد**» [٤] رواه الطبراني.

قال العلماء: لا تسقط الصلاة عن الإنسان بعد بلوغه ما دام عاقلاً بحال.

قال الإمام الغزالي: ولو زعم زاعم أنه بلغ بينه وبين الله حالة أسقطت عنه الصلاة وأحلت له شرب الخمر وأكل مال السلطان، كما زعمه بعض المتصوفة فلا شك في وجوب قتله، وإن كان في دخوله في النار نظر، وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر، وإن ضرره أكثر.

فإذا عجز المكلف عن فعلها قائماً صلاها قاعداً، ولا ينقص ثوابه لأنه معذور.

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٢/٢١٤، رقم ٢٩٨٣) وقال: هذا الحديث إنما يصح موقوفا وعكرمة بن إبراهيم قد ضعفه يحيى بن معين وغيره من أئمة الحديث.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٦٩، رقم ٦٥٧٦) قال الهيثمي (١/٢٩٢): رجاله ثقات. وأخرجه أيضاً الدارمي في سننه (٢/٣٩٠، رقم ٢٧٢١)، والبيهقي فى شعب الإيمان (٣/٤٦، رقم ٢٨٢٣)، وعبد بن حميد في مسنده (١/١٣٩، رقم ٣٥٣) جميعاً عن ابن عمرو. وما بين المعكوفتين سقط من الأصل وأثبت من مسند أحمد.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة (٢/٢٦٩، رقم ٤١٣) وقال: حسن غريب.

(٤) أخرجه الطبراني فى الأوسط (٢/٣٨٣، رقم ٢٢٩٢)، وفى الصغير (١/١١٣، رقم ١٦٢)، قال الهيثمي (١/٢٩٢): تفرد به الحسين بن الحكم الحبري.

أما قوله ﷺ: «**من صلى قاعداً فله نصف أجر القائم**» [١] فهو محمول على المتنفل، وإن عجز على فعلها قاعداً صلى مضطجعاً على شقه الأيمن كما يوضع الميت في اللحد، ويجوز على الأيسر ولكن الأيمن أولى مراعاة للتيامن، فإن عجز الاضطجاع صلى مستلقياً على ظهره ورجلاه إلى القبلة، وإذا صلى مضطجعا أو مستلقياً وأمكنه الركوع والسجود وجب عليه فعلها، وإن لم يمكنه ذلك لشدة مرضه أومأ إلى صوب القبلة بالركوع والسجود، ويومئ بالسجود أشد من الركوع حيث يقرب رأسه من الأرض ليتميز الركوع عن السجود، فإن عجز عن الإيماء برأسه أومأ بطرفه، فإن عجز عن تحريك أجفانه والنطق بلسانه صلى بقلبه، بأن يجري الأفعال والقرآن والأذكار على قلبه فلا تسقط بحال إلا إذا أختل عقله.

وهنا فوائد متعلقة بتارك الصلاة:

الأولى: قال فقهاؤنا: لا قصاص ولا دية ولا كفارة على من قتل تارك الصلاة، بل دمه هدر إذا قتله المصلي، أما إذا قتله شخص آخر تارك الصلاة فيجب القصاص على القاتل، كالزاني المحصن إذا قتله مسلم لا يقتل إلا إن يكون القاتل مثله فإنه يقتل.

الثانية: لو خير الإنسان بين زواج ذمية بشرطه ومسلمة تاركة للصلاة كسلاً فالذمية أولى، لأن تاركة الصلاة إذا أصرت على تركها صارت مرتدة على مذهب أحمد بن حنبل فيصير في نكاحها خلاف، والذمية متفق على صحة نكاحها قاله ابن العماد.

الثالثة: إذا اشترى الإنسان رقيقاً عبداً أو جارية فوجده تارك الصلاة فهو عيب فيه، فللمشتري رده على البائع بذلك إن أراد.

الرابعة: يجوز غيبة تارك الصلاة لأنه يفسق، وقد ورد في الخبر: «**لا غيبة لفاسق**» [٢].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٥/١، رقم ١٠٦٤)، والترمذي في سننه (٢٠٧/٢، رقم ٣٧١) وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في سننه (٢٢٣/٣، رقم ١٦٦٠)، وابن ماجه في سننه (٣٨٨/١، رقم ١٢٣١) جميعاً عن عمرانْ بن حصين.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤١٨/١٩، رقم ١٠١١)، قال الهيثمي (١٤٩/١): فيه العلاء بن بشر ضعفه الأزدي. والبيهقي فى شعب الإيمان (١٠٩/٧، رقم ٩٦٦٥) وقال: قال أبو عبد الله (يعنى الحاكم): غير صحيح. وأخرجه أيضاً: القضاعي في مسند الشهاب (٢٠٢/٢، رقم ١١٨٥) جميعاً عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

الخامسة: نقل شهاب الدين الأذرعي عن فتاوى ابن البزري أنه يجب على الرجل أن يأمر زوجته بالصلاة، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢] وقال تعالى: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾[التحريم: ٦] قال: فإن أصرت على تركها فعليه إن يطلقها.

السادسة: وهي واقعة وقعت أيام الشيخ الإمام العالم الصالح سيدي عبد العزيز الديريني: شخص حلف بالطلاق أن لا يدخل على زوجته إلا في يوم مشؤم غير مبارك، فسأل العلماء عن ذلك فقالوا جميع الأيام مباركة متى ما دخلت عليها في يوم من الأيام وقع عليك الطلاق، ثم سئل الشيخ عبد العزيز الديريني فقال له: صليت اليوم شيئاً من الصلوات فقال: لا. فقال له الشيخ: ادخل عليها ولا يقع عليك الطلاق لأنه يوم مشؤم عليك غير مبارك بتركك الصلاة فيه.

لطيفة من نزهة المجالس: ركب بعض الأكابر في البحر، فرأى السمك يأكل بعضه بعضاً فتوهم أن القحط وقع في البحر، فهتف به هاتف أنه قد شرب من البحر رجل تارك الصلاة فلما علم ملوحته قذفه من فمه في البحر، فوقع القحط من ذلك في الماء للذي قذفه من فمه فيه.

أخرى: قال في نزهة المجالس: مر عيسى عليه السلام على قرية كثيرة الأشجار والأنهار والأرزاق فأكرمه أهلها فعجب من طاعتهم، ثم مر عليهم بعد ثلاث سنين فرأى الأشجار يابسة والأنهار ناشفة وهي خاوية على عروشها فتعجب من ذلك، فأوحى الله إليه أن قد مر على هذه القرية رجل تارك الصلاة فغسل وجهه في عينها فنشفت، ويبست الأشجار وخربت القرية، يا عيسى لما كان تارك الصلاة سبب لهدم الدين كان سبباً لخراب الدنيا.

أخرى: قال أبو الليث السمرقندي: حكي أن رجلاً دفن أختاً له ثم ذكر أنه نسي كيساً له في قبرها، فأتى القبر فنبشه فوجد الكيس، ثم رفع ما على اللحد فرأى القبر يشتعل ناراً، فسأل أمه عن عمل أخته، فقالت: كانت تؤخر الصلاة ولا تصلي بطهارة كاملة، وتأتي أبواب الجيران لتسمع حديثهم لتمشي بالنميمة.

قال شيخ الإسلام ابن حجر في فتح الباري في الكلام على التشهد: **فائدة:** قال القفال في فتاويه: ترك الصلاة يضر بجميع المسلمين، لأن المصلي يقول: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولابد أن يقول في التشهد السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فيكون مقصراً بخدمة الله وفي حق رسوله وفي حق نفسه وفي حق كافة المسلمين

ولذلك عظمت المعصية بتركها.

واستنبط منه السبكي: في الصلاة حقاً للعباد مع حق الله وإن تركها أخل بحق جميع المؤمنين من مضى ومن يجيء إلى يوم القيامة، لوجوب قوله فيها السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين [١].

***

(١) انظر: فتح الباري (٢/٣١٧).

قَالَ البُخَارِي:

باب مَنْ قَالَ: «إنَّ الإِيمَانَ هُوَ الْعَمَلُ»

لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿**وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٢] .

وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أهل الْعِلْمِ فِي قوله تَعَالَى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أجمعين * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] عَنْ قَوْلِ لاَ إله إلاَّ اللَّهُ .

وَقَالَ تعالى: ﴿**لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ**﴾ [الصافات: ٦١].

قوله: «باب من قال: الإيمان هو العمل لقول الله عز وجل ﴿**وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[الزخرف: ٧٢]»

مقصود البخاري بهذا الباب الرد على المرجئة القائلين: بأن العمل لا يحتاج إليه مع الإيمان، وغلط غلاتهم فقالوا: إن ناطق الشهادتين يدخل الجنة وإن لم يعتقدها.

وأراد «بالعمل» ما هو أعم من عمل القلب واللسان والجوارح، واستدل على ذلك بآيات من كتاب الله تعالى، وحديث عن رسول الله ﷺ.

الآية الأولى: ﴿**وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[الزخرف: ٧٢] يحتمل أن تكون مصدرية أي: بعملكم، ويحتمل أن تكون موصولة أي: بالذي كنتم تعملون، ووجه الاستدلال بها: لأن «**تَعْمَلُونَ**» بمعنى تؤمنون كما قاله المفسرون، فأطلقوا العمل وأريد به الإيمان، واستشكل العلماء هذه الآية وقالوا: الإرث يقتضي مورثاً، وهو الذي ينتقل منه الشيء بعد موته إلى غيره، ووارثاً هو الذي انتقلت إليه التركة، فإن أريد بالمورث في قوله: ﴿**أُورِثْتُمُوهَا**﴾ الله، فالله سبحانه وتعالى حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم فكيف يقال ورث الجنة للمؤمنين؟

وأجابوا عن هذا الإشكال بأوجه:

الأول: أن المورث هو الكافر فإن الكافر لولا كفره لكان له نصيب في الجنة، فلما مات كافراً انتقل نصيبه إلى المؤمن، بسبب كفره الذي هو موت روحه، فالمورث هم الكفار والورثة هم المؤمنون.

الثاني: أن المورث هو الله تعالى والإرث هنا مجاز عن الإعطاء على طريقة إطلاق الكل وإرادة الجزء.

واستشكل العلماء أيضاً من جهة أخرى وقالوا: إن ظاهرها يقتضي أن دخول العبد إنما هو بسبب عمله مع أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يدخل أحدكم الجنة**

بعمله» [١] فإن ظاهره يدل على أن العمل ليس سبباً لدخول الجنة.

وأجابوا عنه وجمعوا بين الآية والحديث من وجوه أحسنها كما قاله شيخ الإسلام ابن حجر: أن المنفي في الحديث دخولها بالعمل المجرد عن القبول، والمثبت في الآية دخولها في العمل المتقبل. والمقبول إنما يحصل برحمة الله تعالى فلم يحصل الدخول إلا برحمة الله تعالى [٢] وحاصل معنى الحديث: لن يدخل أحدكم الجنة بسبب عمله الذي لم يتقبل منه، ومعنى الآية: وتلك الجنة التي أورثتموها بسبب عملكم المقبول برحمة الله تعالى.

فالحاصل: أن الدخول برحمة الله وليس عمل العبد مستقلاً بدخولها فقد روى أبو نعيم من حديث أبي الزبير أن جابراً قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة، ولا يجيره من النار، ولا أنا إلا بتوحيد الله**» [٣] وإسناده على شرط مسلم.

نعم العمل نافع في الدرجات فقد نقل عن سفيان وغيره أنه قال: كانوا يقولون النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال.

وفي الحديث أيضاً: «**سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أن أحداً منكم لن ينجو بعمله، قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**» [٤] وهي سعة رحمة الله تعالى.

يقول الحسن: يقول الله تعالى يوم القيامة: جوزوا الصراط بعفوي، وادخلوا جنتي برحمتي، واقتسموها بأعمالكم.

وجاء في الحديث: «**ينادى مناد من تحت العرش: يا أمة محمد ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات، فتواهبوها فيما بينكم وادخلوا الجنة برحمتي**» [٥].

لطائف وأخبار في أن دخول الجنة برحمة الله:

اللطيفة الأولى: قال في الروض الفائق: قال عبد الواحد بن زيد رحمة الله تعالى:

---

(١) جزء من حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٧٣، رقم ٦١٠٢)، ومسلم في صحيحه (٤/٢١٧١، رقم ٢٨١٨).

(٢) انظر فتح الباري (١/٧٨).

(٣) الحديث أصله في صحيح مسلم (٤/٢١٧١، رقم ٢٨١٧).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٧٣، رقم ٦١٠٢)، ومسلم في صحيحه (٤/٢١٧١، رقم ٢٨١٨).

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس (٥/٤٩٦، رقم ٨٨٧١) عن أنس بن مالك.

خرجنا جماعة من الفقراء نريد سفراً في البحر، فعصفت الريح بنا فطردتنا إلى جزيرة في البحر فرأينا فيها رجلاً يعبد صنماً من دون الله فقلنا له: أي شيء تعبد؟ فأومأ بأصبعه إلى الصنم، فقلنا له: يا مسكين إن معنا في السفينة من يحسن أن يصنع مثل هذا، وإن هذا ليس إلهاً يعبد، قال: فأنتم تعبدون من؟ قلنا: نعبد الله. قال: وما الله؟ قلنا: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الأحياء والأموات قضاؤه. قال: فكيف علمتم به؟ قلنا: أرسل إلينا رسولاً أخبرنا بذلك. قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: لما أدى رسالة الملك قبضه إليه. قال: فما ترك عندكم علامة من الملك؟ قلنا: بلى ترك عندنا كتاب الملك. قال: أروني كتاب الملك فإن كتاب الملوك حسان. فأتيناه بالمصحف فقرأناه عليه سورة فما زال يسمع ويبكي إلى أن تممنا السورة فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعص، فأسلم فحملناه معنا وعلمناه شرائع الإسلام وشيئاً من القرآن، فلما أقبل الليل صلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا للنوم، فقال: يا قوم الإله الذي دللتموني عليه ينام؟ قلنا: لا يا عبد الله هو حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم. قال: فبئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام. فأعجبنا كلامه فلما وصل إلى عَبْادان[1] وأردنا أن نفترق جمعنا له دراهم، وقلنا: أنفق هذه عليك. فنظر إلينا مغضبا وقال: لا إله إلا الله دللتموني على طريق و لم تسلكوها، أنا كنت في جزيرة في البحر أعبد صنماً من دونه فلم يضيعني، فكيف الآن وقد عرفته. ثم تركنا، ومضى عبد الواحد فلما كان بعد ثلاثة أيام أتاني أت فأخبرني عنه أنه بأرض كذا وهو يعالج سكرات الموت فجئته وقلت له: ألك حاجة قال: قد قضى حوائجي من عرفتني به، فبينما أنا أكلمه إذ غلبتني عيناي فنمت، فرأيت في المنام روضة خضراء وفي الروضة قبة وفيها سرير وعليه جارية أجمل من الشمس والقمر وجهاً وهي تقول: سألتك بالله ألآ ما عجلت به علي فانتبهت فإذا به قد مات فجهزته ودفنته في قبر، فلما نمت رأيته في المنام في القبة التي رأيتها أولاً والجارية إلى جانبه وهو يتلو قوله تعالى: ﴿**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤] فهذا أسلم و لم يعمل إلا قليلاً، وقد تفضل عليه مولاه بدخول الجنة برحمته من غير عمل كثير، وهذا وإن كان مناماً فهو شيء يستأنس لما ذكرناه.

---

(١) هكذا بالأصل ويبدو أنه اسم مكان وصلوا إليه.

الثانية: ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وقال: «**خرج من عندي أخي جبريل آنفاً وقال: يا محمد والذي بعثك بالحق إن لله عبداً من عباده عبد الله تعالى خمسمائة عام على رأس جبل، عرضه وطوله ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، والبحر يحيط به أربعة آلاف فرسخ، من كل ناحية وأخرج الله له عيناً عذبة بعرض الأصبع تفيض بماء عذب، وأنبت شجرة رمان كل يوم تخرج رمانة، فإذا أمسى نزل إلى العين توضأ من الماء وأخذ الرمانة وأكلها تغنيه عن كل طعام، ثم يقوم إلى الصلاة فيصلي فسأل ربه عند وقت الأجل أن يقبضه إليه وهو ساجد ولا يجعل للأرض ولا لشيء على جسده سبيلاً حتى يبعثه وهو ساجد ففعل، قال جبريل: ونحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا صعدنا وهو ساجد، فنحن نجد في العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول الرب تبارك وتعالى: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول العبد: بل بعملي يا رب، فيقول: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي ثلاثاً، فيقول العبد: بل بعملي يا رب، فأين عبادتي خمسمائة عام فيقول الله: حاسبوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله، فوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة، وبقيت نعمة الجسد، فيقول: فأين عبادتي؟ فيقول الله تعالى: من خلقك ولم تك شيئاً؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: من قواك على عبادة خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: من أنزلك في هذا الجبل وأخرج لك عينا من الماء الزلال، وأنبت لك كل يوم رمانة، وإنما تخرج في السنة مرة، وسألتني أن أقبضك ساجداً ففعلت، قال: نعم يا رب، قال الله تعالى: فأعطني حق نعمتي عليك، قال: فبهت العبد بهتة شديدة فيقول الله تعالى: خذوه إلى النار فيسحبوه حتى إذا أشرف على جهنم التفت إلى الله تعالى كالمتوسل فيقول الله وهو أعلم: ما تريد يا عبدي؟ فيقول: إلهي أنعمت علي في الدنيا برحمتك، وردني إلى الجنة برحمتك فيؤمر به إلى الجنة، ويقول جل جلاله: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي فنعم العبد كنت، يا عبدي إنما الأشياء برحمة الله**» [1]. ذكر هذا الخبر الترمذي الحكيم في نوارد الأصول في الأصل السابع.

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/٩٤)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٢٧٨، رقم ٧٦٣٧) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي فى شعب الإيمان (٤/١٥٠، رقم ٤٦٢٠) جميعاً عن جابر.

الثالثة: ذكر الإمام الغزالي في كتاب كشف علوم الآخرة: أنه يؤتى برجل يوم القيامة فما يجد حسنة يرجح بها ميزانه، وقد اعتدل ميزانه بالسوية فيقول الله تعالى: هل لك من حسنة، إذهب في الناس فالتمس من يعطيك حسنة ترجح ميزانك وتدخل الجنة، قال: فيحوس بين خلال العالمين فما يجد أحداً يكلمه في ذلك الأمر إلا يقول: أنا خائف من خفة ميزاني، قال: فييأس، فيقول له رجل: ما الذي تطلب؟ فيقول: حسنة واحدة يرجح بها ميزاني، فيقول ذلك الرجل: نظرت أنا في صحيفتي فما وجدت فيها سوى حسنة واحدة فما أظنها تغني عني شيئاً إلا أن يرحمني بكرمه، فخذها هبة مني لك، فينطلق فرحاً مسروراً فيقول الله تعالى له: ما بالك؟ وهو أعلم، فيقول: يارب كل الخلائق ما نظر منهم أحد لي سوى عبدك هذا، فينادي سبحانه وتعالى بصاحبه الذي وهبه الحسنة، ويقول له: يا عبدي لأي شيء وهبته الحسنة فيقول: إلهي نظرت في صحيفتي فما رأيت فيها سوى حسنة واحدة، فقلت: إذا كان المولى كريماً فما تنفع الحسنة للعبد السقيم، فيقول سبحانه وتعالى: كرمي يا عبدي أوسع من كرمك، خذ بيد صاحبك فادخلا الجنة بكرمي ورحمتي.

وروى أبو موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أمتي أمة مرحومة، عجل عقابها في الدنيا بالزلازل والفتن، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب، فيقال: هذا فداؤك من النار**» (١).

وقال ﷺ: «**يتجلى الله تبارك وتعالى لنا يوم القيامة ضاحكاً يقول: أبشروا يا معشر المسلمين، فإنه ليس أحد منكم إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً ونصرانياً**» (٢).

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام في ورقة، ثم وضعها على العرش ثم نادى: يا أمة محمد إن رحمتي سبقت غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم من قبل أن تستغفروني، من لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي**

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤١٠، رقم ١٩٦٩٣)، والحاكم في المستدرك (٤/٢٨٣، رقم ٧٦٤٩) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي فى شعب الإيمان (٧/١٤٨، رقم ٩٧٩٩)، والروياني في مسنده (١/٣٣٤، رقم ٥٠٥).

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٠٧، رقم ١٩٦٧١)، وعبد بن حميد في مسنده (١/١٩١، رقم ٥٤٠) كلاهما عن أبي موسى.

أدخلته الجنة» [١].

ولله در القائل:

ذنوبي كثيرة ما أطيق احتمالها ... وعفوك عن ذنبي أجل وأكبر
وقد وسعتني رحمة منك ... وإني لها يوم القيامة أفقر

وقيل: إن الله تعالى إذا أراد أن يستر عبده يوم القيامة ولا يفضحه على رؤوس الأشهاد، فيعطيه كتابه بيمينه وهو مشحون بالسيئات، وذلك العبد خائف مما في الكتاب، لعلمه أن ذنوبه كثيرة فيقرأ في الوجه الذي فيه السيئات سراً ويقول في نفسه: ليس لي حسنة واحدة، وتقول الخلائق: سبحان الله ليس في كتاب هذا العبد سيئة واحدة فإذا فرغ من قراءته يقول الله تبارك وتعالى عبدي: هذه حسناتك في ظهر كتابك أظهرتها لخلقي، وسترت عنهم سيئاتك في الدنيا والآخرة، يا ملائكة امضوا به إلى الجنة بعفوي ورحمتي.

ولقد أحسن من قال:

يا من له ستر عليَّ جميل ... هل لي إليك إذا اعتذرت قبول
أيدتني ورحمتني وسترتني ... كرماً فأنت لمن رجاك كفيل
وعصيت ثم رأيت عفوك واسعاً ... وعليَّ سترك دائماً مسبول
فلك المحامد والممادح في الثناء ... يا من هو المقصود والمسئول

وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**إن رجلين ممن يدخل النار يشتد صياحهما فيقول الله تعالى: أخرجوهما ثم يقال: لأي شيء صياحكما؟ فيقولان: فعلنا كذلك لترحمنا، فيقول: إن رحمتي بكما أن تنطلقا فتلقيا أنفسكما في النار حيث كنتما، فينطلقان فيلقي أحدهما نفسه فيجعلها عليه برداً وسلاماً، ويقوم الآخر فلا يلقي نفسه، فيقول له الرب تبارك وتعالى: ما منعك أن تلقي نفسك كما ألقى صاحبك نفسه، فيقول: يا رب إني لأرجو أن لا تعيدني فيها بعد أن أخرجتني منها، فيقول الرب تبارك وتعالى: لك رجاؤك فيدخلان معاً الجنة برحمة الله**» [٢].

وقال بكر بن سليم الصواف: دخلنا على مالك بن أنس ﷺ في العشية التي قبض

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٤/٤١٥، رقم ٧٢٠٦) عن عمرو بن عبسة.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٧١٤، رقم ٢٥٩٩) عن أبي هريرة، قال الترمذي: إسناد هذا الحديث ضعيف.

فيها فقلنا له: يا عبد الله كيف تجدك؟ قال: لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من لطف الله ورحمته ما لم يكن لكم في حساب، فما برحنا من عنده حتى غمضناه.

وقيل: إن الله سبحانه وتعالى ألطف وأرحم ما يكون بعبده إذا وضع في لحده ووضع خشن التراب على لين جلده، وجفاه من كان يرغب في قبوله ووده، فإذا وضع الميت على المغتسل أولاً، ودرج في ثيابه، وآيس من أحبابه فينادى: واسوأتاه وافضيحتاه، ولا يسمع نداءه إلا مولاه، فيجيه الحق جل جلاله ويقول: أنا سترتك في الدنيا وأنا أسترك في الآخرة.

وقال لله دره:

يا من له ستر الجميل على الورى ... ويجود بالإفضال منه وبالقرى
ايدتني ورحمتني وسترتني ... وهديتني لطفاً وكنت مقصرا
وارحم بعفوك زلتي يا سيدي ... ومصون وجهي في التراب معفرا

وإذا خرج الميت من الدار على النعش فإنه يصيح: واغربتاه، فيقول الحق سبحانه وتعالى: عبدي إذا كنت اليوم غريباً فإني منك ما زلت قريباً، لا تخف فإني مقيل عثرتك، وراحم عبرتك، ومؤنس وحدتك.

وقال لله دره:

يا راحم الغرباء من جوده ... قد عمني يا مؤنسي في وحدتي
أمسيت من أهلي غريباً مفرداً ... ولأنت يا مولاي راحم غربتي

فإذا وضعوه في اللحد ووضعوا خشن التراب على لين جلده، ثم تركوه وانصرفوا ومضوا عنه فيصيح: يا وحدتاه، فيناديه الكريم الرؤوف الرحيم: عبدي هل تستوحش وأنا أنيسك، هل تشكو الوحدة وأنا جليسك، يا عبدي ألست بربك؟ فيقول: بلى يا ربي، فيقول: كيف تركت ما أمرتك به وتبعت ما نهيتك عنه، أما علمت أن مرجعك إليّ، وأعمالك معروضة علي وبين يدي، أنسيت عهدي أم أنكرت وعيدي ووعدي، فالآن تخلى عنك الصاحب والصديق، وتجردت عن المال الوثيق، فلا المال نفعك في مآلك، ولا الصديق خلصك من قبح أفعالك، فما حجتك ومعذرتك؟ فيقول: يارب احتوى على قلبي حب الدنيا وحب المال، فحملاني على الذنوب والأثقال وها أنا قد صرت في دوارك وأنا الليلة ضيفك، فلا تعذبني بنارك، وإن لم ترحمني أنت فمن يرحمني؟ فيقول الله تعالى: يا عبدي مضوا عنك وتركوك، ولو أقاموا عندك ما نفعوك، إلى بابي وجهوك، وعلى كرمي خلفوك، يا عبدي طب نفساً وقر عيناً فأنت الليلة

ضيفي، والكريم لا يخيب ضيفه، يا ملائكتي أحسنوا في ضيافته وكونوا عليه أشفق من أهله وقرابته، ولله در القائل حيث قال:

إذا ما الموت في جسمي السقيم ... سرى وأتى على عظمي الرميم
وبت مجاور الرب الكريم ... فقولوا لي وافى نعيمي
لك البشرى قدمت على كريم
تولى العمر واقترب الرحيل ... وزادي من التقى زاد قليل
وفي لحدي إذا حان النزول
فهنئوني أحبائي وقولوا ... لك البشرى قدمت على كريم

وقيل: إن موسى عليه السلام قال في بعض مناجاته: يارب. فقال له: لبيك يا موسى. فقال موسى عليه السلام: يارب أنت أنت فمن أنا حتى تجبني بالتلبية؟ فقال: يا موسى إني آليت على نفسي أنه لا يدعوني عبد من عبادي بالربوبية إلا أجبته بالتلبية. فقال موسى: يارب هذا لكل عبد طائع؟ قال: ولكل عبد مذنب. قال: يارب أما الطائع فبطاعته فما بال المذنب؟ قال الله تعالى: يا موسى إني إذا جازيت المحسن بإحسانه، وضيعت المسيئ لإساءته فأين جودي وكرمي.

تعصي وتجهر بالعصيان إعلاناً ... وأستر الذنب إنعاماً وإحسانا
ولا أجازي مسيئاً في إساءته ... ولا الذي في العصيان عدوانا
ومن أتى ببابنا بالذل منكسراً ... نعطيه من فضلنا عفواً وغفرانا

ثم استدل البخاري رضي الله عنه على استعمال العمل بمعنى الإيمان لأجل الرد عل المرجئة بالآية الثانية فقال: «وقال عدة من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أجمعين * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] عن قول لا إله إلا الله»

المعنى: وقال جماعة من أهل العلم من الصحابة التابعين وغيرهم منهم أنس وابن عمر ومجاهد أن المراد بقوله: ﴿**يَعْمَلُونَ**﴾ في قوله تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أجمعين * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾: هو قول لا إله إلا الله، فأطلق العمل على قولهم وأريد به عمل الإنسان فقط، ومقتضى الآية على تفسيرهم: أن المكلفين لا يسألون يوم القيامة إلا عن قول لا إله إلا الله فقط.

فقد اعترضه النووي فقال: الظاهر أن المراد لنسألنهم عن أعمالهم كلها أي: الأعمال التي يتعلق بها التكليف، والتخصيص بقول لا إله إلا الله دعوى لا دليل لها.

وقد استشكل العلماء هذه الآية بقوله تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ**﴾[الرحمن: ٣٩] فإن هذه الآية تعارض الآية التي ذكرها البخاري، وبيانه: أن قوله تعالى ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[الحجر: ٩٢] تدل على أن كل أحد يسأل يوم القيامة، وقوله تعالى ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ**﴾[الرحمن: ٣٩] تدل على أنه لا يسأل أحد في القيامة، وقد جمع العلماء بين الآيتين من وجوه:

الأول: أن في القيامة مواقف مختلفة وأزمنه متطاولة، أعاننا الله الكريم على أهوالها ففي موقف أو زمان يسألون، وعليه يحمل قوله: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ**﴾[الرحمن: ٣٩].

الثاني: المراد بقوله تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ**﴾[الرحمن: ٣٩] أنهم لا يسألون سؤال استخبار بل سؤال التوبيخ وتقريع.

الثالث: أن المراد لا يسأل عن ذنبه غيره من الإنس والجان كما لا يحمل ذنبه غيره كما قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[الأنعام: ١٦٤].

ثم استدل البخاري بالآية الثالثة فقال: «وقال الله ﷻ: ﴿**لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ**﴾[الصافات: ٦١] والمعنى: لمثل هذا الفوز العظيم فليؤمن الكافرون، فأطلق العمل وأراد به الإيمان.

***

قَالَ الْبُخَارِي: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ وَمُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالاَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ فَقَالَ «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ «حَجٌّ مَبْرُورٌ» (١).

قوله: «حدثنا أحمد بن يونس وموسى بن إسماعيل، قال: أنبانا إبراهيم بن سعد قال: حدثنا ابن شهاب عن سعيد بن المسيب» هذا هو إمام التابعين سعيد بن المسيب ابن حزن القرشي المخزومي، من الفقهاء وأبيه وجده صحابيان.

والمسيب بفتح الياء على المشهور وقيل: بكسرها، وكان يكره فتح الياء ويحب أن يقال المسيب بكسر الياء، واجتمع بعمر وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وسمع منهم الأحاديث، وروى عنهم وعن أبي هريرة، وكان زوجاً لابنته وأعلم الناس بحديثه،

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها: قوله: «سئل» أبهم السائل وهو أبو ذر الغفاري.

قوله: «قيل ثم ماذا؟ قال: الجهاد» وقع في مسند الحارث أبي أسامة عن إبراهيم ابن سعد «ثم جهاد» فواخى بين الثلاثة في التنكير، بخلاف ما عند المصنف. وقال الكرماني: الإيمان لا يتكرر كالحج، والجهاد قد يتكرر، فالتنوين للإفراد الشخصي، والتعريف للكمال. إذ الجهاد لو أتى به مرة مع الاحتياج إلى التكرار لما كان أفضل. وتعقب عليه بأن التنكير من جملة وجوهه التعظيم، وهو يعطي الكمال. وبأن التعريف من جملة وجوهه العهد، وهو يعطي الإفراد الشخصي، فلا يسلم الفرق. قلت: وقد ظهر من رواية الحارث التي ذكرتها أن التنكير والتعريف فيه من تصرف الرواة، لأن مخرجه واحد، فالإطالة في طلب الفرق في مثل هذا غير طائلة، والله الموفق.

قوله: «حج مبرور» أي: مقبول ومنه بَرَّ حجك. وقيل: المبرور الذى لا يخالطه إثم. وقيل: الذى لا رياء فيه.

فائدة قال النووي: ذكر في هذا الحديث الجهاد بعد الإيمان، وفي حديث أبي ذر لم يذكر الحج وذكر العتق، وفي حديث ابن مسعود بدأ بالصلاة ثم البر ثم الجهاد، وفي الحديث المتقدم ذكر السلامة من اليد واللسان. قال العلماء: اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال، واحتياج المخاطبين، وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون وترك ما علموه، ويمكن أن يقال: إن لفظة «من» مرادة كما يقال: فلان أعقل الناس، والمراد من أعقلهم، ومنه حديث: «خيركم خيركم لأهله» ومن المعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس.

فإن قيل: لم قدم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن؟ فالجواب: إن نفع الحج قاصر غالباً، ونفع الجهاد متعد غالباً، أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين -ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر- فكان أهم منه فقدم والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٧٨).

وأخذ عن خلق من الصحابة وأخذ عنه خلق من التابعين وغيرهم، واتفق العلماء عل جلالته وأمانته، وهو أفضل التابعين كما قاله أحمد بن حنبل.

وأما ما ورد في صحيح مسلم من أن «**خير التابعين رجل يقال له أويس**» [١] فهو محمول على أنه أفضل في الزهد، وأما سعيد بن المسيب فإنه أفضل التابعين في العلم الشرعي قاله النووي [٢].

ومن فضائله ﷺ أنه جاء رجل وهو مريض مضطجع على شقه فسأله عن حديث من أحاديث رسول الله ﷺ فجلس بمشقة وحدثه به، فقال الرجل: وددت أنك حدثتني عنه وأنت مضطجع حتى لا تجهد نفسك، فقال: كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع [٣].

ومن فضائله أيضاً: أنه صلى صلاة الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة [٤].

وقال مولاه: ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد [٥].

ومن كلامه ﷺ: لا تمدوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة [٦].

ومن كلامه أيضاً: ما أكرمت العباد نفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله [٧].

ومنه أيضاً: كفى نصرة من الله إن يرى عدوه يعمل بمعصية الله [٨].

ومنه أيضاً: من استغنى بالله افتقر إليه الناس [٩].

ومنه أيضاً: إن الدنيا نذلة، فهي إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها بغير

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٦٨/٤، رقم ٢٥٤٢) عن عمر.

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٩٥/١٦).

(٣) أورده أبو نعيم في الحلية (١٦٩/٢).

(٤) أورده أبو نعيم في الحلية (١٦٣/٢).

(٥) أورده أبو نعيم في الحلية (١٦٣/٢).

(٦) أورده أبو نعيم في الحلية (١٧٠/٢)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٣٢/٤).

(٧) أورده أبو نعيم في الحلية (١٦٤/٢).

(٨) أورده أبو نعيم في الحلية (١٦٤/٢).

(٩) أورده أبو نعيم في الحلية (١٧٣/٢)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٣٩/٤).

حقها، وطلبها بغير وجهها، ووضعها في غير سبلها [١].

مات ﷺ في خلافة الوليد بن عبد الملك بالمدينة سنة ثلاث وتسعين «سنة الفقهاء» لكثرة من مات فيها منهم.

«عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أفضل قال: إيمان بالله ورسوله قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: جح مبرور».

السائل لرسول الله ﷺ هذا السؤال هو أبو ذر ﷺ.

والجهاد هو: القتال مع الكفار لأجل إعلاء كلمة الله، وإنما كان أفضل بعد الإيمان بالله ورسوله من غيره لأنه بذل النفس في سبيل الله، قال بعضهم: والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

قال الحليمي: لولا دفع الله المشركين بالمؤمنين وتسليط المؤمنين على دفعهم عن بيضة الإسلام، لقلب الشرك على الأرض وارتفعت الديانة، فثبت أن سبب بقاء الدين هو الجهاد.

وهو أفضل من العزلة والتفرغ للعبادة فقد أخرج ابن عساكر بإسناده عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بخير الناس منـــزلة رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، إلا أخبركم بخير الناس منـــزلة بعده رجل معتزل في غنم له يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد الله لا يشرك به شيئاً**» [٢].

وكتب عبد الله بن المبارك إلى فضيل بن عياض وهو بمكة يحثه على الجهاد، وكان الفضيل قد اعتزل الناس ولازم العزلة والعبادة وترك الجهاد فقال:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت إنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبحية تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في ... أنف امرء ودخان نار تلهب

---

(١) أورده أبو نعيم في الحلية (٢/١٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٥٢٣، رقم ١٠٧٨٩)، والحاكم في المستدرك (٢/٧٧، رقم ٢٣٧٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلما سلمت إليه هذه الأبيات ذرفت عيناه ثم قال: صدق عبد الله ونصحني [١].

وظاهر الحديث يقتضي أن الجهاد أفضل من الحج، وهو محمول على حج النافلة، وأما حجة الإسلام فإنها أفضل من الجهاد، هذا إذا كان الجهاد فرض كفاية، أما إذا كان فرض عين فإنه مقدم على حجة الإسلام قطعاً لوجوب فعله على الفور.

والحج هو قصد الكعبة لأجل النسك مع الوقوف بعرفة والحج المبرور قيل: هو المقبول، ومن علامة قبول حج الإنسان أنه إذا رجع يكون حاله خيراً من الحال الذي كان قبله، وقيل: هو الذي لا رياء فيه، وقيل: هو الذي لا يعقبه معصية، وقيل: هو الذي لا يرتكب فيه المعاصي، قال بعضهم:

فمن كان بالمال الحرام حجيجه فعن حجة والله ما كان غناه

إذا هو لبى الله كان جوابه من الله لا لبيك حجك رددناه

***

(١) أورده ابن عساكر في التاريخ (٣٢/٤٤٩).

المجلس الخامس العشرون

في الكلام على باب: كفران العشير وكفر دون كفر وما في حديثه من الفوائد واللطائف

قَالَ البُخَارِي:

باب كُفْرَانِ الْعَشِيرِ وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ فيه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ

قوله: «**باب كفران العشير وكفر دون كفر**» قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرحه على هذا الصحيح: أراد البخاري في ترجمته أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيماناً. كذلك المعاصي تسمى كفراً. وإطلاق الكفر عليها مجاز بمعنى كفر النعمة لا كفر الحجة.

و«**العشير**» بمعنى معاشر وهو الزوج. بمثل كيل بمعنى مواكل.

قيل له: عشير لأنه يعاشر المرأة وتعاشره. وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[النساء: ١٩] فكفران مصدر مضاف إلى المفعول والفاعل متروك.

والمعنى: باب إنكار المرأة وجحدها إحسان زوجها إليها. وخص هذا الذنب بالذكر دون غيره من الذنوب وأطلق عليه الكفر لرقيقة بديعة. وهي قوله ﷺ: «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» (١) وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية كان ذلك دليلاً على تناولها بحق الله تعالى. فلذلك أطلق عليها الكفر لكنه كفر نعمة لا يخرج عن الملة.

قال الإمام النووي: ويجوز أن يراد «بالعشير» الخليط والصاحب أي: مطلق المعاشر سواء كان زوجة وغيرها. فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل. والمعنى: باب كفران الصاحب إلى إنكار الصاحب والمخالط إحسان صاحبه مخالطه.

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ مَسْلَمَةَ. عَنْ مَالك. عَنْ زَيْد بْنِ أسلم. عَنْ عَطَاء بْنِ يَسَار. عَنِ ابن عَبَّاس. قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكثر أهلها النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ**» . قِيلَ: **أَيَكْفُرْنَ بِاللَّه قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ. وَيَكْفُرْنَ الإحسان. لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»** .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣/٤٦٥. رقم ١١٥٩). وقال: حسن غريب. والبيهقي في سننه الكبرى (٧/٢٩١. رقم ١٤٤٨١) عن أبي هريرة.

وها هنا فوائد بعضها مستفاد من الحديث والبعض الآخر بطريق المناسبة:

الأولى: الكفر قد يطلق على غير الكفر بالله بأن يراد كفر النعمة أي: إنكارها ودليل هذه الفائدة من الحديث قوله: «**يكفرن العشير. ويكفرن الإحسان**» ويؤخذ منه صحة تأويل الكفر في أحاديث بكفر النعمة والحقوق كقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» [1] المعنى: لا ترجعوا بعدي كفاراً للنعمة والحقوق.

ومثله قوله ﷺ: «**أيما عبد أبق من مواليه فقد كفر حتى يرجع إليهم. فقد كفر حقهم ونعمتهم**» [2].

الثانية: ينبغي لولي الأمر وأصحاب الولايات وكبار السن أن يعظوا رعاياهم واتباعهم. ويحذروهم من المخالفات لأوامر الله تعالى ونواهيه. ويحرضوهم على الطاعات.

الثالثة: للمتعلم أن يراجع العالم فيما سمعه منه إذا لم يظهر له معناه ليبينه له.

الرابعة: دل الحديث المذكور على أن كفران الحقوق. وجحد الإحسان حرام معدود من كبائر الذنوب. ويدل على ذلك أن النبي ﷺ توعد من فعل ذلك بالنار. فجحد المرأة إحسان زوجها عليها. كأن قالت: ما رأيت منك خيراً قط. حرام معدود من كبائر الذنوب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦/١. رقم ١٢١). ومسلم في صحيحه (٨١/١. رقم ٦٥) عن جرير.

وأخرجه البخاري في صحيحه (٢٥١٨/٦. رقم ٦٤٧٤). وأبو داود في سننه (٢٢١/٤. رقم ٤٦٨٦). والنسائي في سننه (١٢٦/٧. رقم ٤١٢٥). وابن ماجه في سننه (١٣٠٠/٢. رقم ٣٩٤٣) عن ابن عمر.

وأخرجه البخاري في صحيحه (٢٥٩٣/٦. رقم ٦٦٦٧). والنسائي في سننه (١٢٧/٧. رقم ٤١٣٠) عن أبي بكرة.

وأخرجه البخاري في صحيحه (٦١٩/٢. رقم ١٦٥٢). والترمذي في سننه (٤٨٦/٤. رقم ٢١٩٣) عن ابن عباس. وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٣/١. رقم ٦٨). وأحمد في مسنده (٣٦٥/٤. رقم ١٩٢٦٣). والطبراني في المعجم الكبير (٣٢٠/٢. رقم ٢٣٣٢). والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٢/٦. رقم ٨٥٩٦) جميعاً عن جرير.

وكذا كل من وصل إليه إحسان من غيره. سواء كان ذلك الإحسان مالاً أو علماً أو جلب نفع أو دفع ضرر. إذا أنكره وجحده. كأن قال: فلان لم يفعل معي خيراً قط. حرام وكبيرة.

فإذا قرأ إنسان على غيره قرآناً أو علماً من العلوم أو سلكه أو رباه أو دله طريق من طرق أهل الخير ونحو ذلك. ثم أنكر ذلك. وقال: فلاناً لم أقرأ عليه شيئاً. أو لم يسلكني. أو ليس بشيخي. أو لم أنتفع به. أو نحو ذلك فهو حرام. لما في ذلك من جحد النعمة التي وصلت إليه.

وإنما كان جحد النعمة حراماً معدوداً من الكبائر لأن المرأة إذا جحدت نعمة زوجها فقد جحدت نعمة الله. لأن هذه النعمة التي وصلت إليها من زوجها هي بالحقيقة واصلة من الله.

قال شيخ الإسلام تاج الدين السبكي: اعلم أن كل من وصل إليك على يديه خير من المخلوقين فهو في قبضة رب العالمين. فاشكره وحده لا تشرك به أحداً. واعلم أن المخلوق مضطر. سلط الله عليه الإرادة. وألقى في قلبه أن يعطيك فلم يجد بعد ذلك سبيلاً إلى دفعك. ولا يعطيك إلا لغرض نفسه. لا لغرضك. ولو لم يكن له غرض في الإعطاء لما أعطاك ولو لم يعتقد أن له نفعاً لما نفعك. فهو إذاً إنما يطلب نفع نفسه بنفعك. ويتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى يرجوها لنفسه. وما أنعم عليك إلا الذي سخره لك. وألقى في قلبه ما حمله على الإحسان عليك.

وهنا سؤال وهو أن يقال: إذا كان المنعم بالحقيقة هو الله. وأن النعمة التي صدرت من العبد إنما هي من الله أجراها على يد العبد. فلأي شيء يستحق العبد شكر هذه النعمة كما ورد في سنن أبي داود عن أبي هريرة رسول الله ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[1].

وفي الترمذي: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»[2] لفظ آخر: «**من لم يشكر**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٢٥٥ رقم ٤٨١١). وابن حبان في صحيحه (٨/١٩٨. رقم ٣٤٠٧). وأحمد في مسنده (٢/٢٩٥. رقم ٧٩٢٦). والطيالسي في مسنده (ص: ٣٢٦. رقم ٢٤٩١). والبيهقي في سننه الكبرى (٦/١٨٢. رقم ١١٨١٢). والبخاري في الأدب المفرد (١/٨٥. رقم ٢١٨). والقضاعي في مسند الشهاب (٢/٣٥. رقم ٨٢٩). والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٥١٦. رقم ٩١١٧) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة (٤/٣٣٩ رقم ١٩٥٤) وقال: حسن صحيح.

الناس لم يشكر الله»[١].

وفي حديث آخر: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر**»[٢].

وفي حديث آخر: «**إن أشكر الناس لله أشكرهم للناس**»[٣].

فهذه الأحاديث تدل عل استحقاق العبد الشكر عن صدور النعمة منه.

فالجواب: أن الشارع ﷺ إنما حث على شكرك إياه لا لكون النعمة صدرت منه. بل لكونها جرت على يده. فإذا شكرته عليها حمله ذلك الشكر على أن يزيد من فعل الخير. والمنعم بالحقيقة هو الله. فإذا شكرت عبداً لكونه أحسن إليك في الدنيا فإن شكره لكون الشارع ﷺ أمر بذلك. لا لاعتقاد أنه فاعل ذلك. فإن شكرته معتقداً أن النعمة صدرت منه كنت مشركاً لا شاكراً. فإن العبد لا ينفع ولا يضر وربما تغير عليك. وانقلب حبه غضباً بأيسر الأسباب. والمحسن على الدوام الذي لا يتغير ولا يحول ولا يزول رب الأرباب.

الخامسة: دل الحديث على تعذيب جاحد الإحسان. وعلى أن إيمان النساء يزيد بشكر نعمة العشير.

السادسة: نساء الجنة مطهرات من الحيض والنفاس والبول والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر. وكل أذى يكون من نساء الدنيا. وطهر الله بواطنهن من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة. وطهر لسانهن من الفحش والنطق بالكلام السيئ. وطهر طرف كل واحدة منهن من إن تنظر به إلى غير زوجها. وطهر أثوابهن من أن يعرض لها دنس أو وسخ. ويدل على ذلك كله قوله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أزواج مُّطَهَّرَةٌ**﴾[البقرة: ٢٥].

قيل: كانت أولاً حواء على صفة نساء الجنة مطهرة من الحيض وغيره. فلما أكلت

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٩/٤. رقم ١٩٥٥) وقال: حسن صحيح. وأحمد في مسنده (٣ /٣٢. رقم ١١٢٩٨). وأبو يعلى في مسنده (٣٦٥/٢. رقم ١١٢٢) عن أبي سعيد.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٣٧٥/٤. رقم ١٩٣٧٠). والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٦/٦. رقم ٩١١٩).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٥. رقم ٢١٨٩٥). والضياء المقدسي في المختارة (٣٠٦/٤. رقم ١٤٩٠). والبيهقي في السنن الكبرى (١٨٢/٦، رقم ١١٨١٣). والطيالسي في مسنده (ص: ١٤١، رقم ١٠٤٨) عن الأشعث بن قيس.

من الشجرة ابتلاها الله بالحيض وغيره.

السابعة: نساء الدنيا وهن الآدميات في الجنة أفضل وأحسن من الحور العين. ويدل على هذا ما رواه الطبراني عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾[الواقعة: ٢٢] قال: «**حور عين ضخام العيون**» إلى أن قلت: يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «**بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الطهارة على البطانة**» قلت: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: «**بصلاتهن وصيامهن وبعبادتهن الله. ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير بيض الألوان. خضر الثياب. صفر الحلي. مجامرهن الدر. وأمشاطهن الذهب. يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبداً. ونحن الناعمات فلا نبتئس أبداً. ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً. ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً. طوبى لمن كنا له وكان لنا**» [(١)].

الثامنة: الحور جمع حوراء. سميت بذلك قيل: لأن الطرف يحار فيها من رقة جلدها وصفاء لونها. «**العين**» جمع «**عيناء**» وهي العظيمة العين من النساء.

قال العلامة ابن القيم: من محاسن المرأة اتساع عينها في طول. وضيق العين في المرأة من العيوب. وإنما ينبغي الضيق منها في أربعة مواضع: في وجهها وصدرها وكاهلها وهو ما بين كتفها وجبينها. وينبغي القصر منها في أربعة وهي معنوية: لسانها ويدها ورجلاها وعينها. فتكون قاصرة الطرف قصيرة الرجل عن الخروج واللسان عن كثرة الكلام. قصيرة اليد بتناول ما يكره الزوج وعن بذله. وينبغي الرقة منها في أربعة: خصرها وفرقها وحاجبها وأنفها [(٢)].

التاسعة: الحور مخلوقات من الزعفران لم يلدهن آدم ولا حواء. أنشأهن الله في الجنة من غير ولادة بين الآباء والأمهات.

وقيل: خلقهن الله من الزعفران وغيره. فقد ورد في أثر عن ابن عباس أنه قال: «**خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتها من الزعفران. ومن ركبتها إلى ثديها من المسك الأذفر. ومن ثديها إلى عنقها من العنبر. ومن عنقها إلى رأسها من**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٦٧/٢٣. رقم ٨٧٠). وفي الأوسط (٢٧٨/٣. رقم ٣١٤١). قال الهيثمي (١١٩/٧): فيه سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى.

(٢) انظر: حادي الأرواح لابن القيم (١٥١/١).

الكافور الأبيض» [١].

وروى أبو نعيم عن أنس يرفعه: «**لو أن حوراء بصقت في سبعة أبحر لعذبت البحار من عذوبة فمها**» [٢].

كما قيل:

فلو بصقت في البحر والبحر مالح لأصبح ماء البحر من ريقها عذباً

وروي: «**لو أن يداً من الحور العين دليت من السماء لأضاءت لها الأرض كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا**» [٣] هذه اليد فكيف بالوجه مع بياضه وحسنه وجماله.

العاشرة: قالوا: إن الحور العين يعلمن بأزواجهن في الدنيا. فلا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله. فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا.

وورد أنهن يدعون لأزواجهن يقلن: «اللهم أعنه على دينك. وأقبل بقلبه على طاعتك. وبلغه بعزتك يا أرحم الراحمين» [٤].

الحادي عشر: إذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة الموت هل تموت الحور من نفخه كما يموت غيرهن؟

ذهب أبو حنيفة وطائفة إلى أنهن لا يمتن وأنهن مما استثنى الله تعالى بقوله: ﴿**فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾[الزمر: ٦٨].

قال المفسرون: دخل تحت قوله: ﴿**إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾ الحور والولدان وغيرهما. ويقوي هذا ما ورد في الحديث: «**أنهن يقلن نحن الخالدات فلا نبيد**» [٥].

الثاني عشر: الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله: ﴿**يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ**

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٢٠٦/١٧). والمناوي في فيض القدير (٤٤٩/٣) وعزاه لابن الملقن في شرح البخاري.

(٢) أورده ابن القيم في حادي الأرواح (١٦٢/١) وعزاه لأبي نعيم.

(٣) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٩/٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا جلوسا مع كعب يوماً فقال... الحديث. وقال المنذري: رواه ابن أبي الدنيا وفي إسناده عبيد الله بن زحر.

(٤) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٩/٤) وقال: رواه ابن أبي الدنيا مرسلاً عن عكرمة.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه (٦٩٦/٤. رقم ٢٥٦٤) وقال: غريب. وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٥٦/١. رقم ١٣٤٢) عن علي ﷺ.

مُّخَلَّدُونَ﴾[الواقعة ١٧] هل هم أولاد المسلمين الذين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة يكونون خدماً لأهل الجنة. لأن الجنة لا ولادة فيها. وكذلك قيل في أطفال المشركين: إن الله يجعلهم خدم أهل الجنة.

قال ابن القيم: والأشبه أن هؤلاء ولدان مخلوقون من الجنة كالحور العين خدماً لهم وغلماناً قال تعالى: **﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾**[الطور: ٢٤] وهؤلاء غير أولادهم. فإن من تمام كرامة الله أن يجعل أبناءهم مخدومون معهم ولا يجعلهم غلمانهم [(١)].

الثالثة عشر: هل النساء في الجنة أكثر أم الرجال وكذلك في النار؟

مقتضى الحديث الذي ذكره البخاري وهو قوله: «**أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء**» أي: أن النساء في النار أكثر. واختلفت الروايات في هذه المسألة ففي بعض الروايات ما يدل على أن النساء في الجنة أكثر وفي بعضها ما يدل على أن الرجال في الجنة أكثر. وجمع العلماء بين الروايات وقالوا: إن النساء في الجنة أكثر بالحور العين وأما نساء الدنيا فهن في الجنة أقل من الرجال وفي النار أكثر.

قال القرطبي: محل كون نساء الدنيا في الجنة أقل يحتمل أن يكون في وقت كون النساء في النار. أما بعد خروجهن بالشفاعة ورحمة الله حتى لا يبقى فيها أحد ممن مات على التوحيد فالنساء في الجنة أكثر والله اعلم.

وهذا جمع حسن ومحصله: أن النساء في الجنة أقل من الرجال. وفي النار أكثر منهم حالة الدخول. وأما بعد الشفاعة فهم في الجنة أكثر.

الرابعة عشر: إذا وطئ الإنسان في الجنة ثم قام عنها رجعت مطهرة بكر كما ورد في الحديث عنه ﷺ قال: «**إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً**» [(٢)] ولا ينـــزل منه ولا منها المني. لا يملها ولا تمله ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء. ولا يلحق أهل الجنة بالجماع جنابة فيحتاجون إلى التطهير. لا تكليف في الجنة ولا ضعف. ولا إنحال قوة بل وطئهم وطئ التلذذ لا آفة فيه بوجه من الوجوه. وأكمل الناس لذة في الجماع في الجنة أصونهم لنفسه في هذه الدار من الحرام. فمن زنا في الدنيا فقد كمال لذة الجماع في الآخرة إن مات من غير توبة. ونظير هذا من شرب الخمر في

---

(١) انظر: حادي الأرواح (١/١٤٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١/١٦٠. رقم ٢٤٩). قال الهيثمي (١٠/٤١٧): فيه معلى بن عبد الرحمن الواسطي وهو كذاب. وأبو الشيخ في العظمة (٣/١٠٨١. رقم ٥٨٣) عن أبي سعيد.

الدنيا لم يشربها في الآخرة. ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة. ومن أكل في صحائف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة قال عليه الصلاة والسلام: «**إنه لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**» [١] فمن استوفى طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حرمها الله عليه في الآخرة. هذا إذا مات من غير توبة فمن ترك اللذة المحرمة لله استوفاها يوم القيامة أكمل ما تكون. ومن استوفى هنا حرم هناك أو نقص كمالهم.

الخامسة عشر: زوجة الإنسان في الدنيا هي زوجته في الآخرة. فإن تزوجت بأزواج قيل: تخير بين الأزواج.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: إذا كانت المرأة ذات أزواج فهي لمن مات عنها من الأزواج آخراً. وعلى هذا جماعة من العلماء. فلهذا حرم الله نساء النبي ﷺ بعده على أمته حتى لا يكن مع غيره يوم القيامة.

قال حذيفة لامرأته: «إذا سرك أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تتزوجي من بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها» [٢].

ولما مات أبو الدرداء خطب زوجته معاوية فأبت وقالت سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المرأة لآخر أزواجها في الآخرة**» وقال: «إن أردت أن تكوني زوجتي في الآخرة فلا تتزوجي من بعدي» [٣].

قال في نزهة المجالس: مات رجل من بني إسرائيل وخلف امرأة وثلاث بنات. فلما انقضت عدتها تزوجت. فلما كان قبل الدخول بليلة رأت زوجها الأول مهموماً في المنام فسألته وقالت له: كيف حالك؟ قال: ما أسرع ما نسيتيني. قالت: ما نسيتك؟ فقال: لو لم يقع النسيان لما تزوجت بفلان. فلما أصبحت أخبرت نبي ذلك الزمان بما رأته وقالت: يا نبي الله أسأل فلاناً أن يطلقني فسأله فطلقها. فأوحى الله إليه قل للمرأة:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢١٣٣. رقم ٥٣١٠). ومسلم في صحيحه (٣/١٦٣٨. رقم ٢٠٦٧). وأبو داود في سننه (٣/٣٣٧. رقم ٣٧٢٣). والترمذي في سننه (٤/٢٩٩. رقم ١٨٧٨) وقال: حسن صحيح. والنسائي في سننه (٨/١٩٨. رقم ٥٣٠١). وابن ماجه في سننه (٢/١١٣٠. رقم ٣٤١٤) عن حذيفة.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/٦٩. رقم ١٣١٩٩).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/٢٧٥. رقم ٣١٣٠). وفي الشاميين (٢/٣٥٩. رقم ١٤٩٦). وقال الهيثمي (٤/٢٧٠): فيه أبو بكر بن أبي مريم وقد اختلط.

لما عاملت زوجها بالوفاء غفرنا ما كان بينه وبينها من الجفاء وأعطيناها بكل شعره على بدنها جارية تخدمها ونجمع بينها وبين زوجها في الجنة.

وقيل: إنها تكون لأحسن الزوجين خلقاً. فسألت أم حبيبة زوجة النبي ﷺ: المرأة يكون لها زوجان في الدنيا ثم يموتون فيجتمعون في الجنة لأيهما تكون الأول أو للآخر؟ قال: «**هي لأحسنهما خلقاً كان معها. يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة**» (١).

السابعة عشر: قال أبو هريرة ﷺ يتزوج أحدكم بفلانة بنت فلان بالمال الكثير. ويتزوج بالحور العين باللقمة والتمرة والكسرة.

قال مالك بن دينار: كان لي أجزاء أقرأؤها كل ليلة. وإذا أنا في المنام بجارية ذات حسن وجمال وبيدها رقعة فقالت لي: أتحسن القراءة؟ فقلت: نعم فدفعت إلي الرقعة فإذا فيها مكتوب هذه الأبيات:

لهاك النوم عن طلب الأماني ... وعن تلك الأوانس في الجنان
تعيش مخلداً لا موت فيها ... وتلهو في الخيام مع الحسان
تنبه من منامك إن خيراً ... من النوم التهجد بالقرآن

الثامنة عشر: في الحديث دلالة على التحذير من كيد النساء وفتنتهن. وقد دل الكتاب والسنة على ذلك وعلى أن فيهن صالحات قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ**﴾[الفتح: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...**﴾[الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية.

وسبب نزول هذه: أن النساء قلن يا رسول الله قد ذكر الله الرجال دون النساء فما فيهن من خير فأنزلها الله ﷻ. فقرن الله تعالى ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين.

وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما في الرجال. وفي النساء من لها الأوراد

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (١/٣٦٥. رقم ١٢١٢). والطبراني في الكبير (٢٣/٢٢٢. رقم ٤١١).

قال الهيثمي (٨/٢٤): فيه عبيد بن إسحاق وهو متروك وقد رضيه أبو حاتم وهو أسوأ أهل الإسناد حالاً.

والسياحات والكشوفات وغير ذلك من الخصوصيات. التي خصهن الله تعالى بها. ولكن الصالحات قليلٌ بالنسبة إلى غيرهن فقد قال رسول الله ﷺ: «**مثل المرأة الصالحة في النساء إلا كمثل الغراب الأعصم**» [١] أي: الأبيض.

مضى في الصدر الأول من النساء الصالحات كثير مثل رابعة العدوية من فضائلها: أنها كانت تصلي الليل كله فإذا قرب طلوع الفجر هجعت في محرابها هجعة خفيفة حتى يطلع الفجر ثم تقوم وهي فزعة تقول: «يا نفس كم تنامين يوشك أن تنامين نومة لا تقومين إلا يوم النشور» فكان هذا دأبها حتى ماتت [٢].

من كراماتها: أنها نامت فجاء اللص فأخذ ثيابها ثم أراد الخروج فلم يجد الباب فهتف هاتف إن كان المحب نائماً فالمحبوب يقظان. ضع الثياب وأخرج من الباب.

ولقلة الصالحات فيهن وكثرة ضررهن وشؤمهن ذمهن الله ورسوله. وحذر الرجال منهن قال الله تعالى في كتابه العزيز في حقهن: ﴿**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**﴾[يوسف: ٢٨].

وقال رسول الله ﷺ: «**الدنيا حلوة خضرة. وإن الله مستخلفكم فيها. فينظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**» [٣].

وقال عمر: «إلتجئوا إلى الله من شرار النساء واحذروا خيارهن».

وفي وصية لقمان لابنه: «اتق المرأة السوء فإنها تشيبك قبل الشيب. واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير. وكن من خيارهن على حذر» [٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠١/٨. رقم ٧٨١٧) عن أبي أمامة.
قال الهيثمي (٢٧٣/٤): فيه مطرح بن يزيد. وهو مجمع على ضعفه.

(٢) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٤٢/٨).

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في سننه (٤٨٣/٤. رقم ٢١٩١) وقال: حسن صحيح. والطيالسي في مسنده (ص: ٢٨٦. رقم ٢١٥٦). وأحمد (١٩/٣. رقم ١١١٥٩). وعبد ابن حميد في مسنده (٢٧٣/١. رقم ٨٦٤). وأبو يعلى في مسنده (٣٥٢/٢. رقم ١١٠١). والحاكم في المستدرك (٥٥١/٤. رقم ٨٥٤٣). والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٩/٦. رقم ٨٢٨٩) عن أبي سعيد.

(٤) أورده العزالي في إحياء علوم الدين (٤٤/٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**» [١].

وقال الحسن رحمه الله: «والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله في النار» [٢].

ومن كلام علي ﷺ: «أيها الناس لا تطيعوا النساء على حال. ولا تأمنوهن على مال. فإنهن أفسدن الممالك. وعصين المالك. وجدناهن لا دين لهن في خلواتهن. ولا ورع لهن في شهواتهن. واللذة بهن يسيرة. والحيرة بهن كثيرة. فأما صوالحهن ففاجرات. وأما طوالحهن فعاهرات. وأما المعصومات منهن لمعدومات. فيهن ثلاث خصال من اليهود يتظلمن وهن ظالمات. ويحلفن وهن كاذبات. ويتمنعن وهن راغبات فاستعيذوا بالله من شرارهن وكونوا على حذر من خيارهن» [٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**ألا هلك الرجال حين أطاعوا النساء**» [٤].

وقال عمر ﷺ: «خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة» [٥].

وقال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الزوجة» [٦].

قال الغزالي رحمه الله: فإنما ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها وقد تعس. فإن الله ملكه المرأة فملكها نفسه. فإذا ملكها نفسه فقد عكس الأمر وأطاع الشيطان كما قال تعالى: ﴿**وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ**﴾[النساء: ١١٤] إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً[٧].

قال الغزالي: وكان نساء العرب العرباء يعلمن بناتهن اختبار الأزواج. كانت المرأة تقول لابنتها: اختبري زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه. انزعي زج رمحه. فإن سكت لذلك فقطعي اللحم على ترسه. فإن سكت فكسري العظام بسيفه. فإن صبر فاجعلي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٦٠٠. رقم ٦٦٨٦). والترمذي في سننه (٤/٥٢٧. رقم ٢٢٦٢). وقال: حسن صحيح. وأخرجه النسائي في سننه (٨/٢٢٧. رقم ٥٣٨٨). وأحمد (٥/٥١. رقم ٢٠٥٣٦) عن أبي بكرة.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١/٢٨٠). وأبو نعيم في الحلية (٦/١٩٨).

(٣) انظر: كشف الخفاء (٢/٨١).

(٤) أورده الذهبي في الكبائر (١/١٣٤).

(٥) أخرجه البغوي في الجعديات (١/٤٣٦. رقم ٢٩٧١).

(٦) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/٥). والذهبي في إحياء علوم الدين (٢/٤٤).

(٧) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٤٤).

الأكاف على ظهره وامتطيه فإذا هو حمارك [١].

وحكي عن جعفر بن محمد الصادق ﷺ قال: كان في بني إسرائيل رجل صالح وله امرأة جميلة فرآها شاب فعشقته وصنعت له مفتاحاً يدخل عليها متى شاء. فقال زوجها لها في بعض الأيام: قد انكرت حالك فلا بد أن تحلفي لي على عدم الخيانة. قالت: نعم. فلما خرج من عندها ودخل الشاب فأخبرته بذلك. فقال: كيف الخلاص؟ فقالت: إلبس ثياب المكاري وخذ حماراً وقف على باب المدينة. فلما جاء زوجها وطلب يمينها على جبل معظم عندهم يحلفون عنده. فخرجت معه فلما وصلت إلى باب المدينة ورأت المكاري قالت: لابد من ركوبي. فأركبها فلما صعدوا الجبل ألقت نفسها عن الحمار فانكشف شيء من بدنها فرآها زوجها والمكاري. ثم حلفت وقالت: والله ما رأني غيرك إلا هذا المكاري. ولبست عليه فظن أنها تريد أن رأها حين ألقت نفسها عن الحمار. فاضطرب الجبل من تحتهم اضطراباً شديداً فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[إبراهيم: ٤٦].

وشتان ما بين هذه المرأة وبين ما حكي أن رجلاً فاسقاً دخل على امرأة عفيفة. وكان له مدة يتطلبها. فلما دخل عندها قال لها: امضي أغلقي أبواب الدار جميعاً وأحكمي إغلاقها. فمضت المرأة ثم عادت وقالت قد أغلقت سائر الأبواب وأوثقت إغلاقها سوى باب واحد. فإني عجزت عن إغلاقه. فقال: أي باب؟ فقالت: الباب الذي بيننا وبين الخالق جلت عظمته. ما قدرت عليه ولا استطيع أن أغلقه وهو مفتوح بحاله. فوقع في نفس الرجل من هذا الكلام الهيبة وتاب وأخلص التوبة وأقلع عن ذنبه وعاد إلى طاعة ربه.

حكى الغزالي في كتابه نصيحة الملوك: أن ملكاً كان يقال له: «خسرير» وكان يحب أكل السمك كان يوماً جالساً في المنطرة وامرأته «شيرين» عنده. فجاء الصياد ومعه سمكة كبيرة فأهداها إلى «خسرير» ووضعها بين يديه فأعجبته. فأمر له بأربعة ألاف درهم. فقالت شيرين: بئس ما فعلت. قال: ولما؟ قالت: لأنك إذا أعطيت بعد هذا لأحد من حشمك هذا القدر احتقره وقال: أعطاني عطية الصياد. وإن أعطيته أقل منه قال: أعطاني أقل مما أعطى الصياد. فقال خسرير: لقد صدقت ولكن يقبح بالملوك أن يرجعوا في هباتهم وقد فات هذا. قالت شيرين: أنا أدبر هذه الحالة. فقال:

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٤٥).

كيف ذلك؟ فقالت: تدعو الصياد وتقول له هذه السمكة أذكر أم أنثى. فإن قال ذكر فقل: إنما أردنا أنثى. وإن قال هذه السمكة أنثى فقل: إنما أردنا ذكراً. فأقبل الصياد فقالت له ذلك. فقبل الصياد الأرض وقال: هذه السمكة خنثى لا ذكر ولا أنثى. فضحك خسرير من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى. فمضى الصياد إلى الخازن فقبض منه ثمانية آلاف درهم. ووضعها في جراب كان معه. وحملها على عنقه وهم بالخروج فوقع منه درهم واحد. فوضع الصياد الجراب عن كاهله. وانحنى إلى الدرهم وأخذه. والملك وشيرين ينظران إليه فقالت شيرين: أيها الملك أرأيت إلى خسة هذا الرجل وسفالته سقط منه درهم واحد فألقى عن ظهره ثمانية آلاف. وانحنى عليه فأخذه ولم يسهل عليه أن يتركه ليأخذه بعض الغلمان. فغضب خسرير من ذلك وقال: صدقت يا شيرين ثم أمر بإعادة الرجل وقال له: يا ساقط الهمة لست بإنسان وضعت مثل هذا المال عن عنقك لأجل درهم واحد. وأسفت أن تتركه في مكانه. فقبل الصياد الأرض وقال: أطال الله بقاء الملك إنني لم أرفع ذلك الدرهم لخطر عنده. وإنما رفعته من الأرض لأن على أحد وجهيه صورة الملك. وعلى الوجه الآخر اسمه فخشيت أن يضع أحد قدمه فأكون أنا المأخوذ بالذنب. فعجب خسرير من كلامه واستحسن ما ذكره فأمر بأربعة آلاف أخرى. فعاد الصياد من عند الخازن بإثنا عشر ألف درهم. فأمر خسرير مناديا ينادي: لا يتدبرن أحد برأي النساء. فإنه إن تدبر برأيهن. وأتمر بأمرهن خسر درهمه درهمين.

***

المجلس السادس والعشرون

في الكلام على شيء من ترجمة أبي ذر وفي الكلام على قوله ﷺ له: «إنك امرؤ فيك جاهلية»

قَالَ الْبُخَارِي:

باب الْمَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّة

وَلاَ يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلاَّ بِالشِّرْكِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : **«إِنك امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»** . وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨].

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاصِلٍ الأَحْدَبِ، عَنِ الْمَعْرُورِ، قَالَ لَقِيتُ أبا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلاً، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ **«يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنك امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخوانكم خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»**(١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «وعليه حلة وعلى غلامه حلة» هكذا رواه أكثر أصحاب شعبة عنه، لكن في رواية الإسماعيلي من طريق معاذ عن شعبة «أتيت أبا ذر، فإذا حلة عليه منها ثوب وعلى عبده منها ثوب» وهذا يوافق ما في اللغة أن الحلة ثوبان من جنس واحد، ويؤيده ما في رواية الأعمش عن المعرور عند المؤلف في الأدب بلفظ: «رأيت عليه بردا وعلى غلامه بردا فقلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة» وفى رواية مسلم «فقلنا: يا أبا ذر، لو جمعت بينهما كانت حلة» ولأبي داود «فقال القوم: يا أبا ذر، لو أخذت الذي على غلامك فجعلته مع الذي عليك لكانت حلة» فهذا موافق لقول أهل اللغة، لأنه ذكر أن الثوبين يصيران بالجمع بينهما حلة، ولو كان كما في الأصل على كل واحد منهما حلة لكان إذا جمعهما يصير عليه حلتان، ويمكن الجمع بين الروايتين بأنه كان عليه برد جيد تحته ثوب خلق من جنسه وعلى غلامه كذلك، وكأنه قيل له: لو أخذت البرد الجيد فأضفته إلى البرد الجيد الذي عليك وأعطيت الغلام البرد الخلق بدله لكانت حلة جيدة، فتلتئم بذلك الروايتان، ويحمل قوله في حديث الأعمش «لكانت حلة» أي: كاملة الجودة، فالتنكير فيه للتعظيم. والله أعلم.

وقد نقل بعض أهل اللغة أن الحلة لا تكون إلا ثوبين جديدين يحلهما من طيهما، فأفاد أصل =

«أبو ذر» هذا هو الصحابي الكبير أبو ذر ويقال فيه: أبو الذر أيضاً، واسمه جندب بضم الجيم وضم الدال، «ويجوز» فتح الدال، «ابن جنادة» بضم الجيم وبالنون «ابن سفيان الغفاري».

«وغفار» بكسر الغين المعجمة قبيلة من كنانة، أسلم قديماً كان رابع أربعة في الإسلام، وخامس خمسة، أسلم بمكة ثم رجع إلى بلاده بأذن رسول الله ﷺ فأقام بها

= تسمية لحلة. وغلام أبي ذر المذكور لم يسم، ويحتمل أن يكون أبا مراوح مولى أبي ذر، وحديثه عنه في الصحيحين. وذكر مسلم في الكنى أن اسمه سعد.

قوله: «فسألته» أي: عن السبب في إلباسه غلامه نظير لبسه، لأنه على خلاف المألوف، فأجابه بحكاية القصة التي كانت سبباً لذلك.

قوله: «سابيت» في رواية الإسماعيلي «شاتمت» وفي الأدب للمؤلف «كان بيني وبين رجل كلام» وزاد مسلم «من إخواني» وقيل: إن الرجل المذكور هو بلال المؤذن مولى أبي بكر، وروى ذلك الوليد بن مسلم منقطعاً.

ومعنى «سابيت»: وقع بيني وبينه سباب بالتخفيف، وهو من السب بالتشديد وأصله القطع. وقيل: مأخوذ من السبة وهي حلقة الدبر، سمي الفاحش من القول بالفاحش من الجسد، فعلى الأول المراد قطع المسبوب، وعلى الثاني المراد كشف عورته لأن من شأن الساب إبداء عورة المسبوب.

قوله: «فعيرته بأمه» أي: نسبته إلى العار، زاد في الأدب «وكانت أمه أعجمية فنلت منها» وفي رواية «قلت له: يا ابن السوداء» والأعجمي: من لا يفصح باللسان العربي سواء كان عربياً أو عجمياً، والفاء في «فعيرته» قيل: هي تفسيرية كأنه بين أن التعيير هو السب، والظاهر أنه وقع بينهما سباب وزاد عليه التعيير فتكون عاطفة، ويدل عليه رواية مسلم قال: «أعيرته بأمه؟ فقلت: من سب الرجال سبوا أباه وأمه. قال: إنك امرؤ فيك جاهلية» أي: خصلة من خصال الجاهلية. ويظهر لي أن ذلك كان من أبي ذر قبل أن يعرف تحريمه، فكانت تلك الخصلة من خصال الجاهلية باقية عنده، فلهذا قال كما عند المؤلف في الأدب «قلت: على ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: نعم» كأنه تعجب من خفاء ذلك عليه مع كبر سنه، فبين له كون هذه الخصلة مذمومة شرعا، وكان بعد ذلك يساوي غلامه في الملبوس وغيره أخذاً بالأحوط، وإن كان لفظ الحديث يقتضي اشتراط المواساة لا المساواة.

وفي السياق دلالة على جواز تعدية «عيرته» بالباء، وقد أنكره ابن قتيبة وتبعه بعضهم، وأثبت آخرون أنها لغة. وقد جاء في سبب إلباس أبي ذر غلامه مثل لبسه أثر مرفوع أصرح من هذا وأخص، أخرجه الطبراني من طريق أبي غالب عن أبي أمامة أن النبي ﷺ أعطى أبا ذر عبداً فقال: «أطعمه مما تأكل، وألبسه مما تلبس» وكان لأبي ذر ثوب فشقه نصفين، فأعطى الغلام نصفه، فرآه النبي ﷺ فسأله فقال: قلت يا رسول الله: «أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون» قال: نعم. انظر فتح الباري (١/٨٦ — ٨٧).

حتى مضت غزوة بدر والخندق، قدم المدينة على رسول الله ﷺ وصحبه إلى أن توفى ﷺ وكان ﷺ في أيام الجاهلية يعبد صنماً وكان لا يفارقه في حضر ولا سفر، فخرج به يوماً إلى السفر فوضعه في مكان ووضع عنده حوائجه وأمتعته، وقال: أيها الصنم احفظ حوائجي حتى أعود، ثم ذهب لحاجة، فلما ذهب جاء الثعلب وبال عليه، فلما رجع أبو ذر وجده مبلولاً فقال: السماء لم تمطر فمن أين هذا البلل؟ ثم نظر في الأرض فوجد أثر الثعلب، فعلم أنه بول الثعلب فمقته ورمق بطرفه نحو السماء وأنشد يقول ﷺ:

أرب يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب

برئت من الأصنام في الأرض كلها ... وآمنت بالله الذي هو غالب

وترك عبادة الأصنام وكان ذلك قبل بعثه النبي ﷺ، وهو أحد الجماعة الذين آمنوا قبل البعثة وتركوا عبادة الأصنام.

قال البغوي في تفسيره: الذين آمنوا قبل البعثة حبيب النجار، وقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر، وسلمان الفارسي ووفد النجاشي [1].

وزاد ابن الجوزي في كتابه التلقيح جماعة أخرين آمنوا قبل البعثة.

وفي ذكر «حبيب النجار» مع الجماعة الذين آمنوا قبل البعثة إشارة إلى أنه كان عبداً صالحاً، و لم يكن نبياً.

وهذه المسألة وقع فيها خلاف فالذي ذهب إليه أكثر أهل التفسير كما قاله ابن الأثير في الكامل: أنه كان رجلاً صالحاً و لم يكن نبياً.

والذي ذهب إليه أكثر أهل السير: أنه كان نبياً. وقيل: كان نبياً مرسلاً إلى أصحاب الرس.

وأبو ذر زاهد هذه الأمة، شبهه النبي ﷺ بعيسى بن مريم، وأفاد بعضهم بأنه إنما كني بأبي ذر لأنه ﷺ كان عنده خبز، فطلع عليه الذر فوزنه والذي عليه فلم يزد شيئاً فقال: انظروا إلى هذا الذر لم يظهر له أثر في ميزان الدنيا، و لم يرجح بسبه الميزان، وميزان الآخرة مع عظمه يطيش ويرجح بذرة واحدة فكني بأبي ذر.

و«الذر» هو النمل الأحمر الصغير واحده «ذرة».

قال النووي: ويحل قتله دون النمل الأسود.

---

(١) انظر تفسير البغوي (١/٧٩).

روي له عن رسول الله ﷺ مائتا حديث وإحدى وثمانون حديثاً، ذكر البخاري منها أربعة عشر.

وكان مذهب أبي ذر: أنه يحرم على الإنسان ما زاد عن حاجته.

وصفته: أنه كان طوالاً أبيض الرأس واللحية، سيره عثمان إلى الربذة، وتوفي بها في سنة ثنتين وثلاثين وصلى عليه ابن مسعود، وعاد إلى المدينة فأقام عشرة أيام ثم توفى.

و«الربذة» موضع قريب من المدينة منـــزل من منازل العراق.

عن المعرور قال: «**لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة**».

و«الحلة» إزار ورداء ولا يسمى حلة حتى يكون ثوبين أي: على غلامه مثل ما عليه، واسم غلام أبي ذر: «أبو مرواح» كما قاله ابن حجر.

قال المعرور: «**فسألته عن ذلك**» عن سبب مساواته غلامه في اللبس، وقلت له: ما السبب في أن على غلامك حلة كما عليك حلة؟ وإنما سأله عن ذلك لأن عادة العرب وغيرهم أن يكون ثياب المملوك دون ثياب سيده، وقال أبو ذر للمعرور في جواب السؤال: «**إني سابيت رجلاً**» أي سببت عبداً «**فعيرته بأمه فقال لي النبي ﷺ يا أبا ذر أعيرته بأمه**» الاستفهام فيه للإنكار التوبيخي «**إنك امرؤ فيك جاهلية**».

وأصل هذه القصة أن أبا ذر كان بينه وبين بلال بن حمامة [1] كلام وخصومة، وكانت أم بلال سوداء نوبية، فعير أبو ذر بلال بسواد أمه، وقال: يا ابن السوداء. فانطلق بلال إلى النبي ﷺ وذكر له ما وقع من أبي ذر فدعاه رسول الله ﷺ وقال له: «**شتمت بلال وعيرته بسواد أمه؟**» قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» أي: إنك في تعيير أمه على خلق من أخلاق الجاهلية، ولست جاهلياً محضاً.

وروي أنه قال: «ما كنت أحسب أنه بقي في صدرك من كبر الجاهلية شيء».

وروي أيضاً أنه قال له: «**ارفع رأسك ما أنت أفضل ممن ترى من الأحمر والأسود إلا أن تفضل في دين**» فألقى أبو ذر نفسه على الأرض، ثم وضع خده على التراب وقال: «والله لا أرفع خدي منها حتى يطأ بلال خدي بقدمه» فوطئ خده بقدمه منه.

قال ابن حجر: ويظهر لي أن ذلك وقع من أبي ذر قبل أن يعرف تحريم السب

---

(١) وهو بلال بن رباح سماه المصنف باسم أمه فإن أمه كان اسمها «حمامة» وهو مولى أبو بكر الصديق. انظر: صفة الصفوة (١/٤٣٤)، ومسائل الإمام أحمد (ص ٩١).

فكانت تلك الخصلة من خصال الجاهلية باقية عنده فلهذا لما قال له رسول الله ﷺ: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» على ساعتي هذه من كبر السن قال: «**نعم**» كأنه تعجب من خفاء ذلك عليه مع كبر سنه، فكان بعد ذلك يساوي غلامه في الملبوس وغيره أخذاً بالأحوط، وإن كان لفظ الحديث يقتضي المواساة لا المساواة.

ثم قال ﷺ لأبي ذر: «**إخوانكم خولكم**» [١] قيل: هو من باب القلب المورث لملاحة الكلام قول الشاعر:

نُمَّ وإِنْ لَمْ أَنَمْ كَرَاي كَرَاكا شاهدي الدمع إِنَّ ذاك كَذَاكا[٢]

والأصل في حديث: «**إخوانكم خولكم**» أي: عبيدكم وإماؤكم إخوانكم أي: في الإسلام، وإنما قيل لهم: «**خول**» لأنهم يتخولون الأمر أي: يصلحونها.

«**جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتوهم فأعينوهم**»

في الحديث دلالة على تحريم سب العبيد وتعييرهم بأبائهم، وفيه حث على الإحسان إليهم وإلى كل من يوافقهم في المعنى، ممن جعله الله تعالى تحت يد ابن آدم كالأجير والخادم، فلا يجوز لأحد أن يعير خادمه سواء أكان رقيقاً أو غيره ولا أجير بشيء من المكروه، يعرفه في أصوله وخاصة نفسه، إذ لا فضل لأحد على غيره إلا بالإسلام والتقى.

قال النبي ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقى**» [٣]

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[الحجرات: ١٣].

وهذه الآية نزلت في حق بلال فإنه يوم فتح مكة رقى على ظهر الكعبة وأذن فقال بعض أهل مكة هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة، فأنزل الله الآية[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/٢٢٤٨، رقم ٥٧٠٣).

(٢) البيت للشيخ أبي علي، وهو من بحر الخفيف، قاله شيخ البلاغين عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز (ص ٢٨١) وقال: ينبغي أن يكون «كراي» خبراً مقدماً، ويكون الأصل «كراك كراي» أي: نم وإن لم أنم فنومك نومي، كما تقول: قم وإن جلست فقيامك قيامي.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٨٩، رقم ٥١٣٧) عن جابر.

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/٥٧٨) وقال: أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة.

وقد قدمنا في أول الكلام على صحيح البخاري أن السودان من أولاد حام بن نوح، وذكرنا أن سبب مجيئهم سودان مع أن أباهم حاماً كان أبيض هو: أن نوحاً أمر أن لا يقرب ذكر أنثى ما دام في السفينة، فواقع حام امرأته في السفينة، وخالف أباه فدعى الله نوح أن تُغير نطفته وغيرها الله تعالى، ورزقه ولداً أسود وجاءت جميع أولاده سودان.

في الحديث دلالة كما قاله النووي على أن الدوآب ينبغي أن يحسن إليها.

وفيه دلالة على تحريم ترفع الإنسان على المسلم، وإن كان عبداً،

وفيه دلالة على إطلاق الأخ على الرقيق.

وقد ذكر العلماء مسائل متعلقة بالرقيق، ومسائل متعلقة بالدابة:

أما المتعلق بالرقيق، فمما قالوا: لا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه من العمل إلا ما يطيق الدوام عليه، فلا يجوز أن يكلفه عملاً يقدر عليه يومين أو يوماً ثم يعجز عنه فإذا استعمله نهاراً أراحه ليلاً، وكذا بالعكس، ويريحه في الصيف في وقت القيلولة، ويستعمله في الشتاء بالنهار مع طرف الليل، ويتبع في جميع ذلك العادة الغالبة، ويجب على العبد بذل المجهود، وترك الكسل.

ومنها: أنه يجب على السيد نفقته وكسوته ولو كان صغيراً أو أعمى أو مرهوناً أو مستأجراً.

وفي الحديث: «**كفى بالمرء إثماً أن يحبس عن من يملك قوته**»[1].

فإن كان العبد كسوباً فكسبه لسيده، فإن شاء أخذه وأنفق عليه من ماله، وإن شاء أنفق عليه من كسبه فإن لم يكف كسبه بالنفقة فالباقي على السيد، وإن زاد فالزيادة للسيد، ولا يجوز الاقتصار بالكسوة على ستر العورة، وإن كان لا يتأذى بحر ولا برد، ولو تنعم السيد في الطعام والكسوة استحب له أن يدفع للعبد مثله، كما كان أبو ذر بعد قصته مع بلال يساوي عبده في ذلك، ولا يجب عليه ذلك، وإذا كان للإنسان عبيد يستحب له أن يسوي بينهم في الطعام والكسوة، ويكره له أن يفضل النفيس على الخسيس، بخلاف ما إذا كان له جوار فيستحب له أن يفضل ذات الجمال والرفاهية على غيرها.

ومنها: إذا تولى رقيقه معالجة طعامه وحمله وجاء به إليه، فينبغي له أن يجلسه على

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٦٩٢، رقم ٩٩٦) عن عبد الله بن عمرو.

الطعام، فإن ذلك أقرب إلى التواضع ومكارم الأخلاق، وكان سيد الأولين والآخرين يأكل مع الخادم ﷺ فإن لم يفعل السيد أو قال له السيد: اجلس معنا فامتنع فينبغي أن يدفع له لقمة أو لقمتين.

ومنها: أنه يجوز للسيد المخارجه على العبد وهو أن يضرب عليه خراجاً معلوماً يؤديه إليه كل يوم أو أسبوع من كسبه إذا رضي السيد والعبد بذلك.

ومنها: إذا امتنع السيد من الإنفاق على مملوكه باع الحاكم شيئاً من ماله وأنفق منه على العبد فإن لم يجد الحاكم له مالاً أمره بأن يبيعه أو يؤجره أو يعتقه، فإن لم يفعل ذلك باعه الحاكم أو أجره فإن لم يقبله أحد أنفق عليه من بيت المال، فإن لم يكن فيه مال فهو ومن محاويج المسلمين فعليهم القيام بكفايته.

وأما المتعلقة بالدآبة فمنها: أنهم قالوا إذا ملك دآبة فعليه علفها وسقيها، ويقوم مقام العلف والسقي تخليتها لترعى وترد الماء، إن كان ما ترعى وتكتفي به بخصب الأرض ونحوه، و لم يكن مانع ثلج وغيره.

ومنها: يحرم تكليف الدآبة من ثقيل الحمل وإدامة السير أو نحو ذلك فإذا كانت الدآبة لها طاقة وقدرة على أن تحمل خمسين رطل فحملها ستين مثلاً، أو على أن تمشي سبع فراسخ متوالية فإن ذلك حرام، لأنه تكليف نفس بما لا تطيقه.

لطيفة: قال أبو سليمان الخواص ﷺ ركبت حماراً في بعض الأيام فجعل يطاطئ رأسه من الذباب فضربته على رأسه، فرفع رأسه وقال: هكذا تضرب على رأسك.

ومنها: لا يجوز حلب لبن الدآبة بحيث يضر ولدها وإنما يحلب ما فضل عن ري ولدها، والمراد بالري ما يقيمه حتى لا يموت، ويكره ترك الحلب إذا لم يكن فيه إضرار بها تضييع للمال، ويستحب أن يقص الحالب أظفاره لئلا يؤذيها.

ومنها: ينبغي أن يبقي للنحل شيئاً من العسل، فإن كان أخذه للعسل في الشتاء وزمن تعذر خروج النحل ترك لها أكثر، وإن قام شيء مقام العسل لغذائها لم يتعين إبقاء العسل.

ومنها: دود القز عيشه بورق التوت فعلى مالكه تحصيله له لئلا يهلك من غير فائدة، وهذا كله من باب الشفقة والرحمة على خلق الله، وقد جاءت أخبار كثيرة في هذا المعنى.

وروينا في سنن النسائي عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في مرضه

الذي مات فيه: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**» [١].

وروينا في الغريب للترمذي عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه نشر الله عليه كنفه وأدخله الجنة: رفق بالضعيف، وشفقة على الوالدين، والإحسان للمملوك**» [٢].

وروينا في سنن النسائي عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ وهب علياً غلاماً فقال: «**لا تضربه فإني نهيت عن ضرب المصلين، وقد رأيته يصلي**» [٣].

وروينا في سنن أبي داود عن ابن عمر ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تعفو عن الخادم؟ فصمت ثم أعاد عليه الثانية والثالثة فقال رسول الله ﷺ: «**اعف عنه في كل يوم سبعين مرة**» [٤].

وروينا في سنن أبي داود أيضاً عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لاءمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون، واكسوه مما تلبسون، ومن لم يلائمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله**»[٥].

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: «**من قذف مملوكه وهو بريء جلد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قاله**»[٦].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢٥٩/٤، رقم ٧١٠٠). وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٦/ ٢٩٠، رقم ٢٦٥٢٦)، وابن ماجه في سننه (٥١٩/١، رقم ١٦٢٥)، قال البوصيرى (٥٦/٢): صحيح على شرط الشيخين. والطبراني في الكبير (٣٠٦/٢٣، رقم ٩٠)، وأبو يعلى في مسنده (٣٦٥/١٢، رقم ٦٩٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٦٥٦/٤، رقم ٢٤٩٤) وقال: حسن غريب.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨/٥، رقم ٢٢٢٨١)، والطبراني في الكبير (٢٧٥/٨، رقم ٨٠٥٧)، قال الهيثمي (٢٣٨/٤): مدار الحديث على أبي غالب وهو ثقة وقد ضعف.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٤١/٤، رقم ٥١٦٤). وأخرجه أيضاً: الترمذي في مسنده (٣٣٦/٤، رقم ١٩٤٩) وقال: حسن غريب. والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٨، رقم ١٥٥٧٧).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٣٤٠/٤، رقم ٥١٥٧). وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٥/ ١٦٨، رقم ٢١٥٢١)، والبزار في سننه (٣٥٧/٩، رقم ٣٩٢٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (٨/ ٧، رقم ١٥٥٥٦).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥١٥/٦، رقم ٦٤٦٦)، ومسلم في صحيحه (١٢٨٢/٣، رقم ١٦٦٠). وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (٣٤١/٤، رقم ٥١٦٥)، والترمذي في سننه (٤/ ٣٣٥، رقم ١٩٤٧) وقال: حسن صحيح. جميعاً عن أبي هريرة.

وقال رسول الله ﷺ: «**من لا يرحم لا يرحم**»[١].

وقال ﷺ: «**من لا يرحم الناس لا يرحمه الله**»[٢].

وقال ﷺ: «**لا تنـــزع الرحمة إلا من قلب شقي**»[٣].

قال ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[٤].

فندب ﷺ إلى الرحمة والعطف على جميع الخلق من جميع الحيوانات، على اختلاف أنواعها في غير حديث، وأشرفها الآدمي، وإذا كان كافر فكن رحيماً لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم بخلقه، فمن كثرت منه الشفقة على خلقه والرحمة على عباده رحمه الله برحمته، وأدخله دار كرامته، ووقاه عذاب قبره، وهول موقفه،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٣٩، رقم ٥٦٦٧)، ومسلم في صحيحه (٤/١٨٠٩، رقم ٢٣١٩)، وأحمد في صحيحه (٤/٣٦٦، رقم ١٩٢٨٢)، والطبراني في صحيحه (٢/٣٣٣، رقم ٢٣٨٨) عن جرير.

وأخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٣٥، رقم ٥٦٥١)، ومسلم في صحيحه (٤/١٨٠٨ رقم ٢٣١٨)، وأبو داود في سننه (٤/٣٥٥، رقم ٥٢١٨)، وأحمد في مسنده (٢/٢٢٨، رقم ٧١٢١)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٤٣١، رقم ٦٩٧٥) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٦٨٦، رقم ٦٩٤١)، ومسلم في صحيحه (٤/١٨٠٩، رقم ٢٣١٩)، والترمذي في سننه (٤/٣٢٣، رقم ١٩٢٢) وقال: حسن صحيح. جميعاً عن جرير.

وأخرجه الترمذي في سننه (٤/٥٩١، رقم ٢٣٨١) وقال: حسن صحيح. وأحمد في مسنده (٣/٤٠، رقم ١١٣٨٠) عن أبي سعيد.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٢٨٦، رقم ٤٩٤٢)، والترمذي في سننه (٤/٣٢٣، رقم ١٩٢٣) وقال: حسن. وابن حبان في صحيحه (٢/٢١٣، رقم ٤٦٦)، والحاكم في المستدرك (٤/٢٧٧، رقم ٧٦٣٢) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في السنن الكبرى (٨/١٦١، رقم ١٦٤٢٠) عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٢٨٥، رقم ٤٩٤١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٤١، رقم ١٧٦٨٣)، والترمذي في سننه (٤/٣٢٣، رقم ١٩٢٤) قال: حسن صحيح. والحاكم (٤/١٧٥، رقم ٧٢٧٤)، وأحمد في مسنده (٢/١٦٠، رقم ٦٤٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٤٧٦، رقم ١١٠٤٨) عن ابن عمرو.

وأظله بظله إذ كل ذلك من رحمته، وقد أنشد كثير من العلماء في حديث: «**الراحمون يرحمهم الله عز وجل إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» أبياتاً فمن أنشد فيه أبو القاسم بن عساكر فقال:

بادر إلى الخير يا ذا اللب مغتنماً ... ولا تكن من قليل العرف محتشما
واشكر لمولاك ما أولاك من نعم ... فالشكر يستوجب الإفضال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وأرعهم ... فإنما يرحم الرحمن من رحما

ومما أنشد في ذلك الشهاب الحجازي حيث قال:

إن كنت لا ترحم المسكين إن عدما ... ولا الفقير إذا يشكو لك العدما
فكيف ترجو من الرحمن رحمته ... وإنما يرحم الرحمن من رحما

وأنشد فيه بعضهم فقال:

الراحمون لمن في الأرض يرحمهم ... من في السماء فباعد عنك وسواسا
وقل أعوذ برب الناس منك إذ ... لا يرحم الله من لا يرحم الناسا

فائدة: قال العلماء إذ ملك الإنسان جارية وولدها، فإن كان الولد غير مميز فإنه يحرم عليه أنه يفرق بينهما ببيع أو هبة أو قسمه، فإذا باع الأم وحدها ترك عنده الولد، أو باع الولد وحده وترك عنده الأم أثم بذلك وبطل البيع بالإجماع.

قال النبي ﷺ: «**من فرق بين والدة وولدها، فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة**» [1] حسنة الترمذي، وصححه الحاكم.

أما إذا كان الولد مميزاً فيجوز التفرقة بينه وبين أمه بالبيع وغيره، لاستغناء المميز عن الحضانة والتعهد أشبه البالغ.

وحكم المجنون كحكم غير المميز عن الحضانة والتعهد، وكذا يحرم التفريق بين الولد وجدته عند فقد أمه، وبين الولد وأبيه عند عدم أمه، أما إذا كانت الأم موجودة فباعها سيدها مع ولدها وترك الأب عنده جاز، وباع الأب وترك الجارية مع ولدها

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (١٣٤/٤، رقم ١٥٦٦) وقال: حسن غريب. والحاكم في المستدرك (٦٣/٢، رقم ٢٣٣٤) وقال: صحيح علي شرط مسلم. وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٥/ ٤١٢، رقم ٢٣٥٤٦)، والدارمي في سننه (٢٩٩/٢، رقم ٢٤٧٩)، والدارقطني في سننه (٦٧/٣)، والطبراني في الكبير (١٨٢/٤، رقم ٤٠٨٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٦/٩، رقم ١٨٠٨٩) عن أبي أيوب.

جاز، ولا يجوز أن يباع الولد مع أبيه وتترك الأم لأن الشفقة للأم أشد، فالحكم للأم دون غيرها، فلو تصرف في أحدهما ببيع وهبة وقسمه بأن أعتق الأم دون الولد والولد دون الأم جاز ذلك، لعدم التفرق المزيل للمالك.

قيل: إن يعقوب إنما فرق بينه وبين ولده يوسف مدة لأنه فرق بين جارية وولدها فقد ذكر الثعلبي ﷺ أن يعقوب رأى ملك الموت قد زاره فقال له: السلام عليك أيها الكظيم، فاقشعر جسده وارتعدت فرائصه، فرد عليه السلام، ثم قال له: من أنت ومن أدخلك هذا البيت وقد أغلقت على نفسي بابه، كيلا يدخل عليَّ أحد لأشكو بثي وحزني إلى الله، فقال له: يا نبي الله أنا الذي أيتم الأولاد، وأرمل الأزواج، قال: فأنت ملك الموت إذن، قال: نعم، قال له: يا ملك الموت أنشدك الله هل تقبض روح من تأكله السباع؟ قال: نعم، قال: فأخبرني عن الأرواح تقبضها مجموعة أو متفرقة؟ قال: أقبضها متفرقة روحاً روحاً، قال: فهل مر بك روح يوسف في الأرواح؟ قال: لا، قال: فجئتني زائراً أو داعياً؟ قال: يا نبي الله ما جئتك إلا مسلماً والله تعالى لا يميتك حتى يجمع بينك وبين يوسف، ولو كان في الصخرة التي عليها قرار الأرض، وما أذن الله في زيارتك إلا لأبشرك وأجيبك عما تسألني، وإن شئت أعلمتك لما ابتليت بفقد ولدك، قال: فأعلمني، قال: يا إسرائيل هل تذكر الجارية التي اشتريتها عام كذا في شهر كذا وفرقت بينها وبين أبويها؟ قال: نعم يا ملك الموت كان بالأمس، فقال له ملك الموت: فلذلك ابتليت بفقد الولد، وهل تعلم لما ابتليت بذهاب البصر؟ قال: لا، قال: أمرت يوماً بجذعة فذبحتها وشويتها في يوم كذا في شهر كذا، فمر تميم العابد العبد الصالح بك وهو صائم، ما أفطر منذ أسبوع فاشتم قتار الشواء فلم تطعمه، قال: فدعا عند ذلك يعقوب من كان بحضرته من العبيد والإماء فاعتقهم جميعاً، وأمر أن يذبح من أغنامه كل يوم كبشان ويفرق لحمها على الفقراء والمساكين فقبل الله ذلك منه وشكره وآتاه بالفرج [1].

فائدة أخرى: يجوز التفريق بين البهيمة وولدها إذا استغنى الولد عن لبن الأم، أما إذا لم يستغن فإن فرق بالذبح بأن ذبح الولد وترك الأم جاز، وإن ذبح الأم وترك الولد لا يجوز كما قاله السبكي، وإن فرق ببيع ونحوه فإنه لا يجوز لعدم استغناء الولد عن لبن الأم.

---

(١) ذكره الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء المسمى بالعرائس (ص: ٨٠) من قول وهب بن منبه، وأمثال هذه الأخبار فيها من الغرابة ما لا نسلم به فالمقام مقام أنبياء والله أعلم.

المجلس السابع والعشرون

في الكلام على باب علامات المنافق وما في حديثه من الفوائد وفيه شيء من ترجمة سفيان الثوري

قَالَ البُخَارِي :

بَابُ عَلاَمَاتِ المُنَافِقِ

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ أَبُو الرَّبِيعِ، قَالَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ أَبُو سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» (١) .

---

(١) شرح السفيري حديثين من هذا الباب هذا الحديث والذي يليه، قال الحافظ ابن حجر: قوله: «آية المنافق ثلاث» الآية: العلامة، وإفراد الآية إما على إرادة الجنس، أو أن العلامة إنما تحصل باجتماع الثلاث، والأول أليق بصنيع المؤلف، ولهذا ترجم بالجمع وعقب بالمتن الشاهد لذلك. وقد رواه أبو عوانة في صحيحه بلفظ: «علامات المنافق» فإن قيل: ظاهره الحصر في الثلاث فكيف جاء في الحديث الآخر بلفظ «أربع من كن فيه... الحديث»؟ أجاب القرطبي: باحتمال أنه استجد له ﷺ من العلم بخصالهم ما لم يكن عنده. وأقول: ليس بين الحديثين تعارض، لأنه لا يلزم من عد الخصلة المذمومة الدالة على كمال النفاق كونها علامة على النفاق، لاحتمال أن تكون العلامات دالات على أصل النفاق، والخصلة الزائدة إذا أضيفت إلى ذلك كمل بها خلوص النفاق. على أن في رواية مسلم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ما يدل على إرادة عدم الحصر، فإن لفظه: «من علامة المنافق ثلاث» وكذا أخرج الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري، وإذا حمل اللفظ الأول على هذا لم يرد السؤال، فيكون قد أخبر ببعض العلامات في وقت، وببعضها في وقت آخر. وقال القرطبي أيضاً والنووي: حصل من مجموع الروايتين خمس خصال، لأنهما تواردتا على الكذب في الحديث والخيانة في الأمانة، وزاد الأول الخلف في الوعد والثاني الغدر في المعاهدة، والفجور في الخصومة. قلت: وفي رواية مسلم الثاني بدل الغدر في المعاهدة الخلف في الوعد كما في الأول، فكأن بعض الرواة تصرف في لفظه لأن معناهما قد يتحد، وعلى هذا فالمزيد خصلة واحدة وهي الفجور في الخصومة.

والفجور: الميل عن الحق والاحتيال في رده. وهذا قد يندرج في الخصلة الأولى وهي الكذب في الحديث.

ووجه الاقتصار على هذه العلامات الثلاث أنها منبهة على ما عداها، إذ أصل الديانة منحصر في ثلاث: القول، والفعل، والنية. فنبه على فساد القول بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف. لأن خلف الوعد لا يقدح إلا إذا كان العزم عليه مقارناً للوعد، أما لو =

وَقَالَ: حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُرَّةَ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى

= كان عازماً ثم عرض له مانع أو بدا له رأى فهذا لم توجد منه صورة النفاق، قاله الغزالي في الإحياء. وفي الطبراني في حديث طويل ما يشهد له، ففيه من حديث سلمان «إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف» وكذا قال في باقي الخصال، وإسناده لا بأس به ليس فيهم من أجمع على تركه، وهو عند أبي داود والترمذي من حديث زيد بن أرقم مختصر بلفظ: «إذا وعد الرجل أخاه ومن نيته أن يفي له فلم يف فلا إثم عليه».

قوله: «إذا وعد» قال صاحب المحكم: يقال وعدته خيراً، ووعدته شراً. فإذا أسقطوا الفعل قالوا في الخير: وعدته، وفي الشر: أوعدته. وحكى ابن الأعرابي في نوادره: أوعدته خيراً بالهمزة. فالمراد بالوعد في الحديث الوعد بالخير، وأما الشر فيستحب إخلافه. وقد يجب ما لم يترتب على ترك إنفاذه مفسدة. وأما الكذب في الحديث فحكى ابن التين عن مالك أنه سئل عمن جرب عليه كذب فقال: أي نوع من الكذب؟ لعله حدث عن عيش له سلف فبالغ في وصفه، فهذا لا يضر، وإنما يضر من حدث عن الأشياء بخلاف ما هي عليه قاصداً الكذب. انتهى.

قال النووي: هذا الحديث عده جماعة من العلماء مشكلاً من حيث أن هذه الخصال قد توجد في المسلم المجمع على عدم الحكم بكفره. قال: وليس فيه إشكال، بل معناه صحيح والذي قاله المحققون: إن معناه أن هذه خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم. قلت: ومحصل هذا الجواب الحمل في التسمية على المجاز، أي: صاحب هذه الخصال كالمنافق، وهو بناء على أن المراد بالنفاق نفاق الكفر. وقد قيل في الجواب عنه: إن المراد بالنفاق نفاق العمل كما قدمناه. وهذا ارتضاه القرطبي واستدل له بقول عمر لحذيفة: هل تعلم في شيئاً من النفاق؟ فإنه لم يرد بذلك نفاق الكفر، وإنما أراد نفاق العمل. ويؤيده وصفه بالخالص في الحديث الثاني بقوله: «كان منافقا خالصاً». وقيل: المراد بإطلاق النفاق الإنذار والتحذير عن ارتكاب هذه الخصال وإن الظاهر غير مراد، وهذا ارتضاه الخطابي. وذكر أيضاً أنه يحتمل أن المتصف بذلك هو من اعتاد ذلك وصار له ديدنا. قال: ويدل عليه التعبير بإذا، فإنها تدل على تكرر الفعل. كذا قال. والأولى ما قاله الكرماني: إن حذف المفعول من «حدث» يدل على العموم، أي: إذا حدث في كل شيء كذب فيه. أو يصير قاصراً، أي: إذا وجد ماهية التحديث كذب. وقيل: هو محمول على من غلبت عليه هذه الخصال، وتهاون بها، واستخف بأمرها، فإن من كان كذلك كان فاسد الاعتقاد غالباً. وهذه الأجوبة كلها مبنية على أن اللام في المنافق للجنس، ومنهم من ادعى أنها للعهد فقال: إنه ورد في حق شخص معين أو في حق المنافقين في عهد النبي ﷺ وتمسك هؤلاء بأحاديث ضعيفة جاءت في ذلك لو ثبت شيء منها لتعين المصير إليه. وأحسن الأجوبة ما ارتضاه القرطبي. والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٨٩ — ٩١).

يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» [١].

قوله «**حدثنا قبيصه بن عقبة قال: حدثنا سفيان**» هذا هو الإمام الكبير العالم الرباني أحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة، القائم بالحق غير خائف في الله لومة لائم سفيان بن سعيد الثوري منسوب إلى جده بثور الكوفي إمام أهل الكوفة، وهو تابعي التابعين ومناقبه جمة.

قال عبد الله بن المبارك: كتبت عن ألف ومائه شيخ ما كتبت عن أفضل منه [٢].

وكان ابن المبارك يتسابق على سفيان ويقول: لما لم أطرح نفسي بين يدي سفيان ما أصنع بفلان وفلان [٣].

وكان مولده سنة سبع وتسعين، ومن فضائله أنه قال ما استودعت فهمي شيئاً فخانني.

ومن كراماته: أن أبا جعفر المنصور بلغه أن سفيان كان يتكلم فيه بسبب ظلم الناس فكان يتطلبه، فلما حج المنصور بعث الخشابين قدامه إلى مكة، وكان سفيان في مكة فقال المنصور: إذا رأيتم سفيان فاصلبوه، فوصلوا مكة ونصبوا الخشبة، ونودي سفيان فإذا رأسه في حجر الفضيل بن عياض، ورجله في حجر ابن عينيه فقالوا: يا سفيان لا تشمت بنا الأعداء، فقام وذهب وأخذ بأستار الكعبة وقال:

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: قال الشيخ محيي الدين: إنما أوردها البخاري على طريق المتابعة لا الأصالة. وتعقبه الكرماني بأنها مخالفة في اللفظ والمعنى من عدة جهات، فكيف تكون متابعة؟ وجوابه: أن المراد بالمتابعة هنا كون الحديث مخرجا في صحيح مسلم وغيره من طرق أخرى عن الثوري، وعند المؤلف من طرق أخرى عن الأعمش، منها رواية شعبة المشار إليها، وهذا هو السر في ذكرها هنا. وكأنه فهم أن المراد بالمتابعة حديث أبي هريرة المذكور في الباب، وليس كذلك إذ لو أراده لسماه شاهدا.

وأما دعواه أن بينهما مخالفة في المعنى فليس بمسلم، لما قررناه آنفاً. وغايته أن يكون في أحدهما زيادة وهي مقبولة لأنها من ثقة متقن. والله أعلم.

فائدة: رجال الإسناد الثاني كلهم كوفيون، إلا الصحابي وقد دخل الكوفة أيضاً. والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٩١).

(٢) أورده ابن القيسراني في تذكرة الحفاظ (١/٢٠٤)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/٢٣٧).

(٣) أورده الخطيب في تاريخ بغداد (٩/١٥٦).

برئت منها إن دخل المنصور، فسقط المنصور من فوق الدآبة ومات قبل أن يدخل مكة فخرج سفيان وصلى عليه[١].

ومن فضائله ما حكاه بعض العلماء عن محمد بن خزيمة قال: لما مات أحمد بن حنبل اغتممت غماً شديداً فبت ليلتي فرأيته في المنام وهو يتبختر في مشيته، فقلت: يا أبا عبد الله أي مشية هذه؟ قال: مشية الخدام في دار السلام. فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب، وقال: يا أحمد هذا بقولك إن القرآن كلامي، ثم قال لي: يا أحمد ادعني بتلك الدعوات التي كنت تدعو بها في دار الدنيا، فقلت: يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء لا تسألني عن شيء واغفر لي كل شيء. فقلت: وما فعل الله بك؟ قد فعل ثم قال: يا أحمد هذه الجنة فقم وادخل إليها فدخلت فإذا سفيان الثوري، وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة، ويقول: ﴿**الحَمْدُ للَّه الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ**﴾[الزمر: ٧٤][٢].

ومن فضائله ما حكاه في الروض الفائق فقال: «قيل: لما بلغ سفيان الثوري ﷺ من العمر خمسة عشر قال: لأمه يا أماه هبيني لله، فقالت: يا ولدي إنما يهدى للملوك من يصلح لهم وأنت لا تصلح لله، فاستحيا من أمه، ودخل بيتاً فأقام فيه سنتين متوجهاً إلى الله تعالى بالعبادة، فدخلت عليه أمه بعد ذلك فوجدته مجتهداً في العبادة وعليه آثار السعادة، فقبلت بين عينيه وقالت: يا ولدي الآن قد وهبتك لله فخرج عنها وغاب عشر سنين في سياحته متلذذاً في عبادته، فاشتاق إلى أمه فزارها ليلاً، فلما طرق الباب نادته من وراء الحجاب يا سفيان من وهب لله شيئاً فلا يعود فيه، وأنا قد وهبتك لله فلا أراك إلا بين يديه، ولله در من قال:

ولا تحسبوا أني نسيت ودادكم ... وإني وإن طال الأمد لست أنساكم
قطعت لكم عهداً قديماً وحرمة ... ونحن على العهد الذي قد عهدناكم
ونحن على ما تعهدون من الوفا ... يودكم قلبي وبالغيب يرعاكم
ولست بناس عهدكم بعد بعدكم ... وما دام قلبي عندكم كيف ينساكم

---

(١) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/٤١)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٧/٢٥١).
(٢) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/١٩٠).

ومن فضائله ما قاله حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في كتابه منهاج العابدين عن بعض الصالحين أنه قال: رأيت سفيان الثوري في النوم بعد موته فقلت: ما حالك يا أبا عبد الله؟ فأعرض عني وقال: ليس هذا زمان الكنى فقلت: كيف حالك يا سفيان فأنشأ سفيان يقول:

نظرت إلى ربي عيانا فقال لي ... هنيا رضائي عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواماً إذا الليل قد دجا ... بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر تريده ... وزرني فإني عنك غير بعيد

ومن فضائله ما ذكره في كتاب أنس المحاضرة عن بشر بن الحارث: أن سفيان الثوري كان عليلاً، وكان بلبل يجيء ويصيح في داره، فلما أن مات وحملت جنازته طار فوق الجنازة فلما دفن تمرغ على القبر ومات.

وكانت وفاة الثوري بالبصرة سنة ستين ومائة.

«**قال: حدثنا سفيان عن الأعمش**» هذا هو سليمان بن مهران بكسر الميم الكوفي التابعي، وكان في عينه ضعف.

قال يحيى القطان: كان الأعمش من النساك، وكان علامة الإسلام [1].

وكانت الملوك والسلاطين عنده أحقر الناس مع فقره وحاجته، وكان كثيراً ما يلبس الفروة جلدها على جلده، وصوفها إلى خارج ويذهب إلى الصلاة وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين.

«**...عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُرَّةَ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أربع مَنْ كُنَّ فِيهِ كان مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» . تَابَعَهُ شُعْبَةُ عَنِ الأَعْمَشِ**» .

استشكل جماعة من العلماء هذا الحديث وقالوا: إن هذه قد توجد في المسلم المصدق بقلبه ولسانه ولا يحكم بكفره بالإجماع، ولا بنفاق يجعله الله في الدرك الأسفل من النار، ثم أجابوا عن الاستشكال بأوجه:

أحدها: أن المراد بالنفاق هنا النفاق العملي الإيماني فإن النفاق على قسمين

---

(١) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/٥٠)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٦/٢٣٢).

أحدهما: أن يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر فيقال له: منافق نفاق الكفر، ويقال له: زنديق فهو وإن كان في الظاهر مسلماً فهو في الباطن كافر مخلد في النار، والمنافقون الذين كانوا في زمن النبي ﷺ كان نفاقهم نفاق كفر، وكان رأسهم وكبيرهم عبد الله بن أبي سلول.

وقد أنزل الله في حقهم: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾[المنافقون: ١] أي: فيما أضمروه ومن تكذيبك خلاف ما قالوه.

القسم الثاني: أن يترك الإنسان المحافظة على أمور الدين سراً ويفعلها ويحافظ عليها علنا، كما إذا خلا الإنسان بنفسه لا يصلي ولا يعمل شيئاً من العبادة، وإن اجتمع الناس صلى وحافظ على العبادة فيسمى مثل هذا منافق أيضاً، ولكن دون النفاق الأول فإن هذا نفاق في العمل لا يخرجه عن الإسلام، والأول نفاق في الاعتقاد وكثير من الجهال الفساق على هذا النفاق لا يعمل شيئاً من الطاعات إلا بين الناس، وإذا خلا بنفسه تركها.

فقوله: «**آية المنافق**» أي: علامة المنافق ذكر ﷺ للمنافق في الحديث الأول ثلاث علامات، وفي الثاني أربع علامات.

قال النووي: حصل من مجموع الروايتين خمس خصال للمنافق وهي: الكذب والخيانة والخلف والغدر والفجور.

أما الكذب فهو: الأخبار عن الشيء على خلاف الواقع سواء كان عمداً أو جهلاً، لكن لا إثم عليه في الجهل، بخلاف العمد وهو حرام، وقبيح في الجاهلية والإسلام، وهو من الكبائر إن كان يترتب عليه ضرر لأحد من الناس، فمن كذب على إنسان وقال عنه: أنه سرق ولم يسرق فقطعوا يده بقوله، وكذا الكذب على النبي ﷺ فإنه من الكبائر.

وقال ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**» [(١)].

---

(١) حديث متواتر: أخرجه البخاري في صحيحه (١/٥٢، رقم ١٠٨) ومسلم في صحيحه (١/ ١٠، رقم ٢)، والترمذي في سننه (٥/٣٥، رقم ٢٦٦٠) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبري (٣/٤٥٨ رقم ٥٩١٤)، وابن ماجه في سننه (١/١٣، رقم ٣٢)، وأحمد في مسنده (٣/ ٩٨، رقم ١١٩٦٠)، والطيالسي في مسنده (ص ٢٧٧، رقم ٢٠٨٤) عن أنس. =

أما إذا لم يترتب على الكذب ضرر لأحد فهو من الصغائر القبيحة الفاحشة، وقد دل على تحريمه الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦].

قال قتادة: أي لا تقل رأيت وأنت لم تره، وسمعت ولم تسمعه، وعلمت ولم تعلم[(١)].

وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

وقال ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**» [(٢)].

قال الغزالي رحمه الله: قال ابن عباس: «أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر» [(٣)].

وقال بشر بن الحارث: «من عامل الله بالصدق استوحش من الناس» [(٤)].

= وأخرجه ابن ماجه في سننه (١٣/١، رقم ٣٣)، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٣ رقم ١٤٢٩٤) والدارمي في سننه (٨٧/١، رقم ٢٣١)، وأبو يعلي في مسنده (٣٧٦/٣، رقم ١٨٤٧) عن جابر.

وأخرجه البخاري في صحيحه (٥٢/١، رقم ١٠٧)، وأبو داود في سننه (٣١٩/٣، رقم ٣٦٥١)، والنسائي في الكبري (٤٥٧/٣، رقم ٥٩١٢)، وابن ماجه في سننه (١٤/١ رقم ٣٦)، وأحمد في مسنده (١٦٥/١، رقم ١٤١٣)، والطيالسي في مسنده (ص ٢٧، رقم ١٩١) عن الزبير.

وأخرجه الترمذي في سننه (٣٦/٥، رقم ٢٦٦٢) عن علي، وقال: حسن صحيح.

وأخرجه ابن ماجه في سننه (١٤/١، رقم ٣٧)، وأبو يعلي في مسنده (٤٢٨/٢، رقم ١٢٢٩) عن أبي سعيد.

وأخرجه الترمذي في سننه (٣٥/٥، رقم ٢٦٥٩)، وابن ماجه في سننه (١٣/١، رقم ٣٠) عن ابن مسعود.

(١) أورده ابن جرير في تفسيره (٨٦/١٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٦١/٥، رقم ٥٧٤٣)، ومسلم في صحيحه (٢٠١٢/٤، رقم ٢٦٠٧)، وأبو يعلي في مسنده (٧١/٩، رقم ٥١٣٨)، وابن حبان في صحيحه (٥٠٨/١، رقم ٢٧٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٤٣/١٠، رقم ٢٠٩٢٧) عن ابن مسعود.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٣٨٧/٤).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٣٨٧/٤).

وقال بعضهم: رأيت منصور الدينوري في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل، فقلت له: أحسن ما توجه به العبد إلى الله ماذا؟ فقال: الصدق وأقبح ما توجه به الكذب [١].

وقال أبو سليمان: «اجعل الصدق مطيتك، والحق سيفك، والله تعالى غاية طلبك» [٢].

وقال محمد بن علي الكناني: «وجدنا دين الله مبنياً على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول» [٣].

وقال وهب بن منبه: «وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرءونها: لا كنـــز أنفع مع العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العقل، ولا رفيق أشر من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفى من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء أنفع من الرفق، ولا داء أوجع من الخرق، ولا رسول أعدل من الخلق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غنى أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت» [٤].

وقال ﷺ: «**كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع**» [٥].

وقال ﷺ: «**يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب**» [٦].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٣٨٧).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٣٨٧).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٣٨٧).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٣٨٧).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٢٩٨، رقم ٤٩٩٢)، والحاكم في المستدرك (١/١٩٥، رقم ٣٨١)، وابن حبان في صحيحه (١/٢١٣، رقم ٣٠) عن أبي هريرة.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٥٢، رقم ٢٢٢٢٤) عن أبي أمامة.

قال الهيثمي (١/٩٢): منقطع بين الأعمش وأبي أمامة.

وقال ﷺ: «**يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم**» [(١)].

وعن عبد الله بن جراد قال: قلت: يا رسول الله المؤمن يزني؟ قال: «**قد يكون ذلك**»، المؤمن يسرق؟ قال: «**قد يكون ذلك**»، المؤمن يكذب؟ قال: «**لا**».

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾[النحل: ١٠٥].

وقال ﷺ: «**ويل لمن يحدث فيكذب ليضحك القوم ويل له، ويل له**» [(٢)].

وقال ﷺ: «**إن العبد ليقول الكلمة لا يقول إلا ليضحك بها الناس، يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض، وإنه ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه**» [(٣)].

وقال ﷺ: «**من قال لصبي تعال هاك ثم لم يعطه فهو كذبه**» [(٤)] رواه أحمد.

وعن عبد الله بن عامر ﷺ دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: هاك تعالى أعطيك، فقال رسول الله ﷺ لها: «أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة» [(٥)] رواه أبو داود والبيهقي.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/١٢، رقم ٧)، وأحمد في مسنده (٢/٣٤٩، رقم ٨٥٨٠) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٢٩٧، رقم ٤٩٩٠)، والترمذي في سننه (٤/٥٥٧، رقم ٢٣١٥) وقال: حسن. والنسائي في الكبرى (٦/٥٠٩، رقم ١١٦٥٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١٩/٤٠٣، رقم ٩٥١)، والحاكم في المستدرك (١/١٠٨، رقم ١٤٢)، والدارمي في سننه (٢/٣٨٢، رقم ٢٧٠٢)، وأحمد في مسنده (٥/٥، رقم ٢٠٠٥٨)، وهناد في الزهد (٢/٥٥٤، رقم ١١٥٠)، والروياني في مسنده (٢/١٠٧، رقم ٩١٠) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/٢١٣، رقم ٤٨٣٢)، وابن المبارك في الزهد (١/٢٥٥، رقم ٧٣٤) عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٥٢، رقم ٩٨٣٥) عن أبي هريرة.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٤٢): رواه أحمد من رواية الزهري عن أبي هريرة ولم يسمعه منه.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٢٩٨، رقم ٤٩٩١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٩٨، رقم ٢٠٦٢٨). وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٣/٤٤٧، رقم ١٥٧٤٠)، والضياء في المختارة (٩/ ٤٨٣، رقم ٤٦٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/٢٣٦، رقم ٢٥٦٠٩).

وقال عبد الله المبارك: «من عقوبة الكذاب أنه يرد عليه صدقه» [١].

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا كذب العبد كذبة تباعد منه الملك مسيرة ميل من نتن ما جاء به**» [٢].

وفي الموطأ عن ابن مسعود قال: «**لا يزال العبد يكذب وتنكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه كله، فيكتب ثم الله من الكاذبين**» [٣].

نعم يجوز الكذب في صور ويجب في صور، أما الصور التي يجب فيها الكذب فثلاث:

الأولى: في الحرب بأن يظهر لمن يراه الناس خلاف ما يبطن لأجل الحرب، فإن الحرب خدعة ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لم يكن يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها [٤].

الثانية: في الإصلاح بين شخصين أو طائفتين.

الثالثة: الكذب لأجل إرضاء زوجته كأن يشتري لها شيئاً بثمن لا ترضى به إلا أن يكون بأكثر فيخبرها الأكثر كاذباً.

ففي الصحيحين أن أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً أو يقول خيراً**» [٥].

وزاد مسلم في رواية: «قالت أم كلثوم ولم أسمعه يرخص في شيء مما تقوله الناس إلا في ثلاث» يعني في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها.

---

(١) أورده الخطيب في الكفاية في علم الرواية (١/١١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٣٤٨، رقم ١٩٧٢) وقال: حسن غريب. وابن عدي في الكامل (٥/٢٨٣، ترجمة ١٤٢١ عبد الرحيم بن هارون)، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٩٧).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٩٩٠، رقم ١٧٩٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٠٧٨، رقم ٢٧٨٧)، ومسلم في صحيحه (٤/٢١٢٨، رقم ٢٧٦٩) عن كعب بن مالك.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٩٥٨، رقم ٢٥٤٦)، ومسلم في صحيحه (٤/٢٠١١، رقم ٢٦٠٥). وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (٤/٢٨٠، رقم ٤٩٢٠)، والترمذي في سننه (٤/٣٣١، رقم ١٩٣٨)، وقال: حسن صحيح. وأحمد في مسنده (٦/٤٠٣، رقم ٢٧٣١٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٥/٧٧، رقم ١٩٢) عن أم كلثوم بنت عقبة.

وقال رسول الله ﷺ: «**الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب فإنه خدعة، أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما، أو يكذب لامرأته ليرضيها**» [١].

وأما الصور التي يجب فيها الكذب فمنها: ما إذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله وسأله شخصاً مسلماً عنه هل يعرف محله فإنه يجب عليه الكذب، وإذا حلف وجب عليه أن يحلف أنه لا يعلم مكانه، ولا إثم عليه بل يثاب على هذا الكذب ثواب الواجب، نعم إن كان الحلف في هذه الصورة بالطلاق وقع عليه.

ومنها: لو كان عند إنسان وديعة لشخص فسأله ظالم عنها ليأخذها منه، وجب عليه الكذب، فإن حلّفه الظالم بالله تعالى جاز له الحلف كاذباً لمصلحة الوديعة ووجب عليه تكفير يمينه، فلو لم يحلف وأخبره بأن الوديعة عنده فأخذها الظالم قهراً وجب ضمانها عليه، وإن أكرهه الظالم في هذه الصورة على الحلف بالطلاق فهو مخير بين الحلف وبين الاعتراف والتسليم، فإن اعترف وسلم ضمن على المذهب لأنه فدى زوجته بالوديعة، وإن حلف بالطلاق أن الوديعة ليست عنده طلقت زوجته على المذهب، لأنه فدى الوديعة بزوجته.

فائدة: الكذب على المسلم كأن قال رأيت في منامي و لم ير شيئاً حرام.

قال النبي ﷺ: «**من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين طرفي شعيرة، ومن استمع بحديث قوم وهم له كارهون صب أذنيه الآنك، ومن صور صورة كلف أن ينفخ فيها روح وليس بنافخ**» [٢] رواه البخاري.

ومعنى «**تحلم**»: قال إنه حلم في نومه، ورأى كذا وكذا، وهو كاذب.

«**والآنك**» بالمد وضم النون وتخفيف الكاف: الرصاص المذاب قاله النووي.

وأما «**الخيانة**»: فهي التصرف في الأمانة على خلاف الشرع كالجناية في الوديعة فإنها أمانة في يد المودع، فإذا تلفت الوديعة تحت يده من غير تقصير فلا ضمان عليه لعدم خيانته، أما إذا قصر فيها فإنه يضمن، وأسباب الضمان كثيرة نقلها الفقهاء رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٠٤، رقم ٤٧٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٥٨١، رقم ٦٦٣٥). وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (٤/٣٠٦، رقم ٥٠٢٤)، والترمذي في سننه (٤/٢٣١، رقم ١٧٥١) وقال: حسن صحيح. وأحمد في مسنده (١/٣٥٩، رقم ٣٣٨٣).

ويدل على تحريم الخيانة في الأمانة الحديث الذي ذكره البخاري حيث جعل الخيانة إحدى علامات المنافق.

وقول الله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أهلها﴾[النساء: ٥٨].

وقوله ﷺ: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**» [(١)] حسنه الترمذي وصححه الحاكم على شرط مسلم.

وأما الغدر وهو مخالفة العهد، فالذي يدل على تحريمه الحديث الذي ذكره البخاري.

وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة: ١].

وقوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كان مَسْئُولاً﴾[الإسراء: ٣٤].

وقول النبي ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال هذه غدرة فلان**» [(٢)].

لطيفة في الوفاء بالعهد وعدم الغدر: نقل الإخباريون عن عبد الله بن المبارك أنه كان في غزوة فالتقى هو ومجوسي للقتال فدخل وقت الصلاة، فقال للمجوسي: دخل وقت الصلاة عبادتنا اصبر علي حتى أصلي، وعاهدني على أن لا تقصدني بمكروه حتى أفرغ من الصلاة، فعاهده على ذلك، ثم توضأ عبد الله بن المبارك

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥٦٤/٣، رقم ١٢٦٤) وقال: حسن غريب، والحاكم في صحيحه (٥٣/٢، رقم ٢٢٩٦) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (٣/ ٢٩٠، رقم ٣٥٣٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧١/١٠، رقم ٢١٠٩٢) عن أبي هريرة.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٦١/١، رقم ٧٦٠)، وفي الصغير (٢٨٨/١ رقم ٤٧٥)، والدارقطني (٣٥/٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٢/٦)، والحاكم في المستدرك (٥٣/٢، رقم ٢٢٩٧) وقال: على صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧١/١٠، رقم ٢١٠٩٣)، والضياء في المختارة (٢٨١/٧، رقم ٢٧٣٨) عن أنس.

قال الهيثمي (١٤٥/٤): رواه الطبراني في الكبير والصغير، ورجال الكبير ثقات.

وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢٧/٨، رقم ٧٥٨٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧١/١٠، رقم ٢١٠٩٢) وقال: ضعيف. كلاهما عن أبي أمامة.

قال الهيثمي (١٤٥/٤): فيه يحيى بن عثمان بن صالح المصري، قال ابن أبي حاتم: تكلموا فيه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٩٥٩/٢، رقم ٢٨٧٢)، وأبو يعلى في مسنده (٢٣٤/٩، رقم ٥٣٤٢).

وصلى، والمجوسي ينظر ولا يتكلم حفظاً للعهد، فلما فرغ من صلاته التقيا للقتال فلم يقدر أحدهما على الآخر إلى أن جاء وقت غروب الشمس، وعبادة المجوسي هي السجود للشمس وقت طلوعها وغروبها، فقال المجوسي لعبد الله بن المبارك: دخل وقت عبادتنا عاهدني أنت أيضاً كما عاهدتك واصبر علي حتى أفرغ من عبادتي ولا تغدر. فعاهده عبد الله بن المبارك على ذلك، فلما سجد للشمس وثب عليه عبد الله بن المبارك بسيفه ليقتله وهو ساجد، فهتف به هاتف: وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، فرجع فلما فرغ المجوسي قال له: مالك هممت بي ثم رجعت؟ قال: سمعت هاتفاً يقول كذا، فقال المجوسي: نعم الرب ربك يعاتب وليه لأجل عدوه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

لطيفة أخرى: عاهد بعض الصالحين ربه ﷻ أن لا يستغيث بأحد من الخلق إلا به سبحانه وتعالى، فخرج إلى الحج فمر في طريقه على بئر والنوم في عينيه فسقط فيه، ولم يقدر على الخروج منه، فمر بالبئر رجلان فقال أحدهما للآخر: هذا البئر يضر بالمارين فلا نبرح حتى نطمه من طريق الناس، وهو يسمع ما قالاه من أسفل البئر، فأراد أن يستغيث بهما فذكر العهد فسكت فطماه وذهبا، فأرسل الله سبعاً ففتح البئر وناوله يده فرفعه بها فسمع هاتفاً يقول: من التجأ في مهماته إلينا، ولم يتكل على سوانا، وناجاني في الغيب فنجيناه من التلف.

وأنشد في المعنى:

إذا لم يكن بيني وبينك مرسل ... فريح الصبا مني إليك رسول

لطيفة ثالثة: طلب الحجاج رجلاً ليقتله فقال: أيها الأمير عندي ودائع للناس فأمهلني حتى أردها، فأعرض عنه وقال: لا أطلقك إلا بكفيل، فخرج الرجل يطلب كفيلاً يكفله ومعه جماعة الحجاج، فوجد رجلاً جميل الوجه من أقارب الحجاج فقاله له: ما اسمك؟ فقال: عبد الكريم، فأخبره بقصته مع الحجاج، فقال: أنا أكفلك عنده. وكفله عند الحجاج، فقال له الحجاج: إن لم يأت أقتلك مكانه وإن بيني وبينك قرابة. قال: نعم، فذهب الرجل ورد ودائع الناس فلما أبطأ على الحجاج طلب الكفيل، وأمر بقتله فقال له: دعني أصلي ركعتين ثم أفعل ما أردت، فصلى ركعتين ثم قال: يا رب إن الرجل اطمأن إليَّ لأني عبد الكريم وأنت الكريم. ثم رفع السياف سيفه وأراد ضربه، وإذا بالرجل قد أقبل فقال له السياف: كيف رجعت

إلى القتل؟ والحجاج يسمع فقال: ردني قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾[النحل: ٩١] ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة: ٤٠] والوفاء بالعهد من الإيمان، فلا أخرج من الإيمان لأجل حياة زائلة، فقال الحجاج: أذهبا فقد عفوت عنكما.

وأما الفجور في الخصومة فهو حرام كما يدل على تحريمه الحديث المذكور، وقوله ﷺ: «**كفى بالمرء إثما أن لا يزال مخاصماً**» (١).

والخصومة: لجاج في الكلام ليستوفي به الإنسان مقصوده من مال أو غيره، نعم إن خاصم الإنسان بحق يستوفي حقه فليس ذلك بحرام، وإنما الحرام المذموم من المخاصمة أن يخاصم بباطل أو بغير علم، كبعض وكلاء القضاة فإنه يتوكل بالخصومة قبل أن يعرف الحق في أي جانب فيخاصم بغير علم، فالخصومة مبدأ الشر، وهي توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما، فأطلق كل واحد منهما لسانه في حق الآخر، فينبغي للعاقل أن لا يفتح عليه باب الخصومة إلا لضرروة بالغة، وحينئذ يحفظ لسانه وقلبه عن آفاتها.

قال بعضهم: ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة.

فائدة: قال العلماء: ينبغي للإنسان إذا قال خصمه: بيني وبينك كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ وأقوال العلماء المسلمين أو نحو ذلك، أو قال: اذهب معي إلى حاكم المسلمين، أو للمفتي للفصل في الخصومة التي بيننا وما أشبه ذلك أن يقول: سمعنا وأطعنا، أو سمعاً وطاعة، أو نعم وكرامة أو شبه ذلك.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٥١].

وإذا قال له خصمه في المخاصمة والمنازعة في أمر: اتق الله، أو خف الله تعالى، أو راقب الله تعالى، أو اعلم أن الله مطلع عليك، أو اعلم أن ما تقوله يكتب عليك أو تحاسب عليه، أوقال له: قال الله تعالى ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً**﴾[آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٣٥٩، رقم ١٩٩٤)، وقال: غريب. والطبراني في الكبير (١١/ ٥٧، رقم ١١٠٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٣٤٠، رقم ٨٤٣٢) عن ابن عباس.

اللَّهِ﴾[البقرة: ٢٨١]، أو نحو ذلك فينبغي أن يتأدب ويقول سمعاً وطاعة، أو سل الله التوفيق، أو اسأل الله الكريم لطفه، ويتلطف في مخاطبة من قال ذلك، وليحذر كل الحذر من تساهله عند ذلك في عبارات فإن كثيراً من الناس يتكلمون عند ذلك بما لا يليق، وربما يتكلم بعضهم بما يكون كفراً.

وأما الخلف في العهد فهو حرام جداً عند جماعة من العلماء، وبه قال عمر بن عبد العزيز، والذي يذهب الإمام الشافعي والإمام أبو حنيفة والجمهور من العلماء أن خلف الوعد ليس بحرام بل مكروه كراهة تنـــزيه كراهة شديدة، وقالوا: يستحب الوفاء به، وعند المالكية إن ارتبط الوعد بسبب كقوله: تزوج، أعط كذا فوجب الوفاء به وكان خلفه حراماً، وإن كان وعداً مطلقاً فلا يجب الوفاء به.

فالحاصل: أن خلف الوعد إما حراماً وإما مكروهاً.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾[الصف: ٢، ٣].

والوفاء بالوعد من أخلاق الأنبياء والأولياء والصالحين نفعنا الله بهم أجمعين.

قال القاضي عياض: باع النبي ﷺ قبل أن يبعث من إنسان شيئاً وبقي له بقية، فقال له ذلك الإنسان: قف مكانك يا محمد حتى آتيك بالبقية، فذهب ونسي رسول الله ﷺ في ذلك المكان، فاستمر رسول الله ﷺ في ذلك المكان ثلاثة أيام حفظاً للوعد، ثم تذكر بعد اليوم الثالث فجاء فقال له رسول الله ﷺ: «**لقد شققت عليَّ أنا ههنا منذ ثلاثة أيام أنتظرك**» [(١)].

وذكر بعض المفسرين في قوله حكاية عن إسماعيل: ﴿**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ**﴾[مريم: ٥٤] أن رجلاً قال له: اجلس يا إسماعيل في هذا المكان حتى آتيك فجلس فيه سنة، ثم جاءه فقال له: مكانك حتى آتيك فجلس فيه سنة أخرى، فقال له: مكانك حتى آتيك فغاب عنه سنة، ثم جاءه وهو في ذلك المكان لم يتغير، فلذلك وصفه الله بأنه كان صادق الوعد.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٢٩٩، رقم ٤٩٩٦)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٧/٥٩)، والضياء في المختارة (٩/٢٦٠، رقم ٢٢٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٩٨، رقم ٢٠٦٢٤) عن عبد الله بن أبي الحمساء.

وأفاد بعضهم أنه وقع نظير هذا للشيخ العارف بالله تعالى الرباني سيدي عبد القادر الكيلاني، وكان القائل الخضر.

لطيفة خاتمة: قال في روض الأفكار: خرج رجل من أهل اليمن لزيارة النبي ﷺ فقال له جماعة: سلم لنا على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر، فلما دخل المدينة وزار قبره الشريف ﷺ نسي تبليغ السلام عليه وعلى صاحبيه فخرج مع القافلة، فذكر ما حمله ذلك الرجل من السلام، فترك القافلة ورجع إلى قبر النبي ﷺ وقال يا رسول الله: فلان ابن فلان يسلم عليك وعلى صاحبيك. ثم رجع ليلحق القافلة فوجدهم قد رحلوا فرجع بقلب مكسور إلى قبر النبي ﷺ ونام فرأى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر فقال أبو بكر: هذا الرجل يا رسول الله؟ قال: نعم. فالتفت رسول الله ﷺ وقال: يا أبا الوفاء. قلت: يا رسول الله كنيتي أبو العباس. فقال: أنت أبو الوفاء، وأخذ بيدي فوضعني في مكان غير مكاني، فانتبهت فرأيت نفسي في المسجد الحرام، فأقمت بمكة ثمانية أيام حتى جاء الحجاج.

***

المجلس الثامن والعشرون

في الكلام على قوله ﷺ من تبع جنازة مسلم وما فيه من الفوائد

الحمد لله الذي أيقظ من شاء من سنة الغفلة، ورفع من أحب لقاءه إلى عليين، ووضع عنه أوزاره وثقله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله المبعوث بأشرف ملة، المخصوص بأكرم خلة ﷺ وصحبه السادة الجله.

قَالَ الْبُخَارِي:

باب اتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ مِنَ الإِيمَانِ

ختم البخاري التراجم التي وقعت له من شعب الإيمان بهذه الترجمة لأن ذلك آخر أحوال الدنيا.

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَنْجُوفِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا رَوْحٌ، قَالَ حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الْحَسَنِ، وَمُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا، وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا، فإنه يَرْجِعُ مِنَ الأجر بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فإنه يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ**» (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «من اتبع» هو بالتشديد، وللأصيلي «تبع» بحذف الألف وكسر الموحدة، وقد تمسك بهذا اللفظ من زعم أن المشي خلفها أفضل، ولا حجة فيه لأنه يقال تبعه إذا مشى خلفه أو إذا مر به فمشى معه، وكذلك اتبعه بالتشديد وهو افتعل منه، فإذا هو مقول بالاشتراك، وقد بين المراد الحديث الآخر المصحح عند ابن حبان وغيره من حديث ابن عمر في المشى أمامها، وأما اتبعه بالإسكان فهو بمعنى لحقه إذا كان سبقه، و لم تأت به الرواية هنا.

قوله: «وكان معه» أي: مع المسلم، وللكشميهني «معها» أي: مع الجنازة.

قوله: «حتى يصلي» بكسر اللام ويروى بفتحها، فعلى الأول لا يحصل الموعود به إلا لمن توجد منه الصلاة، وعلى الثاني قد يقال: يحصل له ذلك ولو لم يصل، أما إذا قصد الصلاة وحال دونه مانع فالظاهر حصول الثواب له مطلقا، والله أعلم.

قوله: «ويفرغ» بضم أوله وفتح الراء، ويروى بالعكس، وقد أثبتت هذه الرواية أن القيراطين إنما يحصلان بمجموع الصلاة والدفن، وأن الصلاة دون الدفن يحصل بها قيراط واحد، وهذا هو المعتمد خلافاً لمن تمسك بظاهر بعض الروايات فزعم أنه يحصل بالمجموع ثلاثة قراريط. انظر فتح =

تَابَعَهُ عُثْمَانُ الْمُؤَذِّنُ قَالَ حَدَّثَنَا عَوْفٌ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَهُ (١) .

في هذا الحديث فوائد:

الفائدة الأولى: الحث على الصلاة على الميت واتباع جنازته وحضور دفنه.

قال أبو الزناد خص الشارع على التواصل في الحياة بقوله: «**صل من قطعك، وأعط من حرمك، ولا تقاطعوا ولا تدابروا**» وخص على التواصل بعد الموت بالصلاة والتشييع إلى القبر والدعاء له، والتشييع إلى القبر من حق المسلم وقد وردت به الأخبار ودلت عليه الآثار، على أن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب والأوزار لمن تبع جنازة المؤمن إلى قبره.

فقد أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي عاصم حديثاً مرفوعاً: «**إن أول ما يتحف به المؤمن في قبره أن يقال له: أبشر فقد غفر لمن تبع جنازتك**»(٢).

وأخرج(٣) عن جابر بن عبد الله عنه ﷺ أنه قال: «**إن أول تحفة المؤمن أن يغفر لمن خرج في جنازته**» (٤).

وأخرج البزار وغيره عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما يجازى به المؤمن بعد موته، أن يغفر لجميع من تبعه**» (٥).

الفائدة الثانية: القيراط الذي يحصل بالصلاة على الميت وبحضور دفنه اسم لمقدار

= الباري (١/١٠٨ — ١٠٩).

(١) قوله: «تابعه» أي: روح بن عبادة، وعثمان هو ابن الهيثم وهو من شيوخ البخاري، ولفظه موافق لرواية روح إلا في قوله: «وكان معها» فإنه قال بدلها: «فلزمها». وفي قوله «ويفرغ من دفنها» فإنه قال بدلها: «وتدفن». وقال في آخره: «فله قيراط» بدل قوله: «فإنه يرجع بقيراط»، والباقي سواء.

ولهذا الاختلاف في اللفظ قال المصنف: «نحوه» وهو بفتح الواو، أي: بمعناه. انظر فتح الباري (١/ ١٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا كما في تنزيه الشريعة لابن عراق (٢/٣٧٠، رقم ٢٢).

(٣) أي ابن أبي الدنيا أيضاً.

(٤) أخرجه أيضا الخطيب (٥/٢٧٤) عن جابر.

(٥) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (٣/٢٩) قال الهيثمي: فيه مروان بن سالم الشامي وهو ضعيف. وأخرجه ابن عدي (٦/٣٨٤، ترجمة ١٨٧٠ مروان بن سالم الجزري القرقساني)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٧، رقم ٩٢٥٨) وضعفه.

من الثواب يقع على القليل والكثير، بين في هذا الحديث أنه مثل أحد، وفي رواية للحاكم: القيراط أعظم من أحد، وفي رواية أخرى للحاكم: «**والذي نفسي بيده لهو في الميزان أثقل من أحد**».

والمقصود من قوله ﷺ: «**فإنه يرجع من الأجر بقيراطين**» أي: أنه يرجع بحصتين من جنس الأجر.

و«**أحد**» جبل بجانب المدينة على نحو ميلين منها، وإنما خصه بالذكر دون غيره من الجبال لأنه أعظم جبال المدينة، والنبي ﷺ كان يحبه ويقول: «**جبل أحد يحبنا ونحبه**» [1].

وتحرير الكلام في تحصيل القيراط أن للانصراف عن الجنازة أربع مراتب:

الأولى: أن ينصرف عقب الصلاة ولهذا من الأجر قيراط بهذا الحديث، لكن هذا القيراط لا يحصل إلا إذا شهد الجنازة من مكانها إلى حين الصلاة، كما يدل عليه قوله: «**وكان معه**» أي: مع المسلم، وفي رواية: «معها» أي: مع الجنازة، فلو لم يشهد الجنازة من مكانها بل سبقها إلى المصلى لم يحصل القيراط، وإن حصل له أجر الصلاة، لأن القيراط ليس على الصلاة مطلقاً بل عليها بشرط شهودها من مكانها، ولو شهد الجنازة من مكانها إلى المصلى و لم يصل هو بل صلى غيره عليها لم يحصل له القيراط، لظاهر قوله: «**حتى يصلي**» بكسر اللام.

لكن قال شيخ الإسلام ابن حجر على رواية: «**حتى يصلى**» بفتح اللام: قد يقال يحصل ذلك ولو لم يصلِّ، قال: أما إذا قصد الصلاة وحال دونه مانع فالظاهر حصول الثواب له مطلقاً والله تعالى أعلم.

فلو شهد جنازتين من مكانهما إلى المصلى، وصلى عليها صلاة واحدة، فإن تعدد مكانهما حصل له بكل واحدة قيراط بلا شك، وإن اتحد مكانهما بأن كانا في موضع واحد ومشى معهما حتى صلى عليهما صلاة واحدة.

قال السبكي: فالذي يظهر أنه يحصل له قيراط بكل ميت نظراً إلى تعدد الجنائز، ولا يمنع من ذلك اتحاد الصلاة لأن الشارع ربط القيراط بوصف وهو حاصل في كل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/١٦١٠، رقم ٤١٦٠) عن سهل بن سعد.
وأخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٠٥٨، رقم ٢٧٣٢)، ومسلم في صحيحه (٢/١٠١١، رقم ١٣٩٣)، والترمذي في سننه (٥/٧٢١، رقم ٣٩٢٢)، وقال: حسن صحيح. وابن حبان في صحيحه (٩/٤٢، رقم ٣٧٢٥)، وأبو يعلى في مسنده (٥/٣٢٥، رقم ٢٩٤٨) عن أنس.

ميت، وكذا لو صلى على جنائز شهدها من دويرة أهلها، وصلى على الكل صلاة واحدة، حصل له بكل ميت قيراط.

المرتبة الثانية من مراتب الانصراف: أن يتبعها حتى توضع في القبر، وينصرف قبل إهالة التراب، وحديث الباب يدل على أن هذا لا يحصل به القيراط الثاني، فإنه قال فيه: «**وكان معها حتى يصلي عليها ويفرغ من دفنها**» وهو المختار في الروضة والصحيح في المجموع.

لكن اختار إمام الحرمين الحصول ويقويه ما في صحيح مسلم: «**حتى يوضع في اللحد**» [1] لكن رد ذلك العلماء بأنها مؤولة بالفراغ من الدفن جمعاً بين الروايتين قاله ابن الملقن.

المرتبة الثالثة: أن يقف إلى فراغ القبر وينصرف من غير دعاء وهذا يحصل له القيراط الثاني.

المرتبة الرابعة: أن يقف بعده ويستغفر للميت ويدعو له هذا أقصى الدرجات في الفضيلة، ويشترط لتحصيل القيراط الثاني أن يشهدها من مكانها إلى الدفن كما في الصلاة، فمن سبق إلى القبر لا يحصل له ثواب الدفن.

وذهب بعضهم إلى أنه يحصل له ثلاثة قراريط بالصلاة مع الدفن أخذاً من ظاهر بعض الأحاديث، ومن تبعها حتى يدفن فله قيراطاً أي: قيراط بالصلاة وقيراطان بالدفن، ورد هذا بأن معناه فله تمام قيراطين بالمجموع.

وذهب بعض آخر إلى الحصول أربعة قراريط لحديث: «**من أوذن بجنازة فأتى أهلها فعزاهم كتب الله له قيراط، فإن شيعها كتب الله له قيراطين، فإن صلى عليها كتب الله له ثلاثة قراريط فإن، شهد دفنها كتب الله له أربعة قراريط، القيراط مثل أحد**» [2].

الفائدة الثالثة: دلَّ الحديث على أن لمن حضر الدفن أن ينصرف بغير إذن أهل الميت، وحكي عن مالك أنه لا ينصرف إلا بأذن، وظاهر هذا الحديث يرده.

الفائدة الرابعة: تمسك أبو حنيفة بظاهر قوله في هذا الحديث: «**من اتبع**» وقال إن المشي وراء الجنازة أفضل من المشي أمامها، وعند الأئمة الثلاثة الشافعي ومالك

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٥٢/٢، رقم ٩٤٥) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء (٤٠/٣، ترجمة ١٠٩٢ معدي بن سليمان) عن أبي هريرة.

وأحمد بن حنبل أن المشي أمامها أفضل، وحملوا الاتباع على المعنى العرفي، إذ لو تقدم عليها أو حذاها أو تأخر بحيث ينسب إلى الجنازة ويعد من شيعتها، كان له حكم الاتباع عرفاً، والذي يرجح قول الأئمة الثلاثة ما روي أن النبي ﷺ والشيخين كانوا يمشون أمامها، وأيضاً: المشيعون للجنازة كالشفعاء لها، ولهذا يقولون في الدعاء: وقد جئناك شفعاء له، ومن شأن الشفيع أن يتقدم بين يدي المشفوع له، فلو مشى خلفها حصل له فضيلة أصل المتابعة وفاته كمالها.

قال النووي: المشي أمام الجنازة أفضل للراكب والماشي، والأفضل أن يكون قريباً منها، بحيث لو التفت لرآها ولا يتقدمها إلى المقبرة فلو تقدم لم يكره.

الفائدة الخامسة: قوله: «**من تبع جنازة مسلم**» يقتضي أنه لا أجر في اتباع الكافر.

وهل اتباع جنازته حرام أو مكروه، أو لا حرام ولا مكروه؟

قال العلماء: إن كان الميت الكافر من أقارب الشخص كأبيه أو أخيه فلا يحرم اتباعه ولا يكره، وتلحق الزوجة والمملوك والجار بالقريب.

فقد روى أبو داود وغيره عن علي ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: إن عمك الضال قد مات فقال: «**إذهب فواره**» [1] وإسناده ضعيف، وقيل: حسن، وإن كان غير قريب أو ما في معناه فاتباع جنازته حرام، وكما يجوز للمسلم اتباع جنازة قريبه الكافر يجوز له زيارة قبره.

الفائدة السادسة: دلَّ الحديث المذكور على أن الثواب المذكور وهو القيراطان إنما يحصل لمن تبعها إيماناً واحتساباً أي: لوجه الله طالباً للثواب من الله تعالى، فإن حضور الجنازة على ثلاثة أقسام احتساب، ومكأفاة، ومخافة.

والأول هو الذي يجازى عليه الأجر ويحط عنه به الوزر، والثاني لا يبعد ذلك في حقه، والثالث والله أعلم بما فيه، قاله ابن الملقن.

الفائدة السابعة: دل على وجوب الصلاة على الميت ووجوب دفنه، وهو مجمع عليه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/٢١٤، رقم ٣٢١٤) وأخرجه أيضاً: النسائي في سننه (٤/٧٩، رقم ٢٠٠٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/٣٠٤، رقم ١٣٤٨)، والضياء في الأحاديث المختارة (٢/ ٣٦٣، رقم ٧٤٦).

الفائدة الثامنة: في الحديث حث على الاجتماع للصلاة على الميت وحضور دفنه.

ويلحق بهذه الفوائد مسائل مناسبة وفوائد:

قال العلماء: يكره أن تتبع الجنازة بنار في مجمرة أو غيرها، ونقل ابن المنذر وغيره الإجماع عليه، وكذا يكره أن يكون عند القبر مجمرة، ويكره اللغط في المشي والحديث في أمور الدنيا، بل المستحب التفكر في الموت وما بعده، وفناء الدنيا وأن هذا آخرها.

قال النووي: والمختار والصواب ما كان عليه السلف من السكون في حال السير معها، فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غيرهما، لأنه أسكن للخاطر، أو أجمع للفكر، فيما يتعلق بالجنازة وهو المطلوب في هذا الحال.

وكره الحسن وغيره قولهم: «استغفروا لأخيكم».

وسمع ابن عمر قائلاً يقول: «استغفروا له غفر الله لكم» فقال: لا غفر الله لك.

وإذا مرت جنازة بالإنسان و لم يرد الذهاب معها لم يقم لها، بل نص أكثر العلماء على كراهة القيام، وإذا كان معها فقعد قبل أن توضع فلا كراهة في ذلك، ولا يستحب له القيام عند إقبالها وهو عند القبر جزم به جمهور العلماء.

قال النووي: ويستحب لمن مرت به جنازة أن يدعو لها، وأن يثني عليها إن كان أهلاً لذلك، ويستحب أن يقول من رآها: سبحان الحي الذي لا يموت، أو سبحان الملك القدوس، أو يقول ما رواه الطبراني عن ابن عمر أنه كان يقول إذا رأى جنازة: «**هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، اللهم زدنا إيماناً وتسليماً**».

وقال رسول الله ﷺ: «**من رأى جنازة فقال: الله أكبر صدق الله ورسوله هذا ما وعدنا الله ورسوله، اللهم زدنا إيماناً وتسليماً كتب له عشرون حسنة**».

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: وليس في حمل الجنازة دنأة ولا إسقاط مروءة، بل ذلك بر وإكرام للميت، وفعل أهل الخير، فعله رسول الله ﷺ ثم الصحابة ثم التابعون، ويحرم حمله بهيئة مزرية كحملة في غرارة أو قتة بل يحمل على سرير أو لوح أو محمل أو أي شيء حمل عليه أجزأ، فإن لم يوجد شيء يحمل عليه وخيف من تغيره وانفجاره فلا بأس أن يحمل على الأيدي والرقاب كما يحمل الطفل.

وكذلك يحرم حملها على هنة يخشى سقوطه منها وحمل الجنازة بين العمودين أفضل من الترابيع، والحمل بين العمودين أن يتقدم شخص ويضع الخشبتين المقدمتين على عاتقيه ورأسه بينهما، ويحمل المؤخرتين رجلان، ولا يدخل واحد بينهما لأنه لا يرى ما بين قدميه، فإن عجز المقدم عن الحمل أعانه اثنان، فحامل الجنازة بلا عجز

ثلاثة واحد مقدم واثنان مؤخران، ومع العجز خمسة ثلاثة مقدمة وآخران واثنان مؤخران.

فإن عجز الخمسة فسبعة أو تسعة أو أكثر، بحيث يكونون وتراً بحسب الحاجة، والتربيع أن يتقدم رجلان آخران وهذا الحمل فيه أيضاً فضيلة، ولكن الحمل بين عمودين أفضل.

وأما ما يفعله كثير من الاقتصار على اثنين أو واحد فمكروه مخالف للسنه، وهذا في غير الطفل الذي جرت العادة بحمله على الأيدي.

فائدة: ورد أن الملائكة تمشي مع الجنازة.

أخرج ابن أبي الدنيا أن داود سأل ربه فقال: إلهي ما جزاء من شيع الجنازة ابتغاء مرضاتك، قال: «جزاوه أن تشيعه الملائكة لتمشي ويقولون ما قدم فلان وتقول الناس ما ترك فلان».

فائده أخرى: ورد أن الميت يعلم بمن يغسله ويجهزه ويسمع ما يقال فيه، والجنازة مارة.

أخرج أحمد وغيره عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**الميت يعرف من يغسله ويحمله ومن يكفنه ومن يدليه في حفرته**».

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من ميت يموت إلا وهو يعرف غاسله ويناشد حامله إن كان بشر بروح وريحان وجنة نعيم أن يعجله، وإن كان بشر بنـــزل من حميم وتصلية جحيم أن يحبسه**» أخرجه أبو الحسن بن البراغي عن ابن عباس بسند ضعيف.

وأخرج أبو نعيم عن عمرو بن دينار قال: «ما من ميت يموت إلا وروحه في يد ملك ينظر إلى جسده، كيف يغسل وكيف يكفن وكيف يمشى به، ويقال له وهو على سريره: إسمع ثناء الناس عليك».

أخرج بن أبي الدنيا عن بكر بن عبد الله المزني قال: «بلغني أنه ما من ميت يموت إلا وروحه في يد ملك الموت فهم يغسلونه ويكفنونه وهو يرى ما يصنع أهله، فلو يقدر على الكلام لنهاهم عن الرنه والعويل».

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا وضعت الجنازة واحتملها الناس على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلي أين تذهبون، ويسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعه لصعق أي: لمات**».

قال بعضهم:

لو كلم الميت من يكلمهم لقال لا تغترن فأنت أنا
قد كنت أرجو فعزني أملي عاجلني الموت ما بلغت منى

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من ميت يوضع على سريره إلا تكلم بكلام يسمعه من شاء الله إلا الثقلين الإنس والجن، يقول: يا إخواناه ويا حملة نعشاه: لا تغرنكم الدنيا كما غرتني ولا يلعبن بكم الزمان كما لعب بي، خلفت ما تركت لورثتي والديان يخاصمني ويحاسبني، وأنتم تشيعوني وتدعوني**» أخرجه ابن أبي الدنيا.

وأخرج أحمد في الزهد عن أم الدرداء قالت: «إن الميت إذا وضع على سريره فإنه ينادي يا أهلاه ويا جيراناه ويا حملة سريراه: لا تغرنكم الدنيا كما غرتني ولا تلعبن بكم كما تلاعبت بي، فإن أهلي لم يحملوا عني من وزري شيئاً».

فائدة أخرى: كما يعرف الميت من يغسله ويحمله ويكفنه يعلم بمن يزور قبره، أو من ولد أو والد أو جار أو صاحب ويسير بذلك.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال مر رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير حين رجع من أحد فوقف عليه وعلى أصحابه فقال: «**أشهد أنكم أحياء عند الله، فزوروهم وسلموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحداً إلا ردوا عليه السلام إلى يوم القيامة**»

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب عن محمد بن واسع قال: «بلغني أن الموتى يعلمون زوارهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده».

وأخرج أيضاً عن الضحاك قال: «من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة».

فائدة: زيارة القبور في حق الرجال، وينبغي لمن عزم عليها أن يتأدب بآدابها ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها الطواف على الأحداث فقط، فإن هذه حالة تشاركه فيها البهيمة ونعوذ بالله من ذلك، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن، ويجتنب المشي على المقابر والجلوس عليها، ويخلع نعليه إذا دخل المقابر ويخاطبهم خطاب الحاضرين، فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، كذلك كان النبي ﷺ يقول، وكنى بالدار عن عمارها وسكانها، ولذلك خاطبهم بالكاف والميم، والعرب تعتبر بالمنـــزل عن أهله.

فإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه يسلم عليه فيقول: السلام عليك وآتاه من قبل وجهه في زيارته كمخاطبته حياً، ولو خاطب حياً لكان الأدب في استقباله بوجهه،

وكذلك هاهنا.

قالت عائشة الأندلسية رحمها الله تعالى وكانت من الصالحات: مات ولدي فكنت أزوره في كل أسبوع مرة، فكنت إذا اقتربت من قبره سمعت جيرانه من الموتى يقولون: يا فلان هذه أمك قد جاءت تزورك فكنت، انظر إلى قبره كأنه يضحك فأسر بذلك.

وروي عن الفضيل بن الموفق رحمه الله قال: كنت آتى قبر أبي المرة والمرتين وأكثر من زيارته فشيعت جنازة إلى المقبرة التي فيها أبي وكان ورائي شغل فتعجلت الرواح، فلم أزر قبره فلما كان الليل رأيته في المنام، فقال: يا بني إنك قد جئت بالأمس ولم تأتني؟ فقلت: يا أبي فإنك لتعلم بي إذا آتيتك؟ فقال: والله يابني إنك لا تأتي فلا أزل انظر إليك حتى تقطع القنطرة إلى أن تصل إليَّ وتقعد عندي ثم تقوم، فلا أزل انظر إليك حتى تعدي.

فائدة أخرى: يستحب للزائر أن يسلم عليهم بأن يقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين لأنتم السابقون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم».

فقد روى ابن عبد البر بإسناد حسن خبر: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام» وأنشد بعضهم:

تناجيك أجداث وهن سكوت ... وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغة ... لمن تجمع الدنيا وأنت تموت
وإنكم لما علينا تسلموا ... نرد عليكم واللسان صموت

ويروى أن بعض المتعبدين أتى قبر صاحب له كان يألفه في الحياة فأنشد يقول:

مالي مررت على القبور مسلماً ... قبر الحبيب فلم يرد جوابي
أحبيب مالك لا تجب منادياً ... أملكت بعدي خلة الأصحاب
لو كان ينطق بالجواب لقال لي ... أكل التراب محاسني وشبابي

قال فهتف به هاتف من جانب القبر يقول:

قال الحبيب وكيف لي جوابكم ... وأنا رهين جنادل وتراب
أكل التراب محاسني فنسيتكم ... فحجبت عن أهلي وعن أحبابي
فعليكم مني السلام تقطعت ... عني وعنكم خلة الأصحاب
وتمزقت تلك الجلود صفائحها ... يا طالما لبست رقيق ثياب

وتساقطت تلك الأنامل من يدي ما كان أحسنهم يخط كتابي
وتساقطت تلك الثنايا لؤلؤاً ما كان أحسنهم لرد جوابي
وتسايلت فوق الخدود نواظري يا طالما نظرت بهم أحبابي

فائدة أخرى: ورد أن القبر يجعل الله له لساناً حتى ينطق ويتكلم كل يوم ويكلم الميت حين يوضع في قبره.

روينا في سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: دخل رسول الله ﷺ في مصلاه فرأى أناساً يكثرون الضحك، فقال: «**أما إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى يعني الموت، فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت، فإنه لم يأت يوم على القبر إلا يتكلم فيه فيقول: أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحدة، وأنا بيت التراب، وأنا بيت الدود، فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً أما إن كنت أحب من يمشي على ظهري، فإذا آويتك اليوم وصرت إليَّ فسترى صنعي بك، فيتسع له مد البصر وينفتح له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحباً ولا أهلا أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري فإذا آويتك اليوم فسترى صنعي بك قال: فيلتئم عليه حتى تلتقي وتختلف أضلاعه قال: وقال رسول الله ﷺ بأصابعه فأدخل بعضها في بعض، قال: ويقيض له تسعون تنيناً أو قال تسعة وتسعون تنيناً، لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئاً حتى يفضى به إلى الحساب**».

وعن أبي عبد الله بن عبد الله بن عمير قال: يجعل للقبر لساناً ينطق به فيقول: ابن آدم كيف نسيتني أما علمت أني بيت الأكله وبيت الدود وبيت الوحده، أنا بيت الدود.

ويقال: إن الأرض تنادي كل يوم خمس مرات، أول نداء تقول: «تأكلك الديدان ثم مصيرك في بطني، والنداء الثاني: تقول يا ابن آدم تأكل الألوان على ظهري وسوف تأكلك الديدان في بطني، والنداء الثالث: تقول يا ابن آدم تفرح على ظهري وسوف تحزن في بطني، والنداء الرابع: تقول يا ابن آدم تذنب على ظهري وسوف تعذب في بطني، والنداء الخامس: تقول يا ابن آدم تضحك على ظهري وسوف تبكي في بطني».

وقد جاءت الأخبار ودلت الآثار على رحمة الله لعبده إذا دخل قبره، قال عطاء الخراساني: ارحم ما يكون الرب بعبده إذا دخل في قبره وتفرق الناس عنه وأهله، ولله در القائل:

أيها الواقف اعتباراً بقبري ... واستمع فيه قول عظيمي الرميم
أودعوني بطن الضريح وخافوا ... من ذنوب كلموها بأديمي
قلت لا تجزعوا علي فإني ... حسن الظن بالرؤوف الرحيم
ودعوني بما اكتسبت رهينة ... علق الرهن عند مولى كريم

قال العلماء: نسيان الميت بعد موته نعمة من الله على أهله وأصحابه، وكذلك الغفله والأمل نعمتان من الله.

روي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن مشيعي الجنازة قد وكل بهم ملك، فهم مهمومين محزونون، حتى إذا أسلموه في القبر ورجعوا راحلين أخذ كفاً من تراب فرمى به وهو يقول: ارجعوا ارجعوا إلى دنياكم أنساكم الله موتاكم، فينسون ميتهم يأخذون في شرابهم وبيعهم كأنهم لم يكونوا منه ولم يكن منهم**» ولقد أحسن من قال:

ضعوا خدي على لحدي ضعوه ... ومن عفر التراب فوسدوه
وشقوا عنه أكفاناً رقاقاً ... وفي الرمس البعيد فغيبوه
فلو أبصرتموه إذا انقضت ... صبيحة ثالث أنكرتموه
وقد سالت نواظر مقلتيه ... على وجناته وانفض فوه
وناداه البلى هذا فلان ... هلموا فانظروا هل تعرفوه
حبيبكم وجاركم المفدى ... تقادم عهده فنسيتموه

وقال الحسن: الغفلة والأمل نعمتان عظيمتان على ابن آدم، ولولاهما مشى المسلمون في الطرق.

وقال مطرف بن عبد الله: لو علمت متى أجلي لخشيت ذهاب عقلي، ولكن الله سبحانه وتعالى مَنَّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما هنوا بعيش، ولا قامت بينهم الأسواق (انتهى).

***

المجلس التاسع والعشرون

في بيان فضل العلم

قَالَ البُخَارِي:

بِسمِ اللهِ الرَّحـــمَنِ الرَّحِيمِ

كِتَابُ الْعِلم

إنما قدم البخاري ﷺ كتاب العلم على سائر الكتب الآتية وهي: كتاب الوضوء والغسل والتيمم والصلاة وغيرها لأنها من باب العمل والعلم ينبغي أن يكون قبل العمل،وآخره يكون كذلك وهو مبتدأ كل خير.

باب فَضْلِ الْعِلْمِ

وَقَوْلِ اللَّه تَعَالَى ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وَقَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

نفعنا الله بالعلماء،وأنزل علينا ببركاتهم وذكر فضائلهم الرحمة من السماء،وزادهم الله تعالى في الدنيا والآخرة من مدده الفياض شرفاً وكرماً وبعد.

فقد دل الكتاب والسنة والأخبار والآثار المنقولة عن الأئمة على فضل العلماء وفضل العلم وفضل تعلمه وفضل تعليمه وفضل حضور مجلسه.

قال الله تعالى: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾**[آل عمران: ١٨] جعل الله مرتبتهم بعد الملائكة.

وجعل النبي صلى ﷺ مرتبتهم بين الأنبياء والشهداء،فقد ورد عند ابن ماجة وغيره عن عثمان بن عفان أنه ﷺ قال: «**يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء**» (١).

قال بعض العلماء: أعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ.

وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾**[فاطر: ٢٨] القراءة المشهورة بنصب لفظ الجلالة،ورفع العلماء.

وقد قرئ: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءَ﴾**[فاطر: ٢٨] برفع اسم الله،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/١٤٤٣،رقم ٤٣١٣)،قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٦٠): هذا إسناد ضعيف. وأخرجه أيضاً: البيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٦٥، رقم ١٧٠٧).

ونصب العلماء.

وقد استشكلوا هذه القراءة وقالوا: كيف يخشى الله من عبادة العلماء،والله تعالى لا يخاف من مخلوقاته أحداً بل الكل تحت قهره.

وأجابوا عن الاستشكال بأن يخشى هنا مؤول بيعظم أي: إنما يعظم الله من عباده العلماء،وأول بغير ذلك أيضاً.

وقال الله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[الزمر: ٩].

وقال الله تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[المجادلة: ١١].

قال ابن عباس: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة،ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام[١].

وعن أبي أمامه ﷺ قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلون على النبي ﷺ وأهل السماوات والأرض،حتى النملة في جحرها،وحتى الحوت يصلون على معلم الناس الخير**» رواه الترمذي،وقال: حديث حسن صحيح [٢].

وعن صفوان بن عسال أن النبي ﷺ قال: «**إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب**» [٣].

وقد ذكر العلماء في معنى وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم أقوالاً:

الأول: أن المراد بالوضع بسط الأجنحة أي: فرشها تحت أقدامه إذا مشى لتكون وطاء له.

الثاني: أن المراد به التواضع تعظيماً لطالب العلم.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٥٠،رقم ٢٦٨٥). وأخرجه أيضاً: الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٣٣،رقم ٧٩١١).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٥٤٥،رقم ٣٥٣٥) وقال: حسن صحيح. والطيالسي في مسنده (١/١٦٠،رقم ١١٦٥)،وأحمد في مسنده (٤/٢٣٩،رقم ١٨١١٤)،والدارمي في سننه (١/١١٣،رقم ٣٥٧)،والبيهقي في السنن الكبرى (١/٢٧٦،رقم ١٢٢٥)،والطبراني في المعجم الكبير (٨/٦٣ رقم ٧٣٧٣).

الثالث: أن المراد به النـــزول عند مجالس العلم وترك الطيران.

الرابع: أن المراد به إظلالهم بها،فمعنى تضع أجنحتها على هذا القول تجعلها فوق رأسه كالظلة،وعلى القول بأن المراد إظلالهم بها فمعنى: «**تضع أجنحتها**» على هذا القول،بأن المراد بوضع الأجنحة فرشها.

حكى النووي: أن رجلاً سمع هذا الحديث فجعل في نعليه مسامير من حديد،وقال أريد أن أطأ بهما أجنحة الملائكة،فوقعت الأكلة رجليه.

وحكي عن بعضهم أنه قال: كنا نمشي إلى بعض المحدثين فقال رجل: ارفعوا أقدامكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ،فما زال من موضعه حتى يبست رجلاه.

وقال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ : «**لأن يهدي بك الله رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**» حديث متفق عليه [(١)].

وقال أيضا لمعاذ ﷺ لما بعثه إلى اليمن: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها**» رواه أحمد [(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «**من دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيء،ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص آثامهم شيئاً**» رواه مسلم [(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا مات بن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٥٧/٣،رقم ٣٤٩٨)،ومسلم في صحيحه (١٨٧٢/٤،رقم ٢٤٠٦). وأخرجه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (١١٠/٥،رقم ٨٤٠٣)،وابن حبان في صحيحه (٣٧٧/١٥،رقم ٦٩٣٢) عن سهل بن سعد.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٥،رقم ٢٢١٢٧)،قال الهيثمي (٣٣٤/٥): رجاله ثقات إلا أن ذويد بن نافع لم يدرك معاذاً.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٦٠/٤،رقم ٢٦٧٤). وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (٢٠١/٤،رقم ٤٦٠٩)،والترمذي في سننه (٤٣/٥،رقم ٢٦٧٤) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في سننه (٧٥/١،رقم ٢٠٦)،وأحمد في سننه (٣٩٧/٢،رقم ٩١٤٩)،وأبو يعلى في مسنده (٣٧٣/١١،رقم ٦٤٨٩)،وابن حبان في صحيحه (٣١٨/١،رقم ١١٢)،والدارمي في سننه (١٤١/١،رقم ٥١٣) عن أبي هريرة.

أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم [١].

وقال رسول الله ﷺ: **«فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»** رواه الترمذي [٢].

أنشد محمد بن الحسن رحمه الله تعالى:

تعلم فإن العلم زين لأهله ... وفضل وعنوان لأهل المحامد
وكن مستفيداً كل يوم زيادة ... من العلم واسبح في بحور الفوائد
تفقه فإن الفقه أوصل قائد ... إلى البر والتقوى وأعدل قاصد
هو العلم الهادي إلى سنن الهدى ... هو الحصن منجي من جميع الشدائد
فإن فقيهاً واحد متورعاً ... أشد على الشيطان من ألف عابد

وقال رسول الله ﷺ: **«لكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه،وما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين»** رواه الدارقطني [٣].

وقال رسول الله ﷺ: **«من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة،وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم،رضا بما يطلب،وإن العالم يستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء،وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب،وإن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٥٥/٣،رقم ١٦٣١). وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (١١٧/٣،رقم ٢٨٨٠)، والترمذي في سننه (٦٦٠/٣،رقم ١٣٧٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في سننه (٨٨/١، رقم ٢٤٢)،والنسائي في سننه (٢٥١/٦،رقم ٣٦٥١)، وأحمد (٣٧٢/٢،رقم ٨٨٣١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨/١،رقم ٣٨) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨/٥ رقم ٢٦٨١) وقال: غريب. وأخرجه أيضاً: ابن ماجه في سننه (٨١/١ رقم ٢٢٢)،والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٧/٢،رقم ١٧١٥)،والطبراني في الكبير (٧٨/١١، رقم ١١٠٩٩)،وفي الشاميين (١٦١/٢،رقم ١١٠٩)،والديلمي في الفردوس (١٤٨/٣،رقم ٤٣٩٨) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (٧٩/٣). وأخرجه أيضاً: الطبراني في الأوسط (١٩٤/٦، رقم ٦١٦٦) قال الهيثمي (١٢١/١): فيه يزيد بن عياض،وهو كذاب. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٦/٢ رقم ١٧١٢) وقال: فيه يزيد بن عياض ضعيف. والخطيب (٤٠٢/٢)،والقضاعي في مسند الشهاب (١٥٠/١،رقم ٢٠٦) عن أبي هريرة.

درهماً إنما ورثوا العلم،فمن أخذه أخذ بحظ وافر» رواه الترمذي [١].

وهنا سؤال وهو: هل استغفار الحوت ونحوه من الحيوانات التي لا تعقل بلسان الحال أو بلسان القال؟

والمرجح كما قال النووي: إنها تستغفر وتسبح بلسان القال،إذ لا يمتنع عقلاً إن يجعل الله فيها قوة تنطق بها وتميز،كما يجوز ذلك في بعض الجمادات كقوله تعالى في الحجارة: ﴿**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾[البقرة: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾[الإسراء: ٤٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء،فيقول: يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم،اذهبوا فقد غفرت لكم**» رواه الطبراني في الكبير [٢].

وقيل في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى**﴾[الأعراف: ٢٦].

إن المراد باللباس: العلم.

وبالريش: اليقين.

وبلباس التقوى: الحياء.

قال النبي ﷺ: «**الإيمان عريان ولباسه التقوى،وزينته الحياء،وثمرته العلم والعمل والجهاد،أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل**» [٣].

وقال ﷺ : «**فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد**».

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨/٥،رقم ٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل. ثم أورد له إسناداً وقال هذا أصح. وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (٣١٧/٣،رقم ٣٦٤١)،وابن ماجه في سننه (٨١/١،رقم ٢٢٣)،وابن حبان في صحيحه (٢٨٩/١،رقم ٨٨)،والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٢/٢،رقم ١٦٩٦)،وأحمد في مسنده (١٩٦/٥،رقم ٢١٧٦٣) عن أبي الدرداء.

(٢) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٢٦/١) قال الهيثمي: فيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف جدّاً. وأخرجه أيضاً: الروياني في مسنده (٣٥٣/١،رقم ٥٤٢)،والطبراني في المعجم الأوسط (٣٠٢/٤،رقم ٤٢٦٤) عن أبي موسى.

(٣) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٥/١)،وقال العراقي: أخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف.

وإنما فضل العالم على العابد لأن الشيطان يدع البدعه للناس فينظرها العالم فيزيلها،والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه إليها ولا يعرف بها.

وقال ﷺ: «**من عمد إلى المسجد لا يريد إلا إن يتعلم خيراً أو يعلم،كان له كأجر حاج تاماً حجته**» رواه الطبراني بإسناد لا بأس به [(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم**» [(٢)].

وعن النبي ﷺ: أنه دخل المسجد فرأى مجلسين أحد المجلسين يذكرون الله تعالى ويرغبون إليه،والآخر يتعلمون الفقه فقال ﷺ: «**كلا المجلسين على خير وأحدهما أفضل من الآخر،أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه،فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم،وأما هؤلاء فيعلمون الجهال،وإنما بعثت معلماً،فهؤلاء أفضل ثم جلس معهم**» [(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**لأن تغدوا فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة**» [(٤)].

وقال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» [(٥)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٤/٨،رقم ٧٤٧٣)،قال الهيثمي (١٢٣/١): رجاله موثقون كلهم. وأخرجه أيضاً: في مسند الشاميين (٢٣٨/١،رقم ٤٢٣) عن أبي أمامة.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٦٧/٦ رقم ٦٦٣٦) قال الهيثمي (١٣٦/١): فيه الحكم بن عبد الله،قال أبو حاتم: كذاب. وأبو نعيم في الحلية (١٨٨/٨)،وابن عدي في الكامل (٧٩/٢ ترجمة ٣٠٢ بقية بن الوليد) وقال: حديث منكر المتن. والخطيب في تلريخ بغداد (١٠٠/٦)،وإسحاق بن راهويه في مسنده (٥٥٣/٢ رقم ١١٢٨) عن عائشة.

(٣) أخرجه الطيالسي في مسنده (ص: ٢٩٨،رقم ٢٢٥١)،والبزار في مسنده (٤٢٨/٦،رقم ٢٤٥٨)،والحارث كما في بغية الباحث (١٨٥/١،رقم ٤٠) عن ابن عمرو.

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس (٣٣٨/٥،رقم ٨٣٦٢)،وأورده الذهبي في إحياء علوم الدين (٨/١)،وقال العراقي: أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي ذر،وليس إسناده بذاك.

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢٠٢/١،ترجمة ٤٨ أحمد بن هارون بن موسى) وقال: له نسخ موضوعة مناكير ليس عند أحد منها شيء كنا نتهمه بوضعها. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٤/٢،رقم ١٦٦٥)،وأبو يعلى في مسنده (٢٢٣/٥،رقم ٢٨٣٧)،والطبراني في الأوسط (٧/١،رقم ٩)،وفي الصغير (٣٦/١،رقم ٢٢)،وأبو نعيم في الحلية (٣٢٣/٨)،والقضاعي في مسند الشهاب (١٣٦/١،رقم ١٧٥)،والبزار في مسنده (١٧٢/١،رقم ٩٤) عن أنس. =

وقال: «**اطلبوا العلم ولو بالصين**» [١].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله،ولا للعالم أن يسكت عن علمه**» [٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**من جاءه ملك الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام، فبينه وبين الأنبياء درجة واحدة في الجنة**».

وقال علي رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه،ويفرح به إذا نسب إليه،وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه فلله در العلم ومن به تردى،وتعساً للجهل ومن في أوديته تردى.

ومن نظم سيدنا على كرم الله وجهة ورضي عنه:

الناس من جهة التمثال أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
إن لم يكن لهم في أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم بينهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

= وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٤٥/٤،رقم ٤٠٩٦) عن ابن عباس،قال الهيثمي (١٢٠/١): فيه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد ضعيف جداً.

وأخرجه الرافعي (٣٤٠/٢)،وابن عدي في الكامل (١٧٩/١،ترجمة ١٩ أحمد بن إبراهيم بن موسى) وقال: هذا الحديث منكر بهذا الإسناد. كلاهما عن ابن عمر.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٥٨/٨،رقم ٨٥٦٧)،قال الهيثمي (١٢٠/١): فيه يحيي بن هاشم السمسار كذاب. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٤/٢،رقم ١٦٦٧)، والخطيب (٤٢٧/٤)،والقضاعي (١٣٥/١،رقم ١٧٤) عن أبي سعيد.

وأخرجه الطبراني في الكبير (١٩٥/١٠،رقم ١٠٤٣٩)،وفي الأوسط (٩٦/٦،رقم ٥٩٠٨) كلاهما ابن مسعود،قال الهيثمي (١١٩/١): فيه عثمان بن عبد الرحمن القرشي عن حماد بن أبي سليمان وعثمان هذا قال البخاري مجهول ولا يقبل من حديث حماد إلا ما رواه عنه القدماء شعبة وسفيان الثوري والدستوائي ومن عدا هؤلاء رووا عنه بعد الاختلاط.

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢٣٠/٢،ترجمة ٧٧٧)،وابن عدي (١١٨/٤،ترجمة ٩٦٣) كلاهما في ترجمة طريف بن سلمان أبو عاتكة. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٣/٢، رقم ١٦٦٣)،وقال: هذا الحديث شبه مشهور،وإسناده ضعيف،وقد روى من أوجه كلها ضعيفة. والخطيب (٣٦٣/٩) جميعاً عن أنس. قال العجلوني (١٥٤/١): ضعيف بل قال ابن حبان: باطل.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٨/٥،رقم ٥٣٦٥). قال الهيثمي (١٦٥/٧): فيه محمد بن أبي حميد وقد أجمعوا علي ضعفه. وأخرجه الديلمي في الفردوس (١٣٩/٥،رقم ٧٧٤٨) عن جابر.

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقال معاذ بن جبل: «تعلموا العلم فإن تعلمه خشية،وطلبه عبادة،ومدارسته تسبيح،والبحث عنه جهاد،وتعليمه لمن لا يعلمه صدقه،وبذله لأهله قربة،وهو الأنس في الوحده،والصاحب في الخلوة» (١).

وقال رسول الله ﷺ: «**العلم خزائن ومفاتيحها السؤال،فإنه يؤجر فيها أربعة السائل والعالم والمستمع والمحب**» (٢).

وقال ﷺ: «**ألا إن الدنيا ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً**» رواه الترمذي (٣).

وقال الرازي في تفسيره: قال عليه الصلاة والسلام: «**كن عالماً ومتعلماً ومستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك**» (٤).

ثم قال وجه التوفيق بين هذه الرواية والأخرى وهو قوله ﷺ: «**الناس رجلان عالم ومتعلم وسائر الناس همج لا خير فيهم**» (٥) أن المستمع والمحب بمنـــزلة المتعلم.

وقال في روض الأفكار: سافر رجل سبعمائة فرسخ ليسأل عالماً عن سبع كلمات:

الأولى: ما أثقل من السماوات؟ قال: البهتان على البريء.

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤١/٢،رقم ٢٢٣٧)،وأبو نعيم في الحلية (٢٣٩/١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٩٢/٣) وقال: غريب من هذا الوجه لم نكتبه إلا بهذا الإسناد. والرافعي في التدوين (٤/٣)،والديلمي في الفردوس (٦٨/٣،رقم ٤١٩٢)،قال المناوي (٣٨٩/٤): قال الحافظ العراقي: ضعيف. قال العجلوني في الكشف (٨٥/٢): رواه أبو نعيم والعسكري بسند ضعيف. جميعاً عن علي.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٥٦١/٤ رقم ٢٣٢٢) وقال: حسن غريب. وأخرجه أيضاً: ابن ماجه في سننه (١٣٧٧/٢ رقم ٤١١٢) عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه الدارمي في سننه (٩١/١،رقم ٢٤٨)،والبخاري في التاريخ الكبير (٩٩/٤)،والبيهقي في المدخل إلي السنن الكبرى (٢٦٨/١،رقم ٣٨٠) وقال: وهو منقطع. جميعاً عن ابن مسعود موقوفاً.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٠٧/٧،رقم ٧٥٧٥) عن ابن مسعود بلفظ: « الناس رجلان عالم ومتعلم هما في الأجر سواء ولا خير فيما بينهما من الناس ». قال الهيثمي (١٢٢/١): فيه نهشل بن سعيد وهو كذاب.

وأخرجه أيضاً في الكبير (٢٠١/١٠،رقم ١٠٤٦١) عن ابن مسعود بلفظ: « الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما ». قال الهيثمي (١٢٢/١): فيه الربيع بن بدر وهو كذاب.

الثانية: ما أوسع من الأرض؟ قال: الحق.

الثالثة: ما أغنى من البحر؟ قال: القلب الغني.

الرابعة: ما أبرد من الثلج؟ قال: طلب الحاجة من الصديق و لم يقضها.

الخامسة: ما أحر من النار؟ قال: الحسد.

السادسة: ما أقسى من الحجر؟ قال: قلب الكافر.

السابعة: ما أذل من اليتيم؟ قال النمام عند المقابلة.

وقال الرازي في التفسير: أربع لا ينبغي للشريف أن يأنف فيها وإن كان أميراً قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه،وخدمته للعالم الذي يتعلم منه،وسؤاله عما لا يعلم ممن هو أعلم منه.

وقال ابن مسعود: منهومان لا يشبعان طالب العلم وطالب الدنيا،وهما لايستويان،أما طالب العلم فيزداد في رضا الرحمن،وأما طالب الدنيا فيزداد في الطغيان،ثم قرأ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[فاطر: ٢٨] ثم قرأ: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾[العلق: ٦،٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العلم أفضل من المال.

لأن العلم ميراث الأنبياء،والمال ميراث الفراعنة.

ولأن العلم يحرسك،وأنت تحرس المال.

ولأن العلم لا يعطيه الله إلا لمن يحبه،والمال يعطيه من يحب ومن لا يحب.

ولأن العلم لا ينقص بالبذل والإنفاق،والمال ينقص بهما.

ولأن صاحب المال إذا مات انقطع ذكره،والعالم إذا مات فذكره باق.

ولأن صاحب المال يسأل عن كل درهم من أين أكتسبه وأين أنفقه،وصاحب العلم له بكل حديث درجة في الجنة.

وحكي عن عبد الله بن المبارك أنه كان في حال الموت ورجل عنده يكتب له العلم،فقيل له في مثل هذه الحالة؟

فقال: لعل الكلمة التي تنفعني لم تبلغني بعد.

ويقال: إن العلماء سرج الأزمنة،فكل عالم مصباح أهل زمانه يستضئ به أهل عصره[1].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٧).

وقال مسلم الخولاني: مثل العلماء كالنجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا، وإذا خفيت عنهم تحيروا.

وقال إمامنا الشافعي ﷺ: العلم أفضل من صلاة النافلة.

وقال: ليس بعد الفريضة أفضل من طلب العلم.

وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم،ومن أراد الآخرة فعليه بالعمل.

وقال: من لا يحب العلم فلا خير فيه،ولا يكون بينك وبينه معرفة وصداقة.

وقال: العلم مروءه من لا مروءة له.

وقال: إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء فليس لله ولي.

وقال: من تعلم القرآن عظمت قيمته،ومن نظر في الفقه نبل قدره،ومن نظر كتب الحديث قويت حجته،ومن لم يعين نفسه لم ينفعه علمه.

في كلامه هذا إشارة إلى أنه ينبغي للعالم أن يأخذ من كل علم ما يحتاج إليه.

ونسب إلى الإمام الشافعي أنه قال:

ما حوى العلم جميعاً أحد ... لا ولو دارسه ألف سنه

إنما العلم كبحر زاخر ... فخذوا من كل شيء أحسنه

وسئل عبد الله بن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء.

قيل: من الملوك؟ قال: الزهاد.

قيل فمن السفلة؟ قال: الذي يأكل بدينه[1].

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي: لم يجعل غير العالم من الناس،لأن الخاصية التي يتميز بها عن سائر البهائم هو العلم،والإنسان إنسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك لقوته فإن الجمل أقوى منه،ولا لأكله فإن الجمل أوسع بطناً منه،ولا لجماعه فإن أخس العصافير أقوى على ذلك منه،بل لم يتميز إلا بالعلم [2].

قال الإمام الرازي في تفسيره: إن من جلس عند العلماء ولا يقدر أن يحفظ من ذلك العلم شيئاً فله سبع كرامات:

أولها: ينال فضل المتعلمين.

الثاني: مادام جالساً عنده كان محبوساً عن الذنوب.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٧).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/٧).

الثالث: إن خرج من منـــزله طالباً للعلم نزلت الرحمة عليه.

الرابع: إذا جلس في حلقة العلم فتتنـــزل الرحمة فينال نصيبه منها.

الخامس: ما دام في الاستماع يكتب له طاعة.

السادس: إذا استمع ولم يفهم ضاق قلبه لحرمانه عن إدراك العلم فيصير ذلك وسيلة إلى حضرة الرب سبحانه وتعالى لقوله: «أنا عند قلوب المنكسرة قلوبهم لأجلي».

السابع: إذا حضر العاصي مجلس العلم وسمع فربما يرق قلبه ويخشع فؤاده، فيكون ذلك وسيلة إلى توبته.

فلهذا أمر رسول الله ﷺ بمجالسة العلماء، ونقل عن عمر بن الخطاب ﷺ: أن الرجل ليخرج من منـــزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامه، فإذا سمع العلم خاف واسترجع من ذنوبه، فينصرف إلى منـــزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجلس العلماء، فإن الله تعالى لم يخلق تربة على وجه الأرض أكرم من مجالس العلماء[1].

قال الفقيه أبو الليث: من جلس مع الأغنياء زاده الله حب الدنيا والرغبة فيها.

ومن جلس مع الفقراء حصل له الشكر والرضا بقسمة الله.

ومن جلس مع السلاطين زاده الله القسوة والكبر.

ومن جلس مع النساء زاده الله الشهوة.

ومن جلس مع الصبيان زاده الله المزاح.

ومن جلس مع الفساق ازداد من الجراءة على الذنوب وتسويف التوبة.

ومن جلس مع الصالحين ازداد رغبة في الطاعات.

ومن جلس مع العلماء ازداد من العلم والورع.

وقال ﷺ: «**من خرج يطلب باباً من العلم ليرد به باطلاً إلى الحق وضلالاً إلى الهدى كان علمه كعبادة أربعين عاماً**».

وروى أنس عن النبي ﷺ: «**من أحب أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين، فوالذي نفسي بيده ما من متعلم يختلف إلى باب العالم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة، وبنى له بكل قدم مدينة في الجنة، ويمشي على الأرض والأرض تستغفر له، ويمسي ويصبح مغفوراً له، وشهدت الملائكة لهم بأنهم عتقاء**

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٣٤٩).

الله من النار»[١].

وثبت عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «**من صلى خلف عالم من العلماء فكأنما صلى خلف نبي من الأنبياء**» [٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من تعلم على يد عالم كتب الله له بكل خطوة عتق رقبة، ومن قبل رأس عالم كتب الله له بكل شعرة حسنة**».

وقال علية الصلاة والسلام من رواية أبي هريرة: «**بكت السماوات السبع ومن فيهن ومن عليهن، والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن، العزيز ذل، وغني افتقر، وعالم تلعب به الجهال**».

وسائر كتب الله ناطقه بفضل العلم قال الله تعالى في التوراة لموسى عليه الصلاة والسلام: «عظم الحكمة فإني لا أجعل الحكمة في قلب عبد إلا وأردت أن أغفر له، فتعلمها ثم أعمل بها كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والآخرة».

وقال الله في الزبور لداود: «قل لأحبار بني إسرائيل ورهبانهم حادثوا من الناس الأتقياء، فإن لم تجدوا فيهم تقياً فحادثوا العلماء، فإن لم تجدوا فيهم عالماً فحادثوا العقلاء، لأن التقى والعلم والعقل ثلاث مراتب ما جعلت واحده منهن في أحد من خلقي وأنا أريد هلاكه».

وقال في الإنجيل: «اطلبوا العلم وتعلموه فإن العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم لم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، وإن لم ينفعكم لم يضركم».

لطيفة في محبه العلماء والصالحين: قال ابن الجوزي في كتابه «سوق العروس» قال ابن مسعود ﷺ: كان شيخ قوام بالذنوب مدمن على شراب الخمور، إلا أنه كان يحب الصالحين ويحضر مجالس العلم ويحسن الظن فيهم، فمرض واشتد مرضه فحضرته الوفاة، فقال لولده: يا ولدي إني أرى أعمالي جميعها معروضة عليَّ، وما أرى لي حيلة غير محبتي للصالحين، وحسن ظني بالعلماء، وإني أرى الموت الحق قد نزل بي لا محالة، وقد ندمت هذه الساعة على ما فرطت في جنب الله، فليت شعري هل يقبل المولى توبتي أم لا؟ ثم قال: يا ولدي لي إليك حاجة قال: وما هي يا أبت؟ قال: اسمع ما أقول لك ثم أنشد يقول:

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٩٠): كذب موضوع.

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٣٧): ذكر السخاوي أنه لم يقف عليه.

نُـــح عـــلى مـــا فـــات ... مـــني مـــن قـــبيح التـــبعات
نُـــح إذا صـــارت عظـــامي ... في العظـــــام الـــــناخرات
نُـــــح بدمـــــع ثم لا ... تـــبخل بفيـــض العـــبرات
نُـــح إذا عايـــنت قـــبري ... في عظـــامي الدارســـات
نُـــح إذا مـــا صـــرت وحـــدي ... في القفـــار الموحشـــات
بـــين دور وهوام وتراب ودقات ... نح لتذكار الخطايا وقطيع المنكرات

ثم بكى الشيخ حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: يا ولدي بحق التربية لا تضيعني، فأنا كنت المفرط في نفسي، والمضيع لحقي من يخلصني من عذاب الله، واشقوتاه، أنا المعترف بذنبي وخطيئتي أترى المولى يقبل توبتي ويرحم شيبتي ويمحوا زلتي، ثم خرجت روحه واسود وجهه، فبكى ولده عند ذلك لما رأى من حال أبيه، وإذا بهاتف يهتف به: يا هذا أبشر فقد أعتقه الله من النار بحسن ظنه بربه ﷻ وحبه وصحبته للصالحين والعلماء، ثم عاد وجهه في الحال أبيض، يتهلل نوراً وعلى جبهته مكتوب: ﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾[التوبة: ١٠٢] ولله در القائل حيث قال:

يـــا من أساء ثم اعتدى ثم أقترف ... ثم أرعـــوى ثم انـــتهى ثم أعترف
أبشـــر بقـــول الله في تنـــزيله ... إن ينـــتهوا يغفر لهم ما قد سلف

***

المجلس الثلاثون

في حديث «إن من الشجر شجراً لا يسقط ورقها»

وما فيه من الفوائد واللطائف

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، الحليم الستار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الجبار، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار، الذي سلمت علية الأحجار، وسعت إلى خدمته الأشجار.

قَالَ الْبُخَارِي:

باب طَرْحِ الإِمَامِ الْمَسْأَلَةَ عَلَى أَصْحَابِه لِيَخْتَبِرَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ

حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ».

قَالَ: فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**».

معنى الحديث: أنه كان عند النبي ﷺ عشرة من الصحابة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وعبد الله بن عمرو كان طفلاً صغيراً، فأتى النبي ﷺ بشيء من جمار النخل فصار يأكل منه، وكان من عادته ﷺ إذا اجتمع بأصحابه في بعض الأحيان يلقي عليهم بعض المسائل ليختبر أفكارهم ويحرضهم في طلب العلم، فألقى عليهم مسألة وقال لهم: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي تشبه المسلم، حدثوني وأخبروني ما هي؟

فذهب وفكر كل واحد من الصحابة الحاضرين إلى نوع من أنواع شجر البوادي فسار يفسرها بذلك النوع وذهلوا وغفلوا عن النخلة.

قال عبد الله بن عمر: فلما رأيت جمار النخل في يد النبي ﷺ وهو يأكل منه وقع في نفسي أنها النخلة، ولكن استحيت أن أتكلم عنده ﷺ، وعنده الأكابر مثل أبي بكر وعمر هيبة منهم وتوقيراً لهم، فما عرف عبد الله ابن عمر أنها النخلة إلا من الجمار الذي كان مع النبي ﷺ.

وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغي للشخص إذا ألقى عليه شخص سؤلاً خفياً، ويسمى لغزاً، أن يتفطن لقرائن الأحوال الواقعة عند السؤال كما تفطن عبد الله إلى أنها النخلة بالجمار.

وينبغي للسائل إذا ألقى لغزاً على غيره أن لا يبالغ في تعتيمه وإخفائه على المسئول، بحيث لا يحصل باب يدخل منه، بل ينبغي أن يقرب له حتى يقع في فكره فيحصله كما فعل النبي ﷺ، فإنه ألقى السؤال عليهم والجمار في يده، لعل أن يهتدوا بها إلى النخلة، وما اهتدى منهم إلا عبد الله.

وكما ألغز شيخ الإسلام ابن حجر في عود الأراك فقال:

أراك تروم إدراك المعاني ... ثم أرعوى ثم انتهى ثم أعترف

فما شيء له طيب وطعم ... وذاك الشيء في شعري مسما

فأول ما قال في لغزه: أراك، ليبقى للمسئول باباً لمعرفته.

وجاء في روية: أن عبد الله بن عمر قال حدثني أبي بما وقع في نفسي بعد أن فسرها لهم رسول الله ﷺ بأنها النخلة، وقلت: عرفتها ولكن كرهت أن أتقدم عليكم بالكلام، فقال له أبوه لأن تكون قلتها أحب لي من كذا وكذا.

وإنما تمنى عمر أن يكون ولده أجاب النبي ﷺ على السؤال قبل أن يبينه لهم رسول الله ﷺ، لما طبع عليه الإنسان من محبة الخير لنفسه ولولده، ولتظهر فضيلة الولد في الفهم من صغره، ليزداد من النبي ﷺ حظوة، ولأنه كان يرجو أن يدعو إلى ذلك في الزيادة في الفهم.

فقوله في الحديث: «**وإنها مثل المسلم**» أي: تشبه المسلم، فاختلف العلماء في وجه الشبه بين النخلة والمسلم:

فقيل: وجه الشبه أن النخلة إذا قطع رأسها تموت، وقيل: وجه الشبه أنها لا تحمل حتى تلقح وكذلك المسلم، وقيل: وجه الشبه أنها تموت إذا غرقت وكذلك المسلم، وقيل: وجه الشبه أن لطلعها رائحة مني الآدمي، وقيل: وجه الشبه أنها تعشق كما يعشق المسلم.

فقد حكي في كتاب مصارع العشاق أن بعض العارفين مر على نخلتين متغايرتين أحدهما خضراء يانعة، والأخرى صفراء متغيرة، فعرف بعين الفراسة أن الصفراء عاشقة للخضراء، فأخذ حبلاً وربط رأس الصفراء برأس الخضراء وواصل بينهما وتركهما ومضى ثم عاودهما فرأى الصفراء قد صارت باتصالها والخضراء يانعة مثلها.

وقيل: وجه الشبه أنه تشرب من أعلاها كالمسلم.

قال شيخ الإسلام: وكل هذه الأوجه ضعيفة لأن الكافر يشارك المسلم في ذلك، وقيل: وجه الشبه أنه خلقت من فضلة طينة آدم، فهي عمة لكل آدمي.

فقد حكي في كتاب نديم الكرماء: أن آدم لما أهبط إلى الأرض وباشر الحرث والزرع، تعب وتشعث جسده وشعره، فجاء جبريل فأزال العرق والغبار عن جسده، وأخذه من شعره ومن جسده، فأخذ آدم ذلك كله ودفنه في الأرض، ثم نام وانتبه وقد أنبت الله تعالى إلى جانبه نخلة عظيمة طارحة في ساعة واحدة، فكان خشبها من طين جسده وليفها من شعره، وجريدها من ظفره، فلهذا ورد أن النبي ﷺ **قال: «لا ترجموا عمتكم النخلة»**.

هذا والصحيح أن هذا ضعيف فقد ضعفه ابن حجر وغيره وقال: قول من زعم أنها تشبه المسلم لكونها خلقت من فضلة طينة آدم ضعيف، فإن الحديث الوارد في ذلك لم يثبت عنه ﷺ فما ينقله بعض الناس أنه ﷺ قال: «**أكرموا عمتكم**» قيل: ومن عمتنا؟ قال: «**النخلة**» [1] لم يثبت عنه ﷺ والصحيح في وجه الشبه بين المسلم والنخلة كما ذهب إليه أكثر أهل العلم أنها أشبهت المسلم في كثرة برها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، فمن حين أن يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعده يتخذ منه منافع كثيرة من خشبها وورقها وأغصانها، فتستعمل جذوعاً وحطباً وعصياً، وحصراً وحبالاً وأواني وغير ذلك، ثم ينتفع بنواها علفاً للإبل وغيرها، والمؤمن خير كله من كثر طاعاته ومكارم أخلاقه ومواظبته على عبادته من صلاته وصيامه وقراءته وذكره وصلته وصدقته وسائر الطاعات.

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة:

منها: أنه يستحب للعالم أن يلقي المسائل الخفية على الطلبة ليمتحن أذهانهم ويختبر أفهامهم، ويبين ذلك لهم إن لم يفهموا وأما ما ورد في الحديث كما راوه أبو داود «**أنه ﷺ نهى عن الأغلوطات**» [2] وهي صعاب المسائل، فهو محمول على ما إذا سأل الإنسان شيئاً لا نفع فيه، وسأل ليعنت المسؤول أو يعجزه، فإن ذلك لا يجوز، وأما إذا سأل ليفيد وينفع فإنه سنة.

---

(١) أخرجه أبو يعلي في مسنده (٣٥٣/١، رقم ٤٥٥)، والرامهرمزي في أمثال الحديث (٧٣/١، رقم ٣٥)، والديلمي في الفردوس (١/ ٦٨، رقم ١٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٢٣/٦) عن علي.
قال الهيثمي (٣٩/٥): فيه مسرور بن سعيد، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٢١/٣، رقم ٣٦٥٦). وأخرجه أيضاً: أحمد في مسنده (٤٣٥/٥، رقم ٢٣٧٣٨) ، والطبراني في الكبير (٣٨٠/١٩، رقم ٨٩٢)، وفي الأوسط (١٣٧/٨، رقم ٨٢٠٤) عن معاوية.

ومنها: أنه يستحب للعالم أن يحرض الناس ويحثهم على العلم وفهمه.

ومنها: أنه يستحب للإنسان الحياء خصوصاً بحضرة الأكابر، ما لم يؤد إلى تفويت مصلحة، ولهذا تمنى عمر أن يكون ابنه لم يسكت.

ومنها: أن فيه دلالة على أنه ينبغي الأدب مع الأكابر والإخوان والأصحاب، والأدب هو ما يتولد من صفاء القلب وحضوره، ويقال: هو الخلق على بساط الصدق ومطالعة الحقائق بقطع العلائق، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى أدبني فأحسن تأديبي، وأثنى علي بحسن الأدب حتى قال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾**[الرحمن: ١٧]» [(١)].

وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي**» [(٢)] قيل معناه: أن كمال النعيم في حسن الخلق، وكمال الأدب في حسن الخلق.

وقال ﷺ: «**إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه**» [(٣)].

ومنها: أنه يستحب للصغير أن يوقر الكبير، ويستحب للولد أن يقدم أباه في القول على نفسه، وأن لا يتقدم عليه بما فهمه وإن ظن أنه الصواب توقيراً له وإجلالاً، فقد ورد في مسند ابن ماجة القزويني[(٤)] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**جالس العلماء تعرف في السماء، ووقر كبير المسلمين تجاورني في الجنة، واعطف على الطفل الصغير تكن في شفاعتي يوم القيامة**».

وفي الحديث دليل على أن العالم الكبير قد يخفى عليه بعض المسائل، ويحصلها من هو دونه، لأن العلم مواهب الله، والله يؤتي الحكمة من يشاء، كما خفي على أبي بكر وعمر وغيرهما سؤال للنبي ﷺ وفهمه عبد الله على صغر سنه.

وفيه دليل على جواز تجمير النخل كتتويب التين، ولا يعد ذلك من باب إضاعة المال.

ومثل هذا السؤال الذي سأله النبي ﷺ من أصحابه يسمى لغزاً وتعمية، وقد صنف العلماء كتباً في ألغاز المسائل اقتدوا في ذلك بالنبي ﷺ وقد ذكر فقهاؤنا مسائل كثيرة

---

(١) أورده بنحوه ابن الجوزي في العلل (١/١٧٨، رقم ٢٨٤) عن علي.

(٢) أخرجه أحمد (٦/٦٨، رقم ٢٤٤٣٧)، قال الهيثمي (١٠/١٧٣): رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١/٢٩٠، رقم ٥٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٢٦٤) عن أم سلمة.

(٤) هاكذا بالأصل: مسند ابن ماجة القزويني، ويحتمل أن له مسنداً غير السنن وقف عليه المصنف، والحديث ليس في سننه والله أعلم.

من هذا الباب منها: أنهم قالوا: أي إنسان يجوز له مس المصحف وحمله وهو جنب، مع أن المحدث حدثاً أصغر لا يجوز له مسه ولا حمله، فضلاً عن الجنب قال الله تعالى ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة: ٧٩]؟ وبينوا ذلك وصورته بما إذا كان الإنسان جنباً و لم يتمكن من الطهارة، وعنده مصحفاً، وخاف عليه إن تركه في مكانه من غرق أو حرق أو نجاسة أو كافر يأخذه، فإنه يأخذه في هذه الحالة وجوباً للضرورة، بل قال النووي: «إذا أراد التخلي وخاف من وضع المصحف من يده أن يأخذه غاصب، فإنه يتغوط وهو معه».

ومنها: أنهم قالوا: أي صلاة يجب أداؤها وإذا فاتت لا يجب قضاؤها بل لا يجوز مع أن الصلاة إذا فات وقتها وجب فعلها خارج الوقت وتكون قضاء؟ وصوروا ذلك بصلاة الجمعة فإنها إذا فاتت لا تقضى جمعة، وإنما تقضى ظهراً والظهر صلاة أخرى ليست بدلاً عن الجمعة.

ومنها: أنهم قالوا: أي يوم يجب فيه على المكلف أكثر من ألف صلاة من غير نذر، والكل أداء ليس فيها واحدة قضاء ولا منذورة؟ وبينوا ذلك وصوروه بوقت خروج الدجال فإنه يستمر أربعين يوماً يوم كسنه ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر أيامه كهذه الأيام، فاليوم الذي كسنه لا يكفي خمس صلوت، بل كل وقت منه كقدر يومنا هذا يصلى فيه خمس صلوات، وهكذا إلى آخره.

ومنها: أي امرأة مات عنها زوجها وليست بحامل انقضت عدتها في نصف يوم، مع أن عدتها أربعة اشهر وعشرة أيام قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾[البقرة: ٢٣٤] وبينوا ذلك وصوروه باليوم الذي كسنه عند خروج الدجال، فإنه من حين خروج الشمس إلى زوالها نصف نهار وهو مقدار ستة أشهر من هذه الأيام فتنقضي.

ومنها: أنهم قالوا: أي أذان يستحب لغير الصلاة، وأي إقامة تستحب لغير الصلاة؟ وصوروا ذلك بالمولود حال ولادته فإنه يستحب أن يؤذن في أذنه اليمين ويقام في أذنه اليسرى، وفي صورة أخرى وهي: ما إذا تمردت الجان كما قاله النووي في الأذكار.

ومنها: أنهم قالوا: أي شيء يستحب الإتيان به في القضاء دون الأداء؟ وصوروا ذلك بالجهر والإسرار فإذا فات الإنسان صلاة الظهر مثلاً فقضاها مثلاً ليلاً يستحب له أن يجهر في الركعتين الأولتين كصلاة العشاء، ولا يستحب الجهر فيها لو صلاها

أداء، وإذا فات الإنسان صلاة العشاء مثلاً فقضاها نهاراً يستحب الإسرار فيها، ولا يستحب الإسرار فيها لو صلاها أداء.

ومنها: أنهم قالوا: أي ثوب متنجس صلى فيه صحت صلاته، وإن صلى عليه أو حمله في كمه ونحوه لا تصح صلاته؟ وصوروا ذلك بالثوب الذي أصابته نجاسة معفو عنها كدم البراغيث ونحوها.

فائدة: ينبغي لمن سمع مسألة أو لغزاً وكان ظاهره قبيحاً أن لا ينكره أولاً، بل يتفكر فيه ويتأمله، فإن لم يعرفه يفحص عنه من قائله أو غيره، فإن من اعتمد على ظواهر الألفاظ غير متأمل فيها يوقع الخلق في جهل عظيم، ويقع هو في إثم كبير، وربما يقضي السامع على القائل بالكفر، ويقول فلان تكلم بكلام كفري، فيقع في الخطأ العظيم، فقد حكى العلامة التاج السبكي أن شخص أحب الاجتماع بالمأمون أمير المؤمنين فلم يمكنه التوصل إليه، فاحتال بحيلة وهي أنه قام في ملأ من الناس وقال: أيها الناس قفوا واسمعوا ما أقول لكم، ولست بفقير أطلب منكم شيئاً، ثم قال: اعلموا أن عندي ما ليس عند الله، ولي ما ليس لله، ومعي ما لم يخلق الله، وإني أحب الفتنة، وأكره الحق، وأقول إن اليهود قالت حقاً، وإن النصارى قالت حقاً، ومعي زرع ينبت بغير بذر، وسراج يضيء بغير نار، وأنا أحمد النبي، وأنا ربكم أرفعكم وأضعكم، فقاموا إليه وكادوا يأتون على نفسه وقالوا: لا كفر فوق هذا وصاروا به إلى المأمون، فلما مثل بين يديه وأعاد القول على أمير المؤمنين ثم أخذ يبينه فقال: أما قولي: لي ما ليس لله فإن لي صاحبه وولد وليس لله صاحبه ولا ولد تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وأما قولي: عندي ما ليس عند الله فعندي الجور والظلم والله تعالى منـــزه عنهما، وأما قولي: معي ما لم يخلق الله فمعي القرآن، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وأما قولي: إني أحب الفتنة فالمراد بها المال والولد وهما محبوبان مع أنهما فتنة كما نطق به القرآن، وأما قولي: أكره الحق فالمراد بالحق الموت فإنه حق مكروه، وأما قولي: وأقول أن اليهود قالت حقاً والنصارى قالت حقاً، فالحق الذي قالته اليهود والنصاري ما أشار الله إليه بقوله: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ**﴾[البقرة: ١١٣] وأما قولي: ومعي زرع ينبت بغير بذر فهو شعر الرأس، وأما قولي: ومعي سراج يضيء بغير نار فهما العينان، وأما قولي: أنا أحمد النبي والنبي منصوب على المفعولية بأحمد، وأحمد فعل والمعنى أنا أحمد النبي أي: أشكر نبينا محمد ﷺ وأما قولي: أنا ربكم أرفعكم وأضعكم فالمعنى: أنا صاحبكم فإن رب بمعنى

صاحب أرفع الكم وأضعه، فاستحسن المأمون ذلك وأصغى إلى كلامه وقضى حاجته.

وفي الحديث دلالة على بركة النخلة وما تثمره، ولفضل النخلة وبركتها شبه الله كلمة التوحيد بها في القرآن العظيم حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أصلها ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾[إبراهيم: ٢٤] قال المفسرون الكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة هي النخلة فإنها طيبة الثمرة، أصلها ثابت في الأرض وفرعها إلى أعلاها في السماء، كذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق، فإذا تكلم بها عرجت فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله.

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا قال العبد لا إله إلا الله يصعد بها الملك إلى السماء، فيستقبله في السماء ملك آخر فيقول من أين؟ فيقول: وأنت إلى أين؟ فيقول: أنا صاعد بشهادة فلان إلى الله تعالى، فيقول: وأنا نازل إليه من عند الله ومعي براءة من النار**».

وقد ذكر الفخر الرازي في كتابه أسرار التنـــزيل وجه تشابه كلمة التوحيد بالنخلة من وجوه ستة:

الأول: شجرة النخلة لا تنبت في جميع البلدان، كذلك التوحيد لا يجري على كل لسان.

الثاني: أن شجرة النخلة أطول الأشجار، وكذلك كلمة التوحيد أعلى الكلمات.

الثالث: أن الشجرة ثابتة في الأرض وفرعها في السماء، كذلك هذه الكلمة الطيبة ثابتة في القلب وهو المعرفة، وفرعها ثابت في السماء ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[فاطر: ١٠].

الرابع: أن شجرة النخلة تحمل كل سنة مرتين كذلك الإيمان يحمل في الدنيا مرة ويثاب لأجل إيمانه أهلية الشهادة والولاية والأمانة، ومرة أخرى في الآخرة وهي الجنة الباقية والنعمة الدائمة.

الخامس: أن النخلة وإن حصل في وسط ثمرها نواة لا خير فيها ولا منفعة، فإن قيمة تلك الثمرة لا تنقص بسبب تلك النواة، وكذا كلمة التوحيد وإن كان يحصل معها شيء من المعاصي لا تنقص بسبب ذلك، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾ [الزمر: ٥٣].

السادس: أن النخلة أسفلها الذي يقرب من الناس كله شوك، والثمرة والمنفعة في أعلاها، كذا كلمة التوحيد أولها تكاليف شاقة هي كالشوكة، وأعلاها الثمرة الحلوة اللذيذة وهي المعرفة والمحبة.

لطيفة: كتب مالك الروم إلى سيدنا عمر ﷺ أخبرني رسلي أن ببلدكم شجرة يخرج ورقها كأذان الحمير، ثم ينشق عنها ثمر أحسن من اللؤلؤ ثم يخضر حتى يكون كالزمرد، ثم يحمر ويصفر فيكون كشذور الذهب وقطع الياقوت، ثم ينبع فيكون كأطيب الفالوذج، ثم يبين فيكون قوتاً للمقيم وزاداً للمسافر، فإن صدقوا فهذه من شجر الجنة، فكتب إليه عمر: نعم، وهي التي ولد تحتها عيسى فلا تدع مع الله إلهاً آخر.

لطيفة أخرى غريبة: ذكر بعض العلماء في مصنف له عن أبي دجانة الصحابي ﷺ أنه كان في زمن النبي ﷺ إذا صلى الصبح خلف رسول الله ﷺ خرج من المسجد سريعاً و لم يحضر الدعاء - وقد قال العارف بالله الرباني سيدي عبد القادر الكيلاني في كتابه الغنية: إن العبد إذا انصرف من المسجد و لم يحضر الدعاء تقول الملائكة: انظروا إلى هذا الذي قد استغنى عن الله - فأعلموا رسول الله ﷺ بما كان يفعله أبو دجانة فقال له رسول الله ﷺ: «**يا أبا دجانة مالك تخرج سريعاً ولا تحضر الدعاء**» فقال: يا رسول الله لي جار منافق، وفي داره نخلة وأغصانها على داري، فإذا هب الهواء في الليل سقط رطبها في دارنا فأسبق أولادي قبل أن يستيقظوا وأجمع الثمر وأرده إليه، فطلب النبي ﷺ صاحب النخلة وقال له: «**بعني نخلتك بعشر نخلات في الجنة، عروقها من الزبرجد الأخضر، وساقها من الذهب الأحمر، وأغصانها من اللؤلؤ الأبيض**» فقال: لا أبيع حاضراً بغائب فقال أبو بكر ﷺ: قد اشتريتها منه بعشر نخلات في موضع كذا، ففرح المنافق ثم أعطى التي في داره لأبي دجانة بنخلات أبي بكر ﷺ ثم جاء إلى داره وأخبر زوجته بأنه باع النخلة لأبي بكر بعشر نخلات في مكان كذا، وقال: النخلة في دارنا فكلما غفل أبو دجانة أكلنا منها ولا ندع له إلا الشيء القليل، فلما نام المنافق تلك الليلة وأصبح رأى النخلة قد تحولت من داره إلى دار أبي دجانة ﷺ بقدرة الله تعالى.

فهذا وأمثاله من الأشياء الدالة على نبوته قال بعضهم: وإذا تأملت معجزاته وباهر آياته وكراماته وجدها شاملة للعلوي والسفلي والصامت والناطق والساكن والمتحرك والمائع والجامد والسابق واللاحق والحاضر والباطن والظاهر والعاجل والآجل إلى غير

ذلك مما لو ذكر لطال كتسليم الحجر والشجر عليه، وشهادتهما له بالرسالة بين يديه، ومخاطبتهما بالسيادة وحنين الجذع إليه، إلى غير ذلك من الخوارق للعاده.

فمن معجزاته: ما روي أنه ﷺ كان على شط ماء وقعد عكرمة بن أبي الجهل[١] فقال: إن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذي في الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق، فأشار إليه عليه الصلاة والسلام فانقلع من مكانه وسبح حتى صار بين يدي رسول الله ﷺ وشهد له بالرسالة، فقال له رسول الله ﷺ: «**يكفيك هذا؟**» فقال: حتى يرجع إلى مكانه [٢].

ومن معجزاته صلوات الله وسلامه عليه: أن الأشجار نطقت له وسعت إليه كما صحت بذلك الأخبار ونقله عنه ﷺ الثقات الأخيار، وقد أشار إلى ذلك صاحب البردة بقوله:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة ... تمشي إليه على ساق بلا قدم

كأنما سطرت سطراً لما كتبت ... فروعها من بديع الخط بالقلم

وذكر صاحب الشفا وغيره: أن أعرابياً سأل النبي ﷺ آية -أي: معجزة- دالة على نبوته فقال له: «**قل لتلك الشجرة: إن رسول الله يدعوك**» فمالت عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها وقطعت عروقها، ثم جاءت تجر عروقها حتى وقفت بين يديه، فقالت: السلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: فمرها أن ترجع إلى منبتها، فأمرها فرجعت ودست عروقها في منبتها [٣].

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فدنا منه أعرابي فقال: «**يا أعرابي أين تريد؟**» قال: أهلي، قال: «**هل لك إلى خير**» قال: وما قال هو؟ قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله**» قال: ومن يشهد لك على ما تقول؟ قال: «**هذه الشجرة السمرة وهي في شاطئ الوادي، فادعها فإنها تجيبك**» قال: فدعاها فأقبلت تشق الأرض حتى قامت بين يديه ﷺ فاستشهدها ثلاثاً أي: قال لها: «**من أنا؟**» فقالت: رسول الله ثلاث مرات،

---

(١) هاكذا بالأصل بأل التعريف والمشهور بدونها، ويبدو أن المصنف اعتمد على أنه عرف بكنيته هذه.

(٢) انظر: السيرة الحلبية (٢/٧٦٥).

(٣) أخرجه البزار عن بريدة كما في مجمع الزوائد (٩/١٠)، قال الهيثمي: فيه صالح بن حيان وهو ضعيف.

ثم عادت إلى مكانها [١].

ولله در من قال:

نبي له الأشجار جاءت مطيعة ... نبي عليه سلم الحجر الصلد
نبي هدي حتى الجماد يحبه ... نبي كريم ما لدعوته رد
له الفضل والإفضال والبر والتقى ... له العدل والإحسان والجود والمجد

صح وثبت أن جذع النخل حن لفراقه ﷺ فقد قال جابر بن عبد الله ﷺ: كان مسجد رسول الله ﷺ مسقوفاً بجذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب إلى جذع منها ويضع يده عليه قبل أن يصنع المنبر، فلما صنع له المنبر في السنة الثانية أو الثامنة من الهجرة فارق الجذع، قال جابر: سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار [٢] وهي: الناقة التي أتى عليها من يوم أرسل عليها الفحل عشرة أشهر، فلما حن الجذع لفراقه دعاه رسول الله ﷺ فجاءه يخرق الأرض فقال له: «**إن شئت أردك إلى الحائط أي: البستان الذي كنت فيه، ينبت لك عروقك، ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمر، وإن شئت أغرسك في الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك**» ثم أصغى له ليسمع ما يقول، فقال: بل تغرسني في الجنة فيأكل مني أولياء الله، فأكون في مكان لا أبلى فيه فسمعه من يليه، فقال ﷺ: «**قد فعلت**» ثم قال: «**اختار دار البقاء على دار الفناء**» ثم أمره فعاد إلى مكانه [٣].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٣٤/١٤، رقم ٦٥٠٥)، والدارمي في سننه (٢٢/١، رقم ١٦)، وأبو يعلي في مسنده (٣٤/١٠، رقم ٥٦٦٢)، والطبراني (٤٣١/١٢، رقم ١٣٥٨٢).
قال الهيثمي (٢٩٢/٨): رجاله رجال الصحيح.

(٢)أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٤/٣، رقم ٣٣٩٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٩٥/٣، رقم ٥٤٨٧) عن جابر.

(٣) حديث حنين الجذع لرسول الله ﷺ ورد من حديث عدد من الصحابة منهم: جابر وأبي بن كعب وأنس بن مالك وابن عباس.
فأخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٤/٣، رقم ٣٣٩١)، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٠٠، رقم ١٤٢٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣١٩/٦، رقم ٣١٧٤٨) عن جابر.
وأخرجه ابن ماجه في سننه (٤٥٤/١، رقم ١٤١٤)، والدارمي في سننه (٣٠/١، رقم ٣٦)، وأحمد في مسنده (١٣٧/٥، رقم ٢١٢٨٥)، والضياء في المختارة (٣٩٣/٣، رقم ١١٩٢)، والشافعي في المسند (٦٥/١) عن أبي بن كعب. =

فكان الحسن ﷺ إذا حدث بها بكى وقال: يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى مكانه فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

وجاء في رواية أنه أمر بدفنه تحت منبره ليصلى إليه، فلما هدم المسجد أخذه أبي فكان عنده رحمة الله عليه، ونظم ذلك بعضهم فقال:

وحن الجذع شوقاً ورقةً ... ورجع صوتاً كالعشار مرددا
فبادره ضماً فقر لوقته ... لكل امرئ من دهره ما تعودا

وأنشد بعضهم أيضاً:

الجذع حن إلى النبي المصطفى ... بالله أقسم إنه معذور
قد كان حال القرب من أنواره ... في نعمة إقبالها مأثور
فغدا الفرقة بدره متصدعاً ... يبدي الأنين وقلبه مكسور
من ذا الذي يقوى على هجران من ... بين البرية فضله مشهور

وخرج ﷺ إلى نواحي مكة في بعض الأيام فما استقبله شجر ولا حجر إلا شافهه بالسلام، ولما أتى جبريل بالرسالة المعظمة إليه جعل لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه، وأمنت الأبواب والجدران على دعائه، وكان كل من الحجر والشجر يسجدان له إذا مر بإزائه [1].

=وأخرجه الضياء في المختارة (٣٥٧/٤، رقم ١٥٢٠)، والدارمي في سننه (٣٢/١، رقم ٤١) عن أنس بن مالك.

وأخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/١، رقم ٢٤٠٠)، والدارمي في سننه (٣١/١، رقم ٣٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣١٩/٦، رقم ٣١٧٤٦)، والحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (١/ ٣٠٥، رقم ٢٠٠) عن ابن عباس.

(١) حديث تسليم الحجر والشجر لرسول الله ﷺ ورد من حديث عدد من الصحابة منهم: علي وجابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وعائشة رضي الله عنهم:

فأخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٥٩٣، رقم ٣٦٢٦)، وقال: غريب. والدارمي في سننه (٢٥/١، رقم ٢١)، والحاكم في المستدرك (٦٧٧/٢، رقم ٤٢٣٨)، والضياء في المختارة (١٣٤/٢، رقم ٥٠٢) عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه.

وأخرجه الدارمي في سننه (٤٥/١، رقم ٦٦) عن جابر بن عبد الله.

وأخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨٢/٤، رقم ٢٢٧٧)، والترمذي في سننه (٥٩٢/٥، رقم ٣٦٢٤)، وأحمد في مسنده (٨٩/٥، رقم ٢٠٨٦٠)، والطبراني في الأوسط (٢٩١/٢، رقم =

وحنين الجذع إليه، وتسليم الحجر عليه لم يثبت لواحد من الأنبياء إلا له ﷺ فهو من خصائصه الحقيقية.

ومن معجزات نبينا ﷺ الباهرة، كما قاله الشيخ عبيد وغيره: أنه ﷺ لما بنى المسجد بالمدينة قال لأبي بكر احتاج إلى جذوع نخل لأجل سقف المسجد، فقال له أبو بكر ﷺ لي بمكة بيت فيه جذوع نخل تصلح، فدعاها النبي ﷺ فخلق الله تعالى لها أجنحة فطارت وجاءت إليه فسقف بها المسجد.

ومن المعجزات الباهرة أيضاً: أنه ﷺ غرس غصناً من النخلة في سنام البعير بحضرة جماعة من كفار قريش، فأخضر في الحال، وصار نخلة عظيمة ذات أغصان وثمار، ثم تناول الحاضرون من ثمارها، فمن علم الله أنه يؤمن كانت الثمرة حلوة في فمه، ومن علم أنه لا يؤمن عاد حجراً في فمه.

قال بعض العلماء الحنفية: وفي قوله ﷺ: إنها أي: النخلة مثل المسلم أشار إلى أن تشبيه الشيء بالشيء لا يلزم أن يكون نظيره من جميع وجوهه، فإن المؤمن لا يماثله شيء من الجمادات ولا يعادله، بل ولا من الحيوانات.

فائدة: جاء في حديث آخر: أن النبي ﷺ شبه المؤمن بالنحلة بالنون المعجمة والحاء المهملة، فقد قال البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد قال: صاحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا هذا الحديث: «**إن مثل المؤمن كمثل النحلة** [1] **إن صاحبته نفعك، وإن شاورته نفعك، وإن جالسته نفعك، وكل شأنه**

= ٢٠١٢) عن جابر بن سمرة.

وأخرجه الطيالسي في مسنده (ص: ٢١٥، رقم ١٥٣٩)، والبزار (كما في مجمع الزوائد ٨/٢٦٠) بإسناد ضعيف لضعف شيخه عبد الله بن شبيب، على ما ذكره الهيثمي. كلاهما عن عائشة ﷺ.

(١) قال العسكري في تصحيفات المحدثين (١/٣٩٣): ومما يحتاج إلى ضبط وتقييد حديثان روي في أحدهما: « مثل المؤمن مثل النخلة » بالخاء المعجمة، وروي في الحديث الآخر: « مثل المؤمن مثل النحلة » وجميعا صحيح.

فأما بالخاء المعجمة فحدثنا أبو جعفر بن زهير حدثنا يوسف بن موسى القطان حدثنا جرير عن ليث عن محمد بن طارق عن مجاهد قال: صحبت ابن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة فما سمعته يحدث عن نبي الله ﷺ إلا هذا الحديث: « مثل المؤمن كالنخلة إن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك وإن صاحبته نفعك وإن شاركته نفعك وكل شيء من شأنه منافع » الخاء في هذا الحديث معجمة لا يجوز غيرها.

فأما النحلة معجمة فحدثنا به ابن أخي أبي زرعة حدثنا محمد بن عيسى بن حيان المدائني حدثنا =

منافع» [١] وكذاك النحلة كل شأنها منافع.

قال ابن الأثير: وجه المشابهة بين المؤمن والنحلة حذق النحلة وفطنته وقلة أذاه وقنوعه وسعيه في الليل وتنـــزهه عن الأقذار وطيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره، ونحوله وطاعته لأميره، وإن للنحل آفات تقطعه عن عمله منها: الظلمة والغيم والريح والدخان والماء والنار، وكذلك للمؤمن آفات تقطعه عن عمله: ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، وماء الخمر، ونار الهوى.

خاتمة لطيفة: قال في كتاب نديم الكرماء: حكي أن الجنيد قدس الله سره دخل في بعض أعوامه مكة فنـــزل عند امرأة عجوز من الصالحات، كان يعرفها فجلست العجوز تتوضأ فوجدت نوى تمر فأخذت واحدة فغرستها في الأرض، وصبت عليها من الماء الذي كأنت تتوضأ به، فقالت بناتها وهن يضحكن: يا أمي أتأملين أن تعيشي حتى تأكلي من هذه النواة رطباً، قال: فرفعت المرأة طرفها إلى السماء ثم قالت: اللهم أنت القادر الذي تقول للشيء كن فيكون، فأطعمني من هذه النخلة قبل موتي، قال الجنيد: أمين، ثم قام الجنيد والعجوز يصليان العصر، ثم جلسا وإن النخلة قد أخرجت الخوص، ثم الجريد، ثم الخشب، ثم أثمرت، فوالله ما برحنا حتى أكلنا من ثمرها.

ولقد أحسن من قال:

جل الذي أحكامه في البلاد ... تجري بما فيه صلاح العباد
يميت من شاء ويحيي وإن ... قال للشيء كن فيكون ما أراد

***

= سلام بن سليمان الثقفي حدثنا شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « مثل المؤمن مثل النحلة تأكل طيباً وتضع طيباً » وهذا المعجمة لا يجوز غيرها.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/٥٠٤، رقم ٩٠٧٢).

المجلس الحادي والثلاثون

في ذكر خواتم النبي ﷺ وذكر أحكام خاتم الذهب والفضة وغيرهما وذكر خاتم سليمان وقصته وذكر شيء من أسماء النبي ﷺ وشيء من فضائله المتعلقة بذلك

فالحمد لله العادل في حكمه وللعباد راحم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الفاتح الخاتم، وعلى آله وأصحابه ذوي المناقب والمكارم.

قَالَ الْبُخَارِي: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ أَبُو الْحَسَنِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّه، قَالَ أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، قَالَ: كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ كِتَابًا -أَوْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ- فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لاَ يَقْرَءُونَ كِتَابًا إِلاَّ مَخْتُومًا، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ نَقْشُهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِهِ فِي يَدِهِ . فَقُلْتُ لِقَتَادَةَ: مَنْ قَالَ: نَقْشُهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه؟ قَالَ: أَنَسٌ [(١)].

استشكل العلماء قول أنس: «**كتب النبي ﷺ كتاباً**» وقالوا: من خصائصه كان يحرم عليه الكتابة والقراءة في الكتاب، ولهذا يقال له: النبي الأمي، وهو الذي لا يحسن الكتابة ولا يعرفها.

وأجابوا عن الاستشكال بأجوبة:

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «كتب أو أراد أن يكتب»: شك من الراوي، ونسبة الكتابة إلى النبي ﷺ مجازية، أي: كتب الكاتب بأمره.

قوله: «لا يقرءون كتاباً إلا مختوماً»: يعرف من هذا فائدة إيراده هذا الحديث في هذا الباب لينبه على أن شرط العمل بالمكاتبة أن يكون الكتاب مختوماً ليحصل الأمن من توهم تغييره، لكن قد يستغنى عن ختمه إذا كان الحامل عدلاً مؤتمناً.

قوله: «فقلت» القائل هو شعبة.

فائدة: لم يذكر المصنف من أقسام التحمل الإجازة المجردة عن المناولة أو المكاتبة، ولا الوجادة ولا الوصية ولا الإعلام المجردات عن الإجازة، وكأنه لا يرى بشيء منها. وقد ادعى ابن منده أن كل ما يقول البخاري فيه: قال لي فهي إجازة، وهي دعوى مردودة بدليل أني استقريت كثيرا من المواضع التي يقول فيها الجامع قال لي فوجدته في غير الجامع يقول فيها حدثنا، والبخاري لا يستجيز في الإجازة إطلاق التحديث، فدل على أنها عنده من المسموع، لكن سبب استعماله لهذه الصيغة ليفرق بين ما يبلغ شرطه وما لا يبلغ.

أحدها: أن معنى «**كتب**» أي أمر غيره بالكتابة، فنسب الفعل إليه على سبيل المجاز.

الثاني: أن الله أوحى إليه أن يكتب.

الثالث: أن الكتابة وإن لم يكن يحسنها صدرت منه حقيقة في بعض الأوقات، فيكون ذلك من قبيل معجزاته الخارقة للعادة، وقد عدوا من معجزاته أنه كان ينظر إلى المكتوب ويعرفه فتنطق له الحروف وتبين له المعنى المراد.

وكما كان ﷺ تحرم عليه الكتابة كان يحرم عليه أخذ الزكاة والصدقة والكفارة والمنذورات، ونزع لامته إذا لبسها حتى يقاتل، أو يحكم الله بينه وبين عدوه بما شاء، وكان يحرم عليه قول الشعر وروايته.

قال تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾[يس: ٦٩].

واختلف العلماء كما قاله البغوي في النبي ﷺ هل كان يحسن الخط ولا يكتب الشعر ولا يقوله أم لا يحسنها؟

فقيل: كان يحسنهما ولا يفعلهما، والأصح: أنه كان لا يحسنهما ولكن كان يميز بين جيد الشعر ورديئه، ومما يدل على أنه كان ﷺ لا يحسن الشعر أنه ذكر يوماً قول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقدم فيه وأخر وقال:

يأتيك من لم تزود بالأخبار

فقال له أبو بكر: يا رسول الله لم يقل هكذا، وإنما قال:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال ﷺ : «**كلاهما سواء**». فقال: أشهد أنك لست بشاعر ولا تحسنه. قاله ابن الملقن في باب هل تنبش قبور الجاهلية في كتاب الصلاة.

فإن قيل: إذا كان قول الشعر حراماً عليه ﷺ فكيف نقل عنه أنه قال:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وقال:

هل أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

وأجابوا عن ذلك بأجوبة:

الأول: أن هذا ليس بشعر لأنه صدر من النبي ﷺ من غير قصد، والشعر هو الكلام الموزون المقفى بالقصد، وقد وقع في كلام الله من ذلك كثيراً قال تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[البقرة: ٩٢].

الثاني: أن مشطور الرجز عند الأخفش وغيره ليس بشعر.

وقوله: «**لأنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً**» المعنى: كتب النبي ﷺ كتاباً إلى العجم وإلى الروم بلا ختم، فقيل له: يا رسول الله إنهم أي الأعاجم والأروام لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً، والحكمة في أنهم كانوا لا يقرؤون إلا الكتاب مختوماً خوفاً من كشف أسرارهم وإشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم، وفي هذا دلالة على أنه يسن للسلطان والقضاة والحكام ختم كتبهم، وقد وصف الله كتاب سليمان الذي أرسله إلى بلقيس مع الهدهد بأنه كتاب كريم، وإنما وصفه بذلك لأنه كان مختوماً.

وقوله: «**فاتخذ خاتماً**» أي: لما قالوا له ﷺ: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً أي: بخاتم، اتخذ له خاتماً من فضة نقشه «**محمد رسول الله**» وصار يختم به الكتب الذي يرسلها إلى الكفار، حتى يقرؤوا كتابه.

وفيه دلالة على جواز مكاتبة الكفار، وقد كاتب جماعة من ملوك الكفار من جملتهم كسرى ملك فارس.

وكسرى بكسر الكاف وفتحها والكسر أفصح فارسي معرب: لقبه، وأما اسمه فقيل: أنوشروان بن هرمز، والصحيح كما قاله ابن حجر في اسمه: ابرويز بن هرمز بن أنوشروان، قال: ووهم من قال: أنه أنوشروان [(١)].

وملك كسرى الكافر سبعاً وأربعين سنة وسبعة أشهر، أرسل له رسول الله ﷺ كتابه مع عبد الله بن حذافة يدعوه إلى الدخول في الإسلام، فلما دفع إليه عبد الله بن حذافة الكتاب وقرئ عليه أخذه ومزقه، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك دعا عليه وقال: «**اللهم مزق ملكه**» [(٢)] أي: فرقه وشتته، فمزق الله ملكه كل ممزق، وسلط الله عليه ولده فمزق بطنه.

فقد نقل علماء التاريخ: أن كسرى كان له ولد يقال له شيرويه، أراد قتل كسرى

---

(١) انظر فتح الباري (١/١٥٥).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٢٥٩).

لأجل الملك، فلما أيقن كسرى بالهلاك وكان مغلوباً فتح خزائنه فرأى خزانة الأدوية، فكتب على حق السم الدواء النافع للجماع، وكان ابنه مولعاً بذلك، فلما قتله فتح خزائنه فرأى خزانة الأدوية فتناول ذلك الحق منها فقرأه وفتحه وتناول منه شيئاً فأكله ومات من ذلك السم، ولم يقم لهم بعد دعاء النبي ﷺ عليهم أمر نافذ، بل أدبر عنهم الأقبال، ومالت عنهم الدولة، وأقبلت عليهم النحوس، حتى انقرضوا.

وفي اتخاذه ﷺ خاتماً من فضة دليل على جواز اتخاذ خاتم الفضة للرجال، وقد ذكر العلماء: أن التختم بخاتم الفضة جائز بالإجماع، بل لبسه سنة لهذا الحديث.

والأفضل عند إمامنا الشافعي وأكثر العلماء جعله في اليد اليمنى لأنها أشرف وأفضل، فهي أحق بالزينة والإكرام.

لكن نقل ابن العماد عن المتولي أنه قال: لبسه اليوم في اليسار أولى لأن لبسه في اليمين قد صار شعاراً للرافضة، قال: وهذا الذي ذكره يوافقه ما حكاه الرافعي عن أبي هريرة: أن تستطيح القبر لا يستحب في هذا الزمان، بل التسنيم أولى، لأن التسطيح صار شعاراً للرافضة، فالأولى بنا الآن مخالفتهم وصيانة للميت وأهله من الاتهام بالبدعة، قال: ومما يشهد للمتولي قوله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن في مواقف التهم**».

وقول علي ﷺ: «إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره، فرب سامع نكراً لا تستطيع أن تسمعه عذراً»، ولأنه إذا تشبه بهم خاض الناس فيه فيكون سبباً في إيقاع الناس في الإثم.

وأكثر العلماء قالوا: الأفضل لبسه في اليمنى وإن صار شعار الرافضة، قالوا: لأنا لو تركنا ما ثبت من السنة لإطباق المبتدعة عليه لجرنا ذلك إلى ترك سنن كثيرة.

وعند الإمام مالك جعله في اليسار أفضل، لأنه كان آخر الأمرين منه ﷺ كما قاله البغوي في شرح السنة وكرهه في اليمنى.

والسنة جعل فصه من باطن كفه لأنه أبعد من الإعجاب، وأصون للفص، ومحل التختم خنصر اليمنى واليسرى، لأنه أبعد من الامتهان فيما يتعاطى باليد، لكونه طرفاً، ولأنه لا يشغل اليد عما يتناوله من أشغالها بخلاف غير الخنصر.

وهل يجوز للرجل أن يلبس الخاتم في غير الخنصر من باقي أصابعه؟

قال الأذرعي: الصحيح التحريم للنهي عن التشبه بالنساء، لكن قال النووي في شرح مسلم: لا يحرم لكن يكره كراهة تنـــزيه.

وروى النسائي أن رسول الله ﷺ قال لعلي ﷺ: «**يا علي سل الله الهدى والسداد**» قال علي: ونهاني عن الخاتم في هذه وهذه وأشار يعني بالسبابة والوسطى [١].

ويجوز للرجل أن يتخذ خواتم يلبسها واحد بعد واحد.

وهل يجوز أن يلبس في وقت واحد أكثر من خاتم؟

قال المحب الطبري: لا يجوز.

قال الدارمي والخوارزمي: يجوز مع الكراهة.

واختلف العلماء في مقدار وزن الخاتم الذي يجوز لبسه للرجل من الفضة فقال ابن الرفعة والأذرعي: يجب نقصه عن المثقال لقول النبي ﷺ في الحديث: «**ولا تبلغه مثقالاً**».

وذهب الخوارزمي وغيره إلى أنه لا يتعين نقصه عن المثقال بل يجوز له أن يلبس خاتماً موافقاً لعرف الناس في لبسه، فإن جرى عرف الناس بلبس وزن دون مثقال تعين عليه ذلك، وإن جرى عرفهم بلبس خاتم فضة وزنه أكثر من مثقال جاز له أن يلبس خاتماً مقداره أكثر من مثقال، فالضابط في جوازه العرف.

بذلك أفتى كثيرين من المتأخرين من علمائنا الشافعية كالقاضي زكريا فهو المذهب.

وأما الحديث الذي قال فيه: «**ولا تبلغه مثقالاً**» فهو ضعيف كما قاله النووي، بل قال النسائي: منكر.

وأما المرأة فيجوز لها أن تلبس خاتم الفضة، بل ويجوز لها أن تلبس خواتم في أصابع من غير كراهة.

وفي الحديث دلالة على جواز نقش الخاتم ونقش اسم صاحبه عليه، وعلى جواز نقش اسم الله تعالى عليه من غير كراهة في ذلك، لأن رسول الله ﷺ نقش على خاتمه محمد رسول الله، واتخذ كثير من السلف من العلماء والأنبياء وغيرهم خواتم نقشوا عليها.

فقد نقل عن الإمام مالك أنه اتخذ خاتماً نقش عليه: «حسبي الله ونعم الوكيل» [٢].

وعن إمامنا الشافعي أنه اتخذ خاتماً ونقش عليه: «الله ثقتي محمد بن إدريس».

وعن موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه أنه اتخذ خاتماً ونقش عليه:

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (١٧٧/٨، رقم ٥٢١٠).

(٢) أورده القرطبي في تفسيره (٨٨/١٠).

«لكل أجل كتاب».

وقوله في الحديث في خاتم النبي ﷺ نقشه: «**محمد رسول الله**» لم يبين في هذا الحديث كيفية كتابتها، ولا هل كانت سطراً واحداً أو أكثر، لكن بين في حديث آخر أنها كانت ثلاثة أسطر «**محمد**» سطر و«**رسول**» سطر و«**الله**» سطر، وقد صرح بذلك العراقي في ألفيته:

محمد سطر ورسول سطر ... والله سطر ليس فيه كبر

«**محمد**» منقوش أسفل السطر، و«**رسول**» في الوسط، و«**الله**» فوق السطرين قاله الأسنوي.

قال الحافظ البرهان الحلبي: الذي يظهر أن كتابة هذه الأسطر الثلاثة كانت مقلوبة حتى إذا ختم بها، ختم على استواء كما في خواتم الحكام اليوم والكبار والتجار والله أعلم، ولو كانت غير مقلوبة بل مستوية لختمت مقلوباً، ويتفق أنهم أعاجم والكتابة إليهم مقلوبة في الختم فيعسر عليهم ذلك جداً والله أعلم.

وقال: و لم أر أحداً ذكر هذه.

فائدة: قال بعض العلماء: لا يجوز للإنسان أن ينقش على خاتمه «**محمد رسول الله**» للنهي عن ذلك لما فيه من خوف حصول المفسدة والخلل، قال: وهذا من خصائصه.

فائدة أخرى: الخاتم الذي نقش عليه النبي ﷺ: «**محمد رسول الله**» وكان يختم به الكتب انتقل بعد وفاته إلى سيدنا أبي بكر، فكان في يده إلى أن مات، ثم انتقل إلى عمر بن الخطاب فكان في يده إلى أن مات، ثم انتقل إلى سيدنا عثمان بن عفان فكان في يده حتى وقع في بئر أريس [(١)].

فائدة أخرى: قال البرهان الحلبي وغيره: كان للنبي ﷺ من الخواتم خمسة:

الأول: خاتم من ذهب اتخذه قبل النهي عن خاتم الذهب للرجل، فتبعه الناس في لبسه فلما رآهم اتبعوه فرماه وحرمه على الذكور، لما فيه من الفتنة وزيادة المؤنة.

الثاني: خاتم من فضة فصه منه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٠٢، رقم ٥٥٢٨)، ومسلم في صحيحه (٣/١٦٥٦، رقم ٢٠٩١)، وأبو داود في سننه (٤/٨٨، رقم ٤٢١٨) عن ابن عمر.
وأخرجه أبو داود في سننه (٤/٨٨، رقم ٤٢١٥) عن أنس.

الثالث: خاتم من فضة فصه من جزع.

الرابع: خاتم من فضة فصه من عقيق، فإنه ورد في صحيح مسلم [١] أنه كان بفص حبشي، واختلف في المراد بالحبشي في الحديث فقيل: كان من جذع، وقيل: كان من عقيق.

الخامس: من حديد ملوي عليه فضة.

قال العلماء: خاتم الذهب حرام على الرجال حلال على النساء، وكما يحرم خاتم الذهب على الرجال يحرم اتخاذ سنه من ذهب، وهو الشعب الذي يستمسك بها الفص، دون النساء.

وأما خاتم الحديد والنحاس والرصاص فالأصح كما قاله النووي أنه لا يكره لبسها، وأما لبس خاتم العقيق فإنه جائز، وكذا الياقوت للرجال والنساء، بل قيل: إن العقيق يذهب الغم، والياقوت ينفي الفقر.

قال ابن العماد في شرح سيرته: وقد روى ابن غانم في كتابه الفائق في اللفظ الرائق: أنه ﷺ قال: «**تختموا بالعقيق فإنه مبارك، تختموا بخواتم العقيق فإنه لا يصيب أحدكم غم ما دام ذلك عليه، تختموا بالياقوت فإنه ينفي الفقر**» [٢].

قال الدميري: روى ابن عدي في ترجمة أحمد بن عبد الله بن حكيم أبو عبد الرحمن الفريانانى المروزي [٣] عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**من اتخذ خاتماً فصه من ياقوت نفي عنه الفقر**» [٤].

وقال ابن الأثير: يريد أنه إذا ذهب ماله باع خاتمه فوجد به غنى، قال: والأشبه إن صح الحديث أن يكون لخاصية فيه، كما أن النار لا تؤثر فيه ولا تغيره، وأن من تختم به أمن من الطاعون، وتيسرت له أمور المعاش، ويقوى قلبه، وتهابه الناس، ويسهل عليه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٥٨/٣، رقم ٢٠٩٤). وأخرجه أيضا: ابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٠٢، رقم ٣٦٤٦) عن أنس.

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٤٤٨/٤، ترجمة ٢٠٧٦ يعقوب بن الوليد المديني)، والخطيب (٢٥١/١١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١٨/١٣) عن عائشة.

(٣) وقع في الأصل: روى ابن عدي في ترجمة أحمد بن حنبل عن أنس ثم ذكر الحديث، ولعل الصواب ما أثبتناه من الكامل لابن عدي.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (١٧٢/١، ترجمة ٩ أحمد بن عبد الله بن حكيم أبو عبد الرحمن الفريانانى المروزي) وقال ابن عدي: هذا الحديث باطل بهذا الإسناد.

قضاء الحوائج.

قيل: إن الحجر الأسود أصله من ياقوت الجنة، ففي الكامل لابن عدي أن النبي ﷺ قال: «**الحجر الأسود من ياقوت الجنة، فمسحه المشركون فاسود من مسحهم**»[(١)].

وفي كتاب الخصائص لأبي الربيع سليمان بن سبع السبتي: أن النبي ﷺ أعطى علياً فصاً من ياقوت، وأمره أن ينقش عليه لا إله إلا الله ففعل، وأتى به للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «**ألم آمرك أن تنقش عليه لا إله إلا الله فلم زدت محمد رسول الله؟**» فقال: والذي بعثك بالحق ما فعلت إلا ما أمرتني به، فهبط جبريل عليه السلام وقال: «إن الله يقول لك: أنت أحببتنا فكتبت، ونحن أحببناك فكتبنا اسمك».

وإنما نقش ﷺ على خاتمه اسم «**محمد**» دون «**أحمد**» وغيره من باقي أسمائه لأنه أشهر أسمائه ﷺ.

فائدة: للنبي ﷺ أسامي كثيرة نقل ابن العربي في شرح الترمذي عن بعض الصوفية أنه قال: إن لله تعالى ألف اسم ولرسوله ألف اسم، ولكن أشهرها «**محمد**» فلهذا نقشه على خاتمه دون باقي أسمائه لأنه أشهر.

وقد تكرر هذا الاسم في القرآن في مواضع قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ**﴾[الأحزاب: ٤٠].

وقال: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[الفتح: ٢٩].

وقال: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ**﴾[آل عمران: ١٤٤].

وكان عمه أبو طالب يقول:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال المؤذن في الخمس أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

قال البخاري في تاريخه الصغير: و«**محمد**» علم منقول من صفة الحمد، وهو بمعنى محمود، وفيه معنى المبالغة، سمي ﷺ «**محمداً**» لأنه محمود عند الله وعند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم وإن كفر به بعضهم،

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/٣٨٧ ترجمة ٨١٤ سعيد بن ميسرة البكري) عن أنس.

فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل، وكان كفار قريش يقلبون اسم رسول الله ﷺ ويجعلون مكان محمداً مذمماً.

فقد جاء في هذا الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً، وأنا محمد**» [(١)].

وكانت العوراء زوجة أبي لهب تقول: مذمماً قلينا، ودينه أبينا، وأمره عصينا.

وسماه «**محمداً**» جده عبد المطلب فقد نقل بعض العلماء: أن النبي ﷺ لما ولدته أمه قيل لجده عبد المطلب: ما سميت ولدك؟ قال: محمد. فقيل له: كيف سميته باسم ليس لأحد من أبائك وقومك؟ قال: لأني أرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم [(٢)].

وسبب تسميته بمحمد أنه رأى في المنام كان سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون، فقصها عبد المطلب على المعبرين فعبروها له بمولود يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماوات والأرض فلذلك سماه محمداً [(٣)].

وقالت أمه لجده عبد المطلب لما حملت به ﷺ: سمعت قائلاً يقول: «إنك قد حملت سيد هذه الأمة، فإذا وضعتيه فسميه محمداً، فسماه محمداً [(٤)].

فائدة أخرى: قال القاضي عياض حمى الله هذين الإسمين يعني «**محمد وأحمد**» من أن يتسمى بهما أحد قبل زمانه.

أما اسمه «**أحمد**» الذي ذكره الله في كتابه، وبشر به عيسى بن مريم، فمنع الله بحكمته أن يسمى به أحد غيره، ولا يدعى به مدعواً قبله، حتى لا يدخل اللبس ولا الشك فيه على ضعيف القلب.

وأما اسمه «**محمد**» فلم يتسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلا حين شاع قبيل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٩٩/٣، رقم ٣٣٤٠)، والنسائي في سننه (١٥٩/٦، رقم ٣٤٣٨)، والحميدي في مسنده (٤٨١/٢ رقم ١١٣٦)، وأحمد في مسنده (٣٦٩/٢، رقم ٨٨١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٥٢/٨، رقم ١٦٩٢٠).

(٢) انظر: الروض الأنف (٢٨٠/١).

(٣) انظر: الروض الأنف (٢٨٠/١).

(٤) انظر: الروض الأنف (٢٨٠/١).

مولده أن نبياً يبعث اسمه محمد، فسمى قوم قليل من العرب أسماء أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يضع رسالته.

وعدد من سمي من العرب محمداً قرب ولادته ﷺ قال السهيلي: ثلاثة، وقال القاضي عياض: ستة، وأوصلهم شيخ الإسلام ابن حجر إلى خمسة عشر.

فائدة أخرى: ذكر حسين بن محمد الدمغاني في كتاب «سوق العروس وأنس النفوس» نقلاً عن كعب الأحبار أنه قال: اسم النبي ﷺ عند أهل الجنة عبد الكريم، وعند أهل النار عبد الحميد، وعند سائر الملائكة عبد المجيد، وعند الأنبياء عبد الوهاب، وعند الشياطين عبد القهار، وعند الجن عبد الرحيم، وفي الجبال عبد الخالق، وفي البحر عبد المهيمن، وعند الحيتان عبد القدوس، وعند الهوام عبد الغياث، وعند الوحوش عبد الرزاق، وعند السباع عبد السلام، وعند البهائم عبد المؤمن، وعند الطيور عبد الغفار، وفي التوراة مؤذ مؤذ، وفي الإنجيل طاب طاب، وفي الصحف عاقب، وفي الزبور فاروق، وعند الله طه وياسين، وعند المؤمنين محمد.

وقد رتب بعض العلماء أسماؤه الشريفة على حروف المعجم فذكر مما جاء أوله الهمزة: «أحمد، الأبضحي، أتقى الناس، أجود الناس، أحسن الناس، الأزهر النير المشرق الوجه، الأخشى، أرجح الناس عقلاً، أرحم الناس بالعيال، أشجع الناس، أطيب الناس ريحاً، الأعلم بالله، أكثر الناس تبعاً، أكرم الناس، أكرم ولد آدم، إمام الخير، إمام الرسل، إمام المتقين، إمام النبيين، الأمي، الأمين، أول شافع، أول المسلمين، أول مشفع، الأول، الآخر».

ومما جاء في أوله الباء: «البر، البشير، البصير، البليغ، البرهان، بشرى عيسى».

ومما جاء في أوله التاء: «التقي، التالي، التهامي، التذكرة».

ومما جاء في أوله الثاء: «ثاني اثنين».

ومما جاء في أوله الجيم: «الجواد، الجامع».

ومما جاء في أوله الحاء: «الحافظ، الحاشر، الحاكم بما أمر الله به، الحامد، حامل لواء الحمد، الحبيب، حبيب الرحمن، حبيب الله، الحجازي، الحجة البالغة، حجة الله على الخلائق، الحرمي، الحريص على الإيمان، الحفيظ، الحق، الحكيم، الحليم، الحمد».

ومما جاء على الخاء: «الخبير، خاتم النبيين، خاتم المرسلين، الخاشع، الخاضع، الخالص، خطيب الأنبياء، خطيب الأمم، الخليل، خليل الرحمن، خير الأنبياء، خير البرية، خير خلق الله، خير العالمين طراً، خير الناس، خير هذه الأمة، خيرة الله».

ومما أوله الدال: «الداعي إلى الله، دعوة إبراهيم، دعوة النبيين، دليل الخيرات، دار الحكمة».

ومما أوله الذال: «الذاكر، ذكر الله، ذو الحوض المورود، ذو الخلق العظيم، ذو القوة، ذو المعجزات، ذو المقام المحمود، ذو الوسيلة».

ومما أوله الراء: «الراضي، الراغب، راكب البراق، راكب البعير، الرحمة، رحمة الأمة، رحمة العالمين، الرحيم، الرسول، رسول الرحمة، رسول الله، رفيع الدرجات، روح القدس، ركن المتواضعين».

ومما أوله الزاي: «الزاهد، الزكي، زين من وافى القيمة».

ومما في أوله السين: «السابق بالخيرات، الساجد، السراج المنير، السعيد، سعد الخلائق، السلام، السيد، سيد ولد آدم، سيد المرسلين، سيد الناس، سيد الكونين، سيد الثقلين، سيف الله المسلول».

ومما أوله الشين: «الشارع، الشافع، الشاكر، الشاهد، الشكور، الشمس، الشهيد».

ومما أوله الصاد: «الصابر، صاحب الآيات، صاحب المعجزات، صاحب البرهان، صاحب التاج، صاحب الحوض المورود، صاحب الخير، صاحب الدرجة العالية الرفيعة، صاحب الأزواج الطاهرات، صاحب السجود للرب المعبود، صاحب العلو والدرجات، صاحب قول لا إله إلا الله، صاحب المغفرة، الصادق، الصبور، صراط الذين أنعمت عليهم، الصفوح عن الزلات».

ومما أوله الضاد: «الضارب بالحسام المثلوم، الضاحك، الضحوك».

ومما أوله الطاء: «الطاهر، الطيب، طه، الطبيب».

ومما أوله الظاء: «الظاهر، الظفور، الظافر» .

ومما أوله العين: «العابد، العادل، العاقب، العالم، العاقل، علم الإيمان، العالم بالحق، العالم، عبد الله، عبد الحق، عبد الكريم، العدل، العربي، العروة الوثقى، العفو، عين العز، عبد الجبار، عبد الخالق، عبد المهيمن، عبد القدوس، عبد المؤمن، عبد الغفار، عبد الوهاب».

ومما أوله الغين: «الغالب، الغني، الغفور، الغوث، الغياث».

ومما أوله الفاء: «الفاتح، الفاروق، الفرط، الفصيح، فضل الله».

ومما أوله القاف: «قائد الخير، قائد الغر المحجلين، قدم صدق، القرشي، القربي،

القمر، القثم ومعناه: الجامع الكامل وهو بالثاء المثلثة».

ومما أوله الكاف: «الكامل في جميع أموره، الكريم».

ومما أوله اللام: «اللسان».

ومما أوله الميم: «محمد، الماجد، المزمل، الماحي، المبارك، المبشر، المبعوث بالحق، المبلغ، المبتسم، المتضرع، المجتهد، المجتبى، المحمود، المختار، المخصوص بالشرف، المخصوص بالعزة، المخلص، المدثر، مدينة العلم، المرتضى، المرسل، المرتجى، المصباح، المصطفى، المطاع، المعصوم، المفضل، مفتاح الجنة، مقيل العثرات، مقيم السنة، المكرم، المكي، المنذر، المنصور، المهاجر، المنير، المؤيد، المولى».

ومما أوله النون: «الناشر، الناصح، الناصر، الناطق، الناهي، نبي الأحمر، نبي الأسود، نبي التوبة، نبي الحرمين، نبي الرحمة، النبي الصالح، نبي الله، نبي المرحمة، نبي الملحمة، النجم الثاقب، النذير، ناصح الأمة، نعمة الله، النور، نور الأمم أي: الهادي لها، نور الله الذي لا يطفئ».

ومما أوله الهاء: «الهادي، هداية الله، الهاشمي».

ومما أوله الواو: «الواصل، الواعد، الواعظ، الورع، الوسيلة، الوفي، الوافي، المولى، ولي الفضل».

ومما أوله الياء: «اليثربي، ياسين».

هذه بعض أسمائه المرتبة، وكنيته المشهورة: أبو القاسم، كنى بذلك لأنه يقسم الجنة بين أهلها ويكنى أيضاً بأبي إبراهيم وبأبي الأرامل، وبأبي المؤمنين.

ولاسمه محمد ﷺ خصائص منها: كونه على أربعة أحرف، والحكمة في جعله كذلك ليوافق اسم الله تعالى فإن عدد لفظ الجلالة أربعة أحرف كمحمد.

ومنها: أنه تعالى اشتقه من اسمه المحمود كما قال حسان بن ثابت:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله محمود وهذا محمد

ومنها: أن صورة الآدمي تشبه هذا الاسم إذا كتب، فالميم الأولى رأسه، والحاء جناحاه أي: يداه، والميم الثانية سرته، والدال رجلاه، وهذا مما أكرم به الآدمي، قيل: وإذا استحق العذاب ودخول النار أعاذنا الله منها فلا يدخلها إلا ممسوح الصورة إكراما لصورة اللفظ، قال ذلك بعض العلماء.

وقد سماه الله بهذا الاسم قبل الخلق بألفي عام كما ورد من حديث أنس بن مالك من طريق أبي نعيم في مناجاة موسى.

وروى ابن عساكر عن كعب الأحبار قال: «إن الله أنزل على آدم عليه السلام عصياً بعدد الأنبياء المرسلين، ثم أقبل على ابنه شيث فقال: أي بني أنت خليفتي من بعدي فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى وكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد، فإني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش وأنا بين الروح والطين، كما أني طفت السماوات فلم أر في السماوات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه، وإن ربي أسكنني الجنة فلم أر في الجنة قصراً ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوباً، ولقد رأيت اسم محمد مكتوباً على نحور الحور العين، وعلى ورق قصب آجام الجنة، وعلى ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب، وبين أعين الملائكة، فأكثر ذكره فإن الملائكة تذكره في كل ساعاتها»[1].

وإلى ذلك اشار من قال:

بدا مجده من قبل نشأة آدم فاسماؤه في العرش من قبل تكتب

ووجد على حجر بالخط العبراني: «باسمك اللهم جاء الحق من ربك بلسان عربي مبين لا إله إلا الله محمد رسول الله (كتبه موسى بن عمران)».

وذكر في الشفا: أنه شوهد في بعض بلاد خراسان مولود وعلى أحد جنبيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وببلاد الهند ورد أحمر مكتوب عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وذكر في تاريخ ابن النديم عن علي بن عبد الله الهاشمي الرقي: أنه وجد ببعض قرى الهند وردة كبيرة طيبة الرائحة، سوداء مكتوب عليها بخط أبيض: «**لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق**» قال: فشككت في ذلك وقلت: إنه معمول، فعمدت إلى وردة لم تفتح فكان فيها مثل ذلك، وأهل تلك القرية يعبدون الأحجار لا يعرفون الله تعالى.

ونقل اليافعي عن بعضهم أنه وجد ببعض بلاد الهند شجرة تحمل ثمراً كاللوز له قشرات، إذا كسر خرج منه ورقة خضراء مكتوب فيها بالحمرة لا إله إلا الله محمد رسول الله، كتابة جلية وهم يتبركون بها.

واصطاد بعضهم سمكة فوجد على جنبها الأيمن مكتوب لا إله إلا الله، وعلى جنبها الأيسر محمد رسول الله، فقذفها في الماء احتراماً لها.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/٢٨١).

ونقل في كتاب النطق المفهوم عن بعضهم: أنه رأى في جزيرة شجرة عظيمة لها ورق كبير طيب الرائحة، مكتوب فيه بالحمرة والبياض في الخضرة كتابة بينة واضحة خلقة ابتدعها الله بقدرته، في الورقة ثلاثة أسطر الأول: لا إله إلا الله، والثاني: محمد رسول الله، والثالث: إن الدين عند الله الإسلام.

وقد خصه الله تعالى بأن سماه من أسمائه الحسنى بنحو من ثلاثين اسماً.

لطيفة: نقل الإخباريون عن وهب بن منبه أن رجلاً عصى الله مائتي سنة، يتمرد ويجترئ عليه فيها كلها، فلما مات أخذ بنو إسرائيل برجله وألقوه على مزبله، فأوحى الله إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن غسله وكفنه وصلي عليه في جمع بني إسرائيل، ففعل ما أمره الله تعالى به، فتعجب بنو إسرائيل من ذلك، فأخبروه أنه لم يكن في بني إسرائيل أعتى منه، ولا أكثر معاصي منه، فقال: قد علمت ولكن الله أمرني بذلك، فقالوا: سل ربك فسأل موسى ربه ﷻ فقال: يارب قد علمت ما قالوا فأوحى الله إليه أن صدقوا ما قالوا، إنه عصاني مائتي سنه، إلا أن يوماً من الأيام فتح التوراة فنظر إلى اسم محمد ﷺ مكتوباً فقبله ووضعه بين عينيه، فشكرت له ذلك فغفرت له ذنوب مائتي سنة، وزوجته سبعين حوراء.

لطيفة أخرى: نقل بعض العلماء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نظر يهودي بالشام في زمن النبي ﷺ في التوراة فوجد اسم محمد ﷺ في أربعة مواضع فكشطه، ثم نظر في اليوم الثاني فوجده في ثمانية مواضع فكشطها، ثم نظر في اليوم الثالث فوجده في اثنى عشر موضعاً، فسار إلى المدينة فوجد النبي ﷺ قد مات، فقال لعلي ﷺ: أرني ثوب محمد، فأخرجه له فشمه وقام عند القبر الشريف وأسلم، وقال: اللهم أن كنت قبلت إسلامي فاقبض روحي سريعاً فوقع ميتاً فغسله علي ﷺ ودفنه في البقيع رحمه الله.

وقوله في الحديث: «**فاتخذ خاتماً**» يجوز في خاتم فتح التاء وكسرها، وقد ذكر العلماء في الخاتم ست لغات الأولى: خاتم بفتح التاء، الثانية: خاتم بكسرها، الثالثة: خاتام، الرابعة: خيتام، الخامسة: ختام، السادسة: ختم.

فائدة: لما ولد النبي ﷺ ختم بخاتم النبوة، واختلفت الروايات في صفته ومحله.

ففي صحيح البخاري: «**أن ختم النبوة بين كتفيه فكان ينم مسكاً مثل زر**

الحجلة» [١].

وفي الحلية لأبي نعيم: «**كان عند كتفيه**» [٢].

وفي صحيح مسلم: «**أن الخاتم كان كبيضة الحمامة**» [٣].

وفي مستدرك الحاكم: «**شعر مجتمع**» [٤].

وفي تاريخ ابن أبي خيثمة: «**شامة خضراء مختمرة في اللحم**».

وفي كتاب الترمذي الحكيم: «**كبيضة حمامة مكتوب في باطنها: الله وحده لا شريك له، وفي ظاهرها توجه حيث شئت فإنك منصور**».

وفي تاريخ نيسابور: «**مثل البندقة من لحم مكتوب فيه باللحم محمد رسول الله**» [٥].

قال السهيلي: والحكمة في ختمه بخاتم النبوة أنه لما ملئ قلبه حكمة ويقيناً، ختم عليه كما يختم على الوعاء المملوء مسكاً أو زراً.

قال: وأما حكمة وضعه بين كتفيه فلأنه ﷺ معصوم من وسوسة الشيطان، وذلك الموضع منه يوسوس الشيطان لابن آدم.

سئل الحافظ برهان الدين الحلبي عن خاتم النبوة هل هو من خصائص النبي ﷺ أو أن كل نبي مختوم بخاتم النبوة؟ فأجاب بما نصه: لا أستحضر في ذلك شيئاً، لكن الذي يظهر لي أنه من خواصه، لأنه ختم به لمعان:

أحدها: لأنه إشارة إلى أنه خاتم النبيين، وليس في ذلك لغيره.

والثاني: لأن باب النبوة قد ختم به فلا يفتح بعده، وقد رفع هذا الخاتم من بين كتفيه عند موته، فإن عائشة رضي الله عنها وقيل: أسماء بنت عميس وضعت يدها على خاتم النبوة في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٣٠١، رقم ٣٣٤٨)، و مسلم في صحيحه (٤/١٨٢٣، رقم ٢٣٤٥) والترمذي في سننه (٥/٦٠٢، رقم ٣٦٤٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٤/٣٦١، رقم ٧٥١٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/١٩١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٨٢٣، رقم ٢٣٤٤) عن جابر بن سمرة.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٦٦٣، رقم ٤١٩٨) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضاً ابن حبان في صحيحه (١٤/٢٠٩، رقم ٦٣٠٠) عن أبي زيد.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤/٢١٠، رقم ٦٣٠٢) عن ابن عمر.

مرضه الذي مات فيه فلمسته فرأته قد رفع، فعرفت بذلك موته ﷺ [(١)].

ومن أسمائه «الفاتح الخاتم» فقد ورد في حديث الإسراء عن أبي هريرة من طريق الربيع بن أنس: «أن الله تعالى قال: وجعلتك فاتحاً وخاتماً» [(٢)].

سمي بذلك لأنه ﷺ فتح الله به باب الهدى بعد أن كان مرتجاً، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وفتح به أمصار الكفر، وفتح به أبواب الجنة، وفتح به طرق العلم النافع، والعمل الصالح، والدنيا والآخرة، والقلوب، والأسماع، والأبصار، والأمصار.

وقيل: سمي بذلك لأنه المبدأ المقدم في الدنيا والآخرة والخاتم له كما قال عليه الصلاة والسلام: «**كنت أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث**» [(٣)].

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، وزاده في الدارين تشريفاً وتعظيماً.

لطيفة أخرى: قال بعض المفسرين: كان ملك سليمان صلوات الله وسلامه عليه وعزه في خاتمه، ولهذا لما ابتلاه الله بسبب الملك سلب خاتمه فسلب ملكه، قال: فقد ذكر ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ**﴾[ص: ٣٤] أن سليمان عليه السلام كان رجلاً غزاء يغزو في البحر والبر، فسمع بملك في جزيرة من جزائر البحر، فركب سليمان الريح هو وجنود من الجن والإنس حتى نزل تلك الجزيرة، فقتل ملكها وسبى من فيها، فوجد فيها جارية لم ير مثلها حسناً وجمالاً، وكانت ابنة الملك، فاصطفاها لنفسه، وكان يحبها أكثر من نسائه، وكان يؤثرها عليهم، فدخل عليها يوماً فقالت: إني أذكر أبي وملكه وما أصابه فيحزنني ذلك، فإني رأيت أن تأمر بعض الشياطين أن يصور لي صورة أبي في داري فأراه بكرة وعشياً، فيزول عني ما أجده، ويذهب عني حزني، فأمر سليمان «صخر» المارد فمثل لها أباها في هيئته من ناحية دارها لا ينكر منه شيء إلا أنه لا روح فيه، فعمدت إليه فزينته وألبسته حتى تركته في هيئة أبيها ولباسه، وكانت إذا خرج سليمان من عندها تدخل عليه هي وجواريها وتطيبه وتسجد له، وتأمر الجوار بالسجود له ثم

---

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية (٥/٢٤٤)، والسيوطي في الخصائص الكبرى (٢/٤٨٠) عن أسماء بنت عميس.

(٢) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (١/٧٢): رجاله موثقون إلا أن الربيع بن أنس قال عن أبي العالية أو غيره فتابعيه مجهول.

(٣) أخرجه الديلمي في الفردوس (٣/٢٨٢، رقم ٤٨٥٠) عن أبي هريرة.

تلثمه وترجع، وسليمان لا علم له بذلك، فاستمرت على هذا أربعين يوماً، حتى سمع الناس، فبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان من المقربين عند سليمان والعلماء العارفين، فدخل عليه وقال: يا نبي الله قد أحببت أن تجمع الناس حتى أذكرهم بمن مضى من الأنبياء، وأثني عليهم بعلمي فيهم، فجمع سليمان الناس فقام آصف وذكر من مضى من الأنبياء وأثنى على كل نبي بما فيه، وذكر بما فضلهم الله به حتى وصل إلى سليمان، فذكر فضله وما أعطاه الله تعالى على صغر سنه، وسكت و لم يذكر باقى فضائله التي أعطيها في حال الكبر، فامتلأ سليمان غيظاً، فقام ودخل إلى منـــزله وأرسل خلف آصف بن برخيا فجاءه فقال: يا آصف ذكرت أنبياء الله فأثنيت عليهم بما كانوا في زمانهم كله، ولما ذكرتني ذكرت خبري في حال الصغر وسكت عن حال الكبر، فما الذي أحدثت في كبري؟ فقال له آصف: أحدثت أن غير الله يعبد في دارك، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فتذكر سليمان تلك الصورة التي صورها صخراً لزوجته، فقام ودخل داره وكسر تلك الصورة التي هي على هيئة الصنم، وعاقب تلك المرأة ثم دعا بثياب الطهر فلبسها، وخرج إلى فلاة من الأرض ففرش له الرماد وجلس عليه، وجعل يتململ عليه متذللاً متضرعا يبكي، ويستغفر الله تعالى ويقول: يارب هذا جزاؤك من آل داود، أن يعبدوا غيرك وأن يقروا في دارهم عبادة غيرك، فلم يزل كذلك حتى أمسى ثم رجع، وكانت له جارية اسمها الأمينة، وكان إذا دخل الخلاء أو أراد جماع امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها، وكان لا يلبسه إلا وهو طاهر، وكان الله جعل ملكه في ذلك الخاتم، فأراد يوماً أن يتوضأ فدفع الخاتم إلى الجارية، فجاء «صخر» المارد وسبق سليمان ودخل المكان الذي يتوضأ فيه سليمان، و لم يعلم به سليمان، فدخل سليمان ذلك المكان ليتوضأ فخرج الشيطان من ذلك المكان بصورة سليمان، ينفض لحيته من الوضوء كأنه سليمان لا ينكر منه شيء، فقال للجارية: هاتي خاتمي يا أمينة فناولته إياه، لا تحسب إلا أنه سليمان، فجعله في يده وجلس على سرير سليمان، فعكفت الطير عليه والجن والإنس، وخرج سليمان في غير هيئته وجاء إلى أمينة فطلب منها الخاتم فقالت: من أنت؟ قال: أنا سليمان وقد تغير حاله وذهب بهاؤه، قالت: كذبت إن سليمان قد أخذ الخاتم وهو جالس على سريره في ملكه، فذهب فرآه جالساً على كرسيه فقال للناس: أنا سليمان فأنكروه، فعلم أن ما حصل له بسبب تلك الصورة التي عبدت في بيته من دون الله، وأن الله عاقبه وامتحنه بسببها، فخرج هارباً خائفاً على نفسه، هائماً على وجهه، حافياً مكشوف الرأس في قميص وإزار، وكان صلوات الله عليه وسلامه يقوم على باب الرجل والمرأة ويقول: أطعموني فإني

سليمان فيطردونه ويقولون: ما يكفيك ما أنت فيه حتى تكذب على سليمان، وسليمان جالس على كرسيه، فمر في طريقه بباب في شارع وقد أجهده الجوع والعطش والحر، فطرق ذلك الباب فخرجت له امرأة فقالت: ما حاجتك؟ فقال قد أحترقت رجلاي من شدة الحر، وأجهدني الجوع والعطش، وأريد ضيافة ساعة لأستريح، فقالت: زوجي غائب ولا يسعني أن أدخل رجلاً غريباً علي، ولكن هذا البستان لنا فادخل إليه فإن فيه ثماراً وماء فكل من ثماره وتبرد من مائه، فإذا جاء زوجي أضفناك فدخل البستان فاغتسل ووضع رأسه ونام، فآذاه الذباب، فجاءت حية سوداء فأخذت ريحانه من البستان بفيها، ثم جاءت إلى سليمان فجعلت تذب عنه الذباب، حتى جاء زوج المرأة فقصت عليه القصة، فدخل على سليمان وهو نائم، فرأى الحية تنش عنه، فدعا امرأته وقال لها: انظري إلى العجب، ثم مشيا إليه فأيقظاه وكان لهما بنت من أجمل نساء زمانهما فقال له الرجل: هذه ابنتي قد زوجتكها، فتزوجها وأقام عندهم ثلاثاً، ثم قال: لابد لي من طلب المعيشة والكسب والحرفة، لأنفق علي وعلى أهلي، فخرج من عندهم حتى وصل إلى جماعة صيادين فقال لهم: أنا أعينكم فيما أنتم فيه، واجعلوا لي سهماً من صيدكم، وكل أحد يرزقه الله فقالوا: لا حاجة لنا فيك، فمضى إلى جماعة آخرين صيادين وعرض نفسه عليهم فقبلوه وقالوا: لك العز والكرامة فأقام معهم، وفي آخر النهار يأخذ ما حصل له من الصيد وينصرف إلى أهله، واستمر سليمان مفارقاً لملكه أربعين يوماً، فلما فرغت الأربعون وتسلط ذلك الشيطان على جميع ما يملكه سليمان إلا على نسائه حفظهم الله لسليمان، وصار يقع من ذلك الشيطان أفعال تخالف أفعال سليمان وحكمه، فأنكرت الناس عليه هذه الأفعال، وقال آصف: يا معشر بني إسرائيل هذه الأفعال هي أفعال سليمان وأحكامه؟ فقالوا: لا، فلما رأى الخبيث أن الناس قد علموا بأحواله انطلق بالخاتم فألقاه في البحر، فاستقبله حوت فابتلعه فأضاء جوف ذلك الحوت من نور الخاتم، ثم ساقه الله تعالى إلى أن وقع في شباك الصيادين الذين كان سليمان معهم، فلما أمسوا قسموا السمك فطلع ذلك الحوت من قسم سليمان، فذهب به إلى أهله، فأمرهم أن يصنعوه فلما شقوا بطنه أضاء البيت نوراً من خاتمه، فدعت المرأة سليمان فأرته الخاتم، فتختم به وخر ساجداً لله وقال: إلهي لك الحمد على قديم بلائك، وحسن صنيعك إلى آل داود، إلهي أنت ابتداهم بالنعم وأورثتهم الكتاب والحكم والنبوة فلك الحمد، إلهي تجود بالكثير وتلطف بالصغير، فلك الحمد على نعمائك، إذا ظهرت فلا تخفى، وإذا بطنت فلا تحصى فلك الحمد، إلهي فأتم نعمتك علي، واغفر لي ما سلف، وهب لي ملكاً لا ينبغي

لأحد من بعدي أي: لا ينبغي لأحد سواي، «فمن بعدي» هنا بمعنى سواي كقوله تعالى في الآية ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾[الجاثية: ٢٣] أي: سوى الله.

وهذا الذي ذكرناه هو معنى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ابتليناه بسلب ملكه أربعين يوماً ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ الجسد هو ذلك الجني المسمى بصخر المارد أو غيره ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾[ص: ٣٤] ثم رجع إلى ملكه بعد فراغ تلك المدة، ووصل إلى الخاتم فلبسه، ولما وصل إلى الملك أمر بحمل أهل ذلك البيت الذي تزوج منهم، فوضعهم في وسط بيته، قيل: و لم يكن قارب تلك المرأة حتى رد الله تعالى عليه ملكه(١).

---

(١) هذا الخبر ذكره الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء المسمى بالعرائس (ص ١٧٩) من قول محمد بن إسحاق، والنكارة لائحة عليه، ولم يذكره من المفسرين سوى الثعلبي، فقد ذكر المفسرون أسباباً أخرى لفقد الخاتم غير هذا السبب الوارد هاهنا.

قال السيوطي في الدر المنثور (١٨١/٧): أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﷺ في قوله ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال: شيطاناً يقال له: آصف فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر فساح سليمان عليه السلام وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله تعالى نساء سليمان عليه السلام فلم يقربهن ولا يقربنه وأنكرنه، وأنكر الناس أمر سليمان عليه السلام، وكان سليمان عليه السلام يستطعم فيقول: أتعرفوني أنا سليمان فيكذبوه، حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً ينظف لها بطنه فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر الشيطان فدخل البحر فاراً.

رواه مجاهد في التفسير (٥٥٠/٢)، وكذا الطبري في التفسير (١٥٧/٢٣) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد... به.

وقد أجمل ابن الجوزي في زاد المسير القول في هذه القصة وليس في كلامه ما في هذا الخبر لا من قريب ولا بعيد.

فقد قال ابن الجوزي (١٣٥/٧): اختلف العلماء في كيفية ذهاب خاتم سليمان على قولين:

أحدهما: أنه كان جالساً على شاطئ البحر فوقع منه في البحر قاله علي ﷺ.

والثاني: أن شيطاناً أخذه.

وفي كيفية ذلك أربعة أقوال:

أحدها: أنه دخل ذات يوم الحمام ووضع الخاتم تحت فراشه، فجاء الشيطان فأخذه وألقاه في البحر، وجعل الشيطان يقول: أنا نبي الله قاله سعيد ابن المسيب.

والثاني: أن سليمان قال للشيطان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فأعطاه إياه = = فنبذه في البحر فذهب ملك سليمان، وقعد الشيطان على كرسيه قاله مجاهد.

والثالث: أنه دخل الحمام ووضع خاتمه عند أوثق نسائه في نفسه، فأتاها الشيطان فتمثل لها في صورة سليمان، وأخذ الخاتم منها، فلما خرج سليمان طلبه منها فقالت: قد دفعته إليك فهرب سليمان، وجاء الشيطان فجلس على ملكه قاله سعيد بن جبير.

والرابع: أنه دخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه الشيطان في البحر، فذهب ملك سليمان، وألقي على الشيطان شبهه قاله قتادة.

وأما قصة الشيطان فذكر أكثر المفسرين: أنه لما أخذ الخاتم رمى به في البحر وألقي عليه شبه سليمان فجلس على كرسيه وتحكم في سلطانه.

وقال السدي: لم يلقه في البحر حتى فر من مكان سليمان.

وهل كان يأتي نساء سليمان فيه قولان:

أحدهما: أنه لم يقدر عليهن قاله الحسن وقتادة.

والثاني: أنه كان يأتيهن في زمن الحيض فأنكرنه قاله سعيد ابن المسيب، والأول أصح.

قالوا: وكان يقضي بقضايا فاسدة ويحكم بما لا يجوز، فأنكره بنو إسرائيل فقال بعضهم لبعض: إما أن تكونوا قد هلكتم أنتم، وإما أن يكون ملككم قد هلك، فاذهبوا إلى نسائه فاسألوهن، فذهبوا فقلن: إنا والله قد أنكرنا ذلك، فلم يزل على حاله إلى أن انقضى زمن البلاء.

وفي كيفية بعد الشيطان عن مكان سليمان أربعة أقوال:

أحدها: أن سليمان وجد خاتمه فتختم به، ثم جاء فأخذ بناصية الشيطان قاله سعيد بن المسيب.

والثاني: أن سليمان لما رجع إلى ملكه وجاءته الريح والطير والشياطين فر الشيطان حتى دخل البحر قاله مجاهد.

والثالث: أنه لما مضى أربعون يوماً طار الشيطان من مجلسه قاله وهب.

والرابع: أن بني إسرائيل لما أنكروه أتوه فأحدقوا به، ثم نشروا التوراة فقرؤوا فطار بين أيديهم، حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت قاله السدي.

وفي قدر مكث الشيطان قولان:

أحدهما: أربعون يوماً قاله الأكثرون.

والثاني: أربعة عشر يوما حكاه الثعلبي.

وأما قصة سليمان عليه السلام فإنه لما سلب خاتمه ذهب ملكه فانطلق هارباً في الأرض.

قال مجاهد: كان يستطعم فلا يطعم، فيقول: لو عرفتموني أعطيتموني أنا سليمان، فيطردونه حتى أعطته امرأة حوتا فوجد خاتمه في بطن الحوت.

وقال سعيد بن جبير: انطلق سليمان حتى أتى ساحل البحر فوجد صيادين قد صادوا سمكاً كثيراً، وقد أنتن عليهم بعضه فأتاهم يستطعم فقالوا: اذهب إلى تلك الحيتان فخذ منها فقال: لا أطعموني من هذا فأبوا عليه، فقال: أطعموني فإني سليمان، فوثب إليه رجل منهم فضربه بالعصا غضباً =

المجلس الثاني والثلاثون

في ذكر اختلاف العلماء في حياة الخضر، وفي ذكر فضائله وفي ذكر سبب حياته، وفي ذكر حياة بعض الأنبياء غيره

باب ما ذكره في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر وقوله تعالى ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾[الكهف: ٦٦]

قال العلماء: الخضر بفتح الخاء وكسر الضاد ويجوز إسكان الضاد مع كسر الخاء وفتحها.

وسبب تلقيبه بالخضر: أن جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء [(١)] والفروة: وجه الأرض. وقيل: إنبات المجتمع اليابس.

وقيل: سبب تلقيبه بذلك أنه كان إذا صلى اخضر ما حوله.

وكنيته: أبو العباس واسمه بنيا بن ملكان، وهذا هو المشهور.

وقيل: كان اسمه إلياس، وقيل: اليسع، وسمي بذلك لأن علمه وسع ست سماوات وست أرضين، ووهاه ابن الجوزي، وقيل: عامر، وقيل: أحمد، ووهاه ابن دحية بأنه لم يسم قبل نبينا ﷺ أحد أحمد، وقيل غير ذلك.

واختلفوا فيه هل كان نبياً أو ولياً أم من الملائكة؟

= لسليمان، فأتى تلك الحيتان فأخذ منها شيئاً فشق بطن حوت فإذا هو بالخاتم.

وقال الحسن: ذكر لي: أنه لم يؤوه أحد من الناس، ولم يعرف أربعين ليلة، وكان يأوي إلى امرأة مسكينة، فبينا هو يوماً على شط نهر وجد سمكة فأتى بها المراة فشقتها فإذا بالخاتم.

وقال الضحاك: اشترى سمكة من امرأة فشق بطنها فوجد خاتمه.

ومن هذا الإجمال من ابن الجوزي رأينا أنه لم يذكر أن سبب فقد الخاتم ما أورده المصنف هاهنا، وبان لك أن ذلك بلاء من الله عز وجل لتأهيل سليمان ﷺ لقيادة قومه، والله ﷻ يصطفي من عباده الأنبياء، ويضع فيهم أسباب تأهيلهم وتربيتهم على ما سيسوسون به الأمم بعد ذلك.والله أعلم وهو أجل وأحكم.

(١) ورد في هذا المعنى حديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٤٨/٣، رقم ٣٢٢١)، واللفظ له، والترمذي في سننه (٣١٣/٥، رقم ٣١٥١) وقال: حسن صحيح. وأحمد (٣١٢/٢، رقم ٨٠٩٨) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء**».

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠٩/١٢، رقم ١٢٩١٤) عن ابن عباس.

فقيل: كان ولياً وعليه القشيري وكثير من العلماء.

وقيل: كان من الملائكة، قال الماوردي: وهذا القول باطل.

وقيل: كان نبياً، قال البرماوي: وجزم به جمع واستدلوا على نبوته بقوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[الكهف: ٨٢] أي بل بوحي من الله، والوحي لا يكون إلا للأنبياء، وبأنه أعلم من موسى ﷺ ويبعد أن يكون ولي أعلم من نبي، فلذا ينبغي أن يعتقد كونه نبياً، لئلا يتذرع بذلك أهل الباطن في دعواهم أن الولي أفضل من النبي مع أنه لا يصل إلى درجة النبي فضلاً عن أن يكون أفضل منه حاشا وكلا.

والقائلون بنبوته اختلفوا هل هو نبي مرسل أم لا على قولين، واختلفوا أيضاً في ابن من هو؟

فقيل: هو ابن آدم لصلبه رواه الضحاك عن ابن عباس.

وقيل: إنه الرابع من أولاد آدم.

وقيل: إنه من ولد عيص.

وقيل: إنه ابن فرعون موسى، وهذا القول بعيد. وقيل غير ذلك.

قال الكرماني: وذكر الثعلبي ثلاثة أقوال في أن الخضر كان في زمن إبراهيم الخليل أم بعده بقليل أم بكثير.

وقال في الكشاف: إنه كان في أيام افريدون قبل موسى، وبقي إلى أيام موسى[(١)].

واختلف العلماء فيه أيضاً هل هو حي أم ميت؟

والذي ذهب إليه الشيخ ابن الصلاح وجمهور العلماء والصالحين إلى أنه حي.

وقال الثعلبي: الخضر نبي معمر على جميع الأقوال، محجوب عن الأبصار يعني عن أبصار أكثر الناس.

وقيل: إنه لا يموت إلا في آخر الزمان حين يرفع القرآن.

وقال النووي والأكثرون من العلماء: إنه موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح، وحكايتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تشهر [(٢)].

فائدة: ذكر البغوي في تفسيره أن أربعة من الأنبياء أحياء، اثنان في الأرض وهما

---

(١) انظر: الكشاف لزمخشري (٣/٥٩٦).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/١٣٥).

الخضر وإلياس، واثنان في السماء وهما إدريس وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين [١].

أما سبب حياة الخضر عليه السلام فهو أنه شرب من عين الحياة، وسبب شربه منها أن ذا القرنين كان عبداً صالحاً ملك ما بين المشرق والمغرب، وكان له خليل من الملائكة اسمه «ريَافِيل» يأتي ذا القرنين ويزوره، فبينما هما يوماً يتحدثان قال ذو القرنين: يا ريافيل أَخبرني كيف عبادتكم في السماء؟ فبكى وقال: يا ذا القرنين وما عبادتكم في الأرض عند عبادتنا في السماوات، من الملائكة من هو قائم أبداً، ومنهم الساجد لا يرفع رأسه أبداً، ومنهم الراكع لا يستوي قائما أبداً، ومنهم الواضع وجهه لا يجلس أبداً، ومنهم من يقولون: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، ربنا ما عبدناك حق عبادتك، فقال ريافيل: أو تحب ذلك؟ قال: نعم، قال: فإن لله عينا في الأرض تسمى عين الحياة، فمن شرب منها شربة لن يموت حتى يكون هو الذي يسأل الموت، فقال: يا ريافيل هل تعلمون بمحل تلك العين؟ فقال: لا غير أننا نتحدث في السماء أن لله ظلمة لم يطأها أنس ولا جن، فنحن نظن أن تلك العين في الظلمة، فجمع ذو القرنين الحكماء والعلماء وسألهم عنها، وفي أي جهة هي، فقال له عالم كبير: إنها عند قرن الشمس فسار ذو القرنين يطلب مطلع الشمس إلى أن بلغ طرف الظلمة ثنتي عشر سنة، فإذا هي ظلمة ليست بليل، تثور مثل الدخان، فسلك ذو القرنين الظلمة ومعه الخضر وكان وزيره وابن خالته، وأخفى ذو القرنين عليه أمره، فوقع الخضر بالعين في واد فإذا ماء أشد بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل الشهد، فشرب وتوضأ اغتسل ولبس ثيابه، وصلى شكر الله تعالى عز وجل، وأخفى ذلك على ذى القرنين، وجاوزها ذو القرنين واستمر ذو القرنين أربعين يوماً وليلة، حتى جاوزها إلى ضوء ليس بضوء شمس ولا قمر، وأرض حمراء ورمل، ثم رجع و لم يقع بها.

وأما سبب حياة إلياس عليه السلام فما روي أنه كان قد بعث إلى بني إسرائيل فرأى منهم أذىً شديد، وإنهم لا يزدادون إلا طغياناً، فسأل ربه أن يريحه منهم، فقيل له فيما يزعمون: انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه إلى موضع كذا وكذا، فما جاءك من شيء فأركبه ولا تهابه، فخرج إلياس ومعه اليسع حتى إذا كان بالموضع الذي أمر أقبل فرس من نار، وقيل: لونه كلون النار حتى وقف بين يديه فركب عليه، فانطلق به الفرس، فناداه اليسع: يا إلياس فما تأمرني، فقذف إليه بكسائه من الجو الأعلى وكان ذلك

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٣/٢٠٠).

علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل، فكان ذلك آخر العهد به ورفع الله إلياس من بين أظهرهم، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فكان ملكاً ارضياً سماوياً.

وأما سبب حياة عيسى ورفعه إلى السماء فهو ما نقل عن كعب الأحبار: أن رجلاً يهودياً منافقاً يحب عيسى في الظاهر ولا يؤمن به، وكان اليهود قد وكلوه في قتله غيلة، وكان إذا رأى منه المعجزات يقول في الباطن كل هذا سحر، وكان عيسى ابن مريم يعلم منه النفاق، فلما أتى عيسى بيت المقدس واليهودي معه طلع اليهودي إلى اليهود، وقال: أدركوا عيسى بن مريم فهو في المكان الفلاني فاقتلوه، فحول الله تعالى صورة اليهودي على صورة عيسى، فلزمه اليهود وقالوا له: أنت عيسى وأخذوه وصلبوه، وهو يستغيث ويقول: أنا فلان ابن فلان أنا عدو عيسى الذي دللتكم عليه، فقالوا: تكذب، ورفع الله عيسى إلى السماء كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾[النساء: ١٥٧، ١٥٨] فهو حي في السماء.

وقال بعض العلماء: إن عيسى لما كان في المكتب كان يقرأ لهم التوراة، ويخبر الصبيان بما في بيوتهم، وما خبأت لهم أمهاتهم، فيجيء الصبي إلى أمه فيخبرها بما أكلت، فتقول: من أعلمك بذلك؟ فيقول: عيسى، فقال الناس: هذا سحر نمنع أولادنا من المكتب وألا نسلك هذا المذهب، وكان عيسى يجيء إلى البيوت ويدعو الصبيان إلى المكتب والصبيان يختفون منه، فتقول الأمهات: ليس فلان في الدار، فيقول عيسى: بلى قد اختفى في التنور أو في المخدع أو في المسطح فيكون كما قال، وإذا قال للمرأة: ابنك في التنور فتقول: ما في التنور إلا خنـــزيراً فيقول عيسى: اللهم اجعله كذلك فتلحق ولدها فتجده كذلك خنـــزيراً، فصار في بيوتهم خمسمائه خنـــزير بدعائه عليهم، فعظم ذلك على بني إسرائيل وطلبوه ليقتلوه، فلما بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة كثرت أعداؤه، واشتد طلب اليهود له، ونادوه يا ساحر يا ابن الساحرة، قال: «**إلهي إنك خلقتني، وإلى هؤلاء بعثتني، وبدعائهم إليك أمرتني، وأمي تلك الصالحة وقد قالوا في حقنا ما قالوا، فامسخهم خنازير**» فمسخهم الله خنازير فعاشوا ثلاثة أيام وماتوا، فقصدت طائفة اليهود إلى ملك بني إسرائيل وقالوا: إن لم تقتل هذا وإلا فعل بنا كما فعل بغيرنا، فأرسل إليه رجلاً من المتمردين يقال له «مطيانوس» فقال أنا أقتله، فرفع الله عيسى.

قيل: إن جبريل شق له السقف فرفعه إلى السماء، وألقى شبهه على مطيانوس فقتلوه وصلبوه، فما وصل مطيانوس إلى الخشبة إلا وعيسى قد وصل إلى السماء الرابعة، وكان شبه عيسى على وجهه فقالت اليهود: هذا وجه عيسى والبدن بدن مطيانوس فأين رأسه، وهذا رأس عيسى فأين بدنه.

وقيل: إن قوماً من اليهود قالوا: إنا رأينا عيسى مرتفعاً إلى السماء، وما صلبنا إلا صاحبنا، فقتلهم اليهود لما قالوا هذا القول.

فائدة أخرى: قال العلامي في تفسيره في سورة مريم قال قتادة: لما رفع عيسى عليه الصلاة والسلام إلى السماء اجتمع أربعة من فقهاء قومه فقالوا للأول ما تقول في عيسى؟ قال: هو الله أهبط إلى الأرض فخلق ما خلق ثم ارتفع إلى السماء، فتبعه قوم وكذبه الثلاثة، ثم قالوا للثاني: ما تقول في عيسى؟ قال: هو ابن الله فتبعه قوم وكذبه الآخران، ثم قالوا للثالث: ما تقول في عيسى؟ قال هو إله وأمه إله والله إله فتبعه قوم وكذبه الرابع وقال: بل هو عبد الله ورسوله، فاختصم القوم فقال: أتعلمون أن عيسى يأكل ويشرب؟ قالوا: نعم، قال: أتعلمون أن الله لا يأكل ولا يشرب؟ قالوا: نعم، قال: أتعلمون أن عيسى ينام؟ فقالوا: نعم، أتعلمون أن الله لا ينام؟ قالوا: نعم فغلبهم الرابع ﷺ.

وها هنا سؤال وهو: أن يقال إن قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾[آل عمران: ٥٥] يدل على أنه رفع إلى السماء بعد موته، أجاب العلماء عنه بأجوبة:

الأول: أن الواو لا تفيد الترتيب، فكأنه سبحانه وتعالى قال: إني رافعك إلي ومتوفيك عند انقضاء أجلك، فإن اليهود لما هددوه بالقتل بشره الله بأني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخرك إلى أجل كتبته لك، وقابضك بالوفاة لا بالقتل بأيدي اليهود.

الثاني: إن معنى «**متوفيك**» أني متوفي نفسك بالنوم كقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾[الزمر: ٤٢] ورافعك إلى السماء وأنت نائم، حتى لا يلحقك خوف بل تستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب.

سؤال: فإن قيل: كم كان عمر عيسى لما رفع إلى السماء؟

جوابه: أنه رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

سؤال آخر: فإن قيل متى أعطاه الله النبوة؟

فالجواب: قال ابن عباس: أرسله الله ابن ثلاثين أي: وستة أشهر فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله.

وأما سبب حياة إدريس ورفعه إلى السماء فهو ما نقل عن وهب بن منبه أنه قال: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه، فتعجب منه الملائكة، فاشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربه في زيارته فأذن له، فأتاه في صورة بني آدم فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت استأذنت ربي أن أصحبك، قال: فلي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تقبض روحي، فأوحى الله إليه أن اقبض روحه، فقبض روحه ورددها الله إليه بعد ساعة، ثم قال له: لي إليك حاجة أخرى قال: وما هي؟ قال: ترفعني إلى السماء لأنظر إليها، وإلى الجنة والنار، فأذن له في رفعه، فلما قرب من النار قال: حاجة أخرى تسأل مالك حتى يفتح لي أبوابها فأوردها ففعل، ثم قال: وكما أريتني النار فأريني الجنة، فذهب به إلى الجنة واستفتح ففتحت أبوابها فدخلها، ثم قال له ملك الموت: أخرج لتعود فتعلق بشجرة وقال: لا أخرج منها فبعث الله إليه ملكاً حكماً بينهما، فقال له الملك: مالك لا تخرج؟ قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾[آل عمران: ١٨٥] وقد ذقته، وقال: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾[مريم: ٧١] وقد وردتها، وقال: ﴿**وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾[الحجر: ٤٨] فلست أخرج، فأوحى الله إلى ملك الموت: بأذني دخل وبأمري يخرج، فهو حي هناك[(١)].

لطيفة أخرى: قيل يلتقي الخضر وإلياس كل سنة ببيت المقدس، ويصومان شهر رمضان، وقيل: يجتمعان على جبل عرفات.

قال العلامي في تفسيره: إن الخضر وإلياس باقيان إلى يوم القيامة، فالخضر يدور في البحار يهدي من ضل فيها، وإلياس يدور الجبال يهدي من ضل فيها، وهذا دأبهما في النهار، وفي الليل يجتمعان عند سد يأجوج ومأجوج يحفظانه [(٢)].

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٣/٢٠٠).

(٢) ورد بهذا المعنى حديث عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**إن الخضر في البحر واليسع في البر يجتمعان كل ليلة عند الردم الذي بناه ذو القرنين بين الناس وبين يأجوج ومأجوج ويحجان ويعتمران كل عام ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى قابل**» أخرجه الحارث كما في بغية الباحث (٢/٨٦٦، رقم ٩٢٦)، والديلمي في الفردوس (٢/٢٠٢، رقم ٣٠٠٠)، وذكره الحافظ في الإصابة (٢/٢٩٣) وقال: فيه عبد الرحيم، وأبان متروكان.

وعن ابن عباس قال الراوي: لا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «**يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم، فيحلق كل منهما رأس صاحبه، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات: بسم الله ما شاء الله، ما كان من نعمة فمن الله، ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله**» قال ابن عباس في الكلمات التي يقولهن الخضر وإلياس عليهما السلام: «من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات أمنه الله من الغرق والحرق والسرق» قال الراوي: وأحسبه قال: «ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب» (١).

لطيفة أخرى: ذكر شيخ الإسلام ابن حجر في كتاب الإصابه في معرفة الصحابة قال: بينما الحسن جالس والناس حوله إذ أقبل رجل مخضرة عيناه فقال له الحسن: هكذا ولدتك أمك أم هي عرض؟ قال: أو ما تعرفني يا أبا سعيد؟ قال: من أنت؟ فانتسب له فلم يبق في المجلس أحد إلا عرفه، فقال له: ما قصتك؟ قال: عمدت إلى جميع مالي فألقيته في مركب، فخرجت أريد اليمن، فعصفت علينا ريح فغرقت السفينة، فخرجت إلى بعض السواحل على لوح، فعمدت أتردد نحو من أربعة أشهر آكل ما أصيب من الشجر والشعب، وأشرب من ماء العيون، ثم قلت: لأمضين على وجهي فإما أن أهلك وإما أن أنجو، فسرت فرفع لي قصر كأن بناؤه فضة فدفعت مصراعه فإذا داخله أروقة، وفي كل طاق منها صندوق من لؤلؤ، وعليها أقفال مفاتيحها رأي العين، ففتحت بعضها فخرج من جوفه رائحة طيبة، فإذا فيه رجال مدرجون في أثواب الحرير، فحركت بعضهم فإذا هو ميت في صفة حي فأطبقت الصندوق، وخرجت وغلقت باب القصر، ومضيت فإذا أنا بفارسين لم أر مثلهما جمالاً على فرسين أغرين محجلين، فسألاني عن قصتي فأخبرتهما فقالا: تقدم أمامك فإنك تصير إلى شجرة تحتها روضة، هناك شيخ حسن الهيئة يصلي فأخبره خبرك، فإنه سيرشدك إلى الطريق، فمضيت فإذا أنا بشيخ فسلمت عليه فرد علي السلام، وسألني عن قصتي فأخبرته بخبري كله، ففزع لما أخبرته بخبـــر القصر قلت: أطبقت الصناديق وأغلقت الأبواب، فسكت وقال لي: اجلس فمرت به سحابة فقالت: السلام عليك يا ولي الله فقال: أين تريدين؟ قالت: كذا وكذا فلم يزل تمر به سحابة بعد سحابة حتى

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢٢٤/١، ترجمة ٢٧٣ الحسن بن رزين) وقال: مجهول. وابن عدي في الكامل (٣٢٨/٢، ترجمة ٤٦٢ الحسن بن رزين) وقال: وهذا الحديث بهذا الإسناد منكر. وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١١/٩)، والديلمي في الفردوس (٥٠٤/٥، رقم ٨٨٩٥).

أقبلت سحابة فقال: أين تريدين فقالت: البصرة، قال: إنزلي فنـــزلت فصارت بين يديه، فقال: إحملي هذا حتى تؤديه إلى منـــزله سالماً، فلما صرت على متن السحابة قلت: اسألك بالذي أكرمك هذه الكرامة ألا ما أخبرتني عن القصر وعن الفارسين وعنك، قال: أما القصر فقد كرم الله به شهداء البحر، ووكل بهم ملائكة يلقطونهم من البحر فيصيرونهم في تلك الصناديق مدرجين في أكفان الحرير، والفارسان ملكان يغدوان ويروحان عليهم بالسلام من الله، وأما أنا فالخضر، وقد سئلت ربي أن يحشرني مع أمة نبيكم، قال الرجل: فلما صرت من السحابة أصابني من الفزع هول عظيم حتى صرت إلى ما ترى [1].

ومن فضائل الخضر: ما رواه أبو أمامة الباهلي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أحدثكم عن الخضر؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**بينما الخضر يمشي في سوق من أسواق بني إسرائيل إذ لقيه رجل فقير، فقال له الرجل: تتصدق علي بارك الله فيك، فإني أرى الخير في وجهك، ورجوت الخير من قبلك، فقال له الخضر: آمنت بالله، ما يقضي الله من أمر سيكون، ما معي شيء أعطيكه، قال له السائل: أسألك بوجه الله لما تصدقت علي، قال الخضر: آمنت بالله، ما يقضي الله من أمر سيكون، ما معي شيء أعطيكه إلا أن تأخذ بيدي وتدخلني السوق فتبيعني، فقال له الرجل: وهل يكون مثل هذا؟ قال: الحق أقول إنك سألتني بعظيم، سألتني بوجه ربي، وقد أجبتك فخذ بيدي فأدخلني السوق فبعني، فأدخله السوق فباعه بأربعمائه درهم، فلبث الخضر عند المبتاع أياماً لا يستعمله في شيء، فقال له الخضر: استعملني، فقال له: إنك شيخ كبير وأكره أن أشق عليك، قال: لا يشق علي ذلك، قال: نعم فانقل هذه الحجارة من ها هنا إلى هنا، وكانت لا ينقلها إلا ستة نفر في يوم تام، فقام ونقلها في ساعة واحدة، وأيده الله تعالى بملك من الملائكة على نقلها، فتعجب الرجل منه وقال: أحسنت، ثم عرض للرجل سفر فقال للخضر: إني أراك أميناً ناصحاً فاخلفني في أهلي، قال: نعم إن شاء الله تعالى، فاستعملني في شيء قال: أكره أن أشق عليك قال: لا يشق علي ذلك، قال: اضرب لبنا أريده لقصر لي ووصفه له، ثم خرج لسفره فلما قضى حاجته ورجع من سفره إذا هو بالخضر قد شيد بنيانه على ما أراد، فازداد منه تعجباً وقال له: من أنت؟ قال: أنا المملوك**

---

(١) انظر: الإصابة (٢/٣٢٣: ٣٢٥).

الذي اشتريتني، قال: سألتك بوجه الله أن تخبرني من أنت؟ قال الخضر: إن هذا القسم أوقعني في العبودية، أما أني سأخبرك أنا الخضر، سألني سائل بوجه الله أن أعطيه فلم يكن معي شيء أعطيه، وأمكنته من نفسي حتى باعني، وبلغني أن من سأل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر على حاجته، وقف يوم القيامة بين يدي ربه وليس على وجهه لحم ولا جلد ولا عظم يتقعقع، قال: فكب الرجل عليه يقبله ويقول له: بأبي أنت وامي شققت عليك ولم أعرفك، فاحكم علي في أهلي ومالي أو تحب أن أخلي سبيلك؟ قال: بل أحب أن تخلي سبيلي فأعبد ربي، وكان الرجل كافراً فأسلم على يده وأعطاه أربعمائه دينار وخلى سبيله، فأوحى الله إليه: قد نجيتك من الرق وأسلم الكافر وأعطاك مكان كل درهم ديناراً، فلا يخسر على الله أحد» [(١)].

ومن فضائله: ما نقل عن عبد الله بن المبارك أنه قال: كنت في غزوة فوقع فرسي ميتاً، فرأيت رجلاً حسن الوجه، طيب الرائحة قال: أتحب أن تركب فرسك؟ قلت: نعم فوضع يده على جبهة الفرس حتى انتهى إلى مؤخرها وقال: أقسمت عليك أيتها العلة بعزة عزة الله، وبعظمة عظمة الله، وبجلال جلال الله، وبقدر قدرة الله، وبسلطان سلطان الله، وبلا إله إلا الله، وبما جري به القلم من عند الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله ألا انصرفت، فوثب الفرس قائماً بإذن الله، وأخذ الرجل بركابي وقال: اركب فركبت، ولحقت بأصحابي، فلما كان من غداة غد وظهرنا على العدو، فإذا هو بين أيدينا فقلت: سألتك بالله من أنت؟ فوثب قائماً فاهتزت الأرض خضراء فقال: أنا الخضر.

قال عبد الله: ما قلت هذه الكلمات على مريض إلا شفاه الله تعالى.

ومن فضائله: أن سليمان بن عبد الملك طلب رجلاً ليقتله فهرب منه، فكلما دخل بلد قيل له: جاءك الطلب قال: فخرجت إلى البرية فرأيت رجلاً فقال: لعل هذا الطاغي أخافك؟ قلت: نعم، قال: فما يمنعك من السبع؟ قلت: وما السبع؟ قال: قل: «سبحان الواحد الذي ليس غيره، سبحان القديم الذي لا بادئ له، سبحان الدائم الذي لا نفاد له، سبحان الذي يحي ويميت، سبحان الذي خلق ما يرى وما لا يرى،

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٣/٨، رقم ٧٥٣٠) وفي مسند الشاميين (١٣/٢، رقم ٨٣٢) قال الهيثمي (١٠٣/٣): رجاله موثقون إلا إن فيه بقية بن الوليد وهو مدلس ولكنه ثقة.

سبحان الذي كل يوم هو في شأن، سبحان الذي علم كل شيء بغير تعليم» احفظها فحفظها فألقى الله في قلبي الأمن، فرجعت ودخلت على سليمان، فلما رأني قال: ادن ادن حتى أجلسني على فراشهم، قال: اسحرتني؟ فقلت: لا والله ما أنا بساحر، وأخبرته بخبر الرجل، فقال: والله الذي لا إله إلا الله أنه الخضر، قال: اكتبوا له الأمان وأعطاني مالاً كثيراً.

ومن فضائله الدالة على حياته: ما نقله الثعلبي أن رسول الله ﷺ لما مات وأخذوا في جهازه، خرج الناس وخلا الموضع قال ابن عباس قال علي: لما وضعته ﷺ على المغتسل إذا بهاتف يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته: لا تغسلوا محمداً فإنه طاهر مطهر، قال: فوقع في قلبي شيء من ذلك، وقلت: يا ويلك من أنت؟ فإن النبي ﷺ بهذا أمرنا وهذه سنته، وإذا بهاتف يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته غسلوا محمداً، فإن الهاتف الأول كان إبليس الملعون، حسد محمداً ﷺ أن يدخل قبره مغسولاً، قال علي: جزاك الله خيراً قد أخبرتني بأن ذلك هو إبليس، من أنت؟ قال: أنا الخضر حضرت جنازة محمد ﷺ.

***

المجلس الثالث والثلاثون

في الكلام على باب فضل من علم وعلم، وبيان ما في حديثه من الفوائد، وفيه ذكر علماء السوء وغير ذلك

قَالَ البُخَارِي:

باب فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاَءِ قَالَ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ أُسَامَةَ عَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**» (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «مثل»: المراد به الصفة العجيبة لا القول السائر.

قوله: «الهدى»: أي الدلالة الموصلة إلى المطلوب، والعلم المراد به معرفة الأدلة الشرعية.

قوله: «نقية» كذا عند البخاري في جميع الروايات التي رأيناها بالنون من النقاء وهي صفة لمحذوف، لكن وقع عند الخطابي والحميدي وفي حاشية أصل أبي ذر «ثغبة» بمثلثة مفتوحة وغين معجمة مكسورة بعدها موحدة خفيفة مفتوحة، قال الخطابي: هي مستنقع الماء في الجبال والصخور. قال القاضي عياض: هذا غلط في الرواية، وإحالة للمعنى. لأن هذا وصف الطائفة الأولى التي تنبت، وما ذكره يصلح وصفا للثانية التي تمسك الماء. قال: وما ضبطناه في البخاري من جميع الطرق «نقية» بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء التحتانية، وهو مثل قوله في مسلم: «طائفة طيبة». قلت: وهو في جميع ما وقفت عليه من المسانيد والمستخرجات كما عند مسلم وفي كتاب الزركشي. وروى: «بقعة» قلت: هو بمعنى طائفة، لكن ليس ذلك في شيء من روايات الصحيحين. ثم قرأت في شرح ابن رجب أن في رواية بالموحدة بدل النون قال: والمراد بها القطعة الطيبة كما يقال فلان بقية الناس، ومنه: «فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية».

قوله: «قبلت»: من القبول، كذا في معظم الروايات. ووقع عند الأصيلي: «قيلت» بالتحتانية المشددة، وهو تصحيف.

قوله: «الكلأ والعشب»: هو من ذكر الخاص بعد العام، لأن الكلأ يطلق على النبت الرطب واليابس معاً، والعشب للرطب فقط. =

= قوله: «إخاذات»: جمع إخاذة وهي الأرض التي تمسك الماء. وفي رواية غير أبي ذر وكذا في مسلم وغيره: «أجادب» جمع جدب وهي الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء. وضبطه المازري بالذال المعجمة. ووهمه القاضي. ورواها الإسماعيلي عن أبي يعلى عن أبي كريب: «أحارب» قال الإسماعيلي: لم يضبطه أبو يعلى وقال الخطابي: ليست هذه الرواية بشيء. قال: وقال بعضهم: «أجارد» جمع جرداء وهي البارزة التي لا تنبت، قال الخطابي: هو صحيح المعنى إن ساعدته الرواية. وأغرب صاحب المطالع فجعل الجميع روايات، وليس في الصحيحين سوى روايتين فقط، وكذا جزم القاضي.

قوله: «فنفع الله بها» أي بالإخاذات. وللأصيلي «فنفع الله به» أي بالماء.

قوله: «وزرعوا» كذا له بزيادة زاي من الزرع، ولمسلم والنسائي وغيرهما «ورعوا» بغير زاي من الرعى، قال النووي. كلاهما صحيح. ورجح القاضي رواية مسلم بلا مرجح، لأن رواية «زرعوا» تدل على مباشرة الزرع لتطابق في التمثيل مباشرة طلب العلم، وإن كانت رواية «رعوا» مطابقة لقوله أنبتت، لكن المراد أنها قابلة للإنبات. وقيل إنه روى «ووعوا» بواوين، ولا أصل لذلك. وقال القاضي قوله: «ورعوا» راجع للأولى لأن الثانية لم يحصل منها نبات (انتهى). ويمكن أن يرجع إلى الثانية أيضا بمعنى أن الماء الذي استقر بها سقيت منه أرض أخرى فأنبتت.

قوله: «فأصاب» أي الماء. وللأصيلي وكريمة: «أصابت» أي: طائفة أخرى. ووقع كذلك صريحا عند النسائي. والمراد بالطائفة القطعة.

قوله: «قيعان» جمع قاع وهو الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت.

قال القرطبي وغيره: ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي في حال حاجتهم إليه، وكذا كان الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت. ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينـــزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم. فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها. ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله: «نضر الله امرءا سمع مقالتي فأداها كما سمعها». ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمـــنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها. وإنما جمع المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها. والله أعلم. ثم ظهر لي أن في كل مثل طائفتين، فالأول قد أوضحناه، والثاني الأولى منه من دخل في الدين ولم يسمع العلم أو سمعه فلم يعمل به ولم يعلمه، ومثالها من الأرض السباخ وأشير إليها بقوله ﷺ : «من لم يرفع بذلك رأساً» أي أعرض عنه فلم ينتفع له ولا نفع. والثانية منه من لم يدخل في الدين أصلاً، بل بلغه فكفر به، ومثالها من الأرض الملساء المستوية التي يمر عليها الماء فلا ينتفع به، وأشير إليها بقوله ﷺ «ولم يقبل هدى الله الذي جئت به». =

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: قَالَ إِسْحَاقُ: وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَيَّلَتِ الْمَاءَ ، قَاعٌ يَعْلُوهُ الْمَاءُ، وَالصَّفْصَفُ الْمُسْتَوِي مِنَ الأَرْضِ (١).

اشتمل إسناد هذا الحديث على لطفيتين:

الأولى: أن رجاله كلهم كوفيون.

الثانية: رواية بريدة عن جده وعن أبيه.

قال ابن الملقن: هذا الحديث من بديع كلامه ووجيزه وبليغه ﷺ في السبر والتقسيم، ورد الكلام بعضه على بعض، فإنه ذكر ثلاثة أمثلة ضربها في الأرض، اثنان منها محمودان قال النووي: معنى الحديث أن الأرض على ثلاثة أنواع شبه النبي ﷺ كل نوع بنوع من أنواع الأرض:

= وقال الطيبي: بقى من أقسام الناس قسمان:

أحدهما: الذي انتفع بالعلم في نفسه و لم يعلمه غيره.

والثاني: من لم ينتفع به في نفسه وعلمه غيره.

قلت: والأول داخل في الأول لأن النفع حصل في الجملة وإن تفاوتت مراتبه، وكذلك ما تنبته الأرض، فمنه ما ينتفع الناس به ومنه ما يصير هشيما. وأما الثاني فإن كان عمل الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل في الثاني كما قررناه، وإن ترك الفرائض أيضا فهو فاسق لا يجوز الأخذ عنه، ولعله يدخل في عموم: «من لم يرفع بذلك رأسا» والله أعلم. انظر فتح الباري (١/١٧٦ - ١٧٧).

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذه الفقرة فوائد منها:

قوله: «قال إسحاق: وكان منها طائفة قيلت» أي أن إسحاق بن راهويه حيث روى هذا الحديث عن أبي أسامة خالف في هذا الحرف.

قال الأصيلي: هو تصحيف من إسحاق. وقال غيره: بل هو صواب ومعناه شربت، والقيل شرب نصف النهار، يقال قيلت الإبل أي شربت في القائلة. وتعقبه القرطبي بأن المقصود لا يختص بشرب القائلة. وأجيب بأن كون هذا أصله لا يمنع استعماله على الإطلاق تجوزاً.

وقال ابن دريد: قيل الماء في المكان المنخفض إذا اجتمع فيه، وتعقبه القرطبي أيضا بأنه يفسد التمثيل، لأن اجتماع الماء إنما هو مثال الطائفة الثانية، والكلام هنا إنما هو في الأولى التي شربت وأنبتت. قال: والأظهر أنه تصحيف.

قوله: «قاع يعلوه الماء. والصفصف المستوى من الأرض» هذا ثابت عند المستملي، وأراد به أن قيعان المذكورة في الحديث جمع قاع وأنها الأرض التي يعلوها الماء ولا يستقر فيها، وإنما ذكر الصفصف معه جرياً على عادته في الاعتناء بتفسير ما يقع في الحديث من الألفاظ الواقعة في القرآن، وقد يستطرد. انظر فتح الباري (١/١٧٧).

فالنوع الأول من الأرض: ينتفع بالمطر فيحيا بعد أن كان ميت، ينبت الكلأ فينتفع به الناس، والدوآب بالشرب والرعي والزرع وغيرها، ومثل هذا النوع الأول من الناس وهو الذي يبلغه الهدي والعلم، فيحفظ ويحيا قلبه ويعمل به ويعلمه غيره، فينتفع وينفع الناس.

والنوع الثاني من الأرض: ما لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة هي إمساك الماء لغيرها، فينتفع به الناس والدوآب وهي لا تنتفع، ومثل هذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أذهان ثاقبة ولا رسوخ لهم في العلم، يستنبطون به المعاني والأحكام فهم يحفظون حتى يجيء أهل النفع والانتفاع فيأخذه منهم، فهؤلاء نفعوا الناس بعلمهم وما انتفعوا.

النوع الثالث من الأرض: هو السباخ التي لا تنبت، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع به غيرها، ومثل هذا النوع النوع الثالث من الناس وهم الذين ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون ولا يحفظون لينفعوا غيرهم [(١)].

فالحاصل: أن النوع الأول للمنتفع النافع، والنوع الثاني للنافع غير المنتفع، والثالث لغير النافع والمنتفع، وأعلى هذه الأنواع النوع الأول وهو المنتفع النافع.

قال الله تعالى ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً**﴾[فصلت: ٣٣].

وقال: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾[النحل: ١٢٥].

وقال النبي ﷺ: «**أفضل الناس المؤمن العالم الذي إذا احتيج إليه نفع، وإن استغني عنه أغنى نفسه**» [(٢)].

وقال رسول الله ﷺ لما بعث معاذ إلى اليمن: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا ومن فيها**» [(٣)].

وقال: «**من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أُعطي ثواب ستين صديقاً**» [(٤)].

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/٤٧، ٤٨).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٥/٣٠٣) بنحوه عن علي.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده (٥/٢٣٨، رقم ٢٢١٢٧).

قال الهيثمي (٥/٣٣٤): رجاله ثقات إلا أن ذويد بن نافع لم يدرك معاذا.

(٤) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/٥٤) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس عن عبد =

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: «من علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات والأرض» [(١)].

وقال ﷺ: «**كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها خير له من عبادة سنة**» [(٢)].

وقال: «**ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه**» [(٣)].

وقال: «**الدال على الخير كفاعله**» [(٤)].

وقال عمر: «من حدث بحديث فعمل به فله مثل أجر ذلك العمل» [(٥)].

وروي أن سفيان الثوري قدم عسقلان فمكث أياماً ولا يسأله إنسان فقال: اكتروا لي لأخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم [(٦)].

وقال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: ليس يسئلني أحد عن شيء [(٧)].

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد من آبائهم وأمهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة [(٨)].

= الله بن مسعود، ثم قال: وفيه نكارة.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩٣/٦).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٨٧/١، رقم ١٣٨٦) عن زيد بن أسلم مرسلاً.

(٣) أورده الذهبي في إحياء علوم الدين (١٠/١) قال العراقي: أخرجه ابن عبد البر من رواية محمد ابن المنكدر مرسلا نحوه.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٦/٦، رقم ٥٩٤٥) وفي الأوسط (٣٤/٣، رقم ٢٣٨٤) عن سهل بن سعد.

وأخرجه الطبراني (٢٢٧/١٧، رقم ٦٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٦/٦، رقم ٧٦٥٦) وأبو عوانة في مسنده (٤٧٨/٤، رقم ٧٤٠٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٨٥/١، رقم ٨٦)، والخطيب في التاريخ (٣٨٣/٧) عن ابن مسعود.

(٥) أخرجه الحاكم في المدخل إلى الصحيح (٨٧/١).

(٦) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢٧٩/٢، رقم ١٨٤٩).

(٧) انظر: إحياء علوم الدين (١١/١).

(٨) انظر: إحياء علوم الدين (١١/١).

قال حجة الإسلام الغزالي [(١)]: وقال معاذ بن جبل ورأيته أيضاً مرفوعاً: «**تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقه، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة، والأنس في الوحشة، وهو الأنس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله تعالى به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة، وهداة يقتدى بهم، وأدلة في الخيرات تقتفى آثارهم، وترفق أفعالهم، ترغب الملائكة خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام، والعمل تابعه يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء**» [(٢)].

والنوع الثاني: وهو الذي ينفع الناس ولا ينتفع، نوع كالأرض التي تمسك الماء فقط للناس، ينتفعوا به وهي لا تنفع نفسها، فلا تنبت الكلأ، مذموم قبيح، فإنه يقبح بالعالم أن ينفع الناس بعلمه فيعملوا به وهو لا ينتفع به ولا يعمل به، بل ينبغي أن يكون فعله موافقاً لقوله، فإذا أمر بشيء عمل به، وإذا نهى عن شيء انتهى عنه قبل غيره.

وقد دلت الأخبار من الكتاب والسنة على ذم من علم الناس و لم يعمل بعلمه.

قال الله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾[البقرة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾[الصف: ٣].

وقال تعالى في قصة شعيب: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ**﴾[هود: ٨٨].

وقال تعالى لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: «يا ابن مريم عظ نفسك، فإن

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/١١).

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (٢/٤١، رقم ٢٢٣٧) عن معاذ.

اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني» [١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله، وننهى عن الشر ونفعله**» [٢].

وقال الفضيل: بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان، وإليه أشار من قال:

وعالم بعلمه لم يعملن ... معذب من قبل عباد الأوثان

وقال أبو الدرداء: ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم و لم يعمل سبع مرات [٣].

وقال الشعبي: يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم: ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فقالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله [٤].

وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل الفطر عن الصفاء [٥].

ولله در القائل:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما ... إذا عبت منهم أموراً أنت تأتيها

وكان يحيى بن معاذ ينشد في مجلس:

مواعظ الواعظ لن تقبلا ... حتى تفيها نفسه أولاً

يا قوم من أظلم من واعظ ... خالف ما قد قاله في الملا

أظهر بين الناس إحسان ... وبارز الرحمن لما خلا

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١/٥٤) وأبو نعيم في الحلية (٢/٣٨٢).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده (٣/١٢٠، رقم ١٢٢٣٢)، والحارث كما في بغية الباحث (١/ ١٧٠، رقم ٢٦)، وأبو يعلى في مسنده (٧/٦٩، رقم ٣٩٩٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٨٣، رقم ١٧٧٣) عن أنس.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (١/١٤٢) وأبو نعيم في الحلية (١/٢١١).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/٢١، رقم ٦٤).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (١/٣٢٣) وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٨٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٩٧، رقم ١٨٤١).

وذكر ابن رجب في اللطائف أن عبد الواحد بن زيد لما جلس للوعظ أتته امرأة من الصالحات فأنشدته:

يا واعظاً قام لاحتساب ... يزجر قوماً عن الذنوب
تنهى وأنت المريب حقاً ... هذا من المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا ... عيبك أو تبت عن قريب
كان لما قلت يا حبيبي ... موقع صدق من القلوب
تنهى عن الغي والتمادي ... وأنت في النهي كالمريب

وقال بعضهم: العالم الذي لا يعمل كالمريض الذي يصف الدواء، والجائع الذي يصف لذائذ الأطعمة، و لم يجدها عنده.

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ١٨].

ولقد أحسن من قال:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو سقيم
يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
ما زلت تلقح بالرشاد عقولنا ... صفة وأنت من الرشاد عديم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ... كيما تصح به وأنت سقيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال ابن السماك: كم من مذكر بالله ناس لله، وكم من مخوف بالله جريء على الله، وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله، وكم من داع إلى الله فار من الله، وكم من تال لكتاب الله منسلخ من آيات الله [(١)].

وقال عيسى عليه السلام: مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فانفضحت، وكذلك من لم يعمل بعلمه يفضحه الله تبارك وتعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد [(٢)].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٣١٣، رقم ١٩١٦).

(٢) أورده المناوي في فيض القدير (٢/٤٣٣).

وقال معاذ: احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم، فيتبعوه على زلته.

وقال عمر ﷺ: إذ زل العالم زل بزلته عالم من الخلق. وقال: ثلاث يهدم به الإسلام زلة العالم إحداهن.

أنشد بعضهم:

وقال

فساد كبير عالم متهتك ... وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة للعالمين عظيمة ... لمن بهما في دينه يتنسك

الإمام فخر الدين الرازي: إذا اشتغل العالم بجمع الحلال، صار العوام آكلين الشبهات، وإذا صار العالم آكلاً للحرام، صار العامي كافراً، فالواجب على العالم كف نفسه عن صغائر المعاصي وكبائرها حتى لا يقتدى بها، والمعصية مع العلم فوق المعصية مع الجهل من وجوه، وإذا ابتلي بمعصية فليستتر صيانة لمنصب العلم.

وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

أيها العالم إياك الزلل ... واحذر الهفوة والخطب الجلل

هفوة العالم مستعظمة ... إذ بها أصبح في الخلق مثل

وعلى زلته عمدهم فبها ... يحتج من أخطأ وزل

لا تقل يستر علمي زلتي ... بل بها يحصل في العلم الخلل

أن تكن عندك مستحقرة ... فهي عند الله والناس جبل

وقال رسول الله ﷺ: «**من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً**» (١).

وقال: «**إن أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه**» (٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج الذي يضئ ويحرق نفسه**» (٣).

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٦٠٢/٣، رقم ٥٨٨٧) عن علي بن أبي طالب بنحوه.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٥/٢، رقم ١٦٨١) قال الهيثمي (١٨٥/١): رجاله موثقون. وأخرجه الديلمي في الفردوس (١٣٤/٤، رقم ٦٤١٩) عن جندب بن عبد الله.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٥/٢، رقم ١٦٨١) قال الهيثمي (١٨٥/١): رجاله موثقون. وأخرجه الديلمي في الفردوس (١٣٤/٤، رقم ٦٤١٩) عن جندب بن عبد الله.

ولله در أبي العتاهية حيث قال:

وبخت غيرك بالعمى فأفدته ... بصراً وأنت مخيتم لعيناكا
وفتيلة المصباح تحرق نفسها ... وتضيء للأعشى وأنت كذاكا

وقال علي ﷺ: «يا حملة القرآن اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف علمهم عملهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقاً، يباهي بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله» (١).

وقال بعض العلماء : رأيت في منامي كأني جالس بالعلم على عادتي وحولي كتبي، وإذا بخطاب فوق رأسي وقائل يقول لي: اكتب فأخذت القلم وورقة وقلت: ما الذي أكتب؟ فقال: اكتب:

تعلم ما استطعت لقصد وجهي ... فإن العلم من سفن النجاة
وليس العلم في الدنيا بفخر ... إذا ما حل في غير الثقات
ومن طلب العلوم لغير وجهي ... بعيد أن تراه من الهداة

قال الأئمة: من وجد لذة العلم والعمل به قل ما يرغب فيما عند الناس.

وأنشدوا فيه فقال:

من طلب العلم للمعاد ... قد فاز بالفضل والمراد
وباء بالذل من نحاه ... لنيل فضل من العباد

قال إمامنا الشافعي ﷺ: وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم -يعني علمه وكتبه- على أن لا ينسب إلي حرف منه (٢).

قال الرازي في تفسيره: لا تتم أربعة أشياء إلا بأربعة أشياء: لا يتم الدين إلا بالتقوى، ولا يتم القول إلا بالفعل، ولا تتم المروءة إلا بالتواضع، ولا يتم العلم إلا بالعمل، فالدين بلا تقوى على خطر، وقول بلا فعل كالهدر، والمروءة بلا تواضع كشجرة بلا ثمر، وعلم بلا عمل كسحب بلا مطر.

قال الأصم: ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به و لم

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١/١١٨، رقم ٣٨٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/١١٨).

يعمل هو به [١].

فائدة مناسبة لهذا: حكى أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه روضة المشتاق إلى الملك الخلاق عن بعض السادة أنه قال: أشد الناس حسرة يوم القيامة رجل ملك عبداً فعلمه شرائع الإسلام فأطاع وأحسن وعصى السيد، فإذا كان يوم القيامة أمر بالعبد إلى الجنة وأمر بسيده إلى النار، فيقول عند ذلك: واحسرتاه واغبناه، أما هذا عبدي، أما كنت مالكاً لمهجته وماله، وقادراً على جميع ماله، فماله سعد، ومالي شقيت، فيناديه الملك الموكل: لأنه تأدب وما تأدبت، وأحسن وأسأت.

ورجل كسب مالاً فعصى الله سبحانه وتعالى في جمعه ومنعه، و لم يقدمه بين يديه حتى صار المال إلى وراثه، فأحسن في أنفاقه وأطاع الله سبحانه في إخراجه، وقدمه بين يديه، فإذا كان يوم القيامة أمر بالوارث إلى الجنة وبصاحب المال إلى النار، فيقول: واحسرتاه واغبناه أما هذا مالي، فمالي ما أحسنت به أحوالي، فيناديه الملك الموكل به: لأنه أطاع الله تعالى وما أطعت، وأنفق لوجهه وما أنفقت، فسعد وشقيت.

ورجل علم قوماً فوعظهم فعملوا بقوله و لم يعمل، فإذا كان يوم القيامة أمر بهم إلى الجنة وأمر به إلى النار، فيقول: واحسرتاه واغبناه أما هذا علمي فمالهم فازوا به وما فزت، وسلموا به وما سلمت، فيناديه الملك الموكل: لأنهم عملوا بما قلت وما عملت، فسعدوا وشقيت.

فائدة أخرى: تقدم بعض الصالحين ليصلي بالناس إماماً فالتفت إلى المأمومين يعدل الصفوف، وقال لهم: استقيموا واستووا فغشي عليه، فسئل عن سبب ذلك فقال: لما قلت لهم استقيموا فكرت في نفسي فقلت لها: فأنت هل استقمت مع الله طرفة عين.

فائدة أخرى: ما ينبغي للإنسان ولو كان عاصياً أن يمتنع أن يعظ الناس بعد الرسول، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، فإنه لو لم يعظ الناس ويعلمهم إلا معصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد الرسول ﷺ أحد، لأنه لا عصمة لأحد بعده.

وقيل للحسن: إن فلاناً لا يعظ ويقول: أخاف أن أقول مالا أفعل فقال الحسن: وأينا يفعل ما يقول، ود الشيطان أنه قد ظفر بهذا، فلم يأمر أحداً بمعروف و لم ينه عن منكر، وقل من سلم من المعصية، من ذا الذي ما سآء قط، ومن له الحسنى قط فلا ينبغي لذلك سد باب الوعظ والتذكير. قال ذلك ابن رجب في أول اللطائف.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٦٣).

وأما النوع الثالث: وهم الذين لا علم عندهم ولا عمل، لا ينفعون ولا ينتفعون، فهم أشقى الخلق، لأنهم لم يقبلوا هدى الله، و لم يرفعوا به رأساً، لا حفظ عندهم ولا فهم، ولا رواية ولا دراية، ولا رعاية إنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، فهذه الطائفة هم الذين يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ليس همُّ أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه مع ذلك لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في داره وبستانه ومركوبه، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في رياسته والانتصار للنفس الغضبية.

فينبغي للعاقل أن يجمع بين العلم والعمل به فإن لم يقدر على ذلك فليكن عاملاً بما تعلمه منهم فإن لم يفعل ذلك كان من أشر الناس، ويكفي من لا علم ولا عمل ذماً أن يحرم درجة العلماء وعزهم وشرفهم، ودرجة العاملين بقول العلماء والمقتدين بهم، فإن الإنسان ولو بلغ في العز في الدنيا مهما بلغ إذا لم يكن عنده علم ولا عمل فهو حقير عند الله، وينتهى عزه إلى ذل.

قال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك [١].

وقال الأحنف: كاد العلماء يكونون أرباباً، وكل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل مصيره [٢].

وقال سالم بن أبي الجعد: اشتراني مولاي بثلاثمائه درهم واعتقني، فقلت: بأي حرفة أحترف، فاحترفت بالعلم فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً، فلم آذن له [٣].

قال الزبير ابن أبي بكر: كتب لي أبي بالعراق عليك: بالعلم إن كنت فقيراً كان لك مالاً، وإن استغنيت كان جمالاً [٤].

وقال الزهري: العلم ذكر ولا يحبه إلا ذكور الرجال [٥].

وبقي نوع آخر من الناس وهو لم يذكره هنا وهم: الذين يتعلمون العلم ويكتمون

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٧).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/٨).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (١/٨).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (١/٨).

(٥) انظر إحياء علوم الدين (١/٨).

عن الناس، فهم ينفعون أنفسهم به ولا يعلمون الناس بخلاً، فهذا النوع من الناس أيضاً مذموم قبيح، فإن العلم فضل الله، ويحرم عليه أن يبخل بفضل الله على مستحقيه، ولله در القائل:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾[آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٤٦].

وقال ﷺ: «**ما أتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ من النبيين، أن يبينه ولا يكتمه**» (١).

وقال: «**من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار**» (٢).

ولو كتم العلم عمن لا يستحقه ككثير من الجهال الذين لا ينتفعون بالعلم ولا يلتفتون إلى العمل به أو يخاف عليهم من الفتنة بما يتعلمه فلا إثم عليه حينئذ في كتمه.

قال إمامنا الشافعي:

ومن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وكاتم علم الدين عمن يريده ... يبوء بإثم زاد وآثم إذا كتم

وقال بعضهم ونسب إلى زين العابدين:

إني لأخفي من علمي جواهره ... كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتننا

ورب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجالاً دينون دمى ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/١٠٤، رقم ١٤١)، وابن حجر في القول المسدد (١ /٥) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣/٣٢١، رقم ٣٦٥٨)، والترمذي في سننه (٥/٢٩، رقم ٢٦٤٩) وقال: حسن. وابن ماجه في سننه (١/٩٨، رقم ٢٦٦)، وأحمد في مسنده (٢/٣٤٤، رقم ٨٥١٤)، والحاكم (١/١٨٢، رقم ٣٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٧٥، رقم ١٧٤٣) عن أبي هريرة.

وأخرجه ابن ماجه في سننه (١/٩٧، رقم ٢٦٤) عن أنس. قال البوصيري: هذا إسناد ضعيف.

وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠/١٢٨، رقم ١٠١٩٧) عن ابن مسعود.

قال الهيثمي (١/١٦٣): فيه سوار بن مصعب وهو متروك.

وقد تقدم في هذا أبو حسن وأوصى حسينا بما قد أخبر الحسنا

والمراد بالمثل قوله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم**» الصفة العجيبة الشأن لا القول السائر.

وقوله: «**الهدى**» الدلالة الموصلة إلى البغية.

«**والعلم**» المراد به معرفة الأدلة الشرعية.

وقوله: «**كمثل الغيث الكثير**» وهو المطر، وسمى المطر «**غيثاً**» لإغاثة الخلق.

فائدة: اختلف العلماء في الغيث الربيعي والغيث الشتوي أيهما ألطف على قولين، فقيل: الشتوي ألطف، لأن حرارة الشمس تكون حينئذ أقل، فلا تجذب من ماء البحر إلا الطفه، والجو صاف وهو خال من الأبخرة الدخانية، والغبار المخالط للماء، وكل هذا يوجب لطفه وصفائه وخلوه من مخالط.

وقيل: الربيعي ألطف، لأن الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة، وتوجب رقة الهواء ولطافته، فيخف بذلك الماء، وتقل أجزاؤه الأرضية وتصادف وقت حياة النبات والأشجار وطيب الهواء.

ووجه المشابهة بين العلم والغيث أن الغيث يحيي البلد الميت، والعلم يحيي القلب الميت، وإنما اختار الغيث من بين سائر أسماء المطر ليؤذن باضطرار الخلق حينئذ إليه ﷺ كاضطرارهم إلى المطر.

قال الله تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ**﴾[الشورى: ٢٨].

وقد كانت الناس قبل بعثته ﷺ في جهل وضلال، امتحنوا بموت القلب حتى أصابهم الله برحمة من عنده، وأغاثهم به ﷺ فأرسله إليهم رحمة.

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء: ١٠٧] أي: لجميع الخلق: للمؤمنين بالهداية، وللمنافقين بالأمان من القتل، وللكافرين بتأخير العذاب، فهداهم وزال ضلالهم، وعلم جاهلهم، وقوَّم مائلهم، وأحيا قلوبهم الميتة به، كما أحيا الأرض الميتة بالغيث المرسل إليها، وهذا يدل على شرفه وعلو قدره ﷺ وعظيم قدره عند الله.

ويدل أيضاً على علو قدره ﷺ أنه كان في حياته ﷺ يستأذن رب العزة سبعون ألف ملك لينـــزلوا إلى الأرض لرؤيته، فكانوا ينـــزلون وينظرون إليه لما يعلمون من كرامته على الله ﷻ.

باب رفع العلم وظهور الجهل

قَالَ البُخَارِي: وقال ربيعة: لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه[١].

هذا تعليق من البخاري بصيغة الجزم الدالة على أنه من تصحيحات التعلقيات، لا من تمريضاته ومعناه: لا ينبغي لمن عنده شيء من العلم ولو كان قليلاً أن يضيع نفسه، بأن لا يفيد الناس ولا يسعى في تعليم الخير.

وفيه دليل على أنه يندب للإنسان إذا كان في البلد مثله في العلم أن يقضي بين الناس إذ علم أنه يزول حموله وينتشر علمه بذلك.

حَدَّثَنَا عِمْرَانُ بْنُ مَيْسَرَةَ، قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، عَنْ أَبِي التَّيَّاحِ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا**»[٢].

قوله: «إن من أشراط الساعة» أي: من علاماتها، فإن الأشراط جمع شرط بفتح الشين، والراء، وهي العلامة.

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الأثر فوائد عظيمة منها:

قوله: «وقال ربيعة»: هو ابن أبي عبد الرحمن الفقيه المدني، المعروف بربيعة الرأي قيل له ذلك لكثرة اشتغاله بالاجتهاد.

ومراد ربيعة أن من كان فيه فهم وقابلية للعلم لا ينبغي له أن يهمل نفسه فيترك الاشتغال، لئلا يؤدي ذلك إلى رفع العلم.

أو مراده الحث على نشر العلم في أهله لئلا يموت العالم قبل ذلك فيؤدي إلى رفع العلم.

أو مراده أن يشهر العالم نفسه ويتصدى للأخذ عنه لئلا يضيع علمه.

وقيل مراده تعظيم العلم وتوقيره، فلا يهين نفسه بأن يجعله عرضا للدنيا. وهذا معنى حسن. انظر فتح الباري (١/١٧٨).

(٢) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الأثر فوائد منها:

قوله: «أشراط الساعة»: أي علاماتها، وهذه العلامات منها ما يكون من قبيل المعتاد، ومنها ما يكون خارقا للعادة.

قوله: «أن يرفع العلم»: المراد برفعه موت حملته.

قوله: «ويثبت»: أي ينتشر.

قوله: «ويشرب الخمر»: المراد كثرة شرب الخمر واشتهاره.

قوله: «ويظهر الزنا»: أي يفشو. انظر فتح الباري (١/١٧٨).

وقوله: «**أن يرفع العلم**» ليس المراد برفع العلم محوه من صدور الحفاظ وقلوب العلماء، فإن الله سبحانه وتعالى لا يهب العلم لخلقه ثم ينتزعه منهم، بعد أن تفضل عليهم به تعالى الله أن يسترجع ما وهب من علمه الذي يؤدي إلى معرفته والإيمان به وبرسله، وإنما يكون قبض العلم بموت العلماء وعدم المتعلمين، فلا يوجد فيمن يبقى من يخلف من مضى، وقد أنذر عليه الصلاة والسلام بقبض الخير كله، ولا ينطق عن الهوى.

والذي يدل على أن المراد برفع العلم موت العلماء ما يأتي في هذا الصحيح أنه ﷺ قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**» (١).

وقد جاءت أخبار من الكتاب والسنة وغيرها أن موت العلماء نقص في الدين، وعلامة لحلول البلاء المبين.

قال الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾[الرعد: ٤١]

قال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء (٢).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء، ما اختلف الليل والنهار» (٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/٥٠، رقم ١٠٠)، ومسلم في صحيحه (٤/٢٠٥٨، رقم ٢٦٧٣)، والترمذي في سننه (٥/٣١، رقم ٢٦٥٢) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في سننه (١/ ٢٠، رقم ٥٢)، وأحمد في مسنده (٢/١٦٢، رقم ٦٥١١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/٥٠٥، رقم ٣٧٥٩٠)، والدارمي في سننه (١/٨٩، رقم ٢٣٩)، وابن حبان (١٠/٤٣٢، رقم ٤٥٧١) عن ابن عمر.

وأخرجه الخطيب في التاريخ (٥/٣١٢)، والبزار كما في مجمع الزوائد (١/٢٠١) كلاهما عن عائشة. قال الهيثمي (١/٢٠١): فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث، وهو ضعيف، ووثقه عبد الملك بن سعيد بن الليث.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (٦/٢٧٧، رقم ٦٤٠٣)، قال الهيثمي (١/٢٠١): فيه العلاء بن سليمان الرقى ضعفه ابن عدي وغيره. وابن عدي (٥/٢٢٣ ترجمة ٣٧٩ العلاء بن سليمان الرقى) وقال: منكر الحديث ويأتي بمتون ولها أسانيد لا يتابعه عليها أحد. كلاهما عن أبي هريرة.

(٢) أورده البغوي في تفسيره (٣/٢٤).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٦٨، رقم ١٧١٩).

وقال أيضاً: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله» [١].

وقال عمر ﷺ: «موت ألف عابد صائم النهار قائم الليل أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه» [٢].

وقال علي ﷺ: «إن مات العالم ثلم ثلمة في الإسلام ولا يسدها إلا خلف منه» [٣].

وقال: «إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كف لم تعد».

وقال سلمان: «لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يعلم الآخر، فإذا أهلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس» [٤].

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: «هلاك علمائهم» [٥].

قال علي بن موسى: «أعظم الرزايا موت العلماء».

وقوله: «**ويشرب الخمر**» قال العلماء: شرب الخمر من الكبائر، سماها الله تعالى في كتابه الإثم.

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ**﴾[الأعراف: ٣٣].

قال الحسن: الإثم هو الخمر.

ويدل على إطلاق الإثم عليها قول لبيد:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم تذهب بالعقول

وإذا شربها في الدنيا ومات من غير توبة فإنه لا يشربها في الآخرة، مع أنها أطيب شراب الآخرة، ويدل على ذلك ما في صحيح مسلم عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ «**كل مسكر حرام، وكل خمر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة، وإذا شربها في الدنيا ومات من غير توبة أسقي**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠/٩، رقم ٨٨٤٥)، قال الهيثمي (١٢٦/١): رواه الطبراني في الكبير وأبو قلابة لم يسمع من ابن مسعود.
وأخرجه عبد الرزاق عن معمر بن راشد في الجامع (٢٥٢/١١).

(٢) أخرجه الحارث كما في بغية الباحث (٨١٣/٢، رقم ٨٤٢).

(٣) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٩٩/١، رقم ٣٤٧).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (١٥١/١)، والدارمي (٩٠/١، رقم ٢٤٢).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٧٦/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٣/٢، رقم ١٦٦٢)، وابن أبي شيبة (٤٥٨/٧، رقم ٣٧٢٠٦)، والدارمي (٩٠/١، رقم ٢٤١).

من عرق أهل النار» [١].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن على الله عهداً لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال**» قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «**عرق أهل النار**» أو قال: «**عصارة أهل النار**» [٢].

قال البغوي: جاء في الحديث: «**أن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة الفردوس بيده ثم قال: وعزتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمر ولا ديوث**» [٣].

فإن قيل: شرب الخمر كيف يكون من علاماتها والحال كان واقعاً في جميع الأزمان، وحذر ﷺ من شربه؟

وأجيب: بأن المراد بشرب الخمر الذي هو من علامات الساعة أن تشرب شرباً فاشياً، كما جاء في رواية: «**ويكثر شرب الخمر**»، أو المراد: أن الشرب وحده ليس علامة بل العلامة مجموع الأمور المذكورة.

وقوله: «**ويظهر الزنا**» أي: يفشو وينتشر.

قال ابن الملقن: والزنا يمد ويقصر، والأولى لغة نجد، والثانية لغة أهل الحجاز.

فائدة: ذكر في هذا الحديث من علامات الساعة أربعة وجاء في غيره من الأحاديث علامات أخرى كثيرة: كإطالة البنيان، وزخرفة المساجد، وإمارة الصبيان، ولعن آخر هذه الأمة أولها، وكثرة الهرج، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٨٨/٣، رقم ٢٠٠٣). وأخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (٣/ ٣٢٧، رقم ٣٦٧٩)، والترمذي في سننه (٢٩٠/٤، رقم ١٨٦١)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٢١٢/٣، رقم ٥٠٩٣)، والطيالسي في مسنده (ص: ٢٦٠، رقم ١٩١٦)، وأحمد في مسنده (٢٩/٢، رقم ٤٨٣١)، وابن حبان في صحيحه (١٨٨/١٢، رقم ٥٣٦٦)، والطبراني في الكبير (٢٩٤/١٢، رقم ١٣١٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٨٧/٣، رقم ٢٠٠٢). وأخرجه أيضاً: النسائي في سننه (٨/ ٣٢٧، رقم ٥٧٠٩)، وأحمد في مسنده (٣٦٠/٣، رقم ١٤٩٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٧، رقم ٥٥٧٩).

(٣) أخرجه الدارقطني في الصفات (٢٦/١، رقم ٢٨) وأبو الشيخ (١٥٥٥/٥) عن عبد الله بن الحارث بن نوفل.

وأخرجه الديلمي (١٨١/١، رقم ٦٧٥) عن علي.

وإن رضوا رضوا لأنفسهم وإن غضبوا غضبوا لأنفسهم، لا يغضبون لله ولا يرضون لله.

قال رسول الله ﷺ: «**من علامات الساعة أربعة أشياء: كثرة المطر وقلة النبات، وكثرة القراء وقلة العلماء**» أفاده ابن الجوزي.

ومن علاماتها إنكار الحق، قال علي ﷺ: «يأتي على الناس زمان ينكر الحق فيه تسعة أعشارهم» (١).

ولها علامات أخرى غير ذلك وهذه العلامات هي العلامات الصغار، والحكمة في إظهارها وإيجادها قبل الساعة تنبيه الناس على رقدتهم، وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة، فينبغي للناس بعد ظهورها أن يطهروا أنفسهم، وينفطموا عن الدنيا، ويستعدوا للساعة الموعود بها.

وقد وقعت هذه العلامات في هذه الأزمان كما أخبر ﷺ وتحقق بهذا الحديث معجزة النبي ﷺ وصدقه في كل ما أخبر به ﷺ.

وأما العلامات الكبار: كخروج الدجال ويأجوج ومأجوج والدابة وغير ذلك، فإنها لا تظهر إلا قرب الساعة أو مصاحبة لها.

فائدة أخرى: ظهور اللواط وانتشاره بين الناس كظهور الزنا في أنه من علامات الساعة.

قال ابن الجوزي في كتابه سوق العروس: روى ابن ماجة عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط**» (٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**لعن الله عمل عمل قوم لوط**» (٣).

وقال رسول الله ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه الفاعل**

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١/١٣٠)، وفي فضائل الصحابة (١/٥٢٩، رقم ٨٨٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/٨٥٦، رقم ٢٥٦٣) وأخرجه أيضاً: الترمذي في سننه (٤/٥٨، رقم ١٤٥٧) وقال: حسن غريب. وأحمد في مسنده (٣/٣٨٢، رقم ١٥١٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤/٩٧، رقم ٢١٢٨)، والحاكم في المستدرك (٤/٣٩٧، رقم ٨٠٥٧) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٣٥٤، رقم ٥٣٧٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٠٨، رقم ٨٥٥)، والطبراني في الكبير (١١/٢١٨، رقم ١١٥٤٦)، والحاكم في المستدرك (٤/٣٩٦، رقم ٨٠٥٢)، وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٣١، رقم ١٦٧٩٤).

والمفعول به» [١].

وقد اختلف العلماء في حكم من عمل عمل قوم لوط.

فقال الإمام مالك كما نقله القرطبي عنه: يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، قال: وكذا يرجم المفعول به إذا كان محتلماً [٢].

وقال أبو حنيفة: يعزر المحصن وغيره [٣].

وقال الشافعي: يجد حد الزنا إن كان غير محصن، ويرجم إن كان محصناً [٤].

وقال ابن عباس: ينظر إلى أعلى بناء بالقرية فيلقى منه ثم يتبع بالحجارة [٥].

وقيل: يحرق بالنار.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة، فكتب إلى أبي بكر الصديق ﷺ بذلك فاستشار الصحابة رضي الله عنهم فكان علي أشدهم قولاً فيه فقال: ما فعل هذا إلا فعل أمة من الأمم، وقد علمتهم ما فعل الله بهم، أرى أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك فحرقه [٦].

وقال بعض السلف: إذا ركب الذكر الذكر عجت الأرض إلى الله، وهربت الملائكة إلى ربها، وشكت إليه عظيم ما رأت، وهرب الشيطان خوفاً من اللعنة أن تصيبه.

وأول من أظهر هذه الفاحشة للناس قوم لوط كما أشار الله إلى ذلك بقوله العزيز ﴿**وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/١٥٨، رقم ٤٤٦٢)، والترمذي في سننه (٤/٥٧، رقم ١٤٥٦)، وابن ماجه في سننه (٢/٨٥٦، رقم ٢٥٦١)، والحاكم في المستدرك (٤/٣٩٥، رقم ٨٠٤٧) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٣١، رقم ١٦٧٩٦)، وأحمد في مسنده (١/٣٠٠، رقم ٢٧٣٢)، وأبو يعلى في مسنده (٤/٣٤٨، رقم ٢٤٦٣)، وعبد بن حميد في مسنده (١/٢٠٠، رقم ٥٧٥)، والدارقطني في سننه (٣/١٢٤) عن ابن عباس.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/٢٤٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٧/٢٤٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٧/٢٤٣).

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/٣٥٧، رقم ٥٣٨٨).

(٦) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٨/٢٣٢).

العَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٨٠].

وقال تعالى: **﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾**[الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

وكان فعلهم بهذه الفاحشة بتعليم إبليس لعنه الله.

وقال الحسن: لا ينكحون إلا الغرباء وكانت الغرباء يقصدون بلادهم لأنها كانت مخصبة.

وقيل: إن إبليس تمثل لهم في صورة شاب ثم دعاهم إلى دبره فنكح في دبره، فتعلموا منه واستمروا على هذه الفاحشة، فإبليس أول من عمل هذه الفاحشة، فإنهم كانوا يدخرون الغلة ويطلبون بها الغلاء، فإذا عز الطعام قصد الناس إليهم من أطراف الدنيا فقال لهم إبليس لعنه الله: إني حكيم بأحوال السنين القادمة وسيكون فيها الغلاء الشديد، ولا تنبت الأرض لكم حب الحصيد، فاحفظوا ما عندكم، وامتنعوا من بيع غلتكم إن أردتم سلامة أنفسكم وأهليكم، فإذا انقضت المدة أعلمتكم وأمرتكم بالبيع فيحصل لكم الطعام الجزيل بالطعام القليل، فاقطعوا عنكم الغرباء وامنعوهم البيع والشراء، وإنهم لا ينقطعون حتى تفعلوا ما أقول لكم، كل غريب يأتي أرضكم فلوطوا به، شيخاً كان أو صبياً، سمحاً أو سرياً، ففعلوا ذلك بكل من يجئ، فلم يبق منهم أحد إلا وفعل ذلك.

فلهذا قيل: كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مر عابر سبيل حذفوه بالحصى فأيهم أصابه كان أولى به، فيأخذ ما معه ويغرمه ثلاثة دراهم وينكحه، ولهم قاض بذلك.

هذا هو المنكر الذي نبه الله سبحانه وتعالى أنهم كانوا يفعلون بقوله جل ذكره: **﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المُنكَرَ﴾**[العنكبوت: ٢٩].

وقيل: المنكر الذي كانوا يفعلون أنهم كانوا يسخرون بأهل الطريق.

وقيل: المنكر أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم.

وقيل: المنكر أنهم كانوا يبصق بعضهم على بعض.

وقيل: المنكر أنه كان يجامع بعضهم بعضاً في مجالسهم.

وكان لوطا عليه السلام يدعوهم فلا يجيبون، ويعظهم فلا يرجعون ولا يتعظون، ويزجرهم فلا ينـــزجرون، وكان إبراهيم الخليل يزور لوطاً في كل عام، ويحذرهم الله وهم مصرون على معصيته، ثم نزلت الملائكة على إبراهيم فقال: **﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ**

أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات ٣١] يعني: في ماذا جئتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[الذاريات ٣٢، ٣٣].

فصار إبراهيم يجادل الملائكة من شفقته على العباد ويرجو صلاحهم قبل الهلاك، حتى قالت الملائكة: أتجادلنا في قوم لوط، وكان جداله لهم أنه قال لهم: لو كان في البلد مائة مؤمن أكنتم تعاقبوهم؟ قالوا: لا. قال: فخمسون؟ قالوا: لا. فخمسة؟ قالوا: لا ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[العنكبوت ٣٢] ثم مضت الملائكة إلى لوط وقالوا له: نحن ضيوفك وما عرف أنهم ملائكة وما قدر أن يرد الضيف، بل بقي محزوناً خائفاً عليهم من قومه، لعلمه بعادتهم وفسادهم، فإنهم دخلوا على لوط في صورة حسنة فقال لهم لوط: إن أهل البلد مفسدون، وكان الله تعالى قد أمر جبريل والملائكة أن لا يعذبوا قوم لوط حتى يشهد عليهم لوط بالفساد ثلاث مرات، فلما قال: إنهم مفسدون قال جبريل: هذه شهادة فلما أمسى قال لوط: إن هؤلاء القوم مفسدون قال جبريل: هذه شهادة ثانية فكرر لوط القول، وكانت امرأته منافقة فذهبت إلى البلد وأخبرتهم وقالت لهم: إن عند لوط مرد لهم وجوه حسان، وأخبر أهل البلد بعضهم بعضاً فجاءوا إلى دار لوط وقالوا: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[الحجر: ٧٠] معناه: أما قلنا لك لا تضف أحداً، فقال لهم: هؤلاء بناتي إن أردتم زوجتكم بهن واتركوا الفاحشة ولا تفضحوني في ضيفي فقالوا كلهم: لنا نساء ولا نريد إلا الضيوف، فقال لهم: ليس لي دار مانعة ولا حصن حصين، وجعل يتضرع فلم ينفع، فدخل الملائكة بيتاً وأغلقوا عليهم باباً فما قدروا أن يدخلوا على الملائكة، حتى كسروا الباب فضرب جبريل بجناحه وجوههم فعميت عيونهم، فقالوا: غداً نريك ما نعمل يا لوط، هذا سحر منك يا لوط، قد أعميت أبصارنا وضاق صدر لوط لذلك فقال له جبريل: إنا رسل ربك قال لهم لوط: هم كثيرون وأنا وحدي، فقال جبريل: إني لأجل هلاكهم قد جئت إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فلما مضى من الليل ثلثه قال جبريل: يا لوط خذ الأهبة للخروج فقد وجب العذاب، فقال لوط: إن لي صهراً وله حق على فأريد أن أعرفه ذلك فقال: الأمر لك، فلما أخبر لوط صهره قال له: أسوة بالقوم إن هلكوا هلكت، فلما قرب الوقت أشار جبريل إلى سور البلد فانفتح فيه باب وخرج لوط وأهله، وقال له جبريل: لا يلتفت منكم أحد إلى ورائه، ثم أهلكهم الله بالحجارة أمطر عليهم حجارة من السماء بعد أن قلب ديارهم وأدخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهي خمس

مدائن، وكان فيها أربعمائه ألف إنسان، وقيل: أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونبيح الكلاب، و لم يكفأ لهم إناء، و لم ينتبه نائم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وأمطر الله بعد ذلك عليهم حجارة أي: على المسافرين منهم أينما كانوا في البلاد وكانت هذه الحجارة من سجيل أي: طين مطبوخ، وكانت صلبة وكان مكتوباً عليها اسم من يرمى بها كما قال تعالى: ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلمة باسم صاحبها، قيل: دخل رجل منهم الحرم قبل وصول الحجر إليه، فكان ذلك الحجر الذي أرسل إليه معلقاً في السماء أربعين يوماً حتى خرج من الحرم فأصابه فأهلكه، قال: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: عقوبتهم ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: العاملين بعملهم ﴿بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٣].

قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تذهب الأيام ولا الليالي حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال، كما استحلوا فروج النساء، فتصيب طوائف منهم حجارة من عند ربك**».

قال في نزهة المجالس جاء في الحديث: «**أنه يؤتى يوم القيامة بأطفال ليس بهم رؤوس فيقول الله تعالى: من أنتم؟ فيقولون: نحن المظلومون، فيقول: من ظلمكم؟ فيقولون: آباؤنا كانوا يأتون الذكران من العالمين فألقوا في الأدبار، فيقول الله تعالى: سوقوهم إلى النار واكتبوا على وجوههم آيسين من رحمة الله**» (١).

ومن هذا القبيل سحاق النساء زنا بينهن.

وروي أن سليمان عليه السلام قال لإبليس: أي الأعمال أحب إليك، وأبغض إلى الله؟ قال: لولا منـــزلتك عند الله ما أخبرتك، إني لست أعلم شيئاً أحب إليَّ وأبغض إلى الله من استغناء الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة، وأول من علم النساء السحاق بنت إبليس وتسمى الدلهان، رأت الرجال قد استغنوا بالرجال فجاءت إلى النساء في صورة امرأة وشهت إليهن ركوب بعضهن على بعضهن وعلمتهن كيف يصنعن قاله الثعلبي.

قال المتولي من الشافعية: إذا كانت المرأة تميل إلى النساء، وخافت من النظر إلى وجه المرأة وكفيها الفتنة لم يجز لها النظر كما في الرجل مع الرجل.

قال الأذرعي: وهذا مما يبتلى به ذوات السحاق.

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء بعد أن ذكر الحديث (٢/٥٢٢): نقل ابن حجر المكي في الفتاوي عن الحافظ السيوطي أنه موضوع.

فائدة: إتيان البهيمة حرام لكن هل يوجب الحد أم يعزر اختلف العلماء في ذلك .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه الداء والدواء: اختلف العلماء فيمن أتى بهيمة قيل: يعزر وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي، وقيل: حكمه حكم الزاني وهو قول الحسن، وقيل: حكمه حكم اللوطي نص عليه أحمد، فيخرج على الروايتين عنه في حده هل هو القتل حتماً أو هو كالزاني؟ ويشكل على قول الشافعي وغيره أنه يعزر فقط من غير قتل ولا حد ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه**» رواه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة والحاكم [(١)].

ويدل على تحريم إتيان البهيمة أيضاً ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ويقول: ادخلوا مع الداخلين، الفاعل والمفعول به، والناكح يده، والناكح البهيمة، وناكح المرأة في دبرها، والجامع بين المرأة وابنتها، والزاني بحليلة جاره، والمؤذي جاره حتى يلعنه الناس**» [(٢)].

دل الحديث على تحريم إتيان البهيمة وتحريم الاستمناء باليد، وتحريم بقية السبعة.

وإخراج المني باليد حرام في الكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾[المؤمنون: ٥، ٦، ٧] أي: الظالمون المتجاوزون الحلال إلى الحرام.

قال البغوي: في الآية دليل أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول العلماء [(٣)].

قال ابن جريج: سئلت عطاء عنه فقال: «بلغني عن رسول الله ﷺ: أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى» وأظنهم هؤلاء [(٤)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٥٩/٤، رقم ٤٤٦٤)، والترمذي في سننه (٥٦/٤ رقم ١٤٥٥)، والنسائي في الكبرى (٣٢٢/٤، رقم ٧٣٤٠)، وابن ماجه في سننه (٨٥٦/٢، رقم ٢٥٦٤)، والحاكم في المستدرك (٣٩٥/٤، رقم ٨٠٤٩) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضا: البيهقي في سننه الكبرى (٢٣٣/٨ رقم ١٦٨١٢)، وأبو يعلى في مسنده (٣٤٧/٤، رقم ٢٤٦٢) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٧٨/٤، رقم ٥٤٧٠)، والديلمي في الفردوس (٣٣٢/٢، رقم ٣٤٩٧) عن أنس بن مالك.

(٣) انظر: تفسير البغوي (٣٠٣/٣).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٣٠٣/٣).

وعن سعيد بن جبير: عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم [١].

والواجب على فاعله التعزير كما قاله ابن الملقن وغيره، نعم عند أبي حنيفة وأحمد إذا خاف على نفسه العنت نقله في الحلية عنهما ثم قال: وله وجه عندي، ويباح الاستمناء بيد زوجته أو جاريته، لكن قال القاضي حسين: مع الكراهة لأنه في معنى العزل.

***

(١) انظر: تفسير البغوي (٣/٣٠٣).

المجلس الرابع والثلاثون

في الكلام على حديث: «لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي» وفيه ذكر شيء من فضل سيدنا علي ﷺ

قَالَ البُخَارِي:

باب إثم من كذب على النبي ﷺ

«حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ قَالَ أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ قَالَ أَخْبَرَنِي مَنْصُورٌ قَالَ سَمِعْتُ رِبْعِيَّ ابْنَ حِرَاشٍ...»

وربعي بن حراش تابعي ثقة كوفي عابد ورع، وكان أعور، ويقال: من فضائله أنه لم يكذب قط، وكان له ابنان عاصيان على الحجاج فقيل للحجاج: إن أباهما لم يكذب كذبة قط، لو أرسلت إليه وسألته عنهما فأرسل إليه عنهما فقال: أين ابناك؟ فقال: هما في البيت. قال: قد عفونا عنهما بصدقك.

ومن فضائله: أنه حلف لا يضحك حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة والنار، فما ضحك إلا بعد الموت.

وكان له أخوان أحدهما يقال له: مسعود، وهو الذي تكلم بعد الموت، والآخر ربيع وهو أيضاً: حلف أن لا يضحك حتى يعرف أهو في الجنة أم النار، فقال غاسله: إنه لم يزل بعد موته مبتسماً على سريره حتى فرغنا.

قال ابن المديني: لم يرو عن أخيه مسعود شيء إلا كلامه بعد الموت.

وربعي: منسوب إلى الربيع، أدرك علياً وحدث عنه، وكانت وفاته في خلافة عمر بن عبد العزيز.

«قال سمعت ربعي بن حراش يقول: سمعت علياً ﷺ»

هذا هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وﷺ يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد المطلب الجد الأدنى، ينسب إلى هاشم فيقال: القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ وكان ابن عم رسول الله لأبويه، ولم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام علياً، ويكنى أبا الحسن وأبا تراب كناه رسول الله ﷺ وكان أحب أسمائه إليه.

وما نقله في الفصول المهمة لبعض المالكية من أن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وﷺ ولدته أمة في جوف الكعبة، فهو ضعيف عند العلماء كما نقله النووي ولم يولد في جوف الكعبة سوى حكيم بن حزام دخلت أمه الكعبة وهي حامل، فضربها المخاض، فأتيت بنطع فولدته في الكعبة، ولا يعرف ذلك لغيره.

وأمه اسمها: فاطمة بنت أسد أسلمت وهاجرت، وهي أول هاشمية وضعت هاشمياً، ماتت في حياة النبي ﷺ ونزل في قبرها وتمعك فيه.

فقد روى عمر بن شبة في كتاب المدينة قال: بينما هو ﷺ في أصحابه أتاه آت فقال: إن أم علي وجعفر وعقيل قد ماتت، فقال: «**قوموا بنا إلى أمي**» قال: فقمنا كأن على رؤوسنا الطير، فلما انتهينا إلى الباب نزع قميصه وقال «**إذا كفنتموها فأشعروه إياها تحت أكفانها**» فلما خرجوا إلى القبر جعل رسول الله ﷺ مرة يحمل ومرة يتقدم ومرة يتأخر، حتى انتهينا إلى القبر فتمعك اللحد، ثم خرج فقال: «**ادخلوها بسم الله وعلى اسم الله**» فلما دفنوها قام قائما وقال: «**جزاك الله من أم ومن مربية خيراً**» وسألناه عن نزع قميصه وتمعكه في اللحد فقال: «**أردت أن لا تمسها النار إن شاء الله تعالى، وأن يوسع الله عليها قبرها**» وقال: «**ما أعفي أحد من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد**» قيل: يا رسول الله ولا القاسم ابنك؟ قال: «**ولا إبراهيم**» [(١)].

وجاء في رواية عن أنس أنه قال لما ماتت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وعنها، دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال: «**رحمك الله كنت بأبي وأمي بعد أمي تجوعين وتشبعين، وتعرين وتكسين، وتمنعين نفسك طيب الطعام وتطعمينني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة**» ثم أمر أن تغسل ثلاثاً فلما أتى الماء الذي فيه الكافور سكبه النبي ﷺ بيده، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه وألبسها إياه وكفنها فوقه، ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم وغلاماً أسود يحفرون قبرها، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه ثم قال: «**الحمد لله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي إنك أنت أرحم الراحمين**» وكبر عليها أربعاً وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم [(٢)].

---

(١) أورده ابن أبي حاتم في العلل (٣٦٥/١، رقم ١٠٨٠)، وقال: قال أبي: هذا حديث منكر جدا.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٥١/٢٤، رقم ٨٧١)، وفي الأوسط (٦٧/١، رقم ١٨٩)، قال الهيثمي (٢٥٧/٩): فيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وأبو نعيم في الحلية (١٢١/٣).

ودفنت بالبقيع وعليها قبة عظيمة بقرب سيدنا عثمان، وسنذكر في كتاب الجنائز حكمة عصر القبر للآدمي، وفوائد متعلقة بذلك إن شاء الله تعالى.

ومن فضائل علي ﷺ: أنه أول من أسلم على قول، وقيل: أول من أسلم أبو بكر، وقيل: خديجة، وقيل: زيد بن حارثة، وقيل: بلال.

قال العراقي: والصواب التفصيل، وهو أن يقال: أول من أسلم من الرجال: أبو بكر. ومن النساء: خديجة. ومن الصبيان: على. ومن العبيد: بلال. ومن الموالي: زيد بن حارثه.

واختلف في عمره لما أسلم فقيل: كان عمره سبع سنين، وقيل: تسعة، وقيل: عشر، وقيل غير ذلك.

وكان يقول: سبقتكم إلى الإسلام طراً صغيراً ما بلغت أوان حلمي [(١)].

وقد بعث رسول الله ﷺ يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء قاله الطبري [(٢)].

ومن فضائله: أنه أول من صلى مع رسول الله ﷺ قال المحب الطبري: قال علي: «صليت قبل أن يصلي الناس بسبع سنين» [(٣)].

وفي رواية: «صليت مع رسول الله ﷺ ثلاث سنين قبل أن يصلي معنا أحد من الناس» [(٤)] أخرجه أحمد.

وجاء في حديث عنه ﷺ أنه قال: «**لقد صلت الملائكة عليَّ وعلى علي لأنا كنا**

---

(١) انظر التحقيق في أحاديث الخلاف لابن الجوزي (٢/٢٣٥).

(٢) ورد في ذلك أثر عن علي بن أبي طالب ﷺ حيث قال: بعث رسول الله ﷺ يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء. أخرجه أبو يعلى (١/٣٤٨، رقم ٤٤٦)، قال الهيثمي (٩/١٠٢): فيه مسلم ابن كيسان الملائي وقد اختلط.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/١٠٦، رقم ٨٣٩٥)، وابن ماجه (١/٤٤، رقم ١٢٠)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٢٠): إسناد صحيح رجاله ثقات. والحاكم (٣/١٢٠، رقم ٤٥٨٤)، وابن أبي شيبة (٦/٣٦٨، رقم ٣٢٠٨٤).

(٤) ما وقفنا عليه في مسند الإمام أحمد (١/٩٩، رقم ٧٧٦). عن حبة العرني قال رأيت عليا رضي الله عنه ضحك على المنبر لم أره ضحك ضحكا أكثر منه حتى بدت نواجذه ثم قال ذكرت قول أبي طالب ظهر علينا أبو طالب وأنا مع رسول الله ﷺ ونحن نصلي ببطن نخلة فقال ماذا تصنعان يا بن أخي فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقال ما بالذي تصنعان بأس أو بالذي تقولان بأس ولكن والله لا تعلوني أستي أبداً وضحك تعجباً لقول أبيه ثم قال: اللهم لا أعترف أن عبداً لك من هذه الأمة عبدك ونبيك ثلاث مرات لقد صليت قبل أن يصلي الناس سبعاً.

نصلي وليس يصلي معنا أحد» [١].

ويروى أن أبا طالب قال لعلي لما رآه يصلي مع رسول الله ﷺ: أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال له: «يا أبت آمنت برسول الله ﷺ وصدقت بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته» فزعموا أنه قال: «أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه» [٢].

وفي رواية قال له: «يا بني أطع ابن عمك، فإنه لا يأمرك إلا بخير، وأما أنا فلا أفارق دين آبائي».

ومن خصائصه: أنه كان عند رسول الله ﷺ بمنـــزله الرأس من الجسد، وبمنـــزلة هارون من موسى، فقد نقل الطبري عن البراء أنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: **«أنت مني بمنـــزلة رأسي من جسدي»** [٣].

وود أنه قال: **«أنت مني بمنـــزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»** [٤].

ومن فضائله وخصائصه: ما ورد أن رسول الله ﷺ آخى بين أصحابه فجاء علي تدمع عيناه قال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك و لم تؤاخي بيني وبين أحد قال له رسول الله ﷺ: **«أنت أخي في الدنيا والآخرة»** [٥].

فائدة: آخى النبي ﷺ بين الصحابة مرتين، مرة في مكة ومرة في المدينة، وأنكر ابن تيمية المؤآخات التي كانت في المدينة بين المهاجرين والأنصار، وكان عددهم مائة، ويقال: تسعين، والحكمة في المؤآخات: أن تزول الوحشة عن المهاجرين.

ومن فضائله: ما أخرجه أحمد في المناقب عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«على باب الجنة مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي أخو رسول الله قبل أن تخلق السماوات والأرض بألفي عام»** [٦].

---

(١) أخرجه الديلمي (٣/٤٣٣، رقم ٥٣٣١) عن أبي أيوب.

(٢) انظر: السيرة الحلبية (١/٤٣٦).

(٣) أخرجه ابن عساكر (٤٢/ ٣٤٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣/١٣٥٩ رقم ٣٥٠٣)، ومسلم (٤/١٨٧٠، رقم ٢٤٠٤)، والترمذي (٥/٦٤١، رقم ٣٧٣١) وقال: حسن. وابن ماجه (١/٤٢، رقم ١١٥)، والطيالسي (١/٢٨، رقم ٢٠٥)، وأحمد (١/١٧٩، رقم ١٥٤٧) عن سعد بن أبي وقاص.

(٥) أخرجه ابن عساكر (٤٢/٥١) عن ابن عمر.

(٦) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٢/٦٦٨، رقم ١١٤٠). وأخرجه أيضاً: الطبراني في =

وقريب من هذه الفضيلة ما نقل عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ وإذا بطائر في فمه لوزة خضرة، مكتوب عليها بالأصفر لا إله إلا الله محمد رسول الله نصرته بعلي.

وأما زهده فقد نقل: أن قوته كان دقيق الشعير فيأخذ منه قبضه فيضعها في قدح، ثم يصب ماء ويشرب.

وكان ﷺ يوماً جالساً فجاءه التياح فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء فقال: الله أكبر فقام ونادى في الناس فأعطى ما في بيت المال لفقراء المسلمين، وهو يقول: يا صفراء يا بيضاء غري غيري ها وها، حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين رجاء أن يشهد له يوم القيامة [(١)].

قال الأرقم: رأيت علياً ﷺ وهو يبيع سيفاً له في السوق ويقول: من يشتري مني هذا السيف، فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به الحروب عن وجه رسول الله ﷺ ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته.

وأما كراماته فكثيرة:

منها ما ذكره في شوارد الملح: أن رجلاً قال لعلي ﷺ إني أريد السفر وأخاف من السبع، فدفع إليه خاتمه وقال له: إذا جاءك السبع فقل له: هذا خاتم علي بن أبي طالب ﷺ. فلما سافر الرجل وجاءه السبع فقال له: هذا خاتم علي بن أبي طالب ﷺ، فرفع السبع رأسه إلى السماء وهمهم، ثم نظر إلى الأرض وهمهم، ثم نظر إلى المشرق وكذلك إلى المغرب، ثم ذهب مهرولاً، فلما رجع الرجل من سفره أخبر علياً عن السبع بما فعل، قال: أتعرف ماذا قال بنظره إلى هذه الجهات الأربع؟ فقال: الله ورسوله أعلم وابن عم رسوله أعلم، فقال: إنه قال حين رفع نظره إلى السماء: وحق من رفعها، وحين نظر إلى الأرض: وحق من وضعها، وحين نظر إلى المشرق: وحق من أطلعها، وحين نظر إلى المغرب: وحق من غيبها ما أسكن في بلاد يشكونني فيها لعلي بن أبي طالب ﷺ.

ومن كراماته التي ظهرت له وهو في بطن أمه ما ذكره النسفي: أن أمه لما حملت به كانت إذ ذاك تعبد الأصنام، فكانت إذا أرادت السجود للصنم يعترض في بطنها فيمنعها من السجود للصنم.

= الأوسط (٥/٣٤٣، رقم ٥٤٩٨). قال الهيثمي (٩/١١١): فيه أشعث ابن عم الحسن بن صالح. وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/٢٣٨، رقم ٣٧٩) وقال: لا يصح. وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٥٦)، والخطيب (٧/٣٨٧) والديلمي (٤/١٢٣، رقم ٦٣٨٠).

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/٥٣١، رقم ٨٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/٨١).

قال بعضهم: فذلك يقال له دون غيره من الصحابة: كرم الله أي: كرم الله وجهه من السجود للصنم في حال كونه حملاً وبعد انفصاله.

ومن كراماته التي وقعت له وهو رضيع ما ذكره ابن الجوزي: أنه كان ﷺ في مهده فقصدته حية فانحدر من مهده ونزل إليها وقتلها، فتعجبت أمه من ذلك فسمعت هاتفاً يقول: هذا حيدرة انحدر من مهده إلى عدوه فقتله.

ومنها: ما ذكره النسفي أن فاطمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إن علياً ينام ليلة الجمعة وهي ليلة فضيلة، فقال لها رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى تصدق عليه بنومه ليلة الجمعة، وإن الله تعالى يخلق من روحه إذا هو نام طيراً أخضر يسرح إلى طرق السماء، فما منها موضع شبر إلا وفيه لروح علي ركعة أو سجدة**».

قال النسفي فلذلك كان يقول: سلوني عن طريق السماوات فإني أعلم بها من طريق الأرض، فلما قال ذلك يوماً جاءه جبريل في صورة رجل ليختبره فقال: إن كنت صادقاً فأخبرني أين جبريل؟ فنظر علي ﷺ في السماء يميناً وشمالاً ثم إلى الأرض كذلك فقال: ما وجدته في السماء ولا في الأرض، ولعله أنت.

وأما علمه ﷺ فقد كان غزير العلم، ومما وقع له من الغرائب في العلم ما قاله ابن العماد في الذريعة والمحب الطبري وغيرهما قالا: جلس رجلان يأكلان ومع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة فخلطا الأرغفة فمر بهما رجل فسلم عليهما، فقالا له: اجلس وكل معنا، فجلس وأكل معهما واستووا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فلما فرغوا قام الرجل القادم عليهما وطرح لهما ثمانية دراهم وقال: خذا هذا عوضاً عما أكلت لكما من خبزكما، فتنازع صاحب الخمسة أرغفة وصاحب الثلاثة في الثمانية دراهم، فقال صاحب الخمسة أرغفة: لي خمسة دراهم ولك ثلاثة، فقال صاحب الثلاثة: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين، لك أربعة ولي أربعة فارتفعا إلى علي بن أبي طالب ﷺ فقصا عليه القصة، فقال لصاحب االثلاثة: إرض بثلاثة دراهم فإن خبز رفيقك أكثر من خبزك، فخذ منه الثلاثة ودع له الخمسة، فقال: لا والله لا رضيت إلا بمر الحق، فقال علي ﷺ: ليس لك بمر الحق إلا درهم واحد وله سبعة، فقال الرجل سبحان الله يا أمير المؤمنين هو يعطيني ثلاثة وما أرضى بها وتقول الآن ليس لك إلا واحد، فقال له علي ﷺ: أليس الثمانية أرغفة أربعة وعشرين ثلثاً أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس على السواء؟ قال: بلى قال: فأكلت أنت ثمانية أثلاث يبقي لك واحد، فإن لك تسعة أثلاث لأن لك ثلاثة أرغفة إذا جعلت أثلاثا كانت تسعة، وأكل صاحبك ثمانية

أثلاث وله خمسة عشر ثلثاً، لأن الخمسة أرغفة إذا جعلت أثلاثاً كانت خمسة عشر، أكل منها ثمانية يبقى له سبعة، وأكل الضيف ثمانية أثلاث سبعة أثلاث لصاحبك، فاستحق السبعة، والثلث الذي لك فلك الدرهم، فقال الرجل: رضيت الآن.

والضابط في ذلك أن يوزع المبلغ على الأرغفة التي أكلها الدافع.

ومما وقع له أيضاً ﷺ: أن رجلاً في زمانه تزوج امرأتين فولدتا في ليلة مظلمة، فأتت إحداهما بصبي والأخرى بأنثى، فاختصما في الصبي وكل منهما تقول: هذا ولدي، فارتفعا إلى علي بن أبي طالب ﷺ فأمر كل امرأة أن تحلب من لبنها شيئاً، ثم وزن الحليبين فرجح أحدهما على الآخر، فحكم بأن الصبي لصاحبة اللبن الراجح، فقيل: من أين أخذت هذا؟ قال من قوله تعالى: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾[النساء: ١١] فالله تعالى فضل الذكر على الأنثى في كل شيء حتى في غذائه.

والحديث المشهور على ألسنة الناس: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**» قال ابن الملقن: إنه حديث منكر.

لكن قال شيخنا الحافظ العلامة الجلال السيوطي: هذا الحديث أخرجه الترمذي من حديث علي [(١)].

والطبراني والحاكم وصححه من حديث ابن عباس [(٢)].

وحسنه الحافظ العلائي وابن حجر.

وجاء في رواية: «**أنا دار الحكمة وعلي بابها**» [(٣)].

وقوله ﷺ: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**» [(٤)] حديث صحيح كما قاله النووي

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/٦٣٧، رقم ٣٧٢٣) بلفظ: «أنا دار الحكمة». قال الترمذي: غريب منكر.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/٦٥، رقم ١١٠٦١)، قال الهيثمي (٩/١١٤): فيه عبد السلام ابن صالح الهروي وهو ضعيف. وأخرجه الحاكم (٣/١٣٧، رقم ٤٦٣٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٦٣٧، رقم ٣٧٢٣) وقال: غريب منكر. وأبو نعيم في الحلية (١/٦٤) عن علي.

(٤) أخرجه الحاكم (٣/١٤٣، رقم ٤٦٥٢) عن ابن عباس.

وأخرجه ابن أبي شيبة (٦/٣٧٤، رقم ٣٢١٣٢)، وأحمد (٥/٣٤٧، رقم ٢٢٩٩٥)، والحاكم (٣/ ١١٩، رقم ٤٥٧٨) عن بريدة.

وأخرجه أحمد (٤/٢٨١، رقم ١٨٥٠٢) عن البراء. =

في فتاويه.

واتفق من اللطائف الغرائب بسبب هذا الحديث ما ذكره القرطبي في تفسيره في سورة «سأل» أن شخصاً يقال له: «الحارث» لما قال النبي ﷺ: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**» يا محمد: أمرتنا بالشهادتين فقبلنا منك، وأمرتنا بالصلاة الخمس عن الله فقبلنا منك، وذكر الزكاة والحج، ثم لم ترض حتى فضلت علينا علياً آلله أمرك بهذا أم من عندك؟ فقال: «**والله الذي لا إله إلا هو إنه من عند الله**»، فولى الحارث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فنزل عليه حجر من السماء فقتله [(١)].

وقد ورد في فضل من أحب سيدنا علياً وفي ذم من أبغضه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن آذى علياً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله**».

وفي رواية: «**من أحب علياً فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغض عليا فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله**» [(٢)].

ولله در القائل:

علي حبه جنة ... إمام الناس والجنة
وصهر المصطفى حقاً ... ويقتسم لظوى الجنة

وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٥٧/٢، رقم ٢٥٠٥) عن جرير. قال الهيثمي (١٠٦/٩): فيه بشر ابن حرب وهو لين ومن لم أعرفه أيضًا.

وأخرجه الترمذي (٦٣٣/٥، رقم ٣٧١٣) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (١٣٠/٥، رقم ٨٤٦٤)، والطبراني في الكبير (١٧٩/٣، رقم ٣٠٤٩) عن زيد.

وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٦/٦، رقم ٣٢٠٧٢) عن جابر. وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٦/٦، رقم ٣٢٠٧٣)، والطبراني في الكبير (١٧٣/٤، رقم ٤٠٥٢) عن أبي أيوب.

وأخرجه الطبراني (٢٩١/١٩، رقم ٦٤٦) عن مالك بن الحويرث. قال الهيثمي (١٠٦/٩): رجاله وثقوا.

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٧٨/١٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٨٠/٢٣، رقم ٩٠١) عن أم سلمة، قال الهيثمي (١٣٢/٩): إسناده حسن.

وأخرجه الحاكم (١٤١/٣، رقم ٤٦٤٨) عن سلمان، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

فائدة: سئل العراقي ﷺ من أحب علياً أكثر من أبي بكر وعمر وعثمان هل يكون بذلك آثماً أم لا؟

أجاب: بأن المحبة قد تكون لأمر ديني،، وقد تكون لأمر دنيوي، فالمحبة الدينية لازمة للأفضلية فمن كان أفضل كانت محبتنا الدينية له أكثر، فمتى اعتقد الإنسان أن أبا بكر أفضل ثم أحب علياً من جهة الدين أكثر، كان هذا تناقضاً وهو آثم بهذه المحبة، وأما المحبة الدنيوية فليست لازمة فإذا أحب علياً أكثر من أبي بكر لأمر دنيوي تكون من أقاربه وغير ذلك فلا تناقض في ذلك، وليس بآثم بهذه المحبة، إذ من اعترف بأن أفضل هذه الأمة بعد نبينا محمد ﷺ أبو بكر لكنه أحب علياً أكثر من أبي بكر فإنه كانت المحبة المذكورة محبة دينية فهذا لم يعترف بأفضلية أبي بكر إلا بلسان وأما بقلبه فهو مفضل لعلي لكونه أحب محبة دينية زائدة على محبة أبي بكر وهذا لا يجوز، وإن كانت المحبة المذكورة محبة دنيوية ككونه من ذرية علي ﷺ أو لغير ذلك من المعاني فلا امتناع من ذلك والله اعلم.

وسنذكر في كتاب الوضوء طرفاً آخر من ترجمة سيدنا علي.

«... سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «لاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ» (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «لا تكذبوا علي»: عام في كل كاذب، مطلق في كل نوع من الكذب، ومعناه لا تنسبوا الكذب إلي. ولا مفهوم لقوله: «علي» لأنه لا يتصور أن يكذب له لنهيه عن مطلق الكذب. وقد اغتر قوم من الجهلة فوضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب وقالوا: نحن لم نكذب عليه بل فعلنا ذلك لتأييد شريعته، وما دروا أن تقويله ﷺ ما لم يقل يقتضي الكذب على الله تعالى، لأنه إثبات حكم من الأحكام الشرعية سواء كان في الإيجاب أو الندب، وكذا مقابلهما وهو الحرام والمكروه. ولا يعتد بمن خالف ذلك من الكرامية حيث جوزوا وضع الكذب في الترغيب والترهيب في تثبيت ما ورد في القرآن والسنة واحتجوا بأنه كذب له لا عليه، وهو جهل باللغة العربية. وتمسك بعضهم بما ورد في بعض طرق الحديث من زيادة لم تثبت وهي ما أخرجه البزار من حديث ابن مسعود بلفظ: «من كذب على ليضل به الناس... » الحديث، وقد اختلف في وصله وإرساله، ورجح الدارقطني والحاكم إرساله، وأخرجه الدارمي من حديث يعلى بن مرة بسند ضعيف، وعلى تقدير ثبوته فليست اللام فيه للعلة بل للصيرورة كما فسر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ﴾[الأنعام: ١٤٤] والمعنى: أن مآل أمره إلى الإضلال، أو هو من تخصيص بعض أفراد العموم بالذكر فلا مفهوم له كقوله تعالى: ﴿لاَ =

هنا فوائد:

الأولى: قال العلماء: الكذب عند الأشاعرة: الأخبار بالشيء على خلاف ما هو عمداً كان أو سهواً .

وعند المعتزلة: إنما يسمى كذباً في حالة العمد، ولا يسمى كذباً في حال السهو، بدليل أن الإجماع منعقد على أن الناسي لا إثم عليه.

وأجاب عنه الأشاعرة: بأنه لا يلزم من عدم الإثم عدم تسميته كذباً، وأما ما جاء في بعض الروايات: «**من كذب عليَّ متعمداً**» فهو لبيان أن إثم الكذب إنما في حال العمد لا في حال السهو، ولا لبيان أنه لايسمى كذباً إلا إذا كان عمداً.

الثانية: الكذب على النبي ﷺ حرام، وهو فاحشة عظيمة من الكبائر سواء أكان عمداً أو سهواً وليس كذلك، بل إنما يكون من الكبائر إذا كان عمداً، بدليل الرواية الأخرى: «**من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار**» [1] فهو مطلق محمود على

= تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً﴾[آل عمران: ١٣١] ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ﴾[الأنعام: ١٥١] فإن قتل الأولاد ومضاعفة الربا والإضلال في هذه الآيات إنما هو لتأكيد الأمر فيها لا لاختصاص الحكم.

قوله: «فليلج النار» جعل الأمر بالولوج مسببا عن الكذب، لأن لازم الأمر الإلزام والإلزام بولوج النار سببه الكذب عليه أو هو بلفظ الأمر ومعناه الخبر، ويؤيده رواية مسلم من طريق غندر عن شعبة بلفظ «من يكذب علي يلج النار» ولابن ماجه من طريق شريك عن منصور قال: «الكذب علي يولج -أي يدخل- النار». انظر فتح الباري (١/١٩٩ - ٢٠٠).

(١) حديث متواتر أخرجه البخاري (١/٥٢، رقم ١٠٨) ومسلم (١/١٠، رقم ٢)، والترمذي (٥/٣٥، رقم ٢٦٦٠) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٣/٤٥٨ رقم ٥٩١٤)، وابن ماجه (١/١٣، رقم ٣٢)، والطيالسي (١/٢٧٧، رقم ٢٠٨٤)، وأحمد (٣/٩٨، رقم ١١٩٦٠) عن أنس.

وأخرجه أحمد (٣/٣٠٣ رقم ١٤٢٩٤) والدارمي (١/٨٧، رقم ٢٣١)، وابن ماجه (١/١٣، رقم ٣٣) وأبو يعلى (٣/٣٧٦، رقم ١٨٤٧) عن جابر.

وأخرجه البخاري (١/٥٢، رقم ١٠٧)، وأبو داود (٣/٣١٩، رقم ٣٦٥١)، والنسائي في الكبرى (٣/٤٥٧، رقم ٥٩١٢)، وابن ماجه (١/١٤ رقم ٣٦)، والطيالسي (ص: ٢٧، رقم ١٩١)، وأحمد (١/١٦٥، رقم ١٤١٣) عن الزبير.

وأخرجه الترمذي (٥/٣٦، رقم ٢٦٦٢) عن علي، وقال: حسن صحيح.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/٣٥، رقم ٧٣٠٢)، والحاكم (٣/٤٥٤، رقم ٥٧١٢) عن صهيب.

وأخرجه أبو يعلى (٢/٧، رقم ٦٣١)، والطبراني في الكبير (١/١١٤، رقم ٢٠٤) عن طلحة. =

هذا الحديث المقيد بالعمدية.

الثالثة: ذهب الإمام أبو محمد الجويني إلى أن من كذب على النبي ﷺ عمداً يكفر ويراق دمه.

واختاره الإمام ناصر الدين ابن المنير ووجهه: بأن الكاذب عليه في تحليل حرام مثلاً لا ينفك عن استحلال الحرام أو الحمل على استحلاله، واستحلال الحرام كفر والحمل على الكفر كفر.

قال ابن حجر: فيما قاله نظر لا يخفى، وذهب جمهور العلماء إلى أنه لا يكفر إلا إذا اعتقد ذلك واستحله، لكن يفسق كما يفسق مرتكب الكبيرة، قالوا: وما قال الجويني ضعيف، وممن ضعفه ولده إمام الحرمين وقال: من هفوات الوالد.

الرابعة: الكذب على غيره ﷺ من الأنبياء كبائر أيضاً قياساً عليه كما نبه على ذلك القاضي زكريا في كتابه غاية الوصول.

وأما الكذب على غير نبي فهو من الصغائر إلا أن يقترن به ما يصيره كبيرة، كأن يعلم الكاذب على إنسان أنه يقتل بكذبه أو يحد فهو حينئذ من الكبائر.

قال ابن عبد السلام: وعليه يحمل خبر الصحيحين: «**إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**» (١).

الخامسة: من كذب عليه ﷺ عمداً وحدث فسق وردت رواياته كلها، وبطل الاحتجاج بجميعها.

= وأخرجه أبو يعلى (٤٢٨/٢، رقم ١٢٢٩)، وابن ماجه (١٤/١، رقم ٣٧) عن أبي سعيد.
وأخرجه الترمذي (٣٥/٥، رقم ٢٦٥٩)، وابن ماجه (١٣/١، رقم ٣٠) عن ابن مسعود.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٩٣/١٢، رقم ١٣١٥٣) قال الهيثمي (١٤٣/١): رجاله موثقون.
والخطيب (٤١٨/٧) عن ابن عمر.
وأخرجه البزار (٢٠٢/٧، رقم ٢٧٧٤)، والطبراني (٣١٦/٨، رقم ٨١٨١) قال الهيثمي (١٤٧/١): فيه خلف بن خليفة وثقه يحيى بن معين وغيره وضعفه بعضهم. كلاهما عن أبي مالك الأشعري.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٦/١٢، رقم ١٢٣٩٤) عن ابن عباس.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦١/٥، رقم ٥٧٤٣)، ومسلم (٢٠١٢/٤، رقم ٢٦٠٧)، وأبو يعلى (٧١/٩، رقم ٥١٣٨)، وابن حبان (٥٠٨/١، رقم ٢٧٣)، والبيهقي (٢٤٣/١٠، رقم ٢٠٩٢٧) عن ابن مسعود.

فلو تاب وحسنت توبته قال الإمام أحمد وجماعة من الشافعية: لا تقبل رواياته أبداً بل يحتم جرحه دائماً.

ورده النووي وقال: هذا مخالف للقواعد، والمختار القطع بصحة توبته وقبول روايته بعدها، قال: بدليل أن العلماء أجمعوا على صحة رواية من كان كافراً وأسلم، وعلى قبول شهادة تحملها كافر ثم أداها بعد الإسلام، كما إذا تحملها صبي وأداها بعد البلوغ، وكما إذا تحملها وأداها بعد التوبة.

السادسة: لا فرق في تحريم الكذب عليه ﷺ بعد ما كان في الأحكام وغيره كالترغيب والترهيب فكله حرام بإجماع من يعتد به.

وأما ما ذهب إليه الكرَّامية من جواز الوضع عليه ﷺ في الترغيب والترهيب، فهو مذهب باطل.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: وقد اغتر قوم من الجهلة فوضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب وقالوا: نحن لم نكذب عليه بل فعلنا ذلك لتأييد شريعته، وما دروا أن تقويله ﷺ ما لم يقل يقتضي الكذب على الله تعالى لأنه إثبات حكم من الأحكام الشرعية سواء كان الإيجاب أو الندب وكذا مقابلتهما.

السابعة: من روى حديثاً ظن أو علم أنه موضوع، ولم يبين حال رواته وضعفهم فهو داخل في هذا الوعيد، وقد صرح بهذا في حديث آخر وهو قوله ﷺ: «**من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين**» [(١)].

الثامنة: يدخل في وعيد هذا الحديث من قرأ الحديث ولحن فيه، ولهذا قال العلماء: ينبغي للراوي أن يعرف من اللغة والنحو والأسماء ما يسلم من قول ما لم يقل.

وروى ابن الصلاح بسنده عن الأصمعي أنه قال: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي ﷺ: «**من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار**» لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/١٤، رقم ٣٨) عن علي.

وأخرجه مسلم (١/٨)، وابن ماجه (١/١٥ رقم ٣٩)، والطيالسي (١/١٢١ رقم ٨٩٥)، وابن حبان (١/٢١١، رقم ٢٩) عن سمرة.

وأخرجه مسلم (١/٨)، والترمذي (٥/٣٦، رقم ٢٦٦٢) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/ ١٥، رقم ٤١)، وأحمد (٤/٢٥٠، رقم ١٨٢٠٩)، والطبراني في الكبير (٢٠/٤٢٢، رقم ١٠٢١) عن المغيرة.

حديثاً ولحنت فيه كذبت عليه.

التاسعة: قوله «**فليلج النار**» بلفظ الأمر ومعناه الخبر، ويؤيده رواية مسلم: «**من يكذب علي يلج النار**» [1] المعنى: أن جزاءه على كذبه ولوج النار، وقد يجازى وقد يعفو الله عنه، ولا يقطع بدخوله النار وكذا كل وعيد ككبيرة غير الكفر.

قال البرماوي وغيره: وإن جوزي بدخول النار فلا يخلد، بل لابد من خروجه بفضل الله ورحمته.

***

(١) أخرجه مسلم (١/٩، رقم ١).

قَالَ البُخَارِي: «حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَّادٍ عَنْ عَامِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ...»

المراد بأبيه عبد الله بن الزبير، ولنذكر شيئاً من ترجمته فتقول: هو الصحابي ابن الصحابي أمير المؤمنين وكان يكنى بكنيتين إحداهما: أبو بكر، والأخرى: أبو حبيب بابنه حبيب، وهو أول مولود ولد في الإسلام للمهاجرين بالمدينة، وهاجرت أمه أسماء بنت الصديق من مكة وهي حامل به فولدته في سنة ثنتين من الهجرة، لعشرين شهراً من التاريخ ففرح به أهل المدينة فرحاً شديداً، وذلك أنهم قيل: إن اليهود قد سحرتكم ولا يولد لكم ولد، ثم أتت به النبي ﷺ فوضعه في حجره فدعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فمه وحنكه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق النبي ﷺ ثم دعا له.

روى السهيلي وغيره أن عبد الله بن الزبير لما ولد له قال النبي ﷺ: «**هو هو**» فلما سمعت بذلك أسماء أمسكت عن إرضاعه فقال لها النبي ﷺ: «**أرضعيه ولو بماء عينيك**».

وكان وصولاً لرحمه، وكان ﷺ فصيحاً، ذا أنفة، أطلس، لا لحية له ولا شعر في وجهه، وكان كثير الصوم والصلاة، شديد البأس، كريم الجدات والأمهات والخالات.

ومن فضائله: أنه كان إذا صلى صار كأنه عود من الخشوع، وكان إذا سجد يطول حتى تنـــزل العصافير على ظهره، لا تحسبه إلا جذماً، وكان مرة يصلي وإذا بحية سقطت من سقف البيت على ابنه ثم تطوقت على بطنه وهو نائم، فصاح أهل البيت و لم يزالوا بها حتى قتلوها وهو يصلي، وما التفت ولا عجل ولا علم، فلما فرغ بعد ما قتلت الحية فقال: ما بالكم فأخبروه.

قالت أمه: كان صواماً بالنهار قواماً بالليل، وكان يسمى خادم المسجد، وكان وصولاً لرحمه.

ومن فضائله: أنه كان عظيم المجاهدة، قسم الدهر ثلاث ليال، ليلة يصلي قائماً وليلة يصلي راكعاً وليلة يصلي ساجداً حتى الصباح.

ومن فضائله: أنه أحد العبادلة الأربعة وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والرابع هو رضي الله عنهم، وليس منهم عبد الله ابن مسعود، وغلَّطوا الجوهري حين عده منهم.

تولى الخلافة بعد موت معاوية بن يزيد سنة أربع وستين، واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ما عدا أهل الشام، وجدد عمارة الكعبة وجعل لها

بابين وحج الناس ثماني حجج، وبقي في الخلافة إلى أن حصر.

قال الواقدي: حصر ابن الزبير ليلة هلال ذي القعدة سنة اثنين وسبعين ستة أشهر وسبع عشر بمكة المشرق، وكان حصره أشد الحصار، وكان المحاصر له الحجاج وجماعته، واستمر محاصراً إلى أن اصابته رمية حجر جاءته من ناحية الصفا فوقعت بين عينيه فنكس رأسه وهو يقول:

لسنا على الأعقاب ندمي في كلومنا ولكن على أقدامنا يقطر الدم

فاجتمعوا عليه فلم يزالوا يضربونه حتى قتلوه، وكان قتله يوم الثلاثاء لست عشر ليلة خلت من جماد الأول سنة ثلاث وسبعين، وهو ابن اثنين وسبعين سنة في أيام عبد الملك بن مروان، وأمر الحجاج بصلب جثته وحمل رأسه إلى خراسان.

وقال يعلى بن حرملة: دخلت مكة بعد ما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير بثلاثة أيام فإذا هو مصلوب، فجاءت أمه امراة عجوز كبيرة طويلة مكفوفة البصر تقاد فقالت للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن ينـــزل؟ فقال لها الحجاج: تقولين عن هذا المنافق، فقالت: والله ما كان منافقاً، ولكنه كان صواماً قواماً براً، فقال: انصرفي إنك عجوز قد خرفت، قالت: لا والله ما خرفت، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج من ثقيف كذاب ومبير**» فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت المبير [(١)].

ويروى أن عبد الله بن عمر مر على ابن الزبير وهو مصلوب فقال: رحمك الله فإنك كنت صواماً قواماً وصولاً للرحم، وإني أرجو أن لا يعذبك الله ﷻ.

وقيل: إن الحجاج أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر بعد أن صلبه فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول: إما أن تأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك، قال: فأبت وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إلى من يسحبني بقروني، فأخذ الحجاج بغلته وانطلق إليها حتى دخل عليها فقال لها: كيف رأيتيني صنعت بعدو الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك.

وكان السبب في إنزاله من الخشبه أخوه عروة فإنه ذهب إلى عبد الملك بن مروان فرغب إليه في إنزاله من الخشبة فاسعفه فأنزل، ثم أمرت أمه أسماء ابن أبي مليكة بغسله

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠١/٢٤، رقم ٢٧٢)، قال الهيثمي (٢٥٦/٧): رواه الطبراني وأبو المحياة وأبوه لم أعرفهما.

فقال: كنا لا نتناول عضواً إلا جاء معنا، وكنا نغسل العضو ونضعه في أكفانه حتى فرغنا منه، ونتناول العضو الذي يليه فنغسله ثم نضع في أكفانه حتى فرغنا منه، ثم قامت تصلي عليه، وكانت تقول قبل ذلك: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني بجثته، فما أتت عليه حتى جمعتها ثم ماتت.

«قال: أي عبد الله بن الزبير قلت للزبير»

هذا هو قاتل الأبطال، وباذل الأموال، صاحب السيف الصارم، والرأي الحازم أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب.

قال العلماء: «الزبير» بضم الزاي «ابن العوام» بتشديد الواو لم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام الزبير، ويكنى: أبي عبد الله، يجتمع نسبه بنسب النبي ﷺ في قصي بن كلاب، وينسب إلى أسد بن عبد العزى فيقال: القرشي الأسدى، أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ أسلمت وهاجرت، والنبي ﷺ ابن خاله، وكان إسلامه بعد أبي بكر رابعاً أو خامساً قاله المحب الطبرى.

وفي الكرماني: أسلم رابع أربعة أو خامس خمسة على يد الصديق ﷺ وكان عمره لما أسلم ستة عشر سنة، وقيل: اثنتى عشرة سنة.

ولما أسلم كان عمه يلفه في حصير ويدخن عليه بالنار، ويقول له: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً.

وصفته: أنه كان طويلا تخط رجلاه الأرض إذا ركب، خفيف العارضين، أسمر اللون، قال الكرماني: كان أشعر الكتف.

ومن فضائله: أنه أحد العشرة المبشرون بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد المهاجرين الأولين إلى الحبشة والمدينة.

ومن خصائصه: أنه أول من سل سيفاً في سبيل الله ﷻ، ودعا له النبي ﷺ لفعله ذلك وذلك أنه ورد عن سعيد بن المسيب أنه قال: أول من سل سيفاً في سبيل الله الزبير بن العوام، بينا هو بمكة إذ سمع نغمة يعني صوتاً أن النبي ﷺ قد قتل، فخرج عرياناً ما عليه شيء، في يده السيف صلتاً، فتلقاه النبي ﷺ فقال له: «**مالك يا زبير؟**» قال: سمعت أنك قد قتلت، قال: «**فما كنت صانعاً؟**» قال: أردت والله أن استعرض أهل مكة أي: أقتل ولا أسأل عن أحد قال: فدعا له النبي ﷺ.

ومن فضائله: أنه حواري النبي ﷺ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لكل نبى**

حواري، وحواري الزبير» [١].

وفي صحيح مسلم: «ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: «**لكل نبي حواري وحواري الزبير**» [٢] ومعنى الحواري: الناصر والحواريون أنصار عيسى -عليه الصلاة والسلام-، ومعنى ندب فانتدب أي: دعاه رسول الله ﷺ فأجاب.

ومن فضائله: أنه كان على رأسه في غزوة بدر عمامة صفراء فنـــزلت الملائكة على رؤسهم عمائم صفر على سيماه قاله المحب الطبري.

والحكمة في نزولهم موافقين له أن هذه الحرب أول حرب للملائكة فنـــزلت على سيما أول محارب لله ﷻ وفي سبيله.

ومن فضائله: أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان في صدره أمثال العيون من الطعن والرمي، وكان كثير الصدقة.

قال كعب: كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فما يدخل بيته منها درهم واحد كان يتصدق بذلك كله، وكان ﷺ تاجراً محظوظاً أي: له حظ في التجارة، وسئل عن ذلك فقال: لأني لم أشتري معيباً ولم أزد ربحاً والله يبارك لمن يشاء.

قتل ﷺ في وقعة الجمل فإنه كان مع عائشة، قال أبو الأسود الدؤلي: لما دنا علي وأصحابه والزبير، ودنت الصفوف بعضها من بعض خرج علي على بغلة رسول الله ﷺ فنادى الزبير فأقبل حتى اختلف أعناق دوابهما فقال علي: يا زبير نشدتك بالله أتذكر يوم مر بك رسول الله ﷺ في مكان كذا وكذا وقال: «**يا زبير تحب علياً؟**» قلت: ألا أحب علياً ابن خالي وعلى ديني؟ فقال: «**يا علي أتحبه؟**» فقلت: يا رسول الله: ألا أحب ابن عمتي وعلى ديني؟ فقال: «**يا زبير لتقاتلنه وأنت له ظالم**» قال: بلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣/١٠٤٧، رقم ٢٦٩٢)، ومسلم (٤/١٨٧٩، رقم ٢٤١٥)، والترمذي (٥/٦٤٦، رقم ٣٧٤٥) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/٤٥، رقم ١٢٢)، وأحمد (٣/٣٣٨، رقم ١٤٦٧٥)، وعبد بن حميد (١/٣٢٨، رقم ١٠٨٨) عن جابر بن عبد الله.
وأخرجه الحاكم (٣/٤٠٨، رقم ٥٥٥٨) عن الزبير بن العوام، وقال: صحيح على شرط الشيخين.
وأخرجه الترمذي (٥/٦٤٦، رقم ٣٧٤٤) وقال: حسن صحيح. والطبراني في الكبير (١/١١٩، رقم ٢٢٨)، وابن أبي شيبة (٦/٣٧٧، رقم ٣٢١٦٨)، والحاكم (٣/٤١٤، رقم ٥٥٧٩)، وأحمد (١/١٠٢، رقم ٧٩٩)، وأبو يعلى (١/٤٤٥، رقم ٥٩٤) عن علي.
(٢) أخرجه مسلم (٤/١٨٧٩، رقم ٢٤١٥) عن جابر بن عبد الله.

والله لقد أنسيته مذ سمعته من رسول الله ﷺ ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك، فرجع الزبير على دآبته يشق الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله، وقال مالك يعني رجعت قال: ذكرني علي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «**لتقاتلنه وأنت له ظالم**» ولا أقاتله ثم رجع منصرفاً إلى المدينة [1].

قيل: علم أنه يقتل في ذلك اليوم فأنشد في حال رجوعه:

ولقد علمت لو أن علمي نافعاً ... أن الحياة من الممات قريب

فلما وصل إلى مكان بناحية البصرة يقال له: وادي السباع لحقه ابن جرموز، ومعه شخصان فقتلوه، ثم قطع ابن جرموز رأسه وجاء به علياً ﷺ واستأذن في الدخول عليه فلم يأذن له بل قال لشخص عنده وقد علم بأن معه رأس الزبير: بشر قاتل ابن صفية بالنار.

ورأى علي سيفه بعد ذلك فتأمل وقال: طالما فرج بهذا السيف الكرب عن رسول الله ﷺ.

كان قتله ﷺ يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة ستة وثلاثين، وفي ذلك اليوم كانت وقعة الجمل، واختلف في سنه يوم قتل فقيل: سبع وستون سنة، وقيل: ست وستون سنة، وقيل: أربعة وستون، وقيل غير ذلك، ودفن في موضع قتله، ثم حول إلى البصرة، وقبره مشهور فيها.

روي له عن رسول الله ﷺ ثمانيه وثلاثون حديثاً، اتفقا منها على اثنين وانفرد البخاري بسبعة، أنشد فيه حسان بن ثابت:

أقام على هدي النبي وعهده ... حواريه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه ... يولي ولي الحق والحق أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذي ... يصول إذا ما كان يوماً يحجل
له من رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجد موثل
فكم كربة ذب الزبير بسيفه ... عن المصطفى والله يعطي ويجزل
إذا كشفت عن ساقها الحرب هشها ... بأبيض سباق إلى الموت يرفل
فما مثله فيهم وما كان قبله ... وليس يكون الدهر ما دام يذبل
ثناؤك خير من فعال معاشر ... وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل

---

(١) أخرجه الحاكم بنحوه من طريق آخر عن علي (٣/٤١٢، رقم ٥٥٧٣).

قال البخاري:... قُلْتُ للزُّبَيْرِ إِنِّي لاَ أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَمَا يُحَدِّثُ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ. قَالَ أَمَا إِنِّي لَمْ أُفَارِقْهُ وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (١).

قال البرماوى: هذا الحديث في نهاية الصحة، وقيل: إنه متواتر، وقال بعضهم: روي عن أكثر من ستين صحابياً، منهم العشرة المشهود لهم بالجنة، وقال بعض آخر: رواه مائتان من الصحابة.

قال ابن الصلاح: ثم لم يزل عدده في إزدياد على الاستمرار، وليس في الأحاديث

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «كما يحدث فلان وفلان»: سمى منهما في رواية ابن ماجه عبد الله بن مسعود.

قوله: «أما إني لم أفارقه» أي لم أفارق رسول الله ﷺ زاد الإسماعيلي: «منذ أسلمت» والمراد في الأغلب وإلا فقد هاجر الزبير إلى الحبشة، وكذا لم يكن مع النبي ﷺ في حال هجرته إلى المدينة. وإنما أورد هذا الكلام على سبيل التوجيه للسؤال، لأن لازم الملازمة السماع، ولازمه عادة التحديث، لكن منعه من ذلك ما خشيه من معنى الحديث الذى ذكره.

قوله: «من كذب علي» كذا رواه البخاري ليس فيه «متعمداً» وقد أخرجه الدارمي من طريق أخرى عن عبد الله بن الزبير بلفظ: «من حدث عني كذبا» ولم يذكر العمد. وفي تمسك الزبير بهذا الحديث على ما ذهب إليه من اختيار قلة التحديث دليل للأصح في أن الكذب هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه سواء كان عمدا أم خطأ، والمخطئ وإن كان غير مأثوم بالإجماع لكن الزبير خشى من الإكثار أن يقع في الخطأ وهو لا يشعر، لأنه وإن لم يأثم بالخطأ لكن قد يأثم بالإكثار إذ الإكثار مظنة الخطأ، والثقة إذا حدث بالخطأ فحمل عنه وهو لا يشعر أنه خطأ يعمل به على الدوام للوثوق بنقله، فيكون سبباً للعمل بما لم يقله الشارع، فمن خشي من إكثار الوقوع في الخطأ لا يؤمن عليه الإثم إذا تعمد الإكثار، فمن ثم توقف الزبير وغيره من الصحابة عن الإكثار من التحديث. وأما من أكثر منهم فمحمول على أنهم كانوا واثقين من أنفسهم بالتثبت، أو طالت أعمارهم فاحتيج إلى ما عندهم فسئلوا فلم يمكنهم الكتمان. رضى الله عنهم.

قوله: «فليتبوأ» أي فليتخذ لنفسه منـــزلا، يقال تبوأ الرجل المكان إذا اتخذه سكنا، وهو أمر بمعنى الخبر أيضاً، أو بمعنى التهديد، أو بمعنى التهكم، أو دعاء على فاعل ذلك أي بوأه الله ذلك.

وقال الكرماني: يحتمل أن يكون الأمر على حقيقته، والمعنى من كذب فليأمر نفسه بالتبوء ويلزم عليه كذا، قال: وأولها أولاها، فقد رواه أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر بلفظ «بنى له بيت في النار».

قال الطيبـــي: فيه إشارة إلى معنى القصد في الذنب وجزائه، أي كما أنه قصد في الكذب التعمد فليقصد بجزائه التبوء. انظر فتح الباري (١/٢٠٠ - ٢٠١).

ما في مرتبته من التواتر ولا للمتواتر مثال إلا هو، وتوافره معنوي، فإن اختلاف الروايات في الألفاظ مع الاشتراك في المعاني نحو: «**من تعمد علي كذباً**»، و«**من يقل علي ما لم أقل**»، و«**من كذب علي متعمداً**» يسمى مثله بالمتواتر من جهة المعنى أي: القدر المشترك الحاصل من جميع الألفاظ متواتر.

وادعى بعض العلماء: أنه ليس في الأحاديث حديث اجتمع على روايته إلا هذا ورده البرماوي وقال: قد اجتمع العشرة في حديث رفع اليدين والمسح على الخفين، وقال البرماوى أيضاً: المحفوظ في حديث الزبير أنه ليس فيه متعمداً، وقد روي عن الزبير أنه قال: «والله ما قال متعمداً وأنتم تقولون متعمداً» [1].

قوله: «**فليتبوأ**» أمر للغائب يجوز فيه كسر اللام، والمشهور سكونها، والتبوء: اتخاذ المبأة أي: المنـــزل، فليتخذ له منـــزلاً من النار، وهو أمر معناه الخبر، وحينئذ فمعنى «**فليتبوأ مقعده من النار**»: أن الله يبوئه مقعده من النار، قال الكرماني: ويحتمل أنه أمر على حقيقته وأنه يلزم بالتبوء.

قال الطيـــبي: الأمر بالتبوؤ تهكم وتغليظ، إذ لو قيل: كان مقعده النار لم يكن فيه هذا التغليظ.

* * *

---

(١) أخرجه الشاشي (١/٩٧، رقم ٣٤).

قال البخاري: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ أَنَسٌ إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثاً كَثِيراً أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِباً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» (١).

قال الكرماني: قوله: «**كذبا**» عام في جميع أنواع الكذب، لأن النكرة في سياق الشرط كالنكرة في سياق النفي في إفادة العموم.

***

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «حديثا»: المراد به جنس الحديث، ولهذا وصفه بالكثرة.

قوله: «أن النبي ﷺ»: هو وما بعده في محل الرفع لأنه فاعل «يمنعني» وإنما خشي أنس مما خشي منه الزبير، ولهذا صرح بلفظ الإكثار لأنه مظنة، ومن حام حول الحمى لا يأمن وقوعه فيه، فكان التقليل منهم للاحتراز، ومع ذلك فأنس من المكثرين لأنه تأخرت وفاته فاحتيج إليه ولم يمكنه الكتمان. ويجمع بأنه لو حدث بجميع ما عنده لكان أضعاف ما حدث به. ووقع في رواية عتاب مولى هرمز، سمعت أنسا يقول: «لولا أني أخشى أن أخطئ لحدثتك بأشياء قالها رسول الله ﷺ» الحديث أخرجه أحمد، فأشار إلى أنه لا يحدث إلا ما تحققه ويترك ما يشك فيه. وحمله بعضهم على أنه كان يحافظ على الرواية باللفظ فأشار إلى ذلك بقوله: «لولا أن أخطئ». وفيه نظر، والمعروف عن أنس جواز الرواية بالمعنى كما أخرجه الخطيب عنه صريحا، وقد وجد في رواياته ذلك كالحديث في البسملة، وفي قصة تكثير الماء عند الوضوء، وفي قصة تكثير الطعام.

قوله: «كذبا»: هو نكرة في سياق الشرط فيعم جميع أنواع الكذب. انظر فتح الباري (١/٢٠١).

قال البخاري: حَدَّثَنَا مَكِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ عَنْ سَلَمَةَ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**». (١).

قال ابن حجر: هذا أول ثلاثي وقع في البخاري، فيه أعلى من الثلاثيات، وقد أفردت فبلغت أكثر من عشرين حديثاً والحديث الثلاثي هو ما كان فيه بين النبي ﷺ وبين البخاري ثلاثة.

***

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

هذا الحديث أول ثلاثي وقع في البخاري، وليس فيه أعلى من الثلاثيات، وقد أفردت فبلغت أكثر من عشرين حديثاً.

قوله: «من يقل»: أصله يقول وإنما جزم بالشرط.

قوله: «ما لم أقل» أي شيئا لم أقله فحذف العائد وهو جائز وذكر القول لأنه الأكثر وحكم الفعل كذلك لاشتراكهما في علة الامتناع وقد دخل الفعل في عموم هذه الأحاديث، فلا فرق في ذلك بين أن يقول قال رسول الله ﷺ كذا وفعل كذا إذا لم يكن قاله أو فعله، وقد تمسك بظاهر هذا اللفظ من منع الرواية بالمعنى. وأجاب المجيزون عنه بأن المراد النهى عن الإتيان بلفظ يوجب تغير الحكم مع أن الإتيان باللفظ لا شك في أولويته. والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٢٠١ - ٢٠٢).

قَالَ الْبُخَارِي: حَدَّثَنَا مُوسَى قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ أَبِي حَصِينٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلاَ تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي، وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» (١).

وقوله ﷺ: «**تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي**» إيضاحه أنه يجوز التسمية باسم النبي ﷺ ولا يتكنى بكنيته بل يكون التكني بغير كنيته ﷺ.

والكنية: ما صدر بأب أو أم كأبي بكر وأم هانيء.

واللقب: ما أشعر بمدح أو ذم نحو: مجد الدين وكمال الدين، وأنف الناقة.

والاسم: كمحمد وزيد وغيرهما.

فاسم النبي ﷺ المشهور: «**محمد**»، وكنيته: «**أبو القاسم**»، ولقبه: «**رسول الله ﷺ**».

وإذا علمت ذلك فاعلم أن في الحديث دلالة على جواز التسمي باسمه ﷺ محمد أو غيره من أسمائه فإن ذلك نافع في الدنيا والآخرة.

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: ذكر البخاري هذا الحديث بتمامه في كتاب الأدب من هذا الوجه، وقد اقتصر مسلم في روايته له على الجملة الأخيرة وهي مقصود الباب، وإنما ساقه المؤلف بتمامه ولم يختصره كعادته لينبه على أن الكذب على النبي ﷺ يستوي فيه اليقظة والمنام. والله سبحانه وتعالى أعلم.

فإن قيل: الكذب معصية إلا ما استثنى في الإصلاح وغيره، والمعاصي قد توعد عليها بالنار، فما الذي امتاز به الكاذب على رسول الله ﷺ من الوعيد على من كذب على غيره؟ فالجواب عنه من وجهين: أحدهما أن الكذب عليه يكفر متعمده عند بعض أهل العلم، وهو الشيخ أبو محمد الجويني، لكن ضعفه ابنه إمام الحرمين ومن بعده، ومال ابن المنير إلى اختياره، ووجهه بأن الكاذب عليه في تحليل حرام مثلا لا ينفك عن استحلال ذلك الحرام أو الحمل على استحلاله، واستحلال الحرام كفر، والحمل على الكفر كفر. وفيما قاله نظر لا يخفى، والجمهور على أنه لا يكفر إلا إذا اعتقد حل ذلك. الجواب الثاني أن الكذب عليه كبيرة والكذب على غيره صغيرة فافترقا، ولا يلزم من استواء الوعيد في حق من كذب عليه أو كذب على غيره أن يكون مقرهما واحداً أو طول إقامتهما سواء، فقد دل قوله ﷺ: «فليتبوأ» على طول الإقامة فيها، بل ظاهره أنه لا يخرج منها لأنه لم يجعل له منـــزلا غيره، إلا أن الأدلة القطعية قامت على أن خلود التأبيد مختص بالكافرين، وقد فرق النبي ﷺ بين الكذب عليه وبين الكذب على غيره. انظر فتح الباري (١/٢٠٢ - ٢٠٣).

وقد ورد في فضل التسمي باسمه أخبار كثيرة روى عن أبي أمامة الباهلى ﷺ عن رسول ﷺ قال: «**من ولد له مولود فسماه محمدا حباً لي وتبركاً باسمي، كان هو ومولوده في الجنة**» (١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة ناد مناد من قبل الله ﷻ ألا من اسمه محمد فيلقم، فإذا اجتمعوا بين يدي الله ﷻ أمر بهم إلى الجنة كرامة لاسم النبي ﷺ**».

وروي عن الحسن البصري أنه قال: «**إن الله ليوقف العبد بين يديه يوم القيامة اسمه أحمد أو محمد قال: فيقول الله تعالى له: عبدى أما استحييتني وأنت تعصينى واسمك اسم حبيبي محمد ﷺ، فينكس العبد رأسه حياء ويقول: اللهم إني قد فعلت، فيقول ﷻ: يا جبريل خذ بيد عبدي فأدخله الجنة، فإني استحي أن أعذب بالنار من اسمه اسم حبيبى محمد ﷺ**».

وعن علي بن موسى الرضي عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سميتم الولد محمداً فعظموه ووقروه وبجلوه ولا تذلوه ولا تحقروه ولا تجبهوه، ولا تردوا له قولا تعظيماً لمحمد ﷺ**» (٢).

وجاء في الحديث: «**إن البيت إذا كان فيه من اسمه محمد اتسع بأهله، وكثر خيره، وحضرته الملائكة، وبعد منه الشيطان**».

وجاء في حديث آخر: «**ما اجتمع قوم في مشورة ومعهم رجل اسمه محمد فلم يدخلوه في مشورهم إلا لم يبارك لهم**» (٣).

وأما التكني بكنيته أبي القاسم فقد اختلف العلماء في ذلك: فذهب إمامنا الشافعي وأهل الظاهر إلى أنه لا يحل لأحد أن يتكنى بأبي القاسم، سواء كان اسمه محمد أو غيره، كان في زمنه أو بعده، وحمل الشافعي ومن تبعه النهي على العموم، ومنع قوم

---

(١) أخرجه الرافعي (٢/٣٤٣) عن أبي أمامة.

(٢) أخرجه الخطيب (٣/٩١). وأورده الذهبي في الميزان (٤/٥٩، ترجمة ٤٢٠٥ عبد الله بن أحمد ابن عامر عن أبيه عن علي الرضا عن آبائه) وذكر أنه حدث بنسخة موضوعة باطلة ما تنفك عن وضعه أو وضع أبيه.

وأخرجه بنحوه الديلمي (١/٣٤٠، رقم ١٣٥٤) عن جابر.

(٣) أخرجه ابن عدي (١/١٦٨، ترجمة ٤ أحمد بن كنانة شامى)، وقال: منكر الحديث. وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/١٧٤، بعد رقم ٢٦٧) عن علي.

من القائلين بهذا المذهب تسميته الولد بالقاسم، كي لا يكون سبباً لتكنيته والده بأبي القاسم، ويؤيد هذا قوله في الحديث: «**إنما أنا القاسم**» [١] فأخبر بالمعنى الذي اقتضى اختصاصه بهذا الكنية.

وذهب الإمام مالك إلى جواز التكني به بعد زمانه، وجعل النهي مختصاً بحياته ﷺ قال: لأن الحديث ورد على سبب وهو: أن اليهود في زمانه تكنوا بهذه الكنية، وكانوا إذا رأوا رسول الله ﷺ ينادون يا أبا القاسم فيلتفت ﷺ فيقولون: لم نعنك، إظهاراً للإيذاء، قال: وقد زال ذلك المعنى.

وذهب بعضهم إلى: أنه لا يجوز هذه التكنية لمن اسمه محمد ويجوز لغيره، واختار هذا المذهب الرافعي وقال: يشبه أن يكون هذا أصح، لأن الناس لم يزالوا يتكنون به في جميع الأعصار من غير إنكار.

ورد النووي في الأذكار هذا المذهب وقال: فيه مخالفة لظاهر الحديث، واختار ما ذهب إليه الإمام مالك من تخصيص التحريم بحياته ﷺ أخذاً من السبب المذكور.

وقال في الروضة: إنه أقرب المذاهب أخذاً من سبب النهي، وضعفه البيهقي ومع أنه مخالف لقاعدة: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم قال: بل الأقرب ما رجحه الرافعي، وقال الأسنوي: إنه الصواب لما فيه من الجمع بين خبر الصحيحين المذكور وخبر: «**من تسمى باسمي فلا يتكنى بكنيتي، ومن تكنى بكنيتي فلا يتسمى باسمي**» [٢] وهذا الحديث رواه ابن حبان وصحح البيهقي إسناده.

فإن قيل: يشكل على ما قاله الرافعي تكنية سيدنا علي ولده محمد بن الحنفية بأبي القاسم، فإنه جمع بين الاسم والكنية، وأجابوا عنه بأن رسول الله ﷺ رخص له في

---

(١) جزء من حديث صحيح متفق عليه ورد عن أكثر من صحابي فأخرجه البخاري (٥/٢٢٩٠، رقم ٥٨٤٣)، ومسلم (٣/١٦٨٢، رقم ٢١٣٣)، وأحمد (٣/٣٨٥، رقم ١٥١٦٩)، والبيهقي (٩/٣٠٨، رقم ١٩١٠٧) عن جابر.

وأخرجه البخاري (١/٣٩، رقم ٧١)، ومسلم (٢/٧١٩، رقم ١٠٣٧)، وأحمد (٤/٩٩، رقم ١٦٩٥٦) عن معاوية.

(٢) أخرجه البيهقي (٩/٣٠٩، رقم ١٩١١١) وأخرجه أيضًا: أبو داود (٤/٢٩٢، رقم ٤٩٦٦)، وأحمد (٣/٣١٣، رقم ١٤٣٩٦)، والطيالسي (ص ٢٤١، رقم ١٧٥٠) عن جابر.

وأخرجه أحمد (٢/٣١٢، رقم ٨٠٩٤)، وأبو يعلى (١٠/٤٤٩، رقم ٦٠٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/١٤٦، رقم ١٤٠٩) عن أبي هريرة.

ذلك كما قاله الشافعي وأصحابه، فإنه ورد في سنن أبي داود أن علياً قال يا رسول الله إن ولد لي من بعدك ولد اسميه باسمك وأكنيه بكنيتك؟ قال: «**نعم**» [(١)].

وقال أحمد بن عبد الله: ثلاثة تكنوا بأبي القاسم رخص لهم: محمد بن الحنفية، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله قاله ابن الملقن.

فإن قيل: يشكل على قول الرافعي أيضاً ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إني قد ولدت غلاماً فسميته أبا القاسم فذكر لي أنك تكره ذلك فقال: «**ما الذي أحل اسمي وحرم كنيتي، أو ما الذي أحل كنيتي وحرم اسمي**» [(٢)].

أجاب شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر عنه وقال: يشبه إن صح أن يكون قبل النهي لأن أحاديث النهي أصح يعني هذا الحديث المذكور ورد عن النبي ﷺ قبل النهي عن التكنية بكنيته، وحينئذ فلا يشكل لأن المتاخر نسخه.

فائدة: لم ينه عن التسمية باسمه ﷺ لأنه كان لا ينادى به غالباً ولو نودي به لم يجب إلا لضرورة قاله القاضي زكريا.

فائدة أخرى: التكني بغير أبي القاسم جائز بلا خلاف.

فائدة أخرى: المستحب إذا خاطب أهل الفضل ومن قاربهم أن يخاطبهم بالكنية، وكذا إذا كتب إلى شخص رسالة، وكذا إذا روى عنه روايته فيقول في الرسالة: السلام على أبي فلان. وفي الرواية: حدثنا الشيخ أو الإمام أبو فلان بن فلان. ومن الأدب أن الإنسان إذا كتب رسالة شخص أن لا يكتب كنيته فيها، بل ولا في غير الرسالة إلا أن لا يعرف إلا بالكنية، أو كانت الكنية أشهر من اسمه فله أن يكتبها، قال بعضهم: إذا كانت أشهر كتب اسمه وكتب بعده: المعروف بأبي فلان، ولنا عود إلى ذكر فوائد متعلقة بالكنية في محل آخر إن شاء الله تعالى.

وأما قوله ﷺ: «**ومن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي**» فقد اختلف العلماء في معناه فقال القاضي الباقلاني: معنى الرؤية أنها رؤية

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٢٩٢، رقم ٤٩٦٧). وأخرجه أيضا الحاكم (٤/٣٠٩، رقم ٧٧٣٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٩/٣٠٩)، وابن أبي شيبة (٥/٢٦٣، رقم ٢٥٩١٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٢٩٢، رقم ٤٩٦٨)، وأخرجه أيضا: البيهقي (٩/٣٠٩، رقم ١٩١١٤)، وأحمد (٦/١٣٥، رقم ٢٥٠٨٤).

صحيحة ليست بأضغاث أحلام ولا من تشبيهات الشيطان، ويدل على أن الرؤية في قوله: «**فقد رآني**» مؤوله برؤيا المنام لأنها رؤية حقيقية أن الرائي قد يراه على خلاف صفته المعروفة، كان يراه أبيض اللحية، وأنه قد يراه شخصان في زمن واحد أحدهما في المشرق والآخر في المغرب فيراه كل منهما في مكانه.

قال حجة الإسلام الغزالي: ليس معنى «**فقد رآني**»: أنه رأى جبهتي وبدني بل رأى مثالاً صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في النفس إليه، بل البدن في اليقظة أيضاً ليس إلا آلة النفس، فالحق أن ما يرى حقيقة روحه المقدسة التي هي محل النبوة فما رآه من الشكل ليس هو روح النبي ﷺ ولا شخصه بل مثال له.

قال: ومثل ذلك من يرى الله تعالى في المنام، فإن ذاته منـــزهه عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس نور أو غيره، ويكون ذلك المثال حقاً في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي: رأيت الله في المنام لا بمعنى أني رأيت ذات الله تعالى كما يقول في حق غيره.

وقال ابن العربي القاضي: إن رآه على صفته فهي هو حقيقة، وإن رآه على غير صفته فهي رؤيا تأويل لا حقيقة، والراجح كما قال الكرماني وغيره وصوبه النووي: حمل الحديث على ظاهره بأن يقال: معنى «**فقد رآني**» رؤيا حقيقية لا منامية وما مثالية، ولو رآه على غير صفته المعروفة أو في مكانين وليس لمانع أن يمنع ذلك، لأن العقل لا يحيله حتى يضطر إلى التأويل.

فإن قيل: كيف تكون الرؤية حقيقية إذا رآه على غير صفته أو في مكانين؟

فالجواب: إن التغير المذكور ليس في ذاته بل في صفاته، وتكون ذاته مرئية وصفاته مستحيلة، والرؤية أمر يخلقه الله في الحي ولا يشترط أن يكون بمواجهته ولا تحديق بصر، ولا كون المرئي ظاهراً بل الشرط كون موجودا فقط حتى تجوز رؤية أعمى الصين من في قبة الأندلس، ولم يقم دليل على فناء جسمه ﷺ بل الحديث يقتضي بقاءه.

سؤال: فإن قيل: الحديث المسموع منه في المنام هل هو حجة يستدل به أم لا وإذا أمر أحد بشيء هل يجب عليه امتثال أم لا.

فالجواب: أن الحديث المسموع منه ﷺ في المنام ليس بحجة، إذا يشترط في الاستدلال به أن يكون الراوي ضابطاً عند السماع، والنوم ليس حاله الضبط، وإذا أمر أحد بشيء لا يجب عليه امتثاله على الأصح لكن يستحب.

سؤال: فإن قيل: إذا رآه شخص في المنام قلنا إنه هو حقيقة فهل يطلق على الشخص الرائي أنه صحابي أم لا؟

فالجواب: لا يطلق عليه بمجرد رؤيته في المنام أنه صحابي، لأن الصحابي مسلم رأى النبي ﷺ الرؤية المعهودة الجارية على العادة، أو رآه في حياته في الدنيا، لأنه أخبر ﷺ الناس عن الله تعالى في الدنيا لا في القبر، فالصحبة إنما تثبت وتعتبر حال كونه مخبراً عن الله تعالى.

وقوله: «**فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي**» يحتمل أن يراد بالشيطان هنا إبليس شخصه، فتكون الألف واللام للعهد، ويحتمل أن يراد غيره من نوعه، فالألف واللام للجنس.

والشيطان: إما مشتق من «شاط» بمعنى هلك فيكون على وزن «فعلان»، وإما من «شيطان» أي: بعد على وزن «فيعال».

ومعنى: «**لا يتمثل في صورتي**» لا يتصور في صورتي، وعدم تصور الشيطان بصورة النبي ﷺ معدود من خصائصه، والحكمة في ذلك حتى لا يكذب لعنه الله على لسانه ﷺ في النوم.

لطيفة: قال في الروض الفائق عن أبي محمد بن العلاء رحمة الله تعالى أنه قال: دخلت المدينة وقد غلب علي الجوع، فزرت قبر النبي ﷺ فسلمت عليه وعلى الصحابيين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما، وقلت يا رسول الله جئت وبي من الفاقة والجوع ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، وأنا ضيفك في هذه الليلة، ثم غلبني النوم فرأيت النبي ﷺ في المنام فأعطاني رغيفاً فأكلت نصفه، ثم انتبهت من المنام ونصفه الآخر في يدي فتحقق عندي قول رسول الله ﷺ: «**من رآني في المنام فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي**» ثم نوديت يا أبا عبد الله لا يزور قبري أحد إلا غفر له، ونال شفاعتي غداً.

فائدة: جميع الأنبياء كنبينا ﷺ في هذه الخصوصية وهي: أن من رآهم في المنام فهم هم، ولا يتمثل الشيطان في صورتهم، كما نبه على ذلك الكرماني نقلاً عن محيي السنة، فمن عد هذه الخاصة من خصائص نبينا أراد بها الخاصة الإضافية أي: بالنسبة إلى الأمة لا حقيقية لمشاركة الأنبياء له فيها.

وقال الدماميني في خصائصه: لم أقف على أن جميع الأنبياء كنبينا في هذه الخاصة، ولكن جلالة مقام النبوة تقتضي أن لا يتسلط الشيطان على التمثيل بصورة أحد من أهلها المصطفين الأخيار، كائناً من كان لكراماتهم على الله، ورفعة منـــزلتهم عنده

فينبغي تحرير النقل في ذلك، هذه عبارته وكأنه لم يقف على عبارة الكرماني.

فائدة أخرى: ورد في الحديث: «**إن أول ما يرفع من الأرض رؤيته ﷺ في المنام والقرآن والحجر الأسود**».

فائدة أخرى: قال علماء التعبير من رأى النبي ﷺ في نومه فإن كان مغموماً ذهب غمه، وإن كان مديوناً قضى الله دينه، وإن كان مغلوباً نصره الله تعالى، وإن كان محبوساً أطلق، وإن كان عبداً أعتق، وإن كان غائباً رجع إلى أهله سالماً، وإن كان معسراً أغناه الله تعالى، وإن كان مريضاً شفاه الله تعالى، وإن رآه في أرض حرب فإن أولئك الجند ينتصرون على عدوهم، وإن رآه في أرض مقحطة فإن أهلها يخصبون ويرفع عنهم القحط.

قيل: وإن رآه في صورة شاب طويل فإنه يكون فتنة في الناس وقتلاً كثيراً، وإن رآه في صورة شيخ كبير فإن الناس في عافية، وإن رآه وهو أبيض يعلوه حمرة وعليه ثياب بيض، فإنه يتوب إلى الله تعالى ويحسن عمله وتستقيم طريقته.

فائدة أخرى: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي**» [(١)].

قوله: «**فسيراني في اليقظة**» زيادة على الحديث الذي ساقه البخاري هنا، وقد اختلف العلماء في معناه.

فقيل: معناه أن من رآني في منامه فسيراني يوم القيامة، ورد هذا بأن كل أمته يوم القيامة يراه من رآه منهم في منامه ومن لم يره، فلا فائدة لتخصيص ذلك بمن رآه.

وقيل: معناه أن من آمن به في حياته ولم يره لكونه غائباً عنه، فإذا رآه في النوم يكون مبشراً له أنه لابد وأن يراه في اليقظة قبل موته.

والصحيح: حمل الحديث على ظاهره بأن يقال: إن كل من رأى النبي في منامه لابد وأن يراه في اليقظة بعيني رأسه، وهو عام شامل لكل من رآه في النوم في حياته وبعد مماته، وشامل لمن فيه الأهلية كالخواص ومن لا أهلية له كالعوام.

واستشكل الحديث من جهة: أن النبي ﷺ بعد موته في عالم الغيب فكيف يراه الحي وهو في عالم الشهادة، ورد هذا الإشكال ابن أبي جمرة وقال: في هذا القول من

---

(١) أخرجه البخاري (٦/٢٥٦٧، رقم ٦٥٩٢)، ومسلم (٤/١٧٧٥، رقم ٢٢٦٦)، وأبو داود (٤/٣٠٥ رقم ٥٠٢٣). وأخرجه أيضا: أحمد (٥/٣٠٦، رقم ٢٢٦٥٩).

المحذور وجهان خطران

أحدهما: عدم التصديق بقول الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى.

والثاني: الجهل بقدرة القادر وتعجيزها فإنه تعالى قادر أن يجعل رؤيته في النوم ﷺ سبباً لرؤيته في اليقظة.

قال شيخنا جلال الدين السيوطي في كتابه تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي ﷺ والملك: ولا يمتنع رؤية ذاته الشريفة بجسده وروحه، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام وسائر الأنبياء أحياء ردت إليهم أرواحهم بعدما قبضوا، وأذن لهم في الخروج من قبورهم والتصرف في الملكوت العلوي والسفلي، وقال: قال الأستاذ أبو منصور عبد الظاهر بن طاهر البغدادي من المتكلمين المحققين من أصحابنا: إن نبينا ﷺ حي بعد وفاته، وأنه يبشر بطاعات أمته، ويحزن بمعاصي العصاة منهم، وأنه تبلغه صلاة من يصلي عليه من أمته، وقال: إن الأنبياء لا يبلون ولا تأكل الأرض منهم شيئاً، وقد مات موسى في زمانه وأخبر نبينا ﷺ أنه رآه في قبره مصلياً [(١)].

وقال البيهقي: النبي ﷺ حي بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته، لم يتبدل منه شيء وأنه غيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم، فإذا أراد الله رفع الحجاب عمن أراد الكرامة برؤيته فيراه على هيئته التي هو عليها فلا مانع من ذلك، ولا داعي إلى التخصيص برؤية المثال، وأكثر ما تقع هذه الرؤية للعامة قبيل الموت عند الاحتضار فلا تخرج روح من رآه في منامه حتى يراه في اليقظة، وفاء بوعده ﷺ وأما غير العامه وهم الخواص فتحصل لهم هذه الرؤية في طول حياتهم، إما كثيراً وإما قليلاً بحسب اجتهادهم ومحافظتهم على السنة، فالإخلال بالسنة مانع كبير.

وقد نقل عن كثير من السلف والخلف ممن كانوا رأوه ﷺ في النوم وكانوا ممن يصدقون بهذا الحديث، فرأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوشين فأخبرهم بتفريجها، ونص لهم على الوجوه التي منها فرجها، فجاء الأمر

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٥/٤، رقم ٢٣٧٥)، والنسائي (٢١٥/٣، رقم ١٦٣١)، وابن حبان (٢٤٢/١، رقم ٥٠)، وابن أبي شيبة (٣٣٥/٧، رقم ٣٦٥٧٥)، وأحمد (١٤٨/٣، رقم ١٢٥٢٦)، وأبو يعلى (٧١/٦، رقم ٣٣٢٥)، وعبد بن حميد (٣٦٢/١، رقم ١٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢٥٣/٦) عن أنس.

كذلك بلا زيادة ولا نقص.

حكي عن ابن عباس ﷺ أنه رأى النبي ﷺ في النوم فتذكر هذا الحديث، وبقي يفكر فيه، ثم دخل على بعض أزواج النبي ﷺ وهي ميمونة فقص عليها قصته، فقامت وأخرجت له مرآته ﷺ قال ﷺ: فنظرت في المرآة فرأيت صورة النبي ﷺ و لم أر لنفسي صورة.

وعن الشيخ عفيف الدين اليافعي عن الشيخ الكبير قدوة الشيوخ العارفين وبركة أهل زمانه أبي عبد الله القرشي قال: لما جاء الغلام الكبير إلى مصر توجهت لأن أدعو فقيل لي: لا تدعو لا يسمع لأحد منكم في هذا الأمر دعاء، فسافرت إلى الشام فلما وصلت إلى قرب ضريح الخليل عليه السلام تلقاني الخليل أي: في اليقظة فقلت: يا رسول الله اجعل ضيافتي عندك الدعاء لأهل مصر، فدعا لهم ففرج الله عنهم، قال اليافعي: فقوله: «تلقاني الخليل» قول حق لا ينكره إلا جاهل بمعرفة ما يرد عليهم من الأحوال التي يشاهدون فيها ملكوت السماوات والأرض، وينظرون الأنبياء أحياء غير أموات كما نظر النبي ﷺ إلى موسى في الأرض، وقد تقرر أن ما جاز للأنبياء معجزة جاز للأولياء كرامة بشرط عدم التحدي.

وحكى الشيخ الإمام سراج الدين ابن الملقن في طبقات الأولياء عن الشيخ الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني قال: رأيت رسول الله ﷺ قبل الظهر أي: في اليقظة فقال: يا بني لم لا تتكلم قلت يا أبتاه أنا رجل عجمي كيف أتكلم على فصحاء بغداد فقال: افتح فاك، قال: ففتحه، فتفل فيه سبعاً، وقال: تكلم على الناس، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، فصليت الظهر وجلست وحضرني خلق كثير، فارتج علي فرأيت علياً قائماً بإزائي في المجلس فقال لي: يا بني لم لا تتكلم؟ قلت: يا أبتاه قد ارتج علي فقال: افتح فاك ففتحته فتفل فيه ستاً، فقلت: لم لا تكملها سبعاً؟ قال: أدباً مع رسول الله ﷺ ثم توارى عني فقلت: غواص الفكر يغوص في بحر القلب على دار المعارف، فيستخرجها إلى ساحل الصدر، فينادي عليها سمسار ترجمان اللسان، فتشترى بنفائس أثمان حسن الطاعة في بيوت أذن الله أن ترفع.

***

المجلس الخامس والثلاثون

في قصة موسى مع الخضر صلوات الله وسلامه عليهما

الحمد لله الذي جعل العلم للعلماء نسباً، وأغناهم به وإن عدموا مالاً ونسباً، ولأجله فاز إدريس بالجنة واختبا، ولطلبه قام الكليم ويوشع وانتصبا، فسارا إلى أن لاقيا في سفرهما نصباً، وبسببه خلق الله آدم للبشر أباً، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس أبى، واستخرج من ذريته قبائل وشعباً، وأجرى عليهم قلم القضا، وجعل لكل شيء سبباً، ووفق أهل العلم بعنايته فقاموا في خدمته رغباً ورهبا، وفقهم إذ عرفهم أحكامه فأحرزوا به رتبا، وجعلهم في الدنيا كالأعلام وهداة للأنام فاقتفوا به جداً وأبا، وقذف في قلوبهم من المشكلات ما كان بعيداً محتجبا، وكساهم به عزاً وجلالة وسمتاً ومهابة فغدا كل منهم مكرماً ومجتبى، وأذاقهم حلاوة أحكامة فما وجدوا في سفر طلبه تعبا، فإذا وفدوا إليه في القيامة ألبسهم تيجان الكرامة وناداهم أهلاً وسهلاً ومرحبا.

قَالَ الْبُخَارِي:

بَاب مَا يُستَحبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَى اللهِ

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ مُحَمَّد قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ حَدَّثَنَا عَمْرٌو قَالَ أَخْبَرَنِى سَعِيدُ ابْنُ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّ نَوْفاً الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِى إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ. فَقَالَ كَذَبَ عَدُوُّ اللَّه، حَدَّثَنَا أُبَىُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «**قَامَ مُوسَى النَّبِىُّ خَطِيباً فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَىُّ النَّاسِ أَعْلَمُ فَقَالَ أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْه، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْه، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْه أَنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِى بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ بِه فَقِيلَ لَهُ احْمِلْ حُوتاً فِى مِكْتَلٍ فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُون، وَحَمَلاَ حُوتاً فِى مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ سَرَباً، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَباً، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهِمَا فَلَمَّا أَصْبَحَا قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِى أُمِرَ بِه. فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ، قَالَ مُوسَى ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِى، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ – أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ – فَسَلَّمَ مُوسَى. فَقَالَ الْخَضِرُ وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ فَقَالَ أَنَا**

مُوسَى. فَقَالَ مُوسَى بَنِى إِسْرَائِيلَ قَالَ نَعَمْ. قَالَ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِى مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً، يَا مُوسَى إِنِّى عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ. قَالَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِى الْبَحْرِ. فَقَالَ الْخَضِرُ يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِى وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِى الْبَحْرِ. فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ. فَقَالَ مُوسَى قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ. فَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَاناً. فَانْطَلَقَا فَإِذَا غُلاَمٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاَهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ. فَقَالَ مُوسَى أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا – قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ وَهَذَا أَوْكَدُ – فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ. قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ. فَقَالَ لَهُ مُوسَى لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا» (١).

---

(١) قال الحافظ ابن حجر وفي قصة موسى والخضر من الفوائد:

أن الله يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء مما ينفع أو يضر، فلا مدخل للعقل في أفعاله ولا معارضة لأحكامه، بل يجب على الخلق الرضا والتسليم، فإن إدراك العقول لأسرار الربوبية قاصر فلا يتوجه على حكمه لم ولا وكيف، كما لا يتوجه عليه في وجوده أين وحيث.

وإن العقل لا يحسن ولا يقبح وإن ذلك راجع إلى الشرع: فما حسنه بالثناء عليه فهو حسن، وما قبحه بالذم فهو قبيح.

وإن لله تعالى فيما يقضيه حكماً وأسراراً في مصالح خفية اعتبرها كل ذلك بمشيئته وإرادته من غير وجوب عليه ولا حكم عقل يتوجه إليه، بل بحسب ما سبق في علمه ونافذ حكمه، فما أطلع الخلق عليه من تلك الأسرار عرف، وإلا فالعقل عنده واقف. فليحذر المرء من الاعتراض فإن مآل ذلك إلى الخيبة.

ولننبه هنا على مغلطتين:

الأولى: وقع لبعض الجهلة أن الخضر أفضل من موسى تمسكا بهذه القصة وبما اشتملت عليه، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة ولم ينظر فيما خص الله به موسى عليه السلام من =

= الرسالة وسماع كلام الله وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء، وإن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته ويخاطبون بحكم نبوته حتى عيسى، وأدلة ذلك في القرآن كثيرة، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾[الأعراف: ١٤٤].

قال: والخضر وإن كان نبيا فليس برسول باتفاق، والرسول أفضل من نبي ليس برسول، ولو تنزلنا على أنه رسول فرسالة موسى أعظم وأمته أكثر فهو أفضل، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل وموسى أفضلهم. وإن قلنا إن الخضر ليس بنبي بل ولي فالنبي أفضل من الولي، وهو أمر مقطوع به عقلاً ونقلا، والصائر إلى خلافه كافر لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة.

قال: وإنما كانت قصة الخضر مع موسى امتحاناً لموسى ليعتبر.

ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا: إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء، وأما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم، لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار. فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى، ويؤيده الحديث المشهور: «استفت قلبك وإن أفتوك» قال القرطبي: وهذا القول زندقة وكفر، لأنه إنكار لما علم من الشرائع، فإن الله قد أجرى سنته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبينين لشرائعه وأحكامه، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾[الحج: ٧٥] وقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام: ١٢٤] وأمر بطاعتهم في كل ما جاءوا به، وحث على طاعتهم والتمسك بما أمروا به فإن فيه الهدى. وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك، فمن ادعى أن هناك طريقا أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول فهو كافر يقتل ولا يستتاب. قال: وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا، لأن من قال إنه يأخذ عن قلبه لأن الذي يقع فيه هو حكم الله وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة كما قال نبينا ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي».

قال: وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت.

وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي عن ربي. وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع، ونسأل الله الهداية والتوفيق.

وقال غيره: من استدل بقصة الخضر على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ويجوز له فعله فقد ضل، وليس ما تمسك به صحيحاً، فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع، فإن نقض لوح من ألواح السفينة لدفع الظالم عن غصبها ثم إذا تركها أعيد اللوح جائز شرعاً وعقلاً، ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظاهر. وأما قتله الغلام فلعله =

قوله: «**إِنَّ نَوْفاً الْبِكَالِيَّ**»: قال العلماء: نوفا هذا هو ابن فضالة، وكنيته أبو زيد وقيل: أبو رشيد، وهو ابن امرأة كعب الأحبار، وقيل: ابن أخيه.

قال ابن رجب: وهو ممن أسلم من أحبار اليهود، وهو منسوب إلى بني بكال بطن من حمير، فلهذا يقال له البكالي، وكان من علماء التابعين.

«**يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ. فَقَالَ كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ**»: معنى هذا: أن سعيد بن جبير قال لابن عباس أن نوفا يزعم أن موسى الذي قص الله تعالى لنا قصته مع الخضر في سورة الكهف، ليس موسى بني إسرائيل الذي هو موسى بن عمران، بل هو موسى آخر موسى بن ميشا [(١)]، فلما سمع ذلك ابن عباس عن نوفا قال عنه: «**كذب عدو الله**» حيث قال: إنه ليس موسى بن عمران.

وقد استشكل العلماء قول ابن عباس في حق نوفا: «**كذب عدو الله**» وقالوا: كيف يكون عدو الله وهو مؤمن، وكان عالماً قاضياً إماماً لأهل دمشق.

وأجابوا عنه بأجوبة: **أحدها**: أن المراد كذب شيطانه الحامل له على هذه المقالة.

ثانيها: أن قول ابن عباس كذب عدو الله خرج مخرج التنفير من كلامه حيث قال: «إن موسى الذي قصد الخضر ليس موسى بن عمران بل موسى آخر» وليس المراد القدح فيه.

ثالثها: أن ابن عباس قاله في حالة الغضب، وحال الغضب تطلق الألفاظ ولا يراد بها حقائقها.

«**قال ابن عباس: حَدَّثَنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ**»: هذا هو الصحابي الجليل الأنصاري الخزرجي، وكان رجلاً قصيراً نحيفاً أبيض الرأس واللحية، شهد العقبة الثانية وبدراً وما بعدها من المشاهد، وكان كاتب الوحي، وهو أحد الستة الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وأحد الفقهاء الذين كانوا يفتون على عهده أيضاً.

ومن فضائله: أنه أقرأ الصحابة لكتاب الله تعالى.

= كان في تلك الشريعة. وأما إقامة الجدار فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان. والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٢١٩ — ٢٢٢).

(١) قال ابن حجر في الفتح (١/٢١٩): قوله: «انما هو موسى آخر» كذا في روايتنا بغير تنوين فيهما، وهو علم على شخص معين قالوا: إنه موسى بن ميشا بكسر الميم وبالشين المعجمة، وجزم بعضهم أنه منون مصروف لأنه نكرة، ونقل عن ابن مالك أنه جعله مثالاً للعلم إذا نكر تخفيفاً.

ومن فضائله ومناقبه التي لم يشاركه فيها أحد من الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرني الله تعالى أن أقرأ عليك القرآن**» [(١)] وسنذكر في المجالس الآتية حكمة أمر الله له بالقراءة عليه.

سماه رسول الله ﷺ سيد الأنصار، وسماه عمر سيد المسلمين روي له عن رسول الله ﷺ مائه حديث وأربعة وستون حديثاً، ذكر البخاري منها سبعة أحاديث مات سنة تسع عشرة أو عشرين أو ثلاثين بالمدينة.

«**عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ**»: قال العلماء: كان موسى صلوات الله وسلامه عليه من ذرية إبراهيم الخليل، فإنه موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاو بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وكان عمره حين مات كما قاله ابن الملقن مائة وعشرين سنة.

واختلف العلماء في السبب الذي قصد موسى لأجله الخضر، فقيل سببه: أن موسى سئل ربه فقال: أي رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أي رب أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى، قال: فهل في عبادك في الأرض أعلم مني؟ قال: نعم، قال: رب من هو؟ قال: الخضر ثم نعته له ودله على مكانه فقصده.

وقيل سببه: أن موسى لما ظهر على فرعون وغلبه وأخذ مصر من القبط، وأهلكهم الله واستقر هو وبنو إسرائيل، أمره الله أن يذكر قومه النعمة فقام «**موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه**» أي: لم يرض الله بقوله أنا أعلم، فإنه كان من حقه أن يرد العلم إلى الله، بأن يقول: الله أعلم به أو يرد برد الملائكة أن يقول: لا علم لنا إلا ما علمتنا، فإن مخلوقات الله لا يعلمها إلا الله قال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾[المدثر: ٣١].

وليس معنى العتب هنا المؤاخذة وتغير النفس، فإن ذلك في حق الله مستحيل.

«**فأوحى الله إليه**»: لما لم يرد العلم إليه.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/٨٨، رقم ١٣٣٧) عن أبي بن كعب.
وأخرجه البخاري (٤/١٨٩٦، رقم ٤٦٧٦)، ومسلم (١/٥٥٠، رقم ٧٩٩)، والنسائي في الكبرى (٥/٦٦، رقم ٨٢٣٨)، وأحمد (٣/٢١٨، رقم ١٣٣١٠) عن أنس.

وقال: «**إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين**» أي: عند ملتقى البحرين وهما بحر فارس وبحر الروم مما يلي المشرق.

«**هو أعلم منك، قال: يارب كيف به**» أي: على أي حال يكون الطريق إلى ملاقاته، وجاء في رواية: «**قال يارب فدلني عليه حتى أتعلم منه**».

«**فقيل له: احمل حوتاً في مكتل**» أي: إذا أردت الاجتماع به فاحمل معك حوتاً سمكة في مكتل أي: في زنبيل واذهب إليه.

قال: «**فإذا فقدته فهو ثم**» أي: إذا فقدت الحوت فالعبد الذي هو أعلم منك هناك، فجعل فقد الحوت علامة ودليلاً على مكانه.

«**فانطلق**» أي: موسى، «**وانطلق بفتاه**» أي: بصاحبه «**يوشع بن نون**» قاصدين الخضر.

قال أبو عبد الله: «**يوشع**» يجوز أن يقال: بالشين المعجمة وإن يقال بالسين المهملة، يوشع كان نبياً في زمن موسى صلوات الله وسلامه عليهما سواء.

فإن قيل: عدوا من جملة شروط النبوة أن يكون النبي أكمل أهل زمانه، وهذا يستلزم عدم جواز إرسال نبيين في عصر واحد، فكيف أرسل يوشع في زمن موسى وهارون أخوه أيضاً في زمنه، فإن إرسال موسى وأخيه ثابت بنص القرآن قال الله تعالى: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ**﴾[طه: ٤٣]. وقال: ﴿**فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا**﴾[الشعراء: ١٥]. وقال: ﴿**فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ**﴾[طه: ٤٧].

جوابه: أن معنى هذا الشرط والمراد منه أنه يشترط أن يكون أكمل أهل زمانه ممن ليس نبياً فهو شرط عام، ولكنه مخصوص كما أفاد ذلك ابن الهمام وشيخنا ابن أبي الهمام في المسايرة وشرحها.

«**وحملا حوتاً في مكتل**» أي: تزودا عند سفرهما لأجل الخضر بسمكة مالحة وضعاها في مكتل وسارا.

«**حتى كانا عند الصخرة**» أي: حتى انتهيا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين أي: بين البحرين قيل: وكانت هذه الصخرة دون نهر الزيت بالمغرب.

والحكمة في أنهما اجتمعا بمجمع البحرين: أنهما بحران في العلم، وكان عند الصخرة عين ماء تسمى ماء الحياة، لا يصيب ذلك الماء شيئاً ميتاً إلا حي بإذن الله تعالى، وكان قد أكلا من ذلك الحوت أحد جنبيه، وبقي الجنب الآخر، فلما وصلا إلى الصخرة «**وضعا رؤوسهما فناما**».

قيل: قام يوشع بن نون وتوضأ من عين الحياة فانتضح على الحوت المالح في المكتل من ذلك الماء فعاش.

وقيل: أصابه روح الماء وبرده فاضطرب في المكتل وعاش.

«**فانسل الحوت من المكتل**» أي: فخرج منه فسقط في البحر كما قال تعالى: ﴿**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً**﴾[الكهف: ٦١] أي: ذهب في البحر ذهاباً.

قيل: وأمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق أي: مثل عقد البناء وهو: ما ترك تحته خالياً وعقد أعلاه بالبناء.

فائدة: اتفق هنا معجزتان:

إحداهما: حياة السمكة المملوحة المأكول منها.

والثانية: صيرورة الماء مثل السرب المحفور تحت الأرض كما جاء في رواية: «**فجعل الماء لا يلتئم حتى صار كالكوة**».

وهاتان المعجزتان إما موسى أو الخضر. «**وكان لموسى وفتاه عجباً**».

فائدة: قال الدميرى: قال أبو حيان الأندلسي: رأيت سمكة بقرب مدينة «سبته» من نسل الحوت الذي أكل منه موسى وفتاه بصفته، فأحياه الله تعالى فاتخذ سبيله في البحر سرباً، ونسلها في البحر إلى الآن في ذلك الموضع، وهي سمكة طولها أكثر من ذراع، وعرضها شبر واحد أحد جنبيها شوك وعظام، وجلد رقيق على أحشائها وعينها ورأسها نصف رأس، من رآها من هذا الجانب استنفرها، ويحسب أنها مأكوله، ونصفها الآخر صحيح، والناس يتبركون بها ويهدونها إلى الأماكن البعيدة.

ومن غريب ما روى أيضاً: أن بعض المفسرين ذكر أن موضع سلوك الحوت عاد حجراً طريقاً وأن موسى مشى عليه تبعاً للحوت حتى أفضى به ذلك الطريق إلى جزيرة في البحر فيها وجد الخضر.

فلما استيقظ موسى نسى صاحبه يوشع أن يخبره بالحوت.

«**فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما**» وفي رواية في البخاري في التفسير وفي مسلم أيضاً: «**فانطلقا بقية يومهما وليلتهما**» [1] وهو الصواب وكما قاله البرماوي وابن الملقن لقوله: «**فلما أصبح**».

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٥٢/٤، رقم ٤٤٤٨)، ومسلم (١٨٤٧/٤، رقم ٢٣٨٠)، والترمذي (٣٠٩/٥، رقم ٣١٤٩).

وجاء في رواية: «**حتى إذا كان من الغد وارتفع النهار حتى جاء وقت الظهر**».

«**قال موسى لفتاه آتنا غدآءنا**» والغداء: بفتح الغين المعجمة والممدودة الطعام الذي يؤكل أول النهار.

«**لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا**» أي: تعباً، وإنما حصل لسيدنا موسى التعب والجوع بعد مفارقة الحوت لا قبله، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ولم يجد موسى مساً من النصب حتى جاوز المكان الذي أُمر به**».

والحكمة في حصول التعب له والجوع بعد مفارقة الحوت حتى يطلب الغداء، فيذكر فيه نسيان الحوت، فيرجع إلى محله فيجتمع بمراده.

قال أبو الفضل الجوهري: مشى موسى عليه السلام للمناجاة أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع.

«**فقال لفتاه**» يوشع لما طلب منه الغداء «**أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت**» أي: لما نمنا عند الصخرة نسيت الحوت.

سؤال: فإن قيل: كيف نسى يوشع الحوت ومثله لا ينسى، لكونه أمارة على مرادهما.

جوابه: أن الشيطان قد شغله بوسواسه حتى نسي، ولذلك قال: ﴿**وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾[الكهف: ٦٣].

«**قال موسى**» له لما استمع قوله: فإني نسيت الحوت «**ذلك ما كنا نبغ**» أي: فقدنا للحوت هو الذي كنا نطلبه، لأنه علامة على وجود مطلوبنا.

«**فارتدا على آثارهما قصصاً**» أي: فرجعا يقتصان الآثار حتى وصلا إلى الصخرة.

«**فلما أتيا إلى الصخرة**» أراه مكان فقد الحوت.

«**إذا برجل مسجى بثوب، أو قال: تسجى بثوبه**» أي: فلما وصل إلى الصخرة وإذا بالخضر مغطىً بثوب كله كتغطية الميت وجهه ورجله وجميعه، كما جاء في رواية أخرى: «**قد تسجى بثوب قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه**».

وقال الثعلبي: فانتهى موسى وفتاه إلى الخضر وهو نائم على طنفسة خضراء، على وجه الماء، وهو مسجى بثوب أخضر.

وفي صحيح البخاري [1]: «**فأتيا جزيرة فوجدا الخضر قائماً يصلي على طنفسة**

---

(١) وقع في الأصل صحيح مسلم ولم نقف على هذه الرواية في صحيح مسلم فلعل الصواب ما =

خضراء على كبد البحر» [(١)] أي: وسطه.

«**فسلم موسى**» على الخضر، «**فقال**» له «**الخضر وأنى بأرضك السلام**» أي: من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام، فأنى اسم استفهام بمعنى: من أين هنا، كما في قوله تعالى: ﴿**أَنَّى لَكِ هَذَا**﴾[آل عمران: ٣٧] فإنها تكون بمعنى: من أين، وبمعنى: متى وحيث وكيف.

وتعجب الخضر من وقوع السلام إما لأن السلام لم يكن معروفاً عندهم إذ ذاك، إلا بين الأنبياء والأولياء، وإما لأن تلك البلاد كانت بلاد كفر وهم لا يعرفون السلام.

فلما قال له الخضر: «**وأنى بأرضك السلام**» تحقق موسى أن الخضر عرفه فعرَّفه بنفسه «**فقال: أنا موسى فقال:**» له الخضر: أنت «**موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم**».

وقال بعض العلماء: إن موسى لما سلم عليه وهو مغطى عرَّفه أنه موسى، فرفع رأسه واستوى جالساً وقال: عليك السلام يا نبي بني إسرائيل، قال: ما الذي أدراك بي، ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل؟ قال: الذي أدراك بي ودلك علي، ثم قال الخضر: يا موسى أما يكفيك أن التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك، قال موسى: إن ربي أرسلني لأتبعك وأعلم من علمك.

ثم «**قال**» موسى للخضر: «**هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً**» أي: صواباً أرشد به، وإنما سأله ذلك لأن الزيادة إلى العلم مطلوبة.

سؤال لصاحب الكشاف وهو: فإن قيل: دلت حاجته إلى العلم من الخضر أنه ليس موسى بن عمران بل موسى بن ميشا لأن موسى بن عمران نبي، والنبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه.

وأجاب: أنه لا نقص بالنبي في أخذ العلم من نبي مثله.

وقال الكرماني: وهذا الجواب لا يتم على القول بولاية الخضر، ثم أجاب: بأن موسى لم يسأل الخضر عن شيء من أمر الدين، والأنبياء لا يجهلون ما يتعلق بدينهم الذي يعبدون الله به، وإنما سأله عن شيء ليس عنده علمه مما ذكر في السورة.

فلما سأل موسى الخضر أن يتبعه حتى يتعلم منه «**قال**» له الخضر: «**إنك لن**

= أثبتناه.

(١) أخرجه البخاري (٤/١٧٥٤، رقم ٤٤٤٩).

تستطيع معي صبراً» يعني: إنك سترى مني شيئاً ظاهره منكر فلا تصبر عليه.

ثم قال له الخضر أيضاً: «**يا موسى إني أعلم علم من علم الله علمينه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه إياه الله لا أعلمه**» أنا.

جاء في رواية: «**أن الخضر قال له: فما شأنك إن الوحي يأتيك يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه**».

ثم قال له: «**وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً**» يعني: على ما لم تعلمه.

«**قال**» له موسى: «**ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً**»: إنما قال موسى إن شاء الله لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم من عدم عصيانه، وهذه عادة الأنبياء والأولياء ألا يثقوا إلى أنفسهم طرفة عين.

فقال الخضر: «**فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً**» يعني: إذا رأيت مني ما تنكره باطناً بحسب علمك، فاصبر حتى أبينه لك بعلته بحسب علمي، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم.

«**فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول**».

سؤال: فإن قيل: كيف قال «**فحملوهما**» مع أنهم كانوا ثلاثة الخضر وموسى ويوشع، ويدل عليه قوله: «**فكلموهم**».

فالجواب: أن يوشع لما كان تابعاً اكتفي بذكر الأصل عن الفرع، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿**فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾[طه: ١١٧] ولم يقل فتشقيان، بل ثنى ثم أفرد، لأن آدم هو الأصل فأفرد بالذكر، وحواء كانت تابعة فلم تذكر اكتفاءً بذكر الأصل عن الفرع.

فالحاصل: أن أهل السفينة حملوا الثلاثة في سفينتهم بغير أجرة.

«**فجاء عصفور**» وذكر بعضهم: أنه الصُّرَد قاله الزركشي.

«**فوقع على حرف السفينة**» أي: على طرفها «**فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور**».

استشكل العلماء هذا وقالوا: إن ظاهره يقتضي أن علم الله يدخله النقص مع أن الزيادة والنقص لا يدخلان في علم الله تعالى؟

وأجابوا عن الاستشكال المذكور بأجوبة:

أحدهما: أن هذا على جهة التمثيل، والمعنى: أن علمي وعلمك بالنسبة إلى علم الله كنسبة ما نقر العصفور من البحر، فإنه لقلته وحقارته لا يظهر، وكأنه لم يأخذ شيئا.

الثاني: أن «**إلا**» هنا بمعنى «**ولا**» كأنه قال: ما نقص علمي وعلمك شيئاً من علم الله، ولا ما أخذ العصفور من هذا البحر، أي: أن علم الله لا يدخله النقص ومثل هذا قوله تعالى ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً**﴾[النساء: ٩٢].

والثالث: أن «**إلا**» على بابها، والمراد بالنقص: التفويت الذي له أثر محسوس، ونقر العصفور ليس ينقص البحر بهذا المعنى، فكذلك علمنا لا ينقص من علم الله شيئاً.

وهذا كقول الشاعر:

ولا عيب فيه غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أي: ليس فيهم عيب.

الرابع: أن العلم هنا بمعنى: المعلوم كالعمل في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ**﴾[البقرة: ٢٥٦] ولولا ذلك لما صح دخول التبعيض فيه، لأن الصفة القديمة لا تبعض.

الخامس: لابن رجب وهو جواب حسن قال: إن البحر لا ينقص البتة من العصفور، بل ولا بشرب غيره من الحيوانات، بل ولا بالاستسقاء منه، ولو نزف منه جميع أهل الأرض لم ينقص شيئاً في الحقيقة، وذلك أن البحر يمده جميع أنهار الدنيا، ومياهها الجارية، فلا يؤخذ منه شيء، إلا وفي تلك الحال يستخلف فيه ما هو أكثر مما أخذ منه، فلا يتصور نقصه مع ذلك.

وشبه ذلك بما في الجنة من طعام وشراب وثمار وغيرها قال: فإنها لا تنقص أبداً مع تناول أهل الجنة منها، فإنه يستخلف في الحال مثل المأخوذ منه أو أكثر فالمعنى: إن علمي وعلمك لا ينقص من علم الله شيئاً كما لا ينقص هذا العصفور من هذا البحر شيئاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿**لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاماً**﴾[مريم: ٦٢] أي: لا يسمعون فيها لغو البتة.

ثم قال رسول الله ﷺ: «**فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة**» أي: بعد أن توسطوا البحر.

«**فنـــزعه**» وقيل: نزع لوحين منها.

وقد جاء في رواية في الصحيح: «**أنه وتد فيها وتداً**».

وفي رواية أخرى: «**أنه عمد إلى قدوم**» أي: فأس «**فخرق لوحاً من السفينة حتى دخلها الماء**».

«**فقال موسى**» بعد أن دخل الماء السفينة وحشا الخرق بثوبه، وقيل: إن الماء لم يدخلها وسدها موسى بثوبه خوفاً من دخوله.

«**قوم حملونا بغير نول**» وأحسنوا إلينا.

«**فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها**» أي: ما هذا جزاؤهم منا.

«**لقد جئت شيئاً إمراً**» أي: لقد فعلت فعلاً عظيماً منكراً.

فقال الخضر لموسى: «**ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً**» فاعتذر إليه موسى وقال: «**لا تؤاخذني بما نسيت**» أي: غفلت.

«**ولا ترهقني من أمري عسراً**» يعني عاملني في صحبتي إياك بالعفو والتيسير، ولا تضيق علي وتعاملني بالعسر.

«**فكانت الأولى**» أي: المسألة الأولى «**من موسى نسياناً**» أي: فلهذا اعتذر، وأما الثانية: فإنه لم ينس فلهذا لم يعتذر، وجاء في رواية في الصحيح: «**فكانت الأولى من موسى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً**».

فائدة: قال الثعلبي: قال ابن عباس: «لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحيته ثم قال في نفسه: ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل، كنت في بني إسرائيل أتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية، وآمرهم فيطيعون، فقال له الخضر: يا موسى أتريد أن أخبرك بما حدثت به نفسك؟ قال: نعم، قال: قلت كذا وكذا، قال: «صدقت».

«**فانطلقا بعد خروجهما من السفينة يمشيان على الساحل فإذا غلام**» لطيف ظريف وضيء.

«**يلعب مع الغلمان**» أي: مع الأطفال، وكانوا عشرة فأخذه الخضر وقتله بلا ذنب في الظاهر، وموسى ينظر إليه.

وفي مسلم: «**فذعر موسى ذعرة منكرة عندها**» [1].

واختلف العلماء في كيفية قتله إياه:

فقيل: أخذه فضجعه ثم ذبحه بالسكين.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/١٨٥٠، رقم ٢٣٨٠).

وقيل: ضرب رأسه بالجدار حتى قتله.

وقيل: أدخل أصبعه في سرته أي الصبي فاقتلعها فمات.

وقال في هذا الحديث: «**فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده**».

واختلفوا في اسمه أيضاً، فقيل: جيسور، وقيل: حسين، وقيل جنتور، وقيل غير ذلك.

«**فقال موسى أقتلت نفسا ذكية**» أي: طاهرة من الذنوب لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث.

وأكثر العلماء والمفسرين على أنه كان دون البلوغ، والذي يدل عليه أنه كان دون البلوغ قوله: «**إذا غلام يلعب مع الصبيان**» فإن الغلام يطلق على من دون البلوغ فقد قال العلماء: المولود يسمى غلاماً وصبياً وطفلاً إلى البلوغ، فإذا بلغ يسمى شاباً إلى الثلاثين، فإذا وصل إلى الثلاثين يسمى كهلاً إلى الأربعين، فإذا وصل إلى الأربعين يسمى شيخاً.

وذهب بعض العلماء إلى أنه كان بالغاً لما قتله الخضر، واستدلوا على ذلك بقوله: «**بغير نفس**» فإن المعنى: قتلت نفساً ذكية من غير أن يصدر منها قتل يوجب القصاص، والصبي لو قتل لا قصاص عليه، فدل على أنه كان بالغاً.

وأجاب الكرماني عنه: بأن المراد بقوله: «**بغير نفس**» التنبيه على أنه قتل بغير حق، أو إن شرعهم كان يقضي إيجاب القصاص على الصبي.

«**قال موسى: للخضر لقد جئت**» بقتلك الصبي

«**شيئاً نكراً**» أي: منكراً فلما قال له هذا الكلام غضب الخضر، ثم اقتلع كتف الصبي الأيسر، وقشر اللحم منه، فإذا عظمة كتفه مكتوب عليها كافر لا يؤمن بالله أبداً، فلما اعترض على الخضر في فعله الثاني، وأنكر عليه كما أنكر عليه أولاً.

«**قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً، قال ابن عيينة: وهذا أوكد**» يعني: زيادة لك هنا أوكد في عتاب موسى، وفي عدم حفظه للوصية وقلة صبره، وفي ذلك أيضاً تنبيه على أنه لا عذر لموسى في هذه المرة الثانية بخلاف الأولى، ولهذا قال للخضر: «**إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني بعد هذه المرة**» أي: لا تتركني أتبعك وفارقني قد بلغت من لدني عذراً في فراقك إياي.

«**فانطلقا يمشيان حتى إذا أتيا أهل قرية**» واختلف العلماء في هذه القرية التي أتاها الخضر وموسى.

فقيل: هي «أنطاكية» وعليه ابن عباس وأكثر العلماء والمفسرين.

وقيل: هي قرية من قرى الروم تسمى «الناصورة» وإليها ينسب النصارى.

وقيل: «آيلة» وهي أبعد الأرض من السماء.

وكان دخولهما قبل غروب الشمس، وكانوا محتاجين إلى الطعام مفتقرين إلى تحصيله، إما بكسب أو سؤال، وقد مستهما الحاجة إليه، لأن ذلك الوقت كان وقت جدب واضطرار.

فلما دخلا القرية «**استطعما أهلها**» أي: طلبوا منهم الطعام ضيافة، «**فأبوا أن يضيفوهما**» فإنهم كانوا لئاماً.

وقد روى أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله: ﴿**فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا**﴾[الكهف: ٧٧] قال: «**كانوا أهل قرية لئاماً**» قال قتادة: شر القرى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه.

فلم يجدوا تلك الليلة في تلك القرية قرى[1] ولا مأوى، وكانت ليلة باردة فالتجئوا إلى حائط على شارع «**يريد أن ينقض**» أي: يقرب أن يسقط لميلانه كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿**فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ**﴾[الكهف: ٧٧]، ولم يزل أهل القرية وغيرهم من الناس يمر تحته على خوف منه، وكان قد بناه رجل صالح.

قال الثعلبي: وكان سمك ذلك الحائط مائتي ذراع بذارع ذلك القرن، وكان طوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع، وكان عرضه خمسون ذراعاً فأقامه الخضر لما رآه مائلاً.

واختلف العلماء في كيفية إقامته، فقيل: هدمه ثم قعد يبنيه، وقيل: دفعه بيده ثم قعد يبنيه، وقيل: دفعه بيده فقام، وقيل: مسحه بيده فاستقام كما قال في هذا الحديث: «**قال الخضر بيده، فأقامه**» أي: أشار إليه بيده فأقامه، قيل: في هذا الذي فعله الخضر دلالة على أنه نبي، لأن إقامة هذا الجدار بإشارة من يده معجزة عظيمة، وأجاب عنه الكرماني: بأنه يحتمل أن يكون ذلك كرامة تصدر من الولي، فلا دلالة فيه على أنه نبي.

«**فقال له موسى**» لما أقام الجدار وأصلحه: قوم استضفناهم فلم يضيفونا مع شدة احتياجنا إلى الطعام فأصلحت جدارهم بلا ضيافة منهم.

---

(١) المراد به إكرام الضيف.

«**لو شئت لاتخذت عليه أجراً**» أي: لاتخذت على ذلك أجرة لتكون لنا قوة وبلغة على سفرنا.

قال الخضر: «**هذا فراق بيني وبينك**» أي: لهذا الاعتراض الثالث علي سبب للفراق بيني وبينك يا موسى[1].

ثم قال له: ﴿**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً**﴾[الكهف: ٧٨] أي: سأخبرك عن سبب خرق السفينة وقتل الغلام وإصلاحي الجدار، لتعلم أنه لا إنكار علي.

ثم أخذ يبين له ذلك فقال كما قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ**﴾ أي: لعشرة مساكين أخوة، و لم يكن لهم معيشة غيرها ورثوها من أبيهم، وكانت تساوي ألف دينار.

ثم قال له الخضر: فأردت أن أعيب هذه السفينة قطعاً لطمع الطامعين فيها، ودفعاً لشرهم، فإنه كان ﴿**وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً**﴾ قال: فخرقتها وعبتها لئلا يتعرض لها ذلك الملك ويدعها لعيبها، فإذا جاوزوه صلحوها فانتفعوا بها، وقد أصلحها الخضر بعد مجاوزة الملك.

فائدة: استدل ابن عبد السلام بخرق السفينة مخافة أخذ الغاصب على أنه إذا كان تحت يد الإنسان مال يتيم أو سفيه أو مجنون، وخاف عليه أن يأخذه ظالم، أنه يجب أن يعيبه لأجل حفظها، وقريب من هذه المسالة ما لو خاف الوصي على المال الذي تحت يده من استيلاء ظالم عليه فله تخليصه بشيء منه، والله يعلم المفسد من المصلح، ونظير هذا ما لو كان تحت يده مال يتيم مثلاً وعلم أنه لو لم يبذل منه شيء لقاضي سوء لانتـــزعه منه وسلمه لبعض خونته وأدى ذلك إلى ذهابه، فإنه يجب عليه أن يدفع إليه شيئاً ويتحرى في أقل ما يمكن إرضاؤه به، والقول قوله إذا نازعه المحجور عليه بعد رشده في بذل ذلك، وإن لم تدل القرائن عليه، وكذلك القول من عيب مال اليتيم قوله ونحوه إذا نازعه اليتيم ونحوه بعد الرشد ونحوه في أنه لم يفعله لهذا الغرض، كما قاله القاضي زكريا في شرح الروض قبيل باب الوديعة أنه الأوجه، قال: لأن ذلك لا يعلم إلا منه غالباً.

ثم أخذ الخضر يبين له ما فعله بالغلام فقال كما قال الله حكاية عنه ﴿**وَأَمَّا الغُلامُ**

---

(١) إلي هنا انتهت الرواية التي عند البخاري وبعدها أكمل السفيري القصة بنحو ما جاء في سورة الكهف من الآية (٧٩) إلي الآية (٨١).

فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وكان هو كافراً، وكان ابن عباس يقرأ هذه الآية **﴿وَأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾**.

وفي صحيح مسلم: «وأما الغلام فطبع يوم طبع كافراً، وكان أبواه قد عطفا عليه فلو أنه أدرك أرهقهما طغياناً وكفراً».

وهذا بمعنى قول الخضر **﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾** [الكهف: ٨٠] أي: فعلمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعى أبويه إلى الكفر، فيجيبانه ويدخلان معه في دينه لفرط حبهما إياه فيدخلان النار، والطغيان: الزيادة في الضلال.

ثم قال الخضر: **﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾** [الكهف: ٨١] أي: وأوصل للرحم وأبر بوالديه .

قال الثعلبي: فأبدلهما الله جارية مؤمنة أدركت يونس بن متى، فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم.

وري عن جعفر الصادق عن أبيه أنه قال: أبدلهما جارية ولدت سبعين نبياً.

ثم أخذ يبين له حال الجدار فقال كما قال الله تعالى: **﴿وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ﴾** [الكهف: ٨٢] وكان اسم الغلامين: «أصرم، وصريم».

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنـزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] واختلف العلماء في ذلك الكنـز أي شيء كان:

فقيل: كان صحفاً مدفونة تحته فيها علم.

وقيل: كان لوحًا من ذهب مكتوب في أحد شقيه: «بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وفي شقه الآخر أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، والويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه» رواه عطاء عن ابن عباس.

وقال أكثر العلماء: إن الكنـز كان ملآناً بذهب وفضة وهو الظاهر من إطلاقه.

ثم قال: **﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾** شيخاً **﴿صَالِحاً﴾** أي: أميناً تقياً، فحفظا بصلاح أبيهما ولن يذكر منهما صلاحاً، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء.

قال محمد بن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وبقعته التي

هو فيها، والدويرات حوله، فما يزالون في حفظ وستر [١].

لطيفة: حكي عن بعض العلوية أنه دخل على هارون الرشيد وقد همَّ بقتله، فلما دخل عليه أكرمه وخلى سبيله، فقيل له: بما دعوت حتى أنجاك الله منه قال: قلت: يا من حفظ الكنـــز على الصبيين لصلاح أبيهما احفظني منه لصلاح آبائي [٢].

قال الخضر: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنـــزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] المدفون تحت الجدار ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] وإنما فعلته بأمر الله ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[الكهف: ٨٢].

لطيفة: قال الثعلبي: لما أنكر موسى على الخضر خرق السفينة مخافة غرق أهلها، وقتل الغلام، وإقامة الجدار محتسباً بدون أجر، قال له: يا موسى أتلومني على خبر السفينة مخافة غرق أهلها ونسيت نفسك حين ألقتك أمك وأنت صغير في اليم ضعيف فحفظك الله، وتلومني على قتل الغلام الكافر بلا أمر، ونسيت نفسك حين قتلت القبطي بغير أمر، تلومني على ترك أخذ الأجرة في إقامة الجدار، ونسيت نفسك حين سقيت أغنام شعيب لأجل الله تعالى [٣].

قال الثعلبي: وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ أو غيره: أن موسى لما أراد فراق الخضر قال له الخضر: استودعك الله، فقال له موسى: أوصني، فقال له الخضر، لا تكن مشاء في غير حاجة، وإياك واللجاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير الخطائين بخطاياهم، وابك على خطيئتك، ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد [٤].

«قال رسول الله ﷺ: يرحم الله موسى لوددنا لوصبر حتى يقص علينا من أمرهما».

«**لوددنا**» جواب قسم محذوف، «**ولو صبر**» في تأويل المصدر أي: والله لوددنا صبر موسى، لأنه لو صبر لأبصر أعجب العجائب.

وروي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه فقال ذات يوم: «**رحمة الله علينا وعلى أخي موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب العجاب، ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت**

---

(١) أورده ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/١٨٧).

(٢) انظر: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس (ص ١٢٩).

(٣)انظر: قصص الأنبياء السابق.

(٤) انظر: قصص الأنبياء السابق.

من لدني عذراً».

استنبط الإمام النووي وغيره من قصة موسى والخضر فوائد كثيرة:

قالوا: فيه دلالة على استحباب الرحلة للعلم وفضيلة طلبه.

وفيه: دلالة على جواز النـــزول للسفر.

وفيه: دلالة على أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل الأدب مع العالم، وأن يحترم المشايخ، وأن يترك الاعتراض عليهم، وأن يؤول ما لم يفهم ظاهره من أقوالهم وأفعالهم، وأن يوفي بما عاهدهم عليه، وأن يعتذر لهم عند مخالفتهم.

وفيه: دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يطلب من غيره الطعام عند احتياجه إليه.

وفيه: دليل على إثبات كرامات الأولياء.

وفيه: دليل على جواز الإجازة، وعلى جواز ركوب السفينة، وعلى جواز ركوبها بغير أجرة برضا صاحبها.

وفيه: دليل على أن الشرع إنما يحكم بالظاهر حتى يتبين خلافه.

وفيه: دليل على أن الكذب: الإخبار على خلاف الواقع عمداً أو سهواً خلافاً للمعتزلة [1].

وفيه: دليل على أنه إذا تعارضت مفسدتان على شيء واحد جاز دفع أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما، كمسألة ابن عبد السلام السابقة وغيرها، ولهذا خرق الخضر السفينة لدفع غصبها، فإن الخرق أهون من الغضب.

وفيه: دليل على جواز فساد بعض المال لإصلاح باقيه.

قال العلماء: يجوز خصاء صغار الحيوان المأكول لأجل أن يطيب لحمه، ولا يجوز خصاء كبار المأكول ولا خصاء غير المأكول مطلقاً، وعليهما يحمل حديث النهي عن خصاء البهائم.

وقالوا: يجوز قطع بعض آذان الأنعام للتمييز، قاله ابن الملقن.

وفيه: دليل على جواز التسليم لكل ما جاء به الشرع، وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول ولا يفهمه كل الناس، ولو كان ظاهره منكراً، واستفيد هذا من قتل الغلام وخرق السفينة، فإن صورتهما صورة المنكر، وفي نفس الأمر كانا صحيحين

---

(١) فإنهم يشترطون الكذب عن طريق العمد فقط، ولكن المذهب الحق أن الإخبار بغير الواقع سواء كان عمداً أو سهواً أو غلطاً. قاله النووي في شرح مسلم (١/٩٤).

ولهما حكمة كانت خفية عن الخلق، فلما أعلمهم الخضر بها بعد أن أعلمه الله بها علموها، ولهذا قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[الكهف: ٨٢].

وفيه: دليل على أنه يجب الرجوع إلى قول أهل العلم عند التنازع.

وفيه: دليل على أنه يجب على العالم الرغبة في الزيادة من العلم والحرص عليه، ولا يقنع بما عنده، ولهذا لم يكتف موسى بعلمه بل طلب الزيادة.

وفيه: دليل على أنه لا بأس على العالم والفاضل أن يخدمه المفضول، ويقضي له حاجته، ولا يكون هذا من أخذ العوض على تعليم العلم والآداب، بل من مروءات الأصحاب، وحسن العشرة، ودليل هذا: حمل فتى موسى وهو يوشع الغداء.

وفيه: دليل على أنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم ولا أدري.

جاء في الخبر: «**العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة، ولا أدري**» [(١)].

وقال الشعبي: «لا أدري» نصف العلم.

وقال الإمام مالك: جنة العالم «لا أدري» فإذا أخطأها فقد أصيبت مقالته.

وقال أبو حفص النيسابوري: العالم هو الذي يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة: من أين أجبت؟.

وكان ابن عمر يقول: يريدون أن يجعلونا جسراً يعبرون علينا.

وكان ابن عمر أيضاً يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسعة.

ونقل عن الإمام مالك أنه سئل عن ثماني وأربعين مسألة فقال في اثنين وثلاثين منها: «لا أدري».

وكذلك قال إمامنا الشافعي «لا أدري» في مسائل.

وكذلك أبو حنيفة سئل عن تسع مسائل فقال فيها: «لا أدري».

وكذلك كان أحمد بن حنبل يكثر من قول: «لا أدري».

حتى نقل عن جبريل أنه قال: «لا أدري».

وكذلك نبينا ﷺ قال: «**لا أدري**».

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/٢٩٩، رقم ١٠٠١) عن ابن عمر، قال الهيثمي (١/١٧٢): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه منسوب رواه عن مالك بن أنس، وروى عنه إبراهيم بن المنذر، ولم أر من ترجمه.

قال حجة الإسلام الغزالي: قال رسول الله ﷺ: «**لا أدري أعزير نبي أم لا، وما أدري تبع ملعون أم لا، وذو القرنين نبي أم لا**» (١).

ولما سئل عن خير بقاع الأرض وشرها؟ قال: «**لا أدري**» حتى نزل جبريل فسأله فقال: «**لا أدري**» إلى أن علمه الله تعالى أن المسجد خير البقاع، وشرها السوق (٢).

وكان في الفقهاء من يقول: «لا أدري» أكثر من أن يقول: «أدري» منهم: الثوري، ومالك، وأحمد، والفضيل، وبشر بن الحارث.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: «أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين صحابياً من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم من أحد يسأل عن حديث أو فتيا إلا ودَّ أن أخاه كفاه ذلك» (٣).

وفي لفظ آخر: «كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول» (٤).

وفي الحديث: دليل على أنه ينبغي للعالم التواضع مع الناس كلهم، خصوصاً مع المتعلمين، فيرفق بهم ويلين لهم الكلام، ويبذل لهم النصيحة، كما أن المتعلم ينبغي له أن يتواضع لعلمه، ويجلس بين يديه متأدباً، لأن الله تعالى عتب على موسى حين لم يرد العلم إليه، وأراه من هو أعلم منه، وقد أمر الله سيد المتواضعين نبينا محمداً ﷺ بخفض الجناح قال الله تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[الحجر: ٨٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: كنا نأتي أبا سعيد الخدري فيقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً ليأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا آتوكم فاستوصوا بهم خيراً**» رواه الترمذي وابن ماجة وغيرهما (٥).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٢١٨، رقم ٤٦٧٤)، والحاكم (١/٩٢، رقم ١٠٤)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٨/٣٢٩، رقم ١٧٣٧٣) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/١٥٤، رقم ٧١٤٠) عن أنس، قال الهيثمي (٢/٦): فيه عبيد ابن واقد القيسي، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/١٩، رقم ٥٨)، و الدارمي (١/٦٥، رقم ١٣٥).

(٤) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (١/٧٠).

(٥) أخرجه الترمذي (٥/٣٠، رقم ٢٦٥٠)، وابن ماجه (١/٩١، رقم ٢٤٩)، **وأخرجه أيضًا:** الطبراني في الشاميين (١/٢٢٦، رقم ٤٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٩/٢٥٣).

وجاء عن رسول الله ﷺ: «**لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه**» [(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أكرم الناس جليسي الذي يتخطى الناس حتى يجلس إلي، لو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت» [(٢)].

وفي رواية قال: «إن الذباب ليقع عليه فيؤذيني».

وقال أيوب السجستاني: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله تعالى.

وفي قول الخضر لسيدنا موسى عليه السلام: «**إني على علم من علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه**» دليل على أن موسى علمه الله الشريعة دون الحقيقة.

قال شيخنا جلال الدين السيوطي: إنما جمعت الحقيقة والشريعة لنبينا ﷺ و لم يكن للأنبياء إلا أحدهما بدليل قصة موسى مع الخضر وقوله: «**إني على علم...**» إلى آخره.

قال البلقيني: قول الخضر لموسى: «**إني على علم...**» إلى آخره، ظاهره أنه يمتنع تعليم العلمين معاً وهو مشكل، فإنه لا يمنع جمعها. ثم أجاب بجوابين:

أحدهما: بين فيه وجه امتناع الجمع بين الحقيقة الشريعة فقال: جواب هذا الإشكال: أن علم الحقائق والكشوف ينافي علم الظاهر، فلا ينبغي للعالم الحاكم بالظاهر أن يعلم الحقائق للتنافي، لأنه إذا وجد غلاماً ظاهر الشرع يقتضي امتناع قتله، والحقيقة تقتضي أن يقتل، فلا ينبغي له أن يعلم هذا لما قررناه من التنافي، وأما العالم بالحقيقة فلا ينبغي له أن يعلم العلم الظاهر الذي ليس مكلفاً به، والذي ينافي ما عنده من الحقيقة، فإنه إذا اطلع بمقتضى الحقيقة على أن هذا الغلام يقتل كان منافياً للظاهر الشريعة.

الجواب الثاني: أنه يمكن حمل العلم على تنفيذه أي: العمل به لا على امتناع تعلمه والمعنى: أن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه لتعمل به، ولأن العمل به مناف لمقتضى الشرع، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه فأعمل بمقتضاه لأن مقتضاه منافي لمقتضى الحقيقة، قال: فعلى هذا لا يجوز للولي التابع لرسول الله ﷺ إذا اطلع على حقيقة شيء أن ينفذ ذلك بمقتضى الحقيقة، وإنما عليه تنفيذ الحكم للظاهر، قال: ولا أرى من تعرض لذلك، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الديلمي (١/٧٩، رقم ٢٣٨)، وابن عدي (٤/٣٣٥ ترجمة ١١٦٥ عباد بن كثير الثقفي) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/٨٦، رقم ٩٥٦٩).

المجلس السادس والثلاثون

في الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[الإسراء: ٨٥]

وفيه فوائد كثيرة متعلقة بالروح

قَالَ البُخَارِي:

باب قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[الإسراء: ٨٥]

حَدَّثَنَا قَيْسُ بْنُ حَفْصٍ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ قَالَ حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ سُلَيْمَانُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَرِبِ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ تَسْأَلُوهُ لاَ يَجِيءُ فِيهِ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَنَسْأَلَنَّهُ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، مَا الرُّوحُ فَسَكَتَ. فَقُلْتُ إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ. فَقُمْتُ، فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ، قَالَ ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[الإسراء: ٨٥]. قَالَ الأَعْمَشُ هَكَذَا فِي قِرَاءَتِنَا[1].

يتعلق بهذا الحديث وهذه الآية فوائد كثيرة في الروح وغيره:

الفائدة الأولى: «الروح» تذكر وتؤنث فيقال: روح طيب، وروح طيبة.

الفائدة الثانية: تطلق «الروح» في القرآن وغيره على معان، تطلق ويراد بها: ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة.

وتطلق ويراد بها: ملك له سبعون ألف لسان يسبح الله بها ويقدسه.

وتطلق ويراد بها: ملك رجلاه في الأرض السفلى، ورأسه عند قائمة العرش.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/٢٢٤): قوله: «خرب»: جمع خربة ويقال بالعكس والخرب ضد العامر.

قوله: «عسيب»: أي عصا من جريد النخل.

قوله: «لا تسألوه لا يجيء»: لا تسألوه خشية أن يجيء فيه بشيء.

قوله: «لنسألنه» جواب القسم المحذوف.

قوله: «الروح»: الأكثر على أنهم سألوه عن حقيقة الروح الذي في الحيوان، وقيل: عن جبريل. وقيل: عن عيسى. وقيل: عن القرآن. وقيل: عن خلق عظيم روحاني.

قوله: «هكذا في قراءتنا» أي قراءة الأعمش وليست هذه القراءة في السبعة بل ولا في المشهور من غيرها وقد أغفلها أبو عبيد في كتاب القراءات له من قراءة الأعمش والله أعلم.

وتطلق ويراد بها: خلق كخلق بني آدم له أيد وأرجل.

وتطلق ويراد بها: عيسى عليه السلام.

ونطلق ويراد بها: القرآن.

وتطلق ويراد بها: الوحي.

وتطلق ويراد بها: خلق من خلق الله، لا ينـــزل ملك إلى الأرض إلا نزل معه.

وتطلق ويراد بها: مَلَك عظيم يقوم وحده فيكون صفاً، وتقوم الملائكة صفاً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾[النبأ: ٣٨].

وتطلق ويراد بها الروح التي في الجسد.

فهذه أحد عشر معنى للروح.

والفائدة الثالثة: اختلف العلماء في المراد بالروح المسئول عنها في الآية من هذه المعاني، **فقيل:** عيسى بن مريم، كأنهم سألوه عنه فقال لهم: هو من أمر الله لا كما تقوله النصارى فيه.

وأكثر المفسرين والعلماء على أن الروح المسئول عنها هي: الروح التي في الجسد سألوه عن حقيقتها وكيفية امتزاجها في الجسم فقال لهم في الجواب: «هي من أمر ربي» أي: ما استأثر الله بعلمه، أي: اختص بعلمه و لم يطلع عليها أحد من خلقه.

قال بعضهم: قال أكثر أهل العلم: وليس في الآية دليل على أن الروح أي: روح الجسد لا تعلم، ولا أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يعلمها، ولكن إنما أمره الله تعالى أن يقول لهم: «**هي من أمر ربي**» و لم يعينها لهم لأمرين:

أحدهما: أنه كان عندهم في التوراة أن الروح من أمر الله تعالى، لا يطلع عليها أحداً، فقالت اليهود: نسأله عنها فإن أجاب فليس بنبي، وإن لم يجب فهو صادق، فلما سألوه لم يجبهم بل انتظر حتى نزلت عليه الآية، فأخبرهم أنها من أمر الله، فقالوا: هكذا نجده عندنا.

الأمر الثاني: إنما قال لهم: «**هي من أمر الله**» لأنهم قصدوا تعجيزه وتغليطه، فإن الروح لما كانت مشتركة بين المعاني التي قدمنا ذكرها، قصدوه أن يسألوه فبأي معنى من المعاني أجاب قالوا: ليس هذا، فأمره الله تعالى أن يجيبهم جواباً مجملاً، فإن أمر ربي يصدق على كل واحدة من مسميات الروح.

واعلم أنه قد افترق الناس فيها فرقتين، فرقة أمسكت عن الكلام فيها، لأنها سر من أسرار الله تعالى لم يؤت علمه لبشر، وهذه الطريقة هي المختارة.

قال الجنيد: الروح شيء استاثر الله بعلمه و لم يطلع عليه أحداً من خلقه، فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود.

وعلى هذه الطريقة ابن عباس وأكثر السلف [(١)].

وها هنا سؤال على هذه الطريقة وهو: **فإن قيل**: ما الحكمة في عدم اطلاع عباده على حقيقة الروح؟

جوابه: الحكمة في ذلك إظهار عجز المرء، لأنه إذا لم يعلم بحقيقة نفسه مع القطع بوجوده كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق سبحانه وتعالى من باب أولى قاله القرطبي.

وقال ابن بطال: الحكمة في ذلك تعريف الخلق عجزهم من علم ما لا يدركونه، حتى يضطرهم ذلك إلى رد العلم إليه.

والفرقة الثانية: تكلمت فيها وبحثت عن حقيقتها.

قال النووي: وأصح ما قيل في ذلك قول إمام الحرمين: إنها جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر.

وقال جمهور الأطباء: هو البخار اللطيف الساري في الأبدان.

وقيل: هي بعض الجسم.

وقال أبو الحسن الأشعري: الروح النفس الداخل والخارج. قال ابن الملقن وهذا أشهر الأقوال.

وقيل: الروح الدم.

وقيل: جسم لطيف متصور على صورة الإنسان داخل الإنسان.

قال ابن الملقن: وذكر بعضهم فيها سبعين قولاً.

الفائدة الرابعة: اختلف العلماء هل علم النبي ﷺ الروح وأمره الله أن لا يطلع عليها أحداً، أو ما علمها؟

فقيل: إنه قبض و لم يعلمها.

وقيل: أطلعه الله عليها و لم يأمره أن يطلع عليها أمته، وهذا نظير الخلاف في علم الساعة.

الفائدة الخامسة: وقع الاختلاف في الروح هل هي جسم أو عرض.

---

(١) وهذه الطريقة في الوقوف عند تعريف الروح أن حقيقتها مما استأثر الله بعلمه، قال ابن حجر في الفتح (١/٢٢٤) أنه هو الصحيح.

فذهب كثير من الصوفية كما قاله الزركشي إلى أنها ليست بجسم ولا عرض، بل جوهر مجرد قائم بنفسه غير متحيز، وله تعلق خاص بالبدن للتدبير والتحريك، غير داخل في البدن ولا خارج عنه. وهذا هو رأي الفلاسفة.

وذهب كثير من المتكلمين وأهل المعتزلة إلى أنها عرض وأنه الحياة التي صار البدن بوجودها حياً.

وأكثر المسلمين على أنها جسم كما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، لوصفها في الأحاديث والآيات بالترقي والقبض والإمساك والإرسال والإخراج والخروج والتنعم والتعذيب والتردد في البرزخ، وأنها تأكل وتشرب وتسرح وتنطلق وتعرف، وهذه صفات الأجسام، والعرض لا يتصف بها.

الفائدة السادسة: اختلف العلماء في النفس والروح هل هما شيء واحد أو مختلفان؟

والذي عليه أكثر العلماء: أن الروح والنفس بمعنى واحد، وذهب بعض العلماء إلى أنها غير النفس، وبه قال السهيلي، وفرقوا بينهما بأن النفس طينية نارية، والروح نورية روحانية، وبأن النفس لا تريد إلا الدنيا، والروح تدعو إلى الآخرة.

الفائدة السابعة: اختار ابن عبد السلام أن الروح في القلب، وبه جزم الغزالي في كتابه الانتصار، وقال بعض المتكلمين: الذي يظهر أن الروح بقرب القلب، والذي قاله إمام الحرمين وقال النووي إنه أصح ما قيل: إن الروح في سائر البدن لا في القلب فقط كما قدمنا ذلك.

الفائدة الثامنة: أجمع أهل السنة والجماعة على أن الروح محدثة مخلوقة، و لم يخالف في ذلك إلا الزنادقة، ويدل على حدوثها حديث: «**الأرواح جنود مجندة**» [1] والمجندة

---

(١) بقية الحديث: «... **فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»
أخرجه البخاري (١٢١٣/٣، رقم ٣١٥٨)، وأبو يعلى (٣٤٤/٧، رقم ٤٣٨١)، والقضاعي (١/ ١٨٥، رقم ٢٧٤) عن عائشة.
وأخرجه مسلم (٢٠٣١/٤، رقم ٢٦٣٨)، وأبو داود (٢٦٠/٤، رقم ٤٨٣٤)، وأحمد (٢٩٥/٢، رقم ٧٩٢٢)، وابن حبان (٤٢/١٤، رقم ٦١٦٨) عن أبي هريرة.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٠/١٠، رقم ١٠٥٥٧) عن ابن مسعود. قال الهيثمي (٨٧/٨): رجاله رجال الصحيح.
وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٩٨/١)، والحاكم (٤٦٦/٤، رقم ٨٢٩٦)، وقال: صحيح =

لا تكون إلا مخلوقة.

الفائدة التاسعة: اختلف العلماء في الروح هل خلقت قبل الأجساد أو بعدها؟

فقيل: بعدها واستدل بحديث: «**لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط منه كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة امثال الذر**» [(١)] أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة.

و«**النسمة**»: الروح.

وبحديث: «**إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفي عام، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**» [(٢)].

لكن قال شيخنا الجلال السيوطي سنده ضعيف جداً.

الفائدة العاشرة: ذهب أهل الملل من المسلمين وغيرهم إلى أن الروح تبقى بعد موت البدن، فهي أبدية، وخالف في ذلك الفلاسفة.

وإذا قلنا ببقائها فهل تفنى عند القيامة ثم تعاد توفيه بظاهر قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾[الرحمن: ٢٦] أو لا تفنى؟ حكاهما السبكي في تفسيره المسمي «بالدر النظيم».

وقال: والأقرب منهما أنها لا تفنى، وإنما تكون حينئذ ممن استثنى الله في قوله: ﴿**إِلاَّ مَن شَاءَ**﴾[النمل: ٨٧][(٣)] كما قيل في الحور العين.

وأما قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾[آل عمران ١٨٥] فالمراد بموت النفوس: مفارقتها الأجساد وخروجها منها، لا أنها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً، بل هي باقية بعد مفارقة الأجساد في نعيم أو في عذاب، وحينئذ فلا إشكال على من يقول ببقائها وعدم فنائها.

الفائدة الحادية عشر: فإن قيل: بأي شيء تتمايز الأرواح بعد مفارقة الأشباح

= الإسناد. والطبراني في الكبير (٦/٢٦٣، رقم ٦١٦٩)، وفي الأوسط (٢/١٦٠، رقم ١٥٧٧) عن سلمان.

(١) أخرجه الحاكم (٢/٣٥٥، رقم ٣٢٥٧) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضا: الترمذي (٥/٢٦٧، رقم ٣٠٧٦) وقال: حسن صحيح. وأبو يعلى (١١/٢٦٣، رقم ٦٣٧٧).

(٢) أورده ابن القيم في كتاب الروح من طريق ابن مندة (١/١٦٠) عن عمرو بن عبسة.

(٣) والآية بتمامها تدل على هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[النمل: ٨٧].

حتى تتعارف، وهل تتشكل بشكل؟

فالجواب: أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها، فإنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنـــزل، وتتصل وتنفصل، وتذهب وتجيء، وتتحرك وتسكن، وقد شاهد رسول الله ﷺ أرواح الأنبياء ليلة الأسراء في مثال الأجساد.

وقال جماعة: الأرواح على صورة الخلق لها أيدي وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان.

قال العلامة ابن القيم: بل تمييزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان، فإن الأبدان تشتبه كثيراً، وأما الأرواح فقل ما تشتبه.

قال: وقل أن ترى بدناً قبيحاً وشكلاً شنيعاً إلا وكانت روحه المتعلقة به تشاكله وتناسبه، وقل أن ترى شكلاً حسناً وصورة جميلة وتركيب لطيف إلا وكانت روحه المتعلقة به مناسبة له [(١)].

قال: وإذا كانت الملائكة تتميز من غير أبدان تحملهم، وكذلك الجن فالأرواح البشرية أولى [(٢)].

الفائدة الثانية عشر: وقع في كلام الغزالي في «الدرة الفاخرة» أن روح المؤمن على صورة النحلة، وروح الكافر على صورة الجرادة.

قال شيخنا العلامة جلال الدين السيوطي في كتابه «شرح الصدور»: وهذا شيء لا يعرف له أصل، ولا يُستدل على ما قاله الغزالي بما وقع في حديث الصور من أن إسرافيل يدعو الأرواح فتأتيه جميعاً، أرواح المؤمنين تتوهج نوراً، والأخرى مظلمة فيجمعها جميعاً فيلقيها في الصور ثم ينفخ فيه، فيقول الرب جل جلاله: «وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها» فتخرج الأرواح من الصور مثل النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، فتأتي كل روح إلى جسدها فتدخل تمشي في الأجساد مثل السم في اللديغ [(٣)].

وإنما لم يستدل به: لأن قوله: «**مثل النحل**» ليس المراد به أن الأرواح تخرج من الصور في صورة النحل وهيئتها، بل المراد: أن هيئة خروجها من الصور كهيئة خروج

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (١/٤٠).

(٢) انظر: الروح لابن القيم (١/٤٠).

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه (١/٨٤، رقم ١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٣١٢) عن أبي هريرة.

النحل فالتشبيه راجع إلى هيئة الخروج لا إلى الصورة وهيئتها، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[القمر: ٧].

الفائدة الثالثة عشر: لا تزال الخصومة بين الناس حتى يختصم الروح والجسد يوم القيامة، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت، وأنت كنت، لولاك لم أستطع أعمل شيئاً، ويقول الجسد للروح: أنت أردت، وأنت سولت، ولولاك كنت بمنـــزلة الجذع الملقى لا أحرك يداً ولا رجلاً، فيبعث الله ملكاً يقضي بينهما فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير دخلا بستاناً فقال المقعد للضرير: إني أرى هاهنا ثماراً لكن لا أصل إليها، فقال له الضرير: أركبني فتناولها، فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما فيقول لهما الملك فإنكما قد حكمتهما على أنفسكما، يعني: أن الروح للجسد كالمطية وهو راكبه.

مسألة مهمة: وهي هل الروح أفضل من الجسد أو الجسد أفضل منها؟

فالجواب: أن الإمام الرازي صرح في كتابه «لوامع البينات»: أن الروح أفضل منه في الكلام على مسألة الفكر والذكر أيهما أفضل؟

الفائدة الرابعة عشر: في مستقر الأرواح بعد مفارقة أجسادها.

اعلم أن ابن عبد البر نقل عن جمهور العلماء أن الأرواح تكون عند مفارقة الأجساد على أفنية القبر[1].

---

(١) أورد ابن القيم كلام ابن عبد البر في كتابه الروح (ص ١٠٠) وناقش كلام ابن عبد البر مناقشة بديعة نذكرها إتماماً للفائدة.

قال ابن القيم: وأما قول من قال: الأرواح على أفنية قبورها، فإن أراد أن هذا أمر لازم لها لا تفارق أفنية القبور أبداً فهذا خطأ، ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة، وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتاً، أو لها إشراف على قبورها وهي في مقرها، فهذا حق ولكن لا يقال: مستقرها أفنية القبور وقد ذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم أبو عمر ابن عبد البر قال في كتابه في شرح حديث ابن عمر: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي» وقد استدل به من ذهب إلى ان الأرواح على أفنية القبور وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك من طريق الأثر، ألا ترى أن الأحاديث الدالة على ذلك ثابتة متواترة وكذلك أحاديث السلام على القبور.

قلت: يريد الأحاديث المتواترة مثل حديث ابن عمر هذا، ومثل حديث البراء ابن عازب، وفيه: «هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»، ومثل حديث أنس: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم» وفيه: «أنه يرى مقعده من الجنة والنار، وأنه يفسح للمؤمن في قبره سبعين ذراعاً، ويضيق على الكافر»، ومثل حديث جابر: «إن هذه الأمة تبلى في =

قال شيخ الإسلام ابن حجر وغيره: إن أرواح المؤمنين في عليين، وهو مكان في السماء السابعة تحت العرش وأرواح الكفار في سجين وهو مكان تحت الأرض السابعة، وهو محل إبليس وجنوده.

قال: ولكل روح بجسدها اتصال معنوي لا يشبه الاتصال في الحياة الدنيا، بل أشبه شيء به حال النائم، وإن كان هو أشد من حال النائم اتصالاً، قال: وبهذا يجمع ما ورد أن مقرها في علين أو سجين وبين ما نقله ابن عبد البر عن الجمهور أنها عند أفنية قبورها.

وقال: بعضهم أرواح المؤمنين كلهم في الجنة، الشهداء وغيرهم إذا لم تحبسهم كبيرة.

وعلى هذا القول يسأل ويقال: ما الفرق بين أرواح الشهداء وغيرهم من المؤمنين في الجنة؟

ويجاب: بأن بينهم فرقاً من وجهين:

الأول: أن أرواح الشهداء بذلوا أجسادهم للقتل في سبيل الله، فعوضوا عنها بهذه الأجساد في البرزخ.

والثاني: أنهم يرزقوا من الجنة وغيره لم يثبت في حقه مثل ذلك.

= قبورها، فإذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، أتاه ملك... الحديث، وأنه يرى مقعده من الجنة فيقول: دعوني أبشر أهلي فيقال له: أسكن فهذا مقعدك أبداً»، ومثل سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه ومثل أحاديث السلام على أهل القبور وخطابهم ومعرفتهم بزيارة الأحياء لهم.

وهذا القول ترده السنة الصحيحة والآثار التي لا مدافع لها، وكل ما ذكره من الأدلة فهو يتناول الأرواح التي هي في الجنة بالنص وفي الرفيق الأعلى، وعرض مقعد الميت عليه من الجنة والنار لا يدل على أن الروح في القبر ولا على فنائه دائماً من جميع الوجوه، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه، وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده، فإن الروح شأناً آخر تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام، وهي في الملأ الأعلى، وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محض، بل الروح تكون فوق السموات في أعلى عليين، وترد إلى القبر فترد السلام وتعلم بالمسلم وهي في مكانها هناك، وروح رسول الله ﷺ في الرفيق الأعلى دائماً ويردها الله سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه، وتسمع كلامه، وقد رأى رسول الله ﷺ موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة والسابعة.

قال ابن القيم: والصحيح أن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت بحسب درجاتهم في السعادة والشقاوة.

فمنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى وهم الأنبياء، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

ومنها أرواح في حواصل طير تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم فإن منهم من يحبس عن دخول الجنة لدين أو غيره، ومنهم من يكون على باب الجنة، ومنهم من يكون محبوساً في قبره، ومنهم من يكون محبوساً في الأرض لم تصل روحه إلى الملأ الأعلى[1].

ومنها أرواح تكون في تنور الزناة، وأرواح في نهر الدم.

قال: فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد.

قال: وكلها على اختلاف حالها لها اتصال بأجسادها في قبورها ليحصل له من النعيم أو العذاب ماكتب له، فإن الروح إذا كانت في الرفيق الأعلى فهي متصلة بالبدن أي: نورها مشرق على البدن كاتصال شعاع الشمس بالأرض، بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد عليه السلام وعرفه بذلك الاتصال، وهي في مكانها وقد قال رسول الله ﷺ: «**من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائياً بُلِّغْتُه**»[2].

وأفاد ابن حجر أن الأرواح وإن كانت في عليين فهي مأذون لها في التصرف، ثم تأوي إلى محلها من عليين أو سجين.

قال: وإذا نقل الميت من قبر إلى قبر فالاتصال المذكور مستمر، وكذلك إذا تفرقت أجزاؤه.

وسنذكر في كتاب الجنائز ما يحبس الروح عن مقامها الكريم، وما يمنع الميت من الكلام مع الموتى.

الفائدة الرابعة عشر: أفاد النسفي في كتابه «بحر الكلام في أصول الدين»: أن الأرواح على أربعة أوجه أرواح الأنبياء وتخرج من جسدها وتصير صورتها مثل المسك الكافور، وتكون في الجنة تأكل وتشرب وتتنعم وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش، وأرواح الشهداء تخرج من جسدها وتكون في أجواف طير خضر في الجنة،

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (١/١١٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٢١٨، رقم ١٥٨٣)، والخطيب (٣/٢٩٢) عن أبي هريرة.

تأكل وتتنعم يدل عليه قوله تعالى: ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾[آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش.

وهنا سؤال: وهو أن يقال كيف يجعل أرواح الشهداء في حواصل طير خضر إكراماً لها مع أن ذلك حصر لها وتضيق عليها لا إكرام؟

وأجيب عنه بجوابين:

الأول: أن في قوله: «**في حواصل طير خضر**» بمعنى: على والمعنى: أن أرواحهم في جوف طير خضر كقوله تعالى: ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾[طه: ٧١] وجائز أن يسمى الطير جوفاً إذ هو محيط به ومشتمل عليه.

الثاني: أنه لا مانع من أن يكون في الأجواف حقيقة، ويوسعها الله لها حتى تكون أوسع من الفضاء.

وأرواح المطيعين من المؤمنين برياض الجنة لا تأكل ولا تتمتع، ولكن تنظر في الجنة، وأرواح العصاة من المؤمنين تكون بين السماء والأرض في الهواء، وأما أرواح الكفار فهي في أجواف طير سود في سجين، وسجين تحت الأرض السابعة، وهي متصلة بأجسادها فتعذب أرواحها ويتألم ذلك الجسد، كالشمس في السماء ونورها في الأرض.

الفائدة الخامسة عشر: قال بعضهم: إن ملك الموت إذا نزل على العبد المؤمن لقبض روحه فلو جذبها بألف سلسلة ما خرجت، فيقول الله تعالى: دعها فإنها لا تخرج إلا بسماع يطيب لها، فيناديها: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك، فتخرج بحلاوة الخطاب إلى يوم القيامة، يقول لها: ارجعي أي: إلى جسدك فتفرح بالجسد ويفرح بها فتقول: أنا ما قرَّ لي قرار، ويقول الجسد: أنا اكلني الدود والتراب، فيناديهما مناد: وليس بعد هذا الاجتماع فراق.

قيل: إنه يأتي إلى جسد الميت قبل إعادة الروح إليه ملك فيقول: أبشر كلما أندرست عظامك محيت آثامك، ويؤيده قوله ﷺ: «**الموت كفارة لكل مسلم**» [(١)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٢١/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧١/٧، رقم ٩٨٨٦)، والخطيب (٣٤٧/١)، والقضاعي (١٣٣/١، رقم ١٧١)، والديلمي (٢٣٩/٤، رقم ٦٧١٧) عن أنس.

لطيفة: قال في الروض الفائق: جاء في الأثر: «أن الروح إذا خرج من الجسد ومضى عليه سبعة أيام تقول: يارب ائذن لي حتى انظر إلى جسدي، فيقول: اذهبي فتأتي الروح إلى القبر فتنظر إليه من بعيد فتراه متغيراً، يسيل من منخره ماء، ومن فمه ماء، ومن عينيه ماء، ومن أذنية ماء، فكأنه في وسط الماء، فتقول له: صرت إلى هذا الحال بعد نضارة جسمك، ثم تمضي حتى إذا كان بعد سبعة أيام أخرى، فتقول: يارب ائذن لي أن انظر إلى جسدي ملحة له فيقول: اذهبي فتأتي القبر فتنظر إليه من بعيد فتراه قد تغير وقد صار الماء الذي في فيه صديداً، والذي في عينيه قيحاً، والذي في أنفه دماً، فتقول: هل صرت إلى هذا الحال، ثم يمضي حتى إذا كان بعد سبعة أيام أخرى فتقول يارب ائذن لي حتى انظر إلى جسدي ما حاله؟ فيقول: اذهبي فيأتيه فينظر إليه من بعيد وقد صار الصديد دوداً، وقد سقط حدقتاه على وجهه، والدود يدخل في فمه ويخرج من منخره، فتقول صرت إلى هذا الحال بعد النعيم والدلال.

فانظروا إلى أحوالكم كيف تصيرون بعد الموت، وكيف تطلبون العود، وقد حصل الفوت، وأنتم عما يراد بكم غافلون، وفي بحر الأمل غارقون، أصم في الآذان عن النصائح، عمي في القلوب عن جميع المصالح، تالله ما ينفع المرء في قبره إلا التقى والعمل الصالح، ولله در القائل:

الموت بحر موجه طافح	يجير فيه العائم السابح
يا نفس إني ناصح فاقبلي	مني فإني مشفق صالح
ما ينفع الإنسان في قبره	إلا التقى والعمل الصالح

الفائدة السادسة عشر: قال ابن القيم: للروح خمسة أنواع من التعلق متغايرة، **الأول:** تتعلق بالبدن وهو في بطن الأم.

الثاني: تتعلق به بعد الولادة.

الثالث: تتعلق به في حال النوم، فلها تعلق به من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: في البرزخ، فإنها وإن كانت فارقته بالموت، فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لم يبق لها إليه التفات.

الخامس: تعلقها به يوم البعث، وهو أكمل أنواع التعلقات ولا نسبه لما قبله إليه، ولا يقبل البدن معه موتاً ولا فساداً[1].

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (١/٤٣ - ٤٤).

الفائدة السابعة عشر: هل للشخص روح واحدة أم أكثر؟

قال ابن عبد السلام في كل جسد روحان:

أحدهما: روح اليقظة التي أجرى الله العادة أنها إذا كانت في الجسد كان الإنسان مستيقظاً، فإذا خرجت من الجسد نام الإنسان ورأت تلك الروح المنامات.

والأخرى: روح الحياة التي أجري الله العادة أنها إذا كانت في الجسد كان حياً فإذا فارقته مات، فإذا رجعت إليه حي، قال: وهاتان الروحان في باطن الإنسان لا يعرف مقرهما، إلا من أطلعه الله على ذلك، فهما كجنينين في بطن امرأة واحدة.

وقال ابن القيم: وقالت طائفة: للمؤمن ثلاثة أرواح، وللمنافق والكفار روح واحدة.

وقال بعضهم: للأنبياء والصديقين خمسة أرواح.

ورد هذا ابن القيم وقال: الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة وهي النفس، وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾[المجادلة: ٢٢].

وكذلك الروح التي أيدها الله روح المسيح ابن مريم كما قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾[المائدة: ١١٠].

وكذا الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده غير الروح التي في البدن.

قال: وأما القوى التي في البدن فإنها تسمى أيضاً أرواحاً فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشاهد، فهذه الأرواح قوى موزعة في البدن، وتطلق الروح على أخص من هذا كله، وهي قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته، وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذه إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدها الروح كانت بمنـــزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يؤيدها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس: فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح قصبة فارغة فالعمل روح، وللأجساد روح، وللإخلاص روح، وللمحبة روح، وللتوكل روح، والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب هذه الأرواح عليه فيصير روحانياً، ومنهم من يفقدها، أو أكثرها فيصير أرضياً والله المستعان [1].

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (١/٢١٩ - ٢٢٠).

الفائدة الثامنة عشر: هل النفس واحدة أم أكثر؟

وقع كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن من الناس من يغلب عليه واحدة من الثلاث، واستدل القائل بالثلاث بذكر الله لها في كتابة العزيز بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر: ٢٨].

وقوله: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة ١، ٢].

وقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[يوسف: ٥٣].

قال ابن القيم: والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم.

فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته، والإنابة إليه والتوكل عليه، والرضا به والسكون إليه [(١)].

ولله در القائل فيها:

إلا يا نفس ويحك ساعديني ... بسعي منك في ظلم الليالي
لعلك في القيامة أن تفوزي ... بطيب العيش في تلك العوالي

وتسمى لوامة إما لأنها كثيرة التقلب والتلون، تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة أي: تحب وتكره، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتسخط وتطيع، وتعصي وتتقي، وغير ذلك في كل وقت، وإما لأنها توقع الإنسان في الذنب ثم تلومه عليه، وهذا اللوم لا يكون إلا من السعيد، بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه عن ذنب، بل يلومها وتلومه في فواته.

وقالت طائفة: إن هذا اللوم يقع من النوعين السعيد والشقي، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها، وإما لأن كل واحد يلوم نفسه يوم القيامة إن كان مسيئاً يلوم نفسه على إساءته، وإن كان محسناً يلوم على تقصيره.

قال ابن القيم: وهذه الأقوال والأوجه كلها حق، فإن النفس موصوفة بهذا كله، باعتباره سميت لوامة ملومة، ولوامة غير ملومة، أما اللوامة الملومة: فهي النفس الجاهلة الظالمة التي تلوم صاحبها في تقصيره في معصية الله، أما الغير ملومة: فهي التي تلومه في تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده، فهذه غير ملومة.

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (١/٢٢٠).

وأشرف الأنفس من لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت لوم اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه تخلصت من لوم الله لها [(١)].

والنفس اللوامه بهذا الاعتبار محمودة ولهذا أقسم الله بها في قوله ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[القيامة: ٢].

وتسمى أمارة باعتبار أنها تأمر بكل شيء، فلا يلوح لها طمع إلا تعرضت له، ولا يبدو لها شهوة إلا اتبعتها، فهي مذمومة، فما تخلص أحد من شرها إلا من رحمه الله ووفقه وثبته.

قال تعالى في حقها حاكيا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[يوسف: ٥٣] فما يسلم من شرها إلا من رحمه الله ووفقه وثبته وأعانه.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾[النور: ٢١].

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا.

وكان النبي ﷺ يعلم أصحابه خطبة الحاجة وهي: «**الحمد لله نستعين به، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**» [(٢)].

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي: أما النفس فحسبك ما تشاهد من حالاتها، ورداءة إرادتها، وسوء اختيارها، ففي حال الشهوة بهيمة، وفي حال الغضب سبع، وفي حال المصيبة تراها طفلاً، وفي حال النعمة تراها فرعوناً، وفي حال الجوع تراها مجنوناً، وفي حال الشبع تراها مختلاً، إن أشبعتها بطرت ومرحت، وإن جوعتها صاحت

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (١/٢٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/٢٣٨، رقم ٢١١٨)، والترمذي (٣/٤١٣، رقم ١١٠٥) وقال: حسن. والنسائي (٣/١٠٤، رقم ١٤٠٤)، وابن ماجه (١/٦٠٩، رقم ١٨٩٢)، وأحمد (١/٣٩٢، رقم ٣٧٢٠)، والحاكم (٢/١٩٩، رقم ٢٧٤٤)، والبيهقي (٣/٢١٤ رقم ٥٥٩٤)، والطيالسي (١/٤٥، رقم ٣٣٨)، وعبد الرزاق (٦/١٨٧، رقم ١٠٤٤٩)، وابن أبي شيبة (٤/٣٤، رقم ١٧٥٠٨)، والدارمي (٢/١٩١، رقم ٢٢٠٢)، وابن الجارود (١/١٧٠ رقم ٦٧٩)، وأبو يعلى (٩/١٦٨، رقم ٥٢٥٧)، والطبراني في الكبير (١٠/٩٨، رقم ١٠٠٨٠)، وفي الأوسط (٣/٤٢، رقم ٢٤١٤) عن ابن مسعود.

وجزعت.

كما قال فيها بعضهم:

كحمار السوء إن أقضمته رمح الناس وإن جاع نهق

ولقد صدق بعض الصالحين حيث قال: إن هذه النفس الخبيثة إذا همت بمعصيته أو انبعثت بشهوة، لو تشفعت إليها بالله سبحانه وتعالى، ثم برسوله ﷺ وبجميع أنبيائه عليهم السلام، وبكتابه، وبجميع السلف الصالح من عباده، ويعرض عليها الموت والقبر والقيامة والجنة والنار، لا تعطي القياد ولا تترك الشهوة، نعم إذا استقبلتها بمنع رغيف تسكن وتترك شهوتها، وتعلم حسنتها وجهلها، فإياك أيها الرجل تغفل عنها، فإنها كما قال خالقها العالم بها جل جلاله الأمارة بالسوء، فكفى بقوله لمن غفل، ولقد صدق القائل:

توق نفسك لا تأمن غوائلها فالنفس أخبث من سبعين شيطاناً

فتنبه رحمك الله لهذه الخداعة الأمارة بالسوء، ووطِّن على مخالفتها بكل حال تصب وتسلم إن شاء الله تعالى، فإنه لا يقدر أحد على قهرها إلا بمخالفتها.

لطيفة: عن إبراهيم الخواص ﷺ قال: لقيت غلاماً في التيه كأنه سبيكة فضة قلت: إلى أين يا غلام؟ قال: إلى مكة، قلت: بلا زاد ولا راحلة؟ فقال: يا ضعيف اليقين، الذي يقدر على حفظ السماوات والأرض يقدر أن يوصلني إلى مكة بلا زاد ولا راحلة، فلما دخلت مكة فإذا هو بالطواف يقول: يا نفس سبحي أبداً، ولا تحجي أحداً، إلا الخليل الصمدا، يا نفس موتى كمداً، فلما رآني قال: يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعف من اليقين.

ولقد أحسن من قال:

يا نفس كم بخفي اللطف عاملني وقد رآني على ما ليس يرضاه

يا نفس كم ذلة ذلت بها قدمي وما أقال عثاري ثم إلا هو

يا نفس توبي إلى مولاك واجتهدي عسى تنالي رضاه عند لقياه

إخواني: إذا كان صفاء المواعظ لا يؤثر في قلوبكم الكدرة، ومعاول التخويف لا تقطع في نفوسكم المتجبرة، فهذا كلام ربكم يتلى عليكم في آياية المطهرة ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[الزلزلة ٧، ٨] ويا غافلاً عما نهاه وأمره، يا مضيعاً في البطالة عمره، إلى متى تلهو وذنوبك مكتوبة

متسطرة، كيف حياتك في سفرك وطريقك خطرة، وشاهدت ميزانك الذي يرجح بالذره الحقرة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ ويا غافلاً فالموت يقفو أثره، كيف بك إذا شاهدت السماء منفطرة، وحافظاك قد أحصيا عليك ما عملت من خير وشر وحصره، وقد تركت عليك الحجة وتعذرت المعذرة، فهنا يجد كل إنسان من الإحسان والعصيان ما أحضره ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾.

ولقد أحسن في وعظ النفس من قال:

يا نفس توبي عن فعال منكرة ... واسعي إلى دار البقاء مستبشرة
يا نفس فاز القوم من رب العلا ... بالعفو عن زلاتهم والمغفرة
يا نفس قد قطعوا النهار لربهم ... بصيامهم وقيامهم ما أكثره
يا نفس ويحك للمتاب فبادري ... من قبل تأتيك الذنوب مسطرة
يا نفس إن القوم زادوا خيفة ... من مكروه وقلوبهم متذكرة
يا نفس جدي في التقى وتزودي ... عجلاً وكوني للقاء مستشعرة
يا نفس كم قوم على الدنيا احتووا ... ظلماً ومالهم إذاً من آخرة
يا نفس كم أمم تفانوا في البلى ... وعظامهم ضحت عظاماً ناخرة
يا نفس توبي اليوم من قبل الردى ... فعسى تكوني في غد مستبشرة
يا نفس آه من ذنوب كلها ... يوم القيامة في الكتاب محررة
يا نفس ما ينجيك في يوم اللقاء ... من عظم أهوال الحساب المحضرة
إلا شفاعة أحمد الهادي الذي ... يرجى لديه العفو عند المقدرة
فهو النبي الهاشمي المصطفى ... والمجتبى من خلقه إذ طهره
يا نفس جدي في المسير لقبره ... واسعي إلى أبوابه مستصغرة
وتمتعي بجماله ووصاله ... كيلا تكوني في الورى منحسرة
وإذا وصلت إلى رباه فعظمي ... تلك المواقف ادخلي متوقرة

فعسى تنالي الفوز من رب العلا وتعـــود زلات الذنـــوب مكفرة

وتشـــاهدي ذاك الضـــريح وقد أنـــواره للكائـــنات مـــنورة

هو صفوة الرحمن من كل الورى وبأحســـن الـــتكوين حقاً صوره

صـــلى عـــليه الله ربي دائمـــاً ما أشرقت شمس ولاحت مسفرة

***

المجلس السابع والثلاثون

في بيان فضائل الوضوء

وأركانه وشرائطه

وفي بيان فوائد كثيرة متعلقة بذلك

وأحببت أن أفتحه بخطبة ذكرها الغزالي في أول كتاب أسرار الطهارات من كتابه إحياء علوم الدين وهي:

الحمد لله الذي تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافة، وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وإلطافه، وأعد لظواهرهم تطهيراً لها الماء المخصوص بالرقة واللطافة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المستغرق بنور الهدي أطراف العالم وأكنافه، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين صلاة تحمينا بركاتها يوم المخافة، وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفة [1].

قَالَ البُخَارِي :

كِتَابُ الوُضُوءِ

قال البلقيني: وإنما ذكر البخاري كتاب الوضوء بعد كتاب العلم وقبل كتاب الصلاة، لأن بعد العلم يكون العمل، وأفضل الأعمال البدنية الصلاة، ولا يتوصل إليها إلا بالطهارة.

«الوضوء» بضم الواو اسم للفعل أعني: غسل الوجه واليدين ومسح الرأس وغسل الرجلين، وبفتحها اسم للماء الذي يتوضأ به هذا هو المشهور فيهما، ومثله «الطهور والطهور» سمي هذا الفعل «وضوء» لحصول النظافة والنضارة به، فإنه مشتق من الوضاءة بالمد، وهو النظافة والنضارة، فإذا غسل المتوضئ هذه الأعضاء صار وضيئاً أي: نظيفا ذا ضياء وحسن.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/١٢٥).

باب مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾[المائدة: ٦] (١)

استدل البخاري بهذه الآية على وجوب الوضوء.

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:
الوضوء بالضم هو الفعل، وبالفتح الماء الذي يتوضأ به على المشهور فيهما، وحكي في كل منهما الأمران. وهو مشتق من الوضاءة، وسمي بذلك لأن المصلي يتنظف به فيصير وضيئا.
وأشار بقوله: «ما جاء»: إلى اختلاف السلف في معنى الآية فقال الأكثرون: التقدير إذا قمتم إلى الصلاة محدثين. وقال آخرون: بل الأمر على عمومه من غير تقدير حذف، إلا أنه في حق المحدث على الإيجاب، وفي حق غيره على الندب. وقال بعضهم: كان على الإيجاب ثم نسخ فصار مندوباً. ويدل لهذا ما رواه أحمد وأبو داود أن أسماء بنت زيد بن الخطاب حدثت أبا عبد الله بن عمر عن عبد الله بن حنظلة الأنصاري أن رسول الله ﷺ أمر بالوضوء لكل صلاة طاهرا كان أو غير طاهر، فلما شق عليه وضع عنه الوضوء إلا من حدث. ولمسلم من حديث بريدة: «كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله. فقال: عمدا فعلته» أي لبيان الجواز.
واختلف العلماء أيضا في موجب الوضوء فقيل: يجب بالحدث وجوبا موسعا، وقيل به وبالقيام إلى الصلاة معا ورجحه جماعة من الشافعية، وقيل بالقيام إلى الصلاة حسب، ويدل له ما رواه أصحاب السنن من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة» واستنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾[المائدة: ٦] إيجاب النية في الوضوء لأن التقدير إذا أردتم القيام إلى الصلاة فتوضؤوا لأجلها، ومثله قولهم: إذا رأيت الأمير فقم، أي لأجله. وتمسك بهذه الآية من قال: إن الوضوء أول ما فرض بالمدينة، فأما ما قبل ذلك فنقل ابن عبد البر اتفاق أهل السير على أن غسل الجنابة إنما فرض على النبي ﷺ وهو بمكة كما فرضت الصلاة، وأنه لم يصل قط إلا بوضوء. قال: وهذا مما لا يجهله عالم. وقال الحاكم في المستدرك: وأهل السنة هم حاجة إلى دليل الرد على من زعم أن الوضوء لم يكن قبل نزول آية المائدة. ثم ساق حديث ابن عباس: «دخلت فاطمة على النبي ﷺ وهي تبكي قالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاهدوا ليقتلوك. فقال: ائتوني بوضوء. فتوضأ... الحديث». قلت: وهذا يصلح رداً على من أنكر وجود الوضوء قبل الهجرة، لا على من أنكر وجوبه حينئذ. وقد جزم ابن الجهم المالكي بأنه كان قبل الهجرة مندوبا وجزم ابن حزم بأنه لم يشرع إلا بالمدينة، ورد عليهما بما أخرجه ابن لهيعة في المغازي التي يرويها عن أبي الأسود يتيم عروة عنه أن جبريل علم النبي ﷺ الوضوء عند نزوله عليه بالوحي، وهو مرسل، ووصله أحمد من طريق ابن لهيعة أيضا لكن قال: عن الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد عن أبيه.
وأخرجه ابن ماجه من رواية رشدين بن سعد عن عقيل عن الزهري نحوه، لكن لم يذكر زيد بن حارثة في السند.
وأخرجه الطبراني في الأوسط من طريق الليث عن عقيل موصولا، ولو ثبت لكان على شرط الصحيح، لكن المعروف رواية ابن لهيعة. انظر فتح الباري (١/٢٣٢ - ٢٣٣).

سؤال: فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي أن الوضوء يجب لكل صلاة، سواء كان الإنسان محدثاً أو متوضأ، مع أنه لا يجب عليه إذا كان متوضأ وأراد الصلاة أن يتوضأ؟

فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أنه لابد من تقدير في الآية، وهو أن يقال: إذا قمتم إلى الصلاة محدثين كذا قال الجمهور.

الثاني: لا حاجة إلى التقدير فإن الوضوء كان في أول الإسلام يجب لكل صلاة فرض عملاً بظاهر الآية، ثم نسخ هذا الحكم يوم فتح مكة، حيث صلى رسول الله ﷺ ذلك اليوم الصلوات الخمس بوضوء واحد، فوجوب الوضوء لكل فرض المستفاد من الآية كان في أول الإسلام ثم نسخ، لكن ضعف هذا النووي في شرح مسلم.

الثالث: أن الأمر بوجوب الوضوء لكل صلاة محمول في حق المتوضئ على الندب، وفي حق المحدث على الوجوب، وإن تجديده لكل صلاة مندوب إليه، فالحاصل: أنه يجوز للإنسان أن يصلي الصلوات الخمس وما شاء من الفوائت والنوافل بوضوء واحد، ودليله أن رسول الله ﷺ كان يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد فقال عمر: إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله قال: «**ياعمر فعلته عمداً**» أي: لبيان الجواز رواه مسلم [(١)].

لكن الأفضل والمستحب أن يتوضأ لكل صلاة وإن كان على طهارة.

فقد روى أحمد بإسناد صحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء**» [(٢)].

وروي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات**» [(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢/١، رقم ٢٧٧). وأخرجه أيضا: أبو داود (٤٤/١، رقم ١٧٢)، والترمذي (٨٩/١، رقم ٦١) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٨٦/١، رقم ١٣٣)، والدارمي (١٧٦/١، رقم ٦٥٩)، وابن خزيمة (٩/١، رقم ١٢)، وابن الجارود (١٣/١، رقم ١)، وعبد الرزاق (٥٤/١، رقم ١٥٨)، وأحمد (٣٥١/٥، رقم ٢٣٠٢٣)، وابن حبان (٦٠٧/٤، رقم ١٧٠٨) عن بريدة.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٨/٢، رقم ٧٥٠٤)، قال الهيثمي (٢٢١/١): فيه محمد بن عمر بن علقمة، وهو ثقة حسن الحديث. والنسائي في الكبرى (١٩٧/٢، رقم ٣٠٣٩) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه الترمذي (٨٧/١، رقم ٥٩) وقال: هذا إسناد ضعيف. وأخرجه أيضا: أبو داود (١/ ١٦، رقم ٦٢)، وابن ماجه (١٧٠/١، رقم ٥١٢)، والطحاوي (٤٢/١)، وابن أبي شيبة =

وقال: «**الوضوء على الوضوء نور على نور**» قاله الغزالي قال العراقي في تخريج الأحياء و لم أجد له أصلاً [(١)].

قال العلماء: وإنما يستحب تجديد الوضوء بالأول صلاة ما فرضاً كانت أو نفلاً، وإلا فلا يستحب.

سؤال: فإن قيل: إن هذه الآية مدنية بإجماع العلماء، والوضوء فرضه الله تعالى بمكة مع فرض الصلاة؟

قال ابن عبد البر: معلوم عند جميع أهل المغازي أنه ﷺ لم يصل منذ فرضت عليه الصلاة إلا بوضوء، ولا يدفع ذلك إلا جاهل أو معاند، فكيف استدل البخاري وغيره من العلماء على وجوب الوضوء بهذه الآية وهي مدنية؟

فالجواب: أن هذه الآية من الآيات التي تأخر نزولها عن حكمها.

قال شيخنا العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله: من القرآن ما تأخر حكمه عن نزوله، ومنه ما تأخر نزوله عن حكمه.

يعني: أن النـــزول قد يكون سابقاً على الحكم كقوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾[الأعلى: ١٤، ١٥] فإنها نزلت في زكاة الفطر، وكان نزولها بمكة وزكاة الفطر فرضها الله تعالى في المدينة في السنة الثانية من الهجرة، لأنه لم يكن بمكة عيد ولا زكاة ولا صوم، فقد تأخر الحكم فيها عن النـــزول، وإن الحكم قد يكون سابقاً على النـــزول، ومثل له بآية الوضوء قال: والحكمة في نزول آية الوضوء بالمدينة بعد تقدمة العمل به وفرضه بمكة، ليكون فرضه متلواً في التنـــزيل.

فائدة: اختلف العلماء في الوضوء متى يجب؟

فقيل: يجب بالحدث وجوباً موسعاً.

وقيل: يجب بإرادة القيام إلى الصلاة، والأصح أنه يجب بهما أي: بالحدث وإرادة القيام إلى الصلاة، فعلى هذا لا يجب قبل دخول الوقت لكن يستحب، بل هو أفضل

= (١/١٦، رقم ٥٣)، وعبد بن حميد (ص ٢٧١، رقم /٨٥٩) عن عمر.

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/١٣٥)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/٩٨): لا يحضرني له أصل من حديث النبي ﷺ ولعله من كلام بعض السلف، والله أعلم. وقال ابن حجر في فتح الباري (١/٢٣٤): حديث ضعيف. وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٤٧): ذكره في الإحياء وقال مخرجه العراقي لم أجد له أصلا، وسبقه لذلك المنذري، وقال الحافظ ابن حجر: حديث ضعيف، ورواه رزين في مسنده.

من فعله بعد دخول الوقت، وإن كان فعله بعد دخول الوقت واجباً فهذه سنة أفضل من فرض، وهي أحد المسائل الثلاث التي السنة فيها أفضل من الفرض.

الثانية: ابتداء السلام فإن رده فرض، والابتداء أفضل من الرد.

الثالثة: إبراء المعسر من كل الدين أو بعضه فإنه سنة، وهو أفضل من الصبر عليه إلى ميسرة وهو فرض، وقد ورد في فضل من انظر معسراً وإبراءه من الدين كله أو بعضه عنه ﷺ أنه قال: «**من أنظر معسراً وتواضع له أظلّه الله يوم القيامة تحت ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله**» رواه الترمذي [(١)].

وفي ذلك أيضاً نفع لمن عليه الدين وتنفيس كربه، وقد قال ﷺ: «**من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة**» [(٢)].

وقال: «**الخلق كلهم عيالاً لله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**» [(٣)].

وقال: «**من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين حسنة، واحدة يصلح بها آخرته ودنياه، والباقي في الدرجات**» [(٤)].

وقد نظمها شيخنا العلامة السيوطي فقال:

الفرض أفضل من تطوع عابد ... حتى ولو قد جاء منه بأكثر
إلا التطهر قبل وقت وابتداء ... للسلام كذاك إبراء المعتسر

لطيفة في المعنى: قال في نزهة المجالس: إذا كان يوم القيامة أمر بطبقات المصلين إلى الجنة.

فتأتي أول زمرة وجوهم كالشمس فتقول الملائكة: من أنتم؟ قالوا: نحن المحافظون على الصلاة، قالوا: كيف محافظتكم على الصلاة؟ قالوا: كنا نتوضأ قبل الوقت.

ثم تأتي زمرة أخرى وجوههم كالبدر فتقول الملائكة: من أنتم؟ قالوا: نحن

---

(١) أخرجه الترمذي (٥٩٩/٣، رقم ١٣٠٦) وقال: حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضا: أحمد (٣٥٩/٢، رقم ٨٦٩٦) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن المبارك (٢٣٩/١، رقم ٦٨٥) عن عبيد الله بن زحر عن بعض أصحابه مرسلاً.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٦٥/٦، رقم ٣٣١٥)، قال الهيثمي (١٩١/٨): رواه أبو يعلى والبزار، وفيه يوسف بن عطية الصفار، وهو متروك. والبيهقي شعب الإيمان (٤٣/٦، رقم ٧٤٤٥) عن أنس.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٢٥٥/٧، رقم ٤٢٦٦)، قال الهيثمي (١٩١/٨): رواه أبو يعلى والبزار وفي إسنادهما زياد بن أبي حسان وهو متروك. والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٠/٦، رقم ٧٦٧٠) عن أنس.

المحافظون على الصلاة، قالوا: كيف كانت محافظتكم على الصلاة؟ قالوا: كنا نتوضأ قبل الوقت.

ثم تأتي زمرة أخرى وجوههم كالكوكب فتقول الملائكة: من أنتم؟ قالوا: نحن المحافظون على الصلوات، قالوا: كيف كانت محافظتكم على الصلاة؟ قالوا: كنا نتوضأ بعد الأذان.

فقد تبين لك من هذا أن الوضوء قبل الوقت أفضل، إذ الزمرة التي كانت تتوضأ قبل الوقت جاءت وجوهها كالقمر ليلة البدر، والتي كانت تتوضأ بعد الوقت جاءت وجوهها كالكوكب، ولا شك في تفضيل القمر على سائر الكواكب، فالذي جاء على صورته كذلك، وأفضل من الزمرتين المذكورتين الزمرة الأولى، وهى التي جاءت وجوههم على صورة الشمس، فإن هذه الزمرة كانت تتوضأ قبل الوقت وتذهب إلى المسجد وتنتظر الأذان، فلهذا سبقت الزمر كلها، وجاءت على صورة الكوكب الأعظم وهو الشمس.

لكن لنا وضوء لا يصح إلا بعد دخول الوقت وهو: وضوء صاحب الضرورة كما سنذكره.

واعلم أن الوضوء له فرائض وشرائط وفضائل وسنن وآداب:

أما فرائضه: فقد اختلف أرباب المذاهب:

فعند أبي حنيفة فرائض الوضوء أربعة: غسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح بعض ربع الرأس، وغسل الرجلين مع الكعبين.

وعند إمامنا الشافعي إمام الأئمة -قدس الله سره ونور ضريحه- فرائض الوضوء ستة:

الفرض الأول: النية في الوضوء لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» [(١)].

وعند أبي حنيفة لا تجب النية في الوضوء ولا في الغسل، ويصحان عنده بدونها،

---

(١) أخرجه البخاري (١/٣، رقم ١)، ومسلم (٣/١٥١٥، رقم ١٩٠٧)، والترمذي (٤/١٧٩، رقم ١٦٤٧)، وأبو داود (٢/٢٦٢، رقم ٢٢٠١)، والنسائي (٦/١٥٨، رقم ٣٤٣٧)، وابن ماجه (٢/١٤١٣، رقم ٤٢٢٧)، والحميدي (١/١٦، رقم ٢٨)، وأحمد (١/٢٥، رقم ١٦٨)، والبيهقي (١/٤١، رقم ١٨١)، وابن خزيمة (١/٧٣، رقم ١٤٢)، والدارقطني (١/٥٠)، وأبو عوانة (٤/٤٨٧، رقم ٧٤٣٨)، والبزار (١/٣٨٠، رقم ٢٥٧)، وهناد (٢/٤٤٠، رقم ٨٧١) عن عمر ابن الخطاب.

ويحتاج إلى الجواب عن الحديث.

نعم عند علمائنا الشافعية وضوء وغسل لا يحتاج كل منهما إلى النية وهو وضوء الميت وغسله فإنهما يصحان بلا نية من الغاسل.

بل لنا وضوء آخر مستقل، وغسل آخر مستقل غير وضوء الميت وغسله فيهما النية، بل يصح الوضوء وحده بدونهما، وكذا الغسل وصورته في الوضوء، والغسل من ماء السيل فإن العلماء قالوا: يستحب إذا سال الماء في الوادي أن يغتسل منه وأن يتوضأ، فإن لم يجمعهما وأراد الاقتصار على أحدهما فالاقتصار على الغسل أفضل وبعده الوضوء.

قال الأسنوي: وهل هما عبادتان يشترط فيهما النية أو لا؟ المتجه الثاني أي عدم اشتراط النية فيهما فهذا وضوء لا يجب فيه النية وغسل كذلك، وقد نظمت هذا السؤال فقلت:

يا عالما قد حاز كل الفضل ... بين لنا ما صورة في الغسل
خالية عن نية معتبرة ... في غير غسل ميت مصورة
وفي وضوء مستقل مثله ... فأنت بمن شاع فينا فضله
أبقاك ربي دائماً مفيدا ... مؤيداً على العدا فريدا

ومحل النية: القلب، ويكفي الاقتصار عليه ولو نوى بلسانه وقلبه غافل لا يكفيه ذلك، نعم الأكمل أن ينوي بقلبه ويتلفظ بلسانه، والنية في الوضوء لها ثلاث كيفيات:

الكيفية الأولى: أن يقول المتوضئ: نويت رفع الحدث.

قال فقهاؤنا: ولو كان على الإنسان أحداث كأن بال ولمس ونام ونوى رفع أحديهما بأن قال: نويت رفع حدث النوم مثلاً كفته هذه النية وارتفع حدثه، قال: وإن نوى غير ما عليه كأن نوى رفع حدث النوم مع أنه لم ينم وإنما بال فهل يصح وضوءه بهذه النية وهل يرتفع حدثه؟ فيه تفصيل وهو أن يقال: إن فعل ذلك عمداً لم يصح وضوءه، وإن فعله غلطاً صح.

الكيفية الثانية: أن ينوي استباحة شيء مفتقراً إلى طهر، والشيء المفتقر إلى الطهر الصلاة واستباحة الطواف أو استباحة مس المصحف أو نحو ذلك صح وضوءه.

سؤال: فإن قيل: إذا نوى استباحة شيء مفتقراً إلى طهر، ولكن يتعذر فعله بذلك الوضوء في ذلك الوقت، كمن نوى استباحة الطواف وهو «بحلب» مثلاً، أو استباحة صلاة العيد وهو في «رجب أو شعبان» مثلاً فهل يصح وضوءه أم لا؟

فالجواب: أنه يصح وضوءه بهذه النية، ويصلي بها جميع الصلوات لأنه نوى ما لا يستباح إلا بالوضوء، وإذا قال: نويت استباحة قراءة القرآن، ودخول المسجد لم يصح وضوءه بهذه النية، فإن قراءته للقرآن من غير مس المصحف تباح بدون وضوء، وكذلك دخول المسجد يباح بدون الوضوء، نعم يستحب الوضوء لقراءة القرآن ولداخل المسجد، وسنذكر في المجالس الآتية أن الوضوء يستحب في أكثر من أربعين صورة.

الكيفية الثالثة: أن يقول: إني نويت أداء فرض الوضوء، ويكفي أن يقول: «إني نويت أداء الوضوء» بإسقاط لفظة «الفرض»، ويكفي أن يقول: «نويت فرض الوضوء» بإسقاط لفظه «أداء»، بل يكفي أن يقول: «نويت الوضوء».

سؤال: فإن قيل: كيف يصح الوضوء بقول الإنسان: «نويت فرض الوضوء» إذا توضأ قبل دخول الوقت، مع أن وقت الوضوء قبل دخول الوقت سنة وليس بفرض؟

وسؤال آخر وهو: أن يقال: كيف يصح وضوء الصبي بقوله: «نويت فرض الوضوء» والوضوء في حقه ليس بفرض؟

فالجواب عن السؤالين: أنه ليس المراد بالفرض هنا: لزوم الإتيان به، وإلا لامتنع وضوء الصبي بهذه النية بل المراد كونه شرط للصلاة، وشرط الشيء يسمى فرضاً.

هذه الكيفيات الثلاث هي المشهورة، ولنا كيفية أخرى يصح الوضوء بها وهي أن يقول: «نويت الطهارة عن الحدث»، أو«نويت الطهارة للصلاة».

فإن قال: «نويت الطهارة» ولم يزد على ذلك، **قيل:** لا يصح وضوءه لأن الطهارة تكون عن خبث وعن حدث فلا يحصل التميز بقوله: «نويت الطهارة» إلا إذا قال عن الحدث أو للصلاة، ورجحه صاحب الروض.

وقيل: يصح وهو ظاهر كلام الرافعي وقواه النووي في المجموع.

وهذه الكيفيات يتخير فيها السليم وهو من سلم من سلس البول ونحوه، وأما الضرورة كمن حدثه دائم أي: كمن به سلس البول والمستحاضة فلا يكفيه أن يقول: «نويت رفع الحدث» لأن حدثه لا يرتفع بل يكفيه أن يقول: «نويت استباحة الصلاة» مثلاً، أو يقول: «نويت أداء الوضوء» كما صرح في الحاوي الصغير، وحكمه حكم المتيمم، فإذا نوى استباحة الفرض استباحه واستباح النفل، وإن نوى استباحة النفل استباح النفل فقط ولا يصلي به الفرض.

فائدة: يصح الوضوء والصلاة وغيرهما من العبادات بالنية من غير إضافة إلى الله تعالى، فإن العبادة لله تعالى وإن لم يضفها إليه.

قال العلماء: ويجب أن تكون النية عند أول مغسول من الوجه لتقترن بأول الفرض كنية الصلاة، وإذا نوى عند غسل الوجه و لم ينو قبل ذلك لم يحصل له ثواب السنن السابقة على الصحيح، فينبغي أن ينوي في ابتداء الوضوء عند غسل كفيه ليثاب على السنن السابقة فيقول: «نويت الطهارة للصلاة» فإذا وصل إلى غسل الوجه ينوي رفع الحدث، أو أداء فروض الوضوء، واستباحة الصلاة كما تقدم.

ولو نوى عند المضمضة مثلاً رفع الحدث، فإن استصحب هذه النية إلى غسل الوجه جاز بل هو الأفضل ليثاب، على السنن السابقة، وإن كانت قبل غسل الوجه فلا تكفيه هذه النية، بل لابد من إعادتها عند غسل الوجه، ولا يجب على المتوضئ أن ينوي عند كل عضو، بل تكفي هذه النية عند غسل الوجه عن الكل، نعم لو فرقها على أعضائه جاز، بأن ينوي عند كل عضو رفع الحدث عنه بأن يقول عند غسل الوجه: نويت رفع حدث الوجه، وعند اليدين: نويت رفع حدث اليدين، وهكذا.

الفرض الثاني: غسل الوجه، سمي «وجهاً» لحصول المواجهة به، وله طول وعرض، فحده طولاً من منابت شعر رأسه غالباً إلى منتهي لحييه، وحده عرضاً من الأذن إلى الأذن، وإذا أنبت على جبهته شعر يسمى «الغمم» يجب غسله مع الوجه، كما يجب غسل الحاجب معه، وسمي «حاجباً» لأنه يحجب عن العين شعاع الشمس، ويجب مع غسل الوجه غسل «الهدب» بالدال المهملة وهو: الشعر النابت على جفن العين، وغسل «الشارب» وهو الشعر النابت على الشفة العليا، وسمي شارباً: لملاقاته فم الإنسان عند الشرب، وغسل «العنفقة»: وهو الشعر النابت تحت الشفة السفلى، وغسل «العذار» وهو: ما حاذى الأذن بين الصدع والعارضين.

وغسل هذه الشعور مع بشرتها واجب، سواء أخفت أم كثفت.

وأما «اللحية» فإن كانت خفيفة وجب غسل ظاهرها وباطنها، وإن كانت كثيفة وجب غسل ظاهرها فقط ولا يجب غسل باطنها، لأنه ﷺ غسل وجهه بغرفة واحدة كما رواه البخاري، وكانت لحيته الشريفة كثيفة، وبعضهم عبر: بعظيمة، وبعضهم: بغزيرة.

والكثة: هي التي لا ترى بشرتها في مجلس التخاطب، بخلاف الخفيفة، ولو كان بعض اللحية خفيفاً وبعضها كثيفاً أو تميزا فلكل حكمه، وإن لم يتميزا وجب غسل الكل ظاهراً وباطنا، نعم لنا لحية كثة يجب غسل ظاهرها وباطنها وهي: ما إذا أنبت للمرأة والخنثى المشكل لحية كثة لندرتهما أو ندرة كثافتها، ولأنه يندب للمرأة إزالتها

لأنها مثله في حقها.

فالحاصل: أنه يجب غسل باطن شعور الوجه كما يجب غسل ظاهر باطن اللحية الكثة، إلا إذا كانت من المرأة والخنثى، هذا إذا كانت في حد الوجه، وأما الشعور الخارجة عن حده كشعر اللحية النازل وشعر العذار والسبال فإن كانت كثيفة وجب غسل ظاهرها فقط، وإن كانت خفيفة وجب غسل الظاهر والباطن منها.

أما النـــزعتان وهما بياضان يكتنفا الناصية والصدغين، وهما فوق الأذنين متصلان بالعذرين فليسا من الوجه.

فائدة: لو خلق للإنسان وجهان وجب غسلهما، ولو خلق للإنسان رأسان كفاه المسح على بعض أحديهما، والفرق أن الواجب في الوجه غسل جميعه فيجب غسلهما، لحصول المواجهة بهما، والواجب في الرأس مسح بعض ما يسمى رأساً، وذلك يحصل ببعض أحدهما.

الفرض الثالث: غسل اليدين مع المرفقين.

فائدة: في المرفقين لغتان: أحدهما: كسر الميم وفتح الفاء، والثانية: فتح الميم وكسر الفاء.

سؤال: **فإن قيل**: ما الدليل على وجوب غسل المرفقين مع اليدين؟

فالجواب: الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾[المائدة: ٦] والإجماع، وفعل النبي ﷺ المبين للوضوء المأمور به، فإنه ﷺ توضأ فغسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد، ثم اليسرى حتى أشرع في العضد.

فإن قيل: لا دليل في الآية على وجوب غسل المرفقين مع اليدين، لأن «إلى» لنهاية الغاية، والغاية لا تدخل في المغيا؟

فالجواب: أن اليد حقيقة من رؤوس الأصابع إلى المنكب على الأصح، فإما أن تجعل اليد في الآية مجازاً إلى المرفق، وتدخل الغاية في المغيا هنا بقرينتي الإجماع والاحتياط للعبادة، وإما أن تجعل باقية على حقيقتها إلى المنكب، وتجعل حينئذ غاية الغسل وتدخل الغاية في المغيا أيضاً لما تقدم كما قال بذلك جماعة، أو تجعل «إلى» حينئذ للترك المقدر، وتخرج الغاية حينئذ عن المغيا كما قال به كما قال جماعة أخرى، والمعنى على الأول: اغسلوا أيديكم من رؤوس أصابعها إلى المرافق، وعلى الثاني: اغسلوا أيديكم واتركوا منها إلى المرافق.

وأوضح من هذا الجواب أن يقال: إن «إلى» في الآية بمعنى مع كما في قوله تعالى

﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[آل عمران: ٥٢] أي: مع الله، وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾[النساء: ٢] أي: مع أموالكم.

قال العلماء: فإن قطع شيء من يد الإنسان وجب غسل ما بقي لقوله ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**» [1] وإن قطعت من مرفقه وجب غسل رأس عظم العضد لأنه من المرفق، وإن قطعت من فوق المرفق سقط هذا الفرض، وندب غسل باقي عضده، لئلا يخلو العضو عن طهارة.

سؤال: فإن قيل: من القواعد المشهورة أن التابع يسقط بسقوط المتبوع، كسقوط رواتب الفرائض عن المجنون تبعاً للفرائض، فلأي شيء قالوا هنا يستحب غسل باقي عضده مع سقوط غسل اليد عنه؟

فالجواب: أن سقوط المتبوع عن المجنون رخصة فالتابع أولى به، وسقوطه هنا ليس رخصة بل لتعذره، فحسن الإتيان بالتابع محافظة على العبادة بقدر الإمكان، ولأن التابع للفرائض شرع تكملة لنقصها، فإذا لم يكن متبوع فلا تكملة، وهنا لم يشرع تكملة للمتبوع، لأنه كامل بالمشاهدة، فتعين أن يكون مطلوباً لنفسه.

ويجب غسل اليدين ما عليهما من شعر، وغسل يد زائدة إن نبت بمحل الفرض، وإن نبت بغير محل الفرض غسل ما حاذى منها محل الفرض، لوقوع اسم اليد عليه، ولو خلق له يدان أصليتان أو أحدهما أصلية والأخرى زائدة و لم تتميز وجب غسلهما، أما إذا تميزت الزائدة بفحش قصر ونقص أصابع وضعف بطش ونحوه فلا يجب غسلها إذا كانت في غير محل الفرض.

سؤال: فإن قيل: قالوا في السرقة إذا خلق له يدان أصليتان يقطع إحداهما فقط فلأي شيء قالوا هنا إذا خلق له يدان يجب غسلهما؟

فالجواب: أن الوضوء مبناه على الاحتياط لأنه عبادة، وأما السرقة فإنه حد والحد مبناه على الدرء لأنه عقوبة.

قال الفقهاء: ولو كشطت جلدة العضد ونزلت منه لم يجب غسلها مع غسل اليدين ولا غيره، لأن اسم اليد لا يقع عليها، ولو كشطت جلدة الذراع منه وجب غسلها لأنها من اليد سواء المحاذي وغيره، إلا إذا التصقت بعد كشطها من أحدهما

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٨/٩، رقم ٣٧٠٤)، وابن خزيمة (١٢٩/٤، رقم ٢٥٠٨) عن أبي هريرة.

بالآخر فإنه يجب غسل المحاذي للفرض دون غيره، وإن تجافت بعد أن التصقت عن محل الفرض لزمه غسل ما تحتها أيضاً لندرته، ولو كشطت جلدة أحدهما وانتهى كشطها إلى الآخر ثم تدلت منه، فالاعتبار بما تدلت منه، فإذا بلغ كشطها من العضد إلى الذراع وجب غسلها معه، لأنها صارت جزءاً من محل الفرض، وإذا انتهى كشطها من الذراع إلى العضد فلا يجب، لأنها صارت جزءاً من غير محل الفرض.

الفرض الرابع: بعض الرأس سواء أمسح على بشرته أو على شعره الذي لا يخرج عن حده ولو قدر رأس أبرة، حتى لو أخذ أبرة وغمسها في الماء ووضعها على رأسه كفاه عند علمائنا الشافعية.

أما إذا مسح على الشعر الذي يخرج عن حد الرأس بالمد من جهة سفله فإنه لا يكفي، ولو قطر الماء على رأسه كفى.

قال في الأنوار: ولو قطرت على خمارها ووصلت رطوبتها إلى شعرها حصل الفرض، ولو وقف تحت المطر فنـــزل على رأسه كفى، ولو غسل رأسه بدل مسحه كفاه ولم يكره ولم يستحب، بخلاف ما لو غسل الخف بعد لمسه فإنه يكره، لأنه يعيبه، ولو مسح رأسه ببرد وثلج لا يذوبان كفى لحصول المقصود به، ولو كان عنده ثلج أو برد فذاب فتوضأ به واغتسل كفاه، بل يجب استعماله إن لم يجد غيره، واختلف الروايات عن أبي حنيفة في مسح الرأس، ففي رواية: أنه يجزئ قدر ربع الرأس، وهو الراجح عندهم، وفي رواية أخرى: مقدار الناصية، وفي رواية أخرى: قدر ثلاث أصابع، ومذهب الإمام أحمد والإمام مالك وجوب استيعاب الرأس فلا يجزئ سواه، واكتفى الشافعي بمسح البعض، لأن المفهوم من المسح عند إطلاقه، والله تعالى قال ﴿**وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ**﴾[المائدة: ٦] وأطلق فدل على الاكتفاء بالبعض، وأيضاً الباء إذا دخلت على متعدد كما في الآية تكون للتبعيض، أو على غيره كما في قوله تعالى: ﴿**وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾[الحج: ٢٩] تكون للإلصاق.

سؤال: فإن قيل: لأي شيء وجب تعميم مسح الوجه واليدين في التيمم ولم يجب تعميم الرأس في الوضوء مع أن آية التيمم وهي: ﴿**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**﴾[النساء: ٤٣] كآية مسح الرأس؟

فالجواب: إنما وجب الاستيعاب في التيمم لثبوت ذلك بالسنة، ولأنه بدل عن الوضوء فاعتبر مبدله، ومسح الرأس أصل فاعتبر لفظه.

فإن قيل: لأي شيء لم يجب تعميم مسح الخف بالماء مع أنه بدل عن غسل

الرجلين؟

فالجواب: أن التعميم يفسده، مع أن مسحه مبني على التخفيف لجوازه مع القدرة على الغسل، بخلاف التعميم.

الفرض الخامس: غسل الرجلين مع الكعبين من كل رجل، وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم، ولا يجب غسل الرجلين في حق لابس الخفين عيناً، بل هو مخير بين الغسل وهو أفضل لأصالته، ولمواظبة النبي ﷺ غالباً، وبين المسح، وذهبت الشيعة إلى أن الواجب في الرجلين في الوضوء المسح لا الغسل، واستدلوا على ذلك بقراءة من قرأ ﴿وَأَرْجِلِكُم﴾ بالجر وقالوا إنه معطوف على ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ فوجب فيهما المسح كوجوبه في المعطوف عليه.

واستدل أهل السنة على وجوب غسل الرجلين بقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[المائدة: ٦] على قراءة النصب والجر، أما على قراءة النصب فإنه معطوف على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ لفظاً، وأما قراءة الجر فإنه معطوف أيضاً على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ لمجاورته لرؤوسكم، ويسمى جر الجوار فهو كقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[هود: ٢٦] والأليم صفة للعذاب وإنما جر بالمجاورة، وكقولهم: «حجر ضب خرب» فهو وإن كان مجرور لفظاً فهو منصوب معنى عطفاً على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ والمعطوف على المغسول مغسول، فبطل ما قاله الشيعة من أنه معطوف على الممسوح فوجب مسحه.

الفرض السادس: الترتيب في أفعاله خلافاً لأبي حنيفة دليلنا عليه فعله ﷺ المبين للوضوء المأمور به قال الإمام الرازي: إنما أوجب الشافعي الترتيب في الوضوء لوجوه عديدة مستنبطة من الآية وساقها وذكر منها:

أن الترتيب لو لم يكن واجباً لكان مقتضى البلاغة أن يبدأ الله تعالى في الآية بالرأس ويختم بالرجلين، فلما بدأ بالوجه وختم بهما دل على وجوبه.

وأيضاً: لو لم يكن الترتيب واجباً لكان مقتضى البلاغة أن يميز الممسوح من المغسول فلما ذكر سبحانه ممسوحاً بين مغسولات، وتفريق للتجانس لا ترتكبه العرب إلا لفائدة، وفائدته هنا وجوب الترتيب لا ندبه بقرينة الأمر في قوله: ﴿فَاغْسِلُوا﴾ وإنما بدأ الله دل على وجوبه.

ها هنا فوائد:

الأولى: بين القفَّال في كتابه محاسن الشريعة حكمة ترتيب هذه الأعضاء فقال: قدم الوجه لشرفه ثم اليدين لأنهما بارزتان، ويعمل بهما غالباً بخلاف الرأس والرجلين،

ثم الرأس.

الثانية: قيل الحكمة في وجوب غسل هذه الأعضاء ومسح الرأس: أن آدم مشى إلى الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها برجليه، ونظر إليها بعينه متوجهاً إليها بوجهه وأخذ منها بيديه، ولمس رأسه ورقها.

وكان ابن عباس يقول بوجوب غسل باطن العين في الوضوء والغسل، والصحيح أنه لا يجب غسل باطن العين بل لا يستحب بل يكره.

وقيل: الحكمة في اختصاص هذه الأعضاء أن أكثر معاصي ابن آدم من هذه الأعضاء الأربعة.

الثالثة: لو توضأ الإنسان منكوساً أربع مرات أجزأه لحصول غسل كل عضو في كل مرة.

الرابعة: لو اغتسل محدث بنية رفع الحدث أو نحوه أجزأه عن الوضوء، ولو لم يمكث في الانغماس زمناً يمكن فيه الترتيب، لأن الغسل يكفي للأكبر فالأصغر، ولأن الترتيب يقدر في لحظات.

سؤال: فإن قيل: لو أغفل لمعة من غير أعضاء الوضوء في هذا الغسل هل يكفي هذا الغسل عن وضوءه أم لا؟

قال القاضي حسين: لا يكفي.

ولو اغتسل المتوضئ ونوى رفع الجنابة أو نحوها هل يكفيه عن وضوءه أم لا؟

جوابه: إن نوى ذلك غالطاً ورتب كفاه وإلا فلا.

الخامسة: لنا وضوء صحيح خال عن غسل الرجلين أو عن غسل اليدين، وصورته: ما إذا اغتسل جنب إلا يديه أو إلا رجليه مثلاً، ثم أحدث ثم غسلهما عن الجنابة توضأ، ولا تجب عليه إعادة غسلهما لارتفاع حدثهما بغسلهما عن الجنابة، فهذا وضوء خال عن غسل الرجلين أو اليدين، وهما مكشوفان بلا علة.

وزعم ابن القاضي أنه خال عن الترتيب أيضاً، وغلطه الأصحاب بأنه غير خال عنه بل لم يجب فيه لغسل الرجلين أو اليدين.

السادسة: لنا وضوء خال عن الترتيب، وصورته: ما إذا غسل الجنب بدنه إلا أعضاء الوضوء ثم أحدث لم يجب ترتيبها أفاده القاضي زكريا في شرح الروض.

السابعة: لو نوى بعد الفراغ من الوضوء قطعه لم يبطل، ولو نوى في أثنائه قطعه لم يبطل ما مضى له من الوضوء، ولكن انقطعت نيته فيعيدها للباقي.

الثامنة: إذا بطل وضوءه في أثنائه بحدث أو غيره يثاب على الماضي أم لا؟

قيل: أنه يثاب كما في الصلاة، ويحتمل أن يقال: إن بطل باختباره فلا، أو بغيره فنعم.

قال النووي عن الماوردي: ومن أصحابنا من قال: لا ثواب له بحال، لأنه لا يراد لغيره بخلاف الصلاة.

التاسعة: لو توضأ فقطعت يده أو تثقب لم يجب غسل ما ظهر، لأن ذلك ليس ببدل عما تحته، إلا إذا أحدث بعده ونظيره ما لو حلق رأسه بعد مسحه فإنه لا يعيد المسح.

العاشرة: إذا كان الإنسان متوضئاً أو أراد تجديد الوضوء ماذا ينوي، لا يستقيم أن ينوي رفع الحدث لأن حدثه مرتفع، ولا استباحة الصلاة لأنه مستبيح لها بوضوءه الأول، ولا فرض لأنه ليس بفرض عليه، قال الأسنوي قد يقال: يكتفى بنية الرفع أو الاستباحة كالصلاة المعادة، ثم قال غيره: إن ذلك مشكل خارج عن القواعد، لكن قال ابن العماد: وتخريجه على الصلاة ليس ببعيد، لأن قضيته التجديد أن يعيد الشيء بصفته الأولى، وإلا لم يكن تجديداً.

الحادية عشر: أي عضو من أعضاء الوضوء يجب غسله في بعض الأزمان دون بعض، وليس عليه جبيرة ولا خف وقد نظم هذا السؤال بعضهم فقال:

يا إماماً قد فاق أهل الزمان ... بفنون من العلوم حسان
ما الذي أنت قائل في سؤال ... هو من فنك الكثير المعاني
أي عضو من الوضوء يغسل ... في زمان قد خص دون زمان
لم يكن موضع الجبائر والخف ... ولكنه خفي المكان
فأتنا بالجواب عما سألناك ... سريعاً فيه بغير ثوان

وصورته في موضع اللحية الكثيفة، فإنه قبل نبات الشعر عليه يجب غسله بعد كثافته مع نباته لا يجب غسله، وإذا خف بعد كثافته وجب غسله، وقد أجاب السائل عنه نظماً فقال:

خذ جواباً عما سألت سريعاً ... حسن اللفظ في بديع المعاني
إن هذا المكان يعرف منا ... بمحل اللحى من الأذقان
شعر الوجه إن تكاثف فيه ... لم يجب غسله على الإنسان

وهو قبل الإنبات يغسل أو أخف نبات من فوق هذا المكان
هاك درراً بأعلى الدر في النظم إذا كان من نحور الغوان

وأما شرائط الوضوء: فقد اختلف العلماء في عددها، فمنهم من جعلها عشرة، ومنهم من زاد على ذلك، ومنهم من نقص عن ذلك، ومنهم من وصلها إلى مائة وست وخمسين شرطاً، ثم رد الجميع إلى شرط واحد، وهو لا يقترن بمانع.

قال العلماء: معرفة شروط العبادات واجبة على كل مخاطب، لتوقف العبادات على معرفتها والإتيان بها على الوجه المشروع، إذ لا يغتفر فيها الجهل ولا النسيان، فمن توضأ مع الجهل بكيفية الوضوء لم يصح.

فمن شروط الوضوء: **الإسلام**، فلا يصح وضوء الكافر.

ومنها: **الماء الطهور**، فلا يصح الوضوء بل ولا الغسل ولا إزالة النجاسة بغير الطهور، كالماء المستعمل ولو كان المستعمل له صبياً أو من لا يرى وجوب النية في الوضوء والغسل وهو الحنفي، وإنما يصح بالطهور وهو الماء المطلق، والمطلق ما يقع عليه اسم ماء بلا قيد، أما إذا تقيد الماء كأن تغير لونه أو طعمه أو ريحه بشيء طاهر مخالط تغيراً يمنع إطلاق اسم الماء عليه فإنه لا يصح الوضوء منه، ولا الغسل ولا إزالة النجاسة، كما إذا وقع في الماء زعفران فغير لونه، أو صابون أدخل فغير لونه، أو مسك فغير رائحته، وإنما كان غير طهور لأنه: لا يسمى ماء، ولهذا لو حلف أن لا يشرب الماء فشرب هذا المتغير بطاهر لا يحنث، خلافاً لأبي حنيفة فإنه جوز الوضوء بالماء المتغير بالزعفران أو نحوه.

ولنا شخص توضأ بماء متغير لا يقع عليه اسم الماء، ولا هو باق على أصل خلقته ويصح وضوءه، وصورته: في الماء المتغير بما في مقره أو ممره أو بمجاوره كعود أو دهن أو نحو ذلك.

ومنها: **العلم بأنه طهور**، فإذا لم يعلم من أراد الوضوء من ماء أنه طهور لا يصح الوضوء منه.

ومنها: **التمييز**، فلا يصح وضوء غير المميز كالمجنون والصبي الذي لا يميز.

ولنا شخص غير مميز ويصح وضوءه، وصورته: فيما إذا حج الإنسان ومعه صبي غير مميز أو مجنون فإن الولي يحرم عنه بالحج لينال أجر الحج، وعند الطواف يوضئه وينوي عنه ويصح وضوءه في هذه الصورة.

ومنها: **طهارة المحل عن الخبث إن لم يصلح الغسل لإزالة الحدث**، كالسادسة في

الكلبية، فإذا تنجس وجه الإنسان مثلاً بنجاسة كلبيه فغسله خمس مرات، ثم أراد أن يتوضأ فيشترط لصحة الوضوء أن يغسله مرة أخرى لتصير سادسة، فإن السادسة كالتي قبلها لا تصح لإزالة الحدث، إذ لا يزال الخبث باق اتفاقاً بخلاف السابعة بعد الترتيب فإنها صالحة لإزالتها، أفاد هذا الشرط الجوهري وغيره.

ومنها: **أن لا يكون على أعضاء الوضوء شيء مانع من وصول الماء إليه**، يسمى «بالمانع الحبـــي» كشمع ونحوه، فإذا يجعل الإنسان في شقوق رجليه دهن شمع ووضع على يده أو رجليه حناء أو نحو ذلك وجب عليه في الوضوء أو الغسل إزالة عينه، فإن لم يزله لم يصح وضوءه ولا غسله حتى يغسل ذلك المحل، ويغسل ما بعده في الوضوء، نعم لا يضر بقاء لون الحناء فإنه ليس بحائل، ولو كان على عضوه دهن مائع فجرى عليه الماء فلم يثبت بل قطع صح وضوءه، وأما الوسخ الذي تحت الأظافر فقال جمهور العلماء: إنه مانع من صحة الوضوء والغسل، وقال الإمام حجة الإسلام الغزالي: لا يمنع من صحته لمشقة الاحتراز عنه، وما أحسنها من رخصة فإنه قل من سلم من وسخ تحت أظافره خصوصاً أرباب الصنائع والحرف.

سؤال: فإن قيل: أي شيء على أعضاء الوضوء أو الغسل مانع من وصول الماء إلى ذلك العضو لا يضر.

جوابه: الوسخ الذي نشوءه من البدن، فإذا تجمد من عرق الإنسان وسخ، فإنه ليس بمانع من صحة الوضوء ولا الغسل، وإن منع من وصول الماء إلى العضو، لأنه جزء من البدن، أما إذا تجمد الوسخ من الغبار فإنه يضر، لأنه ليس جزءاً منه.

ومنها: **معرفة كيفيته.**

ومنها: **أنه لا يميز بين فرض الوضوء ونفله**، فمن اعتقد أن جميع أفعال الوضوء سنة لا يصح وضوءه، كما أنه لو اعتقد أن جميع أفعال الصلاة سنة، فإن صلاته لا تصح، ولو اعتقد بعض أفعال الوضوء ولم يميز بين الفرض والسنة لم يصح أيضاً وضوءه، كما لو اعتقد ذلك في الصلاة فإنها لا تصح، وإن كان بعضها سنة.

وغايته: أنه أدى سنة باعتقاد أنها فرض، فإنه لا يصح، كما قال الغزالي: العامي الذي لا يميز فرائض صلاته من سننها تصح صلاته بشرط: أن لا يقصد النفل بما هو فرض، أما لو اعتقد أن جميع أفعال الوضوء فرض فإنه يصح، وإن كان بعضها سنة كما لو اعتقد ذلك في الصلاة فإنها تصح، وإن كان بعضها سنة، وغايته: أنه أدى سنة باعتقاد أنها فرض وذلك لا يضر.

ومنها: **استحباب النية حكماً**، فمن نوى قطع الوضوء في أثنائه بطلب نيته بالنسبة إلى بقية الأعضاء فيجب استئنافها، وأما ما مضى فهو صحيح كما تقدم.

ومنها: **جريان الماء على العضو المغسول**، فلا يكفي إيصال الماء إلى العضو المغسول من غير جريان، فكم من إنسان عند غسل الوجه مثلاً يمسح وجهه بالماء مسحاً من غير أن يسيل عليه الماء، فهذا وضوء باطل، لأن الواجب في الوجه واليدين الغسل لا المسح، ولا يتميز الغسل عن المسح إلا بجريان الماء.

ومنها: **استيعاب العضو المغسول بالغسل**، فلا يكفي غسل بعضه قال ﷺ: «**ويل للأعقاب من النار**» [1].

ومنها: **أن يغسل مع المغسول جزءاً يتصل به من غيره**، فإذا غسل وجهه فلابد أن يغسل شيئاً من الرأس والرقبة ليتيقن أنه استوعبه، وإذا غسل يديه فلابد أن يغسل معهما شيئاً من الساقين لما تقرر في علم الأصول أن ما لا يتم الواجب إلا به، وكان مقدوراً للمكلف فهو واجب.

ومنها: **أن لا يقترن بمانع شرعي**، فمن وضأته امرأة أجنبية وكانت تلمس أعضاءه فإن وضوءه لا يصح عندنا، وكذلك من توضأ وريحه أو بوله خارج منه لاقترانه بمانع شرعي، نعم لنا شخص توضأ وبوله يسيل منه ووضوءه صحيح، وصورته: فيمن به سلس البول مثلاً إذا تعذر عليه حبسه فإن وضوءه صحيح وصلاته أيضاً وإن قطر بوله على الحصير، ويشترط في صحة وضوء صاحب الضرورة أيضاً دخول الوقت، وأن يحشو فرجه بقطنه وغيرها، وأن يقدم الاستنجاء على الوضوء، وأن يتوضأ لكل فريضة، فمن حدثه دائم كمن به سلس البول لا يصح وضوءه إلا بعد دخول الوقت كالمتيمم، ولا يصح وضوءه إلا بعد حشو فرجه والاستنجاء، وإذا توضأ لكل فرض

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣١٦، رقم ١٤٤٣٢)، وابن أبي شيبة (١/٣٢، رقم ٢٦٨) عن جابر.
وأخرجه البخاري (١/٣٣، رقم ٦٠)، ومسلم (١/٢١٤، رقم ٢٤١)، وأبو داود (١/٢٤، رقم ٩٧)، والنسائي (١/٧٧، رقم ١١١)، وابن ماجه (١/١٥٥، رقم ٤٥٥) عن ابن عمرو.
وأخرجه البخاري (١/٧٣، رقم ١٦٣)، ومسلم (١/٢١٤، رقم ٢٤٢)، والترمذي (١/٥٨، رقم ٤١)، وابن ماجه (١/١٥٤، رقم ٤٥٣)، وعبد الرزاق (١/٢٠، رقم ٥٨)، وأحمد (٢/٤٨٢، رقم ١٠٢٥٣)، وابن حبان (٣/٣٦٨، رقم ١٠٨٨) عن أبي هريرة.
وأخرجه مالك (١/١٩، رقم ٣٥)، والشافعي (١/١٧٥)، وعبد الرزاق (١/٢٣، رقم ٦٩)، ومسلم (١/٢١٣، رقم ٢٤٠) وابن ماجه (١/١٥٤، رقم ٤٥١) عن عائشة.

يجب عليه أن يدخل قطنته في إحليله فإن انقطع وإلا عصب مع ذلك رأس الذكر.

فائدة: من به سلس المني يغتسل لكل فرض.

وأما فضائل الوضوء فكثيرة:

منها: أن المتوضئ يحبه الله كما يحب التائب قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[البقرة: ٢٢٢] بالماء من الأحداث والنجاسات.

وقال تعالى: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾[التوبة: ١٠٨].

ومنها: أن النبي ﷺ جعل الطهارة نصف الإيمان أو نصف الصلاة، فقد روينا في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «**الطهور شطر الإيمان**» [(١)].

واختلف بالمراد بالإيمان في هذا الحديث:

فقيل: المراد به الصلاة، فإن الإيمان يطلق عليها قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾[البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس.

وقيل: المراد به معناه الحقيقي وهو المقابل للكفر، وعلى المعنيين فيه دلالة على فضل الوضوء، بل على فضل مطلق الطهارة، أما على الأول فإنها جعلت نصف الصلاة التي هي أفضل العبادات البدنية.

وهنا سؤال وهو: الطهارة بعض شرائط الصلاة، فكيف جعلت نصف الصلاة؟

جوابه: أن الطهارة أقوى شرائط الصلاة فجعلت كأنها الشرط كله، فأطلق عليها الشطر بهذا الاعتبار.

وأما على الثاني فإنها جعلت نصف الإيمان الحقيقي باعتبار أنها طهارة عن الشرك، وأنها طهارة عن الأحداث، فهما طهارتان إحداهما تختص بالباطن، والأخرى بالظاهر، فما أعظمها من فضيلة حيث جعلت نصف الإيمان الذي هو السبب في سعادة الدارين.

---

(١) أخرجه مسلم (١/٢٠٣، رقم ٢٢٣)، والترمذي (٥/٥٣٥، رقم ٣٥١٧) وقال: صحيح. والدارمي (١/١٧٤، رقم ٦٥٣)، وأحمد (٥/٣٤٢، رقم ٢٢٩٥٣)، وأبو عوانة (١/١٨٩، رقم٦٠٠)، والطبراني في الكبير (٣/٢٨٤، رقم ٣٤٢٣)، وابن منده (١/٣٧٤، رقم ٢١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣، رقم ٢٧٠٩) عن أبي مالك الأشعري.

ومنها: أنه مفتاح الصلاة، قال ﷺ: «**مفتاح الصلاة الطهور**» [١].

ومنها: أنه سبب للنظافة التي بُني الدين عليها، قال ﷺ: «**بني الدين على النظافة**» [٢].

ومنها: أنه مكفر للذنوب والخطايا ورفع الدرجات، روينا في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**» [٣].

ومعنى «**إسباغ الوضوء على المكاره**» إتمامه في شدة البرد.

فائدة: ذكر أهل العلم في معنى قوله: «**فذلكم الرباط**» وجهين:

أحدهما: أنه شبه الذي يتوضأ في شدة البرد، ويكثر الذهاب إلى المسجد، وينتظر الصلاة بعد الصلاة في الأجر بالمرابط في سبيل الله قبالة أعدائه.

والثاني: أنه رباط صاحبه عن إثم الخطيئة، فكأنه عقله عنها بفعله.

وروينا في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده، حتى تخرج من تحت أظفاره**» [٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (١/١٦٧ رقم ٦١٨) والترمذي (١/٨، رقم ٣) وقال: هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب. وابن ماجه (١/١٠١ رقم ٢٧٥)، وأبو يعلى (١/٤٥٦، رقم ٦١٦)، والدارقطني (١/٣٦٠)، والضياء (٢/٣٤١، رقم ٧١٨) وقال: إسناده حسن. والشافعي (١/٣٤)، وابن أبي شيبة (١/٢٠٨، رقم ٢٣٧٨)، وأحمد (١/١٢٣، رقم ١٠٠٦) عن علي.
وأخرجه ابن أبي شيبة (١/٢٠٨، رقم ٢٣٨٠)، والحاكم (١/٢٢٣، رقم ٤٥٧) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم. والبيهقي (٢/٨٥، رقم ٢٣٨٦). أخرجه أيضاً: الطبراني في الأوسط (٣/٣٦، رقم ٣٩٠) عن أبي سعيد.

(٢) أورده الرافعي في التدوين (١/١٧٦) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (١/٢١٩، رقم ٢٥١). وأخرجه أيضا: الترمذي (١/٧٢، رقم ٥١)، والنسائي (١/٩٤، رقم ١٣٩)، ومالك (١/١٦١، رقم ٣٨٤)، وعبد الرزاق (١/٥٢٠، رقم ١٩٩٣)، وأحمد (٢/٢٣٥، رقم ٧٢٠٨)، وابن حبان (٣/٣١٣، رقم ١٠٣٨)، وابن خزيمة (١/٦، رقم ٥) عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه مسلم (١/٢١٦، رقم ٢٤٥). وأخرجه أيضاً: أحمد (١/٦٦، رقم ٤٧٦)، والبزار (٢/٨٢، رقم ٤٣٣)، وأبو عوانة (١/١٩٤، رقم ٦١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/١٢، رقم ٢٧٣١) عن عثمان.

وروينا أيضاً في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، ومع آخر قطرة من الماء، فإذا غسل يديه خرجت كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء ومع آخر قطرة من الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ومع آخر قطرة من الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب**»، وأخرجه الترمذي أيضاً وقال: هذا حديث حسن صحيح [١].

رواه النسائي وزاد فيه: «**وإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له**» [٢].

ومنها: كما قاله في نزهة المجالس: إن العبد إذا غسل وجهه صار في الآخرة كوجه يوسف، وإذا غسل يديه أخذ كتابه بيمينه، كما أخذ موسى الألواح بيمينه، وإذا مسح رأسه يوضع عليه تاج العز، كما وضع على رأس سليمان، وإذا غسل رجليه ركب النجائب، كما ركب محمد ﷺ البراق.

ومنها: أنه ينجو من عذاب القبر، ويدل على ذلك الحديث الطويل الذي رواه الطبراني في الكبير والحكيم والترمذي في نوادر الأصول والأصبهاني في الترغيب وهو حديث كثير الفوائد وسنذكره في المجالس الآتية فإنه ذكر فيه أنه ﷺ قال: «**رأيت رجلاً من أمتي قد سلط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوءه فاستنقذه منه**» [٣].

فائدة: إذا أراد العبد العاصي أن يتوب إلى الله تعالى فينبغي له أن يتوضأ قبلها، ويأتي بأركان التوبة، ويصلي ركعتين، فقد نص علماؤنا الشافعية على استحباب ركعتين عند التوبة لخبر رواه الترمذي وحسنه: «**ليس عبد يذنب ذنباً فيقوم فيتوضأ**

---

(١) أخرجه مسلم (١/٢١٥، رقم ٢٤٤)، والترمذي (١/٦، رقم ٢) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضاً: مالك (١/٣٢، رقم ٦١)، والدارمي (١/١٩٧، رقم ٧١٨)، وابن خزيمة (١/٥، رقم ٤)، وأبو عوانة (١/٢٠٧، رقم ٦٦٩)، والبيهقي (١/٨١، رقم ٣٨٦)، وابن حبان (٣/٣١٥، رقم ١٠٤٠) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه النسائي (١/٧٤، رقم ١٠٣) عن عبد الله الصنابحي.

(٣) أورده الحكيم (٣/٢٣١)، وأخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٧/١٨٠) قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما سليمان بن أحمد الواسطي وفي الآخر خالد بن عبد الرحمن المخزومي وكلاهما ضعيف. كلاهما عن عبد الرحمن بن سمرة

يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له» [1] ثم فراغه يتوسل إلى الله في قبول توبته، فقد قيل: إن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يتوب على آدم، أمره جبريل أن يتوضأ ويتوسل إلى الله تعالى.

كما نقل عن ابن عباس أنه قال: «لما أصاب آدم الزلة أهبط على الأرض إلى جبل «سرنديب» وهو يبكي، فلما طال بكاؤه هبط إليه جبريل فقال: يا آدم لِمَ هذا البكاء ألم تعلم أن الله تعالى جعل الماء طهوراً، والإيمان نوراً؟ فقال: نعم، قال: قم واغسل الأعضاء التي قصدت بها الزلة، وتوجه إليه، وتوكل عليه، فقام آدم وتوضأ وصلى وجعل يقول: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فتقبل منه وغفر له».

وقيل: إن آدم في مدة بكائه كان واضعاً وجهه على الأرض لله وهو يبكي حتى نبت العشب حول وجهه من دموعه وغطى رأسه، وكلما ذكر زلته يتأوه ويصيح فيخرج من فمه نفس يُسوِّد العشب، فلما أراد أن يتوب عليه ناداه يا آدم يا صفوتي فلم يجب ربه، فناداه ثانيا فلم يجبه، فناداه ثالثاً فلم يجبه، فارتعدت الملائكة من الخوف وقالوا: أهلكنا فإن آدم لم يجب ربه، فنـــزل جبريل وقال: يا آدم ألم تسمع نداء ربك؟ قال آدم: نعم أسمع نداءه وهو يقول: يا صفوتي، فكيف أكون صفياً وأنا قد عصيت، وظننت أنه خلق غيري وهو يناديه، فإن كان النداء لي فلبيك اللهم لبيك، فنودي وهو على تلك الحال: يا آدم ما كنت تقول في قلبك قبل ندائي لك وأنا علام الغيوب؟ قال: يارب كنت أقول: ومن يغفر الذنوب إلا الله، وكلما تذكرت ذنبي انكسر قلبي، فقال الله تعالى: يا آدم ألم تعلم أني عند المنكسرين من أجلي إذا لم يقطع عبدي الرجاء.

في صحيح مسلم في حديث مطول عنه ﷺ أنه قال: «**ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلا خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢/٢٥٧، رقم ٤٠٦) وقال: حسن. وأخرجه أيضا: أبو داود (٢/٨٦، رقم ١٥٢١)، ووالنسائي في الكبرى (٦/١٠٩، رقم ١٠٢٤٧)، وابن ماجه (١/٤٤٦، رقم ١٣٩٥)، وابن حبان (٢/٣٨٩، رقم ٦٢٣)، وأبو يعلى (١/٢٥، رقم ١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٠١، رقم ٧٠٧٧)، والضياء في الأحاديث المختارة (١/٨٢، رقم ٧) وقال: إسناده صحيح. والطيالسي (١/٢، رقم ١)، وابن أبي شيبة (٢/١٥٩، رقم ٧٦٤٢)، وأحمد (١/٢، رقم ٢)، والحميدي (١/٤، رقم ٤) عن أبي بكر.

غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذي هو له أهل وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه» (١).

وقال الغزالي في الإحياء قال النبي ﷺ: **«إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض خرجت الخطايا من فمه، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه، حتى تخرج من أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من أظفار يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفاره، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له»** (٢).

ويروى: **«إن الطاهر كالصائم»** (٣).

وقال عمر ﷺ: **«إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان»** (٤).

***

---

(١) أخرجه مسلم (٥٦٩/١، رقم ٨٣٢). وأخرجه أيضاً: أحمد (١١٢/٤، رقم ١٧٠٦٠)، والبيهقي (٨١/١، رقم ٣٨٧)، وأبو عوانة (٢٠٦/١، رقم ٦٦٨)، وابن سعد (٢١٧/٤) عن عمرو بن عبسة.

(٢) أخرجه النسائي (٧٤/١، رقم ١٠٣)، وابن ماجه (١٠٣/١، رقم ٢٨٢)، ومالك (٣١/١، رقم ٦٠)، وأحمد (٣٤٩/٤، رقم ١٩٠٩١)، والحاكم (٢٢٠/١، رقم ٤٤٦) وقال: صحيح. والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/٣، رقم ٢٧٣٤) عن عبد الله الصنابحي.

(٣) أخرجه الديلمي (٤٦٣/٢، رقم ٣٩٨١) عن عمرو بن حريث. قال المناوي (٢٨٩/٤): قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (١٣٥/١ - ١٣٦).

المجلس الثامن والثلاثون

في بيان أسباب الحدث

قَالَ البُخَارِي :

بَابُ لاَ يَقْبَلُ اللهُ صَلاَةً بِغَيْرِ طَهُورٍ

هذه الترجمة هي لفظ حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه من طريق ابن عمر بزيادة: «**ولا صدقة من غلول**» (١) والغلول: الخيانة في المغنم.

حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ تُقْبَلُ صَلاَةُ مَنْ أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ**». قَالَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ مَا الْحَدَثُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ فُسَاءٌ أَوْ ضُرَاطٌ (٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١/٢٠٤، رقم ٢٢٤). وأخرجه أيضاً: الطيالسي (ص: ٢٥٥، رقم ١٨٧٤)، وأحمد (٢/١٩، رقم ٤٧٠٠)، وابن الجارود (١/٢٨، رقم ٦٥)، وابن خزيمة (١/٨، رقم ٨)، وأبو عوانة (١/١٩٨، رقم ٦٣٥)، والبيهقي (٢/٢٥٥، رقم ٣١٩٦).

(٢) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: « لا تقبل » المراد بالقبول هنا ما يرادف الصحة وهو الإجزاء، وحقيقة القبول ثمرة وقوع الطاعة مجزئة رافعة لما في الذمة. ولما كان الإتيان بشروطها مظنة الإجزاء الذي القبول ثمرته عبر عنه بالقبول مجازا، وأما القبول المنفي في مثل قوله ﷺ: « من أتى عرافاً لم تقبل له صلاة » فهو الحقيقي، لأنه قد يصح العمل ويتخلف القبول لمانع، ولهذا كان بعض السلف يقول: لأن تقبل لي صلاة واحدة أحب إلى من جميع الدنيا، قاله ابن عمر. قال: لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧].

قوله: « أحدث »: أي وجد منه الحدث، والمراد به الخارج من أحد السبيلين، وإنما فسره أبو هريرة بأخص من ذلك تنبيها بالأخف على الأغلظ، ولأنهما قد يقعان في أثناء الصلاة أكثر من غيرهما، وأما باقي الأحداث المختلف فيها بين العلماء - كمس الذكر ولمس المرأة والقيء ملء الفم والحجامة - فلعل أبا هريرة كان لا يرى النقض بشيء منها. وقيل إن أبا هريرة اقتصر في الجواب على ما ذكر لعلمه أن السائل كان يعلم ما عدا ذلك، وفيه بعد.

واستدل بالحديث على بطلان الصلاة بالحدث سواء كان خروجه اختياريا أم اضطراريا، وعلى أن الوضوء لا يجب لكل صلاة لأن القبول انتفى إلى غاية الوضوء، وما بعدها مخالف لما قبلها فاقتضى ذلك قبول الصلاة بعد الوضوء مطلقاً.

قوله: « يتوضأ »: أي بالماء أو ما يقوم مقامه، وقد روى النسائي بإسناد قوي عن أبي ذر =

هذا الرجل الذي سأل أبا هريرة لا يعرف اسمه، وجاء أنه أعرابي.

قوله: «**لا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ**» القبول يطلق شرعاً ويراد به حصول الثواب، ولا يلزم في بقية نفي الصحة، بل نفي الثواب مع حصول الصحة، بدليل صحة صلاة العبد الآبق وصلاة شارب الخمر إذا لم يسكر ما دام في جسده شيء منها، والصلاة في الدار المغصوبة عند الشافعية، فلا ثواب لواحد منهم.

ويطلق ويراد به وقوع الفعل صحيحاً، وحينئذ يلزم من نفيه نفي الصحة، وهذا المعنى هو المراد هنا بقرينة الإجماع، فمعنى الحديث: لا تصح صلاة من أحدث حتى يتوضأ، وإذا لم يكن صحيحه فلا ثواب لها.

سؤال: فإن قيل: تقبل الصلاة وتصح بالتيمم أيضاً فكيف قال: لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ فقط؟

فالجواب: أن المراد حتى يتوضأ أو ما يقوم مقامه كالتيمم، واقتصر على الوضوء لأنه الأصل، والوضوء يطلق على التيمم بدليل أن النبي ﷺ قال: «**الصعيد الطيب وضوء المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين**» [(١)].

فقوله: «**حتى يتوضأ**» أي: بالماء والتراب.

والحدث ينقسم إلى حدث أصغر وهو ما أوجب الوضوء، وإلى أكبر وهو ما أوجب الغسل كالجنابة ونحوها.

وقال بعض العلماء: الحدث ينقسم إلى حدث أصغر وكبير وأكبر، فالأصغر: ما أوجب الوضوء، والكبير ما أوجب الغسل كالجنابة والجماع، والأكبر ما أوجبه لحيض ونفاس.

والمراد «بالحدث» في الحديث أي: الخارج من أحد السبيلين فيمنع من صحة الصلاة، وله أربعة أسباب.

= مرفوعاً « الصعيد الطيب وضوء المسلم » فأطلق الشارع على التيمم أنه وضوء لكونه قام مقامه، ولا يخفى أن المراد بقبول صلاة من كان محدثاً فتوضأ أي: مع باقي شروط الصلاة. والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٢٣٥).

(١) أخرجه الترمذي (١/٢١١، رقم ١٢٤) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١/١٧١، رقم ٣٢٢)، وابن حبان (٤/١٤٠، رقم ١٣١٣)، والدارقطني (١/١٨٦)، والبيهقي (١/٢١٢، رقم ٩٦٢)، وعبد الرزاق (١/٢٣٨، رقم ٩١٣)، وأحمد (٥/١٥٥، رقم ٢١٤٠٨)، والحاكم (١/ ٢٨٤، رقم ٦٢٧) وقال: صحيح. جميعا عن أبي ذر.

فإن قيل: لأي شيء اقتصر أبو هريرة حين سأله الرجل عن الحدث على بعض الأسباب وقال له في الجواب: «**فساء أو ضراط**» مع أن الحدث يحصل بغيرها كما ستسمعه؟

فالجواب: أن أبا هريرة إنما اقتصر على ذلك لأنه الذي كان يجهله هذا الرجل الأسباب فعلمه ما يجهله منها أو أنه أجابه عما يحتاج إلى معرفته في غالب الأمر، أو أنه عما يقع من الأسباب في الصلاة غالباً، ولم يذكر غيرها كالبول مثلاً لأنه لا يعهد وقوعه فيها، بدليل قوله في الحديث الآخر الآتي: لما سئل عن الرجل الذي يخيل إليه أنه يجد الشيء أي الحركة التي يظن بها أنها حدث، فقال رسول الله ﷺ: «**لا ينفتل ولا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً**» [1] أي لا يخرج من صلاته حتى يعلم وجود أحدهما يقيناً بالسماع وبالشم.

والانفتال: بمعنى الانصراف.

وقوله: «**لا ينفتل**» بالرفع على أنه نفي، وبالجزم على أنه نهي.

«**أو لا ينصرف**» شك من الراوي وهو عبد الله بن زيد بن عاصم المازني.

السبب الأول [2]: خروج شيء من قبله أو دبره ولا فرق بين أن يكون صوتاً أو ريحاً، ولا فرق بين الرجل والمرأة في ذلك، ولا فرق بين أن يكون الخارج طاهراً كالحصاة أو نجساً، ولا بين أن يكون معتاداً كالبول والغائط، أو نادراً كالدم، ولا فرق في الخارج من قبل المرأة بين أن يكون من مخرج أو من غيره كمدخل الذكر، ولو أخرجت دودة رأسها من فرجها ثم رجعت انتقض الوضوء، ودبر الخنثى المشكل ينتقض الخارج منه كغيره والخارج من قبليه جميعاً، أما الخارج من أحدهما فإنه لا ينتقض.

ومن خلق له ذكران فإن كان يبول منهما انتقض الوضوء بالخارج من أحدهما، وإن كان يبول من أحدهما فالحكم له أي: ينقض الخارج منه فقط، والآخر زائد لا يتعلق به نقض قاله الأسنوي وغيره.

---

(١) أخرجه البخاري (١/٧٧، رقم ١٧٥)، ومسلم (١/٢٧٦، رقم ٣٦١)، وأبو داود (١/٤٥ رقم ١٧٦)، والنسائي (١/٩٨ رقم ١٦٠)، وابن ماجه (١/١٧١، رقم ٥١٣)، وأحمد (٤/٤٠، رقم ١٦٤٩٧)، وابن خزيمة (١/١٧، رقم ٢٥)، والحميدي (١/٢٠١، رقم ٤١٣)، وأبو عوانة (١/٢٠١، رقم ٦٥٠).

(٢) أي من أسباب الحدث أو خروج شيء من أحد السبيلين وقد مر أنها أربعة أسباب.

قال القاضي زكريا: الحكم في الحقيقة منوط بالأصالة لا البول، حتى لو كانا أصليين ويبول بأحدهما ويطأ بالآخر نقض كل منهما، أو كان أحدهما أصلياً والآخر زائداً نقض الأصلي فقط وإن كان يبول بهما، إلا إذا كان الزائد على سنن[1] الأصلي فإن الوضوء ينتقض بالبول منه، قال: وإن التبس الأصلي بالزائد فالظاهر أن النقض منوط بهما معاً لا بأحدهما.

ولو خلق للمرأة فرجان فبالت وحاضت بهما انتقض الوضوء بالخارج من كل منهما فإن بالت وحاضت بأحدهما اختص الحكم به، ولو بالت بأحدهما وحاضت بالآخر فالوجه تعلق الحكم بكل منهما.

ويستثنى من الخارج «المني» فإنه لا ينقض الوضوء ولكن يوجب الغسل، ويتصور خروجه من غير جماع بما إذ نام وهو قاعد على وضوء ممكن مقعده من الأرض، أو نزل بفكر أو نظر، وإنما لم ينقض لأنه أوجب أعظم الأمرين وهو الغسل بخصوصه أي: بخصوص كونه منياً.

ولنا مني ينقض الوضوء ولا يوجب الغسل، وصورته: فيما إذا استدخلت المرأة منيها أو مني غيرها بعد انفصاله، ثم توضأت ثم خرج منها فإنه ينقض وضوءها ولا يوجب الغسل.

سؤال: فإن قيل: لأي شيء نقض الحيض الوضوء، مع أنه أوجب أعظم الأمرين بخصوصه، فما الفرق بينه وبين المني؟

جوابه: أنهم فرقوا بينهما من وجوه:

الأول: أن الحيض مانع من صحة الوضوء في الاستدامة، فلا يبقى معه في الابتداء بخلاف الجنابة فإنها لا تمنع صحة الوضوء في الاستدامة، ولا يمتنع بقائه في الابتداء.

الثاني: أن المني خارج طاهر ودم الحيض خارج نجس، فلا يصح إيراده نقضاً لعدم المساواة وقيام الفرق.

الثالث: أن الحيض وخروج المني يختلف أحكامها في التغليظ والتخفيف، فلا يلزم من كون الحيض ناقضاً أن يكون المني ناقضاً قياساً عليه، لأن حدث الحيض استغلظ من حدث الجنابة، لأنه يحرم به أشياء لا تحرم بالمني، وقد ذكر علماء الأصول: أن شرط القياس أن لا يختلف المقيس والمقيس عليه في التغليظ والتخفيف، وحينئذ فلا يرد

---

(١) هكذا بالأصل ومعناه: على صفته من حيث إنه يؤدي به ما يؤديه الأصلي.

السؤال لعدم المساواة بينهما في العلة.

قال العلماء: ولو انسد مخرج الإنسان وانفتح له مخرج بدله تحت معدته أي: تحت سرته، فخرج منه شيء انتقض وضوءه، إذ لابد للإنسان من مخرج فأقيم هذا مقامه، أما إذا انفتح له مخرج تحت المعدة، والأصلي منفتح أو فوقها أي: فوق المعدة، بأن انفتح في السرة فما فوقها، والأصلي من محاذيها يشبه القيء، والقيء لا ينقض، وما انفتح تحت المعدة والأصلي منفتح لا ضرورة إلى جعله مخرجاً مع انفتاح الأصلي، هذا إذا طرأ الانسداد على الأصلي، أما لو خلق الإنسان منسداً ففي أي: موضع انفتح له مخرج ينقض الخارج منه سواء فوق المعدة أو تحتها.

فائدة: حيث جعلنا الأصلي المنفتح كالأصلي في النقض بخروج الخارج منه فلا نجعله مثله في أجزاء الحجر فيه عند الاستنجاء، ولا في نقض الوضوء بمسه، ولا في وجوب الغسل وغيره من أحكام الوطئ بالإيلاج فيه، ولا في حرمة النظر إليه حيث كان فوق العورة، وأما الأصلي فأحكامه باقية إذا طرأ عليه الانسداد، أما إذا كان منسداً أصالة كعضو زائد من الخنثى لا يجب بمسه وضوءه إلا بإيلاجه والإيلاج فيه غسل.

السبب الثاني: زوال العقل وزوال التمييز بجنون أو إغماء أو سكر أو نوم أو غير ذلك، فإذا نام المتوضئ أو جن أو أغمي عليه أو سكر أو نحو ذلك انتقض وضوءه، وإنما انتقض الوضوء بالنوم لقوله ﷺ: «**العينان وكاء السَّه فمن نام فليتوضأ**» [1] رواه أبو داود وابن السكن في صحاحه.

كنى ﷺ «بالعينين» عن اليقظة.

«الوكاء» بكسر الواو بالمد الخيط الذي يربط به الشيء، والمراد الحفاظ.

«والسه»: الدبر.

والمعنى: أن اليقظة هي الحافظة لما يخرج، والنائم قد يخرج منه الشيء ولا يشعر، وإذا ثبت النقض بالنوم ثبت بالجنون والاغماء والسكر ونحوها، لأنها أبلغ منه في الذهول الذي هو مظنة لخروج شيء من دبره، لأن النوم يستر العقل، والجنون يزيله، والإغماء يغمره، ولا ينقض النعاس المسمى «بالسنة»، ولا حديث النفس، ولا أوائل

---

(١) أخرجه أبو داود (١/٥٢، رقم ٢٠٣). وأخرجه أيضاً: أحمد (١/١١١، رقم ٨٨٧)، وابن ماجه (١/١٦١، رقم ٤٧٧)، والدارقطني (١/١٦١)، والبيهقي (١/١١٨، رقم ٥٧٥)، والضياء (٢/٢٥٥، رقم ٦٣٢) عن علي.

نشوة السكر، لعدم زوال الشعور.

ويحصل الفرق بين النوم والنعاس بسماع كلام الحاضرين، وإن لم يفهمه وبالرؤيا، فإن سمع كلام الحاضرين وإن لم يفهمه فذلك نعاس لا ينقض، وإن رأى رؤيا ذلك نوم ناقض، ولو شك هل نام أو نعس لم ينتقض وضوءه.

وللنوم أربع علامات سنذكرها في محلها إن شاء الله تعالى.

ويستثنى ما إذا نام ممكناً مقعده من مقره فإن وضوءه لا ينتقض ولو كان مستنداً إلى شيء لو أزيل عنه لسقط، وكذا لو نام محتبياً أي: جالساً على إليته رافعاً ركبتيه محتوياً عليهما بيديه أو غيرهما.

والذي يدل على أن من نام قاعداً ممكناً مقعده من مقره لا ينتقض وضوءه ما ورد في صحيح مسلم عن أنس: «**أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا ينامون، ثم يصلون ولا يتوضؤون**» (١).

وهو محمول على أنهم كانوا ينامون ممكنين مقعدهم من مقرهم، جمعاً بينه وبين ما رواه أبو داود والترمذي أنه ﷺ قال: «**لا وضوء على من نام قاعداً إنما الوضوء على من نام مضطجعاً**» (٢) فإن من نام مضطجعاً استرخت مفاصله.

سؤال: فإن قيل: يحتمل أن يخرج ممن نام ممكنا مقعده من الأرض من مقره الريح من قبله، فلم قلتم لا ينتقض وضوءه مطلقاً؟

فالجواب: أن خروج الريح من القبل نادر فلم يرتفع به أصل الطهارة، نعم يستحب لمن نام قاعداً ممكناً مقعده أن يتوضأ للخروج من الخلاف قاله في الروضة.

قال العلماء: وإذا نام ممكناً مقعده من الأرض فمال في نومه حتى زالت إحدى إليتيه عن الأرض هل ينتقض وضوءه أم لا؟

فيه تفصيل وهو أن يقال: إن زالت قبل انتباهه انتقض، وإن لم تقع يده على الأرض لمضي لحظه وهو نائم غير ممكن، وإن زالت مع انتباهه أو بعد أو شك هل زالت قبل انتباهه أو بعده فلا ينتقض وضوءه، لأن الأصل بقاء الطهارة، ولو تيقن النوم وشك هل كان ممكن أم لا؟ يجب عليه الوضوء، ولو نام على قفاه ملصقاً مقعده من

---

(١) أخرجه مسلم (١/٢٨٤، رقم ٣٧٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١/٥٢، رقم ٢٠٢) وقال: منكر. والترمذي (١/١١١، رقم ٧٧). وأخرجه أيضاً: الطبراني (١٢/١٥٧، رقم ١٢٧٤٨)، والبيهقي (١/١٢١، رقم ٥٩٢) عن ابن عباس.

الأرض انتقض وضوءه، لأنه غير ممكن مقعده منها، نعم لنا شخص نام قاعداً ممكناً مقعده من الأرض وانتقض وضوءه، ولنا آخر نام على جنبيه أو قفاه و لم ينتقض وضوءه، أما الأول فهو الهزيل النحيف فإنه وإن اجتهد في مقعده من مقره لابد وأن يبقى بينهما بعض تجاف يخرج منه شيء من دبره هكذا قاله المارودي وأقره الرافعي، وقال الأذرعي: إنه الحق، لكن قال النووي في الروضة وغيرها: أنه لا ينتقض. وقال ابن الرفعة: إنه المذهب.

وأما الثاني فهو النبي ﷺ.

السبب الثالث من أسباب الحدث: التقاء بشرتي الرجل والمراة، فإذا وقعت ملامسة بين الرجل والمراة انتقض وضوء الملامس والملموس، ولو كان الرجل خصيا أو عينياً أو ممسوحا لقوله تعالى: ﴿**أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ**﴾[النساء: ٤٣] هذا مذهب إمامنا الشافعي.

وعند أبي حنيفة لا ينتقض بلمس الرجل والمرأة لا وضوء للملامس ولا الملموس، وأجاب عن قوله تعالى: ﴿**أَوْ لامَسْتُمُ**﴾ بأن المراد: جامعتم.

وقال إمامنا الشافعي حمل ﴿**أَوْ لامَسْتُمُ**﴾ على جامعتم خلاف الظاهر، بدليل قراءة الآخر «أو لمستم» واللمس الجس باليد وبغيرها، أو الجس باليد وألحق غيرها بها.

ومما يدل على أن اللمس لا يختص بالجماع قوله تعالى: ﴿**فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ**﴾[الأنعام: ٧].

والمعنى في انتقاض الوضوء بالتقاء بشرتي الرجل والمرأة: أن الالتقاء مظنة التلذذ المثير للشهوة، وينتقض عندنا الوضوء بالملامسة سواء أوقعت عمداً وسهواً بشهوة أو بغيرها بإكراه أو بغيره، بعضو أصلي أو زائد بعضو سليم، أو أشل بأعضاء الوضوء أو غيرها، هذا إذا وقعت الملامسة بين بشرتي الرجل والمرأة أي: من غير حائل.

والبشرة: ظاهر الجلد، ومنها: اللسان واللثة فإذا لمس لسانها أو لحم أسنانها أو لمست هي ذلك انتقض الوضوء، أما إذا وقعت الملامسة مع الحائل فإنها لا تنقض، ولو كان رقيقاً.

نعم لنا شيء حائل بين اللامس والملموس وينقض، وصورته: فيما إذا كثر الوسخ على البشرة من العرق فإنه حائل مع أن لمسه ينقض لأنه صار كالجزء من البدن، بخلاف ما إذا كان من غبار.

قال العلماء: ولا نقض بين التقاء بشرتي رجلين، ولا امرأتين، ولا خنثتين، ولا

خنثى ورجل، ولا خنثى وامرأة لاحتمال التوافق في الخنثتين، والخنثى مع الرجل أو المرأة، وتنقض ميتة، وذكر ميت، وعجوز، وهرم، وتستثنى من النساء المحارم بنسب أو رضاع أو مصاهرة، فإذا لمس الإنسان محارمه كأمه وعمته وخالته لا ينتقض وضؤه، ولو لمسها بشهوة لأنها ليست في مظنة الشهوة وهي بالنسبة إليه كالرجل.

وضابط المحارم التي لا ينقض الوضوء بلمسها ويجوز النظر إليها والخلوة والمسافرة بها: كل امرأة حرم نكاحها على التأبيد بسبب مباح لحرمتها، فخرج بالتأبيد أخت الزوجة وعمتها وخالتها فإنه لا يحرم نكاحهن على التأبيد، بل إلى أن يفارق الزوجة فلسن بمحارم له فينقضن الوضوء، وخرج أيضاً: المرتدة والمجوسية والوثنية فإنهن لا يحرم نكاحهن على التأبيد، لأنهن إذا أسلمن حل نكاحهن.

والمراد بالسبب المباح: العقد والدخول وخرج به ما إذا وطئ امرأة بشبهة كوطئ من ظنها زوجته فإن أمهاتها وبناتها وإن حرمن عليه على التأبيد لا تثبت الحرمة لهن فلمسهن ينقض الوضوء، لأن سبب التحريم ليس مباحاً، لأن وطئ الشبهة في الفاعل لا يوصف بالإباحة ولا بالتحريم، نعم إذا تزوج تلك الموطوءة بشبهة ودخل بها تثبت المحرمية في أصولها وفي فروعها ولا ينقض لمسهن الوضوء.

قال الأسنوي: وترد هذه على الضابط، إذ السبب المباح وهو العقد والدخول لم يحرمهن لسبق تحريمهن بوطئ الشبهة، ويستحيل تحصيل الحاصل.

وخرج بقوله في الضابط لحرمتها: الملاعنة فإن تحريمها على التأبيد لحرمتها لا لحرميتها، ولا تنقض أم الزوجة ولا بنتها لصدق الحد عليهما.

ولو شك هل لمس محرمة أم أجنبية؟ لم ينقض إذ الأصل بقاء الطهارة.

ولا تنقض صغيرة لا تشتهى، لأنها ليست محلاً للشهوة، ومثلها الصغير الذي لا يشتهى.

ولا ينقض شعر ولا سن ولا ظفر لأنها ليست مظنة للشهوة.

ولا ينقض وضوء الرجل بلمس الأمرد الحسن ولو كان بشهوة، لأنه لم يدخل في قوله: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[النساء: ٤٣].

نعم قال في الإفصاح: قال الإمام مالك: ينقض، وبه قال الأصطخري من الشافعية، فالأفضل المستحب في حق من لمسه أن يتوضأ خروجاً من الخلاف.

ولا ينقض العضو المبان أي المقطوع فإذا قطعت يد المرأة مثلاً فلمسها الرجل، أو يد الرجل مثلاً فلمستها المرأة فلا ينتقض الوضوء، لأن العضو المقطوع لا يسمى امرأة

ولا رجل.

السبب الرابع من أسباب الحدث: مس جزء من فرج الآدمي بجزء من بطن الكف بلا حائل سواء كان الفرج الممسوس قبلاً أو دبراً من نفسه أو غيره عمداً أو سهواً لقوله ﷺ: «**من مس ذكره فليتوضأ**» رواه الأربعة وصححه الترمذي [(١)].

والمراد: المس ببطن الكف لقوله ﷺ: «**إذا أفضى أحدكم بيده إلى فرجه وليس بينهما ستر ولا حجاب فليتوضأ**» رواه ابن حبان وغيره [(٢)].

والإفضاء لغة: المس ببطن الكف.

فإن قيل: الحديث الأول والثاني يدلان على أن من مس فرجه ينقض دون فرج غيره؟

فالجواب: أن من مس فرج غيره ينقض قياساً على مس فرجه لأن مسه أفحش من فرجه لهتكه حرمة غيره، ولهذا لا يتعدى النقض إليه.

والمراد ببطن الكف الراحة مع بطون الأصابع، فلو مس بظهر الكف لم ينقض وكل ما يستر عند وضع اليدين على الأخرى بتحامل يسير فهو بطن الكف.

وينقض المس ببطن أصبع زائدة إن كانت على استواء الأصابع وإلا فلا، وقبل المرأة الناقض ملتقى شفريها، فإن مست ما وراء الشفر لم ينتقض بلا خلاف.

ومس الذكر المنفصل كالمتصل لبقاء اسم الذكر عليه بعد الإبانة، بخلاف فرج المرأة إذا قطع فإنه لا ينقض لأنها جلدة لا تتميز غالباً، فلا يصدق عليها اسم الفرج، وإذا قطع بعض الذكر فلمسه انتقض وضؤه، وقلفة الصبي وهي الجلدة التي تقطع في الختان ينقض مسها قبل القطع لا بعده، ولو خلق للإنسان كفان فإن اتفقا في العمل وعدمه نقضا، وإن كانت إحداهما عاملة والأخرى غير عاملة فإن كانتا على معصم

---

(١) أخرجه أبو داود (١/٤٦، رقم ١٨١)، والترمذي (١/١٢٦، رقم ٨٢)، والنسائي (١/٢١٦، رقم ٤٤٧)، وابن ماجه (١/١٦١، رقم ٤٧٩). وأخرجه أيضاً: مالك (١/٤٢، رقم ٨٩)، وأحمد (٦/٤٠٦ رقم ٢٧٣٣٤)، وابن أبي شيبة (١/١٥٠، رقم ١٧٢٥)، والطيالسي (ص: ٢٣٠، رقم ١٦٥٧)، وابن الجارود (١/١٨، رقم ١٨)، وابن حبان (٣/٤٠٠، رقم ١١١٦)، والحاكم (١/٢٣١، رقم ٤٧٤)، والبيهقي (١/١٢٩، رقم ٦١٣) عن بسرة بنت صفوان.

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/٤٠١، رقم ١١١٨). وأخرجه أيضاً: أحمد (٢/٣٣٣، رقم ٨٣٨٥)، والشافعي (١/١٢)، والدارقطني (١/١٤٧)، والطبراني في الأوسط (٢/٢٣٧، رقم ١٨٥٠)، والبيهقي (١/١٣٣، رقم ٦٣٠)، والطبراني في الصغير (١/٨٤، رقم ١١٠) عن أبي هريرة.

واحد نقضت الزائدة كالأصلية، بشرط أن تكون الزائدة كالأصلية كالأصبع الزائدة، وإن كانتا على معصمين نقضت الأصيلة فقط، ولا تنقض الزائدة، ولو خلق له ذكران فإن اتفقا في العمل وعدمه نقضا، وإن كان أحدهما عاملاً دون الآخر نقض مس العامل، وغير العامل إن كان على سنن العامل نقض مسه وإلا فلا.

والمراد بالدبر الناقض ملتقى المنفذ دون ما وراءه.

قال العلماء: فلا ينقض الوضوء بمس العانة ولا بمس الانثيين ولا بمس الإليين ولا بمس ما بين القبل والدبر، لأنه لا يسمى فرجاً.

ولا ينتقض الوضوء بمس الذكر، برأس الأصابع وبما بينهما.

ولا ينقض بمس فرج البهيمة، كما لا يجب ستره ولا يحرم النظر إليه.

ولا ينتقض بقهقهة مصل ويدل عليه ما أخرجه ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: «ليس من ضحك في الصلاة إعاده وضوء» [1] وإنما كان ذلك لهم حين ضحكوا خلف رسول الله ﷺ.

وما روي من أنها تنتقض ضعيف، ولهذا قال علماؤنا: ولو افتصد الإنسان في صلاته فخرج منه الدم و لم يلوث بشرته لم تبطل صلاته لعدم بطلان طهارته، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه ينتقض الوضوء بالقهقهة في كل صلاة ذات ركوع وسجود، لا في صلاة جنازة، ولا ينتقض الوضوء بالنجاسة الخارجة من غير الفرج كدم الرعاف من جميع المأكول.

وأما ما ورد في مسلم من إيجاب الوضوء مما مست النار [2] فمنسوخ أيضاً بالخبر

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٣٨٩/٦١). وأخرجه أيضا: الدارقطني (١٧٥/١) عن جابر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣/١، رقم ٣٥٣)، وابن ماجه (١٦٤/١، رقم ٤٨٦)، وأحمد (٨٩/٦، رقم ٢٤٦٢٤) عن عائشة.

وأخرجه مسلم (٢٧٢/١، رقم ٣٥٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٤/١، رقم ١٧٩)، وابن ماجه (١٦٣/١، رقم ٤٨٥)، وعبد الرزاق (١٧٣/١، رقم ٦٦٨)، وابن أبي شيبة (٥٣/١، رقم ٥٤٩)، وأحمد (٢٦٥/٢، رقم ٧٥٩٤)، وابن حبان (٤٢٦/٣، رقم ١١٤٧) عن أبي هريرة.

وأخرجه ابن ماجه (١٦٤/١، رقم ٤٨٧)، قال البوصيري (٧٠/١): هذا إسناد مختلف فيه من أجل خالد بن يزيد و لم ينفرد به. والطبراني في الأوسط (١٦/٧، رقم ٦٧٢٠). قال الهيثمي (١/ ٢٤٩): فيه خالد بن يزيد بن أبي مالك وهو كذاب. كلاهما عن أنس.

وأخرجه أبو داود (٥٠/١، رقم ١٩٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٥/١، رقم ١٨٦)، وعبد الرزاق (١٧٢/١، رقم ٦٦٥)، وأحمد (٤٢٦/٦، رقم ٢٧٤٣٩)، وابن أبي شيبة (٥٣/١، رقم =

الصحيح في أبي داود عن جابر ﷺ كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما غيرت النار [(١)].

فائدة: في قوله ﷺ: «**لا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ**» دليل على بطلان الصلاة مع الحدث، وفيه دليل على أنه يحرم على المحدث حدثاً أصغر الصلاة ولو كانت نفلا أو صلاة جنازة، هذا في غير فاقد الطهورين، ودائم الحدث، ويحرم عليه خطبة الجمعة والطواف ولو نفلاً لقوله ﷺ: «**الطواف بمنـــزلة الصلاة إلا أن الله تعالى قد أحل فيه النطق، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير**» رواه الحاكم وصححه على شرط مسلم [(٢)].

ويحرم عليه سجود التلاوة أو الشكر لأنه في معنى الصلاة.

قال ابن الصلاح: وأما ما يفعله عوام الفقراء من السجود بين يدي المشايخ محدثين فهو من العظائم، ولو كان بطهارة إلى القبلة قال: وأخشى أن يكون كفراً.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً**﴾[يوسف: ١٠٠] فهو منسوخ أو مؤول، ويحرم عليه مس المصحف ولو كان بغير أعضاء الوضوء، ولا فرق بين مس كتابته وورقه وحواشيه وما بين سطوره، لأن اسم المصحف يقع على الجميع وقوعاً واحداً، وكذلك يحرم مسه من وراء ثوبه أو ثوب غيره، وكذا يحرم مسه على فاقد الطهورين، ودليل تحريم مسه قوله تعالى ﴿**لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾[الواقعة: ٧٩] أي: إلا المتطهرون وهو خبر بمعنى النهي، ولو كان باقياً على أصله من الخبرية لزم الخلف في كلامه تعالى، لأن غير المتطهر يمسه.

فإن قيل: ما المانع من جعله نهياً لا خبراً بمعناه؟

فالجواب: أنه لو كان نهياً لزم منه وقوع الطلب صفة وهو ممتنع.

وأما مس جلد المصحف فإن كان متصلاً به حرم مسه لأنه كالجزء منه، ولهذا يتبعه في البيع، وإن كان منفصلاً عنه حرم مسه.

= ٥٥٠)، والطبراني (٢٣/٢٤٤، رقم ٤٨٨) عن أم حبيبة.

(١) أخرجه أبو داود (١/٤٩، رقم ١٩٢). وأخرجه أيضا: النسائي (١/١٠٨، رقم ١٨٥).

(٢) أخرجه الحاكم (١/٦٣٠، رقم ١٦٨٦). وأخرجه أيضاً: ابن أبي شيبة (٣/٣٧، رقم ١٢٨٠٨)، والطبراني (١١/٣٤، رقم ١٠٩٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٢٨)، والدارمي (٢/٦٦، رقم ١٨٤٧)، وابن أبي شيبة (٣/٣٧، رقم ١٢٨٠٨)، وابن الجارود (١/١٢٠، رقم ٤٦١)، وابن حبان (٩/١٤٣، رقم ٣٨٣٦)، والبيهقي (٥/٨٥، رقم ٩٠٧٤) عن ابن عباس.

فقال الأسنوي: يحل مسه، ونقل الزركشي عن الغزالي: أنه يحرم مسه أيضاً و لم ينقل ما يخالفه، وقال ابن العماد: إنه الأصح إبقاءً لحرمته قبل انفصاله.

قال العلامة القاضي زكريا: محل تحريم مسه إذا لم تنقطع نسبته عن المصحف، فإن انقطعت كأن جعلت جلد كتاب لم يحرم مسه قطعاً، وكما يحرم مسه يحرم حمله لأنه أبلغ من مسه سواء حمله وحده أو في غلافه أو بعلاقته، هذا مذهب إمامنا الشافعي والإمام مالك.

وقال أبو حنيفة: يجوز للمحدث حمله بعلاقته أو في علاقته، نعم يجوز لنا حمله في أمتعة أو متاع واحد إذا لم يكن مقصوداً بالحمل، لعدم الإخلال بتعظيمه حينئذ أما إذا كان مقصوداً بالحمل ولو مع الأمتعة فإنه يحرم حمله.

ولا تحرم كتابة القرآن على المحدث من غير مس ولا حمل، بأن يضع الورقة مثلا بين يديه ويكتب فيها، ولا يحرم عليه قلب ورق المصحف بعود، لأنه ليس بحمل ولا مس، ويجوز مس التوراة والإنجيل وحملها، ويجوز مس وحمل ما نسخت تلاوته وإن لم ينسخ حكمه لزوال حرمته بالنسخ، كزوال حرمة التوراة والإنجيل بالتبديل، أما ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته فيحرم مسه وحمله، ويحرم على بالغ مس وحمل ما كتب بلوح ونحوه، ولو بعض آية لدراسة، بخلاف الصبي فإنه إذا كان مميزاً لا يجب على وليه ومعلمه مع الحدث الأصغر أن يمنعه من مس وحمل المصحف أو اللوح الذي يتعلم منه، لأنه يحتاج إلى الدراسة والتعلم، وتكليفه استصحاب الطهارة مما تعظم فيه المشقة، هذا إذا حمله لأجل الدراسة والتعلم، أما إذا لم يكن له غرض في حمله أو حمله بغرض آخر فإنه يجب على معلمه ووليه منعه من ذلك، وإذا كان البالغ محدثاً فقال للصبي: انقل هذا المصحف من هذا المكان إلى مكان آخر أو احمله معك فإنه حرام يأثم بذلك البالغ، لأن الصبي يمنع من حمله ومسه إلا لحاجة التعلم، كما يمنع المجنون وهذا يقع فيه كثير من الناس الجهال خوفاً من مسه مع الحدث.

وإذا كان الصبي جنباً وأراد حمل المصحف ومسه للدراسة هل يمنع من ذلك أم لا؟

قال النووي: لا يمنع، وجزم به ابن السبكي، لكن قال الأسنوي: القياس المنع لأنها نادرة، وحكمها أغلظ، واستحسن كلامه كثير من المتأخرين.

قال العلماء: وإن أبيح للصبي المميز مع الحدث مس المصحف وحمله أو اللوح الذي فيه شيء من القرآن لأجل الدراسة فيندب لوليه ومعلمه منعه منه، وأمره بالوضوء، ويجوز مع الكراهة مس وحمل كتب التفسير مع الحدث، إلا إذا كان القرآن

أكثر منه، فإنه حينئذ في معنى المصحف، ويجوز حمل الدراهم والدنانير والثياب التي كتب عليها شيء من القرآن، لأن هذه الأشياء لا يقصد بإثباب القرآن فيها قراءته، فلا يجري عليها أحكام القرآن، وسنذكر حكم الحروز في الكلام على آداب داخل الخلاف.

وفي قوله ﷺ: «**لا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ**» أيضاً دلالة على رفع الشك والعمل باليقين، فإذا تيقن الإنسان أنه متوضئ وشك في الحدث بعده، عمل بيقينه وطرح الشك وصلى بوضوئه وصلاته صحيحة، وإذا تيقن أنه محدث وشك في أنه توضأ بعده عمل بيقينه أيضاً على الراجح وطرح الشك وتوضأ وصلى، وإن تيقن أنه وقع منه طهر وحدث وجهل السابق منهما نظر فيهما، فيما قبلهما فإن كان محدثاً فهو الآن متطهر، وإن كان متطهراً فهو الآن محدث إن اعتاد تجديد الوضوء وإن لم يعتد تجديده فهو الآن متطهر.

ويتضح ذلك بالمثال فإذا وقع من الإنسان بعد طلوع الشمس مثلاً طهر وحدث و لم يعرف أسبقهما فلينظر فيما قبل طلوعها فإن تذكر أنه كان حينئذ محدثاً فهو الآن متطهر، وإن تذكر أنه كان متطهراً فإن كان له عادة بتجديد الوضوء فهو الآن متطهر وإن لم يتذكر ما قبلهما وجب الوضوء، وتعليل هذه المسائل مقررة في كتب الفقه فلا نطول بذكرها.

***

المجلس التاسع والثلاثون

في ذكر شيء من فضائل أمة محمد ﷺ وشيء من خصائصها، وخصائص نبينا ﷺ وذكر اختلاف العلماء في الوضوء هل هو من خصائص هذه الأمة أم لا؟

الحمد لله الذي أتقن كل شيء بحكمته فاحتبك، وبعث حبيبه محمد ﷺ فأنار به كل حلك، وآتاه من المعجزات والخصائص ما لم يؤته نبي ولا ملك، وجعل جنده الملائكة تسير معه حيث سلك، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ما سار ملك ودار فلك.

باب فضل الوضوء والغر المحجلين من آثار الوضوء

جاء في أكثر الروايات والغر المحجلين بالرفع ووجِّه بأوجه:

الأول: مبتدأ وخبره محذوف، وهم مفضلون فكأنه قال: والغر المحجلون مفضلون على غيرهم، أو لهم فضل ونحوه.

الثاني: أن يكون «الغر» مبتدأ أيضاً وخبره من آثار الوضوء، ومعناه: من الغر المحجلون منشأهم آثار الوضوء.

الثالث: أن «الغر» مرفوع على سبيل الحكاية فقد ورد في بعض طرق الحديث: «**أنتم الغر المحجلون**» (١).

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ خَالِدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ عَنْ نُعَيْمٍ الْمُجْمِرِ قَالَ رَقِيتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ، فَتَوَضَّأَ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ «**إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ**» (٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١/٢١٦، رقم ٢٤٦) عن أبي هريرة.

وأخرجه أبو يعلى (٤/١١٨، رقم ٢١٦٢) عن جابر. قال الهيثمي (١٠/٣٤٤): رجاله رجال الصحيح.

(٢) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «رقيت»: صعدت.

قوله: «فتوضأ»: كذا لجمهور الرواة، وللكشميهني يوما بدل قوله فتوضأ وهو تصحيف.

وقد رواه الإسماعيلي وغيره من الوجه الذي أخرجه منه البخاري بلفظ «توضأ» وزاد الإسماعيلي فيه «فغسل وجهه ويديه فرفع في عضديه، وغسل رجليه فرفع في ساقيه» وكذا لمسلم من طريق عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال نحوه، ومن طريق عمارة بن غزية عن نعيم وزاد في =

= هذه: أن أبا هريرة قال: «هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ» فأفاد رفعه، وفيه رد على من زعم أن ذلك من رأى أبي هريرة بل من روايته ورأيه معا.

قوله: «أمتي»: أي أمة الإجابة وهم المسلمون، وقد تطلق أمة محمد ويراد بها أمة الدعوة وليست مرادة هنا.

قوله: «يدعون»: ينادون أو يسمون.

قوله: «غرا»: جمع أغر أي ذو غرة، وأصل الغرة لمعة بيضاء تكون في جبهة الفرس، ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر، والمراد بها هنا النور الكائن في وجوه أمة محمد ﷺ، وغرا منصوب على المفعولية ليدعون أو على الحال، أي أنهم إذا دعوا على رءوس الأشهاد نودوا بهذا الوصف وكانوا على هذه الصفة.

قوله: «محجلين»: من التحجيل وهو بياض يكون في ثلاث قوائم من قوائم الفرس، وأصله من الحجل وهو الخلخال، والمراد به هنا أيضا النور.

واستدل الحليمي بهذا الحديث على أن الوضوء من خصائص هذه الأمة، وفيه نظر لأنه ثبت عند المصنف في قصة سارة رضي الله عنها مع الملك الذي أعطاها هاجر أن سارة لما هم الملك بالدنو منها قامت تتوضأ وتصلي، وفي قصة جريج الراهب أيضاً أنه قام فتوضأ وصلى ثم كلم الغلام، فالظاهر أن الذي اختصت به هذه الأمة هو الغرة والتحجيل لا أصل الوضوء، وقد صرح بذلك في رواية لمسلم عن أبي هريرة أيضاً مرفوعا قال: «سيما ليست لأحد غيركم» وله من حديث حذيفة نحوه. و «سيما»: أي علامة.

وقد اعترض بعضهم على الحليمي بحديث «هذا وضوئي ووضوء الأنبياء قبلي» وهو حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به لضعفه، ولاحتمال أن يكون الوضوء من خصائص الأنبياء دون أممهم إلا هذه الأمة.

قوله: «من آثار الوضوء»: بضم الواو، ويجوز فتحها على أنه الماء قاله ابن دقيق العيد.

قوله: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»: أي فليطل الغرة والتحجيل. واقتصر على إحداهما لدلالتها على الأخرى نحو ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[النحل: ٨١] واقتصر على ذكر الغرة وهي مؤنثة دون التحجيل وهو مذكر لأن محل الغرة أشرف أعضاء الوضوء، وأول ما يقع عليه النظر من الإنسان. على أن في رواية مسلم من طريق عمارة بن غزية ذكر الأمرين، ولفظه «فليطل غرته وتحجيله».

وقال ابن بطال: كنى أبو هريرة بالغرة عن التحجيل لأن الوجه لا سبيل إلى الزيادة في غسله، وفيما قال نظر لأنه يستلزم قلب اللغة، وما نفاه ممنوع لأن الإطالة ممكنة في الوجه بأن يغسل إلى صفحة العنق مثلا.

ونقل الرافعي عن بعضهم أن الغرة تطلق على كل من الغرة والتحجيل. ثم إن ظاهره أنه بقية الحديث، لكن رواه أحمد من طريق فليح عن نعيم وفي آخره: قال نعيم لا أدري قوله =

في إسناد هذا الحديث لطيفتان:

إحداهما: أن جميع رجاله رجال من فرسان الصحيحين وباقي الكتب الستة إلا يحيى بن بكير فإنه من رجال البخاري ومسلم وابن ماجه.

الثانية: أن النصف الأول من إسناده مصريون، والنصف الثاني مدنيون.

قال ابن الملقن: هذا الحديث رواه مع أبي هريرة سبعة من الصحابة: ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وأبو أمامة الباهلي، وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن بسر المازني، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم.

قوله: «**رقيت**» بكسر القاف بمعنى صعدت، وحكي فتحها مع الهمز ودونه.

وقوله ﷺ: «**إن أمتي**» قال الكرماني: «الأمة»: الجماعة، وهو في اللفظ واحد، وفي المعنى جمع.

قال العلماء: أمة محمد تطلق على أمة الدعوة، وهم جميع من أرسل إليهم من مسلم وكافر على اختلاف أنواعه، فإنه ﷺ دعى الجميع إلى كلمة التوحيد، فلا إنكار على من قال في حق يهودي معين أو نصراني وغيره أنه من أمة محمد ﷺ لأنه من أمة

= من استطاع... الخ من قول النبي ﷺ أو من قول أبي هريرة، ولم أر هذه الجملة في رواية أحد ممن روى هذا الحديث من الصحابة وهم عشرة ولا ممن رواه عن أبي هريرة غير رواية نعيم هذه والله أعلم.

واختلف العلماء في القدر المستحب من التطويل في التحجيل فقيل: إلى المنكب والركبة، وقد ثبت عن أبي هريرة رواية ورأيا.

وعن ابن عمر من فعله أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو عبيد بإسناد حسن، وقيل المستحب الزيادة إلى نصف العضد والساق، وقيل إلى فوق ذلك.

وقال ابن بطال وطائفة من المالكية: لا تستحب الزيادة على الكعب والمرفق لقوله ﷺ «من زاد على هذا فقد أساء وظلم» وكلامهم معترض من وجوه، ورواية مسلم صريحة في الاستحباب فلا تعارض بالاحتمال. وأما دعواهم اتفاق العلماء على خلاف مذهب أبي هريرة في ذلك فهي مردودة بما نقلناه عن ابن عمر، وقد صرح باستحبابه جماعة من السلف وأكثر الشافعية والحنفية. وأما تأويلهم الإطالة المطلوبة بالمداومة على الوضوء فمعترض بأن الراوي أدرى بمعنى ما روى، كيف وقد صرح برفعه إلى الشارع ﷺ وفي الحديث معنى ما ترجم له من فضل الوضوء، لأن الفضل الحاصل بالغرة والتحجيل من آثار الزيادة على الواجب، فكيف الظن بالواجب؟ وقد وردت فيه أحاديث صحيحة صريحة أخرجها مسلم وغيره، وفيه جواز الوضوء على ظهر المسجد لكن إذا لم يحصل منه أذى للمسجد أو لمن فيه. والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٢٣٥ - ٢٣٧).

الدعوة، وتطلق أمة محمد ﷺ على أمة الإجابة إلى قسمين إلى أمة الطاعة وهم: من أسلم وأطاع، وإلى أمة المعصية وهم: من أسلم وعصى، والمراد بالأمة في هذا الحديث: أمة الإجابة بقسميها كما قاله ابن حجر لا أمة الدعوة.

وقوله: «**يدعون**» إما من الدعاء بمعنى النداء، وإما من الدعاء بمعنى التسمية، والمعنى على الأول: إن أمتي ينادون يوم القيامة، وعلى الثاني: يسمون يوم القيامة.

وأصل القيامة: «القوامة» قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.

وقوله: «**غراً محجلين**» إذا قلنا منصوبان إما على الحال من ضمير «**يدعون**» إن كان بمعنى النداء، ويعدى «**يدعون**» بإلى، وإما على المفعولية إن كان بمعنى التسمية.

سؤال: فإن قيل: إلى أين ينادون يوم القيامة إذا قلنا أن «**يدعون**» بمعنى ينادون؟

جوابه: أنهم ينادون إلى موقف الحساب أو إلى الميزان أو إلى غير ذلك، حال كونهم على هذا الوصف فيقال لهم: يا أمة محمد أقبلوا إلى الحساب أو الميزان أو إلى الصراط أو إلى الحوض أو إلى الجنة أو غير ذلك.

فيأتون وهم غر محجلون أي: على جباههم وأيديهم وأرجلهم نور ساطع كالغرة البيضاء في جبهة الفرس، والتحجيل الذي في يديها ورجليها، فإن «الغرة» في اللغة: بياض في جبهة الفرس، «والتحجيل» بياض في يديها ورجليها، فسمي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غراً وتحجيلاً تشبيها بذلك.

وأما إذا كان «يدعون» بمعنى يسمون فمعنى الحديث: أن الملائكة تسمى أمة محمد ﷺ بهذا الاسم تشريفاً لهم وتكريماً من بين سائر الأمم، فيقولون لهم: يا غر المحجلين أو يا أصحاب الغرة والتحجيل، حين يرون عليهم هذا النور الحاصل لهم من الوضوء.

وقوله: «**من آثار الوضوء**» يجوز قراءته بضم الواو، فإن النور حصل من هذا الفعل، ويجوز قراءته بفتح الواو بناء على أن هذا النور حصل من آثار الماء المستعمل في الوضوء.

والحاصل: أن الغرة والتحجيل نشأ عن الفعل بالماء، فيجوز أن ينسب إلى كل منهما.

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة:

منها: أن فيه دلالة على استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، والمراد بإطالة الغرة عند العلماء غسل ما فوق الواجب من جميع جوانب الوجه، وغايته أن يغسل صفحة العنق من مقدمات الرأس، والمراد بإطالة التحجيل غسل ما فوق الواجب من

جميع جوانب الرجلين واليدين، وغايته استيعاب العضدين والساقين أي: غسل اليدين إلى المنكبين والرجلين إلى الركبتين.

وكان أبو هريرة ﷺ يستوعب في وضوءه العضدين والساقين حتى يوصل الماء إلى إبطيه.

وهكذا نقل عن عبد الله بن عمر عملاً بظاهر قوله: «**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل**».

واقتصر على ذكر الغرة في قوله «**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته**» ولم يقل وتحجيله لدلالتها عليه كما في قوله تعالى: ﴿**سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ**﴾[النحل: ٨١] ولم يذكر البرد لدلالة الحر عليه.

سؤال: فإن قيل: لأي شيء لم يقتصر ﷺ بذكر التحجيل عن ذكر الغرة لأنه مذكر وهي مؤنثة والمذكر أشرف من المؤنث؟

جوابه: أنه ﷺ إنما اقتصر بذكر الغرة عن ذكر التحجيل دون العكس لأن محلها أشرف أعضاء الوضوء، ولأنه أول ما يقع عليه البصر يوم القيامة.

ومنها: أن فيه دلالة على أن الوضوء من خصائص هذه الأمة وهذه المسألة فيها ثلاثة أقوال للعلماء:

الأول: أنه من خصائص هذه الأمة، وبهذا القول جزم الحليمي في منهاجه، واستدل على ذلك بهذا الحديث.

الثاني: أنه ليس من خصائص هذه الأمة بل كان مشروعاً في سائر الأمم، والذي اختصت به هذه الأمة الغرة والتحجيل، ورجح هذا القول شيخ الإسلام ابن حجر وقال أنه الظاهر قال: ويؤيده ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «**لكم سيما -أي علامة- ليست لأحد غيركم، تردون علي غراً محجلين من أثر الوضوء**» [1].

الثالث: أنه من خصائص هذه الأمة ولم يشاركها فيه إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا القول لهذه الأمة شرف عظيم حيث استوو مع الأنبياء في هذه الخصوصية وامتازوا عنهم بالغرة والتحجيل ولقد أحسن من قال في المعنى:

---

(١) أخرجه مسلم (١/٢١٧، رقم ٢٤٧). وأخرجه أيضا: ابن ماجه (٢/١٤٣١، رقم ٤٢٨٢)، وأبو يعلى (١١/٧٢، رقم ٦٢٠٩)، وابن أبي شيبة (١/١٥، رقم ٤٢)، وابن حبان (٣/٣٢٤، رقم ١٠٤٨) عن أبي هريرة.

ستأتي الناس في العرصات سكرى ... بلا أثر يكون لهم مزينا
وتتأتى أمة المختار غدا ... بآثار الوضوء محجليـنا
لأيديهم وأرجلهم وميض ... فوجههم تروق الناظرينا
فكونوا يا عباد الله قوماً ... مدى أعماركم متطهرينا
تفوزوا بالطهارة ما حييتم ... وفي غدكم تفوقوا العالمينا

وهل هذا النور الذي في أعضاء الوضوء المعبر عنه بالغرة والتحجيل ثابت لكل واحد من هذه الأمة يوم القيامة، سواء توضأ في الدنيا أم لم يتوضأ، أو يكون لمن يتوضأ في الدنيا؟

قال ابن الملقن في شرحه على هذا الصحيح: ظاهر الأحاديث يقتضي أن ذلك خاص بمن توضأ منهم، فقد ورد في صحيح ابن حبان: يا رسول الله كيف تعرف من يرد من أمتك؟ قال: «**غر محجلون بلق من آثار الوضوء**» [(١)].

وأما ما نقل عن بعض المالكية أنه نقل عن العلماء: أن الغرة والتحجيل حكم ثابت لهذه الأمة من توضأ منهم ومن لم يتوضأ، كما قالوا: لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، وأن أهل القبلة كل من آمن من أمته سواء صلى أم لم يصلِّ، فهو كما قاله ابن الملقن نقل غريب.

ومنها: أن فيه دلالة على استحباب المحافظة على الوضوء وسننه المشروعة.

ومنها: أن فيه دلالة على ما أعد الله من الفضل والكرامة لأهل الوضوء يوم القيامة.

ومنها: أن فيه دلالة على جواز الوضوء على ظهر المسجد، وإذا جاز على ظهره جاز فيه، فإن حرمة أعلاه وظاهره كحرمة داخله، وعلى هذا أكثر العلماء.

وكره جماعة الوضوء فيه تنزيها له كما ينزه عن البصاق والنخامة، وممن كره الوضوء ابن سيرين، ونقل عن الإمام مالك وعن سحنون.

قال ابن الملقن: وقد صرح جماعة من أصحابنا بجوازه فيه، وإن الأولى أن يكون في إناء.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/٣٢٣، رقم ١٠٤٧). وأخرجه أيضا: ابن ماجه (١/١٠٤، رقم ٢٨٤) قال البوصيري (١/٤٢، رقم ٤): هذا إسناد حسن. وأحمد (١/٤٥٣، رقم ٤٣٢٩)، وابن أبي شيبة (١/١٥، رقم ٤٠)، والشاشي (٢/١٠٧، رقم ٦٢٩)، وأبو يعلى (٨/٤٦٢، رقم ٥٠٤٨)، والطبراني في الأوسط (٣/٣٦٦، رقم ٣٤١٩) عن ابن مسعود.

وأما رش المسجد بالماء المستعمل فقد اختاره النووي في شرح المهذب أنه جائز كما يجوز الوضوء فيه، وتبعه على اختياره الأسنوي، والشيخ إسماعيل بن المقرئ في «روضه» فإنه قال فيه: ويجوز نضحه بمستعمل.

لكن قال البغوي: إنه لا يجوز لأن النفس إنما تعافه، وتبعه على ذلك الخوارزمي وصاحب الأنوار في كتاب الاعتكاف، وضعف النووي قوله، ورد تعليله بأن النفس إنما تعاف شربه ونحوه لا نضحه في المسجد.

قال الزركشي والبغوي وغيره: إن يفرقوا بين جواز الوضوء فيه وبين نضحه بالماء بأن المتوضئ إنما يفعل ذلك لحاجته إليه، بخلاف النضح فإنه يقع قصداً، والشيء يغتفر ضمناً ما لا يغتفر قصداً، وبأن ماء الوضوء بعضه غير مستعمل بخلاف ماء النضح، وظاهر قول القاضي زكريا في شرح الروض يقتضي ترجيح قول البغوي فلينظر في كلامه أي: في شروط الصلاة في بحث المسجد.

ومنها: أن فيه دلالة على كمال فضل نبينا ﷺ أطلعه الله تعالى على أمور من المغيبات مستقبلة من أمور الآخرة، وما يقع فيها لم يطلع عليه نبياً غيره، فأخبر بها في الدنيا أمته، وستقع كما أخبر فإنه صادق مصدوق، لاينطق عن الهوى، فمن ما أخبر به من أمور الآخرة ما ذكره في هذا الحديث أن أمته تأتي يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، وكأنك بهذا وقد وقع، وكأنك بالدنيا و لم تكن، وبالآخرة و لم تزل.

وأما ما أخبر به ﷺ عن أمور مغيبة مستقبلة من أمور الدنيا فكثير وهو معجزة من معجزاته الباهرة وآية من آياته الظاهرة.

ونقل عن حذيفة ﷺ أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فما ترك شيئاً يقوم في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وما أخبر به ﷺ من ذلك فهو مما أعلمه الله به [(١)].

قال العلماء: النبي لا يعلم من المغيبات إلا ما أعلمه الله تعالى به، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٧].

قال شيخنا العلامة الشيخ كمال الدين بن أبي شريف في شرح المسايرة: ذكر

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢١٧، رقم ٢٨٩١)، وأبو داود (٤/٩٤، رقم ٤٢٤٠)، وابن حبان (١٥/٥، رقم ٦٦٣٦).

الحنفية في فروعهم تصريحاً بتكفير من اعتقد أن النبي ﷺ يعلم الغيب، لمعارضته قوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾[النمل: ٦٥] وقد وقع كثير مما أخبر به ﷺ من المغيبات المستقبلة، فإن أردت تحقيق ذلك لديك فاستمع وتوجه إلى ما نتلو عليك فنقول:

مما أخبر به ﷺ ووقع أنه أخبر قبل فتح مكة أن أصحابه تظهر على أهل مكة وتفتح لهم مكة وقد وقع ذلك.

ومنه: أنه أخبر عن أمته أنها تفترق على ثلاثة وسبعين فرقة الناجية منها واحدة وقد وقع ذلك.

ومنه: ما رواه عبد الله بن عباس قال كنت قاعداً عند رسول الله ﷺ إذ أقبل عثمان فلما دنى منه قال: «**يا عثمان تقتل وأنت تقرأ سورة البقرة، تقع قطرة من دمك على فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**» (١) وقد وقع ذلك.

ومنه: أنه قال لفاطمة رضي الله عنها: «**إنك أول بيتي لاحقة بي**» فقالت: ونعم السلف أنا لك فكانت أول من مات بعده من أهل بيته (٢).

ومنه: أنه قال ﷺ: «**إن عماراً تقتله الفئة الباغية**» (٣) فقتله أصحاب معاوية.

ومنه: أنه خرج يوماً إلى أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر وعلي وعمار وأبو ذر رضي الله عنهم وهو يبكي فقيل: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «**أخبرني جبريل أن ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف، فجاءني بهذه التربة، وأخبرني أن فيها مضجعه**» (٤).

ومنه: أن أبي ابن خلف كان يلقى ﷺ بمكة فيقول: يا محمد إن عندي العود فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليها، فيقول عليه الصلاة والسلام: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**» فحصل لهذا الملعون في عنقه خدش غير كبير، فاحتقن الدم فلما رجع إلى

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه (٣/١١٠، رقم ٤٥٥٥).

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (٣/١٣٢٦، رقم ٣٤٢٦)، ومسلم (٤/١٩٠٥، رقم ٢٤٥٠) عن عائشة.

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢٢٣٦، رقم ٢٩١٦)، وابن أبي شيبة (٧/٥٤٨، رقم ٣٧٨٥١)، والنسائي في الكبرى (٥/١٥٥، رقم ٨٥٤٣)، وإسحاق بن راهويه (١/١١٠، رقم ٦٣) عن أم سلمة.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/١٠٧، رقم ٢٨١٤) عن عائشة، قال الهيثمي (٩/١٨٨): فيه ابن لهيعة.

قريش قال: والله قتلني محمد، قالوا: ذهب والله فؤادك، والله ما بك من بأس قال: إنه قد كان قال لي: والله أنا أقتلك فوالله لو بصق علي لقتلني فمات «بسرف» وهم قافلون به إلى مكة (١).

ومنه: أن عمه العباس لما خرج من مكة مع الكفار في غزوة بدر لأجل قتال رسول الله ﷺ قال لزوجته أم الفضل: إن أصبت -أي: قتلت- فهذا المال إعط منه للفضل كذا ولقثم كذا ولعبد الله كذا، وقسمه على أولاده و لم يطلع على هذا المال أحد غيرها وغيره، و لم يعلم به أحداً إلا الله، فلما أسر العباس مع الأسارى قال له رسول الله ﷺ: «**يا عم أفد نفسك**» فقال: ليس لي مال فقال له رسول الله ﷺ: «**أين المال الذي دفعته بمكة لأم الفضل وقلت لها: إعط لولدي الفلاني كذا، ولولدي فلان كذا**» فقال العباس: من أعلمك بهذا وما علم به أحد غيري وغيرها؟ أشهد أنك رسول الله حقاً (٢).

وأما ما أخبر به عن أمور مغيبة مستقبلة في الدنيا و لم تقع إلى الآن فكثيرة:

منها: خروج الدجال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وغير ذلك، وستقع كما أخبر.

وفي الحديث دليل على فضل أمة محمد زادها الله شرفاً وتعظيماً.

قـــال العلماء: خص الله تعالى هذه الأمة ونبيها بخصائص كثيرة منها:

الوضوء على أحد الأقوال كما تقدم.

ومنها: التيمم.

ومنها: المسح على الخف.

ومنها: جعل الماء مزيلا للنجاسة.

ومنها: تحية السلام وهي تحية الملائكة وأهل الجنة في الجنة.

ومنها: صلاة الجمعة.

ومنها: صلاة الجماعة.

ومنها: أن إجتماعهم حجة واختلافهم رحمة، وكان اختلاف من قبلهم عذاباً.

ومنها: أن الطاعون لهم شهادة ورحمة، وكان على الأمم قبلهم عذاباً.

ومنها: أن ما دعوا به استجيب لهم.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣٣/٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٥٣، رقم ٣٣١٠) والحاكم (٣٦٦/٣، رقم ٥٤٠٩) وقال: صحيح على شرط مسلم.

ومنها: أنه يغفر لهم الذنب بالوضوء.

ومنها: أنهم يأكلون صدقاتهم في بطونهم ويثابون عليها.

ومنها: أنه يعجل لهم الثواب في الدنيا مع ادخاره في الآخرة.

ومنها: أن الجبال والأشجار تتباشر بمرورهم عليها لتسبيحهم وتقديسهم.

ومنها: أن أبواب السماء تفتح لأعمالهم وأرواحهم وتتباشر بهم الملائكة.

ومنها: أن الله وملائكته يصلون عليهم.

قال سفيان بن عيينه: أكرم الله أمة محمد فصلى عليهم كما صلى على الأنبياء فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾[الأحزاب: ٤٣].

ومنها: أن المائدة توضع بين أيديهم فما يرفعونها حتى يغفر لهم.

ومنها: أنه لا تزال طائفة منهم على الحق حتى يأتي أمر الله.

ومنها: أن فيهم أقطاباً وأوتاداً ونجباءً وأبدالاً.

قال الحسن: لولا الأبدال لخسفت الأرض بما فيها، ولولا الصالحون لفسدت الأرض، ولولا العلماء لصارت الناس مثل البهائم، ولولا الصالحون لفسدت الأرض، ولولا العلماء لصارت الناس مثل البهائم، ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا، ولولا الحمقى لخربت الأرض، ولولا الريح لأنتن ما بين السماء والأرض.

ومنها: أن علماءهم كأنبياء بني إسرائيل فقد قال ﷺ: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**» (١).

وقال ﷺ : «**العالم في قومه كالنبي في أمته**» (٢).

ومنها: أن الملائكة تسمع في السماء آذانهم وتلبيتهم.

---

(١) قال المناوي في فيض القدير (٣٨٤/٤): سئل الحافظ العراقي عما اشتهر على الألسنة من حديث: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل. فقال: لا أصل له، ولا إسناد بهذا اللفظ، ويغني عنه: العلماء ورثة الأنبياء. وهو حديث صحيح. وقال العجلوني في كشف الخفاء (٨٣/٢): قال السيوطي وابن حجر والدميري والزركشي: لا أصل له.

(٢) أخرجه الرافعي في التدوين (٩٥/٣) عن أبي رافع.

وأخرجه الديلمي (٣٧٣/٢، رقم ٣٦٦٦) عن ابن عباس.

وأخرجه ابن حبان في الضعفاء (٣٩/٢، ترجمة ٥٧١ عبد الله بن عمر بن غانم).

قال القاري في المصنوع (١١٥/١): ضعيف جدا، وفي المقاصد: جزم شيخنا وغيره بأنه موضوع، وإنما هو كلام بعض السلف.

ومنها: أنه ليس منهم أحد إلا مرحوماً.

ومنها: أنهم يلبسون ثياب أهل الجنة.

ومنها: أن الملائكة تحضرهم إذا قاتلوا.

ومنها: أنهم نودوا في القرآن بيا أيها الذين آمنوا، ونوديت الأمم في كتبها بيا أيها المساكين، وشتان ما بين الخطابين.

ومنها: أنهم يكونون على كوم عال في الموقف يوم القيامة، ولهم نور كالأنبياء، وليس لغيرهم إلا نور واحد، وأما النبي ﷺ فله من كل شعرة من رأسه نور، ووجهه نور، وليس للأنبياء إلا نوران.

ومنها: أن لهم سيما في وجوههم من أثر السجود.

ومنها: أن ذريتهم تسعى بين أيديهم.

ومنها: أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم.

ومنها: أنهم يمرون على الصراط كالبرق الخاطف والريح العاصف.

ومنها: أنهم يشفع محسنهم في مسيئهم.

ومنها: أن الله عجل لها عذابها في الدنيا وفي البرزخ لتأتي يوم القيامة بلا ذنوب.

ومنها: أنها تدخل قبورها بذنوبها وتخرج منها بلا ذنوب، يمحص الله عنها باستغفار المؤمنين.

ومنها: أن أطفالهم كلهم في الجنة، وليس ذلك لسائر الأمم في أحد الاحتمالين للسبكي في تفسيره.

ومنها: أن الله يتجلى على هذه الأمة فيرونه ويسجدون له بإجماع أهل السنة، وفي الأمم السابقة احتمالان لابن حمزة.

ومنها: أنه يدخل الجنة منهم سبعون ألفاً بلا حساب.

ومنها: أنهم جمعت لهم الصلوات الخمس ولم تجمع لأحد من الأنبياء، وبأنهن كفارات ما بينهن.

ومنها: أنه اشتق لهم اسمان من أسماء الله تعالى المسلمون والمؤمنون، وسمى دينهم الإسلام ولم يوصف بهذا الوصف إلا الأنبياء.

وخفف الله عن هذه الأمة ما لم يخففه عن غيرها من الأمم.

ومنها: أنه وضع عنها قتل النفس في التوبة، وكانت توبة الأمم السابقة بقتل أنفسهم كما نطق الله به في القرآن.

ومنها: فقأ العين من النظر إلى ما لا يحل.

ومنها: قرض موضع النجاسة ولا يطهرها الماء.

ومنها: ربع المال في الزكاة.

ومنها: أنه كان من عمل من اليهود شغلاً يوم السبت يصلب، ولم يجعل علينا يوم الجمعة مثل ذلك.

ومنها: أنه كان من سرق استرق عبداً.

ومنها: أنه كان من قتل نفسه حرمت عليه الجنة، وليس هذا في هذه الأمة.

ومنها: أن جميع الأمم افتضحت عند هذه الأمة ولم يفضحوا عند أمة من الأمم، وهكذا يستر الله على هذه الأمة يوم القيامة ولا يفضحها ورد في مسند الفردوس للديلمي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**سئلت ربي أن يجعل حساب أمتي إلي لئلا تفتضح عند الأمم، فأوحى الله إلي يا محمد بل أنا أحسابهم فإن كان منهم زلة سترناها عليك، حتى لا يفتضح عبدي عندك، ولا يحزن لأجلهم قلبك**»[(١)].

ومنها: أنه ستر على من لم يتقبل عمله منهم، وكان من قبلهم يفتضح إذا لم تأكل النار قرباهم، وغفر لهم الذنوب بالاستغفار، والندم توبة لهم.

قال رزين: روي أن آدم قال: إن الله أعطى أمة محمد ﷺ أربع كرامات لم يعطينها كانت توبتي بمكة وأحدهم يتوب في كل مكان، وسلبت ثوبي حين عصيت وهم لا يسلبون، وفرق بيني وبين زوجتي، وأخرجت من الجنة.

قال: وكان بني إسرائيل إذا أخطأ أحدهم حرم عليه طيب الطعام، وتصبح أخطائه مكتوبة على باب داره[(٢)].

ومنها: أنهم لا يعذبون بعذاب عذب به من قبلهم.

ومنها: إذا شهد الاثنان منهم لعبد بخير وجبت له الجنة، وكانت الأمم السابقة إذا شهد منهم مائة لعبد بخير وجبت له الجنة.

ومنها: أنهم أقل الأمم عملاً وأكثرهم أجراً وأقصرهم أعماراً، وكان الرجل من الأمم السابقة أعبد منهم بثلاثين ضعفاً وهم خير منه بثلاثين ضعفاً.

ومن فضائلهم وخصائصهم: أنهم نزلوا منـــزلة العدول من الحكام فيشهدون على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلغوهم الرسالة، كما أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ**

---

(١) أخرجه الديلمي (٢/٣١٢، رقم ٣٤٠٩).

(٢) انظر: فيض القدير (٥/٦).

شَهِيداً﴾[البقرة: ١٤٣] .

معنى قوله **﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾** عدول خيار.

وقال ابن الملقن: أنا أرى أن وسطاً في هذا الموضع بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل: وسط الدار، وأرى أن الله تعالى إنما وضعهم بذلك لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه كالنصارى، ولا أهل تقصير فيه كاليهود، ومعنى قوله: **﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾** أي: على الأمم أن رسلهم بلغوهم الرسالة، ومعنى: **﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾** أي: ويكون النبي ﷺ معدلاً ومزكياً لكم، وذلك أن الله يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم يقول لكفار الأمم: ألم يأتكم نذير فينكرون ويقولون: ما جاءنا من نذير، فيسأل الأنبياء عن ذلك فيقولون: كذبوا فقد بلغناهم، فيسألهم البينة وهو أعلم بهم إقامة للحجة، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون لهم أنهم قد بلغوا فتقول الأمم الماضية: من أين علموا وأنهم أتوا بعدنا؟ فيسأل هذه الأمة فيقولون: أرسلت إلينا رسولاً وأنزلت إلينا كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل، وأنت صادق فيما أخبرت، ثم يؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم.

ومن فضائل هذه الأمة: أن الله تعالى سماها صالحين فقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**[الأنبياء: ١٠٥] أي: كتبنا في الكتب المنـــزلة من بعد اللوح المحفوظ أن الأرض أي: أرض الجنة، وقيل: الأرض التي فتحها المسلمون كالحجاز والعراق وغيرها، يرثها عبادي الصالحون أي: أمة محمد، فسماهم صالحين كما في الآية الأخرى: **﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾**[المائدة: ٨٤].

ومن فضائلها: أنه وصفها بالفلاح فقال تعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾** [المؤمنون: ١].

ووصفها بالخير فقال: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾**[آل عمران: ١١٠] وقيل: معناه كنتم خير أمة في اللوح المحفوظ.

قال بعض المفسرين: معنى الآية: أنتم خير أمة أخرجت للناس لأنكم تأمرونهم بالمعروف وتنهوهم عن المنكر، وتردونهم إلى الإسلام، وتدخلوا إلى الجنة وتمنعوهم دخول النار.

ومن فضائلها: أنه يعطى كل منهم يهودياً أو نصرانياً فيقال له: يا مسلم هذا

فداؤك من النار، ويدل عليه ما رواه ابن ماجه في سننه [١] عنه ﷺ أنه قال: «**إن أمتي أمة مرحومة فإذا كان يوم القيامة يدفع إلى كل رجل رجل من أهل الشرك، فقيل: هذا فداؤك من النار**» [٢].

قال القرطبي: قال علماؤنا: ظاهر هذا الحديث وغيره من الأحاديث الواردة في هذا المعنى الإطلاق والعموم، وليست كذلك وإنما هي في ناس مذنبين تفضل الله عليهم بمغفرته ورحمته، فأعطى كلا منهم فكاكاً من النار من الكفار.

واستدلوا على هذا بحديث مسلم أن النبي ﷺ قال: «**يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى**» [٣].

قالوا: ومعنى قوله ﷺ: «**فيغفرها لهم**» أنه يسقط المؤاخذة عنهم بها حتى كأنهم لم يذنبوا، ومعنى وضعها على اليهود والنصارى أنه يضاعف عليهم عذابهم بقدر جرمهم وجرم مذنبي المسلمين، أو أخذوا بذلك وإلا فالله تعالى لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأعراف: ١٦٤] وله سبحانه أن يضاعف لمن يشاء العذاب ويخفف عن من يشاء بحكم إرادته ومشيئته، إذ لا يسأل عما يفعل.

فائدة: جميع الأمم سبعون أمة وهذه الأمة هي خاتمتها وأفضلها، كما ورد في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة**» [٤].

وروى الطبراني في المعجم الأوسط وحسنه الهيثمي [٥] عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن**

---

(١) وقع في الأصل: ما رواه مسلم في صحيحه. ولعل الصواب ما أثبتناه فالحديث أخرجه ابن ماجه عن أنس، وعلق عليه البوصيري في مصباح الزجاجة، وهذا يدل على تفرد ابن ماجه برواية الحديث عن باقي أصحاب الكتب الستة، ومنهم الإمام مسلم.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٣٤/٢، رقم ٤٢٩٢) عن أنس، قال البوصيري (٢٥٧/٤): هذا إسناد ضعيف لضعف كثير وجبارة.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٢٠/٤، رقم ٢٧٦٧) عن أبي موسى.

(٤) أخرجه مسلم (٥٨٥/٢، رقم ٨٥٥) عن أبي هريرة.

(٥) وقع في الأصل: ابن ماجة والترمذي وقال حديث حسن. ولعل الصواب ما أثبتناه فالحديث أخرجه الطبراني في الأوسط، وعلق عليه الهيثمي في مجمع الزوائد، وهو لا يعلق إلا على الأحاديث التي لم ترد في الكتب الستة ومنها سنن الترمذي وابن ماجه.

الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي» [(١)].

فائدة: أمة محمد في الجنة أكثر من نصف أهل الجنة، ويدل عليه ما رواه الترمذي عن بريدة مرفوعاً وحسنه: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون منها من سائر الأمم**» [(٢)].

أفاد هذا الحديث أنهم أكثر من النصف، وأنهم ثلثا أهل الجنة.

سؤال: فإن قيل: جاء في الصحيحين ما يدل على أن هذه الأمة شطر أهل الجنة فقط، ونص الحديث فيهما عن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة**» فكبرنا ثم قال: «**أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة**» فكبرنا ثم قال: «**أما ترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة وسأخبركم عن ذلك، ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة سوداء في ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في ثور أسود**» [(٣)] فما الجمع بين هذا الحديث والحديث الذي رواه الترمذي، فإنهما متنافيان في الظاهر.

فالجواب: كما قاله البرماوي وغيره: أنه ﷺ طمع أن تكون أمته شطر أهل الجنة فأعطاه الله تعالى ذلك، فأخبر أمته ثم زاده على الشطر وأخبره به، فأخبر أمته ثانيا، فاندفع الثاني وزال الإشكال والحمد لله على كل حال.

وإنما قال لهم رسول الله ﷺ أول مرة: «**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة**»

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨٩/١، رقم ٩٤٢) قال الهيثمي (٦٩/١٠): فيه صدقة بن عبد الله السمين، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة، فإسناده حسن. وابن عدي (١٢٧/٤، ترجمة ٩٦٩) والذهبي في الميزان (١٧٥/٤ ترجمة ٤٥٤١) كلاهما في ترجمة عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب.

(٢) أخرجه الترمذي (٦٨٣/٤، رقم ٢٥٤٦) وقال: حسن. وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (١٤٣٤/٢، رقم ٤٢٨٩)، والدارمي (٤٣٤/٢، رقم ٢٨٣٥)، وابن حبان (٤٩٨/١٦، رقم ٧٤٥٩)، والحاكم (١٥٥/١، رقم ٢٧٣) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأحمد (٣٤٧/٥، رقم ٢٢٩٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٩٢/٥، رقم ٦١٦٣)، ومسلم (٢٠٠/١، رقم ٢٢١)، والترمذي (٦٨٤/٤، رقم ٢٥٤٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٤٣٢/٢، رقم ٤٢٨٣)، والطيالسي (٤٣/١، رقم ٣٢٤)، وأحمد (٣٨٦/١، رقم ٣٦٦١)، والبزار (٢٣٧/٥، رقم ١٨٥٠)، وأبو عوانة (٨٤/١، رقم ٢٥٠)، والبيهقي (١٨٠/٣، رقم ٥٤١٠).

وثانياً: «**أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة**» وثالثاً: «**أما رضيتم أن تكونوا شطر أهل الجنة**» لأن ذلك أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم، فإن إعطاء الإنسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به، وأيضاً له حكمة أخرى وهو أنهم في كل مرة كانوا يشكرون الله ويكبرونه ويحمدونه على إعطائهم ذلك، كما يدل عليه قوله: «فكبرنا» أي: عظمنا ذلك أي قلنا: الله أكبر، ففي التكرار رحمة بهم على تحديد شكر الله وتكبيره وحمده على كثرة نعمه.

ومن فضائلها ما ذكره الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال موسى عليه السلام يارب هل خلقت أمة أكرم عليك من أمتي؟ قال الله: يا موسى إن فضل أمة محمد ﷺ على سائر الخلق كفضلي على جميع خلقي. قال: يارب ليتني رأيتهم. قال: يا موسى إنك لن تراهم، ولو أردت أن تسمع كلامهم أسمعتك. قال: يارب فإني أريد أن أسمع كلامهم. قال الله عز وجل: يا أمة أحمد، فأجبنا كلنا من أصلاب آبائنا وأرحام أمهاتنا، لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. قال الله تعالى: يا أمة أحمد إن رحمتي سبقت غضبي، وعفوي سبق عقابي، وقد أعطيتكم قبل أن تسألوني، وقد غفرت لكم قبل أن تعصوني، من جاء في يوم القيامة يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسولي وعبدي جعلت الجنة مأواه، وإن كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر**».

وذكر الثعلبي أيضاً عن كعب الأحبار: أن موسى عليه الصلاة والسلام نظر في التوراة فقال: إني أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الدجال، رب أجعلهم أمتي. قال: هي أمة محمد ﷺ يا موسى.

فقال رب إني أجد أمة هي الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا: نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة محمد ﷺ.

فقال: ربي إني أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم، وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار، وهم المستجيبون والمستجاب لهم، الشافعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة محمد ﷺ.

فقال: إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله، وإذا هبط وادياً حمد الله، الصعيد لهم طهر، والأرض لهم مسجد، حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء، غر محجلون من آثار الوضوء

فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة محمد ﷺ.

فقال: رب إني أجد أمة إذا همَّ أحدهم بحسنة و لم يعملها كتبت له حسنة بمثلها، وإن عملها ضعفت عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وإذا همَّ بسيئة و لم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة مثلها فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة محمد ﷺ .

فقال: رب إني أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات، فلا أجد أحد منهم إلا مرحوماً فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة محمد ﷺ.

فقال: رب إني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم، يلبسون ثياب أهل الجنة، يصفون في صلاتهم صفوف الملائكة، أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل، لا يدخل النار أحد منهم أبداً، إلا من رمى الحساب مثل ما يرمى الحجر من وراء الشجر فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة محمد صلوات الله عليه وسلامه عليه.

فلما عجب موسى من الخير الذي أعطى الله محمداً ﷺ وأمته قال: ياليتني من أصحاب محمد، فأوحى الله ﷻ إليه ثلاث آيات: ﴿**يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي**﴾ إلى قوله: ﴿**دَارَ الفَاسِقِينَ**﴾[الأعراف: ١٤٤، ١٥٤] ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٩] قال: فرضي موسى كل الرضا.

لطيفة: وهي خاتمة قال في نزهة المجالس: جاء في الخبر: أنه يؤتى يوم القيامة برجل من أمتي له ذنوب كعدد رمل عالج، فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول له: انطلقوا به الى النار، فيلتفت فيقول الله: ما لك تلتفت؟ فيقول: يا رب خرجت من الدنيا، وما انقطع رجائي منك، وأمرت بي إلى النار وما انقطع رجائي منك، فيقول الله تعالى: وعزتي وجلالي ما كان هذا ظن عبدي بي، ولكن هذه دعوة ادعاها علي أشهدكم يا ملائكتي أني قد قبلت دعوته وغفرت له.

***

المجلس الأربعون

في ذكر ما في حديث ابن عباس من الفوائد، وذكر بعض فضل قيام الليل، وذكر بعض فضل ميمونة أم المؤمنين

الحمد لله الذي غمر العباد بلطائفه وعمر قلوبهم بنور الدين وفضائله، وتفضل على العارفين في معصيته برأفته ورحمته وعواطفه، وأشغل العارفين بخدمته وأمنهم من مخاوفه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عابد لربه وعارف، وأشهد أن محمد عبده ورسوله نبي قام الليالي حتى تورمت قدماه، ودعاه ربه الى حضرته وأدناه، ﷺ أبداً، وعلى آله وأصحابه بحار الندى، ومفاتيح الهدى.

قَالَ البُخَارِي :

بَابُ التَخفيف في الوضُوء

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَمْرٍو قَالَ أَخْبَرَنِي كُرَيْبٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَامَ حَتَّى نَفَخَ -أي حتى غط- ثُمَّ صَلَّى -وَرُبَّمَا قَالَ اضْطَجَعَ حَتَّى نَفَخَ- ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى.

ثُمَّ حَدَّثَنَا به سُفْيَانُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ عَنْ عَمْرٍو عَنْ كُرَيْبٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ لَيْلَةً، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَتَوَضَّأَ مِنْ شَنٍّ مُعَلَّقٍ وُضُوءاً خَفِيفاً - يُخَفِّفُهُ عَمْرٌو وَيُقَلِّلُهُ - وَقَامَ يُصَلِّي فَتَوَضَّأْتُ نَحْواً مِمَّا تَوَضَّأَ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ - وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ عَنْ شِمَالِهِ - فَحَوَّلَنِي فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ اضْطَجَعَ، فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، ثُمَّ أَتَاهُ الْمُنَادِي فَآذَنَهُ بِالصَّلَاةِ، فَقَامَ مَعَهُ إِلَى الصَّلَاةِ، فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ. قُلْنَا لِعَمْرٍو إِنَّ نَاساً يَقُولُونَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَنَامُ عَيْنُهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ. قَالَ عَمْرٌو سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[الصافات: ١٠٢][1].

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «وربما قال اضطجع»: أي كان سفيان يقول تارة نام، وتارة اضطجع، وليسا مترادفين بل بينهما عموم وخصوص من وجه، لكنه لم يرد إقامة أحدهما مقام الآخر، بل كان إذا روى الحديث مطولا قال اضطجع فنام كما سيأتي، وإذا اختصره قال نام أي مضطجعا أو اضطجع أي نائما.

قوله: «ثم حدثنا»: يعني أن سفيان كان يحدثهم به مختصرا ثم صار يحدثهم به مطولا. =

«ميمونة» هي أم المؤمنين بنت الحارث رضي الله عنها، كان اسمها «برة» فسماها النبي ﷺ «ميمونة» تزوجها النبي ﷺ بعد خيبر، لما توجه الى مكة معتمراً سنة سبع.

قال المحب الطبري لما خطبها النبي ﷺ جعلت أمرها الى العباس ﷺ زوج أختها لبابة الكبرى أم الفضل، فزوجها إياه وهو محرم، فلما رجع عليها قبل وصوله ﷺ

= قوله: «ليلة فقام»: كذا للأكثر، ولابن السكن: «فنام» بالنون بدل القاف وصوبها القاضي عياض لأجل قوله بعد ذلك «فلما كان في بعض الليل قام» انتهى.

ولا ينبغي الجزم بخطئها لأن توجيهها ظاهر وهو أن الفاء في قوله «فلما» تفصيلية، فالجملة الثانية وإن كان مضمونها مضمون الأولى لكن المغايرة بينهما بالإجمال والتفصيل.

قوله: «فلما كان»: أي رسول الله ﷺ. «في بعض الليل» وللكشميهني «من» بدل «في»، فيحتمل أن تكون بمعناها ويحتمل أن تكون زائدة وكان تامة، أي فلما حصل بعض الليل.

قوله: «شن»: أي القربة العتيقة.

قوله: «معلق»: ذكر على إرادة الجلد أو الوعاء، وقد أخرجه بعد أبواب بلفظ معلقة.

قوله: «يخففه عمرو ويقلله»: أي يصفه بالتخفيف والتقليل. وقال ابن المنير: يخففه أي لا يكثر الدلك، ويقلله أي لا يزيد على مرة مرة. قال: وفيه دليل على إيجاب الدلك، لأنه لو كان يمكن اختصاره لاختصره، لكنه لم يختصره. انتهى. وهي دعوى مردودة، فإنه ليس في الخبر ما يقتضي الدلك، بل الاقتصار على سيلان الماء على العضو أخف من قليل الدلك.

قوله: «نحوا مما توضأ»: قال الكرماني. لم يقل مثلاً لأن حقيقة مماثلته ﷺ لا يقدر عليها غيره انتهى.

وقد ثبت في هذا الحديث كما سيأتي «فقمت فصنعت مثل ما صنع» ولا يلزم من إطلاق المثلية المساواة من كل جهة.

قوله: «فآذنه»: بالمد أي أعلمه، وللمستملي «فناداه».

قوله: «فصلى و لم يتوضأ»: فيه دليل على أن النوم ليس حدثا بل مظنة الحدث لأنه ﷺ كانت تنام عينه ولا ينام قلبه فلو أحدث لعلم بذلك، ولهذا كان ربما توضأ إذا قام من النوم وربما لم يتوضأ.

قال الخطابي: وإنما منع قلبه النوم ليعى الوحي الذي يأتيه في منامه.

قوله: «رؤيا الأنبياء وحى»: رواه مسلم مرفوعاً، وسيأتي في التوحيد عن أنس. ووجه الاستدلال بما تلاه من جهة أن الرؤيا لو لم تكن وحيا لما جاز لإبراهيم عليه السلام الإقدام على ذبح ولده. وأغرب الداودي الشارح فقال: قول عبيد بن عمير لا تعلق له بهذا الباب. وهذا إلزام منه للبخاري بأن لا يذكر من الحديث إلا ما يتعلق بالترجمة فقط، و لم يشترط ذلك أحد. وإن أراد أنه لا يتعلق بحديث الباب أصلا فممنوع والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٢٣٩).

تزوجها وهو حلال.

وحمل الطبرى رواية: «وهو محرم» على أنه تزوجها وهو داخل الحرم أي: لا في الإحرام، لأن العقد في الإحرام لا يصح فلابد من تأويله بذلك.

واعترض عليه بأنه كان من خصائصه ﷺ أن نكاحه ينعقد في الإحرام كما قال في الروضة، بخلاف غيره من أمته.

وكانت قبل رسول الله ﷺ متزوجة بإبراهيم بن عبد العزى.

ماتت بمكان بين مكة والمدينة يقال له «سرف» وهو الموضع الذي دخل عليها فيه رسول الله ﷺ سنة ست وستين، وصلى عليها ابن عباس ودخل قبرها هو وعبد الله بن شداد وكل منهما ابن أختها، وهي آخر أمراة تزوجها رسول الله ﷺ.

قال القرطبي: والحاصل أن ابن عباس قال: «**بت عند خالتي ميمونه ليلة فنام النبي ﷺ من الليل، فلما كان من بعض الليل**».

وجاء في رواية: «**في بعض الليل**».

وحينئذ يحتمل أن تكون «**كان**» هنا ناقصة واسمها مستتر فيها، راجع الى النبي ﷺ وخبرها قوله: «**في بعض الليل**»، ويحتمل أن تكون تامة وفاعلها المستتر فيها العائد إلى النبي ﷺ أما على رواية: «**من بعض الليل**» فتكون «**من**» زائدة «**وبعض الليل**» هو الفاعل «بكان».

«**قام رسول الله ﷺ فتوضأ من شن معلق**» أي: قربة عتيقة معلقة، وقال: «**معلق**» بالتذكير دون التأنيث بتأويل الجلد أو السقاء أو الوعاء.

وجاء في رواية: «**معلقة**» بالتأنيث باعتبار القربة.

فائده: هذه القربة التي توضأ منها رسول الله ﷺ وابن عباس أصلها من جلدة شاة ميمونة زوجة النبي ﷺ فإن شاتها لما ماتت قال رسول الله ﷺ: «**هلا انتفعتم بأهابها**»[1].

ثم دبغ أهابها بعد ذلك وجعل منه شناً، فكان رسول الله ﷺ يتوضأ منه. (ذكر

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٥٤٣، رقم ١٤٢١)، ومسلم (١/٢٧٦، رقم ٣٦٣)، والنسائي (٧/١٧٢، رقم ٤٢٣٥)، ومالك (٢/٤٩٨، رقم ١٠٦٢)، والشافعي (١/١٠)، وأحمد (١/٣٢٩، رقم ٣٠٥٢)، وابن حبان (٤/١٠٠، رقم ١٢٨٤)، وأبو عوانة (١/١٧٩، رقم ٥٥٢)، والبيهقي (١/٢٣، رقم ٨١) عن ابن عباس.

هذه الفائدة أبو بكر بن العربي).

«**وضوءاً خفيفاً -يخففه عمر ويقلله- وقام يصلي فتوضأت نحو ما توضأ**» وإنما قال: «**نحو ما توضأ**» و لم يقل: «مثل مما توضأ» لأن حقيقة مماثلته ﷺ لا يقدر عليه غيره.

«**ثم جئت فقمت عن يساره، وربما قال سفيان: عن شماله. فحولني فجعلني عن يمينه، ثم صلى ما شاء الله، ثم اضطجع فنام حتى نفخ، ثم أتاه المنادي فآذنه بالصلاة، فقام معه إلى الصلاة ولم يتوضأ، قلنا لعمرو: إن ناساً يقولون: إن رسول الله ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه؟ قال عمرو: سمعت عبيد بن عمير يقول: رؤيا الأنبياء وحي، ثم قرأ ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾**[الصافات: ١٠٢]».

قوله: «**وضوءاً خفيفاً -يخففه عمرو ويقلله-**» هذا إدراج بين ألفاظ ابن عباس من سفيان بن عيينة، والمعنى: أن عمرو بن دينار وصف وضوء رسول الله ﷺ الذي توضأ هذه الليلة حين نام بالتخفيف والتقليل.

سؤال: فإن قيل: ما الفرق بين التخفيف والتقليل؟

جوابه: أن التخفيف من باب الكيف ويقابله الثقيل من باب الكم، ويقابله التكثير وإيضاًحه: أراد بالتخفيف أن كيفية وضوءه ﷺ أنه كان مخففاً أي: اقتصر فيه على تمام غسل الأعضاء دون إمرار اليد عليها، ولو أمر يده عليها لم يكن مخففاً بل مكثراً.

وأراد بالتقليل أن كمية غسل كل عضو مرة مع أنه كان ﷺ يتوضأ ثلاثاً ثلاثاً للفضل، والمرة الواحدة بالنسبة الى الثلاث تقليل.

واعلم أن هذا حديث جليل مشتمل على فوائد كثيرة:

منها: أن فيه دلالة على أن نومه ﷺ مضطجعاً لا ينقض وضوءه، وكذلك سائر الأنبياء، لأن يقظة قلوبهم تمنعهم من الحدث، لأنهم كانوا تنام أعينهم، وقلوبهم لا تنام، وإنما كانت قلوبهم لا تنام لأن الوحي قد ينـــزل عليهم في المنام فأيقظ الله قلوبهم لذلك ليفهموا الوحي.

واستشكل العلماء ذلك بنومه ﷺ في الوادي عن صلاة الصبح إلى أن طلعت الشمس، فلو كان قلبه مستيقظاً لما نام حتى خرج الوقت.

وأجاب عنه العلماء: بأن الفجر والشمس إنما يدركان بالعين لا بالقلب، فلهذا لم يحس بطلوعهما لأن عينه التي يدرك بها كانت نائمة.

وأما الجواب عنه: بأن قلبه كان ينام في بعض الأوقات فنام في ذلك الوقت، قال ابن الملقن: لكن قال القاضي زكريا في شرح الروض حكاه الشيخ أبو حامد عن بعض أصحابنا قال كان للنبي ﷺ نومان أحدهما: ينام قلبه وعينه، والثاني: عينه دون قبله، فكان نوم الوادي من النوع الأول و لم يستبعده.

ومنها: أن فيه دلالة على أنه يجوز نوم الرجل مع امرأته بغير جماع بحضرة بعض محارمها، وإن كان مميزاً كما نام رسول الله ﷺ مع ميمونه بحضرة ابن أختها عبد الله بن عباس.

وجاء في بعض الروايات أنها كانت حائضاً، و لم يكن ابن عباس يطلب المبيت في ليلة فيها حاجة لرسول الله ﷺ إلى الجماع.

ومنها: أن فيه دلالة على صلة الرحم، وعلى فضل ابن عباس وحذقه على صغر سنه، حيث قام بالليل واقتدى برسول الله ﷺ وفعل كفعله، وكان عمره آنذاك عشر سنوات.

ومنها: أن فيه دلالة على صحة الاقتداء في النافلة وصحة الجماعة فيها، فإن ابن عباس اقتدى به في صلاة الليل.

ومنها: أن فيه دلالة على أن الجماعة تصلى بإمام ومأموم.

ومنها: أن فيه دلالة على صحة صلاة الصبي المميز.

ومنها: أن فيه دلالة على موقف المأموم الواحد عن يمين الإمام، وهذه المسألة مختلف فيها.

فمذهب إمامنا الشافعي أن السنة أن يقف الذكر بالغاً كان أو صبياً عن يمين الإمام، ولو وقف عن يساره وخلفه لم تبطل صلاته، لكن يستحب للإمام إذا اقتدى به واحد ووقف عن يساره يحوله إلى يمينه، كما حول النبي ﷺ ابن عباس إلى يمينه.

فائدة: ذكر الشيخ برهان الدين المحدث أن المحولين من اليسار إلى اليمين في الصلاة ثلاثة عبد الله، وهو في الصحيحين[1].

وجابر بن عبد الله كما في صحيح مسلم[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١/٦٤، رقم ١٣٨)، ومسلم (١/٥٢٨، رقم ٧٦٣). وأخرجه أيضاً: أبو داود (١/١٦٦، رقم ٦١٠)، وابن ماجه (١/٣١٢، رقم ٩٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٣٠١، رقم ٣٠٠٦). =

وجبار بن صخر كما في مسند أحمد[١].

وزاد الشيخ أبو ذر رابعاً وهو حذيفه بن اليمان، وقال: إنه في معجم الطبراني الأوسط [٢].

وذهب أبو حنيفة إلى أن موقف المأموم الواحد خلف الإمام لا عن يمينه وهذا الحديث يرد عليه.

وذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أن المأموم الواحد إذا وقف عن يسار الإمام تبطل صلاته وهذا الحديث يرد عليه.

لكن عند الشافعي إذا أرادت المرأة أن تقتدي بالرجل فالسنة أن تقف خلفه لا عن يمينه، ولو وقفت عن يمينه جاز لكنه خلاف السنة.

قال العلماء: وإذا اقتدى بالإمام ووقف عن يمينه ثم جاء آخر وقف عن يساره، وحينئذ يستحب أن يتقدم الإمام أو يتأخر ليصيروا وراءه صفاً، وتأخرهما أفضل، هذا إذا لحق الثاني الإمام في القيام أما إذا لحقه في التشهد أو السجود فلا تقدم ولا تأخر حتى يقوموا.

نعم لنا شخص لا يستحب له الوقوف عن يمين الإمام ولا عن يساره ولا خلفه، بل يؤمر بالوقوف في جهة أخرى، والحال أن كلاً من الإمام والمأموم يصلي في أرض مستوية خارجة عن مكة شرفها الله تعالى، وصورته: فيما إذا اقتدى الإنسان بإمام عجز عن الصلاة قائماً وقاعداً فصلى مضطجعاً على جنبه، فلا يأتي للمأموم أن يقف عن يمينه أو يساره لأن يمين الإمام إلى جهة الأرض، ويساره إلى السماء، أو بالعكس ولا خلف الإمام لأن الانفراد مكروه، فتعين أن يقف إما عند رجلي إمامه، وإما عند رأسه وهو الأولى.

ومنها: أن فيه دلالة على أن يستحب للإمام أن يعلم المأموم إذا قصر في شيء من السنن وإن كان في الصلاة، كما علم رسول الله ﷺ ابن عباس في الصلاة لما وقف عن يساره وحوله إلى يمينه.

ومنها: أن فيه دلالة على أنه يستحب للمؤذن أن يعلم الإمام بقرب إقامة

= وأخرجه أيضاً أبو داود (١/١٧١، رقم ٦٣٤)، وابن حبان (٥/٥٧٢، رقم ٢١٩٧).

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٢١)، قال الهيثمي (٢/٩٥): فيه شرحبيل بن سعد، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/٢٦، رقم ٥٦٨٩)، قال الهيثمي (٢/١٠٧): رجاله موثقون.

الصلاة، وأن الإمام إذا أعلمه المؤذن بذلك يستحب له أن يقوم معه، هذا إذا لم يكن الإمام حاضراً في المسجد، أما إذا كان في المسجد فالسنة أن لا يقيم المؤذن الصلاة إلا بإذنه.

ومنها: أن فيه دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصلي بالوضوء الواحد فرضاً ونوافل، وهذا لا شك في جوازه، بل يجوز أن يصلي فروضاً عديدة ونوافل بوضوء واحد.

ومنها: أن فيه دلالة على أنه يجوز أن يصلي الفريضه بوضوء النافلة، كما إذا توضأ الإنسان لصلاة الضحى مثلاً فله أن يصلي به فرضاً، بل فروضاً ونوافل، بل يجوز لمن توضأ لمس المصحف أن يصلي به الفرض والنفل وغير ذلك.

نعم لنا شخص توضأ لنافلة أو صلاة جنازة أو مس مصحف ولا يجوز له أن يصلي به الفرض، وصورته: في دائم الحدث كمن به سلس البول إذا نوى بوضؤه استباحة الفرض استباحه، واستباح معه النفل استباحه دون الفرض، لأن الأقوى لا يتبع الأضعف، لكن يباح له أن يصلى به صلاة الجنازة، لأنها كالنفل في جواز الترك، وأن يمس به المصحف، أما إذا نوى استباحة مس المصحف فإنه لا يباح له به الفرض ولا النفل، ولا صلاة الجنازة، وإنما يباح له به مس المصحف، وإن دائم الحدث كالمتيمم في ذلك كله.

ومنها: أن فيه دلالة على أن النوم الخفيف لا ينقض الوضوء، وهو المسمى بالنعاس كما قدمنا ذلك، وقد قدمنا أن من طرأ عليه النوم إن سمع كلام الحاضرين إذ لو كانوا عنده فهو نعاس لا ينتقض به الوضوء، وإلا فهو نوم ينقض.

ومنها: أن فيه دلالة على أنه يستحب للمتهجد أن يضطجع على جنبه بعد التهجد.

ومنها: أن فيه دلالة على أن المأموم إذا تقدم على الإمام تبطل صلاته، قال العلماء: والعبرة في التقدم والتأخر في حق القائم بالعقب، فإذا تقدم بالعقب المأموم على عقب الإمام بطلت صلاته، ولو وقف المأموم بجانب الإمام وشك في التقدم عليه صحت صلاته، لأن الأصل عدم التقدم.

نعم لنا شخص تقدم على الإمام بعقبيه، ومع ذلك تصح صلاته وصورته: أن يصلي الإمام قاعداً لمرض، وكذلك المأموم فإن الإعفاء بالتقدم والتأخر في المصلي قاعداً بمحل القعود، وهو الإلية فإذا ساوى محل قعود المأموم محل قعود الإمام صحت

الصلاة، وإن قدم المأموم رجليه على الإمام.

ومنها: أن فيه دلالة على أنه يستحب المبيت عند العالم ليراقب أفعاله فيقتدي به وينقلها.

ومنها: أن فيه دلالة على أن النافلة كالفريضة في تحريم الكلام فيها.

ومنها: أن فيه دلالة على أن من الأدب أن يمشي الصغير عن يمين الكبير، والمفضول عن يمين الفاضل.

ومنها: أن فيه دلالة على أن الفعل القليل لا يبطل الصلاة بخلاف الكثير، فالفعل القليل كالضربتين والخطوتين، والكثير كثلاث ضربات وثلاث خطوات.

نعم لنا شخص خطى في صلاته خطوة واحدة بل بعض خطوة بطلت صلاته، ولنا آخر خطى عشرين خطوة بل ألف خطوة وأكثر لم تبطل.

وصورة الأولى: إذا نوى أن يخطو ثلاث خطوات متواليات فخطى منها خطوة بطلت صلاته، وكذا لو شرع فيها عملاً بنيته.

وصورة الثانية: إذا خطى في صلاته خطوتين مثلاً ووقف ثم خطوتين ووقف وهكذا إلى مائة خطوة وأكثر لا تبطل لأن الثلاثة تبطل إذا توالت، وإن تفرقت فلا.

من القليل الإشارة برد السلام، واللبس الخفيف كلبس خاتم أو نعل، وقتل قمله فلا تبطل الصلاة بشيء من ذلك، ودم القملة معفو عنه بخلاف جلدها فلا يعفى عنه.

ومنها: أن فيه دلالة على أنه ينبغي للمعلم أن يفتل أذن المتعلم كما فعل رسول الله ﷺ بابن عباس لما أداره وحوَّله إلى جهة يمينه، كما جاء في بعض الروايات أنه ﷺ أخذ بأذنه اليمنى ففتلها [(١)].

وإنما فتل النبي ﷺ أذنه ليحرضه على الفهم، ولينفي عنه النوم، فإنه أعجبه قيامه معه مع صغر سنه.

ويقال: إن المعلم إذا تعهد فتل أذن المتعلم كان أذكى لفهمه.

قال الربيع تلميذ الشافعي: ركب الشافعي يوماً فمشيت بركابه، ولصقت بسرجه، فجعل يفتل شحمة أذني فاستعظمت ذلك منه حتى وقفت على أن النبي ﷺ فعله مع ابن عباس، فعلمت أنه فعله عن أصل.

---

(١) هذه الرواية أخرجها ابن خزيمة (٣/٨٨، رقم ١٦٧٥) وأحمد (١/٢٤٢، رقم ٢١٦٤).

ومنها: أن فيه دلالة على استحباب قيام الليل، وكان واجبا عليه ﷺ بقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**﴾[الإسراء: ٧٩] ثم نسخ على الأصح.

وقد جاءت أخبار وآثار عن السلف الصالح في فضل قيام الليل:

قال بعض العارفين: ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجات، فحلاوة المناجات ثواب عاجل لأهل الليل [(١)].

قال أبو سليمان رحمه الله: أهل الليل في ليلتهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا [(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**» [(٣)].

وقال بعضهم: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام كذب من ادعى محبتي وإذا جن ليله نام عني.

وقال الفضيل رحمه الله: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم إنك محروم قد

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٣٥٨).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/٣٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (٥/٣٤٣، رقم ٢٢٩٥٦)، قال الهيثمي (٣/١٩٢): رجاله ثقات. وابن خزيمة (٣/٣٠٦، ٢١٣٦، ٢١٣٧) وقال: إن صح الخبر. وابن حبان (٢/٢٦٢، رقم ٥٠٩)، والطبراني في الكبير (٣/٣٠١، رقم ٣٤٦٦)، قال الهيثمي (٢/٢٥٤): رجاله ثقات. والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٠٤، رقم ٣٨٩٢)، وفي السنن الكبرى (٤/٣٠٠، رقم ٨٢٦٢) عن أبي مالك الأشعري.

وأخرجه الترمذي (٤/٣٥٤، رقم ١٩٨٤) وقال: غريب. والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٢١٥، رقم ٣٣٦٠)، وأحمد (١/١٥٥، رقم ١٣٣٧)، وأبو يعلى (١/٣٣٧، رقم ٤٢٨)، والبزار (٢/ ٢٨١، رقم ٧٠٢) عن علي.

وأخرجه أحمد (٢/١٧٣، رقم ٦٦١٥)، والطبراني في الكبير (١٣/٤٦، رقم ١٠٣)، قال الهيثمي (٢/٢٥٤): إسناده حسن. والحاكم (١/١٥٣، رقم ٢٧٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (٣/١٢٨، رقم ٣٠٩٠) عن ابن عمرو.

كثرت خطيئتك [١].

وقد أشار إلى هذا بعضهم بقوله:

أراني بعيد الدار لا أقرب الحمى وقد نصبت الساهرين خيام

علامة طردي طول ليلي نائم وغيري يرى أن المنام حرام

وقيل: أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء أن لي عباداً يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إلي وأشتاق لهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون لي وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عن ذلك مقتك، قال: يارب ما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى وكارها، فإذا جنهم الليل أي: سترهم، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلي أقدامهم، وافترشوا إلي وجوههم، وناجوني بكلامي وتلهفوا لي بإنعامي، فمنهم صارخ وباكي، ومنهم متأوه وشاكي، ومنهم قائم وقاعد، ومنهم راكع وساجد، فأول ما أعطيهم ثلاث خصال، الأولى: أن أقذف في قلوبهم من نوري، الثانية: أقبل بوجهي الكريم عليهم، أفترى من أقبلت عليه بوجهي أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه، الثالثة: لو كانت الأرض والسماوات في موازينهم لاستقللتها لهم [٢].

ولله در القائل:

فإن لم يكن جفني ووجهي على الثرى بأبوابكم لا كان وجهي ولا جفني

ونقل عن بعض الصالحين أنه كان يقوم الليل فنام ليلة فقيل: قم فصل أما علمت أن مفاتيح الجنة مع أصحاب الليل فهم خزانها.

ونقل عن أبي سليمان الداراني أنه قال: نمت ليلة وإذا بجارية أيقظتني وقالت لي: تنام وأنا أراك في الجنة منذ خمسين عاماً.

ومن كلامه رضي الله عنه كن نجماً فإن لم تستطع فشمساً.

قيل: معناه إن قدرت أن تقوم الليل كله فافعل كالنجم فإنه يطلع في الليل كله، فإن لم تستطع فصل بعض الليل كالقمر يطلع بعض الليل، فإن لم تستطع فكن كالشمس تطلع نهاراً أي: فلا تعص الله في النهار.

ونقل اليافعي عن بعض الصالحين أنه كان يحيي الليل فنام ليلة عن ورده، فرأى في

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٣٥٥).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/٣٥٨).

منامه حوراً قد دخلن عليه من محرابه وهن حسان وفيهن جارية سوداء قبيحة المنظر فسألهن من أنتن؟ فقلن: نحن لياليك الماضية في العبادة، وهذه السوداء هي الليلة التي نمت فيها.

ويروى عن أم سليمان نبي الله صلوات الله وسلامه عليه قالت: له يا بني لا تكثر من النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة.

لطيفة: قال في الروض الفائق دخل أبو زيد البسطامي رحمه الله الكتاب وهو صغير فلما وصل إلى قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[المزمل: ١، ٢] فقال لأبيه طيفور بن عيسى يا أبت من ذا الذي يقول له الحق سبحانه وتعالى هذا الخطاب فقال: يا بني ذلك محمد ﷺ ثم خفف عنه في سورة طه، فلما قرأ ووصل إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾[المزمل: ٢٠] قال: يأبت إني أسمع أن طائفة كانو يقومون من الليل، قال أبوه: نعم أولئك أصحابه عليه الصلاة والسلام، قال: يا أبت فأي خير في ترك شيء فعله رسول الله ﷺ وأصحابه، فكان أبوه بعد ذلك يقوم الليل كله، فانتبه أبو يزيد ليلة فقال: يا أبت علمني أصلي معك فقال: يا بني أرقد فإنك صغير بعد، فقال: يا أبت إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، وقال لي ربي ﷻ ما فعلت؟ أقول لربي: قلت لأبي: علمني أصلي معك قال: أرقد فإنك صغير بعد، فقال أبوه: لا والله ما أريد أن تقول ذلك، ثم علمه يصلي معه وكان بعد ذلك يقوم الليل ويصلي عامته.

ولله در القائل:

أيهـــا القائمون في سندس الليل ... وقـــد أســـبلت ذيـــول الظـــلام
قـــد وصلتم إلى الوصال فطيبوا ... وانـــــزلوا وأبشـــــروا بمـــــرام
هـــذه دارنـــا ونحـــن كـــرام ... ربحـــت عـــندنا ضـــيوف الكرام
إن طلبـــتم قـــرباً وجدتم لدينا ... كـــل مـــا تشـــتهي نفوس الأنام
قـــد رفعـــنا حجابنا فاشهدونا ... وادخـــلوا خـــلوة الرضـــا بسلام

ولقد أحسن إمامنا الأعظم الإمام الشافعي حيث قال:

إذا هجـــع الـــنوم أسبلت عبرتي ... وأنشدت بيتاً وهو من أعظم الشعر
أليـــس مـــن الخسران أن لياليا ... تمـــر بلا نفع وتحسب من عمرى

المجلس الحادي والأربعون

في الكلام على باب التسمية على كل حال، وفي ذكر فوائد كثيرة متعلقة بالتسمية والجماع وغير ذلك

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان ومنَّ عليه بنطق اللسان، وحفظه بأسمائه الحسان ليطرد عنه كيد الشيطان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد ولد عدنان، وربيعة وقحطان، وعلى آله وأصحابه الشجعان الفرسان.

قَالَ البُخَارِي:

بَابُ التَّسْمِيةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَعِنْدَ الوِقَاعِ

أي باب في بيان استحباب التسمية على كل حال أي: في الوضوء والغسل والتيمم والذبح وغير ذلك، حتى عند الوقاع، واستدل البخاري على عموم استحباب التسمية حتى عند الوقاع بالحديث الآتي.

سؤال: أفاده الكرماني وغيره وهو: **فإن قيل:** لأي شيء لم يذكر البخاري هذا الباب قبل ابتداء الوضوء الذي هو محله فإن التسمية أي: قول بسم الله إنما تستحب في الوضوء قبل غسل الوجه لا بعده، فكيف ذكرها بعد باب غسل الوجه ؟

جوابه: أن البخاري لا يقصد حسن الترتيب بين الأبواب، ولهذا ذكر باب ما يقوله عند الخلاء بين أبواب الوضوء، ولو كان قصده المناسبة وحسن الترتيب لذكره قبل كتاب الوضوء، بل قصده إنما هو في نقل الحديث وما يتعلق بتصحيحه لا غير، ونعم المقصد.

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ كُرَيْبٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ، لَمْ يَضُرَّهُ» [1].

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «لم يضره»: في رواية شعبة عند مسلم وأحمد «لم يسلط عليه الشيطان أو لم يضره الشيطان»، وفي مرسل الحسن عن عبد الرزاق «إذا أتى الرجل أهله فليقل بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ولا تجعل للشيطان نصيبا فيما رزقتنا، فكان يرجى إن حملت أن يكون ولدا صالحا» واختلف في الضرر المنفي بعد الاتفاق على ما نقل عياض على عدم الحمل على العموم في =

في إسناد هذا الحديث ثلاثة من التابعين، وقال ابن الملقن: رواته ما بين مكي ومدني وكوفي ورازي وبصري.

قوله: «**يبلغ به النبي ﷺ**» كلام كريب أي: تقبل ابن عباس بالحديث النبي ﷺ، ومقصود كريب وغرضه: أن هذا الحديث ليس موقوفاً على ابن عباس، بل مسند إلى النبي ﷺ إما بواسطة بأن سمعه من صحابي من الرسول، وإما بدونها ولما لم يكن قاطعاً بأحدهما و لم يرد بيانه ذكره بهذه العبارة.

= أنواع الضرر، وإن كان ظاهرا في الحمل على عموم الأحوال من صيغة النفي مع التأبيد، وكان سبب ذلك ما جاء في بدء الخلق «إن كل بني آدم يطعن الشيطان في بطنه حين يولد إلا من استثنى» فإن في هذا الطعن نوع ضرر في الجملة، مع أن ذلك سبب صراخه. ثم اختلفوا فقيل المعنى: لم يسلط عليه من أجل بركة التسمية، بل يكون من جملة العباد الذين قيل فيهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر: ٤٢] ويؤيده مرسل الحسن المذكور، وقيل: المراد لم يطعن في بطنه، وهو بعيد لمنابذته ظاهر الحديث المتقدم، وليس تخصيصه بأولى من تخصيص هذا، وقيل: المراد لم يصرعه، وقيل: لم يضره في بدنه.

وقال ابن دقيق العيد: يحتمل أن لا يضره في دينه أيضاً، ولكن يبعده انتفاء العصمة. وتعقب بأن اختصاص من خص بالعصمة بطريق الوجوب لا بطريق الجواز، فلا مانع أن يوجد من لا يصدر منه معصية عمداً وإن لم يكن ذلك واجبا له.

وقال الداودي معنى: «لم يضره» أي لم يفتنه عن دينه إلى الكفر، وليس المراد عصمته منه عن المعصية.

وقيل لم يضره بمشاركة أبيه في جماع أمه كما جاء عن مجاهد: «أن الذي يجامع ولا يسمي يلتف الشيطان على إحليله فيجامع معه» ولعل هذا أقرب الأجوبة، ويتأيد الحمل على الأول بأن الكثير ممن يعرف هذا الفضل العظيم يذهل عنه عند إرادة المواقعة والقليل الذي قد يستحضره ويفعله لا يقع معه الحمل، فإذا كان ذلك نادراً لم يبعد.

وفي الحديث من الفوائد أيضاً:

١- استحباب التسمية والدعاء والمحافظة على ذلك حتى في حالة الملاذ كالوقاع.

٢- فيه الاعتصام بذكر الله ودعائه من الشيطان والتبرك باسمه والاستعاذة به من جميع الأسواء.

٣- وفيه الاستشعار بأنه الميسر لذلك العمل والمعين عليه.

٤- فيه إشارة إلى أن الشيطان ملازم لابن آدم لا ينطرد عنه إلا إذا ذكر الله.

٤- فيه رد على منع المحدث أن يذكر الله، ويخدش فيه الرواية المتقدمة: «إذا أراد أن يأتي» وهو نظير ما وقع من القول عند الخلاء، وقد ذكر المصنف ذلك وأشار إلى الرواية التي فيها: «إذا أراد أن يدخل». انظر فتح الباري (٩/٢٢٨ - ٢٢٩).

وقوله: «**إلى أهله**» كناية عن الجماع أي: جماع حلاله، زوجته أو أمته.

وقوله: «**ما رزقتنا**» مفعول ثاني «**لجنب**» والعائد على الموصول محذوف، وهو ضمير مفعول الثاني للرزق، والمراد به الولد، وإن كان اللفظ أعم من ذلك أي: احفظ الولد الذي رزقناه من الشيطان.

وقوله: «**فقضي بينهما**» ضمير راجع إلى الأحد والأهل والقضاء يأتي لمعانٍ ذكر العسكرى أنه أتى منها في القرآن اثنى عشر معنى، والمناسب من معاينة هنا التقدير أو الحكم، فمعنى: «**فقضي بينهما ولد**» أي: فحكم أو فقدر.

وقوله: «**لم يضره**» جواب «لو» وهو بضم الراء على الأفصح والضمير المستتر راجع إلى الشيطان، والبارز إلى الولد أي: لو ثبت قول أحدكم «**بسم الله**» عند إتيان الأهل لم يضر الشيطان ذلك الولد أي: لا يكون له عليه سلطان ببركة اسمه ﷻ، ويكون من جملة العباد المحفوظين المذكورين في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[الحجر: ٤٢].

وقيل: معنى «**لم يضره**» لم يصرعه وهو بعيد.

وقيل: معناه لم يطعن فيه الشيطان عند ولادته، وهو بعيد أيضاً، لأنه لم يسلم من طعنة الشيطان عند الولادة أحد سوى مريم بنت عمران وولدها عيسى عليهما السلام، كما يفيد ذلك ظاهر قوله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان إلا مريم وابنها**» [(١)].

قال النووي: ظاهر هذا الحديث اختصاص هذه الفضيلة بعيسى وأمه، لكن أشار القاضي عياض إلى أن جميع الأنبياء يشاركوهما فيها.

وقيل: معناه لم يضره في بدنه ويحتمل وفي دينه، ورد بأنه غير معصوم.

وقيل: معنى «**لم يضره**» لم يفتنه بالكفر.

ويستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة بعضها متعلق بالتسمية، وبعضها متعلق بالجماع، وبعضها متعلق بالولد، وبعضها متعلق بالشيطان لا بأس من ذكرها وذكر فوائد أخرى معها مناسبة:

الأولى: في الحديث دلالة على استحباب التسمية والوضوء والدعاء في ابتداء

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٨/٤ رقم ٢٣٦٦)، وأحمد (٢٣٣/٢، رقم ٧١٨٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٨٨، رقم ٣١٤٩٦) عن أبي هريرة.

الجماع بأن يقول لمن يريد الجماع قبله: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا.

قال الغزالي: وينبغي أن يقرأ بعد بسم الله سورة الإخلاص ويكبر ويهلل ويقول: بسم الله العلي العظيم اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدرت ولداً يخرج من صلبي، ثم بعد ذلك يجامع [١].

قال: فإذا قرب الإنزال فقل في نفسك ولا تحرك به شفتيك: الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً [٢].

الثانية: قال النووي: لا يكره للإنسان أن يجامع مستقبل القبلة، ولا يستدبرها، لا في البنيان ولا في الصحراء.

لكن قال الغزالي: ينبغي أن لا يستقبل القبلة به إكراماً لها وإن يتغطيا بثوب، وأن يأتيها في كل أربع ليال مرة، وأن يزيد وينقص على حسب حاجتهما في التحصين فإن تحصينها واجب، وإن لم تثبت المطالبة بالوطء [٣] .

قال: ويكره الوطء في الليلة الأولى من الشهر والأخيرة منه وليلة نصفه فيقال: إن الشيطان يحضر الجماع في هذه الليالي، ويقال: إنه يجامع [٤].

قال: وإذا قضى وطره فيمهل عليها حتى تقضى وطرها، ويكره الجماع أول الليل لئلا ينام على غير طهارة [٥].

كما استدل البخاري بالحديث المذكور على استحباب التسمية في كل حال فلهذا قال في الترجمة: باب التسمية على كل حال وعند الوقاع.

سؤال: فإن قيل: الحديث يدل على استحبابها عند الجماع فقط، فمن أين يستفاد العموم من كلامه حتى يصح استدلاله للترجمة به ؟

جوابه: أن العموم وإن لم يكن ظاهر من الحديث لكنه يستفاد من باب أولى، لأنها إذا شرعت في حالة الجماع وهي حالة يؤمر فيها الإنسان بالصمت، فشروعها في غيرها أولى، وظاهر الحديث يقتضي شروعها واستحبابها في كل حال أمر الشرع به

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٤٩).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٥٠).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٥٠).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٥٠).

(٥) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٥٠).

كوضوء وغسل وتيمم وذبح مناسك وأكل وشرب وجماع وصلاة وأذان.

أو نهى الشرع عنها كشرب خمر وأكل مغصوب وغيره، وليس كذلك بل هو محمول على استحبابها في حال لم ينه الشرع عنها، وفي حال أمر الشرع بها لا في جميع أفعال الطاعة.

قال ابن عبد السلام: أفعال العبد على ثلاثة أقسام: قسم يسن فيه التسمية، وقسم لا تسن فيه، وقسم تكره فيه.

فالقسم الذي تسن فيه التسمية: كالغسل والوضوء والتيمم وذبح المناسك وقراءة القرآن والأكل والشرب والجماع.

والذي لا تسن فيه كالصلاة والأذان والحج والعمرة والأذكار والدعوات.

والذي تكره فيه كالمحرمات لأن الغرض من التسمية التبرك في الفعل المسمى عليه، والحرام لا تراد بركته وكثرته، وكذلك المكروه أيضاً لا يسمى عليه.

وقد اختلف علماؤنا فيمن قرأ القرآن على ضرب الدف هل يكفر بذلك أم لا ؟

فقال في الأنوار: يكفر.

وتبعه الحصني في كتابه قمع النفوس.

لكن صوَّب النووي أنه لا يكفر، هذا في ضرب الدف.

أما من سمى أو قرأ القرآن على الطنبور أو شرب الخمر أو الزنا أو نحو ذلك، فقد قال الشيخ سعد الدين في شرح العقائد: لأنه يكفر، وهو مذهب أبي حنيفه.

وعند علمائنا الشافعية يكفر به إذا كان على وجه الاستخفاف، كما قال الرافعي والنووي.

وقال بعضهم: فائدة التسمية حالة الأكل والشرب والجماع واللبس وغيرها طرد الشيطان عن هذه الأشياء، فإنه يستحلها ويشارك الإنسان فيها إذا لم يسم الله تعالى.

ذكر الغزالي في الإحياء عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر، فإذا بشيطان الكافر سمين دهين كاس، وإذا شيطان المؤمن مهزول أشعث عار، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: ما لك ؟ قال: أنا مع رجل إذا أكل سمى فأظل جائعاً، وإذا شرب سمى فأظل عطشاناً، وإذا أدهن سمى فأظل أشعث، وإذا لبس سمى فأظل عرياناً. قال شيطان الكافر: لكني مع رجل لا يصنع شيئاً من ذلك فأنا أشاركه

في طعامه وشرابه ولباسه [١].

وروى عن جعفر بن محمد في قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ [الإسراء: ٦٤] أن الشيطان يقعد على ذكر الرجل، فإذا لم يقل: «بسم الله» أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينـــزل الرجل.

الثالثة: وكيفية التسمية على الذبح أن يقول الذابح: «بسم الله» ولا يقل: «الرحمن الرحيم» لأن المقام لا يناسبه الرحمة.

قال بعض العلماء: وكذا إذا سمى عند الأكل يقول: «بسم الله» ولا يقل: «الرحمن الرحيم» قال: لأن الطعام يستهلك، والرحمة لا تذكر على مستهلك.

قال ابن العماد في الذريعة: وما قاله لا دليل عليه بل في الحديث ما يخالفه.

روي عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**كلوا بسم الله الرحمن الرحيم**».

وروي أن عيسى عليه السلام لما نزلت المائدة قال لأصحابه: كلو بسم الله خير الرازقين.

واختلف العلماء في التسمية في الوضوء هل هي سنة أو واجبة ؟

فذهب إمامنا الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد في أظهر الروايتين عنه إلى أنها سنة.

وذهب أهل الظاهر إلى أنها واجبه، واستدلوا عليه بقوله ﷺ: «**لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**» [٢].

وأجاب إمامنا الشافعي والجمهور عنه بأجوبة أحسنها: أنه ضعيف. الثاني: أنه مقدر بنفي الكمال أي: لا وضوء كاملاً كقوله في الحديث الآخر: «**لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد**» [٣].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣/٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (١/٣٨، رقم ٢٥) عن سعيد بن زيد.

وأخرجه ابن ماجه (١/١٣٩، رقم ٣٩٧)، وأحمد (٣/٤١، رقم ١١٣٨٨)، وابن أبي شيبة (١/ ١٢، رقم ١٤)، وعبد بن حميد (١/٢٨٥، رقم ٩١٠)، والدارمي (١/١٨٧، رقم ٦٩١)، وأبو يعلي (٢/٣٢٤، رقم ١٠٦٠)، والدارقطني (١/٧١)، والحاكم (١/٢٤٥، رقم ٥١٨) عن أبي سعيد.

(٣) أخرجه الدارقطني (١/٤١٩) عن جابر.

وأخرجه الدارقطني (١/٤٢٠)، والبيهقي (٣/٥٧، رقم ٤٧٢٤)، والحاكم (١/٣٧٣، رقم =

الثالث: أن المراد بالذكر فيه: النية أي: لا وضوء صحيح لمن لم ينو فيه.

قال علماؤنا: والتسمية في الوضوء سنة مؤكدة، فلو نسيها في ابتدائه أتى بها متى ذكرها في الوضوء، ولو عند غسل الرجلين ويقول: «**بسم الله على أوله وآخره**»، كما إذا ترك الإنسان التسمية في أول الأكل يأتي بها في آخره، ولو تركها في ابتدائه عمداً فهل يشرع له تداركها في أثنائه فيه خلاف، والراجح: نعم.

جاء في حديث لكنه ضعيف: «**من توضأ وذكر اسم الله كان طهوراً لجميع بدنه، وإن لم يذكر اسم الله كان طهوراً لأعضاء وضوءه**» رواه الدارقطني والبيهقي وضعفه من جميع طرقه [(١)].

فائدة: قال ابن العماد في الذريعة: عدد زبانية جهنم تسعة عشر قال الله تعالى: ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾[المدثر: ٣٠] وهؤلاء خزنة النار مالك ومعه ثمانية عشر ذكره البغوي في تفسيره [(٢)].

قال: وجاء في الأثر أن أعينهم كالبرق الخاطف، وأنيابهم كالصياصي، يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، نزعت منهم الرحمة، يدفع أحدهم سبعين ألفاً فيدميهم حيث شاء من جهنم، وهؤلاء رؤسائهم الزبانية، وإلا فلهم أتباع غير محصورين، بدليل قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾[المدثر: ٣١]، وقوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[المدثر: ٣١].

لطيفه: قال في نزهة المجالس: قال النسفي: تأخذ الزبانية يوم القيامة عبد فيقال لهم: ردوه فينظر إلى أعضاءه فلا يوجد فيها خير، فيقال له: أخرج لسانك فإذا عليه بخط أبيض «بسم الله الرحمن الرحيم» فيقال له: اذهب فقد غفر لك.

فائدة أخرى: قال ابن مسعود: «من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» لأن حروفها تسعة عشر حرفاً» [(٣)].

= ٨٩٨) عن أبي هريرة.

(١) أخرجه الدارقطني (١/٧٣) وقال: يحيي بن هشام ضعيف. والبيهقي (١/٤٤، رقم ١٩٩) وقال: هذا ضعيف. كلاهما عن ابن مسعود.

وأخرجه الدارقطني (١/٧٤، رقم ١٣). والبيهقي (١/٤٤، رقم ٢٠٠) وقال: هذا ضعيف. كلاهما عن ابن عمر.

(٢) انظر: تفسير البغوي (٤/٤١٧).

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١/٢٦) وعزاه لوكيع والثعلبي عن ابن مسعود.

وقال غيره: كلماتها أربعة والذنوب أربعة: ذنوب الليل والنهار والسر والعلانية، فمن قالها كفر الله عنه الذنوب الأربع.

لطيفة: كان بمكة رجل صائم لم يره أحد يأكل ولا يشرب، غير أنه يخرج من جيبه ورقة فينظر فيها عند إفطاره، فلما مات أخرجها الغاسل من جيبه فوجد فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم» فتعجب من ذلك، فهتف به هاتف لا تعجب فإنا بالتسمية ربيناه، وبالرحمانية وفقناه، وبالرحيمية غفرنا له.

الرابعة: وهي مشتملة على فوائد متعلقة بالجماع.

قال العلماء: الجماع في الأصل وضع لثلاثة أمور وهي مقاصده الأصلية:

أحدها: حفظ النسل ودوام النوع الإنساني إلى أن تتكامل العدة التي قدر الله بروزها إلى هذا العالم.

الثاني: إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتفاظه بجملة البدن.

الثالث: قضاء الوطر ونيل اللذة والتمتع بالنعمة، وهذه وحدها هي الفائدة التي في الجنة بخلاف الفائدتين الأوليتين.

فإنه لا تناسل في الجنة على خلاف في ذلك يأتي، ولا احتباس للمني فيها ولا احتقان حتى يحتاج إلى استخراجه بالإنزال.

وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع من أحد أسباب حفظ الصحة، وإذا ثبت فضل المني فلا ينبغي إخراجه إلا في طلب النسل أو إخراج المحتقن منه فإنه إذا دام احتقانه أحدث أمراضاً ردية منها: الوسواس والجنون والصرع وغير ذلك.

وإخراج المني يبرئ من هذه الأمراض.

ومن منافع الجماع: غض البصر، وكف النفس، والقدرة على العفة عن الحرام، وتحصيل ذلك للمرأة، فهو ينفع نفسه في دنياه وأخراه، وينفع المرأة.

ولذلك كان النبي ﷺ يتعاهده ويحبه ويقول: «**حبب إلي من دنياكم النساء والطيب**» [1].

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد في الحديث زيادة لطيفة وهي: «**أصبر عن**

---

(١) أخرجه النسائي (٧/٦١، رقم ٣٩٣٩)، وأحمد (٣/١٢٨، رقم ١٢٣١٥)، وأبو يعلى (٦/ ٢٣٧، رقم ٣٥٣٠)، والحاكم في المستدرك (٢/١٧٤، رقم ٢٦٧٦) وقال: صحيح علي شرط مسلم. والبيهقي (٧/٧٨، رقم ١٣٢٣٢)، والضياء في المختارة (٤/٤٢٧، رقم ١٦٠٨) عن أنس.

الطعام والشراب ولا أصبر عنهن» [١].

قال العلماء: ويسن أن يقدم الإنسان قبل الجماع مداعبة المرأة وتقبيلها، ومص لسانها فقد كان ﷺ يداعب أهله ويقبلها.

وروى أبو داود في سننه أنه ﷺ كان يقبل عائشة ويمص لسانها [٢].

ويذكر عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة [٣].

وأنفع الجماع ما حصل بعد الهضم، وعند اعتدال البدن في حره وبرده، ويبوسته ورطوبته، وخلائه وامتلائه، وضرره عند امتلاء البدن أسهل وأقل من ضرره عند خلوه.

وإنما ينبغي أن يجامع إذا اشتدت الشهوة وحصل الانتشار التام الذي ليس عن تكلف ولا فكرة في صورة ولا نظر متتابع.

ولا ينبغي أن يستدعي شهوة الجماع ويتكلفها، ويحمل نفسه عليها، وليبادر به إذا هاج به كثرة المني.

والإكثار منه يسقط القوة، ويضر بالعصب، ويضعف البصر، وسائر القوى، ويطفئ الحرارة الغريزية، ويوسع المجاري.

وأنفع أوقاته ما كان بعد إهضام الغذاء من المعدة، وفي زمان معتدل على جوع فإنه يضعف، ولا على شبع فإنه يوجب أمراضاً، ولا على تعب، ولا أثر حمام، ولا بعد استفراغ كفصد حجامة، ولا بعد غم وحزن، وشدة فرح.

قالوا: وجماع المرأة المحبوبه في النفس يقل إضعاف البدن مع كثرة استفراغ المني، وجماع البغيضة ينحل البدن، ويوهن القوى مع قلة استفراغه.

وأحسن أشكال الجماع أن يعلو الرجل المرأة مستفرشاً لها بعد الملاعبة والقبلة،

---

(١) قال المناوي في فيض القدير (٣/٣٧١): زعم الزركشي أن للحديث تتمة في كتاب الزهد لأحمد هي: أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن. وتعقبه المؤلف أي: السيوطي بأنه مر عليه مراراً فلم يجده فيه، لكن في زوائد الزهد لابنه عبد الله بن أحمد عن أنس مرفوعاً: «قرة عيني في الصلاة وحبب إلي النساء والطيب والجائع يشبع والظمآن يروى وأنا لا أشبع من النساء». فلعله أراد هذا الطريق.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/٣١١، رقم ٢٣٨٦). وأخرجه أيضاً: البيهقي (٤/٢٣٤، رقم ٧٨٩١)، وأحمد (٦/١٢٣، رقم ٢٤٩٦٠) عن عائشة.

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/٢٢٠).

وبهذا سميت المرأة فراشاً، كما قال ﷺ: «**الولد للفراش**» [(١)].

وهذا مأخوذ من قوله تعالى ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾[البقرة: ١٨٧].

وأشار إلى ذلك بعض الشعراء فقال:

إذا رمتها كانت فراشا يقلني ... وعند فراغي خادم تملق

وأردأ أشكاله: أن تعلوه المرأة ويجامعها على ظهره، وهو خلاف الشكل الطبيعي الذي طبع الله عليه الرجل والمرأة، وفيه من المفاسد أن المني يتعسر خروجه كله، فربما بقي في العضو منه بقية فيتعفن ويفسد ويضر.

وسنذكر في كتاب الغسل فوائد أخرى متعلقة بالجماع.

الخامسة: وهي مشتملة على فوائد متعلقة بالولد:

الفائدة الأولى: دل قوله ﷺ: «**وجنب الشيطان ما رزقتنا**» على أن الولد معدود من رزق الإنسان، وأن الرزق ليس مخصوصاً بالغد [(٢)].

الفائدة الثانية: قال النسفي: جاء في الخبر إذا أرادت المرأة الولادة أرسل الله إليها ملكين عن يمنيها وشمالها، فإذا أراد صاحب اليمين إخراجه زاغ إلى جهة الشمال، وإذا أراد صاحب الشمال إخراجه زاغ إلى جهة اليمين، فتتوجع المرأة فيخاف الملكان ويقولان: ربنا عجزنا عن إخراجه فيتجلى الله تعالى فيقول: يا عبدي من أنا ؟ فيقول الولد: أنت الله الذي لا إله إلا أنت ويسجد، فيخرج في سجوده على رأسه.

وقيل: ينزل عليه ملك مكتوب في يده الله الله، فإذا رأى الولد ذلك خرج سريعاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٧٢٤، رقم ١٩٤٨)، ومسلم (٢/١٠٨٠، رقم ١٤٥٧)، وأبو داود (٢/٢٨٢، رقم ٢٢٧٣)، والنسائي (٦/١٨٠، رقم ٣٤٨٤)، وابن ماجه (١/٦٤٦، رقم ٢٠٠٤) عن عائشة.

وأخرجه البخاري (٦/٢٤٩٩، رقم ٦٤٣٢)، ومسلم (٢/١٠٨١، رقم ١٤٥٨)، والترمذي (٣/٤٦٣، رقم ١١٥٧) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٦/١٨٠، رقم ٣٤٨٢)، وابن ماجه (١/٦٤٧، رقم ٢٠٠٦) عن أبي هريرة.

(٢) أي رزق الإنسان في يوم غده الآتي عليه فهو في علم الله تعالى قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ مراد المصنف أن الررزق ليس فقط الرزق الذي لا يعلمه إلا الله في الغد بل من الرزق الولد، والصديق، والزوجة، وكل ما وجدت فيه نعمة من الله عليك فهو من رزق الله أتاك الله إياه فوجب حمده وشكره.

ونظير هذا ما أفاده النسفي أيضاً قال: إذا احتضر العارف نزل عليه ملك الموت قبل وجهه فيدفعه الذكر، فيأتي من قبل يديه فتدفعه الصدقة، فيأتي من قبل رجليه فتدفعه الصلاة، فيقول: يارب قد حيل بيني وبينه، فيقول: أكتب إسمي على كفك وأره إياه، فيكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» فإذا رأته روح المؤمن طارت شوقاً إلى ربها.

وفي رواية: تقول الروح لملك الموت: أأنت أسكنتني في هذا الجسد ؟ فيقول: لا. فتقول: لا يخرجني إلا الذي أسكنني. فيقول: أنا رسول. فتقول: آتني بعلامة ؟ فيقول الله: خذ تفاحة من الجنة فيأخذ تفاحة عليها: «بسم الله الرحمن الرحيم» فإذا رأتها روحه طارت شوقاً إلى الجنة.

الفائدة الثالثة: قال العلامة ابن القيم: لبكاء الصبي حال خروجه إلى هذه الدار سببان أحدهما: باطن أخبر به الصادق المصدوق لا يعرفه الأطباء، والثاني: ظاهر.

فأما السبب الباطن فهو: أن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته أن وكل بكل واحد من أولاد آدم شيطاناً، فشيطان المولود قبل انفصاله محبوس عنه، ينتظر خروجه ليقارنه ويتوكل به، فإذا انفصل استقبله الشيطان وطعن في خاصرته تغيظاً عليه، واستقبالاً له بالعداوة التي كانت بينه وبين الأبوين قديماً فيبكي المولود من تلك الطعنة.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صياح المولود حين يقع نزغة من الشيطان**» [1].

والسبب الظاهر: مفارقته للمألوف والعادة التي كان فيها إلى أمر غريب، فإنه ينتقل من جسم حار إلى هواء بارد، ومكان لم يألفه فيستوحش من مفارقة وطنه ومألفه.

وقيل: سبب بكائه انتقاله إلى دار يلقى فيها الشدائد والآلام، والمخاوف والأسقام كما أشار إلى ذلك بعضهم بقوله:

ويبكي بها المولود حتى كأنه ... بكل الذي يلقاه فيها يهدد
وإلا فما يبكيه فيها وإنما ... لأوسع مما كان فيه وأرغد

الفائدة الرابعة: الحكمة في قبض المولود كفه عند خروجه إلى الدنيا، الإشارة إلى

---

(١) أخرجه مسلم (٤/١٨٣٨، رقم ٢٣٦٧). وأخرجه أيضاً: ابن حبان (١٤/٦٢، رقم ٦١٨٣)، والطبراني في الأوسط (٢/٢٤٤، رقم ١٨٧٢)، وفي الصغير (١/٣٩، رقم ٢٩).

أنه خرج إليها مركباً على الحرص والجمع، والحكمة في فتح كفه عند خروجه منها الإشارة إلى أنه فارق الدنيا صفر اليدين منها، ونظم بعضهم هذا فقال:

وفي قبض كف المرء عند ولادة ... دليل على الحرص الذي هو مالكه
وفي فتحها عند الممات إشارة ... إلى فرقة المال الذي هو تاركه

الفائدة الخامسة: سأل بعضهم فقال: كيف يكون للوالدين على الولد إنعام وإحسان ويستحقان ميراثه، وقد طلبا اللذة بالجماع لأنفسهما، فلزم منه دخول الولد في دار الهموم والأحزان والآفات والتبعات.

قيل للإسكندر: أستاذك أعظم منة عليك أم والدك فقال: الأستاذ أعظم منةً لأنه تحمل عني أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي، فأوقعني في نور العلم، وأما الوالد فإنه طلب اللذة فأخرجني إلى آفات عالم الكون والفساد.

وأجيب عن السؤال: بأن العاقل لا يقدم على الوقاع لأجل اللذة في أول الأمر، إلا أنه إذا حصل الولد اهتم به بإيصال الخيرات، ودفع الآفات من أول دخوله في الوجود إلى وقت بلوغه فقد استحق الميراث، وانقطعت هذه الشبهات، وثبت له عليه الفضل والإحسان.

الفائدة السادسة: أكثر العلماء على أن الجنة فيها جماع ولا يولد فيها لأحد ولد، واستدل على ذلك بدلائل منها:

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾[البقرة: ٢٥] قال عطاء: المعنى مطهرة من الولد والحيض والغائط والبول.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى جعل الحمل والولادة مع الحيض والمني، فلو كان النساء يحملن لم ينقطع عنهن الحيض والإتزال.

ومنها: أن الله تعالى قدر التناسل في الدنيا لأنه قدَّر الموت وإخراجهم إلى هذه الدار قرنا بعد قرن، وجعل لهم أمد ينتهون إليه، ولولا التناسل لبطل النوع الإنساني.

ولهذا الملائكة لا يتناسلون فإنهم لا يموتون كما يموت الإنس والجن، فإذا كان يوم القيامة أخرجهم الله سبحانه وتعالى كلهم من الأرض وأنشأهم للبقاء لا للموت فلا يحتاجون إلى تناسل لحفظ النوع الإنساني، إذ هو منشأ للبقاء والدوام، فلا أهل الجنة يتناسلون ولا أهل النار.

وذهب بعض العلماء إلى أن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة واستدل على ذلك بحديث خرَّجه الترمذي وابن ماجه وقال

الترمذي: إنه حسن غريب [١] لكن رد أكثر العلماء هذا القول وقالوا: بأنهم لا يشتهون ذلك.

الفائدة السابعة: وهي مشتمله على فوائد متعلقة بالشيطان:

الأولى: قوله: «**وجنب الشيطان**» دل على أن الشيطان ملازم لابن آدم من حين خروجه من ظهر أبيه إلى رحم أمه إلى حين موته، أعاذنا الله تعالى منه فهو يجري من ابن آدم مجرى الدم أعاذنا الله.

الثانية: دل الحديث أيضاً على أن التسمية والدعاء المذكور سبب للاعتصام من الشيطان، وسبب لدفع ضرره عن المولود، بل دل على أن ذكر الله مطلقاً سبب عظيم لطرد الشيطان وكف شره.

قال قتادة في تفسيره قوله تعالى: ﴿ **الْخَنَّاسِ** ﴾ [الناس: ٤] ما نصه: «الخناس»: الشيطان له خرطوم كخرطوم الكاتب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس.

ويقال: رأسه كرأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يمنيه ويحدثه، فإذا ذكر العبد ربه خنس، وإذا لم يذكر رجع ووضع رأسه فذلك معنى قوله تعالى: ﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾[الناس: ٥، ٦].

أي: بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع.

وروي عن عمر بن عبد العزيز: أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه، ورأى الشيطان على صورة ضفدع قاعدة على منكبه الأيسر بين منكبه، وأذنه خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس له إليه، فإذا ذكر الله تعالى خنس [٢].

وقال كعب الأحبار: ذكر الله تعالى في جنب الشيطان كالأكله في جنب ابن آدم.

وقال أيضاً: حصون المؤمن من الشيطان ثلاثة: ذكر الله تعالى، وقراءة القرآن، والمسجد.

وكان يحيى بن معاذ يقول: اللهم إن إبليس لك عدو ولنا عدو، وإنك لا تعظه

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٦٩٥، رقم ٢٥٦٣) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٢/١٤٥٢، رقم ٤٣٣٨). **وأخرجه أيضاً:** أحمد (٣/٩، رقم ١١٠٧٨)، والدارمي (٢/٤٣٤، رقم ٢٨٣٤)، وأبو يعلى (٢/٣١٧، رقم ١٠٥١)، وابن حبان (١٦/٤١٧، رقم ٧٤٠٤) عن أبي سعيد.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٣/٤٠).

بشيء نكالا له، فاعف عنا يا أرحم الراحمين.

وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدواً بصيراً بعيوبنا، مطلعاً على عوراتنا، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك، وقنطه منا كما قنطه من عفوك، وأبعد بيننا وبينه كما أبعدت بينه وبين جنتك إنك على كل شيء قدير.

قال: فتمثل له اللعين يوماً في طريق المسجد فقال له: يا ابن واسع هل تعرفني ؟ قال له: ومن أنت ؟ قال: أنا اللعين. قال: وما تريد ؟ قال: أريد أن لا تعلم أحداً هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك أبداً. فقال له ابن واسع: والله لا أمنعها من أرادها فاصنع الآن ما شئت.

ومن دعاء بعضهم: اللهم إنك خلقتني وخلقته، وسلطته علي فلا يقدر علي إلا بتقديرك، ولا أقدر عليه إلا بإعانتك، فأعني عليه يا عزيز يا جبار بعزتك وجبروتك.

الثالثة: المراد بالشيطان في الحديث شيطان الجن فقط، فإنه هو الذي يتعرض للمولود عند ولادته، لا شيطان الإنس.

وقد دلت الأخبار من الكتاب والسنة على وجود شيطان الإنس والجن قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**﴾[الأنعام: ١١٢].

قال قتادة ومجاهد والحسن: دلت الآية على أن من الإنس شياطين كما أن من الجن شياطين.

«والشيطان»: العاتي المتمرد من كل شيء.

قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز عن أغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس، فأغواه بالمؤمن ليفتنه، يدل على ذلك ما روي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس**» قلت: يا رسول الله

وهل للأنس من شياطين ؟ قال: «**نعم شر من شياطين الجن**» [١].

وقال مالك بن دينار: شياطين الإنس أشر عليَّ من شياطين الجن، وذلك أني إن تعوذت بالله ذهبت عني شياطين الجن، وشياطين الإنس تجيئني وتجرني إلى المعاصي[٢].

***

(١) أخرجه النسائي (٢٧٥/٨، رقم ٥٥٠٧)، والحاكم (٣١٠/٢، رقم ٣١١٥) وقال: صحيح الإسناد. والطيالسي (٦٥/١، رقم ٤٧٨)، وأحمد (١٧٨/٥، رقم ٢١٥٨٦) قال الهيثمي (١٦٠/١): فيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط. والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٧/٢، رقم ٢٣٩٠)، وعبد الرزاق (٨٤/٢، رقم ٢٥٧٩)، والحارث كما في بغية الباحث (١٩٥/١، رقم ٥٣) عن أبي ذر.

وأخرجه أحمد (٢٦٥/٥، رقم ٢٢٣٤٢)، والطبراني (٢١٧/٨، رقم ٧٨٧١) قال الهيثمي (١٥٩/١): مداره على علي بن يزيد وهو ضعيف. كلاهما عن أبي أمامة.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٦٨/٧).

المجلس الثاني الأربعون

في آداب داخل الخلاء ومستحباته

قَالَ البُخَارِي:

بَابَ مَا يَقُول عنْدَ الخَلاء

حَدَّثَنَا آدَمُ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ عَبْد الْعَزِيز بْنِ صُهَيْب قَالَ سَمِعْتُ أَنَساً يَقُولُ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلاَءَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنَ الْخُبُث وَالْخَبَائث**». **تَابَعَهُ ابْنُ عَرْعَرَةَ عَنْ شُعْبَةَ. وَقَالَ غُنْدَرٌ عَنْ شُعْبَةَ إِذَا أَتَى الْخَلاَءَ. وَقَالَ مُوسَى عَنْ حَمَّاد إِذَا دَخَلَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ زَيْد حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيز إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ** (١).

قوله: «**كان النبي ﷺ**» قال العلماء: «كان» في هذا التركيب تفيد تكرار ذلك الفعل، وبيان كونه عادة له أي: كان كلما دخل يقول الدعاء المذكور.

وقوله: «**إذا دخل**» أي: إذا أراد أن يدخل لأن اسم الله مستحب الترك بعد

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «الخبث» جمع خبيث. والخبائث جمع خبيثة، يريد ذكران الشياطين وإناثهم قاله الخطابي وابن حبان وغيرهما. وقد يكون معناه: المكروه، فإن كان من الكلام فهو الشتم، وإن كان من الملل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب فهو الضار، وعلى هذا فالمراد بالخبائث المعاصي أو مطلق الأفعال المذمومة ليحصل التناسب، ولهذا وقع في رواية الترمذي وغيره «أعوذ بالله من الخبث والخبيث» أو «الخبث والخبائث» هكذا على الشك، الأول بالإسكان مع الإفراد، والثاني بالتحريك مع الجمع، أي: من الشيء المكروه ومن الشيء المذموم، أو من ذكران الشياطين وإناثهم.

وكان ﷺ يستعيذ إظهاراً للعبودية، ويجهر بها للتعليم. وقد روى العمري هذا الحديث من طريق عبد العزيز بن المختار عن عبد العزيز بن صهيب بلفظ الأمر قال: «إذا دخلتم الخلاء فقولوا: بسم الله، أعوذ بالله من الخبث والخبائث» وإسناده على شرط مسلم، وفيه زيادة التسمية ولم أرها في غير هذه الرواية.

والكلام هنا في مقامين: أحدهما هل يختص هذا الذكر بالأمكنة المعدة لذلك لكونها تحضرها الشياطين كما ورد في حديث زيد بن أرقم في السنن، أو يشمل حتى لو بال في إناء مثلا في جانب البيت؟ الأصح الثاني ما لم يشرع في قضاء الحاجة.

الثاني متى يقول ذلك؟ فمن يكره ذكر الله في تلك الحالة يفصل: أما في الأمكنة المعدة لذلك فيقوله قبيل دخولها، وأما في غيرها فيقوله في أول الشروع كتشمير ثيابه مثلاً وهذا مذهب الجمهور.

وقالوا فيمن نسي: يستعيذ بقلبه لا بلسانه. ومن يجيز مطلقاً كما نقل عن مالك لا يحتاج إلى تفصيل. انظر فتح الباري (١/٢٤٣ - ٢٤٤).

الدخول.

وجاءت رواية أخرى مصرحة بفعل الإرادة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ**﴾[النحل: ٩٨] أي: إذا أردت القراءة.

وقوله: «**الخلاء**» قال العلماء: «الخلاء» بفتح الخاء المعجمة وبالمد موضع قضاء الحاجة، سمي بذلك لخلائه في غير أوقات قضاء الحاجة.

وقال الحكيم الترمذي سمي الخلاء خلاء باسم شيطان موكل بذلك الموضع اسمه خلاء، وأورد فيه حديثاً مرفوعاً من رواية بريدة.

ويقال للخلاء: «الكنيف، والحش، والمرفق، والمرحاض».

وأما «الخلاء» بالقصر فيطلق على معنيين على الحشيش الرطب، وعلى الكلام الحسن.

وأما «الخلاء» بكسر الخاء مع المد فهو عيب في الإبل كالحران في الخيل.

وقوله: «**اللهم**» أصل «**اللهم**» يا الله على الأصح فحذف حرف النداء، وعوض عن الميم.

وقوله: «**إني أعوذ بك**» معناه: استجير واعتصم بك.

وقوله: «**من الخبث والخبائث**» جمع خبيثة.

قال العلماء: «الخبث» بضم الخاء والباء ويجوز إسكان الباء جمع خبيث، وهم ذكور الشياطين، والخبائث إناثهم، فكأن الداعي بهذا عند دخوله الخلاء استعاذ من ذكور الشياطين وإناثهم.

وخص ﷺ الاستعاذة منهم بيوت الخلاء لأنها مأواهم ويحضرونها، وهي مواضع يهجر فيها ذكر الله فقدم لها الاستعاذة احترازاً منهم.

ومما يدل على أن الشيطان يحضر الأخلية قول النبي ﷺ: «**إن هذه الحشوش محتضرة** -أي: تحضرها الشياطين- **وإذا دخل أحدكم الخلاء فليتعوذ بالله**»[1].

قال ابن الملقن: الظاهر أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يقول هذا الدعاء إظهاراً للعبودية وتعليماً للأمة، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام محفوظ من الجن والإنس، بدليل

---

(١) أخرجه أبو داود (١/٢، رقم ٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٣، رقم ٩٩٠٣)، وابن ماجه (١/١٠٨، رقم ٢٩٦)، والطيالسي (١/٩٣، رقم ٦٧٩)، وأحمد (٤/٣٦٩، رقم ١٩٣٠٥)، وأبو يعلى (١٣/١٨٠، رقم ٧٢١٨)، وابن خزيمة (١/٣٨، رقم ٦٩)، وابن حبان (٤/٢٥٢، رقم ١٤٠٦)، والطبراني في الكبير (٥/٢٠٥، رقم ٥١٠٠)، والحاكم في المستدرك (١/٢٩٨، رقم ٦٦٩) وقال: على شرط الصحيح. والبيهقي (١/٩٦، رقم ٤٥٩) عن زيد بن أرقم.

أنه ربط عفريتاً على سارية من سواري المسجد [(١)].

وفي الحديث دليل على مراقبته ﷺ لربه ومحافظته على ضبط أوقاته وحالاته، واستعاذاته عندما ينبغي أن يستعاذ منه، ونطقه عندما ينبغي أن ينطق به، وسكوته عندما ينبغي أن يسكت عنده.

وفيه دليل على استحباب الدعاء المذكور لكل متخل سواء تخلى في البنيان أم في الصحراء، لأن مكان قضاء الحاجة في الصحراء يصير مأوى لهم.

وقد ذكر علماؤنا أنه يستحب أن يقول قبله: «بسم الله» ثم يقول: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث.

سؤال: فإن قيل: لأي شيء قدمت التسمية هنا على التعوذ، وفي قراءة القرآن يستحب تقديم التعوذ على التسمية؟

جوابه: أن التعوذ عند قراءة القرآن لأجل القراءة، والبسملة من القرآن، فقدم التعوذ عليها، بخلافه هنا فقدمت البسملة عليه.

فإن دخل قبل أن يتعوذ ناسياً، تعوذ بقلبه كما يحمد العاطس، ويستحب عقب الخروج أن يقول: غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني، وأن يكرر غفرانك ثلاث مرات، وهو منصوب بفعل مقدر تقديره: أسالك غفرانك.

سؤال: فإن قيل: أي ذنب وقع من داخل الخلاء حال قضاء الحاجة حتى يطلب من ربه غفرانه عند خروجه منه؟

وجوابه من وجوه:

الأول: لم يقع منه ذنب، ولكن لما ترك ذكر الله تعالى فسأل الله تعالى أن يسامحه عليه [(٢)].

الثاني: إنما دخل الغفران لأنه لما رأى نعم الله تعالى عليه التي أنعمها عليه حيث أطعمه ثم هضمه ثم يسهل خروجه، رأى شكره قاصراً عن بلوغ حقه هذه النعم عد ذلك ذنباً فتداركه بالاستغفار.

الثالث: ليس طلب المغفرة لذنب وقع في حال قضاء الحاجة، بل طلبها لذنوبه الصادرة منه قبل ذلك، فكأنه لما تخلص مما يثقل البدن، سأل التخلص مما يثقل القلب وهو الذنب لتكمل الراحة.

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٧٦ رقم ٤٤٩)، ومسلم (١/٣٨٤ رقم ٥٤١) عن أبي هريرة.

(٢) فإن الإنسان عندما يدخل الخلاء كما سبق الإشارة إليه يهجر ذكر الله فهو يطلب المغفرة لذلك وهذا هو مراد المصنف.

فائدة: في مسند عبد الرزاق وابن أبي شيبة أن نوحاً عليه الصلاة والسلام كان يقول: أي إذا فرغ من قضاء الحاجة وخرج من الخلاء: «الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في منفعته، وأذهب عني أذاه» (١).

وعند الحنفية يستحب أن يقول إذا دخل الخلاء: «اللهم إني أعوذ بك من الرجس النجس الخبيث المخبث من الشيطان الرجيم»، وإذا خرج يقول: «الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأمسك عني ما ينفعني».

وقد ذكر العلماء رضى الله عنهم أداباً كثيرة لقضاء الحاجة:

منها: أنه يبعد عن الناس في الصحراء أو نحوها إن كان هناك غيره إلى مكان لا يسمع للخارج منه شيء، ولا يشم له ريح، فإن تعذر عليه الإبعاد عنهم لمرض ونحوه استحب لهم الإبعاد عنه إلى مكان لا يسمعون.

ومنها: أن يستتر عن أعينهم بشيء مرتفع قدر ثلثي ذراع فأكثر، ويكون بينه وبينه ثلاثة أذرع بذراع الآدمي المعتدل فأقل، هذا إن كان بصحراء أو بناء لا يمكن تسقيفه، كأن جلس في وسط مكان واسع كبستان، فإن كان ببناء مسقف أو يمكن تسقيفه حصل الستر به، ولو تستر في الصحراء ونحوها براحلته وأرخى ذيله أو نحو ذلك كفى.

قال القاضي زكريا: ولو تعارض التستر والإبعاد فالظاهر رعاية التستر، يعني لو أبعد عن العيون لم يستتر، ولو لم يبعد لاستتر فالستر أولى وإن لم يبعد.

لطيفة: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فنظر فلم يجد شيئاً يستتر به، فإذا بشجرتين في شاطئ الوادي فانطلق إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «**انقادي معي بإذن الله تعالى**» فانقادت معه حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «**انقادي معي بإذن الله تعالى**» فانقادت معه حتى إذا كانت بالنصف مما بينهما لاءم بينهما فقال: «**التئما علي بإذن الله تعالى**» فالتأمتا ثم بعد قضاء حاجته افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق (٢).

وقال فيه أيضاً: وروي عن أسامة بن زيد قال: قال لي رسول الله ﷺ في بعض مغازيه: «**هل ترى لي مكاناً لحاجة رسول الله ﷺ**» فقلت: إن الوادي ما فيه موضع بالناس، فقال: «**هل ترى من نخل أو حجارة؟**» فقلت: أرى نخلات متقاربات قال: «**انطلق فقل لهن إن رسول الله ﷺ يأمركن أن تأتين لمخرج رسول الله ﷺ وقل**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١/١٢، رقم ٩).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٣٠١، رقم ٣٠٠٦) وابن حبان (١٤/٤٥٥، رقم ٦٥٢٤) عن جابر.

للحجارة مثل ذلك» فقلت ذلك لهن فوالذي بعثه بالحق لقد رأيت النخلات يتقاربن حتى اجتمعن، والحجارة يتعاقدن حتى صرن ركاماً خلفهن، فلما قضى حاجته قال: «**قل لهن يفترقن**» فوالذي نفسي بيده لقد رأيتهن والحجارة يفترقن حتى عدن إلى مواضعهن [(١)].

ومنها: أن يصحب معه ثلاثة أحجار إن أراد الاستنجاء بها، ويصحب معه الماء إن أراد الاستنجاء به.

ومنها: أن يقدم رجله اليسرى في دخوله واليمنى في خروجه، كما يفعل ذلك في الحمام، عكس المسجد لأن كل ما كان للتكريم يبدأ فيه باليمين وخلافه باليسار، روى عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «**من بدأ برجله اليمنى قبل يساره إذا دخل الخلاء أُبتلي بالفقر**».

ومنها: أن لا يدخل حافياً ولا مكشوف الرأس فقد صرح جماعة بكراهتهما قاله في الوسيط.

وروى البيهقي في ذلك حديثاً مرسلاً [(٢)].

واتفق العلماء على أن الحديث الضعيف والمرسل والموقوف يتسامح به في فضائل الأعمال ويعمل بمقتضاه.

قال النووي في المجموع: نعم يكفي ستر رأسه بكمه.

ومنها: أن لا يحمل شيئاً مكتوباً عليه قرآن أو اسم الله أو اسم نبي أو اسم معظم، سواء كان مكتوباً على ورقة أو درهم أو فلس أو غير ذلك، أي: يستحب له أن لا يحمل شيئاً من ذلك عند قضاء حاجته، فإن حمله كره له ذلك.

فقد كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء وضع خاتمه كما رواه الترمذي وغيره وصححوه [(٣)].

وكان نقش خاتمة كما تقدم: «محمد رسول الله».

فائدة: لو كان اسم الإنسان كاسم نبي من الأنبياء كمحمد أو موسى ونقشه على خاتمه وأراد به نفسه لا ذلك النبي لم يكره استصحابه.

---

(١) أورده السيوطي في الخصائص الكبرى (٢/٦٠) وقال: أخرج أبو يعلى، والبيهقي بسند حسنه ابن حجر في المطالب العالية عن أسامة بن زيد.

(٢) أخرجه البيهقي (١/٩٦، رقم ٤٦١) عن حبيب بن صالح مرسلاً.

(٣) أخرجه أبو داود (١/٥، رقم ١٩) وقال: منكر. والترمذي (٤/٢٢٩، رقم ١٧٤٦) وقال: حسن غريب. والنسائي (٨/١٧٨، رقم ٥٢١٣) وابن ماجه (١/١١٠، رقم ٣٠٣) عن أنس.

فائدة أخرى: لو كان معه شيء مكتوب عليه اسم الله تعالى كخاتم فدخل به الخلاء ناسياً أو عامداً حتى قعد لقضاء حاجته ضم كفه عليه أو وضعه في عمامته أو غيرها.

فائده أخرى: قال الأذرعي: والمتجه تحريم إدخال المصحف ونحوه الخلاء من غير ضرورة إجلالاً له وتكريماً.

فائدة أخرى: ولو تختم في يسراه بما عليه ذكر الله تعالى أو اسم الرسول حوَّله في الاستنجاء تنـــزيهاً له عن تنجيسه قاله القفال.

فإن تركه حتى تنجس أثم بذلك قاله الأسنوي.

ومنها: أن لا يتكلم بذكر ولا غيره، أي: يكره له ذلك.

قال أبو الليث: يكره الكلام في خمسة مواضع: خلف الجنازة، وعند قراءة القرآن، وعند الخطبة، وفي الخلاء، وعند الجماع.

وجاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عن عورتهما يتحدثان، فإن الله يمقت على ذلك**» [1] رواه الحاكم وصححه.

ومعنى: «**يضربان الغائط**» يأتيان.

«**وكاشفين**» منصوب على الحال، وروى: «**كاشفان**» بالألف مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هما كاشفان.

«**والمقت**» البغض، **وقيل:** هو أشد البغض.

والمقت وإن كان على المجموع من كشف العورة والتحدث، فبعض موجباته مكروه، نعم لا يكره الكلام لضرورة كأن رأى أعمى قد دنا من قرب بئر فأنذره حتى لا يقع فيه، أو رأى حية أو غيرها تقصد إنساناً أو غيره من الحيوانات المحترمة فأنذره من ذلك، بل يجب الإنذار في هذه.

سؤال: فإن قيل: قراءة القرآن في الخلاء مكروهة أو حرام؟

جوابه: أن ظاهر قول الفقهاء: «يكره التكلم في الخلاء» أنها مكروهة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٢٦٠، رقم ٥٦٠) وقال: صحيح. وأخرجه أيضاً أبو داود (١/٤، رقم ١٥)، والنسائي في الكبرى (١/٧٠، رقم ٣٣)، وابن ماجه (١/١٢٣، رقم ٣٤٢)، وأحمد (٣/٣٦، رقم ١١٣٢٨)، وابن خزيمة (١/٣٩، رقم ٧١)، وابن حبان (٤/٢٧٠، رقم ١٤٢٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/٩٩، رقم ٤٨٧) عن أبي سعيد.

وأخرجه النسائي في الكبرى (١/٧٠، رقم ٣١)، والطبراني في الأوسط (٢/٦٥، رقم ١٢٦٤) عن أبي هريرة.

لكن صرح ابن كج [١] بأنها حرام.

قال الأذرعي: والتحريم حال قضاء الحاجة ظاهر، أما بعده وقبله فمحتمل، واللائق بالتعظيم المنع.

فائدة أخرى: إذا عطس عند قضاء الحاجة والجماع حمد الله بقلبه، ولا يحرك لسانه.

فائدة أخرى: إذا سلم عليه أحد وهو في الخلاء يكره رد السلام عليه، وقد ذكر العلماء مواضع لا يستحق فيها المسلم الرد، وسيأتي في الكلام على الحمام.

فائدة: قال أبو الليث: روي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه كان إذا أراد الدخول في الكنيف بسط رداءه ويقول: «أيها الملكان الحافظان علي اجلسا هاهنا فإني قد عاهدت الله تعالى أن لا اتكلم على الخلاء».

ومنها: أن يعتمد على رجله اليسرى وينصب اليمن بأن يضع أصابعها على الأرض ويرفع باقيها فإن، ذلك أسهل لخروج الخارج سواء قضى حاجته قائماً أو قاعداً.

ومنها: أن لا ينظر إلى فرجه بلا حاجة ولا إلى الخارج منه، نعم قال بعض المالكية: يندب أن ينظر إلى ما يخرج منه اعتبار بمآل الدنيا.

قال الأذرعي: ولا يعبث بيده ولا يلتفت يمنياً وشمالاً.

ومنها: أن لا يطيل المكث في المحل بل تكره الإطالة لما روي عن لقمان أنه قال: إن ذلك يتولد منه الباسور أو يورث وجعاً في الكبد.

ومنها: أن لا يتخلى في طريق الناس لما ورد في صحيح مسلم: «**اتقو اللعانين**» قالوا: وما اللعنان؟ قال: «**الذي يتخلى في طريق أو في ظلهم**» [٢].

---

(١) ابن كج هو: يوسف بن أحمد بن كج أبو القاسم القاضي أحد أئمة الشافعية، صاحب أبي الحسين ابن القطان وحضر مجلس الداركي أيضا قتله العيارون بالدينور ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وأربعمائة، وكان من أئمة المذهب، قال ابن كثير: له في المذهب وجوه غريبه، وقد وجمع بين رياسة الفقه والدنيا، وله مصنفات كثيرة منها: «التجريد قال في المهمات» وضبط اسمه ابن خلكان فقال: «وكج» بكاف مفتوحة وجيم مشدودة وهو في اللغه: الجص الذي تبيض به الحيطان.

انظر ترجمته في: البداية والنهاية (١١/٣٥٥)، وطبقات الفقهاء (١/١٢٧)، وطبقات الشافعية (٢/١٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (١/٢٢٦، رقم ٢٦٩) وأخرجه أيضاً أبو داود (١/٧، رقم ٢٥)، وأحمد =

وفي رواية لابن منده: «**في طريق المسلمين ومجالسهم**» [(١)].

«**واللعنان**» بالتشديد أصله اللاعنان فحول للمبالغة، وإنما إطلق على الذي يتخلى في الطريق والذي يتخلى في الظل لعانان لأنهما تسببا بذلك في لعن الناس لهما كثيراً عادة، فأضيف الفعل اليهما بصيغة المبالغة، والمعنى: احذروا سبب اللعن المذكور.

قال الخطابي: وقد يكون اللاعن بمعنى المعلون أي: اتقوا الملعونين فاعلمهما.

فائدة: التخلي في طريق الناس ببول أو غائط مكروه كراهة تنـــزيه كما قال أصحاب الشافعي.

لكن قال النووي: ينبغي تحريمه للأخبار الصحيحة ولإيذاء المسلمين.

وقال الأذرعي في «التوسط»: يجب الجزم بأن التخلي فيها حرام، وهو الصواب مذهباً ودليلاً، قال: ويتعين من إطلاق الكراهة أي: في كلام الأصحاب على التحريم.

وقال صاحب العدة: إن التغوط في الطريق حرام نقله الشيخان عنه في كتاب الشهادة وأقراه فأُفهم كلامهم أن البول فيها ليس بحرام، لأن الغائط أغلظ منه.

وجاء في حديث رواه البيهقي: «**من سل سخيمته على طريق عامر من طريق المسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**» [(٢)].

«**والسخيمة**» بفتح السين المهملة وكسر الخاء المعجمة هي الغائط.

ومنها: أن لا يتخلى في متحدث الناس، «والمتحدث» بفتح الدال مكان الاجتماع للحديث، ويسمى النادى، أي: يكره التخلي فيه، وفي معناه كل موضع يقصد كظل شمس أو لمعيشة أو لمقيل مسافر ونحوها، وينبغي على قول النووي أن يحرَّم التخلى فيه لإيذاء الناس.

ومنها: أن لا يتخلى عند قبر محترم احتراماً له، أي: يكره له ذلك، وتشتد الكراهة عند قبور الأولياء والشهداء، وأما قبور الأنبياء فالتخلي عندها حرام كما قال الأذرعي.

وكذلك يحرم التخلي بين القبور المتكرر نبشها لاختلاط تربتها بأجزاء الميت،

= (٣٧٢/٢، رقم ٨٨٤٠)، وأبو يعلى (٣٦٩/١١، رقم ٦٤٨٣)، والبيهقي (٩٧/١، رقم ٤٧٣) عن أبي هريرة.

(١) عزاه أيضاً ابن الملقن في تحفة المحتاج (١٦٣/١) لابن منده.

(٢) أخرجه البيهقي (٩٨/١، رقم ٤٧٥) وأخرجه أيضاً الحاكم (٢٩٦/١، رقم ٦٦٥)، والطبراني في الأوسط (٣٢٠/٥، رقم ٥٤٢٦) قال الهيثمي (٢٠٤/١): فيه محمد بن عمرو الأنصاري ضعفه يحيى بن معين ووثقه ابن حبان وبقية رجاله ثقات. جميعاً عن أبي هريرة.

وكذا يحرم التخلي عند القبر المحترم.

قال الأذرعي في «التوسط»: والظاهر أن البول إلى جداره كالبول عليه إذا مسته النجاسة.

ومنها: أن لا يبول بقرب جدار المسجد احتراماً له، فإن بال بقربه كره له ذلك.

فائدة: البول في المسجد في إناء من غير ضرورة حرام، وأما البول في رحبة المسجد وهو كل ما كان مضافاً إلى المسجد محجراً عليه، فإن جعلناها من المسجد حرم وإلا فلا.

قال الأذرعي في «التوسط»: ويحتمل أن يقال بالتحريم مطلقاً، وإن لم يجعلها من المسجد. قال: ويجب الجزم به إذا كانت متروكة.

فائدة أخرى: قال صاحب الذخائر: يستحب للمرء أن يتخذ إناء يبول فيه بالليل لحديث ورد فيه [(١)].

ولأن دخول الحشوش بالليل يخشى منه.

ومنها: أن لا يبول في ماء راكد ولو كان كثيراً أي: يكره له ذلك لخبر مسلم: «أنه ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد» [(٢)].

والكراهة في القليل الراكد أشد لتنجيسه.

وكذا يكره في جارٍ قليل، وأما الجاري الكثير فلا يكره فيه ذلك، لكن الأولى اجتنابه.

وكذا يكره البول بقربه، والبول فيه بالليل أشد كراهة، لما قيل: إن الماء بالليل للجن، فلا ينبغي أن يبال فيه ولا يغتسل خوفاً من آفة تصيب من جهتهم، والتغوط أشد كراهة من البول.

ومنها: أنه لا يبول تحت شجرة مثمرة أي: يكره له قضاء الحاجة تحتها.

قال الأذرعي: قال الأصحاب: يكره التغوط والبول في مساقط الثمار مملوكة كانت الشجرة أو مباحة.

قال: وأما غير المثمرة فإن كانت ظلاً ونحوه فعلى ما سبق، وإلا فلا تحريم ولا كراهة.

ولا يكره قضاء الحاجة تحت الشجرة المثمرة ولو في غير وقت الثمرة.

---

(١) أخرجه أبو داود (١/٧، رقم ٢٤) والحاكم (١/٢٧٢، رقم ٥٩٣) وقال: صحيح الإسناد وسنة غريبة. وابن حبان (٤/٢٧٤، رقم ١٤٢٦) عن أميمة بنت رقيقة.

(٢) أخرجه مسلم (١/٢٣٥، رقم ٢٨١) عن جابر.

ومنها: أن لا يتخلى في مستحم وهو المغتسل، مأخوذ من الحميم، وهو: الماء الحار، أي: يكره له ذلك، لأنه ﷺ نهى عن أن يمتشط أحدنا كل يوم أو يبول في مغتسله وقال: «**لا يبولن أحدكم في مستحمه، ثم يتوضأ فيه فإن عامة الوسواس منه**» رواهما أبو داود وغيره [(١)].

ومحل الكراهة إذا لم يكن له منفذ ينفذ منه البول أو الماء، وإلا فلا يكره.

ومنها: أنه يستحب له أن يرفع ثوبه عن عورته بلا قعود لقضاء الحاجة شيئاً فشيئاً، نعم إن خاف تنجس ثوبه رفع قدر حاجته، وبسبله أيضاً شيئاً فشيئاً إذا قام قبل انتصابه.

ومنها: أن لا يبول في مكان صلب لئلا يترشرش بالبول فقد ورد: «**استنزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر منه**» رواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين [(٢)].

فإن لم يجد مكاناً غيره دقه بحجر أو نحوه حتى يلين.

فائدة: كان النبي ﷺ إذا ذهب إلى الخلاء يحمل أنس بن مالك معه «العنـزة» والعنـزة عليها عصا زج.

وقال الكرماني: «العنـزة» بفتح النون أطول من العصا وأقصر من الرمح، وفي طرفها «زج» كزج الرمح، «والزج» الحديدة التي في أسفل الرمح يعني السنان.

وقال ابن رجب: كانت هذه «العنـزة» تحمل مع النبي ﷺ في الأسفار، وفي يوم العيدين يصلي إليها حيث لم يكن هناك جدار ليستتر به.

وجاء في الصحيحين عن ابن عمر: «كان النبي ﷺ إذا خرج يوم العيد أمر بالحربة فتوضع بين يديه فيصلي إليها والناس وراءه وكان يفعل ذلك في السفر» [(٣)].

قال ابن رجب: والذي كان يحمل العنـزة مع رسول الله ﷺ غالباً عبد الله بن

---

(١) أخرجه أبو داود (١/٧، رقم ٢٧)، والترمذي (١/٣٣، رقم ٢١) وقال: غريب. والنسائي (١/٣٤، رقم ٣٦). وابن ماجه (١/١١١، رقم ٣٠٤)، والحاكم (١/٢٧٣، رقم ٥٩٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وعبد الرزاق (١/٢٥٥، رقم ٩٧٨)، وأحمد (٥/٥٦، رقم ٢٠٥٨٢)، وعبد بن حميد (ص ١٨١، رقم ٥٠٥)، وابن الجارود (١/٢١، رقم ٣٥) عن عبد الله ابن مغفل.

(٢) أخرجه الحاكم (١/٢٩٣، رقم ٦٥٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة. وأخرجه أيضاً الدارقطني (١/١٢٨) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري (١/١٨٧، رقم ٤٧٢)، ومسلم (١/٣٥٩، رقم ٥٠١).

مسعود، فإنه كان خادم نعليه فيلبسه النعلين ثم يمشي بالعصا أمامه، حتى يدخل الحجرة قبل رسول الله ﷺ.

والحكمة في حملها معه ليحفر بها الأرض، ويلين التراب ليبول في موضع لين لئلا يصيبه الرشاش، وهذه العنـــزة أهداها النجاشي للنبي ﷺ.

قال الحليمي: وقال ابن سيد الناس: كانت للزبير بن العوام قدم بها من أرض الحبشة فأخذها منه رسول الله ﷺ وقد بقي من هذه «العنـــزة» قطعة موجودة بمصر في الآثار الشريفة.

ومنها: أن لا يبول في ثقب وهو النجش المستدير في الأرض، ولا في سرب وهو الشق في الأرض والبول فيهما مكروه، لأن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك، لأنها مساكن الجن.

فائدة: وقع لسعد بن عبادة ﷺ أنه سافر من المدينة بعد موت رسول الله ﷺ لما لم يبايعه الناس وبايعوا أبا بكر إلى أن وصل إلى مدينة حوران، فنـــزل بها وأقام فجلس يوماً ليبول في ثقب في الأرض فضربه الجن فوقع ميتاً، وذلك سنة خمس عشرة فغسل ودفن بحوران، ولم يعلم أهل المدينة بموته حتى سمعوا قائلاً من الجن في بئر يقول: نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة، رميناه بسهمين فلم يخطئ فؤاده، فحفظوا ذلك اليوم فوجدوه اليوم الذي مات فيه [(١)].

ومنها: أن لا يبول في مهب ريح أي: موضع هبوبها. أي: يكره له استقباله بالبول كما قاله النووي في المجموع لئلا يعود عليه رشاش البول، بل يستدبرها كما في المجموع.

قال الأذرعي في «التوسط»: وجاء في الحديث: «أنه كان ﷺ يتمخر الريح»[(٢)].

أي: ينظر أين مجراها فلا يستقبلها لئلا ترد عليه البول ولكن يستدبرها، ولا فرق في كراهة استقبال مهبة الريح بين حال هبوبها، وحال سكونها إذ هي تهب بعد شروعه في البول فترد الرشاش عليه، أفاد ذلك ابن شهبة.

ومنها: أن لا يبول قائماً بل يكره البول قائماً لما رواه الترمذي وغيره عن عائشة أنها قالت: «**من حدثكم أن النبي ﷺ كان يبول قائماً فلا تصدقوه ما كان يبول إلا**

---

(١) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠/٢٦٦: ٢٦٩).

(٢) أورده ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (١/٤٥) وقال: غريب.

قاعداً» [١].

نعم يجوز البول قائماً لعذر بلا كراهة ولا خلاف الأولى، فقد ورد في الصحيحين: **«أن النبي ﷺ أتى سباطة قوم فبال قائماً»** [٢].

واختلف العلماء في سببه:

فقيل: كان به وجع في صلبه والعرب كانت تستشفى بالبول قائماً لوجع الصلب.

وقيل: لأنه لم يجد مكاناً يصلح للقعود.

وقيل: كان بباطن ركبتيه علة فما قدر يجلس فبال قائماً.

قال النووي: ويجوز أن يكون فعل ذلك بياناً للجواز.

سؤال: فإن قيل: كيف بال رسول الله ﷺ في سباطة القوم بغير إذنهم مع أنه لا يجوز لأحد أن يستجمر في حائط غيره بغير أذنه؟

جوابه: إما أنه ﷺ علم رضاهم بذلك وأذنوا له، أو أنها لم تكن مختصة بهم، بل عامة أضيفت إلى القوم لقربها منهم.

ومنها: أن يستبرئ من البول عند انقطاعه وقبل قيامه إن كان قاعداً، لئلا يقطر عليه، ويحصل بتنحنح ونثر ذكر ثلاث مرات.

وكيفية النثر: أن يمسح بيسراه العروق من دبره إلى رأس الذكر وينثره بلطف، ليخرج ما بقي إن كان، ويكون ذلك بالإبهام والمسبحة، ويحصل أيضاً بالمشي خطوات أكثرها سبعون خطوة.

قال النووي: ويختلف ذلك باختلاف الناس، فمنهم من يحصل له الاستبراء بأدنى عصر، ومنهم من يحتاج إلى تكرره، ومنهم من يحتاج إلى صبر لحظة، ومنهم من لا يحتاج إلى شيء من هذا، المقصود أن يظن الإنسان أنه لم يبق بمجرى البول شيء يخاف خروجه.

والاستبراء مستحب فلو تركه الإنسان فاستنجاؤه صحيح ووضوءه كامل، وإنما لم يجب لأن الظاهر من انقطاع البول عدم عوده.

قال الأذرعي: نعم إذا تحقق أن في المجرى شيئاً يخرج منه، أو غلب على ظنه

---

(١) أخرجه الترمذي (١/١٧، رقم ١٢) وابن ماجه (١/١١٢، رقم ٣٠٧)، وابن حبان (٤/٢٧٨، رقم ١٤٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (١/٩٠، رقم ٢٢٢)، ومسلم (١/٢٢٨، رقم ٢٧٣)، وأبو داود (١/٦، رقم ٢٣)، والترمذي (١/١٩، رقم ١٣)، والنسائي (١/٢٥، رقم ٢٦)، وابن ماجه (١/١١١، رقم ٣٠٥) عن حذيفة.

بمقتضى عادته أنه يخرج منه شيء، وجب أن يستبرئ بعده، ووافقه ابن البرزي على ذلك.

ويكره لغير حاجة أن يحشو ذكره بقطن أو نحوه، أما لحاجة فإنه لا يكره، بل يجب كمن به سلس البول.

وينبغي لكل أحد في الاستبراء أن لا ينتهي إلى حد الوسوسة فإنها مذمومة، والناس مختلفون في الوسواس.

فمنهم من يوسوس في الاستنجاء والوضوء والغسل، فيؤديه ذلك إلى الإسراف في الماء.

ومنهم من يوسوس في الصلاة فيؤديه ذلك إلى عدم جزم النية، وتكرير لفظ نويت نويت أصلي أصلي ونحو ذلك، وهذا نقص في العقل وحيل من الشيطان.

فقد روى ابن ماجة أن النبي ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال له: «**لا تسرف**» فقال له: يا رسول الله أفي الماء إسراف؟ قال: «**نعم وإن كنت على نهر جار**» [(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**أن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء**» [(٢)] رواه الترمذي.

قال ابن العماد: معناه أنه يشككه في خلاء الوضوء، أو بعد الفراغ منه في أنه نوى أو ما نوى، أو في أنه لم يستوعب غسل الوجه في المرات الثلاث ونحو ذلك.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن قال: «شيطان الوضوء يدعى الولهان ويضحك بالناس في الوضوء».

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم التيمي قال: «أول ما يبدأ الوسواس من الوضوء» [(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء**» [(٤)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/١٤٧، رقم ٤٢٥) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه الترمذي (١/٨٥، رقم ٥٧)، وقال: غريب وليس إسناده بالقوي. وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١/١٤٦، رقم ٤٢١)، وأحمد (٥/١٣٦، رقم ٢١٢٧٦)، وابن خزيمة (١/٦٣، رقم ١٢٢)، والحاكم في المستدرك (١/٢٦٧، رقم ٥٧٨)، والطيالسي (ص: ٧٤، رقم ٥٤٧) عن أبي ابن كعب.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١/٦٧، رقم ٧٢٥).

(٤) أخرجه أبو داود (١/٢٤، رقم ٩٦)، وابن ماجه (٢/١٢٧١، رقم ٣٨٦٤)، وأحمد =

قال الشيخ موفق الدين ابن قدامه رحمه الله: إن رسول الله ﷺ وأصحابه ما كان فيهم موسوس، ولو كانت الوسوسة فضيلة لادخرها الله لرسوله وأصحابه، وهم خير الخلق وأفضلهم، ولو أدرك رسول الله ﷺ الموسوسين لمقتهم، ولو أدركهم عمر لضربهم وأدبهم، ولو أدركهم أحد من الصحابة لبدعهم.

قيل: إن بعض الصوفية جلس ليلة يتوضأ لصلاة العتمة، فصار يصب الماء عليه حتى مضى شطر الليل فلم تطب نفسه، و لم يذهب الوسواس من قلبه، فبكى وقال: يارب العفو، فسمع هاتفاً يقول له: اترك ما أنت فيه، واستعلم العلم.

ومن آدابه أن لا يأكل ولا يشرب في الخلاء، كما قاله القاضي زكريا عن المحب الطبري.

ومنها: أنه لا يستاك، فقد نقل عن ابن عباس: أنه يورث النسيان، ونقل عنه أيضاً أنه قال: «من فعل ذلك فذهب بصره فلا يلومن إلا نفسه».

ومنها: أن لا يمسك البول بعد ما أخذه فإن ذلك يضر بالمثانة قاله الغزالي.

ويقال: إن حبس البول يفسد من الجسد كما يفسد النهر ما حوله إذا سد مجراه.

ومنها كما قال الغزالي في الإحياء: أن يقول عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم طهر قلبي من النفاق، وحصن فرجي من الفواحش [(١)].

خاتمة: قال الترمذي الحكيم: إذا أتيت الخلاء فاعلم أنك تقصد الشيطان فاحذر من كيده، وأقل من إتيانه بقلة الطعام، وكن رجلاً مستحيياً من خالقك، مستحقراً لنفسك.

فقد قال الفضيل بن عياض: إني لأمقت نفسي من كثرة ترددي إلى الخلاء.

وغط نفسك حياءً من ربك، وامش متواضعاً متفكراً في نعم الله عليك، حين أطعمك وأسقاك، وأخرجه عنك حين أذاك، وقف على باب الخلاء وقل: اللهم اجعل دخولي عبرة، وأمط الأذى عني رحمة ترحمني بها، فعن أنس: «إن الشيطان يتباعد إذ ذاك».

قال: ولا تبصق في بولك ولا على ما يخرج منك من العذرة، فقد روي أنه من فعل ذلك يبتلى بالوسوسة وصفرة الأسنان.

= (٤/٨٦، رقم ١٦٨٤٢)، وابن حبان (١٥/١٦٦، رقم ٦٧٦٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٦٧، رقم ٥٧٩)، وابن أبي شيبة (٦/٥٣، رقم ٢٩٤١١)، والبيهقي (١/١٩٦، رقم ٩٠٠) عن عبد الله بن مغفل.

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/١٣٢).

وعن عطاء أنه قال: «من بصق على ما يخرج منه بلي بالدم هو وأولاده أو أحد عقبه.

ولا يتمخط فعن أنس: «أنه يورث الصمم».

ولا تقلب خاتمك مرة بعد أخرى فقد روي: أنه من فعل ذلك يأوي إليه الشيطان.

قال: وينبغي أن تقوم مولّيا عما يخرج منك فقد روي: «أنه فيه شفاء من تسعة وتسعين داء، أدناها البرص والجذام».

قال: واجتهد أن تجعل بينك وبين السماء سترة.

فعن الضحاك: «أن من فعل ذلك أمطرت عليه الرحمة من عنان السماء».

قال: ولا تقتل قملة بل ادفنها.

فقد روى محمد بن أبي طالب أنه قال: «من قتل القمل وهو على رأس خلائه بات معه في شعاره شيطان، ينسيه ذكر الله تعالى أربعين صباحاً».

قال: ولا تلقي ما تستنجي به على رأس ما يخرج منك من بول وعذر؟

فعن مكحول: «أنه من فعل ذلك تدودت أسنانه، وغلبت عليه الرياح».

ولا تقم حتى تشد سراويلك فعن قتادة: «أن من داوم على ذلك» أي: من قام قبل أن يشد سراويله «غلب الدم عليه حتى يكون موته منه».

قال: ولا تغمض عينيك، فإن ذلك يورث النفاق في القلب، كما قاله الحسن.

قال: ولا تحمل الماء معك إلى الخلاء بيسارك.

فعن كعب: «أن ذلك فعل الشيطان ويفقد ثواب وضوءه».

قال: ولا تضع يديك على صدغك، وتجعل رأسك بينهما.

فعن أويس القرني: «أن ذلك يورث قساوة القلب والبرص، ويذهب الرحمة والحياء».

قال: ولا تسنده إلى حائط وغيره كفعل الجبابرة والشيطان، فإنه يذهب ماء الوجه وينفح البطن.

قَالَ البُخَارِي:

بَابٌ: لاَ تُسْتَقْبَلُ القِبْلَةُ بِغَائِطٍ وَلاَ بَوْلٍ إِلاَّ عِنْدَ البِنَاءِ: جِدَارٍ أَوْ نَحْوِهِ

حَدَّثَنَا آدَمُ قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ قَالَ حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ...»

في هذا الإسناد من اللطائف أن رجاله كلهم مدنيون، وأبو أيوب الأنصاري صحابي جليل، واسمه: خالد بن زيد، ولكن غلبت عليه كنيته، وهو خزرجي أنصاري مدني، ثم شامي، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

ومن فضائله: أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة نزل عليه شهراً، حتى بنت مساكنه ومسجده ﷺ.

وقدم مرة إلى البصرة وكان فيها ابن عباس ففرح به وقال له: إني أخرج من مسكني لك، كما خرجت لرسول الله ﷺ عن مسكنك، ولما رحل منها أعطاه عشرين ألفاً وأربعين عبد.

هو من نجباء الصحابة ومناقبه جمة، وكان مع علي في حروبه.

ومن فضائله: أنه خرج مرة للغزاة بالقسطنطينية فمرض فلما ثقل قال لأصحابه: احملوني فإذا صففتم العدو فارموني تحت أرجلكم.

قال ابن الملقن: قال الكرماني قال لأصحابه: إذا مت فاحملوني فإن صافقتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم، ففعلوا فقبره قريب من سور بالقسطنطينية، معروف إلى اليوم وهم هناك يستقون به فيسقون، مات سنة خمسين، وقيل: إحدى وخمسين، روي له من الأحاديث عن رسول الله ﷺ مائة وخمسون حديثاً، اتفقا على سبعة، وانفرد البخاري بحديث.

«... عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا أَتَى أَحَدُكُمُ الْغَائِطَ فَلاَ يَسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وَلاَ يُوَلِّهَا ظَهْرَهُ، شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا» (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «فلا يستقبل» بكسر اللام لأن «لا» ناهية واللام في القبلة للعهد أي للكعبة.

قوله: «ولا يولها ظهره»: ولمسلم «ولا يستدبرها» وزاد «ببول أو بغائط» والغائط الثاني غير الأول، أطلق على الخارج من الدبر مجازاً من إطلاق اسم المحل على الحال كراهية لذكره بصريح اسمه، وحصل من ذلك جناس تام.

والظاهر من قوله «ببول» اختصاص النهي بخروج الخارج من العورة، ويكون مثاره إكرام القبلة عن المواجهة بالنجاسة، ويؤيده قوله في حديث جابر: «إذا هرقنا الماء». وقيل مثار النهي كشف=

في هذا الحديث دلالة على أنه يحرم على الإنسان أن يستقبل القبلة ببول أو غائط أو يستدبرها، فإن قوله: «**فلا يستقبل القبلة**» نهي، وكذا قوله: «**ولا يولها ظهره**» نهي أيضاً.

والأصل في النهي أن يكون للتحريم وهذا المسألة فيها أربعة مذاهب للعلماء:

الأول: التحريم مطلقاً في البنيان والصحراء وهو قول أبي أيوب الأنصارى، راوي الحديث، وحكي عن جماعة منهم أبو حنيفة، وهؤلاء حملوا النهي على العموم، وجعلوا العلة فيه التعظيم والاحترام للقبلة، فإن موضعها للصلاة وللدعاء والبر والخير.

الثاني: الجواز مطلقاً.

الثالث: تحريم الاستقبال دون تحريم الاستدبار.

الرابع: وهو قول إمامنا الشافعي وبه قال مالك وجمهور العلماء: أنه يحرم الاستقبال والاستدبار في الصحراء دون البنيان.

سؤال: فإن قيل: قوله في هذا الحديث: «**فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره**» يقتضي التحريم في الصحراء والبنيان؟

جوابه: أن إمامنا الشافعي حمله على الصحراء، وحمل غيره من الأحاديث الدالة على الجواز مطلقاً على البنيان، جمعاً بين الأخبار.

فائدة: إنما يجوز الاستقبال والاستدبار في البنيان بشرطين:

أحدهما: أن يستتر بشيء بينه وبين القبلة مرتفع قدر ثلثي ذراع فأكثر، كجدار أو حجر أو تراب أو إرخاء ذيل أو نحوه.

الثاني: أن يقرب منه على ثلاثة أذرع فأقل بذراع الآدمي، فإن كان الساتر أقل من ثلثي ذراع أو كان أكثر، ولكن بعد عنه أكثر من ثلاثة أذرع فيحرمان حينئذ كالصحراء.

نعم إذا كان في الأخلية المعدة لقضاء الحاجة وإن بعد الساتر عنه، أو قصر من ثلثي ذراع فأكثر وقربه منه، لا حرمة فيه ولا كراهة ولا خلاف الأولى قاله النووي.

لأن الضرورة قد تدعو إلى توسيعه لوضع أواني الماء ونحوها، وإنما يحرمان بالصحراء إذا لم يكن بينها وبينه ساتر، فإذا استتر بمرتفع قدر ثلثى ذراع فأكثر، وقرب

= العورة، وعلى هذا فيطرد في كل حالة تكشف فيها العورة كالوطء مثلا، وقد نقله ابن شاش المالكي قولا في مذهبهم وكأن قائله تمسك برواية في الموطأ: «لا تستقبلوا القبلة بفروجكم» ولكنها محمولة على المعنى الأول أي حال قضاء الحاجة جمعاً بين الروايتين والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٢٤٦).

منه على ثلاثة أذرع فأقل لم يحرم.

فائدة أخرى: إذا جاز للإنسان استقبال القبلة واستدبارها ببول أو غائط بالشروط المذكورة في غير الأخلية المعدة لذلك فهل هو جائز مع الكراهة أو بلا كراهة؟

جزم الرافعي تبعاً للمتولي أن الكراهة موجودة.

واختار النووي أن الكراهة منتفية قال: لكن الأدب والأفضل الميل عن القبلة إذا أمكن بلا مشقة احتراماً لها.

فائدة أخرى: إذا قلنا بتحريم الاستقبال والاستدبار لفقد الشروط المذكورة، فيجب على قاضي الحاجة حينئذ إما أن يتوجه إلى ناحية الشرق، وإما إلى ناحية الغرب كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله: «**شرقوا أو غربوا**».

فإن معنى شرقوا الالتفات إلى ناحية الشرق، وغربوا الالتفات إلى ناحية الغرب، ولقد أحسن من قال:

سارت مشرقة وسرت مغرباً ... شتان بين مشرق ومغرب

وينبغي أن يعلم أن وجوب التشريق والتغريب في حق من ليست قبلته في ناحية المشرق أو المغرب كأهل المدينة الشريفة وأهل الشام وغيرهما.

ويعلم ذلك من قوله في الحديث: «**شرقوا أو غربوا**» فإنه خطاب لأهل المدينة، ولمن كانت قبلته على ذلك السمت، أما من كانت قبلته إلى جهة المغرب أو المشرق، فإنه ينحرف إلى الجنوب أو الشمال.

فائدة أخرى: لو كانت الريح تهب عن يمين القبلة ويسارها، ولو بال لغير القبلة لرد الريح عليه البول جاز له في هذه الحالة أن يستقبل القبلة بالبول أو يستدبرها للضرورة قاله القفال.

فائدة أخرى: إذا قلنا لا يكره استقبال القبلة ولا استدبارها حال الاستنجاء ولا حال الجماع ولا حال إخراج الريح، فإن النهي عنهما إنما ورد في البول والغائط، وهذا لم يفعله.

فائدة أخرى: يكره استقبال الشمس والقمر وبيت المقدس واستدبارها ببول أو غائط في الصحراء والبنيان إكراماً لها قاله صاحب الروض تبعاً للرافعي.

لكن نقل النووي في الروضة عن الجمهور: أن الكراهة في الشمس والقمر مخصوصة بالاستقبال فقط.

وقال في المجموع: هو الصحيح المشهور.

وأفاد بعض العلماء: أن استقبال القمر لا يكره إلا في وقت سلطنته وهو الليل، أما النهار فلا.

ثم سأل وقال: **فإن قيل:** ينبغي أن يكره استقباله مطلقاً لأن في حافتيه ملكاً؟

ثم أجاب: بأنا لو نظرنا إلى هذا لكره أن يستقبل زوجته، فإن معها الحفظة و لم يقل أحد به.

***

المجلس الثالث والأربعون

في بيان عنـــزة النبي ﷺ وحكم حملها معه وبيان عصا موسى وبيان توبة سحرة فرعون وعددهم وفوائد كثيرة

قَالَ البُخَارِي:

بَابُ حَمْلِ الْعَنَـــزَةِ مَعَ الْمَاءِ فِي الاسْتِنْجَاءِ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ الْخَلاَءَ، فَأَحْمِلُ أَنَا وَغُلاَمٌ إِدَاوَةً مِنْ مَاءٍ، وَعَنَزَةً، يَسْتَنْجِي بِالْمَاءِ. تَابَعَهُ النَّضْرُ وَشَاذَانُ عَنْ شُعْبَةَ. الْعَنَزَةُ عَصاً عَلَيْهِ زُجٌّ (١).

معنى الحديث أن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أخبر هذا الحديث أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يدخل الخلاء ليقضي حاجته فيه أنه كان يحمل هو وغلام الإداوة

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «يدخل الخلاء»: المراد به هنا الفضاء لقوله في الرواية الأخرى «كان إذا خرج لحاجته» ولقرينة حمل العنـــزة مع الماء فإن الصلاة إليها إنما تكون حيث لا سترة غيرها.

وأيضا فإن الأخلية التي في البيوت كان خدمته فيها متعلقة بأهله.

وفهم بعضهم من تبويب البخاري أنها كانت تحمل ليستتر بها عند قضاء الحاجة، وفيه نظر لأن ضابط السترة في هذا ما يستر الأسافل والعنـــزة ليست كذلك.

نعم يحتمل أن يركزها أمامه ويضع عليها الثوب الساتر.

أو يركزها بجنبه لتكون إشارة إلى منع من يروم المرور بقربه.

أو تحمل لنبش الأرض الصلبة.

أو لمنع ما يعرض من هوام الأرض، لكونه ﷺ كان يبعد عند قضاء الحاجة.

أو تحمل لأنه كان إذا استنجى توضأ، وإذا توضأ صلى، وهذا أظهر الأوجه.

وسيأتي التبويب على العنـــزة في سترة المصلي في الصلاة. واستدل البخاري بهذا الحديث على غسل البول كما سيأتي.

وفيه جواز استخدام الأحرار - خصوصا إذا أرصدوا لذلك - ليحصل لهم التمرن على التواضع.

وفيه أن في خدمة العالم شرفا للمتعلم، لكون أبي الدرداء مدح ابن مسعود بذلك.

وفيه حجة على ابن حبيب حيث منع الاستنجاء بالماء لأنه مطعوم لأن ماء المدينة كان عذبا.

واستدل به بعضهم على استحباب التوضؤ من الأواني دون الأنهار والبرك، ولا يستقيم إلا لو كان النبي ﷺ وجد الأنهار والبرك فعدل عنها إلى الأواني. انظر فتح الباري (١/٢٥٢).

التي فيها الماء والعنـــزة لأجل أن يستنجي رسول الله ﷺ.

قال العلماء: «**الإداوة**» بكسر الهمزة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء كالسطحية ونحوها، وتجمع على «أداوى» والمراد بالغلام في هذا الحديث ونحوه: أبو هريرة قاله بعض العلماء.

وفيه إشكال وهو: أن الغلام الذي كان يحمل الإداوة مع رسول الله ﷺ من الأنصار، بدليل ما جاء في بعض الروايات: فانطلقت أنا وغلام من الأنصار، فإن الأنصار كما تقدم لقب على الأوس والخزرج، وأبو هريرة ليس من القبيلتين بل هو دوسي يماني.

وجواب هذا الإشكال: أنه أطلق عليه أنصاري مجازاً كما قاله ابن حجر، فإن الأنصار حقيقة من كان من الأوس والخزرج، فإطلاقه على من ليس منهما مجازاً.

وهكذا يجاب عن كل من أطلق عليه بأنه من الأنصار وليس من القبيلتين كأبي بكر الصديق.

فإنه ورد في هذا الحديث الصحيح أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: «**من؟**» قال رجل: من الأنصار [(١)].

قال العراقي: الضارب في هذا الحديث «أبو بكر»، والمضروب «فيحاص بن عاذوراء» مع أن أبا بكر من المهاجرين لا من الأنصار، لكنه أطلق عليه بأنه منهم مجازاً كما قاله ابن حجر لوجود معنى النصر فيه، وأي ناصر من الصحابة كأبي بكر.

وقال شيخنا العلامة الشيخ محمد البازلي الكردي: وجه تسمية أبي هريرة بأنه أنصاري لأنه نصر سيد الخلق بكثرة رواية الحديث.

قال: وأي نصرة أقوى من حمل الحديث وإظهاره على رؤوس الأشهاد، فهو نصر رسول الله ﷺ بلسانه بسبب كثرة الأحاديث التي رواها عنه، فإنه أكثر الصحابة رواية.

ويدل على أن ذلك يسمى نصرة وجهاد قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾[التوبة: ٧٣] أي: جاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بإظهار الحجة، وبيان المحجة باللسان، فإنه ﷺ قط ما جاهد منافقاً بالسيف بل باللسان.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٨٥٠، رقم ٢٢٨١)، ومسلم (٤/١٨٤٥، رقم ٢٣٧٤) عن أبي سعيد الخدري.

وها هنا إشكال آخر وهو: كيف أطلق أنس على أبي هريرة أنه غلام، والغلام يسمى به الصبي إلى بلوغه، وأبو هريرة لما أسلم كان عمره ثمان عشرة، أو تسع عشرة سنة.

وجواب هذا الإشكال أيضاً: أن الغلام يطلق على معان:

يطلق على الولد من حين يولد إلى أن يبلغ وليس مراداً هنا.

ويطلق على الذي طرَّ شاربه أي: نبت.

ويطلق على الكهل، كما قال ذلك صاحب القاموس وقال: إنه من الأضداد، أي: يطلق على الكبير والصغير.

وحينئذ يقال: إنما أطلق أنس الغلام على أبي هريرة لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشر سنة، وذلك زمن ينبت فيه الشارب، غالباً ومن طر شاربه يسمى غلاماً كما تقدم.

ومما يدل على جواز إطلاق الغلام على من جاوز البلوغ، بل على الرجل الكامل المسن بما ورد في حديث المعراج أن موسى ﷺ أطلق لفظ الغلام على نبينا ﷺ فإنه لما مر على موسى بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي [(١)].

وسنذكر في موضعه حكمة إطلاق الغلام على نبينا ﷺ.

«والعنـــزة» التي كانت تحمل مع رسول الله ﷺ إلى الخلاء وغيره: عصا في أسفلها زج كزج الرمح، و«الزج» الحديد التي في أسفل الرمح، يعني السنان.

واختلف فيها هل كانت قصيرة أو طويلة؟

فقيل: إنها عصا مثل نصف الرمح.

وقيل: هو أطول من العصا وأقصر من الرمح، وفيها زج.

قال الداودي: «العنـــزة»: العكاز أو الرمح أو الحربة أو نحوها، يكون في أسفلها زج أو قرن.

فائدة: قال ابن الملقن هذه العنـــزة أهداها النجاشي له ﷺ.

وقال ابن سيد الناس: كانت للزبير بن العوام قدم بها من أرض الحبشة، فأخذها منه رسول الله ﷺ وكانت تحمل معه إلى الخلاء، ويستصحبها رسول الله ﷺ في السفر

---

(١) أخرجه البخاري (٣/١٤١٠، رقم ٣٦٧٤)، ومسلم (١/١٤٩، رقم ١٦٤)، وابن حبان (١/ ٢٣٦، رقم ٤٨) عن أنس.

وغيره.

فائدة أخرى: قد بقي من هذه العنـــزة قطعة في مكان في مصر يقال له: «الآثار» سمي بذلك لأن فيه شيئاً من آثار النبي ﷺ.

قال الشيخ برهان الدين المحدث: زرت الآثار مراراً، ورأيت فيه قطعة من هذه العنـــزة، ومعه المرود الذي كان يكتحل به ﷺ والمخصف، وقطعة من القصعة، ومنقاشاً صغيراً وكأنه لإخراج الشوك من الرجل وغيرها، قال: واكتحلت بالمرود، وشربت من ماء وضعت فيه القطعة من العنـــزة، فهنيئاً لمن رأى آثار رسول الله ﷺ متبركاً به، فإن من رأها فكأنه رأى النبي ﷺ.

ولقد أحسن من قال:

يـــا عـــين إن بعد الحبيب وداره ... ونـــأت مـــرابعه وشـــط مزاره

فـــلك الهنا فلقد ظفرت بطائل ... إن لم تـــريه فهـــذه آثـــاره

فائدة أخرى: الحكمة في استصحابه ﷺ هذه العنـــزة إلى الخلاء هي: أنه ﷺ كان قد يأتي إلى أرض صلبة فيحفر بها تلك الأرض، ويلين ترابها ليبول في موضع لين كيلا يصيبه الرشاش.

وإنما كانت تحمل معه في السفر وغيره لأجل أن يصلي إليها في الفضاء، ويتقي بها الكافرين واليهود، فإنهم كانوا يريدون قتله واغتياله بكل حالة.

قال ابن رجب: هذه العنـــزة كانت تحمل مع النبي ﷺ في الأسفار وفي يومي العيدين، يصلي إليها حيث لم يكن هناك جدار يستتر به.

وجاء في الصحيحين عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج يوم العيد أمر بالحربة فتوضع بين يديه فيصلي إليها والناس وراءه، وكان يفعل ذلك في السفر، وكان يحمل هذه ويمشي بها أمامه عبد الله بن مسعود [1].

قال ابن رجب: كان عبد الله بن مسعود يلبس رسول الله ﷺ نعليه ثم يمشي بالعصا أمامه، حتى إذا أتى مجلسه نزع نعليه ثم مشى بالعصا أمامه، حتى يدخل الحجرة قبل رسول الله ﷺ ومن أجل هذا اتخذ الأمراء من يمشي أمامهم قاله ابن الملقن.

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٨٧، رقم ٤٧٢)، ومسلم (١/٣٥٩، رقم ٥٠١). وأخرجه أيضاً: أبو داود (١/١٨٣، رقم ٦٨٧).

وذكر بعض العلماء للعصا فوائد كثيرة:

منها: دفع العدو.

ومنها: إتقاء السبع.

ومنها: نبش الأرض الصلبة عند قضاء الحاجة خشية الرشاش.

ومنها: تعليق الأمتعة بها.

ومنها: التوكؤ عليها خصوصاً لمن كبر سنه وضعفت قوته.

ولله در القائل:

تقوس بعد طول العمر ظهري ... وداستني الليالي أي دوسي

فأمشي والعصا تمشي أمامي ... كأن قومها وترًا لقوسي

ومنها: السترة بها في الصلاة.

قال الله حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿**وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾[طه: ١٨].

وقيل للإمام الشافعي: مالك تدمن إمساك العصا؟ قال: حتى أتذكر أني مسافر.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء، وكان النبي ﷺ يتوكأ عليها ويأمر بالاتكاء عليها.

وجاء في حديث: «**حمل العصا علامة المؤمن وسنة الأنبياء**» [(١)].

ومن خرج في سفر ومعه عصا من لوازمه: أمنه الله من كل سبع ضار، ولص عاد، ومن كل ذات حمة حتى يرجع إلى أهله ومنزله، وكان معه سبعة وسبعون من المعقبات، يستغفرون له حتى يرجع ويضعها قاله العلامي في تفسيره.

والمراد «بالمعقبات»: الملائكة.

و«بذات حمة» بضم المهملة: ذات السم كالحية والعقرب نقله البرماوي.

ونقل عن الحسن البصرى وغيره أنه قال: «في العكاز خمسة: سنة الأنبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون الضعفاء، ويهرب من صاحبها، ويخشع منه الفاجر، وتكون لصاحبها قبلة إذا صلى، وقوة إذا تعب».

وورد في حديث أنه قال: «**من بلغ أربعين سنة ولم يأخذ العصا عُدَّ له من الكبر**

---

(١) أخرجه الديلمى (١٤٧/٢، رقم ٢٧٥٠) عن أنس.

والعجب» [١].

فائدة: قال في الروض الفائق: قال بعض الصالحين: كنت في البادية فتقدمت القافلة فرأيت قدامي شخصاً، فسارعت حتى أدركته، فإذا هي امرأة بيدها عكاز، وهي تمشى على الهوينى، فظننت أنها أعييت، فأدخلت يدي في جيبي وأخرجت عشرين درهماً، فقلت: خذيها وامكثى حتى تلحقك القافلة فتكتري بها. ثم أتيني الليلة حتى أصلح أمرك، فقالت: بيدها في الهواء هكذا فإذا في كفها دنانير من الغيب فقالت: أنت أخذت الدراهم من الجيب، وأنا أخذت الدنانير من الغيب، ثم أخذت تقول:

كم نعمة لك في العبادة ومنة ... موجودة في ذاتها لا تعدم
كم آية لك في الخلائق والنهى ... مشهورة أسرارها لا تفهم
كم حالة حولتها فتحولت ... فينا بنا عما تريد فترحم

فائدة أخرى في بيان عصا موسى وما فيها من المآرب وما اتفق له فيها من المعجزات والعجائب:

قال العلماء من المفسرين وغيرهم: لما تزوج موسى بابنة شعيب وصار يرعى له الأغنام، أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه، وكانت عصا الأنبياء عنده فوقع في يدها عصا آدم، فأمرها بردها وأخذ غيرها، ففعلت ذلك سبع مرات وما يقع في يدها إلا هذه العصا، فعلم أن لها شأناً عظيماً، وكانت من الجنة على قول أكثر العلماء، وكان طولها عشرة أذرع على طول موسى، حملها آدم معه من آس الجنة إلى الأرض، فتوارثها صاغر عن كابر إلى أن وصلت إلى شعيب، فأعطاها موسى.

واختلف العلماء في اسمها، **فقيل:** ماسا، **وقيل:** نفعة، **وقيل:** غياث، **وقيل:** عليق.

وأما صفتها: **فقيل:** كانت لها شعبتان ومحجن في أسفل الشعبتين وسنان حديد في أسفلها.

وأما المآرب التي كانت فيها فقد ذكر علماء التفسير وغيرهم:

أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان إذا دخل مغارة ليلاً ومعه العصا و لم يكن قمر تضيئ شعبتاها كالشعلتين من نار تضيئان له مد البصر في رأسها.

وكان إذا أعوزه الماء دلاها في البئر، فتمتد على قدر البئر ويصير في رأسها شبه

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٨٣) وبين أنه موضوع.

الدلو فيستقي بها.

وكان إذا احتاج إلى الطعام ضرب الأرض بها فتخرج ما يأكل يومه.

وكان إذا اشتهى فاكهة من الفواكه غرسها في الأرض فتخرج أغصان تلك الشجرة التي اشتهى موسى فاكهتها وأثمرت له من ساعتها.

وكان إذا قاتل عدوه يظهر على شعبتيها تنينان عظيمان.

وكان يضرب بها على الجبل الوعر المرتقى على الحمر وعلى الحجر والشوك فينفرج له.

وكان إذا أراد عبور نهر من الأنهار بلا سفينة، ضرب عليه بها فانفلق وصار له طريقاً يمر عليه.

وكان يشرب أحياناً من إحدى شعبتها العسل، ومن الآخر اللبن.

وكان إذا تعب في طريقه يركبها فتحمله إلى أي موضع شاء من غير ركض ولا تحريك رجل.

وكانت تدله على الطريق إذا أخطأ الطريق، وتقاتل أعداءه عنه.

وكان إذا احتاج موسى إلى الطيب يفوح منها الطيب حتى يتطيب ويطيب ثوبه.

وكان إذا مشى في طريق فيه لصوص يخاف الناس منهم كلمته العصا وتقول له: اذهب في طريق كذا ولا تذهب في طريق كذا.

وكان يهش بها على غنمه أي: يخبط بها ورق الشجر على غنمه فتأكله.

وكان يدفع بها السباع والحيات والحشرات.

وكان إذا سافر وضعها على عاتقه، وعلق عليها جهازه ومتاعه ومخلاته ومقلاعه وكساؤه وطعامه وشرابه.

وروي أن شعيباً قال لموسى: حين زوجه ابنته وسلم إليه أغنامه ليرعاها: اذهب بهذه الأغنام فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك، وإن كان الكلأ بها أكثر فإن هناك تنيناً عظيماً أخاف عليك وعلى الأغنام منه، فذهب موسى بالأغنام فلما بلغ مفرق الطريق فأخذت الأغنام ذات اليمين، فاجتهد موسى على ردها وصرفها ذات الشمال فلم تطعه، فطاوعها موسى ثم نام والأغنام ترعى، فإذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى وحاربت التنين فقتلته، ورجعت فاستلقت إلى جنب موسى وهي دامية، فلما استيقظ موسى رأى العصا دامية والتنين مقتولاً فعلم أن تلك العصا قوة وعزاً وإن لها شاناً.

فهذه مآرب موسى في العصا إذا كانت بيده.

وأما إذا ألقاها فيروى: أنها كانت تنقلب حية كأعظم ما يكون من الثعابين سوداء مدلهمة تدب على أربع قوائم، فتصير شعبتاها فماً، فيه اثنتى عشر ناباً وضرساً، قيل: كان بين لحييها أربعون ذراعاً، لها صريف وصرير، يخرج منها لهب النار، وعيناها تلمعان كما يلمع البرق، يهب من فمها ريح السموم، لا تصيب شيئاً إلا أحرقته، تمر بالصخرة فتبتلعها، وتمر بالشجرة فتحطمها بأنيابها وتبتلعها، وتتلمظ وتتبرم كأنها تطلب شيئاً تأكله، وكانت في عظم الثعبان، وخفة الجان، ولين الحية، لذلك ذكرت في القرآن في مواضع قال تعالى: ﴿**فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى**﴾[طه: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ**﴾[الشعراء: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿**كَأَنَّهَا جَانٌّ**﴾[النمل: ١٠].

قال الإمام فخر الدين الرازى في تفسيره الكبير في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ**﴾[الشعراء: ٣٢] ما نصه: والثعبان الحية الضخمة الذكر في قول جميع أهل اللغة، ثم قال في وصف ذلك الثعبان يكون مبيناً وجوه:

الأول: تمييز ذلك عما جاء السحرة من التمويه الذي يلتبس على من لا يعرف سببه، وبذلك تتميز معجزات الأنبياء عن الحيل والتمويهات.

الثاني: المراد أنهم شاهدوا كونه حية و لم يشبه الأمر عليهم.

الثالث: المراد أن ذلك الثعبان أبان قول موسى عن قول المدعي الكاذب.

ومعنى الآية : أن فرعون لما طلب من موسى آية أي معجزة تدل على نبوته كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿**قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾[الأعراف: ١٠٦].

فالقى موسى عصاه في تلك الساعة فانقلبت ثعباناً عظيماً كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ**﴾[الشعراء: ٣٢].

أي: حية عظيمة فاتحة فاها ما بين لحييها ثمانون ذراعاً ثم قامت على ذنبها، وشدت على فرعون لتبتلعه، فوثب فرعون عن سريره هارباً.

وقيل: إنها وضعت لحيها الأسفل على الأرض، والأعلى على سطح القصر الذي فيه فرعون فوثب فرعون هارباً وأحدث أي: أخذه الإسهال في ذلك اليوم أربعمائة مرة، ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى خذها فأومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فعادت عصا.

وأظهر لهم موسى معجزة أخرى وهي أنه أخرج يده من جيب جبته الصوف فغدا لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض، ويغلب نورها شعاع الشمس كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ [الأعراف: ١٠٨] أي: أخرجها، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[الأعراف: ١٠٨].

أي: فإذا هي بياضها بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة تجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع للنظر في العجائب.

قال الرازى: ولما كان البياض كالعيب بين تعالى في غير هذه الآية أنه كان من غير سوء.

سؤال: فإن قيل: إن المعجزة الواحدة كانت كافية فما الحكمة في الجمع بينهما؟

جوابه: أن كثرة الدلائل توجب القوة في اليقين وزوال الشك.

قال الرازى: فلما أظهر موسى هذين النوعين من المعجزات قال قوم فرعون له: إن هذا يعنى موسى لساحر عليم بالسحر.

قال الرازى: وكان السحر غالباً في ذلك الزمان، وكانت مراتب السحرة متفاضلة متفاوتة، ومنهم من وصل فيه إلى غاية الكمال في ذلك العلم، فزعموا وظنوا أن موسى من السحرة، وأنه وصل إلى غاية الكمال من علم السحر، وأنه إنما أتى بذلك لكونه طالباً للملك والرياسة، وأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم كما حكى الله ذلك عنهم بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾[الأعراف: ١٠٩، ١١٠].

و لم يظهر لهم أنه أمر إلهي، ثم قالوا له: اجمع السحرة من مدائن ملكك ليعارضوه في سحره ويعطلوا سحره.

فائدة: قال الإمام الرازى: جعل الله تعالى معجزة كل نبي من جنس ما كان غالباً على أهل ذلك الزمان.

فلما كان السحر غالباً على أهل زمان موسى كانت معجزته شبيهة بالسحر، وإن كانت مخالفة للسحر في الحقيقة.

ولما كان الطب غالباً على أهل زمان عيسى كانت معجزته من جنس الطب.

ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد ﷺ لا جرم كانت معجزته من جنس الفصاحة.

ثم أرسل فرعون وجمع السحرة من مدائن الصعيد، وكانت سبع مدائن فاجتمعوا

عنده بالإسكندرية.

فائدة: اختلف العلماء في عدد السحرة:

فقيل: كانوا ثمانين ألفاً.

وقيل: سبعين ألفاً.

وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً، وكانوا صفوفاً.

فقد ذكر بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا**﴾[طه: ٦٤] أنهم كانوا صفوفاً كل صف ألف.

فعلى القول الأول: كانوا ثمانين صفاً.

وعلى الثاني: سبعين صفاً.

وعلى الثالث: بضعة وثلاثين.

وكان متقدمهم شمعون أبو حنة فلما اجتمعوا قالوا لفرعون: أتجعل لنا جُعْلاً إن غلبنا موسى؟ فقال لهم: نعم لكم علي جُعْل وتصيرون عندي من المقربين في مجلسي، وأول من يدخل علي وآخر من يخرج، هذا معنى قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢].

فلما أرادوا إلقاء سحرهم وإظهاره راعوا حسن الأدب مع سيدنا موسى، حيث لم يتقدموا عليه بل قالوا له كما قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿**إِمَّا أَن تُلْقِيَ**﴾[الأعراف: ١١٥] أي: عصاك ﴿**وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ**﴾[الأعراف: ١١٥] أي: ما معنا من الحبال والعصي، وكان مع كل واحد منهم حبل وعصا.

قال أهل التصوف: لما راعوا هذا الأدب رزقهم الله الإيمان.

وقال لهم موسى عليه السلام: ألقوا ما أنتم ملقون.

وهنا سؤال: وهو كيف أمرهم موسى بإلقاء حبالهم وعصيهم، وفي الإلقاء معارضة للمعجزة بالسحر، وذلك كفر والأمر بالكفر كفر.

وجوابه: أنه عليه السلام كان يريد إبطال ما أتوا به من السحر، وإبطاله ما كان ليمكن إلا بإقدامهم على إظهاره، فأذن لهم في الإتيان بذلك السحر ويمكنه الإقدام على إبطاله قاله الرازى.

فلما ألقوا أي: حبالهم وعصيهم وكانت حبالاً غلاظاً، وخشباً طوالاً سحروا أعين

الناس واسترهبوهم أي: قلبوها عن صحة إدراكها بسبب تلك التمويهات.

وقيل: إنهم لطخوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا الزئبق في دواخل تلك العصى، أثر تسخين الشمس فيها تحركت وصارت حيات كأمثال الجبال، فملأت الوادي، وركب بعضها بعضاً.

قيل: ملأت ميلاً في ميل من الأرض.

وأفاد الإمام الرازى: أن تلك الحبال والعصى كانت حمل ثلاثمائة بعير.

ووصف الله سحرهم بأنه عظيم كما قال الله تعالى: ﴿**وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾[الأعراف: ١١٦].

قال الرازى: روي أن السحرة قالوا: لقد علمنا سحر لا يطيق سحره أهل الأرض، إلا أن يكون من أهل السماء، فإنه لاطاقة لنا به، وحصل للعوام من تلك الحيات خوف عظيم.

ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن ألق عصاك فألقاها فصارت حية عظيمة، حتى سدت الأفق ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً، وصارت تبتلع حبالهم وعصيهم واحداً بعد واحد حتى ابتلعت الكل، وقصدت القوم الذين حضروا، فوقع الزحام عليهم فهلك منهم في الزحام خمسة وعشرون ألف، ثم أخذها موسى فصارت عصا.

فقالت السحرة: لو كان ما يصنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا، فلما نفدت علموا أن ذلك من أمر الله كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ**﴾[الأعراف: ١١٧] أي: تبتلع ما يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزدرونه.

﴿**فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[الأعراف: ١١٨].

سؤال: فإن قيل: تلك الحبال والعصي أين ذهبت؟

جوابه: يحتمل أن الله أعدمها، ويحتمل أن الله تعالى فرق بينها بين تلك الأجزاء وجعلها ذات غير محسوسة، وأذابها في الهواء، وعلى كلا الاحتمالين فلا يقدر على هذه الحالة أحد إلا الله سبحانه وتعالى.

وقال بعض العلماء: كان كبير السحرة رجلاً أعمى فقال لهم: أرى موسى يقدم علينا مع كثرتنا، وما ذاك بقوته وأخاف أن يكون الأمر سماوياً، فاحترموه وعظموه، فإن غلبناه فلا يضر بنا ذلك، وإن غلبنا فنكون قد قدمنا للصلح مقدمة فيكون شفيعاً لنا عند ربه، قالوا: وكيف نحترمه قال: نستأذنه ونقول له: إما أن نلقي وإما أن تكون أول من ألقى، فلما قالوا له ذلك وأحسنوا معه الأدب، كان سببا لسعادتهم، فضحك

موسى فقال له هارون: أتضحك مع كثرهم، فقال: شممت منهم رائحة الإيمان، فلما قالوا: يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى سمع قائلاً يقول: ألقوا يا أولياء الله فعند ذلك أوجس في نفسه خيفة موسى، لأن أولياء الله لا يغلبهم أحد فلما غلبهم موسى سجدوا لربهم، وقالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهرون فرأوا في سجودهم منازلهم في الجنة، ثم إن السحرة لما تحققوا أن ما فعلته عصا موسى خارج عن السحر، وأنه أمر إلهى، فإنهم وصلوا إلى منتهى السحر، ورأوا معجزة موسى ليست من السحر بل من عند إله قادر قاهر، خروا سجداً لله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠، ١٢١، ١٢٢].

وإنما قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ لأنهم لما سجدوا وقالوا: آمنا برب العالمين. قال لهم فرعون: إياي تعنون؟ فقالوا: رب موسى وهارون. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي المَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٢٣ - ١٢٦].

قال الرازى: واختلفوا في أنه هل قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم أم لا؟

فنقل عن ابن عباس أنه فعل ذلك قال: وهو الأظهر.

ونقل عن آخرين: أنه لم يقع من فرعون ذلك بل استجاب الله لهم الدعاء في قولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] لأنهم سألوه تعالى أن تكون وفاتهم من جهته لا لهذا القتل والقطع.

وقال الكلبى: إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم، ومعنى القطع من خلاف أنه قطع من كل شق عضواً خلاف ما قطعة من الآخر، كاليد اليمنى والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى، وهو أول من قطع من خلاف وصلب.

فهؤلاء السحرة خلقهم الله تعالى لجنته لا لخدمته، فإنهم عاشوا في الدنيا كفاراً ثم ختم لهم بالإيمان.

كانوا أول النهار يحلفون بعزة فرعون أنهم غالبون، ثم بعد ساعة يحلفون بالله تعالى

ويقولون: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾[طه: ٧٢].

كانوا يطلبون الجزاء من فرعون ويقولون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ﴾[الأعراف: ١١٣] ثم بعد ساعة يقولون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدق موسى ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: وحق الذي خلقنا ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[طه: ٧٢] أي: اصنع بنا ما قلته من القطع والصلب في هذه الدنيا فإنما تصنع شيئاً في الدنيا وستجازى عليه في الآخرة ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾[طه: ٧٣] أي: الإشراك وغيره، ويغفر لنا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[طه: ٧٣] أي: خير منك ثواباً إذا أطيع، وأبقى منك عذابا إذا عصي.

واستدل العلماء بحمل أنس ﷺ والغلام الذي معه الإدواة التي فيها الماء والعنزة مع رسول الله ﷺ على أنه يستحب للإنسان حدمه الصالحين، وأهل الفضل، والتبرك بذلك، وتفقد حاجاتهم، خصوصاً المتعلق بالطهارة.

وعلى أنه يجوز للرجل الفاضل أن يستخدم بعض أتباعه الأحرار ويستعين بهم فيما يتعلق بالطهارة وغيرها، خصوصاً إذا علم منهم أنهم يرصدون بذلك ويتمنونه، وأنهم يحصل لهم الشرف بذلك.

وقد اختلف العلماء في مسألة مناسبة لهذا وهي: أنه هل يجوز للإنسان أن يعير ولده الصغير ليخدم من يتعلم منه؟

فقال الروياني من الشافعية: يجوز ذلك، وقيل: لا يجوز لأن ذلك هبة لمنافعه وذلك لا يجوز، كما لا يجوز إعارة ماله.

وحمل النووي قوله على خدمة تقابل بأجرة، أما ما كان لا يقابل بها فالظاهر والذي يقتضيه أفعال السلف جوازه، إذا لم يضر بالصبي.

وقال بعض المتأخرين: إنما يمتنع إعارة الصبي ليمنع غيره ليخدم ما يتعلم به منه إذا انتفت المصلحة، أما إذا وجدت كما لو قال لولده الصغير: اخدم هذا الرجل في كذا ليتمرن على التواضع ومكارم الأخلاق فلا مانع منه، قال ابن الملقن: وهذا حسن بالغ (انتهى).

المجلس الرابع والأربعون

في بيان فوائد متعلق بالاستنجاء بالحجر وغيره

قَالَ البُخَارِي:

بَابُ الاسْتِنجَاءِ بِالحِجَارَةِ

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَكِّيُّ قَالَ حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدِ بْنِ عَمْرٍو الْمَكِّيُّ عَنْ جَدِّهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ اتَّبَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَخَرَجَ لِحَاجَتِهِ، فَكَانَ لاَ يَلْتَفِتُ فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقَالَ «**ابْغِنِي أَحْجَاراً أَسْتَنْفِضْ بِهَا -أَوْ نَحْوَهُ- وَلاَ تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلاَ رَوْثٍ**». **فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ بِطَرَفِ ثِيَابِي فَوَضَعْتُهَا إِلَى جَنْبِهِ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا قَضَى أَتْبَعَهُ بِهِنَّ** (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «اتبعت»: أي سرت وراءه.

والواو في قوله «وخرج» حالية.

وفي قوله «وكان» استئنافية.

قوله: «فدنوت منه»: زاد الإسماعيلي «أستأنس وأتنحنح، فقال: من هذا؟ فقلت: أبو هريرة».

قوله: «أبغني»: بالوصل من الثلاثي أي أطلب لي، يقال بغيتك الشيء أي: طلبته لك. وفي رواية بالقطع أي: أعني على الطلب، يقال: أبغيتك الشيء أي: أعنتك على طلبه، والوصل أليق بالسياق، ويؤيده رواية الإسماعيلي ائتني.

قوله: «أستنفض»: قال القزاز: قوله أستنفض أستفعل من النفض وهو أن تهز الشيء ليطير غباره، قال: وهذا موضع استنظف، أي: بتقديم الظاء المشالة على الفاء، ولكن كذا روي. انتهى.

والذي وقع في الرواية صواب ففي القاموس استنفضه استخرجه، وبالحجر استنجي، وهو مأخوذ من كلام المطرزي قال: الاستنفاض الاستخراج، ويكنى به عن الاستنجاء، ومن رواه بالقاف والصاد المهملة فقد صحف. انتهى.

ووقع في رواية الإسماعيلي «أستنجي»: بدل «أستنفض» وكأنها المراد بقوله في روايتنا أو نحوه، ويكون التردد من بعض رواته.

قوله: «ولا تأتني»: كأنه ﷺ خشي أن يفهم أبو هريرة من قوله أستنجي أن كل ما يزيل الأثر وينقي كاف ولا اختصاص لذلك بالأحجار، فنبهه باقتصاره في النهي على العظم والروث على أن ما سواهما يجزئ، ولو كان ذلك مختصاً بالأحجار -كما يقوله بعض الحنابلة والظاهرية- لم يكن لتخصيص هذين بالنهي معنى، وإنما خص الأحجار بالذكر لكثرة وجودها.

وزاد المصنف في المبعث في هذا الحديث أن أبا هريرة قال له ﷺ لما فرغ : ما بال العظم=

أي: مشيت خلفه، ويجوز «اتبعته» أي: لحقته.

قال في المحكم: «تبع واتبع وأتبع» بمعنى واحد.

قال في التنـــزيل: ﴿أَتْبَعَ سَبَباً﴾[الكهف: ٨٩] أي: تبع.

قوله: «**فدنوت منه فقال: ابغني أحجاراً**» أي: قال أبو هريرة فدنوت من النبي ﷺ أي: لأستأنس به وانظر حاجته.

وجاء في رواية: فدنوت منه استأنس وأتنحنح فقال: «**من هذا؟**» فقلت: أبو هريرة، فقال: «**ابغني أحجار استنفض بها**».

أفاد الكرماني: أنه يجوز أن تكون همزة «أبغني» همزة وصل، والفعل ثلاثي مجرد، والمعنى: اطلب لي أحجار أستنفض بها أي: أستنظف بها أي: انظف نفسي بها من الحدث.

وأن تكون همزة قطع والفعل مزيد ومعناه: أعني على الطلب.

واعلم أن ها هنا فوائد نافعة متعلقة بالاستنجاء مستفاداً بعضها من هذا الحديث:

الأولى: اختلف العلماء رضى الله عنهم في الاستنجاء هل هو واجب أو مستحب؟

والروث؟ قال: هما من طعام الجن. والظاهر من هذا التعليل اختصاص المنع بهما.

نعم يلتحق بهما جميع المطعومات التي للآدميين قياساً من باب الأولى، وكذا المحترمات كأوراق كتب العلم.

ومن قال علة النهي عن الروث كونه نجساً ألحق به كل نجس متنجس، وعن العظم كونه لزجاً فلا يزيل إزالة تامة ألحق به ما في معناه كالزجاج الأملس.

ويؤيده ما رواه الدارقطني وصححه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ نهى أن يستنجى بروث أو بعظم، وقال: «إنهما لا يطهران». وفي هذا رد على من زعم أن الاستنجاء بهما يجزئ وإن كان منهياً عنه.

قوله: «وأعرضت»: كذا في أكثر الروايات، وللكشميهني «واعترضت» بزيادة مثناة بعد العين والمعنى متقارب.

قوله: «فلما قضى»: أي حاجته.

قوله: «أتبعه» بهمزة قطع أي ألحقه، وكنى بذلك عن الاستنجاء.

وفي الحديث: جواز اتباع السادات وإن لم يأمروا بذلك.

واستخدام الإمام بعض رعيته، والإعراض عن قاضي الحاجة، والإعانة على إحضار ما يستنجى به وإعداده عنده لئلا يحتاج إلى طلبها بعد الفراغ فلا يأمن التلوث. والله تعالى أعلم. انظر فتح الباري (١/٢٥٥).

فذهب الإمام مالك والكوفيون إلى أنه سنة.

وذهب إمامنا الشافعي وأحمد بن حنبل وجمهور العلماء إلى أنه واجب وشرط لصحة الصلاة.

وذهب أبو حنيفة إلى أن النجاسة إن كانت أقل من الدرهم فالاستنجاء يكون سنة، وإن كانت مقدار الدرهم فالاستنجاء يكون واجباً، وإن كانت أكثر من قدر الدرهم فالاستنجاء يكون فريضة.

الثانية: الاستطابة والاستنجاء والاستجمار بمعنى إزالة الأذى أي: الخارج.

لكن الاستجمار لا يكون إلا بالأحجار مأخوذ من الجمار، وهي: الأحجار الصغار.

والاستنجاء والاستطابة يكونان بالماء والحجر، وسمى الاستنجاء بالاستطابة لطيب نفس المستنجي بخروج الخارج عنه.

و«الاستنجاء» مأخوذ من نجوت الشجرة إذا قطعتها، فقيل لهذا الفعل استنجاء لحصول قطع الذي عنه به، وقيل لغير ذلك.

الثالثة: يجوز الاستنجاء قبل الوضوء وبعده، وإذا استنجأ بعده لف على يده خرقة لئلا ينتقض وضوءه ونظف المحل وصلى، بخلاف التيمم، فإنه لابد من تقديم الاستنجاء عليه، ولا يصح قبله لأنه طهارة ضرورة، بل لا يصح التيمم وعلى البدن نجاسة في أي موضع كانت حتى يزيلها.

نعم لنا وضوء لا يصح تقديمه على الاستنجاء، وبعبارة أخرى وهي المناسبة لنا استنجاء لابد من تقديمه على الوضوء وصورته في وضوء دائم الحدث.

الرابعة: الاستنجاء واجب عند إرادة القيام إلى الصلاة لا على الفور، كما أفاد القاضي زكريا في شرح الروض تبعاً للأسنوى وغيره، وإنما يجب بخروج الخارج الملوث سواء كان معتاداً كالبول والغائط، أو نادراً كالدم والمذي والودي.

فلا يجب بخروج دود ونحوه، ولا بخروج بعر لا يلوث لعدم النجاسة، نعم يستحب الاستنجاء من ذلك خروجاً من خلاف من أوجبه.

ولا يجب من خروج ريح بالإجماع ولو كان المحل رطباً، بل لا يستحب بل هو مكروه بل بدعة يأثم فاعله كما قال النووي.

فائدة: يستثنى من الملوث المني فإنه لا يوجب الاستنجاء لعدم نجاسته، ولا يجب أيضاً من الاستيقاظ من النوم، فإذا نام الإنسان مستنجياً ثم إستيقظ لا يجب عليه إعادة

الاستنجاء، وبعض العوام يعتقد وجوبه وهو خطأ.

الخامسة: يجزئ الاستنجاء بالماء وحده وبثلاثة أحجار وحدها.

أما إجزاءه بالماء فلأنه الأصل في إزالة النجاسة.

وأما إجزاءه بثلاثة أحجار وحدها فلأنه ﷺ فعله كما رواه البخاري في هذا الحديث، وأمر بفعله بقوله فيما رواه الشافعي وغيره: «ويستنج بثلاثة أحجار» [(١)] وعدها.

وفيما رواه أبو داود وغيره: «**إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليذهب معه بثلاثة أحجار يستطيب بهن فإنه يجزئ عنه**» [(٢)].

فائدة: أفاد بعض العلماء أن النبي ﷺ لم يستنج بالماء إلا مرتين أو ثلاثة مرات، بل كان يستنجي غالباً بالأحجار.

فائدة أخرى: يجزئ الاستنجاء بماء زمزم ولكن مع الكراهة.

وكذا يجزئ الاستنجاء بحجارة الذهب والفضة والجوهر على الأصح.

وأما حجارة الحرم فإنه لا يجوز الاستنجاء بها لحرمتها، فإن استنجأ بها أساء وأجزأ.

وكذا المطبوع من الذهب والفضة قاله الماوردي والروياني.

قال العلماء: وإذا أراد استعمال الأحجار وحدها، فالواجب عليه أن يمسح ثلاث مسحات إما بثلاثة أحجار أو بحجر له ثلاثة أطراف، ولا يكفي أقل من ثلاث مسحات، ولو حصل الإنقاء بمسحة واحدة لخبر مسلم عن سلمان ﷺ «**نهانا رسول الله ﷺ أن نستنجي بأقل من ثلاث أحجار**» [(٣)] وفي معناها ثلاثة أطراف لحجر.

قالوا: ولو مسح ذكره مرتين ثم خرجت منه قطرة وجب أن يأتي بثلاث، لبطلان

---

(١) أخرجه الشافعي (١/١٣)، وابن حبان (٤/٢٨٨، رقم ١٤٤٠)، والبيهقي (١/٩١، رقم ٤٣٥) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود (١/١٠، رقم ٤٠)، والنسائي (١/٤١، رقم ٤٤)، والدارقطني (١/٥٤) وقال: إسناده صحيح. والدارمي (١/١٨٠، رقم ٦٧٠)، وأبو يعلى (٧/٣٤٠، رقم ٤٣٧٦)، وأحمد (٦/١٣٣، رقم ٢٥٠٥٦)، والبيهقي (١/١٠٣، رقم ٥٠٣) عن عائشة.

(٣) أخرجه مسلم (١/٢٢٣، رقم ٢٦٢). وأخرجه أيضاً أبو داود (١/٣، رقم ٧)، والترمذي (١/٢٤، رقم ١٦) وقال: حسن صحيح.

المسح الأول بخروج القطرة، فإن لم يحصل الإنقاء بثلاث وجب الزيادة عليها إلى أن يحصل الإنقاء، فإن نقي برابعة يسن له أن يزيد أخرى لتصير خمسة، فإن الإيتار[1] سنة وإن انقى بسادسة يستحب سابعة.

قال النبي: «**من استجمر فليوتر**» متفق عليه [2].

فائدة: إذا استعمل حجراً ثم غسله وجف جاز له استعماله ثانياً، ولو استعمل حجراً في المرة الثانية و لم يتلوث جاز استعماله أيضاً بلا كراهة، بخلاف ما إذا رمى حجراً في الجمار ثم أخذه ورمى به ثانياً وهكذا إلى السابع، فإنه وإن جاز لكن مع الكراهة، فإنه ورد: «أن ما تقبل من الحصيات رفع وما لا ترك».

السادسة: قال العلماء: لا يتعين الحجر للاستنجاء بغير الماء، بل يقوم مقامه كل جامد طاهر قالع غير محترم كالخشب والخزف والحشيش لحصول الغرض به كالحجر.

سؤال: فإن قيل: الوارد في الحديث إنما هو ذكر الحجارة لا غيرها، فكيف يقوم غيرها مقامها؟

جوابة: أنه إنما جرى ذكر الحجارة في الأحاديث ونسب الحكم إليها كقوله: «**فليستنج بثلاثة أحجار**» كما تقدم لأنها كانت أكثر الأشياء التي يستنجأ بها وجوداً وأقربها تناولاً، لأنها كانت تتناول بلا مشقة فيها ولا كلفة في تحصلها.

فقولهم في ضابط ما يقوم مقام الحجر: «كل جامد» احترزوا به عن المائع غير الماء الطهور كماء الورد ونحوه، فلو استنجأ بماء الورد مثلاً لم يكف وتعين استعمال الماء بعده ولا يكفي الحجر.

واحترزوا «بالجامد» أيضاً: عن الحجر المبلول، فإنه لا يصح الاستنجاء به، لأن البلل الذي عليه يتنجس بملاقاة النجاسة إياه، ويعود بعضه إلى المحل فيحصل عليه نجاسة أجنبية.

---

(١) أي يكون عدد المسحات وتراً فتكون ثلاث مسحات أو خمس أو سبع وهاكذا.

(٢) أخرجه البخاري (١/٧١، رقم ١٥٩)، ومسلم (١/٢١٢، رقم ٢٣٧). وأخرجه أيضاً النسائي (١/٦٦، رقم ٨٨)، وابن ماجه (١/١٤٣، رقم ٤٠٩)، ومالك (١/١٩، رقم ٣٤)، وأحمد (٢/٥١٨، رقم ١٠٧٢٩)، وابن حبان (٤/٢٨٦، رقم ١٤٣٨)، وإسحاق بن راهويه (١/ ٤٥٤، رقم ٥٢٧)، وأبو عوانة (١/٢٠٨، رقم ٦٧٣)، والطبراني في الأوسط (٢/٣٦٣، رقم ٢٢٣٨)، والبيهقي (١/٥١، رقم ٢٣٨) عن أبي هريرة.

واحترزوا «بطاهر» عن النجس والمتنجس كالروث الجامد والحجر المتنجس ونحوهما فلا يكفي الاستنجاء بذلك.

واحترزوا «بقالع» عما لا يقلع النجاسة لملاسته كالقصب والزجاج، أو للزوجته أو لتناثر أجزائه كالفحم الرخو أو التراب المتناثر فلا يكفي الاستنجاء به، أما إذا كان الفحم والتراب صلبين فإنه يكفي الاستنجاء بها.

واحترزوا «بغير محترم» عن الجامد المحترم كأوراق كتب العلم، سواء كان شرعياً كالفقه والحديث أم لم يكن، كالنجوم والعروض فالاستنجاء بها حرام ولا يجزئه، بخلاف أوراق علم المنطق والفلسفة والإنجيل المبدل فإنها إذا لم يكن اسم الله تعالى فيها فهي غير محترمة فيجوز الاستنجاء بها ويجزئه.

ومن المحترم الذي لا يجوز الاستنجاء به ولا يجزئه مطعوم الآدمي كالخبز، ومطعوم الجن كالعظم.

وقد دل قوله ﷺ لأبي هريرة ﷺ في هذا الحديث الذي ساقه البخاري هنا: «**أبغني أحجاراً ولا تأتني بعظم ولا روث**» على أن الاستنجاء بالروث وبالعظم لا يجوز.

أما العظم فالحكمة في النهي عن الاستنجاء به أنه زاد إخواننا من الجن.

وأما الروث فقيل: نهى عنه إما لأنه نجس لا يزيل النجاسة بل يزيدها، وفي المثل: «ليت الفحل يهضم نفسه»، وإما لأنه طعام دوآب الجن.

قال الحافظ أبو نعيم في دلائل النبوة: «إن الجن سألوه هدية منه ﷺ فأعطاهم العظم والروث، فالعظم لهم والروث لدوآبهم».

فإذًا لا يستنجى بهما، وإما لأنه طعام الجن أنفسهم فإن الجن يأكلون ويشربون ويتناكحون كما يفعل الإنسان.

وقال بعضهم: إن صنفاً منهم يأكلون ويشربون، وصنفاً لا يأكلون ولا يشربون، وهذا قول ساقط.

وقال بعضهم: أكلهم وشربهم عبارة عن شم واستنشاق رائحة لا مضغ ولا بلع، وإلى هذا القول ذهب الغزالي، وهذا قول لا دليل عليه.

وأكثر العلماء على أن أكلهم وشربهم كالإنسان مضغ وبلع، وقد دلت الأخبار على ذلك منها قوله ﷺ في هذا الحديث لأبي هريرة: «**ولا تأتني بعظم ولا روث**».

وجاء في رواية في هذا الصحيح أن أبا هريرة قال للنبي ﷺ: ما بال الروث والعظم؟ قال: «**هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جن نصيبين ونعم الجن،**

فسألوني الزاد فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاماً» [(١)].

وروى أبو عبد الله الحاكم في الدلائل أن رسول الله ﷺ قال لابن مسعود ليلة ذهابه لجن نصيبين: «**الجن أولئك جن نصيبين جاؤني فسألوني الزاد فمتعتهم بالعظم والروث**» فقال: وما يغني منهم ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه الذي كان فيه يوم أكله**» [(٢)].

ونبه ﷺ بذكر العظم على أنه لا يجوز الاستنجاء بجميع المطعومات، ولا بجميع المحترمات قاله ابن الملقن.

نعم لنا شيء محترم ويجوز الاستنجاء به وهو ماء زمزم، فإنه محترم ولو استنجأ به أجزأ.

فائدة: لو أحرق العظم الطاهر بالنار وخرج عن حال العظم ففي جواز الاستنجاء به وجهان:

أحدهما: يجوز لأن النار أحالته.

والثاني: لا يجوز.

وأصحهما: أنه لا يجوز لعموم النهي عن أرمة وهي العظم البالي، فإنه لا فرق في البلى بين أن يكون بالنار أو بمرور الزمان قاله ابن الملقن في شرح هذا الحديث، والقاضي زكريا في شرح الروض.

ثم قال القاضي: وإنما لم يجز إذا أحرق كالجلد إذا دبغ لأنه بالإحراق لم يخرج عن كونه مطعوماً بخلاف الجلد إذا دبغ.

فائدة أخرى: قال الأذرعي في «الوسيط»: يحرم أن يبول على ما يحرم الاستنجاء به كعظم المذكى ونحوه، وتبعه القاضي في شرح الروض.

السابعة: يشترط لإجزاء الاستنجاء بالحجر ونحوه شروط:

الأول: أن لا يجف النجس الخارج، فإن جف تعين الماء، لأنه إذا جف لا يزيله

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠١/٣، رقم ٣٦٤٧). وأخرجه أيضاً البيهقي (١٠٧/١، رقم ٥٢٤) عن أبي هريرة.

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (١٦٩/٤) وقال: رواه الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة وهذا إسناد غريب جداً ولكن فيه رجل مبهم لم يسم.

الحجر.

الثاني: أنه لا ينتقل النجس عن الموضع الذي أصابه عند الخروج واستقر فيه، فإن انتقل تعين الماء، وإن لم يجاوز صفحته وحشفته، كان المحل قد طرأ عليه نجاسة لا بسبب الخروج.

الثالث: أن لا يطرأ على المحل المتنجس بالخارج نجس أجنبي، فإن طرأ عليه نجس أجنبي، كما لو استنجى بنجس أو عاد على المحل شيء من رشاش بوله الخارج منه تعين الماء.

الرابع: أن لا ينقطع النجس الخارج، فإن انقطع بعد خروجه متصلاً تعين الماء في المتقطع، وإن كان في باطن الإليتين، والمتصل بالمخرج يكفي فيه الحجر.

الخامس: أن لا يجاوز الخارج النجس حشفته وصفحته، فإن جاوزهما متصلاً تعين الماء في المتقطع الداخل والخارج، فإن تقطع أي: صار بعضه باطن الإلية وبعضه خارجها تعين الماء في المتقطع، وكفى الحجر في غيره.

فائدة: لنا صورة جف فيها الخارج النجس ويكفي فيها الحجر، وهي ما إذا جف بوله الخارج ثم بال ثانياً، فوصل بوله إلى ما وصل إليه بوله الأول، فيكفي فيه الحجر، قاله القاضي والقفال، وكذا في الغائط إن كان مائعاً.

الثامنة: في مسائل شتى تستحب في الاستنجاء بين الماء والحجر:

المسألة الأولى: قال النووي وغيره: يستحب أن يجمع في الاستنجاء بين الماء والحجر بأن يقدم الحجر أولاً ثم الماء بعده، لأن الحجر يزيل العين والماء يزيل الأثر، فإن قدم الماء لم يستحب الحجر بعده، فإذا أراد الاقتصار على أحدهما فالماء أفضل لأنه يزيل العين والأثر.

المسألة الثانية: قال النووي والحليمي: يستحب في الاستنجاء بالماء أن يبدأ بقبله قبل دبره، وفي الاستنجاء بالحجر أن يبدأ بدبره قبل قبله، والحكمة في تقديم الدبر بالحجر أن النجس الأغلظ أهم والبدأة بالأهم أولى، أو أنه قد ينـــزل منه بول فلا يحتاج إلى إعادة الاستنجاء منه إذا بدأ بالدبر.

لكن أطلق ابن الملقن في الروض القول باستحباب تقديم القبل.

قال المحب الطبرى: ويسن النظر إلى الحجر المستنجى به قبل رميه ليعلم هل قلع أم لا.

المسألة الثالثة: في كيفية الاستنجاء بالحجر في الدبر.

قال العلماء: المستحب والأفضل أن يضع الحجر أولاً على مقدم الصفحة اليمنى، على محل طاهر قرب النجاسة، ثم يمرره على المحل ويديره قليلاً حتى يرفع كل جزء منه جزءاً منها، إلى أن يصل إلى المبدأ، وأن يضع الثاني على مقدم الصفحة اليسرى مثل ما تقدم، وأن يمر الثالث على الصفحتين والمسربة.

وقيل: الأفضل أن يجعل واحد للصفحة اليمنى وآخر لليسرى والثالث للوسط.

وقيل: الأفضل واحد للوسط مقبلاً وآخر له مدبراً ويحلق بالثالث.

ولابد في كل قول أن يعم بكل مسحة جميع المحل ليصدق أنه مسح جميع المحل ثلاث مسحات.

المسألة الرابعة: يستحب أن يستنجي بيساره، سواء استنجى بالماء أو بالحجر أو بهما، لأنها الأليق بذلك، ولأنه ورد في خبر لأبي داود عن عائشة رضى الله عنها: «**كانت اليد اليمنى لرسول الله ﷺ لطهوره وطعامه وكانت اليسرى لخلائه وما كان من أذى**» [(١)].

وقد ورد النهي عن الاستنجاء باليمين.

وقال جمع: لا يجوز باليمين لصريح النهي وأولّه النووي على أنه ليس مباحاً مستوى الطرفين بل مكروه.

ويستحب أن يحمل أحجار الاستنجاء بيساره، وإذا استنجى بالماء يغسل باليسرى ويصب باليمنى.

ويستحب إذا أراد مسح الذكر من البول على جدار أو حجر عظيم أو نحوهما أن يمسك ذكره بيساره، وأن يمسحه على ثلاثة مواضع قاله في الروضة.

وقال المتولى في كيفية المسح على الجدار أو نحوه: طريقته أن يقرب ذكره منه ويضعه عليها وضعاً من غير مسح، حتى تنتقل الرطوبة إليه، قال: لأن المسح ينشر البول على المحل، ثم يضع ذلك ثانياً ثم يمسح الذكر في الثالثة، قلت: فلا يخشى انتشارها.

قال الأذرعي: وهو حسن وإن لم يتعرض له الجمهور، لأنه لا كلفة فيه بخلاف الأول.

وإذا أراد أن يستنجي بحجر صغير فالسنة أن يجعله بين عقبيه أو بين إبهامي رجليه

---

(١) أخرجه أبو داود (١/٩، رقم ٣٣). وأخرجه أيضاً البيهقي (١/١١٣، رقم ٥٤٧).

أو يتحامل عليه إن أمكنه، ويكون الذكر في يساره ويمسح بها، فإن لم يتمكن من شيء من ذلك واضطر إلى إمساك الحجر بيده أمسكه باليمنى، وأخذ الذكر باليسرى وحرك اليسار وحدها فإن حرك اليمين أو حركهما جميعاً كره، لأنه يكون مستنجياً باليمنى.

وإنما لم يضع الحجر في يساره والذكر في يمينه لأن مس الذكر بها مكروه، ولخبر الصحيحين: «**إذا بال أحدكم فلا يمس ذكره بيمينه**» (١).

ويستحب للمستنجي بماء أن يدلك يده بالأرض أو نحوها بعد الاستنجاء ثم يغسلها.

وأن ينضح بعده أيضاً فرجه وإزاره من داخله دفعاً للوسواس.

وأن يعتمد على غسل الدبر على أصبعه الوسطى من يسراه إن أمكن، ولا يتعرض للباطن لأنه منبع الوسواس، فإن استعمل الماء فغلب على ظنه زوال النجاسة كفى ذلك في إزالتها، ولا يضر شم ريحها من يده بعد ذلك، فإن ذلك لا يدل على بقائها على المحل وإن حكمنا على يده بالنجاسة وعلته: أن المحل قد خفف فيه في الاستنجاء بالحجر، فخفف فيه هنا.

وقول أبي هريرة: «**اتبعت النبي ﷺ وخرج لحاجته فكان لا يلتفت**» أي: من عادته ﷺ إذا مشى لا يلتفت، وهذا يدل على أمنه ﷺ وعدم خوفه من أحد من خلق الله، لأن الله تعالى عصمه وكفاه شر من أراده بسوء، وقد نطق بذلك القرآن الكريم والحديث.

قال الله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾[الطور: ٤٨].

وقال: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾[الزمر: ٣٦] أي: بكاف محمداً أعداءه المشركين.

وقال: ﴿**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾[الحجر: ٩٥].

وقال: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[المائدة: ٦٧].

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية:

---

(١) أخرجه البخاري (١/٦٩، رقم ١٥٣)، ومسلم (١/٢٢٥، رقم ٢٦٧). وأخرجه أيضاً أبو داود (١/٨، رقم ٣١)، والترمذي (١/٢٣، رقم ١٥)، والنسائي (١/٢٥، رقم ٢٤)، وابن ماجه (١/١١٣، رقم ٣١٠)، وابن خزيمة (١/٣٨، رقم ٦٨)، وابن حبان (٤/٢٨٣، رقم ١٤٣٤)، وأحمد (٤/٣٨٣، رقم ١٩٤٣٨)، والدارمي (٢/١٦١، رقم ٢١٢٢) عن أبي قتادة.

فقيل: إنه ﷺ كان لا ينام إلا بحرس، حتى نزلت هذه الآية، فأخرج ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «**أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني ربي ﷻ**» (١).

وقيل: سبب نزولها ما روي أن النبي ﷺ كان إذا نزل منـــزلاً اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها، فأتاه أعرابي أي: بعد ما نام تحت الشجرة فاخترط سيفه قال: من يمنعك مني؟ فقال: «**الله**» فارتعدت يد الأعرابي، وسقط سيفه وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه فنـــزلت هذه الآية (٢).

وهذا الأعرابي اسمه: «غورث بن الحارث» كما ورد في ذلك الصحيح، وعفا عنه رسول الله ﷺ فرجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس.

وقيل: كان رسول الله ﷺ يخاف قريشاً فلما نزلت هذه الآية استلقى ثم قال: «**من شاء فليخذلني**» (٣).

وروي أنه ﷺ في غزوة غطفان نزل تحت شجرة فأتاه رجل اسمه: «دعثور بن الحارث» فاخترط سيفه فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «**الله**»، فسقط السيف من يده، فأسلم فلما رجع إلى قومه وكان سيدهم وأشجعهم فقالوا: أين ما كنت تقول إن أمكنني وقد أمكنك، فقال: إني نظرت إلى رجلٍ أبيضٍ دفع في صدري، فوقعت لظهري وسقط السيف، فعرفت أنه ملك فأسلمت، ونزل في ذلك كما قيل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[المائدة: ١١] (٤).

ومما يدل على عصمته وحفظه من أعداءه ما ذكره عبد بن حميد قال: كانت حمالة الحطب وهي زوجة أبي لهب تضع «الغضاة» وهي جمر النار على طريق رسول الله ﷺ فكان يطاؤها ولا يصيبه شيء.

وذكر ابن اسحاق عنها أنها لما بلغها ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[المسد: ١]

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/٢٥١، رقم ٣٠٤٦) وقال: غريب. والحاكم (٢/٣٤٢، رقم ٣٢٢١) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (٩/٨، رقم ١٧٥٠٨) عن عائشة.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/٣٠٨). والقصة متفق عليها أخرجها البخاري (٣/١٠٦٥، رقم ٢٧٥٣) ، ومسلم (١/٥٧٦، رقم ٨٤٣) عن جابر بن عبد الله.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٦/٣٠٨).

(٤) القصة بنحوها أخرجها البخاري (٣/١٠٦٥، رقم ٢٧٥٣) ، ومسلم (١/٥٧٦، رقم ٨٤٣) عن جابر بن عبد الله.

وذكرها بما ذكره الله مع زوجها من الذم، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر وفي يدها فهر من الحجارة فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر، وأخذ الله ببصرها عن نبيه ﷺ فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر فاه [(١)].

فمن عصمه من الأعرابي والسيف في يده، ومن ضرر جمر النار، ومن الفهر الذي في يد حمالة الحطب إلا الله، فلهذا كان لا يلتفت في مشيه ﷺ.

ومما ورد في عصمته ما ذكره ابن إسحاق وغيره: أن أبا جهل أتاه بصخرة وهو ساجد وقريش ينظرون لطرحها، فلزقت بيده ويبست يداه في عنقه، وأقبل يرجع بهذا الفهر إلى خلفه، ثم سأله أن يدعو له ففعل فانطلقت يداه.

وكان قد تواعد مع قريش بذلك وحلف لئن رآه ليدمغنه، فسألوه عن شأنه فقالوا له لأي شيء رجعت القهقرى بعد أن حلفت أنك إن رأيته لتدمغنه، فذكر أنه عرض له دونه فحل ما رأيت مثله قط همَّ بي أن يأكلني.

فقال النبي ﷺ: «**ذلك جبريل لو دنا لأخذه**» [(٢)].

وقريب من هذا ما ذكره أهل التفسير عن أبي هريرة: أن أبا جهل وعد قريشاً لئن رأى محمد يصلي ليطأن رقبته فلما صلى النبي ﷺ أعلموه فأقبل، فلما قرب منه ولى هارباً ناكصاً على عقبيه متقياً بيده، فسئل فقال: لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء من نار كدت أهوي فيه، وأبصرت هولاً عظيماً وخفق أجنحة قد ملأت الأرض، فقال ﷺ: «**تلك الملائكة لو دنا لاختطفته عضواً عضواً**» [(٣)].

ثم أنزل الله تعالى على النبي ﷺ بسبب ذلك: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾ إلى آخر السورة [العلق ٦ - ١٩].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٣/٢، رقم ٣٣٧٦) والحميدي (١٥٣/١، رقم ٣٢٣) وأبو يعلى (٥٣/١، رقم ٥٣) عن أسماء بنت أبي بكر.

(٢) أخرجه ابن اسحاق في السيرة (١٨٠/٤)، وابن هشام (١٣٦/٢)، والبيهقي وأبو نعيم على ما عزاه السيوطي في الخصائص (٢١١/١)، والقصة أصلها في صحيح البخاري (١٨٩٦/٤، رقم ٤٦٧٥)، وسنن الترمذي (٤٤٣/٥، رقم ٣٣٤٨)، ومسند أحمد (٣٦٨/١، رقم ٣٤٨٣) ومسند أبي يعلى (٤٧١/٤، رقم ٢٦٠٤) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٥٤/٤، رقم ٢٧٩٧)، وابن حبان (٥٣٢/١٤، رقم ٦٥٧١)، والنسائي في الكبرى (٥١٨/٦، رقم ١١٦٨٣)، وأبو يعلى (٧٠/١١، رقم ٦٢٠٧) عن أبي هريرة.

ومن عصمته أيضاً ما ذكره السمرقندى: أن رجلاً من بني المغيرة أتى النبي ﷺ ليقتله فطمس الله على بصره فلم ير النبي ﷺ وسمع قوله فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه.

وفي هذا أنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾[يس: ٨، ٩].

ومن عصمته هداية الله تعالى من أراد قتله للإسلام ما روي: أن رجلاً يعرف بشبيبة بن عثمان أدرك النبي ﷺ يوم حنين، وكان حمزة قد قتل أباه وعمه، فقصد النبي ﷺ فلما اختلط الناس أتاه من خلفه ورفع سيفه ليصيبه علَيْه، قال: فلما دنوت منه ارتفع إلي شواظ من نار أسرع من البرق، فوليت هارباً، وأحس بي النبي ﷺ فوضع يده على صدري وهو أبغض الخلق إلي، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلي، وقال لي: «**ادن فقاتل**» فتقدمت أمامه أضرب بسيفي، وأقيه بنفسي ولو لاقيت أبي تلك الساعة لأوقعت به دونه [(١)].

فانظر كيف عصمه الله من هذا وهداه بسببه للإسلام، وصار أحب الخلق إليه.

ونظير هذا ما ورد عن فضالة بن عمرو قال: أردت قتل النبي ﷺ عام الفتح، وهو يطوف بالبيت فلما دنوت منه قال: يا فضالة قلت: نعم، قال: ما كنت تحدث به نفسك؟ قلت: لا شيء، فضحك واستغفر لي ووضع يده على صدري، فسكن قلبي، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه [(٢)].

فائدة: دانيال عصمه الله أيضاً من أعداءه من الآدميين والسباع وغيرهم وكان دانيال في أيام بخت نصر، وكان الله أعطاه النبوة والحكمة واتفق له غرائب في حال صغره وحال كبره.

فمما اتفق له في حال الصغر ما روى ابن أبي الدنيا: أن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنه يولد في ليلة كذا وكذا غلام

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧/٢٩٨، رقم ٧١٩٢) قال الهيثمي (٦/١٨٤): فيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٣٠٨)، والسيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي (٣/ ٥٦).

يفسد ملكك، فأمر بقتل كل من يولد في تلك الليلة، فلما ولد دانيال ألقته أمه في أجمة أسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه فنجاه الله تعالى بذلك.

فانظر ما أعظم هذه العصمة.

ومما وقع له في الكبر ما رواه البيهقي في الشعب: أن دانيال طرح في جب وألقيت عليه السباع تلحسه ويتبصبصن إليه فأتاه رسول فناداه فقال: يا دانيال فقال: من أنت؟ قال: أنا رسول ربك إليك أرسلني بطعام فقال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره [1].

والذي ألقاه في الجب وألقى عليه السباع بخت نصر.

فقد روى ابن أبي الدنيا أن بخت نصر أمسك أسدين وألقاهما في جب، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فمكث ما شاء الله له، ثم إنه اشتهى الطعام والشراب فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام أن يذهب إلى دانيال بطعام وهو بأرض العراق، فذهب إليه حتى وقف على الجب، وقال: دانيال، دانيال. فقال: من هذا؟ قال: أرميا، قال: ما جاء بك؟ قال: أرسلني إليك ربك، فقال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من رجاه، والحمد لله من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاةً وغفراناً، والحمد لله الذي يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاءنا حين تنقطع الحيل عنا.

ثم أخرجه بخت نصر من الجب بسبب رؤيا رآها عجز الناس عن تفسيرها، ففسرها دانيال فأعجبه وأكرمه ونقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك.

وقبره بنهر السوس ووجده أبو موسى الأشعري فأخرجه وكفنه وصلى عليه ثم قَبَرَه في نهر السوس، وأجرى عليه الماء فأخذ خاتمه ولبسه في يده قاله الدميرى.

فائدة: روى عن ابن السني في عمل اليوم والليلة من حديث داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: «إذا كنت بواد تخاف فيه السبع فقل: أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد».

قال الدميرى: لما ابتلى دانيال أولاً وآخراً بالسباع، جعل الله الاستعاذة به في ذلك تمنع الذي لا يستطاع.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/١١٦، رقم ١٣٣٨) عن سالم. وأخرجه أيضاً ابن أبي الدنيا في الشكر (١/٦٠، رقم ١٧٦) عن علي بن أبي طالب.

المجلس الخامس والأربعون

في بيان شيء من سنن الوضوء

وذكر شيء من فضائل سيدنا عثمان ابن عفان ﷺ

قَالَ البُخَارِي:

بَابُ الوُضُوءِ ثَلاثًا

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الأُوَيْسِيُّ قَالَ حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَزِيدَ أَخْبَرَهُ أَنَّ حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَأَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَعَا بِإِنَاءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَى كَفَّيْهِ ثَلاثَ مِرَارٍ فَغَسَلَهُمَا، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الإِنَاءِ فَمَضْمَضَ، وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاثًا، وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلاثَ مِرَارٍ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلاثَ مِرَارٍ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، ثُمَّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها:

قوله: «دعا بإناء»: وفي رواية شعيب الآتية قريباً «دعا بوضوء»، وكذا لمسلم من طريق يونس. وهو بفتح الواو اسم للماء المعد للوضوء، وبالضم الذي هو الفعل، وفيه الاستعانة على إحضار ما يتوضأ به.

قوله: «فأفرغ»: أي صب.

قوله: «على كفيه ثلاث مراراً»: كذا لأبي ذر، وللأصيلي وكريمة مرات بمثناة آخره، وفيه غسل اليدين قبل إدخالهما الإناء ولو لم يكن عقب نوم احتياطاً.

قوله: «ثم أدخل يمينه»: فيه الاغتراف باليمين. واستدل به بعضهم على عدم اشتراط نية الاغتراف، ولا دلالة فيه نفياً ولا إثباتاً.

قوله: «فمضمض واستنثر»: وللكشميهني «واستنشق» بدل واستنثر، والأول أعم، وثبتت الثلاثة في رواية شعيب الآتية في باب المضمضة، ولم أر في شيء من طرق هذا الحديث تقييد ذلك بعدد. نعم ذكره ابن المنذر من طريق يونس عن الزهري، وكذا ذكره أبو داود من وجهين آخرين عن عثمان واتفقت الروايات على تقديم المضمضة.

قوله: «ثم غسل وجهه»: فيه تأخيره عن المضمضة والاستنشاق، وقد ذكروا أن حكمة ذلك اعتبار أوصاف الماء، لأن اللون يدرك بالبصر والطعم يدرك بالفم والريح يدرك بالأنف فقدمت المضمضة والاستنشاق وهما مسنونان قبل الوجه وهو مفروض، احتياطاً للعبادة. قوله: «ويديه إلى المرفقين»: أي كل واحدة كما بينه المصنف في رواية معمر عن الزهري في الصوم، وكذا لمسلم من=

= طريق يونس وفيها: تقديم اليمنى على اليسرى، والتعبير في كل منهما بثم وكذا القول في الرجلين أيضاً.

قوله: «ثم مسح برأسه»: ليس في شيء من طرقه في الصحيحين ذكر عدد المسح، وبه قال أكثر العلماء. وقال الشافعي: يستحب التثليث في المسح كما في الغسل، واستدل له بظاهر رواية لمسلم أن النبي ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً، وأجيب بأنه مجمل تبين في الروايات الصحيحة أن المسح لم يتكرر فيحمل على الغالب أو يختص بالمغسول.

قال أبو داود في السنن: أحاديث عثمان الصحاح كلها تدل على أن مسح الرأس مرة واحدة. وكذا قال ابن المنذر: إن الثابت عن النبي ﷺ في المسح مرة واحدة، وبأن المسح مبني على التخفيف فلا يقاس على الغسل المراد منه المبالغة في الإسباغ، وبأن العدد لو اعتبر في المسح لصار في صورة الغسل، إذ حقيقة الغسل جريان الماء. والدلك ليس بمشترط على الصحيح عند أكثر العلماء.

وبالغ أبو عبيدة فقال: لا نعلم أحداً من السلف استحب تثليث مسح الرأس إلا إبراهيم التيمي، وفيما قال نظر، فقد نقله ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أنس وعطاء وغيرهما.

وقد روى أبو داود من وجهين صحح أحدهما ابن خزيمة وغيره في حديث عثمان تثليث مسح الرأس، والزيادة من الثقة مقبولة.

قوله: «نحو وضوئي هذا»: قال النووي: إنما لم يقل «مثل» لأن حقيقة مماثلته لا يقدر عليها غيره.

قلت: لكن ثبت التعبير بها في رواية المصنف في الرقاق من طريق معاذ بن عبد الرحمن عن حمران عن عثمان ولفظه «من توضأ مثل هذا الوضوء» وله في الصيام من رواية معمر «من توضأ وضوئي هذا» ولمسلم من طريق زيد بن أسلم عن حمران: «توضأ مثل وضوئي هذا» وعلى هذا فالتعبير بنحو من تصرف الرواة لأنها تطلق على المثلية مجازاً، لأن «مثل» وإن كانت تقتضي المساواة ظاهراً لكنها تطلق على الغالب، فبهذا تلتئم الروايتان ويكون المتروك بحيث لا يخل بالمقصود. والله تعالى أعلم.

قوله: «ثم صلى ركعتين»: فيه استحباب صلاة ركعتين عقب الوضوء.

قوله: «لا يحدث فيهما نفسه»: المراد به ما تسترسل النفس معه ويمكن المرء قطعه يقتضي تكسباً منه، فأما ما يهجم من الخطرات والوساوس ويتعذر دفعه فذلك معفو عنه.

ونقل القاضي عياض عن بعضهم أن المراد من لم يحصل له حديث النفس أصلاً ورأساً، ويشهد له ما أخرجه ابن المبارك في الزهد بلفظ: «لم يسر فيهما».

ورده النووي فقال: الصواب حصول هذه الفضيلة مع طريان الخواطر العارضة غير المستقرة. نعم من اتفق أن يحصل له عدم حديث النفس أصلاً أعلى درجة بلا ريب. ثم إن تلك الخواطر منها ما يتعلق بالدنيا والمراد دفعه مطلقاً.

ووقع في رواية للحكيم الترمذي في هذا الحديث «لا يحدث نفسه بشيء من الدنيا». وهي في الزهد لابن المبارك أيضاً والمصنف لابن أبي شيبة، ومنها ما يتعلق بالآخرة فإن كان أجنبياً =

قال البخاري: «حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الأُوَيْسِيُّ قَالَ حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَزِيدَ أَخْبَرَهُ أَنَّ حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ»

قال العلماء: «حمران» اسم أبيه «أبان» وهو مدني قرشي، سباه خالد بن الوليد من عين التمر، فوجده غلاماً كيساً، فوجهه إلى عثمان فأعتقه، وكان كاتب سيدنا عثمان وحاجبه، ولي نيسابور من الحجاج، وغرمه الحجاج بسبب هذه الولاية مائة ألف، ثم ردها عليه بشفاعة عبد الملك، وهو تابعي وكذا الاثنان قبله.

ومن لطائف هذا الإسناد أنه اشتمل على ثلاثة تابعين يروي بعضهم عن بعض، وكانت وفاة حمران خمس وسبعين.

«أَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَأَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ» هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين أبو عبد الله بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس ين عبد مناف الأموي القرشي، أسلم في أول الإسلام على يد الصديق، روى عن رسول الله ﷺ مائة حديث وستة وأربعون حديثاً، أخرج البخاري منها إحدى عشر.

استخلف أول يوم من المحرم سنة أربع وعشرين، وفي خلافته صارت الأموال والأرزاق في أيدي الناس كثيرة، وربحت الناس ربحاً كثيراً، حتى بيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف، ونخلة بألف درهم، وكل ذلك بحسن قصده لرعيته ولنفسه، ولم يزل

= أشبه أحوال الدنيا، وإن كان من متعلقات تلك الصلاة فلا.

قوله: «من ذنبه»: ظاهره يعم الكبائر والصغائر لكن العلماء خصوه بالصغائر لوروده مقيداً باستثناء الكبائر في غير هذه الرواية، وهو في حق من له كبائر وصغائر، فمن ليس له إلا صغائر كفرت عنه، ومن ليس له إلا كبائر خفف عنه منها بمقدار ما لصاحب الصغائر، ومن ليس له صغائر ولا كبائر يزداد في حسناته بنظير ذلك.

وفي الحديث:

التعليم بالفعل لكونه أبلغ وأضبط للمتعلم.

الترتيب في أعضاء الوضوء للإتيان في جميعها بثم.

الترغيب في الإخلاص.

تحذير من له في صلاته بالتفكير في أمور الدنيا من عدم القبول، ولا سيما أن كان في العزم على عمل معصية فإنه يحضر المرء في حال صلاته ما هو مشغوف به أكثر من خارجها.

ووقع في رواية المصنف في الرقاق في آخر هذا الحديث: قال النبي ﷺ «لا تغتروا» أي: فتستكثروا من الأعمال السيئة بناء على أن الصلاة تكفرها، فإن الصلاة التي تكفر بها الخطايا هي التي يقبلها الله، وأنى للعبد بالاطلاع على ذلك. انظر فتح الباري (١/٢٥٩ — ٢٦١).

اسمه في الجاهلية والإسلام عثمان، ويكنى أبا عمرو وأبا عبد الله.

ومن فضائله: أنه يجتمع نسبه بنسب رسول الله ﷺ في عبد مناف.

ومن فضائله: أنه كان يسمى بذي النورين دون غيره من الصحابة، بل لم يعرف واحد من خلق الله يسمى بهذا الاسم غيره.

واختلف في سبب تسميته بذلك على خمسة أقوال:

أحدها: تسمى بذلك لأنه تزوج بنتي رسول الله ﷺ رقية فماتت عنده ثم أم كلثوم، ولا يعلم أحد تزوج بنتي نبي غيره، ولاشك أنه ﷺ نوراً وبناته وجميع أولاده كانوا كذلك.

الثاني: سمي بذلك لأنه إذا دخل الجنة برقت له برقتين.

الثالث: سمي بذلك لأنه كان يختم القرآن في الوتر، فالقرآن نور، وقيام الليل نور.

الرابع: سمي بذلك لأنه كان سخياً قبل الإسلام وبعد الإسلام.

الخامس: سمي بذلك لأنه ذو كنيتين يكنى أبا عمرو وأبا عبد الله.

ومن فضائله: أنه كان من السابقين الأولين صلى إلى القبلتين، وهاجر الهجرتين، وهو أول من هاجر إلى الحبشة فاراً بدينه ومعه زوجته رقية بنت سيد الأولين والآخرين.

ومن فضائله: أنه عد من البدريين ومن أهل بيعة الرضوان و لم يحضرهما، وسبب غيبته عن غزوة بدر أن بنت رسول الله ﷺ كانت تحته، وهي مريضة فأذن له رسول الله ﷺ في الجلوس عندها، وقال له: «**لك أجر رجل شهد بدراً وسهمه**» [(١)].

وأما سبب غيبته عن بيعة الرضوان فهو أن رسول الله ﷺ كان قد بعثه إلى مكة، ولو كان عنده أحد أعز من عثمان لبعثه، فوقعت البيعة في غيبته فقال رسول الله ﷺ بعد أن رفع يده اليمنى: «**هذه يد عثمان**»[(٢)] فكانت أحسن من أيدي الصحابة عن أنفسهم.

ومن فضائله: أن رسول الله ﷺ دعا له بخصوصه غير مرة فأثرى وكثر ماله، ومن

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٩/٣، رقم ٢٩٦٢)، والترمذي (٦٢٩/٥، رقم ٣٧٠٦) وقال: حسن صحيح. كلاهما عن ابن عمر.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٢/٣، رقم ٣٤٩٥).

دعائه له: «**اللهم إني قد رضيت عن عثمان فارض عنه ثلاث مرات**» [(١)].

ودعا له مرة أخرى فقال: «**غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما هو كائن إلى يوم القيامة**» [(٢)].

ومن فضائله: أنه كان متواضعاً ذا شفقة، وازداد تواضعه وخوفه ورفقه برعيته حين تولى الخلافة.

قيل: كان له عبد وكان عثمان قد مسك أذنه يوماً وعركها فقال له: إني كنت قد عركت أذنك فاقتص مني، فأخذ بأذنه فقال له: اشدد يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة.

وقال علي ﷺ: كان عثمان أوصلنا للرحم، وكان من الذين آمنوا واتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين.

حكاية وقعت بين عمر وعثمان رضى الله عنهما: قال في الروض الفائق: قيل إن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما كانا في بعض أشغال النبي ﷺ فأدركتهما العصر، فقال عمر بن الخطاب لعثمان: تقدم فصل بنا. فقال عثمان ﷺ: أنت أولى بالتقدم مني يا عمر، فإن رسول الله ﷺ قدمك، وأثنى عليك. فقال عمر: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نعم الرجل عثمان صهري، وزوج ابنتي، ومن جمع الله به نوري**». فقال عثمان ﷺ: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عمر أكمل الله به دين الإسلام**». فقال عمر ﷺ: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عثمان تستحي منه الملائكة**». فقال عثمان ﷺ: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عمر أكمل الله به الدين، وسماكم المسلمين**». فقال عمر ﷺ: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عثمان يجمع القرآن وهو حبيب الرحمن**». فقال عثمان ﷺ: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عمر نعم الرجل عمر يتفقد الأرامل والأيتام ويحمل لهم الطعام وهم نيام**». فقال عمر ﷺ: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في حقك: «**غفر الله لعثمان مجهز جيش العسرة**». فقال عثمان ﷺ: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم أعز الإسلام بعمر**»

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٥٢/٣٩) عن عائشة. وأخرجه ابن عساكر (٥٤/٣٩) عن أبي سعيد.

(٢) أخرجه الديلمي (٩٩/٣، رقم ٤٢٧٥) عن أبي موسي الأشعري.

وسماك رسول الله ﷺ الفاروق، وفرق الله تعالى بك بين الحق والباطل. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعا لهما وشكرهما على حسن أدبهما مع بعضهما بعضاً.

وقد وقع نظير هذا بين أبي بكر وعلي رضى الله عنهما، وسنذكره في محله.

ومن فضائله: أنه اشترى بئر رومة، وكانت ركية ليهودي يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله ﷺ: «من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب دلوه في دلائهم وله بها مشرب في الجنة» فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى نصفها باثنتي عشرة ألف درهم، فجعله للمسلمين ثم اتفق عثمان واليهودي على أن يكون له يوم وللمسلمين يوم، فكان إذا كان يوم للمسلمين استقوا ما يكفيهم يومين، فلما رأى اليهودي ذلك قال لعثمان: أفسدت على ركيتي فاشترى النصف الآخر فاشتراه منه بثمانية آلاف درهم [(١)].

ومن فضائله: أنه اشترى أرضاً وزادها في مسجد رسول الله ﷺ.

ومن فضائله: أنه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً، وأتم الألف بخمسين فرساً، وجيش العسرة كان في غزوة تبوك.

وقيل: حمل في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرساً.

ومن فضائله وخصائصه: أنه تزوج ببنتي رسول الله ﷺ وكان يأمر الله نبيه بذلك فقد أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أوحى إلي أن أزوج كريمتي عثمان يعني رقية وأم كلثوم**» [(٢)].

وفي حديث: «**أتاني جبريل فأمرني أن أزوج عثمان ابنتي**».

وجاء في حديث: أن رقية لما ماتت لقى النبي ﷺ عثمان عند باب المسجد فقال: «**يا عثمان هذا جبريل أخبرني أن الله قد أمرني أن أزوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها**» أخرجه ابن ماجة وغيره [(٣)].

---

(١) ذكره البخاري (٢/٨٢٩) مختصراً. وأورده ابن عبد البر في الإستيعاب (٣/١٠٤٠)، والمزي في تهذيب الكمال (١٩/٤٥٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/١٨ رقم ٣٥٠١) وفي الصغير (١/٢٥٣ رقم ٤١٤) قال الهيثمي (٩/٨٣): فيه عمير بن عمران الحنفي، وهو ضعيف بهذا الحديث وغيره. وابن عدي (٥/ ٧٠، ترجمة ١٢٤٩ عمير بن عمران الحنفي).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١/٤٠، رقم ١١٠)، قال البوصيري (١/١٨): هذا إسناد ضعيف. والطبراني في الكبير (٢٢/٤٣٦، رقم ١٠٦٣) عن أبي هريرة.

وعن أبي هريرة أنه قال: قال عثمان: لما ماتت امرأتي بنت رسول الله ﷺ بكيت بكاء شديداً فقال رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك؟**» فقلت: أبكي على انقطاع صهري منك، فقال: «**فهذا جبريل يأمرني بأمر الله ﷻ أن أزوجك أختها**».

وفي حديث: «**والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة بنت تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء، هذا جبريل أخبرني أن الله ﷻ يأمرني أن أزوجك أختها، وأن أجعل صداقها مثل صداق أختها**» أخرجه الفضائلي.

ومن فضائله وخصائصه: أنه نور أهل السماء، ومصباح أهل الأرض والجنة، فقد ورد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قوموا بنا نعود عثمان بن عفان**» قلنا: عليل يا رسول الله؟ قال: «**نعم**» فقام رسول الله ﷺ واتبعناه حتى أتى منـــزل عثمان فاستأذن فأذن له، فدخل ودخلنا فوجدنا عثمان مكبوباً على وجهه فقال رسول الله ﷺ: «**مالك يا عثمان لا ترفع رأسك؟**» فقال: يا رسول الله إني استحي، يعني من الله تعالى، قال: «**ولم ذلك؟**» قال: أخاف أن يكون علي غضباناً فقال له النبي ﷺ: «**ألست حافر بئر رومة، ومجهز جيش العسرة، والزائد في مسجدي، وباذل المال في رضا الله ورضائي، ومن تستحي منه ملائكة السماء، هذا جبريل يخبرني عن الله ﷻ أنك نور أهل السماء، ومصباح أهل الأرض وأهل الجنة**» أخرجه الملا.

وله من الفضائل والخيرات ما يطول ذكره ﷺ.

وحصر ﷺ في داره وقتل مظلوماً، والذي تولى ذلك جماعة الخوارج من أهل مصر وغيرهم، واختلف في قدر مدة حصره وقتله ظلماً ﷺ، ويستفاد من الأخبار أنه لما ولي الخلافة كره ولايته نفر من الصحابة بسبب أنه كان يحسب قومه بنى أمية، وكان كثيراً ما يوليهم الإمارة على البلاد ويخصهم بذلك دون غيرهم من الصحابة، بل عزل غيرهم وولاهم، عزل أبا موسى الأشعري عن البصرة وولاها عبد الله بن عامر، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان ارتد في زمان النبي ﷺ ولحق بالمشركين، فأهدر النبي ﷺ دمه بعد الفتح، إلى أن أخذ له عثمان الأمان ثم أسلم، وعزل عمار بن ياسر عن الكوفة، وغيرهم وله عذر واضح في عزلهم رضى الله عنهم وتولية المذكورين كما هو مذكور في محله.

وكان يولي منهم من لم تكن له مع رسول الله ﷺ صحبة، وكان يقع من أمراءه ما يكرهه أصحاب رسول الله ﷺ فكان الناس من الصحابة وغيرهم يأتون إليه ويستغيثون منهم ويخبرونه بأفعالهم فلا يغيث أحداً، ولا يسمع فيهم كلام أحد، لعلمه بأنهم

يكرهونهم لحبه لهم وتوليتهم دون غيرهم، وإنما كان عثمان يولي أقاربه ويحبهم ويوصلهم بالعطاء كثيراً لأن الإنسان جبل على حبه لأقاربه وعلى حب الخير لهم، فمحبة الإنسان لأقاربه صفة جبلية لم يودعها الله تعالى إلا في خيار خلقه، فلما ولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح جاء أهل مصر يشتكوه إلى عثمان، فخرج جيش من أهل مصر وقدره سبعمائة رجل إلى المدينة، فنـــزلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله ﷺ ما فعله ابن أبي سرح معهم، وأنه قتل منهم واحداً، وجاءوا يطلبون أن يقتص عثمان من عامله، فدخل علي بن أبي طالب على عثمان فكلمه بسبب مجيئهم، وأنهم جاءوا يطلبون منك أن تقتله عوضاً عن الرجل المقتول، ثم قال له علي: اعزله عنهم وإن وجب عليه حق فانصفهم من عاملك، فقال لهم: اختاروا رجلاً حتى أوليه مكانه فأشاروا إلى محمد بن أبي بكر، فكتب له عهده وولاه وخرج معه جماعة من المهاجرين والأنصار، لينظروا فيما وقع بين أهل مصر وبين أبي السرح، فلما بعدوا عن المدينة ثلاثة أيام وإذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير خبطاً، حتى كأنه يطلب أو يطلب، فقال له أصحاب محمد: ما قصتك وما شأنك؟ كأنك هارب أو طالب، فقال لهم: أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر، فقال له: رجل من الجماعة هذا عامل مصر معنا، قال: ليس هذا الذي أريد ثم ذهبوا وأخبروا محمد بن أبي بكر بأمره، فبعث في طلبه رجالاً فأخذوه فجاءوا به إليه، فقال له: يا غلام من أنت؟ فصار تارة يقول: أنا غلام أمير المؤمنين، وتارة يقول: أنا غلام مروان، فقال له محمد: إلى من أرسلت؟ قال: إلى عامل مصر، قال: بماذا قال: برسالة، قال: معك كتاب؟ قال: لا، قال: ففتشوه فإذا معه كتاب من عثمان إلى ابن أبي السرح، فجمع محمد بن أبي بكر من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم، فإذا فيه إذا أتاك فلان وفلان، ومعهم محمد بن أبي بكر ومعه كتاب عهد فاحتل لقتلهم وأبطل كتابه، وقف على عملك حتى يأتيك أمري أن شاء الله تعالى.

وفي رواية: معه كتاباً على لسان عثمان مختوماً بخاتمه إلى عامله بمصر أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم، فلما قرأوا الكتاب فزعوا ورجعوا إلى المدينة، وختم محمد بن أبي بكر الكتاب ودفعه إلى واحد من الصحابة، فلما قدموا المدينة جمعوا الصحابة كعلي والزبير وطلحة وغيرهم، وفكوا الكتاب وقرأوه عليهم وأخبروهم بقصة العبد، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان، وقام أصحاب رسول الله ﷺ إلى منازلهم ما منهم من أحد إلا مغتم بسبب ذلك، ثم تقدموا لحصاره، فلما

رأى علي ذلك جمع طلحة والزبير وسعيداً وعماراً ونفراً من الصحابة، ثم دخلوا على عثمان ومعهم الكتاب والغلام والبعير، فقال له علي ﷺ هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم، والبعير بعيرك؟ قال: نعم، قال: فأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت هذا الكتاب، ولا أمرت به ولا علمت به، ولا وجهت به هذا الغلام إلى مصر، قال: وأنتم تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل، وينقش الخاتم على نقش خاتمه، وكان ﷺ صادقاً فيما قال، فإن مروان زور عليه هذا الكتاب، وكتبه على لسانه وختمه بختمه من غير علمه، وأمره وأرسله مع عبده وعرف علي وغيره ممن رأى الكتاب أن الخط خط مروان، ولكن ظنوا أنه كتبه بأمره وإرادته، فلما حلف تحققوا من صدقه وقالوا له: سلمنا مروان وكان معه في الدار فأبى وخشي عليه القتل، فخرج أصحاب رسول الله ﷺ غاضبين من عنده فحاصره الأعداء ومنعوه من الماء، ومن الصلاة في المسجد أنشدت زينب بنت العوام:

وعطشتم عثمان في جوف داره ... شربتم مشرب الهيم شرب الحميم

فأشرف عليهم في تلك الحال وقال: السلام عليكم، فما رد عليه أحد، فقال: أنشدكم الله هل تعلمون أني اشتريت بئر رومة من مالي وسبلتها على المسلمين قيل: نعم، قال: فعلام تمنعوني شرب مائها، وأفطر على الماء المالح، ثم قال: أنشدكم الله هل تعلمون أني اشتريت كذا وكذا من أرض فزدته في المسجد، قيل: نعم، قال: فهل علمتم أن أحد منع أن يصلي فيه قبلي.

وفي رواية: أشرف عليهم فقال: أفيكم علي؟ قالوا: لا، فقال: أفيكم سعد؟ فقالوا: لا، فقال: ألا أحد يسقينا ماء؟ فبلغ ذلك علياً، فبعث إليه بثلاث قرب مملوءة ماء، فما وصلت إلا بعد جهد، ثم بلغ علياً أنهم يريدون قتله، فقال: إنما أردنا منه مروان لا قتله، وقال للحسن والحسين: اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدعا أحد يصل إليه، وبعث الزبير ابنه وبعث طلحة ابنه، وبعث عدة من الصحابة أبناءهم لأجل أن يمنعوا الناس من الدخول عليه.

وذكر العلامة الحافظ ابن الجوزى: أن الذين خرجوا على عثمان هجموا على المدينة، وكان عثمان يخرج فيصلي بالناس وهم يصلون خلفه شهراً، ثم خرج من آخر جمعة خرج فيها فحصبوه بالحجارة وهو على المنبر حتى وقع عنه، و لم يقدر أن يصلي بهم فصلى بهم يومئذ أبو أمامة بن سهل، ثم حصروه ومنعوه الصلاة في المسجد.

وروي أن الجهجاه الغفاري بعد أن حصبوه ونزل من المنبر، أخذ العصا التي كانت

في يده، وهي عصا النبي ﷺ التي كان يمسكها بيده في حال خطبته، فكسرها بركبته فوقعت الأكلة في ركبتيه.

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة أنه قال: كنا مع عثمان وهو محصور في الدار فقال: إنهم يتوعدونني بالقتل: قال: فقلنا يكفيهم الله يا أمير المؤمنين، قال: وبم يقتلوني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، رجل كفر بعد إسلامه، أو زنا بعد إحصانه، أو قتل نفساً فيقتل بها**» فوالله ما أحببت بديني بدلاً منذ هداني الله تعالى، ولا زنيت في الجاهلية ولا في الإسلام قط، ولا قتلت نفساً، فبم يقتلوني [1].

وقال شداد بن أوس: لما اشتد الحصار بعثمان يوم الدار رأيت علياً ﷺ خارجاً من منـــزله، متعمماً بعمامة رسول الله ﷺ متقلداً بسيفه أمامه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار، حتى حملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على عثمان فقال له: السلام عليك يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل والمدبر، وإني والله لا أرى القوم إلا قاتلينك، فمرنا لنقاتل، فقال عثمان: أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً وأقر أن ما عليه حقاً أن يهريق مني ملء محجمة من دم أو يهراق دمه علي، فأعاد علي عليه القول فأجابه بمثل ما أجاب، ومنعه أن يقاتل معه، فرأيت علياً خارجاً من الباب، وهو يقول: اللهم إنك تعلم أنا قد بذلنا المجهود، ثم دخل المسجد وحضرت الصلاة فقالوا له: يا أبا الحسين تقدم فصلى بالناس، فقال: لا أصلي بكم والإمام محصور، ولكن أصلي وحدي، فصلى وحده وانصرف.

وروي أنه دخل الحسن بن علي على عثمان وهو محصور فقال: يا أمير المؤمنين مرني بما شئت، فقال: يا ابن أخي ارجع واجلس حتى يأتي الله بأمره، فخرج ثم دخل عليه عبد الله بن عمر فسلم عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين صحبت رسول الله ﷺ فسمعت وأطعت، ثم صحبت أبا بكر فسمعت وأطعت، ثم عمر فرأيت له حق الوالد وحق الخلافة، وها أنا طوع يدك يا أمير المؤمنين، فمرني بما شئت، فقال عثمان: جزاكم الله يا آل عمر خيراً مرتين، لا حاجة لي في إراقة الدم، ثم دخل أبو هريرة متقلداً بسيفه فقال: الآن طاب الضراب، فقال له عثمان: عزمت عليك يا أبا هريرة لما

---

(١) أخرجه أحمد (١/٦١، رقم ٤٣٧) . وأخرجه أيضاً: أبو داود (٤/١٧٠، رقم ٤٥٠٢) ، والطيالسي (ص: ١٣، رقم ٧٢).

ألقيت سيفك، فقال: ألقيته فما أدري من أخذه.

وروي أيضاً أن أبا هريرة أنه قال: إني لمحصور في الدار مع عثمان قال: فرمي رجل منا أي: قتل، قلت: يا أمير المؤمنين الآن طاب الضراب، قتلوا منا رجلاً، قال: عزمت عليك يا أبا هريرة ألا رميت بسيفك فرميت بسيفي لا أدري أين هو حتى الساعة.

وقد أفاد المحب الطبري أن عثمان ﷺ رأى النبي ﷺ في الليلة التي قتل في يومها، وأنه سقاه الماء وأنه خيره في الانتصار عليهم وفي الفطر عنده فاختار الفطر عنده.

ونقب في ذلك أخبار منها: عن عبد الله بن سلام أنه قال: «أتيت عثمان وهو محصور أسلم عليه فقال: مرحباً بأخي مرحباً يا أخي، أفلا أحدثك ما رأيت الليلة في المنام؟ فقلت: بلى، قال: رأيت رسول الله ﷺ في هذه الخوخة فإذا خوخة في البيت، فقال: حصروك؟ فقلت: نعم، فقال: عطشوك؟ فقلت: نعم، فأدلى دلوا من ماء فشربت حتى رويت، وإني لأجد برداً بين كتفي وبين ثدي، قال: إن شئت نصرت عليهم، وإن شئت أفطرت عندنا، قال: فاخترت أن أفطر عنده» [1] خرجه القزويني.

وأعتق صبيحة تلك الليلة عشرين مملوكاً وصار يحدث الناس برؤيته ﷺ ويقول: رأيت النبي ﷺ البارحة وأبا بكر وعمر، فقالوا: اصبر فإنك تفطر عندنا، فقتل ذلك اليوم.

واختلفت الروايات هل دخلوا عليه من الباب أم لا؟

فقيل: دخلوا عليه من دار رجل من الأنصار، وكان معه في الدار ستمائة رجل وكلهم كانوا فوق البيت، ولم يكن عنده في البيت إلا امرأته، فدخلوا عليه فقتلوه وخرجوا هاربين من حيث دخلوا، ولم يعلم بذلك أحد ممن معه في الدار لاشتغالهم بالحصار، حتى صرخت امرأته وصعدت إلى الناس، وأعلمتهم بأنه قتل، فدخل عليه الحسن والحسين ومن كانوا معهما فوجدوه مذبوحاً، فانكبوا عليه يبكون، وأنشد أبو القاسم بن أمية بن أبي الصلت فأحسن:

لعمرى لبئس الذبح ضحيتم به ... وخنتم رسول الله في قتل صاحبه

فبلغ علياً قتله ومن كان في المدينة فخرجوا، وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا على عثمان، فوجدوه مقتولاً فاسترجعوا.

وقال علي لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتم على الباب، ورفع يده فلطم

---

(١) أخرجه أيضاً سعيد بن منصور في كتاب السنن (٢/٣٨٩، رقم ٢٩٤٦).

الحسن، وضرب صدر الحسين، وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير، وخرج علي وهو غضبان.

وقيل: إنهم دخلوا عليه من الباب فإنه ﷺ لما رأى النبي ﷺ وقال له: أفطر عندنا الليلة، أصبح ذلك اليوم صائماً، فطلب المصحف ووضعه بين يديه، وقال لامرأته: افتحي الباب ففتحت الباب فدخل عليه رجل، فقال له عثمان: بيني وبينك كتاب الله تعالى، والمصحف بين يديه قال: فأهوى إليه بالسيف فاتقاه بيده فقطعها، فقال الراوي: -فلا أدري أباها أم لم يبنها- فقال عثمان: أما والله إنها لأول كف خطت المصحف.

وروي عنه أنه جعل يقول حين ضرب والدماء تسيل من على لحيته: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستهديك وأستعينك على جميع أموري، وأسألك الصبر على بليتي.

ونقل عن عدي بن حاتم الطائي أنه قال: سمعت صوتاً يوم قتل عثمان يقول: أبشر يا ابن عفان بروح وريحان، أبشر يا ابن عفان بغفران ورضوان، أبشر يا ابن عفان برب غير غضبان، قال فالتفت فلم أر أحداً (قاله ابن عبد البر).

وأكثرهم يروي: أن قطرة أو قطرات من دمه سقطت على المصحف على قوله تعالى: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾[البقرة: ١٣٧].

وورد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة يؤتى بعثمان وأوداجه تشخب دماً اللون لون الدم والرائحة رائحة المسك، يكسى حلتين من نور، وينصب له منبر على الصراط، فيجوز المؤمنون بنور وجهه، ليس لمبغضه من نصيب**» خرجه الملا في سيرته.

واختلف العلماء فيمن باشر قتله بنفسه:

فقيل: محمد بن أبي بكر ضربه بمشقص.

وقيل: رومان بن سرحان دخل عليه وكان رجلاً قصيراً أزرق معه خنجر، فاستقبله به وقال: على أي دين أنت يا نعثل، فقال عثمان: لست بنعثل ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، فقال: كذبت وضربه على صدغه الأيسر فقتله فخر، وأدخلته امرأته نائلة بينها وبين ثيابها، وكانت امرأة جسيمة فدخل رجل من أهل مصر معه السيف مسلطاً فقال والله لأقطعن أنفه فعالج المرأة فكشف عن ذراعيها، وقبضت على السيف فقطع إبهامها، فقالت لغلام

عثمان يقال له «رباح» ومعه سيف عثمان: أعني على هذا وأخرجه عني فضربه الغلام بالسيف فقتله.

وقيل: الذي باشر قتله: جبلة بن الأيهم من أهل مصر، وطاف بالمدينة ثلاثة أيام يقول: أنا قاتل نعثل.

وقيل: رومان اليماني، وقيل: بل رومان رجل من جبل أسد.

وقيل: يسار بن عياض.

وقيل: قتله الأسود النجيبي، وبه جزم الكرماني.

قال ابن عبد البر في الإستيعاب: أول من دخل على عثمان محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته، فقال: دعها يا ابن أخي فوالله كان يكرمها أبوك فاستحيا وخرج [1].

وقيل: لما أخذ لحيته هزها وقال له: ما أغنى عنك معاوية وما أغنى عنك ابن أبي سرح وما أغنى عنك ابن عامر، فقال له: يا ابن أخي إنك لتجذب لحية كانت تعز على أبيك، وما كان أبوك يرضى مجلسك هذا مني، فيقال: إنه حينئذ تركه وخرج عنه.

ويقال: إنه حينئذ أشار إلى من معه فطعنه أحدهم وقتلوه والله أعلم.

واختلف في اليوم الذي قتل فيه:

فقال ابن اسحاق: قتل يوم الأربعاء بعد العصر ودفن يوم السبت قبل الظهر.

وقيل: قتل يوم الجمعة.

وقيل: قتله في وسط أيام التشريق في المدينة الشريفة.

وقيل: قتله يوم التروية، وقيل غير ذلك.

ولقد أحسن القائل:

ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ضحى ... فأي ذبح حرام ويلهم ذبحوا
وأي كفر سن أولهم ... وباب شر على سلطانهم فتحوا
ماذا أرادوا أضل الله سعيهم ... بسفك ذاك الدم الذكي الذي سفحوا

وأما السنة التي قتل فيها فهي سنة خمس وثلاثين.

واختلف أيضاً في مدة إقامته بعد موته مطروحاً قبل دفنه:

---

(١) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٣/١٠٤٤).

فقيل: أقام يومه ذلك مطروحاً إلى الليل، فحمله رجال على باب ليدفنوه فعرض لهم ناس ليمنعوهم من دفنه، فوجدوا قبراً كان قد حفر لغيره فدفنوه فيه، وصلى عليه جبير بن مطعم.

وروى عن مالك أنه قال: لما قتل عثمان ألقي على المزبلة ثلاثة أيام، فلما كان في الليل أتاه اثنى عشر رجلاً منهم حويطب بن عبد العزى وحكيم بن حزام وعبد الله بن الزبير واحتملوه فلما صاروا به إلى المقبرة ليدفنوه، ناداه قوم من بني مازن: والله لئن دفنتموه ها هنا لنخبرن الناس غداً، فاحتملوه حتى ساروا إلى «حش كوكب» فاحتفروا له «وكوكب» اسم رجل من الأنصار «والحش» البستان، وكان عثمان قد اشتراه منه وزاده في البقيع [1]، فكان أول من قبر فيه هو، وكان رضى الله عنه إذا مر «بحش كوكب» يقول: يدفن ها هنا رجل صالح، حتى دفن هو فيه.

ونقل عن الحسن أنه قال: شهدت عثمان بن عفان وقد دفن في ثيابه بدمائه، واختلف هل صلى عليه أم لا؟

فروي أنه أقام في «حش كوكب» ثلاثاً مطروحاً لا يصلى عليه، حتى هتف بهم هاتف: ادفنوه ولا تصلوا عليه فإن الله ﷻ صلى عليه.

وقيل: صلى عليه وغشيهم في الصلاة عليه وفي دفنه سواد، فلما فرغوا منه نودوا: أن لا روع عليكم اثبتوا، وكانوا يرون أنهم الملائكة حضروا جنازته.

ونقل المحب الطبرى الحسن بن على قال: ما كنت لأقاتل بعد رؤيا رأيتها، رأيت رسول الله ﷺ واضعاً يده على العرش، ورأيت أبا بكر واضعاً يده على منكب رسول الله ﷺ ورأيت عمر واضعاً يده على منكب أبي بكر، ورأيت عثمان واضعاً يده على منكب عمر ورأيت دماً دونه، فقلت: ما هذا؟ قال: دم عثمان يطلب الله به. (أخرجه الديلمى في كتابه الشفا).

وأنشد حسان فيه:

قتلتم ولي الله في جوف داره ... وجئتم بأمر جائر غير مهتدى
فلا ظفرت أيمان قوم تعاونوا ... على قتل عثمان الرشيد المسدد

وأنشد كعب بن مالك فيه وقال:

يا للرجال لأمر هاج لي حزنا ... لقد عجبت لمن يبكي على الزمن

---

(١) أي وسع به أرض البقيع قاله الحافظ ابن حجر في الإصابة (٤/٤٥٨).

إني رأيت قتيل الله مضطهداً ... عثمان يهدى إلى الأجداث في كفن
قاتل الله قوماً كان أمرهم ... قتل الإمام الزكي الطيب الردن
ما قتلوه على ذنب ألم به ... إلا الذي نطقوا زوراً و لم يكن

وأنشد حسان أيضاً، وقيل: كعب بن مالك حين منع عثمان الناس من القتال معه:

فكف يده ثم أغلق بابه ... وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم ... عفا الله عن ذنب امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله ألقى عليهم ... العداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده ... عن الناس أدبار الرياح الحوافل

وقالت ليلى الأخيلية :

قتل ابن عفان الإمام ... وضاع أمر المسلمينا
وتشتت سبل الرشاد ... بصادرين أو واردينا

قال العلماء: عرف عثمان أنه يقتل عرَّفه رسول الله ﷺ بذلك.

روي عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ادعوا لى بعض أصحابي**» فقلت: أبو بكر؟ فقال: «**لا**» فقلت: عمر؟ فقال: «**لا**» فقلت: ابن عمك؟ فقال: «**لا**» فقلت له: عثمان؟ قال: «**نعم**» فلما جاء قال بيده فتنحيت، فجعل رسول الله ﷺ يساره ولون عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار وحصر، قيل له: ألا تقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهداً وأنا صابر نفسي عليه [(١)].

وكانت ولايته كما قاله ابن اسحاق اثنتى عشرة سنة وإحدى عشر شهراً وأربعة عشر يوماً، **وقيل**: ثمانية عشر يوماً.

ومن كراماته ما رواه الطبري عن أبي قلابة قال: كنت في رفقة بالشام فسمعت رجلاً يقول: يا ويلاه النار، قال: فقمت إليه، وإذا رجل مقطوع اليدين والرجلين من الحقوين أعمى العينين منكباً لوجهه، فسألته عن حاله فقال إني كنت ممن دخل على

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢/١، رقم ١١٣)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٩/١): هذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات. والحاكم (١٠٦/٣، رقم ٤٥٤٣)، وقال: صحيح الإسناد. وابن حبان (٣٥٦/١٥، رقم ٦٩١٨).

عثمان الدار، فلما دنوت منه خرجت زوجته فلطمتها، فقال: مالك قطع الله يديك ورجليك وأعمى عينيك وأدخلك النار، فأخذتني رعدة عظيمة وخرجت هارباً فأصابني ما ترى، و لم يبق من دعائه إلا النار، قال: فقلت له: بعداً لك وسحقاً. خرجه الملا في سيرته.

«عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَزِيدَ أَخْبَرَهُ أَنَّ حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَأَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَعَا بِإِنَاءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَى كَفَّيْهِ ثَلاَثَ مِرَارٍ فَغَسَلَهُمَا، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الإِنَاءِ فَمَضْمَضَ، وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاَثاً، وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلاَثَ مِرَارٍ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلاَثَ مِرَارٍ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، ثُمَّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

دل هذا الحديث على أحكام كثيرة أوصلها ابن الملقن إلى نيف وعشرين حكماً فمن أحكامه:

أن فيه دلالة على استحباب غسل اليدين في الوضوء إلى الكوعين، وعلى استحباب غسلهما قبل إدخالهما في الإناء.

قال علماؤنا: من سنن الوضوء غسل الكفين إلى الكوعين قبل المضمضة والاستنشاق تأسيا بالنبي ﷺ فإن لم يتيقن الإنسان من طهارة يده بسبب نوم أو غيره كره له إدخالها في ماء دون قلتين أو مائع قبل غسلهما.

والعلة في هذه الكراهة توهم النجاسة، فإنه قد يكون في جسده قروح أو دمامل فيضع يده عليها فتنجس وقد يضع يده على دبره أو غير ذلك، فإن صادفت ماء قليلاً أو مائعاً نجسته.

وقد ورد النهي عن غمس اليد في الإناء عند الاستيقاظ من النوم قبيل غسلهما قال النبي ﷺ: **«إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها، فإنه لا يدري أين باتت يده»** [1].

---

(١) أخرجه البخاري (١/٧٢، رقم ١٦٠)، ومسلم (١/٢٣٣، رقم ٢٧٨)، وأبو داود (١/٢٥، رقم ١٠٥)، والترمذي (١/٣٦، رقم ٢٤) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١/٩٩، رقم ١٦١)، وابن ماجه (١/١٣٨، رقم ٣٩٣)، ومالك (١/٢١، رقم ٣٧)، والشافعي (١/١٠)، وابن حبان (٣/٣٤٥، رقم ١٠٦٢)، وابن أبي شيبة (١/٩٤، رقم ١٠٤٧)، وأحمد (٢/٢٥٣، رقم =

قال النووي في كتابه «البستان»: حكي أن بعض المبتدعين سمع قول النبي ﷺ: «**فإنه لا يدري أين باتت يده**»، فقال المبتدع: أنا أدري أين باتت يدي، باتت في الفراش، فأصبح وقد أدخل يده في دبره حتى ذراعه.

قال الإمام النووي: ومن هذا المعنى ما وجد في زماننا وتواترته الأخبار وثبت عند القضاة: أن رجلاً في قرية من بلاد البصرة في أوائل سنة خمس وستين وستمائة، كان سيئ الاعتقاد فيهم، فجاءه ابنه من عند شيخ صالح معه سواك، فقال: ما أعطاك شيخك مستهزئاً؟ فقال: هذا السواك فأخذه وأدخله في دبره احتقاراً له، فبقى مدة ثم ولد ذلك الرجل أي: الذي أدخل السواك في دبره جرواً قريب الشبه بالسمكة فقتله ومات الرجل في الحال، أو بعد يومين عافانا الله من بلائه.

ولا تزول هذه الكراهة إلا بغسل اليدين ثلاثاً ولا يكره غسلهما في البرك والحياض، وكذا لا يكره في الإناء إذا تيقن طهارتهما.

ولابد في حصول سنة غسل اليدين إلى الكوعين أن يغسلهما قبل المضمضة والاستنشاق، فلو غسلهما بعدهما لا يكون محصلاً للسنة لقوله في الحديث: «**فغسلهما حتى أدخل يمينه في الإناء فمضمض**» فأتى بالفاء المقتضية للترتيب وزيادة وهو التعقيب.

وفي الحديث دلالة على جواز الاستعانة في إحضار الماء.

قال العلماء: ترك الاستعانة في الوضوء سنة، لأنها نوع من التنعم والتكبر، وذلك لا يليق بحال المتعبد، والأجر على قدر النصب.

والاستعانة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يستعين بغيره ليصب عليه الماء لغير عذر، فهذه الاستعانة خلاف الأولى، أما إذا كانت لعذر كمرض ولو كان خفيفاً، فلا يكون خلاف الأولى، بل مباحاً دفعاً للمشقة، ولو كان بالإنسان مرض شديد أو أقطع لزمه أن يستأجر إنساناً ليعينه على الطهارة إن لم يحصل له متبرع، وإن حصل له متبرع وجب عليه القبول.

القسم الثاني: أن يستعين بمن يغسل له الأعضاء بلا عذر ترفعاً فهذه مكروهة قطعاً.

= ٧٤٣٢)، وابن خزيمة (١/٧٤، رقم ١٤٥)، والدارقطني (١/٥٠)، والبيهقي (١/٤٦ رقم ٢٠٩) عن أبي هريرة.

القسم الثالث: الاستعانة بإحضار الماء والإناء والدلو فمباحة بالإجماع من غير كراهة فلا خلاف الأولى، فلهذا طلب عثمان الإناء فتوضأ منه.

وفي الحديث دلالة على استحباب غسل الأعضاء المغسولة.

قال العلماء: من سنن الوضوء أن يغسل المتوضئ كل عضو ثلاثاً ثلاثاً، وهذه سنة بالإجماع، فقد صح أنه ﷺ توضأ ثلاثا ثلاثا، كما دل عليه الحديث المذكور وغيره.

وتكره الزيادة على الثلاث ويكره النقص عنها لأنه ﷺ لما توضأ ثلاثاً ثلاثاً قال: «**هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء أو ظلم**» رواه أبو داود وغيره [(١)].

قال النووي: أنه حديث صحيح ومعناه: فمن زاد على الثلاث أو نقص منها فقد أساء وظلم في كل من الزيادة والنقص.

وقيل: أساء في النقص وظلم في الزيادة.

وقيل: عكسه.

سؤال: **فإن قيل**: كيف يكون النقص من الثلاث إساءة وظلماً ومكروهاً وقد فعله رسول الله ﷺ فإنه توضأ مرة وتوضأ مرتين؟

جوابه: أنه فعل ذلك بياناً للجواز، وكان فعله لذلك في ذلك الحال أفضل، لأن البيان جائز، وليس معنى «**أساء وظلم**» ارتكب محرماً، بل معنى «**أساء**» ترك الأولى وتعدى حد السنة، ومعنى «**ظلم**» وضع الشيء في غير موضعه.

وأما مسح الرأس فهل يستحب تثليثه أم لا؟

ظاهر الحديث أنه لا يستحب فإنه قال فيه: «**ثم مسح برأسه**» ولم يقل ثلاثاً، والذي ذهب إليه إمامنا الشافعي أنه يستحب مسحه ثلاثاً كما يستحب ذلك في المغسول، فقد ورد: «**أنه ﷺ مسح رأسه ثلاثاً**» رواه البيهقي والحاكم وقال: إنه حسن [(٢)].

وذهبت الأئمة الثلاثة إلى عدم استحبابه.

فائدة: إنما تحصل فضيلة تثليث مسح الرأس إذا أورد المسح ثانياً وثالثاً على ما

---

(١) أخرجه أبو داود (١/٣٣، رقم ١٣٥)، والنسائي (١/٨٨، رقم ١٤٠) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) أخرجه البيهقي (١/٦٣، رقم ٢٩٩).

أورده أولاً، فلو مسح ثانياً وثالثاً غير ما مسحه أولاً لم يكن ذلك تكراراً، بل هو محاولة على استيعاب الرأس، أفاد ذلك العلامة الجوجري.

قال العلماء: ولو شك في العدد في أثناء الوضوء أخذ بالأقل وكمل كالركعات، أما لو شك بعد الفراغ منه فإنه لا عبرة به.

قالوا: وإنما تكره الزيادة على الثلاثة إذا أتى بها بقصد نية الوضوء، فلو زاد بقصد نية التبرد مثلاً لم يكره.

قال الزركشي: ومحل كراهة الزيادة أيضاً إذا توضأ بماء مباح أو مملوك له، فإن توضأ من ماء موقوف على من يتطهر أو يتوضأ منه كالمدارس والربط، حرمت الزيادة بلا خلاف، لأن الزيادة غير مأذون فيها.

فائدة: لو توضأ وضوءاً كاملاً مرة مرة، ثم توضأ أخرى كذلك، ثم ثالثاً لتأكيد ذلك حصلت له فضلية التثليث كما قاله الروياني والإمام.

قال الجوجري: وهو ظاهر المعنى، لكن قال الشيخ إسماعيل صاحب الروض: إنها لا تحصل بل لابد من تثليث كل عضو قبل الانتقال إلى غيره.

فائدة أخرى: ذكر العلماء مسائل لا يستحب فيها التثليث:

الأولى: لوضاق الوقت عنه، ولو ثلث لخرجت الصلاة أو بعضها عن الوقت، فإنه يقتصر على الفرض وهو مرة.

الثانية: لو كان عطشاناً ولو اقتصر على الفرض فضل له فضلة يشربها فيقتصر عليه.

الثالثة: لوكان الماء يكفي لفرض فقط، ولو ثلث لا يكفيه، فلا يستحب له التثليث لئلا يحتاج إلى التيمم، فلو ثلث وتيمم للباقي في قضاء عليه.

الرابعة: لو خاف فوت الجماعة لو ثلث، فإنه يقتصر على الغرض ليدرك الجماعة فإنها أهم من التثليث.

لطيفة: قال في نزهة المجالس: جاء جبريل إلى النبي ﷺ على سرير من ذهب، قوائمه من فضة، مفصص بالياقوت، فاستقر على الأرض ببطحاء مكة، فسلم على النبي ﷺ واقعده معه على السرير، ولجبريل أربعة أجنحة، جناح من لولؤ، وجناح من ياقوت، وجناح من زبرجد، وجناح من نور رب العالمين، بين الجناح والجناح ما بين المشرق والمغرب، ومعه سبعون ألف ملك، فضرب بجناحه الأرض فنبعت فتوضأ جبريل وغسل أعضاءه ثلاثاً وتمضمض ثلاثاً واستنشق ثلاثاً، ثم قال: أشهد أن لا إله

إلا الله وحده لا شريك له وأنك رسول الله بعثك بالحق، يا محمد قم وأفعل كما فعلت، ففعل النبي ﷺ مثله، فقال: يا محمد قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويغفر الله لمن يصنع مثل صنيعك ذنوبه حديثها وقديمها وسرها وعلانيتها وعمدها وخطأها وحرم لحمه ودمه على النار.

فائدة: هل فرض الله الوضوء بمكة أو بالمدينة؟

قال ابن العماد في شرح سيرته: ونقل الباجي في شرح الموطأ عن بعض العلماء: أن فريضة الوضوء كانت بالمدينة، وأنه لم يكن واجباً بمكة، بل كان سنة.

وكذا نقل القاضي عياض قال: والأكثرون على أنه كان واجباً بمكة لكنهما لم يعينوا وقته.

وفي دلائل النبوة للبيهقي: «أن جبريل صلوات الله وسلامه عليه علمه الوضوء في أول الإسلام».

وذكر ابن الرفعة في الكفاية في باب الجهاد: أن جبريل عليه السلام نزل بأعلى مكة، فهمز في ناحية الوادي فانفجرت فيه عين فتوضأ جبريل عليه السلام ليريه كيف الطهور، فتوضأ رسول الله ﷺ منها، ثم قام جبريل يصلي وصلى النبي ﷺ بصلاته، فكانت هذه أول عبادة فرضت عليه كما قاله الماوردي.

ثم جاء إلى خديجة فتوضأ لها حتى توضأت وصلى بها كما صلى به جبريل عليهم الصلاة والسلام، فكانت أول من توضأ بعد رسول الله ﷺ.

وفي الحديث دلالة على استحباب ركعتين فأكثر عقب كل وضوء، ينوي بها سنة الوضوء، وهي سنة مؤكدة، ويستحب فعلها في كل وقت توضأ فيه، حتى في أوقات الكراهة، لأن لها سبباً مقدماً عليها.

قال النووي: ولو صلى بعد الوضوء فريضة أو نافلة مقصودة حصلت له فضيلة سنة الوضوء، كما تحصل تحية المسجد بذلك، بل لو دخل المسجد على وضوء في وقت الظهر مثلاً، وصلى ركعتين ونوى بهما سنة الظهر وسنة الوضوء وتحية المسجد حصل له ثواب الجميع.

قال النووي: إنما قال ﷺ: «**نحو وضوئي**» ولم يقل: مثل وضوئي لأن حقيقة مما ثلثه ﷺ لا يقدر عليها غيره.

وفي الحديث دلالة وبشارة لمن صلى سنة الوضوء بمغفرة الذنوب المتقدمة، وهذا الغفران للصغائر دون الكبائر، أما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة، وينبغي أن يعلم أن

غفران الذنوب الصغائر المتقدمة لمن صلى سنة الوضوء عقبه مشروطة بشرطين:

أحدهما: أن يتوضأ على النحو المذكور في الحديث وهو أن يغسل كل عضو ثلاث مرات.

الثاني: أن لا يحدث نفسه في الصلاة التي صلاها بعد الوضوء بشيء من أمور الدنيا، وما لا يتعلق بالصلاة.

فإن لم يتوضأ على النحو المذكور أو لم تسلم صلاته من الخواطر الدنيوية التي لا تتعلق بالصلاة، لم يحصل له الغفران المذكور، نعم لو عرض له حديث دينوي فأعرض عنه بمجرد عروضه عفي عنه ولا يحرم فضيلة سنة الوضوء إن شاء الله تعالى، لأن هذا ليس من فعله، وقد يعفى لهذه الأمة عن الخواطر التي تعرض ولا تستقر (قاله النووي).

فائدة: يستحب للإنسان إذا تيمم أو اغتسل أن يصلي ركعتين عقبه، كما يستحب أن يصليهما عقب الوضوء كما اختار ذلك البلقيني، وقاسهما على الوضوء، و لم ير من تعرض له.

ويمكن أن يستنبط من استحباب الصلاة عقب التيمم من قوله ﷺ: «**الصعيد الطيب وضوء المسلم**» [(١)].

فإنه إذا صدق على التيمم أنه وضوء فقد دخل في عموم قوله ﷺ: «**نحو وضوئي هذا**».

فائدة أخرى وبشارة: قال في نزهة المجالس: ينبغي لمن أحدث أن يتوضأ عقب حدثه، ولمن توضأ أن يصلي ركعتين عقب وضوئه، ولمن صلى أن يدعو الله عقب صلاته، فقد ورد في الخبر يقول الله: «**من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني، ومن أحدث وتوضأ ولم يصلي فقد جفاني، ومن أحدث وتوضأ ولم يدعني فقد جفاني، ومن أحدث وتوضأ وصلى ودعاني فلم أستجب له فقد جفوته، ولست برب جافي**» [(٢)].

وقد عقد البخاري رضي الله عنه في كتاب التهجد باباً في فضل الطهور بالليل والنهار،

---

(١) أخرجه الترمذى (١/٢١١، رقم ١٢٤) وقال: حسن صحيح. والنسائى (١/١٧١، رقم ٣٢٢)، وعبد الرزاق في المصنف (١/٢٣٨، رقم ٩١٣)، وأحمد (٥/١٥٥، رقم ٢١٤٠٨)، وابن حبان (٤/١٤٠، رقم ١٣١٣)، والدارقطنى (١/١٨٧)، والحاكم (١/٢٨٤، رقم ٦٢٧) وقال: صحيح. والبيهقى (١/٢١٢، رقم ٩٦١) عن أبي ذر.

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٩٢): قال الصغاني في موضوعاته: حديث موضوع.

وروى حديثاً عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال لبلال عن صلاة الفجر: «**يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دق نعليك بين يدي في الجنة**» قال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي [(١)].

وروى أبو داود عن زيد بن خالد الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «**من توضأ فأحسن وضوءه ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه**» [(٢)].

وفي رواية عنده: «**ما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين يقبل بقلبه ووجهه عليهما إلا وجبت له الجنة**» [(٣)] والله أعلم.

***

---

(١) أخرجه البخاري (١/٣٨٦، رقم ١٠٩٨). وأخرجه أيضا: مسلم (٤/١٩١٠، رقم ٢٤٥٨)، وأحمد (٢/٤٣٩، رقم ٩٦٧٠)، وابن خزيمة (٢/٢١٣، رقم ١٢٠٨)، وابن حبان (١٥/٥٦٠، رقم ٧٠٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١/٢٣٨، رقم ٩٠٥)، والطيالسي (ص: ١٨٩، رقم ١٣٣١)، وأحمد (٤/١١٧، رقم ١٧٠٩٥)، وعبد بن حميد (١/١١٨، رقم ٢٨٠)، والطبراني في الكبير (٥/٢٤٩، رقم ٥٢٤٢)، والحاكم في المستدرك (١/٢٢٢، رقم ٤٥١).

(٣) أخرجه أبو داود (١/٤٣، رقم ١٦٩)، وأحمد (٤/١٤٥، رقم ١٧٣٥٢)، وابن حبان (٣/٣٢٥، رقم ١٠٥٠).

المجلس السادس والأربعون

في ذكر بعض مسائل تتعلق بغسل الميت، وذكر سنن الوضوء، وذكر آدابه الباطنة

قَالَ البُخَارِي:

بَابُ التَيَمُّنِ فِي الوُضُوءِ والغَسْلِ

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ حَدَّثَنَا خَالِدٌ عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ قَالَتْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُنَّ فِي غُسْلِ ابْنَتِهِ «**ابْدَأْنَ بِمَيَامِنِهَا وَمَوَاضِعِ الْوُضُوءِ مِنْهَا**».

حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ أَخْبَرَنِي أَشْعَثُ بْنُ سُلَيْمٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ وَتَرَجُّلِهِ وَطُهُورِهِ وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ**» (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد منها :

أورد البخاري من الحديث طرفاً ليبين به المراد بقول عائشة : «يعجبه التيمن» إذ هو لفظ مشترك بين الابتداء باليمين وتعاطي الشيء باليمين والتبرك وقصد اليمين ، فبان بحديث أم عطية أن المراد بالطهور الأول .

قوله : «كان يعجبه التيمن» : قيل لأنه كان يحب الفأل الحسن إذ أصحاب اليمين أهل الجنة .

وزاد البخاري في الصلاة عن سليمان بن حرب عن شعبة : «ما استطاع» فنبه على المحافظة على ذلك ما لم يمنع مانع .

وقوله : «في تنعله» : أي لبس نعله .

وقوله : «وترجله» : أي ترجيل شعره وهو تسريحه ودهنه .

قال في المشارق : رجل شعره إذا مشطه بماء أو دهن ليلين ويرسل الثائر ويمد المنقبض ، زاد أبو داود عن مسلم بن إبراهيم عن شعبة : «وسواكه» .

قوله : «في شأنه كله» : كذا للأكثر من الرواة بغير واو . وفي رواية أبي الوقت بإثبات الواو وهي التي اعتمدها صاحب العمدة .

قال الشيخ تقي الدين : هو عام مخصوص ، لأن دخول الخلاء والخروج من المسجد ونحوهما يبدأ فيهما باليسار على التعميم ، لأن التأكيد يرفع المجاز فيمكن أن يقال حقيقة الشأن ما كان فعلا مقصوداً ، وما يستحب فيه التياسر ليس من الأفعال المقصودة بل هي إما تروك وإما غير مقصودة ، وهذا كله على تقدير إثبات الواو ، وأما على إسقاطها فقوله : «في شأنه كله» متعلق بيعجبه لا بالتيمن أي يعجبه في شأنه كله التيمن في تنعله الخ ، أي لا يترك ذلك سفرا ولا حضرا ولا =

قال العلماء: أم عطية راوية الحديث الأول اسمها «نسيبة» بضم النون وفتح المهملة وسكون التحتانية وبالموحدة.

وقيل: «نسيبة» بفتح النون وكسر السين.

وقيل: «حقة» وهي: بنت كعب ويقال: بنت الحارث، وهي: بصرية صحابية، أنصارية جليلة، كانت تغسل الموتى، وتغزو مع رسول الله ﷺ غزت معه سبع غزوات، وشهدت خيبر، وكان علي يقيل عندها، وكانت تمرض المرضى، وتداوي الجرحى.

روى لها عن رسول الله ﷺ أربعون حديثاً، للبخاري منها سبعة.

= في فراغه ولا شغله ونحو ذلك .

وقال الطيبي قوله : «في شأنه» بدل من قوله «في تنعله» بإعادة العامل . قال : وكأنه ذكر التنعل لتعلقه بالرجل ، والترجل لتعلقه بالرأس ، والطهور لكونه مفتاح أبواب العبادة ، فكأنه نبه على جميع الأعضاء فيكون كبدل الكل من الكل .

قلت : ووقع في رواية مسلم بتقديم قوله : «في شأنه كله» على قوله : «في تنعله الخ» وعليها شرح الطيبي ، وجميع ما قدمناه مبني على ظاهر السياق الوارد هنا .

لكن بين البخاري في الأطعمة من طريق عبد الله بن المبارك عن شعبة أن أشعث شيخه كان يحدث به تارة مقتصراً على قوله : «في شأنه كله» وتارة على قوله : «في تنعله الخ» .

وزاد الإسماعيلي من طريق غندر عن شعبة أن عائشة أيضاً كانت تحمله تارة وتبينه أخرى ، فعلى هذا يكون أصل الحديث ما ذكر من التنعل وغيره ، ويؤيده رواية مسلم من طريق أبي الأحوص وابن ماجه من طريق عمرو بن عبيد كلاهما عن أشعث بدون قوله : «في شأنه كله» وكأن الرواية المقتصرة على : «في شأنه كله» من الرواية بالمعنى ، ووقع في رواية لمسلم «في طهوره ونعله» بفتح النون وإسكان العين أي هيئة تنعله . وفي رواية ابن ماهان في مسلم «ونعله» بفتح العين .

وفي الحديث :

استحباب البداءة بشق الرأس الأيمن في الترجل والغسل والحلق ، ولا يقال هو من باب الإزالة فيبدأ فيه بالأيسر ، بل هو من باب العبادة والتزيين ، وقد ثبت الابتداء بالشق الأيمن في الحلق .

وفيه البداءة بالرجل اليمنى في التنعل وفي إزالتها باليسرى .

وفيه البداءة باليد اليمنى في الوضوء وكذا الرجل ، وبالشق الأيمن في الغسل .

واستدل به على استحباب الصلاة عن يمين الإمام وفي ميمنة المسجد ، وفي الأكل والشرب باليمين .

قال النووي : قاعدة الشرع المستمرة استحباب البداءة باليمين في كل ما كان من باب التكريم والتزيين ، وما كان بضدهما استحب فيه التياسر . قال : وأجمع العلماء على أن تقديم اليمين في الوضوء سنة من خالفها فاته الفضل وتم وضوءه ، انتهى . انظر فتح الباري (١/٢٦٩ - ٢٧٠) .

وبنت رسول الله ﷺ المبهمة في هذا الحديث:

قيل: هي زينب، وبه صرح النووي في تهذيب الأسماء واللغات، وصرح به في صحيح مسلم، وقال القاضي عياض: إنه الصواب.

وقيل: هي أم كلثوم زوج عثمان بن عفان، قاله ابن الملقن، ولما دفنت أم كلثوم قال عليه الصلاة والسلام: «**دفن البنات من المكرمات**».

وقيل: إنه قال هذا حين ماتت رقية فقد روى الطبراني في الكبير والأوسط من رواية ابن عباس قال: لما عزى النبي ﷺ بابنته رقية قال: «**الحمد لله دفن البنات من المكرمات**» [(١)].

لكن ذكر ابن الجوزي في موضوعاته أن حديث: «**دفن البنات من المكرمات**» لا يصح عن رسول الله ﷺ.

وليس المراد بالبنات في هذا الحديث فاطمة لأنها ماتت بعده، والمذكور هنا ماتت في حياته، فأمر أم عطية الغاسلة، وأسماء بنت عميس، وصفية بنت عبد المطلب أن يغسلنها، وأن يبدأن في غسلها بميامنها أي: بالجانب الأيمن منها، لشرفه.

فائدة: كان له من البنات أربعة:

الأولى: فاطمة البتول، وكانت وفاتها بعد النبي ﷺ بستة أشهر.

الثانية: زينب، وكانت وفاتها في السنة الثامنة من الهجرة، وكانت زوجة لأبي العاصي بن الربيع، واسمه لقيط.

وقيل: هشيم.

وقيل: مهشم.

الثالثة والرابعة: رقية، وأم كلثوم زوجا عثمان بن عفان رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٦٦/١١ ، رقم ١٢٠٣٥) ٧) ، وفي الأوسط (٣٧٢/٢ ، رقم ٢٢٦٣) ، قال الهيثمي (١٢/٣) : رواه الطبراني في الأوسط والكبير والبزار ، وفيه عثمان بن عطاء الخراساني ، وهو ضعيف . والقضاعي (١٧٢/١ ، رقم ٢٥٠) ، والخطيب (٦٧/٥) ، والديلمي (٢١٩/٢ ، رقم ٥٦) . وأورده الذهبي في الميزان (٢٣١/٦ ترجمة ٧٨٤٩) ، ووافقه الحافظ في اللسان (٢٤٧/٥ ترجمة ٨٥٤ محمد بن عبد الرحمن بن طلحة) ، وقالا : قال ابن عدي : يسرق الحديث . جميعا عن ابن عباس . وأخرجه الخطيب (٢٩١/٧) ، وابن عدي (٢٧٨/٢ ، ترجمة ٤٤٢ حميد بن حماد بن أبي الخوار) كلاهما عن ابن عمر .

وأم كلثوم كانت وفاتها في السنة التاسعة من الهجرة.

ورقية كانت وفاتها في السنة الثانية من الهجرة، وكان النبي ﷺ حينئذ ببدر، وليس في بنات النبي ﷺ من له نسل وعقب سوى فاطمة.

قاله العراقي في ألفيته:

وليس في بناته من أعقبا إلا البتول طاب أماً وأباً

فائدة أخرى: أفضل بناته ﷺ فاطمة رضي الله عنها بل هي أفضل نساء العالمين كما قدمنا ذلك.

ومن فضائلها وخصائصها: أنها لم ترد قط دم حيض ولا دم نفاس حتى لا يفوتها صلاة، ولذلك سميت بالزهراء.

قال محب الدين الطبري في ذخائر العقبى: إن فاطمة طاهرة مطهرة لا تحيض، ولا يرى لها دم في طمث، ولا ولادة وأورد في ذلك حديثين.

قال في نزهة المجالس: قالت أسماء: لما ولدت فاطمة ولدها الحسن لم أر لها دماً، فقلت: يا نبي الله لم أر لفاطمة دماً من حيض أو نفاس، فقال: «**أما علمتي أن ابنتي فاطمة طاهرة مطهرة**».

وفي هذا الحديث فوائد منها:

أن فيه دلالة على أنه يستحب لغاسل الميت أن يوضئه كما يتوضأ الحي ثلاثاً ثلاثاً، مع المضمضة والاستنشاق قبل الغسل هذا مذهب الشافعي.

وعند أبي حنيفة: يوضئه من غير مضمضة ولا استنشاق، قال: لأن إخراج الماء من فمه متعذر.

وعند إمامنا الشافعي يميل رأسه في المضمضة والاستنشاق لئلا يصل الماء إلى باطنه، فإذا فرغ من وضوءه غسل رأسه ثم لحيته، ثم ينتقل إلى الشق الأيمن قبل الأيسر، ففي الحديث دلالة على استحباب غسل الميامن قبل المياسر، فإن النبي ﷺ قال لغاسلات ابنته: «**إبدأن بميامنها**».

وقد ذكر العلماء لغسل الميامن والمياسر كيفيات:

أولاها كما قال الجمهور: أن يغسل شقه الأيمن من عنقه وصدره وفخذه وساقه وقدمه، ثم يغسل الأيسر كذلك، ثم يحول إلى جنبه الأيسر فيغسل الأيمن مما يلي القفا والظهر من كتفه إلى قدمه ثم يحوله إلى جنبه الأيمن فيغسل شقه الأيسر ثم يعيد غسل

رأسه ولحيته ووجهه لحصول الغرض بغسلها أولاً، بل يبدأ بصفحة عنقه فما تحتها هذا كله غسلة واحدة.

فائدة: يحرم كب الإنسان في حال الغسل على وجهه احتراماً له، بخلاف ما إذا نام الإنسان على وجهه فإنه ليس بحرام بل مكروه.

ويستحب للمغسل أن يغسله ثلاثاً، فإن لم تحصل النظافة زاد حتى تحصل، وهذا بخلاف الحي فإنه لا يزاد فيها على الثلاث لأن طهارته محض تعبد، ولغسل الميت نظافة فلا بأس بالزيادة.

وفي الحديث دلالة أيضاً على أن النساء أحرى بغسيل المرأة من الزوج، ومن رجال المحارم كما أن الرجال أحرى بغسل الرجل من زوجته ومن نساء المحارم.

نعم يجوز للزوج عند إمامنا الشافعي إن يغسل زوجته المسلمة أو الذمية لأن حقوق النكاح لا تسقط بالموت، بدليل أنه يرثها، ولأنه ﷺ قال لعائشة: «**لو مت قبلي فقمت عليك فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك**» أخرجه النسائي وابن ماجه [(١)].

وقد غسل علي فاطمة الزهراء، لكن في مسند أحمد وغيره: أنها لما احتضرت غسلت نفسها وأوصت أن لا يكشفها أحد فدفنها علي بغسلها ذلك.

وللزوجة أيضاً أن تغسل زوجها بالإجماع ولقول عائشة: «**أيم الله لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه**» رواه أبو داود والحاكم وصححه على شرط مسلم [(٢)].

ولو طلق زوجته ومات أحدهما ليس للآخر أن يغسله حتى لو كان الطلاق رجعياً وإن حصل الموت في العدة، لتحريم النظر.

ولو غسل أحد الزوجين الآخر لف على يده خرقة ولا يمس، فإن غسل من غير

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٢٥٢/٤ ، رقم ٧٠٧٩) ، وابن ماجه (٤٧٠/١ ، رقم ١٤٦٥) ، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٥/٢) : هذا إسناد رجاله ثقات . وأخرجه أيضاً : البيهقي (٣٩٦/٣ ، رقم ٦٤٥١) ، وابن حبان (٥٥١/١٤ ، رقم ٦٥٨٦) .

(٢) أخرجه أبو داود (١٩٦/٣ ، رقم ٣١٤١) ، والحاكم (٦١/٣ ، رقم ٤٣٩٨) ، وقال : صحيح على شرط مسلم . وأخرجه أيضاً : ابن ماجه (٤٧٠/١ ، رقم ١٤٦٤) ، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٥/٢) : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات .

حائل انتقض وضوء الغاسل، وأما وضوء المغسول فلا ينتقض.

سؤال: فإن قيل: لأي شيء ينتقض وضوء الملموس الحي كما ينتقض وضوء اللامس بخلاف الملموس الميت؟

جوابه: أن الميت غير مكلف فلا ينتقض وضوءه بخلاف الحي فافترقا.

فائدة أخرى: يجوز للسيد أن يغسل أمته، ولو كانت مدبرة وأم ولد ومكاتبة، لأنهن مملوكات له، إلا إن كانت أمته مزوجة أو معتدة أو مستبرأة أو مشركة أو مبعضة بتحريم بعضها عليه.

وأما الأمة فليس لها إذا مات سيدها أن تغسله لانتقال ملكه عنها.

فائدة أخرى: يجوز لرجال المحارم أن يغسلوا المرأة مع وجود النساء، كأن يغسل الرجل ابنته أو أخته أو نحوها، ويجوز لنساء المحارم أن يغسلوا الرجل مع وجود الرجال، كأن تغسل الأم ولدها وإن وجد رجل.

وقول عائشة رضي الله عنها في الحديث الثاني: «**كان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن**» أي: كان ﷺ يستحسن البدآة باليمنى في تنعله أي: في لبسه النعل، وترجله أي: في تمشيطه الشعر.

«**وطهوره**»: بضم الطاء أي: في تطهيره، فيه دليل على استحباب تقديم اليمنى على اليسرى في اليدين والرجلين، فلو غسل يده اليسرى قبل اليمين أو رجله اليسرى قبل اليمين صح وضوءه بالإجماع كما قاله المنذري، ولكن ارتكب المكروه فقد روى ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر: «**نهى رسول الله ﷺ أن يتعاطى أحدنا شيئاً بشماله**» [(١)].

ولم يقل أحد بوجوب تقديم اليمنى على اليسرى إلا الشيعة، وما نقله الرضى الشيعي عن الشافعي في القديم من وجوب تقديم اليمنى على اليسرى فهو كما قال ابن الملقن: غريب.

سؤال: ما السر والحكمة في جعل الفضل لليمنى ولم يكن لليسار، فكل يمن وبركة مختص باليمين كتناول المأكل والكتاب ودخول الجنة وغير ذلك، وكل ما كان من شقاوة فهو للشمال؟

أجاب عنه في العقائق: بأن نور المصطفى ﷺ عبر على يد آدم اليمنى فنالت اليمنى

---

(١) أخرجه ابن حبان بنحوه (١٢/٣٠، رقم ٥٢٢٦).

المنى، ووجدت اليمن والبركة إلى الأبد، وبقى هذا الاسم عليها بإرادة الصمد.

قال النووي في الأذكار: يستحب أن يبتدئ في لبس النعل والثوب والسراويل وشبهها باليمين، من كميه ورجلي السراويل، وإذا خلعتها يستحب أن يخلع الأيسر قبل الأيمن.

وكذلك يستحب الابتداء باليمين في الاكتحال، والسواك، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، ونتف الإبط، وحلق الرأس، والسلام من الصلاة، ودخول المسجد، والخروج من الخلاء، والوضوء، والغسل، والأكل، والشرب، والمصافحة، واستلام الحجر الأسود، وأخذ الحاجة من إنسان دفعها إليه وما أشبه ذلك، فكله يفعله باليمنى، وضده باليسار.

وقوله: «**وفي شأنه كله**» معناه: أن النبي ﷺ كان يحب التيمن في جميع أموره.

سؤال: فإن قيل: يشكل على قوله وفي شأنه كله دخول الخلاء، والخروج من المسجد، فإن المستحب فيهما ونحوهما البدآة باليسار كما قدمنا أنه فعله ﷺ.

جوابه: أنه عام خص منه دخول الخلاء، والخروج من المسجد ونحوهما بالأدلة الخارجية.

قال الكرماني: وما من عام إلا وقد خص، والله بكل شيء عليم.

سؤال آخر: يشكل أيضاً على قوله: «**وفي شأنه كله**» الخدان والكفان والأذنان، فإنه لا يستحب فيها التيامن ولا التياسر، بل من السنة فيها غسل الكفين معاً، وغسل الخدين معاً ومسح الأذنين معاً إلا إذا كان أقطع اليد أو به علة تمنعه من ذلك، فإنه يستحب له التيامن حينئذ.

جوابه: أن هذه خارجة بالدليل فهو مخصوصة من عموم الحديث.

فائدة: دلت محبته ﷺ التيامن في شأنه كله أن اليمين أشرف من اليسار، ويدل عليه أيضاً أن السعيد في الدار الآخرة هو الذي يتناول كتابه بيمينه.

قال القرطبي: أول من يتناول كتابه بيمينه عمر بن الخطاب ﷺ فقد ذكر أبو بكر أحمد بن علي الخطيب عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب، وله شعاع كشعاع الشمس**» فقيل له: فأين أبو بكر يا رسول الله؟ قال: «**هيهات زفته الملائكة إلى الجنات**» [1].

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٠٢/١١) . وأخرجه أيضاً : أبو جعفر الطبري في =

وروى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[الإسراء: ٧١] قال: «**يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد في جسمه ستون ذراعاً ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم آتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم، ويقول لهم: أبشروا فإن لكل مسلم مثل هذا. قال: وأما الكافر فيسوء وجهه ويمد له في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم، فيلبس تاجاً من نار، فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتنا به قال: فيأتيهم، فيقولون: اللهم أخزه، فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا**» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب [(١)].

قال العلماء: إذا تناول العبد كتابه بيمينه يوم القيامة يعلم أنه من أهل الجنة، فيقول للناس اقرؤوا كتابيه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[الحاقة: ١٩] وذلك حين يؤذن الله تعالى بقراءة كتابه، فإذا كان الرجل رأساً في الخير يدعو إليه ويأمر به، فيكثر تبعه عليه، ودعي باسمه واسم أبيه، فيتقدم حتى إذا دنا أخرج له كتاب أبيض بخط أبيض، في باطنه السيئات وفي ظاهره الحسنات، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيصفر لونه ويخف من ذلك، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه سيئاتك وقد غفرت لك فيفرح عند ذلك فرحاً شديداً، ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحاً حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسنات قد ضوعفت لك، فيفرح فيبيض وجهه، ويؤتى بتاج فيوضع على رأسه ويكسى حلتين، ويحلى كل مفصل منه ويطول ستون ذراعاً وهي قامة آدم عليه السلام ويقال له: انطلق إلى أصحابك وبشرهم وأخبرهم: أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فإذا أدبر قال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[الحاقة: ١٩، ٢٠].

قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[الحاقة: ٢١، ٢٢]

= الرياض النضرة (٣٣٢/١) ، والديلمي (١٧/١ ، رقم ١٦) . وانظر تفسير القرطبي (٢٦٩/١٨).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٢/٥ رقم ٣١٣٦) وقال : حسن غريب . وأخرجه أيضا : أبو نعيم في الحلية (١٥/٩) ، وأبو يعلى (٣/١١ ، رقم ٦١٤٤) ، وابن حبان (٣٤٦/١٦ ، رقم ٧٣٤٩) عن أبي هريرة .

قطوفها وثمارها وعناقيدها دانية أدنيت، فيقول لأصحابه: هل تعرفوني؟ فيقولون: لقد غمرتك كرامة الله تعالى من أنت؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾[الحاقة: ٢٤] أي: ما قدمتم في أيام الدنيا.

وإذا كان الرجل رأساً في الشر يدعو إليه ويأمر به فيكثر تبعه عليه، ونودي باسمه واسم أبيه فيتقدم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود، في باطنه الحسنات وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقرؤها ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه الحسنات ردت إليك فيسود وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير، ثم ينقلب كتابه فيقرأ سيئاته، فلا يزداد إلا حزناً ولا يزداد وجهه إلا سواداً، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه السيئات قد ضوعفت عليك أي: يضاعف عليه العذاب وتزرق عيناه، ويسود وجهه، ويكسى سرابيل القطران، ويقال له: انطلق إلى أصحابك وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فينطلق وهو يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ﴾[الحاقة: ٢٥، ٢٦، ٢٧] يعني: الموت ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] أي: هلكت عن حجتي.

قال الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾[الحاقة: ٣٠، ٣١، ٣٢].

قال الحسن: الله اعلم بأي ذراع هذه السبعون.

واختلف في معنى «فاسلكوه»:

فقيل: تدخل من فمه حتى تخرج من دبره.

وقيل: بالعكس.

وقيل: يدخل عنقه فيها، ثم يجر بها جراً، ولو أن حلقه وضعت على جبل لذاب، فينادي أصحابه فيقول: هل تعرفوني؟ فيقولون: لا، ولكن قد نرى ما بك من الخزي العظيم، فمن أنت؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان لكل إنسان منكم مثل هذه.

واختلف في معنى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾[الانشقاق: ١٠].

فقيل: معناه أنه يخلع كتفه الأيسر فتجعل يده خلفه فيأخذ كتابه.

وقيل: يحول وجهه في موضع قفاه فيقرأ كتابه كذلك.

فائدة أخرى: هل يتناول كل أحد من المؤمنين كتابه بيمينه يوم القيامة؟ وهل ذلك مخصوص بالناجين من النار؟

حكى النووي والقاضي عياض في المسألة قولين:

أحدهما: أن جميع المؤمنين من الأمم يأخذون كتبهم بأيمانهم، ثم يعذب الله من يشاء من عصاتهم.

والثاني: إنما يأخذ بيمينه الناجون من النار خاصة وقد ورد في فضائل النبي ﷺ قوله ﷺ: «**إن الله قسم الخلائق قسمين وجعلني من خير القسمين، فذلك قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾**[الواقعة: ٢٧] **ثم جعل القسمين ثلاثاً، فجعلني من خيرها ثلاثاً وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾**[البلد: ١٨]، **﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾**[الواقعة: ٩]، **﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾**[الواقعة: ١٠]، **فأنا من السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني من خير قبيلة فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[الحجرات: ١٣]، **أنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتا فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**[الأحزاب: ٣٣]»[(١)].

إخواني كأنكم بهاذم اللذات قد هجم، ونقلك إلى بيت الديدان والظلم، وفرق من شمل الأحباب ما انتظم، وقد ندم المفرط حيث لا ينفع الندم، على الأعمال في الأيام الخالية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية، أما تحذر من بوعيده حذرك، أما تستحي ممن وجدك وصورك، كأني بك والله وقد نسيك الحبيب وأفردك، وإلى ضيق قبرك أوردك، وعادت قلوب حزنت عليك سالية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

ولقد أحسن من قال: واحسرتي واشقوتي في يوم نشر كتابيه، وأطول حزني إذا أوتيته بشماليه، وإذا سئلت عن الخطأ ماذا يكون جوابيه، وأحر قلبي أن يكون مع القلوب القاسية، كلا ولا قدمت له ولا ليوم حسابيه، بل إنني لشقاوتي وقساوتي

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٦/٣ ، رقم ٢٦٧٤) قال الهيثمي (٢١٥/٨) : فيه يحيى بن عبد الحميد الحماني ، وعباية بن ربعي ، وكلاهما ضعيف . وأورده ابن أبي حاتم في العلل (٣٩٤/٢ ، رقم ٢٦٩٣) وقال قال أبي : هذا حديث باطل . وذكره الحكيم (٣٣٠/١) عن ابن عباس .

وعذابيه، بارزت في الزلات في أيام دهر خالية، من ليس يخفى عنه من قبح المعاصي خافية، استغفر الله العظيم وتبت من أفعاليه، فعسى الله يجود لي بالعفو ثم العافية.

فائدة: من سنن الوضوء المضمضة والاستنشاق، واختلف العلماء فيهما هل هما واجبان في الوضوء والغسل أو سنتان؟

فقال الشافعي ومالك: هما سنتان في الوضوء والغسل.

وقال أبو حنيفة: هما فرضان في الطهارة الكبرى، سنتان في الصغرى.

وقال أحمد: هما واجبان فيهما.

وأقل المضمضة والاستنشاق جعل الماء في فمه وأنفه، ولا يشترط مجه ولا إدارته في الفم، وتسن فيهما المبالغة في غير حق الصائم، وأما الصائم فتكره المبالغة، والمبالغة في المضمضة أن يوصل الماء إلى أقصى الحنك، مع إمرار الأصابع على ذلك، والمبالغة في الاستنشاق أن يصعد الماء بالنفس إلى الخيشوم مع إدخال إصبع يده اليسرى وإزاله ما فيه من الأذى.

والحكمة في تقديم المضمضة والاستنشاق على فروض الوضوء: ليعلم المتوضئ أوصاف الماء هل تغيرت أم لا، فيعلم الطعم بالمضمضة والرائحة بالاستنشاق.

ولا بد في تحصيل سنة الاستنشاق من تقديم المضمضة عليه، فلو استنشق قبل أن يمضمض لا يثاب على سنة الاستنشاق.

والحكمة في تقديم المضمضة على الاستنشاق كما قاله عز الدين بن عبد السلام: أن منافع الفم أنفع من منافع الأنف، فإنه مدخل الطعام والشراب اللذين هما قوام الحياة، وهو محل الأذكار الواجبة والمندوبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلاة على النبي ﷺ وغير ذلك.

وللمضمضة والاستنشاق أربع كيفيات:

أفضلها كما قاله النووي: أن يجمع بين المضمضة والاستنشاق بثلاث غرف، يتمضمض بكل غرفة ثم يستنشق.

ومنها: تخليل اللحية الكثة من الرجل، وهي التي ترى بشرتها في مجلس التخاطب، فيجب غسل ظاهرها وباطنها.

ومنها: استيعاب الرأس بالمسح خروجاً من خلاف من أوجه، فلو مسح بعض الرأس وكمل الباقي على العمامة، وحصل له سنة مسح جميع الرأس، أما لو اقتصر على مسح العمامة من غير أن يمسح على الرأس شيئاً، فلا يكفي.

ومنها: مسح الأذنين ظاهرها وباطنها بماء جديد، ويستحب أن يأخذ لصماخيه ماء جديد.

وأيضاً منها: تخليل أصابع اليدين بالتشبيك، وتخليل أصابع الرجلين، وتحصل سنة تخليلها بأي وجه كان، ولكن الأفضل أن يخللها بخنصر يده اليسرى.

فائدة: ينبغي أن يتوضأ المتوضئ للوسخ الذي بين أصابع رجليه، فإن كان حاصلاً من تراب ونحوه فلا بد من إزالته، لأنه يشترط لصحة الوضوء أن لا يقترن بمانع، والتراب ونحوه مانع، أما إذا كان الوسخ من عرق فليس بمانع.

ومنها: الموالاة وهي: التتابع بحيث لا يحصل بين العضوين تفرق، والضابط في ذلك: تطهير العضو بحيث لا يحصل قبله قبل شروعه فيه مع اعتدال الهواء، ومزاج الشخص.

وعند الإمام مالك: الموالاة واجبه، وعند الإمام أحمد في الروايتين.

ومنها: ترك النفض لأنه كالمتبرئ من العباءة.

ومنها: أن يقول بعد التسمية: الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً.

ومنها: أن يستصحب النية في جميع أفعال الوضوء، وأن يجمع فيها بين القلب واللسان.

ومنها: أن يتعهد الموقين بالسبابتين، وأن يحرك الخاتم، وأن يبدأ في الوجه بأعلاه، وفي الرأس بمقدمته، وفي الرجل بأطراف الأصابع إن صب على نفسه، وإن صب عليه أحد غيرة بدأ بالمرفق والكعب.

ومنها: أن لا ينقص ماء الوضوء عن مد، وأن لا يسرف ولا يتكلم في أثناءه لغير حاجة، أما الحاجة فقد يجب الكلام، وأن لا يلطم وجهه بالماء، ولا يتوضأ في موضع يرجع رشاش الماء.

ومنها: أن يمر يده على الأعضاء.

ومنها: أن يقول بعد الفراغ وهو مستقبل القبلة رافعا طرفه إلى السماء: أشهد أن لا إله إلا الله وحدة لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

فقد ورد أنه: «**من قال هذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها**

شاء» [١].

وأما الدعوات على الأعضاء:

كقوله عند السواك: اللهم بيض به أسناني وشد به لثاتي وبارك فيه يا أرحم الراحمين.

وعند المضمضة: اللهم اسقني من حوض نبيك كأساً لا أظمأ بعده.

وعند الاستنشاق: اللهم لا تحرمني رائحة نعيمك وجناتك.

وعند الوجه: اللهم بيض وجهي يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

وعند اليمنى: اللهم أعطني كتابي بيميني وحاسبني حساباً يسيراً.

وعند اليسرى: اللهم لا تعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري.

وعند الرأس: اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وعند الرجلين: اللهم ثبت قدمي على الصراط يوم تزل الأقدام.

فقد قال النووي: لا أصل لها يعني لم يرد فيها حديث صحيح فهو دعاء حسن، فلا ينبغي تركه لاشتماله على مهمات كتبييض الوجه، وتناول الكتاب باليمين، وتثبيت الأقدام على الصراط وغير ذلك.

قال: وإذا أتى به الإنسان فلا يعتقد أنه سنة، بل دعاء حسن يتبرك به.

وقال النووي: وإن لم يكن له أصل فلا بأس به، فإنه دعاء حسن.

وأما مسح الرقبة فقد قال الرافعي تبعاً للغزالي: إنه سنة.

واستدل الرافعي على ذلك في الشرح الكبير بقوله ﷺ: «**مسح الرقبة أمان من الغسل**» [٢].

لكن قال النووي: والصواب أنه ليس بسنة، لأنه لم يثبت فيه شيء.

قال: ولهذا لم يذكره الشافعي ومتقدموا الأصحاب.

قال: وأما الحديث فهو موضوع والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم (١/٢٠٩ ، رقم ٢٣٤) ، وأبو داود (١/٤٣ ، رقم ١٦٩) والنسائي (١/٩٢ ، رقم ١٤٨) ، وابن ماجه (١/١٤٥ ، رقم ٤١٩) ، وأحمد (٤/١٤٥ ، رقم ١٧٣٥٢) ، وابن خزيمة (١/١١٠ ، رقم ٢٢٢) ، وابن حبان (٣/٣٢٥ ، رقم ١٠٥٠) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٢٨٠ ، رقم ٣٣٣٤) ، وفي شعب الإيمان (٣/٢٠ ، رقم ٢٧٥٣) عن عمر .

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٧٢) : قال النووي : موضوع .

وأما تنشيف الوجه بمنديل ونحو فالسنة تركه، لأنه يزيل أثر العبادة، لأن هذا الماء الذي تطهر به نور يضيء يوم القيامة كما ورد، فلا ينبغي إزالته، لكن لا تكره إزالته، وإنما يستحب ترك التنشيف إذا لم يكن به غرض في إزالته، أما إذا كان لغرض وخشي من الهواء أن يلصق به النجاسة، أو كان يتيمم عقب الوضوء، فإنه يستحب التنشيف بل يتأكد استحبابه كما قال الأذرعي.

وإذا نشفها فالأولى أن لا يكون بذيله وطرف ثوبه، فقد ذكر الشيخ برهان الدين الناجي رحمه الله في كتابه عقائد العيان: إن مما يورث الفقر ويمنع الرزق تجفيف الوجه بالثوب.

ويدل على عدم كراهه التنشيف ما قيل: أنه كان للنبي ﷺ منديل يمسح به وجهه من الوضوء [(١)].

وقيل: كانت له خرقة يتنشف بها.

فائدة: قيل: كان عند أنس منديل إذا اتسخ ألقاه في النار فيتنظف، ويقول: إن النبي ﷺ كان يمسح به وجهه، والنار لا تأكل شيئاً مر على وجوه الأنبياء.

وأما قراءة سورة إنا أنزلناه عقب الوضوء فقد صرح علماء الحنفية في كتبهم أنها مستحبة، وقالوا: إن رسول الله ﷺ كان يقرؤها.

وأورد أبو الليث من الحنفية في فضل قراءتها حديثين:

أحدهما: روي عن رسول لله ﷺ أنه قال: «**من قرأ سورة إنا أنزلناه في ليلة القدر على أثر الوضوء مرة واحدة، أعطاه الله تعالى ثواب خمسين سنة صيام نهارها وقيام ليلها، ومن قرأها مرتين أعطاه الله تعالى ما أعطاه الخليل والكليم والحبيب والرفيع، ومن قرأها ثلاث مرات يفتح الله تعالى له ثمانية أبواب الجنة فيدخلها من أي باب شاء بلا حساب ولا عذاب**».

الحديث الثاني: روى أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قرأ إنا أنزلناه في ليله القدر على أثر الوضوء مرة واحدة كتب من الصديقين، ومن قرأها مرتين كتب من الشهداء والصالحين، ومن قرأها ثلاث مرات يحشره الله يوم القيامة في محشر الأنبياء**» [(٢)].

---

(١) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (١/١٤٤) : أخرجه النسائي في الكنى بسند صحيح .

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٥٥) : لا أصل له .

فائدة في آداب الوضوء الباطنة: في نزهه الناظرين: اعلم أنك إذا أردت أن تتوضأ فإنك تريد زيارة ربك ﷻ، فينبغي لك أن تتوب من ذنوبك، لأن الله تعالى جعل الغسل بالماء علامة للغسل من الذنوب، فأبدأ بتسمية الله تعالى.

فإذا تمضمضت وطهرت فمك بالماء فطهر لسانك من الكذب والغيبة والنميمة، فإن اللسان خلق لذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، ولترشيد خلق الله إلى طريقه، وتطهر به ما في ضميرك من حاجات دينك ودنياك، فإذا استعملته في غير ما خلق له فقد كفرت بنعمة الله فيه، فإن جوارحك نعمه من الله عليك، والاستعانة بنعم الله على معصيتة غاية الكفران.

وإذا استنشقت بالماء وأزلت ما في فتوحك من الأذى فطهرها من أن تشم محرماً كطيب مغصوب، وطبيب النساء الأجنبيات والحسان فإنه حرام كما قاله الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة**» [1].

وإذا طهرت وجهك بالماء فطهر نظرك من ثلاث: أن تنظر إلى محرم، وإلى معلم بعين الاحتقار، وإلى عيب مسلم، فإنما خلقت العينان لتهتدي بهما في الظلمات، وتستعين بهما في الحاجات، وتنظر بهما في عجائب ملكوت الأرض والسماوات، وتعتبر بما فيها من الآيات، ولم يخلق نظرك لتنظر به إلى محرم أو إلى مسلم بعين الاحتقار، ولا إلى عيب مسلم.

ولله در إمامنا الشافعي حيث يقول:

إذا شئت أن تحيى سليما من الأذى ... وعرضك محفوظ ودينك صين
لسانك لا تذكر به سوءة امرئ ... ففيك لسان وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معايباً ... فقل يا عيني للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... ولا تلق إلا بالتي هي أحسن

وقال رسول الله ﷺ: «**النظر سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره**

---

(١) أخرجه مسلم (١/٣٢٨ ، رقم ٤٤٤) ، وأبو داود (٤/٧٩ ، رقم ٤١٧٥) ، والنسائي (٨/ ١٩٠ ، رقم ٥٢٦٣) ، وأحمد (٢/٣٠٤ ، رقم ٨٠٢٢) ، وأبو عوانة (١/٣٦٠ ، رقم ١٣٠٠) ، والبيهقي (٣/١٣٣ ، رقم ٥١٥٧) عن أبي هريرة .

عن محاسن امرأة أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه» [(١)].

قال الإمام الغزالي: فعليك وفقك الله وإيانا بحفظ العين فإنها سبب كل فتنة وآفة، فقد ذكر عن عيسى صلوات الله عليه وسلم: «إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب الشهوة، وكفى لصاحبها فتنه»

ولقد أحسن من قال:

وأنـــت إذا أرسلت طرفك رائداً ... لقلـــبك يومـــاً أتعبـــتك النواظر
رأيـــت الذي لا كله أنت قادر ... عـــليه ولا عـــن بعضه أنت صابر

فإن لم تغمض عينيك وأرخيت عنانه بنظرك إلى ما لا يعنيك، فلا يخلو إما أن تقع عينك على حرام، فإن تعمدت فذنب فكبيرة، وربما تعلق قلبك بذلك فتهلك إن لم يرحم الله ﷻ، وإن كان مباحاً فربما يشتغل قلبك به، فجاءك الوسواس والخواطر بسببه، ولعلك لا تصل إليه فتبقى مشغول القلب، منقطعاً عن الخير، وقد كنت مستريحاً من ذلك كله.

وإذا طهرت يديك بالماء فطهرها من أن تضرب بهما مسلماً، وأن تتناول بهما مالاً حراماً، وتكتب بهما مما لا يجوز النطق به، فإن القلم أحد اللسانين كما قدمنا ذلك، فاحفظه عما يجب حفظ اللسان منه.

وإذا رفعت رأسك بالماء فاعلم أنك إنما تفعل ذلك امتثالاً لأوامر الله تعالى، فإن العبادات كلها لها معان، فإن الشرع لا يأمر بعبث وقد يفهمه المكلف وقد لا يفهمه المكلف.

وإذا مسحت أذنيك بالماء فطهرها من الإصغاء إلى بدعة أو غيبة أو خوض في باطل، فإنهما لم يخلقا إلا لتسمع بهما كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وحكمة أوليائه، فعليك بصيانة سمعك عن الخنا والفضول، فإن المستمع شريك المتكلم كما قال بعضهم:

تحـــرمن الطـــرق أواســـطها ... وعـــد عـــن الجـــانب المشـــتبه
وسمعـــك صن عن سماع القبيح ... كصـــون اللســـان عن اللفظ به

فإنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه.

---

(١) ذكره الحكيم (١٨١/٣) عن علي .

وإذا طهرت رجليك بالماء فطهرها عن المشي إلى حرام، والسعي بهما إلى أبواب الظلمة، وقال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يخطو خطوة إلا يسأل عنها، ماذا أراد بها**» [(١)].

وقال: «**العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا**»[(٢)].

***

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٧٦/١) عن ابن مسعود .

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٤٧/٤ ، رقم ٢٦٥٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٦٥/٤ ، رقم ٥٤٢٨) عن أبي هريرة .

فهرست المجلد الثاني

المجلس الرابع والعشرون: في الكلام على باب ﴿فإن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ ٥

المجلس الخامس العشرون في الكلام على باب: كفران العشير وكفر دون كفر وما في حديثه من الفوائد واللطائف ٢٩

المجلس السادس والعشرون: في الكلام على شيء من ترجمة أبي ذر وفي الكلام على قوله ﷺ له: «إنك امرؤ فيك جاهلية» ٤٢

المجلس السابع والعشرون: في الكلام على باب علامات المنافق وما في حديثه من الفوائد وفيه شيء من ترجمة سفيان الثوري ٥٣

المجلس الثامن والعشرون: في الكلام على قوله ﷺ من تبع جنازة مسلم وما فيه من الفوائد ٦٩

المجلس التاسع والعشرون: في بيان فضل العلم ٨٠

المجلس الثلاثون: في حديث «إن من الشجر شجراً لا يسقط ورقها» وما فيه من الفوائد واللطائف ٩٣

المجلس الحادي والثلاثون: في ذكر خواتم النبي ﷺ وذكر أحكام خاتم الذهب والفضة وغيرهما وذكر خاتم سليمان وقصته ١٠٦

المجلس الثاني والثلاثون: في ذكر اختلاف العلماء في حياة الخضر، وفي ذكر فضائله وفي ذكر سبب حياته، وفي ذكر حياة بعض الأنبياء غيره.....١٢٦

المجلس الثالث والثلاثون: في الكلام على باب فضل من علم وعلم، وبيان ما في حديثه من الفوائد، وفيه ذكر علماء السوء وغير ذلك ١٣٦

المجلس الرابع والثلاثون: في الكلام على حديث: «لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي» وفيه ذكر شيء من فضل سيدنا علي ﷺ.....١٦١

المجلس الخامس والثلاثون: في قصة موسى مع الخضر صلوات الله وسلامه عليهما.....١٩٢

المجلس السادس والثلاثون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ وفيه فوائد كثيرة متعلقة بالروح ٢١٣

المجلس السابع والثلاثون: في بيان فضائل الوضوء وأركانه وشرائطه وفي بيان فوائد كثيرة متعلقة بذلك.....٢٣٠

المجلس الثامن والثلاثون : في بيان أسباب الحدث ٢٥٣

المجلس التاسع والثلاثون: في ذكر شيء من فضائل أمة محمد ﷺ وشيء من خصائصها، وخصائص نبينا ﷺ وذكر اختلاف العلماء في الوضوء هل هو من خصائص هذه الأمة أم لا؟ ٢٦٦

المجلس الأربعون: في ذكر ما في حديث ابن عباس من الفوائد، وذكر بعض فضل قيام الليل، وذكر بعض فضل ميمونة أم المؤمنين....٢٨٣

المجلس الحادي والأربعون: في الكلام على باب التسمية على كل حال، وفي ذكر فوائد كثيرة متعلقة بالتسمية والجماع وغير ذلك ٢٩٤

المجلس الثاني الأربعون: في آداب داخل الخلاء ومستحباته.....٣٠٩

المجلس الثالث والأربعون: في بيان عنـــزة النبي ﷺ وحكم حملها

معه وبيان عصا موسى وبيان توبة سحرة فرعون وعددهم وفوائد كثيرة ٣٢٨

المجلس الرابع والأربعون: في بيان فوائد متعلق بالاستنجاء بالحجر وغيره ٣٤١

المجلس الخامس والأربعون: في بيان شيء من سنن الوضوء وذكر شيء من فضائل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ٣٥٥

المجلس السادس والأربعون: في ذكر بعض مسائل تتعلق بغسل الميت، وذكر سنن الوضوء، وذكر آدابه الباطنة ٣٧٧

الفهرس ٣٩٥

المجالس الوعظية

في

شرح أحاديث خير البرية صلى الله عليه وسلم

من صحيح الإمام البخاري

تأليف

الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد

السفيري الشافعي

المتوفى ٩٥٦ هـ

حققه وخرج أحاديثه

أحمد فتحي عبد الرحمن

الجزء الثالث

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4318-2
90000>
9 782745 143181

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

٢٣ ذو القعدة ١٤٣٨

المجالس الوعظية

في

شرح أحاديث خير البرية ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس السابع والأربعون

في فوائد متعلقة بنبع الماء
من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم
وفوائد في ذكر أحكام الطلب

قَالَ الْبُخَارِي:

باب الْتِمَاسِ الْوَضُوءِ إِذَا حَانَتِ الصَّلاَةُ(١)

وَقَالَتْ عَائِشَةَ:

حَضَرَتِ الصُّبْحُ فَالْتُمِسَ الْمَاءُ، فَلَمْ يُوجَدْ، فَنَزَلَ التَّيَمُّمُ(٢).

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَحَانَتْ صَلاَةُ الْعَصْرِ، فَالْتَمَسَ النَّاسُ الْوَضُوءَ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَضُوءٍ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ يَدَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّئُوا مِنْهُ . قَالَ: فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ حَتَّى تَوَضَّئُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ .

قَالَ العلماء: نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ معجزة من معجزاته الباهرة، التي رواها الثقات من العدد الكثير الجم من معجزاته الباهرة، عن الكافة عن الصحابة، أنهم شاهدوا ذلك في مواضع اجتماع المسلمين ومجمع العساكر(٣).

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/٢٧١): قوله «باب التماس الوضوء» بفتح الواو أي: طلب الماء للوضوء.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/٢٧١): قوله: «وقالت عائشة» هذا طرف من حديثها في قصة نزول آية التيمم.

وساقه هنا بلفظ عمرو بن الحارث عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عنها وهو موصول عنده في تفسير المائدة.

قال ابن المنير: أراد الاستدلال على أنه لا يجب طلب الماء للتطهير قبل دخول الوقت، لأن النبي ﷺ لم ينكر عليهم التأخير فدل على الجواز.

(٣) قال الحلبي في السيرة الحلبية (٣/٣٦٨): ومن معجزاته ﷺ نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ، حتى شرب القوم وتوضئوا وهم ألف وأربعمائة، وفي رواية: ألف وخمسمائة، وفي رواية: فشربوا وسقوا وملئوا قرابهم، وكان في المعكسر اثنا عشر ألف بعير، والخيل اثنا عشر ألف فرس=

فقوله: «وحانت صلاة العصر» أي: دخول وقتها.

والمعنى: أن أصحاب رسول الله ﷺ فقدوا الماء مرة، والتمسوه فلم يجدوه، وكان رسول الله ﷺ في ذلك الوقت «بالزوراء» وهو سوق بالمدينة، وقد دخل وقت صلاة العصر.

«فأتي رسول الله ﷺ بوضوء» أي: جاءه رجل من الصحابة بماء قليل للوضوء.

وفي رواية: «فانطلق رجل من القوم بقدح من ماء يسير فتوضأ ﷺ ثم مد أصابعه الشريفة على القدح فما وسع أصابعه فيه ﷺ فضم أصابعه».

وفي رواية: أن الماء الذي جاء به الرجل كان بمقدار وضوء رجل واحد، فوضع ﷺ يده المباركة فيه، وأمر الناس أن يتوضئوا منه.

قال أنس راوي الحديث: «فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، حتى توضئوا من عند آخرهم».

فقوله: «حتى توضئوا من عند آخرهم».

قال البرماوي: «**حتى**» فيه للتدريج، و«**من**» للبيان فيما أفادته من التدريج، **والمعنى:** حتى توضأ الذين هم عند آخرهم.

وهو كناية عن الجميع، والسياق يقتضي أن الآخر أيضاً توضأ، لأن المراد العموم والمبالغة بجعل «**عند**» لمطلق الظرفية، بمعنى «**في**» لا لظرفية خاصة، فكأنه قال:الذين هم في آخرهم.

وقال النووي: «**من**» في: «**من عند آخرهم**» بمعنى «**إلى**»، قال: وهي لغة، أي: والمعنى على قوله: حتى توضئوا إلى عند آخرهم.

واعترضه الكَرماني من وجوه:

الأول: أن ورود «**من**» بمعنى «**إلى**» شاذ قلما وقع في فصيح الكلام.

الثاني: أن «**إلى**» لا يجوز أن تدخل على «**عند**».

الثالث: أن ما بعد «**إلى**» مخالف لما قبلها فيلزم خروج: «من عند آخرهم» عنه.

ورد البرماوي اعتراضاته:

أما اعتراضه الأول وهو: أن ورود «**من**» بمعنى «**إلى**» شاذ قلما وقع في فصيح الكلام فرده بقوله: أن الشذوذ لا ينافي فصاحته استعمالاً.

=أي: وهذه في غزوة تبوك، وقد تكرر ذلك منه ﷺ في عدة مواطن عظيمة تقدمت وتكررت الروايات بحسب تكرار الوقائع، وهو أشرف المياه كما قاله السراج البلقيني، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة التي هي خروج الماء من بين الأصابع عن غير نبينا ﷺ وهي أبلغ من نبع الماء من الحجر الذي ضربه موسى عليه الصلاة والسلام، لأن خروج الماء من الحجر معهود بخلاف خروجه من بين اللحم والدم والعظم والعصب.

وأما اعتراضه الثاني وهو: أن «**إلى**» لا يجوز أن تدخل على «**عند**»، فرده بقوله: و«**إلى**» نفسها لم تدخل على «**عند**» بل «**من**» والتضمين لا يضر.

وأما اعتراضه الثالث وهو: أن ما بعد «**إلى**» مخالف لما قبلها فيلزم خروج: «من عند آخرهم» عنه، فرده بقوله: وقرينة إرادة العموم لا ينافي دخول ما بعد الغاية.

وقوله: «فرأيت الماء ينبع»، قال العلماء في «**ينبع**» ثلاث لغات: فتح الباء الموحدة، وضمها، وكسرها، ومعناه يخرج.

وجاء في رواية: «**يفور من بين أصابعه**»[(١)].

وفي رواية أخرى: «**يتنبع**»[(٢)].

وفي رواية أخرى: «**ينفجر من أصابعه كأمثال العيون**»[(٣)].

والأصابع: جمع أصبع، وفيها عشر لغات: كسر الهمزة، وضمها، وفتحها مع فتح الباء، وضمها وكسرها، فهذه تسعة، والعاشرة: أصبوع.

وقد نظم هذه اللغات ابن مالك:

تثليث بأصبع مع شكل همزته ... من غير قيد مع الأصبوع قد كملا

وأفصح لغاتها: «إِصبَع» بكسر الهمزة وفتح الباء، قاله ابن سيده.

فائدة: هل كان الماء ينبع من نفس أصابعه أم لا؟

قال النووي رحمه الله: كان يكثر الماء في ذاته، فصار يفور من بين أصابعه، لا من نفسها، وكلاهما معجزة ظاهرة، وآية باهرة.

وأكثر العلماء على القول الأول: أن الماء كان يخرج من نفس أصابعه.

---

(١) وقع ذلك في رواية النسائي في سننه (١/٨١، رقم ٩٢)، وابن خزيمة (١/٦٥، رقم ١٢٤)، وأحمد في مسنده (٣/١٦٥، رقم ١٢٧١٧)، وأبو يعلى (٥ /٣٧٩، رقم ٣٠٣٦)، الدارقطني في سننه (١/٧١) من حديث أنس أيضاً.

ووقع هذا اللفظ عند مسلم في الصحيح (٤/٢٣٠١) في: باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (برقم ٣٠٠٦)، والحديث رواه أيضاً مختصراً: ابن حبان في صحيحه (١٤/٤٨٠، رقم ٦٥٤٢)، والدارمي في سننه (١/٢٧، رقم ٢٦)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣/١٤١، رقم ٢٧٣٢).

(٢) لم نقف على هذا اللفظ.

(٣) هذا اللفظ ليس من رواية أنس فتنبه لذلك، وإنما من رواية جابر والحديث الذي فيه عند البخاري في الصحيح (٤/١٥٢٦، رقم ٣٩٢١) عن سالم عن جابر، وكذا عند أحمد في مسنده (٣ /٣٢٩، رقم ١٤٥٦٢) ووقع فيهما: «يفور» ولم نقف على رواية فيها: «ينفجر».

فائدة أخرى: قال ابن حبان: إن الماء نبع من أصابع النبي ﷺ خمس مرات:

الأولى: في الحديبية، وكان الصحابة ألفاً وخمسمائة، روى جابر عن النبي ﷺ قال: «عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ معه ركوة يتوضأ منها وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك، فوضع رسول الله ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون.

وفيه: فقلت: وكم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

المرة الثانية: كانوا ثمانمائة.

الثالثة: كانوا ثلاثمائة أو زهاء الثلاثمائة.

الرابعة: كانوا سبعين.

الخامسة: كانوا ثمانين.

فائدة أخرى: نبع الماء من بين الأصابع من خصائص نبينا ﷺ و لم يثبت لغيره من الأنبياء، قاله ابن عبد السلام، قال: وكذا انشقاق القمر، وتسليم الحجر، وحنين الجذع لم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك.

فائدة أخرى: الماء الذي نبع بين أصابعه الشريفة أفضل المياه كلها حتى أنه أفضل من ماء زمزم، وماء الكوثر، وبه يلغز فيقال لنا: ماء ما نزل من السماء ولا نبع من الأرض هو أفضل من ماء زمزم وماء الكوثر[1].

فائدة أخرى: هذه المعجزة أعظم من معجزة موسى بن عمران حيث كان يضرب بعصاه الحجر فينفجر منه الماء كما قال تعالى: ﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً**﴾[البقرة: ٦٠].

وأصل هذه القصة: أن قوم موسى لما عطشوا في التيه سألوا موسى أن يطلب لهم من الله الماء، فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر، وهى العصا التي قدمنا ذكرها، وذكرنا أن آدم حملها من الجنة، وتوارثها الأنبياء إلى أن وصلت إلى موسى، وقدمنا أن طولها كان عشرة أذرع كطول موسى، وأنها كانت من آس الجنة.

وأما الحجر التي أمر الله موسى أن يضربه لأجل الماء فقيل كان حجراً خفيفاً مربعا كرأس الرجل له أربعة أوجه في كل وجه ثلاث أعين يسيل كل عين من الأعين الاثنى

---

(١) قلت: وحل اللغز هذا ميسور لكل من تدبر الأمر، فالماء الذي نبع من بين أصابع النبي ﷺ أفضل باعتبار أن النبي ﷺ أفضل المخلوقات التي منها بئر زمزم، ونهر الكوثر بلا ريب، فما نبع منه وخرج عنه يكون أفضل أفراد جنسه فتأمل هداك الله (محقق).

عشر في جدول أي: نهر إلى سبط من أسباط بني إسرائيل.

والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب، وكانوا اثنتي عشرة أسباطاً أي: قبيلة، وكان عددهم وهم مع موسى ستمائة ألف، وسعة العسكر اثنا عشر ميلاً، فكان يضرب بعصاه على ذلك الحجر فينبع الماء من كل عين منه ويسيل في نهر إلى سبط من من هؤلاء الأسباط، عدد كل سبط خمسون ألفاً، فيشربون منه ويسقون دوابهم، وينتفعون به كما قال تعالى: ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾[البقرة: ٦٠].

وقيل: هذا الحجر نزل بها آدم من الجنة، وانتقل من نبي إلى نبي حتى وصل إلى شعيب فدفعه إلى موسى مع العصا.

وقيل: هو الحجر الذي فر بثوب موسى لما وضعه عليه ليغتسل، كما سنذكر قصته في كتاب الغسل فقال له جبريل: احمله معك فإن لله فيه قدرة، ولك فيه معجزة.

وقيل: لم يكن حجراً معيناً بل أمره الله أن يضرب على أي حجر رآه، فقال له بنو إسرائيل: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة فيها، فحمل حجراً في مخلاته فكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر، ويضربه به إذا ارتحل فييبس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً، فأوحى الله إليه: لا تضرب الحجارة لأجل الماء، وكلمها فإنها تعطيك ما تطلب لهم لعلهم يعتبرون.

وقيل: كان الحجر من رخام وكان ذراعاً في ذراع.

وإنما كانت معجزة نبينا ﷺ هي نبع الماء من أصابعه أعظم من معجزة موسى صلوات الله وسلامه عليه لأن نبع الماء من الحجر معتاد قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ**﴾[البقرة: ٧٤]، وأما نبعه من لحم ودم فليس بمعتاد ولم يقع لأحد قط كما قدمناه إلا له ﷺ، ولله در القائل:

إن كان موسى سقى الأسباط من حجر ... فإن في الكف معنى ليس في الحجر
أو كان أبرأ العُميَّ عيسى بدعوته ... فكم بتفلته قد رد من بصر

مع أن نبينا ﷺ قد نبع له الماء من الحجر ومن الأرض مراراً فقد ورد عن عمرو بن شعيب أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ قال له: وهو رديفه ببني المجاز عطشت وليس عندي ماء، فنزل عليه الصلاة وسلم فضرب بقدمه الأرض فخرج الماء، فقال:

اشرب.

لطيفة قال الجنيد رحمة الله عليه: حججت سنة من السنين وجاورت مكة شرفها الله تعالى، فجئت يوماً إلى بئر زمزم لأرتوي منها، فلم أجد بها حبلاً، ولا ركوة، ولا سقاءً، فبينما أنا كذلك إذ دخل عبد أسود ومعه ركوة، وحبل فدلاهما إلى البئر فلم يصل فرفعهما وقال: وعزتك لئن لم تسقني لأغضبن، فإذا الماء قد نبع وطفح على جانب البئر فتوضأ وشرب وملأ ركوته ثم عاد الماء إلى البئر، قال الجنيد: فلما رجع تبعته وقلت له: حبيبي على من كنت تغضب، فقال: ياجنيد ما هو كما خطر لك ! كنت أغضب عن نفسي فلا أسقيها الماء إلى يوم القيامة، فلما علم سيدي صدق الدعوة أنبع لي الماء، ثم غاب فلم أره.

لطيفة أخرى: قد يخرج الله الماء من الحجر لبعض الأولياء كرامة له كما في الروض الفائق عن مالك بن دينار رحمه الله أنه قال: أصابني في بعض أسفاري عطش شديد فملت إلى بعض الأودية طمعاً في الماء، فسمعت صوتاً يهدر، فقلت: هذه سباع مقبلة فوليت هارباً فناد بي هاتف من بين الأودية فارتفع صوته، وعلا نحيبه فعدت إلى طريقي، فإذا أنا بشاب قد أذابته العبادة حتى عاد كالخلال، فسلمت عليه وأخبرته بعطشي، فقال: يا مالك ما وجدت في المملكة نقطة ماء، ثم قام إلى صخرة فضربها برجله وقال: اسقنا ماء بقدرة من يحيي العظام وهى رميم فإذا الماء يخرج من الصخرة كما يخرج من العين فشربت حتى رويت، ثم قلت: أوصني بشيء ينفعني الله به، فقال لي: يا مالك كن لمولاك طائعاً في الخلوات يسقيك الماء في الفلوات ولله در القائل:

دمع أضر بمهجة المشتاق ... وجرت سوابق دمعه المهراق
صب إذا ما الليل أسبل ستره ... نادى بصوت في الدجى مشتاق
يا عالماً لما بسريرتي وبليتي ... وبما أحس من الأسى وألاقي
لو صرت رضوي في المحبة مغرماً ... ما حلت عن عهدي، ولا ميثاقي
فامنن بعفوك لي، فإني مذنب ... مالي سواك لزلتي من راق

فائدة: أفاد بعض العلماء أنه كان ﷺ إذا نبع الماء من أصابعه يستره بخرقة، ويسأل حينئذ ويقال: هل لهذا الستر من حكمة.

وفي الحديث من الفوائد: أن من فضل عن وضوئه شيء من الماء لزمه دفعه لمحتاجه عند الضرورة.

وفيه أيضاً: لا تجب الصلاة إلا بدخول الوقت وهو حسن، بل هو أفضل من الوضوء بعد دخوله.

وهذه سنة أفضل من فرض كما قدمنا ذلك، وأما التيمم فإنه لا يصح إلا بعد دخول الوقت[1].

***

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/٢٧١): وفي الحديث دليل على أن المواساة مشروعة ثم الضرورة لمن كان في مائة فضل عن وضوئه، وفيه أن اغتراف المتوضئ من الماء القليل لا يصير الماء مستعملا، واستدل به الشافعي على أن الأمر بغسل اليد قبل إدخالها الإناء أمر ندب لا حتم.

تنبيه: قال ابن بطال هذا الحديث يعني حديث نبع الماء شهده جمع من الصحابة إلا أنه لم يرو إلا من طريق أنس، وذلك لطول عمره ولطلب الناس علو السند كذا قال، وقد قال للقاضي عياض: هذه القصة رواها العدد الكثير من الثقات عن الجم الغفير عن الكافة متصلاً عن جملة من الصحابة بل لم يؤثر عن أحد منهم إنكار ذلك فهو ملتحق بالقطعي من معجزاته (انتهى) فانظر كم بين الكلامين من التفاوت.

قَالَ البُخَارِي:

باب إِذَا شَرِبَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعاً

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا شَرِبَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعاً**»(١).

---

(١) للحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢٧٤/١) فوائد في اختلاف ألفاظ هذا الحديث، ومناقشة للمالكية والحنفية لمخالفتهم ظاهر هذا الحديث وفوائد أخرى نذكرها إتماماً للفائدة.

يقول الحافظ: قوله: «إذا شرب» كذا هو في الموطأ، والمشهور عن أبي هريرة من رواية جمهور أصحابه عنه: «إذا ولغ» وهو المعروف في اللغه يقال: ولغ يلغ بالفتح فيهما إذا شرب بطرف لسانه أو أدخل لسانه فيه فحركه، وقال ثعلب: هو أن يدخل لسانه في الماء وغيره من كل مائع فيحركه، زاد بن درستويه: «شرب أو لم يشرب»، وقال ابن مكي: فإن مائع يقال لعقه، وقال المطرزي: فإن كان فارغاً يقال: لحسه.

وادعى ابن عبد البر أن لفظ شرب لم يروه إلا مالك وأن غيره رواه بلفظ: «ولغ» وليس كما ادعى فقد رواه ابن خزيمة وابن المنذر من طريقين عن هشام بن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة بلفظ: «إذا شرب» لكن المشهور عن هشام بن حسان بلفظ: «إذا ولغ» كذا أخرجه مسلم وغيره من طرق عنه.

وفي الحديث دليل على أن حكم النجاسة يتعدى عن محلها إلى ما يجاورها بشرط كونه مائعاً.

وعلى تنجيس المائعات إذا وقع في جزء منها نجاسة.

وعلى تنجيس الإناء الذي يتصل بالمائع.

وعلى أن الماء القليل ينجس بوقوع النجاسة فيه وإن لم يتغير لأن ولوغ الكلب لا يغير الماء الذي في الإناء غالباً.

وعلى أن ورود الماء على النجاسة يخالف ورودها عليه، لأنه أمر بإراقة الماء لما وردت عليه النجاسة، وهو حقيقة في إراقة جميعه وأمر بغسله وحقيقته تتأدى بما يسمى غسلاً، ولو كان ما يغسل به أقل مما أريق.

فائدة: خالف ظاهر هذا الحديث المالكية والحنفيه، فأما المالكية فلم يقوموا بالتتريب أصلاً مع إيجابهم التسبيع على المشهور عندهم، لأن التتريب لم يقع في رواية مالك.

قال القرافي: منهم لقد صحت فيه الأحاديث فالعجب منهم كيف لم يقوموا بها، وعن مالك رواية أن الأمر بالتسبيع للندب، والمعروف عند أصحابه أنه للوجوب لكنه للتعبد لكون الكلب طاهراً عندهم.

وأبدى بعض متأخريهم له التنجيس، وعن مالك رواية بأنه نجس لكن قاعدته أن الماء لا ينجس إلا بالتغير فلا يجب التسبيع للنجاسه بل للتعبد، لكن يرد عليه قوله ﷺ في أول هذا الحديث =

= فيما رواه مسلم وغيره من طريق محمد بن سيرين وهمام بن منبه عن أبي هريرة: «طهور إناء أحدكم» لأن الطهارة تستعمل إما عن حدث أو خبث فتعين الخبث، وأجيب بمنع الحصر لأن التيمم لا يرفع الحدث وقد قيل له طهور المسلم، ولأن الطهاره تطلق على ذلك كقوله ﷺ: «السواك مطهرة للفم».

والجواب على الأول بأن التيمم ناشيء عن حدث فلما قام ما يطهر الحدث سمي طهوراً، ومن يقول بأنه يرفع الحدث يمنع هذا الإيراد من أصله.

والجواب على الثاني أن ألفاظ الشرع إذا أرادت بين الحقيقه اللغويه والشرعيه حملت على الشرعيه إلا إذا قام دليل.

ودعوى بعض المالكية أن المأمور كمال من ولوغه الكلب المنهي عن اتخاذه دون المأذون فيه، يحتاج إلى ثبوت تقدم النهي عن الاتخاذ على الأمر كمال، وإلى قرينة تدل على أن المراد ما لم يؤذن في اتخاذه، لأن الظاهر من اللام في قوله: «الكلب» أنها للجنس أو لتعريف الماهيه فيحتاج المدعي أنها للعهد إلى دليل.

ومثله تفرقة بعضهم بين البدوي والحضري ودعوى بعضهم أن ذلك مخصوص بالكلب الكلب، وأن الحكمة في الأمر بغسله من جهة من رآه لأن الشارع اعتبر السبع في مواضع منه كقوله: «صبوا عليه من سبع قرب» وقوله: «من تصبح بسبع تمرات عجوة».

وتعقب بأن الكلب لا يقرب الماء فكيف يؤمر من ولوغه؟

وأجاب حفيد بن رشيد بأنه لا يقرب الماء بعد استحكام الكلب منه إما في ابتدائه فلا يمتنع، وهذا التعليل وإن كان فيه مناسبة لكنه يستلزم التخصيص بلا دليل، والتعليل بالتنجيس أقوى لأنه في معنى المنصوص.

وقد ثبت عن ابن عباس التصريح بأن الغسل من ولوغ الكلب بأنه رجس. رواه محمد بن نصر المروزي بإسناد صحيح، و لم يصح عن أحد من الصحابة خلافه.

والمشهور عن المالكية أيضاً التفرقه بين إناء الماء فيراق ويغسل وبين إناء الطعام فيؤكل ثم يغسل الإناء تعبداً، لأن الأمر بالإراقة عام فيخص الطعام منه بالنهي عن إضاعة المال، وعورض بأن النهي عن الإضاعة مخصوص بالأمر بالاراقة، ويترجح هذا الثاني بالإجماع على إراقة ما تقع فيه النجاسة من قليل المائعات ولو عظم ثمنه، فثبت أن عموم النهي عن الإضاعه بخلاف الأمر بالإراقه، وإذا ثبتت نجاسة سؤره كأن أعم من أن يكون لنجاسة عينه أو النجاسة طارئة كأكل الميتة مثلاً، لكن الأول أرجح إذ هو الأصل، ولأنه يلزم على الثاني مشاركة غيره له في الحكم كالهرة مثلاً وإذا ثبت نجاسة سؤره لعينه لم يدل على نجاسة باقيه إلا بطريق القياس كأن يقال لعابه نجس فمه نجس لأنه متحلب منه، واللعاب عرق فمه وفمه أطيب بدنه فيكون عرقه نجساً، وإذا كان عرقه نجساً كان بدنه نجساً لأن العرق متحلب من البدن ولكن هل يلتحق باقي أعضائه بلسانه في وجوب السبع والتتريب أم لا.

وأما الحنفية فلم يقوموا بوجوب السبع ولا التتريب واعتذر الطحاوي وغيره عنهم بأمور منها: =

قوله: «شرب الكلب في إناء أحدكم»، «شرب» هنا متضمن بمعنى ولغ، فلهذا عدى بفي، ومعناه: «ولغ الكلب شرابنا، أو في شرابنا أو من شرابنا».

قال العلماء في هذا الحديث فوائد:

= كون أبي هريرة راوي الحديث أفتى بثلاث غسلات فثبت بذلك نسخ السبع، وتعقب بأنه يحتمل أن يكون أفتى بذلك لاعتقاده ندبية السبع لا وجوبها أو كان نسي ما رواه، ومع الاحتمال لا يثبت النسخ.

وأيضاً فقد ثبت أنه أفتى كمال سبعاً، ورواية من روى عنه موافقة فتياه لروايته أرجح من رواية من روى عنه مخالفتها من حيث الإسناد، ومن حيث النظر، وأما النظر فظاهر، وأما الإسناد فالموافقه وردت من رواية حماد بن زيد عن أيوب عن ابن سيرين عنه وهذا من أصح الأسانيد، وأما المخالفه فمن رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء عنه وهو دون الأول في القوة بكثير.

ومنها: أن العذرة أشد في النجاسة من سؤر الكلب و لم يقيد بالسبع فيكون الولوغ كذلك من باب الأولى، وأجيب بأنه لا يلزم من كونها أشد منه في الاستقذار أن لا يكون أشد منها في تغليظ الحكم وبأنه قياس في مقابلة النص وهو فاسد الاعتبار.

ومنها: دعوى أن الأمر بذلك كان ثم الأمر بقتل الكلاب فلما نهى عن قتلها نسخ الأمر كمال وتعقب بأن الأمر بقتلها كان في أوائل الهجرة والأمر كمال متأخر جداً لأنه من رواية أبي هريرة وعبد الله بن مغفل وقد ذكر بن مغفل أنه سمع النبي ﷺ يأمر بكمال السبع، وكان إسلامه سنة سبع كأبي هريرة، بل سياق مسلم ظاهر في أن الأمر كمال كان بعد الأمر بقتل الكلاب.

ومنها: إلزام الشافعية بايجاب ثمان غسلات عملاً بظاهر حديث عبد الله بن مغفل الذي أخرجه مسلم ولفظه: «فاغسلوه سبع مرات وعفروه الثامنة في التراب»، وفي رواية أحمد: «بالتراب»، وأجيب: بأنه لا يلزم من كون الشافعية لا يقولون بظاهر حديث عبد الله بن مغفل أن يتركوا هم العمل بالحديث أصلاً ورأسا، لأن اعتذار الشافعية عن ذلك إن كان متجهاً فذاك، وإلا فكل من صليت ملوم في ترك العمل به قاله ابن دقيق الله البصري، وبه قال أحمد بن حنبل في رواية حرب الكرماني عنه، ونقل عن الشافعي أنه قال هو حديث لم أقف على صحته ولكن هذا لا يثبت العذر لمن وقف على صحته.

وجنح بعضهم إلى الترجيح لحديث أبي هريرة على حديث بن مغفل، والترجيح لا يصار إليه مع إمكان الجمع، والأخذ بحديث بن مغفل يستلزم الأخذ بحديث أبي هريرة دون العكس، والزياده من الثقة مقبوله، ولو سلكنا الترجيح في هذا الباب لم نقل بالتتريب أصلاً، لأن رواية مالك بدونه أرجح من رواية من أثبته، ومع ذلك فقلنا به أخذاً بزيادة الثقة.

وجمع بعضهم بين الحديثين بضرب من المجاز فقال: لما كان التراب الماء جعل اجتماعهما في المرة الواحده معدوداً باثنتين، وتعقبه ابن دقيق العيد بأن قوله: «وعفروه الثامنة بالتراب» ظاهر في كونها غسلة مستقلة، لكن لو وقع التعفير في أوله قبل ورود الغسلات السبع كانت الغسلات ثمانية، ويكون إطلاق الغسلة على التتريب مجازاً، وهذا الجمع من مرجحات تعين التراب في الأولى.

الأولى: فيه دلالة ظاهرة لمذهب الشافعي على نجاسة الكلب، وعلى نجاسة الإناء الذي ولغ فيه الكلب سواء أكان ذلك الكلب معلماً، أو غير معلم صغيراً أكان، أو كبيراً مأذوناً في اقتنائه، أو غير مأذون بدواً أكان أو حضراً، لعموم الأدلة، وفي مذهب مالك في الكلب أربعة أقوال:

الأول: طهارته، الثاني: نجاسته، الثالث: طهارة سؤر المأذون في اتخاذه دون غيره، الرابع: الفرق بين الحضري والبدوي.

الثانية: فيه دلالة على وجوب غسل المحل الذي أصابه الكلب بولوغه فيه سبع مرات، وهذا مذهب أمامنا الشافعي، ولا فرق عند علمائنا الشافعية بين ولوغه وغيره فيجب غسل ما أصابه الكلب سبع مرات سواء أصابه بريقه أو بوله، أو روثه، أو دمه، أو عرق، أو نحو ذلك.

وقال أبو حنيفة: يكفى غسله ثلاث مرات، وقال أصحابه: لا عدد في غسله فقالوا: لا يعفر بل هو كسائر النجاسات.

وقال الرافعي: وعند مالك لا يغسل من غير الولوغ، لأن الكلب طاهر عنده، والغسل من الولوغ لأنه في محل أكل النجاسات أما في غيره فلا.

الثالثة: فيه دلالة على أن الماء الذي ولغ فيه الكلب نجس، وأنه يجب تطهيره إذا كان الماء دون القلتين، أما إذا كان أكثر من القلتين وولغ فيه الكلب فإنه لا ينجسه، ولا ينجس إناءه.

الرابعة: فيه دلالة على عدم جواز بيع الكلب، وقد نص علماؤنا الشافعية على أنه لا يصح، وعند الإمام مالك يجوز بيعها.

وقال سحنون من المالكية وأبو حنيفة: يجوز بيع غير العقور.

وأما إجارة الكلب المعلم فالراجح صحتها عند الشافعية، لأن اقتناءه لمثل هذه المنافع إنما جوِّز للحاجة والمنفعة منه، أما غيره فلا يجوز أخذ العوض عليه ولأنه لا قيمة له ولا منفعة له.

الخامسة: إذا ولغ كلاب، أو كلب واحد مرات إناء واحد فما الحكم؟

فيه ثلاثة أوجه، أصحها: يكفى الجميع سبع مرات، وقيل: يجب لكل واحد سبع مرات.

السادسة: لا بد من استعمال التراب في إحدى الغسلات السبعة، إما في الأولى

وإما في غيرها[1]، وينبغي أن يكون التراب طاهراً غير مستعمل يعم جميع النجاسة ويصل بواسطته إلى جميع أجزاء المحل.

وكيفية تعفير محل النجاسة بأن يمزج الماء بالتراب في إناء أخر قبل وضعهما على المحل، وإما بأن يمزجا بعده بأن يوضعا على المحل معاً، أو يوضع التراب على المحل قبل الغسل، وإن كان المحل رطباً، لأن الطهور وارد على أصل طهوريته.

قال العلامة شيخنا شيخ الإسلام البلقيني رحمه الله ونفعنا به وبعلمه وعمله: هذا هو المعتمد من مذهبنا، قاله البلقيني.

ولا يصح مزج التراب بغير الماء كالخل ونحوه، وإذا غمس المتنجس في ماء كثير راكد، وحركه فيه سبع مرات، وكان الماء متكدراً بالتراب أو غيره، أو كدره فإنه يحسب سبعاً،، وإن لم يحركه لا يحسب إلا مرة واحدة، وإن مكث في المحل، وإن كان الماء جارياً وجرى على المحل سبع جريات حسبت.

نعم لنا محل أصابه الكلب، ولا يحتاج إلى تعفير التراب، بل يكفي غسله سبع مرات بالماء ولنا محل أخر أصابه الكلب حقيقة، ولا يحتاج إلى الماء، ولا إلى التراب، بل هو طاهر.

---

(١) اختلف أهل العلم في محل غسلة التتريب فقد قال ابن حجر في الفتح (١/٢٧٥): واختلف الرواة عن بن سيرين في محل غسلة التتريب، فلمسلم وغيره من طريق هشام بن حسان عنه: «أولاهن» وهي رواية الأكثر عن ابن، سيرين وكذا في رواية أبي رافع المذكورة.

واختلف عن قتادة عن ابن سيرين فقال سعيد بن بشير عنه: «أولاهن» أيضا أخرجه الدارقطني.

وقال أبان عن قتادة: «السابعه» أخرجه أبو داود.

وللشافعي عن سفيان عن أيوب عن ابن سيرين: «أولاهن أو إحداهن»، وفي رواية السدي عن البزار «إحداهن»، وكذا في رواية هشام بن عروة عن أبي الزناد عنه.

فطريق الجمع بين هذه الروايات أن يقال: إحداهن مبهمة وأولاهن والسابعة معينة، و«أو» أن كانت في نفس الخبر فهي للتخيير، فمقتضى حمل المطلق على المقيد أن يحمل على أحدهما لأن فيه زيادة على الرواية المعينه، وهو الذي نص عليه الشافعي في الأم والبويطي، وصرح به المرعشي وغيره من الأصحاب، وذكره بن دقيق العيد والسبكي بحثا وهو منصوص كما ذكرنا، وأن كانت «أو» شكاً من الراوي فرواية من عين و لم يشك أولى من رواية من أبهم أو شك، فيبقى النظر في الترجيح بين رواية: «أولاهن» ورواية السابعه ورواية: «أولاهن» أرجح من حيث الأكثريه والأحفظيه ومن حيث المعنى أيضاً لأن تتريب الأخيره يقتضي الاحتياج إلى غسله أخرى لتنظيفه، وقد نص الشافعي على أن الأولى أولى والله أعلم.

وصورة الأول: إذا تنجست الأرض الترابية بالكلب مثلاً فأنها لا تحتاج إلى التراب، بل يكفي غسلها بالماء سبع مرات إذ لا معنى لتتريب التراب.

وصورة الثاني: ما إذا أصاب الكلب الإناء الذي فيه قلتين فأكثر من داخل الماء فإنه لا ينجس ويكون كثرة الماء مانعة من تنجسه، وإذا تنجس الإناء بالولوغ في ماء قليل فيه، ثم زاده حتى بلغ قلتين طهر الماء والإناء باق على نجاسته، خلافاً للإمام.

السابعة: اختلف العلماء في موضع عضة الكلب من الصيد هل يحتاج إلى التعفير، أو يعفى عنه؟

الأصح: أنه لا يعفى عنه، بل لابد من غسله، وتعفيره كما لو أصاب ثوباً أو إناء.

الثامنة: إذا مر الكلب بين يدي المصلي لا يقطع صلاته، هذا هو مذهب إمامنا الشافعي وجمهور العلماء، وما في صحيح مسلم من أنه: «**يقطع الصلاة الحمار، والمرأة، والكلب الأسود، وإن الكلب إلا شيطان**»[1] فقد حمله الجمهور على الخوف من القطع، والإفساد فإن هذه المذكورات إذا مرت بين يدي المصلى فقد يشتغل قلبه بها، من جهة أن المرأة تفتن، والحمار ينهق، والكلب ينبح، فيشوش الفكر فلما كانت هذه المذكورات آيلة إلى القطع جعلها قاطعة.

وذهب ابن عباس إلى أن المرأة التي تقطع الصلاة إنما هي الحائض بما تستصحبه من النجاسة.

التاسعة: اختلفت العلماء في جواز قتل الكلب الذي لا ضرر فيه، فقال النووي: في شرح المهذب ومسلم تبعاً للقاضي حسين، وإمام الحرمين، والماوردي: لا يجوز قتله، وإن الأمر بقتله في صحيح مسلم منسوخ، أو محمول على الكلب العقور.

وقال في الروضة تبعاً للرافعي: أنه مكروه أي: كراهة تنـــزيه، فاقتضى جواز قتله مع الكراهة، ونص الشافعي في الأم على جواز قتل الكلاب التي لا نفع فيها حيث

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٣٦٥، رقم ٥١٠) عن عبادة بن الصامت عن أبي ذر بلفظ: وقال رسول الله ﷺ: « ثم إذا قام أحدكم يصلي فإنه يستره إذا كان بين يديه مثل آخرة الرحل، فإذا لم يكن بين يديه مثل آخرة الرحل فإنه يقطع صلاته الحمار والمرأة والكلب الأسود» قلت: يا أبا ذر ما بال الكلب الأسود من الكلب الأحمر من الكلب الأصفر؟ قال: يا ابن أخي سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال: «الكلب الأسود شيطان».

والحديث أخرجه أيضاً: أبو داود في سننه (١/١٨٧، رقم ٧٠٢)، والترمذي في سننه (٢/١٦١، رقم ٣٣٨)، وأحمد في مسنده (٥/١٦٠، رقم ٢١٤٦١)، وابن حبان في صحيحه (٦/١٥٠، رقم ٢٣٨٩)، وأبو عوانة في مسنده (١/٣٨٦، رقم ١٤٠١).

وجدت، ورجحه في المهمات.

العاشرة: اتفق العلماء على جواز اتخاذ الكلب للمزراعة، والماشية والصيد،، نعم يجوز اقتناء كلب الماشية قبل شراء الماشية، وكذا يحرم اقتناء كلب الزرع والصيد لمن لا يزرع ولا يصيد.

واختلفوا في جواز اتخاذه لحفظ الدوآب والدور والأصح جوازه، وفي غير هذه الصورة لا يصح اتخاذه.

وأول من اتخذ الكلب للحراسة نوح صلوات الله وسلامه عليه.

الحادية عشر: فإن قيل: ما الحكمة في أن الكلب إذا جامع يعلق مع صاحبته دون غيره من الحيوانات؟

فالجواب: أن نوحاً عليه السلام قال للسباع: لا يجامع أحدكم صاحبته حتى يخرج من السفينة لئلا تتوالد فيضيق عليكم السفينة، فامتنعت إلا الكلاب، فجاءت الهرة فأخبرت نوحاً بذلك فأنكر الكلب فقالت الهرة لنوح: ادع الله أن يظهر حالهما فدعا نوح ربه بذلك، ثم أن الكلب جامع مرة أخرى فجاءت الهرة فأخبرت نوحاً فرآهما، فقال الكلب: إلهي افضح الهرة عند الجماع على رؤوس الخلائق كما فضحتنا، فمن ثم أن السناسير إذا جامعت إناثها أخذها الصياح.

وقال القرطبي في تفسيره:: أن العنـــز امتنعت من الدخول إلى السفينة فمسكها جبريل بذنبها فاستمر ذنبها معكوفاً.

الثانية عشر: ورد في صحيح البخاري من رواية ابن عمر: «**من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد، أو ماشية نقص كل يوم من عمله قيراطان**»[1]، وفي رواية: «**نقص من عمله كل يوم قيراط إلا كلب حرث، أو ماشية**»[2].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٠٨٨، رقم ٥١٦٣)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢٠١، رقم ١٥٧٤) عن ابن عمر.

(٢) هذه رواية مسلم في صحيحه (٣/١٢٠٢، رقم ١٥٧٤) عن سالم بن عبد الله عن أبيه وهو ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتنى كلباً إلا كلب ماشية أو كلب صيد نقص من عمله كل يوم قيراط» قال عبد الله: وقال أبو هريرة: أو كلب حرث.

ورواية أبو هريرة التي أشار إليها عبد الله راوي الحديث عند مسلم أخرجها البخاري في صحيحه (٢/٨١٧، رقم ٢١٩٧) بلفظ: «من أمسك كلباً فإنه ينقص كل يوم من عمله قيراط، إلا كلب حرث أو ماشية »، قال بن سيرين وأبو صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إلا كلب غنم أو حرث أو صيد»، وقال أبو حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «كلب صيد أو ماشية».

والجمع بين الروايتين أن رواية: «نقص من عمله كل يوم قيراطان» محمولة على بعض الكلاب وهو الذي ضرره أكثر، فإذا كان الكلب ضرره كثير أنقص من عمل صاحبه قيراطان، وإن كان قليلاً نقص قيراط، أو أن ذلك يختلف باختلاف المواضع فما كان في المدائن ونحوها فقيراطان، وما كان في البادية فقيراط، أو يكون ﷺ قاله في زمانين فذكر القيراط أولاً ثم زاد التلفيظ فذكر القيراطين(١).

وهل يتعدد القيراط المذكور بتعدد الكلب؟ قال: بعضهم يتعدد بدليل من أن جماعة من الصحابة ذهبوا إلى بيت رجل من الأنصار ليعودوه في مرض فهرت في وجوههم كلاب من دار الأنصاري، فقال الصحابة: لا يدع هؤلاء من أجر فلان شيئاً، كل كلب من هؤلاء ينقص من أجره كل يوم قيراطاً.

لكن سئل الشيخ السبكي عن ذلك فأجاب: بأنه لا يتعدد كما لو ولغت الكلاب في الإناء فالأصح عدم تعدد الغسلات، والمراد من القيراط مقدار معلوم عند الله تعالى من أجر عمله(٢).

وهل هذا النقص من أعماله الماضية، أو المستقبلية، أو منهما؟

---

(١) للحافظ ابن حجر لطائف حول اختلاف الألفاظ في كلا الروايتين، وقد بان من التخريج أنهما من طريقي عبد الله بن عمر ومن طريق أبي هريرة فقد قال الحافظ في فتح الباري (٩/٦٠٩): «باب من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد أو ماشية يقال: اقتنى الشيء إذا اتخذه للادخار ذكر فيه -أي البخاري-حديث ابن عمر في ذلك من ثلاثة طرق عنه، ووقع في الرواية الأولى: ليس بكلب ماشية أو ضارية، وفي الثانية:إلا كلباً ضارياً لصيد أو كلب ماشية، وفي الثالثة: إلا كلب ماشية أو ضارياً، والرواية الثانية تفسر الأولى والثالثة.

فالأولى إما للاستعارة على أن ضارياً صفة للجماعة الضارين أصحاب الكلاب المعتادة الضارية على الصيد، يقال: ضرا على الصيد ضرارة أي: إذا استمر عليه، وضرا الكلب وأضراه صاحبه أي: عوده وأغراه بالصيد، والجمع ضوار، وإما التناسب للفظ ماشية مثل لا دريت ولا تليت والأصل تلوت، والرواية الثالثة فيها حذف تقديره أو كلباً ضارياً، ووقع في الرواية الثانية رواية أبي ذر إلا كلب ضاري بالإضافة، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته أو لفظ ضاري صفة للرجل الصائد أي: إلا كلب رجل معتاد للصيد، وثبوت الياء في الاسم المنقوص مع حذف الألف واللام منه لغة، وقد أورد البخاري حديث الباب من حديث أبي هريرة في المزارعة وفي بدء الخلق.

(٢) قال الحافظ في فتح الباري (٣/١٩٤): قال ابن العربي القاضي: الذرة جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً من حبة، والحبة ثلث القيراط فإذا كانت الذرة تخرج من النار فكيف بالقيراط، قال: وهذا قدر قيراط الحسنات فأما قيراط السيئات فلا.

وقال غيره: القيراط في اقتناء الكلب جزء من أجزاء عمل المقتنى له في ذلك اليوم.

فقيل: مما مضى من عمله وهل هذا النقص من أعماله الماضية، وقيل: من الأعمال المستقبلية، وقيل: قيراط من عمل الليل وقيراط من عمل النهار، وقيل: قيراط من عمل الفرض وقيراط من عمل النقل.

الثالثة عشر: ورد في الحديث: «**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب، ولا صورة**»[1]

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١١٧٩/٣، رقم ٣٠٥٣)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٦٦٥، رقم ٢١٠٦) من حديث ابن عباس.

وفي شرح هذا الحديث فوائد: قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣٨١/١٠): قوله: «لا تدخل الملائكة» ظاهره العموم، وقيل: يستثنى من ذلك الحفظة فإنهم لا يفارقون الشخص في كل حالة وبذلك جزم ابن وضاح والخطابي وآخرون، لكن قال القرطبي: كذا قال بعض علمائنا، والظاهر العموم والمخصص يعني الدال على كون الحفظة لا يمتنعون من الدخول ليس نصاً، قلت: ويؤيده أنه ليس من الجائز أن يطلعهم الله تعالى على عمل العبد ويسمعهم قوله وهم بباب الدار التي هو فيها مثلاً، ويقابل القول بالتعميم القول بتخصيص الملائكة بملائكة الوحي، وهو قول من ادعى أن ذلك كان من خصائص النبي ﷺ وهو شاذ.

قوله: «بيتاً فيه كلب» المراد بالبيت المكان الذي يستقر فيه الشخص سواء كان بناء أو خيمة ذلك، والظاهر العموم في كل كلب لأنه نكرة في سياق النفي، وذهب الخطابي وطائفة إلى استثناء الكلاب التي أذن في اتخاذها وهي كلاب الصيد والماشية والزرع، وجنح القرطبي إلى ترجيح العموم، وكذا قال النووي واستدل لذلك بقصة الجرو في حديث ابن عمر قال: «فامتنع جبريل من دخول البيت الذي كان فيه» مع ظهور العذر فيه قال: فلو كان العذر لا يمنعهم من الدخول لم يمتنع جبريل من الدخول.

ويحتمل أن يقال: لا يلزم من التسوية بين ما علم به أو لم يعلم فيما لم يؤمر باتخاذه أن يكون الحكم كذلك فيما أذن في اتخاذه، قال القرطبي: واختلف في المعنى الذي في الكلب حتى منع الملائكة من دخول البيت الذي هو فيه.

فقيل: لكونها نجسة العين، ويتأيد ذلك بما ورد في بعض طرق الحديث عن عائشة عند مسلم: «فأمر بنضح موضع الكلب»، وقيل: لكونها من الشياطين، وقيل: لأجل النجاسة التي تتعلق بها فإنها تكثر أكل النجاسة وتتلطخ بها فينجس ما تعلقت به.

وعلى هذا يحمل من لا يقول أن الكلب نجس العين نضح موضعه احتياطاً، لأن النضح مشروع لتطهير المشكوك فيه.

واختلف في المراد بالملائكة فقيل هو على العموم، وأيده النووي بقصة جبريل، فقيل: يستثنى الحفظة وأجاب الأول: بجواز أن لا يدخلوا مع استمرار الكتابة بأن يكونوا على باب البيت، وقيل: المراد من نزل منهم بالرحمة، وقيل: من نزل بالوحي خاصة كجبريل وهذا نقل عن ابن وضاح والداودي وغيرهما. =

قال: بعضهم هذا محمول على ما يحرم اقتناؤه من الكلاب، والصور، وأما ما ليس بمحرم ككلب الصيد، والزرع، والماشية وكالصورة التي تمتهن بأن كانت بساط، أو

= ويلزم منه اختصاص النهي بعهد النبي ﷺ لأن الوحي انقطع بعده وبانقطاعه انقطع نزولهم.

وقيل: التخصيص في الصفة أي: لا يدخل الملائكة دخولهم بيت من لا كلب فيه.

قوله: «ولا تصاوير» في رواية معمر في بدء الخلق عن الزهري: «ولا صورة» بالإفراد وكذا في معظم الروايات، وفائدة إعادة حرف النفي الاحتراز من توهم القصر في عدم الدخول على اجتماع الصنفين، فلا يمتنع الدخول مع وجود أحدهما فلما أعيد حرف النفي صار التقدير: ولا تدخل بيتاً فيه صورة.

قال الخطابي: والصورة التي لا تدخل الملائكة البيت الذي هي فيه ما يحرم اقتناؤه وهو ما يكون من الصور التي فيها الروح مما لم يقطع رأسه أو لم يمتهن.

وأغرب ابن حبان فادعى أن هذا الحكم خاص بالنبي ﷺ قال: وهو نظير الحديث الآخر: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس» قال: فإنه محمول على رفقة فيها رسول الله ﷺ إذ محال أن يخرج الحاج والمعتمر لقصد بيت الله ﷻ على رواحل لا تصحبها الملائكة وهم وفد الله (انتهى).

وهو تأويل بعيد جداً لم أره لغيره، ويزيل شبهته أن كونهم وفد الله لا يمنع أن يؤاخذوا بما يرتكبونه من خطيئة، فيجوز أن يحرموا بركة الملائكة بعد مخالطتهم لهم إذا ارتكبوا النهي واستصحبوا الجرس، وكذا القول فيمن يقتني الصورة والكلب والله أعلم.

وقد استشكل كون الملائكة لا تدخل المكان الذي فيه التصاوير مع قوله سبحانه وتعالى عند ذكر سليمان عليه السلام: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ}[سبأ: ١٣]، وقد قال مجاهد: كانت صوراً من نحاس. أخرجه الطبري، وقال قتادة: كانت من خشب ومن زجاج. أخرجه عبد الرزاق، والجواب: أن ذلك كان جائزاً في تلك الشريعة وكانوا يعملون أشكال الأنبياء والصالحين منهم على هيئتهم في العبادة ليتعبدوا كعبادتهم، وقد قال أبو العالية: لم يكن ذلك في شريعتهم حراماً ثم جاء شرعنا بالنهي عنه.

ويحتمل أن يقال أن التماثيل كانت على صورة النقوش لغير ذوات الأرواح، وإذا كان اللفظ محتملاً لم يتعين الحمل على المعنى المشكل، وقد ثبت في الصحيحين حديث عائشة في قصة الكنيسة التي كانت بأرض الحبشة وما فيها من التصاوير وأنه ﷺ قال: «كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق ثم الله» فإن ذلك يشعر بأنه لو كان ذلك جائزاً في ذلك الشرع ما أطلق عليه ﷺ أن الذي فعله شر الخلق، فدل على أن فعل صور الحيوان فعل محدث أحدثه عباد الصور والله أعلم.

وسادة، أو نحو ذلك مما يداس تحت الأرجل، فلا تمتنع الملائكة بسببه، لكن الأظهر، قال النووي: أنه عام في كل كلب وصورة، وانهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الأحاديث، وبدليل أن الجرو الذي كان في بيت النبي ﷺ تحت السرير و لم يعلم به النبي ﷺ فامتنع جبريل بسببه من الدخول إلى البيت.

وسبب امتناع الملائكة من الدخول إلى البيت الذي فيه الكلب كثرة أكل الكلب النجاسات، ولأن بعض الكلاب يسمى شيطاناً كما جاء في الحديث، والملائكة ضد الشياطين فلا يحضرون معهم، ولقبح رائحة الكلب، والملائكة تكره الرائحة الخبيثة، ولأنه منهي عن اتخاذها فعوقب متخذها بحرمان دخول الملائكة في بيته وصلاتها فيه واستغفارها له، وتبركها عليه في بيته، ودفعها أذى الشياطين.

وفي نزهة المجالس: ينبغي أن يقال سبب امتناع الملائكة من دخول بيت فيه كلب أنه خلق من ريق الشيطان، وذلك أن إبليس لعنه الله بزق على آدم وهو طين فكشطته الملائكة فصار موضع الصرة من بني آدم، فخلق الله من التراب الذي أصابه ريق إبليس الكلاب.

وسبب امتناعهم من الصورة كونها فيها مضاهاة لخلق الله تعالى وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله.

والملائكة الذين يمتنعون من دخول البيت بسبب الكلب والصورة: ملائكة الرحمة، والتبرك، والاستغفار، وأما الحفظة، الموكلون بقبض الأرواح فيدخلون في كل يوم، ولا يذرون بني آدم بحال لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها.

وألحق بعض العلماء الجنب المصر على الجنابة بالكلب والصورة، فتمتنع الملائكة بسببه من الدخول إلى المنـــزل.

فالحاصل أن ثلاثة تمتنع الملائكة من الدخول إلى المنـــزل بسببهم: الكلب، والصورة، والجنب.

وقال ابن العماد في الذريعة: خمسة لا تحضر الملائكة موضعهم: الكلب، والصورة، والجنب، والحائض، والجرس يعني الجلجل.

الرابعة عشر: من أحكام الكلب أن من كان في داره كلب عقور فاستدعى إنساناً إلى داره فعقره الكلب هل يضمنه أم لا؟

قال النووي في التصحيح: يضمن على الأصح ، لكن جزم في أصل الروضة أنه لا يضمنه لأن للكلب اختياراً، أو يمكن دفعه بعصي وغيرها، هذا إذا لم يعلم الداخل أنه عقور، فإن علم ذلك فلا ضمان جزماً، وكذا لو كان مربوطاً فصار إليه المستدعي

جاهلاً بحاله لا ضمان.

قال الدميري: ومن له كلب عقور لم يحفظه، فقتل إنساناً في ليل أو نهار ضمنه لتفريطه، وفي معناه الهرة المملوكة التي تأكل الطيور، كما قدمنا ذلك في أول الإيمان.

ومن سرق قلادة في عنق كلب، أو سرقها مع كلب قطعت يده، وحرز الكلب كحرز الدواب.

***

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ[(١)]، سَمِعْتُ أَبِي، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ **«أَنَّ رَجُلاً رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»**[(٢)].

ومعنى: «فشكر الله له» أي: أثنى عليه أو جازه فإن أصل الشكر مجازاة المحسن بما أولاه من المعروف بثناء اللسان، أو فعل الجارحة، أو القلب.

وقيل: معنى: «فشكر الله له» أثابه وضاعف ثوابه.

وقيل: معناه: قبل عمله.

سؤال: فإن قيل: إذا كان معنى: «فشكر الله» فجزاه الله فأي فائدة في قوله: «فأدخله الله الجنة» فإن إدخاله الجنة هو نفس الجزاء؟

جوابه: أنه من باب عطف الخاص على العام إذا الفاء فيه تفسيرية كما في: ﴿**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾[البقرة: ٥٤] على من فسر أن القتل كان نفس توبتهم.

في هذا الحديث: دليل على أن إيصال الخير إلى غير الإنسان من سائر الحيوانات، وإن كان أخس الحيوانات أنجسها.

وفيه دليل على أن لكل كبد رطبة أجراً، سواء كان مأمور بقتله أو غير مأمور،

---

(١) «إسحاق» هو: ابن منصور الكوسج، كما جزم به أبو نعيم في المستخرج، و«عبد الصمد» هو: ابن عبد الوارث، وشيخه عبد الرحمن تكلم فيه بعضهم لكنه صدوق و لم ينفرد بهذا الحديث، والإسناد منه فصاعداً مدنيون، وأبوه وشيخه وأبو صالح السمان تابعيان. انظر فتح الباري (٢٧٨/١).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: قوله: «إن رجلاً» لم يسم هذا الرجل وهو من بني إسرائيل.

قوله: «يأكل الثرى» بالمثلثه أي يلعق التراب الندى وفي المحكم الثرى التراب، وقيل: التراب الذي إذا بل لم يصر طيناً لازباً.

قوله: «من العطش» أي: بسبب العطش.

قوله: «يغرف له به» استدل به المصنف على طهارة سؤر الكلب لأن ظاهره أنه سقى الكلب فيه، وتعقب بأن الاستدلال به مبنى على أن شرع من قبلنا شرع لنا، وفيه اختلاف ولو قلنا به اسكان محله فيما لم ينسخ ومع ارخاء العنان لا يتم الاستدلال به أيضا لاحتمال أن يكون صبه في شيء فسقاه أو غسل خفه بعد ذلك أو لم يلبسه بعد ذلك قوله فشكر الله له أي أثنى عليه فجزاه على ذلك بأن قبل عمله وأدخله الجنة. انظر فتح الباري (٢٧٨/١).

وكذا الحكم في أسارى الكفار ، لكن قال النووي في شرح مسلم: الحيوان المحترم يحصل الثواب بالإحسان إليه، وأما غير المحترم وهو المأمور بقتله كالكافر الحربي، والمرتد، والكلب العقور فيشمل أمر الشارع بقتله أي: فلا أجر في الإحسان إليه.

وهذا الرجل الذي سقا الكلب لا يعرف اسمه ولعله كان من بني إسرائيل، ووقع مثل ما وقع لهذا الرجل لامرأة زانية فغفر الله لها بسبب ذلك فقد روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «بينما امرأة تمشي بفلاة أشتد عليها العطش، فنـــزلت بئراً فشربت ثم صعدت، فوجدت كلباً يأكل الثرى من العطش، فقالت: لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذي بلغ بي، ثم نزلت فملأت ثم صعدت فسقته فشـــكر الله ذلك وغفر لها» قالوا: يا رسول الله إن لنا في البهائم أجر؟ قال: «نعم في كل كبد رطبة»[1].

وقد صنف بعضهم كتاباً سماه: «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» ذكر فيه: أن الكلب لمن يقتنيه أشفق من الوالد على ولده، والأخ الشقيق على أخيه، وذلك أنه يحرس به ويحمي حريمه شاهداً وغائباً ونائماً ويقظاناً، ولا يقصر عن ذلك وإن جفوه، ولا يخذلهم وإن خذلوه.

وروي أن رجلاً قال لبعض الحكماء: أوصني قال: أزهد في الدنيا، ولا تنازع فيها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٦١/٤، رقم ٢٢٤٥) من طريقين عن أبي هريرة بلفظ: «إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنـــزعت له بموقها فغفر لها»، وقال في الطريق الثاني: «بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنـــزعت موقها فاستقت له به فسقته إياه فغفر لها به».

والحديث أيضاً: عند البخاري في صحيحه (١٢٧٩/٣، رقم ٣٢٨٠) بلفظ الطريق الثاني.

قلت: أما اللفظ الذي أتى به المصنف فيه إدراج بين قصة الرجل وبين قصة هذه المرأة ولعله خطأ من الناسخين فتنبه لذلك أكرمك الله.

فقد أخرج قصة الرجل صحيح البخاري في صحيحه (٨٣٣/٢، رقم ٢٢٣٤)، ومسلم في صحيحه (١٧٦١/٤، رقم ٢٢٤٤) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنـــزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له» قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً قال: «في كل كبد رطبة أجر».

فواضح أن هناك خلط بين كلا القصتين، ولم أقف على مصدر يؤيد ما رأيناه ها هنا من المصنف ولعل الخلط حدث لاتحاد الراوي فإن الراوي لقصة الرجل ولقصة المرأة راو واحد وهو أبو هريرة والله أعلم.

أهلها، وانصح لله كنصح الكلب لأهله فأنهم يجيعونه ويضربونه ويأبى إلا أن يحوطهم نصحاً.

ورأى عمر بن الخطاب إعرابياً يسوق كلباً، فقال: ما هذا الذي معك، فقال: يا أمير المؤمنين نعم الصاحب إن أعطيته شكر، وإن منعته صبر، قال عمر ﷺ: نعم الصاحب فاستمسك به.

وقال الشعبي: خير حفلة في الكلب أن ينافق في محبته.

ووري عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً مقتولاً، فقال: «**ما شأنه**»، فقال: إنه وثب على غنم بني زهرة فأخذ منها شاة فوثب عليه كلب الماشية فقتله، فقال ﷺ: «**قتل نفسه، وأضاع دينه، وعصى ربه وخان، وكان الكلب خيراً منه**»[1].

وقال ابن عباس: كلب أمين خير من صاحب خوان، قال: وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبة لهم، فخرج في بعض منتزهاته ومعه ندماؤه، فتخلف منهم واحد، فدخل على زوجته فأكلا وشربا ثم اضطجعا، فوثب الكلب عليهما فقتلهما، فلما رجع الحارث إلى منـزله وجدهما قتيلين فعرف الأمر فأنشد يقول في الكلب وصديقه:

فيا عجبا للخل يهتك حرمتي ويا عجبا للكلب كيف يصون
ومازال يرعى ذمتي ويحوطني ويحفظ عرسي، والخليل يخون

وروى أحمد في الزهد عن جعفر بن سليمان قال: رأيت مع مالك بن دينار كلباً، فقلت: ما تصنع بهذا يا أبا يحيى؟ فقال: هذا خير من الجليس السوء[2].

وكان منصور ينشد لنفسه كما في الشعب للبيهقي:

الكلب أحسن عشرة وهو النهاية في الخساسة
فمن ينازع في الرئاسة قبل أوقات الرئاسة[3]

وينسب لإمامنا الشافعي ﷺ أنه قال:

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) لم نقف عليه في الزهد لأحمد بن حنبل، ووقفنا عليه في المعجم الأوسط (١/٢٠٠، رقم ٦٤١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٣٨٤).

(٣) انظر شعب الإيمان (٦/٣٠٤، رقم ٨٢٦٤) قال البيهقي: أنشدنا أبو عبدالرحمن السلمي، أنشدني جعفر بن محمد المراغي، أنشدني منصور الفقيه لنفسه... فذكره.

ليـــت الكـــلاب لنا كانت مجاورة ويالیتـــنا لم نرى ممن نرى أحدا
إن الكـــلاب لـــتهدأ في مرابضها والـــناس ليس بهاد شرهم أبدا
فـــانجع بنفسك واستأنس بوحدتها تبقى سعيداً إذا ما كنت منفردا

والقصد من هذا أن صحبة الكلاب في هذا الزمان خير من كثير ممن لبس الثياب، لشدة ضررهم ونفاقهم وكيدهم ومكرهم وخباثتهم، وقل أن تجد صاحباً يصحبك في الله، بل لعلة من العلل، والصاحب الصادق المخلص في صحبته هو الذي إن قلت له لا تفعل الشيء لا يفعله، أو افعل هذا الشيء يفعله، ويكون مع ذلك متصفاً بصفة الحياء، والكرم، والعفاف.

قال عبد الله بن المبارك: وإذا صاحبت فاصحب صاحباً ذا حياء، وعفاف وكرم، قوله للشيء: لا إن قلت: لا، وإذا قلت: نعم، قال: نعم، وإلا فصحبة الكلب خير منه.

***

المجلس الثامن والأربعون

في بيان حديث علي ﷺ: «كنت رجلاً مذاء» وما فيه من الفوائد، وفي بيان بعض فضائل سيدنا علي ﷺ، وفضائل المقداد بن الأسود، ومحمد بن الحنفية

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيد، قَالَ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُنْذِرٍ أَبِي يَعْلَى الثَّوْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ كُنْتُ رَجُلاً مَذَّاءً، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرْتُ الْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «فِيهِ الْوُضُوءُ» . وَرَوَاهُ شُعْبَةُ عَنِ الأَعْمَشِ .

قوله: «حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير عن الأعمش، عن منذر أبي يعلى الثوري، عن محمد بن الحنفية»

هذا هو: محمد بن سيدنا علي المعروف بابن الحنفية، هي: أمه، واسمها: خوله بنت جعفر الحنفي اليماني، وكانت من بني حنيفة.

قال علي ﷺ: قلت لرسول الله ﷺ إن ولد لي ولد بعدك أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك؟ قال: «نعم»[1].

ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وقيل: لا يعلم أحد أسند عن علي عن النبي ﷺ أكثر ولا أصح مما أسنده محمد ابن الحنفية، مات ستة وثمانين، أو إحدى وثمانين، أو أربع عشرة ومائة.

فائدة: كان لسيدنا علي من الأولاد أربعة عشر ولد ذكراً، ومن الإناث ثمان عشرة بعضهم من فاطمة كالحسن والحسين، وبعضهم من غيرها كمحمد ابن الحنفية، وكان له ولد يقال له: أبو بكر، وآخر يقال له: عثمان، وسنذكرهم عند فضائل الحسن والحسين إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص: ٢٩٣، رقم ٨٤٣)، والترمذي في سننه (١٣٧/٥، رقم ٢٨٤٣) وقال: حديث صحيح.وأبو داود في سننه (٢٩٢/٤، رقم ٤٩٦٧)، وأحمد في مسنده (٩٥/١، رقم ٧٣٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٣/٥، رقم ٢٥٩١٤)، والحاكم في المستدرك (٣٠٩/٤، رقم ٧٧٣٧)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٩١/٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣٣٥/٤)، والضياء في الأحاديث المختارة (٣٤٣/٢، رقم ٧٢١)، والبيهقي في البيهقي الكبرى (٣٠٩/٩) جميعاً عن محمد بن الحنفية عن علي ﷺ.

«عن محمد بن الحنفية قال: قال علي ﷺ: كنت رجلاً مذاء فاستحيت أن أسال رسول الله ﷺ فأمرت المقداد بن الأسود فسأله فقال: فيه الوضوء».

قوله: «فأمرت المقداد بن الأسود» قال شمس الأئمة الكرماني وغيره: يقال له: المقداد بن الأسود، وليس الأسود أباه حقيقة وإنما الأسود عبد يغوث رباه، أو تبناه فنسب إليه، وأما أبوه حقيقة فهو: عمرو بن ثعلبه بن مالك بن ربيعة بن تمامه بن مطرود بن عمرو بن سعد البهراني بن بهز بن عمرو بن الحارث بن قضاعة، قاله ابن عبد البر.

وقيل: إنه كان عبداً حبشياً للأسود بن عبد يغوث فتبناه الأول أصح وأكثر، ولا يصح قول من قال فيه: إنه كان عبد، والصحيح أنه بهراني، وكان يكنى أبا معبد، وقيل: الأسود.

ومن فضائله: أنه كان قديم الصحبة من السابقين في الإسلام قال ابن مسعود: أول من ظهر الإسلام سبعة فذكر منهم المقداد.

وكان من الفضلاء النجباء الكبار الخيار من أصحاب رسول الله ﷺ في بعض الغزوات وهو يذكر المشركين، فقال: يا رسول الله إنا والله لا نقول لك كما قال أصحاب موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، لكنا نقاتل من بين يديك ومن خلفك، وعن يمنيك وشمالك، فأشرق وجه رسول الله ﷺ لذلك وسره وأعجبه.

ومن فضائله ما رواه الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله أمرني بحب أربعة من الصحابة، وأخبرني أنه يحبهم»** فقيل: من هم يا رسول الله قال ﷺ: **«علي والمقداد وسلمان وأبو ذر»**[1].

وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقرأ ويرفع صوته بالقرآن فقال: **«أواب»**، وسمع آخر يرفع صوته فقال: **«مرائي»** فنظروا فإذا الأواب المقداد بن عمرو.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٦٣٦، رقم ٣٧١٨) وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شريك.

وأخرجه أيضاً: ابن ماجه في سننه (١/٥٣، رقم ١٤٩)، و أحمد في مسنده (٥/٣٥٦، رقم ٢٣٠٦٤)، والحاكم في المستدرك (٣/١٤١، رقم ٤٦٤٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/١٧٢) ، وأحمد في فضائل الصحابة (٢/٦٤٨، رقم ١١٠٣) عن ابن بريدة عن أبيه.

توفي ﷺ وهو ابن سبعين سنة، وكانت وفاته قريب المدينة في أرض بالحرف في خلافة عثمان ﷺ فحمل على رقاب الرجال إلى المدينة، ودفن بها وصلى عليه عثمان ﷺ سنة ثلاث وثلاثين.

وقول علي ﷺ: «**كنت رجلاً مذّاء فاستحيَيْت أن أسال رسول الله ﷺ فأمرت المقداد بن الأسود فسأله، فقال: فيه الوضوء**» أي: في المذي الوضوء.

والحديث فيه فوائد:

منها: أنه يجوز للإنسان إذا احتاج إلى الاستفتاء أن يستنيب من يستفتي عنه، كما استناب علي المقداد في سؤال النبي ﷺ عن حكم المذي، هل ينقص الوضوء أم لا؟ فإن عليّاً ﷺ كان كثير المذي.

ومنها: أن الزوج يستحب له أن لا يذكر ما يتعلق بجماع النساء، والاستمتاع بهن بحضرة أقاربهن، ومن أنه دل على أن المذي ينقض الوضوء.

قال العلماء: الخارج من الفرج على أربعة أقسام: مني وبول ومذي وودي.

أما المني: فإنه طاهر عند علمائنا الشافعية إذا كان من غير الكلب والخنزير، وفرع كل منهما، ولا ينقض الوضوء، وإن أوجب الغسل.

فإذا كان الإنسان ممكناً مقعده من الأرض، فخرج منه المني فإن وضوءه باق كما قدمنا لكن يجب عليه الغسل، وإذا أصاب المني ثياب الإنسان مثلاً فإن كان غسل فرجه فخرج منه المني فإنه طاهر لا يجب غسله، ولهذا كانت عائشة تفركه من ثوب الرسول ﷺ.

وإن بال فخرج منه المني قبل أن يغسل فرجه فهو نجس لا بد من غسل ما أصابه من ثوب، أو البدن، وأما المذي فإنه نجس ينقض الوضوء ويجب غسل ما أصابه من الثوب والبدن.

والمذي: ماء أصفر رقيق يخرج عقب انتصاب بالذكر عند ثوران الشهوة، ولا يوجب الغسل.

وأما الودي فإنه أيضاً نجس ينقض الوضوء، وهو: ماء أبيض كدر ثخين يخرج عقب البول، أو عند حمل شيء ثقيل، ولا يوجب الغسل.

قال العلماء: وإن انتبه الإنسان من نومه فرأى بللاً قد خرج منه في ثوبه، أو بدونه وهو ثخين أبيض، ولم يدر هل هو مني، أو ودي فإنه مخيـــر إن شاء جعله منياً واغتسل، ولا يجب غسل ما أصابه لطهارته، وإن شاء جعله ودياً وغسل الموضع الذي

أصابه من الثوب، أو البدن، ويتوضأ، ولا يجب عليه الغسل.

وأما البول فإنه أيضاً نجس ينقض الوضوء، ولا فرق في نجاسته بين أن يكون من الآدمي وغيره، وأما أمره ﷺ العرينين بشرب أبوال الإبل[1]، فلا يدل على طهارته،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٥٤٦، رقم ١٤٣٠)، ومسلم في صحيحه (٣/١٢٩٦، رقم ١٦٧١) عن أنس ﷺ ثم أن ناساً من عرينة اجتووا المدينة فرخص لهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فقتلوا الراعي واستاقوا الذود، فأرسل رسول الله ﷺ فأتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم، وتركهم بالحرة يعضون الحجارة. (اللفظ للبخاري)

والحديث عند الترمذي في سننه (٤/٣٨٥، رقم ٢٠٤٢) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في سننه (٢/١١٥٨، رقم ٣٥٠٣)، وابن حبان في صحيحه (٤/٢٢٩، رقم ١٣٨٧) جميعاً من طرق عن أنس بن مالك ﷺ.

وفي شرح الحديث فوائد زيادة على ما أشار المصنف، فقد قال ابن حجر في فتح الباري (١/٣٣٨): قوله: «فرخص لهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها» فلأنهم من أبناء السبيل، وأما شربهم اللبن فبأذنه المذكور، وأما شربهم البول فاحتج به من قال بطهارته إما من الإبل فبهذا الحديث وإما من مأكول اللحم فبالقياس عليه، وهذا قول مالك وأحمد وطائفة من السلف، ووافقهم من الشافعية ابن خزيمة وابن المنذر وابن حبان والاصطخري والروياني، وذهب الشافعي والجمهور الى القول بنجاسة الأبوال والأروات كلها من مأكول اللحم وغيره.

واحتج ابن المنذر لقوله بأن الأشياء على الطهارة حتى تثبت النجاسة قال: ومن زعم أن هذا خاص باولئك الأقوام فلم يصب، إذ الخصائص لا تثبت إلا بدليل.

قال: وفي ترك أهل العلم بيع الناس أبعار الغنم في أسواقهم واستعمال أبوال الإبل في أدويتهم قديماً وحديثاً نكير دليل على طهارتها، قلت: وهو استدلال ضعيف لأن المختلف فيه لا يجب إنكاره فلا يدل ترك إنكاره على جوازه، فضلاً عن طهارته، وقد دل على نجاسة الأبوال كلها حديث أبي هريرة عند البخاري.

وقال ابن العربي: تعلق بهذا الحديث من قال بطهارة أبوال الإبل وعورضوا بأنه أذن لهم في شربها للتداوي، وتعقب بأن التداوي ليس حال ضرورة بدليل أنه لا يجب فكيف يباح الحرام لما لا يجب، وأجيب: بمنع أنه ليس حال ضرورة بل هو حال ضرورة إذا أخبره بذلك من يعتمد على خبره، وما أبيح للضرورة لا يسمى حراماً وقت تناوله.

وما تضمنه كلامه من أن الحرام لا يباح إلا لأمر مسلم فإن الفطر في رمضان حرام ومع ذلك فيباح لأمر جائز كالسفر مثلاً.

وأما قول غيره: لو كان نجساً ما جاز التداوي به لقوله ﷺ: «إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما =

لأنه كان لأجل التداوي، ويجوز التداوي بالنجس للضرورة.

فائدة: اختلف العلماء في فضلات النبي ﷺ كبوله وروثه ودمه فذهب كثير من العلماء إلى أنها طاهرة مطلقاً، وجزم بذلك من العلماء الشافعية ابن القاضي، والبغوي، والقاضي حسين، ونقله العمراني عن الخراسانيين.

وقال ابن الرفعة: إنه الذي اعتقده، وألقى الله تعالى به، ومن المتاخرين البازري، والسبكي.

وقال البلقيني: إن الفتوى به ويدل على ذلك ما صح أن امرأة شربت بوله ﷺ فلم ينكر عليها، و لم يأمرها بغسل فمها.

فالحاصل أن جميع فضلاته طاهرة، وإن حكى النووي، والرافعي عن الجمهور خلافه، والقول بطهارة فضلاته معدودة من خصائصه الشريفة ﷺ.

وفى الحديث دلالة على فضل سيدنا علي وشدة حيائه فلهذا أمر غيره أن يسأل رسول الله ﷺ، و لم يسأل هو ﷺ لكون ابنته عنده.

وقد جمع فيه رضي الله عنه كثير من خصال النبي ﷺ كالحياء والعلم، والشجاعة وغير ذلك، وقدمنا طرفاً من مناقبه وفضيلته وكراماته.

وأما شجاعته ونصرته على الكفار في غزوة بدر وأحد وخيبر وأكثر المشاهد، فقد بلغت حد التواتر حتى صارت شجاعته معلومة بالضرورة لكل أحد، بحيث لا يمكن دفع ذلك عن نفسه، قاله المحب الطبري.

ونحن ننقل أدلة على ذلك:

منها ما نقله المحب عن سلمة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق برايته،

= حرم عليها» رواه أبو داود من حديث أم سلمة، والنجس حرام فلا يتداوى به.

فجوابه: أن الحديث محمول على حالة الاختبار وأما في حال الضرورة فلا يكون حراماً، كالميتة للمضطر ولا يرد قوله ﷺ في الخمر: «إنها ليست بدواء إنها داء» في جواب من سأله عن التداوي بها فيما رواه مسلم فإن ذلك خاص بالخمر ويلتحق به غيرها من المسكر، والفرق بين المسكر وبين غيره من النجاسات أن الحد يثبت باستعماله في حالة الاختيار دون غيره، ولأن شربه يجر إلى مفاسد كثيرة، ولأنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أن في الخمر شفاء فجاء الشرع بخلاف معتقدهم.

وأما أبوال الإبل فقد روى ابن المنذر عن ابن عباس مرفوعاً: «إن في أبوال الإبل شفاء لذربة بطونهم والذرب فساد المعدة» فلا يقاس ما ثبت أن فيه دواء على ما ثبت نفي الدواء عنه والله أعلم.

وبهذه الطريق يحصل الجمع بين الأدلة والعمل بمقتضاها كلها.

وكانت بيضاء إلى بعض حصون خيبر، فقاتل ورجع، ولم يكن فتح، وقد جهد ثم بعث من الغد عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع، ولم يكن فتح، وقد جهد، فقال رسول الله ﷺ: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار**»[1] فدعا رسول الله ﷺ علياً وهو أرمد فتفل في عينه ثم قال: «**خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك**» قال سلمة: فخرج والله بها يهرول هرولة وأنا خلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب قال: يقول اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى، أو كما قال، فما رجع حتى فتح الله عليه. أخرجه ابن إسحاق.

وفي رواية: أنه لما دنى من الحصن خرج إليه أهله، فقاتلهم فضربه رجل من اليهود وطرح ترسه من يده فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به نفسه، فلم يزل بيده حتى فتح الله ﷻ عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ.

وفى رواية: أن علي بن أبي طالب حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه فافتتحوها، وبعد ذلك لم يحمله أربعون رجلاً، وقيل: اجتمع عليه سبعين رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب.

ومنها ما نقله المحب الطبري أيضاً في وقعة صفين، ووقعة صفين كانت بين معاوية، وعلي وقتل في هذه الواقعة من أهل العراق والشام في مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف، منها سبعون ألفاً من أهل الشام وأربعون ألفاً من أهل العراق، وقيل: غير ذلك.

وحدث في هذه الوقعة لما التقى العسكر أن رجلاً من أصحاب معاوية يقال له: كرز من الصباح الحميري وقف بين الصفين وقال: من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله ووقف عليه، ثم قال: من يبارز؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم قال: من يبارز؟ فخرج إليه ثالث فقتله، وألقاه على الأخرين، ثم قال: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه، وأحب من كان في الصف الأول من عسكر علي أن يكون في الآخر، فخرج إليه علي ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ فشق الصفوف، فلما انفصل منها نزل عن البغلة

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥/١٠٨، رقم ٨٤٠١)، وابن ماجه في سننه (١/٤٣، رقم ١١٧) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه.

قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٢٠): هذا إسناد ضعيف ابن أبي ليلى شيخ وكيع هو محمد وهو ضعيف الحفظ لا يحتج بما ينفرد به.

وسعى إليه فقتله، وقال: من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله ووضعه على الأول، وقال: من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله ووضعه على الأخرين، وقال: من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله ووضعه على الثلاثة ثم قال: يا أيها الناس إن الله ﷻ يقول: ﴿**الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**﴾[البقرة: ١٩٤]، ولو لم يبدؤوني هذا ما بدأنا ثم رجع إلى مكانه.

قال ابن عباس، وقد سأله رجل أكان علي يباشر القتال يوم صفين؟ فقال: والله ما رأيت رجلاً أطرح لنفسه في متلف مثل علي، ولقد كنت أراه يخرج حاسراً عن رأسه بيده السيف إلى الرجل المدرع فيقتله.

أنشد بعضهم في الحرب الذي وقع في ليال صفين:

الليل داج والكباش تنطح نطاح أسد ما أراها تصطلح فمن نجا برأسه فقد ربح

وأما وقعة الجمل فإنه كانت بين عائشة وعلي رضي الله عنهما، قبل وقعة صفين، وسميت «وقعة الجمل»، لأن عائشة كانت في هذه الوقعة راكبة على جمل له هودج من حديد وبنو ضبة أصحاب الجمل كانوا حوله يحوطونه، أنشد واحد منهم:

نحـــن بنو ضبة أصحاب الجمل نـــترل بـــالموت إذا المـــوت نزل

المـــوت أحلى عندنا من العسل نـــبغي ابن عفان بأطراف الأسل

فقطع علي خطام الجمل وقطع عنده سبعون يداً من بني ضبة، وقتل حوله عشرون ألفاً وثمانمائة.

وقيل: لما عقروا الجمل وأخذته السيوف من كل جانب حتى وقع، ومال الهودج سمعوا صارخاً يقول: راقبوا الله في حرمة رسول الله ﷺ، فقال علي لابنه الحسن: هلكت.

وقيل: إن شخصاً جاء لما وقع الجمل ونظر إلى عائشة في الهودج فقالت: هتك الله سترك وأبدى عورتك، فقتل بعد ذلكم في البصرة وصلب وقطعت يداه ورجلاه، ورمي عرياناً في خربة من خراب الأزد.

وقيل: إن علياً وقف عليها وهي في الهودج فضربه بقضيب كان معه وقال: يا حميراء أرسول الله ﷺ أمرك بهذا؟ ألم يأمرك أن تقري في بيتك؟، والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك، ثم أمرها بالمسير وأذن لأصحابها أن يسافروا معها ورجعت إلى مكة.

ووقعتا «صفين والجمل» كانت بسبب عثمان ﷺ[1] طلبوا من علي أن يسلمهم

---

(١) وإذا أردت أن نعطي لك لمحة من ذلك فننقل لك ما قاله الحافظ أبو بكر ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم حيث يقول: «روى قوم أن البيعة لما تمت لعلي استأذن طلحة والزبير علياً في الخروج إلى مكة، فقال لهما علي: لعلكما تريدان البصرة والشام فأقسما ألا يفعلا، وكانت عائشة بمكة، وهرب عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة إلى مكة، ويعلى بن أمية عامل عثمان على اليمن.

فاجتمعوا بمكة كلهم، ومعهم مروان بن الحكم. واجتمعت بنو أمية، وحرضوا على دم عثمان. وأعطى يعلى لطلحة والزبير وعائشة أربعمائة ألف درهم. وأعطى لعائشة «عسكراً» جملاً اشتراه باليمن بمائتي دينار، فأرادوا الشام، فصدهم ابن عامر وقال: لا ميعاد لكم بمعاوية، ولى بالبصرة صنائع، ولكن إليها.

فجاءوا إلى ماء الحوأب ، ونبحت كلابه، فسألت عائشة فقيل لها: هذا ماء الحوأب. فردت خطامها عنه، وذلك لما سمعت النبي ﷺ يقول «أيتكن صاحبة الجمل الأدبب ، التي تنبحها كلاب الحوأب؟» فشهد طلحة والزبير أنه ليس هذا ماء الحوأب، وخمسون رجلاً إليهم، وكانت أول شهادة زور جرت في الإسلام .

وخرج على إلى الكوفة ، وتعسكر الفريقان والتقوا ، وقال عمار –وقد دنا من هودج عائشة–: ما تطلبون؟ قالوا: نطلب دم عثمان، قال: قتل الله في هذا اليوم الباغي والطالب بغير الحق .

والتقى علي والزبير، فقال له علي: أتذكر قول النبي ﷺ: إنك تقاتلني؟ فتركه ورجع. وراجعه ولده، فلم يقبل. واتبعه الأحنف من قتله.

ونادى علي طلحة من بعد: ما تطلب؟ قال: دم عثمان. قال: قاتل الله أولانا بدم عثمان. ألم تسمع النبي ﷺ يقول، «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»، وأنت أول من بايعني ونكث.

ثم قال أبو بكر ابن العربي: (عاصمـــــــة) أما خروجهم إلى البصرة لا إشكال فيه.

ولكن لأي شئ خرجوا؟ لم يصح فيه نقل، ولا يوثق فيه بأحد لأن الثقة لم ينقله، وكلام المتعصب لا يسمع، وقد دخل على المتعصب من يريد الطعن في الإسلام واستفاض الصحابة.

فيحتمل أنهم خرجوا خلعاً لعلي لأمر ظهر لهم، وهو أنهم بايعوا لتسكين الثائرة، وقاموا يطلبون الحق.

ويحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان.

ويمكن أنهم خرجوا في جمع طوائف المسلمين، وضم نشرهم، وردهم إلى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا. وهذا هو الصحيح، لا شيء سواه، وبذلك وردت صحاح الأخبار.

فأما الأقسام الأولى فكلها باطلة وضعيفة:

أما بيعتهم كرهاً فباطل قد بيناه. =

= وأما خلعهم فباطل، لأن الخلع لا يكون إلا بنظر من الجميع، فيمكن أن يولى واحد أو اثنان، ولا يكون الخلع إلا بعد الإثبات والبيان.

وأما خروجهم في أمر قتلة عثمان، لأن الأصل قبله تأليف الكلمة، ويمكن أن يجتمع الأمران.

ويروى أن في تغيبهم قطع الشغب بين الناس. فخرج طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين ﷺ رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم فيرعوا حرمة نبيهم. واحتجوا عليها بقوله تعالى: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء: ١١٤]، وقد خرج النبي ﷺ في الصلح وأرسل فيه، فرجت المثوبة، واغتنمت القصة، وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها.

وأحس بهم أهل البصرة، فحرض من كان بها من المتألبين على عثمان الناس، وقالوا: اخرجوا إليهم حتى تروا ما جاءوا إليه، فبعث عثمان بن حنيف حكيم بن حبلة فلقي طلحة والزبير بالزابوقة، فقتل حكيم ولو خرج مسلماً مستسلماً لا مدافعاً لما أصابه شيء، وأي خير كان له في المدافعة، وعن أي شيء كان يدافع؟ وهم ما جاءوا مقاتلين ولا ولاة، وإنما جاءوا ساعين في الصلح، راغبين في تأليف الكلمة، فمن خرج إليهم ودافعهم وقاتلهم دافعوا عن مقصدهم، كما يفعل في سائر الأسفار والمقاصد.

فلما وصلوا إلي البصرة تلقاهم الناس بأعلى المربد مجتمعين، حتى لو رمى حجر ما وقع إلا على رأس إنسان. فتكلم طلحة وتكلم الزبير وتكلمت عائشة ﷺ.

وكثر اللغط وطلحة يقول: «أنصتوا» فجعلوا يركبونه ولا ينصتون، فقال: «أُف، أُف فراش نار، وذباب طمع». وانقلبوا على غير بيان، وانحدروا إلى بني نهد، فرماهم الناس بالحجارة حتى نزلوا الجبل.

والتقى طلحة والزبير وعثمان بن حنيف —عامل علي على البصرة— وكتبوا بينهم أن يكفوا عن القتال، ولعثمان دار الإمارة والمسجد وبيت المال، وأن ينـــزل طلحة والزبير من البصرة حيث شاءا، ولا يعرض بعضهم لبعض حتى يقدم علي.

وروي أن حكيم بن حبلة عارضهم حينئذ، فقتل بعد الصلح، وقدم على البصرة، وتدانوا ليتراءوا فلم يتركهم أصحاب الأهواء وبادروا بإراقة الدماء. واشتجر الحرب، وقد روي أن مروان لما وقعت عينه في الاصطناف على طلحة قال: لا نطلب أثراً بعد عين، ورماه بسهم فقتله، ومن يعلم هذا إلا علام الغيوب، و لم ينقله ثبت.

وقد روى أنه أصابه سهم بأمر مروان، لا أنه رماه.

وقد خرج كعب بن سور بمصحف منشور بيده يناشد الناس أن لا يريقوا دماءهم، فأصابه سهم غرب فقتله، ولعل طلحة مثله، ومعلوم أنه عند الفتنة وفي ملحمة القتال يتمكن أولو الإحن والحقود، من حل العرى ونقض العهود. وكانت آجالا حضرت، ومواعيد انتجزت.

فإن قيل: لم خرجت عائشة رضي الله عنها وقد قال ﷺ لهن في حجة الوداع:«هذه ثم ظهور الحصر». قلنا: حدث حدثين امرأة، فإن أبت فأربعة. يا عقول النسوان ألم أعهد إليكم ألا =

= ترون أحاديث البهتان، وقدمنا لكم على صحة خروج عائشة البرهان، فلم تقولون مالا تعلمون؟ وتكررون ما وقع الانفصال عنه كأنكم لا تفهمون؟ {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ٢٢].

وأما الذي ذكرتم من الشهادة على ماء الحوأب، فقد بؤتم في ذكرها بأعظم حوب، ما كان قط شيء كما ذكرتم، ولا قال النبي ﷺ ذلك الحديث، ولا جرى ذلك الكلام، ولا شهد أحد بشهادتهم، وقد كتب شهاداتكم بهذا الباطل وسوف تسألون.

ودارت الحرب بين أهل الشام وأهل العراق: هؤلاء يدعون إلى علي بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام، وهؤلاء يدعون إلى التمكين عن قتلة عثمان ويقولون: لا نبايع من يؤوى القتلة، وعلي يقول: لا أمكن طالباً من مطلوب ينفذ فيه مراده بغير حكم ولا حاكم. ومعاوية يقول: لا نبايع متهماً أو قاتلاً له، وهو أحد من يطلب فكيف نحكمه أو نبايعه، وهو خليفة عدا وتسور.

وذكروا في تفاصيل ذلك كلمات آلت إلى استفعال رسائل واستخراج أقوال، وإنشاء أشعار، وضرب أمثال تخرج عن سيرة السلف، يقرها الخلف وينبذها الخلف.

ثم قال: (عاصمـــــــة) أما وجود الحرب بينهم فمعلوم قطعاً، وأما كونه بهذا السبب فمعلوم كذلك قطعاً، وأما الصواب فيه فمع علي، لأن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، وتهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه أن يخرج عليه، بل يطلب الحق عنده، فإن ظهر له قضاء وإلا سكت وصبر، فكم من حق يحكم الله فيه. وإن لم يكن له دين فحينئذ يخرج عليه، فيقوم له عذر في الدنيا، ولئن أتهم علي بقتل فليس في المدينة أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا وهو متهم به، أو قل معلوم قطعاً أنه قتله لأن ألف رجل جاءوا لقتل عثمان لا يغلبون أربعين ألفاً.

وهبك أن علياً وطلحة والزبير تضافروا على قتل عثمان، فباقي الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن اعتد فيهم وضوى إليهم ماذا صنعوا بالقعود عن نصرته؟

ولا يخلو أن يكون لأنهم رأوا أولئك طلبوا حقاً وفعلوا حقاً، فهذه شهادة قائمة على عثمان فلا كلام لأهل الشام، وإن كانوا قعدوا عنه استهزاء بالدين، وإنهم لم يكن لهم رأى في الحال، ولا مبالاة عندهم بالإسلام ولا فيما يجري فيه من اختلال، فهي ردة ليست معصية. لأن التهاون بحدود الدين وإسلام حرمات الشريعة للتضييع كفر، وإن كانوا قعدوا لأنهم لم يروا أو يتعدوا حد عثمان وإشارته فأي ذنب لهم فيه؟ وأي حجة لمروان -وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين وابن عمر وأعيان العشرة معه في داره يدخلون إليه ويخرجون عنه في الشكة والسلاح- والطالبون ينظرون؟ ولو كان لهم بهم قوة أو أووا إلى ركن شديد لما مكنوا أحداً أن يراه منهم ولا يدخله، وإنما كانوا نظارة، فلو قام في وجوههم الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن الزبير ما جسروا، ولو قتلوهم ما بقى على الأرض منهم حي، ولكن عثمان سلم نفسه، فترك ورأيه. وهي مسألة اجتهاد كما قدمنا.وأي كلام كان يكون لعلي -لما تمت له البيعة- لو حضر عنده ولي عثمان =

قتلته فامتنع، وليس لأحد أن ينكر عليهم بسبب قتالهم فإن قتالهم كان باجتهاد منهم فالمصيب له أجران، والمخطئ له أجر واحد، وليس المراد أنه مأجور على الخطأ، بل على اجتهاده في طلب الصواب قاله ابن العماد في الشذرات في قوله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم وأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد**»(١).

= وقال له: إن الخليفة قد تمالأ عليه ألف نسمة حتى قتلوه، وهم معلومون. ماذا كان يقول إلا: اثبت، وخذ، وفي يوم كان يثبت إلا أن يثبتوا هم أن عثمان كان مستحقاً للقتل.

وبالله لتعلمن يا معشر المسلمين أنه ما كان يثبت على عثمان ظلم أبداً، وكان يكون الوقت، أمكن للطالب، وأرفق في الحال، أيسر وصولاً إلى المطلوب.

والذي يكشف الغطاء في ذلك أن معاوية لما صار إليه الأمر لم يمكنه أن يقتل من قتلة عثمان أحداً إلا بحكم، إلا من قتل في حرب بتأويل، أو دس عليه فيما يقال، حتى انتهى الأمر إلى زمن الحجاج، وهم يقتلون بالتهمة لا بالحقيقة، فتبين لكم أنهم ما كانوا في ملكهم يفعلون ما أصبحوا له يطلبون.

والذي تثلج به صدوركم أن النبي ﷺ ذكر في الفتن وأشار وبين. وأنذر بالخوارج وقال: «تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق» فبين أن كل طائفة منهما تتعلق بالحق، ولكن طائفة علي أدنى إليه، وقال تعالى {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الحجرات: ٩] فلم يخرجهم عن الإيمان بالبغي بالتأويل، ولا سلبهم اسم «الإخوة» بقوله بعده {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}[الحجرات: ١٠] ، وقال ﷺ في عمار: «تقتله الفئة الباغية».

وقال في الحسن: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، فحسن له خلعه نفسه وإصلاحه.

وكذلك يروى أنه أذن -في الرؤيا- لعثمان في أن يستسلم ويفطر عنده الليلة.

فهذه كلها أمور جرت على رسم النـــزاع، ولم تخرج عن طريق من طرق الفقه، ولا عدت سبيل الاجتهاد الذي يؤجر فيه المصيب عشرة والمخطئ أجراً واحداً، وما وقع من روايات في كتب التاريخ -عدا ما ذكرنا- فلا تلتفتوا إلى حرف منها، فإنها كلها باطلة.

وللمزيد في هذه المسألة: انظر العواصم من القواصم ففيه كبير فائدة، وتاريخ الطبري (١٩٥/٤)، والبداية والنهاية (٢٧٧/٧)، وشرح النووي على مسلم (١١٣/٣)، ومنهاج السنة النبوية (٢/ ٢١٩-٢٢٠).

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٦١٥/٣، رقم ١٣٢٦)، وأبو عوانة في مسنده (١٦٨/٤، رقم ٦٣٩٧) من حديث أبي هريرة.

وأخرجه أبو داود في سننه (٢٩٩/٣، رقم ٣٥٧٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٤٦١/٣، رقم ٥٩١٨)، والدار قطني في سننه (٢١٠/٤) من حديث عمرو بن العاص.

ونسكت عن حرب الصحابة فالذي جرى بينهم كان اجتهادا مجردا
وقـــد صـــح في الأخبار أن قتيلهم وقاتـــلهم في جـــنة الخلد مخلدا

وقد سئل أحمد بن حنبل ﷺ عن وقعة الجمل فقال: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون.

وقال النبي ﷺ: «**سيكون بين أصحابي فتنة يغفرها الله لهم بصحبتهم إياي ثم يستن بها قوم من بعدهم يدخلون النار بسببها**»[1].

وقول النبي ﷺ في حق عمار: «**ويح عمار تقتله الفئة الباغية**»[2]، يدل على أن فئة معاوية هي الباغية، لأنه قتله واحد من جماعة معاوية اسمه يسار بن سبع، وكنيته: أبو الغادية وشاركه فيه ابن جزء.

وذكر السهيلي أن عماراً لما قتل يوم صفين دخل عمرو بن العاص على معاوية رضي الله عنهما فزعاً، فقال: قتل عمار، فقال معاوية: فماذا؟، فقال عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ويح عمار تقتله الفئة الباغية**»، فقال معاوية: دحضت في بولك.

وفى رواية: في قولك أنحن قتلناه إنما قتله من أخرجه يعني علي بن أبي طالب ﷺ.

لكن قتال معاوية لعلي رضي الله عنهما كان اجتهاداً فله أجر، فإن من اجتهد وأخطأ فله أجر، كما أن من اجتهد وأصاب فله أجران كعلي ﷺ فإنه مصيب في اجتهاده وفئته الفئة العادلة.

وروي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٣٦/٤، رقم ٢٩١٦)، وابن حبان في صحيحه (٥٥٣/١٥، رقم ٧٠٧٧) من حديث أم سلمة.

وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٥٧/٥، رقم ٨٥٥١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤٠/١٨): قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة فى أن علياً ﷺ كان محقاً مصيباً، والطائفة الأخرى بغاة لكنهم مجتهدون فلا إثم عليهم.

وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه منها أن عماراً يموت قتيلاً، وأنه يقتله مسلمون وأنهم بغاة، وأن الصحابة يقاتلون، وأنهم يكونون فرقتين باغية وغيرها، وكل هذا قد وقع مثل فلق الصبح.

وأبو بكر وعمر جالسان عنده، فسلمت عليه وجلست، فبينما أنا جالس إذا أنا بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف عليهما الباب، وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة، فيه إشارة إلى أن علياً كان هو المصيب في اجتهاده.

ومن مشهور ما اتفق له مما يدل على قوته وشجاعته ما وقع له مع عمرو بن ود العامري، وكان جباراً غليظاً عتلاً من الرجال وهو ما ذكره سيد الناس في سيرته الكبرى في غزوة الخندق عن ابن إسحاق أن عمرو بن عبد ود العامري البطل المشهور في الكفار لما برز إلى القتال ونادى بطلب من يبارزه قام إليه علي ﷺ وهو مقنع في الحديد، فقال: أنا له يا نبي الله، فقال له: «اجلس إنه عمرو» ثم كرر عمرو النداء، وجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون إليَّ رجلاً؟ فقام علي، فقال: أنا له يا رسول الله، فقال: «اجلس إنه عمرو»، ثم نادى الثالثة وقال:

لقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ حين المشجع وقفة الرجل المناجز
وكذاك أني لم أزل متسرعاً قبل الهزائز
إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فقام علي فقال: أنا له يا رسول الله فقال: «إنه عمرو» فقال: وإن كان عمراً فمشى إليه علي وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك ... مجيب صوتك غير عاجز
ذو أنية وبصيرة ... والصدق منجا كل فائز
إني لأرجو أن أقيم ... عليك نائحة الجنائز
من ضربة بخلاء يبقى ... ذكرها عن الهزاهز

وكان عمره لما بارزه علي تسعين سنة، فقال عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي، قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال: غيرك يا أبن أخي من أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهرق دمك، فقال علي: لكني والله ما أكره أن أهرق دمك، فغضب ونزل وسل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو علي مغضباً، ويقال: إنه كان على فرسه، فقال له علي: كيف أقاتلك وأنت على فرسك ولكن

معي، فنـــزل عن فرسه، ثم أقبل نحوه فاستقبله علي بدرقته فضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجه فضربه علي على حبل عاتقه فسقط، وثار العجاج وسمع رسول الله ﷺ التكبير فعرف أن علياً قتله.

وقيل: ضربه علي فقطع فخده من أصلها فنـــزل عمرو فأخذ فخد نفسه فضرب بها علياً فتوارى عنها فوقعت في قوائم بعير فكسرتها. قاله الصفدي في شرح لاميته العجم وأنشد علي لما قتله:

أعـــلي يقـــتحم الفوارس هكذا ... عـــني وعـــنهم أخروا أصحابي
اليـــوم يمـــنعني الفـــرار حفيظتي ... ومصـــمم في الرأس ليس بنابي

وذكر أبياتاً أُخر آخرهن:

عـــبد الحجارة من سفاهة عقله ... وعـــبدت رب محمـــد بصواب

أصابته يوم أحد ستة عشر ضربة كل ضربة تلزمه الأرض فما كان يرفعه إلا جبريل.

قال الصفدي: وذكر المؤرخون أن علياً ﷺ قتل من الخوارج يوم النهروان ألف نفس، وكان يدخل فيضرب بسيفه حتى ينثني، ويخرج ويقول: «لا تلوموني ولوموا هذا» ويقومه بعد ذلك.

مات ﷺ مقتولاً، والذي تولى قتله الشقي عبد الرحمن بن ملجم المرادي الحميري لعنه الله، ويدل على جواز لعنه أن النبي ﷺ قال لعلي: «**أتدري من أشقى الأولين؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**عاقر الناقة**»، ثم قال: «**أتدري من أشقى الآخرين؟**» قلت: الله ورسوله أعلم قال: «**قاتلك**»[1].

وفي رواية: «**أشقى الآخرين الذي يضربك على هذه فيبل منها هذه وأخذ بلحيته**»[2].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الخطيب في تاريخ بغداد (١/١٣٥) عن جابر بن سمرة رفعه.
وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً: أحمد في فضائل الصحابة (٢/٥٦٦، رقم ٩٥٣) عن الضحاك بن مزاحم قال قال رسول الله ﷺ فذكره.
وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/٢٤٧، رقم ٢٠٣٧) عن جابر ﷺ أيضاً مرفوعاً ولكن بلفظ: «قال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ: «ثم من أشقى ثمود؟» قال: من عقر الناقة قال: «فمن أشقى هذه الأمة؟» قال: الله أعلم، قال: « قاتلك».

(٢) وروى البزار قريباً من هذه الرواية (٤/٢٥٤، رقم ١٤٢٤) عن عمار أن النبي ﷺ قال =

وروى الطبراني عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**أشقى الناس ثلاثة: عاقر ناقة ثمود، وابن آدم الذي قتل أخاه، ما سفك على الأرض دم إلا لحقه منه لأنه أول من سن القتل**»(١).

وقاتل علي بن أبي طالب لعنه كثير من العلماء نظماً ونثراً، ولعنوا عمران بن حطان معه، وإنما لعنوه معه لأن عبد الرحمن بن ملجم لما قتل علياً شكره عمران بن حطان على ذلك وأنشد يقول لعنة الله عليه:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ عند الله رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا
لله در المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة شر الناس إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عريانا

قال السبكي أخزى الله قائل هذه الأبيات وأبعده وأقبحه ولعنه ما أجرأه على الله.

وقال بكر بن حماد في الرد على هذه الأبيات ولعن قائلها ولعن ابن ملجم معه، فقال:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة ... هدمت ويلك للإسلام أركانا
قتلت أشرف من يمشي على قدم ... وأول الناس إسلاماً وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما ... سن الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره ... أضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له ... مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفاً صارماً ... ليثاً إذا ما لقي الأقران أقرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر ... فقلت سبحان رب الناس سبحانا
إني لأحسبه ما كان من بشر ... يخشى المعاد ولكن كان شيطانا

= لعلي: « إن أشقى الأولين عاقر الناقة، وأن أشقى الآخرين لمن يضربك على هذه وأومأ إلى رأسه يخضب هذه وأومأ إلى لحيته».

(١) رواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٢٩٩/٧) قال الهيثمي: قلت: وأسقط الثالث، والظاهر أنه قاتل علي بن أبي طالب كما ورد. رواه الطبراني وفيه حكيم بن جبير وهو متروك وضعفه الجمهور، وقال أبو زرعة: محله الصدق إن شاء الله، وابن إسحاق مدلس.

والحديث رواه أيضاً: أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٠٨/٤) وقال: في الأصل بدون ذكر الثالث، غريب من حديث سعيد لم نكتبه إلا من حديث سلمة.

أشـــقى مـــراد إذا عدت قبائلها ... وأخســـر الناس عند الله ميزانا
كعاقـــر الناقة الأولى التي جلبت ... عـــلى ثمود بأرض الحجر خيرانا
فـــلا عفـــى الله عـــنه ما تحمله ... ولا سقى قبر عمران بن حطانا
بقوـــله بيـــت شعر ظل مخترما ... ونـــال مـــا ناله ظلماً وعدوانا
بـــل ضربة من غوي أودت به لظى ... مخـــلداً قـــد أتى الرحمن غضبانا
كأنـــه لم يـــر قصـــراً بضربته ... إلا ليصـــلى عذاب الخلد نيرانا

وقال القاضي أبو الطيب الطبري رضي الله عنه وأرضاه:

إني لأبـــرأ ممـــا أنـــت ذاكـــره ... عـــن ابـــن الملجم الملعون هتانا
إني لأذكـــره يومـــاً وألعـــنه ... وألعـــن عمـــران بـــن حطانا
عـــليك ثم عـــليه مـــن جماعتنا ... لعـــائن كـــثرت ســـراً وإعلانا
فأنـــتما من كلاب النار جاء به ... نـــص الشـــريعة إعلاناً وتبيانا

وقال شيخ الإسلام ابن حجر: عبد الرحمن بن ملجم المرادي ذاك المفتر الخارجي ليس بأهل أن يروى عنه، وكان أولاً عابداً قانتاً لله لكنه ختم له بشر، فقتل أمير المؤمنين علياً متقرباً إلى الله تعالى بدمه بزعمه، فقطعت أربعته ولسانه وسلت عيناه ثم أحرق نسأل الله العفو والعافية.

وقال الذهبي: عبد الرحمن بن ملجم كان فاتكاً ملعوناً، وسبب قتله لسيدنا علي كما رواه الحاكم: أن امرأة يقال لها: فطام، وكان علي ﷺ قتل أباها من جملة الخوارج، فقالت له: إن علياً قتل أبي بغير حق، ووكلته في قتله بأبيها قوداً، وطلبت منه بعد قتله ثلاثة آلاف وعبداً وقينة حتى تنكحه، فظن المغرور أنها صادقة في القتل بغير حق، ولهذا قال الشاعر:

فـــلم أر مهـــراً ساقه ذو فطانة ... كمهـــر فطام بين عرب وأعجم
ثلاثـــة آلاف وعـــبد وقيـــنة ... وقـــتل عـــلي بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من علي وإن علا ... ولا قتل إلا دون قتل ابن الملجم

علم ﷺ السنة التي يقتل فيها، والشهر الذي يقتل فيه، والليلة التي يقتل فيها، والساعة التي يقتل فيها.

قال الكرماني: لما خرج علي ﷺ إلى صلاة الصبح حين خرج صاحت الرواقي أي: الديوك، فطردن عنه، فقال: دعوهن فإنهن نوائح.

وقال الحنظلي: لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي جاءه الصياح عند طلوع

الفجر حتى يعلم بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، و لم يقم فذهب وجاء مرة أخرى فلم يقم فجاءه في المرة الثالثة فقام يمشي وهو يقول:

أشـــدد حيـــازيمك لـــلموت فـــإن المـــوت لاقيـــك
ولا تجـــزع مـــن المـــوت إذا حـــل بواديـــك

فضربه الملعون على رأسه وقال: الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك، فقال علي: لا فزت ورب الكعبة، لا يفوتنكم الكلب، فشد الناس عليه من كل جانب فأخذوه، وقال: احبسوه فإن مت فاقتلوه، ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إليَّ في العفو والقصاص.

واختلف العلماء هل ضربه في الصلاة، أو قبل الدخول فيها؟ وهل استخلف من يقيم الصلاة، أو أتمها؟

وأكثر العلماء على أنه استخلف هبيرة فصلى بهم تلك الصلاة.

وكان قتله في رمضان ليلة الجمعة ثالث عشر خلت من رمضان، وقيل: لتسع عشر دخلت منه، وقيل غير ذلك.

وكان سنة أربعين، وقيل: سنة سبع وخمسين، وقيل: غير ذلك، وكان عمره لما مات ثلاثاً وستين سنة على قول الأكثر، وقيل غير ذلك.

وولي الخلافة خمس سنين إلا يسيراً، وروى عن النبي ﷺ خمسمائة حديث وستة وثمانين حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على عشرين، وانفرد البخاري بتسعة ومسلم بخمسة عشر.

واختلف في موضع دفنه، فقيل دفن في قصر الإمارة بالكوفة، وقيل: دفن في رحبة الكوفة.

وعن جعفر الباقر: أن قبر علي جُهل، وقيل: بنجف الجيزة وهو موضع بطريق الجيزة.

مات يوم مات وهو أفضل من على وجه الأرض، قال ابن عبد البر: وأحسن ما رأيت في صفته أنه كان ربعة من الرجال أدعج العينين،حسن الوجه كأنه القمر ليلة البدر حسناً، ضخم البطن، عريض المنكبين، شثن الكفين، أغيند كأن عنقه أبريق فضه، أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه، كثير اللحية، لمنكبه مشاش كمشاش السبع الضاري إذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس، وهو إلى السمن ما هو، شديد الساعد واليد، إذا مشى للحرب يهرول، ثبت الجنان، قوي، شجاع،

منصور على من لاقاه رضي الله عنه.

بويع له بالخلافة بعدما قتل عثمان، وتفرق عن بيعته نفر فلم يكرههم، وقال: أولئك قوم قصدوا عن الحق، ولم يقوموا مع الباطل، وتخلف عن بيعته معاوية وأهل الشام، لأن جَلَّ عثمان ﷺ، حتى وقعت بينه وبينهم وقعة صفين، وقبلها وقعة الجمل، ثم خرجت فيه عليه الخوارج فقاتلهم واستأصل جمهورهم، فانتدب له من بقاياهم الملعون: عبد الرحمن بن ملجم الشقي فضربه بسيف مسموم، فأوصله دماغه فأوصى في تلك الحالة إلى الحسن والحسين وصية طويلة، وفي آخرها: يا بني عبد المطلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوضاً، تقولون: قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن بي إلا قاتلي، واضربوه ضربة بضربة، ولا تمثلوا به، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور**»، ولما فرغ من وصيته قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم لم يتكلم إلا بلا إله إلا الله حتى مات، فأخرجوا قاتله من الحبس فقطعوا يديه ورجليه ولسانه وقلعوا عينيه وأحرقوه بالنار.

فائدة: أفاد شيخنا العلامة جلال الدين السيوطي في كتابه شرح الصدور: أن الله تعالى وكل بالشقي عبد الرحمن بن ملجم من يعذبه إلى يوم القيامة، بسبب قتله علي، واستدل على ذلك بما أخرجه تمام بن محمد الرازي في كتاب البرهان له، وابن عساكر من طريقه عن أبي علي محمد بن هارون الأنصاري عن عصمة العباداني قال: كنت أجول في بعض الفلوات إذ أبصرت ديراً، وإذا في الدير صومعة، وفى الصومعة راهب فقلت له: حدثني بأعجب ما رأيت في هذا الموضع، فقال: نعم، بينما أنا ذات يوم إذ رأيت طائراً أبيضاً مثل النعامة، قد وقع على تلك الصخرة، فأومأ بيده إلى صخرة بيضاء فتقيأ رأسا ثم رجلاً ثم ساقاً، وإذا هو كلما تقيأ عضواً من تلك الأعضاء التأمت بعضها إلى بعض أسرع من البرق، حتى استوى رجلاً جالساً، فإذا هم بالنهوض نقره الطائر نقرة، قطعه أعضاء، ثم يرجع فيبتلعه، فلم يزل على ذلك أياماً، فكثر تعجبي منه، وازددت يقيناً لعظمة الله، وعلمت أن لهذه الأجساد حياة بعد الموت، فالتفت إليه يوماً فقلت: أيها الطائر سألتك الله بحق الذي خلقك وبرأك ألا أمسكت عنه حتى أسأله فيخبرني بقصته فأجابني الطائر بصوت عربي: الخلق لربي الملك وله البقاء، الذي يفني كل شيء ويبقى، أنا ملك من ملائكة الله موكل بهذا الجسد لما أجرم، فالتفت إليه فقلت: يا هذا الرجل المسيء إلى نفسه ما قصتك، وما أنت؟ قال: أنا عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي، وإني لما قتلته وصارت روحي بين يدي الله، ناولني صحيفة مكتوب

فيها ما عملته من الخير والشر، منذ ولدتني أمي إلى أن قتلت علياً، وأمر الله ذلك الملك بعذابي إلى يوم القيامة، فهو يفعل بي ما تراه ثم سكت، فنقره ذلك الطائر نقرة نثر بها أعضاءه حتى جعل يبتلعه عضواً عضواً[١].

ومما اجتمع في علي من الفضائل أنه أمير المؤمنين وابن عم رسول الله ﷺ، وصهره، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأول الناس إسلاماً على قول، وأسلمت أمه وهاجر وهاجرت أمه، وشهد بدراً، والمشاهد إلا تبوكاً فإنه عليه الصلاة والسلام خلفه على أهله، وواخاه رسول الله ﷺ مرتين في كل مرة يقول: «**أنت أخي في الدنيا والآخرة**»[٢].

وأما كراماته فكثيرة منها: ما روي عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه قال: عرض لعلي رجلان في خصومة فجلس في أصل جدار، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين الجدار يقع، فقال علي: امض كفى بالله حارساً، فقضى بين الرجلين وقام فسقط الجدار.

ومنها: ما روي عن علي بن زادان أن علياً حدث حديثاً فكذبه رجل، فقال: له علي: أدعو عليك إن كنت صادقاً؟ قال: نعم، فدعا عليه فلم ينصرف حتى ذهب بصره.

ومنها: ما روي عن أبي ذر ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوا علياً فآتيته فلم يجبني، فعدت فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال لي: «**عد إليه فادعه فإنه في البيت**» قال: فعدت أناديه فسمعت صوت رحى تطحن، فشارفت فإذا الرحى تطحن وليس معها أحد، فناديته فخرج منشرحاً، فقلت له: إن رسول الله ﷺ يناديك، فجاء ثم لم أزل

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/٣٥١) من طريق تمام.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٦٣٦، رقم ٣٧٢٠) عن ابن عمر وقال: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه أيضاً: الحاكم في المستدرك (٣/١٥، رقم ٤٢٨٨).

والحديث ضعيف فيه: جميع بن عمير التيمي، ذكره ابن عدي في الكامل (٢/١٦٦، ترجمة: ٣٥٤) وقال: قال البخاري: جميع بن عمير التيمي من تيم الله يعد في الكوفيين، سمع من ابن عمر وعائشة، روى عنه العلاء بن صالح وصدقة بن المثنى فيه نظر.

وأخرج ابن عدي حديثه هذا وغيرها ثم قال: ولجميع ما ذكرته عن ابن عمر وعائشة وعن غيرهما أحاديث، وعامة ما يرويه من أحاديث لا يتابعه غيره عليه على أنه قد روى عنه جماعة.

أنظر إلى رسول الله ﷺ وينظر إليّ، ثم قال: «**يا أبا ذر ما شأنك؟**» فقلت: يا رسول الله ﷺ عجبت من عجيب رأيته، رحى تطحن في بيت علي فقط وليس معها أحد يديرها، فقال: «**يا أبا ذر إن لله ملائكة سياحين في الأرض، قد وكلوا بمعاونة آل محمد** ﷺ».

***

المجلس التاسع والأربعون

في أحكام الحمام وفي ذكر فوائد كثيرة متعلقة به

قَالَ الْبُخَارِي:

باب قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بَعْدَ الْحَدَثِ وَغَيْرِهِ[1]

وَقَالَ مَنْصُورٌ عَنْ إِبْرَاهِيمَ[2]: لاَ بَأْسَ بِالْقِرَاءَةِ فِي الْحَمَّامِ، وَبِكَتْبِ الرِّسَالَةِ عَلَى غَيْرِ وُضُوءٍ[3]، وَقَالَ حَمَّادٌ عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ إِزَارٌ فَسَلِّمْ، وَإِلاَّ فَلاَ تُسَلِّمْ[1].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: قوله: «باب قراءة القرآن وغيره» أي: الذكر والسلام ونحوهما بعد الحدث، ويلزم منه الفصل بين المتعاطفين ولأنه أن جازت القراءة بعد الحدث فجواز غيرها من الأذكار بطريق الأولى، فهو مستغنى عن ذكره الحدث من نواقض الوضوء.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: قوله: «وقال منصور» أي: عن إبراهيم أي: النخعي، وأثره هذا وصله سعيد بن منصور عن أبي عوانة عن منصور مثله، وروى عبد الرزاق عن الثوري عن منصور قال: سألت إبراهيم عن القراءة في الحمام فقال: لم يبن للقراءة فيه.

قلت: وهذا لا يخالف رواية أبي عوانة فإنها تتعلق بمطلق الجواز.

وقد روى سعيد بن منصور أيضاً عن محمد بن أبان عن حماد بن أبي سليمان قال: سألت إبراهيم عن القراءة في الحمام فقال: يكره ذلك (انتهى).

والإسناد الأول أصح وروى بن المنذر عن علي قال: بئس البيت الحمام يترع فيه الحياء، ولا يقرأ فيه آية من كتاب الله، وهذا لا يدل على كراهة القراءة وإنما هو إخبار بما هو الواقع بأن شأن من يكون في الحمام أن يلتهي عن القراءة وحكيت الكراهة عن أبي حنيفة، وخالفه صاحبه محمد بن الحسن ومالك فقالا: لا تكره لأنه ليس فيه دليل خاص وبه صرح صاحبا العدة والبيان من الشافعية، وقال النووي: في التبيان عن الأصحاب لا تكره فأطلق لكن في شرح الكفايه للصيمري لا ينبغي أن يقرأ، وسوى الحليمي بينه وبين القراءة حال قضاء الحاجة، ورجح السبكي الكبير عدم الكراهة واحتج بأن القراءة مطلوبه والاستكثار منها مطلوب، والحدث يكثر فلو كرهت لفات خير كثير ثم قال: حكم القراءة في الحمام أن كان القارئ في مكان نظيف وليس فيه كشف عورة لم يكره وإلا كره. انظر فتح الباري (١/٢٨٦).

(٣) قال ابن حجر: قوله: «ويكتب الرساله» كذا في رواية الأكثر بلفظ مضارع كتب، وفي رواية كريمه بكتب بموحده مكسوره وكاف مفتوحه عطفاً على قوله: «بالقراءة» وهذا الأثر وصله عبد الرزاق عن الثوري أيضاً عن منصور قال سألت إبراهيم أأكتب الرسالة على غير وضوء قال: نعم.

وتبين بهذا أن قوله: «وضوء» يتعلق بالكتابه لا بالقراءة في الحمام، ولما كان من شأن الرسائل أن تصدر بالبسمله توهم السائل أن ذلك يكره لمن كان على غير وضوء، لكن يمكن أن يقال: أن كاتب الرسالة لا يقصد القراءة فلا يستوي مع من قصد القراءه. انظر فتح الباري (١/٢٨٦).

المعنى: باب جواز قراءة القرآن وغيره من سلام وذكر وصلاة على النبي ﷺ وغير ذلك بعد الحدث الأصغر، أما قراءة القرآن مع الحدث الأصغر فهو جائز بالإجماع فقد قال النووي في التبيان: يستحب أن يقرأ وهو على طهارة، فإن قرأ محدثاً جاز بإجماع المسلمين، والأحاديث فيه كثيرة معروفة.

قال إمام الحرمين: ولا يقال ارتكب مكروهاً، بل هو تارك الأفضل، فإن لم يجد الماء تيمم.

وأما قراءته مع الحدث الأكبر فهو حرام بشرط كما سيأتي في كتاب الغسل.

وأما الذكر ونحوه بعد الحدث فهو جائز أيضاً، ولكن الأفضل أن لا يذكر الله إلا وهو على طهارة فقد روى أبو داود، والنسائي، وابن ماجة بإسناد جيد عن المهاجر ابن منقذ أنه أتى النبي ﷺ فسلم عليه فلم يرد عليه حتى توضأ، ثم اعتذر إليه فقال: «**إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر**» أو قال: «**طهارة**»[٢].

وقد ذكر العلماء أنه يستحب الوضوء في أكثر من أربعين صورة.

وقوله: «**وقال منصور**» أي: ابن المعتمر.

«**عن إبراهيم**» أي: النخعي.

«**لا بأس في القراءة في الحمام**» أي: يجوز القراءة فيه من غير كراهة، وبذلك صرح النووي في التبيان فقال: وأما القراءة في الحمام فلقد اختلف السلف في كراهتها، فقال أصحابنا: لا يكره، ونقل عن النخعي، ومالك، وعطاء، وذهب إلى كراهتها جماعة منهم علي بن أبي طالب وجماعة من التابعين كالحسن البصري ومكحول، وحكاه أصحابنا عن أبي حنيفة، قال الشعبي: تكره قراءة القرآن في ثلاثة مواضع:

---

(١) قال ابن حجر: قوله: «وقال حماد» هو ابن أبي سليمان فقيه الكوفة، «عن إبراهيم» أي: النخعي، «إن كان عليهم» أي: على من في الحمام، «إزار» المراد به الجنس أي: على كل منهم إزار، وأثره هذا وصله الثوري في جامعه عنه، والنهي عن السلام عليهم إما أهانه لهم لكونهم على بدعة، وإما لكونه يستدعى منهم الرد، والتلفظ بالسلام فيه ذكر الله لأن السلام من أسمائه، وإن لفظ سلام عليكم من القرآن، والمتعرى عن الإزار مشابه لمن هو في الخلاء، وبهذا التقرير يتوجه ذكر هذا الأثر في هذه الترجمة. انظر فتح الباري (١ / ٢٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (١/٥، رقم ١٧)، ابن خزيمة في صحيحه (١/١٠٣، رقم ٢٠٦)، وابن حبان في صحيحه (٣/٨٢، رقم ٨٠٣)، والحاكم في المستدرك (١/٢٧٢، رقم ٥٩٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/٢٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/٩، رقم ٦٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/٩٠، رقم ٤٣٠) جميعاً عن المهاجر بن قنفد.

الحمامات، والحشوش وبيت الرحى وهي تدور.

وقال النووي: وأما القراءة في الطريق فالمختار أنها جائزة غير مكروهة، إذا لم يلته صاحبها فإن النهي كرهت كما كره النبي ﷺ القراءة للناعس مخافة من الغلط.

«والحمام» بتشديد الميم وهو مشتق من الحميم وهو الماء الحامي بذلك لاشتماله عليه، قال النووي: وهو مذكر باتفاق العلماء أهل للنقد.

فقوله: «وقال منصور عن إبراهيم: لا بأس بالقراءة في الحمام» تعليق من البخاري.

وإنما خصص الحمام بالذكر: لأن الغالب أن أهله أصحاب الأحداث، وقد صنف بعض العلماء كتاباً في أحكام الحمام وهو كتاب عظيم جليل مشتمل على فوائد كثيرة، بيَّن فيه ما يجب على داخله، وما يستحب، وما يحرم، وما يكره، وما يباح من غير كراهة، ونحن نذكر مسائل كثيرة منه ومن غيره فنقول:

المسألة الأولى: قال الإمام حجة الإسلام الغزالي: لا بأس بدخوله لمن أراد التنظيف أي: دخوله يباح لا استحباب فيه، ولا كراهة إلا في حق المرأة لغير عذر كما سيأتي.

قال ابن العماد: وظاهر قوله لمن أراد التنظيف وأنه يكره لمن أراد التزين.

الثانية: يجوز لأهل الذمة كاليهود والنصارى الدخول مع المسلمين لحماماتهم ، لكن إذا دخلوا حماماً فيه مسلمون أمر كل واحد منهم أن يجعل في عنقه خاتماً من حديد أو رصاص أو نحوه، أو في رجله خلخال، ليتميز بذلك عن المسلمين، فلا يوقر ولا يحترم هذا في رجالهم، وأما نساء أهل الذمة فليس لهن الدخول مع المسلمات للحمامات.

قال الدميري: وصح عن ابن عمر منع الذميات من دخول الحمامات مع المسلمات.

قال العلماء: ويحرم على الكافرة أن تنظر إلى المسلمة في الحمام وغيره، ويحرم على المسلمة التكشف بحضرتها ، لكن إذا كانت الكافرة مملوكة للمسلمة، أو محرماً لها فلا يحرم التكشف بحضرتها للحاجة.

قال ابن عبد السلام :الفاسق مع العفيفة كالذمية مع المسلمة.

الثالثة: قال العلماء: الصلاة في الحمام مكروهة لكنها تصح، قال النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً إلا الحمام، والمقبرة».

واختلفوا في سبب الكراهة:

فقيل: أنه مأوى الشياطين وهذه العلة تقتضي كراهة الصلاة في الأسواق.

قال في نزهة الناظرين: وروي عن أبي أمامة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال: يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيماً فاجعل لي بيتاً قال: الحمام، قال: فاجعل لي مجلساً قال: الأسواق ومجامع الطرق، قال: فاجعل لي طعاماً قال: ما لم يذكر اسم الله عليه، قال: اجعل لي شراباً قال: كل مسكر، قال: اجعل لي مؤذناً قال: المزامير، قال: اجعل لي قرآناً قال: الشعر، قال: اجعل لي كتاباً قال: الوشم، قال: اجعل لي حديثاً قال: الكذب، قال: اجعل لي مصائد قال: النساء**»[1].

وقيل: علة كراهة الصلاة في الحمام غلبة النجاسة فيه.

ويتفرع على هاتين العلتين ما لو غسل موضعاً لا يتحقق طهره لم تكره الصلاة فيه علي العلة الثانية وهي: غلبة النجاسة لطهارة النجاسة، وتكره على االأولى.

وأما لو صلى في مسلخ الحمام وهو الموضع الذي توضع فيه الثياب فإنه تكره فيه على العلة الأولى دون الثانية.

قال العلماء: ولو دخل الإنسان الحمام وشك في طهارة موضع بنى على الأصل وهو: الطهارة وصلى فيه، ولو دخل الحمام وخرج وقت الصلاة وجب عليه أن يصليها في الحمام، مراعاة لحرمة الوقت.

فلو هجر الحمام وترك استعمالها هل تكره الصلاة فيها؟

قال ابن العماد: احتمل أن يقال ببقاء الكراهة استصحاباً لما كان، واحتمل أن يقال بزوال الكراهة، لأن الشيطان إنما ألفه لما كان يبدو فيه كشف العورة والفواحش، وفي هذه الحالة خال من ذلك وهذا هو المعتمد.

وكذا لو اتخذ الحمام على هيئة مسكناً، وكذا لو بنى حماماً وصلى فيه قبل سوق الماء إليه فلا يطلق عليه حماماً إلا مجازاً باعتبار ما يؤول إليه، وكذا لوا اتخذ دار عند الحمام للسكنى لم تكره الصلاة فيه.

الرابعة: لو دخل فرأى فيه شعر مطروحاً فإن تحقق أنه شعر امرأة أجنبية فلا ينظر إليه، لأن ما حرم النظر إليه متصلاً حرم النظر إليه منفصلاً، وإن رأى شعر رجل فإن

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/٢٠٧، رقم ٧٨٣٧) عن أبي أمامة.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١١٩): رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف.

تحقق أنه من الشعر النابت على عورته كشعر العانة، وما بين السرة والركبة حرم النظر إليه أيضا، وإن علم أن من غير العورة جاز النظر إليه، وإن شك أنه من العورة أو غيرها، أو شك هل هو من ذكر أو امرأة فالأولى تحريم النظر إليه، كما يحرم النظر إلى الخنثى، وإن لم يكن متحقق الأنوثة احتياطاً لجانب التحريم.

فائدة: قال العلماء: يستحب للإنسان أن يدفن أجزائه المنفصلة منه كالشعر والظفر ونحوه اعتناء بكرامة الآدمي فلا يترك أجزائه ملقاة على الأرض وينبغي له دفنها، وكذا وهو في الحمام إذا حلق الرأس أن لا يترك شعره يجري به في السرابات، بل يستحب جمعه ودفنه إذا خرج، والحكمة في دفنها لأن كل ما انفصل منه سيجمع معه يوم القيامة.

الخامسة: ينبغي لمن عليه غسل وأراد حلق شعر رأسه أن يطهره من الحدث الأكبر قبل حلقه، ولهذا يستحب للمضحي في عشر ذي الحجة أن لا يقص من شعره وظفره شيئاً حتى يضحي حتى تشمله المغفرة كله فلا يحرم شعره وظفره منها.

وينبغي التنبيه لهذا فإن كثيراً من الناس يغفلون عن ذكره.

السادسة: جرت عادة كثير من الناس بحلق الشعر الذي تحت الإبط داخل الحمام، والأفضل فيه النتف، إلا أن يضر النتف فيتعين حلقه، ويكره نتفه كما قال الصميري، ونقل عن علي كرم الله وجهه أنه كان يطلي إبطه بالنورة ويقول: إن نتفها يضعف البصر.

وكان الشافعي يحلق تحت إبطه في الحمام واعتذر إلى الربيع بأنه يكره النتف.

فائدة: قال العلماء: حلق الرأس أمر مباح لا ثواب فيه، ولا أثم بفعله إلا لعارض كالإحرام فإنه يحرم على المحرم أن يأخذ شيئاً من شعره إلى أن يتحلل ثم ذكر العلماء صوراً يستحب فيها حلق الرأس:

الصورة الأولى: المولود يستحب حلق رأسه يوم سابعه ذكراً كان أو أنثى، ويستحب التصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة.

الصورة الثانية: الكافر إذا أسلم فإن الشافعي نص في الأم على أنه يستحب له أن يحلق رأسه، وتبعه الأصحاب، ففي الحديث: «**الق عنك شعر الكفر**».

الصورة الثالثة: حلق رأس المحرم بحج أو عمره فقد ذكر العلماء أن حلق جميعه مستحب.

الصورة الرابعة: عند حصول أذى فيه من وسخ، أو هوام لاسيما إذ منع الخشوع

في الصلاة.

فائدة أخرى: إذا جلس في الحمام بين يدي الحلاق وقال: احلق رأسي، و لم يسم له أجره، وجلس وهو ساكت فحلق له لم يستحق الحلاق أجرة، لأنه تبرع بالعمل.

ونظير هذه المسألة ما لو قال الغاسل: اغسل لي ثوبي فغسله فأصح الأوجه: أن الغاسل لا يستحق الأجرة لتبرعه بالعمل.

ومثل هذا ما لو جلس إنسان عند طباخ وقال: اطعمني أوقية من اللحم مثلاً، و لم يسم له ثمناً فأطعمه لم يستحق عليه قيمة، لأنه بالتقديم له سلطه عليه، بخلاف ما لو دخل الحمام، و لم يسم أجرة فإن الأجرة تجب عليه كما قاله الرافعي، والفرق بين داخل الحمام أنه يستوفي المنفعة من غير المالك بخلاف غيره ممن تقدم.

المسألة الرابعة: قال العلماء: إذا دخل الحمام ووضع ثيابه في المسلخ، و لم يقل للقيم: احفظ ثيابي فضاعت وسرقت فلا ضمان في الحمام، لأنه لم يستحفظه وهو لم يلتزم الحفظ.

الثامنة: إذا دخل الحمام ثم خرج فوجد غيره قد لبس ثيابه، وترك له ثياباً لم يجز له لبسها، سواء أعلم ذلك الغير أو جهله، إلا أنه يتحقق رضاه، وعلى لابس ثيابه ردها عند العلم بها وضمانها إذا تلفت، والأجرة وأرش النقص إذا تعيبت.

ونظير هذه المسئلة ما إذا دخل الإنسان مكاناً جامعاً أو غيره، ثم خرج فوجد غيره قد أخذ نعله فإنه يحرم عليه لبسه وكثير من الناس تلتبس نعالهم فيتساهلون ويلبسون ما يجدون وهو حرام.

التاسعة: جرت عادة كثير من الناس بدخول الحمام للوضوء ونقل الماء إلى بيوتهم في الأباريق وغيرها، فهذا لا يجوز فعله إلا برضا صاحبه الحمامي، فإن جرت العادة بالتسامح بمثل هذا جاز الوضوء، وإن جرت عادة وشك في رضا الحمامي كما هو الغالب حرم الوضوء والنقل إلا بعوض، فإن خالف وفعل عصى وعليه ثمن ما أتلف.

العاشرة: لا بأس لداخل الحمام أن يأمر غيره بدلك بدنه، لكن يحرم عليه تمكينه من مس العورة، وبعض الناس يُمكِّن الدلاَّك من مس عورته ودلكها بيده وهو حرام، وأفحش من هذا ما يفعل بعض الفساق من تمكين الحلاق بحلق عانته، ولا يفعل هذا إلا من استكملت فيه خصال الدناءة، والرذالة، ولا يحل لرجل دلك بدن امرأة أجنبية وغير زوجته، ولا دلك الأمرد الحسن.

فائدة: يجوز التدلك بالنخالة لداخل الحمام وغيره، قال في شرح المهذب: و لم

يتعرضوا للتدليك بالدقيق وينبغي كراهته لقوله ﷺ: «**اكرموا الخبز، فإن الله تعالى أنزله من بركات السماء**»[1].

وأما التدلك بنحو دقاق الترمس فمباح لأنها أدوية لإزالة الوسخ.

الحادية عشر: إذا سبق بعض الناس إلى بعض الحِياض، أو الأَجران في الحمام فجلس عليه لم يكن لمن أتى بعده إزعاجه حتى يقضي حاجته، أما إن قعد من غير حاجة فله إزعاجه.

الثانية عشر: قال العراقي من الشافعية: يحرم على داخل الحمام غمس يديه إذا

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٣٢/١، رقم ١٥) عن عبد الله بن أم حرام الأنصاري بلفظ قريب من هذا اللفظ.

وكذا أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٤٦/٥)، وابن قانع في معجم الصحابة (١٠٧/٢).

والحديث ضعيف جداً آفته: عبد الملك بن عبد الرحمن أبو العباس الشامي، ترجم له العقيلي في الضعفاء (٢٧/٣، ترجمة: ٩٨٢) ونقل عن البخاري قوله: ضعفه عمرو بن علي جداً، منكر الحديث، ثم ساق حديثه هذا.

وترجم له ابن حبان في المجروحين (١٣٣/٢، ترجمة: ٧٣٢) وقال: كان ممن يسرق الحديث ويقلب الأسانيد لا يحل ذكر حديثه إلا عند أهل الصناعة فكيف الاحتجاج به وهو الذي روى عن إبراهيم بن أبي عبلة عن عبد الله بن أم حرام عن النبي ﷺ قال: «أكرموا الخبز فإن الله سخر له بركات السماوات».

وانظر ترجمته أيضاً في ميزان الإعتدال (٤٠٣/٤، ترجمة: ٥٢٢٩).

وأخرجه الحاكم في المستدرك (١٣٦/٤، رقم ٧١٤٥) وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٨٤، رقم ٥٨٦٩) كلاهما عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «أكرموا الخبز» قال: «ومن كرامته أن لا ينتظر الأدم».

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٣٥/٢٢، رقم ٨٤٠) عن أبي سكينة مرفوعاً بلفظ: «أكرموا الخبز فإن الله أكرمه فمن أكرم الخبز أكرمه الله».

وأخرجه الديلمي في الفردوس (٦٨/١، رقم ٢٠٠) عن أبي هريرة بلفظ: «أكرموا الخبز فإن الله ﷻ سخر له بركات السموات والأرض، ولا تسندوا القصعة بالخبز فإنه ما أهانه قوم إلا ابتلاهم الله بالجوع».

وذكره الحافظ في الإصابة (٦٢٥/٢، ترجمة: ٢٩٥١ زيد أبو عبد الله) فقال: روى بن منده من طريق ابن شهاب عن طلحة بن زيد عن ثور بن زيد عن عبد الله بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ أكرموا الخبز فإن الله أنزل معه بركات السماء، وأخرج له بركات الأرض».

ثم قال: قلت: قال ابن المديني: طلحة بن زيد كان يضع الحديث.

كانت منتجسة في ماء دون القلتين، لأنه يفسده على غيره.

قال: ومن الناس من قال: يحرم على الجنب غمس يده في جرن ونحوه إذا كان ماؤه دون القلتين بعد نية رفع الجنابة، وقبل الاغتراف لأن الماء يصير حينئذ مستعملاً فيفسده على غيره.

قال: ولو رأى شافعي شافعياً يفعل ذلك وجب عليه نهيه إن كان عالماً، وتعليمه إن كان جاهلاً لهجومه على فعل محرم، بخلاف ما إذا رأى مالكياً يفعل ذلك فليس له نهيه ومنعه لن عنده لا ينجس الماء إلا بخلاف حاله هاهنا، بل يتلطف به يقول: متى أدخلت يدك قبل غسلها في الماء أفسدته علي.

الثالثة عشر: الماء الذي يجتمع من بخار الحمام على الجدران وسقف الحمام ويتقاطر على من هو داخل الحمام محكوم بنجاسته، إن كانت الحيطان والسقوف مبنية بنجس، وكانت مليسته بطين نجس ونحوه، وإن كانت مبنية بطاهر ومليسة بشيء طاهر فما تقاطر منه طاهر، وإن شك في بناء الحمام فالأصل الطهارة إلا إذا اطردت العادة بالبناء وللتليس بالشيء النجس، فإنه يحكم بنجاسة المتقاطر، كما قاله الماوردي.

وقد ذكر الغزالي وغيره أنه يجب على داخل الحمام أشياء ويستحب له أشياء.

أما الواجب عليه فأربعة أشياء، شيئان متعلقان بعورته، فيجب عليه سترها عن نظر غيره، وإن لا يمكن غيره من مسها، فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيده، وشيئان متعلقان بعورة غيره فيجب عليه أن يغض بصره عنها، وأن ينهاه عن كشفها لأن النهي عن المنكر واجب، ولا يسقط الإنكار إلا بخوف ضرب أو شتم أو نحوه، إلا لظنه أنه لا يفيد.

وُرؤي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الحمام ووجهه إلى الحائط، وقد عصب عينيه.

وقال الحسن رحمه الله: لا يصلح دخول الحمام إلا بإزارين، إزار للعورة وإزار للعينين، وأرد بإزار العينين غض البصر عن عورات الناس.

وأما السنن فقال الغزالي: إنها عشرة:

السنه الأولى: أن يدخلها بقصد التنظيف المحبوب والتطهير لا عبثاً، ولا لغرض الدنيا كالترف والتنعيم.

السنة الثانية: أن يعطي الحمامي الأجرة قبل دخوله وهنا فوائد.

الأولى: قال العلماء: إذا دخل الحمام فدفع الأجرة للحمامي، فوجد الماء شديد

الحرارة لا يستطيع استعماله، أو وجده بارداً على خلاف العادة لم يكن له الرجوع بما دفعه من الأجرة بمجرد ذلك، بل إن بادر الحمامي وأصلحه على الفور فلا خيار له، وإن لم يمكّن الحمامي من إصلاحه على الفور، بل احتاج في جمع الوقود وسوق الماء إلى طول الزمن فللداخل الخيار في الرجوع بالأجرة، لأن في تكليفه الصبر تعطيل عن مصالحه.

والثانية: إن أعطى الحمامي الأجرة ودخل فزاد في المكث فيه على خلاف العادة كنصف يوم مثلاً، فالظاهر وكما قاله ابن العماد: أنه لا يجوز ذلك، بل يمكث على العادة مقدار أن تنقضي فيه حاجته، لأن طول الإقامة استعمال الفوطة التي بذل الأجرة في مقابلتها، ومقابلة الطست ونحوه، وأيضاً يؤدي إلى حبس هذه الأمور عن مالكها لغير حاجه وذلك لا يجوز.

الثالثة: إذا وزن الأجرة ودخل لغسل الجنابة فاغتسل وخرج، فذكر ترك النية قال ابن العماد: فيحتمل أن يقال ليس له الدخول ثانياً لإعادة الغسل إلا بوزن الأجرة، لأن التقصير منه، ولأن ما دفعه من الأجرة أولاً إنما دفعه في مقابلة الفوطة والطاسة ونحوها على الصحيح، وقد حبسها مرة يمكن الانتفاع فلم ينتفع قال: ويحتمل بقاء الاستحقاق، لأن العادة يتسامح بمثل هذا.

الرابعة: إذا اختلف داخل الحمام والحمامي في دفع الأجرة، فالقول قول الداخل في دفع الأجرة، إن كانت الإجارة إجارة ذمة كأن قال لصاحب الحمام: ألزمت ذمتك تحصيل مئزر وقصعة ومقدار من الماء في الوقت الفلاني لأن الظاهر معه، لأنه يدعي صحة الإجارة، والحمامي يدعي فسادها بعدم قبض المعوض في مجلس العقد، وإن كانت الإجارة إجارة عين فالقول قول الحمامي، لأن الأصل عدم الأجرة.

قال العلماء: أما إذا اختلف الحمامي والداخل في الثياب الموضوعة في المسلخ، فقال له الحمامي: هذه ثيابك التي وضعتها، وقال الداخل: ما وضعت هذه وإنما وضعت ثياباً غيرها أجود منها، فالقول قول الحمامي لأنه أمين.

قال ابن العماد: وهذه المسألة لا ينبغي تعليمها لقيام الحمامات مخافة أن يبدلوا الثياب بغيرها.

قال العلماء: لو اختلف الداخل والحمامي في الثياب بعد ما ضاعت، فقال المالك: استحفظتك ثيابي فأنت ضامن لها، وقال له الحمامي لم تستحفظني، لم يضمن الحمامي لأنه أمين كما لايضمن غيره من الأمناء، وإذا غاب الحمامي واستخلف صبياً وقيماً لم

يجز دفع الأجرة فإن دفعها إليه لم تبرأ ذمته، لأن الذمة إنما تبرأ بقبض صحيح.

السنة الثالثة: من سنن داخل الحمام أنه يقدم يساره عند دخوله قائلاً ما يقوله داخل الخلاء وهو: «بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم» ويقدم في خروجه يمينه.

السنة الرابعة: أن يتحرى وقت الخلوة، أو يتكلف إخلاؤه، فإنه وإن لم يكن فيه إلا أهل الدين فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شوب من قلة الحياء، وهو مرتكز للفكر في العورات، ثم لا يخلو الناس في الحركات عن انكشاف العورة، فيقع عليها البصر فلهذا استحب إخلاؤه، والحزم في هذا الزمان ترك دخوله، إذ لا يخلو عن كشف عورات مكشوفة، لا سيما ما فوق العانة وتحت السرة، وقالوا: من الأدب إذا دخله فرأى عرياناً أن يرجع.

السنة الخامسة: أن لا يعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق في الأول.

السنة السادسة: أن لا يكثر صب الماء، بل يقتصر على قدر الحاجة، فهو المأذون فيه.

السنة السابعة: أن يذكر بحره حر النار.

قال النووي في المجموع: وأن يذكر بحرارته حر نار جهنم لشبهه بها، وقال بعضهم: يذكر بحره النار والجنة فقد روي في الخبر: «**نعم البيت الحمام يدخله المسلم إذا دخله سأل الله ﷻ الجنة واستعاذه من النار**»[1].

وروي عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري أنهما قالا: «نعم البيت الحمام يطهر البدن ويذكر بالنار».

السنة الثامنة: ألا يكثر الكلام.

السنة التاسعة: أن يشكر الله تعالى إذا فرغ عن نعمة النظافة.

السنة العاشرة: أن يستغفر الله تعالى عند خروجه ويصلي ركعتين، فقد كانوا

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/٢٦٠، رقم ٦٧٦٨) عن أبي هريرة.

وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/١٠٤، رقم١١٧٠) عن أبي هريرة أيضاً بلفظ: «نعم البيت الحمام يذهب الدرن ويذكر النار».

وأخرجه الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/٣٤٦) عن ابن عمر من قوله بلفظ: «نعم البيت الحمام يذهب الوسخ ويذكر بالنار».

قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٢٧): رواه ابن منيع بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يقولون: يوم الحمام يوم أثم، لهذا قال بعضهم: بئس البيت الحمام يبدي العورة ويذهب الحياء.

ويكره من جهة الطب صب الماء البارد على رأسه عند الخروج منه، ويكره شربه أيضاً.

قال ابن العماد: ويكره شربه أيضاً، لأنه يورث السل، ويكره أيضاً دخوله قبيل المغرب وبين العشائين كما قاله الجرجاني، والمحاملي.

وذكر حجة الإسلام الغزالي لداخل الحمام سنناً منها:

أن يستعمل النورة في كل شهر مرة فقد قيل: النورة في شهر مرة تطفئ المرة الصفراء، وتنقي اللون، وتزيد في الجماع، وأن يستحم بعد النورة قال: فإنه أمان من الجذام.

ومنها: قال: بوله في الحمام قائماً في الشتاء أنفع من شربه دواء، قال: ونومه في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء.

ومنها: أنه قال: غسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس.

ومنها: أن لا يدخله جائعاً، فإذا دخله جائعاً يأكل عقب الخروج.

واختلف العلماء في جواز دخول المرأة الحمام لغير عذر، فقال الشافعي وغيره: أنه حرام، وبه قال ابن هبيرة واستدلوا على ذلك بما رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ستفتح لكم أرض العجم وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات فلا يدخلنها الرجال إلا بالأزر وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء**»[1].

وروى أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من ذكور أمتي فلا يدخل الحمام إلا بمئزر، ومن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر من إناث أمتي فلا تدخل الحمام لغير ضرورة**»[2].

لكن قال النووي في الروضة: قلت: الأصح الأشهر أنه لا يحرم عليهن، لكن يكره

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٣٩، رقم ٤٠١١) عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً.
وأخرجه أيضاً: ابن المنذر في الأوسط (٢/١٢٣، رقم ٦٥٨).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٠، رقم ١٢٥) عن أبي هريرة.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢٧٧): رواه أحمد، وفيه: أبو جبرة، قال الذهبي: لا يعرف.

إن لم يكن عذر، وبه قطع أبو بكر السمعاني.

أما دخولها لضرورة من حيض، أو نفاس، أو جنابة، أو مرض فإنه جائز من غير كراهة في ذلك كما دل عليه الحديث السابق.

خاتمة: أفاد بعض العلماء أن الحمام، والطاحون، والقزاز، والصابون، والنورة من عمل الجن.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أول من دخل الحمام وصنعت له النورة والصابون سليمان بن داود، وإن الحمام والنورة عملا لأجل بلقيس لما رأى على ساقها الشعر.

وأصل قصة بلقيس أنه لما وقع بينها وبين سليمان المراسلة، أرسلت إليه أني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما تدعونا إليه من دينك، فلما أردت الرحيل إليه جعلت سريرها وهو العرش الذي ذكره الله في كتابه بقوله: ﴿**وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾[النمل: ٢٣]، وكان طوله ثمانين ذراعاً، وعرضه أربعين ذراعاً، وارتفاعه ثلاثين ذراعاً، وكان معمولاً من الذهب والفضة،مكللاً بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والزمرد، داخله سبعة أبواب من داخل قصرها داخلا في سبعة قصور، ثم أغلقت الأبواب كلها، وجعلت عليها حرساً وأوصتهم بحفظه ثم ارتحلت إلى سليمان في أثني عشر ألفاً، وقيل: في ألوف كثيرة فلما نزلت على فرسخ من سليمان أراد أخذ عرشها قبل أن تصل إليه مسلمة ليرها قدرة الله تعالى، وما أعطاه لأنبيائه من المعجزة، ثم أقبل على جنوده: فقال ﴿**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ**﴾ وهو صخر الجني ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ**﴾ إن اخترت ﴿**قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**﴾ أي: مجلسك الذي تقضي فيه بين الناس من طلوع الشمس إلى نصف النهار ﴿**وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**﴾[النمل: ٣٨، ٣٩] أي: قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجواهر.

فقال سليمان: أريد أسرع من ذلك ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو الخضر، وقيل: آصف بن برخيا، وكان وزير سليمان، وقد كان قد تعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ إذا مددته، والمعنى: أنا آتيك به في أسرع وقت.

فقال آصف لسليمان: مد عينيك حتى ينتهي طرفك، فنظر سليمان إلى السماء، وقيل: نظر إلى ناحية اليمن فدعا آصف فغار عرش بلقيس في الأرض ونبع من تحت

كرسي سليمان، وكانت المسافة بينهما شهرين فرد سليمان طرفه فوجده موضوعاً عنده.

وقيل: وكان الدعاء الذي دعا به أصف: يا ذا الجلال والإكرام، وقيل: يا حي يا قيوم، وقيل: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت أئتني بعرشها، ﴿**فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ**﴾ ثابتاً لديه قد حمل من مملكتها إلى الشام في أيسر مدة ﴿**قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾[النمل: ٤٠].

فلما جاءت بلقيس قيل لها: ﴿**أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ**﴾[النمل: ٤٢] عرفته، ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها فعرف سليمان عقلها، حيث لم تقر ولم تنكر، وكان سليمان قد بسط لها أمام كرسيه زجاجاً أبيضاً شفافاً تحته ماء جاري فيه سمك وهو الصرح الذي ذكره الله بقوله: ﴿**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ**﴾ واصطنعه سليمان لما قيل له: إن ساقيها ورجليها كقدمي حمار، فأراد أن يراها قبل الاجتماع بها، فلما وصلت قيل لها: ﴿**فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً**﴾ أي: ماء عظيماً، ﴿**وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا**﴾ حتى تخوض فيه، فرأها سليمان أحسن الناس ساقاً لكنه رأى على ساقيها شعر فصرف وجهه عنها، وقال هذا ليس بماء، بل ﴿**إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ**﴾ أي: قزاز أملس مستو، ثم دعاها إلى الإسلام، فأجابت وأسلمت كما قال تعالى حكاية عنها ﴿**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[النمل: ٤٤] وأراد أن يتزوجها فكره شعر ساقيها فعملت له الشياطين النورة، فأزالته بها فتزوجها وأحبها حباً شديداً وأقرها على ملكها، وأمر الجن فبنوا لها باليمن ثلاث قصور لم ير مثلها حسناً وارتفاعاً، وكان يزورها في ملكها كل شهره مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام، وانقضاء ملكها بانقضاء ملك سليمان.

روي أنه ملك وهو ابن ثلاثة عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فسبحان من لا انقضاء لدوام ملكه.

***

قال البخاري: «**وقال حماد**» أي: ابن أبي سليمان الأشعري الكوفي، وهو شيخ الإسلام أبو حنيفة مات في سنة عشرين ومائة.

«**عن إبراهيم**» أي: النخعي.

«**إن كان عليهم إزار**» أي: على أهل الحمام، وهو: الثوب الذي يلبس في أسفل

من الساق بخلاف الرداء فإنه الذي يلبس في النصف الأعلى.

«**فسلم عليهم**» أي: على أهل الحمام.

«**وإلا فلا تسلم**» عليهم.

والمعنى: أن حماداً نقل عن إبراهيم النخعي أنه قال: إن كان على أهل الحمام إزاراً ساتراً للعورة فسلم عليهم، وإن لم يكن عليهم ساتراً للعورة فلا.

والذي قاله علماء الشافعية: إنه لا يستحب السلام على من في الحمام مطلقاً.

قال العلماء: السلام على كل أحد سنة عرفه المسلم أم لم يعرفه لا على جمعة من الناس، فإنه سيسلم عليهم وهو على ثلاثة أقسام:

الأول: لا يستحب السلام عليه، ولا يكره، الثاني: يكره السلام، الثالث: يحرم السلام عليه.

أما القسم الأول فالسلام على النائم، أو الناعس، أو المصلي، والمؤذن في حال أذانه وأقامته، فإنه لا يتسحب ولا يكره، وكذا السلام على الأكل، واللقمة في فمه، نعم إذا كانت اللقمة في فمه فلا بأس بالسلام عليه، وكذلك من في الحمام لا يستحب السلام عليه ولا يكره، وكذا الشارب كما في التعليقة فإنه لا يستحب ولا يكره، وأهل مسلخ الحمام وهو محل نزع الثياب كداخله في عدم استحباب السلام.

وإن قلت: لا يستحب السلام فيه على من في الحمام لاشتغاله بالغسل أفيستحب السلام فيه على من في المسلخ؟

قال القاضي زكريا: وهو الظاهر، وعليه جري الزركشي وغيره.

وقال النووي في الأذكار: وأما المبتدع ومن اقترف ذنباً عظيماً و لم يتب منه فينبغي أن لا يسلم عليهم، ولا يرد عليهم كما قاله البخاري وغيره من العلماء، إلا إذا اضطر إلى السلام على الظلمة بأن دخل عليهم وخاف ترتب مفسدة في دينه أو دنياه وغيرهما إن لم يسلم فإنه يسلم عليهم.

قال ابن العربي: قال العلماء: يسلم وينوي أن أسماء الله تعالى عليهم، والمعنى: إن الله رقيب عليكم.

وأما القسم الثاني: يكره السلام على المشتغل بسماع الخطبة في حال كون الخطيب يخطب، فإنه مكروه لأنه مأمور بالإنصات للخطبة.

ومنه: السلام على المشتغل بالبول والجماع فإنه مكروه أيضاً، للنهي عنه ولأن مكالمته بعيدة عن الأدب والمروءة.

ومنه: المشتغل بالدعاء إذا كان مستغرقاً فيه مجتمع القلب عليه، فقد قال النووي: الأظهر عندي أن هذا يكره السلام عليه لأنه يتنكد به ويشق عليه أكثر من مشقة الأكل، وإذا كان القارئ مستغرقاً في تدبر القرآن مجتمع القلب عليه فهو كالداعي في كراهة السلام عليه، فإذا لم يكن كذلك فإنه يستحب السلام عليه ويجب عليه الرد.

قال النووي: ومنه الملبي بالإحرام فإنه يكره السلام عليه لأنه يكره له قطع التلبية.

ومنه: سلام الرجل على المرأة الشابة الأجنبية فإنه مكروه كالرد عليه.

وأما القسم الثالث: فالسلام على الذمي فإنه حرام، كما قطع به أكثر العلماء ، فقد ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه**»[1].

قال العلماء: وإذا سلم على شخص ظنه مسلماً فبان ذمياً فيستحب له أن يسترد سلامه بأن يقول رد عليَّ سلامي، كما وقع لابن عمر فإنه سلم على رجل فقيل له: إنه يهودي فتبعه وقال له: «رد عليَّ سلامي»، والحكمة في ذلك أن يظهر للذي ليس بينهما ألفة ولا مودة، بل وحشة.

فائدة: رد السلام فرض كفاية إن كان المسلَّم عليه جماعة، وفرض عين إن كان المسلَّم عليه واحداً مكلفاً، نعم ذكر العلماء جماعة لا يجب عليهم رد السلام، وقسم يستحب له.

الأول: المصلي ونحوه كساجد التلاوة أو شكر إذا سلم عليه شخص لا يجب عليه الرد، بل يستحب له أن يرد عليه في الصلاة بالإشارة، ولا يتلفظ بشيء، وإن رد بعد الفراغ من الصلاة باللفظ فلا بأس، أما إذا رد عليه في الصلاة بقوله: وعليكم السلام فإنه يأثم بذلك، وتبطل صلاته، إن كان عالماً بتحريمه، وإن كان جاهلاً فلا إثم ولا بطلان، وإن رد عليه بقوله: عليهم السلام بلفظ الغيبة لم تبطل صلاته لأنه دعاء ليس بخطاب.

الثاني: في الأكل إذا سلم عليه إنسان لا يجب عليه رد السلام، بل يستحب هذا إذا كان اللقمة في فمه، أما إذا لم تكن في فمه وكانت في يده فيجب عليه رد السلام.

الثالث: المشغول بالشرب لا يجب عليه الرد، بل يستحب.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/١٥٤، رقم ١٦٠٢) بلفظه عن أبي هريرة وقال: حديث حسن صحيح.

الرابع: المشغول بقراءة القرآن لا يجب عليه الرد على قول الواحدي باللفظ، بل يكفيه الإشارة، والذي رجحه النووي وجب على الرد باللفظ.

الخامس: المشغول بالدعاء المستغرق فيه لا يجب عليه الرد.

السادس: المشغول بالذكر لا يجب عليه الرد قاله ابن العماد، أقول: والظاهر وجوب الرد إذا لم يكن مستغرقاً فيه.

السابع: المستمع للخطبة لا يجب عليه الرد قاله ابن العماد ، لكن صرح القاضي زكريا في شرح الروض في صلاة يوم الجمعة بوجوب الرد عليه، وقال: ليس لنا من يكره السلام عليه مع وجوب الرد غيره

الثامن: المشغول بالتلبية لا يجب عليه الرد ولكن يستحب.

التاسع: المشغول بقضاء حاجته كالبول لا يجب عليه الرد، بل يكره له الرد.

العاشر: المشغول بالأذان لا يجب عليه، لكن يجب أن يرد بالإشارة كالمصلي، فإن رد باللفظ المعتاد فلا يكره، ولا يخل بالأذان لأن ذلك يسيراً.

الحادي عشر: المشغول بالإقامة كالمشغول بالأذان.

الثاني عشر: إذا سلم على صبي لا يجب عليه الرد قاله بن العماد، لكن من صرح غيره بوجوب الرد.

الثالث عشر: إذا سلم السكران لا يجب عليه الرد في أصح الوجهين في شرح المهذب، لأن السلام عبادة وهي لا تقصد منه.

الرابع عشر: إذا سلمت عليه امرأة شابة أجنبية لا يجب عليه الرد، بل يكره له أن يرد عليها.

الرابع عشر: إذا سلم على فاسق لا يجب عليه الرد.

الخامس عشر: إذا سلم عليه نائم لا يجب عليه الرد لعدم قصده.

السادس عشر: إذا سلم عليه ناس لا يجب عليه الرد لعدم قصده كالنائم.

السابع عشر: المشغول بالجماع لا يجب عليه الرد، بل يكره له الرد.

الثامن عشر: الحاكم كونه بالمحاكمة قاله ابن العماد.

التاسع عشر: إذا سلم على من في الحمام لا يجب عليه الرد، بل يستحب له الرد باللفظ.

العشرون: إذا سلم عليه المجنون لا يجب عليه الرد على الأصح، لأن السلام عبادة وهي لا تقصد منه والله أعلم.

المجلس الخمسون

في الكلام إذا أُلقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة وما في حديثه من الفوائد وفي ذكر شيء من أخبار أبي جهل اللعين ومن قتله وفي أي غزوة قتل وذكر عقبة بن أبي معيط وكيف قتل

الحمد لله الذي قصم الجبابرة، وخصم ذوي المكاثرة المكابرة، وفصم عرى الطائفة الكافرة، ووصم القلوب النافرة، بالأسهم النافذة الناصرة، وبعث الخلائق من الأجداث فإنما هي زجرة واحدة، فإذا هم بالساهرة.

أحمده على نعمه الباطنة والظاهرة، وأشكره على نعمه المتواترة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة كواكبها سافرة، وكتابيها ظافرة، ومناقبها فاخرة، وسحايبها هامرة، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ﷺ الذي أحيا المعالم الداثرة، ونوَّر قطب الدائرة، وسلب ملك القياصر والأكاسرة، وبشر النفوس الصابرة بالنعم الصائرة، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم صلاة أمثالها سائرة وظلالها ساترة.

قَالَ البُخَارِي:

باب إِذَا أُلْقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْمُصَلِّي قَذَرٌ أَوْ جِيفَةٌ لَمْ تَفْسُدْ عَلَيْهِ صَلاَتُهُ

حَدَّثَنَا عَبْدَانُ[1]، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ

---

(١) فصل القول على سند هذا الحديث الحافظ ابن حجر سند هذا الحديث فقال: قوله «حدثنا عبدان» أعاده المصنف أي البخاري في أواخر الجزية عنه فقال: «حدثنا عبدان» هو عبد الله بن عثمان وعرفنا من سياقه هناك أن اللفظ هنا لرواية أحمد بن عثمان، وإنما قرنها برواية عبدان تقوية لها، لأن في إبراهيم بن يوسف مقالاً، وأحمد المذكور هو ابن عثمان بن حكيم الأودي الكوفي، وهو من صغار شيوخ البخاري، وله في هذا الحديث إسناد آخر أخرجه النسائي عنه عن خالد بن مخلد عن علي بن صالح عن أبي إسحاق، ورجال إسناده جميعاً كوفيون وأبو إسحاق هو السبيعي، ويوسف الراوي عنه هو ابن ابنه إسحاق وأفادت روايته التصريح بالتحديث لأبي إسحاق عن عمرو بن ميمون، ولعمرو عن عبد الله، وعينت أيضاً عبد الله بأنه ابن مسعود وعمرو بن ميمون هو الأودي تابعي كبير مخضرم أسلم في عهد النبي ﷺ ولم يره، ثم نزل الكوفة .

وهذا الحديث لا يروى عن النبي ﷺ إلا بإسناد أبي إسحاق هذا وقد رواه الشيخان من طريق الثوري والبخاري أيضاً من طريق إسرائيل وزهير، ومسلم من رواية زكريا بن أبي زائدة وكلهم عن أبي إسحاق. انظر فتح الباري (١/٣٤٩).

مَيْمُون، عَنْ عَبْد اللَّه، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ سَاجِدٌ[١] (ح).

وَحَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ عُثْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُرَيْحُ بْنُ مَسْلَمَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يُوسُفَ عَنْ أَبِيه عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مَيْمُون أَنَّ عَبْدَ اللَّه بْنَ مَسْعُود حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْت، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّد إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِه، فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِه بَيْنَ كَتِفَيْه وَأَنَا أَنْظُرُ، لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنْعَةٌ . قَالَ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّه ﷺ سَاجِدٌ لاَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِه، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ : «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ**» . ثَلاَثَ مَرَّات، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ قَالَ: وَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَد مُسْتَجَابَةٌ ثُمَّ سَمَّى : «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيد بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَف، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْط».

وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْهُ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ[٢].

---

(١) ترك السفيري هذه الجملة بدون شرح وشرحها الحافظ فقال: قوله «بينا رسول الله ﷺ ساجد» بقيته من رواية عبدان المذكور: «وحوله ناس من قريش من المشركين...» ثم ساق الحديث مختصراً. انظر فتح الباري (١/٣٤٩).

(٢) قال ابن حجر: (فائدة) روى هذا الحديث ابن إسحاق في المغازي قال: حدثني الأجلح عن أبي إسحاق فذكر هذا الحديث، وزاد في آخره قصة أبي البختري مع النبي ﷺ في سؤاله إياه عن القصة وضرب أبي البختري أبا جهل وشجه إياه والقصة مشهورة في السيرة وأخرجها البزار من طريق أبي إسحاق وأشار إلى تفرد الأجلح بها عن أبي إسحاق.

ثم ذكر الحافظ الفوائد والدروس المستفادة من هذا الحديث فقال: وفي الحديث تعظيم الدعاء بمكة عند الكفار وما ازدادت ثم المسلمين إلا تعظيماً.

وفيه معرفة الكفار بصدقه ﷺ لخوفهم من دعائه، ولكن حملهم الحسد على ترك الانقياد له.

وفيه حلمه ﷺ عمن آذاه، ففي رواية الطيالسي عن شعبة في هذا الحديث أن بن مسعود قال: «لم أره دعا عليهم إلا يومئذ» وإنما استحقوا الدعاء حينئذ لما اقدموا عليه من الاستخفاف به حال عبادة ربه.

وفيه استحباب الدعاء ثلاثاً.

وفيه جواز الدعاء على الظالم لكن قال بعضهم محله ما إذا كان كافراً، فأما المسلم فيستحب =

قوله: «**أن عبد الله بن مسعود**» وهو: عبد الله بن مسعود بن غافل بالغين المنقوطة والفاء، أسلم قديماً في أول الإسلام قبل إسلام عمر بن الخطاب بزمان، وسبب إسلامه ما روي عنه أنه قال: كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط فمر بي رسول الله ﷺ فقال لي: يا غلام هل من لبن؟ قلت: نعم ولكني مؤتمن، قال: فهل من شاة حائل لم ينـــزو عليها الفحل، فأتيته بشاه فمسح ضرعها فنـــزل لبن فحلبه في إناء وشرب، وسقى أبا بكر ثم قال: للضرع أقلص فقلص، ثم قال: آتيته بعد هذا فقلت: يا رسول علمني من هذا القول، فمس رأسي وقال: «يرحمك الله فإنك عليم حليم»، ثم ضمه

= الاستغفار له والدعاء بالتوبة، ولو قيل لا دلالة فيه على الدعاء على الكافر لما كان بعيداً لاحتمال أن يكون يتحقق صلى الله عليه وسلم على أن المذكورين لا يؤمنون، والأولى أن يدعي لكل حي بالهداية.

وفيه قوة نفس فاطمة الزهراء من صغرها لشرفها في قومها ونفسها لكونها صرخت بشتمهم وهم رؤوس قريش فلم يردوا عليها.

وفيه أن المباشرة آكد من السبب والإعانة لقوله في عقبة: «أشقى القوم» مع أنه كان فيهم أبو جهل وهو أشد منه كفراً، وأذى النبي ﷺ، لكن الشقاء هنا بالنسبة إلى هذه القصة لأنهم اشتركوا في الأمر والرضا، وانفرد عقبة بالمباشرة فكان اشقاهم، ولهذا قتلوا في الحرب وقتل هو صبراً.

واستدل به على أن من حدث له في صلاته ما يمنع انعقادها ابتداء لا تبطل صلاته ولو تمادى، وعلى هذا ينـــزل كلام البخاري فلو كانت نجاسة فأزالها في الحال ولا أثر لها صحت اتفاقاً.

واستدل به على طهارة فرث ما يؤكل لحمه وعلى أن إزالة النجاسه ليست بفرض وهو ضعيف، وحمله على ما سبق أولى، وتعقب الأول بأن الفرث لم يفرد بل كان مع الدم كما في رواية إسرائيل، والدم نجس اتفاقاً، وأجيب: بأن الفرث والدم كانا داخل السلى وجلدة السلى الظاهرة طاهرة، فكان كحمل القارورة المرصصة، وتعقب بأنها ذبيحة وثني فجميع أجزائها نجسة انها ميتة، وأجيب: بأن ذلك كان قبل التعبد بتحريم ذبائحهم، وتعقب بأنه يحتاج إلى تاريخ ولا يكفي فيه الاحتمال.

وقال النووي: الجواب المرضى أنه ﷺ لم يعلم ما وضع على ظهره فاستمر في سجوده استصحاباً لأصل الطهارة، وتعقب بأنه يشكل على قولنا بوجوب الإعادة في مثل هذه الصورة، وأجاب: بأن الإعادة إنما تجب في الفريضة فإن ثبت أنها فريضة فالوقت موسع، فلعله أعاد، وتعقب: بأنه لو أعاد لنقل ولم ينقل، وبأن الله تعالى لا يقره على التمادى في صلاة فاسدة، فقد روي أنه خلع نعليه وهو في الصلاة لأن جبريل أخبره أن فيهما قذراً.

ويدل على أنه علم بما ألقى على ظهره أن فاطمة ذهبت به قبل أن يرفع رأسه وعقّب هو صلاته بالدعاء عليهم. (والله أعلم) انظر فتح الباري (١/٣٥١)

إليه رسول الله ﷺ فكان يلج عليه ويلبس نعليه ويمشي أمامه ومعه ويستره إذ اغتسل ويوقظه إذ نام.

ومن فضائله: أنه شهد مع رسول الله ﷺ بدراً والحديبية، وهاجر الهجرتين جميعاً، الأولى: إلى أرض الحبشة، والثانية: من مكة إلى المدينة، وصلى إلى القبلتين، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة.

وصفته: أنه كان رجلاً قصيراً نحيفاً طولُ رجلٍ قاعد، وكانت له شعرة تبلغ أذنيه، مات بالمدينة سنة اثنين وثلاثين ودفن بالبقيع ليلاً عن بضعٍ وستين سنة.

«أن عبد الله بن مسعود حدثه أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل»

قال العلماء: أبو جهل كافر معروف، واسمه: عمرو بن هشام، وهو قرشي مخزومي بالخاء المنقطة والزاي، كانت قريش تكنيه بأبي الحكم وكناه الشارع بأبي جهل، وأسماه يوم بدر: فرعون هذه الأمة، ورأس أئمة الكفر، ومنع أن يسمى بأبي الحكم كما منع أن يقال للمنافق: سيد، وقال: «**فإن يأت سيد فقد أسخطتم ربكم** ﷻ».

وكان لعنه الله يكنى: أبا الوليد أيضاً، وكان يعرف بابن الحنظلية، وكان أحول، وكان مأبوناً، ويدل على ذلك ما ذكره ابن سيد الناس في سيرته الكبرى أن عتبة بن ربيعة قال له: يا مصفر استه، قال العلماء: هذا رمي بالأبنة، فإنه كان يزعفر استه ومصفر إسته كلمة تقال للمتنعم المترفه.

وقد اتفق له مع رسول الله ﷺ أمور كثيرة، وشاهد من النبي ﷺ معجزات ظاهرة باهرة فلم يؤمن و لم يصدق، بل كان يقول أحياناً: هذا قليل من سحرك يا محمد.

ومن أخباره المنقولة عنه: قال: يا محمد إن أخرجت لنا طاووساً من صخرة في داري آمنت بك، فدعا النبي ﷺ ربه فصارت الصخرة تأن أنين المرأة الحامل، ثم انشقت عن طاووس صدره من ذهب ورأسه من زبرجد وجناحاه من ياقوت ورجلاه من جوهر، فلما رآه أبو جهل لعنه الله أعرض عن الإيمان وأدبر.

وقريب من هذا ما نقل عنه أنه قال للنبي ﷺ في بعض الأيام: يا محمد السماوات أوسع أم الأرض؟ قال: السماء، قال: ربك أقوى أم الصخر؟ قال: قدرة ربي، فقال: قل له يخرج من هذه الصخرة طيراً في فمه كتاب يشهد لك حتى أصدقك، فنزل جبريل وأمره أن يشير إلى الصخرة، فأشار فانشقت عن طير في فمه ورقة فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله، أمة مذنبة ورب غفور، فقال: أنت أسحر من سحرة فرعون، فقال ﷺ: وأنت لمقتول أشر من قتلة فرعون، فلما كان يوم بدر قال: جبريل: بدر

كبحر فرعون وذلك أن فرعون وقومه هلكوا بالماء وصار محمداً وقومه علي الرمل بلا ماء، تغوص أرجلهم في الرمل فضعفت قوتهم وأصابتهم الجنابة والعطش، فأرسل الله تعالى ماء مطر فاشتد الرمل تحت أقدامهم واغتسلوا من الجنابة وشربوا، ثم انحدر الماء إلى الأرض التي بها أبو جهل وقومه فصارت أرجلهم غوص في الطين، فأهلكهم الله تعالى بذلك، قال هذا بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ**﴾[الأنفال: ١١].

ومن أخباره ما ذكره العلائي في تفسيره قال: كان النبي ﷺ حول الكعبة يصلي، فقال أبو جهل من يقوم يفسد الصلاة عليه فقام بعضهم، وجاء بدم وفرث وضرب به النبي ﷺ فجاء إلى عمه أبو طالب وقال: يا عم ألا ترى ما فُعل بي؟ فأخذ سيفه ومشى معه فلطخ وجوه القوم أجمعين، فقال الله تعالى هذه الآية: ﴿**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ**﴾[الأنعام: ٢٦] فأخبره النبي ﷺ بذلك فأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمر ربك ما عليك غضاضة ... أبشر بذلك وقر منه عيونا
دعوتني وزعمت أنك ناصحي ... فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحاً بذاك يقينا

ومن أعجب ما اتفق له مع رسول الله ﷺ ما قاله ابن سيد الناس غيره أن أبا جهل لعنه الله قال: يا معشر قريش إني أعاهد الله لأجلسن له غداً ومعي حجراً ما أطيق أن أحمله أو كما قال، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني فليصنع عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد، فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدوا، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنى منه ليطرحه عليه، وقريش ينظرون فلزقت بيده ويبست يداه إلى عنقه، وأقبل يرجع القهقرى إلى خلفه ثم سأل رسول الله ﷺ أن يدعوا له ففعل، فانطلقت يده فرجع منهزماً متغير اللون، مرعوباً وقامت إليه رجال قريش وقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا أنيابه فهم

لي أن يأكلني، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: ذلك جبريل لو دنا لأخذه.

ومن أخباره الغريبة ما ذكره الماوردي في كتابه أعلام النبوة عن علي ﷺ أنه قال: لقد كنت مع رسول الله ﷺ وقد أتاه ملأ من قريش فقالوا: يا محمد إنك قد أدعيت عظيماً لم يدعه آبائك، ولا أحد من أهل بيتك ونحن نسألك أمراً إن أجبتنا إليه وأريتناه علمنا أنك نبي رسول، وإن لم تفعل علمنا بأنك ساحر كذاب، قال لهم: ما تسألون قالوا تدعو لنا هذه الشجرة حتى تتقلع بعروقها وتقف بين يديك، فقال ﷺ: إن الله على كل شيء قدير، فإن فعل الله ذلك تؤمنون وتشهدون بالحق؟ قالوا: نعم، قال: فإني سأريكم ما تطلبون وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير، وإن منكم لمن يطرح في القليب، ومن يحزب الأحزاب، ثم قال: يا أيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي بأذن الله تعالى، قال علي كرم الله وجهه: فوالذي بعثه بالحق نبياً لقد انقلعت بعروقها وجاءت ولها دوىٌ شديد حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ مرفرفة، والتف بعضها الأعلى عليه، وبعض أغصانها على منكبي، وكنت عن يمينه، فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا علواً واستكباراً: فليأتك بعضها وليبق بعضها، فأمرها بذلك فأقبل نصفها كأعجب ما يكون إقبالاً وأشدها رؤيا فكادت تلف برسول الله ﷺ، فقالوا كفراً وعتواً: فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان فأمره فرجع، فقلت: لا إله إلا الله، وأنا أول مؤمن بك يا رسول الله، وأول من آمن بأن الشجرة فعلت ذلك بأمر الله تصديقاً لنبوتك وإجلالاً لكلمتك، فقال القوم كلهم: بل ساحر كذاب عجيب السحر، وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا، قال علي: يعنونني، وهذا قاله علي في خطبته على رؤوس الأشهاد.

قال الماوري: وهذا أبلغ أية وأظهر إعجاز.

ومن أخباره أيضا: أنه اشترى من رجل جملاً وماطله في ثمنه، فأتى إلى قريش ليستعين بهم على خلاص ثمن الجمل لكونهم جماعته فقالوا له استهزاءاً: اذهب إلى محمد فإنه يخلص حقك، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد إن أبا جهل اشترى مني جملاً، وماطلني في ثمنه، فقلت لجماعته خلصوا إلي حقي منه فدلوني عليك، وقالوا: إن محمداً يخلص حقك، فمضى معه رسول الله ﷺ فطرق باب أبا جهل فعرفه فخرج وهو منذهل منه ﷺ وقال: أهلاً بأبي القاسم، فقال: أعط هذا حقه فأعطاه من فوره و لم يتأخر لحظة، ورجع رسول الله ﷺ فعيره قومه فقال: إني رأيت ما لم ترو إني رأيت والله على رأسه تنيناً فاتحاً فاه ولو أبيت لالتقمني.

ومن أخباره أيضاً: ما ساقه البخاري عنه هنا عن عمرو بن ميمون أن عبد الله بن مسعود حدثه أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت أي: عند الكعبة زادها الله شرفاً وأبو جهل وأصحابه جلوس، والمراد بأصحابه عتبة ابن ربيعة ومن معه وهم الستة الآتي ذكرهم في آخر الحديث الذي دعا عليهم رسول الله ﷺ.

«إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد»[1].

قال العلماء: «السلى» مقصورة وهو الجلد الذي يكون فيه الولد في بطن الناقة، يقال له من سائر البهائم «سلى»، ومن بني آدم «المشيمة».

«والجزور» بفتح الجيم يعني المجزور وهو ما يجزر أي: ينحر من الإبل.

والمعنى: أن أبا جهل لما رأى رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وعنده الستة الآتي ذكرهم، قال لهم: من يقوم منكم ويأتي بالجلد الذي كان فيه ولد ناقة بني فلان التي جزروها أي: نحروها، وألقوا ذلك الجلد بدمه وروثه، فيأتي به ويطرحه على ظهر محمد إذا هو سجد.

وجاء في رواية: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي في ظل الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظروا إلى هذا، أيكم يقوم إلى سلى جزور بني فلان فقام واحد منهم وهو أشقاهم كما قال في الحديث: **«فانبعث أشقى القوم فجاء به»** أي: فقام أشقى القوم مسرعاً فجاء بالسلى[2].

---

(١) قال ابن حجر: قوله: «إذ قال بعضهم» هو أبو جهل سماه مسلم من رواية زكريا المذكورة، وزاد فيه: «وقد نحرت جزور بالأمس».

والجزور من الإبل: ما يجزر أي: يقطع وهو بفتح الجيم.

والسلى مقصور بفتح المهملة هي الجلدة التي يكون فيها الولد يقال لها ذلك من البهائم، وأما من الآدميات فالمشيمة، وحكى صاحب المحكم أنه يقال فيهن أيضاً سلى.

قوله: «فيضعه» زاد في رواية إسرائيل: «فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها ثم يمهله حتى يسجد». انظر فتح الباري (١/ ٣٥٠).

(٢) قال ابن حجر: «قوله: فانبعث أشقى القوم» وللكشميهني والسرخسي: «أشقى قوم» بالتنكير ففيه مبالغة لكن المقام يقتضي الأول، لأن الشقاء هنا بالنسبة إلى أولئك الأقوام فقط، وهو عقبة بن أبي معيط بمهملتين مصغراً سماه شعبة وفي سياقه ثم المصنف اختصار يوهم أنه فعل ذلك ابتداء، وقد ساقه أبو داود الطيالسي في مسنده عن شعبة نحو رواية يوسف هذه وقال فيه: «فجاء عقبة بن أبي معيط فقذفه على ظهره». انظر فتح الباري (١/ ٣٥٠).

«**فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ ووضعه على ظهره بين كتفيه**» وهذا الشقي الذي وضع السلى على ظهر النبي وهو ساجد. عقبة بن أبي معيط لعنه الله كما صرح به في صحيح مسلم[١].

وفي غيره قال ابن الملقن: و لم يكن عقبة من قريش وإنما كان ملصقاً فيهم قال: وكان أقل القوم أذى إلا أنه سبق عليه الكتاب وحمله الحسد لرسول الله ﷺ على شدة البغض له، والزيادة في الأذى وسنذكر من قتله.

وقيل: الذي وضع السلى على ظهره ﷺ أبو جهل.

ثم قال عبد الله بن مسعود: «**وأنا أنظر**» أي: لما صنعوه برسول الله ﷺ.

«**لا أغير شيئاً، لو كانت لي منعة**» أي: لا أقدر أن أغير شيئاً مما فعلوه بالنبي ﷺ لأنه ليس لي عشيرة بمكة تمنعهم فقوله: «لو كانت لي منعة» جواب: «لو» محذوف تقديره: لو كان لي قوة أي: عشيرة بمكة يمنعونهم مني لأعتيت وكفيت شرهم أي: غيرت فعلهم[٢].

«**قال**» أي: عبد الله بن مسعود «**فجعلوا يضحكون**» أي: عليه استهزاءاً به قاتلهم الله.

«**ويحيل بعضهم إلى بعض**» يعني ينسب ذلك الفعل بعضهم إلى بعض[٣].

«**ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمه**» جاء في رواية: «إنه

---

(١) انظر حديث ابن مسعود عند مسلم (١٤١٩/٣، رقم ١٧٩٤) ففيه: «بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش إذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور فقذفه على ظهر رسول الله ﷺ فلم يرفع رأسه... الحديث».

(٢) قال ابن حجر: «قوله: لو كانت لي منعة» قال النووي: المنعة بفتح النون القوة، قال: وحكى الإسكان وهو ضعيف، وجزم القرطبي بسكون النون، قال: ويجوز الفتح على أنه جمع مانع ككاتب وكتبة، وقد رجح القزاز والهروي الإسكان في المفرد وعكس ذلك صاحب إصلاح المنطق وهو معتمد النووي، قال: وإنما قال ذلك لأنه لم يكن له بمكة عشيرة لكونه هذلياً حليفاً وكان حلفاؤه إذ ذاك كفاراً، وفي الكلام حذف تقديره: لطرحته عن رسول الله ﷺ وصرح به مسلم في رواية زكريا، وللبزار: فأنا أرهب أي أخاف منهم. انظر فتح الباري (٣٥٠/١).

(٣) قال ابن حجر: «قوله: ويحيل بعضهم» كذا هنا بالمهملة من الإحالة والمراد أن بعضهم ينسب فعل ذلك إلى بعض بالإشارة تهكما، ويحتمل أن يكون من حال يحيل بالفتح إذا وثب على ظهر دابته أي يثب بعضهم على بعض من المرح والبطر، ولمسلم من رواية زكريا: «ويميل» بالميم أي: من كثرة الضحك، وكذا للبخاري من رواية إسرائيل. انظر فتح الباري (٣٥٠/١).

انطلق إلى فاطمة وهي جويرية فاعلمتها بذلك، فأقبلت تسعى، وثبت رسول الله ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه وأقبلت عليه تسبهم».

وهذا دليل على قوة نفسها من صغرها، وكيف لا ويكفيها شرفاً وفضلاً أنها بضعة من رسول الله ﷺ.

قال الكرماني أنكحها رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بعد وقعة أحد، وكان سنها يومئذ خمسة عشرة سنة وخمسة أشهر.

رواياتها عن رسول الله ﷺ ثمانية عشر حديثاً، ولم يرو لها في الصحيحين سوى حديث واحد، روت عنها عائشة رضي الله عنها، وماتت بعد رسول الله ﷺ بالمدينة لستة أشهر، وقيل: بمائة يوم، وغسلها أمير المؤمنين علي ﷺ كما قدمنا ذلك، وصلى عليها ودفنت ليلاً، ولها فضائل لا تحصى ومناقب لا تستقصى، ولابد لنا من مجلس عظيم في ذكر فضائلها نفعنا الله بها وبأصلها وفرعها.

«**فطرحته عن ظهره فرفع رأسه**» ﷺ، «**ثم قال**» في الدعاء عليهم: «**اللهم عليك بقريش**» أي: بإهلاك قريش ثلاث مرات.

«**فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ثم سمى**» رسول الله ﷺ أي: عيَّن في دعائه وبيَّن ما أجمل أولاً بأن دعا على كل واحد باسمه فقال: «**اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وعليك بشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط وعد**» أي رسول الله ﷺ، أو عبد الله بن مسعود، «**السابع فلم يحفظه**» والسابع هو: عمارة بن الوليد بن المغيرة كما ذكره البخاري في الصلاة[1].

---

(١) في دعاء النبي ﷺ على قريش، وتسميته المخصوصين بالدعاء، ونسيان الراوي السابع تفصيل بديع عند ابن حجر فقد قال: «قال: اللهم» ولمسلم والنسائي نحوه، والظاهر منه أن الدعاء المذكور وقع خارج الصلاة، لكن وقع وهو مستقبل الكعبة كما ثبت من رواية زهير عن أبي إسحاق ثم الشيخين.

قوله: «عليك بقريش» أي: بإهلاك قريش والمراد الكفار منهم أو من سمي منهم، فهو عام أريد به الخصوص.

قوله: «ثلاث مرات» كرره إسرائيل في روايته لفظاً لا عدداً، وزاد مسلم في رواية زكريا: «وكان إذا دعا دعا ثلاثا، وإذا سأل سأل ثلاثاً».

قوله: «فشق عليهم»، ولمسلم من رواية زكريا: «فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك =

= وخافوا دعوته».

قوله: «وكانوا يرون» بفتح أوله في روايتنا من الرأي أي: يعتقدون وفي غيرها بالضم أي: يظنون، والمراد بالبلد مكة، ووقع في مستخرج أبي نعيم من الوجه الذي أخرجه منه البخاري في الثالثة بدل قوله: «في ذلك البلد» ويناسبه قوله: «ثلاث مرات» ويمكن أن يكون ذلك مما بقي عندهم من شريعة إبراهيم عليه السلام.

قوله: «ثم سمى» أي: فصل من أجمل.

قوله: «بأبي جهل» في رواية إسرائيل: «بعمرو بن هشام» وهو اسم أبي جهل، فلعله سماه وكناه معاً.

قوله: «والوليد بن عتبة» هو ولد المذكور بعد أبي جهل، ولم تختلف الروايات في أنه بعين مهملة بعدها مثناة ساكنة ثم موحدة، لكن ثم مسلم من رواية زكريا بالقاف بدل المثناة، وهو وهم قديم نبه عليه ابن سفيان الراوي عنه مسلم، وقد أخرجه الإسماعيلي من طريق شيخ مسلم على الصواب.

قوله: «أمية بن خلف» في رواية شعبة: «أو أبي بن خلف» شك شعبة وقد ذكر البخاري الاختلاف فيه عقيب رواية الثوري في الجهاد، وقال: الصحيح أمية، لكن وقع عنده هناك أبي بن خلف وهو وهم منه، أو من شيخه أبي بكر عبد الله بن أبي شيبة إذ حدثه، فقد رواه شيخه أبو بكر في مسنده فقال: أمية، وكذا رواه مسلم عن أبي بكر والإسماعيلي وأبو نعيم من طريق أبي بكر كذلك وهو الصواب، وأطبق أصحاب المغازي على أن المقتول ببدر أمية، وعلى أن أخاه أبياً قتل بأحد.

قوله: «وعد السابع فلم نحفظه» وقع في روايتنا بالنون وهي للجمع وفي غيرها بالياء التحتانية.

قال الكرماني: فاعل «عد» رسول الله ﷺ أو ابن مسعود، وفاعل «فلم نحفظه» ابن مسعود أو عمرو بن ميمون قلت: ولا أدري من أين تهيأ له الجزم بذلك مع أن في رواية الثوري ثم مسلم ما يدل على أن فاعل فلم نحفظه أبو إسحاق، ولفظه قال أبو إسحاق: «ونسيت السابع» وعلى هذا ففاعل «عد» عمرو بن ميمون، على أن أبا إسحاق قد تذكره مرة أخرى فسماه: «عمارة بن الوليد» كذا أخرجه البخاري في الصلاة من رواية إسرائيل عن أبي إسحاق، وسماع إسرائيل من أبي إسحاق في غاية الإتقان للزومه إياه، لأنه جده وكان خصيصاً به.

قال عبد الرحمن بن مهدي: ما فاتني الذي فاتني من حديث الثوري عن أبي إسحاق إلا اتكالا على إسرائيل، لأنه كان يأتي به أتم. وعن إسرائيل قال: كنت أحفظ حديث أبي إسحاق كما أحفظ سورة الحمد.

واستشكل بعضهم عد عمارة بن الوليد في المذكورين لأنه لم يقتل ببدر، بل ذكر أصحاب المغازي أنه مات بأرض الحبشة، وله قصة مع النجاشي إذ تعرض لامرأته فأمر النجاشي ساحراً فنفخ في إحليل عمارة من سحره عقوبة له فتوحش وصار مع البهائم إلى أن مات في خلافة عمر =

«قال فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب قليب بدر».

«وصرعى»: جمع صريع بمعنى مصروع، أي: مقتول.

«والقليب»: هو البئر الذي لم يطوى.

«وبدر» اسم موضع الغزوة العظمى المشهورة، وهو على نحو أربع مراحل من المدينة.

والمعنى: أن عبد الله بن مسعود قال: والله لقد رأيت السبعة الذين دعا عليهم رسول الله ﷺ مقتولين في يوم بدر، مطروحين في بئر بدعوة رسول الله ﷺ، وإنما طُرحوا في البئر تحقيراً لهم ولئلا يتأذى الناس برائحتهم، لا أنهم دفنوا، فإن الحربي لا يجب دفنه، بل يجوز إغراء الكلاب علي جثته.

قال ابن حجر: والظاهر أن البئر لم يكن فيها ماء معين، واستشكل العلماء قول عبد الله بن مسعود أنه رأى الذين عدَّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب مع إنهم كلهم لم يطرحوا في القليب وإنما طرح بعضهم، وهو أربعة منهم.

وأجابوا عن الاستشكال المذكور بأن معنى قول ابن مسعود: «رأيتهم صرعى في القليب» أي: رأيت أكثرهم في القليب.

فائدة: في بيان من قتل يوم أحد من هؤلاء السبعة من الصحابة:

أما كبيرهم أبو جهل الطاغي فقد اختلف العلماء في قاتله بعد اتفاقهم على أنه قتل في غزوة بدر، فقيل: معاذ بن عمرو بن الجموح، وقيل: ابنا عفراء، وقيل: عبد الله بن مسعود.

والحق أن يقال وبه يحصل الجمع بين الأقوال والروايات أن الكل مشتركون في قتله، فمعاذ بن الجموح قال يوم بدر سمعت القوم يقولون: أبو الحكم لا يخلص أي: لا قدرة لأحد للوصول إليه، فجعلته من شأني وقصدته، فلما أمكنني الله منه حملت عليه فضربته ضربة قطعت قدمه من نصف ساقه، قال: فحمل عليَّ ابنه عكرمة وضربني على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي، فاشتغلت بالقتال عنه، فلقد قاتلت

= وقصته مشهورة.

والجواب: أن كلام ابن مسعود في أنه رآهم صرعى في القليب محمول على الأكثر ويدل عليه أن عقبة بن أبي معيط لم يطرح في القليب، وإنما قتل صبراً بعد أن رحلوا عن بدر مرحلة، وأمية بن خلف لم يطرح في القليب كما هو بل مقطعاً. انظر فتح الباري (١ / ٣٥٠-٣٥١).

عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما أذتني وضعت عليها قدمي ثم تمكنت تمطيت حتى طرحتها، عاش ﷺ بعد ذلك حتى مات في زمن عثمان ﷺ.

ثم مر بأبي جهل بعد أن قطع ابن الجموح رجله من ساقه ابنا عفراء فضرباه حتى أثخناه وبه رمق ثم قتلا بعد ذلك، فوقف رسول الله ﷺ على مصرعهما فقال: يرحم الله ابنا عفراء فهما كانا شركاء في قتل فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر، فلما فرغ من القتال قال رسول الله ﷺ التمسوا أبا جهل في القتلى.

قال عبد الله بن مسعود: فذهبت ألتمسه فوجدته بآخر رمق فوضعت رجلي على عاتقه قال: فقال لي: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقاً صعباً فقلت: أخزاك الله أي عدو الله، ثم اجتززت رأسه فجئت به إلى رسول الله ﷺ فألقيته بين يديه فحمد الله.

وفي رواية: أنه صلى ركعتين.

وفي رواية: لما جاء البشير يوم بدر بقتل أبي جهل استحلفه ثلاث أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلاً فحلف له، فخر رسول الله ﷺ ساجداً.

وفي رواية: لما حز رأسه عبد الله بن مسعود وأخذ سلبه وجد في عنقه حدراً، وفي يديه وكفيه كهيئة آثار السياط، فأتى عبد الله بن مسعود إلى النبي ﷺ فأخبره أن أبا جهل قد قتل وأخبره بالذي وجده به، فقال رسول الله ﷺ: ذلك ضرب الملائكة وقال: اللهم قد أنجزتني ما وعدتني.

وقال النووي في الأذكار في باب ما يقوله إذا بلغه موت عدو الإسلام: روينا في كتاب ابن السني عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله قد قتل أبا جهل، فقال: «**الحمد الله الذي نصر عبده وأعز دينه**»[1].

فائدة أخرى: وكل الله به من يعذبه إلى يوم القيامة، قال ابن القيم في كتاب القبور عن الشعبي أنه ذكر أن رجلاً قال للنبي ﷺ: مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمعة حتى يغيب في الأرض، ثم يخرج فيفعل به ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة**».

ونقل القرطبي في التذكرة عن كتاب الإبانة للحافظ الوابلي عن عبد الله بن عمر أنه قال: بينما أنا أسير بجنبات بدر، إذا خرج رجل من الأرض في عنقه سلسلة يمسك

---

(١) والحديث أيضاً عند عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (١/٤٠٦، رقم ٣٨٥٦)، وعند الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص: ٤٨٨).

طرفها أسود، فقال: يا عبد الله اسقني قال ابن عمر فلا أدري أعرف أسمي أو كما يقول الرجل يا عبد الله، فقال لي الأسود لا تسقه فإنه كافر، ثم اجتذبه فدخل الأرض، قال ابن عمر: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «**أوقد رأيته، ذاك عدو الله أبو جهل ابن هشام وهو عذابه إلى يوم القيامة**»[1].

وأما الكافر الشقي عقبة بن أبي معيط فإنه لم يقتل يوم وقعة بدر كما صرح بذلك الكرماني والبرماوي قالا: حمل منها أسيراً وقتله النبي ﷺ أي: أمر بقتله بعد انصرافه من بدر على ثلاثة أميال مما يلي المدينة.

وحمل مع السبعين الذين أسروا من الكفار، ولأسره سبب وهو: أن فرسه حملت به حتى ساقته القدرة الإلهية وقصدت عسكر رسول الله ﷺ فعجز عن ردها، فمسكه شخص من صحابة رسول الله ﷺ يقال له: عبد الله بن سلمة، وأدخله في الأسرى فلما رآه رسول الله ﷺ فرح بمسكه، وقال: «والله لأقتلنك» قال: تقتلني من بين قريش قال: «نعم» ثم قال رسول الله ﷺ: «إني كنت مرة ساجداً فجاء ووطئ على عنقي فلم يرفع رجله، ظننت أنه لن يرفعه حتى تنذر عيناي».

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا بفناء الكعبة وأنا ساجد خلف المقام، إذ أخذ بمنكبي فلف ثوبه من عنقي فخنقني خنقاً شديداً».

فلما وصل رسول الله ﷺ إلى مكان في طريقه يقال له: عرق الظبية، أمر عاصم بن ثابت أن يضرب عنقه فلما قدمه جعل يقول: يا ويلاه علام أقتل أنا من بين هؤلاء الأسارى؟ فقال له النبي ﷺ: «لعدواتك لله ولرسوله»، فقال: يا محمد مثلك أفضل فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت علي، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم، ثم قال: يا محمد لي صبية وأولاد من لهم بعدي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «لهم النار، يا عاصم اضرب عنقه» فضرب عنقه.

وقيل: قتله علي بن أبي طالب.

وكان لعنه الله من المستهزئين، قال ابن حبيب: وكان من زنادقة قريش.

وأما عمارة بن الوليد فإنه لم يقتل يوم بدر، بل ذهب إلى الحبشة فكان عند النجاشي فاتهمه في حرمه، وكان جميلاً فنفخ في إحليله سحراً فهام مع الوحش في

---

(١) أخرجه أيضاً: الطبراني في المعجم الأوسط (٦/٣٣٥، رقم ٦٥٦٠).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٥٧): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد الله بن محمد بن المغيرة وهو ضعيف.

بعض جزائر الحبشة حتى هلك هناك زمن عمر بن الخطاب.

وأما الوليد بن عتبة فإنه قتل يوم بدر كافراً قتله عبيدة بن الحارث، وقيل: علي، وقيل: حمزة، وقيل: اشتركا في قتله.

وأما أمية بن خلف فقد اختلف العلماء في قاتله:

فقيل: قتله رجل من الأنصار، وقال ابن عبد البر وغيره: إن الذي قتله بلال فإنه كان ممن يعذب بلالاً على الإسلام، ويوالي عليه العذاب والمكروه، وكان من قدر الله أن قتله بلال يوم بدر، وقال الصديق أبياتاً منها:

هنيئا زادك الرحمن خيراً فقد أدركت ثأرك يا بلال

وقيل: رسول الله ﷺ قاله ابن الجوزي، والصحيح: أن رسول الله ﷺ لم يقتل بيده سوى شخص واحد وهو أبي بن خلف يوم أحد، فإنه حضر يوم بدر وأسر و لم يقتل، بل فدى نفسه وعاد إلى مكة ثم جاء يوم أحد فقتله رسول الله ﷺ بيده يومئذ.

وأمية بن خلف كان بديناً فلما قتل انتفخ، لأن قتله في يوم حار، فجاء شخص من الصحابة وأخذ بيده ليطرحه في القليب فانقلعت يده، فأخذ برجله فانقلعت أيضاً فطموه بالتراب والحجارة وتركوه، وكان من المستهزئين وفيه نزل قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**﴾[الهمزة: ١] لأنه كان إذا رأى النبي ﷺ همزه ولمزه.

وأما عتبة بن ربيعة فإنه قتل يوم بدر كافراً قتله حمزة وهو كافر.

وأما شيبة بن ربيعة فإنه كان من سادات قريش قتله علي يوم بدر مبارزة، وقيل: حمزة وهو كافر.

وقوله في الحديث: «**ورسول الله ﷺ ساجداً لا يرفع رأسه**» استشكله العلماء، وقالوا: كيف استمر النبي ﷺ في الصلاة مع وضع السلى على ظهره، وهو نجس مفسد للصلاة، وفيه من الروث؟

وأجاب القاضي عياض عنه: بأنه ليس بنجس، لأن الفرث ورطوبة البدن طاهران، والسلى من ذلك، وإنما النجس الدم.

قال ابن الملقن: وهذا ما يجوز على مذهب مالك ومن وافقه في أن روث ما يؤكل لحمه طاهر.

وضعف ما قاله النووي رحمه الله، لأن روث ما يؤكل لحمه ليس بطاهر عندنا مع أنه يتضمن النجاسة، من حيث أنه لا ينفك عن الدم في العادة، ولأنه ذبيحة عبدة الأوثان فهو نجس.

والإجابة الحق أن يقال: إنه لم يعلم ما وضع على ظهره فاستمر في سجوده استصحاباً للطهارة، وما يدري هل كان تلك الصلاة واجبة حتى تعاد على الصحيح أو لا فلا تعاد، ولو وجبت الإعادة فالوقت موسع.

وأجاب الخطابي عن الاستشكال بجواب غير هذا، فقال: ذهب أكثر العلماء إلى أن السلى نجس، وتأولوا معنى الحديث بأنه ﷺ لم يكن تعبد إذ ذاك بتحريمه، فإنه كان قبل ورود الأحكام، قال: وهذا كالخمر فإنهم كانوا يصلون وهي تصيب ثيابهم وأبدانهم، قبل نزول التحريم فلما حرمت لم تجز الصلاة مع وجودها، ولو كان ما فعل به ﷺ بعد ورود الأحكام لألقى السلى عن ظهره في الحال.

فائدة: قال علماؤنا الشافعية: إن المصلي إذا ألقى عليه شخص نجاسة، أو وقعت عليه سواء أوقعت على بدنه أو ثوبه فإن ألقاها بيده أو كفه بطلت صلاته، وإن نفضها من المكان الذي وقعت عليه في الحال كأن وقعت على كتفه فنفض كتفيه حتى سقطت فلا تبطل، وكذا لو كشفت الريح عورته فسترها في الحال لا تبطل صلاته، أما إذا وقعت عليه نجاسة، ولم يعلم بها حتى مضى زمن، ثم علم بها وطرحها فإن صلاته تبطل.

قال فقهاؤنا: ولو مس في صلاته بدنه أو ثيابه التي عليه سقفاً نجساً، أو جداراً نجساً كالجدار المليس بالقصر بطلت صلاته، فأن القصر نجس عند الشافعية، ولو صلى على بساط أسفله نجس وتحته نجاسة، أو على طرف منه، أو في محاذاة صدره من غير مس أو صلى على سرير قوائمه على نجاسة فإنه لا يضر، وتصح صلاته.

وهذا كما إذا صلى على جنازة في مداس أسفله نجس ورجله ليست في النعل، بل فوقه فإنه لا يضر ما إذا كانت فيه، فإن صلاته لا تصح لأنه حامل للنجاسة، وإذا كان النعل طاهراً ولم تصبه نجاسة جاز له أن يصلي فيه أي صلاة كانت، ولو وقف شخص يصلي بجنب آخر يصلي وعلى ثوبه نجاسة ومس وضع النجس بثيابه، أو بدنه بطلت صلاته، وإن التصق إليه الرجل بالمحل النجس فإن علم في الحال وتنحى عنه لم تبطل كما لو وقع عليه نجاسة يابسة فدفعها في الحال، وإن لم يفعل في الحال بعد أن مضى زمن فإن صلاته تبطل.

وفي الحديث فوائد:

منها: أن فيه دلالة على أن المباشرة أكد من السبب والإعانة لقوله ﷺ في عقبة: «أشقى القوم» مع أنه كان فيهم أبو جهل وهو أشد منه كفراً وأذىً للنبي ﷺ لكن

الشقاء هنا بالنسبة إلى هذه القصة، أنهم اشتركوا في الأمر والرضا، وانفرد عقبة بالمباشرة، فكان أشقاهم، لهذا قتلوا في الحرب وقتل هو صبراً، قاله ابن حجر.

ومنها: أنه يستحب تكرير الدعاء ثلاث مرات، وكذا غير الدعاء من الطاعات.

ومنها: أن الإنسان له أن يدعو على من أذاه مسلماً كان أو كافراً، وقيل: إن كان كافراً دعا عليه، وإن كان مسلماً فلا.

واختلف العلماء في أن الأفضل الدعاء على الظالم أم السكوت والرضا أفضل؟ فمن العلماء من قال: الدعاء أفضل، لأنه عبادة لقول النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[1] ولأن الدعاء إظهار الافتقار إلى الله تعالى.

ومن العلماء من قال: السكوت والجمود تحت جريان الحكم أتم، والرضا بما سبق به القدر أولى، لأن المظلوم قد ينقص حقه بالدعاء على الظالم، وربما يستوفي حقه بكثرة دعائه.

فقد روى الحاكم والإمام أحمد في كتاب الزهد عن عمر بن عبد العزيز قال: بلغني أن الرجل ليظلم مظلمته، ولا يزال يشتم الظالم وينتقصه حتى يستوفي حقه ويكون الظالم الأفضل عليه[2].

وبعض العلماء فصل فقال: ما كان للمسلمين فيه نصيب والله سبحانه وتعالى فيه

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٢١١، رقم ٢٩٦٩) عن النعمان بن بشير وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (٦/٤٥٠، رقم ١١٤٦٤)، وأحمد في مسنده (٤/٢٦٧)، والطيالسي في مسنده (ص: ١٠٨، رقم٨٠١).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/٤٩): أخرجه أصحاب السنن بسند جيد.

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/٢٢٠): «قوله: الدعاء هو العبادة، قال ميرك: أتى بضمير الفصل والخبر المعرف باللام ليدل على الحصر، في أن العبادة الدعاء مبالغة، ومعناه: أن الدعاء معظم العبادة كما قال ﷺ: الحج عرفة. أي: معظم أركان الحج الوقوف بعرفة، أو المعنى: أن الدعاء هو العبادة سواء استجيب أو لم يستجب، لأنه إظهار العبد العجز والاحتياج من نفسه والاعتراف بأن الله تعالى قادر على إجابته، كريم لا بخل له ولا فقر ولا احتياج له إلى شيء حتى يدخر لنفسه، ويمنعه من عباده وهذه الأشياء هي العبادة بل مخها.

(٢) الأثر لم نقف عليه عند الحاكم، ورواه ابن المبارك في الزهد (١/٢٣٧، رقم ٦٨١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/٢٧٧).

وذكره الصنعاني سبل السلام (٤/٢٨) وعزاه إلى أحمد في كتاب الزهد عن عمر بن عبد العزيز.

حق فالدعاء أولى لكونه عبادة، وإن كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتم.

وهاهنا سؤال ذكره الغزالي فقال: فإن قيل: فما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مرد له؟

ثم أجاب بأن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء ووجود الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس سبب يدفع السهم فيشد دافعاً فكذلك الدعاء والبلاء.

فقد روي: أن الدعاء والقضاء يلتقيان فيعتلجان ما بين السماء والأرض.

وروي في الخبر أيضاً عنه ﷺ أنه قال: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٤٤٨، رقم ٢١٣٩) فقال: حدثنا محمد بن حميد الرازي وسعيد ابن يعقوب قالا حدثنا يحيى بن الضريس، عن أبي مودود عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان... فذكره ثم قال عقبه: وهذا حديث حسن غريب من حديث سلمان لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن الضريس، وأبو مودود اثنان أحدهما يقال له فضة وهو الذي روى هذا الحديث اسمه فضة بصري، والآخر عبد العزيز بن أبي سليمان أحدهما بصري، والآخر مدني وكانا في عصر واحد.

وأخرجه أيضاً: البزار في مسنده ٦/٥٠١، رقم ٢٥٤٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/٢٥١، رقم ٦١٢٨).

وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٥٤٨، رقم ٦٠٣٨) عن ابن عباس عن ثوبان مرفوعاً.

وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/٣٥، رقم ٨٣١) من طريق عبد الله بن أبي الجعد عن ثوبان.

والحديث شرحه المباركفوري في تحفة الأحوذي (٦/٢٨٩) فقال: «قوله: لا يرد القضاء إلا الدعاء. القضاء: هو الأمر المقدر، وتأويل الحديث أنه إن أراد بالقضاء ما يخافه العبد من نزول المكروه به ويتوقاه فإذا وفق للدعاء دفعه الله عنه، فتسميته قضاء مجاز على حسب ما يعتقده المتوقى عنه، يوضحه قوله ﷺ في الرقى: «هو من قدر الله»، وقد أمر بالتداوي والدعاء مع أن المقدور كائن لخفائه على الناس وجوداً وعدماً.

ولما بلغ عمر الشام وقيل له إن بها طاعوناً رجع فقال أبو عبيدة: أتفر من القضاء يا أمير المؤمنين، فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة نعم نفر من قضاء الله إلى قضاء الله، أو أراد برد القضاء، إن كان المراد حقيقته تهوينه وتيسير الأمر حتى كأنه لم يترل، يؤيده ما أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر: إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينـــزل.

وقيل: الدعاء كالترس والبلاء كالسهم والقضاء أمر مبهم مقدر في الأزل.

والحاصل: أن القضاء المعلق يتغير، وأما القضاء المبرم فلا يبدل ولا يتغير.

وفي الحديث: دلالة على أن الدعاء في مكة مستجاب، وأن الكفار يعتقدون أنه محل استجابة الدعاء، فلهذا شق عليهم إذ دعا عليهم، أي: إنما شق عليهم من جهة المكان لا من جهته ﷺ، فإنهم كانوا يعتقدون شرف المكان وعظمته، وإن الدعاء فيه لا يرد.

سؤال: فإن قيل: كيف جاز الدعاء من النبي ﷺ على كل قريش حيث قال: «اللهم عليك بقريش» مع أن بعضهم كان مسلماً إذ ذاك كالصديق وغيره؟

جوابه: أن هذا الدعاء مخصوص بالكفار منهم، بل ببعض الكفار وهم السبعة المذكورين في الحديث بقرينة السياق لا يجمعهم، فقد آذوه كثيراً، وما دعا عليهم فإنه ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا: لو دعوت عليهم فقال: «**إني لم أبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

وورد أن الله جعل لكل نبي دعوة مستجابة، وكل منهم عجل دعوته في الدنيا واخبأ هو ﷺ دعوته شفاعة لأمته.

وهؤلاء السبعة علم الله فيهم أنهم لا يؤمنون فألهمه أنه دعا عليهم حيث آذوه ﷺ في محل يستجاب فيه الدعاء.

فائدة: قال العلامة ابن القيم ابن الجوزي: قال الحسن البصري في رسالته إلى أهل مكة: في مكة خمسة عشر موضعاً يستجاب فيها الدعاء، وهي: المطاف، والملتزم، والميزاب، والبيت، وزمزم، والصفا والمروة، والمسعى، وخلف المقام، وعرفات،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٠٦/٤، رقم ٢٥٩٩) عن أبي هريرة بلفظ: «قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال: إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة».

وبهذا اللفظ أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٥/١١، رقم ٦١٧٤).

ورواه الطبراني في الكبير (١٨٩/١٩، رقم ٤٢٤) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٦٥/٥، رقم ٢٧٩٠) من حديث كرز بن سامة بلفظ: «قيل للنبي ﷺ يا رسول الله ألعن بني عامر فقال: إني لم أبعث لعاناً.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢/٨): رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم.

قال المناوي في فيض القدير (١٣/٣): «قوله: إني لم أبعث لعاناً. أي: مبالغا في اللعن أي: الإبعاد عن الرحمة، والمراد نفي أصل الفعل، وهذا قاله لما قيل له ادع على المشركين، يعني لو كنت أدعو عليهم لبعدوا عن رحمة الله ولصرت قاطعاً عن الخير إني لم أبعث لهذا.

والمزدلفة، ومنى، والجمرات الثلاث، ويستجاب عند قبره الشريف ﷺ.

قال ابن الجوزي: وإن لم يستجب الدعاء عند النبي ﷺ ففي أي موضع يستجاب، وأما الأزمان والأحوال اللاتي يستجاب فيها الدعاء والأشخاص الذين يستجاب منهم الدعاء فسنذكرهم في محلهم إن شاء الله تعالى.

لطيفة في استجابة الدعاء في مكة: حكي أن رجلاً توجه إلى مكة بمال كثير، فرأى في طوافه امرأة جميلة فمد يده إليها بفاحشة فقالت: أذهب الله يمينه وماله، فطلع في يده أكلة فسقطت بمكة، وماتت جماله وذهب ماله قبل خروجه من مكة، فخرج الرجل إلى غير بلاده ودخل مدينة، فجاءه رجل من بعض أهلها وقال: أجب قاضي المسلمين فلما حضر عنده قال: قد طلق بعض الأكابر زوجته ولا غنى له عنها فهل لك أن تتزوجها ليلاً وتطلقها نهاراً قال: نعم، فلما دخل بها أحضرت طعاماً فأكل بشماله، فقالت: كل بيمينك، فقال: أنا عاجز عن ذلك وأخبرها بخبره بمكة فأدخلت يدها إلى يده اليمنى وقرأت الفاتحة وقالت: أخرج يمينك، فردها الله تعالى عليه فأخرجها أحسن من الأولى، ثم قالت له: اعلم أني تلك المرأة، ولما دعوت عليك علمت الإجابة، فدعوت ثانياً بأن يهب الله لك مالي ونفسي، وقد أجاب دعائي فاحذر طلاقي، فلما أصبح أخبر القاضي بذلك فلم يطلقها.

فاعتمد أيها العاقل على ربك في المهمات، واجعله نصب عينك في الحركات والسكنات، ولا تعتمد على مخلوق فإن المخلوق عاجز عن دفع المصيبات.

قيل: يقول الله تعالى في بعض الكتب المنـــزلة: وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل من أمل غيري بالإياس، ولألبسنه ثوب المذلة بين الناس، ولأقصينه من قربي، ولأبعدنه من وصلي، يا عبدى أتؤمل في غيري في شدائدك وحل الشدائد في يدي، وتطرق باب غيري وهو مغلق وبابي مفتوح أبداً، من ذا الذي أملني في نوائبه، ومن ذا الذي قطع إليَّ الفيافي فلم يجدني، جعلت آمال عبدي متصلة، وعرفته بها فقطعها، وجعلت أجورهم مدخرة عندي فلم يرضوا بي، ألم تعلم عبدي أن من طرقته نائبة من نوازلي، فإنه لا يملك أحد كشفها إلا بإذني، ما لي أرى عبدي معرضاً عني، أعطيته ما لم يسألني ثم انتزعته منه فلم يسألني رده وسأل غيري، أليست الدنيا والآخرة لي أليس الفضل والمرحمة لي، فلو أن من في سماواتي وأرضي يسألونني لأعطين كل منهم بقدر ما سألني، و لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً، فكيف ينقص ملك وأنا قيومه، فيا بؤس القانطين من رحمتي، ويا سوأة من عصاني و لم يراقبني، و لم يتب عن محارمي و لم يستغفرني.

ولله در القائل:

أيهـــا المعـــرض عـــنا ليـــس بـــد من لقانا
فـــــيرى الـــــذي قـــدم المـــرء عيانـــا
كـــم تركـــناك وما تهوى وخالفت رضانا
ورأيـــناك على الذنب فهـــل أنـــت تـــرانا
ودعونـــاك فلم تصغ إلى سمـــع ندانـــا
فـــإلى كـــم تتمادى وإلى كـــم تـــتوانا
يا خبيث الفعل يا من نقـــض العهد وخانا
وإذا لم تـــرض عـــنا فـــاتخذ ربـــا ســـوانا

***

المجلس الحادي والخمسون

في مسائل متعلقة بالسواك وذكر فضائله وقصة سيدنا إبراهيم لما أحرق بالنار وغير ذلك

قَالَ البُخَارِي:

باب السِّوَاك

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِتُّ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَنَّ .

حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، قَالَ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ غَيْلاَنَ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَوَجَدْتُهُ يَسْتَنُّ بِسِوَاكٍ بِيَدِهِ يَقُولُ : «أُعْ أُعْ» ، وَالسِّوَاكُ فِي فِيهِ كَأَنَّهُ يَتَهَوَّعُ.

«**باب السواك**» هو بكسر السين على الصحيح يطلق لغة على الفعل أي: المدلك، وعلى العود الذي يتسوك به، قال الجوهري: السواك: المسواك.

وأما في الشرع: فهو عبارة عن استعمال عود أراك ونحوه في الأسنان، وما حولها ليذهب الصفرة وغيرها عنها.

قال العلماء: السواك سنة في جميع الأحوال والأوقات، ويتأكد استحبابه في مواضع:

الأول: الوضوء، وإن لم يصل به لما رواه النسائي: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء**»[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٨٢/٢، رقم ١٨٣١) معلقاً في باب السواك الرطب واليابس للصائم، فقال: ويذكر عن عامر بن ربيعة قال: رأيت النبي ﷺ يستاك وهو صائم ما لا أحصي أو أعد، وقال أبو هريرة: عن النبي ﷺ... فذكره. قال البخاري: ويروى نحوه عن جابر، وزيد بن خالد عن النبي ﷺ و لم يخص الصائم من غيره.

ووصله النسائي في السنن الكبرى (١٩٦/٢، رقم ٣٠٣٢) عن أبي هريرة مرفوعاً، وكذا ابن خزيمة في صحيحه (٧٣/١، رقم ١٤٠) من طريق روح. قال ابن خزيمة: قال أبو بكر: هذا الخبر في الموطأ عن أبي هريرة: «لولا أن يشق على أمته لأمرهم بالسواك عند كل وضوء» ورواه الشافعي وبشر بن عمر كرواية روح.

قال الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (١٦٠/٣): وأما حديث أبي هريرة فقرأت على أبي بكر بن أبي عمر، عن محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء إجازة إن لم يكن سماعاً أن أبا علي البكري أخبره أنبأنا أبو روح أنبأنا زاهر بن طاهر أنبأنا أحمد بن إبراهيم وغيره، قالا: أنبأنا أبو طاهر بن =

الثاني: الصلاة فرضاً كانت أو نفلاً، أو صلاة الجنازة ولو كانت صلاة متيمم، أو فاقد الطهورين كما قاله النووي في شرح المهذب تبعاً لما ورد في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**»[١] أي: أمراً يجاب.

ولخبر عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بلا سواك**» رواه الحميدي بإسناد جيد[٢].

فلو صلى الإنسان في جماعة بسواك تضاعف الأجر بسبب السواك والجماعة يقول النبي ﷺ: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ أي: المنفرد بسبع وعشرين درجة**»[٣] فعلى هذا صلاة ركعة بسواك في جماعة بتسعمائة وخمسة وأربعين ركعة، حاصله من ضرب خمسة وثلاثين في سبعة وعشرين درجة، فعلى هذا صلاة ركعة بسواك في جماعة بألف وثمانمائة وتسعين ركعة، حاصله من ضرب سبعين في سبعة وعشرين، ويتضاعف الأجر بزيادة الركعات، فصلاة ثلاث ركعات بسواك في

= خزيمة أنبأنا جدي أبو بكر محمد بن إسحاق حدثنا علي بن معبد حدثنا روح بن عبادة حدثنا مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة مرفوعاً... فذكره.

هكذا أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، ورواه النسائي عن محمد بن يحيى عن بشر بن عمر عن مالك مثله لكن قال: «ثم كل وضوء».

وقد وقع لنا موافقة عالياً جداً قرأته على أبي بكر بن إبراهيم بن العز، قلت له: أخبركم عبد الله بن الحسين أن عثمان بن علي بن خطيب القرافة أخبره عن الحافظ أبي طاهر السلفي أنبأنا مكي بن منصور أنبأنا أحمد بن الحسين القاضي حدثنا محمد بن أحمد الميداني حدثنا محمد بن يحيى الذهلي حدثنا بشر بن عمر حدثنا مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة... به.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/٣٠٣، رقم ٨٤٧)، ومسلم في صحيحه (١/ ٢٢٠، رقم ٢٥٢) عن أبي هريرة.

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير وعزاه إلى الدارقطني في الأفراد عن أم الدرداء، قال المناوي: ورواه أيضاً البزار بلفظ: «ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك» قال الهيثمي: ورجاله موثقون، ورواه الحميدي وأبو نعيم عن جابر، قال المنذري: وإسناده حسن، قال السمهودي: كل رجاله ثقات، إلا أن فيه عنعنة ابن إسحاق وهو مدلس، وبه يعرف أن قوله في المجموع: خبر السواك ضعيف من سائر الإشارة لا معول عليه. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤/٣٦).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/٢٣١، رقم ٦١٩)، ومسلم في صحيحه (١/ ٤٥٠، وُرقم ٦٥٠) من حديث ابن عمر.

جماعة أفضل بألفين وثمانمائة وخمس وثلاثين ركعة، وصلاة أربع ركعات بسواك في جماعة أفضل بثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانين ركعة.

علم من هذا أن ما قاله ابن الملقن من أن الصلاة في الجماعة بسواك بألف وثمانمائة وتسعين ركعة غير صحيح كما قاله بعض المتأخرين، قال: لأن في الحديث: «**ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بلا سواك**» نعم يصح ما قاله على رواية: «**صلاة بسواك أفضل من سبعين صلاة**» لكنها لم تثبت.

قال العلماء: ويتضاعف ثواب الصلاة بسواك في الجماعة بالتدبر في القرآن والخضوع وكمال الطهارة وغير ذلك من الأمور المطلوبة في الصلاة، مما لا يحصيه إلا الله تعالى ويتضاعف الأجر أيضاً فيما إذا صلاها في فلاة بسواك في جماعة، فقد روى أبو داود أنه ﷺ قال: «**الصلاة في جماعة تعدل خمساً وعشرين، فإذا صلاها في فلاة فأتم ركوعها وسجودها بلغت خمسين صلاة، والمضاعفة في الأجر والثواب ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»[1].

سؤال: فإن قيل: قوله ﷺ: «**ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بلا سواك**» يدل على أن السواك أفضل من صلاة الجماعة، لأن صلاة الجماعة بسبع وعشرين ركعة، والسواك بسبعين، فالفضل الوارد في السواك أكثر فيدل على أنه أفضل، فيلزم منه تفضيل السنة على الفرض وهو خلاف المشهور.

وجوابه: بأن خبر السواك لا يقاوم خبر صلاة الجماعة في الصحة، ولو سلمنا مقاومته لها، فيجاب: بأن السواك أفضل لكثرة آثاره، وتعدي نفعه من طيب الرائحة إلى الغير بخلاف نفع الجماعة، وقد تفضل السنة الفرض كما في ابتداء السلام مع رده.

ويستحب السواك لكل ركعتين من صلاة التراويح وصلاة الضحى وصلاة

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/١٥٣، رقم ٥٦٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
قال المناوي في فيض القدير (٤/٢٤٥): معناه: أن الصلاة في جماعة تعدل خمسا وعشرين صلاة، فإذا صلاها في فلاة فأتم ركوعها وسجودها بلغت خمسين صلاة أي: بلغ ثوابها ثواب خمسين صلاة صلاها بدون ذلك، وظاهره أن الصلاة مع الانفراد في الفلاة مع الإتيان بكمالاتها يضاعف ثوابها على ثواب صلاة الجماعة ضعفين، وكان وجهه أنه إذا كان في الفلاة منفرداً مع إتمام الأركان وتوفر الخشوع وغير ذلك من المكملات.

الوتر والتهجد وسنن الظهر وغير ذلك، كما جزم به النووي في شرح المهذب.

وقال بعض العلماء: لا يستحب في التراويح ونحوه إلا في الركعتين الأولتين، والصحيح خلافه.

الموضع الثالث: الطواف ولو نفلاً.

الرابع: سجود التلاوة كما قاله القاضي زكريا ما إذا لم يستك للتلاوة، أما إذا استاك لها فتكفي بذلك الاستياك.

الخامس: عند تلاوة القرآن لحديث: «**إن أفواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك**»[1]، وكقراءة القرآن قراءة حديث النبي ﷺ، وكذا قراءة علم شرعي كما قاله القاضي زكريا.

السادس: عند تغير الأسنان بصفرة وغيرها، وإن لم يتغير الفم.

السابع: عند تغير الفم بنوم، أو أكل، أو جوع، أو عطش، أو كلام، أو سكوت طويل.

الثامن: عند الاستيقاظ من النوم لما يأتي.

التاسع: عند دخول المنـــزل لخبر مسلم: أنه ﷺ كان إذا دخل البيت بدأ بالسواك[2].

العاشر: عند الأكل.

الحادى عشر: عند إرادة النوم قالهما الشيخ أبو حامد.

الثاني عشر: بعد الوتر قاله الزركشي.

الثالث عشر: في السحر قاله ابن عبد البر.

الرابع عشر: للصائم قبل أوان الخلوف، كما يسن التطيب قبل الإحرام.

الخامس عشر: عند الاحتضار لما سيأتي أنه ينفع المحتضرون.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/١٠٦، رقم ٢٩١)، والديلمي في الفردوس (١/٢٢١، رقم ٨٤٨) أ وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/٢٩٦) عن علي بن أبي طالب.

قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٤٣): هذا إسناد ضعيف لانقطاعه بين سعيد وعلي، ولضعف «بحر» روايه، ورواه البزار بسند جيد لا بأس به مرفوعاً ولعل من وثقه أشبه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٢٢٠، رقم ٢٥٣) عن المقدام بن شريح عن أبيه قال ثم سألت عائشة قلت: بأي شيء كان يبدأ النبي ﷺ إذا دخل بيته قالت: بالسواك.

وقد ذكر علماؤنا مسائل كثيرة متعلقة بالسواك، وذكر له فضائل أيضاً وفوائد كثيرة.

أما المسائل: فقالوا: تحصل سنة السواك بكل خشن مزيل للقلح كخرقة، وعود من أراك، أو نخل، أو زيتون، أو نحوه، وكذا تحصل بأصبع غيره إن كانت خشنة لا بإصبعه عندنا وإن كانت خشنة، والأولى والأفضل أن يستاك بعود الأراك اقتداء برسول الله ﷺ قال ابن مسعود: كنت أجتني لرسول الله ﷺ سواكاً من أراك. رواه ابن حبان[1].

ولأنه طيب الطعم والريح وشعره لطيف، فإن تعذر الأراك فبعود النخل فهو أولى من غير الأراك كما قاله النووي، وقيل: الأولى بعد الأراك قضبان الزيتون لما في معجم الطبراني من حديث معاذ بن جبل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نعم السواك الزيتون، فإنه من شجرة مباركة، يطيب الفم ويذهب بالحفر وهو سواكي وسواك الأنبياء من قبلي**»[2].

فائدة: سواكه ﷺ عند موته كما في الصحيح كان من جريدة رطبة[3] وكذا

---

(١) لم نقف عليه عند ابن حبان، والحديث عند أحمد في مسنده (١/٤٢٠، رقم ٣٩٩١)، والبزار في مسنده (٨/٢٤٥، رقم ٥)، وأبو يعلى في مسنده (٩/٢٠٩، رقم ٥٣١٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/٧٨، رقم ٨٤٥٢).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٨٩): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق، فيه: عاصم بن أبي النجود وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١/٢١٠، رقم ٦٧٨) عن معاذ بن جبل.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/١٠٠): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه معلل بن محمد و لم أجد من ذكره.

(٣) انظر حديث وفاة النبي ﷺ المروي عن عائشة رضي الله عنها عند البخاري في صحيحه (٤/١٦١٧، رقم ٤١٨٦) وفيه: «أنها قالت: ثم توفي النبي ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وكانت إحدانا تعوذه بدعاء إذا مرض فذهبت أعوذه، فرفع رأسه إلى السماء وقال: في الرفيق الأعلى في الرفيق الأعلى، ومر عبد الرحمن بن أبي بكر وفي يده جريدة رطبة فنظر إليه النبي ﷺ فظننت أن له بها حاجة فأخذتها، فمضغت رأسها ونفضتها، فدفعتها إليه فاستن بها كأحسن ما كان مستناً ثم ناولنيها فسقطت يده أو سقطت من يده، فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة».

قاله ابن دحية في كتاب «مرج البحرين»، لكن في مستدرك الحاكم: «أنه كان من أراك رطب»[١]، وقال صحيح الإسناد.

ويستحب إذا استاك أن ينوى به السنة لخبر: «**إنما الأعمال بالنيات**»[٢] كما يستحب أن ينوى بالجماع النسل، وإن كان المقصود يحصل بدون النية، ويستحب أن يستاك في عرض الأسنان لحديث في مراسيل أبي داود: «**إذا استكتم فاستاكوا عرضاً**»[٣]، والمراد: عرض الأسنان ظاهرها وباطنها في طول الفم، فإذا استاك طولاً أي: في طول الأسنان، وعرض الفم هو مكروه كما قاله النووي، وإن حصل به أصل السنة، لأن فيه موافقة للشيطان، فقد قيل: إنه يستاك طولاً، ولأنه قد يدمي اللثة ويفسد لحم الأسنان، نعم يستحب أن يستاك في اللسان طولاً كما قاله ابن دقيق العيد، واستدل عليه بخبر في سنن أبي داود[٤]، ويستحب أن يبدأ بالجانب الأيمن من فمه لشرف الأيمن ولمحبته ﷺ.

نعم اختلف العلماء من الشافعية في السواك هل الأفضل أن يكون باليد اليمنى، أو اليسرى؟ فقال النووي وابن عبد السلام وابن الرفعة: الأفضل أن يكون الآلة في اليد اليمنى لما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يحب التيمن ما استطاع في شأنه كله في طهوره، وترجله، وتنعله**»[٥] زاد أحد رواته: «**وسواكه**» قال ابن الملقن: وهي فائدة جليلة ولأن الحكيم الترمذي قال: الاستياك باليسرى من الشيطان.

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/٧، رقم ٦٧١٩) من حديثها.

(٢) مر تخريجه بأول الكتاب.

(٣) أخرجه أبو داود المراسيل (ص ٧٤، رقم ٥) عن عطاء بن أبي رباح أرسله بلفظ: «إذا شربتم فاشربوا مصاً، وإذا استكتم فاستاكوا عرضاً».

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (١/١٣، رقم ٤٩) في باب (كيف يستاك) عن أبي بردة عن أبيه – قال: مسدد– قال: أتينا رسول الله ﷺ نستحمله فرأيته يستاك على لسانه.

قال أبو داود: وقال سليمان قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يستاك، وقد وضع السواك على طرف لسانه وهو يقول: «إه إه» يعني يتهوع. قال أبو داود: قال مسدد فكان حديثاً طويلاً اختصرته.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/١٦٥، رقم ٤١٦)، ومسلم في صحيحه (١/ ٢٢٦، رقم ٢٦٨) من حديث عائشة.

وقال إمام الحرمين: الاستياك في معنى الاستجمار فيكون باليسرى.

وفصل بعضهم فقال: الذي تحرر لي من كلام الأصحاب أن السواك إن كان المقصود به إزالة القلح فباليسار، وإن كان المقصود به العبادة فباليمنى، وما قاله حسن.

والاستياك بسواك غيره إن كان بغير إذنه فهو حرام، لاستعمال ملك غيره بغير إذنه، وإن كان بإذنه قال الحكيم الترمذي وتبعه في الروض: إنه مكروه، ولكن الصحيح أنه مباح من غير كراهة.

والسواك اليابس الندي أولى من الرطب وأولى من اليابس الذي لم يند، لأن الرطب لا ينقي، واليابس إذا لم يند يجرح اللثة، واليابس المندي بالماء أولى من اليابس المندي بغير الماء كماء الورد والريق.

ويسن إذا أراد أن يستاك ثانياً يغسل سواكه إن حصل عليه وسخ، أو ريح، أو نحوه قاله النووي في المجموع.

فائدة: يجب غسل السواك في صورتين:

الأولى: قال أبو الخير القزويني في كتاب خصائص السواك ويجب السواك على كل من أكل الميتة عند الاضطرار لإزالة الدسومة النجسة.

قال القاضي زكريا: ويؤخذ من تعليله أن الواجب إزالتها بسواك وغيره، فلا يجب السواك عيناً وهو ظاهر.

الثانية: ما إذا أكل الثوم أو البصل يوم الجمعة، فإن أمكن إزالة رائحته بالسواك وجب عليه السواك صرح به القمولي في الجواهر، قاله ابن العماد في الذريعة، فقول الكرماني: السواك ليس بواجب في حال مردود بهاتين الصورتين.

وأكل الثوم والبصل يوم الجمعة مكروه مسقط عن آكلهما فرضها قاله الماوردي.

قال ابن العماد: وينبغي أن يحرم أن قصد بأكله إسقاط الجمعة، سواء كان قبل الزوال أو بعده، ولنا صورتان يكره فيهما السواك سنذكرهما في كتاب الصوم إن شاء الله تعالى.

وأما فضائل السواك وفوائده ومنافعه: فقد ذكر العلماء أن له فضائل ومنافع كثيرة وصنفوا في ذلك كتباً.

قال ابن العماد في السواك أربع وعشرون خصلة محمودة، منها أحد عشر مروية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مطهرة للفم، مسخطة للشيطان، مفرحة للملائكة، يذهب الحفر، ويجلو البصر، ويجيد اللثة، ويطيب الفم، ويقطع البلغم، وهو من السنة، ويزيد في الحسنات.

وزاد غيره: أنه ينفي الفقر، ويقوي الباءة، ويزيد في الحفظ.

وذكر ابن سبع في الشفا: أنه يذهب الصداع، ووجع الأسنان، ويقطع كل داء في الجسد، ويعقبه الله كل صحة، ويفتح باب الجنة، ويغلق باب النار، ويكسى صاحبه كساء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يوم القيامة، ويكرم إذا كرموا، ويسقى فاعله من حوض النبي ﷺ، ولا يخرج من الدنيا حتى يسقى شربة من حوض النبي ﷺ ومن الرحيق، ويأتيه ملك الموت عند موته في الصورة التي يقبض الله فيها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن العماد: ومما جرب فصح؛ أنه يفصح الكلام.

ومن فوائده وفضائله: أنه يرضي الرب فقد روى أحمد، والنسائي عنه ﷺ أنه قال: «**السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب**»[1].

ومنها: أنه يبيض الأسنان ويشد لحمها، ويصفي الحلق ويجرى اللسان، ويركز الفطنة، ويبطئ الشيب، ويسوي الظهر.

قال العلامة البلقيني وغيره: وله فائدتان عظيمتان هما أعظم فوائده:

الأولى: أنه يسهل النـــزع ويعين على سكرات الموت.

والثانية: أنه يذكر الإنسان كلمة الشهادة عند الموت، وما أعظمهما من فائدتين، فلهذا قال العلماء: يتأكد استحباب السواك على المحتضر، ولهذا ما فارقه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٨٢/٢) معلقاً من قول عائشة رضي الله عنها.
والحديث موصولاً عند النسائي في سننه (١٠/١، رقم ٥) أخبرنا حميد بن مسعدة ومحمد بن عبد الأعلى عن يزيد وهو ابن زريع قال: حدثني عبد الرحمن بن أبي عتيق قال: حدثني أبي قال: سمعت عائشة... فذكره.
وأيضاً: أحمد في مسنده (٤٧/٦، رقم ٢٤٢٤٩) من طريق محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر... به.
ورواه من طريق آخر ابن ماجه في سننه (١٠٦/١، رقم ٢٨٩) عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «ثم تسوكوا فإن السواك مطهرة للفم مرضاة للرب... الحديث، بزيادة في آخره.

رسول الله ﷺ حتى في حالة النـــزع بلته له عائشة بريقها حتى ندي فاستاك به، وعدوه من فضائلها وخصائصها كما تقدم أنه جمع بين ريقه وريقها.

وذكر بعضهم أنه جاء في رواية: أنه يورث السعة والغنى، وإن المستاك تصافحه الملائكة، ويكتب له بعدد من يستاك بالسواك حسنات، ويعاين ملك الموت عند قبض روحه في الصورة التي يقبض بها النبيين.

ثم قال البخاري: «**وقال ابن عباس كنت عند النبي ﷺ فاستن**» قال ابن الملقن: هذه قطعة من حديث طويل في مبيته عند ميمونة.

«**حدثنا أبو النعمان قال: حدثنا حماد بن زيد، عن غيلان بن جرير، عن أبي بردة، عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ فوجدته يستن بسواك بيده يقول: «أع أع» والسواك في فيه كأنه يتهوع**».

و«أع» حكاية الصوت.

المعنى: أن رسول الله ﷺ كان من شدة إبلاغه السواك إلى أقاصي الحلق يقول «أع أع»، والسواك في فمه.

«**كأنه يتهوع**» أي: يتقيأ بتكلف.

وجاء في رواية للنسائي وابن خزيمة وابن حبان أنه كان يقول: «**عا عا**».

وفى رواية أنه كان يقول: «**أخ أخ**».

وفى أخرى لأبي داود في سننه أنه كان يقول: «**آه آه**».

قال ابن الملقن: وكلها عبارة عن إبلاغ السواك إلى أقاصي الحلق ففيه دلالة على استحباب إمرار السواك على سقف حلقه إمراراً لطيفاً ليزيل عنه التغير وعلى لسانه، وعلى كراسي أضراسه، وأطراف أسنانه، وأنه يبالغ إلى أقاصي الحلق.

***

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ قَالَ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَشُوصُ فَاهُ بِالسِّوَاكِ.

ومعنى: «يَشُوصُ» يدلك.

فيه دلالة على استحباب السواك عند القيام من النوم، وفى معناه كل حال يتغير فيه الفم.

قال ابن الملقن: وحاصل ما ذكره البخاري أن السواك سنة مؤكدة لإقباله عليه رسولنا ﷺ ليلاً ونهاراً، وقام الإجماع على كونه مندوباً حتى قال الأوزاعي هو شطر الوضوء.

وذهب إسحاق إلى بطلان الصلاة عند ترك السواك فيها عمداً، وذهب ابن حزم إلى أن السواك يوم الجمعة فرض لازم وكلام المذهبين باطل.

***

قَالَ البُخَارِي:

باب دَفْعِ السِّوَاكِ إِلَى الأَكْبَرِ

وَقَالَ عَفَّانُ حَدَّثَنَا صَخْرُ بْنُ جُوَيْرِيَةَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرَانِي أَتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ، فَجَاءَنِي رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الآخَرِ، فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الأَصْغَرَ مِنْهُمَا، فَقِيلَ لِي كَبِّرْ. فَدَفَعْتُهُ إِلَى الأَكْبَرِ مِنْهُمَا».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: اخْتَصَرَهُ نُعَيْمٌ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ أُسَامَةَ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ.

«وقال عفان»: هذا هو عفان بن مسلم وهو شيخ البخاري في الأصول يجوز في اسمه الصرف وعدمه وهو مشهور بالصفار البصري، سئل عن القرآن زمن المحنة هل هو مخلوق فأبى أن يقول هو مخلوق، وكان من الحفاظ ومن حكام الجرح والتعديل، جعل له عشرة آلاف دينار على أن يقف على تعديل رجل ولا يقول عدل، فقال: لا أبطل حقاً من الحقوق ولم يأخذها، مات ببغداد سنة عشرين ومائتين.

ومعنى الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى نفسه كأنه يتسوك بسواك، وإذا رجلين قد جاء أحدهما أكبر من الآخر، فناول السواك الأصغر وقدمه على الأكبر فقيل له: «كبر» أي: قدم الأكبر سناً، والقائل له «كبر» هو جبريل صلوات الله وسلامه

عليه.

ففي الحديث دلالة على استحباب تقديم الأكبر على الأصغر في السواك، وكذا ينبغي تقديمه عليه في الطعام والشراب، والكلام، والمشي، والكتاب، وكل منـــزلة قياساً على السواك، وهذا من أدب الإسلام فتقديم الأصغر على الأكبر ينافي الأدب، هذا إذا لم يترتبوا عن اليمين والشمال، وأما إذا رتب القدم في الجلوس عن اليمين والشمال فالسنة تقديم الأيمن فالأيمن، سواء كان عالماً أو غير عالم كبيراً كان أو صغيراً، وإن كان الذي عن يساره أعلم منه، أو أكبر سناً كما يدل عليه حديث شرب اللبن.

وفيه أيضاً: دلالة على أنه لا يكره للإنسان استعمال سواك غيره ، لكن السنة إذا استعمل سواك غيره أن يغسله كما إذا استعمل سواك نفسه ثانياً، فقد ورد في سنن أبي داود عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يعطيني السواك فأغسله ثم أدفعه[1].

قال ابن حجر: وهذا دال على عظم أدبها وكبر فطنتها، لأنها لم تغسله ابتداء حتى لا يفوتها الاستشفاء بريقه، ثم غسلته تأدباً وامتثالاً، ويحتمل أن يكون المراد بأمرها بغسله تطييبه وتليينه بالماء قبل أن يستعمله والله أعلم.

والأحسن ترك استعمال سواك الغير وإن جاز بلا كراهة، لأنه نقل عن ابن عمران: من استاك بسواك غيره فقد الحفظ، قاله ابن الملقن.

فائدة في كيفية إمساك السواك ووضعه وقدره:

أما كيفية إمساكه: فقد قال الترمذي الحكيم اجعل الخنصر من يمينك أسفل السواك تحته، والبنصر والوسطى والسبابة فوقه، واجعل الإبهام أسفل رأس السواك تحته كذا السنة فيه، كما روي عن عبد الله بن مسعود، ولا تقبض القبضة عليه فإنه يورث البواسير.

وقال: وأبلع ريقك أول ما تستاك فإنه ينفع من الجذام والبرص، وكل داء

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/١٤، رقم ٥٢) عن عائشة.

قلت واللفظ الذي أتى به المصنف هو معنى الحديث الذي عند أبو داود فهو عنده بلفظ: عن عائشة أنها قالت: كان نبي الله ﷺ يستاك فيعطيني السواك لأغسله، فأبدأ به فاستاك ثم أغسله وأدفعه إليه.

سوى الموت، ولا تبلع بعده شيء فإنه يورث الوسوسة، ولا تمص مصاً فإن ذلك يورث العمى.

وأما كيفية وضعه: فقال الترمذي الحكيم: ولا تضع السواك إذا وضعته بالأرض عرضاً، ولكن انصبه نصباً، فإنه يروى عن سعيد بن جبير أنه قال: من وضع سواكه بالأرض عرضاً فجن من ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وأما قدره: فقد قال الترمذي الحكيم: ولا تزد في طول سواكك على شبر، ولو قدر إصبع، فما زاد عليه ركب عليه الشيطان، واقتصر على شبر ودونه فإن ذلك السنة.

وأما موضعه: فقد روى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: كان السواك من إذن النبي ﷺ موضع القلم من أذن الكاتب[1].

ثم قال: وضعه ابن إسحاق وفعله زيد بن خالد الجهني الصحابي أيضاً كذلك[2].

وروى الخطيب في كتاب من روى عن مالك: عن أبي هريرة قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ أسوكتهم خلف آذانهم يستاكون بها كل صلاة.

قال الإخباريون: أول من سن السواك واستعمله السيد إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه، وهو أول من نتف إبطه، وأول من تمضمض، وأول من استنشق، وأول من استنجى، وأول من ألقى في النار.

وسبب إلقائه في النار أنه صلوات الله وسلامه عليه لما كسر أصنام قومه حين خرجوا إلى عيدهم، وترك الصنم الأكبر ورجعوا من عيدهم، فرأوا أصنامهم مكسرة إلا الصنم الأكبر قالوا لإبراهيم: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ قال لهم: لا

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٧/١، رقم ١٥٦) عن جابر بن عبد الله. قال البيهقي: قال أبو القاسم: رواه عن ابن إسحاق سفيان ولم يروه عن سفيان إلا يحيى، ويحيى بن يمان ليس بالقوي عندهم، ويشبه أن يكون غلط من حديث محمد بن إسحاق الأول إلى هذا.

(٢) روى فعل زيد بن خالد الجهني أبو داود في سننه (١٢/١، رقم ٤٧) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن خالد الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك ثم كل صلاة، قال أبو سلمة فرأيت زيداً يجلس في المسجد وإن السواك من أذنه موضع القلم من أذن الكاتب، فكلما قام إلى الصلاة استاك.

والحديث عند أحمد في المسند (١١٦/٤) عنه.

بل فعله هذا الصنم الكبير، قالوا: لأي شيء قال: لأنه رآكم تعبدون معه هذه الأصنام الصغار وهو أكبر منها فغضب لذلك فكسرها، فسألوا أصنامكم ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ ، فلما قال لهم ذلك رجعوا إلى أنفسهم وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لهذا الرجل في سؤالكم إياه، وهذه آلهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرة فاسألوهم، فقال قومه: ما نرى إبراهيم إلا كما قال: أنتم الظالمون بعبادتكم لهذه الأصنام الصغار مع هذا الكبير، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ متحيرين منكسرين منكوسين، وعلموا أنها لا تنطق ولا تبطش، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾، فلما اتجهت له الحجة عليهم قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، فلما ألزمهم الحجة وعجزوا عن الجواب قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[إبراهيم: الآيات ٦٢-٦٧].

قال عبد الله بن عمران: الذي أشار عليهم بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار رجل من الأكراد يقال له: شعيب الجبار فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وقيل: اسمه هيون.

فلما أجمع النمرود وقومه على تحريق إبراهيم أجلسوه في بيت وبنوا له بيتاً كالحصن كما قال الله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[الصافات: ٩٧]، ثم جمعوا له أصلاب الحطب مع أصناف الخشب، حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تقول: لئن عافتني الآلهة لأجمعن حطباً لإبراهيم، والأخرى تقول: لئن قضيت حاجتها لتحتطبن حطباً لنار إبراهيم احتساباً في دينها، وأرسل إلى البلاد شرقاً وغرباً يطلب الحطب عوضاً من الذهب، فحملت إليه الأحطاب على البغال وغيرها من سائر الآفاق.

ونقل ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي بن أبي طالب: أن البغال كانت تتناسل، وكانت أسرع الدوآب في نقل الحطب لنار إبراهيم خليل الرحمن فدعا عليها فقطع الله نسلها، وحلف النمرود أن من لا يحمل حطباً رماه النمرو في النار، حتى اجتمع مالا يوصف، واستمروا يجمعون الحطب شهراً كاملاً حتى أكثروا الحطب، وجمعوا منه ما أرادوا وأشعلوا النار في كل ناحية من الحطب، بعد أن طرحوا عليه النفط فاشتعل، حتى أن الطائر كان إذا مر بها احترق من شدة وهجها،

ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فرفعوه إلى رأس البنيان وقيدوه، فلم يتمكنوا من إلقائه في النار من شدة حرها، فاتخذوا المنجنيق بإشارة إبليس اللعين، ووضعوه فيه مقيداً مغلولاً فصاحت السماء والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة وقالت: يا ربنا إبراهيم ليس في أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا في نصره، فقال الله تعالى: إن استغاث بأحد منكم أو دعاه فلينصره، فلقد أذنت له في ذلك، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه، فخلوا بيني وبينه، فلما أرادوا إلقائه في النار أتاه ملك المياه فقال: يا إبراهيم إن أردت أخمدت النار فإن خزائن الأمطار والمياه بيدي، وأتاه خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء، فقال إبراهيم: لا حاجة لي إليكم ثم رفع رأسه فقال: اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس في أرضك أحد يعبدك غيري.

وروى المعتمر عن أبي بن كعب أن إبراهيم عليه السلام قال حين أوقفوه ليلقوه في النار: لا إله إلا أنت سبحانك أنت رب العالمين، لك الحمد ولك الشكر ولك الملك، لا شريك لك.

ثم رموه من المنجنيق إلى النار من مسيرة شاسعة فاستقبله جبريل عليه السلام فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل فاسأل ربك فقال: إبراهيم حسبي من سؤالي علمه بحالي حسبي الله ونعم الوكيل.

وكان ﷺ إذا أصابه هم أو غم يقول حسبي الرب من العباد، وحسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات، فمن قالهن سبع مرات كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة.

وقال بعض الصالحين: أصابني وجع شديد فرأيت النبي ﷺ في المنام قد وضع يدعه على رأسي وقال: بسم الله ربي الله، حسبي الله، توكلت على الله، اعتصمت بالله، فوضت أمري إلى الله، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ثم قال: استكثروا من هذه الكلمات فإن فيها شفاء من كل سقم، وفرجاً من كل كرب ونصراً على الأعداء.

فقال الله عز وجل: ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾[الأنبياء: ٦٩]، وقيل: إن جبريل هو الذي نادى بأمر الله عز وجل.

قال علي وابن عباس رضي الله عنهم: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ولو لم يقل على إبراهيم لكان بردها باقياً على الأبد، فلم يبق يومئذ نار في الأرض إلا وطفئت كل منها ظنت أنها هي المعنية، وما انتفع أحد من أهل الأرض

يومئذ بنار.

وما أحرقت النار يومئذ شيئاً إلا وثاق إبراهيم عليه السلام، وقيل: استمرت النار أربعين يوماً لم يوجد فيها حرارة، ولم يبق يومئذ دآبة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ، فإنه كان ينفخ عليه النار فلذلك أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقاء.

وقيل: أوحى الله إلى النار إن أحرقت منه شعرة أو ناله منك ألم، أحرقتك بنار جهنم، فبردت نيران الدنيا من خوف نار عقوبة المولى، فيا عجباً إذا كانت هذه النار مع هذه الحرارة بردت من خوف نار جهنم، فهذا العبد العاصي كيف يقدم على المعصية، وتجهم وهو يسمع ذكرها، ولا يخاف حرها.

وأخذت الملائكة بعضدي إبراهيم فأقعدته على الأرض، فإذا هو بعين ماء في مدة إقامته في النار، فقيل: أربعين يوماً، وقيل: سبعة أيام، وقيل: غير ذلك، وقيل: كان سنه لما ألقي فيها ستة عشر سنة، وروي عنه أنه قال: ما كنت قط أنعم أياماً من الأيام التي كنت في النار، وبعث الله تعالى إلى ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد معه إلى جانبه في النار ليونسه، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة، وقال له: يا إبراهيم إن ربك يقول لك: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي، وألبسه القميص.

وكان النمرود يعتقد أنه هلك في النار فرأى في منامه كان قائلاً يقول له: إن إبراهيم لم تعمل فيه النار، فجمع المنجمين وأخبرهم بذلك فقالوا له: أضغاث أحلام لو كان جبلاً في هذه النار لذاب، ولو كان حديداً لم يثبت على هذا العذاب، فقال: ابنوا لي موضعاً عالياً لأشرف عليه، فلما أشرف على إبراهيم رآه جالساً في روضة ورأى الملك قاعداً إلى جنبه ورأى عنده رياحين ونرجس ووردا، وعين ماء، والنار تحرق ما حوله من الحطب، فناداه النمرود: يا إبراهيم عظيم إلهك الذي بلغت قدرته إلى أن حال بينك وبين النار، وصرف عنك ضررها، يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: فهل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟ قال: لا، قال: فقم وأخرج منها، فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها إليه، فقال له: يا إبراهيم من الرجل الذي رأيت معك في صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذاك ملك الظل أرسله إلي ربي ليؤنسني فيها.

لطيفة: حكى في بعض الأخبار أن بنتاً صغيرة للنمرود قالت: يا أبت دعني أنظر إلى إبراهيم في النار، فأذن لها فنظرت إليه فوجدته سالماً فقالت له: كيف سلمت من النار؟ فقال: من كان على لسانه بسم الله الرحمن الرحيم، وفى قلبه

المعرفة لا تحرقه النار، فقالت أريد الدخول إليك قال: قولي لا إله إلا الله إبراهيم رسول الله وادخلي، فقالت فصارت النار عليها برداً وسلاماً فلما رجعت إلى أبيها أخبرته بذلك، فأمرها بالرجوع عن دين إبراهيم فلم ترجع، فعذبها عذاباً شديداً، فأمر الله جبريل فأخذها ووضعها عند إبراهيم ثم زوجها إبراهيم بولده فولدت منه عشرين نبياً، ذكره في نزهة المجالس.

لطيفة أخرى: نقل الإخباريون أن شخصاً من هذه الأمة من أهل اليمن في زمن النبي ﷺ أحرق بالنار فلم تضره، فقد أفاد النووي في كتابه البستان أن أبا مسلم الخولاني ألقي في النار فلم تضره، وكان أبو مسلم من أكابر الأولياء واسمه عبد الله بن ثوب.

قال النووي: وكان في زمن النبي ﷺ ورحل إليه ليصحبه فتوفي ﷺ قبل أن يصل إليه.

وسبب إلقائه في النار أنه كان في اليمن شخص ادعى النبوة يقال له: الأسود بن قيس العنسي الكذاب، فأرسل إلى مسلم وأحضره عنده فلما جاء قال: أتشهد أني رسول الله، فقال: ما أسمع؟ قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم.

قال: النووي فقوله: أولاً: «لا أسمع» يحتمل أنه سمع قوله: أتشهد أني رسول الله، ولكن قال له: لا أسمع أي: لا أقبل ما تقول، ويحتمل أن الله سد مسامعه عن هذا الباطل.

قال النووي وهذا ظاهر، فلا زال يردد هذا الكلام على أبي مسلم فلا يقبل منه، فأمر بنار عظيمة وألقى فيها أبو مسلم فلم تضره، فقيل له: انفه عنك وإلا أفسد من اتبعك، فأمره بالرحيل فرحل إلى مدينة النبي ﷺ فما وصل إلا وتوفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد فقام يصلي إلى سارية فرآه عمر، فقال له: من أين الرجل؟ قال: من أهل اليمن، قال: من الرجل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب، قال: نشدتك الله أنت هو؟ قال: اللهم نعم، فاعتنقه ثم بكى ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهم وقال: الحمد الله لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن.

ثم أهلك الله تعالى النمرود بأضعف مخلوقاته وهو البعوض، قال بعضهم: إن الله فتح على النمرود باباً من البعوض فسترت عين الشمس وأكلت عسكره، ولم تترك

إلا العظام، ودخلت واحدة منها دماغه فأكلته حتى صارت مثل الفأر.

وقال وهب بن منبه: لما أرسل الله البعوض على النمرود واجتمع معه في عسكره ما لا يحصى عدد، فلما عاين النمرود ذلك انفرد عن جيشه ودخل بيته وأغلق الأبواب وأرخى الستور، ونام على قفاه مفكراً فدخلت بعوضة في أنفه وصعدت إلى دماغه فقعدت بدماغه أربعين يوماً، إلى أن كان يضرب رأسه الأرض، وكان الناس عنده من يضرب رأسه بمطرقة ونحوها، ثم سقطت منه كالفرخ وهو يقول: كذلك يسلط الله رسله على من يشاء من عباده ثم هلك حينئذ.

قال العلماء: والبعوض مع ضعفها وصغر جرمها قد أودع الله في مقدم دماغها قوة الحفظ، وفى وسطه قوة الفكر، وفى مؤخرته قوة الذكر، وخلق لها حاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة اللمس، وخلق لها منفذاً للغذاء، ومخرجاً للفضلة، وخلق لها منفذاً ومعاء وعظاماً، فسبحان من قدر فهدى، و لم يخلق شيئاً من المخلوقات سدى، ومع هذا لا يخفى على الله ظاهراً، فيعلم سبحانه حركاتها وسكناتها كما قال بعضهم:

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها من لحمها ... والمخ في تلك العظام النحل
امنن على بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول

لطيفة: وهي فائدة في إخراج ما دخل في الأذن من بعوضة ونحوها:

وقد ذكر بعض العلماء أن الإنسان إذا دخل في أذنه بعوضة أو برغوث أو نحو ذلك، وعجز عن إخراجه فليقل: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم، فإنه يخرج من أذنه، وذكر أن هذا ينفع لمن أصابه هم، أو كرب، أو شدة.

حكي في كتاب الدعاء للشيخ الإمام العلامة أبي بكر محمد بن الوليد الفهري عن مطرف بن عبد الله أبي مصعب المدني أنه قال: دخلت على المنصور فرأيته مغموماً حزيناً قد امتنع من الكلام لفقد بعض أحبته فقال لي: يا مطرف طرفني من الهم ما لا يكشفه إلا الله تعالى الذي بلاني به، فهل من دعاء أدعو به عسى يكشفه الله عني؟ قلت: يا أمير المؤمنين حدثني محمد بن ثابت عن عمر بن ثابت قال: دخلت في أذن رجل من أهل البصرة بعوضة حتى وصلت إلى صماخيه، فأيقظته وأسهرته ليله ونهاره فقال رجل من أصحاب الحسن: ادع بدعاء العلاء بن الحضرمي

صاحب رسول الله ﷺ الذي دعا به في المغارة وفى البحر فخلصه الله تعالى فقال: وما هو يرحمك الله؟ فقلت: بعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين فسلكوا مغارة، وعطشوا عطشاً شديداً حتى خافوا الهلاك، فنـــزل فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم اسقنا، فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقت عليهم وأمطرتهم حتى ملئوا الآنية وسقوا الركاب، ثم قال: ثم انطلقنا حتى أتينا على خليج من البحر ما غيض قبل ذلك اليوم، ولا غيض بعد فلم نجد سفناً فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم أجرنا، ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال: جوزوا باسم الله، قال أبو هريرة: فمشينا على الماء فو الله ما ابتل لنا قدم، ولا خف، ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف، قال: فدعا الرجل الذي دخلت في أذنه البعوض بهذا فو الله ما خرجنا حتى خرجت من أذنه لها طنين حتى صكت الحائط وبرأ، قال: فاستقبل المنصور القبلة ودعا بهذا الدعاء ساعة ثم انصرف بوجهه إلي وقال: يا مطرف قد كشف الله عني ما كنت أجده من الهم، ودعا بالطعام فأجلسني وأكلت معه.

***

المجلس الثاني والخمسون

في الكلام على حديث باب فضل من بات على وضوء، وفيه فوائد كثيرة متعلقة بالنوم ويدفع الشيطان وغير ذلك باب فضل من بات على وضوء

قَالَ الْبُخَارِي:

باب فَضْلِ مَنْ بَاتَ عَلَى الْوُضُوءِ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ، قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، قَالَ أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ**» . قَالَ فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغْتُ «**اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ**» . قُلْتُ وَرَسُولِكَ . قَالَ «**لاَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**».

قال الإمام النووي: دل هذا الحديث على ثلاثة أشياء يستحب لمن أراد النوم أن يفعلها:

الأول: الوضوء، فإذا أراد الإنسان أن ينام يستحب له أن يتوضأ إن لم يكن متوضئاً لاحتمال أن يموت في ليلته فيكون على طهارة، وإذا مات على طهارة مات شهيداً كما ورد أن النبي ﷺ قال: «**إن استطعت أن تكون أبداً على وضوء فافعل، فإن ملك الموت إذا قبض روح العبد وهو على وضوء كتب له شهادة**»[1].

وحكي أن بعض الصالحين أنه توضأ في الليلة التي مات فيها ثمانين مرة حرصاً على

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١٢٣/٦، رقم ٥٩٩١)، وفي المعجم الصغير (١٠٠/٢، رقم ٥٦)، وأبو يعلى في مسنده (٣٠٦/٦، رقم ٣٦٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩/٣، رقم ٢٧٨٣)، والديلمي في الفردوس (٣٦٨/٥، رقم ٨٤٦٠) عن أنس بن مالك.

والحديث ضعيف جداً فيه: كثير بن سليم أبو هاشم، أخرج له ابن حبان حديثه هذا في المجروحين (٢٢٣/٢، ترجمة ٨٩٦) وقال: كان ممن يروي عن أنس ما ليس من حديثه، ويضع عليه ثم يحدث به، لا يحل كتابة حديثه ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاختبار.

وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٥٢/١) وتقل عن ابن حبان قوله في كثير بن سليم أبو هاشم، وزاد: وقال النسائي متروك الحديث.

أن يموت وهو متوضئ.

وأيضاً: إنما يستحب الوضوء ليكون أصدق لرؤياه، وأبعد من تلاعب الشيطان به، وكما يستحب الوضوء عند النوم يستحب عند الاستيقاظ منه ليلاً لدفع الشيطان وإبطال سحره، فقد ورد في هذا الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ. فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ**»[1]، وقافية الرأس: آخره.

واختلف العلماء في هذه العقد فقيل هو عقد حقيقي بمعنى عقد السحر للإنسان ومنعه من القيام قال الله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾[الفلق: ٤]، فعليه فإنه يؤثر في النائم فلا يستيقظ بسبب ذلك كتأثير السحر، وقيل: يحتمل أن يكون فعلاً يفعله كفعل النفاثات في العقد، وقيل: هو من عقد القلب فكأنه يوسوس في نفسه ويحدثه فإن عليك ليلاً طويلاً فارقد، وتأخر عن القيام، فعلى هذا عقد مجازى وهو عبارة عن تثبيط الشيطان للإنسان عن قيام الليل.

وقوله: «فأصبح نشيطاً طيب النفس» أي لسروره بما وفقه الله الكريم من الطاعات ووعده به من ثوابه مع ما يبارك به في نفسه، وتصرفه في كل أموره مع ما زال عنه من عقد الشيطان، وتثبيطه.

وقوله: «أصبح خبيث النفس كسلان» أي: لأنه بات مؤانس للشيطان مستولياً عليه.

قال العلماء: وشيطان النوم اسمه: الوسنان، فإن إبليس لعنه الله فرق تسعة من أولاده على بني آدم ووكل كل واحد منهم بعمل، فوكل بالنائم ولده الوسنان ليثقل رأسه وينومه عن الصلاة والتسبيح والقراءة، ويوقظ أصحاب المعاصي لفعل المعصية، وسنذكر بقية أولاده وأسماءهم، وما وكلوا فيه في محله إن شاء الله تعالى.

وإلى ذلك أشار ابن العماد في منظومته في أحكام الجان:

أرسل من أولاده الأعوانا ... لعابد ويكرم الفتانا

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/٣٨٣، رقم ١٠٩١)، و مسلم في صحيحه (١/ ٥٣٨، رقم ٧٧٦) عن أبي هريرة.

إلى أن جاء إلى شيطان النوم فقال:

شـــيطان نـــوم سمـــه بالوسنان مـــثقل لـــلرأس والأجفـــان

يـــنوم المـــرء عـــن التســـبيح ويوقـــظ فيـــه فـــاعل القبيح

فعلمنا الصادق المصدوق رسول الله ﷺ ما نطرده به ونبطل سحره وعقده بقوله:: «فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة» وأرشدنا إلى أن الذكر والوضوء والصلاة بعد الاستيقاظ من النوم مما ينشط العبد ويفرحه، وإن تركه مما يكسل النفس ويخبثها.

وقد ذكر العلماء للذكر فوائد:

منها: أنه حرز من الشيطان، وفى سنن الترمذي عن أبي إمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أوى إلى فراشه طاهراً وذكر الله تعالى حتى يدركه النعاس، لم ينقلب ساعة من الليل يسأل الله فيها خيراً من خير الدنيا إلا أعطاه الله إياه**»[1] حديث حسن، فإن الشيطان لا يدخل على الإنسان إلا من باب الغفلة فهو يرصده، فإذا غفل وثب عليه وافترسه، فإذا ذكر الله انخنس وتصاغر وانقعس.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سهى وغفل وسوس، فإذا ذكر الله انخنس.

الثاني بما دل عليه الحديث: أن ينام على الجانب الأيمن فإن النوم ينقسم إلى أربعة أقسام:

الأول: النوم مستلقياً بأن يجعل ظهره بالأرض ووجهه إلى السماء، وهو مباح للرجال من غير كراهة، قيل هو نوم الأنبياء ليتفكروا في خلق السماوات.

وروي أن عمر رأى رسول الله ﷺ مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى.

قال الحليمي في المنهاج وهو مكروه في حق النساء، لأن عمر بن عبد العزيز رأى بنته كذلك فنهاها.

الثاني: النوم على الوجه وهو نوم الشياطين وإخوانهم من الإنس وهو مكروه، لأن

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٥٤٠، رقم ٣٥٢٦) عن أبي أمامة وقال: هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا أيضاً عن شهر بن حوشب عن أبي ظبية عن عمرو بن عبسة عن النبي ﷺ. وأخرجه أيضاً: الطبراني في المعجم الكبير (٨/١٢٥، رقم ٧٥٦٨).

النبي ﷺ رأى رجلاً نائماً على بطنه فحركه وقال: «**هذه ضجعة يكرهها الله**»[١]، ولأن أهل النار يسحبون على وجوههم وكذلك يعذبون.

الثالث: النوم على اليسار وهو نافع عند الأطباء لأنه يسرع هضم الطعام، وينبغي عندهم أن يضجع على الجانب الأيمن قليلاً بعد الأكل ثم ينقلب إلى الجانب الأيسر.

الرابع: النوم على اليمين وهو نوم السنة التي كان يحبها رسول الله ﷺ فإنه كان يحب التيامن في شأنه كله، وأنه أسرع للانتباه فإن القلب في الجانب الأيسر، فإذا نام على الشق الأيمن تعلق فاستيقظ بسرعة، وإن نام على الأيسر استراح فاستغرق ونام وفاته مصالح دينه ودنياه لنومه الليل، وقد جاء في هذا الصحيح عن ابن مسعود قال: ذكر للنبي ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح قال: «**ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه**»[٢] أو قال: «**في أذنه**».

ولأن النوم بمنـــزلة الموت فيستعد له بالهيئة التي يكون عليه في قبره ولهذا قال العلماء: يستحب للنائم أن يستقبل القبلة، وأن يقول: بسم الله وعلى ملة رسول الله، كما يقال حين يوضع الميت في قبره.

فيجمع لمن أراد النوم بين استقبال القبلة، والنوم على اليمين وبين الدعاء المذكور عند إرادة النوم كما يجمع للميت، لأن النوم بمنـــزلة الموت.

الثالث: بما دل عليه الحديث أن يدعو بالدعاء المذكور عند إرادة النوم وهو: «**اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت**»[٣].

قال العلماء: لما كان النائم بمنـــزلة الميت، والنوم أخو الموت ولهذا يستحيل النوم

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٣٧/٨، رقم ١٥٢) عن الحارث بن عبدالرحمن قال: بينا أنا جالس مع أبي سلمة بن عبد الرحمن إذ طلع علينا رجل من بني غفار ابن لعبد الله بن طهفة فقال ابو سلمة ألا تخبرنا عن خبر أبيك فقال حدثني أبي عبد الله بن طهفة فذكر حديثاً طويلاً فيه هذا الجزء الذي ذكره المصنف.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١١٩٣/٣، رقم ٣٠٩٧)، ومسلم في صحيحه (١/ ٥٣٧، رقم ٧٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٩٧/١، رقم ٢٤٤)، ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٨١، رقم ٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب.

على الحي الذي لا يموت لا تأخذه سنة ولا نوم، وكذلك أهل الجنة لا ينامون.

والنائم محتاجاً من يحرس نفسه ويحفظها مما يعرض له من الآفات، ويحرس بدنه أيضاً من طوارق الآفات، وكان ربه وفاطره تعالى هو المتولي لذلك وحده علم النبي ﷺ النائم أن يقول كلمات التفويض، والالتجاء، والرغبة، والرهبة، ليطلب العبد النائم بها من ربه كمال حفظه، وحراسته لنفسه وبدنه، وعلمه أن يجعله آخر كلام، فإنه ربما توفاه في منامه، وأيضاً علمه أن يتذكر الإيمان حيث قال: «آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت» حتى يكون الإيمان آخر كلامه، ومن كان الإيمان آخر كلامه دخل الجنة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**واجعلهن آخر كلامك فإن مت من ليلتك مت على الفطرة**»[1] أي: على دين الإسلام.

وقوله: «أسلمت وجهي إليك»، جاء في رواية أخرى: أسلمت نفسي إليك، والوجه والنفس هنا بمعنى الذات كلها كما قاله النووي، والمعنى: أسلمت ذاتي كلها إليك أي: جعلتها مسلمة لك تسليم العبد المملوك نفسه إلى سيده ومالكه.

ومعنى «فوضت أمري إليك»: رددت أمري إليك وبرئت من الحول والقوة إلا بك فاكفني همه، وتولى إصلاحه، والتفويض من أشرف مقامات العبودية، لأنه يوجب سكون القلب وطمأنينته بما يختاره الله له.

ومعنى «ألجأت ظهري إليك»: توكلت عليك واعتمدت كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يسنده إليه.

وقوله: «رغبة ورهبة إليك» أي: طمعاً في ثوابك وخوفاً من عذابك.

سؤال: فإن قيل: رغبة يتعدى بإلى، ورهبة بمن، يقال: رغب إليه ورهب منه، فكيف عداهما بإلى؟

جوابه: أنه أعطى الرهبة هنا حكم الرغبة فعداها بإلى، وإن كانت متعدية بمن على عادة العرب، فإنهم يفعلون ذلك كثيراً في أشعارهم كقول بعضهم:

ورأيت بعلك في الوغى متقلداً ... سيفاً ورمحاً والرمح لا يتقلد

وقول الآخر:

وزججن الحواجب والعيونا ... والعيون لا تتزجح

لكنه لما جمعهما في النظم حمل أحدهما على حكم الآخر في اللفظ.

---

(١) انظر التخريج السابق فهو تمام الحديث.

فائدة: اشتمل قوله في هذا الدعاء: «أسلمت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك» على ثلاث مقامات شريفة وهي مقام التسليم، والتفويض، والتوكل.

سؤال: فإن قيل: ما الفرق بين التوكل، والتسليم، والتفويض؟

وجوابه: أن يقال: التوكل أن يسكن إلى وعد الله، والتسليم أن يكتفي بعلم الله، والتفويض أن يرضى بحكم الله ﷻ.

وقوله: «لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك» معناه: لا ملجأ للعبد سوى ربه، ولا منجا له منه غيره، فهو الذي يلجأ إليه العبد لينجيه من نفسه، كما في الحديث الآخر: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[1] فهو سبحانه الذي يعين عبده، وينجيه من بأسه بمشيئته وقدرته، فمنه البلاء ومنه الإعانة، ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[الأنعام: ١٧]، ﴿**قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً**﴾[الأحزاب: ١٧] فهو حارس العبد في نومه ويقظته، وقد وكل الله بكل عبد ملائكة تحفظه وتحرسه.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**﴾[الرعد: ١١]: ما من عبد إلا له ملك موكل به يحفظه في نومه، وفي يقظته من الجن والإنس والهوام، فما منهم شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءك، إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال كعب الأحبار: ولولا أن الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن.

وعن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر سبعة أملاك، يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب، ولو وكل الإنسان إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٣٥٢، رقم ٤٨٦) عن أبي هريرة عن عائشة، وكذا أبو داود في سننه (١/٢٣٢، رقم ٨٧٩)، والنسائي في سننه (١/١٠٢، رقم ١٦٩).
وأخرجه ابن ماجه في سننه (٢/١٢٦٢، رقم ٣٨٣٨) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/١٦٧، رقم ٧٧٠٤) عن أبي أمامة.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٠٩):رواه الطبراني وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف.
والحديث عند ابن قانع في معجم الصحابة (٢/٧)، والديلمي في الفردوس (٤/٣٨٤، رقم ٧١١٧).
=

وقال مطرف: أنصح عباد الله تعالى للمؤمنين الملائكة، وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين.

وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل إذا آوى إلى فراشه ابتدره ملك وشيطان فقال الملك: اللهم اختم بخير، وقال الشيطان: اللهم اختم بشر، فإن ذكر الله تعالى ثم نام بات الملك يكلؤه**»[1].

لطيفة في المعنى: حكي عن ذي النون المصري أنه خرج ذات يوم يريد غسل ثيابه على حافة النيل، فإذا هو بعقرب قد أقبل إليه كأعظم ما يكون، ففزع منها فزعاً شديداً واستعاذ بالله، فأقبلت حتى وصلت إلى النيل، فإذا هي بضفدع خرج من الماء فاحتملها على ظهره، وعبر بها الجانب الآخر من النيل قال ذو النون: فتعجلت منها وأتزرت بمئزر ونزلت في الماء، ولم أزل أراقبها إلى أن نزلت من ظهر الضفدع ومشت وأنا أتبعها، إلى أن أتت إلى شجرة كثيرة الأغصان، كثيرة الظل، وإذا غلام أمرد نائم تحتها وهو مخمور فقلت: لا قوة إلا بالله، أتت العقرب من ذلك الجانب لأجل لسع هذا الفتى، فبينما أنا متفكر وإذا بتنين من أعظم الحيات قد أقبل يريد قتل الفتى، فتعلقت العقرب بدماغ التنين ولزمته حتى قتلته ورجعت إلى الماء، وعبرت على ظهر الضفدع إلى الجانب الآخر، قال ذو النون: فلما رأيت هذا أنشدت:

يـــا راقـــدا والجـــليل يحفظـــه ... مـــن كل سوء يذب في الظلم

كيـــف تـــنام العيون عن ملك ... يـــأتيك مـــنه فوائـــد الـــنعم

فانتبه الفتى على كلام ذي النون فرأى الثعبان فخاف منه فولى هارباً، فأخبره ذو النون بخبره فتاب ونزع أثواب اللهو ولبس أثواب السياحة وساح، ومات على تلك الحال.

واتفق لهارون الرشيد أنه نام ليلة فسمع قائلاً يقول:

= قال الزيلعي في نصب الراية (٤٣٤/١): أخرجه الطبراني في معجمه عن عفير بن معدان وهو ضعيف عن سليم بن عامر عن أبي أمامة.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٤١٦، رقم ١٢١٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٢١٣/٦، رقم ١٠٦٨٩)، وابن في صحيحه حبان (٣٤٣/١٢، رقم ٥٥٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (٣٢٦/٣، رقم ١٧٩١) جميعاً عن جابر.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٠/١٠): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح خلا إبراهيم بن الحجاج الشامي وهو ثقة.

يـــا راقـــد الـــليل انتـــبه إن الخطـــوب لهـــا ســـرى
ثقـــة الفـــتى مـــن نفســـه ثقـــة محلـــلة العـــرى

فاستيقظ فرأى المصابيح قد طفئت فأمر بالشموع فأوقدت، فنظر فإذا هو بحية بقرب فراشه فقتلها فمن حفظه وحرسه من شرها إلا الحفيظ البصير اللطيف الخبير.

***

المجلس الثالث والخمسون

في الكلام على الغسل وما فيه من الفوائد وذكر موجبات الغسل وذكر قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ﴾[الأحزاب: ٧٢] وغير ذلك

قَالَ البُخَارِي :

كتابُ الغُسْلِ

وَقَوْلِ اللَّه تَعَالَى ﴿وإن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وإن كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة: ٦]، وَقَوْله جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وإن كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء: ٤٣].

غرض البخاري من هاتين الآيتين أن وجوب الغسل على الجنب مستفاد من القرآن، وقد فرق العلماء بين: الغسل بفتح الغين، والغسل بضمها، والغسل بكسرها.

فقالوا: الغسل بفتح الغين يأتي لمعنيين يأتي مصدر غسل الشيء، ويأتي بمعنى الاغتسال، كقولك: غسل الجمعة سنة أي: اغتسالها.

والغسل بكسرها: اسم لما يغتسل به من سدر ونحوه.

ومعنى الغسل لغة: سيلان الماء على الشيء مطلقاً.

ومعناه في اصطلاح الفقهاء: سيلان الماء على جميع البدن مع النية.

والأشياء التي توجب الغسل سبعة:

الأول: الموت فمن مات وجب تغسيله وتغسيله على أهل البلد فرض كفاية فإن تركوا غسيله أثموا كلهم.

نعم لنا شخص لا يغسل إذا مات بل تغسيله حرام، وهو الشهيد المقتول في الغزاة بسبب القتال، فقد ذكر العلماء أن تغسيله حرام، وكذا الصلاة عليه.

ولنا شخص آخر تغسيله جائز لا واجب وهو الكافر إذا مات بين المسلمين فإنهم يجوز لهم تغسيله.

الثاني: الحيض فإذا حاضت المرأة وجب عليها الغسل، واختلفوا فيما يجب عليها

الغسل، فقيل: بخروج الدم، وقيل: بانقطاعه، والصحيح: أنه يجب الغسل بثلاثة أشياء بخروجه وانقطاعه وإرادة القيام إلي الصلاة، ويدل ذلك ما في الصحيحين أنه ﷺ قال لفاطمة بنت أبي حبيش: «**إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم وصلي**»[1]، وفي رواية للبخاري: «**فاغتسلي وصلي**»[2].

الثالثة: النفاس فإذا نفست المرأة وانقطع دمها وإرادة الصلاة وجب عليها الغسل.

الرابع: خروج الولد فإذا ولدت المرأة ولد فأكثر، وإن لم تر بللاً وجب عليها الغسل، لأن الولد أصله مني منعقد، وكذا لو طلقت علقة أو مضغة وإن لم يتصور و لم يتخلق يجب عليها الغسل، وإذا ولدت وهي صائمة أفطرت أيضاً على الأصح.

الخامس: خروج المني فإذا خرج من الإنسان منيه الخارج أول مرة بدون جماع وجب عليه الغسل رجلاً كان أو امرأة، بخلاف ما لو خرج منه مني غيره، كما إذا استدخل مني غيره في ذكره، أو استدخلت مني غيرها وخرج فإنه لا يجب الغسل، وكذا لو خرج منها المني فأعادته إلى فرجها ثم خرج فلا غسل.

والمراد بخروج المني في حق الرجل بروزه عن الحشفة، فلو أحس بنـــزول المني فأمسك ذكره فلم يخرج منه شيء لم يجب الغسل عندنا، وفي حق المرأة إن كانت بكراً بروزه أيضاً إلى الظاهر، فلو وصل إلى باطن فرجها فقط لم يجب الغسل، وإن كانت ثيباً وصوله إلى ما يجب غسله في الاستنجاء وهو باطن فرجها، وإن لم يخرج إلى الظاهر.

والدليل على أن المرأة تحتلم ويجب عليها به الغسل ما ورد في الصحيحين عن أم سلمة رضي الله عنها قال: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن الله لا يستحي من الحق هل على المرأة من غسل إذا احتملت؟ قال: «**نعم إذا رأت الماء**».

فائدة: قال الشيخ برهان الدين المحدث الحلبي أربع نسوة سألن النبي ﷺ هذا السؤال: أم سليم، وخوله بنت حكيم، وسهلة بنت سهيل، ويسرة بنت صفوان، وأجاب كل واحدة منهن بهذا الجواب.

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (١/١٢٢ ، رقم ٣١٤) ، ومسلم في صحيحه (١/ ٢٦٢ ، رقم ٣٣٣) عن عائشة أنها قالت: قالت فاطمة بنت أبي حبيش لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إني لا أطهر أفأدع الصلاة ، فقال رسول الله ﷺ «إنما ذلك عرق وليس بالحيضة ...» فذكره .

(٢) انظر صحيح البخاري (١/١٢٢ ، رقم ٣١٤) من حديث عائشة أيضاً.

وقد ذكر العلماء للمني ثلاث علامات يعرف بها:

الأولى: يعرف بالتدفق مع فتور الذكر بدفعات قال الله تعالى: ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾[الطارق: ٦].

الثانية: بالتلذذ بخروجه وإن لم يتدفق، مع فتور الذكر وانكسار الشهوة عقبه.

الثالثة: بالرائحة بأن تكون رائحته إن كان رطباً كرائحة العجين أو طلع النخل، وإن كان جافاً كرائحة بياض البيض.

ولا يشترط اجتماع هذه العلامات، بل أي علامة وجدت في إيجاب الغسل كفت في إيجاب الغسل، حتى لو خرج المني على لون الدم لكثرة الجماع مع التدفق أو التلذذ والرائحة وجب الغسل، حتى لو خرج دماً خالصاً مع علامة من العلامات فهو طاهر كالمني موجب الغسل، فإن فقدت هذه العلامات فلا غسل لأنه ليس بمني.

فائدة: لو استيقظ الإنسان من منامه فوجد قد خرج منه خارج أبيض ثخين كالمني لكن لم ير له علامات من العلامات المتقدمة لم يتعين عليه الغسل بل يتخير بين جعله منياً وبين جعله ودياً، فإن الودي كالمني في البياض والثخانة، لكن المني طاهر موجب الغسل، والودي نجس ناقض للوضوء غير موجب للغسل، فإن جعله منياً اغتسل ولا يجب عليه أن يغسل ما أصابه من الثوب، وإن جعله ودياً غسل ما أصابه لنجاسته.

فائدة أخرى: إذا اغتسل الرجل ثم خرج منه المني بعد الغسل ولو يسيراً وجب عليه إعادته، ولهذا قال العلماء: يستحب لمن يريد الغسل بعد نزول المني أن يبول قبل أن يغتسل لئلا يخرج بعده مني فيحتاج إلى إعادة الغسل، وأما المرأة إذا اغتسلت عن جماع، ثم خرج منها المني فهل يجب عليها إعادة الغسل أم لا؟ في ذلك تفصيل وهو: أن يقال إن كان قضيت وطرها بالجماع أي: حصلت شهوتها ثم اغتسلت خرج منها شيء من ذلك المني وجب عليها إعادة الغسل، لأن هذا الخارج منها فيها المخلوط بمنيه، وإن كان ماء التلذذ بذلك الجماع أو كانت صغيرة أو نائمة أو مكرهة ثم اغتسلت ثم خرج منها المني فلا يجب عليها الغسل، لأن هذا الخارج مني الرجل لا منيها.

فائدة أخرى: لنا إنسان نحكم ببلوغه بسبب المني ومع ذلك لا يلزمه الغسل، وصورته فيما إذا أحس به ولم يخرج من الفرج، ولهذا قالوا: إن المرأة إذ نزل المني إلى فرجها ولم يخرج عليها الغسل إذا كانت بكراً لأن في حكم الباطن.

السادس: مما يوجب الغسل دخول الحشفة في الفرج فإذا أدخل الإنسان حشفته في فرج وجب عليه الغسل، سواء كان ذلك الفرج حلالاً كفرج زوجته وأمته، أو حراماً كأن لاط بصبي نسأل الله العفو والعافية والسلامة من كل ما يغضب الله ﷻ، أو أدخله في فرج بهيمة سواء كان بحائل أو غير حائل وسواء كان الذكر أشل أو سليماً، وسواء كان بقصد أو بغير قصد، وسواء كان منتشراً أو غير منتشر، ويدل على ذلك كله ما رويناه في الصحيحين أنه ﷺ قال: «إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل»، وفي رواية لمسلم: «وإن لم ينـــزل»، فإذا جامع و لم ينـــزل منه المني وجب عليه الغسل.

سؤال: جاء في هذا الصحيح إن زيد بن خالد الجهني سأل عثمان بن عفان رضي الله عنهم فقال: أرأيت إذا جامع الرجل امراته فلم يمن، قال عثمان: يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ويغسل ذكره، وقال عثمان: سمعته من رسول الله ﷺ فسألت عن ذلك علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وأبي بن كعب فأمروه بذلك أي: كما قال عثمان من وجوب غسل الذكر والوضوء، فهذا الحديث يدل على أنه إنما يجب الغسل بالجماع إذا نزل فإن لم ينـــزل فلا.

جوابه: إن هذا كان في أول الإسلام وهو منسوخ بقوله: «**إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل**» وبغيره قاله ابن الملقن وغيره.

وكذا قوله ﷺ: «**إنما الماء من الماء**» أي: إنما يجب الغسل بالماء إذا نزل منه الماء أي: المني.

أجاب العلماء عنه بأنه منسوخ أو محمول على الاحتلام أي: لا يجب الغسل بالاحتلام إلا إذا أنزل، وإذا قطع ذكر الإنسان وبقي منه بقية فإن بقي قدر الحشفة وأدخلها في فرج وجب الغسل، وإن كانت أقل من ذلك فلا يجب، وكما يجب الغسل على الفاعل بإدخال الحشفة يجب على المفعول به كالمرأة ونحوها، ولو أدخلت امرأة ذكر بهيمة في فرجها أو مكّنت قرد فوطئها وجب عليها الغسل، وكذا لو أدخلت ذكر مقطوعاً.

السابع: ما إذا نذر الإنسان غسل الجمعة مثلا فإنه يجب غسله، وإن نذر المندوب جائز ويجب بالنذر.

وذكر العلماء وجوب الغسل بسببين آخرين لكن من غير افتقار إلى النية.

الأول: ما إذا عمت النجاسة جميع بدنه فإنه يجب الغسل، وأجاب العلماء عنه بأن

ذلك ليس موجباً للغسل بل هو من باب إزالة النجاسة، حتى لو فرض كشط جلده حصل الفرض قاله القاضي زكريا.

الثاني: إذا وقعت النجاسة في موضع منه والتبس عليه فإنه يجب عليه غسل جميع البدن، والجواب عنه كالجواب الأول.

وذكر بعض العلماء أيضاً صورة أخرى يجب فيها الغسل وهي: ما إذا أمر الزوج امرأته بالغسل لإزالة الرائحة الكريهة من عرق أو صنان ونحوها، فإنه يجب عليها الغسل لكن بلا نية.

وأجاب عنه العلماء بأن هذا من باب إزالة الوسخ تتميماً للاستمتاع لحق الزوج.

سؤال: فإن قيل: ما الحكمة في إيجاب الغسل بالمني دون الخروج من البول والغائط وغيرهما؟

جوابه: إن هذا السؤال سئل عنه النبي ﷺ وأجاب عنه فقد ذكر العلامة ابن الجوزي في كتابه سوق العروس: أن جماعة من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا لم أمر الله بالغسل من الجنابة و لم يأمر بالغسل من البول ولا من الغائط وهما أنجس من النطفة؟ فقال: «إن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة انتشر الطعام في جميع عروقه وشعره وبشره، فإذا وطئ الإنسان زوجته نزل المني من أصل شعره فافترض الله عز وجل الغسل عليَّ وعلى أمتي شكراً لما أنعم الله به من إصابة اللذة» ثم قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد ولا أمة من أمتي قام للغسل إلا باهى الله بها الملائكة، فيقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي وأمتي قاما للغسل من الجنابة سرا بيني وبينهما لا يطلع عليه سواي، تيقنا أني ربهما، أشهدكم أني قد غفرت لهما، وكتبت لهما بكل شعرة على رؤوسهما وجسدهما ألف حسنة، ومحيت عنهما ألف سيئة، ورفعت لهما مثل ذلك درجات» قالوا: صدقت يا محمد ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

وقيل في الجواب: إن الوطء لما كان داعي جميع النفس إلى التلذذ أمر صاحبه أن يعم جميع بدنه بالغسل.

فائدة: اختلف العلماء في المراد في قوله تعالى ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾[الأحزاب: ٧٢].

فقال قوم: المراد بها الغسل من الجنابة.

وقال قوم: أن لا تغش أحداً من قليل ولا كثير، قال رسول الله ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»، وجاء في رواية م: «**من غش فليس مني**».

وقال قوم: هي الدين والحدود والفرائض.

وقال قوم: هي الصلاة فقد روي عن علي ﷺ أنه كان إذا دخل وقت الصلاة اصفر وجهه وتغير لونه ووقع عليه الانكسار، فسئل عن ذلك فقال: إنه دخل عليَّ وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، وقد حملتها أنا مع ضعفي فلا أدري كيف أؤديها.

وقال العلامة ابن الجوزي: عرض الله الأمانة على عشرة، على السماوات فأبت، وعلى الارض فأبت، وعلى الجبال فأبت، وعلى البحار فأبت، وعلى البهائم فأبت، وعلى الطيور فأبت، وعلى السباع فأبت، وعلى الحيتان فأبت، وعلى الملائكة فأبت، والمراد أن الله تعالى خلق لهذه التسعة فهماً ونطقاً حتى فهمت ما قيل لها وأبت، فلما عرضت على هذه التسعة عرضها على العاشر وهو آدم فحملها وقبلها، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ**﴾ ولله در القائل:

قد حملوني على ضعفي بطاقتهم ... مـا ليس يحمله سهل ولا جبل

وقال: لما خلق الله ﷻ آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح مثل له الأمانة بصخرة ثم قال للسماوات: احملي بهذه فأبت وقالت: إلهي لا طاقة، وقال للأرض: احمليها، فقالت: إلهي لا طاقة لي بها، وقال للجبال: احمليها، قالت: لا طاقة لي بها، فاقبل آدم عليه السلام فحركها بيده، وقال: لو شئت لحملتها فحملها حتى بلغت حقويه ثم وضعها على عاتقه، فلما هوى ليضعها نودي من جانب العز يا آدم مكانك لا تضعها فهذه الأمانة قد بقيت في عنقك وأعناق أولادك إلى يوم القيامة، ولكم عليها ثواب في حملها، وعقاب في تركها.

ولله در القائل:

كـل بـلاء عـلي مـني ... ومـا عـلي أضـر مـني

يـا نفـس قـبل العمر أفيقي ... قـد غـرك الـلهو والـتمني

عـودي إلى الله مـن قـريب ... وأحسـني في الـرجوع ظـني

فـإن بـدا مـنك غـير هذا ... فانصـرفي بـالهوان عـني

وفي قوله: ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ**﴾ إشارة لطيفة وهي: كأن الله يقول: يا عبدي عرضت أمانتي على جميع خلقي فأبوا من قبولها إلا أنت يا عبدي قبلتها وحملتها، فإذا

وردت عرضات القيامة واستعنت بأهلك وأصدقائك وأقربائك فلم يقبلك منهم أحدا، أقول لك يا عبدي كما قبلت في الدنيا أمانتي أنا أقبلك بجودي ورحمتي.

وإشارة أخرى وهي: أن الحمال إذا خان في الحمولة وفرط فيها يضمن ويحبس في سجن الدنيا، كذلك العبد إذا خان في أمانة المولى حبس في العقبى وهي النار.

وإشارة أخرى وهي: أن الهدهد لما حمل كتاب سليمان إلى بلقيس حرم لحمه على ابن آدم، ووجد الخلعة والتاج، وكذلك المؤمن حمال أمانة الجبار فكيف لا يحرم جسده على النار ويدخله دار القرار.

يا حاملاً للأثقال، إحذر وقوع غدرة الأثقال، يا من هو في بحر الخطايا غريق، كم تحمل نفسك من المعاصي ما لا تطيق، يا عبدي كم أصون وأنت تخون، كم أعطي وأنت تخطئ، كم أحصي وأنت تعصي، كم أعفو وأسامح وأنت إلى المحرمات طامح، أنعم عليك برزقي وأنت تضيع حقي، ما على هذا عاهدتك، ولا بهذا العقد عاقدتك، يا كذاب يا ناقض العهد ويا خائن، عاهدتك على الوفاء، من أشار عليك بالجفاء، عاقدتك على الأمانة، من علمك الخيانة.

ولقد أحسن من قال:

كلأتـــك حين لا ملك سواي ... وشملـــتك بـــالمودة والصـــفاء
وأنـــزلت الكـــتاب عليك حتى ... عرفت سطور سخطي من رضاء
فـــلما حزت واستكملت عقلاً ... وميـــزت الصـــواب من الخطاء
نقضـــت مودتي ونسيت عهدي ... كـــأنك قـــد أمنت من اللقاء

يا هذا اشتغل اليوم بالحساب، وعدد عليها العتاب، طالبها واطلب منها، وخالفها واعرض عنها، حمل آدم الأمانة، لأنه محب والمحب إذا حمل ما لا يطيق حمل، ولله در القائل:

ومـــا حمـــلوني الضيم إلا حملته ... لأني محـــب والمحـــب حمـــول

وقال آخر:

حمـــلت جبال الحب فوقي وإنني ... لأعجز عن حمل القميص وأضعف

قيل للقمان بما بلغت ما بلغت من الحكمة؟ قال: بثلاثة أشياء ؛ صدق اللسان، وأداء الأمانة وترك مالا يعنيني.

لطيفة: في حفظ الأمانة وترك الخيانة.

ذكر ابن الجوزي: أنه كان على رجل ثياب قيمتها مائة دينار فجاء إلى نهر ليغتسل فيه فوجد على شطه رجلاً جالساً، وكان ذلك الرجل سراقاً يسرق النعال ويبيعها، و لم يعرف الرجل به فخلع ثيابه ودفعها إليه، قال: احفظها حتى أسبح في النهر وأعود إليك، فقال: حباً وكرامة ثم ذهب وسبح في الماء وأبطأ عليه ثم عاد إليه، فقال الرجل: أبطأت عليَّ وحرمتني معيشتي وكسبي هذا اليوم، فقال: وما كسبك؟ قال: أسرق النعال وأبيعها وانتفع بها، فقال: ويحك تفعل هذا وقد وقع في يدك ثياب بمائة دينار فلم تأخذها وتذهب، قال: يا سيدي لأنك نظرت إليَّ بعين الأمناء فلم أرى في مروءتي أن أخونك.

لطيفة أخرى: في حفظ العهد مع الله.

حكى ابن الجوزي: أن بعض الصالحين الصادقين عاهد الله ﷻ أن لا يأكل لحماً فركب في بعض الأيام في السفينة مع الناس فغرقت بهم السفينة، فتشبث جماعة بأعواد السفينة وذلك الرجل من جملتهم فقذفتهم الريح إلى جزيرة هناك فبقوا فيها أياماً، و لم يكن لهم سبيل إلى الخروج من البحر وغلبهم الجوع، و لم يكن شيء يقتاتون به، فخرج أليهم أفراخ الغيلة، فقالوا: نأخذ هذه أفراخ ونشويها ونأكلها، فقال الرجل: يا قوم إني عاهدت الله أن لا آكل لحماً أبداً، ولا أنقض العهد الذي بيني وبين ربي، فأخذ اصحابه أفراخ الغيل وأكلوها فخرجت الغيلان إلى أولادها فلم ترهم، فأتت إلى تلك الجماعة فجعلت تشم واحداً واحداً، فكل من أكل لحم أولادها رمت به إلى البحر فغرقوا كلهم، إلا ذلك الرجل الذي عاهد الله فإنها أتت به وجعلت تشم أثوابه وفمه فلم تجد منه رائحة لحم الغيل، فرفعته على ظهرها وأخرجته من الجزيرة إلى البر وانقذه الله تعالى بصدقه مع ربه ﷻ و لم ينقض العهد مع الله تعالى، ولقد أحسن من قال فيمن عاهد الله ثم نكث:

عـــاهدت مولاك الكريم مراراً ... أن تـــترك الآثـــام والأوزار

فنكـــثت مطـــرحاً لما عاهدته ... فدعيـــت في مـــلكوته غـــدار

والمراد بالعرض في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ**﴾ عرض المعاهدة فإن العرض في القرآن ثلاثة: عرض المعاهدة وعرض المحاسبة وعرض المعاقبة.

أما عرض المعاهدة ففي الابتداء وهو في قوله ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ**﴾ الآية، وأما عرض المحاسبة فيوم القيامة ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾[الحاقة: ١٨] وذلك عند تطاير الصحف، وكل واحد أخذ كتابه بيمينه وآخر بشماله، واحد يعلم

أنه لسعيد، وآخر يتحقق أنه بعيد، واحد قد رضي عنه الجبار، وأخر سيق إلى النار، ولله در القائل:

يا ليت شعري بما ألقى الجليل غداً ... إذا دعاني على رغمي وإصغاري
هـــذا كـــتابك فاقرأ فيه مسطراً ... ينبيك عن قبح إعلان وإسراري
أقـــوم أقـــرأ كـــتاباً لا يغادرني ... حرفاً وإن لم يكن بالكاتب القارئ

لطيفة في المعنى:

كان بعض الرجال مسرفاً على نفسه في المعاصي فتاب وحسنت توبته، فقيل له: بما كان سبب توبتك؟ قال: كان لي ابن صغير السن فنمت ليلة من الليالي وهو نائم إلى جنبي فاستيقظ الصبي في وسط نومه، وجعل يصرخ ويبكي ولا يهدي بكاؤه، حتى أيقظني من منامي، فقلت: يا بني ما الذي أزعجك من نومك، وما الذي أبكاك في هذه الساعة، قال: يا أبتي استيقظت من نومي فتذكرت أن غداً يوم الخميس فكيف لا أبكي، فقلت: يا بني و لم تبكي يوم الخميس؟ قال: لأنه يوم تعرض فيه الصبيان على المعلم جميع ما علمنا وتعلمنا من أول الأسبوع، فما أدري إذا عرضت على المعلم كيف يكون حالي معه، وأنا خائف من ذلك، فعندها أفقت من سكرتي، واستيقظت من رقدتي، وناديت واخجلتاه إذا كان هذا صبي صغير يخاف ويبكي من العرض على مخلوق حقير، فلا أخاف أنا من العرض على الملك الذي لا يغيب عليه شيء ولا يخفى، كما قال: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾.

آه من العرض على خالق السماء والأرض، آه من المطالبة بالسنن والفرض، آه من سوء الاكتساب، ومن وقفة الحساب، آه من التواني والإفراط، ومن العبور على الصراط، آه من أيام فنيت وأعمال أحصيت، آه من أقوات تقضت في البطالة، ومن عمر مضى في الجهالة، آه من قلب مات ومن عمر فات، آه من ثياب فاخرة، ونيات فاجرة، آه من قلب ضربه فالق الفجر بسيف القطيعة والهجر، آه من قلب أعماه رب الورى، فهو لا يسمع ولا يرى.

وأما عرض المعاقبة فعرض جهنم قال الله تعالى: ﴿**وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً**﴾[الكهف: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿**وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا**﴾[الكهف: ٤٨].

تعرضون عليه صفاً صفاً، وتوزن أعمالهم حرفاً حرفاً، وتقفون بين يديه، وتزحفون على الصراط زحفاً زحفاً، وترتجف القلوب رجفاً رجفاً، ويقفون في الموقف صفاً صفاً، ثم صنف يساق منهم إلى النار عنفاً عنفاً، وصنف يساق إلى الجنة لطفاً

لطفاً، فعندها يود المجرم لو خسفت به الأرض خسفاً خسفاً، اسمع واتعظ بقول القائل:

مـــا احـــتيالي يوم عرضي في غد وكـــتابي فيـــه مـــا قد فصلا

أحـــزنت قـــلبي ذنـــوب أثبتت تركـــتني في الـــبرايا مـــثلا

***

قَالَ البُخَارِي:

باب إِذَا جَامَعَ ثُمَّ عَادَ، وَمَنْ دَارَ عَلَى نِسَائِه فِي غُسْلٍ وَاحِد

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّار، قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيد، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّد بْنِ الْمُنْتَشِر، عَنْ أَبِيه، قَالَ ذَكَرْتُهُ لِعَائِشَةَ فَقَالَتْ يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كُنْتُ أُطَيِّبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَيَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ، ثُمَّ يُصْبِحُ مُحْرِمًا يَنْضَخُ طِيبًا .

قوله: «**محمد بن المنتشر عن أبيه**» وهو محمد بن أخي مسروق الكوفي الوداعي.

«**قال: ذكرته**» والضمير راجع إلى ابن عمر، ما أحب أن أصبح محرماً أنضخ طيباً، وإن لم يتقدم له لأنه معلوم عند أهل الشأن أي: قال محمد بن أخي ذكرت ما قاله ابن عمر لعائشة.

«**فقالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن**» هذه كنية ابن عمر، وإنما قالت في حقه يرحم الله أبا عبد الرحمن إشعار بأنه قد سهى فيما قاله في شأن النضخ، وغفل عن حال رسول الله ﷺ الذي ذكرته عائشة وبينته بقولها:

«**كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه ثم يصبح محرماً ينضخ طيباً**».

«وينضخ» بالخاء المعجمة بمعنى يفور، ومنه قوله تعالى: ﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**﴾[الرحمن: ٦٦] وضبطه بعضهم بالحاء المهملة وهما متقاربان في المعنى، والذي عليه الأكثر ضبطه بالمعجمة كما قاله ابن الأثير.

***

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ، قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ . قَالَ قُلْتُ لأَنَسٍ أَوَكَانَ يُطِيقُهُ قَالَ كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلاَثِينَ .

وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ إِنَّ أَنَسًا حَدَّثَهُمْ تِسْعُ نِسْوَةٍ .

قول عائشة: «**كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه فيجامعهن كلهن في ليلة واحدة**» فيه دلالة على استحباب اتخاذ الطيب للنساء والرجال عند الجماع، فإنه من أسباب الجماع ودواعيه، ولما كان ﷺ أملك لنفسه من سائر أمته أبيح له استمرار الطيب في حال الإحرام ولم يبحه لنا لضعفنا عن كف الشهوات، إذ الطيب من أسباب الجماع كما تقدم بل نهانا عنه.

واستشكل العلماء قول عائشة: إن رسول الله ﷺ كان يطوف على نسائه، وكذا قول انس إن رسول الله ﷺ كان يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار، ووجه الإشكال: أن القسم واجب لهن، ولا يجوز في نوبة واحدة أن يأتي الأخرى إلا بإذنها؟

وأجابوا بأجوبة:

الأول: إنه محمول على إذنه له ورضاهن، أو إذن صاحبة النوبة ورضاها، مثل إذنهن له في أن يمرض في بيت عائشة.

الثاني: أن يكون وقع منه ذلك عند إقباله من السفر حيث لا قسمة لنسائه، لأنه كان ﷺ إذا سافر قرع بين نسائه فأيتهن أصابتها القرعة خرجت معه في السفر، فإذا عاد لم تكن واحدة منهن أولى بالابتداء من صاحبتها، ولما استوت حقوقهن جيمعهن في وقت واحد، ثم استأنف القسمة بعد ذلك.

الثالث: إن ذلك كان في يوم في فراغه من القسم بينهن، فيفرغ في هذا اليوم لهن أجمع، ثم يستأنف بعد ذلك.

قال ابن العربي المالكي في شرح الترمذي: إن الله خص نبيه بأشياء في النكاح؛ منها: أنه أعطاه ساعة لا يكون لأزواجه فيها حق، يدخل فيها على جميع أزواجه فيفعل ما يريد بهن، ثم يدخل عند التي يكون الدور لها، وهذه الساعة كما في مسلم كانت بعد العصر فلو اشتغل عنها لكانت بعد المغرب أو غيره، فلذلك قال في الحديث: «في الساعة الواحدة من ليل أو نهار» قاله ابن الملقن.

وهذا يصلح أن يكون جوابًا رابعاً عن الإشكال.

وإنما يتوجه الإشكال ويحتاج إلى هذه الأجوبة إذ قلنا أنه لم يكن واجباً عليه ﷺ قال به أكثر العلماء، أما إذا قلنا أنه لم يكن واجباً عليه وإنما كان يقسم ويقرع بينهن تكرماً وتبرعاً وجوبا كما قاله الأصطخري فلا إشكال حنيئذ.

فائدة: يتصور حل إيقاع وطئين في زوجتين بغير إذن في صورتين:

الأولى: أن يطأ واحدة آخر نوبتها ثم الأخرى أول نوبتها.

الثانية: أن يطأ واحدة ثم تموت، ثم يطأ الثانية بعد ذلك.

فائدة أخرى: يباح لمن عنده إماء أن يطأهن في ساعة واحدة، ولو كن مع زوجته، لأنه لا يجب القسم لهن.

فائدة: يكره أن يطأ زوجة أو جارية في حضرة واحدة منهن لقوله ﷺ: «**إن من أشر الناس عند الله منـــزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**» رواه مسلم.

هذا إذا ذكر أنه جامعها فقط، أما إذا وصف ما فعل وبين كيفيته فإنه حرام، كما قاله النووي في شرح مسلم.

قال العلماء: يسن ملاعبة الزوجة قبل الجماع إيناساً وتلطفاً لما ورد في الصحيحين: «هلا تزوجت بكراً تلاعبها وتلاعبك» هذا إذا لم يخف مفسدة من ذلك، فإن خافها لم يسن بل قد يمنع.

ويسن أن لا يعطلها، بأن يبيت عندها ويحصنها وأدنى الكمال أن لا يتركها ليلة من أربع لا يطيل عهدها بالجماع بلا عذر، لأنه من المعاشرة بالمعروف، وأن يجامع عند قدومه من السفر لخبر الصحيحين: «إذا قدمت فالكيس الكيس» أي: اتبع الولد.

ويكره أن يجامعها أول الليل لئلا ينام على غير طهارة، ويحرم على الزوجة أن تمنع زوجها من الاستمتاع بها تحريماً مغلظاً، وهو من الكبائر لمنعها حقه من تضرر بدنه بذلك، وكذلك يحرم على الجارية أن تمنعه من الاستمتاع بها لغير ضرورة، ولا يحرم على الزوج وطئ المرضع والحامل، ويكره للمرأة أن تصف لزوجها امرأة أخرى لغير حاجة، للنهي عنه في خبر الصحيحين، وكذا يكره لها أن تصفها لغير الزوج من الرجال الأجانب، ويحرم على الزوج ونحوه وطئ من لا تحتمل الوطء لصغر ومرض وهزال لتضرر به، وتمهل إلى أن تطيق ويكره للولي تسليم الصغيرة التي لا تطيق.

وقول أنس رضي الله عنه: «**أنه ﷺ أعطي قوة ثلاثين**» أي: رجلاً، وفي رواية للإسماعيلي:

«إن فيه قوة ثلاثين رجلاً»، وجاء في رواية: «أوتي قوة أربعين في الجماع والبطش»، وفي رواية: «أتاني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلاً في الجماع»، وفي رواية: «ما أريد أن أتى النساء ساعة إلا فعلت».

واستشكل بعض العلماء هذه الروايات كلها وقالوا: كيف أوتي ﷺ قوة أربعين فقط وقد أوتي سليمان قوة مائة رجل أو ألف رجل كما ورد، فيلزم ترجيحه على النبي ﷺ في القوة المذكورة؟

وأجاب شيخنا العلامة الجلال السيوطي عن هذا الاستشكال ودفعه: بأنه ﷺ أعطي قوة أربعين رجلاً من أهل الجنة، لا من أهل الدنيا، وقوة الرجل من أهل الجنة كمائة من أهل الدنيا فيكون أوتي قوة أربعة آلاف رجل، لأنا إذا ضربنا أربعين في مائة جاءت أربعة آلاف.

قال الشيخ العلامة سراج الدين ابن الملقن: ذكر ابن العربي كان لرسول الله ﷺ القوة الظاهرة على الخلق في الوطء، كما في هذا الحديث، وكان له في الأكل القناعة ليجمع الله له لما بين الفضيلتين في الأمور الشرعية حتى يكون حاله كاملاً في الدارين.

فائدة: يسن للإنسان إذا جامع وأراد إعادة الجماع أن يتوضأ قبل إعادته فقد قال ﷺ: «**إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ بينهما**» رواه مسلم. زاد البيهقي:«فإنه أنشط للعود».

وهكذا يستحب للجنب إذا أراد أن ينام أو يأكل أو يشرب أن يغسل فرجه ويتوضأ قبل ذلك، ففي الصحيحين: «أنه ﷺ كان إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ وضوءه للصلاة، وأنه إذا كان جنباً فأراد أن يأكل يتوضأ وضوءه للصلاة».

وقاس العلماء الحائض والنفساء إذا انقطع دمها على الجنب، وقاسوا الشرب على الأكل والحكمة في الوضوء قبل هذه المذكورات تخفيف الحدث غالباً والتنظيف، وقيل: لعله ينشط للغسل فلو فعل الجنب والحائض أو النفساء شيئاً من ذلك بلا وضوء كره له، قاله النووي، ولا يحرم لأنه ﷺ كان يطوف على نسائه كلهن أحيانا في ليلة واحدة بغسل واحد.

قال العلماء: يحتمل أنه كان يتوضأ بين كل جماع، ويحتمل أنه كان يتركه بياناً للجواز وكان أحياناً يطوف على نسائه كلهن في الليلة الواحدة ويغتسل عند كل واحدة منهن غسلاً، فقيل: يا رسول الله لو اغتسلت غسلاً واحداً فقال: «**هذا أطهر**

وأطيب»، فعلم أن الغسل بين كل جماعين أفضل مع جواز تركه،وفيه من النشاط وطيب النفس وحصول النظافة التي يحبها الله تعالى، فهو أحسن التدبير في الجماع وأحفظ للصحة.

وما رواه سعيد عن أنس: «أنه ﷺ لما طاف على نسائه كن تسع نسوة» لا يعارضه قوله في الحديث السابق: «وهن إحدى عشرة» لأن هذا الفعل وقع منه ﷺ مراراً، فتحمل رواية تسع على وقت، ورواية إحدى عشرة على وقت آخر، وأنه أريد برواية إحدى عشرة التسعة مع السريتين وهما مارية وريحانة.

ففي الحديث دلالة كما قاله ابن بطال على أن ما يعددن من نسائه بقوله: «وهن إحدى عشرة امرأة» لأنه لم يحل له من الحرائر إلا تسع، وهذا الذي قال ابن بطال مردود، فقد صرح ابن الملقن برده، وقال الأصح عندنا أنه ﷺ يحل له ما شاء له من غير حصر.

***

قَالَ البُخَارِي:

بَاب إِذَا ذَكَرَ فِي الْمَسْجِدِ أنه جُنُبٌ يَخْرُجُ كَمَا هُوَ وَلاَ يَتَيَمَّمُ

الكاف في قوله: «كما هو» تسمى بكاف المقارنة، وما موصولة أو موصوفة، وهو مبتدأ خبره محذوف، والتقدير والمعنى: خرج مقارناً للأمر للحالة التي هو عليها أي: للجنابة.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ مُحَمَّد، قَالَ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ، قَالَ أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، وَعُدِّلَتِ الصُّفُوفُ قِيَامًا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَلَمَّا قَامَ فِي مُصَلاَّهُ ذَكَرَ أنه جُنُبٌ فَقَالَ لَنَا : «مَكَانَكُمْ» . ثُمَّ رَجَعَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ، فَكَبَّرَ فَصَلَّيْنَا مَعَهُ .

تَابَعَهُ عَبْدُ الأَعْلَى عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ . وَرَوَاهُ الأَوْزَاعِيُّ عَنِ الزُّهْرِيِّ .

قوله: «**فلما قام في مصلاه**» ذكر أنه جنب ظاهره أنه ذكر أنه جنب قبل الدخول في الصلاة، ويؤيده أنه جاء في رواية أنه ذكر أنه جنب قبل أن يُكبر، لكن يشكل على ذلك رواية ابن ماجة: «قام إلى الصلاة وكبر، ثم أشار إليهم فمكثوا ثم انطلق فاغتسل»، ورواية للدار قطني: «أنه دخل في صلاة فكبر وكبرنا معه»، ورواية لأبي داود: «أنه دخل في صلاة الفجر فأومأ بيده أن مكانكم».

ويجاب عن الإشكال بأنه أراد بقوله: «قام إلى الصلاة وكبر» أراد أن يقوم ويكبر، وكذا أراد بقوله في الرواية الأخرى: «دخل الصلاة» أراد أن يدخل عملاً بقوله في الرواية السابقة: «قبل أن يكبر»، وفي رواية أخرى: «وانتظرنا تكبيره».

أو يجاب عنه بأنهما قضيتان ؛ الأولى: كانت بعد الدخول، والثانية: قبل الدخول فيها، وهذا أبداه القرطبي احتمالا.

وقال النووي أنه الأظهر وصرح به ابن حبان في صحيحه فقال بعد أن أخرج الروايتين: هذان فعلا في موضعين متباينين، خرج عليه السلام مرة فكبر، ثم ذكر أنه جنب قبل أن يكبر، فذهب فاغتسل ثم رجع، فأقام بهم مرة فلما وقف ليكبر ذكر أنه جنب فانصرف فاغتسل ثم رجع، فأقام لهم الصلاة من غير أن يكون بين الخبرين تضاد.

قال الكرماني: فإن قلت: من أين علم أبو هريرة أنه ﷺ ذكر أنه جنب، والذكر هو أمر باطني؟

قلت: من القرائن.

وهاهنا فوائد ومسائل نافعة، بعضها مستفاد من الحديث وبعضها ذكر للمناسبة:

الأولى: إذا صلى شخص إماماً، ثم تبين بعد الفراغ من الصلاة أنه كان جنباً أو محدثاً، وجب عليه إعادة الصلاة، وأما المقتدون به فصلاتهم صحيحة، ويحصل لهم فضيلة الجماعة على الأصح المنصوص، بناء على اعتقادهم، وقيل: لا تحصل لعدم طهارة الإمام، هذا في غير صلاة الجمعة، أما فيها فإن زاد الإمام على الأربعين صحت جمعتهم وإلا فلا، وإن تبين أن الإمام في أثناء الصلاة جنب أو محدث وجب على المأموم مفارقته لعلمه ببطلان صلاته، ولا يغني عن المفارقة ترك المتابعة قطعاً بل لابد من نية المفارقة، وإلا فتبطل صلاته لأنه صلى بعض صلاته خلف من علم بطلان صلاته، وإذا علم بحدثه قبل دخوله في الصلاة ونسي، و لم يحتمل أنه تطهر بأن لم يفترقا واقتدى به فإنه يلزمه الإعادة، وأما إذا لم يعلم حال الإمام، والإمام هو الذي نسي فإن الإعادة واجبة على الإمام فقط دون المقتدين به في غير الجمعة، أما فيها ففيها التفصيل السابق في أثناء الصلاة وجب على المأموم المفارقة، وإن علم بها المأموم ثم نسيها واقتدى به وجب عليه الإعادة، سواء كانت النجاسة ظاهرة، وهي: التي بظاهر الثوب، أو باطنه، وهي: التي بباطنه على ما قاله النووي في التحقيق.

وقال الأسنوي: إنه الصحيح، لكن الذي جرى عليه الروياني وغيره، وقال النووي في المجموع: إنه أقوى، وهو كلام المنهاج كأصله: أن النجاسة إذا كانت ظاهرة تجب الإعادة على المقتدين أيضاً، قال القاضي زكريا: وبه افتيت.

الثانية: فيه دليل على جواز النسيان في العبادات على الأنبياء، وقد روي أنه قال: « إني لأنسى أو أنس لأسن».

الثالثة: قال ابن بطال فيه حجة للإمام مالك وأبي حنيفة أن تكبير المأموم لابد وأن يقع بعد تكبير الإمام، وهو قول عامة الفقهاء قال والشافعي أجاز تكبير المأموم قبل الإمام أي: فيما إذا أحرم منفرد، ثم نوى الاقتداء في أثناء الصلاة، أما إذا أحرم مؤتماً بالإمام قبل تكبير الإمام فإنه لا يصح عند الشافعي رضي الله عنه.

الرابعة: في الحديث دلالة رد على من زعم من التابعين وغيرهم أن الجنب إذا نسي فدخل المسجد، وذكر أنه جنب يتيمم ثم يخرج، ورد على أبي حنيفة حيث قال: إن المسافر إذا مر على مسجد فيه هين ماء يتيمم ويدخل المسجد فيستقي ثم يخرج من المسجد، لأنه لما لم يلزم التيمم للخروج لم يلزم التيمم للدخول.

الخامسة: اختلف العلماء في جواز مرور الجنب في المسجد والخروج من الباب

الآخر.

فذهب الإمام أحمد إلى جواز المرور فيه بل الجلوس فيه أيضاً إذا توضأ كما قاله ابن المنذر، وذهب الإمام مالك إلى أن الجنب لا يدخله ولا يمر فيه، وذهب إمامنا الشافعي إلى جواز عبوره والخروج من الباب الآخر من غير كراهة في ذلك، إن كان له فيه غرض مثل أن يكون المسجد أقرب طريقه، أما إذا لم يكن له في عبوره غرض فإنه مكروه، كما قاله النووي في الروضة وشرح المهذب: أنه خلاف الأولى لا مكروه.

ويدل على جواز العبور قول الله تعالى: ﴿**وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا**﴾[النساء: ٤٣]، ولا يكلف الإسراع في المشي بل يمشي على العادة.

السادسة: يحرم على الجنب ونحوه التردد في المسجد والمكث فيه، لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ**﴾[النساء: ٤٣] قال ابن عباس وغيره: أي: لا تقربوا موضع الصلاة فلابد من تقدير مضاف، وإلا فلا يصح المعنى بدونه، لأن الصلاة ليس فيها عبور سبيل بل في موضعها، وهو المسجد ونظير هذه الآية في الاحتياج إلى التقدير قوله تعالى: ﴿**لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ**﴾[الحج: ٤١] وقوله ﷺ: «**إني لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب**» رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها.

وقال ابن القطان: إنه حسن ولا يحرم التردد والمكث على الجنب ونحوه في المدارس والربط، ومصلى العيد ونحو ذلك، وإنما يحرمان في المسجد فقط، نعم يباحان فيه في صور:

الأولى: النبي ﷺ فإنه كان من خصائصه ﷺ جواز التردد والمكث جنباً على الأصح كما قاله النووي.

الثانية: علي بن أبي طالب ﷺ فإنه كان يباح له المكث فيه، لخبر: «**يا علي لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك**» رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

فإن قيل: كيف عد هذا من خصائص النبي ﷺ وخصائص سيدنا علي مع أن الحديث المذكور ضعيف عند جمهور العلماء المحدثين.

فالجواب: إن هذا الحديث وإن كان ضعيفاً فلعله اعتضد بما اقتضى حسنه كما قاله النووي في الروضة.

الثالثة: الكافر الجنب فإنه يمكن من المكث لأنه لا يعتقد حرمة ذلك، ويلغز به فيقال لنا: شخص يجوز له المكث في المسجد وهو جنب بلا ضرورة وليس له دخول المسجد، ولو كان غير جنب إلا بإذن المسلم له في دخوله ولا يإذن المسلم له في الدخول إلا لحاجة كإسلام وسماع قرآن، نعم يجوز له الدخول بغير إذن المسلم إذا وقعت له خصومة بينه وبين آخر، وأراد رفعها إلى الحاكم وقد قعد الحاكم في المسجد.

الرابعة: أن تدعو الضرورة إلى ذلك، كأن احتلم في المسجد وتعذر عليه الخروج لإغلاق الباب أو خوف على نفسه أو ماله، ويجب عليه أن يتيمم بغير تراب المسجد إن وجده، فإن لم يجد إلا ترابه وهو الداخل في وقفه لم يجز له التيمم به، كما لو لم يجد إلا تراباً مملوكاً لغيره فإن خالف وتيمم به صح تيممه، وأما التراب المجتمع من حمل الريح ونحوه في المسجد فيجوز له التيمم به.

ولو أجنب الإنسان خارج المسجد وكان الماء داخله فهل له الدخول إليه والاستقامة للاغتسال؟

قال في الأنوار: جاز له الدخول والمكث قدر الاستقامة، ويحرم الزائد عليه، لكن نقل النووي عن البغوي في شرح المهذب أنه لا يجوز له دخوله ليغتسل، لأنه يمكث لحظة.

الخامس: كما يحرم على الجنب التردد والمكث في المسجد حرم عليه قراءة شيء من القرآن ولو بعض آية كحرف للإخلال في التعظيم،بشرط أن يقصد بما قرأه القرآن والذكر فإن قصد بقراءته الذكر فقط كقوله في ابتداء الأكل: بسم الله، وفي خاتمته: الحمد الله، وعند ركوب الدآبة: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وعند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون لم تحرم، لعدم الإخلال بالتعظيم.

فإن نطق بلفظ القرآن من غير قصد شيء من قرآن وذكر، فإنه لا يحرم أيضاً لعدم الإخلال به أيضاً، لأنه لا يكون قرآناً إلا بالقصد قاله النووي وغيره.

هذا إذا وجد نظم ما قرأه في غير القرآن بأن كان يستعمل فيه وفي غيره، أما إذا كان نظمه لا يوجد إلا فيه كسورة الإخلاص وآية الكرسي، وقرأه و لم يقصد شيئاً فلا شك في تحريمه كما قاله الزركشي في الخادم.

نعم لنا جنب تباح له القراءة بل تجب عليه وهو: فاقد الطهورين، فإنه يقرأ الفاتحة في صلاته وجوباً على الراجح عند النووي، ولنا جنب يحرم عليه الصلاة والطواف ونحوهما ويجوز له القراءة والمكث في المسجد، وصورته في من تيمم عن الجنابة ثم

أحدث فإنه جنب، بدليل وجوب الغسل عليه إذا وجد الماء، ومع ذلك تجوز له قراءة القرآن والمكث في المسجد، وكل ما يجوز للمحدث.

فائدة: لنا شخص قرأ آية من القرآن حرم عليه بقراءتها قراءة باقي القرآن، وصورة ذلك: في الجنب إذا كان قد نسي الجنابة فلما قرأ قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا**﴾[المائدة: ٦] وتذكر الجنابة فحنئيذ يحرم عليه قراءة باقي القرآن.

قال العلماء: وكل شيء يحرم على المحدث يحرم على الجنب، وقد تقدم أنه يحرم على المحدث الصلاة والطواف ومس المصحف وحمله، فيحرم على الجنب أيضاً.

نعم لنا جنب تباح له الصلاة بل تجب وهو فاقد الطهورين كما قدمنا ذلك، ولنا جنب يجوز له مس المصحف وحمله وصورته: فيما إذا خاف على المصحف من غرق أو حرق أو نجاسة أو كافر و لم يتمكن من الطهارة، فإنه يأخذه في هذه الحالة للضرورة بل الأخذ في الحالة واجب للضرورة كما قاله النووي في التحقيق، بل قال القفال: ما هو أبلغ من هذا ما إذا أراد الغائط وخاف من وضع المصحف من يده أن يأخذه غاصب، فإنه يتغوط وهو معه.

ولا يحرم على الجنب التهليل والتسبيح والتكبير والصلاة على النبي ﷺ ولا نحو ذلك مما ليس بقرآن، لكن الأحسن أن لا يأتي بشيء من ذلك إلا بعد الطهارة.

لطيفة: روى ابن عباس عن عبد الله بن رواحة أنه كان نائماً مع امراته في الفراش فقام إلى جارية في جانب البيت، فآتاها فانتبهت امراته فطلبته فلم تجده، فقامت تطلبه فوجدته مع الجارية، فرجعت وأخذت الشفرة فتلقاها فقال: ما هذه الشفرة؟ فقالت له: لو وجدتك في الموضع الذي رأيتك لوجأتك بها بين كتفيك، قال: وأين كنت؟ قالت: مع الجارية فقال: ما كنت معها أليس رسول الله ﷺ قد نهى الجنب عن القراءة؟ فقالت: اقرأ فأنشدها:

أتانا رسول الله يتلو كتابه ... كما لاح مشهور من النجم ساطع
أتانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

هذا هو المشهور كما قاله أبو حامد، وقال بعضهم: إنه أنشدها

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا

المجلس الرابع والخمسون

في ذكر أوقات الصلوات الخمس وفضائلها وما يتعلق بذلك من الفوائد والنفائس الحسنة مما هو متفرق في كتب متعددة

الحمد لله الذي قدر الساعات والأوقات، ويسر الأرزاق على عباده والأقوات، ووفقهم لفعل العبادات والطاعات، وجعل عماد هذا الدين الصلوات، وكفر بها عنهم الخطايا والسيئات، نحمده على الآيات المتواليات، ونشكره على نعمائه الجليات والخفيات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الجبار المسبح بجميع اللغات، المقدس السالم من نقائض المخلوقات، الصمد الذي لا يشبهه شيء من المصنوعات، الغني عن الأغيار فلا تحويه الجهات، القيوم الذي يمسك بقدرته الأرض والسموات، العفو الذي يعفو عن عباده ويستر عنهم العقوبات، البر الذي بره وخيره قد عم الموجودات، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أيده الله تعالى بالمعجزات الباهرات، وعمت رسالته جميع المخلوقات حتى الوحش في الفلوات، اللهم صلي وسلم على هذا النبي الكريم وعلى آله وأصحابه السابقين إلى الخيرات صلاة وسلاماً دائمين على ممر الأوقات والساعات.

قَالَ البُخَارِي :

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب مواقيت الصلاة باب مواقيت الصلاة وفضلها وقوله تعالى

﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾[النساء: ١٠٣]

قوله باب مواقيت الصلاة جاء في بعض كتب الحديث وقوت الصلاة، ووقوت جمع وقت مثل قفول جمع قفل.

وقال البخاري هنا: مواقيت. وهو جمع ميقات مثل مفاتيح جمع مفتاح، ومواعيد جمع ميعاد، وميقات الصلاة هو الوقت المحدود المضروب لفعلها، واستدل البخاري وغيره من العلماء على إثبات أوقات الصلوات الخمس بقوله تعالى **﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾**[النساء: ١٠٣].

فإن المراد بالصلاة في الآية جنس الصلاة الشامل للصلوات الخمس، ومعنى كتاباً فرضا. فإن الله كتب الصلوات الخمس على المؤمنين أي فرضا عليهم كقوله تعالى في الآية الأخرى **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾**[البقرة: ١٨٣] فإنه بمعنى فرض.

ومعنى موقوتاً: مؤقتاً كما فسره بذلك المفسرون.

ومعنى الآية: إن الصلوات الخمس فرضها الله على المؤمنين من عباده، ووقت لها أوقات تفعل فيها، فلا يجوز فعلها قبل دخول أوقاتها، ولا إخراجها عنها، وأهم أمور الصلاة معرفة أوقاتها ؛ لأنها بدخول الوقت تجب، وبخروجه تفوت ؛ وقد ذكر الفقهاء أوقات الصلوات الخمس وبينوها وحدودها، فقالوا:

يدخل أول وقت الظهر بزوال الشمس بالإجماع، والمراد بزوالها: ميلها عن خط نصف النهار إلى جهة المغرب بعد استوائها إلى انتهائها إلى خط نصف النهار، وآخر وقته: مصير ظل الشيء مثله سوى الظل الموجود عند الاستواء.

وبيان ذلك: أن الشمس إذا طلعت وقع لكل شاخص ظل طويل إلى جهة المغرب، ثم ينقص بارتفاع الشمس إلى أن تنتهي إلى وسط السماء، وهي حالة الاستواء، ويبقى حينئذ للشاخص ظل في غالب البلاد، ثم يميل إلى جهة المغرب، فيتحول الظل إلى جهة المشرق، وذلك الميل هو الزوال ؛ فإذا مالت بأن ازداد الظل الذي كان موجوداً عند الإستواء، فقد دخل وقت الظهر، ويسمى الظل الموجود عند الإستواء: ظل الاستواء ؛ وقد لا يبقى للشاخص ظل أصلا عند الاستواء، وذلك في البلاد التي على خط الاستواء، ويتصور أيضا في غيرها كمكة وصنعاء ؛ ولكن ليس ذلك في جميع السنة ؛ بل في يوم واحد منها، وهو يوم السابع عشر من حزيران، وهو أطول أيام السنة، فإن الشمس فيه إذا ارتفعت ووصلت إلى خط نصف النهار لا يبقى للشاخص ظل عند الاستواء بمكة ونحوها في اثنين وخمسين يوما ؛ ستة وعشرين يوما قبل أن ينتهي طول النهار، وستة وعشرون يوما بعد أن ينتهي طوله.

فائدة: المراد بالزوال كما قال النووي: هو ما يظهر لنا لا الزوال في نفس الأمر فلو شرع في التكبير حاصلا بعد الزوال، ثم ظهر الزوال عقب التكبير، أو في اثنان لم تصح الظهر، وإن كان التكبير قبل ظهور الزوال عقب التكبير أو في اثنائه لم تصح الظهر، وإن كان التكبير حاصلا بعد الزوال، فاغرز خشبة أو نحوها في أرض مستوية، وعلم على رأس الظل بحصاة أو عود أو نحو ذلك، فما دام الظل ينقص من الخط، فهو قبل الزوال، وإن وقف لا يزيد ولا ينقص، فهو وقت الزوال، وإن أخذ الظل في الزيادة علم أن الشمس زالت.

ويدخل وقت العصر بوقت مصير ظل الشيء مثله بعد ظل الاستواء لابد من زيادة على ذلك، وإن قلت: وتلك الزيادة من وقت العصر إلا أن وقت خروج وقت الظهر لا يكاد يعرف بدونها.

وقيل: إنها من وقت الظهر.

وقيل: إنها فاصلة بينهما.

حكى ذلك النووي في شرح المهذب، ويبقى وقتها إلى أن تغرب الشمس.

ويدخل وقت المغرب بسقوط قرص الشمس، وإن بقى الشعاع في الصحارى، وذهابه عن أعلى الحيطان والجبال دليل لسقوط القرص في العمران والجبال، ويبقى وقتها إلى أن يغيب الشفق الأحمر هذا هو المرجح في مذهب الإمام الشافعي ودليله الأحاديث الصحيحة الصريحة منها قوله ﷺ «**وقت المغرب ما لم يغب الشفق**» [(١)] رواه مسلم.

ومنها قوله ﷺ «**إذا غابت الشمس إلى أن تذهب حمرة الشفق**» [(٢)] رواه بن خزيمة في صحيحه

ويدخل وقت العشاء بمغيب الشفق الأحمر، ولا يشترط غروب الأصفر، والأبيض والأصفر يعقب الأحمر، والأبيض يعقب الصفرة، والظلمة الشديدة تعقب الأبيض، فإن الشمس إذا غربت يعقبها حمرة، ثم ترق حتى تنقلب صفرة، ثم يبقى البياض، وبين غروب الشمس إلى زوال الصفرة كما بين الصبح الصادق وطلوع قرن الشمس، وبين زوال الصفرة إلى انمحاق البياض قريب بين الصبح الصادق والكاذب، وقيل: لابد في دخول وقت العشاء من مغيب الشفق الأصفر والأبيض، والراجح أنهما من وقت العشاء، وإن وقت العشاء يدخل بمغيب الشفق الأحمر قبلهما، ويستمر وقتها إلى طلوع الفجر الصادق.

ويدخل وقت الصبح بطلوع الفجر الصادق لا الكاذب، فإن الفجر فجران كاذب وهو ما يطلع مستطيلاً بأعلاه ضوء كذنب السرحان أي الذئب، ثم يذهب وتعقبه ظلمة، ثم يطلع الفجر الصادق بعده مستطيرا - بالراء - منتشرا وسمي الأول كاذبا لأنه يضئ ثم يسود ويذهب.

وقال ابن العماد: وسمى كاذبا لأنه يوهم خلاف الواقع ؛ وقد يطلق المكذب على

---

(١) أخرجه مسلم (١/٤٢٧، رقم ٦١٢) وأخرجه أيضًا: أبو داود (١/١٠٩، رقم ٣٩٦)، والنسائى (١/٢٦٠، رقم ٥٢٢)، وابن أبى شيبة (١/٢٨٢، رقم ٣٢٢٩)، وأحمد (٢/٢٢٣، رقم ٧٠٧٧)، والبيهقى (١/٣٦٦، رقم ١٥٩١) جميعا عن ابن عمرو.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١/١٨٢، رقم ٣٥٤) عن عبد الله بن عمرو.

ما لا يعقل لقوله ﷺ «**صدق الله وكذب بطن أخيك**» [(١)].

أي لما أوهمه من عدم حصول الشفاء بشرب العسل.

والفجر الكاذب يطلع دائما في السدس الأخير من الليل قاله بعض أهل اللغة، وسمى الثاني صادقا لأنه يصدق على الصبح ويبينه، وشبه الكاذب بذنب السرحان لطوله ورقته، ولأن الضوء يكون في الأعلى دون الأسفل كما أن الشعر على أعلى ذنب السرحان دون أسفله ؛ وقد أشار الشاعر إلى الفجر الكاذب قبل الصادق بقوله:

وكـــاذب الفجرين وأقبل صادقه ... وأول الغيـــث قطـــر ثم يـــنهمل

ويمتد وقتها إلى طلوع الشمس لما ورد في صحيح مسلم «**وقت صلاة الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس**» [(٢)].

فائدة: كما يأتي بعد المغرب شفق أحمر، ثم أصفر، ثم أبيض يأتي ذلك في الفجر أيضا إلا أن شفق الفجر معكوس شفق المغرب، فإن أول ما يبدو وقت الفجر الأبيض، ثم الأصفر، ثم الأحمر، ولا تخفى حكمة ذلك في الطرفين.

وقد بين النبي ﷺ هذه الأوقات كما جاء في الحديث من طرق منها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ «**أَمَّنِى جبريل عليه السلام عند البيت مرتين فصلى بى الظهر حين زالت الشمس وكانت قَدْرَ الشِّرَاكِ وَصَلَّى بى العصر حين كان ظِلُّهُ مِثْلَهُ وَصَلَّى بى المغرب حين أفطر الصائم وَصَلَّى بى العشاء حين غاب الشَّفَقُ وَصَلَّى بى الفجر حين حَرُمَ الطعام والشراب على الصائم فلما كان الغد صَلَّى بى الظهر حين كان ظله مثله وصلى بى العصر حين كان ظله مثليه وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم وصلى بى العشاء إلى ثلث الليل وصلى بى الفجر فأَسْفَرَ**

---

(١) أخرجه البخارى (٥/٢١٥٢، رقم ٥٣٦٠) ومسلم (٤/١٧٣٦، رقم ٢٢١٧)، والترمذى (٤/٤٠٩، رقم ٢٠٨٢) وقال: حسن صحيح. والنسائى في الكبرى (٤/٣٧٠، رقم ٧٥٦١)، وأحمد (٣/٩٢، رقم ١١٨٨٩) عن أبي سعيد.

(٢) أخرجه مسلم (١/٤٢٧، رقم ٦١٢). وأخرجه أيضًا: أبو داود (١/١٠٩، رقم ٣٩٦)، والنسائى (١/٢٦٠، رقم ٥٢٢)، وابن أبى شيبة (١/٢٨٢، رقم ٣٢٢٩)، وأحمد (٢/٢٢٣، رقم ٧٠٧٧)، والبيهقى (١/٣٦٦، رقم ١٥٩١) عن عبد الله بن عمرو.

ثم التفتَ إليَّ جبريل فقال يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك والوقت ما بين هذين الوقتين[1]. رواه أبو داود وغيره وصححه ابن خزيمة والحاكم.

فقد بين جبريل في هذا الحديث وغيره أول الوقت وآخره.

سؤال صلاة جبريل في اليومين المغرب في وقت واحد وهو حين أفطر الصائم يشكل على القول بأن وقتها يمتد إلى مغيب الشفق الأحمر.

جوابه أنه محمول على وقت الاختيار، وكذا صلاته به العشاء في المرة الثانية حين مضى ثلث الليل الأول، والفجر حين أسفر، والعصر حين كان ظل الشيء مثليه، فإن جبريل بين للنبي ﷺ بذلك وقت الاختيار لا أن ذلك هو آخر وقتها بدليل حديث آخر.

وقد ذكر علماؤنا فوائد متعلقة بأوقات الصلوات:

الفائدة الأولى: اختلف العلماء رضي الله عنهم في نصب هذه الأوقات أسباباً للصلوات هل هو أمر تعبدي غير معقول المعنى أو هو معقول؟

فذهب جمهور العلماء إلى أنه أمر تعبدي غير معقول المعنى، وذهب جماعة من العلماء إلى أنه معقول المعنى.

قال الحكيم الترمذي في كتاب العلل والمقادير: علة نصب وقت الفجر، وإيقاع الصلاة في هذا الوقت أن الشمس آية عظيمة، والفجر مبدأوها، فإذا ظهرت، فحقيق بالعباد أن ينهضوا إلى طاعة مولاهم، فإن السكون تلاعب بالآية ؛ ألا ترى أن الشمس إذا انكسفت تعين النهوض إلى العبادة تعظيما للآية ؛ لأن الانكساف تخويف بزوال

---

(١) أخرجه أبو داود (١/١٠٧، رقم ٣٩٣)، وابن خزيمة (١/١٦٨، رقم ٣٢٥)، والحاكم (١/٣٠٦، رقم ٦٩٣). وأخرجه أيضًا: الترمذى (١/٢٧٨، رقم ١٤٩) وقال: حسن صحيح غريب. وعبد الرزاق (١/٥٣١، رقم ٢٠٢٨)، وابن أبى شيبة (١/٢٨٠، رقم ٣٢٢٠)، وأحمد (١/٣٣٣، رقم ٣٠٨١)، والطبرانى (١٠/٣٠٩، رقم ١٠٧٥٢)، والشافعى (١/٢٦)، وعبد بن حميد (ص ٢٣٣، رقم ٧٠٣)، وابن الجارود (ص ٤٦، رقم ١٤٩)، وأبو يعلى (٥/١٣٤، رقم ٢٧٥٠)، والبيهقى (١/٣٦٤، رقم ١٥٨٣).

النعمة، وظهورها بعد ذلك نعمة عظيمة، وقبيح بالعبد أن تظهر آية من آيات الله تعالى وهو مستقر لا يرتاع لها، بل يقوم معتذرا مما جنته يداه ثم مد له في ذلك إلى طلوع الشمس.

وعلة نصب وقت الظهر وإيقاع الصلاة فيه أنه وقت زوال الشمس، وهو ميلها، وهو منها بمنزلة الركوع من المصلي ؛ فإنها ما دامت مرتفقة فهي في علو ؛ فإذا زالت فقد انحنت كالراكع، فناسب أن يصلي في هذا الوقت.

وعلة نصب وقت العصر سببا لها أنها إذا بلغت متوسط الانحطاط، وهو وقت العصر، فهو منها بمنزلة السجود من المصلي، فناسب أن يصلي فيه.

وعلة نصب وقت المغرب لها وايقاع الصلاة فيه أنه وقت ظهور سلطان الليل، وهو آية عظيمة طبقت الأفق، وآب كل شيء إلى مأواه رحمة عظيمة لما فيه من ميل النفوس إلى السكون، فناسب أن يصلي فيه شكرا لله تعالى.

وعلة نصب وقت العشاء لها وإيقاعها فيه أن بدخول وقته تدخل ظلمة الليل، وهي نعمة لما فيها من السكون، فناسب أن يصلي لله شكرا لله عليها.

وقال في نزهة المجالس: وجه اختصاص الصلوات الخمس بهذه الأوقات أن في وقت الظهر تسعر نار جهنم، فمن صلاها في وقتها حرم الله عليه النار.

وفي وقت العصر أكل آدم من الشجرة، فمن صلاها في وقتها خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وفي وقت المغرب تاب الله على آدم، فمن صلاها في وقتها لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه.

ووقت العشاء يشبه ظلمة القبر وظلمة القيامة، فمن صلاها في وقتها أو مشى إليها رزقه الله تعالى نورا في قبره، وفي القيامة.

ومن صلى الفجر في وقتها أعطاه الله برآءتين من النار والنفاق.

الفائدة الثانية: قال أكثر العلماء للظهر ثلاثة أوقات:

وقت فضيلة: وهو أول الوقت، وإنما يدرك هذا الوقت بالاشتغال بأسباب الطهارة والصلاة عقب دخول الوقت من غير توان ولا يكلف العجلة وجاء في الحديث الصحيح «إن أبواب السماء تفتح عقب الزوال» روى أبو أيوب الأنصاري أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي أربعا عقيب الزوال بسلام واحد ويقول «**إن أبواب**

السماء فتحت فلا ترتج حتى يفرغ من الصلاة وأحب أن يصعد لي فيها عمل»[(١)].

الثاني وقت اختيار: وهو وقت بعد ذهاب وقت الفضيلة إلى آخر الوقت.

الثالث وقت عذر: وهو وقت العصر لمن يجمع.

وقال القاضي حسين: لها أربعة أوقات وقت فضيلة وهو من أول الوقت إلى أن يصير ظل الشئ مثله، ووقت اختيار إلى أن يصير ظل الشئ مثل نصفه، ووقت جواز إلى أخر الوقت، ووقت عذر وهو وقت العصر لمن يجمع، فلها أيضا وقت خامس وهو وقت حرمة وهو أن يؤخرها إلى أن يبقى زمن من الوقت لا يسع الفرض وإن وقعت أداء قاله الأسنوي.

واعترض عليه بأن الوقت ليس وقت حرمة ؛ بل إنما يحرم التأخير إليه، وهذا الوقت وقت إيجاب لأنه يجب فعل الصلاة فيه، فنفس التأخير المحرم لا نفس الصلاة في الوقت.

وذهب بعضهم إلى جواز تأخيرها إلى أن يبقى من الوقت ركعة والمعتمد الأول، ولها أيضا وقت سادس وهو وقت إدراك، وهو أن يدرك من وقتها زمنا يسع الصلاة ثم يطرأ عليه الجنون أو الحيض أو نحو ذلك قاله ابن العماد، ولها أيضا وقت سابع وهو وقت القضاء وهو ما إذا أحرم بالصلاة ثم أفسدها عمدا، فإنها تصير قضاء كما نص عليه القاضي حسين والمتولي والروياني.

وهذه الأوقات في غير أصحاب الأعذار، وأما أصحاب الأعذار كالحائض تطهر والمجنون يفيق والصبي يحتلم، وقد بقى من الوقت قد ركعة، فليس لها في حقهم غير هذا الوقت ولا كراهة تلحقهم.

والعصر ثمانية أوقات:

وقت فضيلة: وهو أول الوقت ولا كراهة.

ووقت اختيار: ويمتد إلى الوقت الذي صلى فيه جبريل عليه السلام في اليوم الثاني، وهو أن يصير ظل الشيء مثليه.

ووقت جواز بلا كراهة: إلى اصفرار الشمس.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٦/٢، رقم٥٩٤١)، وأحمد (٤١٦/٥، رقم ٢٣٥٧٩) وعبد بن حميد (ص ١٠٤، رقم ٢٢٦)، والطبراني (١٦٨/٤، رقم ٤٠٣١)، والبيهقي (٤٨٨/٢، رقم ٤٣٥٥) عن أبي أيوب.

ووقت كراهة: وهو وقت اصفرار الشمس واحمرارها بمعنى أن يكره تأخير فعل الفرض إلى هذا الوقت لأنه واجب.

ووقت إدراك: وهو أن يدرك من وقتها ما يسع تكبيرة بأن يزول عذره، وقد بقى من الوقت قدر تكبيرة كما سنذكر ذلك.

ووقت ضرورة: وهو وقت الظهر لمن يجمع بسفر أو مطر.

ووقت تحريم: وهو وقت تأخيرها إلى وقت لا يسعها كلها.

ووقت القضاء: وهو ما إذا أحرم بها ثم أفسدها عمداً، فإنها تصير قضاء كما تقدم في الظهر.

وللمغرب ستة أوقات:

وقت فضيلة: وهو أول الوقت.

ووقت اختيار: وهو بعد وقت الفضيلة إلى آخر الوقت.

ووقت جمع: وهو وقت العشاء لمن يجمع بسفر.

ووقت إدراك

ووقت حرمة

ووقت قضاء وقد تقدم بيانها

وللعشاء سبعة أوقات:

وقت فضيلة: وهو أول الوقت.

ووقت اختيار: وهو بعد وقت الفضيلة ويستمر حتى ثلث الليل.

ووقت جواز مع الكراهة: وهو من ثلث الليل إلى آخر الوقت.

ووقت جمع: وهو وقت المغرب لمن يجمع بسفر أو مطر.

ووقت حرمة

ووقت إدراك

ووقت قضاء وقد تقدم بيانها.

وللصبح سبعة أوقات:

وقت فضيلة: وهو أول الوقت

ووقت اختيار: وهو بعد وقت الفضيلة إلى الاسفار، وهو حتى تتراءى الوجوه مأخوذ من أسفر وجهه إذا كشفه وبينه.

ووقت جواز بلا كراهة: إلى طلوع الحمرة والصفرة.

ووقت كراهة: وهو من مبادئ الحمرة والصفرة إلى طلوع الشمس.

ووقت حرمة[1]...

ووقت إدراك[1]...

ووقت قضاء[1]...

الفائدة الثالثة: الواجب الموسع هو الذي يكون وقته زائدا على فعله كصلاة الظهر، فجميع وقته وقت لادائه بمعنى أن أي جزء أوقعه فيه وقع عن الواجب، ولا يتقيد الوجوب بأول الوقت ولا بآخره، وهذا معنى قول فقهائنا: تجب الصلاة بأول الوقت وجوبا موسعا ؛ بمعنى أنه لا يأثم بتأخيرها إلى آخره.

وهل يجب على مريد التأخير عن أول الوقت أن يعزم في أوله على فعلها في أثنائه أم لا؟

اختلف العلماء في ذلك فذهب الشيخ تاج الدين بن السبكي في جمع الجوامع إلى أنه لا يجب اكتفاء بالفعل ؛ لكن الذي صححه النووي في كتاب شرح المهذب أنه يجب، ونقله الإمام الرازي عن أكثر الأصحاب، وأكثر المعتزلة، وبه قال القاضي الباقلاني والآمدي، ورده ابن السبكي وبالغ في انكاره وادعى أنه لا يعرف نقلا عن القاضي ومن تبعه وقال إنه معدود من هفواته ومن العظائم في الدين فإنه يوجب إيجاب بلا دليل، والمذهب المعتمد الذي قاله النووي ؛ وقد تبع النووي على ذلك من المتأخرين العلامة شيخ الإسلام القاضي زكريا في كتابه لب الأصول، فإن أخر من غير نية العزم على الفعل في بقية الوقت آثم وقول الفقهاء تجب الصلاة بأول الوقت وجوبا موسعا معناه أنها تجب بأول الوقت بحسب الظاهر فلو مات شخص أو جن أو حاضت المرأة قبل أن يمضي من وقت الصلاة ما يمكن فعلها فيه ؛ فإذا تبين أن الصلاة لم تجب قاله القاضي أبو الطيب وغيره وإذا ظن المكلف أنه لا يعيش إلى آخر الوقت كأن لزمه قود فطالب ولي الدم باستيفائه فأمر الإمام بقتله تضيق عليه الوقت اعتبارا بظن فإن أخر العبادة عن وقتها عصي لظنه فوات الواجب بالتأخير فإن عاش كأن عفى عنه ولي الدم وتبين خلاف ظنه وفعلها في الوقت المقدر لها شرعا فهل هي أداء أو قضاء اختلفوا في ذلك ؛ فقال القاضي حسين والقاضي أبو بكر إنها قضاء لأنه فعلها بعد الوقت الذي تضيق بظنه وإن بان خطأه والصحيح كما قاله الجمهور أنها أداء إذ لا عبرة بالظن البين خطأه ؛ وقد وقعت في الوقت المقدر لها شرعا.

وقال ابن السبكي: إنه الحق ويظهر أثر الخلاف في نية الأداء والقضاء، فينوي

---

(١) كذا بالأصل من دون تعيين هذه الأوقات.

القضاء على قول القاضي، والأداء على الصحيح، ويظهر أثره أيضا في صلاة الجمعة إذا ظن أنه لا يعيش إلى آخر وقتها فأخرها وعاش فتقضى ظهرا على قولهما وتصبح جمعة في الوقت على الصحيح.

ونظير هذه المسألة ما لو ظن الفوات بسبب آخر غير الموت كإغماء وجنون وحيض، فإنه يتضيق عليه الوقت، ولهذا قال إمام الحرمين: لو اعتادت المرأة طروء الحيض عليها في أثناء الوقت من يوم معين تضيق الفرض عليها، فإن تبين خلاف ما ظنته، وفعلت العبادة في وقتها وقعت أداء على الصحيح، وقيل قضاء، وإذا ظن المكلف السلامة إلى آخر الوقت فبان خلاف ظنه ومات مثلا في الوقت قبل الفعل لم يعص على الصحيح لأنه مأذون له في التأخير، وقيل يعصي لأن جواز التأخير مشروط بسلامة العاقبة هذا إذا لم يكن عزم على الفعل وإن عصى بترك العزم، وإلا فلا يعصي قطعا قاله الآمدي.

سؤال فإن قيل الحج أيضا واجب موسع وإذا أخره المكلف بعد أن أمكنه فعله وظن سلامته من الموت إلى مضى وقت يمكنه فعله فيه ومات قبل فعله فيه فإنه يعصي على الأصح ؛ وقد قلتم في الصلاة لا يعصي بذلك فما الفرق؟

جوابه إن آخر وقت الحج غير معلوم، فأبيح له تأخيره بشرط أن يبادره كان مقصرا بخلاف آخر وقت الصلاة، فإنه معلوم والأصح استناد العصيان إلى آخر سنى الأمكان لجواز التأخير إليها، وقيل إلى أولها لاستقرار الوجوب حينئذ.

الفائدة الرابعة: تقرب من هذه المسألة مسألة النوم وهي ما إذا نام المكلف في أثناء الوقت قبل أن يصلي، واستمر نائما إلى أن خرج الوقت، فإنه ينبغي أن يعصي قطعا كما قاله ابن الصلاح في فتاويه.

لكن قال السبكي في كتابه ابراز الحكم من حديث رفع القلم: إذا دخل على المكلف وقت الصلاة، وتمكن من فعلها، وأراد أن ينام قبل فعلها، فإن وثق من نفسه أن يستيقظ قبل خروج الوقت بزمن يمكنه أن يصلي فيه جاز، وإلا لم يجز، وكذا لو لم يتمكن ؛ ولكن بمجرد دخول الوقت قصد أن ينام، فإن نام حيث لم يثق من نفسه بالاستيقاظ أثم إثمين:

أحدهما: أثم بترك الصلاة.

والثاني: أثم بالتسبب إليه أي بالنوم.

فإن استيقظ على خلاف ظنه، وصلى في الوقت لم يحصل له إثم ترك الصلاة، وأما

ذلك الإثم الذي حصل - أي بالنوم - فلا يرتفع إلا بالاستغفار.

قال: ولو أراد أن ينام قبل الوقت، وغلب على ظنه أن نومه يستغرق الوقت لم يمتنع عليه ذلك لأن التكليف لم يتعلق به بعد، ويشهد له ما ورد في الحديث: أن امرأة عابت زوجها بأنه ينام حتى تطلع الشمس فلا يصلي الصبح إلا ذلك الوقت ؛ فقال: إنا أهل بيت معروف لنا ذلك - أي ينامون حتى تطلع الشمس - فقال ﷺ «إذا استيقظت فصل» [(١)].

وإنما يأثم من نام بعد دخول وقت الصلاة وقبل فعلها، و لم يثق نفسه بالاستيقاظ إذا نام باختياره أما إذا غلبه النوم فلا يعصي ؛ بل ولا يكره له ذلك لعذره قاله في الروض

الفائدة الخامسة: إذا فعل المكلف الصلاة جميعها في وقتها فهي أداء، وإذا فعلها جميعها خارج وقتها فهي قضاء اتفاقا، وأما إذا فعل بعضها في الوقت، وبعضها خارجه، فهل هي أداء وقضاء فيه تفصيل:

وهو أن يقال إن أوقع ركعة منها في الوقت فأكثر فكلها أداء لما ورد في الصحيحين أن النبي ﷺ قال «**من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة**» [(٢)].

معناه من أدرك ركعة في الوقت فقد أدركها ؛ وإن أوقع منها في الوقت دون ركعة فكلها قضاء، والفرق بين الركعة ودونها: أن الركعة تشتمل على معظم أفعال الصلاة، وغالب ما يليها تكرير لها، فجعل ما وقع بعد الوقت تابعا لها بخلاف ما دونها.

مسألة: لنا صلاة فعلها المكلف كلها في وقتها المقدر لها شرعا، ومع ذلك فهي قضاء، وصورتها فيمن شرع في الصلاة في وقتها، ثم أفسدها فيه، فإنها تصير قضاء، وينوي بها القضاء، وإن كان وقتها باقيا، ولا يقصرها إذا سافر بعد ذلك في ذلك الوقت لأنها صارت فائتة حضر، وهي لا تقصر في السفر، والحكمة في أنها تصير قضاء مع بقاء وقتها أنه لما أحرم بها تضيق عليه وقتها، ويحرم عليه الخروج منها ؛ فإذا خرج منها عمدا فاتت، وإن فعلها في بقية وقتها المقدر لها شرعا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/٣٣٠، رقم ٢٤٥٩)، وابن حبان (٤/٣٥٤، رقم ١٤٨٨)، والحاكم (١/٦٠٢، رقم ١٥٩٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقى (٤/٣٠٣، رقم ٨٢٨٢)، وأحمد (٣/٨٠، رقم ١١٧٧٦)، وأبو يعلى (٢/٣٠٨، رقم ١٠٣٧) عن أبي سعيد.

(٢) أخرجه البخاري (١/٢١١، رقم ٥٥٥)، ومسلم (١/٤٢٣، رقم ٦٠٧) عن أبي هريرة.

ونظير ذلك الحج الفاسد فإن يتدارك قضاء لأداء مع أن وقته العمر كان لأنه بالشروع تضيق وقته.

وأفاد السبكي أن قضية ذلك أنه لو وقع مثله في الجمعة لا تفعل ثانيا لأنها لا تقضي.

مسألة ثانية: لنا صلاة وقعت خارج وقتها المعين لها شرعا، ومع ذلك تكون أداء، وبيانها أنها صلاة العيد إذا شهد عدلان بعد غروب الشمس إلى اليوم الثلاثين من رمضان برؤية الهلال الليلة الماضية، فإن هذه الشهادة لا تقبل اتفاقا بالنسبة إلى صلاة العيد ؛ بل تصلى من الغد أداء مع أنه اليوم الثاني من شوال.

مسألة ثالثة: رجل أحرم بصلاة العصر قضاء عالما بفوات الوقت، فوقعت صلاته كلها أداء، وصورتها فيمن أحرم بصلاة العصر، ثم طلعت الشمس قبل أن يفرغ منها بركعة ؛ فإنها أداء لوقوع ركعة منها في الوقت ؛ وقد نص علماءنا على أن الشمس لو غربت، ثم طلعت عاد وقت العصر، وسنذكر من ردت إليه الشمس في محله.

مسألة رابعة: لنا صلاة واحدة لها وقت مضبوط أدرك المصلي منها ركعتين في وقتها، والباقي فعله بعد الوقت، ومع ذلك يكون الذي فعله خارج الوقت قضاء، وصورتها في صلاة الضحى، وسنة الظهر والعصر ونحوهما، فإنه إذا صل منها ركعتين في الوقت بتسليمة، وأوقع الباقي خارج الوقت، فما وقع في الوقت أداء، وما وقع خارجه قضاء لاستقلاله بإحرام وسلام ؛ نعم إذا جعل الصلاة كلها بتسليمة واحدة فلا إشكال في أنها كباقي الصلوات إن أدرك ركعة في الوقت كانت كلها أداء، وإلا فكلها قضاء.

الفائدة السادسة: يحرم إخراج بعض الصلاة عن وقتها إن وقعت أداء كما يحرم إخراجها كلها عنه ؛ نعم إذا اتسع وقتها، فطولها بقراءة ونحوها حتى خرج الوقت ؛ وقد بقى منها بقية، فلا يأثم بذلك وإن بقى غالبها ؛ بل ولا يكره ذلك لكنه خلاف الأولى كما قاله النووي، فيأتي بالبقية خارج الوقت، ولا فرق في ذلك بين صلاة المغرب ونحوها ؛ فإذا أحرم بالمغرب مثلا بعد غروب الشمس، فله مدها إلى دخول وقت العشاء وإن قلنا إن وقتها ضيقا، ودليله أنه ﷺ قرأ فيها بالأعراف في الركعتين كلتيهما [1] رواه الحاكم وصححه.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٣٦٣، رقم ٨٦٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه أيضا: ابن خزيمة (١/٢٦٠، رقم ٥١٧) عن زيد بن ثابت.

وهل يشترط في جواز مد الصلاة وإخراج بعضها عن الوقت أن يوقع ركعة في الوقت أو لا يشترط ذلك فيها خلاف، وذهب الإسنوي وتبعه جماعة كصاحب الروض وغيره إلى أنه يشترط في جواز ذلك إيقاع ركعة في الوقت.

وذهب الزركشي إلى أنه لا يشترط إيقاع ركعة في الوقت ؛ بل يجوز ذلك مطلقا سواء أوقع ركعة في الوقت أو دونهما، وهو تابع في ذلك للبغوي، فإنه صرح في فتاويه بذلك، واحتج عليه بأن الصديق ﷺ طول مرة في صلاة الصبح فقيل له كادت الشمس أن تطلع ؛ فقال لو طلعت لم تجدنا غافلين قال: وهو كما قال لأنه استغرق الوقت بالعبادة.

نعم لنا صلاة من الصلوات الخمس لا يجوز مدها إلى ما بعد خروج الوقت وهي صلاة الجمعة.

الفائدة السابعة: إذا اشتبه على الإنسان بصيرا كان أو أعمى وقت صلاة لغيم، أو حبس في مكان مظلم، أو غيرهما مما يحصل به الاشتباه في الوقت، و لم يجد ثقة يخبره عن علم ؛ اجتهد فيه وجوبا واستدل عليه بشيء يغلب على الظن دخوله كدرس وقراءة وكتابة وخياطة وحياكة وبناء ونحو ذلك سواء كان ذلك منه أو من غيره كما قاله في الكفاية.

قال في الروضة: ومن الأمارات صياح الديكة المجربة إصابة صياحة الوقت وكذا إذا أذن المؤذنون في يوم الغيم إذا أكثروا وغلب على الظن لكثرتهم أنهم لا يخطئون ؛ أما إذا وجد ثقة يخبره عن علم أي مشاهدة بدخول الوقت كأن قال له رأيت الفجر طالعا، والشفق غائباً، أو الشمس غاربة فلا يجوز له الإجتهاد ؛ بل يجب عليه قبول قوله والعمل به، فإن أخبره الثقة عن اجتهاد لا عن مشاهدة، فإن كان هذا المشتبه عليه الوقت بصيراً قادراً على الاجتهاد لم يجز له أن يقلده ؛ لأن المجتهد لا يقلد مجتهدا، وإن كان بصيرا لكنه غير قادر على الاجتهاد - ويعبر عنه بأعمى البصيرة - جاز له أن يقلده كما يجوز لأعمى البصر أن يقلده أيضا، وللأعمى والبصير تقليد المؤذن الثقة العارف بمواقيت الصلاة في يوم غيم على ما صححه النووي ونقله عن نص الشافعي: لأنه لا يؤذن في العادة إلا في الوقت ؛ وأما إذا أذن في يوم الصحو فإنه يخبر عن مشاهدة، فيجب قبول قوله والعمل به، وإن صل من لزمه الاجتهاد بغير اجتهاد بطلت صلاته وإن وقعت في الوقت وظن دخوله لتقصيره بترك الاجتهاد، وإذا اجتهد فلم يجد دليلاً يدل على دخول الوقت قال النووي وغيره: والاحتياط أن يؤخر إلى أن يغلب

على ظنه أنه لو أخر عنه لخرج الوقت، ومن جاز له الإجتهاد إذا قدر على استيقان الوقت بالصبر لم يجب عليه الصبر، وجاز له الاجتهاد إذا قدر على استيقان الوقت بالصبر لم يجب عليه الصبر، وجاز له الاجتهاد كالبصير في البيت المظلم القادر على الخروج وتيقن الوقت، فإنه يجوز له الاجتهاد ولا يجب عليه الخروج لأجل تيقن الاقتداء به، وإذا صل بالاجتهاد، وبان وقوع الصلاة في الوقت أو بعده لم يتبين وجب إعادتها تامة قاله في الروضة، وإن بان وقوعها قبل الوقت لا تجزئه ؛ لأن العبادة البدنية لا يجوز تقديمها على وقتها، فتجب إعادتها، فإن أعادها في وقتها فهي أداء، وإن أعادها بعده فهي قضاء، وإذا صل بالإجتهاد فأخبره ثقة أنها وقعت قبل الوقت فإن أخبره عن علم ومشاهدة وجبت الإعادة، وإن أخبره عن اجتهاد فلا تجب، ولو ظن المنجم دخول الوقت بالحساب، فيجوز له العمل به ولا يجب ولا يجوز لغيره أن يقلده فيه كما ذكروا ونظيره في الصوم كما سيأتي.

الفائدة الثامنة: الأوقات التي يكره فيها الصلاة خمس أوقات:

الأول: بعد فعل صلاة الصبح أداء إلى طلوع الشمس.

الثاني: عند طلوعها إلى أن ترتفع قدر رمح في رأي العين.

الثالث: عند استوائها إلى أن تزول.

الرابع: بعد فعل صلاة العصر أداء إلى أن تصفر الشمس.

الخامس: عند اصفرارها إلى أن تغرب.

وإنما قلنا بعد فعل الصبح والعصر أداء إفادة إلى أنها لا تكره بعد قضائهما ولو جمع العصر مع الظهر تقديما كره التنفل بعدها أيضا على الأصح.

وأفتى العماد بن يونس بعدم الكراهة وهو مردود، والكراهة في هذه الأوقات كراهة تحريم لا تنعقد الصلاة فيها إلا إذا كان لها سبب متقدم أو مقارن كما سنذكر ذلك ؛ وقد دل على هذه الكراهة الأحاديث الصحيحة:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر ﷺ قال «**ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلي فيهن أو نقبر فيهن موتانا حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس وحين تضيف الشمس للغروب**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١/٥٦٨، رقم ٨٣١).

والظهيرة شدة الحر، وقائمها هو البعير يكون باركاً، فيقوم من شدة حر الأرض، وتضيف بتاء مثناه من فوق ثم ضاد معجمة ثم مثناه من تحت مشددة بمعنى تميل، ولذلك سمى الضيف ضيفاً لأنك تقول أضفت فلاناً إذا أملته إليك، وأنزلته عندك.

وروى الشيخان عن أبي هريرة أنه ﷺ «**نهى عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس وعن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس**» (١).

وروى الشيخان أيضاً عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال «**لا يتحر أحدكم فيصلى عند طلوع الشمس ولا عند غروبها**» (٢).

وفى مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «**لا صلاة بعد الصبح حتى ترتفع الشمس ولا صلاة بعد العصر حتى تغيب الشمس**» (٣).

وفى مسلم أيضاً «**فإنها تطلع وتغرب بين قرنى الشيطان وحينئذ يسجد لها الكفار**» (٤).

وقيل: معنى طلوعها وغروبها بين قرنى الشيطان أن الشيطان يدنى رأسه من الشمس عند الطلوع والاستواء والغروب ليكون الساجد فيها ساجداً لها.

سؤال فإن قيل إن وقت الاستواء لطيف لا يسع الصلاة ولا يكاد يشعر به فكيف قيل بكراهة الصلاة فيه؟

جوابه أنه يمكن إيقاع الإحرام بالصلاة فيه فلا تنعقد ؛ نعم لا تكره الصلاة في هذه الأوقات بمكة وسائر الحرم لما رواه الترمذى وغيره قال: وحسن صحيح. عنه ﷺ «**يا بنى عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو**

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٣/١، رقم ٥٦٣)، ومسلم (٥٦٦/١، رقم ٨٢٥).

(٢) أخرجه البخارى (٢١٢/١، رقم ٥٦٠)، ومسلم (٥٦٧/١، رقم ٨٢٨). وأخرجه أيضًا: مالك (٢٢٠/١، رقم ٥١٥)، وعبد الرزاق (٤٢٥/٢، رقم ٣٩٥١)، والشافعى (١٦٦/١)، وأحمد (١٠٦/٢، رقم ٥٨٣٥).

(٣) أخرجه مسلم (٥٦٧/١، رقم ٨٢٧). وأخرجه أيضا: البخارى (٢١٢/١، رقم ٥٦١)، والنسائى (٢٧٨/١، رقم ٥٦٧)، وابن ماجه (٣٩٥/١، رقم ١٢٤٩)، وعبد الرزاق (٤٢٨/٢، رقم ٣٩٥٩)، وعبد بن حميد (ص ٢٩٩، رقم ٩٦٥).

(٤) أخرجه مسلم (٥٦٩/١، رقم ٨٣٢). وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (٣٢٢/١، رقم ١١٤٧) عن عمرو بن عبسة.

نهار» [١].

ولا تكره أيضا عند الاستواء يوم الجمعة لأحد صلى فيه وأن لم يحضر صلاة الجمعة لخبر ورد في ذلك رواه أبو داود وغيره.

ولا تكره في هذه الأوقات صلاة لها سبب متقدم عليها أو مقارن لها، فسنة الوضوء، وركعتا الطواف، وسجود التلاوة والشكر، والصلاة المعتادة، والصلاة الفائتة لا يكره كل واحد منها في هذه الأوقات ؛ لأن له سببا متقدما عليه أما سنة الوضوء فسببها الوضوء وهو متقدم عليها، وأما سجود الشكر فسببه حدوث نعمة أو اندفاع نقمة وذلك متقدم عليه، وأما العبادة فسببها فعل لصلاة قبلها وهو متقدم عليها، وأما الصلاة الفائتة فسببها فوات وقتها فيجوز لمن فاته صلاة فرضا كانت أو نفلا أن يقضيها في وأقات الكراهة لعموم قوله ﷺ «**من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها**» [٢] رواه الشيخان.

ولأنه ﷺ صلى بعد صلاة العصر ركعتين وقال هما اللتان بعد الظهر أي قضى بعد العصر سنة الظهر لما شغله عنها الوفد واستمر ﷺ يصلى هذه السنة بعد العصر إلى أن فارق الدنيا كما في صحيح مسلم، وليس لغيره ﷺ إذا أقضى فائته في هذه الأوقات أن يدوم عليها، ويجعلها وردا لأن مداومته ﷺ على سنة الظهر بعد العصر من خصائصه الشريفة بل يأتى بها مرة واحدة ولا كراهة في ذلك ؛ نعم من أخر فائتة عليه إلى وقت الكراهة ليقضيها فيه فإنها لا تصح للأخبار الصحيحة كخبر «**لا تحروا بصلاتكم**

---

(١) أخرجه الترمذى (٣/٢٢٠، رقم ٨٦٨) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضا: أبو داود (٢/١٨٠، رقم ١٨٩٤)، والنسائى (١/٢٨٤، رقم ٥٨٥)، وابن ماجه (١/٣٩٨، رقم ١٢٥٤) والدارمى (٢/٩٦، رقم ١٩٢٦)، وابن خزيمة (٢/٢٦٣، رقم ١٢٨٠)، والطحاوى (٢/١٨٦)، وأبو يعلى (١٣/٤١٢ رقم ٧٤١٥)، وابن حبان (٤/٤٢١، رقم ١٥٥٣)، والدارقطنى (١/٤٢٤)، والطبرانى (٢/١٤٢، رقم ١٦٠١)، والحاكم (١/٦١٧، رقم ١٦٤٣) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقى (٥/٩٢، رقم ٩١١٢)، وابن أبى شيبة (٣/١٨٠، رقم ١٣٢٤٣)، وأحمد (٤/٨٠، رقم ١٦٧٨٢)، والشافعى (١/١٦٧)، والحميدى (١/٢٥٥، رقم ٥٦١)، وعبد الرزاق (٥/٦١، رقم ٩٠٠٤) عن جبير بن مطعم.

(٢) أخرجه البخارى (١/٢١٥ رقم ٥٧٢)، ومسلم (١/٤٧٧، رقم ٦٨٤). وأخرجه أيضا: الترمذى (١/٣٣٥، رقم ١٧٨) وقال: حسن صحيح. والنسائى (١/٢٩٣، رقم ٦١٣)، والدارمى (١/٣٠٥، رقم ١٢٢٩)، وابن خزيمة (٢/٩٧، رقم ٩٩٢)، وابن أبى شيبة (١/٤١١، رقم ٤٧٣٥)، وأحمد (٣/١٠٠، رقم ١١٩٩١)، وابن حبان (٤/٤٢٣، رقم ١٥٥٦) عن أنس.

طلوع الشمس ولا غروبها» [١].

وصلاة الاستسقاء والكسوف وتحية المسجد لا تكره في هذه الأوقات لأن لكل واحدة منها سببا مقارنا لها أما صلاة الاستسقاء فسببها انقطاع المطر وهو مقارن لها.

وأما صلاة الكسوف فسببها كسوف الشمس أو القمر وهو مقارن لها ولهذا لا تفعل بالانجلاء.

وأما تحية المسجد فسببها دخول المسجد وهو مقارن لفعلها ؛ نعم لو دخل المسجد في هذه الأوقات لأجل أن يصلى التحية فإنها لا تصح أما إذا دخله لغرض غير التحية أو لغرضهما فلا تكره بل تسن لخبر الصحيحين «**أذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين»** [٢].

فإنه حديث مخصص لخبر النهي.

فإن كانت الصلاة لها سبب متأخر عنها فإنها في هذه الأوقات لا تنعقد كصلاة الاستخارة وركعتي الإحرام أما صلاة الاستخارة فسببها الاستخارة وهى متأخرة عنها وأما ركعتا الإحرام فسببها الإحرام وهو متأخر عنهما.

وصلاة الجنازة لا تكره في هذه الأوقات إما لأن سببها متقدم عليها وهو غسل الميت أن قلنا إن المراد بالتقدم وقسيميه التقدم على الصلاة وهو الأظهر الذي قاله النووي في المجموع وجرى عليه الأسنوى وابن الرفعة، وإما لأن سببها مقارن لها إن

---

(١) أخرجه النسائى (٢٧٩/١، رقم ٥٧١)، وأحمد (١٣/٢، رقم ٤٦١٢)، وأبو عوانة (٣١٩/١، رقم ١١٣٢)، والبيهقى (٤٥٣/٢، رقم ٤١٧٢) عن ابن عمر.

(٢) أخرجه البخارى (١٧٠/١، رقم ٤٣٣)، ومسلم (٤٩٥/١، رقم ٧١٤)، وأبو داود (١٢٧/١، رقم ٤٦٧)، والترمذى (١٢٩/٢، رقم ٣١٦) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٥٣/٢، رقم ٧٣٠)، وابن ماجه (٣٢٣/١، رقم ١٠١٢)، ومالك (١٦٢/١، رقم ٣٨٦)، وعبد الرزاق (٤٢٨/١، رقم ١٦٧٣)، وأحمد (٣١١/٥، رقم ٢٢٧٠٥)، وابن أبى شيبة (٢٩٩/١، رقم ٣٤١٩)، والدارمى (٣٧٦/١، رقم ١٣٩٣)، وابن خزيمة (١٦٣/٣، رقم ١٨٢٧)، وابن حبان (٢٤٢/٦، رقم ٢٤٩٥)، والطبرانى في الكبير (٢٤١/٣، رقم ٣٢٨٠)، وفى الأوسط (٧/٩، رقم ٨٩٥٨)، وفى الصغير (٢٣٥/١، رقم ٣٨٣)، وأبو عوانة (٣٤٦/١، رقم ١٢٣٨)، والبيهقى (٣/ ٥٣، رقم ٤٧٠٢) عن أبي قتادة.

وأخرجه ابن ماجه (٣٢٣/١، رقم ١٠١٢) قال البوصيرى (١٢٣/١): هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع. والطبرانى في الأوسط (١٨/٣، رقم ٢٣٢٨) عن أبي هريرة.

قلنا المراد بالتقدم وقسيميه المتقدم على هذه الأوقات ووقع السبب فيها فإن وقع قبلها فهو متقدم أيضا.

وأما المنذورة فإن نذرها في وقت الكراهة لم ينعقد النذر كما لو نذر صوم يوم العيد، وأن نذرها قبل وقت الكراهة وفعلها فيه جاز لتقدم سببها ولو أحرم بصلاة لا سبب لها متقدم ولا مقارن قبل وقت الكراهة ثم جاء الوقت وهو فيها لم تبطل إن لم يتحر دخول بعضها في وقت الكراهة وإلا فينبغي البطلان.

الفائدة التاسعة: كما ورد الشرع بالنهى عن الصلاة في هذه الأوقات الخمسة ورد بالنهى عن الصلاة في أماكن صرح العلماء بكراهة الصلاة فيها ولكن تصح الصلاة فيها منها المزبلة وهى موضع الزبل، ومنها المجزرة و هو موضع جزر الحيوان أي ذبحه، وإنما كرهت الصلاة في هذين الموضعين لنجاستهما أما إذا فرش ثوبا أو بساطا طاهرا وصلى فوقه فإن صلاته تصح مع الكراهة بسبب النجاسة تحته أما إذا صلى في هذين الموضعين من غير حائل، فإن صلاته لا تنعقد، ومنها المقبرة قال النووى في الروضة: تكره الصلاة فيها بكل حال وكرهت الصلاة فيها لنجاستها هذا إذا كانت منبوشة وبسط عليها شيئا طاهرا وصلى فإن صلاته صحيحة مع الكراهية كما إذا كانت غير منبوشة وصلى عليها من غير حائل فإن صلاته لا تصح وإن صلى في موضع من المقبرة وشك في نبشه فإن صلاته صحيحة.

واستثنى الشيخ بهاء الدين السبكى من المقابر مقبرة الأنبياء فلا كراهة فيها لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم ولأنهم أحياء في قبورهم يصلون.

ورد هذا الزركشي وقال: الكراهة في قبورهم أشد.

قال القاضي زكريا والمتحد ما قاله البهاء السبكي لأن علة الكراهه النجاسة وهى منتفية هنا بما ذكر.

ويكره استقبال القبر في الصلاة لما ورد في صحيح مسلم «**لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها**» [1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/٦٦٨، رقم ٩٧٢). وأخرجه أيضًا: أبو داود (٣/٢١٧، رقم ٣٢٢٩)، والترمذى (٣/٣٦٧، رقم ١٠٥٠)، وأحمد (٤/١٣٥، رقم ١٧٢٥٥)، وابن خزيمة (٢/٧، رقم ٧٩٣)، وعبد بن حميد (ص ١٧٢، رقم ٤٧٣)، وأبو عوانة (١/٣٣٢، رقم ١١٧٩)، وأبو يعلى (٣/٨٣، رقم ١٥١٤)، وابن حبان (٦/٩٣، رقم ٢٣٢٤)، والحاكم (٣/٢٤٣، رقم ٤٩٦٩) عن واثلة بن الأسقع عن أبي مرثد الغنوى.

نعم يستثنى قبره ﷺ فيحرم استقباله فيهما كما جزم به النووي في التحقيق، ويقاس به قبور سائر الأنبياء صلى الله عليهم وسلم. ونظير هذه المسألة أنه يكره أن يصلى مستقبلا أدمى.

ومنها الحمام حتى بمسلخة وكرهت الصلاة فيها لأنها مأوى الشياطين لكن تصح الصلاة بكل حال في الحمام إذا حكم بطهارته.

ومنها ظهر الكعبة وكرهت الصلاة على ظهرها لاستعلائه عليها.

ومنها الطريق في البنيان دون البرية وكرهت الصلاة فيه لاشتغال القلب بمرور الناس فيها.

ومنها أعطان الإبل وهى المواضع التي تنحى إليها الإبل الشاربة ليشرب غيرها فإذا اجتمعت سيقت.

ومنها مراح الإبل وهى مأواها ليلا وكرهت الصلاة فيها لاحتمال نفارها المشوش للخشوع، ومتى صلى الإنسان في أعطانها أو مراحها وهو نجس بالبول أو البعير أو غيرهما من غير حائل لم تصح صلاته، ومع الحائل تصح ولكن مع الكراهة، ولا يكره في أعطان الغنم، ولا في مراحها.

ومنها الوادي الذي نام فيه رسول الله ﷺ ومن معه عن صلاة الصبح حتى فاتت وقال «**اخرجوا بنا من هذا الوادي فإن فيه شيطانا**» كما رواه مسلم، فخرج منه وصلى خارجه، وكرهت فيه لأنه مأوى الشياطين، وقيل تكره في كل واد للخوف السالب للخشوع بسبب سيل يتوقع، وهذا القول ضعيف لأنه يلزم منه كراهة الصلاة بمكة لأنها في واد.

ومنها الكنائس والبيع هذا إذا لم يكن فيها تصاوير، فإن كان فيها تصاوير كما هو الغالب لم تجز الإقامة فيها، ولا الصلاة.

ومنها الحشوش أي الأخلية لأجل النجاسة في الموضعين.

ومنها أرض بابل فقد روي أبو داود عن على ﷺ أنه أدركته الصلاة في أرض بابل فأخر الصلاة حتى خرج منها وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنها أرض ملعونة» [1] لكن غير أبي داود ضعف الحديث، وممن ضعفه الخطابي.

قال ابن العماد: وكذلك ينبغي كراهة الصلاة في ديار الذين عذبوا كديار ثمود

---

(١) أخرجه أبو داود (١/١٣٢، رقم ٤٩٠). وأخرجه أيضا: البيهقي (٢/٤٥١، رقم ٤١٥٨).

وعاد وقوم لوط لأنه ﷺ قال «**لا تمروا بديار هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين**» [(١)].

وكذلك وادي محسر يستحب الخروج منه كما قال، وكذلك سائر مواضع الغضب والعقوبة يستحب الخروج منها وعدم الإقامة فيها.

وفى قوله تعالى ﴿**وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ**﴾ [إبراهيم: ٤٥].

تنبيه على أن الإنسان لا ينبغي له أن يسكن في أماكن الظلمة مخافة أن يصيبهم بلاء، فيصاب به أو تسرق طباعه من طباعهم، ولو كانت خالية منهم لا يسكن فيها أيضا لأن آثارهم مذكرة بفعالهم، وربما أورثت قسوة وجبروتا في القلوب.

ومنها مسجد الضرار لقول الله تعالى ﴿**لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً**﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال ابن العماد: وليس لنا مسجد تكره الصلاة فيه أبدا إلا هذا.

قال النووي في شرح المهذب: ويلحق بالمواضع المنهي عنها المكس والربا والأسواق ومن مواضع الربا سوق الصاغة فإنه يغلب فيها المعاملة بالربا.

***

---

(١) أخرجه البخارى (١/١٦٧، رقم ٤٢٣)، ومسلم (٤/٢٢٨٦، رقم ٢٩٨٠)، وعبد الرزاق (١/٤١٥، رقم ١٦٢٤)، وأحمد (٢/٩١، رقم ٥٦٤٥)، والنسائى في الكبرى (٦/٣٧٤، رقم ١١٢٧٤)، وابن حبان (١٤/٨١، رقم ٦٢٠٠) عن ابن عمر.

باب الصلوات الخمس كفارات للخطايا إذا صلاهن لوقتهن فى الجماعة وغيرها

قال البخاري: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ قَالَ حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَازِمٍ وَالدَّرَاوَرْدِيُّ عَنْ يَزِيدَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْساً، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ. قَالُوا لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئاً. قَالَ فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا**» (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله «أرأيتم»: استفهام تقرير متعلق بالاستخبار، أي أخبروني هل يبقى.

قوله «لو أن نهرا»: قال الطيبي: لفظ لو يقتضي أن يدخل على الفعل وأن يجاب، لكنه وضع الاستفهام موضعه تأكيدا وتقريرا، والتقدير لو ثبت نهر صفته كذا لما بقي كذا، والنهر ما بين جنبي الوادي، سمى بذلك لسعته، وكذلك سمي النهار لسعة ضوئه.

قوله «ما تقول»: كذا في النسخ المعتمدة بإفراد المخاطب، والمعنى ما تقول يا أيها السامع؟ ولأبي نعيم في المستخرج على مسلم، وكذا للإسماعيلي والجوزقي «ما تقولون» بصيغة الجمع، والإشارة في ذلك إلى الاغتسال، قال ابن مالك: فيه شاهد على إجراء فعل القول مجرى فعل الظن، وشرطه أن يكون مضارعا مسندا إلى المخاطب متصلا باستفهام.

قوله «يبقى»: بضم أوله على الفاعلية.

قوله «من درنه»: زاد مسلم «شيئا» والدرن الوسخ، وقد يطلق الدرن على الحب الصغار التي تحصل في بعض الأجساد.

قوله «قالوا لا يبقى»: بضم أوله أيضا، و «شيئا» منصوب على المفعولية. ولمسلم «لا يبقى» بفتح أوله و «شيء» بالرفع، والفاء في قوله «فذلك» جواب شيء محذوف، أي إذا تقرر ذلك عندكم فهو مثل الصلوات الخ. وفائدة التمثيل التأكيد، وجعل المعقول كالمحسوس. قال الطيبي: في هذا الحديث مبالغة في نفي الذنوب لأنهم لم يقتصروا في الجواب على «لا» أعادوا اللفظ تأكيدا. وقال ابن العربي: وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب حتى لا تبقى له ذنبا إلا أسقطته انتهى. وظاهره أن المراد بالخطايا في الحديث ما هو أعم من الصغيرة والكبيرة، لكن قال ابن بطال: يؤخذ من الحديث أن المراد الصغائر خاصة لأنه شبه الخطايا بالدرن، والدرن صغير بالنسبة إلى ما هو أكبر منه من القروح والخراجات، انتهى. وهو مبنى على أن المراد بالدرن في الحديث الحب، والظاهر أن المراد به الوسخ، لأنه هو الذي يناسبه الاغتسال والتنظف. وقد جاء من حديث أبي سعيد الخدري التصريح بذلك، وهو فيما أخرجه البزار والطبراني بإسناد لا بأس به من طريق عطاء بن يسار =

= أنه سمع أبا سعيد الخدري يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «أرأيت لو أن رجلا كان له معتمل، وبين منزله ومعتمله خمسة أنهار، فإذا انطلق إلى معتمله عمل ما شاء الله فأصابه وسخ أو عرق، فكلما مر بنهر اغتسل منه... الحديث». ولهذا قال القرطبي: ظاهر الحديث أن الصلوات الخمس تستقل بتكفير جميع الذنوب، وهو مشكل، لكن روى مسلم حديث العلاء عن أبي هريرة مرفوعا «الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر» فعلى هذا المقيد يحمل ما أطلق في غيره.

فائدة: قال ابن بزيزة في شرح الأحكام: يتوجه على حديث العلاء إشكال يصعب التخلص منه، وذلك أن الصغائر بنص القرآن مكفرة باجتناب الكبائر، وإذا كان كذلك فما الذي تكفره الصلوات الخمس؟ انتهى.

وقد أجاب عنه شيخنا الإمام البلقيني بأن السؤال غير وارد، لأن مراد الله إن تجتنبوا أي: في جميع العمر، ومعناه الموافاة على هذه الحالة من وقت الإيمان أو التكليف إلى الموت، والذي في الحديث أن الصلوات الخمس تكفر ما بينها - أي في يومها - إذا اجتنبت الكبائر في ذلك اليوم، فعلى هذا لا تعارض بين الآية والحديث، انتهى.

وعلى تقدير ورود السؤال فالتخلص منه بحمد الله سهل، وذلك أنه لا يتم اجتناب الكبائر إلا بفعل الصلوات الخمس، فمن لم يفعلها لم يعد مجتنبا للكبائر، لأن تركها من الكبائر فوقف التكفير على فعلها، والله أعلم.

وقد فصل شيخنا الإمام البلقيني أحوال الإنسان بالنسبة إلى ما يصدر منه من صغيرة وكبيرة فقال: تنحصر في خمسة:

أحدها: أن لا يصدر منه شيء البتة، فهذا يعاوض برفع الدرجات.

ثانيها: يأتي بصغائر بلا إصرار، فهذا تكفر عنه جزما.

ثالثها: مثله لكن مع الإصرار فلا تكفر إذا قلنا إن الإصرار على الصغائر كبيرة.

رابعها: أن يأتي بكبيرة واحدة وصغائر.

خامسها: أن يأتي بكبائر وصغائر، وهذا فيه نظر يحتمل إذا لم يجتنب الكبائر أن لا تكفر الكبائر بل تكفر الصغائر، ويحتمل أن لا تكفر شيئا أصلا، والثاني أرجح لأن مفهوم المخالفة إذا لم تتعين جهته لا يعمل به، فهنا لا تكفر شيئا إما لاختلاط الكبائر والصغائر أو لتمحض الكبائر أو تكفر الصغائر فلم تتعين جهة مفهوم المخالفة لدورانه بين الفصلين فلا يعمل به، ويؤيده أن مقتضى تجنب الكبائر أن هناك كبائر، ومقتضى «ما اجتنبت الكبائر» أن لا كبائر فيصان الحديث عنه.

تنبيه: لم أر في شيء من طرقه عند أحد من الأئمة الستة وأحمد بلفظ «ما تقول» إلا عند البخاري، وليس هو عند أبي داود أصلا، وهو عند ابن ماجه من حديث عثمان لا من حديث أبي هريرة، ولفظ مسلم «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل كان يبقى من درنه شيء» وعلى لفظه اقتصر عبد الحق في الجمع بين الصحيحين وكذا الحميدي، ووقع في =

هذا الحديث رواه مسلم وقصد به البخارى الاستدلال على ما ترجم به من أن الصلوات الخمس كفارات للخطايا، وبيان ذلك أنه ﷺ مَثّل الخاطئ المذنب وشبهه إذا صلى الصلوات الخمس بشخص عليه أوساخ، وعلى بابه نهر يغتسل منه كل يوم خمس مرات، ووجه التمثيل والتشبيه أن الأنسان كما يتدنس بالأقذار المحسوسة، والأوساخ المشاهدة فى بدنه وثيابه، فيطهره الماء إذا والى استعماله وواظب على الأغتسال منه كذلك تطهر الصلاة العبد عن أقذار الذنوب حتى لا تبقى له ذنبا إلا أسقطته وكفرته، وفائدة التمثيل التأكيد وجعل المعقول كالمحسوس.

فائدة: إنما تكفر الصلاة الذنوب بشرطين:

أحدهما: إذا صلاهن وحده أو مع الجماعة.

الثانى: إذا صلاهن مع الوضوء ونحوه.

فالوضوء له أيضا دخل فى تكفير الذنوب لأنه يراد به الصلاة فما ظنك بالمراد وهو الصلاة، فإنه أقوى فى التكفير، وأولى بالأسقاط.

فائدة أخرى: كما يطهر الماء الوسخ، وتذهب الذنوب بالوضوء ونحوه، فكذلك يذهب الهموم والغموم الداخلة على العبد أيضا، فإن الهموم أصلها الذنوب.

فائدة أخرى: هذا التكفير للذنوب الصغائر، وأما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة، ويدل على ذلك الحديث الآخر المروي عن أبي هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر**» (١).

وإنما قال: يغتسل فيه كل يوم خمسا ليوافق عدد الصلوات الخمس.

= كلام بعض المتأخرين بعد أن ساقه بلفظ «ما تقولون» أنه في الصحيحين والسنن الأربعة، وكأنه أراد أصل الحديث، لكن يرد عليه أنه ليس عند أبى داود أصلا ولا ابن ماجه من حديث أبي هريرة. ووقع في بعض النسخ المتأخرة من البخاري بالياء التحتانية آخر الحروف «من يقول» فزعم بعض أهل العصر أنه غلط، وأنه لا يصح من حيث المعنى، واعتمد على ما ذكره ابن مالك مما قدمته، وأخطأ في ذلك، بل له وجه وجيه، والتقدير ما يقول أحدكم في ذلك. والشرط الذي ذكره ابن مالك وغيره من النحاة إنما هو لإجراء فعل القول مجرى فعل الظن كما تقدم، وأما إذا ترك القول على حقيقته فلا، وهذا ظاهر، وإنما نبهت عليه لئلا يغتر به. انظر فتح الباري (٢/١١ - ١٣).

(١) أخرجه مسلم (١/٢٠٩، رقم ٢٣٣)، والترمذى (١/٤١٨، رقم ٢١٤)، وأحمد (٢/٤٠٠، رقم ٩١٨٦)، والبيهقى (١٠/١٨٧، رقم ٢٠٥٤٨).

لطيفة مناسبة: قال فى نزهة المجالس: كان عيسى على شاطئ البحر، فرأى طيرا من نور قد أنغمس فى الطين، ثم خرج وأغتسل، فعاد إلى حسنه، وهكذا خمس مرات، فتعجب من ذلك، فقال جبريل: يا عيسى إن الطير جعله الله مثلا لمن صلى الصلوات الخمس من أمة محمد ﷺ فالطين كالذنوب، والأغتسال فى البحر كفعل الصلاة.

ففى الحديث المذكور دلالة على فضل الصلاة وبركتها ونفعها لمن حافظ عليها حيث أنها تكفر عنه الخطايا، وقد دل على فضلها ونفعها وتكفيرها للخطايا أخبار أخرى كثيرة من الكتاب والسنة:

قال الله تعالى ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾[هود: ١١٤].

قال المفسرون: المراد بالآية: الصلوات الخمس، وأنها مكفرة للخطايا، والمراد بالطرف الأول من طرفي النهار: صلاة الفجر، وبالطرف الثاني: الظهر والعصر، وبزلفا من الليل: المغرب والعشاء، ومعنى إن الحسنات يذهبن السيئات: أن الصلوت الخمس يكفرن الخطيئات، ومعنى ذكرى للذاكرين: أن الذى ذكرناه فيه عظة للمتعظين، وسبب نزول هذه الآية أن رجلا من الصحابة قبل أمراة أجنبية، فخاف من العقاب فى الدار الأخرة، فأعلم النبي ﷺ فأطرق، فنزلت الآية فأعلمه بذلك وبين له الله أن الصلوات الخمس يكفرها، فإن قبلة المرأة الأجنبية من الصغائر كاللمس ونحوه.

وهذا السبب ورد فى الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود ﷺ أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله تعالى ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾[هود: ١١٤] فقال الرجل يا رسول الله إلي هذا قال لجميع أمتي كلهم (١).

وهذا الرجل الذى قبل المرأة اسمه كعب بن عمرو وكنيته أبو اليسر.

قال الكرمانى: قيل نزلت فى أبي اليسر الأنصاري كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته، فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله. فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل، فقال: انتظر أمر ربي، فلما صلى صلاة العصر نزلت فقال رسول الله ﷺ «**اذهب فإنها**

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٢٧/٤، رقم ٤٤١٠)، ومسلم (٢١١٥/٤، رقم ٢٧٦٣)، والترمذي (٢٨٩/٥، رقم ٣١١٢) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤٤٧/١، رقم ١٣٩٨).

كفارة لما علمت».

وجاء فى رواية أنه ذهب إلى أبي بكر ﷺ ثم إلى عمر ﷺ فأعلمهما بذلك ثم ذهب إلى النبي ﷺ فأعلمه.

فقد أخرج النسائي والترمذي من حديث بن وهب عن موسى بن طلحة عن أبي اليسر قال أتتني امرأة تبتاع تمرا فقلت أن فى البيت تمرا أطيب منه فدخلت معى فى البيت فاهويت إليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت له فقال استر على نفسك ولا تخبر أحدا فلم أصبر فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال أخلفت غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظن أنه من أهل النار قال وأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحي إليه ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾[هود: ١١٤] قال أبو اليسر فأتيته فقرأها على رسول الله ﷺ فقال أصحابه يا رسول الله لهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة [(١)].

وجاء فى رواية أنه لما قبل المرأة ناشدته فقالت له: إنما أنا أمك - وإنما قالت له ذلك لأن النبي ﷺ كان يقول: نساء المجاهدين على القاعدين فى الحرمة كأمهاتهم - وكان رسول الله ﷺ قد بعث زوج المرأة فى غزوة من الغزوات فهى من نساء المجاهدين.

وقال تعالى ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾[العنكبوت: ٤٥].

الفحشاء: ما قبح من الأعمال.

والمنكر: ما لا يعرف فى الشرع.

قال ابن مسعود وابن عباس: فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف و لم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته إلا بعدا من الله.

قال الحسن وقتادة: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه.

وروى عن أنس بن مالك قال: كان فتى من الأنصار يصلى الصلوات مع رسول الله ﷺ، ثم لا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه، فوصف لرسول الله ﷺ حاله فقال: إن

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/٢٩٢، رقم ٣١١٥) وقال: حسن صحيح. والنسائي في السنن الكبرى (٤/٣١٧، رقم ٧٣٢٢).

صلاته تنهاه يوما فلم يلبث أن تاب وحسن حاله. فقال: ألم أقل لكم إن صلاته تنهاه يوما.

وقول الله تعالى: أقم الصلاة لذكرى. يعنى أن المراد من الصلاة ذكر الله كما جاء فى الحديث عن النبي ﷺ أنه قال «**أنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لأقامة ذكر الله**».

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[آل عمران: ٢٠٠].

إن المراد بها الصلوات الخمس أى أصبروا على صلاة الصبح، وصابروا على صلاة الظهر، ورابطو على صلاة العصر، واتقوا الله فى صلاة المغرب لعلكم تفلحون لصلاة العشاء.

وقال رسول الله ﷺ «**ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئا أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها ما تعبد بها ملائكته فمنهم راكع وساجد وقائم وقاعد**» (١).

وفى بعض الأخبار: إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وإن المصلى لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، وينادى مناد لو يعلم المناجى من يناجي ما التفت، فإن أبواب السماء تفتح للمصلى، وإن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين.

وفى التوراة: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا، فإن الله تعالى الذي اقترب من قلبك، وبالغيب رأيت من نوري، فكانوا يرون تلك الرقة والبكاء وذلك الفتوح الذي يجده المصلى فى قلبه من دنو الرب من القلب.

قال محمد بن على الترمذى: دعا الله تعالى الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم، وهيأ لهم فيها ألوان الضيافات لينال العبد من قول وفعل شيئا من عطاياه، فالأفعال كالأطعمة، والأقوال كالأشربة، وهى عرس الموحدين هيأها رب العالمين لأجل رحمته كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس.

وقال أبو طالب المكي: حدثت أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١/١٦٥، رقم ٦١٠) عن أبي سعيد.

فى أقطار الأرض خوفا منه لأنه يتأهب للدخول على الملك، فإذا أكبر حجب عنه إبليس، وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر اليه، وواجهه الجبار بوجهه فإذا قال الله أكبر اطلع الملك فى قلبه، فإذا كان ليس فى قلبه أكبر من الله، فيقول الملك صدقت الله أكبر فى قلبك كما تقول قال فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش، فينكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات.

قال: فإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل، فإذا كبر اطلع الملك فى قلبه إذا كان شيء فى قلبه أكبر من الله عنده، فيقول الملك كذبت ليس الله فى قلبك كما تقول قال فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء، فيكون حجابا، فيرد ذلك الحجاب صلاته، ويلتقم الشيطان قلبه، ولا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه ويزين له حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيها.

وقد لوح إلى معانى هذه الأخبار والآثار العلامة الولي ابن عطاء الاسكندري فى الحكم حيث قال: الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب، واستفتاح لباب الغيوب ؛ الصلاة معدن المناجاة، ومحل المصافاة يتسع فيها ميادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار ؛ الصلاة تجلب الرزق من حيث لا تحتسب.

قال ابن القيم فى الهدى: أربعة تجلب الرزق قيام الليل، وكثرة الاستغفار بالأسحار، وتعاهد الصدقة، والذكر أول النهار وأخره، وأربعة تمنع الرزق نوم الصحبة، وقلة الصلاة، والكسل، والخيانة.

لطيفة: قال ابن عطاء الله في لطائف المنن: إذا صلى المؤمن صلاة، وتقبلها الله تعالى منه خلق من صلاته صورة فى الملكوت راكعة ساجدة إلى يوم القيامة ويكون ثواب ذلك لصاحب الصلاة.

وقال: إذا صلى العبد فى مكان ومات بكى عليه ذلك المكان، وإذا وقف العبد يصلى فى بقعة من الأرض افتخرت تلك البقعة على ما حولها من البقاع، ويشهد لذلك كله ما نقل عن سيدنا على أنه قال: إذا مات العبد بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء، ثم تلى ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ [الدخان:٢٩].

قال ابن عباس: تبكى عليه الأرض أربعون صباحا.

وقال عطاء الخراسانى: ما من عبد سجد لله سجده فى بقعة من بقاع الأرض إلا

شهدت به يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت.

وما نقل عن أنس أنه قال: ما من بقعة يذكر الله عليها بصلاة أو ذكر إلا افتخرت على ما حولها من البقاع، واستبشرت بذكر الله عز وجل من منتهاها إلى سبع أرضين، وما من عبد يقوم يصلى إلا تزخرفت له الأرض.

ويقال: ما من منزل ينزله قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم.

قال نزهة المجالس: قال فى الترغيب والترهيب: جاء فى الحديث يقول الله تعالى «إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي و لم يستطل على خلقي و لم يبت مصرا على معصيتي وقطع نهاره فمن ذكرني ورحم الأرملة والمسكين وابن السبيل والمصاب ذلك نوره كنور الشمس أكلاؤه بعزتي واستحفظه ملائكتي اجعل له فى الظلمة نورا وفى الجهالة حلما ومثله فى خلقي كمثل الفردوس فى الجنة» [(١)].

وحكى الغزالي فى كتابه الأحياء هذا عن سيدنا داود عليه السلام وزاد فيه: وكف نفسه من الشهوات من أجلى، ويطعم الجائع، ويأوى الغريب فكذلك يضئ نوره فى السماء كالشمس إن دعاني لبيته وإن سالني أعطيته.

لطيفة أخرى: قال بعض العلماء ستة أشياء تبعد العبد من الله تعالى: النجاسة والدنيا والنفس والهوى وسوء الخلق والشيطان.

فإذا تطهر للصلاة خرج من النجاسة، وإذا استقبل القبلة خلص من الدنيا، وإذا كبر خلص من النفس، وإذا قرأ وجهت وجهي أو سبحانك خلص من الهوى، وإذا قرأ القرآن خلص من سوء الخلق واشتغل عن الخلق، وإذا ركع ظهر له علم العبودية، وإذا سجد قرب من المحبوب، فالله تعالى أمر عبده بالصلاة حتى يكون بين العبد وبين مولاه مواصلة لأنها أركان متصلة الأول اتصال الماء بالأعضاء وهى الطهارة متصلة

---

(١) أخرجه ابن عدى (٤٢٠/٢، ترجمة ٥٣٧ حنظلة بن أبى سفيان الجمحى) وقال: ولحنظلة أحاديث صالحة وإذا حدث عنه ثقة فهو مستقيم الحديث. وأبو نعيم في الحلية (١٨/٤) عن علي.
وأخرجه الديلمى (١٧٩/٣، رقم ٤٤٨٥) عن حارثة بن وهب.
وأخرجه البزار عن ابن عباس كما في مجمع الزوائد (١٤٧/٢) قال الهيثمي: رواه البزار وفيه عبد الله بن واقد الحراني ضعفه النسائي والبخاري وإبراهيم الجوزجاني وابن معين في وراية، ووثقه أحمد وقال: كان يتحري الصدق وأنكر على من تكلم به وأثنى عليه خيرا وبقية رجاله ثقات. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٠٤/١، رقم ٧٧١): رواه البزار من رواية عبد الله بن واقد الحراني وبقية رواته ثقات.

بالاستقبال هكذا إلى آخر التسليم والتسليم متصل بالدعاء والدعاء متصل بالإجابة والإجابة بالقربة والقربة بالوصلة والوصلة بالمشاهدة والمشاهدة بالدهشة والدهشة بالحيرة وهو الاستغراق باللذة وثمرة ذلك الخشوع بين يدى من يجب له الخضوع بشارة.

قال ابن الجوزي فى كتابة سوق العروس: إذا قام العبد إلى الصلاة تقول الملائكة: إلهنا عبد خاطئ عاص قام إلى الصلاة. فيقول الله عز وجل: ملائكتي أرفعوا الذنوب عن عنقه، واعزلوها عنه حتى يصلى طاهرا. فإذا قال: الله أكبر خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. ويقول الله تعالى: صدق عبدي أنا أكبر من كل كبير. فإذا قال: وجهت وجهي. يقول الله تعالى: عبدي قد وجهت وجهك إلي وأنا قد وجهت رحمتى إليك. فإذا استعاذ من الشيطان كتب الله له بكل شعرة على جسده حسنة، فإذا قرأ الفاتحة فكأنما حج واعتمر، وإذا ركع فكأنما تصدق بوزنه ذهبا، فإذا سبح فى ركوعه فقال سبحان ربي العظيم ثلاث مرات فكأنما قرأ كل كتاب أنزل من السماء إلى الأرض، فإذا رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد كثير طيبا مباركا فيه نظر الله إليه بالرحمة وكتب له بكل حرف حسنة ومحيت عنه سيئة، وإذا سجد أعطاه الله تعالى بعدد الشياطين والجن حسنات، وإذا قال فى سجوده سبحانك ربي الأعلى ثلاث مرات، فكأنما أعتق بكل سورة وآية فى القرآن رقبة فإذا تشهد أعطاه الله ثواب الصابرين، فإذا سلم فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء، فإذا فرغ من الصلاة تقول الملائكة إلهنا عبدك فلان قد قضى ما عليه وأنت أعلم به ما تأمرنا نفعل فى ذنوبه التي أمرتنا أن نرفعها عنه نردها عليه أم لا فيقول الله عز وجل ملائكتي أنا أكرم من ذلك لا يليق بكرمي أن أرفع عن عبدى شيئا يؤذيه وأرده عليه وأنا أرحم الراحمين أشهدكم أني قد محوت عنه جميع ذنوبه.

وقال عبد الرحمن فى مسنده: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال رأيت كأن رجلا من أمتى قد احتوشته زبانية العذاب وساقته إلى النار على وجهه وهو يستغيث فإذا شيء قد أقبل فاستنقذه من أيديهم فقلت ما هذا الذي استنقذه قال صلاته التي صلاها. والله أعلم.

***

المجلس الخامس والخمسون

في ذكر فضائل فعل الصلاة في أول وقتها
وفي ذكر المسائل التي يستحب فيها تأخيرها عن أول وقتها
وفي ذكر شيء من فضائل الصيف والشتاء

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ **«إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»**.

«وَاشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً. فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ»(١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «واشتكت النار» في رواية الإسماعيلي «قال واشتكت النار» وفاعل قال هو النبي ﷺ وهو بالإسناد المذكور قبل، ووهم من جعله موقوفا أو معلقا. وقد اختلف في هذه الشكوى هل هي بلسان المقال أو بلسان الحال ؟ واختار كلا طائفة. وقال ابن عبد البر: لكلا القولين وجه ونظائر، والأول أرجح. وقال عياض: إنه الأظهر. وقال القرطبي: لا إحالة في حمل اللفظ على حقيقته. قال: وإذا أخبر الصادق بأمر جائز لم يحتج إلى تأويله، فحمله على حقيقته أولى. وقال النووي نحو ذلك ثم قال: حمله على حقيقته هو الصواب. وقال نحو ذلك التوربشتي، ورجح البيضاوي حمله على المجاز فقال: شكواها مجاز عن غليانها، وأكلها بعضها بعضا مجاز عن ازدحام أجزائها، وتنفسها مجاز عن خروج ما يبرز منها. وقال الزين بن المنير: المختار حمله على الحقيقة لصلاحية القدرة لذلك، ولأن استعارة الكلام للحال وإن عهدت وسمعت، لكن الشكوى وتفسيرها والتعليل له والإذن والقبول والتنفس وقصره على اثنين فقط بعيد من المجاز خارج عما ألف من استعماله.

قوله «بنفسين» النفس معروف وهو ما يخرج من الجوف ويدخل فيه من الهواء.

قوله «نفس في الشتاء ونفس في الصيف» بالجر فيهما على البدل أو البيان، ويجوز الرفع والنصب.

قوله «أشد» يجوز الكسر فيه على البدل، لكنه في روايتنا بالرفع. قال البيضاوي: هو خبر مبتدأ محذوف تقديره فذلك أشد. وقال الطيبي: جعل أشد مبتدأ محذوف الخبر أولى، والتقدير أشد ما تجدون من الحر من ذلك النفس. قلت: يؤيد الأول رواية الإسماعيلي من هذا الوجه بلفظ «فهو أشد» ويؤيد الثاني رواية النسائي من وجه آخر بلفظ «فأشد ما تجدون من الحر من حر جهنم» وفي سياق المصنف لف ونشر غير مرتب، وهو مرتب في رواية النسائي.

والمراد بالزمهرير شدة البرد، واستشكل وجوده في النار، ولا إشكال لأن المراد بالنار محلها،=

قال العلماء: يستحب تعجيل الصلاة لأول وقتها، بل هو أفضل، ولو كانت عشاء؛ لقوله تعالى ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ**﴾[البقرة: ٢٣٨].

ومن المحافظة على الصلوات تعجيلها.

ولقول ابن مسعود ﷺ سألت رسول الله ﷺ «أي الأعمال أفضل قال الصلاة لأول وقتها» (١) رواه الدارقطني وغيره.

وعن ابن عمر مرفوعا «**الصلاة في أول الوقت رضوان الله وفي أخره عفو الله**» (٢) رواه الترمذي.

قال الشافعي رضوان الله عليه: رضوان الله إنما يكون للمحسنين، والعفو يشبه أن يكون للمقصرين، وشتان ما بين المقامين.

والدليل على استحباب العشاء في أول وقتها زيادة على ما تقدم ما رواه أبو داود بإسناد صحيح قال «**كان رسول الله ﷺ يصلى العشاء لسقوط القمر الثالثة**» (٣).

سؤال فإن قيل جاء في الحديث كما رواه أبو داود «**أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر**» (٤). فهذا يدل على أن تأخير الفجر عن أول وقتها إلى الأسفار أفضل.

= وفيها طبقة زمهريرية، وفي الحديث رد على من زعم من المعتزلة وغيرهم أن النار لا تخلق إلا يوم القيامة.

تنبيهان

الأول: قضية التعليل المذكور قد يتوهم منها مشروعية تأخير الصلاة في وقت شدة البرد، ولم يقل به أحد، لأنها تكون غالبا في وقت الصبح فلا تزول إلا بطلوع الشمس، فلو أخرت لخرج الوقت.

الثاني: النفس المذكور ينشأ عنه أشد الحر في الصيف، وإنما لم يقتصر في الأمر بالإبراد على أشده لوجود المشقة عند شديده أيضا، فالأشدية تحصل عند التنفس، والشدة مستمرة بعد ذلك فيستمر الإبراد إلى أن تذهب الشدة، والله أعلم. انظر فتح الباري (٢/١٨، ١٩).

(١) أخرجه الدارقطني (١/٢٤٧)، وابن خزيمة (١/١٦٩، رقم ٣٢٧)، وابن حبان (٤/٣٣٩، رقم ١٤٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي (١/٣٢١، رقم ١٧٢). وأخرجه أيضًا: الدارقطني (١/٢٤٩)، والبيهقي (١/ ٤٣٥، رقم ١٨٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود (١/١١٤، رقم ٤١٩). وأخرجه أيضا: الترمذي (١/٣٠٦، رقم ١٦٥)، والنسائي (١/٢٦٤، رقم ٥٢٨) عن النعمان بن بشير.

(٤) أخرجه أبو داود (١/١١٥، رقم ٤٢٤). وأخرجه أيضا: الترمذي (١/٢٨٩، رقم ١٥٤)، والنسائي (١/٢٧٢، رقم ٥٤٨)، وابن ماجه (١/٢٢١، رقم ٦٧٢)، وابن حبان (٤/٣٥٥،=

جوابه أن المراد بالإسفار فيه ظهور الفجر الذي به يعلم طلوعه لا الإضاءة، فالتأخير إلى وقت يتعين فيه دخول الوقت أفضل من التعجيل مع ظن دخوله.

وأيضا هذا الحديث معارض بما ذكرناه من الأحاديث وبغيره إن أريد بالأسفار الإضاءة.

سؤال فإن قيل: كيف يشكل على القول باستحباب تعجيل العشاء خبر الصحيحين «**كان رسول الله ﷺ يستحب أن يؤخر العشاء**» (١).

جوابه: إن تعجيلها هو الذي واظب عليه النبي ﷺ وتحصل به فضيلة أول الوقت بأن يشتغل الإنسان بأسباب الصلاة كالطهارة والأذان ونحو ذلك، ولا يكلف العجلة على خلاف العادة، ولا يضر التأخير لأجل شغل خفيف، وكلام قصير، وأكل، وتحقق دخول وقت، وتحصيل ماء، وتقديم دائبة ؛ نعم ذكر العلماء أنه يستحب تأخير الصلاة عن أول وقتها في صور منها:

الإبراد بالظهر أي تأخيره إلي أن يصير للحيطان ظل يمشى فيه، ولا يؤخر عن نصف الوقت ودليله قوله ﷺ كما رواه البخاري هنا في هذا الحديث وغيره «**إذا أشتد الحر فأبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم**» (٢).

أي من هيجانها وغليانها وانتشار لهبها أجارنا الله منها، والمراد بالصلاة في هذا الحديث صلاة الظهر، فقد جاء في رواية للبخاري «**بالظهر**» فلا يستحب الإبراد في غيرها من الصلوات، ولا في صلاة الجمعة لما ورد في الصحيحين عن سلمة بن الأكوع «**كنا نجمع مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشمس**» (٣).

= رقم ١٤٨٩)، وأحمد (٤/١٤٠، رقم ١٧٢٩٦)، والطبراني (٤/٢٥٠، رقم ٤٢٨٥) عن رافع بن خديج.

(١) أخرجه البخاري (١/٢١٥، رقم ٥٧٤)، ومسلم (١/٤٤٧، رقم ٦٤٧) عن أبي برزة.

(٢) أخرجه البخاري (١/١٩٨، رقم ٥١٠)، ومسلم (١/٤٣٠، رقم ٦١٥)، وأبو داود (١/١١٠، رقم ٤٠٢)، والترمذي (١/٢٩٥، رقم ١٥٧) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١/٢٤٨ رقم ٥٠٠)، وابن ماجه (١/٢٢٢ رقم ٦٧٧)، ومالك (١/١٦، رقم ٢٩)، والشافعي (١/٢٧)، وأحمد (٢/٢٣٨، رقم ٧٢٤٥)، وابن حبان (٤/٣٧٣، رقم ١٥٠٦) عن أبي هريرة.

وأخرجه البخاري (١/١٩٩ رقم ٥١١)، ومسلم (١/٤٣١ رقم ٦١٦)، وأبو داود (١/١١٠ رقم ٤٠١)، والترمذي (١/٢٩٧ رقم ١٥٨) وقال: حسن صحيح. وأحمد (٥/١٥٥ رقم ٢١٤١٣)، وابن حبان (٤/٣٧٦ رقم ١٥٠٩) عن أبي ذر.

(٣) أخرجه البخاري (٤/١٥٢٩، رقم ٣٩٣٥)، ومسلم (٢/٥٨٩، رقم ٨٦٠) واللفظ له.

ولأن تأخيرها معرض لفواتها بالتكاسل عنها.

ولأن الناس يبكرون إليها، فلا يتأذون بالحر.

فإن الحكمة في الإبراد بالظهر أن الحركة في وقت الظهيرة فيه مشقة سالبة للخشوع، فاستحب تأخيرها إلى أن يزول هذا الوقت، والناس في صلاة الجمعة يبكرون إليها، فيأتون إليها قبل هذا الوقت، فلا يتضررون.

سؤال فإن قيل جاء في الصحيحين أنه ﷺ يبرد بها ؟

جوابه أنه فعل ذلك بيانا للجواز فيها جمعا بين الأدلة.

وإنما يستحب الإبراد بشروط:

الأول: في البلد الحار كالحجاز وبعض العراق، قاله في البويطي، وفي الوقت الحار فلا يسن في وقت ولا بلد باردين أو معتدلين.

الثاني: أن يقصد صلاة الظهر مع الجماعة في المسجد ونحوه، فلا يسن الإبراد لمن يصلى في بيته منفردا أو مع الجماعة.

فلو قصد الصلاة في المسجد منفردا هل يستحب له الإبراد ؟

ظاهر كلام النووي في المنهاج أنه لا يستحب ؛ لكن قال الأسنوي: وفي كلام الرافعي إشعار باستحبابه، وهو الأوجه.

الثالث: أن يحصل للجماعة أو بعضهم مشقة في ذهابهم إلى المسجد ونحوه، فلا يسن الإبراد لجماعة حضروا في مسجد لا يأتيه غيرهم، ولا لمن يأتيهم غيرهم إذا كانت منازلهم قريبة من المسجد، ولا لمن بعدت منازلهم إذا كانوا يمشون في ظل ؛ نعم الإمام الحاضر في المسجد الذي يقصده الجماعة من بعد يسن له الإبراد أيضا اقتداء بالنبي ﷺ.

فائدة: لا يستحب الإبراد بالأذان كما صرح به في المطلب وأفهمه كلام الفقهاء، وأما ما ورد من أنه ﷺ أمر بالإبراد به، فهو محمول على ما إذا علم من حال السامعين حضورهم عقب الأذان لتندفع عنهم المشقة، وحمله بعضهم على الإقامة، فقد جاء في رواية في الترمذي التصريح به.

ومنها بمنى فإنه يقدم الرمي في أيام التشريق إذا زالت الشمس عن صلاة الظهر كما قاله في شرح المهذب.

ومنها إذا فقد الماء في أول الوقت، وتحقق وجوده آخره، فتأخير الصلاة ليصليها بوضوء أفضل من تعجيلها في أول الوقت بالتيمم ؛ نعم إذا صلاها بالتيمم أوله أعادها

بالوضوء آخره، فهو النهاية في إحراز الفضيلة.

ومنها إذا فقد ما يستر به عورته أول الوقت وتحقق وجوده آخره، فالأفضل التأخير ليصلي مستترا، فلو صلى عريانا في أوله جاز.

ومنها إذا كان يتحقق الصلاة مع الجماعة آخر الوقت، ولو صلى أول الوقت صلى وحده، فالتأخير لإدراك الجماعة أولى ؛ نعم لو وجد أول الوقت جماعة يسيرة لم يؤخر للكثيرة نص عليه الشافعي.

ومنها إذا كان عاجزا أول الوقت عن القيام لمرض به، وغلب على ظنه حصول الشفاء آخره، فتأخير الصلاة عن أوله ليصليها قائما آخره، أفضل من فعلها قاعدا أوله.

ومنها إذا كان سائرا أول وقت الصلاة فإن يؤخرها إلى أن ينـــزل آخره ويصليها مطمئنا.

ومنها إذا كان في يوم غيم، ولو صلى أول الوقت صلى بالاجتهاد، ولو صلى آخره صلى بيقين دخول الوقت، فتأخيره الصلاة ليصليها بيقين دخول الوقت أفضل من تعجيلها بالاجتهاد لاحتمال وقوع الغلط به.

ومنها دائم الحدث إذا كان يرجو الشفاء آخر الوقت، فتأخير صلاته أولى من فعلها مع الحدث الدائم أوله.

ومنها إذا كان عنده حيوان مأكول أشرف على الموت، وقد دخل وقت الصلاة، فإنه يشتغل بذبحه عنها أول الوقت لئلا تضيع ماليته.

ومنها إذا نزل به ضيف فإنه لا يشتغل بالصلاة أول الوقت، بل ينبغي أن يشتغل به حتى يؤديه ويطعمه.

قال ابن العماد في شرح سيرته: فقد ترك النبي ﷺ ركعتي الظهر لأجل وفد عبد القيس لما قدموا عليه، وقال: شغلني عنهما وفد عبد القيس. وقضاهما بعد العصر، وواظب عليهما وقال تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿**فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ**﴾ [الذاريات: ٢٦].

ففي الآية دليل على استحباب المبادرة إلى قرى الضيف لأن الروغان هو الذهاب بسرعة.

وقد ذكر الغزالي في الإحياء: أن خمسة يستحب تعجيلها وهي: دفن الميت، وقضاء الدين، والتوبة، وتزويج البكر، وقرى الضيف.

ومنها إذا كان عنده تغير بغضب ونحوه، فينبغي تأخير الصلاة حتى يذهب

الغضب، وهذا كما يكره للقاضي أن يقضي في حال غضبه، وهكذا إذا كان عنده تعب في أول الوقت فإنه يؤخر الصلاة حتى يزول، ولذلك قال ﷺ «**إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون**» [(١)].

لأن السعي، وهو شدة المشي يحصل للإنسان بها لهث وتعب، وذلك يمنع الخشوع.

ومنها إذا كان عنده مريض لا متعهد له، فإنه يترك الصلاة أول الوقت حتى يجد من يقوم مقامه في ذلك.

ومنها إذا كان عنده مال يخاف عليه أن يفارقه، فيترك الصلاة أول الوقت حتى يجد من يحفظه.

ومنها إذا كان أول الوقت في أرض مغصوبة كان دخلها بغير إذن مالكها، فيؤخرها حتى يخرج منها.

ومنها إذا حضرت الجنازة أول الوقت، فإنه يقدم صلاتها ودفنها على الفرضية حتى على صلاة الجمعة إن لم يضيق وقتها.

ومنها إذا كان عليه فائتة، فإن يستحب تقديمها على الحاضرة، وتأخير الحاضرة عن أول الوقت حتى يفرغ من الفائتة، ولو خشي فوات جماعة الحاضرة كما قال في الروضة.

قال ابن العماد: وهو الصواب، وإن خالف الغزالي في ذلك في الإحياء.

ومنها إذا غربت عليه الشمس بعرفة استحب له أن يؤخر المغرب ليصليها بمزدلفة جمعا.

ومنها أن صلاة خسوف الشمس والقمر تقدم على الصلاة أول الوقت.

ومنها المواضع التي تكره الصلاة فيها كالمقبرة والمجزرة، وديار ثمود وقوم لوط ونحوها، فإنه إذا كان في هذه الأماكن أول الوقت أخر الصلاة عنه حتى يخرج منها.

ومنها غير ذلك، وقد وصل ابن العماد الصور التي يستحب فيها التأخير عن أول الوقت إلى نحو خمسين صورة، وقال في آخرها: وكذلك يؤخر لسقي البهائم من

---

(١) أخرجه البخاري (١/٣٠٨، رقم ٨٦٦)، ومسلم (١/٤٢٠، رقم ٦٠٢)، وأبو داود (١/١٥٦، رقم ٥٧٢)، والترمذي (٢/١٤٨، رقم ٣٢٧)، والنسائي (٢/١١٤، رقم ٨٦١)، وابن ماجه (١/٢٥٥، رقم ٧٧٥)، وعبد الرزاق (٢/٢٨٨، رقم ٣٤٠٣)، وأحمد (٢/٢٣٧، رقم ٧٢٢٩)، وابن حبان (٥/٥٢٢، رقم ٢١٤٨)، وأبو عوانة (١/٤١٦، رقم ١٥٤٠) عن أبي هريرة.

عطش، ولقتل الحية والعقرب، ولرد الودائع والعواري، قال: ويفرغ قلبه من كل ما يشوش في الصلاة.

قوله «**واشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضا**».

اختلف العلماء في الاشتكاء هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال ؟

قال النووي: والصواب أنه بلسان المقال إذ لا مانع من الحقيقة، ومعناه أن الله تعالى جعل في النار إدراكا وتمييزا بحيث تكلمت بهذا.

وهنا فوائد:

الأولى: النار جوهر لطيف حار محرق، واشتقاقه من نار ينور ؛ لأن فيه حركة واضطرابا، والنور مشتق منها، وهو ضوءها.

الثانية: نار الدنيا جزء من سبعين جزء من نار جهنم، وغسلت بالبحر مرتين حتى أشرقت، وخف حرها، ولولا ذلك ما انتفع بها أهل الدنيا، وهى تدعو الله أن لا يعيدها إليها.

قال بعض السلف: لو أخرج أهل النار منها إلى نار الدنيا لقالوا فيها ألفي عام، يعنى أنهم كانوا ينامون فيها ويرونها بردا. قاله ابن رجب.

قال الكسائي: إن الله تعالى لما خلق آدم وشكا الجوع جاءه جبريل بشرد من جهنم، فوضعه في يد آدم، فطارت منه الشرد، فوقعت في البحر، فدخل جبريل الماء، فجاء بها، فدفعها إلى آدم، فطاردت منه أيضا، فوقعت في البحر حتى فعلت سبع مرات فلذلك قال النبي ﷺ «**إن ناركم هذه من سبعين جزء من نار جهنم بعد أن غسلت بالماء سبع مرات**» [(١)].

فلما جاء بها جبريل في المرة السابعة نطقت النار فقالت: يا آدم لا أطيعك، وإني منتقمة من عصاة أولادك يوم القيامة. فقال جبريل: إنها لا تطيعك، ولكني أسجنها لك ولأولادك فيها المنافع، فسجنها في الحجر والحديد، فذلك قوله تعالى ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ**﴾ [الواقعة ٧١ - ٧٣].

وروى أن آدم لما أخذ النار احترقت يده فخل عنها، فقال لجبريل: ما لها تحرق يدي، ولا تحرق يدك ؟ قال: لأنك عصيت الله و لم أعصه انتهى.

---

(١) أخرجه بنحوه إسحاق بن راهويه (١/٣٠٨، رقم ٢٨٨)، وأحمد (٢/٢٤٤، رقم ٧٣٢٣) عن أبي هريرة.

الثالثة: التراب أفضل من النار من وجوه:

الأول: أن الجنة موصوفة بأن ترابها مسك، و لم ينقل أن فيها نار، واعترض على هذا بالأحاديث الواردة في اللحم المشوي في الجنة كيف يشوى لو لم يكن فيها نار ؟

وأجيب بأنه يحتمل أن يشوى خارج الجنة أو خلقه الله بكلمة كن.

الثاني: أنها سبب العذاب بخلاف التراب، وقد ذكرنا أوجها أخرى في التفضيل في كتابنا تحفة الأخيار.

الرابعة: في الحديث دلالة على وجود النار الآن، وهو مذهب أهل السنة، فإن طائفة من المعتزلة والقدرية ذهبوا إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما يخلق الجنة والنار يوم القيامة لأنه يوم الجزاء قالوا: ولا فائدة في خلقهما الآن بل هو عبث، ومذهبهم مردود باطل بأدلة منها الحديث المذكور هنا، وسنذكر الأدلة التي استدل بها أهل السنة في الكلام على أحاديث الجنائز، ونذكر ما قاله العلماء في محل الجنة والنار إن شاء الله تعالى.

وقوله «**فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فهو أشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير**».

الحكمة في هذين النفسين أن يتذكر الإنسان بشدة الحر والبر شدة حر النار وبردها، فيرجع عن المعاصي، ويقبل على الطاعات، فإن الله سبحانه وتعالى خلق لعباده داري الجنة والنار يجازيهم فيه بأعمالهم مع البقاء في الدارين من غير موت، وخلق قبل تلك الدارين دارا معجلة للأعمال، وجعل فيها موتا وحياة، وابتلى عباده فيها بما أمرهم به، ونهاهم عنه، وأوجب عليهم الإيمان بتلك الدارين المخلوقتين كما أنزل بذلك الكتب، وأرسل بذلك الرسل، وأقام علامات وأمارات تدل على وجود تلك الدراين، فإحدى الدارين دار نعيم محض لا يشوبه ألم، والأخرى دار عذاب محض لا يشوبه راحة، وجعل هذه الدار المعجلة الفانية ممزوجة بالنعيم والألم، وجعل فيها أشياء كثيرة تذكر بتلك الدارين الباقيتين، فما فيها من النعيم يذكر بنعيم الجنة، وما فيها من الألم يذكر فيها بألم النار، فمما يذكر بالجنة ونعيمها أمكنة وأزمنة:

أما الأمكنة فهي أن الله سبحانه وتعالى خلق بعض البلدان كالشام وغيرها فيها من المطاعم والمشارب والملابس وغير ذلك من نعيم الدنيا ما يذكر بنعيم الجنة.

وأما الأزمنة فكزمن الربيع، فأنه يذكر طيبه بنعيم الجنة وطيبها، وكأوقات الأسحار فإن بردها يذكر ببرد الجنة.

جاء في حديث أخرجه الطبراني «**أن الجنة تفتح كل ليلة في السحر فينظر إليها ويقول لها ازدادي طيبا لأهلك**». فذلك برد السحر الذي يجده الناس.

ومما يذكر بالنار المعدة لمن عصاه أماكن وأجسام وأزمان:

أما الأماكن فكثير من البلدان مفرطة الحر والبرد، فبردها يذكر بزمهرير جهنم، وحرها يذكر بحر جهنم وسمومها، وبعض البقاع أيضا بالنار كالحمام، فلهذا كان السلف يذكرون النار بدخول الحمام، فيحدث ذلك لهم عبادة.

وقال أبو هريرة: نعم البيت الحمام يدخله المؤمن فيزيل به الدرن، ويستعيذ بالله من النار.

فائدة: في المعنى تزوج بعض الصالحين، فدخل الحمام، ثم دخل على زوجته تلك الليلة، فقام يصلى حتى أصبح، وقال: دخلت بالأمس بيتا ذكرني النار، ودخلت الليلة بيتا فذكرت به الجنة، فلم يزل فكرى فيهما حتى أصبحت.

وكان بعض السلف إذا أصابه كرب في الحمام يقول: يا بر يا رحيم من علينا، وقنا عذاب الجحيم.

وأما الأزمان فشدة الحر تذكر بما في جهنم من الحر والزمهرير، فإن شدتهما من تنفس النار كما دل عليه الحديث المذكور حيث قال فيه «**فأذن لها بنفسين... إلى أخره**».

فائدة أخرى:

قال الحسن: كل برد أهلك شيئا فهو من نفس جهنم، وكل حر أهلك شيئا فهو من نفس جهنم.

وأما الأجسام المذكوة بالنار فكثيرة منها الشمس عند اشتداد حرها، وقد روى أنها خلقت من النار وتعود إليها وخرج الطبرانى بإسناده أن رجلا في عهد رسول الله ﷺ نزع ثيابه ثم تمرغ في الرمضاء أي عاقب نفسه بالتمرغ في شدة الحر على الأرض الشديدة الحرارة، وهو يقول لنفسه: ذوقي عذاب ؛ نار جهنم أشد حرا، جيفة بالليل بطالة بالنهار، فرأه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله غلبتني نفسي. فقال النبي ﷺ «**فتحت لك أبواب السماء وباهى الله بك الملائكة**».

ونقل عن الحسن أنه قال: كان عمر ربما توقد له النار ثم يدلي يده منها، ثم يقول: يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر ؟

وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح، فيضع إصبعه فيه ويقول: جس. ثم

يعاقب نفسه على ذنوبه.

وقيل: أجج بعض العباد نارا بين يديه، وعاتب نفسه، فلم يزل يعاقبها حتى مات.

فينبغي لمن كان في حر الشمس أن يتذكر حرها يوم الموقف، فإنها تدنو من رؤوس العباد ذلك اليوم، ويزداد حرها، فمن لا يقدر على حرها اليوم كيف يصبر عليه ذلك اليوم ؟

رأى عمر بن عبد العزيز قوما في جنازة قد هربوا من الشمس إلى الظل فأنشد وقال:

من كان حين تصيب الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف الشين والمشعثا

ويألف الظل كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يوما راغما جدثا

في ظل مقفرة غبرة مظلمة ... يطيل تحت الثرى في غمة المبثا

تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثا

واعلم أن فصول السنة أربعة صيف وشتاء وخريف وربيع ذكر منها في هذا الحديث فصلي الصيف والشتاء، وجعل الله لكل فصل منها منافع وفوائد.

أما فصل الصيف فمن فضائله ومنافعه: أن شدة الحر فيه تذكر بحر جنهم.

وأن ثواب الصوم فيه مضاعف لما فيه من ظمأ الهواجر، ولهذا كان معاذ بن جبل يتأسف عند موته على ما يفوته من ظمأ الهواجر.

وكان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ يصوم في الصيف ويفطر في الشتاء.

وكذلك ابنته عائشة رضي الله عنها كانت تصوم في الحر الشديد قبل هجوم الأجل.

وكان بعض الصالحين يصوم في الصيف حتى يسقط.

وحكى الإخباريون أن أبا موسى الأشعري كان في سفينة، فسمع هاتفا: يا أهل المركب قفوا ثلاث مرات. فقال أبو موسى: يا هذا كيف تقف أما ترى ما نحن فيه كيف نستطيع وقوفا ؟ فقال الهاتف: ألا أخبركم بقضاء قضاه الله على نفسه ؟ قال: بلى أخبرنا. قال: فإن الله قضى على نفسه أن من عطش نفسه لله في يوم حار كان حقا على الله أن يرويه يوم القيامة، وكان أبو موسى يتوخى ذلك يوم الحار الشديد الذي يكاد الإنسان ينسلخ منه، فيصومه.

قال كعب الأحبار: إن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام: أني آليت على نفسي أنه من عطش نفسه لي أن أرويه يوم القيامة.

وقيل: مكتوب في التورية طوبى لمن جوع نفسه ليوم الشبع الأكبر، طوبى لمن عطش نفسه ليوم الري الأكبر.

فائدة: نزل الحجاج في بعض أسفاره ما بين مكة والمدينة، فدعا بغدائه، فلما وضع الغداء بين يديه رأى أعرابيا فدعاه إلى الغداء معه، فقال له: دعاني من هو خير منك فأجبته. قال: ومن هو ؟ قال: الله عز وجل دعاني إلى الصيام فصمت. قال: في هذا الحر الشديد ؟ قال: نعم صمت ليوم أشد منه حرا. قال: فأفطر اليوم، وصم غدا ؟ قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غدا أفطرت. قال: ليس ذلك لي. فقال: كيف تسألني عاجلا بأجل لا تقدر عليه.

وقدمنا في ترجمة عبد الله بن عمر أنه خرج في سفر، ومعه أصحابه، فوضعوا سفرة لهم فمر بهم راع أسود صغير، فدعوه إلى أن يأكل معهم. قال: أني صائم. فقال ابن عمر: في مثل هذا اليوم الشديد حره وأنت بين الشعاب في آثار هذه الأغنام أنت صائم ؟ قال: أغتنم الأيام الفانية لأجل الأيام الباقية، فعجب منه ابن عمر فقال: هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه ونعطيك ثمنها ؟ قال: إنها ليست لي إنها لمولاي. قال: فما يقول لك مولاك إن قلت أكلها الذئب ؟ فمضى الراعى، وهو رافع أصبعه إلى السماء وهو يقول: فأين الله ؟ فلم يزل ابن عمر يردد كلمته هذه، فلما قدم المدينة بعث إلى سيد الراعي فاشترى منه الراعي والغنم، فأعتق الراعي، ووهب له الغنم.

وأما الشتاء فقد ورد في فضائله عدة أحاديث:

أخرج الأمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى عن النبي ﷺ قال «**الشتاء ربيع المؤمن**»[(١)].

وأخرجه البيهقي أيضا وزاد فيه «... **طال ليله فقامه وقصر نهاره فصامه**» [(٢)].

إنما كان الشتاء ربيع المؤمن لأن الإنسان يرتع فيه في بساتين الطاعات، ويسرح في

---

(١) أخرجه أحمد (٧٥/٣، رقم ١١٧٣٤). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٣٢٤/٢، رقم ١٠٦١) قال الهيثمي (٢٠٠/٣): رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن. والقضاعي (١١٥/١، رقم ١٤١)، وابن عدي (١١٢/٣ ترجمة ٦٤٧ دراج)، وقال: قال أحمد: أحاديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد فيها ضعف. وأبو نعيم في الحلية (٣٢٥/٨)، والديلمي (٣٧٥/٢، رقم ٣٦٧٢).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤١٦/٣، رقم ٣٩٤٠)، وفي السنن الكبرى (٢٩٧/٤، رقم ٨٢٣٩).

ميادين العبادات، ويتنـــزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه، كما ترتع البهائم في مرعى الربيع، فتسمن وتصلح أجسادها، فكذلك يصلح دين المؤمن في الشتاء بما يسر الله فيه من الطاعات.

أما صيام نهاره فإن المؤمن يقدر في الشتاء على صيام من غير مشقة، ولا كلفة تحصل له من جوع وعطش، فإن نهاره قصير بارد، فلا يحس فيه بمشقة الصيام، وفي المسند والترمذي عن النبي ﷺ قال «**الصيام في الشتاء الغنيمة الباردة**» (١)

ومعنى كونه غنيمة باردة أنها غنيمة حصلت بغير قتال ولا تعب ولا مشقة، فصاحبهما يحوز هذه الغنيمة بغير كلفة.

وأما قيام ليله فلطوله يمكن أن تأخذ النفس فيه حظها من النوم، فيجتمع فيه نومه المحتاج إليه مع إدراك ورده من القرآن، فيكمل له مصلحة دينه، وراحة بدنه بخلاف فصل الصيف، فإنه لقصره وحره يغلب النوم فيه، فلا تكاد تأخذ النفس حظها بدون نومه كله، فيحتاج القائم فيه إلى مجاهدة، وقد لا يتمكن فيه لقصره من الفراغ من ورده من القرآن.

وروى عن ابن مسعود قال: مرحبا بالشتاء تنـــزل فيه البركة ويطول فيه الليل للقيام، ويقصر فيه النهار للصيام.

وعن ابن عمير أنه كان إذا جاء الشتاء يقول: يا أهل القرآن طال ليلكم فقوموا، وقصر نهاركم فصوموا.

ولهذا بكى معاذ وقال: إنما أبكي عن ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ومزاحمة

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢/٣، رقم ٧٩٧) وقال: هذا حديث مرسل عامر بن مسعود لم يدرك النبي ﷺ. وأحمد (٣٣٥/٤، رقم ١٨٩٧٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤١٦/٣، رقم ٣٩٤١)، وفي السنن الكبرى (٢٩٦/٤ رقم ٨٢٣٧) وقال: هذا مرسل. والضياء (٢٠٨/٨ رقم ٢٤٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٢٩/٥، رقم ٢٨٧٥)، والديلمي (٤١٠/٢، رقم ٣٨٢٢) عن عامر بن مسعود.

وأخرجه ابن عدي (٣٧٤/٣ ترجمة ٨٠٥ سعيد بن بشير)، والطبراني في الصغير (٢٦/٢، رقم ٧١٦) قال الهيثمي (٢٠٠/٣): فيه سعيد بن بشير وهو ثقة ولكنه اختلط. وابن عساكر (٤٥٦/٥)، والديلمي (٤١٠/٢، رقم٣٨٢١) عن أنس.

وأخرجه ابن عدي (٢١٩/٣ ترجمة رقم ٧١٤ زهير بن محمد العنبري الخراساني)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤١٦/٣، رقم ٣٩٤٢) عن جابر.

العلماء بالركب.

وقيام ليل الشتاء يشق على النفوس من وجهين أحدهما القيام من الفراش من شدة البرد، والثاني بما يحصل بإسباغ الوضوء في شدة البرد من التألم، وإسباغ الوضوء في شدة البرد من أفضل الأعمال، وكم ورد في فضله من حديث وأثر.

روينا في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط**» [(١)].

وروى أن عمر ﷺ وصى ابنه عبد الله عند موته فقال: يا بني عليك بخصال الإيمان. قال: وما هي ؟ قال: الصوم في شدة الحر في أيام الصيف، وقتل الأعداء بالسيف، والصبر على المصيبة، وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي، وتعجيل الصلاة في يوم الغيم، وترك ردغة الخبال. فقال: وما ردغة الخبال ؟ قال: شرب الخمر.

وروى الأوزاعي عن يحيى بن كثير قال: ست من كن فيه فقد استكمل الإيمان قتل أعداء الله بالسيف، والصيام في الصيف، وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي، والتكبير بالصلاة في اليوم الغيم، وترك الجدال أو المراء وأنت تعلم أنك صادق، والصبر على المصيبة.

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل عن عطاء بن يسار قال: قال موسى عليه السلام: يا رب من هم أهلك الذين تظلهم في ظل عرشك ؟ قال: هم البرية أيديهم الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون لجلالي الذين إذا ذكرت ذكروا بي، وإذا ذكروا ذكرت بذكرهم الذين يسبغون الوضوء في المكاره، وينبيون إلى ذكري كما تنيب النسور إلى أوكارها، ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بحب الناس، ويغضبون لمحارمي إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حرب [(٢)].

فمعالجة الوضوء في جوف الليل للتهجد موجب لرضى الرب، ومباهاة الملائكة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٩/١، رقم ٢٥١). وأخرجه أيضًا: الترمذي (٧٢/١، رقم ٥١)، والنسائي (٩٤/١، رقم ١٣٩)، ومالك (١٦١/١، رقم ٣٨٤)، وعبد الرزاق (٥٢٠/١، رقم ١٩٩٣)، وأحمد (٢٣٥/٢، رقم ٧٢٠٨)، وابن حبان (٣١٣/٣، رقم ١٠٣٨)، وابن خزيمة (٦/١، رقم ٥).

(٢) أخرجه أيضا البيهقي في شعب الإيمان (٧١/٧، رقم ٩٥٢٠).

كان عطاء الخراساني ينادي أصحابه بالليل: يا فلان، ويا فلانة قوموا توضؤا وصلوا، فقيام هذا الليل، وصيام هذا النهار أهون من شرب الصديد، ومقطعات الحديد غدا في النار الوحا الوحا النجا النجا.

ومن الصالحين من منحه الله تعالى ولطف به في الحر والبرد، فلا يجد للبرد ألما لا في ترك لبس، ولا في وضوء، ولا غيره، ولا يجد للحر ألما لا في لبس، ولا في غيره، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يجد حرا، ولا بردا كما دعا النبي ﷺ لعلي أن يذهب عنه الحر والبرد، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يجد حرا، ولا بردا.

وعامة الخلق يجدون للبرد ألما فمن الله عليهم بما يدفعون أذاه من اللباس وغيره، فإنه سبحانه قد امتن على عباده بأنه خلق لهم من أصواف بهيمة الأنعام، وأوبارها وأشعارها ما فيه دفء لهم قال تعالى ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [النحل: ٥].

وقال تعالى ﴿ **وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ** ﴾ [النحل: ٨٠].

وكان سيدنا عمر إذا قرب دخول الشتاء يكتب إلى أهل الشام بالوصية ويحذرهم برد الشتاء لأن الشام فتحت في زمنه، فكان يخشى على من بها من الصحابة وغيرهم ممن لم يكن له عهد ببرد الشام أن يتأذى به، فكان يقول في وصيته لهم: إن الشتاء قد حضر وهو عدوا فتأهبوا له أهبته من الخصوف والخفاف والجوارب، واتخذوا الصوف شعارا ودثار، فإن البرد عدو الله سريع دخوله بعيد خروجه.

وهذا من تمام نصيحته وحسن نظره وشفقته وحياطته لرعيته ﷺ.

وروي عن كعب قال: أوحى الله إلى داود: أن تأهب لعدو قد أظلك. قال: يا رب من عدوي، وليس بحضرتي عدو ؟ قال: بلى الشتاء.

ولا ينبغي للإنسان أن يتقي من البرد بالكلية، ولا من الحر بالكلية بحيث لا يصيبه شيء منهما فإن ذلك يضر بدنه أيضا، فإن الله بحكمته جعل الحر والبرد في الدنيا لمصالح عباده، فالحر لتحلل الأخلاط، والبرد لجمودها، فمتى لم يصب الأبدان شيء من الحر والبرد بحيث أنه كان لا يحس بهما بدنه، فتلف باطنه، ومات عاجلا، بل يتقى ما يؤذي البدن منهما، فإن الحر المؤذي، والبرد المؤذي معدودان من جملة أعداء بني آدم.

قيل لأبي حازم الزاهد: إنك تشدد في العبادة. فقال: وكيف لا أشدد، وقد ترصد

لي أربعة عشر عدوا. قيل: لك خاصة ؟ قال: بل لجميع من يعقل. قيل له: وما هذه الأعداء ؟ قال: أما أربعة فمؤمن يحسدني، ومنافق يبغضني، وكافر يقتلني، وشيطان يغويني ويضلني، وأما العشرة: فالجوع، والعطش، والحر، والبرد، والعري، والمرض، والفاقه، والهدم، والموت، والنار، ولا أطيقهن إلا بسلاح تام، ولا أجد لهن سلاحا أفضل من التقوى.

فعد الحر والبرد من جملة أعدائه.

وقاله الأصمعي: كانت العرب تسمى الشتاء الفاضح.

وقال أبو عمرو بن العلاء: إني لأبغض الشتاء لنقص الفروض، وذهاب الحقوق، وزيادة الكلفة على الفقراء.

وقال بعض السلف: البرد عدو الدين.

يشير إلى أنه يقصر عن كثير من الأعمال، ويثبط عنها، فتكسل النفوس بذلك، فالإحسان في الشتاء للفقراء بما يدفع عنهم البرد له فضل عظيم، وسنذكر في كتاب الذكاة إن شاء الله تعالى ما ورد في فضل من كسا مسلما على عري.

فائدة: جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال «**إذا كان يوم شديد الحر فقال العبد: لا إله إلا الله ما أشد حر هذا اليوم اللهم أجرني من حر جهنم. قال الله: إن عبدا من عبادي قد استجار بي من حرك، وإني أشهدك أني قد أجرته، وإذا كان يوم شديد البرد فقال العبد: لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم اللهم أجرني من زمهرير جهنم ؟ قال الله لجهنم: إن عبدا من عبادي قد استجار بي من زمهريرك وإني أشهدك أني قد أجرته. قالوا: وما زمهرير جهنم ؟ قال: بيت يلقى فيه الكافر فيتمزق من شدة برده**» [1].

وأما فصل الخريف فقد كمل الله به اجتناء الثمرات التي تبقى وتدخر في البيوت فهو منبه على اجتناء ثمرات الأعمال في الآخرة.

وأما الربيع فهو أطيب فصول السنة فهو مذكر بنعيم الجنة، وطيب عيشها، فينبغي للمؤمن أن يحث نفسه على الاستعداد لطلب الجنة بالأعمال الصالحة.

---

(١) أخرجه ابن السني (ص ١٢٢، رقم ٣٠٧) وذكره ابن رجب الحنبلي في التخويف من النار (١/٤٤).

قال العجلوني (٢/٤٦٦): رواه ابن السني وأبو نعيم بسند ضعيف، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات.

كان بعض السلف الصالح في أيام الربيع يخرج إلى السوق فيقف وينظر إلى الرياحين والفواكة ويعتبر ويسأل الله الجنة.

قال بعض العلماء: ما في الدنيا مذكر بالآخرة ودليل عليه، كنبات الأرض واخضرارها في الربيع بعد قحولها ويبسها في الشتاء، وإيناع الأشجار واخضرارها بعد كونها خشبا يابسا يدل على بعث الموتى من الأرض كما أشار الله إلى ذلك في مواضع كثيرة من كتابة:

قال تعالى ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٧].

وقال تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق:٩ - ١١].

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

قال أبو رزين للنبي ﷺ: وما آية ذلك في خلقه ؟ قال: هل مررت بواد هلك قحلا ثم مررت به يهتز خضرا؟ قال: نعم. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ٥٧] وذلك آيته في خلقه [(١)] خرجه الإمام أحمد.

وقصر مدة الزرع والثمار، وعود الأرض بعد ذلك إلى يبسها، والشجر إلى حالها الأول، كعود بني آدم بعد كونه حيا إلى التراب الذي خلق منه، فتدقيق النظر والفكر في حال النبات يستدل به المؤمن على عظمة خالقه، وكمال قدرته ورحمته، فتزداد القلوب هيمانا في محبته، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١١، رقم ١٦٢٣٧). وأخرجه أيضا: الحاكم (٤/٦٠٥، رقم ٨٦٨٢) وقال: صحيح الإسناد.

٩٩].

فزمان الربيع كله واعظ يذكر بعظمة موجده، وكمال قدرته، ويشوق إلى طيب مجاورته في دار كرامته.

ووصف بعضهم الربيع فقال: أرضه حرير، وأنفاسه عبير، وأوقاته كلها وعظ وتذكير.

ففي حديث البخاري من هنا تخويف وتحذير من حر نار جهنم والزمهرير.

وعظ: يا من تتلى عليه أنفاس جهنم، ويشاهد لنفسها كل عام حتى يحس به ويتألم، وهو مصر على ما يقتضي دخولها مع أنه يعلم، ستعلم إذا جيء بها تقار بسبعين ألف زمام من يندم، ألك صبر على سعيرها وزمهريرها قل وتكلم، ما كان صلاحك يرجى والله أعلم، هذا عود شجر الكرم يكون يابسا طول الشتاء، ثم إذا جاء الربيع دب فيه الماء وأخضر، ثم يخرج الحصرم، فينتفع الناس به حامضا، ويتناولون منه طبخا واعتصارا، ثم ينقلب حلة، فينتفع الناس به رطبا ويابسا، ويستخرجون منه ما ينتفعون بحلاوته طول العام، وما يأتدمون بحمضه، وهو نعم الأدام، فهذه التنقلات توجب للعاقل الدهش والتعجب من صنع صانعه، وقدرة خالقه، فينبغي له أن يفرغ العقل للتفكر في هذه النعم، والشكر عليها، وأما الجاهل، فيأخذ العنب، فيجعله خمرا، فيغطي به العقل الذي ينبغي أن يستعمل في الفكر والشكر حتى لا ينسى خالقه المنعم عليه بهذه النعم كلها، فلا يستطيع بعد سكره أن يذكره ويشكره، بل ينسى من خلقه ورزقه، فلا يعرفه في سكره بالكلية، فهذا نهاية كفران النعم ولله در القائل:

مدة الشباب قصيرة

فوا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

كمدة زهرة الربيع وبهجته ونضارته، فإذا أيبس وابيض فقد آن ارتحاله، كما أن الزرع إذا ابيض فقد آن حصاده، وأجل زهر الربيع الورد وإن لله ملكا ينادى في السماء كل يوم أبناء الخمسين: زرع دنا حصاده.

وفي الحديث مرفوعا «**أن لكل شيء حصادا وحصاد أمتي ما بين الستين إلى**

السبعين» [(١)].

قد بلغ الزرع منتهاه لا بد للزرع من حصاد، وقد يدرك الزرع آفة قبل بلوغ حصاده، فيهلك كما أشار الله جل جلاله إلى ذلك بقوله ﴿ **حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ** ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال ميمون بن مهران لجلسائه: يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا أبيض ؟ قالوا: الحصاد. فنظر إلى الشباب فقال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد. وقد أحسن القائل:

يا ابن آدم لا يغرك عافية ... عليك ما العمر ممدود
ما أنت إلا كزرع عند خضرته ... بكل شيء من الآفات مقصود
فإن سلمت من الآفات أجمعها ... فأنت عند بلوغ الزرع محصود

***

(١) أخرجه ابن عساكر (٤٥ /٢٨٥) عن أنس.

المجلس السادس والخمسون

في ذكر شيء من فضائل الأذان وذكر ابتدائه وذكر مسائل ولطائف متعلقة به

قَالَ البُخَارِي:

بسم الله الرحمن الرحيم

باب بدء الأذان

هنا فوائد تتعلق بالأذان:

الأولى: الأذان بالمعجمة في اللغة الإعلام قال تعالى ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٣] أي إعلام.

وقال تعالى ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] أي أعلمهم.

واشتقاقه من الأذن بفتحتين وهو الاستماع.

وفي الشرع الإعلام بوقت الصلاة بألفاظ مخصوصة.

الثانية: في بيان شروع الأذان وابتدائه هل كان بمكة أو بالمدينة؟

اختلفت الروايات في ذلك، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن الأذان شرع بمكة قبل الهجرة منها حديث أخرجه الطبراني من طريق سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال «**لما أسري بالنبي ﷺ أوحى الله إليه الأذان فنـــزل به فعلمه بلالا**».

ومنها حديث أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث أنس «**أن جبريل أمر بالنبي ﷺ بالأذان حين فرضت الصلاة**».

قال السهيلي في الروض: ورد في مسند أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار عن علي بن أبي طالب ﷺقال: لما أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأذان أتاه جبريل عليه السلام بدابة يقال لها البراق، فركبها حتى انتهى إلى الحجاب الذى يلى الرحمن تبارك وتعالى، فقال: بينما هو كذلك إذ خرج ملك من الحجاب، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل من هذا؟ فقال جبريل: والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكانا، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه. فقال الملك: الله أكبر الله أكبر. قال: فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدى أنا أكبر أنا أكبر. ثم قال الملك: أشهد أن لا إله إلا الله. قال: فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي أن لا إله إلا أنا. فقال الملك: أشهد أن محمدا رسول الله. قال: فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أرسلت محمدا. قال الملك: حي على الصلاة وحي على الفلاح، ثم قال الملك: الله أكبر الله أكبر. قال: فقيل من وراء الحجاب: صدق عبدى لا إله إلا أنا. قال: ثم أخذ

الملك بيد محمد ﷺ فقدمه، فأم أهل السماء فيهم آدم ونوح عليهما السلام [(١)].

قال شيخ الاسلام ابن حجر بعد أن ساق هذه الأحاديث: والحق أنه لا يصح شيء من هذه الأحاديث، قال: وقد جزم ابن المنذر بأنه ﷺ كان يصلى بغير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة، وإلى أن وقع التشاور في كيفية جمع الناس إلى الصلاة، ويدل على ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمر كان يقول «**المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة**» [(٢)].

أي يطلبون وقتها ليس ينادى لها فتكلموا يوما في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى. وقال بعضهم: بل بوقا مثل قرن اليهود. فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فنادي بالصلاة.

فدل هذا الحديث الصحيح أن مشروعية الأذان إنما كانت بالمدينة، والأخذ بما صح أولى، وكانت مشروعيته في السنة الثانية من الهجرة.

قال البغوي: أقام النبي ﷺ بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة يصلي بلا أذان ولا إقامة، وسبب مشروعيته وابتدائه ما ذكر الكرماني وغيره: أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة، وبنى المسجد شاور الصحابة فيما يجعل علما لوقت اجتماعهم، فذكر طائفة منهم إيقاد النار لظهوره، أو ضرب بالناقوس لصوته، فذكر آخرون أن النار شعار اليهود، والناقوس شعار النصارى، فلو اتخذنا أحد الأمرين شعارا لالتبس أوقاتنا بأوقاتهم، ولشابهناهم.

وقال ابن سيد الناس: أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة اهتم للصلاة كيف يجتمع الناس له، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها أذن بعضهم بعضا، فلم يعجبه ذلك، قال: فذكروا له القنع يعنى الشبور أي البوق، فلم يعجبه ذلك، قال: وهو أمر اليهود. قال: فذكر له الناقوس. فقال: هو من أمر النصارى. فانصرف عبد الله بن زيد الأنصاري وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ فأرى الأذان في منامه قال فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره فقال: يا رسول الله أنى لبين نائم ويقظان إذا أتاني آت فأراني الأذان. قال: وكان عمر بن الخطاب ﷺقد رأه قبل ذلك فكتمه عشرين يوما، ثم أخبر النبي ﷺ فقال: ما منعك أن تخبرني؟ فقال: سبقني عبد الله بن زيد فاستحيت. فقال رسول الله ﷺ يا بلال قم فانظر ماذا يأمرك به عبد الله بن زيد، فأذن بلال.

---

(١) أخرجه البزار (١٤٦/٢، رقم ٥٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢١٩/١، رقم ٥٧٩)، ومسلم (٢٨٥/١، رقم ٣٧٧).

قيل: إن عبد الله بن زيد لولا أنه كان يومئذ مريضا لجعله رسول الله ﷺ مؤذنا.

وجاء في رواية في سنن أبي داود عن عبد الله بن زيد ﷺأنه قال «إن رسول الله ﷺ لما أمر بالناقوس يعمل، ليضرب به للناس لجمع الصلاة طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوسا في يده، فقلت: يا عبد الله أتبيع الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت له: بلى. قال: تقول الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. قال ثم أستأخر عني غير بعيد، ثم قال: تقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت. قال: فإنها رؤيا حق إن شاء الله تعالى، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت، فليؤذن به، فإنه أندى منك صوتا، فقمت مع بلال، فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به، قال: فسمع بذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجر ردائه، فقال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل ما رأى. فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله» (١).

قال الخطابي: روى هذا الحديث وهذه القصة بأسانيد مختلفة، وهذه الإسناد أصحها.

فثبت بما ذكرنا أن الذي رأى الأذان عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب رضي لله عنهما وافقه فيها.

قال الكرماني: ونزل الوحي على وفقها، أو أمر رسول الله ﷺ بذلك باجتهاده لجواز الاجتهاد له على مذاهب الجمهور.

ووقع في الأوسط للطبراني: أن أبا بكر أيضا رأى الأذان (٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (١/١٣٥، رقم ٤٩٩). وأخرجه أيضا: ابن ماجه (١/٢٣٢، رقم ٧٠٦)، وأحمد (٤/٤٣، رقم ١٦٥٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/٢٩٣، رقم ٢٠٢٠) ولفظه: عن بريدة أن رجلا من الأنصار مر برسول الله ﷺ وهو حزين، وكان الرجل ذا طعام يجتمع إليه، ودخل مسجده يصلي، فبينا هو كذلك إذ نعس، فأتاه آت في النوم، فقال: علمت ما حزنت له... فذكر قصة الأذان فقال=

ووقع في الوسيط للغزالي: أنه رآه بضعة عشر رجلا.

ووقع في شرح التنبيه للجيلي: أنه رأى أربعة عشر رجلا.

وأنكره ابن الصلاح، ثم النووي، ونقل ابن مغلطاي في بعض كتب الفقهاء أنه رآه سبعة، ولا يثبت شيء من ذلك كما قاله ابن حجر إلا لعبد الله، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وقد استشكل العلماء إثبات الأذان برؤيا عبد الله بن زيد، لأن رؤيا غير الأنبياء لا ينبني عليها حكم شرعي.

وأجابوا بأنه يحتمل أن تكون رؤياه قارنت الوحي، وبأنه ﷺ أمر بمقتضاه لينظر أيقر على ذلك أم لا.

الثالثة: قال القاضي عياض والقرطبي وغيرهما: الأذان على قلة ألفاظه تشمل على مسائل العقائد، لأنه بدأ بالأكبرية أي بقوله: الله أكبر. وهو يتضمن وجود الله وكماله، ثم ثني بالتوحيد المقدم على كل وظائف الدين، ونفى التشريك المستحيل في حقه تعالى، ثم صرح بإثبات النبوة، والشهادة بالرسالة لنبينا محمد ﷺ، ثم بعد هذه العقائد دعاهم إلى العبادة المخصوصة وهى الصلاة عقب الشهادة بالرسالة لأن معرفة وجوبها لا يعرف إلا من جهة النبي ﷺ لا من جهة العقل، ثم دعا إلى الفلاح، وهو الفوز والبقاء الدائم في النعيم المقيم، وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث والجزاء، وهذا آخر العقائد، ثم كرر الأكبرية توكيدا، ثم التوحيد لتوكيد الإيمان، وتكرار ذكره عند الشروع في العبادة بالقلب واللسان ليدخل المصلى فيها على بينة من أمره، وبصيره من أمره.

الرابعة: قال الكرماني: ذكر العلماء في حكمة الأذان أربعة أشياء:

أظهار كلمة التوحيد.

والإعلام بدخول وقت الصلاة.

وبمكانها والدعاء إلى الجماعة.

وإظهار شعار الإسلام.

قال: والحكمة في اختيار القول دون الفعل سهولة القول، وتيسره لكل أحد غنيا وفقيرا في كل زمان، وفي كل مكان سهلا وجبلا، برا وبحرا، يريد الله بكم اليسر ولا

= النبي ﷺ قد أخبرنا بمثل ذلك أبو بكر فمروا بلالا أن يؤذن بذاك.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٣٢٩): رواه الطبراني في الأوسط وفيه من تكلم فيه وهو ثقة.

يريد بكم العسر والحمد لله على ذلك.

الخامسة: اختلف العلماء في مسألتين:

أحدهما: هل الأذان أفضل أم الإمامة؟

فقال الرافعي: الإمامة أفضل منه لاختيار النبي صلى لله عليه وسلم وخلفائه للإمامة، وواظبوا عليها لأن القيام بالشيء أولى من الدعاء إليه، واختاره السبكي، ونقل الغزالي في الأحياء عن بعض السلف أنه قال: ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء، ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين لأنهم قاموا بين يدي الله وبين خلقه هؤلاء بالنبوة، وهؤلاء بالعلم، وهؤلاء بعماد الدين، واحتجت الصحابة رضي الله عنهم بتقديم النبي صلى اله عليه وسلم أبا بكر للإمامة دون غيره من الصحابة على أنه أفضل من غيره منهم، ومقدم عليه في الخلافة، وقالوا: اخترنا لدنيانا من نصبه رسول الله ﷺ لديننا، وما قدموا بلالا احتجاجا بأنه نصبه للأذان، فدل على أن الإمامة أفضل.

وقال النووي: الأذان أفضل لقوله تعالى ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ**﴾ [فصلت: ٣٣].

قالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في المؤذنين.

ولدعائه عليه الصلاة والسلام له بالمغفرة، وللإمام بالإرشاد، والمغفرة أعلى من الإرشاد قاله الرافعي.

وقال الماوردي دعا للإمام بالرشد خوف زيغه، وللمؤذن بالمغفرة لعلمه بسلامة حاله.

واستشكل العلماء ترجيح القول بأفضلية الأذان وهو سنة، والإمامة فرض، فيلزم منه تفضيل سنة على فرض بدليل تفضيل ابتداء السلام على الجواب كما قدمنا الصور التي تفضل السنة فيها الغرض في الوضوء.

وأجاب السبكي عنها بوجوه:

منها أن الجماعة فرض لا الإمامة، ولا يلزم من كون الجماعة فرضا كون الإمامة فرضا، لأن الجماعة تتحقق بنية المأموم الإتمام دون نية الأمام، ولو نوى الإمام فنيته محصلة لجزء الجماعة والجزء هنا ليس مما يتوقف عليه الكل، فلم يلزم وجوبه، وإذ لم يلزم كذلك لم يلزم القول بأن الإمامة فرض كفاية، فلم يحصل تفضيل نفل على فرض.

وقال قوم: إن علم بنفسه القيام بحقوق الإمامة فهي أفضل، وإلا فالأذان والإقامة، وفي كلام الشافعي إيماء إليه.

المسألة الثانية: اختلفوا أيضا في الجمع بين الأذان والإقامة.

فقيل: يكره لما روى البيهقي النهي عن ذلك لكن سنده ضعيف.

وقيل: هو خلاف الأولى.

وصحح النووي أنه مستحب في حق المتأهل لهما قال في الروضة: وفيه حديث حسن في الترمذي.

السادسة: وقع السؤال عن الأذان هل باشره رسول الله ﷺ بنفسه أم لا؟

قال ابن حجر: وهذا مما يكثر السؤال عنه، ثم نقل عن السهيلي أنه قال: أذن ﷺ في سفره، وصلى بأصحابه، وهم على رواحلهم السماء من فوقهم، والبلة من أسفلهم[1]. أخرجه الترمذي من طريق يدور على عمر بن الرماح يرفعه إلى أبي هريرة، وإنما هو من حديث يعلى بن مرة في السفر، وعزاه للترمذي وقواه، ثم قال ابن حجر: ولكن وجدنا في مسند أحمد من الوجه الذي أخرجه الترمذى ولفظه: فأمر بلالا به. كما يقول أعطى الخليفة العالم الفلاني، وأنما باشر العطاء غيره، ونسب للخليفة كونه آمرا.

السابعة: قال ابن القيم في كتاب الهدى وابن سيد الناس في عيون الأثر: مؤذنوا رسول الله ﷺ أربعه اثنان بالمدينة وهما بلال وابن أم مكتوم، وواحد بقباء وهو سعد القرظ، وواحد بمكة وهو أبو محذورة.

وذكر ابن العماد في كتابه الذريعه: أنه كان له ﷺ مؤذن آخر يقال له زياد بن الحارث الصدائي، واستدل عليه بحديث رواه البخاري وأبو داود والترمذي، ثم قال فيكونون على هذه خمسة لكن هذا الخامس لم يكن راتبا، فلهذا قال الحافظ البرهان الجيلي: أذن للنبي ﷺ خمسة، وسنذكر في كتاب الصوم شيئا من فضائل بلال وابن أم مكتوم.

لطيفه:

ذكر السهيلي في الروض: أن أبا محذورة لما سمع الأذان قبل أن يسلم، وهو مع فتية من قريش خارج مكة أقبلوا يستهزؤن بالأذان، ويحلون صوت المؤذن غيظا منهم، فكان أبو محذورة من أحسنهم صوتا، فرفع صوته بالأذان، فسمعه رسول الله ﷺ فأمر به فمثل بين يديه، وهو يظن أنه مقتول، فمسح رسول الله ﷺ ناصيته وصدره بيده.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢/٢٦٦، رقم ٤١١) عن يعلي بن مرة، قال الترمذي: غريب تفرد به عمر ابن الرماح البلخي لا يعرف إلا من حديثه.

قال: فامتلأ قلبي والله إيمانا ويقينا، وعلمت أنه رسول الله ﷺ فألقى عليه رسول الله ﷺ الأذان وعلمه إياه، وأمره أن يؤذن لأهل مكة، وهو ابن ستة عشرة سنة، فكان مؤذنهم حتى مات، ثم عقبه يتوارثون الأذان كابرا عن كابر.

لطيفة أخرى:

نقل ابن الوردي في تاريخه: أن بلالا أذن الظهر على الكعبة في غزوة الفتح، فقالت جويرية بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال على ظهر الكعبة.

وقال الحارث بن هشام: ليتني مت قبل هذا.

وقال خالد بن أسيد: لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم.

فخرج رسول الله ﷺ فذكر لهم ما قالوه، فقال الحارث: أشهد إنك رسول الله، وما اطلع على هذا أحد فنقول أخبرك.

الثامنة: قال شيخنا الجلال السيوطي في كتاب الأوائل: أول من أذن بلال، واستدل عليه بما أخرجه الشيخ ابن حبان عن ابن عباس أنه قال: أول من أذن في الإسلام بلال.

ولا يعترض عليه بما قيل: إن أول من أذن جبريل لأن أذانه إن ثبت كان في السماء، فإنه ورد في مسند الحارث عن أبي أسامة أن سول الله ﷺ قال «**أول من صلى أذن بالصلاة جبريل أذن بها في السماء فسمعه عمر وبلال... الحديث**».

وأول من ثوب في أذان الفجر بلال.

وأول من أقام الصلاة عبد الله بن زيد.

وأول من رزق المؤذنين عثمان.

وأول من أقام الصلاة عبد الله بن زيد.

وأول من أحدث أذان اثنين مع بني أمية.

***

باب الأذان مثنى مثنى

كذا في بعض نسخ البخاري أي مرتين مرتين

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ سِمَاكِ بْنِ عَطِيَّةَ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ أُمِرَ بِلاَلٌ أَنْ يَشْفَعَ الأَذَانَ وَأَنْ يُوتِرَ الإِقَامَةَ إِلاَّ الإِقَامَةَ (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: « أن يشفع »: أي يأتي بألفاظه شفعا. قال الزين بن المنير: وصف الأذان بأنه شفع يفسره قوله « مثنى مثنى » أي مرتين مرتين، وذلك يقتضي أن تستوي جميع ألفاظه في ذلك، لكن لم يختلف في أن كلمة التوحيد التي في آخره مفردة، فيحمل قوله « مثنى » على ما سواها، وكأنه أراد بذلك تأكيد مذهبه في ترك تربيع التكبير في أوله، لكن لمن قال بالتربيع أن يدعي نظير ما ادعاه لثبوت الخبر بذلك.

قوله: « وأن يوتر الإقامة إلا الإقامة » المراد بالمنفي غير المراد بالمثبت، فالمراد بالمثبت جميع الألفاظ المشروعة عند القيام إلى الصلاة، والمراد بالمنفي خصوص قوله « قد قامت الصلاة »، وحصل من ذلك جناس تام.

تنبيه: ادعى ابن منده أن قوله « إلا الإقامة » من قول أيوب غير مسند كما في رواية إسماعيل ابن إبراهيم، وأشار إلى أن في رواية سماك بن عطية هذه إدراجا، وكذا قال أبو محمد الأصيلي: قوله « إلا الإقامة » هو من قول أيوب، وليس من الحديث.

وفيما قالاه نظر، لأن عبد الرزاق رواه عن معمر عن أيوب بسنده متصلا بالخبر مفسرا ولفظه « كان بلال يثني الأذان ويوتر الإقامة، إلا قوله قد قامت الصلاة » وأخرجه أبو عوانة في صحيحه، والسراج في مسنده، وكذا هو في مصنف عبد الرزاق، وللإسماعيلي من هذا الوجه « ويقول قد قامت الصلاة مرتين » والأصل أن ما كان في الخبر فهو منه حتى يقوم دليل على خلافه، ولا دليل في رواية إسماعيل لأنه إنما يتحصل منها أن خالدا كان لا يذكر الزيادة، وكان أيوب يذكرها، وكل منهما روى الحديث عن أبي قلابة عن أنس، فكان في رواية أيوب زيادة من حافظ فتقبل، والله أعلم.

وقد استشكل عدم استثناء التكبير في الإقامة، وأجاب بعض الشافعية بأن التثنية في تكبيرة الإقامة بالنسبة إلي الأذان إفراد.

قال النووي: ولهذا يستحب أن يقول المؤذن كل تكبيرتين بنفس واحد.

قلت: وهذا إنما يتأتى في أول الأذان لا في التكبير الذي في آخره. وعلى ما قال النووي ينبغي للمؤذن أن يفرد كل تكبيرة من اللتين في آخره بنفس، ويظهر بهذا التقرير ترجيح قول من قال بتربيع التكبير في أوله على من قال بتثنيته، مع أن لفظ « الشفع » يتناول التثنية والتربيع، فليس=

وثنى معدول عن اثنين اثنين غير منصرف، ومثنى الثانية توكيد للأولى، لأن الأولى تفيد تثنية كل لفظ من ألفاظ الأذان، والثانية تؤكد ذلك.

قوله: أمر بلالا. كذا وقع عن غير الرسول ﷺ لا مرفوع، لكن الصواب الذي عليه أكثر العلماء والمحققون من أهل الحديث والأصول، أنه مرفوع لأن إطلاق مثله ينصرف عرفا إلى صاحب الأمر والنهي، وهو رسول الله ﷺ.

قال الكرماني: وأيضا مقصود الراوي بيان مشروعيته، وهى لا تكون إلا إذا كان الأمر صادرا من الشارع.

وقال الخطابي: قوله أمر بلال إلخ أي أمره رسول الله ﷺ بذلك، لأن الأمر في الشريعة لا يضاف إلا إليه.

قال: وقد زعم بعض أهل العلم أن الآمر بذلك هو أبو بكر وعمر، قال: وهذا تأويل فاسد لأن بلالا لحق بالشام بعد موت رسول الله صلى عليه وسلم واستخلف سعد القرظ على الأذان في مسجد رسول الله صلى عليه وسلم.

الثانية: قال العلماء: الأذان والإقامة سنتان على الأصح لأنه ﷺ لم يأمر بهما في حديث الإعرابي مع ذكر الوضوء والاستقبال وأركان الصلاة قاله النووي في شرح المهذب.

وقيل: إنهما فرض كفاية واختاره السبكي لقوله ﷺ «**إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم**» [1] متفق عليه.

وقيل: إنهما فرض كفاية في الجمعة دون غيرها لأنهما دعاء إلى الجماعة، والجماعة واجبة في الجمعة مستحبة في غيرها فيكون الدعاء إليها كذلك، وعلى هذا فالواجب في الجمعة وغيرها، وهما سنتان على الكفاية بمعنى أنه إذا أتى بهما بعض أهل البلد كفى عن الباقين.

= في لفظ حديث الباب ما يخالف ذلك بخلاف ما يوهمه كلام ابن بطال.

وأما الترجيح في التشهدين فالأصح في صورته أن يشهد بالوحدانية ثنتين، ثم بالرسالة ثنتين، ثم يرجع، فيشهد كذلك، فهو وإن كان في العدد مربعا فهو في الصورة مثنى، والله أعلم. انظر فتح الباري (٢/٨٢ – ٨٣).

(١) أخرجه البخاري (١/٢٨٢، رقم ٧٨٥). ومسلم (١/٤٦٥، رقم ٦٧٤)، والنسائي (٢/٩، رقم ٦٣٥)، وأحمد (٣/٤٣٦، رقم ١٥٦٣٦)، وابن حبان (٤/٥٤١، رقم ١٦٥٨) عن مالك بن حويرث.

قال العلماء: ولا تحصل السنة إلا بإظهارها في البلد والقرية بحيث يعلم بها جميع أهلها، ففي القرية تكفي في موضع واحد، وفي البلد لا بد منها في مواضع بحيث يظهر الشعار، فلو أذن واحد في جانب فقط حصلت السنة فيه دون غيره، فإن اتفق أهل البلد أو القرية على تركهما لا يقاتلون على الأصح، وهو أنهما سنتان أما إذا قلنا بأنها فرض كفاية فإنهم يقاتلون.

الثالثة: إنما يسنان في المكتوبات الخمس فقط، فلا يستحبان للسنن كالرواتب مع الفرائض، وصلاة العيد والوتر والضحى وغيرها، ولا لصلاة الجنازة، ولا للمنذورة، بل يكرهان في هذه المذكورات كما قاله في الأنوار وغيره.

ويسن للجماعة وللمنفرد أيضا ولو سمعه من غيره ويكفي في أذانه إسماع نفسه بخلاف أذان الجماعة، فمن أذن لجماعة، وأسمع نفسه فقط لم يجزه لفوات الإعلام، فلابد من الإسماع، ولو لواحد، ويسن للمنفرد إذا أذن لنفسه أن يرفع صوته إلا إذا صلى بمسجد وقعت فيه جماعة وانصرفوا، فيستحب أن لا يرفع صوته لئلا يتوهم السامعون دخول وقت صلاة أخرى خصوصا في يوم الغيم، وكما يستحب الأذان للحاضرة يستحب للمقضية، ويدل على ذلك أنه ﷺ لما نام في الوادي هو وأصحابه حتى طلعت الشمس، فساروا حتى ارتفعت الشمس، ثم نزل فتوضأ، وأذن بلال رضي الله عنه بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم صلى صلاة الغداة، فصنع كما صنع كل يوم [1]. رواه مسلم.

قال النووي في شرح المهذب: وهذا القول أي استحباب الأذان للفائته قد صححه الجمهور، وقال به الأئمة الثلاثة، وهو أحد الأقوال القديمة المفتى بها، وهو مبني على أن الأذان حق الفريضة، وهو الراجح، وفي الجديد لا يستحب الأذان للفائته بناء على أنه حق الوقت، وهو مرجوح.

قال النووي في المنهاج: قلت القديم أظهر والله أعلم، وإن أراد أن يقضي فوائت، فإن قضاها متواليه، فالسنة أن يؤذن للأولى فقط، ويقيم لكل واحدة، وإن قضاها غير متواليه أذن وأقام للكل، وكذا إذا أراد أن يصلى فائته، ثم حاضره بعدها بلا فصل، فالسنة أن يؤذن للفائته فقط إلا إذا صلى الفائته بأذان، ثم دخل وقت الحاضرة، فإنه يعيده لها للإعلام بوقتها قاله النووي في زوائد الروضة.

---

(١) أخرجه مسلم (١/٤٧٢، رقم ٦٨١).

فإن لم يوال بين الفائته والحاضرة أذن لكل واحدة منهما، وإذا جمع بين صلاتين جمع تقديم أذن للأولى، وإن جمع جمع تأخير والى فيه أذن للأولى فقط، وإلا فلكل منهما.

ويسن أن ينادي لجماعة العيدين، والكسوفين، والاستسقاء، والتراويح، والوتر حيث تسن فيه الجماعة: الصلاة جامعة، وينوب عند ذلك الصلاة الصلاة، وهلموا إلى الصلاة، والصلاة رحمكم الله قاله ابن شبيهة.

ولا يندب ذلك في صلاة الجنازة لأن المشيعين لها حاضرون، فلا حاجة للإعلام، ولا للمنذورة، ولا للنافلة التي لا تسن فيها الجماعة كالضحى، ولا للنافلة التي تسن فيها الجماعة إذا صلاها منفردا.

ويستحب للمرأة الإقامة لها وللنساء، ولا يستحب لها أن تؤذن لنفسها ولا للنساء، وإذا أذنت لها أو لهن سرا لم يكره، وكان ذكرا لله تعالى، وأن رفعت صوتها بالأذان فوق ما يسمعه صواحباتها حرم بما قاله الشيخان في باب الأذان، وصححه في شرح المهذب وقاله كما يحرم تكشفها بحضرة الرجال لأنه يفتتن بوجهها كذلك يحرم رفع صوتها بحضرتهم لأنه يفتتن بصوتها.

واستشكلوا ما ذكره الشيخان من التحريم بما ذكره في كتاب الشهادات في أن المذهب المشهور جواز غناء المراة، فإنه يجوز للرجل سماعه منها، وإن كانت اجنبية حرة كانت أو أمة.

قال الأسنوى: وأنت إذا تأملت هاتين المقالتين قضيت العجب من تجويزهما استماع الرجل غناء المرأة، وتحريم استماعه أذانها لخوف الفتنة.

قال: وما أشبه هذه المقالة بقول الحسن البصري لأهل العراق: تستحلون دم الحسين وتسألون عن دم البراغيث.

وأجاب بعض العلماء عن هذا الإشكال بأوجه:

منها أن الغناء ليس بعبادة، والأذان عبادة، فالمرآة ليست من أهلها، وإذا لم تكن من أهلها حرم عليها تعاطيها كما يحرم عليها تعاطي العبادة الفاسدة.

ومنها أن الغناء يكره للرجل سماعه منها قطعا، وإن أمن الفتنه، والأذان يستحب استماعه قطعا، فلو استبحناه للمرآة لأدى أن يؤمر الرجل باستماع ما يخشى منه، وهذا ممتنع، فامتنع الأذان كذلك.

ومنه أنه يستحب النظر إلى المؤذن حالة الأذان، فلو استبحناه للمرآة لأمر السامع

بالنظر إليها، وهذا مخالف لمقصود الشارع.

الرابعة: يؤتى بالأذان مثنى أي يكرر كل لفظ من ألفاظه مرتين، وبالإقامة فرادي أي يؤتى بكل لفظة من ألفاظه مرة إلا لفظة الإقامة، فإنه يؤتى بها مرتين لقوله في هذا الحديث المذكور: أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة إلا الإقامة، فمعنى أن يشفع الأذان أي يأتي بألفاظه شفعا، ومعنى أن يوتر الإقامة أي يأتي بها وترا أي فرادى إلا لفظة الإقامة يخالف ما قاله فيحتاج الجواب عنه سؤال، فإن قيل: يشكل على قوله في الحديث «**أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة**».

التكبير في أول الأذان فإنه أربع، وكلمة التوحيد في آخره، فإنها مفرده، ولفظ التكبير في أول الإقامة وآخرها مثنى، وظاهر الحديث يقتضي أن جميع ألفاظ الأذان مثنى، وجميع ألفاظ الإقامة فرادى، وعلى هذا يحمل كلام من أطلق من الفقهاء ذلك.

قال في الروض: وقولهم الأذان مثنى، والإقامة فرادي يريدون به معظمها.

والحكمة في تثنية الأذان وإفراد الإقامة أن الأذان لإعلام الغائبين فيكرر، وليكون أبلغ في إعلامهم، والإقامة للحاضرين فلا حاجة إلى تكرارها، وإنما كرر لفظ الإقامة فيها لأنها هى المقصودة.

والحكمة في إفراد كلمة التوحيد آخر الأذان الإشارة إلى وحدانية الله تعالى.

وإلى إفراد الإقامة ذهب الإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل وأكثر العلماء وعليه جري العمل بالحرمين الشريفين والحجاز وبلاد الشام واليمن وديار مصر ونواحي الغرب إلى أقصى بلاد الإسلام، وهو قول الحسن البصري ومكحول والزهري والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وغيرهم.

و لم يخالف في ذلك إلا أبو حنيفة رحمه الله فإنه قال: تثنى كالأذان.

قال الكرماني: وهذا الحديث حجة عليه، وأيضا يلزم من التسوية بينهما اشتباه الأمر، ويصير سببا لأن يفوت كثير من الناس صلاة الجماعة إذا سمعوا الإقامة، فظنوا أنها الأذان.

الخامسة: عدد كلمات الأذان بالترجيع تسع عشرة كلمة، وعدة كلمات الإقامة إحدى عشر هذا مذهب الشافعي والجمهور في غير أذان الفجر، وفي فتاوى قاضي خان للحنفية: الأذان خمسة عشر كلمة، والإقامة سبعة عشر كلمة، فأسقطوا الترجيع من الأذان، وزادوا الإقامة قد قامت الصلاة مرتين، وأذان الفجر عندنا إحدى وعشرون كلمة بزيادة الصلاة خير من النوم مرتين، وعند الحنفية سبعة عشر كلمة.

المجلس السابع والخمسون

في ذكر فضائل صوم يوم عاشوراء، وذكر ما يتعلق به من الفوائد واللطائف، وفيه ذكر شيء من ترجمة سيدنا معاوية وشيء من ترجمة ولده يزيد

الحمد لله الذي عزت عزته أولاً وأخراً، وعمت نعمته مؤمناً وكفوراً، وأظهرت قدرته ضياء وبجوراً، وسعت رحمته من ضيع زمانه فكان ذنبه مستوراً، كم أفقر غنياً وأغنى فقيراً، ورحم مسكيناً وجبر مكسوراً، وغفر ذنوباً وفتح قلوباً وشرح صدوراً، كتب كتاب رحمته سطره تسطيراً، وأشهد على نفسه ملائكة أن لم يزل غفوراً، معظماً مقدساً مذكوراً، معبوداً محموداً مشكوراً، يبصر ما تحت التحت وكان سميعاً بصيراً، ويعلم ما يحتاج في الفكر وكان الله عليماً خبيراً، ويغني الكل ويفني وكان الله على كل شيء قديراً، يرحمك مع علمه بذنبك وما كان عطاء ربك محظوراً، ليس عليه حجاب فيكون مستوراً، ولا هو جسم فيكون محصورا، اختار قوماً فكسى وجوههم نوراً، وملأ قلوبهم بمحبة له وسروراً، شرفهم حين عرفهم طريق معرفته وجعل حظهم حظاً موفوراً، رفعوا إليه قصة الشكوى من الهجران فكتب إليهم بالأمان منشوراً، أيقظهم من بين النائمين وجعل بينهم وبين الغافلين حجاباً مستوراً، نصبوا في خدمته الأقدام، وستروا وجوهم بأستار الغرام، مستورين بين الأنام، فقههم لخطابه، وتلذذهم بعتابه سقاهم بكأس اقترابه كأساً شراباً طهوراً، ، وفتح لهم الباب، ورفع لهم حجاباً وستوراً، فسبحانه من صرف أعواماً وشرف أياماً وشهوراً، وفضل مواسم الطاعات على جميع الأوقات، وخص بالفضل والبركات يوم عاشورا.

قَالَ البُخَارِي:

باب صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ

حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟**» . قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى . قَالَ: «**فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ**»، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ .

يوم عاشوراء له فضيلة عظيمة قديمة، وصومه لفضله غنيمة، ففي هذا الحديث دلالة ظاهرة على أن الصوم كان مشروعاً قبل الإسلام وهو كذلك، فإنه كان معروفاً بين الأنبياء وقد صام نوح وموسى وغيرهما من الأنبياء.

فقد أخرج بقي بن مخلد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يوم عاشوراء كانت تصومه الأنبياء، فصوموه أنتم**»[1].

وكان أهل الكتاب يصومونه، وكذلك كانت قريش في الجاهلية تحب صومه، وسببه أنهم أذنبوا ذنباً في الجاهلية فتعاظم في صدورهم فسألوا ما توبتهم قيل: صوموا عاشوراء.

وقوله: «**فقال: ما هذا؟**» معناه: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة، ورأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فسألهم عنه، وقال لهم: ما هذا اليوم الذي تصوموه؟ أي: أخبروني عن فضل صيامه، في هذا دلالة على أن النبي ﷺ ما صام عاشوراء، إلا بعد قدومه إلى المدينة.

واستشكل العلماء هذا بما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه... الحديث».

فإن هذا يدل دلالة صريحة على أنه كان يصوم قبل قدومه المدينة.

وأجاب عنه العلماء بأجوبة:

الأول: أنه ليس فيه ما ينفي صيامه قبل قدومه بل معناه فصامه، أنه ثبت على صيامه بعد ان قدم المدينة، وداوم على ما كان عليه لأنه ابتدأ صيامه بعد قدومه المدينة.

الثاني: يحتمل أنه كان يصومه بمكة ثم ترك صومه، فلما قدم المدينة سأل عنه اليهود فقالوا: هذا يوم صالح.

الثالث: يحتمل أن ابن عباس راوي الحديث لم يعرف أن رسول الله ﷺ كان

---

(١) لم نقف عليه من طريق بقي بن مخلد إلا أنه وقع في مصنف ابن أبي شيبة (٢/٣١١، رقم ٩٣٥٥) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «صوم يوم عاشوراء يوم كانت تصومه الأنبياء فصوموه أنتم».

صامه قبل القدوم، فقال إن رسول الله ﷺ ما هذا؟

وقوله: «أنا أحق بموسى منكم» يعني: أنا أولى منكم بالاقتداء بموسى، وصوم هذا اليوم.

سؤال: فإن قيل: كيف اعتمد رسول ﷺ على قول اليهود وقبل ما أخبروا به عن موسى من صوم يوم عاشوراء، وكونه يوماً صالحاً وغير ذلك.

جوابه: لا يلزم من قوله: «أنا أحق بموسى منكم» أنه اعتمد قولهم في ذلك لجواز أن يكون أوحى الله إليه في ذلك الوقت، وأخبره بذلك على وفق ما قالوا، أو يكون عمل باجتهاده لا بقولهم، وأخبره من أسلم كعبد الله بن سلام فعمل بقوله لا بقولهم، وكان المخبرون من اليهود عدد التواتر ولا يشترط في أهل التواتر الإسلام.

واختلف الأئمة في صوم عاشوراء، أهل كان واجباً قبل فرض شهر رمضان أم كان سنة؟

فذهب أبو حنيفة أنه كان واجباً حينئذ ثم نسخ بصوم رمضان، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد، وقال الإمام الشافعي أنه لم يكن واجباً بل كان متأكد الاستحباب فقط، فلما نزل فرض رمضان صار مستحباً دون ذلك الاستحباب المتأكد، وقد اتفق العلماء اليوم على أن صومه سنة لخبر الصحيحين: «ﷺ قال: إن هذا اليوم يوم عاشوراء، ولم يكتب عليكم صيامه فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر».

وأما الأخبار الواردة بأنه ﷺ أمر بصيامه فمحمولة على الاستحباب.

فوائد ولطائف

الفائدة الأولى: يستحب صوم تاسوعاء معه، والحكمة في استحباب صومه من مخالفة أهل الكتاب فإنهم يقتصرون على يوم عاشوراء، فيستحب مخالفتهم، وأيضاً المعنى في استحباب صومه احتمال غلط في الهلال بالتقديم أو بالتأخير.

وما صام رسول الله ﷺ تاسوعاء ولكن عزم في آخر عمره على أن يصوم لأجل مخالفة أهل الكتاب في صيام عاشوراء وحده، فقد جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس أنه قال: «حين صام رسول الله ﷺ عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال ﷺ: «**فإذا كان العام المقبل إن شاء الله**

صمنا اليوم التاسع»[١] قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ.

وفي رواية قال: «**لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع**»[٢] يعني: مع عاشوراء.

وفي رواية: «**إن عشت إن شاء الله إلى قابل صمت التاسع مخافة أن يفوتني عاشوراء**»[٣].

فإن لم يصم الإنسان تاسوعاء فيستحب له أن يصوم الحادي عشر لأجل المخالفة، بل نص إمامنا الشافعي في الأم على استحباب صوم الثلاثة، ويدل عليه ما في مسند أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**صوموا يوم عاشوراء، وخالفوا اليهود وصوموا قبله يوماً وبعده**»[٤].

وجاء في رواية: «**لئن بقيت إلى قابل لأصومن ولأمرت بصيام يوم قبله ويوم بعده**»[٥].

ولا يكره صومه وحده عند علمائنا الشافعية، وكره أبو حنيفة إفراد العاشر وحده بالصوم.

الثانية: تاسوعاء وعاشوراء ممدودان وحكي قصرهما، ويقال عاشور ذكره ابن سيد الناس.

الثالثة: في ذكر فضائله وخصائصه:

أما فضائله فمنها أن صومه مكفر لذنوب السنة الماضية والباقية، روينا في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٧٩٧، رقم ١١٣٤)، وأخرجه أيضاً الطبراني المعجم الكبير (١٠/٣٢٢، رقم ١٠٧٨٥)، وأبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم (٣/٢١٤، رقم ٢٥٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٦٣، رقم ٣٧٨٥) جميعا عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٧٩٨، رقم ١١٣٤)، وابن ماجه في سننه (١/٥٥٢، رقم ١٧٣٦)، وأحمد في مسنده (١/٢٢٤، رقم ١٩٧١) عن ابن عباس

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٣٣٠، رقم ١٠٨١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٦٤، رقم ٣٧٨٧) عن ابن عباس.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٤١، رقم ٢١٥٤)، وأخرجه أيضاً: في فضائل الصحابة (٢/٩٨٥، رقم ١٩٥١) عن ابن عباس.

وأخرجه أيضا: الطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/٧٨).

(٥) لم نقف على هذه الرواية.

صحيح مسلم عن أبي قتادة ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن صوم يوم عرفة فقال: «**يكفر السنة الماضية والباقية**»، وسئل عن صوم يوم عاشوراء فقال: «**يكفر السنة الماضية**»[1] وظاهره: أنه مكفر للكبائر والصغائر.

لكن نقل السنوي عن الإمام أن التكثير للصغائر دون الكبائر، واعترضه صاحب الخائر وقال: ما قاله يحتاج إلى دليل فالتكفير للكل، وفضل الله واسع، وظاهر الحديث يؤيد قوله.

وللتكفير تأويلان:

أحدهما: الغفران، والثاني: العصمة، فمعنى الحديث على الأول: أن صوم يوم عاشوراء يغفر ذنوب السنة الماضية، بمعنى أن الله يغفرها لصائمه أي: يسترها عن العباد ولا يطالبه بها.

ومعناه على الثاني: أن صائمه يعصمه الله عن ارتكاب المعصية في السنة الباقية.

وأما خصائصه فقد أوصلها الداودي إلى ست عشر خصيصة ولم يذكرها، وذكرها ابن بطال عن ابن حبيب: أن الله تاب فيه على آدم، وفيه رفع إدريس إلى السماء الرابعة، وفيه ولد الخليل وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وفيه بردت النار على إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وفيه أخرج يوسف من الجب، وفيه رد على يعقوب بصره، وفيه أعطى لسليمان الملك، وفيه أخرج يونس من بطن الحوت وتاب الله على قومه، وفيه كشف عن أيوب الضر، وفيه استجاب الله دعوة زكريا حين استوهب يحيى عليهما السلام، وهو يوم الزينة الذي غلب موسى فيه السحرة، وفيه حمى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وجنوده، وفيه تكسى الكعبة في كل عام، وفيه استوت سفينة نوح على الجودي وأغرق قومه.

فإن نوحاً عليه السلام لما دعا على قومه بقوله: ﴿**رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً**﴾[نوح: ٢٦] فأراد الله إهلاكهم بإغراق، أمره أن يصنع السفينة كما قال الله تعالى: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾[المؤمنون: ٢٧] فصنعها من خشب الساج، وجعل لها ثلاث طبقات وطلاها بالقار وأمره الله أن يضع فيها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٨١٩، رقم ١١٦٢) عن أبي قتادة الأنصاري.

من كل زوجين اثنين وأهله كما قال ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[هود: ٤٠].

قيل: جعل في الطبقة السفلى الوحوش والسباع والهوام، وفي الوسطى الدوآب والأنعام، وركب هو ومن معه في العليا مع ما احتاج إليه من الزاد.

قال في الكشاف: وحمل معه جسد آدم وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وكان اتخاذه للسفينة في سنتين.

قال في الكواشي: وقيل: في أربعمائة سنة، وكان كل ما عمل منها شيئاً نهاراً يفسده قومه ليلاً فشكى إلى ربه وقال: يا رب أمرتني أن أصنع الفلك، فكلما صنعت شيئاً يجيئون بالليل فيفسدونه، فمتى يتم ما أمرتني به، قد طال علي أمري، فأوحى الله إليه: يا نوح اتخذ كلباً بجرسك فاتخذ كلباً وكان إذا عمل نهاراً نام ليلاً، فإذا جاء قومه ليفسدوا بالليل ما صنع نبح الكلب، فينتبه نوح فيهربون منه فتم له ما أراد، فنوح أول من اتخذ الكلب للحراسة.

وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعاً، وسمكها ثلاثين ذراعاً.

ونقل في الكشاف عن الحسن أن طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة.

وكان ابتداء خروج ماء الطوفان من التنور كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[هود: ٤٠] قيل: المراد به تنور الخباز بينا هو يخبز الخبز وإذا بالماء نبع منه.

قيل: كان هذا التنور بالشام بعين وردة، وقيل: بالكوفة، وقيل: بالهند، وقيل: المراد بالتنور طلوع الفجر، وقيل: الشمس أي: فار الماء في هذا الوقت.

وكان ذلك علامة لركوب السفينة، فلما فار أقبل الحيوانات إلى نوح فجعل يضرب بيديه فيقع الذكر في اليمنى والأنثى في اليسرى فيلقيهما في السفينة.

وفي الحلية في ترجمة وهب بن منبه قال: لما أمر نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين قال: يا رب كيف أصنع بالأسد والبقرة، وكيف أصنع بالعناق والذئب،وكيف أصنع بالحمام والهر، قال: من ألقى بينهم العداوة؟ قال: أنت يا رب، قال: إني أؤلف بينهم فلا يتضررون.

وكان ركوبهم في السفينة يوم الجمعة لعشر خلون من شهر رجب ومن عين

وردة بالشام، وكان خروجهم منها يوم عاشوراء بالمحرم، فاستمروا في السفينة على هذا ستة أشهر، منها خمسة أشهر كانت تطوف بهم على وجه الماء واستقرت بهم على الجودي شهراً إلى يوم عاشوراء، فهبطوا منها.

والجودي الذي استقرت عليه السفينة الذي ذكره الله في كتابه ﴿**وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**﴾[هود: ٤٤] جبل بالجزيرة بقرب الموصل، وكان نوح لما ركب في السفينة إذا أراد أن تجري قال: «بسم الله» فتجري، وإذا أراد أن ترسو قال: «بسم الله» فترسو.

وروي أن السفينة مرت بالبيت فطافت به سبعاً وقد أعتقه الله من الغرق.

وروي أن نوحاً صام يوم الهبوط، وأمر من معه بصيامه فصامه شكراً الله تعالى.

قيل: إن الماء علا على رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعاً.

وروي أن السبع ذعر أهل السفينة فدعا عليه نوح فابتلاه الله بالحمى، فوقع في زاوية السفينة له أنين فلطمه نوح لطمة شديدة فأوحى الله إليه: أنا الحاكم العدل، وهذا خلق من خلقي وهو مريض يشكوا إلي حاله، وأنا أحب شكاية المريض، قم إليه وصالحه، فقام ووضع يده على رأسه، فخفف الله عنه، ولولا وجود الحمى على الأسد لكثر فساده في الأرض.

وعاش نوح بعد الطوفان ستين سنة أو أكثر حتى كثر الناس قاله المحلي في تفسيره.

الرابعة: سمي عاشوراء لأنه عاشر المحرم أو لأنه عاشر كرامة أكرم الله بها هذه الأمة، أو لأن الله أكرم فيه عشرة من الأنبياء بعشر كرامات.

الخامسة: ينبغي فيه التوسعة على نفسه وعلى عياله فقد روى شعبة عن ابن الزبير عن جابر مرفوعاً: «**من وسع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته**»[1] قال جابر وابن الزبير وشعبة جربناه فوجدناه كذلك.

---

(١) حديث جابر هذا رواه البيهقي في الشعب (٣/٣٦٥، رقم ٣٧٩١) ثم قال: هذا اسناد ضعيف، ولفظه فيه: «طول سنته».

ثم أعقبه البيهقي بشواهد فأخرج من طريقين عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، فقال في الأول بنحوه، وأتى بلفظ الثاني: «من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته»، ثم أخرج =

وقاله يحيى بن سعيد وابن عيينة أيضاً، ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتابه فضائل الأيام والشهور ثم قال: حديث حسن، ورواه البيهقي في كتابه فضائل الأوقات، قاله في العجالة.

وقال في اللطائف: وقال منصور: قلت لأحمد: هل سمعت في الحديث: «من وسع على نفسه وعياله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته» فقال: نعم رواه سفيان بن عيينة عن جعفر الأحمر عن إبراهيم عن محمد بن المنتشر، وكان من أفضل أهل زمانه.

السادسة: لم يرد في فضل الصلاة ليلة عاشوراء ويوم عاشوراء حديث صحيح، ولا في فضل الاكتحال فيه، ولا الاغتسال ولا الاختضاب، وما ورد في فضل ذلك من الأحاديث فهو موضوع لا يصح.

قاله ابن الملقن وابن رجب.

ومما ورد حديث جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رفعه: «**من اكتحل بالإثمد يوم عاشوراء لم يرمد أبداً**»[1].

= حديثاً ثالثا من حديث أبي هريرة أيضاً بهذا اللفظ، ثم قال: هذه الأسانيد وإن كانت كمال فهي إذا ضم بعضها الى بعض أخذت قوة والله اعلم. انظر شعب الإيمان (٣/٣٦٦، رقم ٣٧٩٣، ٣٧٩٤، ٣٧٩٥).

ورواه أيضاً: الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٧٧، رقم ١٠٠٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٦٧، رقم ٣٧٩٧) عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

قال البيهقي: وكذلك رواه بشر بن حمدان بن بشر النيسابوري عن عمه الحسين بن بشر، ولم أر ذلك في رواية غيره عن جويبر، وجويبر ضعيف والضحاك لم يلق ابن عباس.

والحديث ضعيف جداً، قال الزيلعي في نصب الراية (٢/٤٥٥) بعد ان نقل كلام البيهقي: ومن طريق البيهقي رواه ابن الجوزي في الموضوعات، ونقل عن الحاكم أنه قال فيه: حديث موضوع، وضعه قتلة الحسين رضي الله عنه (انتهى)

وجويبر قال فيه بن معين: ليس بشيء، وقال أحمد: متروك.

ودلل الزيلعي على أن الضحاك لم يلق ابن عبا س فقال: وأما إن الضحاك لم يلق ابن عباس فروى ابن أبي شيبة في مصنفه: حدثنا أبو داود عن شعبة قال: أخبرني مشاش قال: سألت الضحاك هل رأيت ابن عباس؟ فقال لا، حدثنا أبو داود عن شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال: لم يلق =

قال ابن الملقن هذا حديث وضعه قتلة الحسين، ثم قال: قال الإمام أحمد: والاكتحال يوم عاشوراء لم يرو عن رسول الله ﷺ فيه أثر، وهو بدعة.

ومن الأحاديث الموضوعة الضعيفة الغريبة ما يروى فيه أنه عليه الصلاة والسلام قال في الصرد: إنه أول طائر صام يوم عاشوراء.

قال ابن الملقن وهذا من قلة الفهم، فإن الطائر لا يوصف بالصوم، ثم قال: قال الحاكم وضعه قتلة الحسين.

السابعة: لم يزل صوم عاشوراء معظماً عند أهل الإسلام حتى اتفق فيه قتل الحسين ﷺ وكثير من أهل البيت، فسمعت الشيعة أن بني أمية اتخذوه عيداً فيتزينون فيه ويقيمون الضيافات، فاتخذوه هم يوم حزن ينوحون فيه ويبكون ويتجنبون الزينة.

والحسين: هو ابن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ويكنى: أبا عبد الله.

ومولده لمضي خمس ليال من شعبان سنة أربع، وقيل ثلاث.

قال الواقدي وغيره: وحملت به أمه بعد مولد الحسن بخمسين ليلة، وقيل: ولد الحسين بعد الحسن بسنة وعشرة أشهر لخمس سنين وستة أشهر من التاريخ.

وعق عنه ﷺ كما عق عن أخيه، وكان الحسين فاضلاً ديناً كثير الصوم والصلاة والحج، قتل يوم الجمعة لعشر خلت من المحرم يوم عاشوراء سنة إحدى وستين بموضع يقال له: كربلاء من أرض العراق بناحية الكوفة، ويعرف الموضع أيضاً بالطف.

قال ابن عبد البر في الإستيعاب قتله أنس بن سنان النخعي، وهو جد شريك

= الضحاك ابن عباس إنما لقي سعيد بن جبير فأخذ عنه التفسير (انتهى).

والحديث ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/١٦٠، ترجمة ١٥٩٥) وهي جويبر بن سعيد أبو القاسم الأزدي البلخي المفسر صاحب الضحاك، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال الجوزجاني: لا يشتغل به، وقال النسائي والدارقطني وغيرهما: متروك الحديث، قلت: له عن أنس شيء.

قال أبو قدامة السرخسي قال: يحيى القطان: تساهلوا في أخذ التفسير عن القوم لا تولعوهم في الحديث، ثم ذكر ليث بن أبي سليم وجويبر والضحاك ومحمد بن السائب، وقال: هؤلاء لا يحمد حديثهم ويكتب التفسير عنهم.

القاضي، ويقال: بل الذي قتله رجل من مدحج، وقيل: قتله شمر بن ذي الجوشن، وكان أبرص، فلما جاء برأسه إليه أنشد يقول:

أوقر ركابي فضة وذهبا ... إني قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أماً وأباً ... وخيرهم إن ينسبوه نسبا

وقيل: قتله عمرو بن سعد بن أبي وقاص، وقيل غير ذلك.

وقد نسب قتله إلى يزيد بن معاوية، و لم يثبت أنه قتله، ولا أمر بقتله ويزيد هو: ابن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

ولد سنة خمس أو ست وعشرين من الهجرة، فليس هو من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وولي الإمارة بدمشق في شهر رجب سنة ستين، وتوفي بدمشق في ربيع الأول سنة أربع وستين، فكانت مدة ملكه ثلاث سنين وثمانية أشهر وإثنى وعشرين يوماً.

وقد اختلف العلماء في جواز لعنه، وافترقوا فيه ثلاث فرق فمنهم من جوزه، ومنهم من توقف فيه، ومنهم من منع.

فممن لعنه وجوز لعنه المولى سعد الدين التفتازاني فإنه قال في شرحه على العقائد: ونحن لا نشك في شأنه بل في إيمانه لعنة الله عليه وعلى أعوانه.

قال شيخنا العلامة كمال الدين بن أبي شريف في الدرر الفوائد: وقد أقدم الشارح على التصريح بلعن يزيد على التعيين، مستندا إلى ما نقل عنه من رضاه بقتل الحسين، واستبشاره قد تواتر.

ولعل هذا بالنسبة إلى اطلاع الشارح وأما نحن فلم يخرج عندنا عن حد الشهرة إلى التواتر ولكن إن ثبت عنه ما نسب إليه من أنه قال:

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... وقعة الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحا ... ثم قالوا يا يزيد لا فشل

ولعت هاشم بالملك بلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

قد قتلنا القرن من أشياخهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

فذلك يؤذن بالكفر، وقال مولانا فتح الله الشدواني في حواشيه على شرح العقائد: والذي يدل على رضاه وكفره: أنه لما أرسل الجيش إلى الحسين تفاءل

بالمصحف الشريف المجيد فخرج في أول سطره: ﴿**وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾[إبراهيم: ١٥] فشد المصحف على الرمح ورماه بالسهم وأنشد هذين البيتين:

تخوفـــن بجـــبار عـــنيد وهـــا أنـــا ذاك جـــبار عنيد

فـــإن لاقيـــت ربك يوم حشر فقـــل يـــا رب مـــزقني يزيد

هذا كلامه، وقد صرح الدميري بأن هذين البيتين للوليد، وأن الرواية عنده: فقل يارب مزقني الوليد، لا يزيد.

وأما الغزالي فإنه سئل عن من صرح بلعن يزيد هل يحكم بفسقه أم يجوز لعنه؟ وهل أراد قتل الحسين أم كان قصده الدفع عنه، وهل يسوغ الترحم عليه أم السكوت عند ذكره أفضل؟

فأجاب بما حاصله: أنه لا يجوز لعن المسلم أصلا، ومن لعن مسلماً فهو الملعون، وقال ﷺ: «**المسلم ليس بلعان**»(١) وكيف يجوز لعن المسلم، ولا يجوز لعن البهائم، وقد ورد النهي عن ذلك، وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبي ﷺ.

ويزيد صح إسلامه، وما صح قتله الحسين، ولا أمره ولا رضاه بذلك، ومهما لم يصح ذلك منه لا يجوز، وأن لا يظن ذلك به فإن إساءة الظن بالمسلم حرام، وقد قال تعالى: ﴿**اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾[الحجرات: ١٢].

قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه، وأن يظن به ظن السوء**»(٢).

ومن زعم أن يزيد أمر بقتل الحسين أو رضي به، فينبغي أن يعلم غاية حمقه في ذلك، وإذا لم يعرف وجب إحسان الظن بكل مسلم يمكن إحسان الظن به.

ومع هذا فلو ثبت على مسلم أنه قتل مسلماً فمذهب أهل الحق أنه ليس بكافر،

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٢٩٦، رقم ٦٧٠٦) عن ابن عباس بلفظ: نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة فقال: «ما أعظم حرمتك»، وفي رواية أبي حازم لما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة قال: «مرحبا بك من بيت ما أعظمك، وأعظم حرمتك وللمؤمن أعظم حرمة ثم الله منك، إن الله حرم منك واحدة وحرم من المؤمن ثلاثاً دمه وماله وأن يظن به ظن السوء».

والقتل ليس بكفر بل هو معصية، فإذا مات القاتل ربما مات بعد التوبة، والكافر لو تاب من كفره لم يجز لعنه فكيف بمن تاب عن القتل.

وبم يعرف أن قاتل الحسين ﷺ مات قبل التوبة وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، فإذاً لا يجوز لعن أحد ممن مات من المسلمين، ومن لعنه كان عاصياً لله فاسقاً.

قال: وأما الترحم عليه فهو جائز بل مستحب بل هو داخل في قولنا في كل صلاة: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، فإنه كان مؤمناً.

وذهب كثير من العلماء إلى أنه ينبغي السكوت عنه، وبه قال الكمال بن أبي شريف حيث قال: والأولى بالنسبة إلى من يثبت عنده ذلك قطعاً الإمساك إذ لا خطر في السكوت عن لعن إبليس، فضلاً عن غيره.

وقال بعض الفضلاء ممن يرى أن السكوت عن لعنه أحسن وأولى: لو جاز لعنه فسكت الإنسان عنه لا يكون عاصياً بالإجماع، فإن أكفر الكافرين وهو إبليس لو لم يلعنه الإنسان طول عمره لا يقال له يوم القيامة لأي شيء لم تلعنه، ولا يقال للاعن لم لعنت.

واختلف في سن الحسين يوم قتله، فقيل: قتل وهو ابن سبع وخمسين سنة، وقيل: ابن ثمان وخمسين سنة، وقيل: وهو ابن أربع وخمسين وستة أشهر.

ومن فضائله أنه حج خمس وعشرين حجة ماشياً ونجائبه تقاد معه، وقتل معه سبعة عشر رجل كلهم من ولد فاطمة.

وقيل: ستة عشر رجلاً من أهل بيته ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبيه.

وقيل: قتل مع الحسين من ولده وإخوته وأهل بيته ثلاثه وعشرين رجلاً.

أفاد جماعة من أهل السير وغيرهم: أن خمسة كان أشبه بالنبي ﷺ وهم: جعفر والحسن وابن عباس وأبو سفيان بن الحارث، والسائب، وقد نظمهم ابن سيد الناس اليعمري فقال:

بخمســـة شبه المختار من مضر ... يا حسن ما خولوا من شبهه الحسن

بجعفـــر وابن عم المصطفى قثم ... وسائب وأبو سفيان مع الحسن

ولم يذكر مع هؤلاء معهم الحسين، وقد زاد الحافظ العراقي على هذه الخمسة

ونظم معهم الحسين.

قال العلامة البرهان الحلبي: و لم أ ر أحداً عد الحسين فيمن يشبهه عليه الصلاة والسلام إلا شيخنا العراقي، وكأنهم لما رأوه شبه الحسين له بما تحت الثياب لم يعدوه والله أعلم.

وبلغهم العلامة البرهان المذكور في نور النبراس إلى ستة عشر شخصاً، ونكت على نظم ابن سيد الناس المذكور حيث قال: بخمسة شبه المختار بأنه لو قال: وخمسة أشبهوا المختار كان أحسن وكانت القافية لا تتغير كأن يقول:

وخمسة أشبهوا المختار من مضر ... يا حسن ما خولوا من شبهه الحسن

هم جعفر وابن عم المصطفى قثم ... وسائب وأبو سفيان مع حسن

وجه الأحسنية أن هؤلاء الخمسة هم يشبهون النبي ﷺ لا أنه هو يشبههم، والنظم الأول يفيد ذلك بخلاف الثاني.

الثامنة: في ذكر لطائف متعلقة بيوم عاشوراء:

الأولى: قال في الروض الفائق روي أن فقيراً كان له عيال في يوم عاشوراء فأصبح هو وعياله صياماً، و لم يكن عندهم شيء فخرج يطوف على شيء يفطرون عليه [فلم يجد شيئاً، فدخل سوق الصرف فرأى رجلاً قد فرش في دكانه النطوع المثمنة وسكب عليها أكواب الذهب والفضة، فتقدم إليه وسلم، وقال: يا سيدي أنا فقير لعل أن تقرضني درهماً واحداً أشتري به فطوراً لعيالي وأدعو لك في هذا اليوم، فولى بوجهه عنه و لم يعطه شيئاً، فرجع الفقير وهو مكسور القلب، وولى ودمعه يجري على خده فرآه جار له صيرفي، وكان يهودياً فنـــزل خلف الفقير، وقال له: أراك تكلمت مع جاري فلان، فقال قصدته في درهم واحد لأفطر به عيالي فردني خائباً، وقلت له: أدعو لك في هذا اليوم، فقال اليهودي: وما هذا اليوم ؟ فقال له الفقير: هذا يوم عاشوراء، وذكر له بعض فضائله، فناوله اليهودي عشرة دراهم، وقال له: خذ هذه وأنفقها على عيالك إكراماً لهذا اليوم فمضى الفقير، وقد انشرح لذلك، ووسع على أهله النفقة.

فلما كان الليل رأى الصيرفي في المنام وأن القيامة قد قامت، وقد اشتد به العطش والكرب، فنظر فإذا قصر من لؤلؤ بيضاء، أبوابه من الياقوت الأحمر، فرفع

رأسه، وقال: يا أهل القصر أسقوني شربة ماء، فنودي هذا القصر كان قصرك بالأمس، فلما رددت ذلك الفقير مكسور القلب محي اسمك من عليه وكتب اسم جارك اليهودي الذي جبره وأعطاه عشرة دراهم فأصبح الصيرفي مذعوراً ينادي على نفسه بالويل والثبور، فجاء إلى جاره اليهودي وقال: أنت جاري ولي عليك حق ولي إليك حاجة، قال: وما هي ؟ قال: أن تبيعني ثواب العشرة دراهم التي دفعتها بالأمس للفقير بمائة درهم، فقال: والله ولا بمائة ألف دينار، ولو طلبت أن تدخل باب القصر الذي رأيته البارحة لما مكنتك الدخول فيه، فقال: ومن كشف لك عن هذا السر المصون ؟ قال: الذي يقول للشيء كن فيكون، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.[1]]

فهذا كان يهودياً فأحسن الظن بيوم عاشوراء، وما كان يعرف فضله فأعطاه الله ما أعطاه من الإكرام، ومنَّ عليه بالإسلام.

الثانية: قال في الروض الفائق أيضاً: كان بالبصرة رجل له مال وثروة وكان في كل سنة يجمع الناس في بيته ليلة عاشوراء يقرؤون القرآن ويهللون ويسبحون ويحيون تلك الليلة بالقراءة، ويمد لهم الطعام ويفتقد المساكين، ويحسن إلى الأرامل والأيتام، وكان له جار وله بنت مقعدة فقالت لأبيها: يا أبت ما بال جارنا يجمع الناس في هذه الليلة، ويحيونها بالقراءة والذكر والصدقة؟ فقال لها: هذه ليلة عاشوراء، ولها حرمة عند الله وفضائل كثيرة، ثم ناموا وسهرت الصبية تسمع القرآن والذكر إلى وقت السمر، فلما ختموا القرآن ودعو رفعت رأسها إلى السماء وقالت: سيدي ومولاي بحق هذه الليلة عندك وبحق هولاء الأقوام الذين باتوا يتلون ذكرك، ساهرين في طاعتك إلا ما عافيتني ومسحت ضري وجبرت قلبي بعد كسري، فما استتمت الكلام إلا وقد زال عنها الأوجاع والأسقام، ونهضت قائمة على الأقدام، فلما نظر أبوها إلى قيامها بعد ضرها وسقامها قال: يا بنية من كشف عنك هذه الغمة ؟ قالت: الذي جاد ولم يبخل علي بالنعمة، يا أبت إني توسلت بهذه الليلة إلى سيدي فأزال ضري وعافى جسدي.

الثالثة: قال في الروض الفائق أيضاً: كان بمصر رجل تاجر في التمر يقال له:

---

(١) ما بين [ ] سقط من الأصل واستكمل من الروض الفائق في المواعظ والرقائق (ص: ٣١٥،٣١٦)

عطية بن خلف وكان من أهل الثروة ثم افتقر لم يبق له سوى ثوب يستر عورته، فلما كان يوم عاشوراء صلى الصبح في جامع عمرو بن العاص، ومن عادة هذا الجامع ألا يدخله النساء إلا في يوم عاشوراء لأجل الدعاء فوقف يدعو مع جملة الناس وهو بمعزل عن النساء فجاءته امرأة ومعها أطفال، فقالت: يا سيدي سألتك بالله ألا ما فرجت عني وآثرتني بشيء استعين به على قوت هؤلاء الأطفال، فقد مات أبوهم وما ترك لهم شيء وأنا امرأة شريفة لا أعرف أحداً أقصده، فقال الرجل في نفسه: أنا ما أملك شيئاً، وما عندي غير هذا الثوب، وإن خلعته انكشفت عورتي، وإن رددتها فأي عذر لي عند رسول الله ﷺ فقال لها: اذهبي معي حتى أعطيك شيئاً، فذهبت معه إلى منـــزله فأوقفها على الباب، ودخل وخلع ثوبه وأتزر بخلق كان عنده ثم ناولها الثوب من شق الباب، فقالت: ألبسك الله من حلل الجنة، ولا أحوجك باقي عمرك، ففرح بدعائها، وأغلق الباب ودخل بيته يذكر الله تعالى إلى الليل، ثم نام فرأى حوراء لم يرى الراؤون أحسن منها وبيدها تفاحة قد عطرت ما بين السماء والأرض، فناولته التفاحة، فكسرها فخرج منها حلة من الجنة، فألبسته الحلة وجلست في حجره، فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا عاشوراء زوجتك في الجنة، قال: فبم نلته؟ قالت: بدعوة الشريفة الأرملة والأيتام بالأمس، فانتبه فرحاً وعنده من السرور ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم قال: إلهي إن كان منامي حقاً وهذه زوجتي في الجنة فاقبضني إليك، فما استتم كلامه حتى عجل الله بروحه إلى دار السلام.

الرابعة: قال في روض الأفكار: أن رجلاً تصدق بسبعة دراهم في يوم عاشوراء أخلف الله عليه ألف درهم وجعل ينتظر بدلها طول السنة، فلما كان يوم عاشوراء سمع بعض العلماء يقول: من تصدق بدرهم في يوم عاشوراء خلف الله عليه ألف درهم فقال: هذا ليس بصحيح، فقد أنفقت سبع دراهم فلم أجد لها عوضاً، فلما كان الليل جاءه رجل بسبعة آلاف درهم، وقال: خذ أيها المكذب ولو صبرت إلى القيامة لكان خيرا لك.

وأنشدوا في يوم عاشوراء فضائل:

الأولى:

لا نـــلت بمـــا ارتجيـــه سرورا ... إن كـــان قلبي عن هواك نفورا

والمـــرء ليـــس بصادق في حبه ... إن لم يكـــن في النائبات صبورا
اشغلتني بهواك عن كل الورى ... فـــلذاك راح القلب فيك أسيرا
لله قـــوم أخلصـــوا في حـــبه ... فكسى وجوههم الوسيمة نورا
تـــركوا النعيم وطلقوا دنياهم ... زهـــداً فعوضـــهم بذاك أجوراً
قـــاموا يناجون الحبيب بأدمع ... تجـــرى فـــتحكي لؤلؤاً منثورا
ستروا وجوههم بأستار الدجى ... فأضـــحت في الـــنهار بـــدورا
عملوا بما علموا وجادوا بالذي ... وجـــدوا فأصبح حظهم موفورا
وإذا بـــدا ليل سمعت حنينهم ... فـــأراحهم يـــوم الـــلقاء كثيرا
تعـــبوا قليلاً في رضى محبوبهم ... فـــأراحهم يـــوم الـــلقاء كثيرا
صـــبروا على بلواهم فجزاهم ... يـــوم القيامـــة جـــنة وحريرا
يا أيها المكب الكئيب إلى متى ... تفـــني زمـــانك باطلاً وغرورا
بـــادر فهذا يوم عاشوراء الذي ... مـــن صـــامه لله نـــال أجوراً
فاضـــرع إلى مولاك فيه وناده ... يـــا واحـــداً في مـــلكه وقديرا
إن لم أكن أهلا لعفوك سيدي ... كـــن أنت أهلا ساتراً وغفورا
مالى سواك وأنت غاية مقصدي ... وإذا رضـــيت فـــنعمة وسرورا

الثانية:

يـــا غاديـــا في غفـــلة ورائحاً ... إلى مـــتى تستحســـن القبائحا
وكـــم إلى كم لا تخاف موقفاً ... يســـتنطق الله بـــه الجوارحـــا
واعجـــباً مـــنك وأنت مصر ... كيـــف تجنبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرأ في غد ... صـــحيفة قد حوت الفضائحا
وكيف ترضى أن تكون خاسراً ... يـــوم يفـــوز مـــن يكون رابحا
فـــاعمل لميـــزانك خيراً فعسى ... يكـــون في يوم الحساب راجحا
وصم فهذا يوم عاشوراء الذي ... مـــا زال بالتقوى شذاه فائحا
يـــوم شـــريف خصـــنا الله به ... يـــا فـــوز من قدم فيه صالحا

الثالثة:

يـــا مـــن يـــروم الفضـــائل ... في يـــوم عاشـــوراء اســـتمع
فإنـــــه في الحقيقـــــة ... يـــوم شـــريف فضـــيل
فـــتب إلى الله واغـــنم ... صـــيامه تـــلقى المـــنى
وإن نويـــت الإنابـــة ... بـــادر إلى الـــتعجيل
وحصـــل الـــزاد واغـــنم ... هـــذي الـــليالي بالـــتقى
وابـــك بدمـــع هـــام ... عـــلى الخـــدود يســـيل
وقـــل يـــا رب إني ... مذنـــب عـــليل ذليـــل
فامـــنن عـــلى بـــتوبة ... فأكـــثر العمـــر انقضـــى
ولا تخيـــب رجـــائي ... فـــالظن فيـــك جميـــل
وليـــس لي مـــن وســـيلة ... وليـــس لي مـــن وســـيلة
إليـــك إلا المصـــطفى ... الهـــاشمي والمفضـــل
بـــالوحي والتـــنزيل ... رســـول رب الـــبرايا
مـــاحي الخطايـــا والـــزلل ... مـــاحي الخطايـــا والـــزلل
هـــو الـــنبي المخصـــص ... بالقـــرب والتـــبجيل
صـــلى عـــليه وســـلم ... رب الســـماوات العـــلى
مـــادامت الـــورق تـــبدي ... عـــلى الغصـــون هديـــل

***

المجلس الثامن والخمسون

في الكلام على صلاة التراويح

وما يتعلق بها وبحديثها من الفوائد واللطائف

الحمد لله المعتز بجلاله، المتفرد بكماله، المتوحد ببدائع أفعاله، الذي أودع جواهر حكمته في صناديق أهل معرفته، وأقفل عليهم بتوثيق أقفاله، ودعاهم إلى حضرة قدسه، وتولاهم بنفسه فخرج كل منهم على أبناء جنسه وأشكاله، قنعوا في المسير باليسير، ونشطوا في الليل كما ينشط الأسير من إغفاله، اجتهدوا ليالي رمضان، طالبين رضا الرحمن، فمنحهم من جزيل فضله ونواله، قاموا في الدجى على أقدام المجتهدين بين يدي مولاهم، فأصبحوا وقد اولاهم من فضله وتولاهم، استعذبوا التعذيب في رضا الحبيب، فصبروا على مرارة أهواله، وتجافوا عن الجفاء وداموا على استعمال الصبر وما أحد يقدر على استعماله، جادوا في محبته بالأموال والأرواح، فحصل لهم السرور والأفراح، وما برح المحب يجود بروحه وماله، سقاهم بكأس منادمته، فاصبحوا من فرط محبته لا يعرف أحدهم يمينه من شماله، فالغارق في ترك لذة هجوعه، والخائف قد تردى برداء ذلته وخضوعه، والمذنب قد بكى بفيض دموعه، والهائم قد خرج عن ربوعه وأطلاله، والمطرود قد خص ببعده، والعاصي قد احترق بنار وجده، والواجد قد خرج من حده متوسلاً بالنبي وآله.

قَالَ البُخَارِي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

كِتَابُ صَلاَةِ التَرَاوِيحِ

بَابُ فَضْلِ مَنْ قَامَ رَمَضَانَ

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لِرَمَضَانَ مَنْ قَامَهُ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه**».

معنى: «**يقول: لرمضان**» أي: لأجله، فاللام فيه كاللام في قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**﴾[الأنفال: ٣٨] أي: قل لأجلهم، أو معناه: لفضله أو اللام فيه بمعنى عن كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً**﴾[الأحقاف: ١١].

قال البرماوي: وقوله «**من قامه**» أي: قام رمضان، والمراد بقيامه أن يصلي صلاة

التراويح في لياليه باتفاق العلماء.

وقوله: «**إيماناً**» أي: مصدقاً بما وعد الله من الثواب عليه، ومعتقداً لفضله.

وقوله: «**واحتساباً**» أي: يريد به وجه الله تعالى، والدار الآخرة من غير رياء ولا سمعة.

وقوله: «**غفر له ما تقدم من ذنبه**» ظاهره: أن الله تعالى يغفر لمن صلى صلاة التراويح الذنوب الصغائر والكبائر.

وبه صرح ابن الملقن في شرحه على هذا الصحيح ولم يذكر غيره حيث قال: «غفر له ما تقدم من ذنبه» قول عام يرجى لمن فعل فيه ما ذكر غفران ذنوبه صغيرها وكبيرها، لأنه لم يستثن ذنباً دون ذنب (انتهى).

لكن المشهور من مذاهب العلماء في هذا الحديث وشبهه من الأحاديث كحديث غفران الخطايا بالوضوء وبصوم يوم عرفة ويوم عاشوراء ونحوه أن المراد غفران الصغائر فقط.

وبه صرح البرماوي تبعاً للكرماني حيث قال: والمعروف أن الغفران يختص بالصغائر، والمراد: بغفران الذنوب سترها وعدم المطالبة بها يوم القيامة.

فائدة: أفاد النووي.

أن من صلى في ليالي رمضان تطوعاً غير التراويح، في أي وقت صلى من الليل حصل فضيلة قيام رمضان، وهي مغفرة الذنوب المتقدمة، كما يحصلها بصلاة التراويح.

قال: ولا ينحصر تحصيل هذه الفضيلة في التراويح على التحقيق.

فائدة أخرى: تحصل مغفرة الذنوب المتقدمة بأشياء منها: قيام رمضان، ومنها: صيامه، ومنها: قيام ليلة القدر، ومنها: صوم يوم عاشوراء، ومنها: الصلوات الخمس، ومنها: موافقة تأمين الملائكة.

فقد ثبت: من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه.

ومنها: غير ذلك.

سؤال: فإن قيل: إذا حصل الغفران ببعض هذه الخصال ونحوها، فماذا يحصل بالبعض الآخر، إذا قام الإنسان رمضان وحصل له بقيامه غفران الذنوب المتقدمة وقام ليلة القدر فما يحصل له بقيامها بعد أن حصل الغفران بقيام رمضان؟

جوابه: أن يقال: إن كل واحد من هذه الخصال ونحوها صالح لغفران الذنوب

المتقدمة، فإن صادفها كفرها، وإن لم يصادفها بأن كان فاعلها سليماً من الصغائر لكونه صغيراً غير مكلف أو موفقاً لم يعمل ذنباً، أو عمله وتاب منه، أو عمله وعقبه بحسنة أذهبته فهذا يكتب له به حسنات، ويرفع له به درجات.

قال بعض العلماء: ويرجى أن يخفف عنه بعض الكبيرة أو الكبائر.

فالحاصل: أن من حصل له الغفران ببعض هذه الخصال، حصل له بالبعض الآخر الحسنات، ورفعه للدرجات فكأنه كفر بها عن خطاياه.

فائدة: صلاة التراويح سنة باتفاق العلماء، ويستحب فيها جميع الأذكار المستحبة كدعاء الافتتاح، واستكمال الأذكار الباقية واستيفاء التشهد، والدعاء بعده وغير ذلك.

نبه عليه النووي، ثم قال: وهذا وإن كان ظاهراً معروفاً نبهت عليه لتساهل أكثر الناس فيه،وحذفهم أكثر الأذكار.

وللإنسان أن يصليها منفرداً والأفضل فعلها مع الجماعة، فهي من النوافل التي يستحب فيها الجماعة.

والحكمة في كونها عشرين ركعة: أن الرواتب في غير رمضان عشر ركعات، فضوعفت فيه لأنه وقت جد وتشمير، ولا تفعل إلا ركعتين ركعتين، فلو صلى أربعاً منها بتسليمة فإنها تصح.

والفرق أن التراويح شرعت فيها الجماعة فأشبهت الفرائض، فلا تغير عما وردت، ولابد من تعيينها بأن ينوي المصلي ركعتين من التراويح أو من قيام رمضان فلا تصح بنية مطلقة، وتكفي لها نية واحدة عند الحنفية على الراجح من مذهبهم، وعند الشافعيه لابد لكل ركعتين من نية.

ويدخل وقتهما بالفراغ من أداء العشاء، ويستمر إلى طلوع الفجر، فمن صلاها بعد دخول وقت العشاء وقبل صلاة العشاء لم تقع من التراويح لعدم دخول وقتها، فلو أخر العشاء إلى آخر الليل فأخر وقتها إلى بعد صلاة العشاء، فإن فات العشاء والتراويح فأراد أن يقضيها جاز له أن يقضيها ويقضي التراويح قبل أن يقضي العشاء.

نعم: لنا شخص يجوز له أن يصلي التراويح أداء قبل مغيب الشفق الأحمر، وهو من جمع بين المغرب والعشاء جمع تقديم فيجوز له أن يصليها قبل مغيب الشفق الأحمر بعد العشاء.

وفعلها بالقرآن كله في جميع الشهر أفضل من تكرير سورة الإخلاص في كل

ركعة، ويكره القيام بالأنعام في كل ركعة منها.

قال النووي في الأذكار: وأما القراءة فالمختار ما قاله الأكثرون وأطبق الناس على العمل به أن يقرأ الختمة بكمالها في التراويح في جميع الشهر، فيقرأ في كل ليلة بنحو جزء من ثلاثين جزءا، ويستحب أن يرتل القراءة ويبينها، وليحذر من التطويل عليهم بقراءة أكثر من جزء.

ليحذر كل الحذر مما اعتاده جهلة أئمة كثير من المساجد من قراءة سور الأنعام بكمالها في الركعة الأخيرة في الليلة السابعة وعشرين من شهر رمضان، زاعمين أنها نزلت جملة واحدة، وهذه بدعة قبيحة وجهالة ظاهرة.

وسميت هذه الصلاة بالتراويح لأنهم كانوا يستريحون بعد كل تسليمتين وتسمى كل أربع منها ترويحة، فهي خمس ترويحات.

وأما أهل المدنية الشريفة فإنهم يصلونها ست وثلاثين ركعة قال الشافعي رحمه الله تعالى: رأيت أهل المدينة يصلونها تسعة وثلاثين ركعة منها ثلاث للوتر، وسبب ذلك: أن أهل مكة كانوا إذا صلوا ترويحة وهي أربع ركعات طافوا أسبوعاً إلا في الأخير، وصلوا في ركعتي إفرادا وأهل المدينة أرادوا أن يشاركوهم في هذه الفضيلة ولا طواف عندهم فجعلوا بين كل ترويحتين أربع ركعات فبلغت ستة عشر، ضمت إلى العشرين فصارت الجملة ستة وثلاثين.

وقيل: سبب ذلك أن عبد الملك كان له تسعة أولاد فصلوا في المدينة فصلى كل واحد منهم ترويحه، وقيل غير ذلك.

وليس لغير أهل المدينة الشريفة أن يصليها مثلهم، لما حصل لهم من الشرف بمهاجرة النبي ﷺ إليهم، ولكون مدينتهم موضع جسده الشريف، وضمت أعضاؤه الشريفة، فلا يستنكر منافستهم لأهل مكة في الاستكثار من أسباب الفضل عند الله بخلاف غيرهم.

***

قَالَ البُخَارِي:

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ -رضى الله عنها- أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ لَيْلَةً مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ، وَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلاَتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَصَلَّوْا مَعَهُ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى، فَصَلَّوْا بِصَلاَتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ، حَتَّى خَرَجَ لِصَلاَةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ «**أَمَّا بَعْدُ، فإنه لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا**». فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ.

معنى الحديث: أن رسول الله ﷺ أول ما صلى صلاة التراويح في المسجد صلاها ثلاث ليال، وصلى معه في الليلة جماعة، فلما أصبحوا تحدث الناس بذلك فازدادوا في الليلة الثانية، فخرج فصلى بهم، فأصبحوا فحدث الناس بذلك فكثروا في الليلة الثالثة، فخرج ﷺ فصلى بهم، فلما كانت الليلة الرابعة امتلأ المسجد حتى عجز عن أهله من كثرهم، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ بعد أن انتظروه إلى ثلث الليل.

فائدة: يحتمل لعدم خروجه ﷺ إليهم وجوها:

الأول: أن يكون الله أوحى إليه أنه إن صلى هذه الصلاة معهم فرضها عليهم.

الثاني: أن يكون ظن أنها ستفرض عليهم لما جرت به العادة في أنه إذا داوم على شيء من القرب فرض على أمته.

الثالث: أن يكون خاف أن يظن أحد من أمته بعده إذا داوم عليها أنها واجبة.

ثم خرج لصلاة الصبح بعد انقضاء الليلة الرابعة، فصلاها بهم فلما فرغ أقبل على الناس ثم خطب خطبة مفتتحة بالتشهد ثم قال: «**أما بعد: فإنه لم يخف علي مكانكم**» أي: مرتبتكم وحالكم في الاهتمام بالطاعة.

أو المعنى: لم يخف علي كونكم في الجماعة.

«**ولكني خشيت أن أداوم عليها فتفرض عليكم**» أي: فتتوهموا فريضتها.

«**فتعجزوا عنها**» والله تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، وهذا من شفقته على أمته فإنه كان بالمؤمنين رحيماً.

وصلاها باقي الشهر في بيته، واستمر ترك صلاة التراويح مع الجماعة مدة حياته ﷺ إلى أن توفى، ومدة حياة أبي بكر فلم يجمع الناس إلى أن توفى.

وفي ابتداء خلافة عمر، ثم جمع الناس عليها جميع شهر رمضان، فإنه ﷺ لما أمن من أن تفرض عليهم في زمنه لانقطاع الوحي أقام هذه وأحياها سنة أربع عشر من الهجرة.

قال ابن الملقن: ذكر أن علياً مر ليلة ببعض مساجد الكوفة في رمضان وهم يقومون فقال: نور علينا عمر مساجدنا نور الله عليه قبره.

فائدة: ثبت في صحيح البخاري عن عمر ﷺ أنه قال في التراويح: نعمت البدعة هذه، فسماها بدعة.

سؤال: فإن قيل: البدعة فعل ما لم يعهد في عصر النبي ﷺ وحده وثبت أنه ﷺ فعلها فكيف سماها بدعة؟

أجاب شمس الأئمة الكرماني عنه بأجوبة:

الأول: أنه لم يثبت فعلها كل ليلة مع الجماعة.

الثاني: أنه لم يثبت فعلها بهذه الصفة أي: بهذا العدد المعين.

الثالث: أنه لم يثبت فعلها أول الليل.

ولهذا قال الحليمي في منهاجه: ينبغي أن يكون المشروع في صلاة التراويح بعد مضي ربع الليل أو قريباً منه، سواء أخر العشاء إلى ذلك الوقت ثم قام، أو صلاها واستمر مستيقظاً إلى ذلك الوقت.

وأما إطباق الناس على فعل التراويح عقب العشاء والعشاء فهو من البدع المحدثة كما يدل عليه السنة، وكلام فحول الأئمة.

وقوله في الحديث: «**فخرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد**» يدل على ما قاله الحليمي، وكان من خواص السلف أنهم لا يصلونها إلا بعد الاستيقاظ من النوم ليعد المصلي حينئذ متهجداً.

سؤال آخر: فإن قيل: البدعة تنقسم إلى خمسة أقسام: واجبة، ومندوبة، ومحرمة، ومكروهة، ومباحة، فمن أي: قسم صلاة التراويح؟

جوابه: أنها من قسم المندوبة، فهي بدعة مندوبة، وقد صرح بذلك ابن عبد السلام في قواعده.

فمثل البدعة الواجبة كمتعلم النحو لأجل القرآن والحديث النبوي.

والمحرمة بمذهب القدرية والمجسمة، وقال: إن الرد عليهم من البدع الواجبة.

والمندوبة بصلاة التراويح وبناء المدارس ونحوها.

وللمكروهات بزخرفة المساجد وتزويق المصاحف.

وللمباحة بالمصافحة بعد صلاة العصر.

ويستفاد ذلك من قول سيدنا عمر: «**نعمت البدعة هذه**» فإن «نعم» كلمة تجمع المحاسن كلها، كما أن ضدها وهو «بئس» كلمة تجمع المساوئ كلها، فعبر بنعم ليدل على فضلها، وإنها بدعة حسنة.

وأيضاً عبر بذلك لئلا يمنع هذا اللقب من فعلها بل هي بالحقيقة ليست بدعة لسن عمر ﷺ لها، وقد قال ﷺ: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر» كما صرح بذلك البرماوي تبعاً للكرماني.

قال البرماوي: قلت: إذا أجمع الصحابة معه عليه زال عنه اسم البدعة.

فائدة أخرى: سئل شيخنا العلامة السيوطي مرات هل صلى النبي ﷺ التراويح عشرين ركعة كما نفعل الآن أو لا؟

فأجاب بقوله: الذي وردت به الأحاديث الصحيحة والحسان والضعيفة الأمر بقيام رمضان والترغيب فيه من غير تخصيص بعدد، ولم يثبت أنه ﷺ صلى عشرين ركعة، وانما صلى ليالي لم يذكر عددها، ثم نقل عن بعض العلماء أنه قال: بأنه ﷺ صلاها عشرين ركعة، واستدل بحديث رواه ابن أبي شيبة في مسنده والبغوي في معجمه والطبراني عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ كان يصلي في رمضان عشرين ركعة والوتر»، ورده من وجوه:

الأول: أن الحديث ضعيف جداً لا تقوم به حجة.

الثاني: أنه ثبت في صحيح البخاري وغيره أن عائشة رضي الله عنها سئلت عن قيام رسول الله ﷺ في رمضان فقالت: ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشر ركعة أي: فلو ثبت أنه صلاها عشرين لحصلت المعارضة بهذا.

الثالث: أنه قد ثبت في صحيح البخاري عن عمر أنه قال في التراويح: «نعمت البدعة هي» فسماها بدعة، وذلك صريح في أنها لم تكن في عهد رسول الله ﷺ.

الرابع: أن العلماء اختلفوا في عددها، روي عن الأسود بن يزيد أنه كان يصليها أربعين ركعة غير الوتر.

ونقل عن مالك أنه قال: التراويح ستة وثلاثون ركعة غير الوتر، لقول نافع أدركت الناس يقومون رمضان بتسع وثلاثين ركعة يوترون منها بثلاث.

ولو ثبت ذلك من فعل النبي ﷺ لم يختلف فيه كعدة الوتر والرواتب.

الخامس: أنها تستحب لأهل المدينة ستاً وثلاثين ركعة، ولو ثبت عددها بالنص لم تجز الزيادة عليه، وأهل المدينة والصدر الأول كانوا أورع من ذلك.

ثم قال: فالحاصل أن العشرين لم يثبت من فعله ﷺ ثم نقل عن الأذرعي أنه قال في التوسط: وأما ما نقل عنه ﷺ أنه صلى في الليلتين اللتين خرج فيها عشرين ركعة، فهو منكر.

وعن الزركشي أنه قال في الخادم: دعوى أن النبي ﷺ صلى في تلك الليلة عشرين ركعة لم يصح، بل الثابت في الصحيح الصلاة من غير ذكر عدد.

فائدة أخرى مناسبة: مما يكفر الذنوب المتقدمه كقيام رمضان؛ الاستغفار، قال ابن رجب في اللطائف الاستغفار من أعظم أسباب المغفرة، فإن الاستغفار دعاء بالمغفرة، ودعاء الصائم مستجاب في حال صيامه، وعند فطوره، وهو من أهم ما يعتنى به ويحافظ على العمل به.

وختمنا الكلام به على صلاة التراويح تفاؤلاً بأن يختم الله الكريم لنا به.

وإنه ينبغي للصائم أن يحافظ عليه ويعتني به في شهر رمضان أشد محافظة واعتناء به من غيره، لأنه شهر المغفرة واستجابة الدعاء.

وقد دل على فضله الكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾[غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿**وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾[النساء: ١٠٦]، وقال: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[الأنفال: ٣٣] وقال: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾[محمد: ١٩]، وقال: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[آل عمران: ١٣٥]، وقال: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾[النساء: ١١٠]، وقال: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**﴾[هود: ٣]، وقال إخباراً عن نوح: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً**﴾[نوح: ١٠]، وقال إخباراً عن هود: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**﴾[هود: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الواردة في الاستغفار.

وأما الأحاديث الواردة في الاستغفار فكثيرة، لا يمكن استقصاؤها.

روينا في صحيح مسلم عن الأغر المزني الصحابي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه لَيُغَانُ على قلبي وإني لاستغفر الله في اليوم مائه مرة**»[١].

وروينا في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[٢].

وروينا في صحيح البخاري عن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء بنعمتك علي وأبوءُ بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها في الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**»[٣] ومعنى «أبوء» أقر وأعترف، وهو بضم الباء بعد الواو همزة ممدودة.

وروينا في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم»[٤] قال الترمذي: حديث صحيح.

وروينا في سنن أبي داود وابن ماجة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٧٥/٤ ، رقم ٢٧٠٢) عن الأغر المزني.
وأخرجه أيضاً : أبو داود في سننه (٨٤/٢ ، رقم ١٥١٥) ، وأحمد في مسنده (٢١١/٤) ، وعبد ابن حميد في مسنده (١٤٢/١، رقم ٣٦٤) ، والطبراني في المعجم الكبير (٣٠٢/١ ، رقم ٨٨٧) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٢٤/٥ ، رقم ٥٩٤٨) عن أبي هريرة.
وأخرجه أيضاً : النسائي في السنن الكبرى (١١٤/٦ ، رقم ١٠٢٦٩)، وأحمد في مسنده (٢٨٢/٢ ، رقم ٧٧٨٠) ، وابن حبان في صحيحه (٢٠٤/٣ ، رقم ٩٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٢٣/٥ ، رقم ٥٩٤٧) عن شداد بن أوس.
وأخرجه أيضاً : الترمذي في سننه (٤٦٧/٥ ، رقم ٣٣٩٣) ، والنسائي في سننه (٢٧٩/٨ ، رقم ٥٥٢٢) ، وأحمد في مسنده (١٢٢/٤).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٨٥/٢ ، رقم ١٥١٦) ، والترمذي في سننه (٤٩٤/٥ ، رقم ٣٤٣٤) وقال : حسن صحيح غريب ، وابن ماجه في سننه (١٢٥٣/٢ ، رقم ٣٨١٤) عن ابن عمر.
وأخرجه أيضاً : النسائي في السنن الكبرى (١١٩/٦ ، رقم ١٠٢٩٢) ، وأحمد في مسنده (٢١/٢، رقم ٤٧٢٦).

لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»[١].

وروينا في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»[٢].

وروينا في كتاب الترمذي عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا بن آدم لو آتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**»[٣] قال الترمذي حديث حسن.

قال النووي: «عنان السماء» بفتح العين السحاب، واحدها «عنانة»، وقيل: هو ما عن لك منها أي: اعترض وظهر لك إذا رفعت رأسك.

«وقراب الأرض» روي بضم القاف وكسرها والضم هو المشهور، ومعناه: ما يقارب ملأها.

وروينا في سنن ابن ماجة بإسناد جيد عن عبد الله بن بسر قال: قال رسول الله ﷺ: «**طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً**»[٤].

وروينا في سنن أبي داود والترمذي عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف**»[٥]. قال الحاكم: هذا صحيح على شرط البخاري ومسلم[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢/٨٥ ، رقم ١٥١٨)، وابن ماجه (٢/١٢٥٤ ، رقم ٣٨١٩) عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٠٦ ، رقم ٢٧٤٩) عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٥/٥٤٨ ، رقم ٣٥٤٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وما نقله المصنف من أن الترمذي حسنه فربما هي نسخة أخرى غير التي تحت يدنا.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/١٢٥٤ ، رقم ٣٨١٨) عبد الله بن بسر.
وأخرجه أيضاً : النسائي في السنن الكبرى (٦/١١٨ ، رقم ١٠٢٨٩) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٢/٨٥ ، رقم ١٥١٧) ، والترمذي في سننه (٥/٥٦٨ ، رقم ٣٥٧٧) عن بلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ عن أبيه عن جده .
قال الترمذي : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٦) الحديث لم نقف عليه عند الحاكم ، ويحتمل أن الكلام على الحديث الآتي بعده فإنه عند الحاكم ، ويبدوا أنه انتقال نظر من الناسخ.

وجاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**ما من مسلم يعمل ذنباً إلا وقف له الملك الموكل بإحصاء ذنوبه ثلاث ساعات، فإن استغفر الله من ذنبه في شيء من تلك الساعات لم يوقعه عليه ولم يعذب يوم القيامة**»(١).

وجاء في حديث آخر: «**أن إبليس قال لربه: وعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال له ربه: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني**»(٢).

وورد في الحديث: «**ما من حافظين يرفعان إلى الله في يوم صحيفة فيرى في أول الصحيفة استغفار وفي آخرها استغفار إلا قال الله تبارك وتعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة**»(٣).

قال أبو المنهال: المنال ما جاور عبد في قبره من جار أحب إليه من استغفار كثير.

وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم، وفي طرقكم وفي

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٩١/٤ ، رقم ٧٦٧٥) عن أم عصمة العوصية مرفوعاً .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

وأخرجه أيضاً : الطبراني في المعجم الأوسط (١٠/١ ، رقم ١٧).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٨/١٠): رواه الطبراني وفيه أبو مهدي سعيد بن سنان وهو متروك.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣ ، رقم ١١٢٦٢) ، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٣٣/٨ ، رقم ٨٧٨٨) ، وأبو يعلى في مسنده (٤٥٨/٢ ، رقم ١٢٧٣) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣٣٢) عن أبي سعيد الخدري.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٧/١٠): رواه احمد وأبو يعلى بنحوه ، والطبراني في الأوسط وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح ، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٦٢/٥ ، رقم ٢٧٧٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩١/٥ ، رقم ٧٠٥٣) ، والديلمي في الفردوس (٥٤/٤ ، رقم ٦١٧٠) عن أنس بن مالك .

والبزار كما في مجمع الزوائد (٢٠٨/١٠) قال الهيثمي : وفيه تمام بن نجيح وثقه ابن معين وغيره وضعفه البخاري وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح.

ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٧٩١/٢) ووقال : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ قال ابن حبان تمام منكر الحديث جدا ، يروي أشياء موضوعة عن الثقات كأنه المتعمد لها.

أسواقكم، وفي مجالسكم أينما كنتم فإنكم لا تدرون متى تنـــزل المغفرة.

وقال لقمان لابنه: يا بني عود لسانك الاستعفار، فإن لله ساعات لا يرد فيهن سائلاً.

وفي بعض الآثار: أن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار.

وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار في قوله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**﴾[محمد: ١٩] وتعميم الاستعفار بأن يستغفر الله له ولأخوانه المسلمين والمسلمات أولى من تخصيصه.

فقد ورد عن أبي بررة أن عليه الصلاة والسلام سمع رجلاً يقول: اللهم اغفر لي فقال: «**ويحك لو عممت لاستجيب لك**».

وورد: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة».

وورد أنه عليه الصلاة والسلام خرج من الصلاة، وعمر يدعو فقال: اللهم اغفر لي وارحمني فضرب منكبه ثم قال له: «**عمم في دعائك، فإن بين دعاء العام والخاص كما بين السماء والأرض**».

وروى المستغفري في دعواته مرفوعاً: «ما من دعاء أحب إلى الله ﷻ من قول العبد: اللهم اغفر لأمة محمد رحمة عامة»[1].

واطلب أيها العبد الدعاء بالمغفرة ممن قلت ذنوبهم أو محيت أو لم يكن لهم ذنب كالصالحين والعلماء العاملين والصبيان الموفقين.

وروي عن عمر أنه كان يطلب من الصبيان الاستغفار ويقول: إنكم لم تذنبوا.

وكان أبو هريرة يقول لصبيان الكتاب: قولوا اللهم اغفر لأبي هريرة، فيقولون: فيؤمن على دعائهم.

وينبغي لمن قال: استغفر الله أن يستحضر طلب المغفرة بقلبه، ويلجأ إليه به، فإن

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٣٥٠/٢ ، ترجمة: ٩٥٣ عبد الرحمن بن يحيى بن سعيد الأنصاري) .

قال العقيلي : مجهول بالنقل لا يقيم الحديث ، ومن حديثه فساق إسناده وأخرج هذا الحديث.

وذكره ابن حبان في المجروحين (٧٤/٢) وأخرج له هذا الحديث ثم قال : وما أعلم أني سمعت بذكر عبد الرحمن بن يحيى بن سعيد إلا في هذا الحديث ، وكأنه وضعه.

استغفر الله بلسانه وقلبه لاه غافل عن طلب المغفرة، فإن ذلك ذنب عقابه الحرمان.

فلهذا قالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير.

وأفاد النووي: أنها قالت ذلك في حق من يستغفر وهو مصر على المعصية.

ونقل عن الفضيل بن عياض أنه قال: استغفار بلا إقلاع، توبة الكذابين، فقال: إن كلام رابعة يقارب كلامه.

ونقل عن بعض الأعراب أنه تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم إن استغفاري لوم، وان تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك عجز، فكم تتحبب إلي بالنعم مع غناك عني، وأبتغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفا، وإذا تواعد تجاوز وعفا أدخلني يا عظيم في عظيم عفوك، يا أرحم الراحمين.

وجاء في الحديث عن أنس أنه قال: قال ﷺ: «من ألهم خمسة لم يحرم خمسة، من ألهم الدعاء لم يحرم الإجابة، لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[غافر: ٦٠]، ومن ألهم التوبة لم يحرم القبول، لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾[الشورى: ٢٥]، ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[إبراهيم: ٧]، ومن ألهم الاستغفار لم يحرم المغفرة، لأن الله تعالى يقول: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً**﴾[نوح: ١٠] ، ومن ألهم المنفق لم يحرم الخلف، لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾[سبأ: ٣٩] ولقد أحسن من قال:

تعطف بفضل منك يا مالك الورى ... فأنت ملاذي وسيدي ومعيني
لئن أبعدتني عن حماك خطيئتي ... فإن رجائي شافعي ويقيني
وظني جميل إنني بك واثق ... وأن جميل العفو منك يقيني

***

المجلس التاسع والخمسون

في ذكر شيء من فضائل شهر رمضان
وذكر فوائد من ذلك من الفقه وغيره

الحمد لله المتوحد بجلال البهاء، المتفرد بدوام البقاء، المتعالي عن الزوال والفناء، المقدس عن الآباء والأبناء، المتردي برداء العظمة والكبرياء، العالم بجميع الأشياء، الذي جل في ذاته عن الابتداء والانتهاء، البصير الذي يبصر دبيب النمل في الليلة الظلماء، العليم الذي لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، الحليم الذي يسبل على من عصاه جميل الستر والغطاء، المنعم على من اتقى بجزيل النعم والعطاء، الحكيم الذي رفع السماء بغير عمد في الهواء، وبسط بساط الأرض بحكمته على تيار الماء، الذي تعالى عن الأضداد والأنداد والقرناء، وجل من الصاحبة والأولاد والشركاء، لا يستتر عنه سر الضمير في جميع الأوقات والآناء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فسبحان من قدر الأزمان، وفصل الفصول، وأغرق في بحر معرفته الأفكار والعقول، وحير كنه ذاته الأفهام، ما لها إلى معرفة صمديته وصول، وخص شهر رمضان بالعفو والغفران البشر والقبول، ووعد من صامه ببلوغ المقصود والمأمول، فطوبى لمن تلقاه بالعمل الصالح، وطهر فيه الجوارح من الشك والغلول، فانتبه أيها الغافل من سنة الغفلة وبادر، وما دام في الوقت مهلة قبل مسير القفول ؛ أحمده على صنوف الإنعام والإحسان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خفيفة على اللسان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الأكوان، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وذريته وعلى التابعين لهم بإحسان.

قَالَ البُخَارِي :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

كتاب الصوم

قال العلماء : الصوم في اللغة الإمساك، ومنه قوله تعالى حكاية عن مريم ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً**﴾ [مريم : ٢٦] أي إمساكا وسكوتا عن الكلام.

وفي الشرع : إمساك مخصوص في زمن مخصوص من شخص مخصوص بشرطه.

وصوم رمضان أحد أركان الإسلام بالإجماع، وقد اشتهر حتى صار معلوما من الدين بالضرورة، فإن جحد المكلف وجوبه كفر ؛ لأن كل مجمع عليه معلوم من الدين

بالضرورة إذا جحد المكلف وجوبه كفر كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك.

أما إذا كان المجمع عليه لا يعرفه إلا الخواص كأهل العلم، فلا يكفر جاحده، ولكن يعرف الصواب ليعتقده، وذلك كاستحقاق بنت الابن السدس مع بنت الصلب، وعقد النكاح على المرأة وهى في العدة، فإن العلماء أجمعوا على أن بنت الابن تستحق مع بنت الصلب السدس، وأجمعوا على أن عقد النكاح على المرأة وهى في العدة حرام باطل، ولكن لم يشتهر ذلك بين الناس الخاص والعام، وإنما يعرفه أهل العلم ومن سمع ذلك منهم.

وها هنا مسائل وفوائد نفسية متعلقة بالصوم

الأولى : كان فرض الصوم بالمدينة في شهر شعبان في السنة الثانية من الهجرة قال ابن الملقن : الذي علية المؤرخون أن فريضة رمضان إنما نزلت في شهر شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة.

وأما فرض الزكاة، فإنه كان بعد فرض الصوم، وقيل : كان قبله.

وأما فرض الحج فإنه كان سنة ست، وقيل : سنة خمس.

والصلاة فرضت قبل الجميع في مكة ليلة المعراج.

الثانية : اختلف العلماء في أفضل عبادات البدن :

فقيل : الصوم أفضل أعمال القرب.

وقيل : الحج وبه صرح القاضي حسين.

وقيل : الطواف وبه قال الماوردي ورجحه الشيخ عز الدين بن عبد السلام في أحد قوليه، واختاره الكيا الهراسي، واستدلوا على ذلك براوية عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ «**ينـــزل الله على هذا البيت في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين**»[1].

قال الماوردي : فجعل للطائف أكثر من المصلي، فدل على أن الطواف أفضل ؛ لكن قال الشيخ عز الدين هذا الحديث ضعيف، فلا حجة فيه.

وقيل : الجهاد أفضل وبه قال ابن أبي عصرون.

وقيل : الصلاة بمكة أفضل، والصوم بالمدينة أفضل نظرا إلى محل فرضيتهما.

---

(١) أخرجه الطبراني (١١/١٩٥، رقم ١١٤٧٥).

قال الهيثمي (٣/٢٩٢) : فيه يوسف بن السفر، وهو متروك.

وقيل : الطواف للغرباء أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل واختاره المحب الطبري، ونقله عن ابن عباس وغيره.

وقيل : الدعاء أفضل، وصرح به الغزالي في أول كتابه وسائل الحاجات.

والصحيح الذي قاله جمهور العلماء وصححه النووي والدميرى والبلقينى وغيرهم: أن الصلاة أفضل عبادات البدن بدلائل :

منها أن الله تعالى سماها إيمانا في قوله تعالى ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ [البقرة : ١٤٣] أي صلاتكم لبيت المقدس.

ومنها أنه ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال : سألت النبي ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ - وفي رواية أفضل - قال «**الصلاة لوقتها**» [(١)].

ومنها حديث «**استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**» [(٢)] راوه ابن ماجه والحاكم وقال : صحيح على شرط

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٩٧، رقم ٥٠٤)، ومسلم (١/٨٩، رقم ٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/١٠١، رقم ٢٧٧)، قال البوصيري (١/٤١) : هذا الحديث رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة. وأخرجه الحاكم (١/٢٢٠، رقم ٤٤٧). وأخرجه أيضا : الدارمي (١/١٧٤، رقم ٦٥٥)، وابن حبان (٣/٣١١، رقم ١٠٣٧)، والطيالسي (ص ١٣٤، رقم ٩٩٦)، وأحمد (٥/٢٧٦، رقم ٢٢٤٣٢)، والبيهقي (١/٨٢، رقم ٣٨٩)، والطبراني في الكبير (٢/١٠١ رقم ١٤٤٤)، وفي الشاميين (٢/٢٧٧، رقم ١٣٣٥)، وفي الصغير (١/٢٧، رقم ٨)، والروياني (١/٤٠٤، رقم ٦١٤) عن ثوبان.

قال المناوي : (١/٤٩٧) : قال الحافظ العراقي في أماليه : حديث حسن رواته ثقات، إلا أن في سنده انقطاعًا بين سالم وثوبان.

وأخرجه ابن ماجه (١/١٠٢، رقم ٢٧٨)، قال البوصيري (١/٤١) : إسناده ضعيف من أجل ليث ابن أبي سليم. والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٧، رقم ٢٨٠٣)، والبزار (٦/٣٥٨ رقم ٢٣٦٧) عن ابن عمرو.

قال المناوي (١/٤٩٧) : قال مغلطاي : إسناده لا بأس به.

وأخرجه الطبراني (٧/٢٥، رقم ٦٢٧٠) عن سلمة بن الأكوع.

قال الهيثمي (٢/٢٥٠) : رواه الطبراني في الكبير عن محمد بن عبادة، عن أبيه، ولم أجد من ترجمه.

وقال المناوي (١/٤٩٧) : قال الدميري ذكره الرافعي في مجلس العشرين في أماليه، وقال ما ملخصه : إنه حديث ثابت. =

الشيخين.

ومنها حديث أبي أيوب «**كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة**» [١] رواه أحمد بإسناد حسن.

ومنها ما رواه أبو هريرة مرفوعا «**الصلاة خير موضوع من شاء فليستكثر**» [٢] أخرجه الطبراني في الأوسط.

ومنها ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما «أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن أفضل الأعمال فقال رسول الله ﷺ الصلاة. قال : ثم مه؟ قال : الصلاة. قال: ثم مه. قال : الجهاد في سبيل الله... الحديث» [٣] رواه أحمد وابن حبان في صحيحه واللفظ له.

ومنها ما رواه عبد الله بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله**» قال المنذري : ولا بأس بإسناده إن شاء الله تعالى [٤].

= وأخرجه الحاكم (١/٢٢٢، رقم ٤٥٠) عن جابر.

وأخرجه الحارث كما في بغية الباحث (١/٢٣٩، رقم ١٠٨) عن ابن عمر.

(١) أخرجه أحمد (٥/٤١٣، رقم ٢٣٥٥٠)، قال المنذري (١/١٤٦) والهيثمي (١/٢٩٨) : إسناده حسن. وأخرجه أيضا : الطبراني (٤/١٢٦، رقم ٣٨٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/٨٤، رقم ٢٤٣).

وضعفه المنذري (١/١٥٣) وقال : رواه الطبراني في الأوسط. قال الهيثمي (٢/٢٤٩) : فيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد (٢/١٧٢، رقم ٦٦٠٢)، وابن حبان (٥/٨، رقم ١٧٢٢).

(٤) أورده المنذري في الترغيب والترهيب عن عبد الله بن قرط (١/١٥٠) وقال : رواه الطبراني في الأوسط، ولا بأس بإسناده إن شاء الله.

وللحديث شواهد منها :

ما أخرجه النسائي (١/٢٣٢، رقم ٤٦٥)، والحاكم (١/٣٩٤، رقم ٩٦٥) وقال : صحيح الإسناد. والطبراني في الشاميين (١/١٠١، رقم ١٥١) عن أبي هريرة.

وما أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/٢٤٠، رقم ١٨٥٩)، والضياء من طريق الطبراني (٧/١٤٤، رقم ٢٥٧٨) عن أنس بن مالك.

قال الهيثمي (١/٩٢) : فيه القاسم بن عثمان قال البخاري : له أحاديث لا يتابع عليها، وذكره ابن حبان في الثقات وقال : ربما أخطأ.

وأيضا إنما فضلت الصلاة على غيرها من عبادات البدن لأنها تجمع من القرب ما تفرق في غيرها من ذكر الله تعالى، وذكر رسوله ﷺ والقراءة والتسبيح، واللبث والاستقبال، والطهارة والستارة، وترك الأكل والكلام، فما حوته من مقاصد التكليف لا تجتمع في عبادة غيرها، فإن باطنها الحضور بين يدي الله تعالى، وذلك مقصودة التكليف، وظهرها شغل جميع الجوارح بالطاعة، ومنعها من العاديات، ولهذا قال ﷺ «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**» (١).

وقال تعالى «**ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه... الحديث**»(٢).

ففيها فرائض ليست في غيرها قال الشيخ محيي الدين النووي : وليس المراد من قولهم : الصلاة أفضل من الصوم. من أن صلاة ركعتين أفضل من صيام أيام أو يوم، فإنما صيام يوم أفضل من ركعتين، وإنما معناه : إن من أمكنه الاستكثار من الصوم والصلاة، فأراد أن يستكثر من أحدهما، ويقتصر من الآخر على المتأكد منه، فهذا محل الخلاف، فعلى قول الجمهور الاستكثار من الصلاة أفضل، وإنما قلنا أفضل عبادات البدن لإخراج عبادات القلب كالإيمان والمعرفة والتوكل ونحوه، فإنها أفضل من العبادات البدنية، وأفضلها الإيمان، ولإخراج العبادات المالية كالزكاة فإن أبا علي الفارقي قال : إنها أفضل من العبادات البدنية لتعدى النفع بها.

ونازعه الشيخ عز الدين وقال : إن العبادات البدنية أفضل من المالية، ويؤيده أن الإمام الشافعي قال : إن الصلاة أعظم من الزكاة.

الثالثة : يستحب لمن رأى هلال رمضان أو غيره أن يكبر وأن يقول : اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله.

---

(١) أخرجه النسائي (٦١/٧، رقم ٣٩٣٩)، وابن سعد (٣٩٨/١)، وأحمد (١٢٨/٣، رقم ١٢٣١٥)، وأبو يعلى (٢٣٧/٦، رقم ٣٥٣٠)، والحاكم (١٧٤/٢، رقم ٢٦٧٦) وقال : صحيح علي شرط مسلم. والبيهقي (٧٨/٧، رقم ١٣٢٣٢)، والضياء (٤٢٧/٤، رقم ١٦٠٨) عن أنس بلفظ : «حبب إلي من دنياكم ثلاث : النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة».

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٨٤/٥، رقم ٦١٣٧)، وابن حبان (٥٨/٢، رقم ٣٤٧)، والبيهقي (١٠ /٢١٩، رقم ٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١) عن أبي هريرة بلفظ : «إن الله قال من عادي لي وَلِيًّا فقد آذَنْتُهُ بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتي أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه وإن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

روينا في مسند الدارمي، وكتاب الترمذي عن طلحة بن عبيد ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال «**اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله**» قال الترمذي : حديث حسن [١].

وروينا في مسند الدارمي أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال «**الله أكبر اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والسلام والتوفيق لما تحب وترضى ربنا وربك الله**» [٢].

وروينا في سنن أبي داود في كتاب الأدب عن قتادة أنه بلغه أن نبي الله ﷺ كان إذا رأى الهلال قال «**هلال خير ورشد هلال خير ورشد هلال خير ورشد ثم يقول الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا**» [٣].

وفي رواية عن قتادة «أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال صرف وجهه عنه» [٤] هكذا رواهما أبو داود مرسلين.

ونقل في نزهة المجالس عن سيدنا على ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «**إذا رأيت الهلال أول الشهر فقل الله أكبر ثلاثا الحمد لله الذي خلقني وخلقك وقدر لك منازل وجعلك آيه للعالمين يباهي الله بك الملائكة ويقول يا ملائكتي اشهدوا أنى قد أعتقت هذا العبد من النار**».

وروينا في مسند أحمد أنه كان يقول «**الله أكبر الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وأعوذ بك من شر القدر ومن شر المحشر**»[٥].

قال السبكي : ويستحب أن يقرأ بعد ذلك سورة تبارك لأمر ورد في ذلك، ولأنها المنجية الواقية. قال : والحكمة في قراءتها أنها ثلاثون آية بعدد أيام الشهر، أي فلعل ينجي الله تعالى العبد بقراءتها عند رؤية الهلال، ويحفظه جميع أيام الشهر ببركة كل آية منها، بل يستحب قرأتها كل ليلة لأنها تنجي من عذاب القبر، كما ورد في ذلك أخبار

---

(١) أخرجه الدارمي (٢/٧، رقم ١٦٨٨)، والترمذي (٥/٥٠٤، رقم ٣٤٥١) وقال : حسن غريب.

(٢) أخرجه الدارمي (٢/٧، رقم ١٦٨٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤/٣٢٤، رقم ٥٠٩٢).

(٤) أخرجه أبو داود (٤/٣٢٥، رقم ٥٠٩٣).

(٥) أخرجه أحمد (٥/٣٢٩، رقم ٢٢٨٤٣).

وآثار منها :

ما أخرجه عبد الرحمن في مسنده عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال : بلى. قال : اقرأ تبارك الذي بيده الملك، وعلمها أهلك، وجميع ولدك، وصبيان بيتك، وجيرانك، فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن ينجيه من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر [(١)].

وأخرج خلف بن هشام في فضائل القران، والحاكم وصححه، والبيهقى عن ابن مسعود قال : سورة الملك هى المانعة تمنع من عذاب القبر، يؤتى صاحبها في قبره من قبل رأسه، فيقول رأسه لا سبيل على إنه وعى بي سورة الملك، ثم يؤتى من قبل رجليه، فتقول رجلاه ليس لك على سبيل إنه كان يقوم في سورة الملك [(٢)].

وهى إحدى الأشياء التي تنجى من عذاب القبر، فقد ذكر العلماء أشياء تنجى من عذاب القبر :

منها الموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة، فقد أخرج أبو يعلى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ «**من مات يوم الجمعة وقى عذاب القبر**» [(٣)].

وأخرج البيهقي عن عكرمة بن خالد المخزومي قال : من مات يوم الجمعة ختم بخاتم الإيمان، ووقى عذاب القبر، بل قالوا : إذا مات المسلم العاصي في غير يوم الجمعة وليلة الجمعة، وعذب في قبره، فإذا جاءت ليلة الجمعة ويومها رفع الله عنه العذاب.

قال اليافعي : بلغنا أن الموتى لا يعذبون ليلة الجمعة تشريفا لهذا الوقت.

قال : فيحتمل اختصاص ذلك بعصاة المسلمين دون الكفار.

قال : وأما المسلم العاصي فإنه يعذب في قبره لكن يرفع عنه يوم الجمعة وليلتها، ثم لا يعود إليه إلى يوم القيامة.

وذهب بعضهم إلى أن المسلم العاصى إذا مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة يكون له العذاب ساعة واحدة، ثم ينقطع عنه العذاب، ولا يعود إليه إلى يوم القيامة.

ومنها : الموت في رمضان ينجى من عذاب القبر، وكذا لو مات في غير رمضان،

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٤/٣٩٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٥٤٠، رقم ٣٨٣٩) وقال : صحيح الإسناد. والبيهقي في السنن الصغرى (١/٥٥٣، رقم ١٠١١).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٧/١٤٦، رقم ٤١١٣).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٣١٩) : رواه أبو يعلى، وفيه يزيد الرقاشي، وفيه كلام.

ثم جاء رمضان فإنه يرفع عنه العذاب لشرف رمضان، بل عمم النسفي في بحر الكلام فقال : الكافر يرفع عنه العذاب يوم الجمعة وليلتها وجميع شهر رمضان كما يرفع عن المسلم العاصي، وسنذكر بقية من ينجو من عذاب القبر في محله.

الرابعة : لما كان شهرا مباركا جليلا شرعت التهنئة فيه، فيهنئ الإنسان بقدومه إخوانه من المسلمين، بأن يقول لمن رآه منهم : جعل الله هذا الشهر مباركا علينا وعليكم، وأبشر بشهر مبارك علينا وعليكم. فقد أفاد ابن رجب وغيره : أن النبي ﷺ كان يبشر أصحابه فيقول «**قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك كتب الله عليكم صيامه... إلخ**».

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن سلمان الفارسي قال : خطب رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال «**أيها الناس أنه قد أظلكم شهر عظيم شهر فيه ليلة خير من ألف شهر... الحديث**» [(١)].

فهذا أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضا بشهر رمضان، وقد صنف شيخنا العلامة الشيخ جلال الدين السيوطي كتابا ذكر فيه : أن يهنئ الإنسان بالفضائل العلية، ويهنئ بالتوبة، ويهنئ بالعافية من مرض، ويهنئ تمام الحج، ويهنئ بقدومه من الحج، ويهنئ بعقد النكاح، ويهنئ بمولود ولد له، ويهنئ بالعيد، ويهنئ بشهر رمضان وغير ذلك، والتهنئة في كل واحد من هؤلاء بما يليق به وجاء في الحديث أن النبي ﷺ كان

---

(١) أخرجه أيضا ابن خزيمة (١٩١/٣، رقم ١٨٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٥/٣، رقم ٣٦٠٨)، والحارث كما في بغية الباحث (٤١٢/١، رقم ٣٢١)، وابن عدي (٢٩٣/٥ ترجمة ١٤٣٢ عبد العزيز بن عبد الله) وقال : عامة ما يرويه لا يتابعه عليه الثقات.

ونص الحديث «يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر مبارك فيه ليلة خير من ألف شهر جعل الله صيامه فريضة وقيامه تطوعا من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة وشهر المواساة وشهر يزاد فيه رزق المؤمن من فطر فيه صائما كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيئا يعطي الله هذا الثواب من فطر صائما على مذقة لبن أو تمرة أو شربة من ماء ومن أشبع صائما سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار فاستكثروا فيه من أربع خصال خصلتان ترضون بهما ربكم وخصلتان لا غنى لكم عنهما فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه وأما اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار».

يدعو ببلوغ رمضان، فكان إذا بلغ شهر رجب قال «**اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان**» [(١)] خرجه الطبراني وغيره من حديث أنس.

وقال معلى بن الفضل : كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم.

وكان يحيى بن أبي كثير من دعائه : اللهم سلمني إلى رمضان، وسلم لى رمضان، وتسلمه مني متقبلا.

قال ابن رجب : بلوغ شهر رمضان، وصيامه نعمة عظيمة على من قدره الله عليه، ويدل عليه حديث الثلاثة الذين استشهد اثنان منهم، ثم مات الثالث على فراشه بعدهما، فرؤى في النوم سابقا فقال النبي ﷺ «**أليس صلى بعدهما كذا وكذا وأدرك رمضان فصامه فوالذي نفسي بيده إن بينهما لأبعد ما بين السماء والأرض**» [(٢)] خرجه الإمام أحمد وغيره.

وقال في الروض الفائق : ويروى أن رجلا جاء إلى مقبرة، فصلى ركعتين، ثم أضطجع، فرأى في منامه صاحب القبر، فقال له : يا هذا إنكم تعملون ولا تعلمون، ونحن نعلم ولا نعمل، والله لأن تكون ركعتان في صحيفتي أحب إلي من الدنيا وما فيها.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٩/٤، رقم ٣٩٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٧٥/٣، رقم ٣٨١٥).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٠/٣) : رواه البزار والطبراني في الأسط، وفيه زائدة بن أبي الرقاد، وفيه كلام وقد وثق.

(٢) الحديث بنحوه عند الإمام أحمد في المسند (١٦٣/١، رقم ١٤٠٣) ولفظ الإمام أحمد : عن طلحة بن عبيد الله أن رجلين قدما على رسول الله ﷺ وكان إسلامهما جميعا، وكان أحدهما أشد اجتهادا من صاحبه، فغزا المجتهد منهما، فاستشهد، ثم مكث الآخر بعده سنة، ثم توفي. قال طلحة: فرأيت فيما يرى النائم كأني عند باب الجنة إذا أنا بهما، وقد خرج خارج من الجنة، فأذن للذي توفي الآخر منهما، ثم خرج، فأذن للذي استشهد، ثم رجعا إلي، فقالا لي : ارجع فإنه لم يأن لك بعد، فأصبح طلحة يحدث به الناس، فعجبوا لذلك، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال «من أي ذلك تعجبون؟ قالوا : يا رسول الله هذا كان أشد اجتهادا، ثم استشهد في سبيل الله، ودخل هذا الجنة قبله، فقال : أليس قد مكث هذا بعده سنة؟ قالوا : بلى. وأدرك رمضان فصامه؟ قالوا : بلى. وصلى كذا وكذا سجدة في السنة؟ قالوا : بلى. قال رسول الله ﷺ فلما بينهما أبعد ما بين السماء والأرض».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال «**ما من يوم إلا وملك يهتف في المقابر فينادي يا أهل القبور من تحسدون اليوم؟ فيجيبونه فيقولون: نحسد أهل المساجد في مساجدهم يصلون ولا نقدر أن نصلى، ويصومون ولا نقدر أن نصوم، ويتصدقون ولا نقدر أن نتصدق، ويذكرون ولا نقدر أن نذكر، فيندمون على ما مضى من زمانهم**».

ولله در القائل :

يا رب يا رباه هذا جسدي ... تحت أطباق الثرى مرتهنا
ما أرى لي عمل لكن أرى ... يا إلهى فيك ظني حسنا
وعلى عفوك ياذا الفضل قد ... قد كنت في دنياي أحسنت الثنا
فأقل عثرة عبد مذنب ... وتجاوز واعف عنا محسنا

الخامسة : قال الأكثرون من العلماء : يكره للإنسان أن يقول : صمت رمضان أو جائ رمضان، بدون شهر. قالوا : وإنما يقال شهر رمضان كما نطق الله به في القرآن، وممن قال بالكراهة أصحاب مالك واستدلوا على ذلك بحديث لكن الذي استدلوا به ضعيف كما قاله البيهقي وغيره، فلهذا رد النووي ﷺ ما قالوه، وقال : الصواب عدم الكراهة كما ذهب اليه المحققون لعدم ثبوت نهي فيه. قال : بل ثبت ذكره بدون شهر في أخبار صحيحة كخبر «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**» [1].

وأفاد النووى في الأذكار : أنه يكره للصائم أن يقول : وحق هذا الخاتم الذي على فيما قال بعضهم، وعلة الكراهة أنه إنما يختم على أفواه الكفار.

ونظر في هذا التعليل النووي وقال : إنما يكره لأنه حلف بغير الله سبحانه وتعالى، ولما فيه من إظهار صومه لغير حاجة.

السادسة : يثبت صوم رمضان بأحد أمرين إما باستكمال شعبان ثلاثين يوما، وإما برؤية الهلال ليلة الثلاثين من شعبان لما ورد في هذا الصحيح عنه ﷺ أنه قال

---

(١) أخرجه البخاري (١/٢٢، رقم ٣٧)، ومسلم (١/٥٢٣، رقم ٧٥٩)، وأبو داود (٢/٤٩، رقم ١٣٧١)، والترمذي (٣/١٧١، رقم ٨٠٨) وقال : حسن صحيح. والنسائي (٨/١١٧، رقم ٥٠٢٥)، وابن حبان (٨/٤٣٧، رقم ٣٦٨٢)، والبيهقي (٢/٤٩١، رقم ٤٣٧٣) عن أبي هريرة.

«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين» [(١)].

ومعنى غم عليكم : استتر عليكم بأن حال بينكم وبينه غيم، وأوجب الإمام أحمد صيام يوم الثلاثين من شعبان إذا حصل ليلته غيم، ويرد ما قاله قوله في الحديث «**فإن غم عليكم، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين**».

وليس المراد من قوله ﷺ «**صوموا لرؤيته**» أنه يشترط أن يراه كل أحد من المكلفين ليلة الثلاثين من شعبان حتى يجب عليه الصوم، بل المراد : أن رؤية بعض الناس تكفي عن بعض، وعند إمامنا الشافعي يكفي عن أهل بلد وقرية ونحوهما عدل واحد، فإذا رآه عدل ليلة الثلاثين من شعبان، وشهد به عند قاض وجب الصوم على الرأي وغيره من أهل البلد ونحوه، ويكون شعبان ناقصا، ويدل على ذلك ما رواه أبو داود وابن حبان عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن أعرابيا قال للنبي ﷺ : إني رأيت الهلال. فقال «**أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال : نعم. قال : أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال : نعم. قال : يا بلال أذن في الناس فليصوموا**» رواه أصحاب السنن الأربعة، وقال ابن حبان والحاكم : حديث صحيح [(٢)].

ويشترط في وجوب الصوم برؤية واحد للهلال ليلة الثلاثين من شعبان أن يكون الرأي له عدلا مكلفا حرا ذكرا.

فلو رآه غير عدل بأن رآه كافر أو فاسق، وأخبر الناس برؤيته لا يجب عليهم الصوم ؛ نعم يجب على هذا الفاسق وحده الصوم لرؤية الهلال، فاشتراط العدالة إنما

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٦٧٤، رقم ١٨١٠)، ومسلم (٢/٧٦٢، رقم ١٠٨١)، والنسائي (٤/ ١٣٣، رقم ٢١١٧)، وابن حبان (٨/٢٣٨، رقم ٣٤٥٧)، وأحمد (٢/٤٣٠، رقم ٩٥٥٢) عن أبي هريرة.

وأخرجه الطبراني (٢/٢٥، رقم ١١٧٥) عن البراء.

وأخرجه النسائي (٤/١٣٥، رقم ٢١٢٤) عن ابن عباس.

وأخرجه الطيالسي (ص ١١٨، رقم ٨٧٣)، والبيهقي (٤/٢٠٦، رقم ٧٧٢٧)، والبزار (٩/١٠٥، رقم ٣٦٤٦) عن أبي بكرة.

قال الهيثمي (٣/١٤٥) : رواه البزار والطبراني في الكبير، وفيه عمران بن داود القطان، وثقه ابن حبان وغيره، وفيه كلام.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/٣٠٢، رقم ٢٣٤٠)، والترمذي (٣/٧٤، رقم ٦٩١)، والنسائي (٤/ ١٣٢، رقم ٢١١٣)، وابن ماجه (١/٥٢٩، رقم ١٦٥٢)، وابن حبان (٨/٢٢٩، رقم ٣٤٤٦)، والحاكم (١/٤٣٧، رقم ١١٠٤) وقال : صحيح الإسناد.

هو بالنسبة إلى غيره، ولا تشترط العدالة الباطنة، وهى التي يرجع فيها إلى قول المزكين على الصحيح، بل تكفي العدالة الظاهرة.

ولو رآه صبي أو مجنون أو امرأة أو عبد لا يجب الصوم أيضا لعدم قبول شهادتهم، فإن الصحيح أن الإخبار برؤية الهلال شهادة لا رواية، وهى شهادة حسبة لا تتوقف على دعوى ولابد فيها من لفظ الشهادة، ومن الأداء عند القضاء : رأيت الهلال، و لم يقل : أشهد أني رأيت الهلال، وقال في مجلسه : أشهد أن غدا من رمضان لا يجب بذلك الصوم.

قال القاضي شريح : صفة الشهادة على الهلال أن يقول : رأيته في ناحية الغرب ويذكر صغره وكبره وتدويره وتقديره وأنه بحذاء الشمس، أو في جانب منه، وأن ظهره إلى الجنوب أو الشمال، وأن في السماء غيما أو لم يكن.

وفائدة التنصيص على هذه الأمور الاحتياط حتى إذا رؤى في الليلة الثانية، و لم يكن في هذه الصفات بأن كذب الشاهد، فإن الهلال في الليلة الثانية لا يتحول عن صفاته التي طلع عليها بالأمس.

وقالت طائفة من العلماء : يجب الصوم أيضا على من أخبره موثوق به بالرؤية إذا اعتقد صدقه كزوجته وجاريته وصديقه، وإن لم يذكره عند القاضي، وظاهر كلام النووي ترجيحه وصرح به في الخادم، ورؤية القناديل المعلقة في المنابر ليلة الثلاثين من شعبان أمارة ظاهرة على رؤية الهلال وثبوته لجريان العادة بذلك، فيكفي رؤيتها عن رؤية الهلال.

قال الأذرعي : ولو شهد اثنان عند القاضي على شخص عدل أنه شهد برؤية الهلال، ثم رجع قبل الحكم لا يجب الصوم بذلك بخلاف ما لو رجع بعد الحكم، فإن الأقرب لزوم الصوم كما قاله الأذرعي.

ولا يثبت رمضان بقول المنجم وهو الذي يرى أن أول الشهر طلوع النجم الفلانى.

ولا بقول الحاسب : ليلة الثلاثين من القواعد الحسابية تعطى أن الليلة من رمضان.

قال النووي : لا يجب الصوم عليهما، ولا على غيرهما بذلك، ولكن يجوز لهما دون غيرهما الصوم، ولا يجزيهما عن الفرض إن ثبت أنه من رمضان، واستشكل السبكي الجواز مع عدم الإجزاء وقال : الصواب أنه متى جاز إجزاء إذا تبين الوجوب.

وقال الإسنوي أيضا : إن عدم الإجزاء بعيد مخالف لكلامهم، والمجزوم به في

الكفاية نقلا عن الأصحاب الإجزاء.

ولو نام شخص ليلة الثلاثين من شعبان، ثم أستيقظ قبل الفجر وقال : رأيت الهلال في المنام، وأخبرني أن الليلة أول رمضان. لا يجب الصوم بقوله بالإجماع كما قاله القاضي عياض، لا للشك في الرؤية، فإنها حق، بل لعدم ضبط الرأي.

ولو دل الحساب القطعي على عدم إمكان الرؤية ليلة الثلاثين من شعبان، فشهد عدل أو عدلان أو عدول برؤية الهلال ؛ ردت الشهادة لاستحالتها.

قال السبكي وتبعه أبو زرعة وغيره : لأن من شروط البينة إمكان المشهود به حسا وعقلا وشرعا.

وتوقف الأذرعي في ذلك وقال : إن الأصحاب لا يسمحون بموافقة السبكي على ذلك ؛ إذ شهد برؤية الهلال عدلان، ووافقه على ذلك شيخ شيوخنا العلامة الشمس الجوجري.

ولو رؤي الهلال في بلد وجب الصوم على أهله، وعلى أهل كل بلد وافقه في المطلع دون ما خالفه، فإذا اتفقت البلدان أو البلاد في المطالع، ورؤي في واحد منها لزم الجميع الصوم.

وإن اختلف البلدان أو البلاد في المطالع لزم أهل بلد الرؤية الصوم فقط، فإذا رؤي في حلب مثلا أو لم يره أهل القرى، فإنه يجب عليهم الصوم إذا اتحد مطلعهم ومطلع حلب.

وإذا رؤي في قرية منها وثبت فيها، وكان مطلع القرية وحلب واحد وجب على أهل حلب الصوم وإن لم يروه.

وأما إذا اختلف المطلع كحلب وحماه ومدينة النبي ﷺ فإنه لا يجب الصوم على أهل بلد برؤيته في البلد الآخر للبعد، ولما روى مسلم عن كريب : رأيت الهلال بالشام ليلة الجمعة، ثم قدمت المدينة، فقال ابن عباس متى رأيتم الهلال بالشام؟ فقال : ليلة الجمعة. قال : أنت رأيته؟ قلت : نعم ورآه الناس وصاموا وصام معاوية. فقال : لكنا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى يكمل العدد. فقلت : أو لا تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ قال : لا هكذا أمرنا رسول الله ﷺ. (١)

قال علماؤنا : ولو صام بالرؤية في بلد، وسافر فيه إلى بلد مطلعه مخالف لمطلعه، ولم ير أهله الهلال وافقهم وجوبا يوم عيده في الصوم لأن بالانتقال إليهم صار منهم،

---

(١) أخرجه مسلم (٢/٧٦٥، رقم ١٠٨٧).

فإن لم يكن عيد صام، أو عيد أمسك بقية اليوم.

وإن سافر من بلد غير الرؤية إلى بلد عيدها معهم، وقضى يوما إن كان صام ثمانية وعشرين يوما.

سؤال : فإن قلت اعتبار اتحاد المطالع يتعلق بالمنجم والحاسب، وقد تقدم أنه لا يعتبر قولهما في إثبات رمضان.

قلت : لا يلزم في عدم اعتباره في الأصول والأمور العامة عدم اعتباره في التوابع والأمور الخاصة قاله القاضي زكريا.

والمراد باختلاف المطالع كما قاله في الأنوار : أن تتباعد البلدان بحيث لو رؤي في أحدهما لم ير في الآخر غالبا في بلد ويجانبه بلدا آخر لم ير فيه، وشك في موافقته له في المطلع لم يجب على أهله الصوم لأنهم لم يروه، والأصل عدم الوجوب.

قال الأذرعي : هذا في الابتداء أما لو بان بعد ذلك أنه موافق له في المطلع، فالظاهر وجوب القضاء.

قال شيخنا العلامة كمال الدين بن أبي شريف رحمه الله : وللسبكي هنا تنبيه حسن نبه عليه الأسنوي وهو أنه إذا اختلفت المطالع لزم من رؤيته بالبلد الشرقي رؤيته بالغربي من غير عكس ويتضح ذلك أن الليل يدخل في البلاد الشرقية بالغروب قبل دخول الغربية، وأن سير القمر بنفسه كغيره من السبعة السيارة معاكس لسير الفلك، وكلا الأمرين مشاهد، فإن لحركة الفلك اليومية حركة من الشرق إلى الغرب يومية، وله بنفسه حركة من الغرب إلى الشرق شهرية، ففي البلد الغربي يتأخر الغروب مدة يرتفع فيها الهلال لسيره بنفسه ارتفاعا يصيره بحيث يرى عند الغروب، بل ذلك البلد كما إذا غربت الشمس بالشرقي، وبينهما وبين الهلال سبع درج مثلا، فتكون الرؤية ممكنة، ثم إذا غربت في غربي آخر بعده بدرجتين كانت الرؤية فيه أظهر لكون المكث بعد الغروب أكثر كما لا يخفى، وعلى هذا ينـــزل حديث كريب فإن الشام غربية بالنسبة إلى المدينة، فلا يلزم من رؤيته بالشام رؤيته فيها، ولو رأى الهلال يوم الثلاثين من شعبان، ولو قبل الزوال، فهي الليلة المستقبلة لا الماضية، فلا يلزم إمساك ذلك اليوم هذا مذهب الإمام الشافعي.

وغيره ما ورد عن شقيق وأكثر العلماء، وذهب أبو يوسف من الحنيفية، وأبو ثور وغيرهما إلى أنه إن رؤي الهلال قبل الزوال، فهو ليلة الماضية، وإن رؤي بعدها فهى للمستقبلة.

ومن حجة الإمام الشافعي وغيره ما ورد عن شقيق بن سلمه أنه قال : جاءنا كتاب عمر بخانقين أن الأهلة بعضها أكبر من بعض، فإذا رؤي الهلال نهارا فلا تفطروا حتى يشهد شاهدان أنهما رأياه بالأمس. رواه الدارقطني والبيهقي بإسناد صحيح [(١)].

ولو رؤي يوم الثلاثين من رمضان، ولو قبل الزوال لم يجز فطره عملا بالأصل، وهو بقاء الشهر، وثبوت رمضان بعدل واحد هو الذي عليه أكثر العلماء، وهو مذهب الإمام الشافعي لأنه ﷺ قبل شهادة الأعرابي وحده، وشهادة ابن عمر كما تقدم، وقال ﷺ : إذا صح الحديث فهو مذهبي.

وأما ما نقل عنه من أنه رجع عن قبول شهادة الواحد لأنه لم يثبت عنده في قبول شهادته سنة، وإنما تمسك فيها بأثر عن سيدنا على وهو : لأن أصوم يوما من شعبان أحب إلي من أن أفطر يوما من رمضان.

رجع إلى الاثنين قياسا على غيره، ولو وقف على حديث الأعرابي وابن عمر لما عدل عنهما إلى القياس إذ كيف يظن بالإمام الشافعي الأخد بالقياس، وترك الحديث الصحيح، وقد صح كل منهما، فهو مذهبه.

وأما غير رمضان من الشهور فلا يثبت إلا بعدلين، فمن رأى الهلال ليلة الثلاثين من رمضان لزمة الفطر ويخفيه.

ومن رؤي يأكل يوم الثلاثين من رمضان بغير عذر عزر إلا إذا شهد برؤية الهلال فرد، ثم أكل فإنه لا يعزر.

نعم لنا شهر يثبت بعدل غير رمضان، وصورته شهر معين نذر صومه، فإذا قال الإنسان : لله على أن أصوم شهر المحرم مثلا. فشهد عدل عند القاضي برؤية الهلال ليلة الثلاثين من ذي الحجة ثبت بالنسبة إلى الصوم، ووجب عليه صومه.

سؤال فإن قيل إذا صمنا رمضان بشهادة عدل ثلاثين يوما لزمنا الإفطار بعد ذلك وإن لم نر الهلال، فيلزم منه ثبوت شوال بعدل واحد، وقد قلتم أن غير رمضان لا يثبت إلا بعدلين.

جوابه : إن ثبوته بعدل طريق التبع لرمضان لا بطريق الأصاله، والشيء يثبت ضمنا بما لا يثبت به أصالة كالنسب والإرث يثبت بشهادة النساء بالولادة ضمنا أي تبعا لشهادتهن بالولادة.

السابعة : يحرم يوم صوم الشك تطوعا بلا سبب كما قاله النووي وغيره، وعند

---

(١) أخرجه الدارقطني (٢/١٦٩)، والبيهقي (٤/٢١٢، رقم ٧٧٧١).

الإمام مالك وأبي حنيفة لا يحرم.

والدليل على تحريمه ما رواه أصحاب السنن الأربعة وصححه الترمذي وغيره عن عمار بن ياسر أنه قال : من صام يوم الشك فقد عصا أبا القاسم [(١)]. ورواه البخاري أيضا تعليقا.

وإذا صامه تطوعا بلا سبب، فصومه غير صحيح. قيل : والحكمة في تحريم صومه القوة على صوم رمضان، وضعف ذلك السبكي بعدم كراهة صوم شعبان.

أما إذا صامه بسبب، فإنه لا يحرم ولا يكره، وكان صومه عن قضاء أو نذر أو كفارة أو وافق عادة تطوعه كأن اعتاد صوم الأثنين والخميس فوافق يوم الشك أحدهما، أو اعتاد صوم الدهر، أو صوم يوم فطر يوم فصادفه، ويدل على ذلك ما رواه الشيخان «**لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين إلا رجل كان يصوم صوما فليصمه**» [(٢)].

وصوم يوم الشك نظير الصلاة في الأوقات المكروهه، فإن كان بلا سبب حرم، ولم يصح، وإن كان بسبب صح، ولا تحريم، فلو كان عليه صوم يوم، فأخره ليوقعه يوم الشك حرم، ولا ينعقد قياسا على ما لو أخر الصلاة الفائتة ليوقعها في أوقات الكراهة.

ويوم الشك هو يوم الثلاثين من شعبان إذا تحدث الناس بأن الهلال رؤي ليلته والسماء مصحية ولم يشهد أحد بالرؤية، أو شهد بها صبيان أو عبيدا وفسق، وظن صدقهم، أو عدل ولم يثبت به، فلا يجوز صومه، ولا يصح عن رمضان بلا خلاف عند علمائنا الشافعية.

---

(١) أخرجه البخاري معلقا (٦٧٤/٢)، وأبو داود (٣٠٠/٢، رقم ٢٣٣٤) والترمذي (٧٠/٣، رقم ٦٨٦) وقال : حسن صحيح. والنسائي (١٥٣/٤، رقم ٢١٨٨)، وابن ماجه (٥٢٧/١، رقم ١٦٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧٦٢/٢، رقم ١٠٨٢)، وأبو داود (٣٠٠/٢، رقم ٢٣٣٥)، والترمذي (٣/ ٦٩، رقم ٦٨٥) وقال : حسن صحيح. والنسائي (١٤٩/٤، رقم ٢١٧٣)، وابن ماجه (١/ ٥٢٨، رقم ١٦٥٠)، وأحمد (٤٧٧/٢، رقم ١٠١٨٧)، وابن حبان (٣٥٢/٨، رقم ٣٥٨٦)، والشافعي (١٨٧/١)، وابن أبي شيبة (٢٨٥/٢، رقم ٩٠٣٦)، والدارمي (٨/٢، رقم ١٦٨٩)، وابن الجارود (١٠٣/١، رقم ٣٧٨) عن أبي هريرة.
والحديث ذكره البخاري تعليقا (٦٧١/٢).

نعم إذا اعتقد صدق من قال إنه رآه تلك الليلة من حر أو عبد أو امرأة أو فاسق أو مراهق وجزم بنية صومه عن رمضان أجزأه إن بان أنه منه لظن أنه منه حالة النية، وللظن في مثل هذا حكم اليقين، فتصح النية المبنية عليه.

أما إذا لم يعتقد صدق من قال أنه رآه بل تردد فقال : أصوم غدا عن رمضان، فإن لم يكن عنه فهو تطوع، وبان منه لم يجزه كما نص عليه الشافعي.

وقال الأسنوي والزركشي : المتجه الإجزاء.

أما إذا أطبق الغيم ليلة الثلاثين، فهو شعبان ليس بيوم شك، وكذا إذا كانت السماء مصحية، و لم يتحدث الناس برؤيته فإنه ليس شك أيضا، بل آخر أيام شعبان، فيحرم صومه أيضا إلا إذا وافق عادة له أو صامه عن قضاء أو نذر أو نحو ذلك.

الثامنة : لرمضان أسماء كثيرة زائدة على الستين ذكرها أبو الخير الطالقاني منها : شهر الله، وشهر الأمة، وشهر القرآن، وشهر القيام، وشهر النجاة. وبين وجه تسميته بكل اسم منها.

واختلفوا في سبب تسميته رمضان

فقيل : إنه مأخوذ من الرمض، وهو شدة الحر لأن العرب لما أرادت أن تضع أسماء الشهور وافق أن الشهر المذكور كان في شدة الحر، فسمي بذلك كما سمي الربيعان لموافقتهما زمن الربيع.

وقيل : سمي بذلك لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها، وضعف هذا بأن التسمية به ثابتة قبل الشرع.

التاسعة : قال ابن عبد السلام : رمضان أفضل الأشهر فقد جاء في الحديث «**أتاكم رمضان سيد الشهور فمرحبا به وأهلا**».

وفي كتاب نفحات الأزهار ولمحات الأنوار : عن على بن أبي طالب ﷺ أنه قال : سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول «**هبط على جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن لكل شيء سيدا، فسيد البشر آدم، وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سلمان، وسيد الحبش بلال، وسيد الشجر السدر، وسيد الطير النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام العربية، وسيد العربية القرآن، وسيد القرآن سورة البقرة**» [1].

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٢/٣٢٤، رقم ٣٤٧١). =

العاشرة : في ذكر شيء من فضائل رمضان :

منها أنه شهر المغفرة فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال «**رمضان يغفر الله في أول ليلة منه لكل أهل القبلة**» (١).

وروى البيهقى أنه ﷺ قال «**أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمسًا لم يعطهن نبى قبلى أما واحدة فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله إليهم ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدًا، وأما الثانية فإن خلوف أفواههم أطيب عند الله من ريح المسك، وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة، وأما الرابعة فإن الله يأمر جنته فيقول لها استعدى وتزينى لعبادى أوشكوا أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى، وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر لهم جميعاً. فقال رجل : أهى ليلة القدر؟ قال : لا ألم تر إلى العمال يعملون، فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم**» (٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول : إذا دخل أول ليلة من شهر رمضان مرحبا بشهر خير كله، صيام نهاره وقيام ليله النفقة فيه كالنفقة في سبيل الله عز وجل.

ومنها أنه شهر العتق من النار فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال «**لله في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجبوا النار فإذا كان آخر يوم من شهر رمضان أعتق الله في ذلك اليوم بقدر ما أعتق من أول الشهر إلى آخره**» (٣).

= قال المناوي في فيض القدير (١٢٣/٤) : فيه محمد بن عبد القدوس عن مجالد بن سعيد، ومحمد ابن عبد القدوس قال الذهبي : مجهول. ومجالد قال أحمد : ليس بشيء، وضعفه غيره.

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٨٩/٣، رقم ١٨٨٥)، والضياء (١١٨/٦، رقم ٢١١٣)، والطبراني في الأوسط (١٥٨/٥، رقم ٤٩٣٥) عن أنس.

قال الهيثمي (١٤٣/٣) : فيه خلف أبو الربيع، ولم أجد له راويًا غير عمرو بن حمزة، كما ذكر ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٠٣/٣، رقم ٣٦٠٣) عن جابر.

(٣) أخرجه الأصبهاني في الترغيب والترهيب (٧١٦/٢، رقم ١٧٣٩)، والضياء (١/١٠٠/١٠) كما في السلسلة الضعيفة (٨٣/١، رقم ٢٩٩)، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٥٤٩/٢، رقم ١١٢٠) وقال : فيه مجاهيل، والمتهم به عثمان بن عبد الله. وأقره السيوطي في اللآلئ =

ولله در القائل :

قـــد جاء شهر الصوم فيه الأمان ... والعـــتق والفـــوز بسكنى الجنان
شـــهر شـــريف فيـــه نيل المنا ... وهـــو طـــراز فـــوق كم الزمان
طـــوبى لمـــن قـــد صامه واتقى ... مـــولاه في الفعـــل ونطق اللسان
وياهـــنا مـــن قـــام في ليلـــه ... ودمعـــه في الخـــد يحكى الجمان
ذاك الـــذي قـــد رخصـــه ربه ... بجـــنة الخـــلد وحـــور حســـان

ومنها أنه شهر استجابة الدعاء قال رسول الله ﷺ «**ذاكر الله في رمضان يغفر له وسائل الله فيه لا يخيب**» (١).

وقد قيل : إن الصائم نومه عباده، ونفسه تسبيح، ودعاؤه مستجاب، وعمله مضاعف، وكيف لا يكون ذلك، وقد منع نفسه من الشهوات، وترك اللذات، فآثر نصيب مولاه على نصيبه، واقتدى بذلك رسول الله حبيبه، فأطاع أمر معبوده، وتلذذ بركوعه وسجوده.

ولقد أحسن من قال :

جـــل ربي أحـــاط بالأشـــياء ... واجـــد مـــا جـــد بغـــير خفاء
جـــل عـــن شـــبه له ونظـــير ... وتعـــالى حقـــا عـــن القـــرناء
يعـــلم السر يكشف الضر يعفو ... عـــن قـــبيح المعاصي يوم الجزاء
مـــا عـــلى بابه حجاب ولكن ... هـــو مـــن خـــلقه سميـــع الدعاء

فينبغي للعاقل الموفق إذا دخل عليه شهر رمضان أن يتلقاه بالفرح والسرور، لكثرة ما فيه من الفضل والأجور، وأن يخلص لله في صيامه وقيامه، فإنه مكفر لذنوبه وآثامه، وأن يتوب عن المعاصي عند دخوله هذا الشهر العظيم، لعل أن يدفع الله عنه ببركته العذاب الأليم، هذا الشهر الصفا، والمعاملة والوفا، فطوبى لأقوام صاموا عن الشبهات، وقاموا في الخلوات، يتلون من آيات الله جل ذكره صحفا، ضاعف لهم بصيامهم

= (٢/١٠٠- ١٠١)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/١٤٦)، والشوكاني في الفوائد (ص ٨٨، رقم ٦) عن أبي هريرة.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/١٩٥، رقم ٦١٧٠)، قال الهيثمي (٣/١٤٣) : فيه هلال بن عبد الرحمن، وهو ضعيف. وابن عدي (٤/٢٩١، ترجمة ١١١٨ عبد الرحمن بن قيس)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣١١ رقم ٣٦٢٧) عن جابر.

أجورا، ووعدهم في الجنة قصورا وغرفا، قبل اليسير من أعمالهم، وتجاوز عن قبيح أفعالهم وعفا، ويا خيبة من قد حرموا الوصال، وخصوا بالقطيعة والجفا.

ولله در القائل :

يـــا ناقضين لعهدهم ما ذا الجفا ... توبـــوا فقـــد وافاكم شهر الصفا

شـــهر الرضا والعفو عن زلاتكم ... والله فيـــه عـــن الجـــرائم قد عفا

شـــهر عـــلى الأيام فضل قدره ... وعـــلا وفاق على الشهور مشرفا

فـــأحيوا لياليـــه المـــنيره كلها ... وأجـــروا لفرقـــته الدموع تأسفا

فعســـى الإلـــه يجود منه بلطفه ... فهـــو الذي يهب الذنوب تلطفا

يا من يعد نفسه بالتوبة للتأخير فات، بادر إليها قبل أن تعد من جملة الأموات، العجب ممن تداولته الدهور، كيف لا يعتبر بمن مضى، ومن ذهبت أيامه، وكثرت آثامه، كيف لا يتذكر من كان قبله وانقضى، ويقال العبادة حسنة، وهى في الشباب أحسن، والمعاصي قبيحة، وهى في الشيوخ أقبح.

نظر بعض الصالحين إلى شيخ كبير السن وهو واقف يسأل الناس فقال : هذا عبد ضيع حق الله في شبابه، فضيعه الله في كبره.

ولله در من قال : أيا من عمره طال إلى كم أنت بطال جميع الدهر نقال على ظهرك أثقال تبارز بالمعاصي وتدعو بالخلاص وعنا أنت قاضى وما عندك إقبال إلى الغيبة ترتاح وما عندك أفلاح وما يرضيك يا صاح سوى قد قيل أو قال تمد الطرف في الصوم وما تخشى من اللوم ليكتب لك في اليوم وفي الليلة أفعال فتب ذا الشهر وكمل فيها فرضا لعل الله يرضى ويصلح منك أحوال.

وقال أنس بن مالك : ما من شاب أحب إلى الله من شاب تائب.

وقال يزيد بن ميسرة : إن الله عز وجل يقول : أيها الشاب التارك شهوته المبذل شبابه من أجلي أنت عندي كبعض ملائكتى.

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتم الشاب يلازم المسجد فارجو خيره.

وجاء في الحديث «**إذا بلغ العبد أربعين سنة ولم يغلب خيره على شره فلينح على نفسه أو ليتجهز إلى النار**».

وقيل : كان عيسى عليه السلام إذا مر بالشاب يقول : يا معشر الشباب كم من زرع هلك قبل أن يدرك الحصاد.

وربما يكره كثير من الجهال صيام رمضان حتى أن بعض السفهاء من الشعراء كان

يسبه كما نقل عن الرشيد أنه كان له ولد سفيه فقال مرة :

دعاني شهر الصوم لا كان من شهر ولا صمت شهرا بعده آخر الدهر

فأخذه بعد أن قال هذا الشعر داء الصرع، فكان يصرع في كل يوم مرات متعددة، ومات قبل أن يدركه رمضان آخر.

وهؤلاء السفهاء يستثقلون برمضان لاستثقالهم العبادات فيه من الصلاة والصيام، فكثير من هؤلاء الجهال لا يصلي إلا في رمضان إذا صام، وكثير منهم لا يجتنب كبائر الذنوب إلا في رمضان، فيطول عليه، ويشق على نفسه مفارقتها لمألوفها، فهو يعد الأيام والليالي ليعود على المعصية، وهؤلاء مصرون على ما فعلوه وهم يعلمون، فهم هلكى ؛ إذ من جملة شروط التوبة أن يعزم من أراد التوبة على أن لا يعود، فمن تاب من ذنب كشرب الخمر مثلا، وفي عزمه أن يعود إليه بعد انقضاء رمضان، فهذا توبته غير مقبولة عند الله، وهو مصر على معصيته.

ومن الجهالة من لا يصبر عن المعاصي، فهو يواقعها في رمضان كما حكى عن بعض العصاة أنه كان مصرا على شرب الخمر، فجاء في آخر يوم من شعبان، وهو سكران، فعاتبته أمه وهى تسجر تنورا، فحملها فألقاها في التنور، فاحترقت، ثم بعد ذلك تاب وتعبد وحج، فرؤي له في النوم أن الله غفر للحجاج كلهم سواه.

فمن أراد به خيرا حبب إليه الإيمان، وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فصار من الراشدين، ومن أراد الله به شرا خلى بينه وبين نفسه، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

يا ذا الذي ما كفاه الذنب في رجب حتى عصى ربه في شهر شعبان
لقد أظلك شهر الصوم بعدهما فلا تصيره أيضا شهر عصيان
واتل القرآن وسبح فيه مجتهدا فإنه شهر تسبيح وقرآن
وأجمل على جسد ترجو النجاة له فسوف تضرم أجسام بنيران
كم كنت تعرف ممن صام في سلف من بين أهل وجيران وإخوان
أفناهم الموت واستبقاك بعدهم حيا فما أقرب القاصي من الداني

الحذر الحذر من المعاصى، فكم سلبت من نعم، وكم جلبت من نقم، وكم خربت من ديار، وكم أخليت دارا من أهلها، فما بقى منهم ديار، وكم أخذت من المعاصي بالثأر، وكم محت لهم من آثار.

ولقد أحسن من قال :

يا صاحب الذنب لا تأمن عواقبه عواقب الذنب تخشى وهى تنتظر

فكل نفس ستجزى بالذي كسبت وليـــس للخـــلق من دياهم وزر

أين حال هؤلاء الحمقى من قوم دهرهم كله رمضان، ليلهم قيام، ونهارهم صيام.

لطيفة: باع قوم من السلف جارية، فلما قرب شهر رمضان رأهم يتباهون له، ويستعدون له في الأطعمة وغيرها، فسألتهم فقالوا : نتهيأ لصيام رمضان. فقالت : وأنتم لا تصومون إلا رمضان، لقد كنت عند قوم كل زماهم رمضان ردوني عليهم.

ونظير هذه اللطيفة ما نقل عن الحسن بن صالح أنه باع جارية له، فلما أخذها من اشتراها، وانتصف الليل قامت فنادهم : يا أهل الدار الصلاة الصلاة. قالوا : أطلع الفجر؟ قالت : وأنتم لا تصلون إلا المكتوبة؟ ثم جاءت إلى الحسن فقالت : بعتني لقوم سوء لا يصلون إلا الفرائض ردني ردني.

والله سبحانه وتعالى أعلم وأكرم.

***

المجلس الستون

في الكلام على قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وما يتعلق بها من الفوائد، وفي ذكر أركان الصوم وما يتعلق بها من الفوائد الفقهية

قَالَ البُخَارِي:

باب وجوب صوم رمضان وقول الله ﷻ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣]

عقد البخاري هذا الباب لأجل بيان أن صوم شهر رمضان واجب على هذه الأمة كما كان واجبا على غيرها، وذلك مجمع عليه حتى صار معلوما من الدين بالضرورة كما تقدم.

واستدل على وجوبه بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فإن معنى ﴿كُتِبَ﴾: فرض.

كما في قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]. أي فرض.

فبين الله تعالى أن صيام شهر رمضان فرض على المكلفين من المؤمنين والمؤمنات.

وأراد سبحانه وتعالى بقوله ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: أن الصوم من الشرائع القديمة، فما من أمة من الأمم إلا وفرض الله عليها الصوم، أي لم يفرضه عليكم وحدكم بل فرضه عليكم، وعلى من قبلكم من الإنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم.

نقل عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال: كتب الصيام على آدم فمن بعده.

فأول من صام آدم كما قال في كتاب الوسائل.

قيل: إن الله تعالى لما فرض الصوم على النصارى وهم أمة عيسى كما قاله ابن عباس فرضه عليهم شهرا كاملا، وفرض عليهم أن لا يأكلوا، ولا يشربوا، ولا يجامعوا بعد النوم شهر رمضان كله، فاشتد ذلك عليهم، لأنهم رأوه ربما يقع في الحر الشديد، والبرد الشديد، وكان يشق عليهم في أسفارهم، ويضرهم في معاشهم، فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف، فنقلوه وجعلوه في الربيع، وزادوا فيه عشرين يوما كفارة لما صنعوا، فبلغ خمسين يوما.

وقيل أراد الله بالتشبيه في قوله ﴿كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ما كان في ابتداء الإسلام، فإن الله تعالى لما فرض الصوم في ابتداء الإسلام على المؤمنين فرضه عليهم كما فرضه على النصارى من العتمة إلى مثلها من الليلة القابلة، وكان يباح الأكل والشرب والجماع بعد الغروب إلى أن ينام، فإذا نام، ثم استيقظ حرم عليه ذلك كما حرم على النصارى، فلم يزل المسلمون على ذلك يصنعون إلى أن نسخه الله تعالى بقوله العزيز ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وسبب نزول هذه الآية: أن صرمة بن مالك كان شيخا كبيرا، فجاء إلى أهله، وهو صائم، فطلب منهم العشاء قبل أن ينام، فقالوا: أمهل حتى نجعل لك طعاما سخنا تفطر عليه، فنام فجاءوا بطعامه بعد أن استيقظ، فقال: قد كنت نمت. فبات جائعا، فأنزل الله الآية.

وكذلك عمر طلب من أهله إن يجامعها فقالت: إنها قد كانت نامت، فظن أنها اعتلت عليه فواقعها، فأنزل الله ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعل للترجي، أي لعل إن يحصل لكم التقوى بالمحافظة على الأيام المعدودات.

أو المعنى: لعلكم تنتظمون في سلك المتقين، فإن الصوم من شعارهم.

أو المعنى: لعلكم تضعفون، فإنه كلما صمت ضعفت الشهوة، وكلما قلت الشهوة ضعفت المعاصي.

قال القرطبي: وهذا لفظ مجازي حسن.

واختلفوا في المراد بقوله ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾.

فالأكثر على أنها أيام شهر رمضان.

سؤال: فإن قيل إذا كان المراد بها أيام رمضان، فلم عبر بمعدودات، وهو جمع قلة، وجمع القلة يطلق على العشرة فما دونها، فكيف أطلقه على رمضان؟

جوابه: إنه عبر بجمع القلة ليهون صومها، ويسهل على العباد.

وقيل المراد به: أيام البيض، وصوم عاشوراء، ولهذا ذكرها بلفظ القلة، فقد قيل إنها كانت واجبة أولا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ وجوبها بشهر رمضان.

والأشبه كما قاله الماوردي: إنه لم يكن قبل نزول رمضان صوم واجب، فنسخ به، فالحاصل أن المراد بالأيام المعدودات هي أيام شهر رمضان، وحينئذ فلا نسخ.

وهنا فوائد مناسبة تتعلق بهذه الآية:

الأولى: اعلم أن هذه الآية التي هي قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٣].

فيها إشارة إلى أسرار الصوم.

فمنها: أنه سبب من أسباب التقوى، وشعبة من شعبها ؛ لأن الامتلاء من الطعام والشراب رأس البواعث على الفحشاء والمنكر، وتقوية للشيطان على الإنسان، فإنه لا يقوى عليها إلا بواسطة الشهوات، فاتباع الشهوات والامتلاء منها يبعث على كل معصية وفتنة، والكف عن الشهوات والجوع يضيق مجاري الشيطان، فيقل وسواسه، وتنكسر الشهوة، فينتهي عن المعاصي، وذلك هو التقوى، فكان الصيام سببا عظيما من أسباب التقى.

ومنها أنه سبب لشكر نعمة الله، وذلك أن من يزال ممتلئا من الطعام والشراب ينسى الجوع والعطش، ويغفل عن شدتهما، فلا يعرف قدر نعمة الله عليه فيما وسع عليه من الطعام والشراب وأباحه له، ففرض الله سبحانه الصوم عليه مدة يسيرة ليذوق الجوع والعطش الشديد، فيعرف قدر نعم الله عليه فيهما، فيشكره ولا يكفره، ويذكره ولا ينساه.

ومنها سبب لعطف قلوب الأغنياء على الفقراء، فإن الناس فيها أغنياء وفقراء، ولو استمر الأكل للأغنياء لم يعرفوا قدر الجوع، فلا يرحمون الفقراء، ويبخلون عليهم، وذلك سبب هلاكهم، وقد ورد في الحديث « **من لا يرحم لا يرحم** » [(١)].

وقال أيضا « **لا تنـــزع الرحمة إلا من قلب شقي** » [(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/٢٢٣٩، رقم ٥٦٦٧)، ومسلم (٤/١٨٠٩، رقم ٢٣١٩)، والترمذي (٤/٣٢٣، رقم ١٩٢٢) وقال: حسن صحيح. وأحمد (٤/٣٦٦، رقم ١٩٢٨٢)، والطبراني (٢/ ٣٣٣، رقم ٢٣٨٨) عن جرير.

وأخرجه البخاري (٥/٢٢٣٥، رقم ٥٦٥١)، ومسلم (٤/١٨٠٨ رقم ٢٣١٨)، وأبو داود (٤/ ٣٥٥، رقم ٥٢١٨)، وأحمد (٢/٢٢٨، رقم ٧١٢١)، وابن حبان (١٥/٤٣١، رقم ٦٩٧٥) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٢٨٦، رقم ٤٩٤٢)، والترمذي (٤/٣٢٣، رقم ١٩٢٣) وقال: =

فإن قيل: ما الحكمة في فرض الصوم على العباد؟

فالجواب: إن هذا السؤال كما قاله العلامة أبو الفرج بن الجوزي سأله بعض الملوك وهو المأمون لموسى الكاظم فقال: يا ابن رسول الله أخبرني ما الحكمة في إيجاب الصوم والجوع والعطش علينا في كل اثني عشر شهرا شهرا؟

فقال: يا أمير المؤمنين إنه ليس في الدنيا أشد، ولا أشق على الناس من الجوع والعطش، والفقراء أكثر أوقاتهم جياع، فأوجب الله تعالى الصوم على الغني والفقير حتى يجد الغني من الجوع والعطش، ولا ينسى الفقير، وقد جاء في الخبر أن رسول الله ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة يوقف الله عبدا من عباده بين يديه سبحانه بلا كيف، ثم يقول له: يا عبدي أما استحييت مني؟ أما خفت مقامي هذا؟ استطعمتك فلم تطعمني، واستسقيتك فلم تسقني، واستكسيتك فلم تكسني. فيقول العبد: وكيف ذلك يا رب، وأنت رب الأرباب؟ فيقول الله عز وجل: أتذكر يوم مر بك فلان الجائع وفلان العطشان وفلان العاري، فلم تلتفت إلى أحد منهم، و لم تقدم لأحد منهم من فضل ما أنعمت عليك، فلأمنعنك فضلي كما منعتهم » [1].

ولله در القائل:

فـــرب نفـــع بشـــيء فهو محتقر ... لا تحقـــرن يســـير الخير تفعله

ولا يكـــن لـــك في أصحابه أثر ... وجانب الشر لا تسلك طريقته

= حسن. وابن حبان (٢/٢١٣، رقم ٤٦٦)، والحاكم (٤/٢٧٧، رقم ٧٦٣٢) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (٨/١٦١، رقم ١٦٤٢٠)، والطيالسي (ص ٣٣٠، رقم ٢٥٢٩)، وأحمد (٢/ ٣٠١، رقم ٧٩٨٨)، وابن أبي شيبة (٥/٢١٤، رقم ٢٥٣٦٠)، وأبو يعلى (١٠/٥٢٦، رقم ٦١٤١)، والطبراني في الأوسط (٣/٥٤، رقم ٢٤٥٣)، والخطيب (٧/١٨٣) عن أبي هريرة.

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٤/١٩٩٠، رقم ٢٥٦٩) عن أبي هريرة بلفظ:

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي ».

وأخرجه أيضًا ابن حبان (١/٥٠٣، رقم ٢٦٩).

وليـــس للخلق من مولاهم وزر فكل نفس ستجزى بالذي عملت

وقال بعض العلماء: إنما أوجب الله تعالى الصوم على عباده في دار الدنيا، لأنه ليس على أهل النار في النار أشد من الجوع والعطش، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار تفتح أبواب في الجنة تشرف على أهل النار، فيطلعون على النار، فترفع أهل النار رؤسهم، فينظرون إليهم فتجرى منهم العبرات، وتكثر منهم الحسرات، هؤلاء يتمتعون في الدرجات، وهؤلاء يعذبون في الدركات، هؤلاء يشربون من الرحيق المختوم، وهؤلاء يأكلون من الزقوم، هؤلاء يتنعمون ويأكلون، وهؤلاء جياع لا يشبعون، فينادون من النار يا أهالينا ويا أولادنا ويا أحبابنا، أما ترون النار قد أحرقت أجسادنا، وقد حطمت عظامنا، أما ترحمون سوء مقامنا، أفيضوا علينا شربة من الماء أو مما رزقكم الله، قد قتلنا العطش والجوع، وقد حيل بيننا وبين الرجوع.

فأوجب الله الصوم في الدنيا على عباده لينجو من جوع وعطش الآخرة.

وقال: من أجاع لى في الدنيا جوفه، وأعطش كبده حرمت يوم القيامة على النار جسده.

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى فرضه شهرا لا أقل ولا أكثر؟

فالجواب: إن اليهود سألوا هذا السؤال رسول الله ﷺ فقال لهم في الجواب: لأن آدم لما أكل من الشجرة بقى الطعام في بطنه ثلاثين يوما، فافترض الله الجوع على ذريته ثلاثين يوما. قاله أبو الليث السمرقندي.

الثانية: يتضاعف الأجر بكثرة صيام شهر رمضان، فمن صام رمضانيين أكثر أجرا ممن صام رمضانا واحدا، ومن صام ثلاث رمضانات أكثر أجرا ممن صام رمضانيين وهكذا.

قال أبو الفرج بن الجوزي: قال كعب الأحبار: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: إني افترضت الصيام على عبادي، وهو شهر رمضان يا موسى من وافاني يوم القيامة وفي صحيفته عشرون رمضانا فهو من الأبرار، ومن وافاني وفي صحيفته ثلاثون رمضانا فهو من أفضل الشهداء عندي، يا موسى أمر حملة العرش إن يمسكوا عن العبادة إذا دخل شهر رمضان، فكل من دعاني في شهر رمضان من صوامه يؤمنون على دعائه، وإني كتبت على نفسي أني لا أرد دعوة صوام شهر رمضان. فقال موسى: يا رب فاجعل لي هذا الشهر. قال: لا يا موسى، بل هو لأمة محمد ﷺ.

الثالثة: قال العلامة أبو الفرج بن الجوزي: لما أنزل الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾ قالوا: يا رسول الله هل لهذا الصيام من حد؟ فأنزل الله عز وجل ﴿**أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ**﴾.

كأنه يقول: عبادي فرضي عليكم مؤقت، وعطائي لكم مؤبد.

***

المجلس الحادي والستون

في الكلام على أبواب الجنة وذكر اختلاف العلماء في عددها وذكر أسمائها وذكر شيء من فضائل رمضان وشيء من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وغير ذلك من الفوائد

الحمد لله الذي تفضل على عباده بالكرم والإحسان، وفتح لهم بصوم رمضان أبواب الجنان، وجازاهم على صيامهم بالدخول من باب الريان، وعاملهم بكرمه العميم والعفو والغفران، ورفع لهم الدرجات، وزوجهم بالحور الحسان.

وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له الملك الكريم الديان، والرب الرحيم الرحمن، والقاهر العظيم السلطان، والمدبر بلطفه الملك والزمان، والعالم بما يحيط والمحيط بما كان.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سيد ولد عدنان، وخلاصة ربيعة وقحطان، وأشجع الخلق، وأثبت الفرسان، محا الكفر والطغيان، وأباد الطغاه، وعبدة الاوثان، وخصه الله بنـــزول القرآن، وبفرض الصلوات وشهر رمضان.

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الشجعان صلاة وسلاما دائمين في كل وقت وأوان.

قَالَ البُخَارِي:

حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَد حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بلاَل قَالَ حَدَّثَنِى أَبُو حَازِم عَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ «**إِنَّ فِى الْجَنَّة بَاباً يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَقُومُون، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ**» (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «أن في الجنة بابا» قال الزين ابن المنير: إنما قال في الجنة، ولم يقل للجنة ليشعر بأن في الباب المذكور من النعيم والراحة في الجنة، فيكون أبلغ في التشوق إليه. قلت: وقد جاء الحديث من وجه آخر بلفظ «إن للجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون» وهو للبخاري من هذا الوجه في بدء الخلق لكن قال «في الجنة ثمانية أبواب».

قوله: «فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد» كرر نفي دخول غيرهم منه تأكيدا، وأما قوله «فلم يدخل» فهو معطوف على «أغلق» أي لم يدخل منه غير من دخل. ووقع عند مسلم عن أبي =

وفي رواية «مَنْ دَخَلَ مِنْهُ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً» (١).

في الحديث دلالة على فضل الصوم، وفضل الصائمين، وأن الله تعالى أكرمهم، وخصهم بباب من أبواب الجنة يقال له الريان.

والريان على وزن فعلان من الري بكسر الراء، نقيض العطش، ويسمى بباب الريان لأنه جزاء الصائمين على عطشهم وجوعهم، فلما جاعوا في الدنيا بسبب الصوم وعطشوا جزاهم به.

ويقال له: باب الشبعان أيضا، ولكن اكتفي بذكر الريان عنه لأنه يدل عليه، لأن الري يستلزم الشبع.

وإنما أفرد لهم هذا الباب ليسرعوا إلى الري من عطش الصيام في الدنيا إكراما لهم واختصاصا، ويكون دخولهم في الجنة هينا غير مزاحمين عند أبوابها، فإن الزحام قد يؤدي إلى نوع من العطش.

وهذا كما خص رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق بباب في المسجد يقرب من خروجه إلى الصلاة، ولا يزاحمه أحد، وأغلق سائرها إكراما له وتفضيلا.

وإغلاقه بعد دخولهم زيادة في الإكرام، فإذا دخلوا الجنة تقول لهم الملائكة كما حكى الله ذلك عنهم بقوله ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] أي أيام الصيف.

قال مجاهد وغيره: نزلت في الصائمين.

وقال ابن رجب: قال يعقوب بن إسحاق الحنفي: بلغنا أن الله تعالى يقول لأوليائه يوم القيامة: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا، وقد قلصت شفاهكم، وغارت

= بكر بن أبي شيبة عن خالد بن مخلد شيخ البخاري فيه «فإذا دخل آخرهم أغلق» هكذا في بعض النسخ من مسلم، وفي الكثير منها «فإذا دخل أولهم أغلق» قال عياض وغيره: هو وهم. والصواب آخرهم. قلت: وكذا أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده وأبو نعيم في مستخرجه معا من طريقه، وكذا أخرجه الإسماعيلي والجوزقي من طرق عن خالد بن مخلد، وكذا أخرجه النسائي وابن خزيمة من طريق سعيد بن عبد الرحمن وغيره وزاد فيه «من دخل شرب ومن شرب لا يظمأ أبدا» وللترمذي من طريق هشام بن سعد عن أبي حازم نحوه وزاد «ومن دخله لم يظمأ أبدا» ونحوه للنسائي والإسماعيلي من طريق عبد العزيز بن حازم عن أبيه لكنه وقفه، وهو مرفوع قطعا لأن مثله لا مجال للرأي فيه. انظر فتح الباري (٤/١١١ — ١١٢).

(١) أخرجه النسائي (٤/١٦٨، رقم ٢٢٣٦) عن سهل بن سعد.

أعينكم، وخفقت بطونكم كونوا اليوم في نعيمكم، وتعاطوا الكأس فيما بينكم، وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية.

لطيفة

قيل: إذا كان يوم القيامة ينادي مناد من قبل الله تعالى: أين الصائمون، فيقومون من بين الخلائق، فتناولهم الملائكة كاسات مختومة ختامها مسك، على الكأس مكتوب هذا شراب طاهر من الرب الطاهر إلى العبد الطاهر، فيشربون ويردون والخلق كلهم عطاش.

وفي حديث عبد الرحمن بن سمرة عن النبي ﷺ في منامه الطويل قال «**رأيت رجلا من أمتي يلهث عطشا كلما ورد حوضا منع منه، فجاءه صيام رمضان فسقاه وأرواه**» [1] خرجه الطبراني وغيره.

---

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٨٠/٧) قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما سليمان بن أحمد الواسطي وفي الآخر خالد بن عبد الرحمن المخزومي وكلاهما ضعيف. وذكره الحكيم في النوادر (٢٣١/٣).

ولفظ الحديث كما في مجمع الزوائد: «إني رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ورايت رجلا من أمتي قد سلط عليه عذاب القبر فجاءته صلاته فاستنقذته من ذلك ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه منهم ورأيت رجلا من أمتي يلهث من العطش فجاءه صيام رمضان فسقاه ورأيت رجلا من أمتي من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة ورأيت رجلا من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءته صلة الرحم فقالت إن هذا كان واصلا لرحمه فكلمهم وكلموه وصار معهم ورأيت رجلا من أمتي يتقي وهج النار عن وجهه فجاءته صدقته فصارت ظلا على رأسه وسترا عن وجهه ورأيت رجلا من أمتي جاءته زبانية العذاب فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من ذلك ورأيت رجلا من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله فأخرجته من النار ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته إلى شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته في يمينه ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه فجاء إقراضه فثقل ميزانه ورأيت رجلا من أمتي يرعد كما ترعد الزعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدته ورأيت رجلا من أمتي يزحف على الصراط مرة ويحثو مرة ويتعلق مرة فجاءته صلاته على فأخذت بيده فأقامته على الصراط حتى جاوز ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله فأخذت بيده فأدخلته الجنة».

وكما خص الصائمون بالدخول من باب الريان، خصوا بحوض لا يرده غيرهم، كما ورد في مسند البزار عن أبي هريرة مرفوعا «**إن لهم حوضا لا يرده غيرهم**» [1].

***

(١) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (١٨٣/٣) قال الهيثمي: هو في الصحيح باختصار الحوض، رواه البزار، ورجاله موثقون.

ومتن الحديث كما في مجمع الزوائد: «قال الله تبارك وتعالى الصيام لي وأنا أجزي به وبمخلوف رسول الله ﷺ لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من رائحة المسك فأيما امريء منكم أصبح صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن انسان قاتله فليقل إني صائم فإن لهم يوم القيامة حوضا ما يرده غير الصوام».

قَالَ البُخَارِي : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ قَالَ حَدَّثَنِي مَعْنٌ قَالَ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ **«مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ. فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا قَالَ «نَعَمْ. وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»** [(١)].

دل هذا الحديث على فوائد:

الفائدة الأولى: فيه دلالة على فضل النفقة في سبيل الله أي في أفعال الخير كلها، وقد ورد في فضل النفقة على المسكين والاهل وغيرهما أخبار.

قال الله تعالى ﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا** ﴾ [الطلاق: ٧].

وقال تعالى ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [سبأ: ٣٩].

والنفقة على العيال، وعلى الدابة، وعلى الأصحاب أفضل من النفقة على غيرهم قال رسول الله ﷺ **«أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»** [(٢)] رواه مسلم.

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «من أنفق زوجين في سبيل الله» زاد إسماعيل القاضي عن أبي مصعب عن مالك «من ماله» واختلف في المراد بقوله «في سبيل الله» فقيل: أراد الجهاد. وقيل: ما هو أعم منه. والمراد بالزوجين إنفاق شيئين من أي صنف من أصناف المال من نوع واحد.

قوله: «هذا خير» ليس اسم التفضيل، بل المعنى هذا خير من الخيرات، والتنوين فيه للتعظيم وبه تظهر الفائدة.

قوله: «ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» في رواية محمد بن عمرو عن الزهري عند أحمد «لكل أهل عمل باب يدعون منه بذلك العمل، فلأهل الصيام باب يدعون منه يقال له الريان» وهذا صريح في مقصود الترجمة. انظر فتح الباري (١١٢/٤).

(٢) أخرجه مسلم (٦٩١/٢، رقم ٩٩٤). وأخرجه أيضا: الترمذي (٣٤٤/٤ رقم ١٩٦٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٣٧٦/٥ رقم ٩١٨٢)، وابن ماجه (٩٢٢/٢، رقم =

وعلى فضل إنفاق شيئين في سبيل الله كدرهمين، ودينارين أو ثوبين، وأن جزاءه على هذا الإنفاق أن الملائكة تقف على أبواب الجنة فتناديه يا عبد الله يا مسلم يستفاد هذا من قوله في الحديث «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ... الحديث**» فيدخل من الباب المناسب لعمله من أبواب الجنة، فإن معناه من فعل شيئين من أفعال الخير سواء كانا متشابهين أو صنفين، فيدخل فيه من تصدق بدينارين أو درهمين أو ثوبين أو دينار وثوب، أو درهم وثوب، أو بعير وبقرة، أو شاة وبعير، ويدخل فيه من صلى صلاتين، أو صام يومين، أو صلى صلاة وصام، أو تصدق بدرهم مع صلاة، أو تصدق بثوب مع صوم يوم.

روى عن صعصعة قال رأيت أبا ذر بالربذة يوم وهو يسوق بعيرا له عليه قرادتان قال سمعت النبي ﷺ يقول «**ما من مسلم ينفق من ماله زوجين في سبيل الله الا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده**» [1] قلت: زوجين ماذا؟ قال: إن كان صاحب خيل ففرسين، وإن كان صاحب أبل فبعيرين، وإن كان صاحب بقر فبقرتين، حتى عد أصناف المال.

ويدخل في قوله: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» من عال شخصين لوجه الله كامرأتين.

فقد جاء في الحديث «**من عال ابنتين أو خالتين أو عمتين أو جدتين فهو معي في الجنة**» [2].

فإن قيل: كيف يدخل في الحديث من صلى صلاتين، أو صام يومين، أو صلى وصام يوما، وليس ذلك بإنفاق، والحديث صرح فيه بالإنفاق؟

فالجواب: إن العرب تسمي ما يبذله الإنسان من نفسه واجتهاده نفقته، فيقول أحدهم فيما تعلم من العلم أو صنعه من سائر الاعمال أنفقت في هذا عمري، وبذلت

= ٢٧٦٠)، والطيالسي (ص ١٣٢، رقم ٩٨٧)، وأحمد (٥/٢٨٤، رقم ٢٢٥٠٦)، وابن حبان (١٠/٥٣، رقم ٤٢٤٢) عن ثوبان.

(١) أخرجه النسائي (٦/٤٨، رقم ٣١٨٥)، والدارمي (٢/٢٦٨، رقم ٢٤٠٣)، وأبو عوانة (٤/٥٠٢، رقم ٧٤٨٧)، وابن حبان (١٠/٥٠١، رقم ٤٦٤٣)، والحاكم (٢/٩٥، رقم ٢٤٣٩) وقال: صحيح الإسناد. وأحمد (٥/١٥١، رقم ٢١٣٧٩)، والطبراني في الكبير (٢/١٥٤، رقم ١٦٤٤)، وفي الأوسط (٣/٣٣٦، رقم ٣٣٢٤)، والبيهقي (٩/١٧١، رقم ١٨٣٤٥).

(٢) أخرجه الطبراني (٢٢/٣٨٥، رقم ٩٥٩).

فيه لنفسي، فتكون النفقة على هذا الوجه في الصلاة والصوم من الجسم.

الفائدة الثانية: في الحديث دلالة على أن الجنة لها أبواب، و لم يبين في هذا الحديث عددها، وهي ثمانية أبواب على قول جمهور العلماء، ويدل على ذلك الكتاب، والسنة.

قال الله تعالى ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** ﴾ [الزمر: ٧].

قال جماعة من أهل العلم: الواو في قوله ﴿ **وَفُتِحَتْ** ﴾ واو الثمانية، وهي دالة على أن للجنة ثمانية أبواب.

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ «**ما من أحد يتوضأ فيبلغ الوضوء أو فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**» (١).

وقال القرطبي: أبواب الجنة أكثر من ثمانية، واستدل على ذلك بأحاديث صحيحة وقال في آخرها: فهذه الاحاديث مع صحتها تدل على أنها أكثر من ثمانية.

قال: وتحصل منها والحمد لله على هذا ستة عشر بابا، وذكر في الحديث الذي ساقه البخاري فيها أربعة أبواب: باب الصلاة، وباب الجهاد، وباب الريان، وباب الصدقة، وذكرت بقية الأبواب في حديث آخر.

قال الحكيم الترمذي في نوادر الاصول: من أبواب الجنة باب محمد ﷺ، وهو باب الرحمة، وهو باب التوبة، وهو منذ خلقه الله تعالى مفتوح لا يغلق فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق فلم يفتح إلى يوم القيامة.

روى عن ابن مسعود أنه سأله رجل عن ذنب ألم به، أهل فيه توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت فرأى عينيه تذرفان، فقال: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلق، فاعمل لا تيئس.

ولها باب يقال له باب الضحى، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «**إن في الجنة بابا يقال له باب الضحى، فإذا كان يوم القيامة ينادي مناد: أين الذين كانوا يداومون على صلاة الضحى هذا بابكم فادخلوا**» (٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩/١، رقم ٢٣٤). **وأخرجه أيضًا:** أبو داود (٤٣/١، رقم ١٦٩) والنسائي (٩٢/١، رقم ١٤٨)، وابن ماجه (١٤٥/١، رقم ٤١٩)، وأحمد (١٤٥/٤، رقم ١٧٣٥٢)، وابن خزيمة (١١٠/١، رقم ٢٢٢)، وابن حبان (٣٢٥/٣، رقم ١٠٥٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٠/٢، رقم ٣٣٣٤)، وفي شعب الإيمان (٢٠/٣، رقم ٢٧٥٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٩٥/٥، رقم ٥٠٦٠). =

ولها باب يقال له باب الفرح فقد نقل في الفردوس عن ابن عباس مرفوعا «**للجنة بابا يقال له باب الفرح لا يدخل منه إلا من يفرح الصبيان**».

ولها باب لأصحاب الخلق الحسن قال القشيري في التحبير: عن النبي ﷺ «**الخلق الحسن طوق من رضوان الله في عنق صاحبه، والطوق مشدود إلى سلسلة من الرحمة، والسلسلة مشدودة إلى حلقة من باب الجنة حيث ما ذهب الخلق الحسن جرته السلسلة إلى نفسها حتى تدخله من ذلك الباب إلى الجنة**» (١).

وقال تعالى في حق نبينا ﷺ ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤].

وورد في الصحيحين عن أنس قال «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا» (٢).

وفي الصحيحين أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا وكان يقول إن من خياركم أحسنكم خلقا» (٣).

وقال رسول الله ﷺ «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق**» (٤).

وقال ﷺ «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» (٥) رواه أبو داود.

ولها باب يقال: باب الصابرين على المصائب المحتسبين الذين يقولون عند نزولها إنا لله وإنا إليه راجعون.

ولها باب يقال: باب الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، ففي كتاب الروضة عن أحمد بن حنبل عن الحسن أنه قال: إن لله بابا في الجنة لا يدخله إلا من كظم غيظه

= قال الهيثمي (٢/٢٣٩): فيه سليمان بن داود اليمامي أبو أحمد، وهو متروك.

(١) أورده ابن حبان في الضعفاء (٢/٦١ — ٦٢ ترجمة ٦٠٦ عبد الرحمن بن محمد بن الحسن البلخي) وقال: شيخ يضع الحديث، لا يحل ذكره في الكتب إلا على سبيل القدح فيه.

(٢) أخرجه البخاري (٥/٢٢٩١، رقم ٥٨٥٠)، ومسلم (١/٤٥٧، رقم ٦٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣/١٣٠٥، رقم ٣٣٦٦)، ومسلم (٤/١٨١٠، رقم ٢٣٢١).

(٤) أخرجه الترمذي (٤/٣٦٢، رقم ٢٠٠٢) وقال: حسن صحيح. عن أبي الدرداء.

(٥) أخرجه أبو داود (٤/٢٥٢، رقم ٤٧٩٨) **وأخرجه أيضًا**: ابن حبان (٢/٢٢٨، رقم ٤٨٠)، وأحمد (٦/٩٠، رقم ٢٤٦٣٩) عن عائشة.

عملا بالآية [(١)].

ولها باب يقال له: الباب الأيمن يدخله من لا حساب عليه من الأمة.

ولا يبعد أن يكون لها ثاني عشر على ما رواه الترمذي عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «**باب أمتي الذين يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب المسرع ثلاثا، ثم إنهم يتضاغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول وهم شركاء الناس في سائر الأبواب**» [(٢)].

فقوله: باب أمتي يدل على أنه لسائر ممن يغلب عليه عمل يدعى به.

ولها باب الصلاة، وباب الحج، وباب العمرة، فهذه خمسة عشر.

وخرج مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال «**ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا وسبعمائة ألف** - لا يدري أبو حازم أيهما قال - **متماسكون أخذ بعضهم بعضا لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**» [(٣)].

حينئذ ستة عشر بابا والله اعلم.

قوله «... فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا قَالَ «نَعَمْ. وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

روينا في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «**من أصبح منكم اليوم صائما؟ فقال أبو بكر: أنا. قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟ قال أبو بكر: أنا. قال فمن عاد منكم اليوم مريضا؟ قال أبو بكر: أنا. قال رسول الله ﷺ: ما اجتمعت في امرئ إلا دخل الجنة**» [(٤)].

---

(١) المراد قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

(٢) أخرجه الترمذي (٤/٦٨٤، رقم ٢٥٤٨)، وقال: غريب. **وأخرجه أيضًا**: أبو يعلى (٩/ ٤٠٧، رقم ٥٥٥٤)، والديلمي (٢/٢٩، رقم ٢١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (١/١٩٨، رقم ٢١٩). وأخرجه أيضا: البخاري (٣/١١٨٦، رقم ٣٠٧٥)، وأحمد (٥/٣٣٥، رقم ٢٢٨٩٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢/٧١٣، رقم ١٠٢٨).

ومن فضائله أنه أنفق ماله في حب رسول الله ﷺ

قال ﷺ «**إن أمن الناس عليَّ في ماله وصحبته أبو بكر ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الإسلام لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر**» (١).

ومن فضائله أن الله أعطاه من عنده مثل ما أعطاه رسول الله ﷺ في خمسة أشياء:

الأول: أنه سبحانه وتعالى قال لنبيه ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى** ﴾ [الضحى: ٥].

وقال لأبي بكر ﴿ **وَلَسَوْفَ يَرْضَى** ﴾ [الليل: ٢١].

الثاني: أنه قال لنبيه ﴿ **وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى** ﴾ [الأعلى: ٨].

وقال لأبي بكر ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى** ﴾ [الليل: ٧].

الثالث: أن جبريل نزل على أبي بكر بالسلام كما نزل بالسلام على رسول الله ﷺ.

الرابع: روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر عليه عباءة قد خللها في صدره بخلال، فنـــزل جبريل فقال: يا محمد ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها في صدره؟ فقال: يا جبريل أنفق ماله علي قبل الفتح. قال: فأقرئه من الله السلام، وقل له يقول لك ربك: أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فبكى أبو بكر وقال: أعلى ربي أسخط أنا عن ربي راض أنا عن ربي راض أنا عن ربي راض (٢).

الخامسة: أن الله سوى بينه وبين نبيه في الصحبة في الغار قال تعالى ﴿ **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ** ﴾ [التوبة: ٤٠].

ومن فضائله: أن رسول الله ﷺ كان يسمع الوحي فيغشى عليه، وكان أبو بكر عند النبي ﷺ فنـــزل جبريل على النبي ﷺ بقوله ﴿ **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ**

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٧/٣، رقم ٣٦٩١)، ومسلم (١٨٥٤/٤، رقم ٢٣٨٢)، والترمذي (٦٠٨/٥، رقم ٣٦٦٠) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (٢٧٦/١٥، رقم ٦٨٦١) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) أورده ابن حبان في الضعفاء (١٨٥/٢، ترجمة ٨١٩ العلاء بن عمرو) وقال: شيخ يروي العجائب لا يجوز الاحتجاج به بحال.

اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦] فسمعه أبو بكر فغشي عليه.

ومن فضائله: أنه لقب بلقبين لم يلقب بهما أحد غيره من الصحابة:

أحدهما الصديق، واختلفوا فيمن لقبه بذلك:

فقيل: هذا اللقب كان قد غلب عليه في الجاهلية لأنه كان في الجاهلية وجيها رئيسا من رؤساء قريش، فكانت تصدقه، فسمي صديقا، واستمر ذلك في الإسلام.

وقيل: سمي صديقا لتصديقه النبي ﷺ في خبر الإسراء إلى بيت المقدس، ثم إلى السماء بعد أن كذبه الكفار في ذلك، فإن رسول الله ﷺ لما أصبح يحدث الناس بما رآه أنكر عليه الكفار وكذبوه، وأبو بكر يقول: صدقت يا رسول الله. فقال له الكفار: أنت يا أبا بكر تصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، وهو خبر السماء.

فمن يومئذ سماه رسول الله ﷺ الصديق جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «**ليلة أسرى بي قلت لجبريل عليه السلام: إن قومي لا يصدقوني. قال جبريل: يصدقك أبو بكر، وهو الصديق**» (١).

وقيل: سمى صديقا لأنه بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ في كل ما جاء به عموما، فإن الصديق في اللغة معناه: المبالغ في التصديق أول وهلة.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يحلف بالله أن الله عز وجل أنزل اسم أبي بكر من السماء الصديق.

يعني قول الله تعالى ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [الزمر: ٣٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «**عرج بي إلى السماء فما مررت بسماء إلا وجدت فيه اسمي مكتوبا محمد رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق خلفي**» (٢).

اللقب الثاني: العتيق.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٦٦/٧، رقم ٧١٧٣).

قال الهيثمي (٤١/٩): فيه أبو وهب عن أبي هريرة، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (١٩٠/٤، ترجمة ١٠٠٣ عبد الله بن إبراهيم)، والرافعي في التدوين (١٨/٢).

واختلفوا أيضا فيمن لقبه بذلك، وما سبب تلقيبه به:

فقيل: لقبه به أبوه.

وقيل: إنه لقب به في الإسلام، وهو أول لقب عرف به في الإسلام.

وقيل: لقبته أمه بذلك.

وقيل: رسول الله ﷺ وسبب تلقيبه به أنه كان جميل الوجه، فلقبه به رسول الله ﷺ لذلك، فإن العتيق يأتي بمعنى الجمال، فمعنى عتيق على هذا: جميل الوجه.

وقيل: لقب بذلك لعتقه من النار.

روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إني لجالسة ذات يوم، ورسول الله ﷺ وأصحابه في فناء البيت، إذا أقبل أبي، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه «**من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر**» [(١)].

وعن عبد الله بن الزبير قال: كان اسم أبي بكر عبد الله بن عثمان فقال له النبي ﷺ «**أنت عتيق الله من النار**» [(٢)] فسمي عتيقا لذلك خرجه ابن حبان.

وقيل: لقب بذلك لعتاقته من الموت أي لسلامته منه في حال صغره.

قال الطبري: ورد عن عيسى بن طلحة بن عبيد الله قال: كانت أمه لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به البيت، ثم قالت: اللهم إن هذا عتيقك من الموت، فهبه لي، فعاش، فسمته عتيقا، وكان يعرف به.

ومن فضائله: أنه يدعى في السماء بين الملائكة بالحليم

نقل المحب الطبري في الرياض عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: هبط جبريل إلى النبي ﷺ فوقف مليا - أي زمانا - يناجيه فمر أبو بكر الصديق فقال جبريل: يا محمد هذا ابن أبي قحافة؟ فقال: يا جبريل أو تعرفوه في السماء؟ فقال: والذي بعثك بالحق نبيا هو في السماء أشهر منه في الأرض، وإن اسمه في السماء الحليم [(٣)].

ومن فضائله: أنه كان يدفع المشركين عن رسول الله ﷺ

أخرج البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن العاص عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٦٤، رقم ٤٤٠٤) وقال: صحيح الإسناد. وابن سعد (٣/١٧٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٥/٢٧٩، رقم ٦٨٦٤).

(٣) أورده أبو جعفر الطبري في الرياض النضرة (١/٤٠٩، رقم ٣٣٠).

ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه، فخنقه به خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جائكم بالبينات من ربكم [1].

ومن فضائله: أنه لم يكن في أيام الجاهلية مغضوبا عليه كغيره من الكفار كما نقل عن الأشعري أنه قال: ما زال أبو بكر بعين الرضا منه.

ومعنى هذه العبارة: أنه ﷺ ما زال بحاله قبل المبعث غير مغضوب عليه فيها لعلمه تعالى أنه سيؤمن ويصير من خلاصة الأبرار.

وظن بعض الحنفية أن الأشعري يقول: إنه كان مؤمنا قبل المبعث. وليس كذلك.

قال السبكي: إنه لم يثبت عن الصديق كفر بالله، ولهذا صانه الله عن السجود للأصنام، فلم يسجد لصنم في أيام الجاهلية قط مع أن أباه كان يسجد لها.

وروي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: اجتمع المهاجرون والأنصار عند رسول الله ﷺ فقال أبو بكر ﷺ وعيشك يا رسول الله إني لم أسجد لصنم قط، وقد كنت في الجاهلية كذا وكذا سنة. وإن أبا قحافة أخذ بيدي فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام فقال: هذه آلهتك فاسجد لها، فخلاني وذهب، فدنوت من الصنم، وقلت: إني جائع فأطعمني فلم يجبني، فقلت: إني عطشان فأروني فلم يجبني، فقلت: إني عار فأكسني فلم يجبني، فأخذت صخرة، وقلت: إني ملقي عليك الصخرة، فإن كنت إلها، فامنع نفسك، فلم يجبني، فألقيت الصخرة فخر لوجهه، وأقبل والدي وقال: ما هذا يا بني؟ فقلت: هذا الذي ترى، فانطلق بي إلى أمي، فأخبرها، فقالت: دعه فهذا الذي ناجاني به الله. فقلت: يا أماه وما ناجاكي به الله؟ فقالت: ليلة أصابني المخاض، ولم يكن عندي أحد سمعت هاتفا يقول - اسمع الصوت ولا أرى الشخص -: يا أمة الله أبشري بالولد العتيق اسمه في السماء الصديق لمحمد صاحب ورفيق.

قال أبو هريرة: لما انقضى كلام أبي بكر نزل جبريل على النبي ﷺ وقال: صدق أبو بكر، فصدقه ثلاث مرات.

ولما ولى الخلافة قام خطيبا ثم قال: أما بعد أيها الناس قد وليت أمركم، ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن، وسن النبي ﷺ السنن، فعلمنا ان الكيس الكيس التقوى، وأن احمق الحمق الفجور، وإن قويكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه بحقه، أيها الناس إنما أنا متبع، ولست بمبتدع،

---

(١) أخرجه البخاري (٣/١٣٤٥، رقم ٣٤٧٥).

فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني.

ولما أيد الله به الدين واستقام الامر احتجب عن الناس ثلاثة أيام يشرف عليهم كل يوم يقول أقلتكم بيعتي، فبايعوا من شئتم، فيقوم على ﷺ يقول: والله لا نقيلك ولا نستقيلك قدمك رسول الله ﷺ فمن الذي يؤخرك، وكذا قال له عمر وغيره من الصحابة.

ثم إنه مع شدته في الدين لم تغيره الخلافة عن تواضعه الذي كان عليه خرج يوما وعلى عاتقه عباة فقال له رجل: أرني هذه العباية حتى أحملها عنك. فقال: إليك عني لا تغرني.

وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا أغنامنا. فقال: لأحلبنها لكم وأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم ﷺ.

وكان إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وإن لم يكن وعلم من رسول الله ﷺ قضى به، وإن لم يجد خرج إلى المسلمين فسأل، ثم يقول: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا ديننا. أو قال: يحفظ علينا سنة نبينا.

ومن فضائله: أنه تنـــزه عن شرب المسكر في الجاهلية والإسلام

روى أبو العالية قال: سئل أبو بكر ﷺ في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ هل شربت خمرا في الجاهلية؟ قال: أعوذ بالله. قالوا: ولم؟ قال: كنت أصون عرضي، وأحفظ مرؤتي، لأن من شرب الخمر كان لعرضه ومرؤته مضيعا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدق أبو بكر.

ومن فضائله: أنه أحد العشرة المبشرة بالجنة، وقد نظمهم شيخ الإسلام ابن حجر فقال:

لقد بشر الهادي من الصحب عشرة ... بجنات عدن كلهم قدرهم على
عتيق سعيد سعد عثمان طلحة ... زبير بن عوف عامر عمر على

وإنما قيل لهؤلاء العشرة المبشرة بالجنة، وخصوا بالتبشير مع أن غيرهم بشر بالجنة كالحسن والحسين، فقد روي أنهما سيدا شباب أهل الجنة [1] ؛ لأن هؤلاء العشرة

---

(١) يشير إلي حديث أخرجه الترمذي (٥/٦٥٦، رقم ٣٧٦٨) وقال: حسن صحيح. =

بشروا بالجنة في مجلس واحد.

روى النسائي والترمذي عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلى في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن في الجنة وسعد في الجنة وسعيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»** (١).

ومن فضائله: أنه أسلم على يده من العشرة المبشرة بالجنة خمسة: عثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف.

ومن فضائله: أنه أول من تنشق عنه الأرض بعد النبي ﷺ قال ﷺ **«أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر ثم أهل البقيع فيحشرون معي ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين»** (٢).

ومن فضائله: أنه أول من يدخل الجنة من أمة محمد ﷺ

أخرج البغوي في المصابيح عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ **«أتاني جبريل عليه السلام فطاف بي في أبواب الجنة، فأراني الباب الذي أدخل أنا وأمتي منه. فقال أبو بكر الصديق ﷺ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ليتني كنت معك. قال: أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي»** (٣).

ومن فضائله: أنه لما مرض ترك التطبب تسليما لأمر الله تعالى

وروي عن أبي السفر قال: مرض أبو بكر، فعاده الناس، فقالوا: ألا ندعو لك طبيبا ينظر إليك؟ قال: قد نظر إلي. قالوا: وماذا قال لك؟ قال: قال إني فعال لما

= وأحمد (٣/٣، رقم ١١٠١٢)، والطبراني (٣٩/٣، رقم ٢٦١٤)، وابن أبي شيبة (٣٧٨/٦، رقم ٣٢١٧٦)، والنسائي في الكبرى (١٤٩/٥، رقم ٨٥٢٥) عن أبي سعيد.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٦/٥، رقم ٨١٩٤)، والترمذي (٦٤٧/٥، رقم ٣٧٤٧). وأخرجه أيضا: أحمد (١٩٣/١، رقم ١٦٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٦٢٢/٥، رقم ٣٦٩٢) وقال: غريب. والطبراني (٣٠٥/١٢، رقم ١٣١٩٠)، والحاكم (٧٢/٣، رقم ٤٤٢٩) وقال: صحيح الإسناد. وابن حبان (٣٢٤/١٥، رقم ٦٨٩٩) عن ابن عمر.

(٣) أخرجه أبو داود (٢١٣/٤، رقم ٤٦٥٢)، والحاكم (٧٧/٣، رقم ٤٤٤٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وعبد الله بن أحمد في زوائد فضائل الصحابة (٢٢١/١، رقم ٢٥٨).

أريد[1]. خرجه الواقدي وغيره.

خاتمة في ذكر فوائد متعلقة بوفاته

الفائدة الأولى: في ذكر ما عهده إلى عمر، ووصاه به، وذلك أن أبا بكر ﷺ لما حضرت وفاته دعا عمر، وعهد إليه ووصاه، فقال: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل، وعملا بالليل لا يقبله بالنهار، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فرائضه، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا أو ثقلت عليهم وحق الميزان لا يكون فيه إلا الحق إن يكون ثقيلا وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل وحق الميزان لا يكون فيه إلا الباطل إن يكون خفيفا، وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأخاف أن لا ألحق بهم، وإن الله ذكر أهل النار وذكرهم بأسوأ أعمالهم، ورد عليهم أحسنها، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راغبا راهبا لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمته، فإن أنت حفظت وصيتي، فلا يك غائبا أحب إليك من الموت، وإن لم تحفظ وصيتي، فلا يك غائبا أبغض إليك من الموت، فلما فرغ من عهده إلى عمر ووصيته له سمع الصحابة ذلك، فدخلوا على أبي بكر فقالوا له: تريد أن تولي علينا عمر، وأنت ذاهب إلى ربك ما أنت قائل له إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته، فقال أبو بكر: أجلسوني أجلسوني أبالله تخونوني خاب من تزود بأمرتكم بظلم أقول: اللهم إني استخلفت عليهم خير عبادك أبلغ عني ما قلت لك من وراءك، ثم اضطجع ودعا عثمان بن عفان وقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر في آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب إني استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا، فإني لم آت الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم إلا خيرا، فإن عدل فذاك الظن به، وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا علم لي بالغيب، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الثانية: كان مولده بعد عام الفيل بسنتين وأربعة أشهر إلا أياما قاله الطائي.

---

(١) أخرجه ابن سعد (١٩٨/٣)، وابن أبي شيبة (٩٣/٧، رقم ٣٤٤٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (١ /٣٤)، وهناد (٢٣٠/١، رقم ٣٨٢)، ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة (٢٤٣/٢، رقم ٦٩٤).

وكان سنه يوم موته كسن النبي ﷺ ثلاث وستين سنة على أصح الأقوال وأشهرها بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الآخر سنة ثلاثة عشر من الهجرة.

وقيل: توفى نهار يوم الجمعة لتسع بقين من الشهر المذكور قال المحب الطبري: والأصح أنه مات ليلا، ودفن ليلا، وكانت مدة خلافته سنتين وأربعة أشهر وخمس ليالى.

وقيل غير ذلك، ومما ورد أنه ﷺ لما حضرته الوفاة أوصى وقال: إذا غسلتموني وكفنتموني فاحملوني إلى قبر النبي ﷺ، وقولوا: السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن في الدخول، فإن فتح الباب فأدخلوني، وإن لم يفتح فادفنوني حيث ما شئتم، ففعلوا ذلك، فسمعوا صوتا يقول: ادخلوا المحب على الحبيب، فإن المحب إلى الحبيب مشتاق، ولما مات ﷺ غسلته أسماء بنت عميس زوجته بوصية منه، وصب عليه الماء ابنه عبد الرحمن، ولما كفن حمل على السرير الذي كان ينام عليه النبي ﷺ = وهو سرير عائشة وكان من خشبتي ساج منسوج بالليف، وبيع في ميراث عائشة، فاشتراه رجل من موالى معاوية بأربعة الآف درهم، فجعله للناس = وكان موته بالمدينة الشريفة، وصلى عليه عمر بن الخطاب بين القبر والمنبر، ودفن إلى جانب قبر رسول الله ﷺ وألصقوا لحده بلحده، ورأسه عند كتف رسول الله ﷺ على الصحيح، ورأس عمر عند كتف أبي بكر على الصحيح، ونزل في قبره عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن أبي بكر، وكان سبب موته كمد أي حزن مكتوم لحقه على فقد رسول الله ﷺ مازال يعتريه حتى مات.

وقالت عائشة: كان أول مرضه أنه اغتسل في يوم بارد، فحم خمسة عشر يوما لا يخرج إلى الصلاة، وكان يأمر عمر بن الخطاب يصلي بالناس، فدخل الناس عليه يعودونه، وهو يثقل كل يوم يقول: وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد.

وذكر ابن النجار: أن آخر ما تكلم به أبو بكر توفني مسلما وألحقني بالصالحين.

الثالثة: في ذكر ثناء على وفاته، فإن أبا بكر ﷺ لما قبض ارتجت المدينة بالبكاء عليه كيوم قبض رسول الله ﷺ فجاء على مسترجعا، وهو يقول: اليوم انقطعت النبوة. حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر وهو مسجى، فقال: يرحمك الله يا أبا بكر كنت حب رسول الله ﷺ وأنسه ومستراحه، وثقته وموضع سره، ومشاورته كنت أول القوم إسلاما، وأخلصهم إيمانا، وأشهدهم يقينا، وأخوفهم لله، وأعظمهم

غناء في دين الله، وأحوطهم على رسول الله ﷺ، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقبا، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله ﷺ هديا وسما ورحمة وفضلا، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيرا، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر، صدقت رسول الله حين كذبه الناس، فسماك الله في تنزيله صديقا فقال ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ** ﴾ [الزمر: ٣٣].

الذي جاء بالصدق محمد، والذي صدق به أبو بكر، وواسيته حين بخلو، وقمت به عند المكاره حين قعدوا، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة، وخلفته في دين الله وأمته أحسن الخلافة، حين ارتد الناس، وقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي، فنهضت حين وهن أصحابك، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهاج رسول الله ﷺ كنت كالجبل الذي لا تحركه القواصف، ولا تزيله العواصف، وكنت كما قال رسول الله ﷺ: أمن الناس علينا في صحبتك وذات يدك. وكنت كما قال: ضعيف في بدنك، قويا في أمر الله، متواضعا لنفسك، عظيما عند الله، جليلا في أعين الناس، كبيرا في أنفسهم، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز تأخذ بحقه، والقوي عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك في ذلك سواء، أقرب الناس إليك أطوعهم لله، وأتقاهم له، شأنك الحق والصدق والرفق، قولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، فأقلعت وقد نهج السبيل، وسهل العسير، وأطفئت النيران، واعتدل بك الدين، وقوي بك الإيمان، وثبت الإسلام والمسلمون، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، فسبقت والله سبقا بعيدا، وأتعبت من بعدك إتعابا شديدا، وفزت بالخير فوزا مبينا، فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك في السماء، وهدت مصيبتك الأنام، فإنا لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا له أمره، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبدا، كنت للدين عزا وحرزا وكهفا، وللمؤمنين فئة وحصنا وغيثا، وعلى المنافقين غلظة وغيظا، فألحقك الله بنبيك ﷺ، ولا أحرمنا، ولا أضلنا بعدك، فإنا لله وإنا إليه راجعون، قال: وسكت الناس حتى انقضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم، وقالوا: صدقت يا ختن رسول الله.

الرابعة: في ذكر أولاده ﷺ كان له من الأولاد ستة، ثلاث بنين، وثلاث بنات.

أما البنون: فعبد الله وهو أكبر أولاده الذكور شهد فتح مكة، وحنينا، والطائف مع النبي ﷺ مسلما، وجرح بالطائف، وبقي إلى خلافة أبيه، ومات فيها، فترك سبعة

دنانير، فاستكثرها أبو بكر، ولا عقب له.

وثاني أولاده الذكور عبد الرحمن أسلم في الحديبية، وهاجر إلى المدينة، وكتب للنبي ﷺ، وكان من الشجعان له مواقف في الجاهلية والإسلام مشهورة، وقد كان ممن شهد بدر مع المشركين، ثم من الله عليه بالإسلام، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل بقرب مكة، وأدخلته أخته عائشة الحرم ودفنته، وكان شهد الجمل معها، وله عقب.

وثالثهم محمد بن أبي بكر، وأمه أسماء بنت عميس، وكانت زوجة لجعفر بن أبي طالب، فلما قتل تزوجها بعده أبو بكر، فولدت له محمد، فلما توفي أبو بكر عنها تزوجها على بن أبي طالب، فنشأ محمد بن أبي بكر في حجر على بن أبي طالب، وكان معه في واقعة الجمل وصفين، وولاه عثمان في أيامه مصر، وقتل قبل وصوله إليها.

قال المحب الطبري: وأكثر المؤرخين على أنه أحرق في جوف حمار ميت، يقال: كان ذلك قتله. وقيل: بعد القتل.

وأما البنات: فعائشة أم المؤمنين شقيقة عبد الرحمن تزوجها رسول الله ﷺ فثبت لأبي بكر بذلك أشرف الشرف، فكانت إحدى أمهات المؤمنين وحظوتها عنده، وشرف منزلها، وعظم مرتبتها على سائر نسائه مشهور حتى بلغ ذلك منه أن قيل له: من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة. فقيل: فمن الرجال؟ قال: أبوها [1].

فكانت أحب الناس إليه مطلقا بنت أحب الناس إليه من الرجال.

الثانية: أسماء بنت أبي بكر شقيقة عبد الله، وهي أكبر بناته، وهي ذات النطاقين

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٩/٣، رقم ٣٤٦٢)، ومسلم (١٨٥٦/٤، رقم ٢٣٨٤)، والترمذي (٧٠٦/٥، رقم ٣٨٨٥)، وقال: حسن. والنسائي في الكبرى (٣٩/٥، رقم ٨١١٧)، وأحمد (٢٠٣/٤، رقم ١٧٨٤٤)، وعبد بن حميد (ص ١٢١، رقم ٢٩٥)، وأبو يعلى (٣٢٩/١٣، رقم ٧٣٤٥)، والطبراني (٤٤/٢٣، رقم ١١٤)، وابن حبان (٣٢٦/١٥، رقم ٦٩٠٠)، والبيهقي (٣٧٠/٦، رقم ١٢٨٧٩) عن عمرو بن العاص.

وأخرجه الترمذي (٧٠٧/٥، رقم ٣٨٩٠)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٣٨/١، رقم ١٠١)، والضياء (٢٩٦/٥، رقم ١٩٣٩) عن أنس.

تزوجها الزبير بمكة، وولدت عدة أولاد، ثم طلقها، وكانت مع ولدها عبد الله بمكة حتى قيل: وعاشت بعده، وكانت من المعمرين بلغ عمرها مائة سنة، وعميت، وماتت بمكة.

الثالثة: أم كلثوم وهي أصغر بناته، ولدت بعد أبي بكر، فلما كبرت خطبها عمر ابن الخطاب من عائشة، فأنعمت له، وكرهت أم كلثوم، فأمسك عنها عمر، وتزوجها طلحة بن عبد الله.

***

قَالَ البُخَارِي : حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِي سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - ﷺ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ**».

حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ قَالَ حَدَّثَنِي اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي أَنَسٍ مَوْلَى التَّيْمِيِّينَ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ - ﷺ - يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ**» (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «وسلسلت الشياطين» قال الحليمي: يحتمل أن يكون المراد من الشياطين مسترقو السمع منهم، وأن تسلسلهم يقع في ليالي رمضان دون أيامه، لأنهم كانوا منعوا في زمن نزول القرآن من استراق السمع، فزيدوا التسلسل مبالغة في الحفظ، ويحتمل أن يكون المراد أن الشياطين لا يخلصون من افتتان المسلمين إلى ما يخلصون إليه في غيره لاشتغالهم بالصيام الذي فيه قمع الشهوات، وبقراءة القرآن والذكر. وقال غيره: المراد بالشياطين بعضهم وهم المردة منهم، وترجم لذلك ابن خزيمة في صحيحه، وأورد ما أخرجه هو والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بلفظ «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن» وأخرجه النسائي من طريق أبي قلابة عن أبي هريرة بلفظ «وتغل فيه مردة الشياطين» زاد أبو صالح في روايته «وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، ونادى مناد: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة»، وقوله «صفدت» بالمهملة المضمومة بعدها فاء ثقيلة مكسورة أي شدت بالأصفاد، وهي الأغلال، وهو بمعنى سلسلت، ونحوه للبيهقي من حديث ابن مسعود وقال فيه «فتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب الشهر كله».

قال عياض: يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته، وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر، وتعظيم حرمته، ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين. قال: ويؤيد هذا الاحتمال الثاني قوله في رواية يونس عن ابن شهاب عند مسلم «فتحت أبواب الرحمة» قال: ويحتمل أن يكون فتح أبواب الجنة عبارة عما يفتحه الله لعباده من الطاعات وذلك أسباب لدخول الجنة، وغلق أبواب النار عبارة عن صرف الهمم عن المعاصي الآيلة بأصحابها إلي النار، وتصفيد الشياطين عبارة عن تعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشهوات.

قال الزين بن المنير: والأول أوجه، ولا ضرورة تدعو إلى صرف اللفظ عن ظاهره. وأما الرواية التي فيها «أبواب الرحمة وأبواب السماء» فمن تصرف الرواة، والأصل أبواب الجنة بدليل ما يقابله، وهو غلق أبواب النار، واستدل به على أن الجنة في السماء لإقامة هذا مقام هذه في الرواية =

قوله: «**فتحت**» يجوز فيها تشديد التاء وتخفيفها.

وقوله: «**أبواب السماء**»: قال البرماوي: أي الجنة بقرينة ذكر جهنم في مقابلته.

فإن قيل: هل تفتح أبواب السماء والجنة، وتغلق أبواب النار وتسلسل الشياطين عند دخول رمضان حقيقة أم لا؟

فالجواب: أن النووي وغيره قالوا: يحتمل أن يكون ذلك حقيقة إكراما لهذا الشهر، وتعظيما لحرمته، ويحتمل أن يقال إنها تفتح حقيقة، فمن مات فيه، أو عمل عملا لا يفسد عليه.

قال البرماوي: وهو الأظهر.

ويحتمل أن يكون ذلك مجازا، وأنه ﷺ أشار بفتح أبواب السماء والجنة، وغلق أبواب النار وسلسلة الشياطين عند دخول شهر رمضان إلى كثرة العفو عن الذنوب في شهر رمضان، وأن الشياطين يقل إغوائهم وإيذاؤهم، فيصيرون كالمصفدين، لا أنهم مصفدون، فبفتح أبواب الجنة والسماء حصل الكرم والامتنان، وبغلق أبواب جهنم وسلسلة الشياطين حصل العفو والغفران.

=وفيه نظر.

وجزم التوربشتي شارح المصابيح بالاحتمال الأخير وعبارته: فتح أبواب السماء كناية عن تنزل الرحمة، وإزالة الغلق عن مصاعد أعمال العباد تارة ببذل التوفيق، وأخرى بحسن القبول، وغلق أبواب جهنم كناية عن تنزه أنفس الصوام عن رجس الفواحش، والتخلص من البواعث على المعاصي بقمع الشهوات.

وقال الطيبي: فائدة فتح أبواب السماء توقيف الملائكة على استحماد فعل الصائمين، وأنه من الله بمنزلة عظيمة، وفيه إذا علم المكلف ذلك بأخبار الصادق ما يزيد في نشاطه ويتلقاه بأريحية.

وقال القرطبي بعد أن رجح حمله على ظاهره: فإن قيل كيف نرى الشرور والمعاصي واقعة في رمضان كثيرا، فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك؟

فالجواب: أنها إنما تقل عند الصائمين الصوم الذي حوفظ على شروطه وروعيت آدابه، أو المصفد بعض الشياطين، وهم المردة لا كلهم، أو المقصود تقليل الشرور فيه وهذا أمر محسوس فإن وقوع ذلك فيه أقل من غيره، إذ لا يلزم من تصفيد جميعهم أن لا يقع شر ولا معصية لأن لذلك أسبابا غير الشياطين كالنفوس الخبيثة، والعادات القبيحة، والشياطين الإنسية.

وقال غيره: في تصفيد الشياطين في رمضان إشارة إلى رفع عذر المكلف كأنه يقال له قد كفت الشياطين عنك، فلا تعتل بهم في ترك الطاعة، ولا فعل المعصية. انظر فتح الباري (٤/١١٤ — ١١٥).

ويحتمل أن يكون ﷺ أشار بفتح أبواب السماء والجنة إلى ما يفتحه الله تعالى لعباده من الطاعات في هذا الشهر الشريف التي لا تقع في غيره عموما كالصيام، وفعل الخيرات.

وأشار بغلق أبواب جهنم، وسلسلة الشياطين إلى ما يكفون عنه من المخالفات.

والأولى: حمل الحديث على ظاهره، وأن أبواب السماء وأبواب الجنة تفتح حقيقة، وأن أبواب النار تغلق حقيقة، وأن الشياطين تصفد حقيقة إذ لا مانع من حمله على ظاهره.

والحكمة في تصفيد الشياطين فيه: ليمتنعوا من إيذاء المؤمنين والمؤمنات.

سؤال: فإن قيل إن الشرور والمعاصي تقع في رمضان كثيرا، فلو صفدت الشياطين لما وقعت الفتن فيه، ولما ارتكبت المعاصي فإن هذه الأشياء واقعة منهم؟

جوابه من وجوه:

الأول: أن الشياطين تغل عن الصائمين في الصوم الذي حوفظ على شروطه بخلاف غيره.

الثاني: أن الشرور قد تقع من غير الشياطين كالنفس الخبيثة، والعادات الركيكة، والشياطين الإنسية.

الثالث: أنه إخبار عن غالب الشياطين، والمردة منهم، وأما من ليس من المردة، فقد لا يصفد. والمقصود تقليل الشر، وهو موجود في شهر رمضان.

الرابع: يحتمل أن يكون الشر الحاصل من حركتهم، وهم مسلسلون.

وفي الحديث دليل على وجود الشياطين، ورد على من أنكرهم، وقد دل الكتاب والسنة على وجودهم.

قال الله تعالى ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ** ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال تعالى ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ** ﴾ [الصافات: ٦، ٧].

وقال ﷺ «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٥/٣، رقم ٣١٠٧)، ومسلم (١٧١٢/٤، رقم ٢١٧٥)، وأبو داود (٣٣٣/٢، رقم ٢٤٧٠)، وابن ماجه (٥٦٦/١، رقم ١٧٧٩)، وأحمد (٣٣٧/٦، رقم =

وقال ﷺ «**ما منكم من أحد إلا وله شيطان. قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم**» [(١)].

روى أسلم بضم الميم وفتحها:

أما الضم فمعناه: فأسلم من شره.

وأما الفتح فمعناه: دخل في دين الإسلام.

واختلف العلماء في الشياطين هل هم جنس مستقل أم هم الجن؟

فقيل: إنهم جنس، والجن جنس آخر كما أن الإنس جنس، والفرس جنس آخر، فعلى هذا النوع المكلفين أربعة الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين.

وقيل: إنهم نوع من الجن، فإن الجن فيهم أخيار وأشرار، والشياطين أشرارهم لهم عقول وأفهام، وقدرة على أفعال صعبة شاقة، والجن والشياطين أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، فيظهر الواحد منهم في صورة كلب تارة، وفي صورة هرة تارة، وفي صورة حية تارة وهكذا.

لطيفة: روينا بالإسناد الصحيح عن الشيخ برهان الدين الموصلي وهو رجل عالم صالح ورع قال: توجهنا من مصر إلى مكة المعظمة آمين البيت الحرام نريد الحج، فبينما نحن في أثناء الطريق نزلنا منزلا، فإذا بثعبان قد خرج علينا. قال: فبادرت إلى قتله، وإذ أنا بين قوم من الجن يقول بعضهم: قتلت أبي.

وبعضهم: قتلت أخي.

وبعضهم قتلت: ابن عمي.

فتكاثروا علي، واذا رجل منهم لصق بي، وقال لي: قل أنا بالله وبالشريعة المحمدية. فقلت: أنا بالله وبالشريعة المحمدية، فأشار ذلك الجني إلى واليهم أن سيروا إلى الشرع، فساروا بي إلى أن وصلنا إلى شيخ كبير على مصطبة، فلما صرنا بين يديه، قال: خلوا

= ٢٦٩٠٥)، وإسحاق بن راهويه (١/٢٥٨، رقم ٨)، وعبد بن حميد (ص ٤٤٩، رقم ١٥٥٦)، وأبو يعلى (١٣/٣٨، رقم ٧١٢١)، والطبراني (٢٤/٧١، رقم ١٨٩) عن صفية.

وأخرجه مسلم (٤/١٧١٢، رقم ٢١٧٤)، وأبو داود (٤/٢٣٠، رقم ٤٧١٩)، وأحمد (٣/١٥٦، رقم ١٢٦١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٤٣٨، رقم ١٢٨٨)، وأبو يعلى (٦/١٨٦، رقم ٣٤٧٠)، والقضاعي (٢/١١٣، رقم ٩٩٥) عن أنس.

(١) أخرجه مسلم (٤/٢١٦٨، رقم ٢٨١٥) عن عائشة.

سبيله وادعوا عليه. فقال الأولاد: ندعي عليه إنه قتل أبانا. قال: فقلت: حاش لله إنما نحن وفد بيت الله الحرام نزلنا هذا المـــنزل، فخرج علينا ثعبان، فتبادر الناس إلى قتله، فضربته فقتلته، فلما أن سمع الشيخ مقالتي، قال: خلو سبيله سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ببطن نخل وهو يقول «**من تزيا بغير زيه فقتل فلا دية ولا قود**» ردوه إلى مأمنه. قال: فبادروا وجاءوا بي من مكانهم إلى الركب.

وللشياطين قدرة على النفوذ إلى بواطن البشر، فقد ورد في الحديث «**لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات**» [(١)].

والله اعلم وأكرم.

***

---

(١) الحديث بنحوه عند أحمد (٢/٣٥٣، رقم ٨٦٢٥).

قال الهيثمي (١/٦٦): فيه أبو الصلت لا يعرف و لم يرو عنه غير على بن زيد.

المجلس الثاني والستون

في الكلام على حديث كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير
وذكر ما فيه من الفوائد
وذكر فوائد كثيرة متعلقة بالقرآن والصدقة وغيرهما

الحمد لله فاتح أبواب القلوب المقفلة، ومانح جواهر العقول المفكرة المتأملة، وواهب أنصار البصائر الكاشفة المعضلة، المنبه للعبد على ما خفي عليه مما تشاغل عنه وأغفله، فلا علم للعبد إلا ما علمه الله، وأوضح له سبله، تعالى الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا معين له، ولا نظير له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنجي قائلها من جحيم هاوية، درجاتها نازلة مستفلة، وترفعه إلى جنات عالية، درجاتها صاعدة، قطوفها دانية مذللة.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بالرسالة العامة، والأحكام المبينة والمجملة، الذي سماه الله بالروؤف الرحيم، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته آخر الأمر وأوله وعلينا معهم وسلم تسليما، وقد وعد الإجابة لما سأله.

قَالَ البُخَارِي:

باب أجود ما كان النبيﷺ يكون في رمضان

حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ أَخْبَرَنَا ابْنُ شِهَابٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ (١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «أجود الناس» بنصب أجود لأنها خبر كان، وقدم ابن عباس هذه الجملة على ما بعدها - وإن كانت لا تتعلق بالقرآن - على سبيل الاحتراس من مفهوم ما بعدها.

ومعنى أجود الناس: أكثر الناس جودا، والجود: الكرم، وهو من الصفات المحمودة. وقد أخرج الترمذي من حديث سعد رفعه «إن الله جواد يحب الجود... الحديث» وله في حديث أنس رفعه «أنا أجود ولد آدم، وأجودهم بعدي رجل علم علما فنشر علمه، ورجل جاد بنفسه في سبيل =

قوله: «**حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ أَخْبَرَنَا ابْنُ شِهَابٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما...**»

هذا هو الحبر ترجمان القرآن، ابن عم الرسول ﷺ وقد قدمنا ترجمته في الكلام على أوائل الصحيح، وأنه كان غزير العلم، ومن غزارة علمه كما رواه الدنيوري في المجالسة وابن عبد البر في التمهيد: أنه كتب صاحب الروم إلى معاوية يسأله عن أفضل

= الله» وفي سنده مقال، وعن أنس «كان النبي ﷺ أشجع الناس وأجود الناس... الحديث».

قوله: «وكان أجود ما يكون» برفع أجود هكذا في أكثر الروايات، وأجود اسم كان وخبره محذوف، وهو نحو أخطب ما يكون الأمير في يوم الجمعة. أو هو مرفوع على أنه مبتدأ مضاف إلى المصدر وهو «ما يكون» وما مصدرية وخبره في رمضان، والتقدير: أجود أكوان رسول الله ﷺ في رمضان، وإلى هذا جنح البخاري في تبويبه في كتاب الصيام إذ قال: باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان. وفي رواية الأصيلي «أجود» بالنصب على أنه خبر كان، وتعقب بأنه يلزم منه أن يكون خبرها اسمها، وأجيب بجعل اسم كان ضمير النبي ﷺ وأجود خبرها، والتقدير: كان رسول الله ﷺ مدة كونه في رمضان أجود منه في غيره.

قال النووي: الرفع أشهر، والنصب جائز. وذكر أنه سأل ابن مالك عنه فخرج الرفع من ثلاثة أوجه، والنصب من وجهين.

قوله «المرسلة» أي: المطلقة يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وعبر بالمرسلة إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة، وإلى عموم النفع بجوده كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه. ووقع عند أحمد في آخر هذا الحديث «لا يسأل شيئا إلا أعطاه» وثبتت هذه الزيادة في الصحيح من حديث جابر «ما سئل رسول الله ﷺ شيئا فقال لا».

وقال النووي: في الحديث فوائد:

منها الحث على الجود في كل وقت.

ومنها الزيادة في رمضان وعند الاجتماع بأهل الصلاح.

وفيه زيارة الصلحاء وأهل الخير، وتكرار ذلك إذا كان المزور لا يكرهه.

استحباب الإكثار من القراءة في رمضان وكونها أفضل من سائر الأذكار، إذ لو كان الذكر أفضل أو مساويا لفعلاه. فإن قيل: المقصود تجويد الحفظ، قلنا الحفظ كان حاصلا، والزيادة فيه تحصل ببعض المجالس.

قلت: وفيه إشارة إلى أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان، لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان كما ثبت من حديث ابن عباس، فكان جبريل يتعاهده في كل سنة فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين كما ثبت في الصحيح عن فاطمة رضي الله عنها. والله أعلم بالصواب. انظر فتح الباري (١/٣٠-٣١).

الكلام ما هو ؟ وعن الثاني والثالث والرابع والخامس ؟ وكتب إليه يسأله عن أكرم الخلق على الله ؟ وأكرم الإماء على الله ؟ وعن أربعة من الخلق فيهن الروح لم يرتكضوا في رحم ؟ ويسأله عن قبر سار بصاحبه ؟ وعن المجرة ؟ وعن القوس ؟ وعن مكان طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ذلك ولا بعده ؟

فلما قرأ معاوية الكتاب قال: أخزاه الله، وما علمي بما ها هنا.

فقيل له: اكتب إلى ابن عباس، واسأله. فكتب إليه بذلك.

فكتب له ابن عباس في الجواب:

إن أفضل الكلام: لا اله إلا الله كلمة الإخلاص، لا يقبل عمل إلا بها، والتي تليها سبحان الله وبحمده صلاة الخلق، والتي تليها الحمد لله كلمة الشكر، والتي تليها الله اكبر، والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما أكرم خلق الله: فآدم خلقه بيده، وعلمه الأسماء كلها.

وأكرم إمائه عنده: مريم أحصنت فرجها، ونفخ فيه من روحه.

وأما الأربعة الذين لم يرتكضوا في رحم: فآدم، وحواء، والكبش الذي فدي به إسماعيل، وعصى موسى التي ألقاها فصارت ثعبانا مبينا.

وأما القبر الذي سار بصاحبه: فالحوت حين التقم يونس.

وأما المجرة: فباب السماء.

وأما القوس: فهو قوس السماء. = أي وهو الذي تسميه الناس الآن قوس قزح، وهو تصحيف، والمشهور بقوس قزح بضم القاف وفتح الزاي قال النووي في الأذكار: ويكره أن يقال له: قوس قزح. وإنما يقال: قوس الله. قال: وروينا في الحلية لأبي نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال «**لا تقولوا قوس قزح فإن قزح شيطان، ولكن قولوا قوس الله عز وجل، فهو أمان لأهل الأرض**» [(١)].

وبين أن الحكمة في خروج هذا القوس في السماء أن يحصل للناس الأمان أي من الغرق بعد قوم نوح.

وأما المكان الذي طلعت فيه الشمس و لم تطلع عليه قبله ولا بعده: فالمكان الذي انفلق لبني إسرائيل في البحر.

فلما قدم عليه الكتاب أرسله إلى صاحب الروم، فقال: لقد علمت أن معاوية لم

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٣٠٩).

يكن له بهذا علم، وما أصاب هذا إلا رجل من بيت النبوة.

قال البخاري «... قال ابْن عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ».

قال في نزهة المجالس: إنما قال ابن عباس كان رسول الله ﷺ أجود الناس، و لم يقل أكرم الناس ؛ لأن الجود أبلغ من الكرم، فإن الجود ما كان بغير سؤال، والكرم ما كان بسؤال، وعطاؤه ﷺ غالبا بغير سؤال، ونواله ﷺ لا يشبهه نوال.

وما أحسن قول من قال:

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو ان معشار عشرها ... على البر كان البر أندى من البحر

قال العلماء: الجود هو سعة العطاء وكثرته، والله تعالى يوصف به

ففي الحديث من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال «**إن الله جواد يحب الجود كريم يحب الكرم**».

وفي الترمذي أيضا من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال يقول الله عز وجل «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد فيسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ذلك بأني جواد واجد ماجد أفعل ما أريد عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون**» (١).

وفي الأثر المشهور عن الفضيل بن عياض: أن الله تعالى يقول كل ليلة: من أعظم مني جودا، والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقب، أكلأهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم، أجود على العاصي، وأتفضل على المسيء، من الذي دعاني فلم استجب له، من الذي سألني فلم أعطه، من

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٦٥٦، رقم ٢٤٩٥) وقال: حسن. وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (٢/ ١٤٢٢، رقم ٤٢٥٧)، وأحمد (٥/١٥٤، رقم ٢١٤٠٥)، وهناد (٢/٤٥٦، رقم ٩٠٥)، والبزار (٩/٤٠١، رقم ٣٩٩٥).

ذا الذي أناخ ببابي فطردته، أنا الفضل ومني الفضل، وأنا الجود ومني الجود، وأنا الكريم ومني الكرم.

وقيل: معنى الجود أنه إذا غفر ذنب عبد، غفر لكل من فعل ذلك الذنب، وغفر لمن اسمه على اسم ذلك العبد، فالله سبحانه وتعالى أجود الأجودين، وجوده يتضاعف في أوقات خاصة كشهر رمضان، وفيه أنزل قوله تعالى ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦].

وجاء في حديث خرجه الترمذي وغيره «**أنه ينادي فيه مناد يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر**» [(١)].

ولما كان الله عز وجل قد جبل نبيه ﷺ على أكمل الاخلاق وأشرفها كان ﷺ أجود الناس كلهم.

خرج أبو يعلى بإسناد فيه ضعف من حديث أنس مرفوعا «**ألا أخبركم بالأجود الأجود الله الأجود الأجود، وأنا أجود بني آدم وأجودهم من بعدي رجل علم علما فانتشر علمه يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله**»[(٢)].

فدل هذا على أنه ﷺ أجود بني آدم على الإطلاق كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده لجميع أنواع الجود من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله في إظهار دينه، وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق من إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، و لم يزل ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣/٦٦، رقم ٦٨٢)، وابن ماجه (١/٥٢٦، رقم ١٦٤٢)، وابن حبان (٨/ ٢٢١، رقم ٣٤٣٥)، والحاكم (١/٥٨٢، رقم ١٥٣٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وأبو نعيم في الحلية (٨/٣٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٠١، رقم ٣٥٩٨)، وفي السنن الكبرى (٤/٣٠٣، رقم ٨٢٨٤) عن أبي هريرة.

ولفظ الحديث عند الترمذي: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب وينادي مناد يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة».

(٢) أخرجه أبو يعلى (٥/١٧٦، رقم ٢٧٩٠)، قال الهيثمي (١/١٦٦): فيه سويد بن عبد العزيز وهو متروك الحديث. وأخرجه أيضا: البيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٨١، رقم ١٧٦٧).

فلهذا قالت له خديجة في أول مبعثه: والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق.

ثم تزايدت هذه الخصال فيه بعد البعثة، فتضاعفت أضعافا كثيرة كما دل على ذلك الأخبار الصحيحة:

ففي الصحيحين عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس.

وفي صحيح مسلم عن أنس أيضا قال: ما سئل رسول الله ﷺ إلا اعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وفي رواية: أن رجلا سأل النبي ﷺ غنما بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء ما لا يخاف الفقر.

قال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها.

وفيه أيضا عن صفوان بن أمية قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لمن أبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي.

قال ابن شهاب: أعطاه يوم حنين مائة من الغنم، ثم مائة، ثم مائة.

وقال الواقدي: قد أعطاه يومئذ واديا مملؤا إبلا ونعما.

فقال صفوان: أشهد ما طابت لهذا إلا نفس نبي.

وفي الصحيحين عن جابر قال: ما سئل رسول الله ﷺ فقال: لا ... الحديث.

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم، وكان جوده ﷺ كله لله عز وجل، وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال إما لفقير، أو محتاج أو ينفقه في سبيل الله، أو يألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده، فيعطي عطاء تعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار، وربما بسط على بطنه الحجر من الجوع، وإلى ذلك أشار في البردة بقوله:

وشد من سقب أحشاؤه وطوى ... تحت الحجارة كشحا مترف الأدم

وكان ﷺ يتضاعف جوده في شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أن جود ربه يتضاعف فيه أيضا، والله تعالى جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة، وكان هذا

الجود منه يتضاعف في هذا الشهر قبل البعثة، وزاد عليه بعدها أضعافا مضاعفة.

فقد نقل ابن إسحاق عن عبيد بن عمير قال كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا كان الشهر الذي أراد به ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها، وذلك الشهر رمضان خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى برسالته، ورحم العباد بها جاء جبريل من الله عز وجل، ثم كان بعد الرسالة جوده في رمضان أضعاف ما كان قبل ذلك، فإنه كان يلتقي هو وجبريل عليه السلام، وهو أفضل الملائكة وأكرمهم في كل سنة من شهر رمضان كل ليلة، ويدارسه القرآن الذي جاء به إليه، وهو أشرف الكتب المترلة وأفضلها، فكان ﷺ يتأمله ويتفكر فيما اشتمل عليه من المعاني والحكم، ويرى الحق جل جلاله قد حث عباده فيه على الإحسان، ومكارم الأخلاق، وزجرهم ونهاهم عن ارتكاب المعاصي، فيسارع إلى ما حث عليه، ويمتنع مما زجر عنه، فإن القرآن العظيم كان له خلقا بحيث يرضا لرضاه، ويسخط لسخطه، فلهذا كان يتضاعف جوده وأفضاله في هذا الشهر لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام، وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجود، ولا شك أن المخالطة تؤثر، وتورث أخلاقا من المخالط حتى إن البخيل إذا خالط السخي قد تؤثر المخالطة فيه، فيتخلق بأخلاقه، ويتحول عن صفة البخل، وهكذا في كل خلق محمود أو مذموم.

نقل هذا المعنى عن بعض الشعراء أنه كان امتدح ملكا جواد، فأعطاه جائزة سنية، فخرج بها من عنده، وفرقها كلها على الناس وأنشد:

لمست بكفي كفه اطلب الغنى ... فلم أدري أن الجود من كفه يعدي

فبلغ ذلك الملك، فأضعف له الجائزة.

وقد مدح بعض الشعراء الأجواد الأسخياء بمدح لا يصلح إلا أن يكون للنبي ﷺ فقال:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... ثناها لقبض لم تجبه أنامله

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فيتق الله سائله

هو البحر في أي النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله

وقد ذكر العلماء أن لتخصيصه ﷺ شهر رمضان بكثرة الجود حكما كثيرة:

منها: أنه شهر فاضل، وثواب العمل فيه مضاعف، ففي الترمذي عن أنس مرفوعا «**أفضل الصدقة صدقه رمضان**» [(١)].

وقال الزهري: تسبيحة في رمضان خير من سبعين تسبيحة في غيره.

ومنها: أنه شهر الصوم، فإعطاء الناس، والإحسان إليهم فيه معين لهم على الصيام والقيام والذكر وغير ذلك من الطاعات، فيتضاعف الثواب والأجر بسبب ذلك، ويستوجب المعين لهم مثل أجرهم كما أن من جهز غازيا، فقد غزا، ومن خلفه في أهله فقد غزا، كذلك من أعان الصائم، فله مثل أجره.

وجاء في الحديث «**وما عمل الصائم من أعمال البر إلا كان لصاحب الطعام مثله ما دام الطعام فيه**».

ومنها: أن الأرزاق تكثر فيه، فقد جاء في الحديث «**أنه يزاد فيه في رزق المسلم**»[(٢)].

فأحب الشارع ﷺ أن يوافق ربه في الكرم، فلهذا كان يجود فيه كثيرا.

ومنها: أنه شهر يجود الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار، لاسيما في ليلة القدر، والله تعالى يرحم من عباده الرحماء كما قال ﷺ «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**» [(٣)].

فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء والفضل، والجزاء من جنس العمل، فلهذا كان ﷺ إذا دخل شهر رمضان أعتق كل مملوك، وأعطى كل سائل، وأطلق كل أسير، فقيل له: يا رسول الله إنا نراك تفعل هذا في شهر رمضان أضعاف أضعاف ما تعمله وتفعله في غيره ؟ فقال: إن هذا الشهر لا يرد الله فيه سائلا، فإنه سبحانه وتعالى يعطي فيه السائلين، ويعتق المذنبين، فأنا أحب أن أعتق الأسرى، وأعطي الفقراء.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣/٥١، رقم ٦٦٣) وقال: غريب، وصدقة بن موسي ليس عندهم بذاك القوي. وأخرجه ايضا: البيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٧٧، رقم ٣٨١٩)، وفي السنن الكبرى (٤/ ٣٠٥، رقم ٨٣٠٠).

(٢) هو جزء من حديث سلمان الذي ذكر فيه خطبة رسول الله ﷺ في استقبال شهر رمضان. أخرجه ابن خزيمة (٣/١٩١، رقم ١٨٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٠٥، رقم ٣٦٠٨)، والحارث كما في بغية الباحث (١/٤١٢، رقم ٣٢١)، وابن عدي (٥/٢٩٣ ترجمة ١٤٣٢ عبد العزيز بن عبد الله) وقال: عامة ما يرويه لا يتابعه عليه الثقات.

(٣) أخرجه الطبراني (٢/٣٢٤، رقم ٢٣٥٣) عن جرير.

فإذا كان المولى جلت قدرته أمر بالإحسان على العباد، فكيف لا يحسن هو إليهم، ولا يعتقهم، وهو أهل الجود، وقد قال ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ومنها: أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة كما جاء في الحديث عن على بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «**إن في الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها. قالوا: لمن هى يا رسول الله ؟ قال: لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس نيام**» (١).

وهذه الخصال كلها تكون في رمضان، فيجتمع فيه للمؤمن الصيام، والقيام، والصدقة، وطيب الكلام، والصيام والصدقة توصل صاحبها إلى الله تعالى.

قال بعض السلف: الصلاة توصل صاحبها إلى نصف الطريق، والصيام يوصله إلى باب الملك، والصدقة تأخذ بيده فتدخله على الملك.

ومنها: أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا، واتقاء جهنم، والمباعدة عنها، وخصوصا إن ضم إلى ذلك قيام ليل.

كان أبو الدرداء يقول: صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبور، وصوموا يوما شديدا حره لحر يوم النشور، وتصدقوا بصدقه لشر يوم عسير.

ومنها: أن الصيام لابد أن يقع فيه خلل ونقص، وتكفير الصيام للذنوب مشروط بالتحفظ مما ينبغي التحفظ منه، وعامة صيام الناس لا يجتمع في صومه التحفظ كما ينبغي، فالصدقة تجبر ما فيه من النقص والخلل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤/٤، رقم ١٩٨٤) وقال: غريب. والبيهقي في شعب الإيمان (٢١٥/٣، رقم ٣٣٦٠)، وهناد في الزهد (١٠٣/١، رقم ١٢٣)، وأحمد (١٥٥/١، رقم ١٣٣٧)، وأبو يعلى (٣٣٧/١، رقم ٤٢٨)، والبزار (٢٨١/٢، رقم ٧٠٢) عن علي.

وأخرجه أحمد (٣٤٣/٥، رقم ٢٢٩٥٦)، قال الهيثمي (١٩٢/٣): رجاله ثقات. وابن خزيمة (٣/ ٣٠٦، ٢١٣٦، ٢١٣٧) وقال عقبهما: إن صح الخبر. وابن حبان (٢٦٢/٢، رقم ٥٠٩)، والطبراني (٣٠١/٣، رقم ٣٤٦٦)، قال الهيثمي (٢٥٤/٢): رجاله ثقات. والبيهقي في شعب الإيمان (٤٠٤/٣، رقم ٣٨٩٢)، وفي السنن الكبرى (٣٠٠/٤، رقم ٨٢٦٢) عن أبي مالك الأشعري.

وأخرجه أحمد (١٧٣/٢، رقم ٦٦١٥)، والطبراني (٤٦/١٣، رقم ١٠٣)، قال الهيثمي (٢/ ٢٥٤): إسناده حسن. والحاكم (١٥٣/١، رقم ٢٧٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٨/٣، رقم ٣٠٩٠) عن ابن عمرو.

ومنها: أنه ﷺ كان يفعل ذلك شكرا لله تعالى لتردد جبريل إليه ونزوله عليه في كل ليلة.

ومنها: أنه ﷺ لما كان يدارسه جبريل القرآن زادت معاينته للآخرة، فأخرج ما في يده من الدنيا.

وفي الحديث الذي ساقه البخاري عن ابن عباس دلالة على استحباب مدارسة القرآن في شهر رمضان، وكذا على غيره من العلوم الشرعية، والمدارسة هي أن يقرأه على غيره، ويقرأ غيره عليه، ويرجى لمن حضر مجلس قراءة القرآن أو العلم فيه أن يحصل له أجر المدارسة.

فقد أفاد العلامة ابن الجوزي أنه ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال «**حضور مجلس علم في رمضان أفضل عند الله من حضور ألف مجلس في غيره، وحضور مجلس علم في شهر رمضان أفضل عند الله من ألف حجة مبرورة**».

وفيه دلالة على استحباب الأكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان خصوصا في الليل، فإن المدارسة بين النبي ﷺ وبين جبريل كانت ليلا صرح به الحديث، ولأن الليل تنقطع فيه الشواغل، وتجتمع فيه الهمم، ويتواطئ فيه القلب واللسان على التدبير.

قال الله تعالى ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ [المزمل: ٦].

وقد ورد عن ابن مسعود أنه قال: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

فقد أثنى الله سبحانه وتعالى على من كان دأبه القرآن ليلا فيقول ﴿**يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ**﴾ [آل عمران: ١١٣].

وإن تلا القرآن في الصلاة في ليال رمضان كان ذلك أفضل وأبلغ في تحصيل الثواب، فقد كان ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره.

وقد صلى معه حذيفة ليلة في رمضان قال: فقرأ البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، لا يمر بآية تخويف إلا وقف وسأل، قال: فما صلى ركعتين حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة خرجه الإمام أحمد وغيره.

وكان القارئ يقرأ بالمائتين في ركعة حتى كانوا يعتمدون على العصى من طول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر.

وفي رواية: أنهم كانوا يربطون الحبال بين السواري، ثم يتعلقون بها.

وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها.

وكان بعضهم يقرأه في ليلتين منه.

وبعضهم في كل ثلاث.

وبعضهم في العشر الأواخر كل ليلة.

وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرأها في غير الصلاة.

وهكذا نقل عن أبي حنيفة.

وكان الزهري يقول: إذا دخل رمضان، فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام.

وكان مالك إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث، ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف.

وكان سليمان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على تلاوة القرآن.

وكان بعض السلف إذا دخل رمضان يحضر المصاحف، ويجمع عنده أصحابه ويقرءون فيها.

وإنما خص رمضان بذلك لأن الله تعالى أنزل القرآن فيه إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ كما سيأتي ذلك في الكلام على ليلة القدر.

فائدة

القرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة روينا في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة «**اقرؤا القرآن فأنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه**» [(١)].

وإلى ذلك أشار العلامة الشاطبي في قصيدته بقوله:

وإن كتاب الله أوثق شافع ... وأغنى غناء واهبا متفضلا

وخير جليس لا يمل حديثه ... وترداده تزداد فيه تجملا

وخرج الإمام أحمد من حديث بريدة مرفوعا «**إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه القبر كالرجل الشاحب - أي المتغير اللون - فيقول: هل**

---

(١) أخرجه مسلم (١/٥٥٣، رقم ٨٠٤). **وأخرجه أيضاً**: أحمد (٥/٢٤٩، رقم ٢٢٢٠٠)، وابن حبان (١/٣٢٢، رقم ١١٦)، والحاكم (١/٧٥٢، رقم ٢٠٧١)، والبيهقي (٢/٣٩٥، رقم ٣٨٦٢)، والطبراني في الكبير (٨/١١٨، رقم ٧٥٤٢)، وفي الأوسط (١/١٥٠، رقم ٤٦٨)، والروياني (٢/٣٠٥، رقم ١٢٥٤).

تعرفني ؟ أنا صاحبك الذي اظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وكل تاجر من وراء تجارته، وأني لك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطي الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ثم يقال: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها» [(١)].

فهو في صعود ما دام يقرأ ويرتل.

***

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٥٢، رقم ٢٣٠٢٥). وأخرجه أيضا: الدارمي (٢/٥٤٣، رقم ٣٣٩١)، والحاكم (١/٧٤٧، رقم ٢٠٥٧) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٤٤، رقم ١٩٨٩).

باب هل يقول إني صائم إذا شتم

قال البخاري: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ عَنْ أَبِي صَالِحٍ الزَّيَّاتِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **«قَالَ اللَّهُ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ. وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»** (١).

قوله: **«قَالَ اللَّهُ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»**.

إنما أضاف الله الصوم إلى نفسه لأنه لم يعبد به غير الله، فلم تعظم الكفار في عصر من الأعصار معبودا لهم بالصيام، وإن كانوا يعظمونه بصورة السجود والصدقة وغير ذلك.

ورده ابن الملقن، واستبعده بما حكى المسعودي وغيره: أن جماعة من الملاحدة

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله «ولا يصخب» كذا للأكثر بالمهملة الساكنة بعدها خاء معجمة، ولبعضهم بالسين بدل الصاد وهو بمعناه، والصخب الخصام والصياح، وقد تقدم أن المراد النهي عن ذلك تأكيده حالة الصوم، وإلا فغير الصائم منهي عن ذلك أيضا.

قوله: «لخلوف» كذا للأكثر، وللكشميهني لخلف بحذف الواو كأنها صيغة جمع، ويروي في غير البخاري بلفظ لخلفة على الوحدة كتمر وتمرة.

قوله: «للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح» زاد مسلم بفطره، وقوله يفرحهماأصله يفرح بهما فحذف الجار ووصل الضمير كقوله صام رمضان أي فيه. قال القرطبي: معناه فرح بزوال جوعه وعطشه حيث أبيح له الفطر، وهذا الفرح طبيعي وهو السابق للفهم، وقيل إن فرحه بفطره إنما هو من حيث أنه تمام صومه وخاتمة عبادته وتخفيف من ربه ومعونة على مستقبل صومه. قلت: ولا مانع من الحمل على ما هو أعم مما ذكر، ففرح كل أحد بحسبه لاختلاف مقامات الناس في ذلك، فمنهم من يكون فرحه مباحا وهو الطبيعي، ومنهم من يكون مستحبا وهو من يكون سببه شيء مما ذكره.

قوله: «وإذا لقي ربه فرح بصومه» أي بجزائه وثوابه. وقيل الفرح الذي عند لقاء ربه إما لسروره بربه أو بثواب ربه على الاحتمالين. قلت: والثاني أظهر إذ لا ينحصر الأول في الصوم بل يفرح حينئذ بقبول صومه وترتب الجزاء الوافر عليه. انظر فتح الباري (٤/١١٢).

وغيرهم يعبدوا المشتري وزحل والزهرة به فبطل هذا القول.

قوله «**وأنا أجزي**»: أي أنا المنفرد بجزائه على عمله ذلك بما لا يعلم كنه مبلغه غيري في هذا بيان لعظم فضل الصوم، وكثرة ثوابه لأن الكريم إذا أخبر بأنه يتولى بنفسه الجزاء اقتضى عظم قدر الجزاء وسعته.

وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال «**كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف إلا الصيام**» (١).

فإنه لا ينحصر في هذا العدد، بل يضاعفه الله أضعافا كثيرة بغير حصر عدد، ويدل عليه ما في الطبراني عن ابن عمر مرفوعا «**الصيام لله لا يعلم ثواب عمله إلا الله عز وجل**» (٢).

وأيضا الصيام يقال له: الصبر لاشتماله على أنواع الصبر.

وقد قال تعالى ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

ولهذا ورد عن النبي ﷺ أنه سمي شهر رمضان شهر الصبر.

وفي حديث آخر في الترمذي «**الصوم نصف الصبر**» (٣).

قال العلماء: الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله، وتجمع الثلاثة كلها في الصوم، فإن فيه صبرا على طاعة الله، وصبرا عما حرم الله على الصائم من الشهوات، وصبرا على ما يحصل للصائم من ألم الجوع والعطش، وضعف النفس والبدن، وهذا الألم الناشئ من أعمال الطاعات يثاب عليه صاحبه كما قال تعالى في المجاهدين ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٧/٢، رقم ١١٥١). وأخرجه ايضا: ابن ماجه (٥٢٥/١، رقم ١٦٣٨)، والنسائي (١٦٤/٤، رقم ٢٢١٨)، وأحمد (٤٧٧/٢، رقم ١٠١٧٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٥/١، رقم ٨٦٥)، قال الهيثمي (١٨٢/٣): فيه يحيي بن المتوكل ضعفه الجمهور، ووثقه ابن معين في رواية وضعفه في أخري. وأخرجه ايضا: البيهقي في شعب الإيمان (٢٩٨/٣ رقم ٣٥٨٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٥٣٦/٥، رقم ٣٥١٩) وقال: حسن. **وأخرجه أيضًا**: أحمد (٣٦٣/٥، رقم ٢٣١٢٣)، وعبد الرزاق عن معمر في الجامع (٢٩٦/١١، رقم ٢٠٥٨٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٦/١، رقم ٦٣١) عن رجل من بني سليم.

ولفظ الحديث كما في سنن الترمذي: «التسبيح نصف الميزان والحمد يملأه والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض والصوم نصف الصبر والطهور نصف الإيمان».

في سبيل الله، ولا يطؤن موطأ يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين، فاعلم أن مضاعفة الأجر للأعمال يكون بأسباب منها شرف المكان المعمول فيه ذلك العمل كالحرم، ولذلك تضاعف الصلاة في مسجد مكة والمدينة كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح.

وكذلك روي أيضا أن الصيام يتضاعف بالحرم.

ففي سنن ابن ماجة بإسناد ضعيف عن ابن عباس مرفوعا «**من أدرك رمضان بمكة فصامه وقام منه ما تيسر كتب الله مائة ألف شهر رمضان فيما سواه**».

وذكر له ثوابا كثيرا، ومنها شرف الزمان كشهر رمضان، وعشر ذي الحجة.

ففي حديث سلمان المرفوع «**من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه**» (١).

وفي الترمذي عن أنس قال: سئل النبي ﷺ أي الصدقة أفضل ؟ قال «**صدقة رمضان**» (٢).

وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ قال «**عمرة في رمضان تعدل حجة أو قال حجة معي**» (٣).

---

(١) هو جزء من حديث سلمان الذي ذكر فيه خطبة رسول الله ﷺ في استقبال شهر رمضان.
أخرجه ابن خزيمة (١٩١/٣، رقم ١٨٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٥/٣، رقم ٣٦٠٨)، والحارث كما في بغية الباحث (٤١٢/١، رقم ٣٢١)، وابن عدي (٢٩٣/٥ ترجمة ١٤٣٢ عبد العزيز بن عبد الله) وقال: عامة ما يرويه لا يتابعه عليه الثقات.

(٢) أخرجه الترمذي (٥١/٣، رقم ٦٦٣) وقال: غريب، وصدقة بن موسي ليس عندهم بذاك القوي. وأخرجه ايضا: البيهقي في شعب الإيمان (٣٧٧/٣، رقم ٣٨١٩)، وفي السنن الكبرى (٤/ ٣٠٥، رقم ٨٣٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١/٢، رقم ١٦٩٠)، ومسلم (٩١٧/٢، رقم ١٢٥٦). **وأخرجه أيضًا:** أبو داود (٢٠٥/٢، رقم ١٩٩٠)، وابن ماجه (٩٩٦/٢، رقم ٢٩٩٤)، وأحمد (٢٢٩/١، رقم ٢٠٢٥)، وابن حبان (١٢/٩، رقم ٣٦٩٩)، والطبراني (١٤٢/١١، رقم ١١٢٩٩) عن ابن عباس.
وأخرجه البخاري (٦٥٩/٢، رقم ١٧٦٤)، وابن ماجه (٩٩٦/٢، رقم ٢٩٩٥)، وأحمد (٣/ ٣٥٢، رقم ١٤٨٣٧) عن جابر بن عبد الله.
وأخرجه أبو داود (٢٠٤/٢، رقم ١٩٨٨)، والترمذي (٢٧٦/٣، رقم ٩٣٩) وقال: حسن =

وذكر أبو بكر بن أبي مريم عن أشياخه أنهم كانوا يقولون: إذا حضر رمضان فانبسطوا فيه بالنفقة، فإن النفقة فيه مضاعفة كالنفقة في سبيل الله، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحه في غيره.

وقال النخعي: صوم يوم من رمضان أفضل من ألف يوم، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحه، وركعة فيه خير من ألف ركعة.

فلما كان الصيام في نفسه مضاعفا أجره بالنسبة إلى سائر الأعمال لشرف زمانه، وكونه هو الصوم الذي فرضه الله على عباده، وجعل صيامه أحد اركان الإسلام التي بني الإسلام عليها، وقد يضاعف الثواب بأسباب أخرى:

منها شرف الفاعل عند الله، وقربه منه، وكثرة تقواه كما يضاعف أجر هذه الأمة على أجور من قبلهم من الأمم، فأعطوا كفلين من الأجر.

وزعم جماعة من أهل العلم: أن كل عمل تكتبه الحفظة إلا الصيام لأنه لا يظهر من بني آدم بلسان، ولا فعل، وإنما هو نية في القلب، وإمساك عن المطعم والمشرب، فلا تكتب.

قالوا: ولهذا قال الله «**وأنا أجزي به**» أي أنا أتولى جزاءه على ما أحب من التضعيف، وإن لم تكتبه ملائكتي لعبدي.

قال ابن الملقن: وهذا القول واه مردود، لأن الحفظة تعلم الإمساك عن الفعل، وهو حقيقة الصيام، وإذا اطلعت على الإمساك عن الأكل في خلوته، فقد علمت صيامه، وإذا علمته كتبته.

وفي قوله: في الحديث المذكور «**ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي**».

إشارة إلى أن الصيام تقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من الطعام والشراب والنكاح، وهذه اعظم شهوات النفس، وللتقرب بترك هذه الشهوات بالصيام فوائد:

منها كسر النفس، فإن الشبع والري ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبطر والغفلة.

ومنها: تخلي القلب للفكر والذكر، فإن تناول هذه الشهوات قد يغشي القلب ويعميه، وتحول بين العبد، وبين الذكر والفكر ويستدعي الغفلة، وخلو الباطن من الطعام والشراب ينور القلب، ويوجب رقته، ويزيل قسوته، ويحليه للذكر والفكر.

= غريب. وابن ماجه (٢/٩٩٦، رقم ٢٩٩٣)، وأحمد (٦/٤٠٥، رقم ٢٧٣٢٦)، وإسحاق بن راهويه (١/٢٦٠، رقم ٥) عن أم معقل.

ومنها: أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه، وقيمة ما منعه عن الفقراء من فضول الطعام والشراب والنكاح، فإنه بامتناعه عن ذلك في وقت مخصوص، وحصول المشقة له بذلك يتذكر به من منع ذلك على الإطلاق، فيوجب له ذلك شكر نعمة الله عليه بالغنى، ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج، ومواساته بما يمكن من ذلك.

ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فيسكن بالصيام، وساوس من الشيطان، وتكسر الشهوة والغضب، ولهذا جعل النبي ﷺ الصيام وجاء لقطعه عن شهوة النكاح.

لطيفة

قال الحسن: تقول الحوراء لولي الله وهو متكئ معها على نهر العسل تعاطيه الكأس: نظر الله إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين، وأنت في ظمأ هاجرة من جهد العطش، فباهى بك الملائكة، وقال: انظروا إلى عبدي ترك زوجته وشهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي رغبة فيما عندي اشهدوا أني قد غفرت له. فغفر لك حينئذ وزوجنيك.

من ترك لله تعالى طعاما وشرابا وشهوة مدة يسيرة عوضه الله عنده طعاما وشرابا لا ينفذ وأزواجا لا يمتن أبدا.

ومنها: أن شهر رمضان فيه يزوج الصائمون فقد جاء في الحديث «**إن الجنة لتزخرف من الحول إلى الحول لدخول رمضان فتقول الحور: يا رب اجعل لنا في هذا الشهر من عبادك أزواجا تقر أعيننا بهم وتقر أعينهم بنا**» [(١)].

وفي حديث آخر «**إن الحور تنادي في شهر رمضان هل من خاطب إلى الله فيزوجه ألا خاطب في هذا الشهر إلى الرحمن ألا راغب فيما أعده الله للطائعين في الجنان ألا طالب لما أخبر به من النعيم المقيم**».

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٣١٢، رقم ٣٦٣٣)، والطبراني في الأوسط (٧/٤٤، رقم ٦٨٠٠)، وفي الشاميين (١/٧٣، رقم ٩١) عن ابن عمر.

قال الهيثمي (٣/١٤٢): رواه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار، وفيه الوليد بن الوليد القلانسي، وثقه أبو حاتم، وضعفه جماعة.

وقال ابن الجوزي (٢/٥٣٦، رقم ٨٨١): قال الدارقطني: تفرد به عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن عمرو، ولم يروه عنه غير الوليد بن الوليد وهو منكر الحديث، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به.

مع أنه ليس الخبر كالعيان، ولله در من قال: من يرد ملك الجنان، فليدع عنه التواني، وليقم في ظلمة الليل، إلى نور القرآن، وليصل صوما بصوم، إن هذا العيش فاني، إنما العيش جوار الله في دار الأمان.

وقوله «**والصيام جنة**» معناه: أنه مانع من الدخول إلى النار أو مانع من ارتكاب المعاصي لأنه يكسر الشهوة، ويضعف القوة كما أن الجُنة أي الترس يستتر به صاحبه عن أن يصيبه شيء.

وقوله «**فلا يرفث**» نهي للصائم عنه أن يفحش في الكلام في حال الصوم احتراما ما له، بل لو ترك الكلام مطلقا إن أمكنه كان أحسن.

قال زيد بن أسلم: كانت بنو إسرائيل يصومون بالكلام كما يصومون بالطعام لا يتكلمون إلا بذكر الله.

قوله «**ولا يصخب**» بالصاد أو بالسين المهملتين، وبالخاء المعجمة: الصياح والخصومة، وجاء في رواية في الصحيح بدل «**ولا يصخب**»، «**ولا يجهل**» وهو نهي عن أن يفعل أفعال الجهال كالصياح والسخرية.

أو معنى «**لا يجهل**» لا يسفه على أحد في الصوم احتراما له أيضا.

وصرح النووي أن رواية «**لا يسخر**» تصحيف أي من «**لا يسخب**» فقصرت الباء حتى صارت راء.

قوله «**فإن سابه أحدا أو قاتله فليقل إني امرىء صائم**»: أي يستحب للصائم إذا تعرض أحدا لسبه أو شتمه أو أراد أن يقاتله أن يقول: إني صائم. ويستحب أن يقول ذلك مرتين فأكثر.

وهل يقول ذلك بقلبه أو بلسانه أو بهما ؟

في ذلك خلاف قال الرافعي: يقول ذلك بقلبه ليمنع نفسه من مشاتمة خصمه، ومقاتلته ومقابلته.

وقال النووي: الأرجح أن يقول ذلك بلسانه ليسمعه المشاتم والمقاتل، فيزخر، ولا يقصد بذلك الرياء.

قال: ولو جمع بين القلب واللسان في ذلك حسنا ليكف بذلك نفسه وخصمه عن المشاتمة والمقاتلة، ويصون صومه عنهما، ويمكن أن يستفاد ذلك من قوله في الحديث «**فليقل**» بناء على استعمال القول في اللسان والنفس إما حقيقة فيهما، أو حقيقة في أحدهما مجازا في الآخر، فيكون من قبيل استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وكلاهما

جائز عند الإمام الشافعي يرحمه الله تعالى.

وفصل الروياني فقال: إن كان فرضا، فيقول ذلك بلسانه، وإن كان تطوعا، فيقوله بقلبه، ولا ينطق به دفعا للرياء.

واعلم أن كل أحد منهي عن الوقت والجهل والشتم والمخاصمة وغير ذلك من آفات اللسان الآتي ذكرها، ولكن النهي في الصوم احتراما له.

وآفات اللسان المنهي عنها في الصوم وغيره كثيرة صنف الغزالي فيها كتابا سماه آفات اللسان فمنها:

أن يتكلم الإنسان فيما لا يعينه، فإذا تكلمت فيما لا يعنيك، فقد ضيعت زمانك وتعرضت به للحساب، واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، فانك لو ذكرت الله بدله أو سكت، واشتغلت بالفكر لكنت تنال معالي الدرجات قال النبي ﷺ «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» (١).

ومن الكلام فيما لا يعنيك أن تجلس فتحكي أحوالك في أسفارك، وأحوال الأطعمة، وأحوال الناس، وأحوال الصناعات والتجارات، فليحاسب العبد نفسه عند ذكره ما لا يعنيه، فإنه لو ذكر الله تعالى بدلا من تلك الكلمة لكان ذلك كترا من كنوز السعادة، فكيف يسمح العاقل بترك كتر مكنوز وأخذ مدرة هذا لو لم يكن فيما تكلم به كان فيه آثم كالخوض في الباطل، فقد استبدل بترك كل كتر شعلة من نار.

ومن الخوض في الباطل: أن يحكي أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفساق كما أشار الله إلى ذلك بقوله ﴿**وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ**﴾ [المدثر: ٤٥].

وحد الكلام الذي لا يعني هو الذي لو ترك لم يفت به ثواب، و لم ينجر به ضرر.

قال أنس ﷺ: استشهد غلام منا يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئا لك الجنة يا بني. فقال رسول الله ﷺ «**وما يدريك لعله كان تكلم فيما لا يعنيه**».

ويمنع ما لا يضره جاء في الحديث «**طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وانفق**

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٥٥٨ رقم ٢٣١٧) وقال: غريب. وابن ماجه (٢/١٣١٥، رقم ٣٩٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٥٥، رقم ٤٩٨٧)، وابن حبان (١/٤٦٦، رقم ٢٢٩) عن أبي هريرة.

وأخرجه مالك (٢/٩٠٣، رقم ١٦٠٤)، والترمذي (٤/٥٥٨، رقم ٢٣١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٤١٦، رقم ١٠٨٠٦) عن على بن الحسين مرسلا.

الفضل من ماله» [١].

قال النووي: وروينا عن أبي على الفضيل قال: من عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه.

قال الإمام الشافعي لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك، ولا تملكها.

ومنها: المراء والمجادلة قال رسول الله ﷺ **«من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة ومن تركه وهو مبطل بنى الله له بيتا في ربض الجنة»** [٢].

والمراد بربض الجنة: أسفلها.

وإنما بني للأول بيت في أعلاها لأن الترك على المحق أشد.

وجاء في حديث **«لا يستكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وهو محق»** [٣].

وحد المراء هو الاعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما في اللفظ، وإما في المعنى، وسببه خبث النفس المتشوقة إلى تنقص الغير وقهره، بل الواجب على الإنسان أن يصدق ما سمعه من الحق، وأن يسكت عما سمعه من الخطأ إلا إذا كان في ذكره فائدة دينية، وكان يسمع منه، فليذكر برفق، ولا يعنف.

ومنها: المزاح والإفراط فيه مذموم خصوصا إذا اشتمل على كثرة الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب، وتورث الضغينة، وتسقط المهابة والوقار.

قال رسول الله ﷺ **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساؤه فيهوي أبعد**

---

(١) أخرجه مطولا الطبراني (٥/٧١، رقم ٤٦١٥) قال المنذري (٣/١٤١): رواته إلى نصيح ثقات. وقال الهيثمي (١٠/٢٢٩): رواه الطبراني من طريق نصيح العنسي عن ركب ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات. والبيهقي في السنن الكبرى (٤/١٨٢، رقم ٧٥٧٢)، وفي شعب الإيمان (٣/٢٢٥، رقم ٣٣٨٨)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/٣٣٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني

(٥/٢٥٥، رقم ٢٧٨٢)، والقضاعي (١/٣٦٠، رقم ٦١٥)، والديلمي (٢/٤٤٦، رقم ٣٩٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٢٥٣، رقم ٤٨٠٠)، والبيهقي (١٠/٢٤٩، رقم ٢٠٩٦٥)، والطبراني في الكبير (٨/٩٨، رقم ٧٤٨٨)، وفي الأوسط (٥/٦٨، رقم ٤٦٩٣) عن أبي أمامة.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (١/١٠٤، رقم ١٣٩) عن أبي هريرة.

من الثريا» [(١)].

وقال «**لا تمار أخاك ولا تمازحه**» [(٢)].

نعم القدر اليسير من المزاح مباح لاسيما مع النساء والصبيان تطيبا لقلوبهم فعل ذلك رسول الله ﷺ لكنه قال «**إني لأمزح ولا أقول إلا حقا**» [(٣)].

فقد نقل أنه كان يخرج لسانه لأجل أولاد ابنته الحسن والحسين ممازحا لهم في حال الصغر.

وسابق عائشة مرتين في بعض أسفاره قالت عائشة خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم، و لم أبدن، فقال الناس: تقدموا فتقدموا، ثم قالﷺ: تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقته، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال: للناس تقدموا فتقدموا، ثم قال: تعالى حتى أسابقك، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك، وهو يقول: هذه بتلك.

وقال لامرأة عجوز: ممازحا لها لما حضرت عنده: لا يدخل الجنة عجوز. ففهمت منه عدم دخولها مطلقا، فبكت فقال لها مطيبا لخاطرها ومبينا لها حقيقة الحال: إن العجوز لا تبقى عجوزا في الجنة، بل تنشئ نشأ آخر قال الله تعالى ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً لأَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ [الواقعة ٣٥- ٣٨].

إلى غير ذلك مما نقل عنه ﷺ فهذا وأمثاله من المفاكهة لا بأس به.

قال الغزالي: بشرط أن لا تأخذه عادة.

ومنها: الاستهزاء بالناس والسخرية بهم، وهو مذموم محرم بنص القرآن قال الله

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠٢/٢، رقم ٩٢٠٩)، وابن حبان (٢٤/١٣، رقم ٥٧١٦)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٤/٣) وقال: غريب. وابن عدي (٢٢٤/٣، ترجمة ٧١٨ زبير بن سعيد الهاشمى) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٩/٤، رقم ١٩٩٥) وقال: حسن غريب. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٤٢/١، رقم ٣٩٤) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبراني (٣٩١/١٢، رقم ١٣٤٤٣) عن ابن عمر. قال الهيثمي (٨٩/٨): فيه من لم أعرفه.

وأخرجه أحمد (٣٤٠/٢، رقم ٨٤٦٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٢/١، رقم ٢٦٥)، والطبراني في الأوسط (٣٠٥/٨، رقم ٨٧٠٦)، قال الهيثمي (١٧/٩): إسناده حسن. والبيهقي (٢٤٨/١٠، رقم ٢٠٩٦٣) عن أبي هريرة.

تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

والسخرية هي الاستحقار بالناس، والاستهزاء بهم، والتنبيه على عيوبهم، وربما كان بالمحاكاة في الأفعال والأقوال، فمن حاكى غيره بحضرته في قوله أو فعله، فقد استهزأ به، وإن كان ذلك في غيبته، فقد ضم إلى الاستهزاء غيبته.

قال النبي ﷺ «**إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجئ بكربه وغمه، فإذا أتاه أغلق دونه، ثم يفتح له باب أحسن فيقال هلم فيجئ بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب، فيقال: هلم فما يأتيه**» (١).

وربما يبتلي الله تعالى المستهزئ بغيره في قوله وفعله مما ابتلاه ذلك الغير عقوبة معجلة له في الدنيا ليستهزأ به كما استهزأ.

نقل العلماء أن الحكم بن أبي العاص عم عثمان بن عفان كان قبل أن يسلم يستهزأ بالنبي ﷺ يوما يمشي، والحكم يحتلج ويحاكي النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ كن كذلك، فاستمر يحتلج، ودامت هذه به الحركة بعد إسلامه إلى أن مات.

وقريب من هذا من يعير غيره بذنب تاب منه، فإن ذلك مذموم، فإن التوبة تجب ما قبلها.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله.

وكان في زمن النبي ﷺ جماعة من الكفار يستهزؤن به فأهلكهم الله تعالى كل واحد منهم بنوع من العذاب كما أشار الله إلى ذلك بقوله ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

ومنها: كلام ذي اللسانين، وهو من يتردد بين المتعاديين، فيكلم كل واحد بما يوافقه، وذلك عين التفاق.

قال عمار بن ياسر رضي الله عنه قال النبي ﷺ «**من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم يوم القيامة**» (٢).

وروي عن أبي هريرة أنه ﷺ قال «**تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذو**

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٣١٠، رقم ٦٧٥٧) عن الحسن مرسلا.

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٢٦٨، رقم ٤٨٧٣)، والبيهقي (١٠/٢٤٦، رقم ٢٠٩٤٦).

الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث» [١].

وفي لفظ آخر «**يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**» [٢].

ومنها: إفشاء السر، وهو مذموم منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق الأصدقاء

قال النبي ﷺ «**الحديث بينكم أمانة وقل من تودعه سرا ولا يفشه**».

ومنها: اللعن إما لإنسان، وإما لغيره من الحيوانات والجمادات كلعن المال، وهو مذموم.

قال العلماء: لعن المسلم المصون حرام بإجماع المسلمين.

نعم يجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة، وأصحاب المعاصي غير المعينين، كقوله: لعن الله الظالمين، لعن الله اليهود والنصاري، لعن الله الفاسقين، لعن الله المصورين.

قال النبي ﷺ «**لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال**» [٣].

واختلف العلماء في جواز لعن إنسان بعينه ممن اتصف بشيء من المعاصي كيهودي أو نصراني أو ظالم أو زان أو مصور أو سارق أو آكل ربا أو نحو ذلك.

فقال الإمام النووي نفعنا الله به: جائز ويدل على جوازه، وعدم تحريمه ظواهر الأحاديث.

وقال الإمام حجة الإسلام الغزالي: إنه حرام. قال: وإنما يحرم لعن الكافر المعين، والفاسق المعين، لان اللعن هو الإبعاد عن رحمة الله، فقد يختم للكافر الذي لعنه بخير، ويرزقه الله الإسلام، وقد يتوب الفاسق الذي لعنه، وتدركه رحمة ربه، فلعن المعين من كافر أو عاص فيه خطر، فلا تعود يا هذا لسانك باللعن، فانظر إلى سيد الأولين

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٢٦٨، رقم ٤٨٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦/٢٦٢٦، رقم ٦٧٥٧)، ومسلم (٤/٢٠١١، رقم ٢٥٢٦)، ومالك (٢/ ٩٩١، رقم ١٧٩٧)، وأحمد (٢/٣٠٧، رقم ٨٠٥٥)، وابن حبان (١٣/٦٦، رقم ٥٧٥٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/١٠٥، رقم ٢٧٤٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/٦١٤، رقم ١٩٠٤)، والطبراني (١١/٢٠٤، رقم ١١٥٠٢)، وأحمد (١/٣٣٠، رقم ٣٠٦٠)، وأبو داود (٤/ ٦٠، رقم ٤٠٩٧) عن ابن عباس.

وأخرجه ابن ماجه (١/٦١٣، رقم ١٩٠٣) عن أبي هريرة.

والآخرين لما كسر قومه أسنانه أي رباعيته، وشجوا وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه، وقالوا: لو دعوت عليهم. فقال: إني لم أبعث لعانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

وروينا في كتاب الترمذي عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ**» (١) قال الترمذي: وهو حديث حسن.

وروينا في سنن أبي داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «**إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق الأرض أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينا وشمالا، وإن لم تجد مساغا رجعت إلى الذي لعن، فإن كان أهلا لذلك وإلا رجعت إلى قائلها**» (٢).

قال الغزالي: ومن اللعن المذموم لعن جميع الحيوانات والجمادات، وإذا لعن الإنسان ما لا يستحق اللعن، فليقل عقبه: إلا أن لا يستحق اللعن.

ومنها: الغيبة وهي قبيحة مذمومة محرمة بالكتاب والسنة قال الله تعالى ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً**﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ «**الغيبة أشد من الزنا**» (٣).

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام: من مات تائبا من الغيبة، فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصرا عليها، فهو اول من يدخل النار.

وروينا في سنن أبي داود عن أنس ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «**لما عرج بي مررت**

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٣٥٠، رقم ١٩٧٧)، وقال: حسن غريب. وأخرجه أيضا: البخاري في الأدب المفرد (١/١١٦، رقم ٣١٢)، وأحمد (١/٤٠٤، رقم ٣٨٣٩)، وأبو يعلى (٩/٢٠، رقم ٥٠٨٨)، وابن حبان (١/٤٢١، رقم ١٩٢)، والطبراني (١٠/٢٠٧، رقم ١٠٤٨٣)، والحاكم (١/٥٧، رقم ٢٩)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٩٣، رقم ٥١٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٢٧٧، رقم ٤٩٠٥). **وأخرجه أيضًا**: البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٩٦، رقم ٥١٦٢)، والديلمي (١/١٩٨، رقم ٧٤٧).

قال الحافظ في الفتح (١٠/٤٦٧): سنده جيد.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/٣٤٨، رقم ٦٥٩٠) عن أبي سعيد وجابر.

قال الهيثمي (٨/٩٢): فيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك.

بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

وقال النبي ﷺ «**إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق**» [(١)] رواه أبو داود.

وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي بكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم النحر بمنى في حجة الوداع «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ألا هل بلغت**» [(٢)].

وحد الغيبة بالاجماع أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، وإن كنت صادقا سواء ذكرت نقصانا في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خلقه أو ماله أو ولده أو زوجه أو خادمه أو مملوكه أو ثوبه أو بشاشته أو خلاعته أو عبوسته أو طلاقته أو مشية أو خلقه أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو كتابتك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك.

أما عيبه في بدنه فكقولك: أعمى، أعرج، أعمش، أعور، أقرع، قصير، طويل، أسود، أصفر.

أما في دينه فكقولك: فاسق، سارق، خائن، ظالم، متهاون بالصلاة، متساهل في النحاسة، ليس بارا بوالديه، لا يضع الزكاة في موضعها، لا يجتنب الغيبة.

وأما في دنياه فكقولك: قليل الأدب، يتهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقا، كثير الكلام، كثير الأكل والنوم، ينام في غير وقته، يجلس في غير موضعه.

وأما في والده فكقولك: أبوه فاسق، أو هندي، أو قبطي، أو زنجي، أو إسكاف، أو نجار، أو حايك، أو غير ذلك.

وأما في خلقه فكقولك: سيئ الخلق، متكبر، مراءٍ، عجول، جبار، عاجز، ضعيف القلب، عبوس، خليع، أو نحو ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٩/٤، رقم ٤٨٧٦). **وأخرجه أيضًا**: البيهقي (٢٤١/١٠، رقم ٢٠٩١٦)، وأحمد (١٩٠/١، رقم ١٦٥١)، والطبراني (١٥٤/١، رقم ٣٥٧)، وابن قانع (١/ ٢٦٠)، والضياء (٣٠٥/٣، رقم ١١٠٧) عن سعيد بن زيد.

(٢) أخرجه البخاري (٢١١٠/٥، رقم ٥٢٣٠)، ومسلم (١٣٠٥/٣، رقم ١٦٧٩). وأخرجه أيضًا: أبو داود (١٩٥/٢، رقم ١٩٤٧)، وأحمد (٣٧/٥، رقم ٢٠٤٠٢)، وابن حبان (١٣/ ٣١٢، رقم ٥٩٧٤).

وأما في ثوبه فكقولك: وسخ الثوب، أو واسع الكم، أو طويل الذيل أو نحو ذلك.

أما إذا قلت عنه بما ليس فيه، فهو بهتان أعظم من الغيبة

روينا في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «**أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول، فقد بهته**» [1] قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

واختلف العلماء فيها هل هي من الكبائر أم من الصغائر ؟

فقيل: إنها من الكبائر، ورجحه القرطبي في تفسيره.

وأكثر العلماء قالوا: إنها من الصغائر لعموم البلوى بها، فقل من يسلم منها، ومحل هذا الخلاف في غير غيبة أهل العلم، وحملة القرآن.

أما غيبة أهل العلم، وحملة القرآن، فإنها من الكبائر بلا خلاف.

قال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله: اعلم يا أخي وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه، ويتقيه حق تقاته إن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وإن من أطلق لسانه في لحوم العلماء بالقلب بلاه الله قبل موته بموت القلب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.

ونظم ذلك بعض الفضلاء فقال:

لحوم أهل العلم مسمومة ... ومن يعاديهم سريع الهلاك

فكن لأهل العلم عونا وإن ... عاديتهم يوما فخذ ما أتاك

ولا فرق في جواز غيبة العالم بين العامل بعمله، وغيره إكراما لعلمه، واعلم أن الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها يحرم على السامع استماعها أو إقرارها، فيجب على من يسمع إنسانا يبتدئ بغيبة محرمة أن ينهاه إن لم يخف ضرراً ظاهرا، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقة ذلك المجلس، فإن قدر على الإنكار بلسانه أو على قطع الغيبة بكلام آخر لزمه ذلك، فإن لم يفعل

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠٠١، رقم ٢٥٨٩)، وأبو داود (٤/٢٦٩، رقم ٤٨٧٤)، والترمذي (٤/٣٢٩، رقم ١٩٣٤)، وقال: حسن صحيح. وأحمد (٢/٣٨٤، رقم ٨٩٧٣)، والدارمي (٢/٣٨٧، رقم ٢٧١٤) والنسائي في الكبرى (٦/٤٦٧، رقم ١١٥١٨)، وابن حبان (١٣/٧٢، رقم ٥٧٥٩)، وأبو يعلى (١١/٣٧٨، رقم ٦٤٩٣).

عصى، فإن قال بلسان: اسكت وهو يشتهي بقلبه استمراره. فقال أبو حامد الغزالي: هذا لا يخرجه عن الاثم ولابد من كراهته بقلبه، ومتى اضطر إلى المقام في ذلك المجلس الذي فيه الغيبة، وعجز عن الإنكار، أو أنكر، و لم يقبل منه، و لم يمكنه المفارقة بطريق؛ حرم عليه الاستماع، والإصغاء للغيبة، بل طريقه أن يذكر الله تعالى بلسانه وقلبه، أو بقلبه، أو تفكر في أمر آخر ليشتغل عن استماعها، ولا يضره بعد ذلك السماع من غير استماع وإصغاء في هذه المذكورة، فإن تمكن بعد ذلك من المفارقة، وهم مستمرون في الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة.

قال الله تعالى ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنعام: ٦٨].

وروينا عن ابراهيم بن أدهم أنه دعي إلى وليمة، فحضر، فذكروا رجلا لم يأتهم، فقالوا: إنه ثقيل. فقال: أنا فعلت هذا بنفسي حيث حضرت موضعا يغتاب فيه الناس، فخرج و لم يأكل ثلاثة أيام، وأنشد في هذا المعنى:

كصون اللسان عن النطق به ... وسمعك صن عن سماع القبيح

شريك لقائله فانتبه ... فإنك عند سماع القبيح

وروينا في سنن أبي داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ حسبك من صفيه كذا وكذا يعني يكفيك أنها قصيرة، فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته.

أي لو وضعت في البحر لخالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لشدة نتنها وقبحها.

قال النووي: هذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة، وأعظمها، وما أعلم شيئا من الأحاديث يبلغ لها في الذم هذا المبلغ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى؛ نسأل الله العظيم الكريم لطفه، السلامة والعافية من كل مكروه.

فائدة:

ذهب الأوزاعي إلى أن الغيبة والنميمة وسائر المعاصي تفطر الصائم، واستدل على ذلك بحديث وهو «**خمس يفطرن الصائم الغيبة والنميمة والكذب والقبلة واليمين الفاجرة**» (١).

---

(١) أخرجه الديلمي (١٩٧/٢، رقم ٢٩٧٩) عن أنس. =

ونقل عن أنس أنه قال: إن اغتاب الصائم أفطر.

وذهب جمهور الفقهاء بل كافتهم إلى أنه لا يفطر بارتكاب شيء من ذلك، وأجابوا عن الحديث بأنه ضعيف.

بل قيل: إنه كذب، وما ورد من الأخبار والآثار من بطلان الصوم بالغيبة ونحوها، فهو محمول على نقصان أجر الصائم، أو على بطلان ثوابه لا على بطلان الصوم، بل يسقط عنه الفرض، ويصير في معنى المفطر في سقوط الأجر لا أنه يفطر في الحقيقة، فيجب على الصائم أن يمسك عن الكلام الفاحش، وقول الزور كما يمسك عن الطعام والشراب، وإن لم يمسك ذلك، فقد نقص صيامه، وتعرض لسخط ربه تعالى، وترك قبوله منه.

قال ﷺ «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» [(١)] رواه البخاري.

وهذا تحذير للصائم من قول الزور والعمل به ليتم أجر صيامه، ولهذا قال بعض الفضلاء: لا يتم التقرب إلى الله بترك الشهوات المباحة في غير حالة الصيام إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرمه الله في كل حال من الكذب والظلم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وورد في حديث عن النبي ﷺ «**ليس الصيام من الطعام والشراب إنما الصيام من اللغو والرفث**» [(٢)].

وقال بعضهم: أهون الصيام ترك الطعام والشراب.

= قال ابن أبي حاتم في العلل (٢٥٨/١، رقم ٧٦٦) سمعت أبي يقول: هذا حديث كذب وميسرة ابن عبد ربه كان يفتعل الحديث.

وقال الزيلعي في نصب الراية (٤٨٣/٢): رواه ابن الجوزي في الموضوعات وقال: هذا حديث موضوع.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٥١/٥، رقم ٥٧١٠). **وأخرجه أيضًا**: أبو داود (٣٠٧/٢، رقم ٢٣٦٢)، والترمذي (٨٧/٣، رقم ٧٠٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٥٣٩/١، رقم ١٦٨٩)، وأحمد (٤٤٣/٢، رقم ٩٧١٧)، وابن حبان (٢٥٦/٨، رقم ٣٤٨٠)، والبغوي في الجعديات (٤١٤/١، رقم ٢٨٣١)، والنسائي في الكبرى (٢٣٨/٢، رقم ٣٢٤٦)، والبيهقي (٤/ ٢٧٠، رقم ٨٠٩٥) عن ابي هريرة.

(٢) أخرجه الحاكم (٥٩٥/١، رقم ١٥٧٠) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي (٤/ ٢٧٠، رقم ٨٠٩٦)، والديلمي (٤٠٢/٣، رقم ٥٢٢٤) عن أبي هريرة.

وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك، ويوم فطرك سواء.

ولقد أحسن من قال:

إذا لم يكن في السمع مني تصاون ... وفي بصري غض وفي منطقي صمت

فحظي إذا من صومي الجوع والظمأ ... فإن قلت إني صمت يوما فما صمت

وقال النبي ﷺ «**رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ورب قائم حظه من قيامه السهر**» (١).

قال ابن رجب: وسر هذا أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات، فمن ارتكب المحرمات، ثم تقرب بترك المباحات كان بمثابة من يترك الفرائض، ويتقرب بالنوافل، وإن كان صومه مجزيا عند الجمهور بحيث لا يقوم بإعادته كما تقدم.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده: أن امرأتين صامتا في عهد رسول الله ﷺ فكادتا أن تموتا من العطش، فذكر ذلك للنبي ﷺ فأعرض، ثم ذكرتا له، فدعاهما، فأمرهما أن يقيآ فقاءتا حتى ملأ قدح قيحا ودما وصديا ولحما غبيطا، فقال النبي ﷺ «**إن هاتين صامتا عما احل الله، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحداهما إلى الأخرى، فجعلتا تأكلان لحوم الناس**» (٢).

فائدة أخرى:

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي: للصوم ثلاث درجات بعضها أعلى من بعض: صوم العوام، وصوم الخواص، وصوم خواص الخواص.

فأما صوم العوام فهو: كف البطن والفرج عن الأكل والشرب والجماع ونحوها مما يفطر الصائم.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧٣/٢، رقم ٨٨٤٣)، والحاكم (٥٩٦/١، رقم ١٥٧١) وقال: صحيح على شرط البخاري. والبيهقي في شعب الإيمان (٣١٦/٣، رقم ٣٦٤٢)، والبيهقي (٢٧٠/٤، رقم ٨٠٩٧)، وأبو يعلى (٤٢٩/١١، رقم ٦٥٥١)، وابن حبان (٢٥٧/٨، رقم ٣٤٨١) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٤٣١/٥ رقم ٢٣٧٠٣) قال الهيثمي: فيه رجل لم يسم.

وأخرجه أيضًا: الروياني (٤٨١/١، رقم ٧٢٩).

وأما صوم الخواص فهو: كف السمع والبصر واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، واستعمالها في خدمة الملك العلام.

وأما صوم خواص الخواص فهو: صوم القلب على الهمم الدنية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله بالكلية.

فالفطر من صوم العوام يحصل بتناول أول شيء من المفطرات.

وفطر الخواص يحصل باستعمال السمع والبصر واللسان واليد وسائر الجوارح، فيما لا يحل، فمن تكلم عندهم بكلام فاحش، أو نظر إلى ما لا يحل أفطر.

وفطر خواص الخواص يحصل بالفكر فيما سوى الله، فمن صام عن ما سوى الله، فعيده يوم لقائه ؛ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت.

ولله در القائل:

ويـــوم لقـــاكم ذاك فطر صيامي وقد صمت عن لذات دهري كلها

قيل لبعض العارفين: أين نطلبك في الآخرة ؟ قال: في زمرة الناظرين إلى الله. قيل له: كيف علمت ذلك ؟ قال: بغضي طرفي له عن كل محرم، وباجتنابي فيه كل منكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه.

يا معشر القائمين صوموا اليوم عن شهوات الهوى، لتدركوا عيد الفطر يوم اللقاء لا يطولن عليكم الأمل باستبطاء الأجل، فإن معظم نهار الصيام قد ذهب، وعيد اللقاء قد اقترب.

ولقد أحسن من قال:

ذاك عيـــدي ليـــس لي عيد سواه إن يومـــا جامعـــا شمـــلي بهم

وقوله «**والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»: قال القاضي البيضاوي: هذا تفضيل لما يستكره من الصائم على أطيب ما يستلذ من جنسه، وهو المسك ليقاس عليه ما فوقه من آثار الصوم.

ورد في حديث مرسل: لكل شيء ناقص في عرف الناس في الدنيا إذا انتسب إلى طاعته ورضاه فهو الكامل في الحقيقة.

فائدة:

استشكل العلماء قوله في هذا الحديث «**أطيب عند الله**» وقالوا إن الله تعالى منزه عن أن يستطيب له الرائحة الطيبة، ويكره الرائحة الخبيثة لأن هذا من صفات الحيوان الذي له طبائع تميل إلى شيء فتستطيبه، وتنفر من شيء فتستقذره، والله منـــزه عن

ذلك.

وأجابوا عن هذا بأجوبة:

أحدها: أن معنى الحديث: لجزاء خلوف فم الصائم أطيب منه عند الله، أي أن الله تعالى يجازيه به في الاخرة، فيجعل رائحة فمه فيها أطيب من ريح المسك، كما يجازي الشهيد، فيجعل رائحة دمه أطيب من ريح المسك، فالحديث محمول على حذف مضاف، فهو من مجازي الحذف.

ثانيها: أن معناه أن رائحة فم الصائم عند ملائكة الله تعالى أطيب من رائحة المسك عندنا، وهذا أيضا مجازي الحذف.

ثالثها: أن معنى أطيب: أكثر قبولا ؛ لان الطيب مستلزم للقبول عادة، أي خلوفه أقبل عند الله من قبول ريح المسك عنده.

رابعها: أن هذا الكلام جرى على سبيل الغرض أي لو تصور الطيب عند الله لكان الخلوف أطيب.

خامسها: أن المراد بقوله في الحديث أطيب: أكثر ثوابا.

قال النووي: الأصح أن الخلوف أكثر ثوابا من المسك حيث ندب إليه في الجمع والاعياد.

سادسها: أن المقصود من هذا التركيب بجملته في الحديث هو الثناء على الصائم والرضا بفعله لئلا يمنعه ذلك من المواظبة على الصوم الجالي للخلوف.

واعترض على هذا التأويل ابن القيم في الكلم الطيب فقال: وأى ضرورة تدعو إلى هذا التأويل، واخراج اللفظ عن حقيقته.

قال: ومن المعلوم أن أطيب ما عند الناس من الرائحة رائحة المسك، فمثل النبي ﷺ طيب هذا الخلوف عند الله بطيب رائحة المسك عندنا وأعظم ونسبة استطابة ذلك إليه سبحانه وتعالى كنية سائر صفاته وأفعاله إليه، فإنها استطابة لا تماثل استطابة المخلوقين من ذلك، بل كما ان سبحانه لا تشبه ذوات خلقه، فصفاته لا تشبه صفاتهم، وأفعاله لا تشبه أفعالهم، وهو سبحانه يستطيب الكلم الطيب، فيصعد إليه، والعمل الصالح يرفعه، وليست هذه الاستطابة كاستطاتبنا.

فائدة أخرى:

اختلف العلماء في وجود هذه الرائحة من الصائم التي هي عند الله أطيب من ريح المسك هل هي في الدنيا وفي الآخرة فقط على قولين:

أحدهما: أن هذه الرائحة تكون كذلك عند الله في الدنيا، وفي الاخرة.

الثاني: أنها تكون كذلك عنده في الآخرة فقط.

وقد وقع في المسألة نزاع كثير بين الشيخ الإمام العلامة ابن عبد السلام، وبين الشيخ الإمام العلامة ابن الصلاح.

فمال ابن الصلاح إلى أن ذلك في الدنيا والآخرة، وصنف فيها مصنفا رد فيه على ابن عبد السلام، وكل منهما استدل بشيء يقوي ما قاله.

قال العلامة ابن القيم بعد نقله لأدلة كل منهما قلت: وفصل النـــزاع في المسألة أن يقال أخبر النبي ﷺ بأن ذلك الطيب يكون يوم القيامة، فلأنه الوقت الذي يظهر فيه ثواب الأعمال وموجباتها من الخير والشر، فيظهر للخلق طيب ذلك الخلوف على المسك كما يظهر فيه رائحة دم المكلوم في سبيله كرائحة المسك، وكما تظهر فيه السرائر، وتبدو على الوجوه، وتصير علانية، ويظهر فيها قبح رائحة الكفار، وسواد وجوههم، وحيث أخبر بأن ذلك حين يخلف، وحين يمسون فلأن ذلك وقت ظهور أثر العبادة، ويكون حينئذ طيبها أعلى من ريح المسك عند الله، وعند ملائكته، وإن كانت تلك الرائحة كريهة للعباد، فلرب مكروه عند الناس محبوب عند الله، وبالعكس، فإن الناس يكرهونه لمنافرته طباعهم، والله يستطيبه ويحبه لموافقة أمره ورضاه ومحبته، فيكون عنده أطيب من ريح المسك عندنا، فإذا كان يوم القيامة ظهر هذا الطيب للعباد، وصار علانية، وهكذا سائر الأعمال من الخير والشر إنما يكمل ظهورها، وتصير علانية في الآخرة، وقد يظهر أثر العمل على العبد خيرا كان أو شرا في الدنيا كما هو مشاهد بالبصر والبصيرة.

قال ابن عباس: إن للحسنة ضياء في الوجه، ونور في القلب وقوة في البدن وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنا في البدن، ونقصا في الرزق، وبغضا في قلوب الخلق.

وقال عثمان رضي الله عنه: ما عمل رجل عملا إلا ألبسه الله رداءه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وهذا أمر معلوم يشترك فيه، وفي العلم به أصحاب البصائر وغيرهم حتى إن الرجل الطيب البر ليشم منه رائحة طيبة، وإن لم يمس طيبا، فتظهر رائحة روحه على بدنه وثيابه، والفاجر بالعكس والمزكوم الذي ملأ من هذا الهواء لا يشم لا هذا، ولا هذا، بل زكامه يحمله على الإنكار؛ نعوذ بالله من عمل يؤدي بنا إلى النار.

وقال العلامة ابن رجب في اللطائف: وفي ريح طيب خلوف فم الصائم عند الله معنيان:

أحدهما: أن الصيام لما كان سرا بين العبد وربه في الدنيا أظهره الله في الآخرة علانية للخلق ليشتهر بذلك أهل الصيام، ويعرفون بصيامهم بين الناس جزاء لإخفائهم صيامهم في الدنيا.

وروى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناد فيه ضعف عن أنس مرفوعا قال «**يخرج الصائمون من قبورهم يعرفون بريح أفواههم أطيب من ريح المسك**» [1].

قال مكحول: يروح أهل الجنة برائحة، فيقولون ربنا ما وجدنا منذ دخلنا الجنة أطيب من هذه الريح. فيقال: هذه ريح أفواه الصيام.

وقد تفوح رائحة الصيام في الدنيا، وتستنشق قبل الآخرة وهو نوعان:

أحدهما: ما يدرك بالحواس الظاهرة كان عبد الله بن غالب من العباد المجتهدين في الصلاة والصيام، فلما دفن كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك، ورؤى في المنام، فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره، فقال: تلك رائحة التلاوة والظمأ.

والنوع الثاني ما تستنشقه الأرواح والقلوب، فيوجب ذلك للصائمين المخلصين المودة والمحبة في قلوب المؤمنين.

قال يوسف بن أسباط: أوحى الله إلى نبي من الأنبياء قل لقومك يخفون لي أعمالهم، وعلى إظهارها لهم.

ولله در من قال:

تذلل أرباب الهوى في الهوى عز ... وفقرهم نحو الحبيب هو الكنز
وسترهم فيه السرائر شهرة ... وغير تلاف النفس فيه هو العجز

والمعنى الثاني: أن من عبد الله، وأطاعه وطلب رضاه في الدنيا بعمل، فنشأ من عمله آثار مكروهة للنفوس في الدنيا، فإن تلك الآثار غير مكروهة عند الله، بل هي محبوبة له طيبة عنده لكونها نشأت عن طاعته، وابتغاء مرضاته، فإخباره بذلك للعاملين في الدنيا والآخرة فيه تطييب لقلوبهم لئلا يكره منهم ما وجد في الدنيا.

قال بعض السلف: وعد الله موسى ثلاثين يوما أن يكلمه على رأسها، فصام ثلاثين يوما، ثم وجد فيه خلوفا، فكره أن يناجي ربه على ذلك الحال، فأخذ سواكا

---

(١) أخرجه أيضًا: الرافعي (٢/٣٢٦).

فاستاك به، فلما أتى لوعد الله، قال له: يا موسى أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندنا من ريح المسك ارجع فصم عشرة أخرى.

فائدة أخرى:

استدل علماء الشافعية بقوله ﷺ في هذا الحديث «**لخلوف... إلى آخره**» على أنه يكره للصائم السواك بعد الزوال.

سؤال: فإن قيل الحديث يدل على كراهة السواك مطلقا فلأي شيء قال الفقهاء بتخصيص الكراهة بما بعد الزوال.

جوابه: أنه جاء حديث آخر، فخصص عموم هذا الحديث، ويدل على ذلك تخصيص بما بعد الزوال.

وهو ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر السمعاني من حديث جابر أن النبي ﷺ قال «**أعطيت أمتي خمس خصال... ثم قال فيه: وثانيها أنهم يمسون وخلوف أفواههم عند الله أطيب من ريح المسك... الحديث**» [(١)].

وهو حسن كما قاله النووي عن ابن الصلاح.

فقوله فيه: ويمسون يدل على أنه يكره بعد الزوال لأن المساء من الزوال إلى الغروب، وإنما كره بعد الزوال لأنه يزيل تغير رائحة فم الصائم، والمطلوب إبقاؤها لأنها أطيب عند الله من ريح المسك.

سؤال آخر: فإن قيل إن هذا التغير في الفم قد تحصل قبل الزوال، فكيف خصصت الكراهة بما بعده ؟

جوابه: إنهم قالوا: إن هذه الفضيلة ؛ أى فضيلة الخلوف أعظم من فضيلة السواك، فلهذا ترك لأجلها، وإن كان هو سنة في كل حال إلا أنه كره في هذه الحالة لذلك، ولا شيء في ترك سنة لأجل فضيلة هي أعم منها، فإنه قد ترك الواجب لأجل المحافظة على بقاء فضيلة مهمة كما قالوا: إن دم الشهداء تحرم إزالته لأنهم يأتون يوم القيامة تشخب دما اللون لون الدم، والريح ريح المسك.

مع أن غسل الميت واجب إلا أنه ترك هذا الواجب للمحافظة على بقاء الدم

---

(١) أخرجه أيضا: أحمد (٢/٢٩٢، رقم ٧٩٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٠٢، رقم ٣٦٠٢)، والحارث كما في بغية الباحث (١/٤١٠، رقم ٣١٩) عن أبي هريرة.

قال الهيثمي (٣/١٤٠): رواه أحمد والبزار، وفيه هشام بن زياد أبو المقدام وهو ضعيف.

وضعفه المنذري (٢/٥٦) وعزاه أيضاً لأبي الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب.

المشهود له بالطيب، فترك السواك الذي ليس بواجب للمحافظة على بقاء الخلوف أولى.

سؤال آخر: فإن قيل لأي شيء قالوا: يحرم غسل الشهيد لأجل المحافظة على بقاء دمه الذي يأتي يوم القيامة كريح المسك، وما قالوا بتحريم السواك مع أنه يزيل الخلوف الذي هو أطيب من ريح المسك بل بكراهته ؟

جوابه: إنه إنما كره إزالة الخلوف، وحرم إزالة دم الشهداء، لأن في إزالة دم الشهيد تفويت فضيلة على الشهيد لم يأذن في إزالتها، بخلاف الخلوف فإنه فضيلة المتسوك، وقد أزالها بنفسه فكره له ذلك، ولا يحرم، وقد ينعكس الحال فيحرم إزالة الخلوف، ويكره إزالة الدم

أما تحريم إزالة الخلوف ففيما إذا سوك إنسان شخصا صائما بغير إذنه فإنه لا شك في تحريمه لأنه يصير نظير إزالة دم الشهيد.

وأما كراهة إزالة دم الشهيد ففيما أزال الشهيد الدم عن نفسه في مرض يغلب على ظنه الموت فيه بسبب القتال، فهذه الإزالة لا تحرم بل تكره، ونظير ما إذا أزال الصائم الخلوف على نفسه جائز، وتفويت غيره لها عليه لا يجوز إلا بأذنه.

فحاصل القول أن السواك يكره للصائم بعد الزوال، وتزول الكراهة بغروب الشمس على الأصح، وإن لم يفطر، ولا يكره ليلا، ولا نهارا إلى الزوال، بل يستحب كما يستحب في غير الصيام مطلقا، واختار النووي أنه لا يكره مطلقا.

وقوله «**للصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ**»: أما فرح الصائم عند الفطر: فسببه النفوس مجبوله على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح، فإذا منعت منه خصوصا عند اشتداد الحاجة إليه، فإن النفوس تفرح بذلك طبعا، فإنما كان ذلك محبوبا لله كان محبوبا شرعا، فكما أن الله تعالى حرم على الصائم في نهار الصيام تناول هذه الشهوات، فقد أذن له فيها في ليل الصيام، بل أحب منه المبادرة إلى تناولها في أول الليل وآخره، فأحب عباده إليه أعجلهم فطرا، فالصائم ترك شهواته لله في النهار تقربا إلى الله وطاعة له، وبادر إليها في الليل تقربا إلى الله وطاعة له، فما تركها إلا بأمر ربه، ولا عاد إليها إلا بأمر ربه، فهو مطيع له في الحالين.

وأما فرحه عند لقاء ربه: فسببه ما يجده عند الله من ثواب الصيام مدخرا، فيجده أحوج ما كان إليه كما قال تعالى ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ**﴾

[البقرة: ١١٠] هو خير وأعظم أجرا.

وقال تعالى ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً**﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧].

وورد في المسند عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال «**ليس من عمل يوم إلا يختم عليه**» (١).

وعن عيسى عليه السلام قال: إن هذا الليل والنهار خزانتان، فانظروا ما تضعون فيهما.

فالأيام خزائن للناس ممتلئه بما خزنوه فيها من خير وشر، وفي القيامة تفتح هذه الخزائن لأهلها، فالمتقون يجدون في خزانتهم العز والكرامة، والمذنبون يجدون في خزانتهم الحسرة والندامة.

الصائمون على طبقتين:

أحداهما: من ترك طعامه وشرابه وشهوته لله يرجو ما عنده عوض ذلك في الجنة، فهذا قد تاجر مع الله وعامله، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا يخيب معه من عامله، بل يربح عليه أعظم الربح.

وقال النبي ﷺ لرجل «**إنك لن تدع شيئا اتقاء الله إلا أتاك الله خيرا منه**» (٢) خرجه الإمام أحمد.

فهذا الصائم يعطى ما شاء الله في الجنة من طعام وشراب ونساء، وروى ابن أبي الدنيا بإسناد فيه ضعف عن أنس مرفوعا «**الصائمون ينفخ في أفواههم ريح المسك ويوضع لهم مائدة تحت العرش يأكلون منها والناس في الحساب**».

وعن أنس: إن لله مائدة لم تر مثلها عين، ولم تسمع أذن، ولا خطر على قلب بشر، لا يقعد عليها إلا الصائمون.

وعن بعض السلف قال: بلغنا أنه يوضع للصوام مائدة يأكلون عليها، والناس في

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٦/٤، رقم ١٧٣٥٤). وأخرجه أيضا: الطبراني (٢٨٤/١٧، رقم ٧٨٢)، والحاكم (٣٤٤/٤، رقم ٧٨٥٥) وقال: صحيح الإسناد.

قال الهيثمي (٣٠٣/٢): رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام.

(٢) أخرجه أحمد (٧٨/٥، رقم ٢٠٧٥٨)، والبيهقي (٣٣٥/٥، رقم ١٠٦٠٣). **وأخرجه أيضًا:** الحارث كما في بغية الباحث (٩٨٧/٢، رقم ١١٠١).

قال الهيثمي (٢٩٦/١٠): رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح.

الحساب، فيقولون: يا رب نحن نحاسب وهم يأكلون ؟ فيقال: إنهم طالما صاموا وأفطرتم، وقاموا ونمتم.

رأى بعضهم بشر بن الحارث وبين يديه مائدة وهو يأكل ويقال له: كل يا من لم يأكل، أشرب يا من لم يشرب.

الطبقة الثانية من الصائمين: من يصوم في الدنيا عما سوى الله، فيحفظ الرأس وما وعى ، ويحفظ البطن وما حوى ، ويذكر الموت والبلا، ويريد الآخرة، فيترك زينة الدنيا هذا عيد فطره يوم لقاء ربه، وفرحه برؤيته.

فيا من يبارز بالعصيان، ولم يستح من رقيبه وقد دخل شهر رمضان، وما فاز بمصالحة حبيبه، وهب نسيم القبول، ولكن ما عرف طيبه، أما سمعت قول الملك المنان في فضل صوم رمضان «**الصوم لي وأنا الذي أجزي به**».

وما أحسن من قول القائل حيث يقول:

فليأت في رمضان باب طبيبه ... من كان يشكو عظم ذنوبه
أو ليس قال الله في ترغيبه ... ويفوز من عرف الصيام بطيبه
الصوم لي وأنا أجزي به

وتحققوا نيل السعادة والغنا ... يا صائمي رمضان فوزوا بالمنا
أو ليس هذا القول قول الهنا ... وثقوا بوعد الله إذ فيه الهنا
الصوم لي وأنا أجزي به

وبوجهه أضحى عليه مقبلا ... من صام نال الفوز من رب العلا
صم رغبة في قول رب قد علا ... يا من يروم توسلا وتوصلا
الصوم لي وأنا أجزي به

وأحسن القول فيه وصدقه ... يفوز من للصوم قام بحقه
فالله قال عن الصيام لخلقه ... ومن الجحيم نجا وفاز بعتقه
الصوم لي وأنا أجزي به

***

المجلس الثالث والستون

في ذكر شيء من فضائل بلال وابن أم مكتوم، وذكر مسائل متعلقة بالأعمى، ومسائل متعلقة بالسجود، وذكر المواضع التي يستحب فيها إيقاظ النائم وغير ذلك مما يأتي ذكره

قَالَ البُخَارِي:

باب قول النبي ﷺ لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال

قال العلماء: بلال صحابي جليل

اسمه: بلال.

وكنيته: أبو عبد الله، وقيل: أبو عمرو، وقيل: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو عبد الكريم.

واسم أبيه: رباح.

واسم أمه: حمامه، ووقع أن اسم أمه حمام، وهو وهم. واشتهر بنسبته إلى أمه دون أبيه، فيقال: بلال ابن حمامة.

كما اشتهر عيسى صلوات الله عليه بنسبته إلى أمه فيقال: عيسى ابن مريم.

وكما اشتهر يونس عليه السلام بنسبته إلى متى فيقال: يونس بن متى، ومتى اسم أم يونس كما جاء في جامع الأصول، وتفسير عبد الرازق.

قال في العرائس: لم ينسب نبي من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى ابن مريم، ويونس ابن متى ؛ لكن رجح شيخ الإسلام ابن حجر: أن متى اسم لأبيه لا لأمه.

وكان بلال ﷺ عبدا حبشيا قرشيا يتيما، وله فضائل كثيرة، ومناقب غزيرة، ومن فضائله:

أنه كان قديم الإسلام، وهو أول من أظهر الإسلام من العبيد، بل قيل إنه أول من آمن مطلقا، وكان يعذب على إسلامه، والذي كان يعذبه على الإسلام أمية بن خلف، وكان ﷺ صادق الإسلام، طاهر القلب، وكيفية عذابه له أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صلبه، ثم يقول له: لا تزال كذلك هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى. فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. حتى مر به أبو بكر، وهم يعذبونه فقال لأميه بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين حتى متى تعذبه. أي إلى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته فخلصه مما ترى، فاشتراه أبو بكر بعبد، وقيل: بخمس

أواق ذهبا، وأعتقه وأعتق معه ست رقاب بلال سابعهم.

وقيل أن رسول الله ﷺ قال وبلال في العذاب: لو كان عندنا مال لاشترينا بلال، فقال أبو بكر للعباس اشتره لنا، فذهب العباس إلى امرأة تملكه فقال لها: هل لك أن تبيعي عبدك هذا قبل أن تحرمي ثمنه، قالت: ما تصنع به إنه خبيث، فاشتراه العباس، وخلصه من عذاب أمية، وبعث به إلى أبي بكر، فاعتقه.

ومن فضائله: أنه شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، واتفق أن يوم بدر نزل أمية بن خلف إلى القتال، وكان في قلب بلال منه لما كان يعذبه ويوالي عليه العذاب، فحمل عليه فقتله، فأنشد أبو بكر:

هنيئا زادك الرحمن فضلا ... فقد أدركت ثأرك يا بلال

ومن فضائله: أنه أحد السودان الأربعة الذين هم خير السودان كما جاء ذلك في الحديث وهم: النجاشي ولقمان وبلال ومهجع.

وقد نظمهم الفضلاء فقال:

سيد السودان أربع ... النجاشي وبلال ثم لقمان ومهجع

ومن فضائله: أنه أحد مؤذني النبي ﷺ قال ابن القيم في الهدي: كان له ﷺ من المؤذنين أربعة اثنان في المدينة بلال وابن أم مكتوم، وبقباء سعد القرظ، وبمكة أبو محذورة.

ومن فضائله: أنه أول من أذن في الإسلام.

وهل أذن بعد موت النبي ﷺ أم لا.؟

اختلف في ذلك فقيل: إنه أذن مرة لعمر بن الخطاب ﷺ حين دخل الشام فبكا الناس بكاء شديدا، وهتك المخدرات من صوته، و لم يؤذن لأحد بعد موت النبي ﷺ إلا هذه المرة.

وقيل: لم يؤذن لأحد بعد موت النبي ﷺ إلا مرة واحدة بعد أن رحل من المدينة، ثم قدمها لأجل زيارته ﷺ فطلب الصحابة أن يؤذن لهم، و لم يتم الأذان.

وقيل: لما مات رسول الله ﷺ أراد أن يخرج بلال إلى الشام، فقال أبو بكر: بل تكون عندي. فقال: إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني، وإن كنت أعتقتني لله، فذرني اذهب إلى الشام مجاهدا، ثم بعد سنين قدم إليها لأجل زيارته ﷺ وسبب قدومه أنه رأي النبي ﷺ في المنام فقال: ما هذه الجفوة يا بلال أما آن لك أن تزورني. فانتبه من نومه حزينا وجلا خائفا، فقعد على راحلته من حينه، وقصد المدينة، فأتى قبره ﷺ

فجعل يبكي عنده، ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين إليه، فجعل يحييهما ويقبلهما، ثم قالا له: يا بلال إنا نشتهي أن نسمع أذانك الذي كنت تؤذنه لرسول الله ﷺ في المسجد، فعلا سطح المسجد، ووقف موقفه الذي كان يقف فيه في حياة رسول الله ﷺ فلما قال الله اكبر ارتجفت المدينة، فلما قال أشهد أن لا إله إلا الله ازدادت رجيفا، فلما قال أشهد أن محمدا رسول الله خرجت العرائس من خدورهن، وقالوا: بعث رسول الله ﷺ فما رؤى يوما أكثر باكيا في المدينة بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم.

وقيل: إنه أذن لأبي بكر إلى أن مات، و لم يؤذن لعمر. قاله ابن أبي شيبة وابن عبد البر.

ومن فضائله: أنه لا يكمل حسن الحور العين في الجنة إلا بسواد بلال فإنه شامات في خدودهن، فسبحان من أكرم أهل طاعته. قاله ابن حزم في المحلى.

مات رضي الله عنه بدمشق ودفن عند الباب الصغير بمقبرتها، وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وقيل: مات بحلب سنة عشرين.

***

قَالَ البُخَارِي: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ أَبِى أُسَامَةَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ.

وَالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ عَائِشَةَ رضى الله عنها أَنَّ بِلاَلاً كَانَ يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ لاَ يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ**».

دل الحديث على أن بلال وابن أم مكتوم كانا يؤذنان للنبي ﷺ.

وكان بلال يؤذن بليل أي يؤذن الأذان الأول للفجر قبل طلوعه لينبه النائم ويدرك السحور ومن لم يكن تسحر.

وابن أم مكتوم كان يؤذن الأذان الثاني بعد طلوعه ليكف الناس عن الأكل والشرب والجماع وغير ذلك.

وابن أم مكتوم صحابي خليل ثبتت له الصحبة بوقوع نظر النبي ﷺ عليه، فإن الصحابي من رأى النبي ﷺ أو رأه النبي ﷺ وكان رجلا أعمى كما جاء في رواية في الصحيح، وكان لا ينادي حتى يقال له أصبحت أصبحت، وهذه الزيادة من الراوي.

فائدة

كان في الصحابة ثلاثة وعشرون رجلا أعمى، وكان في الأنبياء ثلاثة عمى إسحاق ويعقوب وشعيب، ثم رد الله بصر يعقوب عليه السلام.

وأما اسم ابن أم مكتوم فاسمه: عمرو بن قيس القرشي العامري.

واسم أمه: عاتكة، وكنيتها أم مكتوم لكتمان نور عينيه، وهو ابن خالة خديجة أم المؤمنين، وله فضائل كثيرة:

منها: أنه كان قديم الإسلام.

ومنها: أنه أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة المشهورين.

ومنها: أن عاتب الله نبيه لأجله قال البغوي: أتى ابن أم مكتوم النبي ﷺ وهو يدعو جماعة من صناديد الكفار إلى الله تعالى يرجو إسلامهم، والجماعة الذين كانوا يدعوهم إلى الإسلام أبو جهل وعتبة بن ربيعة والعباس وأبي بن خلف وأخوه أمية، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله اقرءني مما علمك الله، فجعل يناديه، ويكرر النداء، ولا يدري أنه مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء صناديد قريش وإنما اتباعه العميان والعبيد والسفله، فعبس في وجهه، وأعرض عنه، وأقبل على القوم يكلمهم.

فأنزل الله تعالى ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ** ﴾ [عبس ١- ١١].

عَبَسَ: أي كلح بوجهه.

أَن جَاءَهُ الأَعْمَى: وهو ابن أم مكتوم.

وَمَا يُدْرِيكَ: يا محمد.

لَعَلَّهُ يَزَّكَّى: يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلمه منك.

أَوْ يَذَّكَّرُ: أي يتعظ.

فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى: أي الموعظة.

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى: أي عن الله وعن الإيمان بما له من المال.

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى: أي تتعرض له، وتقبل عليه، وتصغي إلى كلامه.

وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى: لا يؤمن ولا يهتدي.

وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى: أي يمشي يعني ابن أم مكتوم.

وَهُوَ يَخْشَى: الله تعالى.

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى: تتشاغل وتتعرض عنه.

كَلاَّ: هذه كلمة زجر أي لا تفعل بعدها مثلها.

إِنَّهَا: أي هذه الموعظة.

تَذْكِرَةٌ: موعظة وتذكر.

فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: مرحبا بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة؟

وروي أن النبي ﷺ ما عبس بعدها في وجه فقير، ولا تصدى لغني.

ومن فضائله: أن رسول الله ﷺ استخلفه ثلاثة عشر مرة على المدينة قاله الكرماني.

ومنها: أنه كان صاحب اللواء يوم فتح القادسية، فاستشهد بها.

وقال ابن قتيبة: رجع إلى المدينة فمات بها.

وفي الحديث فوائد:

منها: أن فيه دلالة على أنه يستحب اتخاذ مؤذنين للمسجد الواحد يؤذن أحدهما لصلاة الصبح قبل طلوع الفجر، والآخر بعده.

وعند الحنفية لا يسن الأذان قبل وقت الصبح قالوا: والنداء من بلال قبل الفجر لينبه النائم، ويرجع القائم لا للصلاة، فهو نداء الأذان بدليل أنه جاء في بعض الروايات أنه كان ينادي.

والشافعية قالوا: انه أذان، ورواية كان ينادي معارضة برواية كان يؤذن.

قال الكرماني: والترجيح معنى لأن كل أذان نداء بدون العكس، فالعمل برواية يؤذن عمل بالروايتين، وجمع بين الدليلين، والعكس ليس كذلك.

ويدل عليه أيضا الحديث المتفق عليه من رواية ابن عمر كان لمسجد رسول الله ﷺ مؤذنان بلال وابن أم مكتوم، و لم يكن بينهما إلا أن ينـــزل ذا ويرقى هذا.

قال النووي في شرح مسلم: قال العلماء معناه أن بلال كان يؤذن قبل الفجر، ويتربص بعد أذانه للدعاء ونحوه ثم يرقب الفجر فإذا راقب الفجر طلوعه نزل، فأخبر ابن أم مكتوم، فيتأهب ثم يرقى، ويشرع في الأذان مع أول طلوع الفجر، ولا يصح الأذان لصلاة من الصلوات الخمس قبل دخول وقتها إلا الصبح لقوله ﷺ في الحديث المذكور «**إن بلال يؤذن بليل... الحديث**».

ويدخل وقت أذان الصبح الأول من نصف الليل الثاني، والحكمة في استحباب تقديم الأذان الأول على الوقت لينتبه الناس، ويتهيؤا ويدركوا فضيلة أول الوقت.

والحديث يقتضي أن الأذانين لا يفعلهما شخص واحد.

قال ابن شهبة: وهو كذلك لأنه صوت واحد فمن لم يسمعه أولا، وسمعه ثانيا لا يعرف أنه قبل الفجر وبعده.

والحديث أيضا يقتضي أنه لا تسن الزيادة على مؤذنين للمسجد.

قال ابن شهبة: وهو كذلك لكن قال غيره يستحب الزيادة عليهما بقدر الحاجة فإن لم يكف للمسجد الواحد مؤذنان يستحب أن يزداد ثالثا، فإن لم يكف ثلاثة يستحب أن يزاد رابعا وهكذا.

واعلم أنه إذا ترتب للمسجد الواحد مؤذنان فصاعدا، فالمستحب أن لا يتراسلوا في الأذان.

والترتيب أن يؤذن واحد منهم أذانا كاملا، ثم يؤذن الآخر بعده وهكذا، ولا يتأخر بعضهم عن بعض ليلا يذهب أول الوقت.

قال الشافعي في الأم: ولا أحب للإمام إذا أذن الأول أن يبطئ بالصلاة ليفرغ من بعده، بل يخرج ويقطع من بعده الأذان بخروج الإمام، فإن ترقبوا وتنازعوا في الابتداء

أقرع بينهم، فإن ضاق الوقت عن أذانهم، فإن كان المسجد كبيرا أذنوا متفرقين في أقطاره كل واحد في قطر ليسمع أهل تلك الناحية، وإن كان صغيرا اجتمعوا على الأذان وأذنوا جمله، إن لم يؤد اجتماعهم إلى تهويش أي اضطراب واختلاط، فإن أدى إلى تهويش أذن بعضهم، فإن تنازعوا أقرع.

ومن فوائد الحديث: أن فيه دلالة على أن أذان الأعمى غير مكروه هذا إذا كان معه بصير، فإن لم يكن بصير كره له الأذان.

وقد ذكر العلماء مسائل متعلقة بالأعمى بعضها يخالف البصير، وبعضها يساوي فيها البصير.

أما المسائل التي يخالف فيها البصير فقالوا:

يكره كونه مؤذنا راتبا وحده.

ويكره ذبحه.

والبصير أولى منه بغسل الميت.

ولا يجتهد في القبلة.

ولا يصح بيعه ولا شراؤه نعم يصح أن يشتري نفسه ويؤجرها لأنه يجهلها، وأن يشتري ما رآه قبل العمى، ولم يتغير.

ولا ديه في عينيه.

ولا يلي الإمامة العظمى ولا القضاء.

ولا تجب عليه الجمعة، ولا الحج إلا إذا وجد قائدا.

ولا تصح إجارته، ولا رهنه، ولا هبته، ولا مساقاته، ولا قبض ما ورثه، أو وهب له، أو اشتراه سلما.

ويحرم صيده برمي أو كلب.

ولا يجوز عتقه في الكفارة.

ولا تقبل شهادته إلا في أربع مسائل: الترجمة للقاضي، والنسب، وما تحمل وهو بصير، وإذا أقر في أذنه رجل، فتعلق به حتى شهد عليه عند الحاكم.

ولا يكون محرما في المسافرة بقريبه.

وهل هو أهل للحضانة كالبصير أم لا.

قال ابن الرفعة: لم أر لأصحابنا فيه شيئا غير أن في كلام الإمام ما يؤخذ منه أن العمى مانع، وأفتى بذلك جماعة.

قال الأذرعي: ولعله أشبه.

ورجحه شيخنا العلامة السيوطي فقال: في ضمن نظم له في مسائل الأعمى: وليس له في نخله من حصانة.

لكن سئل ابن البرزي عن حضانة العمياء فقال: لم أر فيها مسطورا، والذي أراه أنه يختلف باختلاف أحوالها، فإن كانت ناهضة بحفظ الصغير وتدبيره، والنهوض بمصلحته، وأن تقيه من الأسواء والمضار، فلها الحضانة، وإلا فلا.

وكذا أفتى قاضي حماة: بأن العمى ليس بقادح في الحضانة بشرط أن يكون الحاضن قائما بمصالح المحضون إما بنفسه أو بمن يستعين به.

وأما المسائل التي يساوي فيها البصير فقالوا:

الأعمى والبصير في الإمامة سواء لأن البصير أشد تحفظا من النجاسات، والأعمى أخشع،.

ويجوز اعتماد صوت المؤذن الأعمى العارف في الغيم والصحو كما يجوز اعتماد البصير في ذلك على الأصح.

ويجوز أن يكون وصيا كالبصير لأنه من أهل التصرف في الجملة، وما لا يصح منه يوكل فيه.

ويجزئ عتقه في النذر كالبصير.

وله ولاية النكاح على الأصح كالبصير.

ويقتل إذا كان حربيا هذا الأظهر، وفي قول: لا بل يرق كالنساء.

ويضرب عليه الجزية على المذهب كالبصير.

والأصح قبول رواية ما تحمله بعد العمى إذا كان ذلك بخط موثوق به.

وتقبل شهادته بالاستفاضة على الأصح إذا كان المشهود له وعليه معروفين لا يحتاج واحد منهم إلى إشارة.

وهو كفؤ في النكاح للبصيرة على الأصح.

ويصح أن يكاتب عبد على الأصح.

ويصح كونه مترجما للقاضي على الأصح لأن القاضي يرى المترجم عنه، والأعمى يحكي كلاما يسمعه.

فائدة

أول ما ينظر الله تعالى إلى من كان ضريرا يرد الله تعالى على الأعمى يوم القيامة

بصره، ويكرمه الله تعالى لما ابتلاه بكف بصره وأخذ نور عينيه بأن يجعله أول من ينظر إلى وجهه الكريم.

فقد ورد في الآثار: أول من ينظر إلى الله من كان ضريرا.

وهذا دليل على أن الأعمى يرد الله عليه بصره في الآخرة.

وأما قوله تعالى ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى** ﴾ [الإسراء: ٧٢].

فالمراد بالعمى فيها: عمى القلب لا البصيرة، أي من كان في الدنيا أعمى عن الهداية فهو في الآخرة أعمى عن إثبات الحجة.

والدليل على أن الأجساد في الآخرة تعود صحيحة قوله في الحديث «**يحشر الناس يوم القيامة بهما**».

قال الدميري: ومعناه أنه ليس بهم شيء مما كان في الدنيا نحو البرص والعرج والعور والعمى وغير ذلك، وإنما هي أجساد صحيحه لخلود الأبد في الجنة أو النار.

وقيل معنى بهما: عراة ليس عليهم من متاع الدنيا شيء. قال وهذا يخالف الأول من حيث المعنى.

وقد وردت أحاديث في فضل من قاد ضريرا إلى منـــزله أو إلى المسجد أو إلى قضاء حاجة من حوائجه:

روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال «**قال الله تعالى إذا أخذت كريمتي عبدي لم أرض له ثوابا دون الجنة قيل: يا رسول الله وإن كانت واحدة؟ قال: وإن كانت واحدة**» [(١)].

وقال رسول الله ﷺ «**رأيت ليلة أسري بي سبع قصور بين كل قصرين كما بين المشرق والمغرب قلت: لمن هذا؟ قيل: لمن قاد ضريرا سبع خطوات. قلت: أبشر به أمتي؟ قال: نعم وأكثر من هذا من قال من أمتك سبع مرات لا إله إلا الله يعطى في الجنة بقدر الدنيا عشرين مرة**».

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ «**من قاد أعمى أربعين ذراعا أو خمسين ذراعا كتب**

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٢٥٢/٤، رقم ٢٣٦٥)، والطبراني (٥٤/١٢، رقم ١٢٤٥٢)، والضياء (٨٣/١٠، رقم ٧٧)، وابن حبان (١٩٣/٧، رقم ٢٩٣٠).

قال الهيثمي (٣٠٨/٢): رجاله ثقات.

له رقبة» [١].

وروي عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال «**من قاد أعمى إلى المسجد أربعين خطوة وجبت له الجنة**» [٢].

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «**من قاد أعمى إلى المسجد أو إلى منزله في حاجته حتى يقضيها أعطاه الله براءة من النار وبراءة من النفاق ولم يزل يخوض في الرحمة حتى يرجع**».

وقال النبي ﷺ لأبي هريرة «**يا أبا هريرة إذا أرشدت الأعمى فخذ يده اليسرى بيدك اليمنى فإنها صدقة يا أبا هريرة أتريد أن يكون أجرك كأجر شهيد بدر فانظر رجلا مسلما ليس له ثوب يجمع فيه الجمعة فأعره ثوبا أو هبه له**».

ويزداد أجر الأعمى بصبره على بلاء الله تعالى، ورضائه بقضائه قال: وكذا كل صاحب بلوى ومصيبة.

قال بشر الحافي ﷺ : رأيت في عبادان رجلا أعمى مجذوع مجنون قد صرع والنمل يأكل من لحمه فوضعت رأسه في حجري ودعوت له، فلما أفاق قال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبينه، والله لو قطعني إربا إربا لما ازددت له إلا حبا حبا وانشد في المعنى:

نفس المحب على الآلام صابرة ... لعل متلفها يوما يداويها

ونقل عن عيسى عليه السلام أنه مر برجل أعمى أبرص مقعد قد أخذه الفالج، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه.

فقال له عيسى: أي شيء من البلاء قد عافاك منه؟ فقال: يا نبي الله أنا خير ممن لم يجد في قلبه معرفة ربه.

كرامة غريبة

حكي عن بعض الصالحين أنه وقع يوما بصره على محظور فقال: إلهي إنما أريد

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان (١٠٩/٦، رقم ٧٦٢٩) وقال: يوسف بن عطية هذا ضعيف.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٦٦/٩، رقم ٥٦١٣)، وابن عدي (١٠٤/٢، ترجمة ٣٢٠ ثور بن يزيد)، والطبراني (٣٥٣/١٢، رقم ١٣٣٢٢) قال الهيثمي (١٣٨/٣): فيه على بن عروة وهو كذاب. والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٩/٦، رقم ٧٦٢٨) وقال: على بن عروة هذا ضعيف وما قبله وإسناده أيضًا ضعيف. وأبو نعيم في الحلية (١٥٨/٣) عن ابن عمر.

بصري هذا لأجلك، فإذا صار سببا لمخالفة أمرك فاسلبنيه، فعمى الرجل وكان يقوم بالليل ويصلي، فغاب ليلة من الليالي من كان يعينه على الطهارة، فقال: إلهي إنما قلت خذ بصري لأجلك فالليلة احتاج إليه لأجلك فرده على، فرد الله بصره وصار يبصر بعد العمى.

نقلتها من شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي بخطه.

***

قَالَ البُخَارِي:

باب بركة السحور من غير إيجاب

لأن النبي ﷺ وأصحابه واصلوا و لم يذكروا السحور.

حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا جُوَيْرِيَةُ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَاصَلَ فَوَاصَلَ النَّاسُ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَنَهَاهُمْ. قَالُوا إِنَّكَ تُوَاصِلُ. قَالَ «**لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَظَلُّ أُطْعَمُ وَأُسْقَى**».

قال العلماء: السحور بضم السين: اسم للفعل أي للاكل وقت السحر.

أما السحور بفتح السين: فهو اسم للمأكولات وقت السحور.

والسحور من خصائص هذه الأمة ليكون لهم قوة على صيامهم، وهو سنة من سنن الصوم، ولا أثم على تاركه، والذي يدل على أنه سنة وليس بواجب هذا الحديث الذي ذكره البخاري، وعقد الباب لأجله، فإنه رضي الله عنه قال باب بركة السحور من غير إيجاب، ثم ساق الحديث مستدلا به على أن السحور ليس بواجب، ووجه الإستدلال به أنه ﷺ واصل في صومه، ولو كان السحور واجبا لما واصل.

والوصال هو: أن يواصل الإنسان صيام يومين فصاعدا، ولا يتناول في الليل شيئا من الأكل والشرب.

فائدة

اتفق علماؤنا على أن الوصال حرام على هذه الأمة، ولو كان مباحا لنبينا ﷺ.

قال الخطابي وغيره: الوصال من الخصائص التي أبيحت لرسول الله ﷺ وحرمت على الأمة، كما خص بإباحة النظر إلى الأجنبيات، والخلوة بهن، ونكاح أكثر من أربعة نسوة، وغير ذلك.

والدليل على تحريم الوصال: الحديث المذكور هنا وأحاديث كثيرة ساقها البخاري رضي الله عنه منها:

«**نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ. قَالُوا إِنَّكَ تُوَاصِلُ. قَالَ «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى**».

وأخرج عن أبي سعيد أنه سمع النبي ﷺ يقول «**لاَ تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ**». **قَالُوا فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاقٍ يَسْقِينِ**».

وأخرج عن أبي هريرة قال «**نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ فِي الصَّوْمِ فَقَالَ لَهُ**

رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَأَيُّكُمْ مِثْلِي إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ. فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْماً ثُمَّ يَوْماً، ثُمَّ رَأَوُا الْهِلاَلَ، فَقَالَ لَو تَأَخَّرَ لَزِدْتُكُمْ». كَالتَّنْكِيلِ لَهُمْ، حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا.

وأخرج أيضا عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال **«إِيَّاكُمْ وَالْوِصَالَ». مَرَّتَيْنِ قِيلَ إِنَّكَ تُوَاصِلُ. قَالَ «إِنِّى أَبِيتُ يُطْعِمُنِى رَبِّى وَيَسْقِينِ، فَاكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ»**.

دلت هذه الاخبار على تحريم الوصال في صوم رمضان فرضا كان أو نفلا هذا هو مذهب الإمام الشافعي ﷺ . وصرح بتحريم الوصال النووي وغيره.

قال ابن الملقن وقال القرطبي: الجمهور على كراهته، وإليه ذهب أبو حنيفة، وإنما يحرم عند العلماء إذا واصل الإنسان عمدا بلا عذر.

أما إذا واصل سهوا بعذر فلا أثم عليه، كما إذا سها بعد غروب الشمس أنه صام ذلك اليوم فلم يأكل و لم يشرب الليلة.

وهل إذا ترك الإنسان الأكل أو الشرب ليلا كأن يجامع فيه فيخرج عن كونه مواصلا بسبب أن الجماع لا يجوز للصائم أو لا؟

فيه خلاف فذهب ابن الصلاح وجماعة من الفقهاء إلى أنه لا يسمى مواصلا، فلا إثم عليه ؛ لكن قضية كلام النووي أن الجماع ونحوه لا يمنع الوصال قال الإسنوي: وهو ظاهر المعني لان تحريم الوصال للضعف عن الصيام والصلاة وسائر الطاعات، وترك الجماع ونحوه لا يضعف، بل يقوى، فعلم من هذا أن حكمة تحريم الوصال على هذه الأمة الشفقة عليه، والرحمة والرفق بهم، لئلا يحصل لهم الملل من العبادة، والضعف فى البدن المفضي إلى التقصير فى بعض وظائف الدين من إتمام الصلاة بخشوعها وأركانها وآدابها وملازمة الأذكار وسائر الوظائف المشروعة فى نهاره وليله.

وأبيح له ﷺ الوصال لأن الله تعالى أعطاه قوة الشارب الطاعم فلا يلحقه فى صومه ضعف فى بدنه حتى يقصر بسببه عن الطاعات، ولهذا لما واصل وواصلت الصحابة معه، وشق عليهم ذلك، وضعفت قوتهم نهاهم عنه، فقال **«لا تواصلوا. فقالوا: إنك تواصل»** أي كيف تنهانا عن الوصال يا رسول الله، وأنت تواصل فقال **«إني لست كهيئتكم»** أي ليس حالي مثل حالكم، وفى رواية **«لست مثلكم إني أطعم وأسقى»** أي يطعمني ربي ويسقيني. كما جاء فى الحديث الآخر.

وقد اختلف العلماء فى معنى ذلك:

قيل معناه: أنه ﷺ كان يرزقه الله طعاما وشرابا من الجنة ليالى صيامه كرامة له، فعلى هذا يكون الإطعام والإسقاء حقيقة له ﷺ أي كان في ليالى الوصال يأكل من طعام الجنة دار الجلال.

ورد هذا بأنه لو كان ذلك حقيقة لم يكن مواصلا.

وأجيب عنه أيضا بأن ظل تستعمل بمعنى صار كما فى قوله تعالى ﴿ **ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا** ﴾ [النحل: ٥٨].

فمعنى الحديث: أصير عند ربي ليلا، ويقوي هذا قوله فى رواية أخرى «**إني أبيت**»، فالجمع بين الروايتين أولى.

والصحيح فى معنى الحديث: أن الله تعالى كان يجعل فى نبيه فى أيام الصيام ولياليه قوة الطعام والشراب أي كان يفيض على نبيه ما يسد مسد طعامه وشرابه من حيث أن يشغله عن احساس الجوع والعطش، ويقويه على الطاعات، ويحرسه من ضعف القوى، وكلال الحواس، فلهذا كان يواصل أحيانا، فعلى هذا يكون الإطعام والإسقاء له ﷺ مجازا لا حقيقة، وحينئذ يكون معنى قوله «**يطعمنى ربى ويسقينى**»: يجعل في قوة من طعم وشرب، ولا شك أن إطلاق ذلك على ذلك مجاز.

وعدوا من خصائصه ﷺ أنه كان يبت جائعا، ويصبح طاعما يطعمه ربه ويسقيه.

قال ابن رجب: الصحيح أنه إشارة إلى ما كان الله يفتحه عليه فى صيامه وخلوته بربه لمناجاته، وذكر من مواد أنسه ونفحات قدسه، فكان بذلك على قلبه من المعارف الإلهية، والمنح الربانية ما يغنيه ويمنعه من الطعام والشراب.

وأنشد بعضهم فى هذا المعنى وأحسن:

بهـــا أحاديث من ذكرك تشغلها ... عـــن الطعـــام وتلهيها عن الزاد

لهـــا بوجهـــك نور تستضيء به ... وقـــت المسي وفى أعقابها حادي

إذا اشكت من كلال منه أوعدها ... روح القـــدوس فتحيا عند ميعاد

الذكر قوت العارفين يغنيهم عن الطعام والشراب.

كما قيل لما جاع المجتهدون شبعوا بطعام المناجاة، فأف لمن باع لذه المناجاة بلذة لقمة.

قال بعضهم: من قدر على الوصال فلا جناح عليه لأنه ﷺ نهى عنه رفقا بأمته، فمن لم يشق عليه لا يمنع منه.

ولهذا كان عبد الله بن الزبير وجماعة يواصلون الأيام.

نقل عن العسكرى أنه قال فى كتاب الأوائل: كان ابن الزبير يواصل خمسة عشرا يوما حتى تبيد أمعاؤه فإذا كان يوم فطره أتى بصبر وسمن فاحتساه حتى لا تنتفق الأمعاء.

ونقل عن الطبرى أن عبد الرحمن بن نعيم ما كان يفطر في رمضان إلا مرتين.

ونقل عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه كان يواصل ليلة ستة عشر وليلة سبعة عشر من رمضان لا يفرق بينهما ويفطر على السمن، فقيل له: لما تفطر على السمن؟ قال: السمن يبل عروقى، والماء يخرج من جسدي.

والصحيح أن النهى عام لمن قوى عليه وغيره.

وأما من واصل من الصحابة وغيرهم، فلهم مقاصد أخرى غير الوصل، بل كانوا يتركون الأكل أياما وليالى من غير صوم.

قال الطبرى: وأما ما روى عن بعض الصحابة وغيرهم من تركهم الأكل أياما ذوات العدد وكان ذلك منهم على أنحاء شتى: فمنهم من كان ذلك منه لقدرته عليه فيصرف فطره إلى أهل الفقر والحاجة طلبا للثواب مثل ما روى عن الحسن قال: لقد أدركنا أقواما، وصحبنا طوائف كان أحدهم يمشى، وما عنده من العشاء إلا قدر ما يكفيه، ولو شاء لأتى عليه، فيقول: ما أنا بآكله حتى أجعل لله منه.

ومنهم من كان يتركه لأن نفسه اعتادت تركه فهو مستغن عنه كما روى الأعمش عن التيمى أنه قال: لبثت ثلاثين يوما ما أطعم من غير صوم إلا الحبة، وما يمنعنى ذلك من حوائجي.

وقال الأعمش: كان إبراهيم التيمى يمكث شهرين لا يأكل ولكنه كان يشرب شربة من نبيذ.

ومنهم من كان يفعله مقمعا لنفسه وزاجرا لها عن شهواتها، فكان يترك الأكل مريدا بذلك قهر نفسه، وحملها على الأفضل ولا يستعمله إلا لضرورة بالغة أو خوف من العجز عن أداء واجب.

قَالَ الْبُخَارِي: حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ **«تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»**(١).

اختلفوا فى بركة السحور ما هى؟

فقيل: هى الأجر والثواب.

وقيل: هى التقوي على الصيام، والنشاط له فمن تسحر حصل له قوة على الصيام ونشاط له ورغب فى الصيام والازدياد منه مع أنه لا مشقة فيه على المتسحر هذه هى البركة التي أرادها النبي ﷺ ولا شك فى بركة ما يحصل بسببه النشاط للعبادة والرغبة فيها.

روى ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا **«استعينوا بأكل السحور على صيام**

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله «تسحروا فإن في السحور بركة» هو بفتح السين وبضمها، لأن المراد بالبركة الأجر والثواب فيناسب الضم لأنه مصدر بمعنى التسحر، أو البركة لكونه يقوي على الصوم وينشط له ويخفف المشقة فيه فيناسب الفتح لأنه ما يتسحر به، وقيل البركة ما يتضمن من الاستيقاظ والدعاء في السحر، والأولى أن البركة في السحور تحصل بجهات متعددة، وهي اتباع السنة، ومخالفة أهل الكتاب، والتقوي به على العبادة، والزيادة في النشاط، ومدافعة سوء الخلق الذي يثيره الجوع، والتسبب بالصدقة على من يسأل إذ ذاك أو يجتمع معه على الأكل، والتسبب للذكر والدعاء وقت مظنة الإجابة، وتدارك نية الصوم لمن أغفلها قبل أن ينام.

قال ابن دقيق العيد: هذه البركة يجوز أن تعود إلى الأمور الأخروية فإن إقامة السنة يوجب الأجر وزيادته، ويحتمل أن تعود إلى الأمور الدنيوية كقوة البدن على الصوم وتيسيره من غير إضرار بالصائم.

قال: ومما يعلل به استحباب السحور المخالفة لأهل الكتاب لأنه ممتنع عندهم، وهذا أحد الوجوه المقتضية للزيادة في الأجور الأخروية. وقال أيضا: وقع للمتصوفة في مسألة السحور كلام من جهة اعتبار حكم الصوم وهي كسر شهوة البطن والفرج، والسحور قد يباين ذلك.

قال: والصواب أن يقال ما زاد في المقدار حتى تنعدم هذه الحكمة بالكلية فليس بمستحب كالذي صنعه المترفون من التأنق في المآكل وكثرة الاستعداد لها، وما عدا ذلك تختلف مراتبه.

يحصل السحور بأقل ما يتناوله المرء من مأكول ومشروب. وقد أخرج هذا الحديث أحمد من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ السحور بركة فلا تدعوه ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين ولسعيد بن منصور من طريق أخرى مرسلة: تسحروا ولو بلقمة. انظر فتح الباري (١٣٩/٤ – ١٤٠).

النهار، وبالقائلة على قيام الليل» [١] ذكره الحاكم فى مستدركه.

وقيل: بركته أنه يتضمن الاستيقاظ من النوم والذكر والدعاء والإستغفار فى ذلك الوقت الشريف، فإن الغالب ممن قام في ليالى الصيام أن يأتى بالذكر والدعاء والاستغفار وشبيهه مما يثاب عليه في رمضان، وربما قام فتوضأ وصلى، أو أدام الاستيقاظ للذكر والدعاء والاستغفار فى وقت السحر الذى هو وقت تنزل الرحمة، وقبول الدعاء لأنه وقت يتجل الله فيه على عباده ويقول: هل من داع فاستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟

وقد أثنى الله على المستغفرين بالأسحار بقوله العزيز ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ١٨].

ويقال للسحور الغذاء المبارك سماه رسول الله ﷺ بذلك، وإنما سمى بذلك لأنه بدل من الغذاء.

كما يقال له: سحور لوقوعه فى السحر.

وورد فى فضله عن عبد الله بن عمر مرفوعا «**إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين**» [٢].

ويسن تأخير السحور إلى قبيل الفجر، فقد ورد فى صحيح ابن حيان أنه من سنن سيد المرسلين.

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر مرفوعا «**لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطور وأخروا السحور**» [٣].

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٥٨٨، رقم ١٥٥١). **وأخرجه أيضًا**: ابن ماجه (١/٥٤٠، رقم ١٦٩٣)، قال البوصيري (٢/٧٠، رقم ١٠): هذا إسناد فيه زمعة بن صالح، وهو ضعيف. وابن عدي (٣/٣٣٩)، وابن خزيمة (٣/٢١٤، رقم ١٩٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/١٨٢، رقم ٤٧٤٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/٢٤٥، رقم ٣٤٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٣٢٠)، والطبراني في الأوسط (٦/٢٨٧، رقم ٦٤٣٤).

قال الهيثمي (٣/١٥٠): رواه الطبراني في الأوسط، وقال تفرد به يحيي بن يزيد الخولاني قلت: ولم أجد من ترجمه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/١٤٧، رقم ٢١٣٥٠).

قال الهيثمي (٣/١٥٤): فيه سليمان بن أبي عثمان قال أبو حاتم مجهول.

وإنما يسن تأخير السحور إلى وقت لا يقع به في شك أما إذا وقع في شك، فالأفضل تركه لقوله ﷺ «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» (١).

ووقت السحور من أول نصف الليل الثاني إلى طلوع الفجر، فلو تسحر الإنسان في النصف الأول من الليل لا يكون محصلا لسنة السحور، وتحصل السنة بكثير المأكول وقليله، وتحصل بالماء أيضا، ولو بجرعة.

فقد جاء في الحديث «**من أراد أن يصوم فليتسحر ولو بجرعة ماء**».

ويسن التسحر بالتمر كما يسن الفطور عليه، فقد ورد في صحيح ابن حيان عن أبي هريرة يرفعه «**نعم سحور المؤمن التمر**» (٢).

قال ابن العماد: إذا تسحر الصائم بالتمر، وأفطر عليه كان في ذلك مستعملا للحلاوة في أول أكله وآخره، وفيه تفاؤل بحسن أعماله، وقبول صيامه، ويسن للإنسان أن يوقظ غيره للسحور.

قال في تسهيل المقاصد: إيقاظ النائم مستحب في ثلاثة عشر صورة، وزاد غيره صورتين عليها، فصارت خمسة عشر:

صورة الأولى: إيقاظه للصلاة لا سيما إن ضاق وقتها لقوله تعالى ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى** ﴾ [المائدة: ٢].

وروى أبو داود أن النبي ﷺ خرج يوما إلى الصلاة، فلم يمر بنائم إلا أيقظه.

وهذا كان واجبا عليه عملا بقوله تعالى ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهذا الوجوب من خصائصه، وهو في حق أمته سنة كما خص بوجوب الضحى والوتر والسواك والأضحية وركعتي الفجر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٦٨/٤، رقم ٢٥١٨) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٣٢٧/٨، رقم ٥٧١١)، والحاكم (١٥/٢، رقم ٢١٦٩) وقال: صحيح الإسناد. والدارمي (٣١٩/٢، رقم ٢٥٣٢)، وأبو يعلى (١٣٢/١٢، رقم ٦٧٦٢)، وابن حبان (٤٩٨/٢، رقم ٧٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٢/٥، رقم ٥٧٤٧)، وابن خزيمة (٥٩/٤، رقم ٢٣٤٨)، والطيالسي (ص ١٦٣، رقم ١١٧٨) عن الحسن.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٥٣/٨، رقم ٣٤٧٥). **وأخرجه أيضًا**: أبو داود (٣٠٣/٢، رقم ٢٣٤٥)، والبيهقي (٢٣٦/٤، رقم ٧٩٠٦)، وأبو عوانة (١٩٨/٥، رقم ٨٣٨٦)، وابن عدي (١٨/٣، ترجمة ٥٨٠ خالد بن يزيد العمري المكي).

الثانية: إذا نام أمام المصلين لأنه يشوش عليهم.

الثالثة: إذا نام في الصف الأول محراب المسجد، فإنه يوقظ عند إقامة الصلاة لأن إقامتها في هذه المواضع مطلوبة، وإن كان صلى ثم نام ؛ لأنه مقصر حيث لم ينم في آخريات المسجد.

الرابعة: إذا كان نائما على سطح لا حضير له أي لا حجاب له.

قال ﷺ «**من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه الذمة**» [1] رواه أبو داود.

وحجار بالراء بمعنى حجاب.

الخامسة: إذا نام بعضه في الظل وبعضه في الشمس.

السادسة: إذا نام بعد طلوع الفجر وبعد طلوع الشمس.

لما روى أنه ﷺ قال «**الصحبة تذهب الرزق**».

قال علقمة بن قيس: تعج الأرض إلى الله تعالى من نومة عالم حينئذ.

ورأى عمر بن عبد العزيز أو عبد الله بن عباس ابنا له نائما في هذا الوقت، فأيقظه، وقال: الأرزاق تقسم وأنت نائم.

السابعة: إذا نام قبل صلاة العشاء، والنوم قبلها مكروه بعد دخول وقتها.

قال الإسنوى: وينبغى أن يكره أيضا قبله وإن كان بعد فعل المغرب، والمعنى في الكراهة خوف استمراره إلى خروج الوقت، ولهذا قال ابن الصلاح: إن هذه الكراهة تعم سائر الصلوات.

الثامنة: إذا نام بعد العصر.

قال في الطب النبوي: نوم النهار يورث الأمراض الرطوبية، والنوازل، ويفسد اللون، ويورث الطحال، ويرخى العصب، ويضعف الشهوة إلا في الصيف وقت الهاجرة، وأرده نوم أول النهار، وأردأ منه النوم آخره بعد العصر.

وقيل نوم النهار ثلاثة خلق وخرق وحمق:

فالخلق: نومة الهاجرة، وهى خلق رسول الله ﷺ.

والخرق: نومة الضحى تشغل عن أمر الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٣١٠، رقم ٥٠٤١). وأخرجه أيضا: البخاري في الأدب (١/٤٠٧، رقم ١١٩٢).

والحمق: نومة العصر.

قال بعض السلف: من نام بعد العصر فاختلس عقله فلا يلومن إلا نفسه.

وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

ألا إن نومة الضحى تورث الفتى خبالا ونومات العصر جنون

التاسعة: إذا نام خاليا في البيت وحده، فإنه يكره له ذلك كما ذكره الحليمي في شعب الإيمان.

فقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر أن النبي ﷺ «**نهى عن الوحدة أن يبيت الرجل وحده، أو يسافر وحده**».

العاشرة: إذا نامت المرأة مستلقية ووجهها إلى السماء، فإنه يكره كما ذكره الحليمي في المنهاج، واستدل بأن عمر بن عبد العزيز رأى ابنته كذلك فنهاها.

الحادية عشر: إذا رأى شخصا نائما على وجهه، فإنه ﷺ رأى رجلا كذلك فقال «**هذه ضجعة يبغضها الله ورسوله**» (١).

الثانية عشر: يستحب أن يوقظ غيره لصلاة الليل لأنه ﷺ أيقظ عليا وفاطمة.

وفي سنن أبي داود أنه ﷺ قال «**رحم الله رجلا قام من الليل فأيقظ أهله فإن أبت رش في وجهها الماء**» (٢).

قال ابن رجب في اللطائف: وفي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلى حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة يقول لهم الصلاة ويتلوا هذه الآية ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾ [طه: ١٣٢].

وكانت امرأة حبيب أبي محمد تقول له بالليل: قد ذهب الليل وبين أيدينا طريق

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٩/٤، رقم ٥٠٤٠)، وابن ماجه (١٢٢٧/٢، رقم ٣٧٢٣)، والطيالسي (ص١٩٠، رقم ١٣٣٩)، وأحمد (٤٢٩/٣، رقم ١٥٥٨٢)، والطبراني (٣٢٨/٨، رقم ٨٢٢٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧٣/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧/٤، رقم ٤٧٢١)، والضياء (٨/ ١٣٣، رقم ١٤٦) وقال: إسناده صحيح. والبخاري في الأدب المفرد (ص ٤٠٦، رقم ١١٨٧)، وابن قانع (٥٢/٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣/٢، رقم ١٣٠٨). وأخرجه أيضا: النسائي (٢٠٥/٣، رقم ١٦١٠)، وابن ماجه (٤٢٤/١، رقم ١٣٣٦)، والحاكم (٤٥٣/١، رقم ١١٦٤) وقال: صحيح على شرط مسلم. وابن حبان (٣٠٦/٦، رقم ٢٥٦٧)، وأحمد (٢٥٠/٢، رقم ٧٤٠٤)، والبيهقي (٥٠١/٢، رقم ٤٤١٩)، وابن خزيمة (١٨٣/٢، رقم ١١٤٨) عن أبي هريرة.

بعيد، وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا، ونحن قد بقينا.

ولله در القائل:

يا نائم الليل كم ترقد ... قم يا حبيبي قد دنا الموعد

وخذ من الليل أوقاته ... ورد إذا ما هجع الرقد

من نام حتى ينقضي ليله ... لم يبلغ المنزل أو يجهد

الثالثة عشر: يستحب إيقاظ النائم ليتسحر لحديث «**إن بلال ينادى بليل ليوقظ نائمكم**».

الرابعة عشر: إذا نام شخص وفي يده ريح غمر أي زفر.

قال رسول الله ﷺ «**من بات وفي يده ريح غمر لم يغسله فأصابه وضح فلا يلومن إلا نفسه**» [(١)].

قال في الترغيب: الوضح: بفتح الواو والضاد المعجمة وبعدها حاء مهملة هو: البرص.

والغمر: بفتح الغين المعجمة والميم وبعدها راء مهملة وهو: ريح اللحم.

الخامسة عشر: إذا رأى شخصا نائما بعرفات وقت الوقوف لأنه وقت طلب وتضرع.

ويستحب للصائم أن يعجل الفطر إذا تحقق غروب الشمس لقوله ﷺ «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**» [(٢)] متفق عليه.

أي لا يزال الأمر لأمتي منتظما وهم بخير ما داموا محافظين على هذه السنة، وإذا أخروا الفطر كان ذلك علامة على فساد يقعون فيه.

وأما ما يفعله الموقتون والمؤذنون الآن من الأذان قبل الفجر بنحو ثلاث ساعات،

---

(١) أخرجه الطبراني (٦/٣٥، رقم ٥٤٣٥)

قال الهيثمي (٥/٣٠): إسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٢/٦٩٢ رقم ١٨٥٦)، ومسلم (٢/٧٧١، رقم ١٠٩٨)، والترمذي (٣/ ٨٢، رقم ٦٩٩) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (٨/٢٧٣، رقم ٣٥٠٢)، ومالك (١/٢٨٨، رقم ٦٣٤)، وأحمد (٥/٣٣١، رقم ٢٢٨٥٦)، والدارمي (٢/١٢، رقم ١٦٩٩)، والشافعي (١/ ١٠٤)، وأبو يعلى (١٣/٥٠١، رقم ٧٥١١)، وعبد الرزاق (٤/٢٢٦، رقم ٧٥٩٢)، والطبراني (٦/١٣٩، رقم ٥٧٦٨) عن سهل بن سعد.

وفي الأذان في المغرب بعد مضى درجة فأكثر، ويزعمون أنهم فعلوا ذلك احتياطا في العبادة في أول الوقت، وتمكينا للوقت في آخره، فهو من البدع المنكرة، لأنه مفوت لسنة تأخير السحور وتعجيل الفطور، لربط الناس لأن السحور والفطور عليم خصوصا إطفاء المصابيح التي جعلت علامة لتحريم الأكل والشرب على من يريد الصيام فخالفوا السنة، فلذلك قل عنهم الخير، وكثر فيهم الشد، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ويستحب أن يفطر على التمر فإن لم يجده، فعلى الماء.

قال ﷺ «**إذا كان أحدكم صائما فليفطر على التمر فإن لم يجد التمر فعلى الماء فإنه طهور**» [1] صححه الترمذى وابن حبان والحاكم وقال على شرط البخارى.

قال الأذرعى: والزبيب أخو التمر، وإنما نص على التمر لتيسره في المدينة، فيستحب الفطر عليه عند فقد التمر، وإذ كان في مكه و لم يجد التمر، فماء زمزم مقدم على غير من المياه، وإذا أفطر على تمرة واحدة حصل له أصل السنة، وكذا من إذا حسا حسوة واحدة عند فقد التمر، ولكن الأفضل الثلاث فقد ورد في سنن أبي داود والترمذى وحسنة وصحح الدارقطنى إسناده أن أنسا قال: كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصل على رطبات، فإن لم يكن رطبات فتمرات، فإن لم يكن حسا حسوات من ماء.

فقوله: تمرات وحسوات جمع، وأقله ثلاثة.

قال الأذرعى: يستحب أن يكون التمر في فطوره وترا وأقله ثلاث.

والحكمة في الفطور على التمر أن لا يدخل جوفه أولا ما مسته النار، فقد صرح الحليمى في منهاجه: بأنه لا يستحب للصائم أن يفطر على شئ مسته النار، واستدل بحديث.

وقيل الحكمة في التمرات أن الصوم يضعف البصر والتمر يرده، واعترضوا هذا بأن الأطباء قالوا: إن أكل التمر يضعف البصر.

وأجاب العلماء عنه: بأن الأكثار منه يضعف البصر، وقليله يقويه، والشيء ينفع قليله، ويضر كثيره.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٥٩٧، رقم ١٥٧٥) وقال: صحيح على شرط البخاري. وأخرجه ايضا: أبو داود (٢/٣٠٥، رقم ٢٣٥٥)، والنسائي في الكبرى (٢/٢٥٤، رقم ٣٣٢٤)، والبيهقي (٤/ ٢٣٨، رقم ٧٩١٧)، والطبراني (٦/٢٧٢، رقم ٦١٩٢).

والدليل على أن الصوم يضعف البصر ما نقل عن وهب بن منبه أنه قال: إذا سرد الرجل الصوم زاغ بصره، فإذا أفطر على حلاوة رجع إليه بصره.

والحكمة في الفطور على الماء: أن الكبد يحصل لها بالصوم نوع يبس، فإذا رطبت بالماء كان انتفاعها بعده، ولهذا كان الأولى بالظمآن الجائع أن يبدأ بشرب قليل من الماء، ثم يأكل بعده.

قال ابن القيم: ويسن أن يقول الصائم: اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت.

ويقول ما رويناه في سنن أبي داود والنسائي عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا أفطر قال «**ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله**».

أو يقول ما رويناه في كتاب ابن السنى عن معاذ بن زهرة قال: كان النبي ﷺ إذا أفطر قال «**الحمد لله الذى أعانني فصمت، ورزقني فأفطرت**».

أو يقول ما رويناه في كتاب ابن السني أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا أفطر قال «**اللهم لك صمنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبل منا إنك أنت السميع العليم**».

ويسن إذا أفطر عند أحد أن يدعو له، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم، فدعا في منزل عبد الله بن بسر فقال «**اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم**» رواه مسلم.

وسقاه آخر لبنا فقال «**اللهم أمتعه بشبابه**» فمرت عليه ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء.

وإذا أفطر عند أحد يقول ما ورد في سنن أبي داود وغيره بالإسناد الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة، فجاء بخبز وزيت فأكل ثم قال النبي ﷺ «**أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة**» [1].

ويستحب أن يفطر الصائمين معه، فإن عجز عن عشائهم أعطاهم ما يفطرون عليه من تمر أو ماء أو غيره.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/٣٦٧، رقم ٣٨٥٤). **وأخرجه أيضا**: أبو يعلى (٧/٢٩١، رقم ٤٣١٩)، والضياء (٥/١٥٨، رقم ١٧٨٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٨١، رقم ١٠١٢٩)، وأحمد (٣/١٣٨، رقم ١٢٤٢٩)، والدارمي (٢/٤٠، رقم ١٧٧٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣/٧٢)، والبيهقي (٤/٢٤٠، رقم ٧٩٢٥).

روى البغوي بسنده عن سلمان قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال «**أيها الناس أنه قد أظلكم شهر عظيم مبارك شهر فيه ليلة القدر خير من ألف شهر جعل الله صيام نهاره فريضة وقيام ليله تطوعا من تقرب فيه بخصله من الخير كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة وشهر المواساة وشهر يزاد فيه الرزق من فطر فيه صائما كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيئا قالوا يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم قال رسول الله ﷺ يعطى الله هذا الثواب لمن فطر صائما على مذقة لبن أو تمرة أو شربة ماء ومن أشبع فيه صائما سقاه الله عز وجل من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار فاستكثروا فيه من أربع خصال خصلتان ترضون بهما ربكم وخصلتان لا غنى بكم عنهما فالخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه وأما الخصلتان اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار**» [1] ورواه ابن خزيمة في صحيحه.

قال ابن رجب فهذه الخصال الأربع المذكورة في هذا الحديث كل منها سبب للعفو والمغفرة.

فأما كلمة التوحيد فإنها تهدم الذنوب وتمحوها محوا، ولا تبقي ذنبا ولا يسبقها عمل، وهى تعتدل عتق الرقاب الذي يوجب العتق من النار، ومن قالها خالصا من قلبه حرمه الله على النار.

وأما كلمة الاستغفار فمن أعظم أسباب المغفرة انتهى.

وسنذكر فضائل الاستغفار في الكلام على التراويح.

وإذا دعى الصائم إلى منـــزله حتى أفطر عنده كان أفضل لأنه جمع بين فضيلتين بين الضيافة وتفطير الصائم، وكم ورد في فضل دخول المضيف إلى منزل الإنسان من خير، ورد في الحديث «**إذا دخل الضيف بيت المؤمن دخل معه ألف بركة وألف**

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٩١/٣، رقم ١٨٨٧). وأخرجه أيضا: البيهقي في شعب الإيمان (٣٠٥/٣، رقم ٣٦٠٨)، والحارث كما في بغية الباحث (٤١٢/١، رقم ٣٢١)، وابن عدي (٢٩٣/٥، ترجمة ١٤٣٢ عبد العزيز بن عبد الله) وقال: عامة ما يرويه لا يتابعه عليه الثقات.

رحمة ويكتب لصاحب المنزل بكل لقمة يأكلها الضيف حجة وعمره».

وورد أيضا «**لا تكرهوا الضيف فإنه إذا نزل نزل برزقه، وإذا ارتحل ارتحل بذنوب أهل الدار**».

ومن قضى شهوة جائع صائما كان أو غيره، فقد فاز بالثواب الجزيل، وكان في القيامة في ظل ظليل بجوار الملك الجليل بين خل وخليل، فقد ورد: من لذذ أخاه بما يشتهي كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وأطعمه من ثلاث جنات جنة عدن وجنة الفردوس وجنة الخلد.

لطيفه

نقل عن أبي محمد الحريرى أنه قال: كنت جالسا في رباطي فدخل على رجل مصفر الوجه، ومتغير اللون، نحيل نحيف عليه أثر الخشوع، فجلس في جانب الرباط، فجئت إليه ودعوته إلى وليمة. قال: لا أذهب إلى وليمة، ولا غيرها ولكن اشتهي عليك عصيدة، فتركته وقلت: واحد من هؤلاء همه بطنه. ثم ذهبت إلى الوليمة ورجعت إلى الرباط ونمت، فرأيت رسول الله ﷺ ومعه الأنبياء فجئت وسلمت عليه: فولى وجهه الشريف، فقلت يا حبيبى يا رسول الله ما الذي أذنبت حتى تعرض عني؟ فقال: فقير من أمتي اشتهى عليك عصيدة فتهاونت فيه. فاستيقظت مرعوبا، فقصدت الفقير حتى أقضي شهوته، فلما رآني قام وخرج من باب الرباط، فقلت له: بالله عليك أجلس حتى أقضي شهوتك. فقال: ما تقضى شهوتي إلا بشفاعة رسول الله ﷺ ومعه الأنبياء هيهات لا حاجة لي بها فتركني ومضى.

لطيفة أخرى في بركة الضيف ونفعه

قال في الروض الفائق: قال يحى بن الجلاء سمعت أبي يقول: كنت عند معروف الكرخي ﷺ فدخل عليه رجل فقال: يا أبا محفوظ رأيت في هذه الليلة عجبا. قال: وما رأيت؟ قال: اشتهى أهلي علي سمكه، فذهبت إلى السوق فاشتريتها لهم، وحملتها مع حمال صبي ومشى معي، فلما سمع أذان الظهر قال لي: يا عم هل لك أن تصلي؟ فكأن أيقظني من غفلة، فقلت له: نعم نصلى. فوضع الطبق الذى فيه السمكة على باب المسجد، ودخل فقلت في نفسي: هذا الغلام قد جاد بالطبق، فلا أجود أنا بالسمكة، فلم يزل يركع حتى أقيمت الصلاة، فصلينا جماعة، وتركع بعد الصلاة، ثم خرجنا، وإذا بالطبق في مكانه لم يبرح، فجئت إلى البيت وأخبرت أهلي بالذي جرى منه، فقالوا لي: قل له يأكل معنا هذه السمكة؟ فقلنا له، فقال: إني صائم؟ فقلت له:

تفطر الليلة عندنا. فقال: نعم أرني طريق المسجد، فأريته فدخل المسجد، وجلس إلى أن صلينا المغرب، فجئت إليه وقلت له تقوم إلى المترل فقال: لا حتى نصلى عشاء الآخرة، فقلت في نفسى: هذه ثانية، فلما صلينا جئت إلى منـــزلي وفيه ثلاث أبيات بيت فيه أنا وأهلى، وبيت فيه امرأة مقعدة عشرين سنة، وبيت معدود للضيفان، فأدخلته إليه، فبينا أنا مع أهلي بالليل، وإذا الباب يطرق في آخر الليل، قلت: من؟ قالت: أنا فلانه. قلت: فلانة المقعدة، وهى قطعة مطروحة في البيت كيف تقدر أن تمشي؟ فقالت: أنا هى افتحوا لي، ففتحنا لها، فإذا هى قائمة مستوية، فقلنا لها: أخبرينا بخبرك. فقالت: سمعتكم تذكرون ضيفنا هذا بخير، فوقع في نفسى أن أتوسل إلى الله تعالى به في كشف ضري فقلت: اللهم بحرمة ضيفنا هذا عندك إلا ما كشفت ضري وعافيتني، فاستويت قائمة كما ترون، فقمت إليه فلم أجده في البيت، فجئت إلى الباب فوجدته مغلقا بحاله.

فقال معروف: فيهم كبار وصغار، أي في أولياء الله نفعنا الله بهم.

ولله در القائل:

قـــوم إذا نـــزلوا بـــواد مجدب ... قفـــر تـــأرج بالعـــبير والعشـــبا
وإذا بـــدأ البحر الأجاج لشارب ... مـــنهم يعـــود إلى المداومة أعذبا
عـــلم المحـــب في هواهم مذهبا ... فـــلذلك أصـــبح حبهم لي مذهبا
وجـــدوا فـــؤادي مترلا لهواهم ... فـــلذلك خـــيم في حشائى وطبنا
قـــوم لهـــم نـــبأ وحال يقتضي ... شـــرف الجلال إذا سألت عن النبا
قوم لهم نبأ وحال السقيم سقامة ... لمـــا غـــدا بجـــناهم محتســـبا
يجـــرون بالعفو الجميل مسيئهم ... والعفـــو عـــنه عـــبد لهم قد أذنبا
هـــم أوليـــاء الله حقا في الورى ... ويقـــال لهـــم غدا جهارا مرحبا

***

المجلس الرابع والستون

في ذكر كفارة المجامع عامدا في رمضان، وذكر كم خلق الله تعالى لكل شخص من بني آدم سنا، وذكر شيء من فضائل النبي ﷺ وذكر فوائد متعلقة بمن مات وعليه صوم

قَالَ البُخَارِي:

باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر

حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ. قَالَ «**مَا لَكَ**». قَالَ وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا**». قَالَ لاَ. قَالَ «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**». قَالَ لاَ. فَقَالَ «**فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا**». قَالَ لاَ. قَالَ فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ - وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ - قَالَ «**أَيْنَ السَّائِلُ**». فَقَالَ أَنَا. قَالَ «**خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ**». فَقَالَ الرَّجُلُ أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا - يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ - أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ «**أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ**»(١).

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها:

قوله: «عند النبي ﷺ» فيه حسن الأدب في التعبير لما تشعر العندية بالتعظيم، بخلاف ما لو قال مع، لكن في رواية الكشميهني «مع النبي ﷺ».

قوله: «إذ جاءه رجل» لم أقف على تسميته، إلا أن عبد الغني في المبهمات - وتبعه ابن بشكوال - جزما بأنه سليمان أو سلمة بن صخر البياضي، واستند إلى ما أخرجه ابن أبي شيبة وغيره من طريق سليمان ابن يسار عن سلمة بن صخر أنه ظاهر من امرأته في رمضان وأنه وطئها فقال له النبي ﷺ: حرر رقبة، قلت: ما أملك رقبة غيرها وضرب صفحة رقبته. قال: فصم شهرين متتابعين. قال: وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام؟ قال: فأطعم ستين مسكينا. قال: والذي بعثك بالحق ما لنا طعام. قال: فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك، والظاهر أنهما واقعتان، فإن في قصة المجامع في حديث الباب أنه كان صائما، وفي قصة سلمة بن صخر أن ذلك كان ليلا فافترقا، ولا يلزم من اجتماعهما - في كونهما من بني بياضة وفي صفة الكفارة وكونها مرتبة وفي كون كل منهما كان لا يقدر على شيء من خصالها - اتحاد القصتين، وذكر ابن عبد البر عن سعيد بن المسيب: أن الرجل الذي وقع على امرأته في رمضان في عهد =

= النبي ﷺ هو سليمان بن صخر. قال ابن عبد البر: أظن هذا وهما، لأن المحفوظ أنه ظاهر من امرأته ووقع عليها في الليل لا أن ذلك كان منه بالنهار. ويحتمل أن يكون قوله في الرواية المذكورة «وقع على امرأته في رمضان» أي ليلا بعد أن ظاهر فلا يكون وهما ولا يلزم الاتحاد.

قوله: «فقال يا رسول الله» زاد عبد الجبار بن عمر عن الزهري «جاء رجل وهو ينتف شعره ويدق صدره ويقول هلك الأبعد» ولمحمد بن أبي حفصة «يلطم وجهه» ولحجاج بن أرطاة «يدعو ويله» وفي مرسل ابن المسيب عند الدارقطني «ويحثي على رأسه التراب» واستدل بهذا على جواز هذا الفعل والقول ممن وقعت له معصية، ويفرق بذلك بين مصيبة الدين والدنيا فيجوز في مصيبة الدين لما يشعر به الحال من شدة الندم وصحة الإقلاع، ويحتمل أن تكون هذه الواقعة قبل النهي عن لطم الخدود وحلق الشعر عند المصيبة.

قوله: «هلكت» في حديث عائشة كما تقدم «احترقت» وفي رواية ابن أبي حفصة «ما أراني إلا قد هلكت» واستدل به على أنه كان عامدا لأن الهلاك والاحتراق مجاز عن العصيان المؤدي إلى ذلك، فكأنه جعل المتوقع كالواقع، وبالغ فعبر عنه بلفظ الماضي، وإذا تقرر ذلك فليس فيه حجة على وجوب الكفارة على الناسي، وهو مشهور قول مالك والجمهور، وعن أحمد وبعض المالكية يجب على الناسي، وتمسكوا بترك استفساره عن جماعة هل كان عن عمد أو نسيان، وترك الاستفصال في الفعل ينـــزل منـــزلة العموم في القول كما اشتهر، والجواب أنه قد تبين حاله بقوله هلكت واحترقت فدل على أنه كان عامدا عارفا بالتحريم، وأيضا فدخول النسيان في الجماع في نهار رمضان في غاية البعد، واستدل بهذا على أن من ارتكب معصية لا حد فيها وجاء مستفتيا أنه لا يعزر، لأن النبي ﷺ لم يعاقبه اعترافه بالمعصية، وقد ترجم لذلك البخاري في الحدود وأشار إلى هذه القصة، وتوجهه أن مجيئه مستفتيا يقتضي الندم والتوبة، والتعزير إنما جعل للاستصلاح ولا استصلاح من الصلاح، وأيضا فلو عوقب المستفتي لكان سبباً لترك الاستفتاء وهي مفسدة فاقتضى ذلك أن لا يعاقب، هكذا قرره الشيخ تقي الدين، لكن وقع في شرح السنة للبغوي أن من جامع متعمداً في رمضان فسد صومه وعليه القضاء والكفارة ويعزر على سوء صنيعه، وهو محمول على من لم يقع منه ما وقع من صاحب هذه القصة من الندم والتوبة، وبناه بعض المالكية على الخلاف في تعزير شاهد الزور.

قوله: «قال مالك» بفتح اللام استفهام عن حاله. وفي رواية عقيل «ويحك ما شأنك» ولابن أبي حفصة «وما الذي أهلكك» ولعمرو «ما ذاك» وفي رواية الأوزاعي «ويحك ما صنعت» أخرجه المصنف في الأدب وترجم باب ما جاء في قول الرجل ويلك ويحك. ثم قال عقبه «تابعه يونس عن الزهري» يعني في قوله «ويحك» وقال عبد الرحمن بن خالد عن الزهري «ويلك»، وقد تابع ابن خالد في قوله «ويلك» صالح بن أبي الأخضر، وتابع الأوزاعي في قوله «ويحك» عقيل وابن إسحاق وحجاج بن أرطاة فهو أرجح وهو اللائق بالمقام، فإن ويح كلمة رحمة وويل كلمة عذاب والمقام يقتضي الأول. =

= قوله: «وقعت على امرأتي» وفي رواية «أصبت أهلي» وفي حديث عائشة «وطئت امرأتي».
قوله: «وأنا صائم» جملة حالية من قوله «وقعت» فيؤخذ منه أنه لا يشترط في إطلاق اسم المشتق بقاء المعنى المشتق منه حقيقة لاستحالة كونه صائماً مجامعاً في حالة واحدة، فعلى هذا قوله «وطئت» أي شرعت في الوطء أو أراد جامعت بعد إذ أنا صائم.
قوله: «هل تجد رقبة تعتقها» وفي رواية «أتجد ما تحرر رقبة»، وفي رواية «أتستطيع أن تعتق رقبة» واستدل بإطلاق الرقبة على جواز إخراج الرقبة الكافرة كقول الحنفية.
قوله: «قال لا» وفي رواية «فقال لا والله يا رسول الله».
قوله: «قال فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا» وفي رواية «قال فصم شهرين متتابعين» ،في حديث سعد «قال لا أقدر» وفي رواية «وهل لقيت ما لقيت إلا من الصيام»، وهذه اقتضت أن عدم استطاعته لشدة شبقه وعدم صبره عن الوقاع، فنشأ للشافعية نظر: هل يكون ذلك عذرا - أي شدة الشبق - حتى يعد صاحبه غير مستطيع للصوم أو لا؟ والصحيح عندهم اعتبار ذلك، ويلتحق به من يجد رقبة لا غنى به عنها فإنه يسوغ له الانتقال إلى الصوم مع وجودها لكونه في حكم غير الواجد.
قوله: «فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال لا» وفي رواية «أفتستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟ قال لا» وذكر الحاجة. قال ابن دقيق العيد: أضاف الإطعام الذي هو مصدر أطعم إلى ستين فلا يكون ذلك موجوداً في حق من أطعم ستة مساكين عشرة أيام مثلاً، ومن أجاز ذلك فكأنه استنبط من النص معنى يعود عليه بالإبطال، والمشهور عن الحنفية الإجزاء حتى لو أطعم الجميع مسكينا واحداً في ستين يوما كفى، والمراد بالإطعام الإعطاء لا اشتراط حقيقة الإطعام من وضع المطعوم في الفم بل يكفي الوضع بين يديه بلا خلاف، وفي إطلاق الإطعام ما يدل على الاكتفاء بوجود الإطعام من غير اشتراط مناولة، بخلاف زكاة الفرض فإن فيها النص على الإيتاء وصدقة الفطر فإن فيها النص على الأداء، وفي ذكر الإطعام ما يدل على وجود طاعمين فيخرج الطفل الذي لم يطعم كقول الحنفية، ونظر الشافعي إلى النوع فقال: يسلم لوليه، وذكر الستين ليفهم أنه لا يجب ما زاد عليها، ومن لم يقل بالمفهوم تمسك بالإجماع على ذلك. وذكر في حكمة هذه الخصال من المناسبة أن من انتهك حرمة الصوم بالجماع فقد أهلك نفسه بالمعصية فناسب أن يعتق رقبة فيفدي نفسه، وقد صح أن من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار. وأما الصيام فمناسبته ظاهره لأنه كالمقاصة بجنس الجناية، وأما كونه شهرين فلأنه لما أمر بمصابرة النفس في حفظ كل يوم من شهر رمضان على الولاء فلما أفسد منه يوما كان كمن أفسد الشهر كله من حيث أنه عبادة واحدة بالنوع فكلف بشهرين مضاعفة على سبيل المقابلة لنقيض قصده. وأما الإطعام فمناسبته ظاهرة لأنه مقابلة كل يوم بإطعام مسكين. ثم إن هذه الخصال جامعة لاشتمالها على حق الله وهو الصوم، وحق الأحرار بالإطعام، وحق الأرقاء بالإعتاق، وحق الجاني بثواب الامتثال. وفيه دليل على إيجاب الكفارة بالجماع خلافا لمن شذ فقال لا تجب مستندا إلى أنه لو كان =

= واجباً لما سقط بالإعسار، وتعقب بمنع الإسقاط، واختلفوا أيضا هل يلحق الوطء في الدبر بالوطء في القبل، وهل يشترط في إيجاب الكفارة كل وطء في أي فرج كان؟ وفيه دليل على جريان الخصال الثلاث المذكورة في الكفارة. ووقع في المدونة ولا يعرف مالك غير الإطعام ولا يأخذ بعتق ولا صيام. قال ابن دقيق العيد: وهي معضلة لا يهتدي إلى توجيهها مع مصادمة الحديث الثابت، غير أن بعض المحققين من أصحابه حمل هذا اللفظ وتأوله على الاستحباب في تقديم الطعام على غيره من الخصال، ووجهوا ترجيح الطعام على غيره بأن الله ذكره في القرآن رخصة للقادر ثم نسخ هذا الحكم، ولا يلزم منه نسخ الفضيلة فيترجح الإطعام أيضا لاختيار الله له في حق المفطر بالعذر، وكذا أخبر بأنه في حق من أخر قضاء رمضان حتى دخل رمضان آخر، ولمناسبة إيجاب الإطعام لجبر فوات الصيام الذي هو إمساك عن الطعام، ولشمول نفعه للمساكين، وكل هذه الوجوه لا تقاوم ما ورد في الحديث من تقديم العتق على الصيام ثم الإطعام سواء قلنا الكفارة على الترتيب أو التخيير فإن هذه البداءة إن لم تقتض وجوب الترتيب فلا أقل من أن تقتضي استحبابه. واحتجوا أيضا بأن حديث عائشة لم يقع فيه سوى الإطعام، وقد تقدم الجواب عن ذلك قبل، وأنه ورد فيه من وجه آخر ذكر العتق أيضاً. ومن المالكية من وافق على هذا الاستحباب، ومنهم من قال إن الكفارة تختلف باختلاف الأوقات: ففي وقت الشدة يكون بالإطعام وفي غيرها يكون بالعتق أو الصوم ونقلوه عن محققي المتأخرين، ومنهم من قال: الإفطار بالجماع يكفر بالخصال الثلاث، وبغيره لا يكفر إلا بالإطعام وهو قول أبي مصعب. وقال ابن جرير الطبري: هو مخير بين العتق والصوم ولا يطعم إلا عند العجز عنهما، وفي الحديث أنه لا مدخل لغير هذه الخصال الثلاث في الكفارة. وجاء عن بعض المتقدمين إهداء البدنة عند تعذر الرقبة، وربما أيده بعضهم بإلحاق إفساد الصيام بإفساد الحج، وورد ذكر البدنة في مرسل سعيد بن المسيب عند مالك في الموطأ عن عطاء الخراساني عنه، وهو مع إرساله قد رده سعيد بن المسيب وكذب من نقله عنه كما روي سعيد بن منصور عن ابن علية عن خالد الحذاء عن القاسم ابن عاصم قلت لسعيد بن المسيب ما حدث حدثناه عطاء ا الخراساني عنك في الذي وقع على امرأته في رمضان أنه يعتق رقبة أو يهدي بدنة؟ فقال: كذب فذكر الحديث، وهكذا رواه الليث عن عمرو ابن الحارث عن أيوب عن القاسم بن عاصم، وتابعه همام عن قتادة عن سعيد، وذكر ابن عبد البر أن عطاء لم ينفرد بذلك فقد ورد من طريق مجاهد عن أبي هريرة موصولا، ثم ساقه بإسناده لكنه من رواية ليث بن أبي سليم عن مجاهد، وليث ضعيف وقد اضطرب في روايته سنداً ومتناً فلا حجة فيه.

وفي الحديث أيضا أن الكفارة بالخصال الثلاث على الترتيب المذكور. قال ابن العربي: لأن النبي ﷺ نقله من أمر بعد عدمه لأمر آخر وليس هذا شأن التخيير، ونازع عياض في ظهور دلالة الترتيب في السؤال عن ذلك فقال: إن مثل هذا السؤال قد يستعمل فيما هو على التخيير، وقرره ابن المنير في الحاشية بأن شخصاً لو حنث فاستفتى فقال له المفتي: أعتق رقبة فقال لا أجد، =

= فقال صم ثلاثة أيام الخ، لم يكن مخالفا لحقيقة التخيير، بل يحمل على أن إرشاده إلى العتق لكونه أقرب لتنجيز الكفارة. وقال البيضاوي: ترتيب الثاني بالفاء على فقد الأول ثم الثالث بالفاء على فقد الثاني يدل على عدم التخيير مع كونها في معرض البيان وجواب السؤال فيترل مترلة الشرط للحكم، وسلك الجمهور في ذلك مسلك الترجيح بأن الذين رووا الترتيب عن الزهري أكثر ممن روى التخيير، وتعقبه ابن التين بأن الذين رووا الترتيب ابن عيينة ومعمر والأوزاعي، والذين رووا التخيير مالك وابن جريج وفليح بن سليمان وعمرو بن عثمان المخزومي، وهو كما قال في الثاني دون الأول، فالذين رووا الترتيب في البخاري الذي نحن في شرحه أيضا إبراهيم بن سعد والليث بن سعد وشعيب بن أبي حمزة ومنصور، ورواية هذين في هذا الباب الذي نشرحه وفي الذي يليه، فكيف غفل ابن التين عن ذلك وهو ينظر فيه؟ بل روى الترتيب عن الزهري كذلك تمام ثلاثين نفساً أو أزيد، ورجح الترتيب أيضاً بأن راويه حكى لفظ القصة على وجهها فمعه زيادة علم من صورة الواقعة، وراوي التخيير حكى لفظ راوي الحديث فدل على أنه من تصرف بعض الرواة إما لقصد الاختصار أو لغير ذلك. ويترجح الترتيب أيضا بأنه أحوط لأن الأخذ به مجزئ سواء قلنا بالتخيير أو لا بخلاف العكس وجمع بعضهم بين الروايتين كالمهلب والقرطبي بالحمل على التعدد وهو بعيد لأن القصة واحدة والمخرج متحد والأصل عدم التعدد، وبعضهم حمل الترتيب على الأولوية والتخيير على الجواز، وعكسه بعضهم فقال أو في الرواية الأخرى ليست للتخيير وإنما هي للتفسير والتقدير، أمر رجلا أن يعتق رقبة أو يصوم إن عجز عن العتق أو يطعم إن عجز عنهما. وذكر الطحاوي أن سبب إتيان بعض الرواة بالتخيير أن الزهري راوي الحديث قال في آخر حديثه فصارت الكفارة إلى عتق رقبة أو صيام شهرين أو الإطعام. قال فرواه بعضهم مختصراً مقتصراً على ما ذكر الزهري أنه آل إليه الأمر، قال وقد قص عبد الرحمن بن خالد ابن مسافر عن الزهري القصة على وجهها ثم ساقه من طريقه مثل حديث الباب إلى قوله أطعمه أهلك قال فصارت الكفارة إلى عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً. قلت: وكذلك رواه الدارقطني في العلل من طريق صالح بن أبي الأخضر عن الزهري وقال في آخره فصارت سنة عتق رقبة أو صيام شهرين أو إطعام ستين مسكيناً.

قوله: «خذ هذا فتصدق به» استدل بذلك على أن الكفارة عليه وحده دون الموطوءة، وكذا قوله في المراجعة هل تستطيع و هل تجد وغير ذلك، وهو الأصح من قولي الشافعية وبه قال الأوزاعي. وقال الجمهور وأبو ثور وابن المنذر تجب الكفارة على المرأة أيضا على اختلاف وتفاصيل لهم في الحرة والأمة والمطاوعة والمكرهة وهل هي عليها أو على الرجل عنها، واستدل الشافعية بسكوته عليه الصلاة والسلام عن إعلام المرأة بوجوب الكفارة مع الحاجة، وأجيب بمنع وجود الحاجة إذ ذاك لأنها لم تعترف و لم تسأل واعتراف الزوج عليها لا يوجب عليها حكماً ما لم تعترف، وبأنها قضية حال فالسكوت عنها لا يدل على الحكم لاحتمال أن تكون المرأة لم تكن صائمة لعذر من الأعذار. ثم إن بيان الحكم للرجل بيان في حقها لاشتراكهما في تحريم الفطر =

= وانتهاك حرمة الصوم كما لم يأمره بالغسل. والتنصيص على الحكم في حق بعض المكلفين كاف عن ذكره في حق الباقين، ويحتمل أن يكون سبب السكوت عن حكم المرأة ما عرفه من كلام زوجها بأنها لا قدرة لها على شيء. وقال القرطبي اختلفوا في الكفارة هل هي على الرجل وحده على نفسه فقط أو عليه وعليها أو عليه كفارتان عنه وعنها أو عليه عن نفسه وعليها عنها، وليس في الحديث ما يدل على شيء من ذلك لأنه ساكت عن المرأة فيؤخذ حكمها من دليل آخر مع احتمال أن يكون سبب السكوت أنها كانت غير صائمة، واستدل بعضهم بقوله في بعض طرق هذا الحديث هلكت وأهلكت وهي زيادة فيها مقال، فقال ابن الجوزي: في قوله وأهلكت تنبيه على أنه أكرهها ولولا ذلك لم يكن مهلكا لها، قلت: ولا يلزم من ذلك تعدد الكفارة بل لا يلزم من قوله وأهلكت إيجاب الكفارة عليها، بل يحتمل أن يريد بقوله هلكت أثمت وأهلكت أي: كنت سبباً في تأثيم من طاوعتني فواقعها إذ لا ريب في حصول الإثم على المطاوعة ولا يلزم من ذلك إثبات الكفارة ولا نفيها، أو المعنى هلكت أي حيث وقعت في شيء لا أقدر على كفارته، وأهلكت أي: نفسي بفعلي الذي جر على الإثم، وهذا كله بعد ثبوت الزيادة المذكورة، وقد ذكر البيهقي أن للحاكم في بطلانها ثلاثة أجزاء، ومحصل القول فها أنها وردت من طريق الأوزاعي ومن طريق ابن عيينة، أما الأوزاعي فتفرد بها محمد بن المسيب عن عبد السلام بن عبد الحميد عن عمر بن عبد الواحد والوليد بن مسلم وعن محمد بن عقبة عن علقمة عن أبيه ثلاثتهم عن الأوزاعي قال البيهقي رواه جميع أصحاب الأوزاعي بدونها وكذلك جميع الرواة عن الوليد وعقبة وعمر، ومحمد ابن المسيب كان ان حافظاً مكثراً إلا أنه كان في آخر أمره عمي فلعل هذه اللفظة أدخلت عليه، وقد رواه أبو على النيسابوري عنه بدونها، ويدل على بطلانها ما رواه العباس بن الوليد عن أبيه قال: سئل الأوزاعي عن رجل جامع امرأته في رمضان قال: عليهما كفارة واحدة إلا الصيام، قيل له فإن استكرهها؟ قال عليه الصيام وحده. وأما ابن عيينة فتفرد بها أبو ثور عن معلى بن منصور عنه، قال الخطابي: المعلى ليس بذاك الحافظ. وتعقبه ابن الجوزي بأنه لا يعرف أحد طعن في المعلى، وغفل عن قول الإمام أحمد إنه كان يخطئ كل يوم في حديثين أو ثلاثة، فلعله حدث من حفظه بهذا فوهم، وقد قال الحاكم: وقفت على كتاب الصيام للمعلى بخط موثوق به وليست هذه اللفظة فيه، وزعم ابن الجوزي أن الدار قطني أخرجه من طريق عقيل أيضاً، وهو غلط منه فإن الدار قطني لم يخرج طريق عقيل في السنن وقد ساقه في العلل بالإسناد الذي ذكره عنه ابن الجوزي بدونها. (تنبيه): القائل بوجوب كفارة واحدة على الزوج عنه وعن موطوءته يقول يعتبر حالهما فإن كانا من أهل العتق أجزأت رقبة، وإن كانا من أهل الإطعام أطعم ما سبق، وإن كانا من أهل الصيام صاما جميعاً، فإن اختلف حالهما ففيه تفريع محله كتب الفروع.

قوله: «فقال الرجل على أفقر مني» أي أتصدق به على شخص أفقر مني؟ وهذا يشعر بأنه فهم الإذن له في التصدق على من يتصف بالفقر، وقد بين ابن عمر في حديثه ذلك فزاد فيه إلى من أدفعه؟ قال إلى أفقر من تعلم أخرجه البزار والطبراني في الأوسط وفي رواية إبراهيم بن سعد =

= أعلى أفقر من أهلي؟ ولابن مسافر أعلى أهل بيت أفقر مني؟ وللأوزاعي أعلى غير أهلي؟ ولمنصور أعلى أحوج منا ولابن إسحاق وهل الصدقة إلا لي وعلى؟

قوله: «فوالله ما بين لابتيها» تثنية لابة وقد تقدم شرحها في أواخر كتاب الحج والضمير للمدينة، وقوله يريد الحرتين من كلام بعض رواته، زاد في رواية ابن عيينة ومعمر والذي بعثك بالحق ووقع في حديث ابن عمر المذكور ما بين حرتيها وفي رواية الأوزاعي الآتية في الأدب والذي نفسي بيده ما بين طنبي المدينة تثنية طنب - وهو بضم الطاء المهملة بعدها نون - والطنب أحد أطناب الخيمة فاستعاره للطرف.

قوله: «أهل بيت أفقر من أهل بيتي» زاد يونس مني ومن أهل بيتي وفي رواية إبراهيم بن سعد أفقر منا وأفقر بالنصب على أنها خبر ما النافية، ويجوز الرفع على لغة تميم. وفي رواية عقيل ما أحد أحق به من أهلي، ما أحد أحوج إليه مني وفي أحق وأحوج ما في أفقر. وفي مرسل سعيد من رواية داود عنه والله ما لعيالي من طعام وفي حديث عائشة عند ابن خزيمة ما لنا عشاء ليلة.

قوله: «فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه» في رواية ابن إسحاق «حتى بدت نواجذه» ولأبي قرة في السنن عن ابن جريج«حتى بدت ثناياه»ولعلها تصحيف من أنيابه فإن الثنايا تبين بالتبسم غالباً وظاهر السياق إرادة الزيادة على التبسم، ويحمل ما ورد في صفته ﷺ أن ضحكه كان تبسماً على غالب أحواله، وقيل كان لا يضحك إلا في أمر يتعلق بالآخرة فإن كان في أمر الدنيا لم يزد على التبسم، قيل وهذه القضية تعكر عليه وليس كذلك فقد قيل إن سبب ضحكه ﷺ كان من تباين حال الرجل حيث جاء خائفاً على نفسه راغباً في فدائها مهما أمكنه، فلما وجد الرخصة طمع في أن يأكل ما أعطيه من الكفارة، وقيل ضحك من حال الرجل في مقاطع كلامه وحسن تأتيه وتلطفه في الخطاب وحسن توسله في توصله إلى مقصوده.

قوله: «ثم قال أطعمه أهلك» تابعه معمر وابن أبي حفصة. وفي رواية لابن عيينة في الكفارات أطعمه عيالك ولإبراهيم بن سعد فأنتم إذا وقدم على ذلك ذكر الضحك، ولأبي قرة عن ابن جريج ثم قال كله ونحوه ليحيى بن سعيد وعراك، وجمع بينهما ابن إسحاق ولفظه خذها وكلها وأنفقها على عيالك ونحوه في رواية عبد الجبار وحجاج وهشام بن سعد كلهم عن الزهري، ولابن خزيمة في حديث عائشة عد به عليك وعلى أهلك وقال ابن دقيق العيد: تباينت في هذه القصة المذاهب فقيل إنه دل على سقوط الكفارة بالإعسار المقارن لوجوبها لأن الكفارة لا تصرف إلى النفس ولا إلى العيال، و لم يبين النبي ﷺ استقرارها في ذمته إلى حين يساره، وهو أحد قولي الشافعية وجزم به عيسى ابن دينار من المالكية. وقال الأوزاعي: يستغفر الله ولا يعود. ويتأيد ذلك بصدقة الفطر حيث تسقط بالإعسار المقارن لسبب وجوبها وهو هلال الفطر، لكن الفرق بينهما أن صدقة الفطر لها أمد تنتهي إليه، وكفارة الجماع لا أمد لها فتستقر في الذمة، وليس في الخبر ما يدل على إسقاطها بل فيه ما يدل على استمرارها على العاجز. وقال الجمهور: لا تسقط الكفارة بالإعسار، والذي أذن له في التصرف فيه ليس على سبيل الكفارة. ثم اختلفوا فقال الزهري: هو خاص =

= بهذا الرجل، وإلى هذا نحا إمام الحرمين، ورد بأن الأصل عدم الخصوصية. وقال بعضهم: هو منسوخ، ولم يبين قائله ناسخه، وقيل: المراد بالأهل الذين أمر بصرفها إليهم من لا تلزمه نفقته من أقاربه، وهو قول بعض الشافعية، وضعف بالرواية الأخرى التي فيها عيالك، وبالرواية المصرحة بالإذن له في الأكل من ذلك، وقيل لما كان عاجزا عن نفقة أهله جاز له أن يصرف الكفارة لهم، وهذا هو ظاهر الحديث، وهو الذي حمل أصحاب الأقوال الماضية على ما قالوه بأن المرء لا يأكل من كفارة نفسه. قال الشيخ تقي الدين: وأقوى من ذلك أن يجعل الإعطاء لا على جهة الكفارة بل على جهة التصدق عليه وعلى أهله بتلك الصدقة لما ظهر من حاجتهم، وأما الكفارة فلم تسقط بذلك، ولكن ليس استقرارها في ذمته مأخوذاً من هذا الحديث. وأما ما اعتلوا به من تأخير البيان فلا دلالة فيه، لأن العلم بالوجوب قد تقدم، ولم يرد في الحديث ما يدل على الإسقاط لأنه لما أخبره بعجزه ثم أمره بإخراج العرق دل على أن لا سقوط عن العاجز، ولعله أخر البيان إلى وقت الحاجة وهو القدرة (انتهى). وقد ورد ما يدل على إسقاط الكفارة أو على إجزائها عنه بإنفاقه إياها على عياله وهو قوله في حديث على وكله أنت وعيالك فقد كفر الله عنك ولكنه حديث ضعيف لا يحتج بما انفرد به، والحق أنه لما قال له ﷺ خذ هذا فتصدق به لم يقبضه بل اعتذر بأنه أحوج إليه من غيره فأذن له حينئذ في أكله، فلو كان قبضه لملكه ملكاً مشروطا بصفة وهو إخراجه عنه في كفارته فينبني على الخلاف المشهور في التمليك المقيد بشرط، لكنه لما لم يقبضه لم يملكه، فلما أذن له ﷺ في إطعامه لأهله وأكله منه كان تمليكاً مطلقاً بالنسبة إليه وإلى أهله وأخذهم إياه بصفة الفقر المشروحة، وقد تقدم أنه كان من مال الصدقة، وتصرف النبي ﷺ فيه تصرف الإمام في إخراج مال الصدقة، واحتمل إنه كان تمليكاً بالشرط الأول ومن ثم نشأ الإشكال، والأول أظهر فلا يكون فيه إسقاط ولا أكل المرء من كفارة نفسه ولا إنفاقه على من تلزمه نفقتهم من كفارة نفسه. وأما ترجمة البخاري الباب الذي يليه باب المجامع في رمضان هل يطعم أهله من الكفارة إذا كانوا محاويج فليس فيه تصريح بما تضمنه حكم الترجمة. وإنما أشار إلى الاحتمالين المذكورين بإتيانه بصيغة الاستفهام والله أعلم. واستدل به على جواز إعطاء الصدقة جميعها في صنف واحد، وفيه نظر لأنه لم يتعين أن ذلك القدر هو جميع ما يجب على ذلك الرجل الذي أحضر التمر، وعلى سقوط قضاء اليوم الذي أفسده المجامع اكتفاء بالكفارة، إذ لم يقع التصريح في الصحيحين بقضائه وهو محكي في مذهب الشافعي، وعن الأوزاعي يقضي إن كفر بغير الصوم وهو وجه للشافعية أيضاً، قال ابن العربي: إسقاط القضاء لا يشبه منصب الشافعي إذ لا كلام في القضاء لكونه أفسد العبادة وأما الكفارة فإنما هي لما اقترف من الإثم، قال: وأما كلام الأوزاعي فليس بشيء. قلت: وقد ورد الأمر بالقضاء في هذا الحديث في رواية أبي أويس وعبد الجبار وهشام بن سعد كلهم عن الزهري، وأخرجه البيهقي من طريق إبراهيم بن سعد عن الليث عن الزهري، وحديث إبراهيم بن سعد في الصحيح عن الزهري نفسه بغير هذه الزيادة، وحديث الليث عن الزهري في الصحيحين بدونها، ووقعت الزيادة أيضاً في مرسل سعيد بن المسيب ونافع بن جبير والحسن =

هنا فوائد:

الأولى: اختلف العلماء في هذا الرجل الذي وقع على أهله نهارا في رمضان في عهد النبي ﷺ

فقيل: هو سلمه بن صخر البياضي، ورد هذا بأن سلمه كان مظاهرا في رمضان لأنه وقع على أهله نهارا.

وقيل: هو سلمان بن صخر أحد بني بياضه.

وقيل: هو أعرابي.

الثانية: اختلف العلماء أيضا فيما يجب على الواطئ عامدا في رمضان:

فذهب جمهور العلماء إلى أن: الواجب عليه الكفارة والقضاء لذلك اليوم وهو قول مالك وأبي حنيفة وأصحابه والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم، واحتجوا على ذلك بالحديث الذي ساقه البخارى هنا حيث أعطى النبي ﷺ الرجل الذي وقع على أهله ما يكفر به عن نفسه، فدل على وجوبها.

وذهب قوم - كما قال الطحاوي - إلى: وجوب الصدقة، وقالوا: لا تجب عليه كفارة غير ذلك، فهو مردود لمخالفته للسنة الثابتة، وقول الجمهور.

= ومحمد بن كعب، وبمجموع هذه الطرق تعرف أن لهذه الزيادة أصلاً، ويؤخذ من قولهﷺ «صم يوما» عدم اشتراط الفورية للتنكير في قوله يوما.

وفي الحديث من الفوائد - غير ما تقدم -:

السؤال عن حكم ما يفعله المرء مخالفا للشرع، والتحدث بذلك لمصلحة معرفة الحكم، واستعمال الكناية فيما يستقبح ظهوره بصريح لفظه لقوله واقعت أو أصبت، على أنه قد ورد في بعض طرقه - كما تقدم - وطئت، والذي يظهر أنه من تصرف الرواة.

وفيه الرفق بالمتعلم والتلطف في التعليم والتألف على الدين، والندم على المعصية، واستشعار الخوف.

وفيه الجلوس في المسجد لغير الصلاة من المصالح الدينية كنشر العلم.

وفيه جواز الضحك عند وجود سببه، وإخبار الرجل بما يقع منه مع أهله للحاجة.

وفيه الحلف لتأكيد الكلام، وقبول قول المكلف مما لا يطلع عليه إلا من قبله لقوله في جواب قوله أفقر منا أطعمه أهلك ويحتمل أن يكون هناك قرينة لصدقه.

وفيه التعاون على العبادة والسعي في إخلاص المسلم وإعطاء الواحد فوق حاجته الراهنة، وإعطاء الكفارة أهل بيت واحد، وأن المضطر إلى ما بيده لا يجب عليه أن يعطيه أو بعضه لمضطر آخر. انظر فتح الباري (٤/ ١٦٣ - ١٧٤).

وذهب بعضهم إلى: وجوب الكفارة دون القضاء، وهو أيضا مردود.

وحجة من أوجب القضاء والكفارة أن الكفارة عقوبة للذنب الذي ارتكبه، والقضاء بدل عما أفسده.

وعليه عند الشافعي أيضا التعزير لانتهاكه حرمة الشهر.

وأما إذا أكل الإنسان أو شرب متعمدا في نهار رمضان، فهل يجب عليه القضاء والكفارة كالمجامع أم لا؟

فذهب مالك وأصحابه والثوري والأوزاعي وجماعة إلى: أنه تجب عليه الكفارة كما تجب على المجامع.

وذهب الشافعي وأحمد: إلى أنه يجب عليه القضاء ولا كفارة ولا فدية.

ونقل عن ابن عباس أنه قال: عتق رقبة أو صوم شهر أو إطعام ثلاثين مسكين.

ونقل عن ابن المسيب: أن عليه صوم اثني عشر يوما.

وبذلك قال: ربيعة، وعلله بأن شهر رمضان فضل على اثني عشر شهرا، فمن أفطر فيه يوما كان عليه ثني عشر يوما.

والمذهب المعتمد: أن الواجب عليه قضاء يوم بدله، ولا كفارة عليه، ولكن الأجر والفضيلة والثواب الذي كان لذلك اليوم الذي تركه فاته وحرمه، ولو صام الدهر كله بدله لم يحصله.

ذكر العلامة ابن الجوزى في سوق العروس: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أفطرت يوما واحدا في شهر رمضان متعمدا. فقال: اذهب فصمم سنة كاملة ليس فيها رمضان، فذهب الرجل فصام ثم أتاه في الحول الثاني، فسأله فقال: اذهب فصم سنة أخرى كاملة، فمضى الرجل، فصام بعض تلك السنة، فمات فيها فجاء بعض أهله فقالوا: يا رسول الله إن الرجل الذي أمرته بالصيام سنة وسنة وسنة قد مات، فبكى رسول الله ﷺ وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون مات ولم يدرك صيام ذلك اليوم الذي فاته من شهر رمضان، والذي بعثني بالحق نبيا لو عاش مائة سنة فصامها ما أدرك فضل ذلك اليوم.

الثالثة: إنما تجب الكفارة بالجماع بشروط:

الأول: الذكورة فلا تجب على المرأة، فمن وطئ حليلته في نهار رمضان وجب عليه الكفارة عنه، ولا تجب عليها مكرهة أو مطاوعة لكن عليها قضاء ذلك اليوم، ولا فرق في وجوب الكفارة عليه بين الواطئ بالحلال والحرام كإتيان البهيمة واللواط.

قال في الروض: واللواط وإتيان البهيمة حكم الجماع هنا هذا هو الراجح من مذهب الشافعي.

وقال أحمد بن حنبل، وذهب الإمام مالك والإمام أبوحنيفة إلى أن المطاوعة تجب عليها الكفارة مثلما تجب عليه.

وأما المكرهة فقال مالك: عليه كفارتان عليه وعليها.

وقال أبو حنيفة: عليه كفارة واحدة، ولا شيء عليها.

الثاني: البلوغ فلا كفارة على الصبي المراهق وغيره.

الثالث: التعمد فلا كفارة على من جامع ناسيا، لأن الناسي لا إثم عليه إجماعا والجاهل والمكره كالناسي.

فقد قال ﷺ «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» [(١)].

ويدل على هذا الشرط قوله في الحديث: «**هلكت**».

وفي رواية للبيهقي جاء رجل وهو ينتف شعره، ويدق صدره، ويقول: يا رسول الله هلك الأبعد وهلكت - وفي رواية احترق - فقال له رسول الله ﷺ ما لك؟ أي ما سبب هلاكك واحتراقك.

فقال: وقعت على أهلي. فدل ذلك أنه كان عامدا إذ لو كان ناسيا لم يقل ذلك، ولم ينتف شعره، ولم يدق صدره ؛ إذ لا إثم على الناسي كما تقدم.

فإن قيل: كيف قال هلكت بصيغة الماضى، وهلاكه غير واقع؟.

جوابه: أنه لما كان متوقع الحصول كان كالواقع، فعبر عنه بصيغة الماضي، كقوله تعالى ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللَّهِ** ﴾ [النحل: ١].

الرابع: إفساد الصوم فلا كفارة على مفسد الصلاة مطلقا، وأما مفسد الحج، فليس عليه هذه الكفارة بل كفارته غيرها.

الخامس: إفساد صوم رمضان فلا كفارة على مفسد النذر والقضاء والكفارة والنفل.

السادس: إفساده بالجماع فلا كفارة على مفسد صوم رمضان بالأكل،

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/٩٧، رقم ١٤٣٠)، وفي مسند الشاميين (٢/١٥٢، رقم ١٠٩٠).

قال الهيثمي (٦/٢٥٠): فيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو ضعيف.

والشرب، والاستمناء، والمباشرة المفضية إلى الإنزال.

السابع: الإثم فلا كفارة على المسافر والمريض، فإذا جامع المسافر أو المريض في نهار رمضان، فلا كفارة عليه لأنه لا إثم عليه لأن الفطر له مباح، وكذا لا كفارة على مجامع مع ظن بقاء الليل، فبان نهارا لأنه لا إثم عليه.

الثامن: أن يكون الإثم لأجل الصوم، فإذا زنا المسافر أو المريض بنية ترخيص الأفطار، فلا كفارة على كل واحد منهما لأن إثم كل واحد منهما لا لأجل الصوم بل لأجل الزنا، وإذا أفطر الإنسان بالجماع، ثم جامع ثانيا في ذلك اليوم، فلا كفارة للجماع الثاني.

قال ابن الملقن: وأجمعوا على أنه ليس على من وطئ مرارا في يوم واحد إلا كفارة واحدة، ولو جامع في اليوم الثاني وجبت كفارة أخرى، وهكذا يجب كل يوم كفارة بجماع يقع فيه هذا مذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل.

وعند أبي حنيفة: عليه كفارة واحدة إذا وطئ قبل أن يكفر.

ولو أفسد صومه بجماع، ثم أنشأ سفرا طويلا في يوم لم تسقط الكفارة، وكذا لو جامع ثم مرض.

نعم لو أفسد الصوم بالجماع ثم جن في ذلك اليوم أو مات سقطت عنه الكفارة.

الرابعة: الكفارة الواجبة بالجماع المذكور عتق رقبة مؤمنة إن وجدت، فإن لم توجد، فصيام شهرين متتابعين إن استطاع، فإن لم يستطع، فإطعام ستين مسكينا، فهي مرتبة فلابد من عتق الرقبة أولا إن قدر عليها، فلا يكفي الصيام مع القدرة عليه، وكذا الصيام مقدم على إطعام ستين مسكينا عند عجزه عن العتق، فلا يكفي الإطعام مع قدرته على الصوم، ويدل على هذا الترتيب قوله في هذا الحديث للذي وقع على أهله في رمضان «**هَلْ تَجدُ رَقَبَةً تُعْتقُهَا؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابعَيْنِ؟ قَالَ: لاَ. فَقَالَ: فَهَلْ تَجدُ إطْعَامَ ستِّينَ مسْكيناً؟ قَالَ: لاَ**».

فدل سؤاله ﷺ عن الرقبة أولا، ثم عن استطاعته الصوم، ثم عن إطعام ستين مسكينا على أنها كفارة مرتبة.

وبه قال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد بن حنبل وجهور العلماء.

وذهب الإمام مالك إلى أنها مخيرة وأن الإطعام أفضل.

والمتأخرون من أصحابه يراعون الأوقات فإن كان وقت مجاعة فالإطعام أولى، أو خصب فالعتق أولى.

واستدل على أنها مخيرة بما رواه أيضا أبو هريرة أن رجلا أفطر في رمضان فأمره النبي ﷺ أن يعتق أو يصوم أو يطعم.

ولفظة أو في كلام العرب تفيد التخيير.

وأجاب من قال أنها مرتبة عنها بوجوه منها:

قال الطحاوي: إنما أمره ﷺ بكل صنف من أصناف الكفارة الثلاثة لما لم يكن واجدا للصنف الذي ذكره له قبله على ما ثبت في حديث هذا الباب.

والفقير كالمسكين هنا، فإذا كفر بالإطعام عند عجزه عن العتق والصوم أطعم ستين مسكينا أو ستين فقيرا أو مسكينا ستين مدا لكل واحد من الطعام الذي يصرف منه للفطرة.

فإن عجز عنه لزمته الكفارة واستقرت في ذمته فإذا قدر على خصلة منها بعد ذلك فعلها، ولا يجوز للفقير إذا وجب عليه التكفير بالإطعام أن يصرف كفارته إلى عياله، كما لا يجوز صرف الزكاة إليهم.

سؤال فإن قيل فكيف قال النبي ﷺ للذي وقع على أهله فأطعمه أهلك، فإنه يدل على أن المكفر له أن يدفع كفارته إلى أهله.

وأجاب عنه الشافعي في الأم بأنه يحتمل أنه ﷺ أراد أن يملكه ليكفر، فلما علم حاجتهم جعل ما دفعه صدقة عليهم لا عن الكفارة.

ويحتمل أنه ملكه وأمره بالتصدق به عن الكفارة فلما أخبره بحاجته به أذن له في أكله، وإطعامه عياله ليبين أن النفقة إنما تجب بما فضل عن الكفاية.

ويحتمل أنه ﷺ تطوع بالتكفير عنه، وسوغ له صرفه إلى عياله، فيستفاد من الخبر حينئذ أنه يجوز التطوع بالكفارة عن الغير بإذنه، وأنه يجوز للمتطوع بالكفارة عن الغير أن يصرفها إلى عيال المكفر عنه.

الخامسة: قوله «**فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه**»: ظهرت، وجاء في حديث آخر «**حتى بدت نواجذه**».

والأنياب جمع ناب، ويجمع نيوب أيضا على غير قياس.

والنواجذ: بالذال المعجمة بلا خلاف، جمع ناجذة، وقد أفاد العلماء أن لكل إنسان اثنين وثلاثين سنا، ستة عشر عليا، وستة عشر سفلى، وأن هذه الأسنان تنقسم إلى ثنايا، ورباعيات، وأنياب، وأضراس.

والأضراس تنقسم إلى ضواحك، وطواحين، ونواجذ.

فالثنايا أربعة وهى الأسنان المتقدمات اثنان فوق واثنان أسفل.

والرباعيات: بفتح الراء وتخفيف الياء أربعة أيضا خلف الثنايا.

والأنياب أربعة أيضا خلف الرباعيات.

والأضراس: عشرون ضرسا:

منها الضواحك: وهى أربعة أيضا خلف الأنياب.

ومنها الطواجين: وهما ثني عشر طاحنا.

ومنها النواجذ: وهى أربعة أيضا وهى أواخر الأسنان منه أعلى ومنه أسفل، من اليمين ومن الشمال، ويسمى كل ناجذ منها ضرس الحلم لأنه بعد البلوغ وكمال العقل، وإذا علمت ما ذكرناه تبين لك عدد الأسنان وأسمائها ومحلها.

فالمراد بالنواجذ في قوله: «**فضحك حتى بدت نواجذه**»:

فقيل المراد بها: الأنياب.

وقيل: المراد بها الضواحك.

وقيل: المراد الأمران، وضعف القاضى عياض والمحققون هذا القول، وقالوا الصواب: أنها الأنياب بدليل قوله في الحديث «**حتى بدت أنيابه**» وبه قال جمهور جماهير اللغة وغيرهم.

والمراد أنه ﷺ كان أحيانا إذا أعجبه شيء وانبسط به يضحك أي يتبسم حتى تبدو أنيابه للحاضرين مبالغة في ضحكه وتبسمه.

السادسة: دل الحديث على استحباب التبسم دون الضحك.

قال النووي: كان معظم ضحك النبي ﷺ تبسما، وكان كثير التبسم عند حدوث أمر يعجبه، وعند الاجتماع بأصحابه.

قال القاضى عياض: وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب.

وقال عبد الله بن الحارث: ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ.

وأفاد شيخنا الحافظ العلامة الجلال السيوطى: أن من خصائصه ﷺ أنه كان إذا ابتسم في الليل أضاء البيت.

وقال جرير بن عبد الله: ما حجبني رسول الله صلى ﷺ منذ أسلمت، ولا رآنى إلا تبسم ﷺ.

وقد حث أصحابه وأمر أمته بالتبسم والبشاشة عند الاجتماع بالإخوان

والأصحاب، وجعله في جملة أنواع الصدقة، ومن المعروف.

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر ﷺ أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ «**لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» (١).

وقال رسول الله ﷺ «**كل معروف صدقه وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك**» (٢).

وقال رسول الله ﷺ «**تبسمك في وجه أخيك صدقة وأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ونظرك للرجل الرديء البصر لك صدقة وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة**» (٣).

وأما الضحك الكثير مع القهقهة فإنه مذموم، مذهب لنور الوجه، ومميت للقلب، وهو أحد أسباب قسوة القلب جاء في الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «**كثرة الضحك تميت القلب**» (٤).

وجاء أيضا في الحديث أن النبي ﷺ قال لأبي هريرة من يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن ويعلم من يعمل بهن قلت أنا يا رسول الله فأخذ بيدى وعد خمسا فقال «**اتق الله تكن أعبد الناس، وأرض بما قسم الله تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢٦/٤، رقم ٢٦٢٦). وأخرجه أيضا: الترمذي (٢٧٤/٤، رقم ١٨٣٣) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (٢٨٢/٢، رقم ٥٢٣)، وأحمد (١٧٣/٥، رقم ٢١٥٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٢/٣، رقم ٣٤٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٦/٤، رقم ٤٠٨٤)، والنسائي في الكبري (٤٨٦/٥، رقم ٩٦٩١)، والطيالسي (ص ١٦٧ رقم ١٢٠٨)، وأحمد (٦٣/٥، رقم ٢٠٦٥١)، والبغوي (٤٦٩/١ رقم ٣٠٧)، والطبراني (٦٣/٧، رقم ٦٣٨٤)، وابن حبان (٢٨١/٢، رقم ٥٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٢/٦، رقم٨٠٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٠٣/١، رقم ١١٨٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٩/٤، رقم ١٩٥٦) وقال: حسن غريب. والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣٠٧، رقم ٨٩١)، وابن حبان (٢٨٧/٢، رقم ٥٢٩)، والبزار (٤٥٧/٩، رقم ٤٠٧٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٣/٢، رقم ٤١٩٣)، قال البوصيري (٢٣٣/٤): هذا إسناد صحيح. والبخاري في الأدب المفرد (٩٨/١، رقم ٢٥٣).

ولفظ الحديث: «لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».

كثرة الضحك تميت القلب».

ومر رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلاه الضحك فقال «**شوبوا مجلسكم بمكدر اللذات. قالوا: وما مكدر اللذات؟ قال: الموت**».

وروينا في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين.

أي بكاء مع غنة وانتشاة الصوت من الأنف وهو بالخاء المعجمة.

وفي رواية بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال «**عرضت على الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا ولو تعلمون ما أعلم لسجد أحدكم حتى ينقطع صلبه ولصرخ حتى ينقطع صوته فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه غطوا رؤسهم لهم خنين**».

السابعة: قوله في الحديث «**وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ**».

يدل على أن التحريم ولزوم الكفارة إنما هو إذا فعل ذلك في نهار رمضان.

أما إذا جامع في ليال رمضان، فلا تحريم، ولا كفارة، بل هو مباح كما تقدم.

وهنا فائدة مناسبة وهي:

قال العلماء: يستحب للصائم إذا كان عليه غسل من جنابه أو حيض أو نفاس أو نحو ذلك أن يغتسل ليلا قبل الفجر ليكون على طهارة من أول الصوم، وللخروج من خلاف من قال بوجوب الغسل قبل الفجر، وهو أبو هريرة ﷺ فإن مذهبه أن صوم من عليه جنابه ونحوها غير صحيح.

والذي قاله الجمهور وهو المذهب المفتى به عند الأئمة أن صومه صحيح، فإذا لم يغتسل الجنب ليلا حتى أصبح واغتسل نهارا فلا إثم عليه، وصومه صحيح، بل لو صام رمضان كله وغيره مع الجنابة صح صومه، ولكن عليه إثم ترك الصلاة.

وأيضا إنما يستحب الغسل ليلا لأنه يخشى على من اغتسل نهارا أن يصل الماء إلى باطن أذن أو دبره أو غير ذلك فيفطر به.

قال المحاملي والجرجاني: ويكره للصائم دخول الحمام من غير حاجة.

***

باب من مات وعليه صوم

قال العلماء: إذا فات المكلف شيء من رمضان، ومات قبل قضائه، فإن مات قبل التمكين من القضاء بأن مرض من أول رمضان إلى آخره فأفطر فيه، أو بعد أن صام شيئا منه ثم افطر الباقي منه، واستمر مريضا، أو سافر من أول شوال إلى أن مات، فهذا لا يصوم عنه وليه، ولا يخرج من تركته شيء لما فاته، ولا إثم عليه به لأنه معذور بالمرض والسفر.

نعم إن كان متعديا بالإفطار ومات قبل التمكن من القضاء فهو آثم، ويجب على الولي أن يخرج من تركته لكل يوم مدا من الطعام.

وإن مات المعذور وغيره بعد التمكن من القضاء كأن مرض عشرة أيام من رمضان وأفطر فيها، ثم حصل له الشفاء في شوال، ومات قبل أن يقضيها، فهذا وليه مخير بين أحد أمرين:

إما أن يصوم عنه الأيام التي فاتته.

أو يخرج من تركته لكل يوم مد طعام.

هذا هو المذهب المفتى به عند إمامنا الشافعي.

والولى الذي يصوم عن كل قريب سواء كان عصبة أم غير عصبة، وارثا أو غير وارث، فقد جاء في هذا الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**» [(١)].

وجاء فيه أيضا عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت، وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها؟ قال «**نعم فدين الله أحق أن يقضى**».

ولو صام عنه أجنبي بإذن الولى صح سواء أصام عنه بأجرة أو بغيرها، فإن صام بغير إذنه لم يصح عنه.

نعم لو أوصى إلى أجنبي ليصوم عنه كان بمثابة الولي، والولي لا يتعين عليه الصوم بل يستحب له لأن له أن يعدل إلى الإطعام عنه.

ثم قال البخارى: «قال الحسن إن صام عنه ثلاثون رجلا يوما واحد جاز».

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٦٩٠، رقم ١٨٥١)، ومسلم (٢/٨٠٣، رقم ١١٤٧)، وأبو داود (٢/ ٣١٥، رقم ٢٤٠٠)، وأحمد (٦/٦٩، رقم ٢٤٤٤٦)، وابن الجارود (ص ٢٣٧، رقم ٩٤٣)، وأبو يعلى (٧/٣٩٠، رقم ٤٤١٧)، وابن حبان (٨/٣٣٤، رقم ٣٥٦٩)، والدارقطني (٢/١٩٤) وقال: هذا إسناد صحيح. والبيهقي (٤/٢٥٥، رقم ٨٠١٠).

ومعناه: أنه إذا فاته رمضان كله، ومات بعد إمكان القضاء، فصام عنه رجلا من أقاربه بإذن الولي في يوم واحد عن صوم رمضان، وسقط عن ذمته.

قال النووى: وهو الظاهر.

وذهب مالك وأبو حنيفة: إلى أنه لا يصام عن الميت، بل يطعم عنه وليه.

وجمهور العلماء على أنه لو مات، وعليه صلاة واعتكاف لم يقض عنه.

وهل تسقط الصلاة عن الميت بالفدية أم لا؟

فعند الشافعية لا.

وعند الحنفية تسقط إذا أطعم عن الميت عن كل صلاة من الصلوات الخمس نصف صاع من بر أو صاع من تمر إن أوصى الميت بذلك.

فالحاصل أن مذهب الإمام الشافعي للولى أن للولي أن يصوم عن الميت الفرض الذي فاته، وأمكنه قضائه وما فعله سواء كان الفرض من رمضان أو نذر أو كفارة ويطعم عن كل يوم مدا من الطعام.

وعند أبي حنيفة ومالك: يتعين الإطعام على الولي ولا يصوم.

واعترض عليهم بحديث المرأة التي أمرها رسول الله ﷺ أن تصوم عن أمها.

وأجيب عن هذا الاعتراض بأن الصوم فيه مؤول بالإطعام.

ورد النووى هذا وقال: هذا تأويل ضعيف بل باطل، وأي ضرورة إليه.

***

المجلس الخامس والستون

في الكلام على ليلة القدر وعلى ذكر فضائلها، وما يتعلق بسورة القدر من الفوائد

قَالَ البُخَارِي:

كتاب فضل ليلة القدر

باب فَضْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ ، قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: مَا كَانَ فِي القرآن ﴿مَا أَدْرَاكَ﴾ فَقَدْ أَعْلَمَهُ، وَمَا قَالَ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فإنه لَمْ يُعْلِمْهُ .

الحمد لله الذي حكم الأمور وقدرها، وبرأ الموجودات وصورها، وطهر القلوب ونورها، وسخر الأفلاك وسخرها، وخص شهر رمضان بليلة القدر فطوبى لمن عظمها ووقرها، ياها من ليلة ما أبركها وأنورها، وما أكثر خيرها وأغزرها، تنـــزل فيها الملائكة بالبشارة لمن أحياها من الأنام ومنع جفونه المنام وأسهرها، فيالها من ليلة ما رفعت إليه فيها قصة محتاج إلا نظرها، ولا وصلت إليه دعوة مظلوم إلا أنجزها ونصرها، ولا توجهت إليه فيها قلوب منكسرة إلا أعانها بلطفه وجبرها، فسبحان من اطلع في هذه الليلة الشريفة على الذنوب فغفرها، وعلى العيوب فسترها، وعلى القلوب فسكنها وغمرها، وعلى حوائج السائلين فقضاها بفضله ويسرها، أحمده على نعمه التي أسداها وأغزرها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نافعة عنده ادخرها، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أيد الله به الشريعة ونصرها، وهدى به الأمة إلى طريق الصواب وبصرها.

قوله: «باب فضل ليلة القدر، وقول الله ﷻ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ إلى آخر السورة.

الكلام على هذه السورة من وجوه:

الأول في سبب نزولها وقد اختلف العلماء فيه، فقيل: سببه أنه ذكر للنبي ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح في سبيل الله ألف شهر، فتمنى عليه الصلاة والسلام أن

يكون ذلك لأمته، فقال: «يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً أو أقل أعمالا، فأعطاه ليلة القدر، وأنزل هذه السورة وأعلمه أن العمل الصالح فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وإن الرحمة في هذه الليلة خير وأكثر من الرحمة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وقيل: سببه أنه كان في بني إسرائيل ملك صالح، فأوحى الله إلى نبيهم قل له يتمنى فقال: أتمنى أن أجاهد في سبيل الله بمالي وولدي، فرزقه الله ألف ولد فصار يجهز الولد فيجاهد شهراً فيقتل ثم يجهز الآخر كذلك حتى قتلوا كلهم في ألف شهر، ثم جاهد فقتل، فقال الناس: لا يدرك فضيلته أحد فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وقيل: سببه أن النبي ﷺ ذكر يوماً أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاماً لم يعصوا الله طرفة عين، فعجب أصحابه من ذلك، فجاءه جبريل بهذه السورة فسر النبي ﷺ وأصحابه بذلك.

وقيل: سببه كما ذكر الثعلبي عن وهب بن منبه أن نبياً من الأنبياء يقال له: سمنون كان يجاهد قومه فيقتل منهم، ويأخذ من أموالهم وكان لا يوثقه الحديد، فلما عجزوا عنه قالوا لزوجته إن أوثقتيه لنا أعطيناك مالاً كثيراً، فلما نام أوثقته بحبل، فلما استيقظ وقع من يديه ورجليه، فسألها عن ذلك، فقالت: لأرى قوتك، ثم أوثقته بالحديد أيضاً، فلما استيقظ سقط عنه الحديد، فسألها عن ذلك، فقالت: لأرى قوتك في الحديد أيضاً، ثم قالت: أما في الدنيا شيء يوثقك؟ قال: شعري، فلما نام أوثقته بشعره وبعثت إلى قومه فقطعوا أنفه، وأذنيه، وقلعوا عينيه، فخسف الله بهم الأرض، وأرسل على المرأة صاعقة ورده إلى أحسن حاله وكان قد جاهدهم ألف شهر، فتعجب أصحاب النبي ﷺ منه فأنزل الله سورة القدر.

الثاني: في بيان مرجع الضمير في قوله: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾.

فقال الرازي وغيره: إنه راجع إلى القرآن وإن لم يجد له ذكر في هذه السورة.

والمعنى: إنا أنزلنا القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، فوضع في بيت العزة ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ مفرقاً في عشرين سنة أو في ثلاث وعشرين سنة أو في خمسة وعشرين سنة، وأول ما نزل على الأصح أوائل سورة: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾، إلى ﴿ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[العلق: ١-٥]، وآخر ما نزل على الأصح: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾[البقرة: ٢٨١].

سؤال: فإن قيل: نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا هل كان قبل نبوته ﷺ أو بعدها؟

جوابه: قال أبو شامه الظاهر أنه كان قبل نبوته ﷺ، ورده شيخنا العلامة الجلال السيوطي في الإتقان وقال: الظاهر أنه كان بعدها.

قال: وصريح الآثار تدل عليه.

سؤال آخر: فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى أنزل القرآن على نبينا ﷺ مفرقاً، ولم يتزل جملة واحدة، كما أنزل غيره من الكتب؟

جوابه: أن هذا السؤال قد تولى الله جوابه بقوله: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً**﴾ أي: كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿**كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**﴾[الفرقان: ٣٢] أي: لنقوي به قلبك، فإنه كلما نزل عليه الوحي من جانب الباري ﷻ قوي قلبه، واشتد جنانه، وحصل له سرور بنـــزول الملك عليه في كل حادثة.

وقيل: إنما أنزل عليه مفرقاً لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ففرق عليه حتى يثبت عنده حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء، فإنه كان كاتباً قارئاً فيمكنه حفظ الجميع، وقيل غير ذلك.

قال الرازي: وأما ما سوى القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما، فإن كلا منها نزل دفعة واحدة لا منجماً، وكان إنزالها في شهر رمضان، فصحف ابراهيم عليه الصلاة والسلام أنزلت في الليلة الأولى من رمضان ولهذا قال بعضهم: هي ليلة القدر، والتوراة أنزلت لست ليال مضين بعد صحف إبراهيم بسبعمائة سنة، وأنزل الزبور على داود لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بستمائة وعشرين سنة.

الثالث: في بيان أن هذه الليلة أفضل ليالي السنة كما قال النووي في الروضة فهي أفضل من ليلة عرفة، ومن ليلتي العيدين، ومن الليلة الأولى من رجب، ومن ليلة النصف من شعبان، على القول بأن ليلة القدر غيرها وهو الأصح، ومن ليلة الجمعة على الأصح الذي عليه أكثر العلماء.

ووقع في بعض كتب الحنابلة أن ابن بطة وجماعة اختاروا أن ليلة الجمعة أفضل من ليلة القدر، واستدلوا على ذلك بأنه ورد في الحديث: أنها الليلة الغراء، والغرة من الشيء خياره.

وبأنه جاء في فضل يومها ما لم يجئ ليوم ليلة القدر، وبأن ليلة الجمعة باقية في

الجنة لأن يومها تقطع فيه الزيارة إلى الله تعالى، وبأنها معلومة بعينها على القطع، وليلة القدر مظنون عينها.

واستدل أكثر العلماء من الشافعية وغيرهم على أفضلية ليلة القدر عليها بقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فدخل في عموم الألف شهر ليلة الجمعة.

نعم وقع الخلاف بين العلماء في ليلة القدر وليلة الإسراء فذهب بعضهم إلى أن ليلة الإسراء أفضل بالنسبة إلى النبي ﷺ، وليلة القدر أفضل بالنسبة إلى أمته.

والجمهور على أن ليلة الإسراء أفضل مطلقاً لأن ما كان أفضل بالنسبة إليه ﷺ فهو أفضل بالنسبة إلى أمته.

والحاصل أنها أفضل الليالي بأسرها إلا ليلة الإسراء فإنها أفضل منها ولقد أحسن من قال:

لليلة القدر عند الله تفضيل ... وفي فضائلها قد جاء تنزيل
فجد فيها على خير تنال به ... أجراً فللخير عند الله تحصيل
واحرص على فعل أعمال تسر بها ... يوم المعاد ولا يغررك تأميل
فكم رأينا صحيح الجسم ذا أمل ... في ليلة القدر لم يلق تنويل
فتب إلى الله واحذر من عقوبته ... عن كل ما فيه توبيخ وتنكيل
ولا تغرنك الدنيا وزخرفها ... فكل شيء سوى التقوى أباطيل

وكذلك أنشدوا فيها:

هي ليلة القدر التي شرفت على ... كل الشهور وسائر الأعوام
من قامها يمحو الإله بفضله ... عنه الذنوب وسائر الآثام
فيها تجلى الحق جل جلاله ... وقضى القضاء وسائر الأحكام
فادعه واطلب الفضل تعطى المنا ... وتجاب بالإنعام والإكرام
فالله يرزقنا القبول بفضله ... ويجود بالغفران للصوام
ويذيقنا فيه حلاوة عفوه ... ويمتنا حقاً على الإسلام

الرابع: صرح النووي في الروضة وشرح المهذب بأن هذه الليلة من خواص هذه الأمة، كما خصت بيوم عرفة.

الخامس: سميت بليلة القدر لوجوه:

منها: أن القدر: العظمة، فهي ليلة العظمة والشرف، من قولهم: له قدر عند فلان

أي: منـــزلة وشرف.

فيحتمل أن يرجع الشرف والعظمة إلى الفاعل، فيكون المعنى: أن من أتى بالطاعات في هذه الليلة صار ذا قدر أي: عظمة وشرف.

ويحتمل أن يرجع إلى الفعل فيكون المعنى: أن للطاعات في تلك الليلة قدراً زائداً، وقد استعمل هذا القدر بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾[الأنعام: ٩١] أي: عظموه حق عظمته حين اشركوا به غيره.

ومنها: أن القدر الضيق أي: ليلة تضيق فيها الأرض على الملائكة الذين ينـــزلون إليها.

وقد جاء القدر بهذا المعنى في قوله تعالى ﴿**وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ**﴾[الطلاق: ٧] أي: ضيق عليه وقيل غير ذلك.

السادس: اختلف العلماء في ليلة القدر اختلافاً كثيراً، تبلغ الأقوال فيها أكثر من أربعين قولاً.

فقيل: إنها كانت أولاً ثم رفعت بدليل قوله ﷺ: «**إني خرجت لأخبركم بليلة القدر وإنه تلاحا** -أي: اختصما- **فلان وفلان فرفعت**»[1].

والمعتمد عند العلماء أن ليلة القدر باقية إلى يوم القيامة، وأجابوا عن قوله ﷺ: «**فرفعت**» بأن معناه: فرفع يقينها وبيانها عن ذكري.

ويدلك على بقائها قوله ﷺ: «**التمسوها في العشر الأواخر**»[2].

ويقال: إنها مخفية في السنة كلها، وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله عنه.

وقيل: إنها مخفية في شهر رمضان كله.

وقيل: إنها مخفية في النصف الثاني منه وإليه ذهب أبو يوسف ومحمد بن الحسن.

والذي ذهب إليه الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وأكثر العلماء إلى أنها في العشر الأواخر من رمضان أخفاها الله تعالى منه كما اخفى غيرها، فإن الله سبحانه وتعالى أخفى رضاه في الطاعات، حتى يرغب الناس في كل الطاعات، وأخفى غضبه في المعاصي ليحترزوا عن كل المعاصي، وأخفى وليه بين الناس ليعظموا الكل، وأخفى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/٢٧ ، رقم ٤٩) عن أنس.
وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/٨٢٦ ، رقم ١١٦٧) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٦٥ ، رقم ٣٤٥٦) عن ابن عباس.

الإجابة في الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات، وأخفى اسمه الأعظم ليعظموا كل الأسماء، وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على كل الصلوات، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت ليخاف العبد في كل الأوقات، فكذا أخفى ليلة القدر في العشر الأخير ليعظموا جميع ليال العشر.

ويدل على أنها في العشر الأخير قوله ﷺ: «**التمسوها في العشر الأخير**» وهي في أوتاره أرجى من أشافعه.

ومال إمامنا الشافعي ﷺ إلى أنها ليلة الحادي والعشرين أو الثالث والعشرين واستدل على ذلك بحديثين، أحدهما في الصحيحين والآخر في صحيح مسلم.

وذهب ابن عباس وجمهور العلماء إلى أنها ليلة السابع والعشرين.

قيل: سأل عمر ابن الخطاب ﷺ الصحابة عنها ثم قال لابن عباس: غص يا غواص، فقال ابن عباس: أحب الأعداد إلى الله تعالى الوتر، وأحب الوتر إليه السبعة، فإن الله تعالى جعل السماوات سبعة، والأرضين سبعة، وأيام الأسبوع سبعة، ودركات النار سبعة، وعدد الطواف سبعة، والأعضاء سبعة، وخلف الإنسان من سبعة، ويأكل من سبعة، ويسجد من سبعة إلى غير ذلك، فدل كلامه على أنها ليلة السابع والعشرين، فتعجب عمر من قوة فكره وحسن جوابه، وقال له: لقد فطنت لأمر ما فطنا له.

فائدة: استنبط بعض المتأخرين أنها ليلة سبع وعشرين من موضعين:

أحدهما: أن الله كرر ذكر ليلة القدر في سورة القدر في ثلاث مواضع منها ليلة القدر حروفها تسع حروف والتسع إذا ضربت في ثلاث فهي سبعة وعشرين.

والثاني: أنه قال: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ وكلمة هي الكلمة السابع والعشرين من السورة، فإن كلماتها كلها ثلاثون كلمة.

قال ابن رجب: ثم نقل عن ابن عطية أنه قال هذا من مليح التفسير لا من متين العلم، وهو كما قال.

السابع: اختلف العلماء في ليلة القدر هل تلزم ليلة معينة أو تنتقل؟

فذهب الإمام الشافعي وأكثر العلماء إلى أنها لا تنتقل، وذهب طائفة من العلماء كابن عربي وابن خزيمة وغيرهما إلى أنها تنتقل في ليال العشر كل سنة ليلة.

قال النووي في الروضة: وهو قوي لأنه يجمع بين الأخبار، واختاره ابن دقيق العيد والمحب الطبرى.

فائدة: ذكر أبو الحسن الحراني: لموافقة ليلة القدر كيفية، وقال: من حين بلغت لم

تفتني ليلة القدر كل سنة، فقال: إذا كان أول شهر رمضان الأحد كانت ليلة التاسع والعشرين منه، وإذا كان أوله الاثنين تكون الحادي والعشرين منه، وإذا كان أوله الثلاثاء تكون ليلة الثالث والعشرين منه، وإذا كان أوله الأربعاء تكون ليلة السابع والعشرين منه، وإذا كان أوله الخميس تكون ليلة الخامس والعشرين منه، وإذا كان أوله الجمعة تكون ليلة التاسع عشر منه، وإذا كان أوله السبت تكون ليلة الثالث والعشرين منه والله أعلم.

الثامن: قال علماؤنا: يستحب الاجتهاد في كل العشر الأخير بالصلاة والقراءة والذكر وغير ذلك من الأفعال الصالحة، حتى يحوز فضيلتها بيقين.

روينا في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[1].

وقيامها: هو أحياؤها بالتهجد فيها والصلاة والدعاء والتفكر وغير ذلك.

فمن جمع بين هذه الأشياء فقد أتى بما هو أفضل الأعمال وأكملها.

فائدة: يستحب للإنسان أن يكثر في ليلة القدر من قوله: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا»، قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا**»[2].

والعفو: من اسماء الله تعالى، وهو التجاوز عن سيئات عباده، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض فإذا عفى بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته.

قال يحيى بن معاذ: لو لم يكن العفو أحب الأشياء إليه لم يبتل بالذنب أكرم الناس عليه، فإنه ابتلى كثيراً من أوليائه وأصفيائه بشيء من الذنوب، ليعاملهم بالعفو، فإن سبحانه يحب العفو.

وإنما أحب أن يعفو ليكون العباد كلهم تحت عفوه، فلا يدل عليه أحد منهم بعمل.

جاء في الحديث: «**إن الله ينظر ليلة القدر إلى المؤمنين من أمة محمد ﷺ فيعفو**

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري (٦٧٢/٢، رقم ١٨٠٢)، ومسلم (٥٢٣/١، رقم٧٦٠) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥٣٤/٥، رقم ٣٥١٣) ، والنسائي في السنن الكبرى (٤٠٧/٤ ، رقم ٧٧١٢) ، وأحمد في مسنده (١٨٢/٦) عن عائشة .

عنهم ويرحمهم إلا أربعه مدمن خمر وعاقاً ومشاحناً وقاطع رحم».

ويستحب له أن يجتهد في نهارها أيضاً.

فقد قال الشعبي: إن نهارها كليلها.

وقال الشافعي في القديم: استحب له أن يكون اجتهاده في نهارها كاجتهاده في ليلتها.

قيل: ولا يشترط في تحصيل ثوابها وأجرها أن يقوم الليلة كلها فقد روى عبد الله ابن عامر عن ربيعة أن رسول الله ﷺ قال: «**من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة فقد أخذ بحظه من ليلة القدر**»، قاله الثعلبي في تفسيره.

وقال الشافعي: من شهد العشاء والصبح في جماعة، فقد أخذ بحظه من ليلة القدر.

بل نقل عن ابن عباس: أن إحياءها يحصل بأن يصلي العشاء في جماعة، ويعزم على أن يصلى الصبح في جماعة.

وقال مالك في الموطأ: بلغني أن ابن المسيب قال: من شهد العشاء ليلة القدر يعني في جماعة فقد أخذ بحظه منها.

ولا يشترط أيضاً في تحصيل ثوابها أن يعلم أنها ليلة القدر، بل إذا تعبد في العشر الأخير وصادفها وإن لم يعلم عينها حاز فضلها.

وما وقع في شرح مسلم للنووي من أنه لا ينال فضيلتها إلا من يعلم أنها ليلة القدر، محمول على أن يعلم -بمعنى يصادف-، وإن لم يعينها بأن قام العشر بكماله، قاله شيخنا الكمال بن أبي شريف.

وروينا في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله وأيقظ أهله.

وفي رواية لمسلم عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره.

ومعنى قول عائشة: «**شد مئزره**» اعتزل أهله على الأصح.

فائدة: كان ﷺ يخص العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها في بقية الشهر:

منها: إحياء لياليه، ومنها: اعتزال النساء، ومنها: تأخير الفطور إلى السحور

جاء في الحديث عن عائشة: أن النبي ﷺ كان في ليالي العشر يجعل عشاءه

سحوراً[١].

ومنها: اغتساله بين المغرب والعشاء.

قال ابن رجب في اللطائف: والمقصود منه أنه يستحب في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظف والتزيين والتطيب بالغسل والطيب واللباس، كما يشرع ذلك في الجمع والأعياد.

وقال الحليمي من علمائنا الشافعية باستحباب الغسل كل ليلة من رمضان، وقيده الأذرعي بمن يحضر الجماعة، ونبه عليه شيخنا في شرح الروض.

ومنها: الاعتكاف، وقد نص العلماء على أن الاعتكاف سنة مؤكدة، وهي في رمضان آكد لأجل ليلة القدر.

وروينا في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله[٢].

وروينا في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين[٣].

وإنما كان ﷺ يعتكف في العشر الأخير الذي يطلب فيه ليلة القدر قطعاً لاشتغاله وتفريغاً لباله وتخلياً لمناجاة ربه وذكره ودعائه.

ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس حتى لا لتعلم العلم، وإقراء قرآن، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلي لمناجاة ربه، وذكره ودعائه.

وعند علمائنا الشافعية أن المعتكف لو اشتغل بالذكر والقرآن ودراسة العلم لكان ذلك زيادة خير.

التاسع: في بيان علاماتها وخصائصها:

قال العلماء: أكثر علاماتها لا توجد إلا بعد انقضائها فمن علاماتها:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١٣/٦ ، رقم ٥٦٥٣)، أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٢٨١) عن أنس بن مالك.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤/٣) : رواه الطبراني في الأوسط وفيه حفص بن واقد البصري قال ابن عدي له أحاديث منكرة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧١٩/٢ ، رقم ١٩٣٩) عن أبي هريرة .

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٧١٣/٢، رقم ١٩٢٢) ، ومسلم في صحيحه (٨٣٠/٢ ، رقم ١١٧٢) عن عائشة.

أنها ليلة طلقة لا حارة ولا باردة.

ومنها: أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء بلا كثير شعاع، والحكمة في خروجها على هذه الصفة وجهان: أحدهما: أن الله تعالى جعل ذلك علامة لها، ثانيها: أن ذلك لكثرة اختلاف الملائكة في ليلتها ونزولها إلى الأرض وصعودها بما تنـــزل به، فسترت بأجنحتها وأجسامها اللطيفة ضوء الشمس وشعاعها.

سؤال: فإن قيل: أي فائدة لمعرفة صفتها بعد فواتها، فإنها تنقضي بطلوع الفجر؟

جوابه: من وجهين؛ أحدهما: أن يستحب أن يكون اجتهاده في يومها الذي بعدها كاجتهاده فيها.

ثانيها: المشهور في المذهب أنها لا تنتقل فإذا عرفت ليلتها في سنة انتفع بذلك في الاجتهاد فيها في السنة الثانية وما بعدها.

ومنها: أن الماء جميعه يحلو فيها.

نقلوا: أن شخصاً ركب سفينة مع جماعة في العشر الأخير من رمضان، فأصابه احتلام وكان في البحر المالح، فاغتسل من مائه فوجده حلواً لا ملوحة فيه، فأخبر أهل السفينة فوجدوه كذلك، فعلموا أنها ليلة القدر.

ومنها: أن الشيطان لا يخرج مع الشمس في يومها، بخلاف باقي الأيام فإنها تخرج بين قرني شيطان، كما ورد ذلك في الحديث.

فائدة: استنبط بعض العلماء من هذا أن الصلاة التي لا سبب لها لا تكره حالة التطوع في يومها، كما تكره في باقي الأيام، لزوال علة الكراهة، وهو خروجها بين قرني شيطان.

ومنها: أن الشيطان لا يخرج ليلتها حتى يضئ الفجر فلا يستطيع أن يصيب فيها أحد بخبل ولا شيء من الفساد.

ومنها: أنه لا ينفد فيها سحر ساحر.

ومنها: أن الله لا يقدر فيها إلا السعادة والنعم، ويقدم في غيرها البلايا والنقم.

ومنها: الكواكب لا ترجم فيها، ولا يرمى فيها نجم.

ومنها: أنه لا ينبح فيها كلب.

ومنها: أن الأشجار تخر ساجدة لله الواحد القهار.

قيل: إن بعض الصالحين خرج ليلة من ليالي العشر الأخير ليتوضأ من حديقة، فلما دخلها رأى أشجارها كلها ساقطة على الأرض، فعلم أنها ليلة القدر.

ومما يرجح أنها ليلة سبع وعشرين ما روي عن أحد الصالحين أنه ذاق ماء البحر ليلة سبع وعشرين فإذا هو عذب، ذكره الإمام أحمد.

وما روي عن بعض السلف أنه طاف ليلة سبع وعشرين بالبيت الحرام، فرأى الملائكة في الهواء طائفين فوق الناس.

وما روي أن رجلاً مقعداً دعا الله ليلة سبع وعشرين فأطلقه الله وقام كأن لم يكن به شيء.

وما حكي عن رجل بالبصرة أنه كان أخرس ثلاثين سنة، فدعا الله تعالى ليلة سبع وعشرين فأطلق لسانه فتكلم.

قال ابن رجب: وجميع هذه العلامات لا توجب القطع بليلة القدر.

قال النووي في شرح المهذب: يستحب لمن أطلعه الله تعالى عليها أن يكتمها.

قال السبكي: والحكمة في ذلك أن رؤيتها كرامة، والكرامات كلها ينبغي كتمانها، بل لا يجوز إظهارها إلا لحاجة أو قصد صحيح لما في إظهارها من الخطر من وجوه:

الأول: أنه قد يداخله في الإخبار بها رياء فيسلب ما أنعم الله به عليه، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء، ومن الزيغ بعد الهدى.

فمن أدعية القرآن: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[آل عمران: ٨].

ومن أدعية بعض الصالحين: اللهم لا تعاقبنا بالسلب بعد العطاء.

فينبغي من ظهرت عليه كرامة كرؤية ليلة القدر أن يمتلئ قلبه بعظمة الله تعالى الذي أهداها إليه واختصه برؤيتها مع حقارته ومعصيته، وحجبها عن كثير من خلقه ممن لعله خير منه.

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ﴾ أي: من فضائل هذه الليلة نزول الملائكة فيها إلى الأرض.

والحكمة في نزولهم هذه الليلة ليروا عبادة البشر وجدهم في الطاعات.

وقيل: ليسلموا عليهم ويشفعوا لهم، فمن أصابه السلام غفر له.

وقيل: ليعبدوا الله تعالى في الأرض مع البشر، لأن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة في الاشتغال فهم ينـــزلون إلى الأرض لتصير طاعتهم أكثر ثواباً.

وقيل: إنما ينـــزلون هذه الليلة إلى الأرض ليأتي العبد بالطاعات والخيرات على وجه التمام والإتقان، لأن الإنسان يأتي بالطاعات عند حضور الأكابر من العلماء

والزهاد أحسن ما يكون في الخلوة، فالله تعالى أنزل الملائكة المقربين حتى يتقن المكلف ويحسن عبادته بحضورهم.

وظاهر الآية يقتضي نزول جميع الملائكة إلى الأرض وفيه إشكال وهو: أن الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تسعهم الأرض.

وأجابوا: بأنهم ينـــزلون فوجاً فوجاً نازلاً وصاعداً كأهل الحج فإنهم على كثرتهم لا يدخلون الكعبة بالكلية، لكنهم بين داخل وخارج.

ومن الناس من خص لفظ «الملائكة» بعض فرق الملائكة، وقال: لا ينـــزل ليلة القدر إلا بعض الملائكة، وهم سكان سدرة المنتهى، واستدل عليه بخبر ورد عن كعب الأحبار أن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة، وأغصانها تحت الكرسي، فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، يعبدون الله تعالى، ومقام جبريل في وسطها، ليس ملك فيها إلا وقد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين، ينـــزلون مع جبريل عليه السلام ليلة القدر، فلا يبقى بقعة من الأرض إلا وعليها ملك ساجد أو قائم، يدعوا للمؤمنين والمؤمنات، وجبريل لا يدع أحد من الناس إلا صافحه، وعلامة ذلك من اقشعر جلده ودق قلبه ودمعت عيناه، فذلك أثر مصافحة جبريل، وأول من يصعد جبريل حتى يصير أمام الشمس فيبسط جناحين أخضرين لا ينشرهما إلا تلك الساعة، في يوم تلك الليلة، ثم يدعو ملكاً ملكاً فيصعد الكل ويجتمع نور الملائكة وجناح جبريل فيقف جبريل ومن معه من الملائكة بين الشمس وسماء الدنيا يومهم ذلك، مشتغلين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ولمن صام رمضان احتساباً، فإذا أمسوا دخلوا السماء فيجلسون حلقا حلقاً فيجتمع إليهم ملائكة فيسألونهم عن رجل رجل وامرأة امرأة حتى يقولوا: ما فعل فلان وكيف وجد تموه؟ فيقولون: وجدناه عام أول متعبداً وفي هذا العام مبتعداً، وفلان كان عام أول مبتعداً، وفي هذا العام تعبد، فيكفون عن الدعاء للأول ويستغيثون بالدعاء للثاني، ووجدنا فلاناً تالياً، وفلاناً راكعاً، وفلاناً ساجداً، وفلاناً باكياً، فيدعون لهم ويشفعون لهم، فهم كذلك يومهم وليلتهم حتى يصعدون إلى السماء الثانية وهكذا يفعلون في كل سماء، حتى ينتهوا إلى السدرة، فتقول لهم السدرة: يا سكاني حدثوني عن الناس فإن لي عليكم حقاً وإني أحب من أحب الله. فذكر كعب: أنهم يعدون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم حتى يصل ذلك الخبر إلى الجنة، فتقول الجنة: اللهم عجلهم إلي، والملائكة وأهل السدرة يقولون: آمين، آمين.

وفي رواية تقول سدرة المنتهى لسكانها: ما صنع الرب بأمة محمد؟ فيقولون: غفر لمحسنهم وشفعهم في مسيئهم، قال: فتصيح سدرة المنتهى وتثني على الله تعالى بالتسبيح والتقديس والشكر لما أعطى الله تعالى لأمة محمد ﷺ.

وهو حديث مطول وفي آخره: أعددت لأمة محمد مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ اختلف العلماء في المراد بالروح في هذه السورة، فإن الروح كما قدمنا تطلق على معان كثيرة.

والأصح: أن المراد به جبريل، وخصه الله بالذكر، وأفرده عن الملائكة لزيادة شرفه، كأنه يقول: الملائكة في كفة والروح في كفة.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: نزول الملائكة هذه الليلة بإذن من الله تعالى، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[مريم: ٦٤] وذلك يدل على غاية محبة الملائكة لهذه الأمة، وأنهم يرغبون إليهم، ويتمنون لقاءهم، ولكن ينتظرون الإذن.

سؤال: فإن قيل: كيف يرغبون إلى هذه الأمة مع علمهم بكثرة معاصيهم؟

جوابه: كما قال الرازي وغيره: إن الله سبحانه وتعالى لا يوقفهم على تفاصيل معاصي العباد، فقد قيل: إنهم إذا اطلعوا على أعمال المكلف فيرون طاعته مفصلة، فإذا وصولوا إلى معاصيه أرخى الستر فلا يرونه، فيقولون سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح.

ونظير هذا ما قيل: إن كل عبد له صورة في قائمة العرش، وعليها ستارة، فإذا عمل طاعة ارتفعت الستارة فتراه الملائكة، وإذا عمل معصية نزلت عليه الستارة فلا تراه الملائكة.

لطيفة: قال ابن الملقن في الحدائق: إن بني إسرائيل أصابهم قحط فخرج موسى عليه السلام يستسقي فلم تزدد الشمس إلا حراً ولا السماء إلا صحواً، فقال: يا رب إن كان جاهي خلقاً عندك فبجاه محمد ﷺ اسقنا الغيث، فأوحى الله إليه جاهك غير خلق عندي، ولكن فيكم رجل له أربعون سنة يعصيني فبه منعتكم الغيث، فقام موسى خطيباً وقال: يا أيها العاصي الذي له أربعون سنة يعصي ربه أقسمت عليك أن تخرج من بيننا، فقال العاصي في نفسه: إن قمت عرفني بنو إسرائيل فوضع رأسه في جيبه وقال: يا إلهي تبت إليك، فنـــزل المطر كأفواه القرب، فقال موسى: يا رب بم سقيتنا الغيث؟ قال: بالعاصي، قال: يارب أرني إياه، فقال: يا موسى أنا ما فضحته حال

معصيته، فكيف أفضحه وقد تاب.

ونسال الله أن يلبسنا من نوره، ويعلمنا من علمه، ويرزقنا الفهم عنه والرجوع إليه، والتوكل عليه، والاشتغال به، والسعي في مرضاته، حتى نلقاه وهو راض عنا، اللهم اجعلنا بطاعتك عاملين، وعلى ما يرضيك مقبلين، وألبسنا ملابس العابدين، ولا تؤاخذنا بذنوبنا يا رب العالمين، اللهم إنا نسألك يا ذا الجلال والإكرام، والعزة التي لا ترام، أجزل علينا من الفضل والإنعام، واجعلنا من عتقاء شهر الصيام، ووفقنا للعمل بطاعتك، وتقبلها منا على مر الليالي والأيام يا رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون إلى يوم الدين، آمين آمين آمين.

وقد وافق فراغ القلم من كتابة هذه النسخة الشريفة الميمونة نهار الثلاثاء لستة أيام بقين من شهر رمضان المبارك، من شهور سنة ١٢٥١ إحدى وخمسين ومائتين وألف من الهجرة النبوية بقلم أحقر الورى العبد الفقير العاجز محمد بن حسن التفتازاني الشهير بابن جعفر غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولكل المسلمين أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وذلك على يد شيخي وأستاذي العالم الجليل السيد الشيخ عبد القادر أفندي ابن السيد الشيخ محمد أبي النور أفندي ابن السيد الشيخ محمد أبي السعود أفندي بن قطب العارفين العالم النحرير السيد الشيخ عبد القادر أفندي الكيالي الرفاعي غفر الله له ولوالديه، ولمشايخه ولكل المسلمين أجمعين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***

فهرست المجلد الثالث

المجلس السابع والأربعون: في فوائد متعلقة بنبع الماء من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم وفوائد في ذكر أحكام الطلب ٥

المجلس الثامن والأربعون: في بيان حديث علي ﷺ: «كنت رجلاً مذاء» وما فيه من الفوائد، وفى بيان بعض فضائل سيدنا علي ﷺ، وفضائل المقداد بن الأسود، ومحمد بن الحنفية ٢٨

المجلس التاسع والأربعون: في أحكام الحمام وفي ذكر فوائد كثيرة متعلقة به ٤٨

المجلس الخمسون: في الكلام إذا أُلقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة وما في حديثه من الفوائد وفي ذكر شيء من أخبار أبي جهل اللعين ومن قتله وفي أي غزوة قتل وذكر عقبة بن أبي معيط وكيف قتل ٦٤

المجلس الحادي والخمسون: في مسائل متعلقة بالسواك وذكر فضائله وقصة سيدنا إبراهيم لما أحرق بالنار وغير ذلك ٨٤

المجلس الثاني والخمسون: في الكلام على حديث باب فضل من بات على وضوء، وفيه فوائد كثيرة متعلقة بالنوم ويدفع الشيطان وغير ذلك باب فضل من بات على وضوء ١٠٢

المجلس الثالث والخمسون: في الكلام على الغسل وما فيه من الفوائد وذكر موجبات الغسل وذكر قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ﴾[الأحزاب: ٧٢] وغير ذلك ١١٠

المجلس الرابع والخمسون: في ذكر أوقات الصلوات الخمس وفضائلها وما يتعلق بذلك من الفوائد والنفائس الحسنة مما هو متفرق في كتب متعددة ١٣٠

المجلس الخامس والخمسون: في ذكر فضائل فعل الصلاة في أول وقتها وفي ذكر المسائل التي يستحب فيها تأخيرها عن أول وقتها وفي ذكر شيء من فضائل الصيف والشتاء ١٥٩

المجلس السادس والخمسون: في ذكر شيء من فضائل الأذان وذكر ابتدائه وذكر مسائل ولطائف متعلقة به ١٧٧

المجلس السابع والخمسون: في ذكر فضائل صوم يوم عاشوراء، وذكر ما يتعلق به من الفوائد واللطائف، وفيه ذكر شيء من ترجمة سيدنا معاوية وشيء من ترجمة ولده يزيد ١٨٩

المجلس الثامن والخمسون: في الكلام على صلاة التراويح وما يتعلق بها وبحديثها من الفوائد واللطائف ٢٠٦
المجلس التاسع والخمسون: في ذكر شيء من فضائل شهر رمضان وذكر فوائد من ذلك من الفقه وغيره ٢١٩
المجلس الستون: في الكلام على قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وما يتعلق بها من الفوائد، وفي ذكر أركان الصوم ٢٤١
المجلس الحادي والستون: في الكلام على أبواب الجنة وذكر اختلاف العلماء في عددها وذكر أسمائها وذكر شيء من فضائل رمضان وشيء من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وغير ذلك من الفوائد ٢٤٧
المجلس الثاني والستون: في الكلام على حديث كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير وذكر ما فيه من الفوائد وذكر فوائد كثيرة متعلقة بالقرآن والصدقة وغيرهما ٢٧٢
المجلس الثالث والستون: في ذكر شيء من فضائل بلال وابن أم مكتوم، وذكر مسائل متعلقة بالأعمى، ومسائل متعلقة بالسجود، وذكر المواضع التي يستحب فيها إيقاظ النائم وغير ذلك مما يأتي ذكره ٣٠٩
المجلس الرابع والستون: في ذكر كفارة المجامع عامدا في رمضان، وذكر كم خلق الله تعالى لكل شخص من بني آدم سنا، وذكر شيء من فضائل النبي ﷺ وذكر فوائد متعلقة بمن مات وعليه صوم ٣٣٥
المجلس الخامس والستون: في الكلام على ليلة القدر وعلى ذكر فضائلها، وما يتعلق بسورة القدر من الفوائد ٣٥٣